

المُفْسِدُ  
فِي  
تَارِخِ الْعَرَبِ قَبْلِ الْإِسْلَامِ

الدُّكْتُورُ جَبَّارُ عَلَى

الْجَزْرُ وَالشَّامُ



أفضل  
في  
تاريخ العرب قبل الإسلام

المُفْصِّل  
فِي  
تَارِخِ الْعَرَبِ قَبْلِ الْإِسْلَامِ

تأليف  
الدكتور جبار علی

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الثاني من



○ الطبعة الثانية ○

١٤١٣ - ١٩٩٣ م

## الفصل السادس عشر بعد المئة

### الفن الجاهلي

العارة :

لظهور الفن وازدهاره في مكان ما لا بد من توفر تربة خصبة فيه تموّنه بالمواد الأولية الازمة ، ولا بد من وجود جو يساعد على نمو بنوره وانمائها وازدهارها . وجزيرة العرب أرض كما نعلم غالب عليها الجفاف وتحكمت فيها أشعة الشمس الحرقة والسموم الحارة الجافة ، وهي ذات جو شرق صاف صاح في الغالب ، ولكنه جاف يابس ، لا تبكيه السماء في الغالب إلا بقدار ، فإذا سالت دموعه ، انهمرت أنهاها ، وتحولت إلى سيول جارفة عارمة سرعان ما تخفي وتزول ، بأن تغور في باطن الأرض ، وقد تنزل الأمطار نزولاً لا بأس به ، فتخضر الأرض وتنت الأزهار والأعشاب ، وتضحك ويضحك الناس معها ، وتهيج قرائحهم لفرحهم وطربهم من حصولهم على هذه النعم الكبرى ، التي لا تدوم طويلاً ، وهذا أمر يؤسف له ، أو قد لا تعود اليهم ثانية إلا بعد أجل ، لأنخباس البخار مولد المطر ، فيلنجا المخلوق إلى خالقه يتوصّل إليه أن يغيثه بإنزال الغيث عليه بكل الوسائل التي يتوصّل إليها عقله لاقناعه آلهته بإنزال المطر ليغاثي الإنسان والحيوان والنبات .

ولظهور العارة وفن النحت والزخرف ، لا بد من وجود أحجار صالحّة للبناء أو للنحت والمحفر ، حتى يكون في امكان المعمار أو النحات تحويلها إلى أبنية أو

أصنام وتماثيل أو ما شاكل ذلك . وأرض سهلة لا حجر طبيعي فيها لا يمكن أن يظهر فيها بناء أو فن إلا إذا كانت قرية من مواطن الحجر أو من مواطن الحضارة حيث تستوردها عندها من تلك الأماكن . لذا نجد الفن الجاهلي قد تركز والمحصر ويزد في العربية الغربية وفي العربية الجنوبية وفي الموضع القرية من مواضع الحجر ومن أهل المدر في الغالب .

وفي اليمن أنواع من الأحجار الصالحة للبناء وللتحت ، كما توفرت فيها ، المواد المساعدة الأخرى التي تدخل في إنشاء الم�ارات مثل الجبس . وهذا قات فيها بيوت مرتفعة ذات طوابق متعددة ، ولا يزال أهل اليمن وبعض أهل الموضع الأخرى من العربية الجنوبية يبنون البيوت والقصور المرتفعة السامة ، وما كان يرسعهم ذلك لولا وجود المواد الصالحة للبناء ، التي تستطيع البقاء ومقاومة الطبيعة أمداً<sup>١</sup> . وبفضل المواد المذكورة بقيت أبنية من أبنية الجاهليناليمنيين إلى الإسلام بقيت محافظة على نفسها وعلى شكلها العام ، ولو لا يد الإنسان التي لعبت بها وخربت أكثرها ليقيت أزمنة طويلة أخرى ولا شك . ولو كانت تلك الأبنية قد بنيت بالطابوق أو باللن وبالمواد المستعملة في البناء في وسط وفي جنوب العراق ، لما تمكنت من البقاء طويلاً ، لأنها مواد لا تحتمل معاركة الطبيعة زماناً طويلاً ، لذلك تنهار بسرعة إذا لم ترعاها يد الإنسان دوماً بالصلاح والتعمير<sup>٢</sup> .

وقد ساعدت وفرة الرخام والجحارة الصلدة في اليمن في التوعيض عن استعمال الخشب القوي الصلد في البناء فاستعمل المغارون الأعمدة العالية الجميلة ذوات الن ragazzi في رفع السقوف وفي إقامة الردهات الكبيرة وفي « الطارمات » أمام الأبنية ، وفي واجهات المعابد بصورة خاصة ، استعملوها بدلاً من الخشب الذي لا يتحمل الثقل كما يتحمله الحجر ، والذي لا يعمر طويلاً كما يعمر الحجر . وبفضل هذه الحجارة استطاع المغارون أن يستفيدوا من الماء بإقامة السدود القوية التي تحمل ضغط السيول العالي عليها ، وهذه ميزة لا تجد لها بالطبع في العراق .

وقد ساعدت طبيعة اليمن عامل البناء في نحت الحجر وقطعه وصقله وتكييفه بالشكل الذي يريد . ونتمكن بذلك من وضع أحجار مصقوله بعضها فوق بعض

---

A. Grohmann, S. 140.

١

A. Grohmann, S. 140.

٢

لتكون أعمدة منها أو جدر معدن أو حيطان سود أو قصور بحيث يوضع حجر فوق حجر ، فيجلس فوقه بصورة يصعب على الإنسان أن يتبنّى منها مواضع اتصال الحجر بعضه ببعض . ولو لا وجود الحجر الجيد لديه لما تمكن من القيام بإنشاء الأبنية الضخمة المؤلقة من جملة طوابق والتي قاومت الدهر ، ولكن بناوه من الطابوق ، أي من اللبن الذي حُجَّر بالنار ، والطابوق لا يمكن أن يقوم مقام الحجر في البناء ، ولا أن يقاوم الطبيعة وأن يعمر طويلاً . ونظراً لصغر حجمه بالنسبة إلى الحجر ، ولضرورة ربطه بعضه ببعض بمادة ماسكة مثل الجبس فإن البناء به لا يمكن أن يكون متيناً ، ولا يمكن أن يقاوم الرطوبة والعوامل الجوية الأخرى ، فبات كل ويتداعي ، ولا سيما في المواقع السهلة ذات الرطوبة ، أو التي تساقط عليها الأمطار بكثرة ، ف تكون سيلولاً عارمة تكتسح ما تجده أمامها من أبنية مبنية بمادة غير متينة متانة الحجر .

وفيمينا دراسة المباني اليمنية في الزمن الحاضر فائدة كبيرة في تكوين فكرة عن البناء عن أهل اليمن قبل الإسلام. ففي هذا البناء الذي نراه عناصر عديدة لا تزال حية باقية ، هي من بقايا البناء اليمني الجاهلي . وما قاله «الحمداني» في صفة بعض المباني والقصور الجاهلية التي كانت قائمة في أيامه ثم زالت ، ينطبق على أوصاف القصور والمباني القائمة الآن ، كما أن في دراسة أسماء أجزاء البناء وما يستعمل فيه فائدة كبيرة في حلّ كثير من المعضلات الفنية المتعلقة بفن العمارة عند الجاهليين .

وقد زال أكثر المباني الجاهلية ، وبها للأسف ، بسبب اعتداء الإنسان بجهله ، عليها . فقد حمله كسله وجهله على تدمير تلك الأبنية ، لاستعمال حجارتها في بناء بيوت جديدة ولأغراض أخرى . ونجد في الأبنية الحديثة ، وأكثرها أبنية رديئة قبيحة بالقياس إلى القصور القديمة ، حجارة ضخمة ، بعضها مكتوب كتابة كاملة انتزعت من الأبنية الجاهلية ، وببعضها ناقص الكتابة لتلف الكتابة المكملة أو لنقلها إلى موضع آخر . ونجد حجارة مكتوبة وقد طليت بالجبس ، لاعطاء الجدار الذي دخلت فيه وجهاً أملس . ونجد في الكتب القديمة مثل كتب الحمداني إشارات إلى مثل هذه الأعمال ، التي ما تزال جارية مستمرة بالرغم من قرار الحكومات المعنية بمنع هذه الأعمال . وقد حظمت تماثيل جميلة عثر عليها بين الرمال ولا تزال تحطم ، لأنها في نظر العازرين عليها أصنام لقوم كفرة ، وتماثيل قوم مسوخين

غضب الله عليهم ، فلا يجوز الاحتفاظ بها ، فهشمت وعيث بها ، وبذلك خسر العرب كنوزاً فنية وذخائر لا تقدر بثمن ، كان في وسعنا الاستفادة منها في تدوين تاريخ الجاهليين .

وقد حطمت ودمت قصور عظيمة في اليمن ، بقيت بعضها قائمة إلى الإسلام ، مثل قصر (غدان) بصنعاء ، الذي يبالغ أهل الأخبار في وصف ارتفاعه وضخامته ، وقد كان مؤلفاً من طبقات بعضها فوق بعض ، ثم هدم وقلَّ في الإسلام ، أمر الخليفة (عُمَان) بهدمه ، فزالت معالله ، ولو بقي إلى اليوم لكان من المفاجر<sup>١</sup> ، ومثل المعابد الضخمة ، وقصور الأسر الحاكمة ، مثل قصر (شهر) بني ريدان ، وأبنية أخرى قوشت لأسباب عديدة ، فضاع بذلك علينا ثراثهم . وفعل مثل ذلك في الأبنية الأخرى . ففي العراق مثلاً ، هدمت قصور الحيرة وبيوتها ، لأنها حجارتها مادة لبناء الكوفة ، و « وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر ، ان المسجد الجامع بالكوفة بني بعض نقض تلك القصور ، وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم »<sup>٢</sup> . وقد أضاعت علينا هذه الأعمال معلم قيمة من ثراث الجاهلين .

وقد هدم قصر (يهر) ( ذي يهر ) بيت حبس ، وهو أثر جاهلي مهم ، بقي قائماً إلى حوالي سنة (٢٩٥) للهجرة ، فأمر بإحرافه ( ابن أبي الملحف ) القرمطي ، فأحرق ، وظللت أخشابه تحترق أربعة أشهر على ما يزعمه الرواة ، مبالغة منهم بالطبع<sup>٣</sup> .

ولأهل اليمن عادات جميلة أفادتنا فائدة طيبة ، وذلك بوضعهم على الجدر حجارة مكتوبة تحمل اسم الدار أحياناً واسم صاحبها واسم الإله الذي تبرك صاحب المبنى بتقديمه إليه تيمناً به ، حتى الترميمات والاصلاحات التي يقوم بها أصحاب البناء تدون على هذه الحجارة ، ولا سيما الترميمات والاصلاحات التي تدخل على المعابد والمباني العامة ، تعين عليها بدقة تامة ، فيذكر الموضع الذي ابتدأ به والموضع الذي انتهى منه ، ويذكر مقدار ما صرف عليه في بعض الأحيان .

١ تاج العروس (٤٤٦/٢) ، (غمد) .  
٢ البلاذري ، فتوح البلدان (٢٨٤) .  
٣ الأكيل (١٢/١) (حاشية رقم ١) .

ومن هذه الكتابات أخذ معظم علمنا بتاريخ اليمن القديم .

ويظهر أن أهل الحجاز لم يكونوا على شاكلة أهل اليمن في بناء البيوت الصخمة من الحجارة والمواد البنائية الأخرى التي يعمّر بها البناء عمرًا طويلاً ، بدليل ما شاهده في اليمن وفي مواطن أخرى من الجزيرة العربية من بقايا معابد ومبانٍ ضخمة ، وعدم وجود شيء من ذلك في الحجاز ، وبدليل ما أورده أهل الأخبار من قصص عن مباني اليمن العادية ، وما شاهدوه من بقاياها في أيامهم هناك ، وهي تتحدث عن فن عمراني متقدم ، على حين خلت أخبارهم من هذا القصص عن الحجاز ، بل يظهر منها أن أكثر أبنية مكة وينرب لم تكن إلا أبنية صغيرة ضيقة، أكثرها من اللبن أو الطين ، وقد عرشت بجريد النخل وبالعيدان وبالأخشاب المحتطبة من التلال والجبال . وقد عرفت بيوت أهل الحاجة في مكة بـ (عروش مكة) <sup>١</sup> .

وقد امتازت (ينرب) عن مكة بوجود (الأطم) بها ، والأطم ، هي قصور تكون من طابقين في الغالب ، أو ثلاثة طوابق ، تكون صخمة نوعاً ما يعيش فيها سادتها ، وتكون حصوناً لأهل المدينة يتحصنون بها عند دنو خططر عليهم ، ويحمون أنماطهم بها . وقد بنيت بالآجر وباللن أحياناً ، وبالطين أحياناً أخرى ، حيث تجعل الجدر عريضة ، لتقف صامدة أمام الدهر وأمام المهاجمين ، وتتخذ في أعلى الأطم مواضع يقف عليها المدافعون لرشق المحاصر بالسهام ، أو بالحجارة ، وبصب الماء الحار أو النار عليه ان قرب من جدار الأطم . وقد انتبهت الأطم في يرب ، لعدم وجود سور حولها يحميها من الأعداء ، ولكونها مكشوفة ، لا تحميها حواجز طبيعية ، يتحصن بها أهل المدينة عند دنو الخططر منهم ، فلم يجدوا أمامهم من وسيلة سوى بناء هذه الأطم للدفاع عن أنفسهم ، على نحو ما فعل أهل الخبرة في مدinetهم ، حيث بنوا القصور .

وتوجد في أعلى يرب إلى فلسطين بقايا حصون وقصور ومواضع قديمة ، كانت آهلة عامرة ، أما الآن فلم تبق منها غير بقية من آثارها ، وهي لا تزال مادة (خامًا) لم تكتشف ، ولم تدخلها بعثات علمية منتظمة ، وتشاهد عندها بعض

---

١ المغارب (٣٧/٢) ، «عروش مكة ، بيوتها لأنها كانت عيadanًا تنصب ويطال عليها» ،  
شرح القاموس (٤/٣٢٢) .

أحجار مكتوبة ، بقلم مشتق من المستند ، وبلهجات عربية تختلف عن لهجة (ال) ، أي عن العربية التي نزل بها القرآن ، مما يدل على أنها كانت في الأصل لقبائل كانت لهجاتها لا هي عربية جنوبية ولا هي عربية من عربية أهل البوادي ، ولكنها كانت متأثرة بالثقافة التي تدون بالقلم المستند ، ثم تأثرت بلغة الأعراب الذين جاءوها من البوادي وذلك قبيل الإسلام ، فترت هذه الموضع ، وزاحت أهلها ، ثم غلبتهم على أمرهم ، فاختفت اللهجات العربية القديمة ، وحلت محلها لهجة (ال) . وسيجد المتقبون الذين سينقبون في المستقبل في هذه الموضع آثاراً متعدد لمهم الاتجاهات الثقافية والحضارية التي دخلت جزيرة العرب ، واللغات التي كانت سائدة فيها .

وفي المستند مصطلحات كثيرة خاصة بالبناء وبالآلات والمواد التي تستعمل فيه ، وفي أجزاء البناء . واللهجات العربية الجنوبية هي أغنى بمصطلحات البناء من العربية التي نزل بها القرآن الكريم . وذلك لأن أهل العربية الجنوبية كانوا حضراً في الغالب وأهل مدر ، حتى أن أعرابهم كانوا يقيمون في أكواخ وعشش ثابتة مستقرة . لهذا كثرت في لغتهم ألفاظ الحضارة التي تقوم على الإقامة والاستقرار . وظهرت عندهم ألفاظ لمواد تستعمل في البناء مثل أنواع الصخور والحجارة ، وكيفية قطعها ، وأنواع الخشب المستعمل فيه ، وآلات القطع أو آلات المهار وغير ذلك من مصطلحات لا نجد لها مثيلاً في هذه العربية التي نتكلم بها . وذلك لأن حضارة البناء التي ظهرت في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية للأسباب المذكورة لم يظهر ما يماثلها في الموضع الأخرى من جزيرة العرب ، حيث قام عمرانها على المدر بالنسبة للحضر . أي على الأبنية المتخذة من المدر أو من اللبن أو من الأجر . ومثل هذه الأبنية ، لا تحتاج إلى مصطلحات وإلى آلات كثيرة ، ولما كانت الحاجة هي أم الاختراع في اللغات ، لذلك قلت مصطلحات العمران في اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، بينما كثرت فيها مصطلحات أهل الوبر ومصطلحات البداوة ، في مثل أجزاء الخيمة وما يتعلق بحياة الفرس والجمل ، حيث قصرت دونها هنا لغة المستند .

وقد درس الآثاريون في الأيام المتأخرة موضوع الفن العربي الجنوبي ووضعوا بحوثاً فيه ، استندت على الملاحظات والدراسات التي قاموا بها في مواطن الآثار أو من ملاحظاتهم للقطع الأثرية وللصور التي أخذت لها . وقد وجد بعضهم مثل

الباحثة ( جاكلين بيرن ) Jacqueline Pirenne ، ان الحضارة العربية الجنوبيّة انا برزت وظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد ، برزت بتأثير الحضارة اليونانية — الفارسية عليها . وقد زعمت ان القلم العربي الجنوبي أخذ من القلم اليوناني في ابتداء القرن الخامس قبل الميلاد ، وان عناصر الحضارة العربية الجنوبيّة ، وخاصة الفن منها مثل النحت والمعمار ، قد غرفت من متأهل يوناني — فارسي . أما ما قبل هذا الوقت ، فلم يكن لشعوب الشرق الأدنى أيّ تأثير حضاري أو ثقافي على أهل العربية الجنوبيّة<sup>١</sup> .

وقد درست باحثة أخرى موضوع الفن العربي الجنوبي ، هي ( برتا سيكال ) Berta Segall . ذهب اجتهادها بها إلى أن هنالك مؤثرات حضارية خارجية أثرت على الحضارة العربية الجنوبيّة ، وأرجعت هذه المؤثرات إلى تأثير يوناني هيلليني ، وأثر سوري حني وأثر فينيقي وإلى عناصر حضارية أخرى . وذكرت أن هذه المؤثرات أثرت على الحضارة العربية الجنوبيّة ، وتولد من هذا المزيج الأجنبي والعربي حضارة العرب الجنوبيين<sup>٢</sup> .

لقد تبين من دراسة الفخار الذي عثر عليه في العربية الجنوبيّة انه من صنع محلي ومن تصميم محلي أيضاً . وقد تبين أيضاً انه لا يخلو مع ذلك من المؤثرات الأجنبية التي أثرت عليه ، ولا سيما على المظاهر الخارجي للفخار في مثل الزخرفة والشكل . فقد أثر الفخار العراقي والسوري على الفخار العربي الجنوبي . ويظهر من الفخار الذي عثر عليه في ( هجر بن حيد ) ، انه قد تأثر بمؤثرات شمالية سوريّة وعراقيّة<sup>٣</sup> .

وتقدمت معارفنا بعض التقدم بالنسبة للفن المعماري عند العرب الجنوبيين . وتوجد

Jacqueline Pirenne, *La Grèce et Sabe*, Paris, 1955, *The Bible and the Ancient Near East*, by G. E. Wright, p. 313, 319.

١

Berta Segall, *Sculpture from Arabia Felix*, American Journal of Archaeology, 59, 1955, p. 207., *Ars Orientalis*, II, 1957, p. 37, Promlems of Copy and Adaptation in the second quarter of the First Millennium B.C., American Journal of Archaeology, 60, 1956, p. 165, *The Lion Riders from Timna*, in *Archaeological Discoveries in South Arabia*, p. 155, *The Bible and the Ancient Near East*, p. 319.

٢

The Bible and the Ancient Near East, p. 320, Belletin of the American Schools of Oriental Research, 172, 1963, p. 55.

٣

لدينا فكرة عامة عن فن هندسة المعابد ، أخذناها من فحص معابد ( حقه ) و ( مأرب ) و ( نمنع ) و ( حريضة ) و ( خور دوري ) . وتقدمت معارفنا أيضاً في موضوع أبنية المقابر والأضرحة عند الجاهليين ، وكذلك عن هندسة بيروت . وقد وجد أيضًا أن الفن المعماري قد تأثر بمؤثرات خارجية كذلك . بمؤثرات عراقية وسورية وفييقية ويونانية ومصرية <sup>١</sup> .

ويظهر الأثر اليوناني على سك العملة عند العرب الجنوبيين . فقد ضرب النقد على شاكلة النقد اليوناني ، لا يختلف عنه إلا في وجود الحروف العربية الجنوبيه على ذلك النقد . فالنقد العربي الجنوبي ، هو تقليد ومحاكاة للنقد اليوناني ، الذي ظهر في أيام ( البطالمة ) و ( السلوقيين ) ، وبكاد يكون قالباً لها ، أضيفت عليه حروف المسند . فالبومة التي تمثل ( أثينا ) ، والتي كانت تضرب على العملة اليونانية ، ضربت على النقد العربي الجنوبي ، إلى غير ذلك من أمور بحث عنها علماء ( النساء ) .

ولكننا لا نستطيع أن نقول اليوم إن معارفنا عن الحضارة العربية الجنوبيه قد تقدمت تقدماً مرضياً ، وإنها صارت واضحة مفهومه ، وسوف تبقى معارفنا عن هذه الناحية وعن التراثي الأخرى ناقصة ما دامت أكثر الآثار مدفونة تحت طبقات كثيفة من التربة لم تلمسها الأيدي حتى الآن . لقد تقدمت معارفنا عن هذه التراثي على نحو ما ذكرت بسبب قيام بعض الباحثين المحدثين بالتنقيب في بعض المواضع بصورة جدية علمية وبشيء من التعمق في باطن الأرض ، ويمكن أن نتصور ما سيحصل عليه الباحثون من معلومات عن الجahلية لو سمح لهم في التنقيب بأسلوب جدي علمي في باطن الأرض وفي مواطن الآثار .

استعمل اللحبيانيون لفظة ( بني ) ( بنا ) للتعبير عن بناء شيء . وذلك كما نفعل نحن في عربتنا . وتشمل اللفظة بناء كل الأبنية ، من بناء بيت أو قبور أو غير ذلك . وقد وردت في عدد من النصوص <sup>٢</sup> .

ويعبر عن المبني بالتعبير نفسه في العribيات الجنوبيه ، فيقال ( مبني ) . وإذا

1 The Bible and the Ancient Near East, p. 320.

2 راجع النصوص ١٦ ، ٢٦ ، ٧٤ ، ٩٠ من كتاب : W. Caskel, S. 133.

أريد التعبير عن تقديم البناء إلى إله أو جماعة ، كان يسمى باسم الإلة ويخبس عليه ، فيعبر عن ذلك بلفظة (قتدم) أي قدم بهذا المعنى المفهوم منها في عربتنا، وبمعنى أهلي<sup>١</sup> . وأما الفعل فهو (بني) ، وذلك كما في هذه الجملة : « عسى وبني »<sup>٢</sup> ، أي « تملك وبني » . و (بني) ، وذلك كما في هذه الجملة : « هبنا عقبهن قلت »<sup>٣</sup> ، أي « بني قلعة قلت » . ويراد بـ (عقبت) (عقبة) القلعة . وللفظة علاقة بكلمة (عقبة) التي تستعملها نحن بمعنى صعوبة وعائق ، ونجدها على (عقبات) .

واستعمل البحريانيون لفظة (حفر) بمعنى المفهوم من اللقطة في عربتنا . استعملت لكل أنواع الحفر : حفر الأسس أو الآبار أو العيون ، أو الحفر على الأحجار والخشب ، لغرض التقش والرخفة ، أو لأي هدف آخر<sup>٤</sup> .

ويشق المغاربة أسساً في الأرض للأبنية الفخمة ، كالبيوت المؤلفة من طبقات عدة كالمعايد ، لتحمل الأرض نقل البناء . ويتختلف عمق الأساس وعرضه باختلاف سمك الجدار ونقل البناء . ويحفر العمال الأرض بالقدر الذي يعينه البناء ، حتى إذا ما بلغوا العمق المقرر ، وضعوا المواد الازمة كالمجاري أو الكلس المخلوط بمواد أخرى ، ثم يترك الأساس مدة حتى يجف ويستقر ، ثم يقام عليه الجدار . ويقال لهذا الأساس في العربيات الجنوبية (موثر)، وهي بمعنى (الأسس) والأساس والأسس في عربية القرآن الكريم<sup>٥</sup> .

وقد ورد في كتب اللغة ، (والوثير) : الفراش الواطيء ، وكذلك الوثير كل شيء جلست عليه أو نمت عليه فوجدهه وطينا ، فهو وثير<sup>٦</sup> .

وتؤدي لفظة (مبخر) معنى : (أساس) وسناد . فـ (مبخر) كل بناء هو أساسه وسناده في لغة السبعين<sup>٧</sup> .

١ راجع السطر الاول من النص الموسوم بـ : ثقب الحجر .

٢ راجع النص الموسوم بـ Glaser 1089, Halevy 208. وهو من معين

٣ الجملة الثانية من نص أبنة ، Rhodokanakis, Stud., II, S. 48.

٤ راجع النص ٦١ من كتاب : W. Caskel, S. 133.

٥ شرح القاموس (٩٦/٤) ، ابن سلام ، كتاب الاجناس من كلام العرب (ص ١٣) .

٦ تاج العروس (٥٩٨/٣) .

٧ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 439.

وترد لفظة (برا) بمعنى بني وأنشأ وأقام وشقّ وما شابه ذلك<sup>١</sup>. وترد بعدها لفظة : ( هشر ) في الغالب . ومن هذا الأصل لفظة : ( مبرام ) ( مبرا ) بمعنى برمي من الدين ، وبراءة اللمة<sup>٢</sup> . وترد لفظة (برا) في كتب اللغة بمعنى الخلق . و ( البرية ) : الخلق ، وأصله المهن ، والجمع البرايا والبريات . والبرى: التراب<sup>٣</sup> .

ولما ( هشر ) فعنها أكمل الشيء ، وانتهى منه ، وأتمه وغطاه وسراه . وهي من أصل : ( شقر ) ، وترد من هذا الأصل لفظة (تشقر) و (شقرم) ، بمعنى الأعلى والنهاية ، وذلك كما في هذه الجملة : « بتوربم اد شقرم »<sup>٤</sup> ، أي من الأساس إلى الأعلى ، أو إلى النهاية . و ( رب ) معناها الأساس<sup>٥</sup> . أما أعلى البناء ونهايته ، أي تاجه الذي ينتهي عنده ، فيقال له ( تفرع ) . و ( تفرع ) نهاية الجدار وأعلاه ، والمكان الذي ينتهي فيه<sup>٦</sup> .

ومن العبارات الواردة في بعض النصوص المتعلقة بالبناء ، هذه العبارة : ( بن مؤثر هو عدي مرعن ) ، وهي في معنى العبارة : ( بن أشرس عد شقرن ) التي ترد في النصوص المعينة ، ومعناها من ( الأساس إلى أعلى)<sup>٧</sup> . فلفظة ( مؤثر ) وكذلك لفظة ( أشرس ) هما بمعنى الأساس أي أساس البناء ، و (عد) حرف جزء بمعنى إلى ، و ( مرعن ) و ( شقرن ) كلاماً بمعنى أعلى ، أي أعلى البناء .

ويقال لتعلية البناء ( تعل ) . أما تقوية البناء والجدر وحمايتها من السقوط ، فيعبر عنه بـ ( تصور ) ، من أصل ( صور ) ومعناها وضع أوئلة وأعدة عند

Rhodokanakis, Stud., II, S. 87.

١ المصدر نفسه ( ص ٤٧ حاشية ٤٢ ) .

٢ hodokanakis, Bodenwirtschaft, S. 24.

٣ شرح القاموس ( ٣٦/١٠ ) .

٤ الفقرة الخامسة من نص ابنية .

Rhodokanakis, Stud., II, S. 486.

٥ مجلة المجمع العلمي العراقي ، ( المجلد الرابع ، الجزء الأول ) ، ( ١٩٥٦ ) ، ( ص ٢٠٧ ) .

٦ السطر ١٠٣ من نص أبرمة ،

Mordtmann und mittwoch, Sab. Inschr., S. 45. 1.

٧ Sab. Denkma., S. 31, CIH 325.

Mordtmann und mittwoch, Alt. Inschr., S. 25.

الجدار أو البناء للتقوية والإحكام<sup>١</sup> . وهي بذلك قريبة من معنى (الظثر) في لغة القرآن الكريم .

ويعبر عن إتمام بناء ما أو إكمال شيء آخر بلفظة (تفه) و (قه)، بمعنى (وقة) أي أكمل وأنجز . وهي مرادفة للفظة : (تفرع) ، وللفظة (هوب) أيضاً . وكلها بمعنى الإنجاز والإكمال والانتهاء من عمل ما . ولفظة (قه) هي من أصل (وقة) . وتعني جملة : (إنقه عن) انتهى<sup>٢</sup> . وقد ذهب (رودوكاناكس) إلى أن لفظة (وكن) هي بهذا المعنى أي أكمل وأنجز في بعض الأحيان<sup>٣</sup> .

ويعبر عن اصلاح البناء وترميمه بلفظة (هحدث) ، وهي فعل ماضٍ أي (أحدث) ، ومعناها إقام ورم وأحدث وأنشأ . أما سقوط حائط أو سقف أو ما شابه ذلك ، فيعبر عنه بلفظة (تل) و (تلت) ، ومن هنا الأصل لفظة (تلوا) ، أي انحراف والتلال ، وتقابلا لها لفظة (خيل) في المعينة ، و (ذخبل)<sup>٤</sup> ، أي تداعي وسقوط ووقوع .

وفي معنى الاصلاح والترميم أيضاً لفظة (غوث) الواردۃ في الكتابات المعينة<sup>٥</sup> . وقريب من هذا المعنى معنى (غوث) في لغة القرآن الكريم ، ففي الإغاثة معنى المساعدة والاصلاح وترميم التصدع وإصلاحه .

وتترد مع هذه اللفظة لفظة أخرى ، هي (سعذب) ، وهي فعل ماضٍ بمعنى أعاد وأرجع الشيء إلى ما كان عليه<sup>٦</sup> ، من أصل (عذب) . وأما حرف السين الداخل على أول اللفظة فإنه في مقام حرف الماء في السبيمة ، يدخلان على المصدر فيحولانه إلى فعل ماضٍ .

ويقال لما قدم كل بناء (صلتون) (الصلة)<sup>٧</sup> . وقد وردت اللفظة في كتابات

١ راجع النص الموسوم بـ : Glaser 1150, Halevy 192, 199.  
وكذلك : Rhodokanakis, Stud., II, S. 54.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 46.

٣ المصدر نفسه (ص ٤٧) .

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

٥ Rاجع النص : Glaser 1144, Halevy 353,

٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, 31.

٧ Rhodokanakis, Stud., II, S. 31.

Rhodokanakis, Stud., II, S. 31.

دونت لمناسبة إقامة سود كذلك . ووردت في بعض الكتابات هذه الجملة : (بن ذات هورتن عدي صلوات بن ذات حرم من وميسان)<sup>١</sup> ، ومعناها : « من هذه الجهة الخلفية إلى الجهة الأمامية أو الصالة الأمامية بين هذا الحرم ومقد النار » .

ويقال للجهة الخلفية من البناء (هورتن) . من أصل : (ورت) ، بمعنى وراء . و (وره) في لغة أهل العراق ، وذلك كما نرى في هذا النص . وترتدي لفظة (صلوت) معنى (فتاء) أيضاً ، وقد تؤدي معنى موضع منعزل أو مكان للصلة . وقد يراد به فتاء يؤودي إلى (مبسل) يقع مقابلة تماماً<sup>٢</sup> . وللفظة (صلوتن) (صللت) (صلوت) معنى آخر بعيد عن هذا المعنى بعدها كبيراً ، هو (وثيقة) و (شهادة) و (عقد) ، فتكون في معنى (سم) و (اسمع) التي تطلق على هذا المعنى أيضاً في العribيات الجنوية<sup>٣</sup> .

ويقال للباب (خلف) و (خلفتن) في السبيئة . ويتراد بـ (خلف) و (خلفن) (الخلف) الشباك كذلك<sup>٤</sup> . وقد كان أصحاب القصور يستعملون الشبائك كثيراً في قصورهم ، ويزينونها بالرخام الرقيق وبالزخارف لظهور جميلة خلابة . ويقصد بـ (خلف) و (خلفتن) المنافذ الخلفية كذلك .

وتكون الأبواب من (مشرع) ، أو من (مصرعي) ، ويراد بذلك (مشرع) واحد أو مصراعان<sup>٥</sup> .

ويعبر عن الباب بـ (الخلف) في عربيتنا كذلك<sup>٦</sup> . وأما لفظة (مشرع الباب) و (المشرع) و (مشرع الباب) فمعروفة في عربيتنا كذلك<sup>٧</sup> .

ويعبر عن الباب العظيم ، أو الباب المغلق وفيه باب صغير : أو عما يغلق به

Rhodokanakis, Stud., II, S. 45.

١

Rhodokanakis, Stud., II, S. 46.

٢

Rhodokanakis, Stud., II, S. 44, Der Grundsatz der affentlichkeit, S. 21, 24,

٣

Stud., I, S. 63.

٤

Rhodokanakis, Stud., I, S. 70. والجملة الرابعة من نص أدبته .

٥

راجع الجملة الثانية من النص : Glaser 1144, Halevy 353.

٦

اللسان (٩٣/٩) .

٧

اللسان (١٩٩/٨) .

الباب بلفظة ( رتاج ) ( رتاج ) في اللحيانية<sup>١</sup> . ولفظة ( رتاج ) لفظة معروفة في عربيتنا كذلك .

ويعبر عن السلام والدرجات بلفظة ( احلين ) ، تطلق على السلام من آية مادة مصنوعة ، من الحجر أو الخشب<sup>٢</sup> ، كما يعبر عنها بلفظة ( علوم ) و ( علوه ) أيضاً ، لأنها طريق يؤدي إلى أعلى<sup>٣</sup> .

ولفظة ( علية ) ، والجمع ( علالي ) ، هي عند أهل المجاز بمعنى غرفة أيضاً ، والجمع ( غرف ) و ( غرفات ) . وقد وردت لفظة ( غرف ) و ( غرفات ) في القرآن الكريم<sup>٤</sup> .

ويعبر عن السقف وسطح البناء بلفظة ( ظلن ) و ( ظلل ) أي ( الظلة )<sup>٥</sup> و ( الظل ) . وذلك لاستظلال الإنسان بالسقوف وحمايتها للبيوت والغرف من وهج الشمس .

ويعبر عن الشيء المنسقوف مثل ذي سقف أو ما شابه ذلك بلفظة ( مسقفن )<sup>٦</sup> ، أي ( المسقف ) ، من أصل ( سقف )<sup>٧</sup> . ووردت لفظة ( مسقف ) بمعنى الموضع المنسقوف<sup>٨</sup> .

ويعرف المكان الذي ينفذ منه النور إلى مكان ما ( مصباح ) في الحضرمية . ويمكن أن نقرأها ( مصباح ) كذلك . فالمصباح الكوة أو النافذة التي ينفذ منها النور إلى مكان ما . والنور هو ( صبحت ) في الحضرمية ، وذلك كما ورد في هذه الجملة : ( صبحت عينو )<sup>٩</sup> ، أي ( نور عينه )<sup>١٠</sup> .

١. النص رقم ٢٢ و ٨٥ من كتاب : W. Caskel, S. 134.

٢. راجع الجملة الرابعة من النص :

Glaser 1144, Halevy 353, Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, Glaser 283, Halevy

238.

Rhodokanakis, Stud., S. 47.

٣. البيان ( ١٩/١ ) « لجنة » .

٤. Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, 30, 54.

CIH, 182.

٥. Mordmann, Himj. Inschr., S. 36.

Glaser, 799, CIH 132, Rhodokanakis, Stud., II, S. 34.

٦. Osiander 29.

٧. Rhodokanakis, Stud., II, S. 28.

٨. ٩. ١٠.

وأما الموضع الذي ينحدر التور إليه ، ويستقر فيه ، وقد يكون مسقفاً وربما لا يكون مسقفاً ، فيقال له ( منحل )<sup>١</sup> . وعلى هذا المنحل يكون المصباح أي المنفذ الذي ينحدر التور منه<sup>٢</sup> .

ويعبّر عن الجدار والسور بلفظة ( جنا ) في لغة المسند<sup>٣</sup> .

وقد فسر بعض علماء العribيات الجنوبية لفظة ( بره ) بمعنى مجاز<sup>٤</sup> . ومن هذا الأصل أخذت الكلمة ( ابرى )<sup>٥</sup> ، ولعلها تؤدي بمعنى خارج كذلك .

وترد لفظة ( أدرف ) في مصطلحات البناء كذلك<sup>٦</sup> ، وتعني طرف البناء ، وطرف كل شيء . وقد استعملت للتعبير عن تمثيلين جانب القلعة أو الحصن مثلاً ، أو تمثيلين جوانب وأطراف برج ما<sup>٧</sup> .

ويعرف مقدم البناء أو مقدم أي شيء بـ ( قدم ) وبـ ( انف ) . أما الجهة المضادة للمقدمة فيقال لها ( معتدر ) ، فعذر أي بناء أو أي شيء هو الجهة الخلفية للذلك البناء أو لذلك الشيء ، كما تطلق هذه اللفظة على الأسوار الخلفية للمدينة<sup>٨</sup> .

ويقال للطابق الأعلى من البناء ( علوه ) ( علوه )<sup>٩</sup> ، و ( علين ) ( عليان ) ، لعلوه بالقياس إلى الطابق الذي تحته . أما الطابق الأسفل ، فيقال له ( سفله ) ( سفله )<sup>١٠</sup> .

ويقال للبيت إذا كان فوق البيت ( عليه ) والجمع ( علالي ) . وتقابل لفظة ( عليه ) لفظة ( غرفة ) والجمع ( غرف ) و ( غرفات ) . والغرفة علية من

١ راجع الجملة الثانية من النص : Glaser 1089, 1660, Halevy 208.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

٣ راجع أيضاً الجملة الثالثة من نص أدنة .

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.

٥ المصدر نفسه .

٦ Müller, in DMG., 37, 383, Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.

٧ CIH, 197, Glaser 181, Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.

٨ Rhodokanakis, Stud., II, S. 64.

٩ راجع النص الموسوم بـ : CIH 325, Rhodokanakis, Stud., II, S. 46 f.

١٠ المورد نفسه .

البناء . وسميت منازل الجنة ( غرفاً )<sup>١</sup> .

ويعبّر عن العمل الفني المتقن بلفظة ( نكل ) ، ومن هذا الأصل لفظة ( نكلو ) و ( نكلتو ) في الأشورية<sup>٢</sup> .

وقد كان أصحاب الأبنية يذكرون المواد التي استخدموها في الأبنية بكل تفصيل لا يكتفون بذكر أسماء المواد حسب ، بل يذكرون حتى صفاتها . فإذا كان الحجر غير مهندس ولا مصقول ذكروه ، وإذا كان مصقولاً ومهندساً ومقطوعاً عروا عن ذلك بلفظة ( تقرم )<sup>٣</sup> .

ويقال للحجارة الحادة أو المتساء ( زلت ) ، وهي تقابل لفظة ( زِلَّة ) في لهجتنا<sup>٤</sup> وهي يعني أرض ذات حجارة متساء أو حادة في اللهجتين المعينة والبسجية كذلك ، وتعني لفظة ( صلال ) ألواحاً من الحجر في اللهجة الحضرمية . وأما الجمع فهو ( ازلت )<sup>٥</sup> .

وتؤدي لفظة ( زلت ) معنى سيلان الزفت أو القار على أرض ما كأرض غرفة مثلاً أو أرض شارع أو حمام لتبيط الأرض بهذه المواد . وذلك كما يفهم من هذه الجملة : ( زلت أو سطحهس ) أي ( وزفت أو وقير الأوسط ) ، ويراد بالأوسط وسط الأشياء أو الشيء<sup>٦</sup> .

ويقال للحجارة المكسرة الناتجة عن تكسير الأحجار الأخرى أو عن القلع ( جرم ) ( جرب ) . ويراد بها الحجارة المقطوعة أيضاً . وتوضع هذه الحجارة في أماكنها على نحو ما قلعت من المقلع ، فلا تصقل ، ولا تمسها آلات الصقل . أما الحجارة المقلوعة التي تصقلها الأيدي وتتقحها ، فتعرف بـ ( منهاهم ) ( منهامة ) . وتبيّن هذه الحجارة مع الحجارة الأخرى ، وتوضع بينها مواد البناء التي تلزم تلك الحجارة . والعادة هي أن توضع الحجارة المصقوله المعمولة المهندسة

١ البيان والتبيين ( ١٩/١ ) « الجنة » ، المفردات ( ص ٣٦٥ ) .

٢ Rhodokanakis, Stud., I, S. 26.

٣ راجع الجملة الثانية من النص الموسوم بـ : Glaser, 1089, 1660, Halevy 208.

٤ CIH, II, p. 23, Rhodokanakis, Stud., II, S. 35.

٥ راجع الجملة الثالثة من النص : Glaser 144, Halevy 353.

٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.

في جبهة الجدار لتكسبه منظراً جميلاً حسناً ، توضع وراءها الحجارة الأخرى المقطوعة ، وذلك لأن صقل جميع الحجارة التي تدخل في البناء يستنفذ وقتاً كبيراً كما يكلف ثمناً باهظاً . ويضع المهار الحجارة بالطبع وضعاً متناسباً بحيث لا تكون مرتفعة أو منخفضة وتملاً الفرج ومواضع اتصال الحجارة بمواد البناء التي تلزمها وتنسكه بين الحجارة<sup>١</sup> .

وقد توضع الحجارة لـ (جرب) على شكل طبقة واحدة في الجدار أو على هيئة طبقات وصفوف للزينة . ونجد هذه الطريقة في أبنية الحبشة كذلك<sup>٢</sup> .

ومن هذا الأصل جاءت لفظة ( جربة ) و ( جروب ) بمعنى المدرجات التي يضعها الفلاحون على الجبل ، وذلك لزرعها بأنواع المزروعات ، ولا سيما الكروم<sup>٣</sup> . وكذلك الأسوار التي تحيط بالبساتين .

وهناك من يرى أن ( منهمم ) من ( منهمت ) ( منهمة ) تعني على العكس الحجارة المقلوبة غير المقصولة . و ( حجر منهوم ) بمعنى مقطوع غير مقصول<sup>٤</sup> . وهناك لفظة أخرى تطلق على الحجارة المتحوّلة المهندسة باليد هي ( تقرم ) من أصل ( تقر )<sup>٥</sup> . وهناك نوع آخر من العجر يقال له ( بلق )<sup>٦</sup> . وقد ذكر علامة اللغة أن ( البلق ) الرخام وحجارة باليمن تضيء ما وراءها كالزجاج<sup>٧</sup> .

ويعبّر عن قطع الحجارة من الصخر وعن صقلها لجعلها صالحة للبناء ، بلفظة ( اثن ) في اللحبيانية<sup>٨</sup> . وأرض اللحبيانيين أرض صلدة صخرية ، لذلك استخرج اللحبيانيون حجر أبنائهم منها فبنوا بها بيوتهم ، كما نحتوا الصخور وجعلوها على هيئة كهوف لكي تكون ملاجيء لهم .

Rhodokanakis, Stud., II, S. 43. ١

Rhodokanakis, Stud., II, S. 44. ٢

Rhodokanakis, Stud., II, S. 43, SE 48, 92, Ryckmans 340, BASOR, Nu. 83, ٣  
1961, p. 24.

Glaser Zwei Inschriften, 47, Rhodokanakis, Stud., II, S. 47. ٤

Rhodokanakis, Stud., II, S. 54, 63. ٥

المصدر نفسه ( ص ٦٤ ) . ٦

شرح القاموس ( ٢٩٨/٦ ) . ٧

W. Caskel, S. 110. ٨  
النص ٧٢ من كتاب :

ويعبّر عن تكسير الصخور وثقبها وعمل خرق بها بلفظة (جوين) ، وتعني (الجوب) . والجوب هو عمل نقب في الحجر ، أو عمر . وأما لفظة (جوب) فجمع (جوبة) ، ويراد بها الفراغ بين شيئاً<sup>١</sup> .

ويُستعان بقوس ومطارق في تكسير الحجارة وهندستها واصلاحها لتنفذ الشكل المطلوب . فتستخدم المطارق التقيلة في كسر الحجارة . وتكون ذات رؤوس مختلفة الأشكال تناسب المهمة التي تؤدي بها . وستعمل القوس في هندسة جوانب الحجارة وصقلها ، وهي ذات أشكال مختلفة كذلك ، منها ذات رأس حاد ثابت يتصل بقاعدة عريضة وتستخدم في تقرير الحجارة ، ومنها ذات رأسين حادين عريضين ، ولهما خصر في الوسط وتستخدم في شذب أطراف الحجارة وصقلها . ولا تزال هذه المطارق والقوس مستعملة في مثل الأعمال التي قام بها الجاهليون .

ويعبّر عن تزيين الماء وزخرفته بالحجارة أو بالأختشاب التي يوضع بين حجر الجدار وطابوقه بحيث تبرز للعيان وتتوسع في أبعاد متناسقة ، يعبّر عن ذلك بلفظة (موسم) . ومن هنا لفظة (سم) التي تعني التزيين والتزويق أيضاً<sup>٢</sup> . فلفظة (موسم) تعني الزخرفة والنقوش في البناء<sup>٣</sup> .

وأما الحجارة المصنوعة وما يقال له (طابوق) في العراق ، أي الحجارة المكونة من الطين المشوي ، فيقال لها (لبن) (لبم) (لبت)<sup>٤</sup> . ويراد بها اللبن كذلك أي الطين المجفف . وعادة مزج الحجارة المصنوعة أي الطابوق بالحجارة الطبيعية المقلوقة سواء أكانت مصقوله أم غير مصقوله هي عادة معروفة في البناء في الشرق<sup>٥</sup> .

وأما اللبن ، أي الطين المجفف بالهواء وبأشعة الشمس والمصنوع بقوالب ولكنه لم يوضع في النار لإحراقه ، فيقال له : (لبن) أيضاً . وقد ورد (لبن شمس) أيضاً<sup>٦</sup> . ويطلق العبرانيون لفظة لبنة على اللبن ، وعلى الطابوق أي اللبن المفخور بال النار .

<sup>١</sup> Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

<sup>٢</sup> Rhodokanakis, Stud., II, S. 63.

<sup>٣</sup> المصدر نفسه (ص ٦٤) .

<sup>٤</sup> راجع النص الموسوم بـ: CIH 325, Sab. Denkm., 31.

<sup>٥</sup> Rhodokanakis, Stud., II, S. 43, 54.

<sup>٦</sup> راجع الجملة الخامسة من النص ، Hommel, Aufs. und abh., S. 167, anm. 5.

وقد عُثِرَ المتبقيون على لَبْن جاهلي في أماكن متعددة من جزيرة العرب . وقد كان أهل الحجاز يستعملونه في أبنائهم ، لم يتفردوا بالطبع في ذلك وحدهم ، بل كان يفعل ذلك كل الجاهليين ، وقد بني مسجد الرسول باللَّبْن . وكان الرسول ينقله مع الناقلين وهو مختلف الحجم . بعضه واسع ثخين ، وبعضه متوسط أو صغير . ويكثر استعماله في الأماكن التي تقل فيها الحجارة ، وتتقلب على طبيعة أرضها التربة الطينية ، فيكون من السهل على أهلها إقامة أبنائهم باللَّبْن بارتفاعات مختلفة تبعاً ل漫انة البناء ورغبة صاحب البناء في الارتفاع . وقد عُثِرَ على آثار قلاع وحصون وأسوار بُنيت باللَّبْن . ويمكن ملئ هذه الأبنية البقاء مدة طويلة ، بخلاف أجواء الشرق الأوسط وقلة الأمطار فيه ، ولا سيما إذا كانت ذات أسس وقواعد وجدر ثخينة وفي أماكن جافة بعيدة عن رطوبة الأرض .

أما الطابوق ، أي الأجر ، فيتكون من طبخ اللَّبْن في الكورة أي الأتون ، أو بتكميس اللَّبْن طبقات وصفوفاً ، ووضع الوقود بينها ، فإذا اشتعلت النار يصلد اللَّبْن ويُشوى فيكون آجراً . وطريقة صنع الأجر يحرق اللَّبْن في الأتون ، لا تزال شائعة معروفة في جزيرة العرب . وهي طريقة صنع الطابوق عند الفراعنة والسمريين والأشوريين والبابليين وغيرهم من الشعوب .

ولم يكن في استطاعة القبر بناء بيته باللَّبْن أو بالطابوق ، بل كان يشيد بيته بنفسه بالطين ، فيقيم جدره بالطين طبقة طبقة ، إذا جفت طبقة وضع فوقها طبقة أخرى ، وهكذا ، ويُسقِّف بيته بالأغصان ، ويُسْعِف التخل ، ويوضع فوقها طبقة من الطين لتختفف عنه وهج الحر في أيام الصيف ، وتمنع عنه سقوط المطر عليه عند نزوله . أما الأعرابي فلم يكن له بيت دائم ، لا من الأجر ولا من اللَّبْن ، بل كان بيته خيمة تتنقل معه حيث يشاء ، يستظل بها وينام تحتها ، فهي بيته الحقيقي .

ويقوى الطين الذي يصنع منه اللَّبْن أو تقام به جدر البيوت أو تُفرش به سقوف البيوت باللَّبْن ، مخلط بقدار مناسب منه بالتراب ، ثم يتعجن الخليط ويترك مدة حتى يختمر ، ثم يستعمل عندئذ ، فيكون أقوى وأدوم بقاءً من اللَّبْن أو الطوف المصنوعين من التراب الصرف . وهذه الطريقة معروفة أيضاً عند العراقيين والمصريين وعند غيرهم من الشعوب في العهود القديمة ولا تزال مستعملة عند

حَفَدَتْهُمْ . ويعرف البن بـ (بن teben) عند العبرانيين<sup>١</sup> .

وتطين جدر البيوت الفقيرة والريفية بالطنين ، وذلك لتكون ملائمة من الثقوب . ويستعمل الطيبانون آلة تسمى المساجة . ويدرك علماء اللغة أنها يمانية ، وأنها خشبة يطين بها ، وهي الملاجة بالفارسية . ويعبّر عن تطين الحائط بلفظة وسج ، وذلك اذا مسح الحائط بالطنين الرقيق . وقد ذكر علماء اللغة أن السجحة والمساجة صيغتان<sup>٢</sup> .

ويقال للحجارة المربعة ، سواء أكانت مقلوبة أم مصنوعة ، (ربعم) (ربعت) (ربعة) أي (مربعة)<sup>٣</sup> . وهي تدخل في البناء إما مستقلة ، وإما مع أنواع أخرى من الطابوق والحجارة . وقد توضع على مسافات وأبعاد متناسبة ومتناصفة ، ليكونن نوعاً من أنواع الزخرف في الجدر . وقد ذكر (الحمداني) في صدد ذلك هذه الجملة: «المكعب وذلك بكماب خارجة في معارض حجارته على هيئة الدروق الصغار»<sup>٤</sup> . وهذا النوع من الزخرفة معروف في اليمن . أما في الحبشة ، فقد كانوا يضعون حجارة منحوته على هيئة رؤوس قردة للزينة<sup>٥</sup> .

ويعبّر عن إدخال الحجارة بين حجارة أخرى للزينة أو الزخرفة أو ملء الفراغ بين جبهتي جدار بحجارة صغيرة لسد الفراغات (ولج) . أما (موبلج) (مولج) ، فتعني الموضع الذي وضع ت ذلك الحجارة فيه<sup>٦</sup> . والإلأج هو إدخال شيء في شيء<sup>٧</sup> .

وأما الحفر على الحجر أو الجدار ، بقصد التزيين والزخرفة ، فيعبّر عنه بلفظة (فتح) ، وتقابيل بلفظة (باتاخو Patahu) . والحفر والنقش العميق على الحجارة والطابوق من مذاهب التزيين المتبعة في الشرق حتى الآن . وقد ذهب (رودوكاناكس) إلى أنها تعني معنى (ولج) كذلك ، أي ادخال الحجارة المحفورة والمنقوشة والمنحوته بين حجارة جدار ما مثلاً للتزيين والتزوين<sup>٨</sup> .

Smith, Vol., III, p. 1386.

١

شرح القاموس (٥٦/٢) .

٢

CIH 325.

٣

« Müller (٨٠) » طبعة

٤

Rhodokanakis, Stud., II, S. 44.

٥

Rhodokanakis, Stud., II, S. 43.

٦

Rhodokanakis, Stud., II, S. 43.

٧

وتؤدي لفظة : ( فلزتم ) ( فلت ) ( فلزة ) ، معنى : أبعاد وطريق جانبي واحلاء وحفر ونقب . وقد أريد بها عمل ثقب في جدار في بعض الكتابات<sup>١</sup> . وكان من عادة أهل اليمن صهر الرصاص وصبه بين حجارة الأعمدة وفي أسسها ، وذلك لربطها وتقويتها ، ويقال لذلك : ( صهرم )<sup>٢</sup> من ( صهر ) ، التي تعني جعل الرصاص مائعاً يصب في المكان المراد تقويته أو تثبيته ، أو لأي غرض آخر من هذ الصهر . وقد استعملوا الرصاص المصهور في سدّ ( مأرب ) كذلك ، استعملوه مادة ماسكة تمسك بعض الصخور التي تلف الجدر الأمامية وفي مواضع أخرى منه<sup>٣</sup> .

وقد استعمل المهندسون العرب الجنوبيون ( القيطران ) القار في البناء . استعملوه خاصة في الأماكن الرطبة والتي تسيل عليها المياه وفي الأسس لمنع الرطوبة ، كما استخدموه في رصف الشوارع ورصف قيعان السدود . فقد وجدت آثار قيعان بعض السدود وهي مرصوفة ومكسوة بطبقة من القطران .

وفي معنى ( قطر ) ترد لفظة ( قتر ) ، و ( قتر ) أيضاً . و ( القنار ) يعني الدخان . ومن هذا المعنى جاءت جملة : ( قتر اللحم ) أي شُوي وظهرت رائحته . وفي معنى ( قطر ) لفظة ( هيع ) أيضاً . ومعناها ( سال ) و( ماع ) . ولهذا استعملت في النصوص ذات الصبغة الدينية في القرابين حيث تسيل دماءها ، وفي الري لسalian الماء ، وفي صهر المعادن<sup>٤</sup> .

وفسر بعض الباحثين لفظة ( هيع ) ، بمعنى بني ، أي أنشأ بناءً ، وفي مقابل لفظة ( برا ) في المسند<sup>٥</sup> .

واستعملت مواد دهنية مستخرجة من زيوت بعض الأشجار في منع الرطوبة أو الماء من التسرب إلى الأسس والجدر والسقوف .

والتحب هو ( عض )<sup>٦</sup> في العريبات الجنوبيه . وقد استعمله العرب الجنوبيون

Rhodokanakis, Stud., II, S. 47.

Rhodokanakis, Stud., II, S. 48.

Wissmann-Hofner, S. 25.

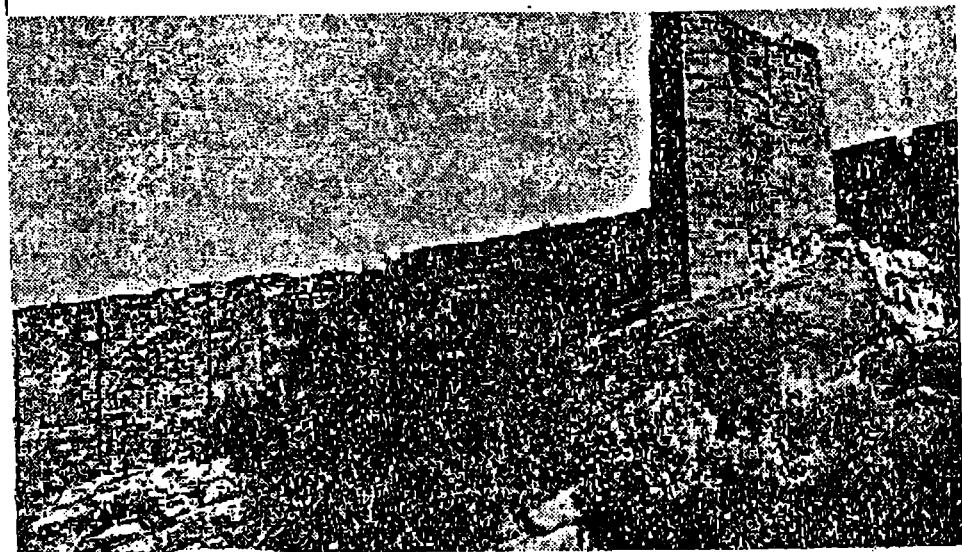
شرح القاموس ( ٤٧٩/٣ ) ، Rhodokanakis, Stud., II, S. 168.

Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 427, 433.

Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

في تسقيف بيوتهم ، ولعمل الأبواب ، كما أدخلوها في البناء كذلك لقويته . أما لفظة ( عضن ) ( العضن ) فقد ذهب ( رودوكناكس ) الى أن المراد بها نوع خاص من الخشب ، نوع ذو رائحة زكية ، يستعمل خاصة للحرق في مذابح المعابد<sup>١</sup> .

ويلاحظ من فحص بقايا بعض الأبنية القديمة من عهود ما قبل الاسلام أنها تحالية من المواد الماسكة التي توضع عادة بين الحجر لثبيته بعضه على بعض . ومعنى هذا أن المهندسين المغاربة كانوا قد وضعوا هذه الحجارة بعضها فوق بعض على نحو يجعلها كأنها متداخلة بعضها في بعض فثبتت مدة طويلة وتحالك وتتصدع وكأنها قد لصق بعضها ببعض عادة من المواد المستعملة في العادة في ثبيت الحجارة مثل الجص أو الكلس أو الطين ، ويسمى بـ ( التلub ) عند أهل البمن اليوم<sup>٢</sup> .



من بقايا سد مارب

من كتاب : Qataban and Sheba ( ص ٢٢١ )

والحجارة التي أقصدها هي صخور اقتطعت من الجبال ، وأكثرها هي صخور كبيرة وهي بعد أن تسوّى وتشذب وتهذب يوضع بعضها فوق بعض بحيث تثبت

١ المصدر نفسه ( ص ٣٩ ) .

٢ المعظم ( ص ١٣٣ ) .

عامل الفقل وبهذه الطريقة تقام الجدر، وينجري ذلك في المباني الضخمة الكبيرة التي تستعمل فيها الصخور . وأما أوجه الجدر من الداخل فقد تملج بمادة كالجص لتجعلها ملساً ناعمة ، وبذلك تسد الفرج بين مجال اتصال الصخور .

واستعملت في مباني أخرى المواد البناءية التي توضع بين الأجر والصخور الصغيرة والحجارة لثبيتها ولضمان تماسكها . ومن هذه المواد الجص والطين والكلس، وقد تكحل الفواصل التي بين الأحجار بالكلس وبالجص لسد الفرج بينها وللزينة أيضاً . وأما الجدر الداخلية فتكسى بطبقة لتجعلها جميلة ملساً على نحو ما يفعله أهل اليمن وما يفعله غيرهم في الزمن الحاضر . وقد وجدت البعثات الأثرية التي تقبت في العربية الجنوبية بقايا جدران بيوت ، وقد كسيت بطبقة ملساء من الجص، تدل على مهارة البناء في ذلك الوقت . وقد تزخرف المواضع البارزة من الجدار بزخرف يصنع بقوالب خاصة توضع عليها المادة اللينة التي يراد زخرفتها ، فإذا جفت رفع القالب عنها ، فتظهر بارزة بالحفر التي تكون حوطاً .

وتكتسي الجدر الخارجية للبناء بالجص والكلس في بعض الأحيان . فإذا كسيت بالجص ، ظهرت بيضاً ترى من مسافات بعيدة ، جاء في شعر لعدي بن زيد :

شاده مر MMA وجلاه كيلسا فللطير في ذراه وكسور<sup>١</sup>

وقد ورد أن الجص لغة ، والعرب تسميه القصبة<sup>٢</sup> .

ولم يكتفى المتنحن العربي الجنوبي بإقامة الأبنية حسب ، بل استخدم الحجارة للتعبير عن شعوره وعن خواطره ، ينفتحها على الصخور ويبئها على ألوان الحجر . وإذا كان العربي الصحراوي قد عبر عن شعوره وعن خواطره بالشعر ينظمه أبياتاً أو مقاطع أو قصائد ، يسر نفسه بها ، ويسر الآخرين ، فقد عبر العربي الجنوبي عن مشاعره وخواطره بنوع آخر من الشعر ، هو الشعر المادي المتمثل في البناء وفي النحت والتصوير بالإضافة إلى الشعر المعروف الذي لم يترك لنا أثراً مكتوباً منه وريا للأسف .

---

١ الكامل (١/٥٩) .

٢ شمس العلوم (٢ ق ١ ص ٢٧٩) .

والعربي الجنوبي متغير بطبعه متواقد ، لم يكتفى بهندسة الحجارة وصقلها وتربيتها ، بل اهتم بالألوان كذلك وبالمظاهر الخارجية للبناء . فاتخذت الحجارة الملونة للبناء ، وكون منها مناظر متعددة الألوان ، محاكاة للطبيعة ، وتأثيراً على النظر . وبقي جدران قصر غمدان من حجارة ذات ألوان مختلفة ، فبني سافاً بالحجارة البيضاء ، وبني سافاً آخر بحجارة سود ، وبني سافاً ثالثاً بحجر أحمر ، وسافاً آخر بحجر أخضر وهكذا ، وذلك إمعاناً في التنوع وفي الترويق ولا شك . وكسا السقوف والأبواب والأعمدة وبعض الجدران بصفائح الذهب والفضة وبالحجارة الكريمة وبين العاج والأنشاب الفالية الشينة، فأكسب البناء روعة وجلاً وخسعاً . ونجده ذلك في المعابد وفي القصور<sup>٢</sup> .

واستعمل المعمار العربي الجنوبي الرخام لإكساء أوجه الجدران أو في فرش أرض الغرف والمعابد ليكسبها بهجة وجلاً ، واستعمله ألواحاً رقيقة تزخرف بالصور والتقوش ، لتعبر عن مباحث الحياة ، كما استعمل ألواحاً رقيقة شفافة منه لتكون مكان الزجاج المستعمل في النوافذ في وقتنا الحاضر . ولا يزال أهل اليمن يستعملون الرخام المرقق في نوافذهم ، توارثوا ذلك عن آبائهم وأجدادهم ، وهو يعطي النافذة رونقاً وجلاً لا يتوافران في الزجاج .

وتكون النوافذ والشبابيك في جدار الغرفة المطل على صحن الدار . أما الجدر المقامة على الطرقات والأزقة ، فتكون خالية منها وذلك لثلا ينفذ منها اللصوص أو الأعداء إلى الدار ، وليمنع المارة من التطلع إلى داخل الغرف والبيوت . أما البيوت المرتفعة المكونة من طابقين فأكثر ، فقد حليت بالنوافذ ، ومن هذه النوافذ ما كان يصنع من الخشب ومنها ما كان يصنع من الحجارة ، ولا سيما الرخام . وجعل العربي الجنوبي الطوابق العليا مواضع للدفاع عند الحاجة ، ولا سيما في الأماكن المزعزة الثانية ، وجعل لمزارعه مواضع مرتفعة مبنية أو من الأنشاب أو على الأشجار لمراقبة من يحاول السرقة وسلب الفلاح ثمار أتعابه .

والنافذة ضرورية جداً بالنسبة للأبنية العالية التي عرفت بها العربية الجنوبيّة ،

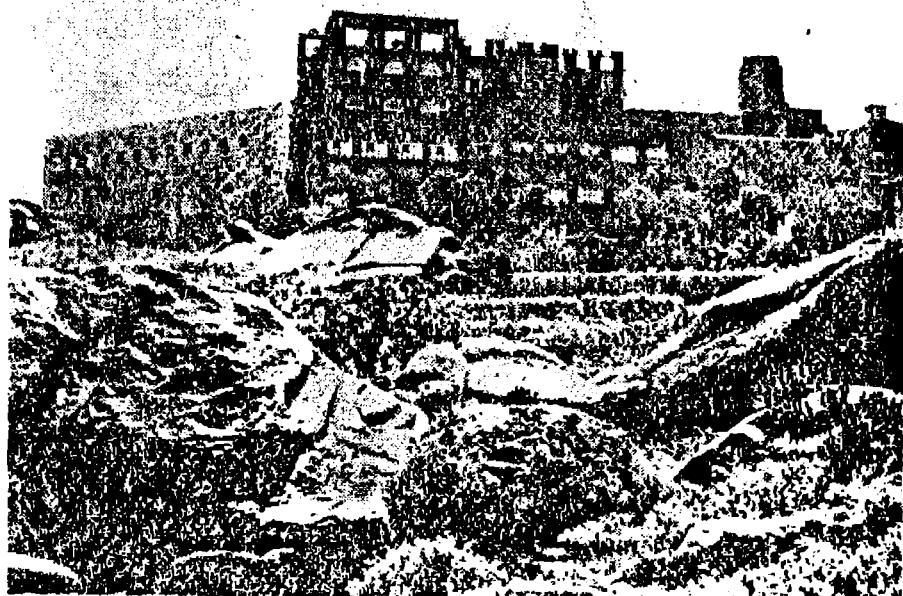
D.H. Müller, Burgen und Schlösser, I, S. 348.

١

Strabo, X, 778, Hand. der altar., altir., I, S. 146.

٢

وذلك للدفاع بواسطتها عن البيوت ولدخول النور والهواء إليها ، وقد صنعت من لوح مرقق من الرخام ، عملت فيه ثقوب ، للدخول الهواء منها . وتعمل الألواح المصنوعة من الرخام ألواحاً رقيقة جداً ، وقد تكون شفافة كالزجاج ، لتنير الغرف . ولا تزال نوافذ بيوت العربية الجنوبية محافظة على طرازها القديم . وقد استخدمت بعض النوافذ الجاهلية في البناء . وقد صنعوا النوافذ من الخشب أيضاً، زخرفوها بزخارف جميلة وأحاطوها بأحجار أو بمرمر لمسكها ولعطيها منظراً جميلاً .



قصر الامام احمد بمدينة « تعز » ، وترى نوافذه وهي ذات طابع يمني قديم  
من كتاب : Gunther Pawelke, Jemen. ( ص ٥٧ )

ويعبّر في اللحيانية بلفظة ( بت ) ، أي ( بيت ) عن معنين ، عن معنى ( بيت ) ، أي موضع سكن ، وعن معنى معبد . وذلك كما في هذه الجملة : « بنوا بت هصن لذ غبت » <sup>١</sup> ومعناها : « بنوا بيت هصن الذي غابتة » ،

١. النص رقم ٣٦ من كتاب : W. Caskel, S. 88.

و ( ذو غابة ) هو إله اللحبيانين ، أو بتعبير آخر : ( بنوا معبد هصن للإله ذي غابة ) .

ويعبر عن البناء والبنية بلفظة ( مبني ) في لغة سبا<sup>١</sup> . وهي من أصل ( بنا ) ( بني ) .

وقد ذكر علماء اللغة اسماء الدور بحسب نوع بناها من حيث المادة أو المساحة أو الارتفاع وغير ذلك . ويقال للدار المترجل كذلك والدارة والمترلة والباءة والمعان والوطن والمغنى والثوى والمربع<sup>٢</sup> . والصرح هو كل بناء مرتفع . وأما الأطم والأجم فاللصون .

والدار المسكن والبيت، وترتدي اللقظة في النصوص البحريانية ، قال ( ابن الكلبي ) : « بيوت العرب ستة : قبة من أدم ، ومظلة من شعر ، وخباء من صوف ، وبجاذ من وبر ، وخيمة من شجر ، وقنة من حجر ، ووسط من شعر ، وهو أصغرها » . وقال البغدادي : الخباء بيت يعمل من وبر أو صوف ، أو شعر ، ويكون على عمود أو ثلاثة ، والبيت يكون على ستة أعمدة إلى تسعه . والخيمة في عرف العرب : كل بيت من بيوت الأعراب مستدير ، أو ثلاثة أعمواد أو أربعة يلقى عليها الثمام ويستظل بها في الحر ، أو أعمواد تنصب وتجعل لها عوارض وتغلل بالشجر ف تكون أبداً من الأخبية . أو عيدان تبني عليها الخيم ، أو مسا يبني من الشجر والسعف يستظل به الرجل إذا أورد إبله الماء . والخيمة عند العرب البيت والمترجل وسميت خيمة<sup>٣</sup> لأن صاحبها يتخذها كالمترجل الأصلي . وورد أن الخيمة لا تكون إلا من أربعة أعمواد ، ثم تسقف بالثمام ولا تكون من ثياب ، وأما المظلة ، فن الثياب وغيرها<sup>٤</sup> .

و ( القبة ) من البناء ومن الأدم . وقيل : القبة من الخباء بيت صغير مستدير وهو من بيوت العرب<sup>٥</sup> . و ( المظلة ) : الكبير من الأخبية ، قيل : لا تكون إلا من الثياب ، وهي كبيرة ذات رواق ، وربما كانت شقة وشققتين وثلاثة ،

Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 439.

- |   |                                |
|---|--------------------------------|
| ١ | بلغ الارب ( ٣٨٩/٣ ) وما بعدها  |
| ٢ | تاج العروس ( ٥٢٩/١ ) ، ( بيت ) |
| ٣ | تاج العروس ( ٢٨٥/٨ ) ، ( خيم ) |
| ٤ | تاج العروس ( ٤١٩/١ ) ، ( قبب ) |

وربما كان لها كفاء ، وهو مؤخرها . قال بعض العلماء لا تكون المظلة إلا من الشعر خاصة . إلى غير ذلك من آراء<sup>١</sup> . والخباء : ما يعمل من صوف أو وبر ، وقد يكون من شعر ، وقد يكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك ، فهو بيت<sup>٢</sup> .

ويظهر من تضارب آراء العلماء في تعريف الأسماء المذكورة ، أنهم أخذوا معانها من موارد مختلفة من رعاه ومن شبه حضر ومن أعراب ، ومن جهات مختلفة ، فكان كل مورد يفسر الشيء تفسيراً مختلفاً عنه عند مورد آخر ، فتضاربت من ثم تلك الآراء .

ويقال لصحن الدار : حُرَّ الدار وقاعدتها وباحتها وساحتها وصرحتها وبجوبتها . وفي الدار البيت . والمخدع ، وهو البيت في البيت ، والنفق والسرب ، فالبيت تحت البيت ويتألف البيت من غرف . والغرفة في أعلى هي (العلية) والجمع عالي . والخزانة هي التي يحفظ فيها الشيء . والمرقد ، هو المضجع<sup>٣</sup> .

وما يحيط بالبناء هو الحائط والجدار . والأُس هو أصل الحائط . والرهص ، هو البناء من الطين الموطوع ، ينضد بعضه فوق بعض ، ويقال للنضدة الواحدة دمص ، أما النضدة السفل ، فيقال لها رهص<sup>٤</sup> . والخط الواحد من الحائط ساف ، ويقال للصنف الواحد من اللبن أيضاً ساف<sup>٥</sup> . وإذا أقيمت الأجر بعضه فوق بعض ، فهو السميط<sup>٦</sup> . ويقال للحائط حين يبلغ العقد أو التقبيل أو التقييب ، ارتفع الحائط . ويقال للعقد : عقد الأزوج وللبيت مغنى إذا سقف بالخشب ، وبيت مقبب إذا كان ذا قباب . أما إذا كان على هيئة السنام ، فيقال له بيت مسن . والبرزخ الفرجة بين الأزاجين في صهوة البيت ، والمهد ترس الأزوج . وتنوى الجدر بالأوتاد ، وذلك برب الوتد في الحائط عند البناء ، وقد عثر

١ تاج المرروس (٧/٤٢٧) ، (ظلل)

٢ تاج المرروس (١/٦٠) ، (خبأ)

٣ بلوغ الارب (٣/٣٨٩)

٤ «والدمص بانكسير» : كل عرق من الحائط خلا العرق الاسفل فانه رهص » شرح القاموس (٤/٣٩٦) ، بلوغ الارب (٣٩٠/٣)

٥ شرح القاموس (٦/١٤٧)

٦ شرح القاموس (٥/١٦١)

على أوتاد من الخشب مرزوزة في بقايا أبنية السبعين والمعينين وغيرهم لتقوية الجدر ، أو لاستعمالها لأغراض أخرى ، مثل تعليق أشياء عليها ، أو استعمالها بثابة السلام للتسلق إلى أعلى .

وفي الدار الصُّفَّةُ ، وتسمى بحسب الجهة المتجهة إليها . ويقال صفة فراتية إذا كانت الشمس لا تقع فيها رأساً . و ( المقنوعة ) مكان ظلله دائم ويكون بارد الهواء . والزاوية ملتقى الحائطين في البيت . والكرة التقب في أعلى البيت . ويقال لها الشاروق . والمشكاة التي في الحائط . ويقال لها الأوقة ويقال بيت مأْوَقٌ<sup>١</sup> .

ويقال للسطح الإجار والصهوة . وسقف البيت أعلى الداخل . وأما سمه ، فما كان بين قراره إلى سقفه . والطابية السطح . والدرج المرتفق إلى السطح إن كان من خشب دعي بـ ( سلم ) . وكل مرقة عتبة . والفرغ الخلاء بين المرفقات . والعلاوة هي أعلى الحائط الذي لا يغطي . والتقارب والطفف آجر أو نحوه يجتمع به أعلى الحائط ليقيه المطر أن يسيل عليه . وهو الكثنة والافريز . والهرادة من الخشب لأعلى الحيطان ، والنجرة سقية بخشب لا يخالطها غيره<sup>٢</sup> .

ويسفق البيت بالخشب ، يوضع عليه عُرضاً ، ويسمى ( العراس ) ، ثم تلقى عليه أطراف الخشب الصغار<sup>٣</sup> . وقد يطين ، أو يخصص ، أو يبني فوقه ليمنع المطر من السقوط من خلال الخشب على البيت ، وحر<sup>٤</sup> أشعة الشمس من التفاذ إليه .

وكانت بيوت أزواج النبي من اللبن ، ولها حجر من جريد مطروحة بالطين ، وعلى أبوابها مسوح الشعر<sup>٥</sup> . وهذه كانت صفة معظم بيوت أهل يرب والمدينة ، ما عدا بيوت الأثرياء ، فقد كانت من حجر وكلس ولها كل وسائل الترفية والراحة المتوفرة بالقياس إلى ذلك الزمان .

واللبن جمع لبنة . وأما الذي يعمل اللبن ، فهو اللبن . والم اللبن الآلة التي

١ بلوغ الارب ( ٣٩٠ / ٣ ) .

٢ بلوغ الارب ( ٣٩١ / ٣ ) .

٣ البرقوقي ( ص ١٣٧ ) .

٤ طبقات ابن سعد ( ٤٩٩ / ١ وما بعدها ) .

يضرب بها . والسائل ، الأداة التي ينفل علىها . والسمican والأسمقة خشب يدخلن في السائل . والطرب هو الأجر ، والطباخ هو الذي يطبخ أتونه ، والأطبيمة : أتون الجرار والقصاص وأمثالها . والبلاط : الحجارة تفرش بها الأرض . ويقال أرض مبلطة ، إذا فرشت بالبلاط<sup>١</sup> .

وقد عرف بعض علماء اللغة اللبن بأنه المضروب من الطين مربعاً للبناء<sup>٢</sup> ، وتقابل لفظة (البننة) كلمة Libbatu في الآشورية ، و (لبيتو) و (لبتون) في الإرمية<sup>٣</sup> .

والطبيان ، الذي يعمل الطين ، ويطن الخاطط أو السطح ، ويشتغل بالطين . والملاط ما رق من الطين . وتحوه السياع . ويقال للماج الذي يمسح به وجه الخاطط المسجنة والمسيعة . وأما الخيط الذي يقدر به البناء ، فيقال له (المطرح) . والشيد والشخص الجص . والجصّاصه موضع الجص . والملاحة محمد الملح . والجيسار والكلس الصاروج . والصاروج التوره وأخلاطها . والتلاجة مكبس الثلج<sup>٤</sup> .

وتتوسط في سطوح الدور ميازيب لتسلیل منها مياه الأمطار إلى أسفل ، وتعرف بـ (المثاعب) ، وواحدتها (مشعب) ، ويكون من خشب وغيره . ويسهل الماء إلى (البالوعة) ويقال لها (البلوعة) كذلك<sup>٥</sup> . ولفظة (متراب) و (مرزاب) من الألفاظ المغربية عن الفارسية ، ولكنها من الألفاظ القديمة الدائمة إلى العربية<sup>٦</sup> . وموضع الطبخ في الدار هو المطبخ . وأما المخبز فهو موضع التور . ويقال للتور الوطيس والهيلم والميسعر كذلك . والكرامة طبق التور ، والمناقفة حجره . وأما الساعور ، فتور صغير في الأرض<sup>٧</sup> .

١ بلوغ الارب (٣٩١/٣) .

٢ شرح القاموس (٣٢٨/٩) .

٣ برصوم (ص ٢٦٩) .

٤ بلوغ الارب (٣٩١/٣) .

٥ بلوغ الارب (٣٩١/٣ وما بعدها) .

٦ المغرب (ص ٣٢٦) ، المغرب (ص ١٤) ، شرح القاموس (٢٦٩/٣) .

٧ بلوغ الارب (٣٩٢/٣) .

والسور هو حائط الحصن والمدن . وأما الريض ، فحائط حول السور . والشرف هو ما أشرف فوق الحائط ، ويترشّف الناس من ورائه<sup>١</sup> . ويعبّر عن (السور) بـ (حل) Hel في العبرانية ، أي (حائل) ، وهو الحائط الذي يحيط بالمدينة<sup>٢</sup> . وتطلق لفظة (حال) و (حويل) على الحائط ، وعلى الحد الذي يفصل بين ملکین ، لأنّه حائل يحول بين الأموال وبين الأشياء ، فلا تختلط ويمتزج بعضها ببعض<sup>٣</sup> .

١ بلوغ الارب (٣٩٢/٣ وما بعدها) .

٢ Roland de Vaux, *Ancient Israel*, London, 1961, p. 233.

٣ تاج العروس (٢٩٥/٧) ، Rhodokanakis, *Stud.*, II, S., 31.

## الفصل السابع عشر بعد المئة

### القصور والمحافد والاطام

وقد أورد علماء اللغة العربية ، جملة ألفاظ لها صلة بالمباني الصخمة وبالمباني العالية . منها : ( قصر ) والجمع ( قصور ) ، و ( محفد ) والجمع ( محافد ) و ( أطم ) ، و ( مجلد ) ، و ( حصن ) و ( برج ) وغير ذلك من ألفاظ بعض منها صلة بالنسبة للحربية ، لذلك أترك أمرها إلى ذلك الباب ، وسأقتصر هنا على الكلام على المباني الأخرى التي تخص الحياة الاجتماعية في الأكثر .

والقصر البيت الكبير الفاخر ، وتقابل لفظة ( قصر ) كلمة ( قصرو ) في لغة بني اسرم<sup>١</sup> . وقد أطلقها علماء اللغة على البيوت الكبيرة لأهل الجاهلية في اليمن ، فقالوا : ( قصور اليمن ) . واشتهر من بينها ( قصر غمدان ) و ( قصر سلحين ) ، وقد أطلقها عرب العراق على حصونهم التي كانوا يتحصنون بها عند دنو خطير عليهم ، فكانت الحيرة مكونة من ( قصور ) ، أقامها أشرافها ، واتخذوها بيوتاً لهم ، وحماية لأموالهم ، وملجأ يلجأ إليه أتباعهم عند دنو الخطير ، للدفاع عن سادتهم وعن أموالهم ، يصدون إلى أعلى القصر ، فيرمون المهاجم بالحجارة والنづف والسهام والنار ، ويصيرون عليه الماء الحار . ولما هاجمها ( خالد بن الوليد ) ، أخذ يحاصرها قصراً قصراً ، ويفتحها ، وبذلك سقطت المدينة ، المؤلفة

---

١ غرائب اللغة ( ٢٠١ ) .

من هذه القصور . ولا تزال الكلمة معروفة في العراق ، فيعرف حصن (الأخضر) المشرف في البداية بـ (قصر الأخضر) ، وبطريق على بعض قرى عين التمر القصور ، لأنها كثاية عن بيوت تحمى به (قصر) في الأصل<sup>١</sup> .

وتخزن في غرف الطابق الأرضي من القصر الميرة ، وما يحتاج إليه ، وكذلك الماشية ، أما الطابق الثاني ، أو ما بعده ، فيتخد مسكنًا ، لأهل القصر ، وقد تعلم به منافق صغيرة ، ليرمي منها المدافعون المهاجمين بالسهام وبالحجارة ، لمنعه من الدنو من القصر ، ويدافع عنه من السطح كذلك .

والمحفد من الألفاظ الواردة في كتب اللغة ، وجمعها (محافد) . وتعني في العربية الجنوبيّة القلعة والحصن ، أي المكان الحصين المنيع الذي يتحصن فيه الجنود للدفاع<sup>٢</sup> . وتعرف بـ (محفدن) في العربية الجنوبيّة ، أي (المحفد) .

وترد لفظة (صحفت) مع (محفدت) . وأما (صحفت) ، فقد فسرت بمعنى المجاز أو الطريق أو الممر أو الخندق . وهي في معنى لفظة (ضيق) التي تعني الحفر ، ومنها (مضيق) التي تعني المساحة<sup>٣</sup> . ويكون الخندق حول المحفد ، يحميه من غارات الأعداء ، فيحول بينهم والوصول إلى سوره . وتؤدي لفظة (صحفت) معنى مر في داخل الحصن يربط بين سور وداخل الحصن<sup>٤</sup> .

والمجدل ، هو القصر المشرف<sup>٥</sup> . فهو نوع من أنواع الأبنية الضخمة . وهو الحصن في داخل المدن عند العبرانيين ، ويتقابل لفظة Castellum في اللاتينية<sup>٦</sup> . وقد وردت لفظة (مجدل) و (مجادل) أي في صيغة الجمع في التصوص اللاتينية بمعنى البرج والحصن<sup>٧</sup> .

وأما الأطم فالحصن والجمع آطم . وهي القصور والحسون . وقال (الأصمي)

١ راجع الجزء الثالث من تاريخ الطبرى ، في فتوح العراق ، وكذلك فتوح البلدان للبلاذري .

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S., 61.

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S., 61.

٤ المصدر نفسه .

٥ شمس العلوم (١٢ ق ٢ ص ٣٠٦) .

٦ Roland de Vaux, Ancient Israel, London, 1961, p. 235.

٧ W. Caskel, S. 88. راجع النص ٢٦ في كتاب :

الآطام الدور المسطحة السقوف ، موشاة أي منقرضة<sup>١</sup> . وهي معروفة عند أهل (المدينة) . وقد تخارب الأوس والخزرج عندها ، فأخرجاها بهذا اليوم . وكانت الأوس والخزرج تتمنع بها ، فأخربت في أيام (عثمان)<sup>٢</sup> .

وتقوى المخصوص بسكل الحديد أحياناً ، وبكل وسائل التقوية والإسناد، لتمكن من الصمود أمام العدو ، ومن تحمل ضربات الآلات التي تستخدم للهدم . ويعبّر عن التقوية هذه بلفظة (سكم) ، أي (سک)<sup>٣</sup> .

وقد فسر بعض علماء العribيات الجنوبية لفظة (صرحت) (صرحة) (صرح) (صرح) التي ترد في كثير من الكتابات المتعلقة بأعمال البناء ، بالطبقة الثانية من البناء أو أعلى كل بناء<sup>٤</sup> . وفي كتب اللغة : (الصرح) : بيت واحد يبني مفرداً ضيقاً طويلاً في السماء ، وقيل (القصر) أو كل بناء عالٍ مرتفع . وفي الترتيل: إنه صرح ممرد من قوارير ، والجمع صروح . وقال بعض المفسرين : الصرح بلاط اتخد بلقيس من قوارير<sup>٥</sup> .

وترد لفظة (صرحت) بهذا الشكل في بعض الكتابات ، كما ترد بغير تاء ، أي (صرح) . وقد وردت على هذه الصورة : (صرح) في بعض الكتابات المعنية ، كما وردت على هذا الشكل : (صرحسن) أي (الصرح) .

والغالب بين علماء اللغة أن الصرح البيت العالي ، وقد قيد بعضهم ذلك باليت العالي المزوق<sup>٦</sup> . وحيث أن البيوت المرتفعة العالية هي في اليمن وفي مواضع من العربية الجنوبية الأخرى في الغالب ، ونظرأً لورود اللفظة في كتابات العرب الجنوبيين، فإننا نستطيع أن نقول باحتمالأخذ الحجازيين لفظة (الصرح) و (صرح) من العرب الجنوبيين .

١. الاغاني (١٤/١) ، « طبعة ساسي » ، شمس العلوم (١٢ ق ١ ص ٨٥) .

٢. التنبيه والاشراف (ص ١٧٦) .

٣. Rhodokanakis, Stud., II, S. 46.

٤. Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, 32, f., Glaser 1089, 1660, Halevy 208, Glaser 1144, Halevy 353, Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 446.

٥. شرح القاموس (١٧٩/٢) . « الصرح : بيت عالٌ مزوق » ، المفردات (٢٨٠) .

٦. المفردات ، ثلراغب الاصفهاني (ص ٢٨٠) .

ومن الرخام أقيمت أعمدة جميلة كسيت تيجانها بالنقوش وبالزخرف الأناذ . وقد تمكّن المغاربة من وضع الصخور بعضها فوق بعض وضعاً فنياً في غاية الدقة جعلتها تظهر وكأنها قطعة واحدة . فقد صقلوا الصخور صقلًاً تماماً بدقة وعناية ، وجعلوا نهايتها متطابقة تماماً . فإذا جلست بعضهما فوقه بعض ، انطبقت على بعضها ، وبدت وكأنها قطعة واحدة يصعب التمييز بين مواضع انطباقها . وقد نقرّوا أحياناً في أواسط الرخام تقرّأ عميقـة ، ثبـتوا في داخلها أوـتاداً من الرصاص أو الحديد ، لترتـبط بين قطعـ الرخام ، ولتكون لها سندـاً وقوـة ، فلا تسقط . وقد وجدت مثل هذه الأوـتاد بين الصخور المكونـة لـسد مـأرب<sup>١</sup> ، وكذلك في قصر (غمـدان) <sup>٢</sup> .

وأقيمت الأعمدة على قواعد تحمل الصخور الثقيلة المولفة منها ترتـبط بينها أوـتاد مربـعة في الغـالب ، وتكون القوـاعد أـكبر حجـماً من العمـود ليـستـقر ثـقلـ الأـعمـدة عـلـيـها ، ولـتكونـ أـثـبـتـ عـلـى سـطـحـ الـأـرـض . وـتـقـوىـ هـذـهـ القـوـاعـدـ بـصـبـ الرـصـاصـ عـلـيـهاـ . وـقـدـ وـجـدـ أـنـ المعـارـيـ العـرـبـيـ الجنـوـبيـ تـعـمـدـ فـيـ جـعـلـ الجـدـارـانـ المـرـتفـعـةـ مـيـالـةـ إـلـىـ الجـدـارـ الدـاخـلـيـ كـلـاـ اـرـتـفـعـ الـبـنـاءـ ، بـعـنـيـ أـنـ يـجـعـلـ الجـدـارـانـ الـخـارـجـيـةـ أـقـرـبـ إـلـىـ وـاجـهـةـ الجـدـارـانـ الدـاخـلـيـةـ فـيـ أـعـالـىـ الـبـنـاءـ مـنـ القـوـاعـدـ ، فـتـكـونـ المسـافـةـ عـنـدـ ذـلـكـ بـيـنـ الجـدـارـينـ عـنـدـ السـقـفـ أـقـرـبـ وـأـقـصـرـ مـنـهـاـ عـنـدـ القـاعـدـةـ <sup>٣</sup> . وـبـظـهـرـ أـنـ تـعـدـ ذـلـكـ لـأـغـرـاضـ هـنـدـسـيـةـ وـاقـصـادـيـةـ ، تـسـتـدـعـيـهاـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ الـحـجـارـةـ مـنـ عـبـثـ الطـبـيعـةـ بـهـاـ وـتـقـويـةـ لـهـاـ ، وـتـخفـيـفـاـ عـنـهـاـ ، وـاقـصـادـاـ فـيـ موـادـ الـبـنـاءـ .

وأقيمت بعض الأعمدة على أرض البناء رأساً من دون قاعدة بارزة يرتـکـرـ عـلـيـهاـ بـعـنـيـ أـنـ المعـارـيـ لمـ يـجـعـلـ قـاعـدـةـ العمـودـ أوـسـعـ وـأـعـرـضـ مـنـ هيـكلـ المـجـمـوعـ ، فـيـظـهـرـ العمـودـ وـكـانـهـ قدـ نـبـتـ مـنـ الـأـرـضـ .

وقد عـنـ الـمـنـقـبـونـ عـلـىـ أـنـوـاعـ مـتـعـدـدـةـ مـنـ الـأـعمـدةـ ، تـيـجانـ بـعـضـهـاـ مـرـبـعةـ أـوـ

Glaser, Reise, S. 60, Hand. der Alt., I, S. 146.

١

D.H. Müller, Burgen und schlösser, I, S. 345.

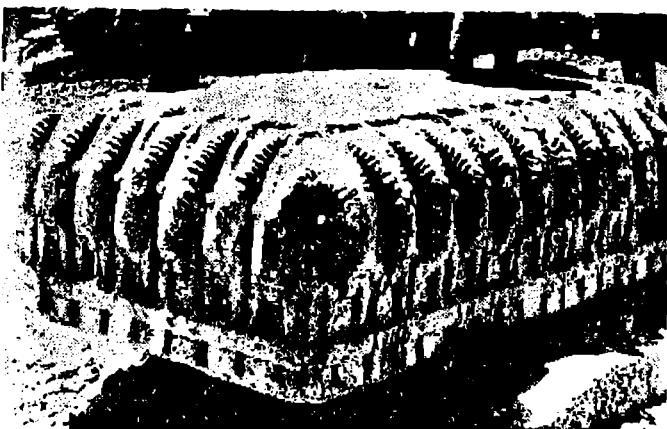
٢

Hand-der altar., alter., I, S. 146.

٣

ذات زوايا مستقيمة . منها ما هو بسيط بدون زخرفة ولا تقوش ، ومنها ما هو مزخرف أو عليه بعض التقوش أو بعض الحروف أو الكتابات . ومن جملة الزخرف الذي زين تيجان الأعمدة زخرف يمثل زهرة الزنبق وأنواعاً أخرى من الزهور<sup>١</sup> .

وتمثل الأعمدة المربعة الشكل أو المستطيلة والخالية من الزخرف أقدم أنواع الأعمدة بالنسبة للفن المعماري العربي الجنوبي . ونجد نماذج منها في خرائب بميد (قرنو) عاصمة معين . وفي (صرواح) (الخربة) وفي (مارب) (حرم بلقليس) (حرم بلقليس)<sup>٢</sup> وقد اقتطع المعمار هذه الأعمدة من الصخور ، كتلاً كتلاً ، ثم أمر بقصلها وتشذيبها حتى حوّلها إلى قطع أكسيبها شكلاً هندسياً ، قواعدها مربعة أو مستطيلة ، وضعها فوق بعضها فوق بعض إلى الارتفاع المقصود ، مكوناً منها اسطوانة تحمل البناء .



ونرى في هذه الصورة تاج أحد الأعمدة، وقد زخرف بحيث ظهر وكأنه كتلة من رؤوس حرفان أو حيوانات لها قرنان كالوعول وقد أبدع الفنان في حفره حتى ظهر الحجر ، كأنه مجموعة حيوانات وقف بعضها إلى جانب بعض ، وزخرفت قاعدة الحجر ، كما ترى في الصورة ويظن بعضهم أنه رمز الإله القسر .

من كتاب : Qataban and Sheba (ص ٢٢)

<sup>1</sup> Land. der altar. alter., I, S. 147, Deutsche Aksum Expedition, II, S. 143. ff.

<sup>2</sup> A. Grohmann, S., 209.

وقد أبدع الفنان في الحفر ، وأجاد في الزخرفة وفي اتقان عمله ، وأعطى عمله روعة ، فتري الحفر على مستوى واحد ، وقد عمل بدقة ومهارة . واتقان العمل والإبداع في الفن من المزايا التي امتاز بها أهل العربية الجنوبية حتى اليوم .

وهناك أنواع من الأعمدة تتكون من ثنائية أضلاع ، وأنواع أخرى تتكون من ستة عشر ضلعاً ، عثر عليها في مدينة ( تلقم ) ، وتتكون تيجانها من ست درجات : ثلاثة منها على هيئة نصف اسطوانة : بطنونها إلى الخارج وقاعدتها العمود ، وثلاث على هيئة صفائح مستطيلة ذات ستة عشر ضلعاً . وقد نحت هذه التيجان ورتبت على هذا الشكل : الدرجة السفل مكونة من مستطيل ذي ستة عشر ضلعاً ، وفوقه درجة على هيئة نصف اسطوانة يليها مستطيل ذو ستة عشر ضلعاً ، وهكذا إلى أن يتهي التاج بالدرجة السادسة للتاج<sup>١</sup> .

وقد عثر على نماذج من الأعمدة المسمنة للأضلاع في معبد ( صرواح ) بـ ( أرب ) ، وفي ( حقه ) وفي ( العرين ) وفي ( بيت غفر ) وفي ( سوق النعم ) وفي ( شباب كوكبان ) وفي ( مأرب ) ، وفي مواضع أخرى . ويرجع عهد هذا النوع إلى ما قبل الميلاد ، ويمتد إلى ما بعده . ويرى بعض الباحثين أن أكثر هذه الأعمدة قد ظهر في فترة من الزمن تقع فيها بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثاني من بعد الميلاد<sup>٢</sup> .

وقد رأى ( كلاسر ) Glaser عموداً مثمناً ذا تاج ( كورني ) في مسجد ( منقط ) بالقرب من ( بريم ) ، يرى الباحثون أنه من صنع عامل يوناني . وهم يرون أن أصله من مدينة ( ظفار ) التي لا تبعد كثيراً عن هذا المكان ، جيء به من هناك إلى هذا المسجد . وقد كانت ( ظفار ) مركزاً خطيراً وعاصمة لشمير ، وفيها أسس ( ثيفيلوس ) كنيسة حوالي سنة ( ٣٥٤ ) للميلاد . وصارت هذه المدينة مركزاً لأسبقية تشرف على نجران وهرمز وسقطرى . وقد عثر في هذا المسجد على قطع أخرى أثرية ، عليها آثار الصليب وكتابات حبشية وأثار أخرى تشير إلى أصل نصراوي ، يظهر أنها من أيام استيلاء الحبشة على اليمن ، وأنها ترجع إلى ما بين سنة ( ٥٢٥ ) و ( ٥٧٠ ) للميلاد . وفي خلال هذه المدة كان

ولا استبعد أن يكون من بين هذه الأعمدة التي نحت الصليب فوقها ، أعمدة جاهلية أخذت من المعابد الوثنية ، ثم حفر الصليب عليها ، لتناسب مع الطقوس النصرانية . أو أنها كانت معابد وثنية قديمة ، فلما استولى الجيش على اليمن ، أو عند انتقام أهل تلك المواقع للنصرانية حولوا تلك المعابد إلى كنائس وأحدثوا فيها بعض التكيف والتغيير لتكون في وضع يناسب الكنيسة ، فكان في جملة ما أدخلوه عليها حفر الصليب على أعمدة تلك المعابد .

وظهر الأعمدة المكونة من ستة عشر ضلعاً ، وكأنها اسطوانة ، أي عموداً ذا شكل دائري . لأن الأضلاع صارت ضيقة متقاربة أعطت العمود شكل اسطوانة . وقد عثر على نماذج من هذه الأعمدة في مدينة ( تلقم ) وفي معبد ( صرواح ) بأرحب ، وفي ( صرواح ) ( الحرية ) وفي ( الفراس ) ، وفي جامع التوكيلية بصنعاء<sup>٢</sup> .

ويرى بعض الباحثين أن الأسطوانات ، أي الأعمدة المدورّة ذات الشكل الاسطواني النام ، قد ظهرت بعد الأعمدة المذكورة ، وأنها ترجع إلى الأزمنة المتأخرة لذلك من تاريخ اليمن<sup>٣</sup> .

ومن العربية الجنوبيّة انتقلت هذه الأعمدة إلى بلاد الحبشة ، حيث نجدها في معابد الحبشة القديمة . وقد أخذ أهل تلك البلاد هذا النوع من الأعمدة في جملة ما أخذوه من حضارة أهل العربية الجنوبيّة<sup>٤</sup> . وقد رأينا أن أهل سبا كانوا قد أقاموا حكمة لهم في إفريقية ، وقد ترك أهل العربية الجنوبيّة ، ولا سيما أهل سبا منهم ، آثاراً في اليمن في مختلف التواحي ، ما تزال ظاهرة للعيان .

وقد استعملت الأعمدة المصنوعة من الخشب لحمل السقوف ، ولا سيما في البيوت.

Philostorgios, Historia Ecclesiastica, III, 4, Handb. der altar. alter., I, S. 148.

١

A. Grohmann, S., 210, Rathjens un Van Wissmann, Vorislamische Altertümmer, 132, 133, Glaser, Geographische forschungen in Jemen, 1882, 73.

٢

A. Grohmann, S., 210.

٣

Deutsche Aksum — Expedition, II, S. 101. f, 154, ff, Hand. der altar. alter., I, S. 148.

٤

وتجت هذه الأعمدة بتيجان في الغالب ، جعلت على هيات وأشكال مختلفة .  
ولا يزال الناس يستعملون هذه الأعمدة في بناء البيوت .

وقد نوع المعمار هندسة تيجان الأعمدة والأساطين ، بأن جعلها أشكالاً وأنماطاً ، راعى وحرص على أن يجعلها تتناسب مع شكل العمود الذي سيوضع التاج فوقه ، أو الاسطوانة التي سيوضع عليها . وقد من هذا التنوع في أدوار وأطوار ، كما مرت صناعة الأعمدة والأساطين بهذه الأدوار كذلك . لقد كان التاج في بادئ أمره جزءاً أساسياً من أجزاء العمود ، أي قطعة منه . هي القطعة الأخيرة من قطع العمود . وعلى هذا الجزء أقام قواعد السقف من غير أن يميزه عن الأجزاء الباقية من أجزاء العمود بأي شيء . ثم يدا له أن يجعل لقطعة الأخيرة حافة عليا بارزة ، وأن يجعل أعلىها أوسع من أسفلها الذي هو قاعدة التاج التي ترتكز على بقية أجزاء العمود . وذلك لأسباب فنية تتعلق بالبناء وبعقد عقود سقوف المعابد . تم أخذ يجعل التاج قطعة حجر تكون أوسع مساحة من مساحة القطعة من العمود الذي سيوضع فوقها ، أي أوسع من مساحة العمود نفسه ، وصار يزخرفه ويتنفس في زخرفته ، حتى ظهرت عنده جملة تيجان أقيمت عليها سقوف المعابد والقصور .

وقد عبر على تيجان بسيطة هي عبارة عن حجر وضع فوق العمود ، ولكي يربط هذا التاج بالعمود ربطاً محكماً ، ويجلس فوقه جلوساً تماماً هندسياً ، فقد ربط بالعمود بوتد يقوم مقام المسار فيربط أجزاء الخشب بعضها ببعض ، يدخل في التاج وفي العمود ليربط بينهما ويجعلها وكأنهما قطعة واحدة من حجر . وقد توضع بين التاج والعمود مادة بنائية لتشد بين الحجرين وتؤصل بينهما ، فضلاً عن (المسار) الذي يدخل في القلب الموجود في الحجرين ، إن كان ذلك (المسار) متحركاً أي متغلاً ، أو في النقب المحفور في الحجر المقابل ، إن كان ذلك (المسار) أو الوتد ثابتاً وقد نحت في أحد الحجرين حتى صار مرتفعاً كقطب الرحي ، ليدخل في التجويف المعمول في الحجر الثاني المقابل وبذلك يناسب الحجريان . وقد وجد (كلاسر) تاج عمود ، ظهر أنه كان مؤلفاً من حجرين ، حجر مربع الشكل أطرافه قائمة الزوايا ، وأضلاعه الخارجية عدلة ، ثم حجر آخر أقيم تحته ، أي فوق العمود ، أطرافه الخارجية منحوتة نحشاً جعل الأطراف مائلاً نحو العمود ، أي إلى الجهة السفلية<sup>1</sup> . وربما كان هذا النوع من التيجان مرحلة من

مراحل تكثير الناج وتطوريه يجعله يتالف من جملة طبقات . كما عُرِّفَ على تيجان جملة طبقات ، طبقة مصقوله مساء ، وطبقة منحوته ومزخرفة زخرفة هندسية أو بأشكال أخرى حسب ذوق المهندس المعمار الذي وضع تصميم المكان . عُرِّفَ على نماذج أخرى عديدة من التيجان ، تفنن في نحتها وفي تكوينها المعماري . وتتمثل بعض منها شخصية ذلك المعمار عام التمثيل . فهي مستقلة تمثل طابع العمارة العربية الجنوبيه . ولكننا نجد بعض التيجان وكأنها تقليد ومحاكاة لتيجان أجنبية . فيینها تيجان تشبه تيجان أعمدة بعض معابد مصر التي تعود إلى ما قبل الميلاد ، ونجد بعضاً وكأنه محاكاة لتيجان يونانية أو رومانية أو فارسية أو جبائية . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن عدداً من تيجان الأعمدة الموجودة اليوم في بعض دور الحكومة بصنعاء ، أو في المساجد أو في بعض البيوت هي من أيام الاحتلال الحشمي أو الساساني لليمن . ولا يستبعد أن يكون من بينها تيجان وأعمدة أخذت من كنيسة ( القليس )<sup>١</sup> .

ولما كانت العربية الجنوبيه على اتصال بالعالم الخارجي ، منذ عصور ما قبل الميلاد ، وقد شهدت فتوحات أجنبية ، كما كانت لها صلات تجارية مع الروم والإفرقيين والهنود والفرس ، فلا يستبعد استخدام العرب الجنوبيين للأعلام في أعمال البناء ، وتأثيرهم بالأسلوب المعماري الأجنبية ، ولا سيما في أثناء الفتح الحشمي للبيمن ، فقد ذكر أهل الأخبار أن الجيش استعاناً بفعلة من الروم في بناء ( القليس ) ، كما أن الروم كانوا قد شيدوا كنائس في عدن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد بنيت هذه الكنائس وفقاً لأسلوب الفن البيزنطي النصراني ولا شك . وقد كان بين الفرس من يحسن البناء ويتقنه ، كما كان لأهل العربية الجنوبيه اتصال بالفرس قبل هذا الفتح ، وكانت فيها جاليات منهم ولا سيما في الأقسام الجنوبيه الشرقية ، فأثروا بذلك في طراز البناء .

وما قلته من تفنن المعمار العربي الجنوبي في تنوع الأعمدة وتيجانها ينطبق أيضاً على القواعد التي أقيمت الأعمدة عليها . فبعد أن كانت قاعدة العمود أو الاسطوانة بسيطة ، لا تمتاز عن العمود بأي شيء ، بل كانت قطعة واحدة منه ، ليست لها عن بقية الأقسام أية ميزة ، رأى المعمار تمييزها عن بقية الأقسام ، فجعلها أوسع

من العمود ، وأعطها أشكالاً هندسية وزخرفية ميزتها عن العمود وعن تاجه . فتجد قواعد أعمدة على شكل مربع أو على شكل مستطيل أو على شكل دائري . ثم نجدها بسيطة تماماً ، ونجدها مزخرفة ومزوجة . ونجدها وقد تحتت على شكل ظهر وكأنها من طبقات مختلفة .

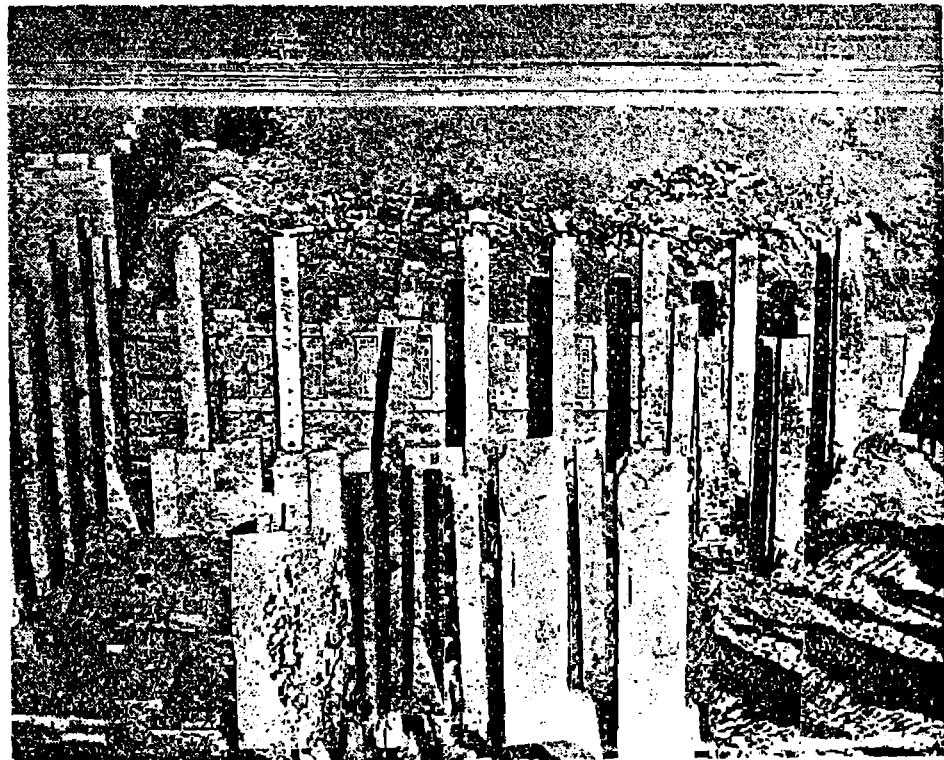
وعلى هذه الأعمدة والتيجان والاسطوانات أقيمت سقوف المعابد والقصور وبيوت السادات عقدت عقداً على نحو ما نراه في الوقت الحاضر من بناء المساجد وبعض الأسواق القديمة والأبنية الأثرية . ولا يستبعد استعمال أهل اليمن للقباب في معابدهم وفي قصورهم ، فادة البناء متوفرة عندهم ، والإمكانيات الفنية موجودة عند المهار العربي الجنوبي . عقدت على عقوس وأقواس ينتهي مركز ثقلها بتيجان الأعمدة أو برؤوس الأعمدة على طريقة بنائهم للمساجد في هذه الأيام .

ولم تجر حتى الآن حفريات علمية واسعة في اليمن وفي بقية أنحاء العربية الجنوبية ، كما أن دراسات المتخصصين الصليبيين بعلوم العربات الجنوبية قليلة ، وهذا كان علمنا بالآثار العربية الجنوبية ضحلاً لا يعين على تكوين رأي علمي واضح صحيح في آثار تلك الأرضين وفي صلة الحضارة العربية الجنوبية بغيرها من الحضارات .

لقد وضع (كلاسر) مخططات تقريرية لبعض المعابد والأبنية القديمة في اليمن ، مثل معبد صرواح ومعبد (حرم بلقيس ) حرم بلقيس ، وهو معبد إله سبا الرئيس (المقه) وأماكن أخرى ، كما وضع غيره مخططات أخرى . ولكن هذه الدراسات تقريرية وغير كاملة . ولا بد من وقت للبحث في هندسة هذه الأماكن شيئاً علمياً دقيقاً . ومثل هذه البحوث لا تقوم إلا بحفريات عميقية متنظمة . توصلنا إلى أسس تلك الأبنية وما طمر في الأرض من آثار تتعلق بتلك الأماكن .

وقد تمكّن المتنبّون في هذا اليوم من تثبيت معالم بعض المعابد ولا سيما معبد (المقه) بمأرب ، حيث شخصوا بعض معالمه ، إلا أن تحديده بصورة مضبوطة واضحة ، وتعين مواضع العبادة فيه ، تحتاج إلى دراسات أثرية واسعة . وبمقاييس كبيرة . فقد أمكن مثلاً تنظيف بعض مواضع معبد (أوم) (أوم) بمدينة (مأرب) من الأتربة ، لظهور معالمه ، وأمكن بذلك من الحصول على معلومات أثرية لا يأس بها عنه ، غير أن معارفنا عنه لا تزال قليلة ، لأن البحث العلمي لم يتم على هذا المعبد حتى الآن . وترى في الصورة بقايا الأعمدة التي كانت تحمل

سقف المعبد ، كما تشاهد بعض بقايا جداره ، وهو من المعابد المهمة التي كانت في ( مأرب ) .



معبد أوم بمدينة مأرب  
من كتاب Qataban and Sheba (ص ٢٥٧)

وقد نسي اسم هذا المعبد القديم ، الذي كان يسميه السبئيون معبد ( اوم ) ( أوام ) . وكانوا يتقرّبون إليه بالهدايا والذئور ، تقدم باسم رب هذا المعبد : ( بعل اوم ) . وهو ( المقه ) إله سبا الأكبر ، إله القبيلة القديم . وهو القمر . ويسمى معبده في هذا اليوم بـ ( حرم بلقيس ) وبـ ( محرم بلقيس ) ، ويقع على مسافة ميلين تقريباً من قرية ( مأرب ) الحديثة . وتقع معظم ساحة المعبد وجدره وأبياته تحت الرمال . وما لم ترتفع هذه الكثبان الرملية عنه ، فإنه من المستحيل التحدث عنه حديثاً علمياً . وقد سرق الناس أحجار السقوف وأعلى جدار المعبد ، لاستعمالها في البناء ، ولما زار ( كلاسر ) المعبد ووصفه ، رأى سقف

المعبد ، أي البيت الذي يتعبد فيه ، وكذلك أعلى سوره ، وكانت زيارته له سنة (١٨٨٨ م) ، ولا نجد اليوم من آثار السقف وأعلى الجدران شيئاً ، بسبب سرقة الأحجار ، ولو لا الرمال التي غطت الأرض والجدران وساحة المعبد ، وحفظت في باطنها أحجارها وبعض الأعمدة الضخمة التي صعب على الناس قلعها ، لما تبقى من حجارة هذا المعبد شيئاً .



جانب من معبد - أواب -  
وترى أبوابا ونواخذ لقاعة  
من قاعات هذا المعبد .  
ويظن أنها ليست من أصل  
المعبد بل أضيفت إليه .  
من كتاب  
Qataban and Sheba  
(ص ٢٧٢)

وقد بني هذا المعبد في أيام ( المكربين ) ، وقد وجدت فيه كتابة تعود إلى أيام المكرب ( يدعى أيل ذرح بن سمهعلي ) مكرب سباً . ويرى ( البرايت ) أنه حكم في منتصف القرن السابع قبل الميلاد . وربما كان هنا المكرب قد جدد بناء هذا المعبد الذي أقامه مكربون سبقوه في الحكم<sup>١</sup> .

وتجد في هذه الصورة بقايا جدار معبد ( اوام ) ، وبقايا نوافذ حجرية ، وقد تخللتها ثقوب لدخول الهواء والنور منها ، وقد نقشت وزخرفت . وقد جدد ورم بناء المعبد مراراً ، وأضيفت عليه جملة زيادات ، كما يتبيّن ذلك من الكتابات التي غُرّ عليها المتقوّن داخل المعبد، وقد دوّنت لمناسبات التجديد ودخول الإضافات، ثم من طراز الهندسة الذي نراه في البناء ومن تنوع الأحجار ومادة البناء .

وهذه صورة أخرى ، أخذت أثناء قيامبعثة ( وندل فيليس ) بأعمال الحفر في معبد ( اوام ) وترى الأعمدة قائمة ، والعمال يشتغلون في إزاحة الأرثة التي طمرت ذلك المعبد القديم .



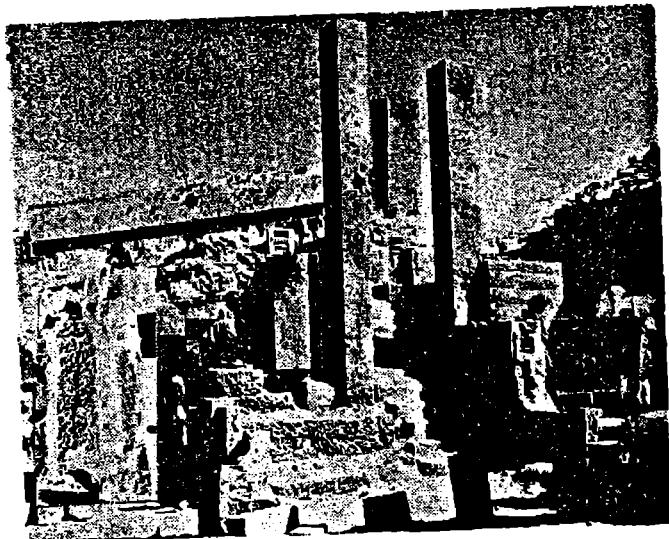
من كتاب : Qataban and Sheba ( ص ٢٥٦ )

١ راجع الصفحة ( ٢١٥ وما بعدها ) من كتاب :

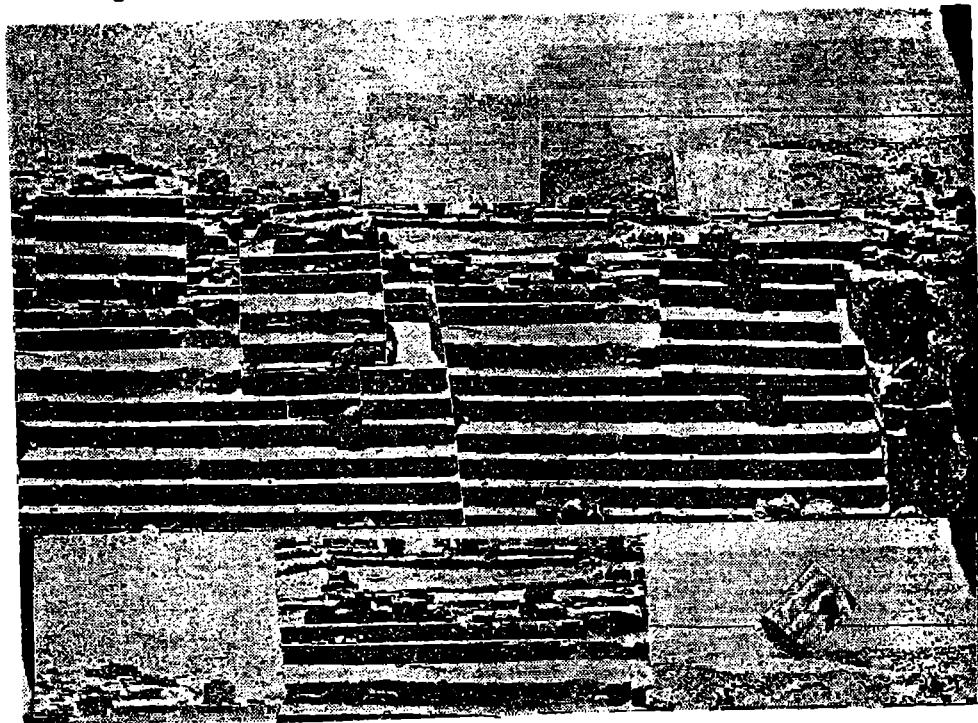
Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, by John Hopkins Press.

للوقوف على وصف هذا المعبد .

وهذه صورة أخرى لمعبد ( اوام ) ( اوام ) ، في أثناء قيامبعثة ( وندل فيليس ) بالحفر فيه .



ونرى في هذه الصورة أعمال الحفر لبعثة ( وندل فيليس ) وهي تجري في معبد ( عشر ) بمدينة ( تمنع ) عاصمة قبائل . ويعود عهده إلى القرن الأول قبل الميلاد .



وتوجد في خراب (مأرب) آثار آخر شخص لعبادة (المقه) كذلك ، هو معبد (برن) (بران) . ويعرف موضعه بـ (العابد) عند أهل مأرب الحالين . وذلك لوجود أعمدة من أعمدته القديمة ظاهرة على سطح الأرض . ولم يقم العلماء بالتنقيب عن هذا المعبد المهم<sup>١</sup> .



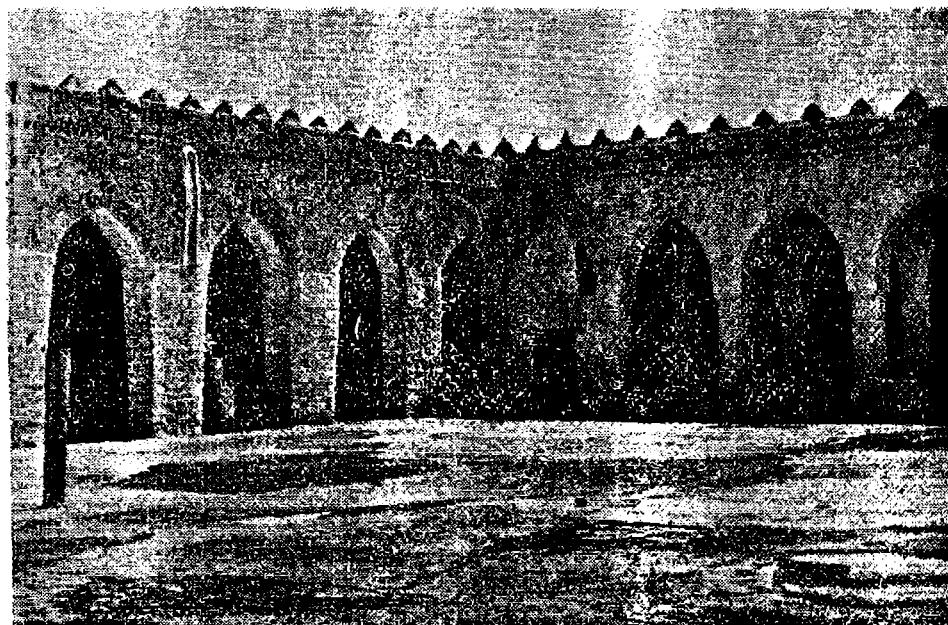
ضريح أحد الائمة في مسجد الأشرفية بمدينة تعز  
من كتاب : Günther Pawelke Jemen, (ص ٦٤)

وقد بقىت في العربية الجنوبيّة بقية من أصول الهندسة المهاريه الجاهليه ، تظهر معالمها في المبني الشخصمه التي تكون بيوت الحكام والأسر الغنية ، والتي تضم في الغالب أحجاراً قديمة مكتوبه وغير مكتوبه ، وتراثاً قدماً موروثاً ورثه المهارون من عرب ما قبل الإسلام . وترى في الصورة نموذجاً من الرياضة القديمة الممثلة في مسجد (الأشرفية) بمدينة تعز ، وهي رياضة أخذت من الفن الجاهلي . وترى الضريح ، وقد أقيم

Archaeological Discoveries in South Arabia, pp. 238, A. Jamme, inscriptions de Al Amyid a Mareb, in Le Muséon, LXVIII, (1955), pp. 317, Jamme 534.

على طراز عربي قديم، لا يشبه الأضরحة التي توجد في البلدان العربية الأخرى، واستمداده هندسته من هندة الأضرة القديمة في العربية الجنوبيّة.

ونرى في هذه الصورة المأخوذة لجامع (الجندية) فناً ، يختلف عن فن بناء المساجد في العراق أو في بلاد الشام ، فلعمود هذا الجامع ولاعمدته واسطواناته صلة بالأبنية العربية الجنوبيّة القديمة . وأنت إذا دققت في هذه الصورة ترى طراز بناء القسم الأربع منها يختلف عن طراز بناء الجزء الأيسر منها، ومع ذلك فإن للطرازين صلة بالفن العربي الجنوبي . وترى سطح السقف ، وقد زين بأفاريز لها صلة بالأفاريز التي كان يعملها العرب الجنوبيون على مثل هذه المواقع من أسوار مدنهم ، وأبنائهم الضخمة من دور وقصور .



جامع الجنديّة

من كتاب : (Jarmen, das Verbotene land)  
مؤلفه Günther Pawelke (ص ٩٦)

ونرى في الصورة التالية التي هي صورة مسجد بمدينة (تعز) ، فناً ، له جذور وأصول قديمة ، استمد روحه من الفن العربي الجنوبي الذي يعود إلى

أيام ما قبل الاسلام . وهو فن له استقلال في الشخصية ، ومزايا تميزه عن الفن في الموضع الأخرى من جزيرة العرب. ونرى بعض قباب مساجد اليمن لها شخصية مستقلة ، ترشدنا إلى أنها من أصل ذلك الفنالياني العريق في القدم .



مسجد في تعز

من كتاب (Jamen, das Verbotene land)  
مؤلفه Günther Pawelke (من ٤٨)

وعندى إن من الواجب في هذا اليوم دراسة الفن المعاصر القائم حالياً في العربية الجنوبيّة ، المتجلّى في الأبنية القائمة الباقية التي لها طابع عربي جنوبي خاص ، من قصور ودور ومساجد وأضرحة ، ودراسة فن الزخرفة المتمثّلة في النقش على الحجر ، من زخرف قديم وزخرفة حديثة ، ودراسة الأعمال الفنية السائدة اليوم ، مثل التجارة والحرف والنقوش والرسم وما شاكل ذلك، لأن مثل هذه الدراسة تساعدنا كثيراً في الوقوف على الفن العربي الجنوبي .

وقد أبدع أهل العربية الجنوبيّة في فن الزخرفة . و (الزُّخرف) في تفسير علماء العربية الذهب في الأصل ، ثم سميت كل زينة زخرفاً ، ثم شبه كل مسموه مزوراً به . وفي حديث يوم الفتح أنه لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فتحي وأمر بالأصنام فكسرت . الزخرف هنا نقوش وتصاوير<sup>١</sup> . ومن النقوش التي عثر

عليها في العربية الجنوبيّة نقوش حيوانات وأشجار وصور بشر حفرت على الأحجار أو المعادن أو الأخشاب ، وعلى ألواح من الجبس ، استعملت في أغراض مختلفة للزينة . ومنها أحجار منقوشة ، نقشت عليها عناقيد عنب وأغصان وأوراق ، وما شاكل ذلك . وجد علماء الآثار أن بعضًا منها يعود عهده إلى القرون الأولى من الميلاد<sup>١</sup> .

إذا كانت المعابد شاهدًا على الفن وعلى التفكير الديني لقوم من الأقوام ، فإن المقابر هي شاهد كذلك على وجهة نظر القوم إلى العالم الآخر ، عالم ما بعد الحياة . فما في القبر من أدوات وأشربة وطعام وآية ، أو من بساطة وسذاجة ، تشير إلى تفكير القوم في شكل الحياة الآخرة وفي كيفيةها وفي درجة تعلقهم وتمسكهم بالآلهة وبالدين .

وخير مثال على ذلك ، أهرام مصر وآثارها ، فإنها آثار قبورية ، تمثل مبلغ تغلغل الدين في نفوس الحاكمين وفي الشعب ، ووجهة نظرهم إلى عالم ما بعد الحياة . لقد أنفق الحاكمون على قبورهم أكثر مما أنفقوا على قصورهم في الدنيا . إن لهم — بعد الموت — حاجة إلى كل ما يحتاج إليه الإنسان في الحياة . ولهذا ادخروه في هذه المقابر ، ليستفيد منها الميت بعد انتقاله إلى العالم الآخر ورجوع الحياة إليه . أما العربي ، فلم يتم بقبره اهتمام المصري به ، فلم يترك (المكربون) ولا الملوك ولا الأمراء ما تركه الفراعنة والكهان والأمراء في قبورهم ، لا كله ولا بعضه . إنه لم يكن يخفل بالحياة الآخرة احتفال أهل مصر بها ، لذلك نجد قبره ساذجًا ، ثم هو لم يدخل فيه طعاماً ولا شراباً ولا أثاثاً ، ولم يدخل فيه كذلك خدماً وحشماً من بقايا الحاشية المسكينة التي أدخلت إلى القبر قسراً لتخدم سيدها في العالم الآخر ، كما خدمته في العالم الأول .

وقد يقال إن لفقر بلاد العرب دخلاً في ذلك ، ولكن ما بال أهل اليمن ، وقد كانوا في سعة وخير ، لا يفعلون في قبورهم بعض ما فعله أهل مصر . وما بال قبور ملوكهم ساذجة ، لا تحرى ذهبًا ولا حجارة كريمة ولا تصاوير وتماثيل وتوابيت وجثثاً للضحايا التي تدفن مع الميت ؟ إن ذلك ، إن دل على شيء ، فإنما يدل على اختلاف في وجهة نظر القوم عن وجهة نظر المصريين مثلاً

عن الحياة الآخرة . ونحن لا ننكهن في الزمن الحاضر عن وجهة نظرهم في ذلك الزمن ، لعدم وجود كتابات جاهلية أو آثار تتحدث عن تلك الحياة .

وإذا قلنا إن تلك القبور كانت ساذجة خالية من الكنوز التي يجدها الناس في اهرامات مصر ، فإن ذلك لا يعني ان قبور الجاهليين ، كانت كلها خالية من التفاصيل تماماً. فقد عثر في بعض منها على أساور من ذهب وخراتم وتماثيل وجرار بل وعلى سيف وختانجر وسكاكين ، وضاعت مع الميت في قبره، كما يروي أهل الأخبار ان بعض الجاهليين كانوا يتبعبون المقابر القديمة، فينبشونها لاستخراج ما فيها من أشياء تقيسة ، حتى ذكروا ان ثراء (عبدالله بن جدعان) أنها كان من المقابر القديمة التي كانت بعكة<sup>١</sup> ، ورروا قصصاً عن قبور زعم ان الناس عثروا فيها على كنوز ، وقد سبب هذا القصص إقدام الناس على نبش المقابر الجاهلية لاستخراج ما قد يكون في جوفها من ذهب وكنوز ، مما أفسدتها وأزال معالمها وأضاع علينا تراث الجاهلين .

وقد ذكر (أبو علي لغدة) الأصفهاني ، ان « بمجلدان هضبة سوداء ، يقال لها بنتعة ، وبها نُقُبٌ » ، كل نقب قدر ساعة، كانت تلتقط فيه السيف العادية ، والحرز ، يزعمون أن فيه قبوراً لعاد ، وكانوا يعظمون ذلك الجبل<sup>٢</sup> .

وقد عثر على بعض المقابر الجاهلية في العربية الجنوبية ، ظهر منها ان القبور ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد في الغالب . ولكنها مختلفة باختلاف الأرضين والقبائل وطبيعة الأرض . فقد عثر على قبور اتضحت منها ان الجاهليين في بعض أماكن من اليمن ، وضعوا الميت في تابوت قائم الزوايا ، مصنوع من الحجر ، وقد غطي بقطاء من الحجر كذلك . ومثل هذه القبور لا تكون في العادة إلا في الأماكن التي تتتوفر فيها الحجارة. أما في الأماكن الصحراوية والترباوية التي لا تتتوفر فيها مثل هذه الحجارة ، فلم يكن من الممكن وضع الميت في مثل هذا التابوت ، ولهذا كانوا يدفونه في الأرض في لحد ، ثم يهال على الميت التراب . وقد عثر على جملة قبور تكونت مجموعة واحدة يحيط بها حائط معقود بالحجارة يتراوح ارتفاعه من متار إلى خمسة متار . وهي مدافن أسرة واحدة في الغالب . وقد أشير إلى

١ الروض الافت (٩٢/٢ وما بعدها)  
٢ بلاد العرب (٣٠، ١٣)

أمثال هذه المقابر في الكتابات . كما عثر على قبور هي غرف نحتت في الصخور ، وقد كُتب على باب الغرفة ، أي القبر ، اسم صاحب القبر أو أسماء المدفونين في الغرفة<sup>١</sup> . وقد وصف (هريس) بعض هذه القبور<sup>٢</sup> .

وعثر على بقايا مقبرة خارج سور مأرب من ناحية الشمال والغرب ، تبين من فحصها ودراستها أن بعض الموتى قد دفنتوا وقوفاً ، وبعضهم قد دفنتوا على الطريقة المألوفة أي اضطجاعاً على الأرض . ومن هذه المقبرة العامة الجاهلية حصل (كلاسر) على عدد كبير من شواهد القبور ، التي وضعت فوق قبور أصحابها لتدل عليهم ولتشير إلى صورة صاحب القبر وأسمه<sup>٣</sup> .

وقد عثر في معبد (أوم) (أوام) ، المعروف بمحرم (بلقيس) ، على مقابر ، لها أبواب تؤدي إليها . ذات غرف ، اخذت مواضع لوضع الجثث بها . وجد أن بعضها كانت مقابر للمكربين وللملوك ، فقد عثر على اسم (سمه على ينف) (سمه على ينف) (سمه على ينوف) ، مكتوبآ على حجر في أحد القبور ، وعثر على اسم آخر هو : (يشع امر بن بن يكرب ملك وتر) وهو ما من الملوك الذين اعتنوا بهذا المعبد ، فأضافوا إليه أضافات ، ولعل الحفريات المقبلة ستكتشف عن أسماء ملوك آخرين قبروا في هذا المعبد الكبير ، الذي كان المعبد الرئيسي لشعب سبا في عاصمه مدينة مأرب (هجرن مرين) ، (هجرن مرب) .

وقد عثر في هذه المقابر على مباحث ، يظهر أنها استخدمت لتبييض القبر عند دفن الموتى ، وفقاً لطقوسهم الدينية ، كما عثر على قطع من الأحجار الكريمة وبعض المصوغات المعمولة من الذهب ، ونظراً لوجودها مبعثرة ، يظن أن الأيدي قد عبثت بها ، فنهبت ما كان أهل الموتى قد دفنته مع الميت من أشياء ثمينة<sup>٤</sup> .

ووصف (فون ريده) نوعاً من الأضرحة وجده في (صهوة) بحضرموت . وقد وصفه بأنه بناء على هيئة مكعب ، طول كل ضلع منه زهاء ٢٥ قدماً ، وبارتفاع مماثل . وقد شيد من حجارة مربعة كبيرة ، ويبلغ سمك حائطه قدمين .

Handb. der altar. alter., I, S. 162.

W.B. Harris, A Journey through The Yemen, London, 1893, p. 273.

Wissmann-Höfner, S. 28.

Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 235

١

٢

٣

٤

وهو مقسم في الداخل إلى قسمين . يكون القسم الواحد غرفة يفصل بينها حائط يبلغ ارتفاعه ست أقدام من مدخل البناء . ويكون السقف من حجارة عرضها قدمان . ونجد في جوانبه ثلاثة أحram للزخرفة . وعلى البناء كتابة قبورية تشير إلى القبر<sup>١</sup> .

ولتخليد ذكرى صاحب القبر ، ولوقوف الناس عليه، استخدم العرب الجنوبيون كغيرهم شواخص قبور ، هي عبارة عن أعمدة من الحجر رباعية أو غير رباعية يكتب في أعلىها اسم المتوفى . وقد يصور تحت الكتابة صورة تمثيل الميت ، أو ترمز إلى شيء ديني . وقد عثر (كلاس) على عدد من هذه الشواهد القبورية في مأرب<sup>٢</sup> .

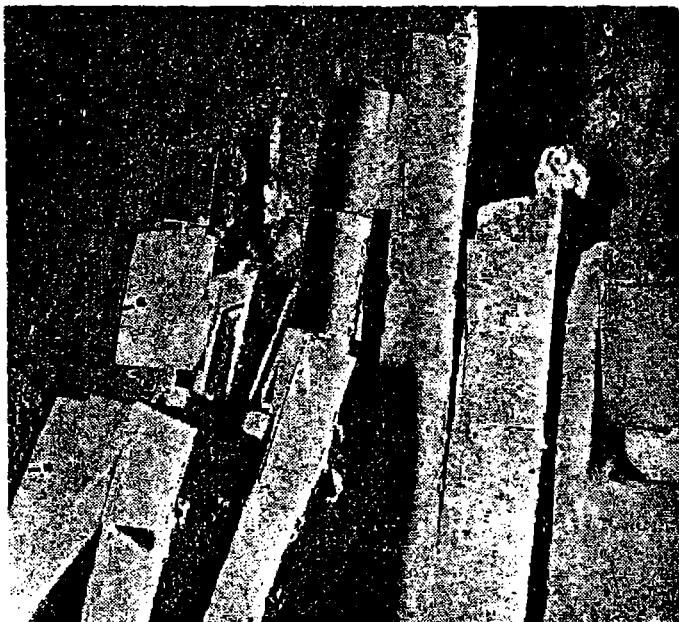
وقد تكون الشواخص على هيئة صخور مستطيلة ، يكتب عليها اسم صاحب القبر . وقد تزخرف هذه الصخور . وتنتهي الكتابة بلفظة (صلم) في بعض الأحيان ، بمعنى صنم ، أي صورة ، ويراد بها صورة المتوفى ، أو الرمز الدال على شيء مقدس . وقد تدوّن الكتابة في القسم الأسفل من الشاهد ، وتغفر الصورة في القسم الأعلى منه . وعثر كلاس أيضاً على نوع آخر ساذج من الشواهد ، هو عبارة عن نصب يشتمل على الكتابة وتحتها عينان فقط<sup>٣</sup> . وثبت هذه الشواهد في الأرض . وقد وجد بعضها حافة رقيقة كحد السكين ، وذلك لتسهيل تثبيتها في الأرض ، ومقاومة لها لبعث الهواء والآفات الأخرى فيها<sup>٤</sup> .

ويقال للقبر (مثير) و (هقر) (القبر) في اللحانية<sup>٥</sup> . وقد عثر المنقبون على أحجار قبور ، كتبت عليها أسماء المولى ، وصورت عليها صور تشير إلى الميت ، وحفرت عليها بعض الرموز والإشارات المستعملة في طقوسهم الدينية .

وقد وجدت في المقبرة الملكية مملوك أوسان تماثيل لبعض ملوك هذه الأسرة الصغيرة التي حكمت مملكة أوسان ، وقد كتبت على قاعدة التماثيل أسماء الملوك ، ويتبين من وجودها في هذه المقبرة ، أن آل الميت دفنا مع الملك المتوفى تمثالاً

- |   |   |
|---|---|
| A. von wrede, Reise in Hadhramaut, S. 245.                | ١ |
| Handb.-der altar-alter, I, S. 163, Wissmann-Höfner, S. 28 | ٢ |
| D.H. Müller, Südarabische Altertuner, S. 50.              | ٣ |
| Handb.-der altar-alter, I, S. 164.                        | ٤ |
| W. Caskel, S. 99, 133.                                    | ٥ |
- النص رقم ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ من كتاب :

له ، ربما ليدل على قبره . وكتب لذلك عليه اسمه ليعرف ، ولم يعثر على مواد أخرى ثمينة، ويظهر أنها كانت موجودة غير أن السرقة سرقواها، فلم يبق فيها غير ما فات عنهم ، فلم يصلوا اليه . وقد موّنت المقابر الأخرى التي سلمت علماء الآثار والباحثين بألواح من الحجر ، نحت عليها صور المتوفين ، فوضعت شواهد على القبور ، ليعرف بالشواهد صاحب القبر ، كما عثر على مثل هذه الشواهد في باطن القبر ، مما يدل على أنها دفنت مع الميت في القبر .



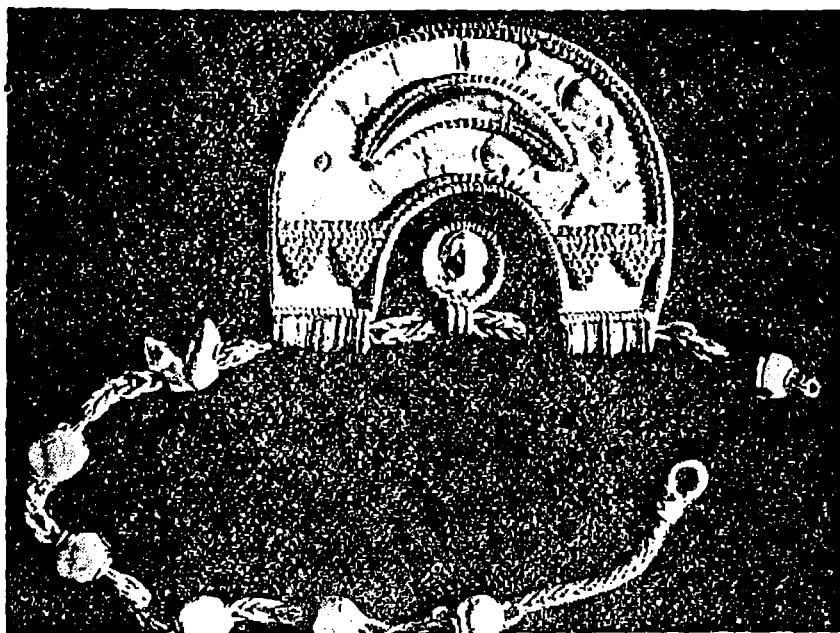
شواهد قبور حاول صانعواها إبراز معالم أصحابها  
وقد أبدعوا في بعضها وخابوا في البعض الآخر .  
من كتاب : Qataban and Sheba (ص ٢٤)

ونرى في الصورة التالية تمثيل صغيرة استخرجت من مقبرة قديمة ، ويلاحظ ان الأنف دقيق ، وقد حفرت العيون حفرأ ، وجعلت واسعة نوعاً ما في بعض المثليل . وقد نقرت بعض هذه القبور نقرأ في الصخور ، وهي صغيرة لا تتسع إلا لميت واحد ، ولكن المقابر وجدوا مقابر جماعية ، تضم أفراد العائلة الواحدة .



تماثيل عثر عليها في مقبرة قديمة  
من كتاب « Qataban and Sheba » (ص ١١٧)

وعثر في المقابر التي ضمت جدث نساء على أقراط وحل نسائية ، وعلى أشياء أخرى تستعملها المرأة . وقد أمكن بواسطتها من تشخيص صاحبة القبر ، ومن الوجود على مكانة أسرتها ومتزالتها . وتوجد بعض الحلبي في الماحف ، وهي



قلادة من الذهب الخالص تعود الى القتبانيين ، عثر عليها في مقبرة قديمة عند « تمونع »  
من كتاب : « Qataban and Sheba » ص ( ١١٦ )

جميلة تدل على مهارة الصانع العربي الجنوبي . وفي جملة ما عثر عليه قلادة ، عمل القسم الرئيسي منها على شكل هلال ، بداخله زخارف ، كما ترى في الصورة السابقة التي عثر على أصلها في مقبرة قديمة من مقابر ( تمنع ) عاصمة قتبان .

ووُجِدَت مصوّغات أخرى من ذهب ، لا يزال الصاغة يصوغون من أمثلتها في العربية الجنوبيّة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . منها ما يعلق على الرأس ، ومنها ما يعلق على الرقبة ، ومنها ما يوضع على الزند أو المرفق أو الأرجل ، ويلاحظ أن لفن الصاغة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبيّة طابع خاص يميّزه عن فن الصاغة في البلاد الأخرى . وقد وضع الصاغة شعارات دينية على بعض المصوّغات تيمّناً وترتّكاً بها . وهذا فن المستحسن مقارنة المصوّغات الحالية مع المصوّغات الجاهليّة التي عثر وسيُعثر عليها ، للتوصّل بهذه المقارنة إلى معرفة تاريخ هذه الحرفة عند العرب .

وقد وجدت مجامير قديمة في مواضع متعددة من اليمن . وقد استعمل بعضها في المعابد ، واستعمل بعض آخر في البيوت حيث يحرق فيها البخور أو بعض الآنسحاب ذوات الروائح الطيبة العطرة لتطهير القادر . ولا تزال هذه العادة المعروفة قبل الإسلام مستعملة في اليمن ، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب ، كما في ( يشة ) مثلاً ، وذلك على سبيل التقدير والتكرير والاحترام<sup>١</sup> .

---

في بلاد عسير : ( ص ٦٢ ) .

## الفصل الثامن عشر بعد المئة

### الخزف والزجاج والبلور

الخزف : ما عمل من الطين وشوي بالنار فصار فخاراً ، وبائعه الخزاف<sup>١</sup> . والفخار : الخزف . وذكر انه ضرب من الخزف تعمل منه الجرار والكيران وغيرها . وورد في القرآن الكريم : « من صلصال كالفخار »<sup>٢</sup> .

والفخارية من الحرف المعروفة عند الجاهليين . ومادة الفخار الطين يسوى على الشكل المطلوب . فإذا جف ، فخر بالنار . وأوانى الشرب أي الجرار هي من أكثر الفخار استعمالاً حيث يوجد فيها الماء ، والكيران<sup>٣</sup> . واستعمل الفخار لخزن المواد الغذائية أيضاً ، ولحفظ الأشياء الثمينة مثل الذهب والنقود والحلبي ، ولأغراض أخرى عديدة ، ويكون في كل الأماكن الأثرية مادة مفيدة للآثاريين .

وقد ذهب بعض علماء اللغة إلى ان ( الكوز ) لفظة معربة ، عربت عن الفارسية ، وذهب آخرون إلى أنها عربية أصيلة<sup>٤</sup> ، وصانعها هو ( الكواز ) . وعرف الخزف بأنه كل ما عمل من طين وشوي بالنار حتى صار فخاراً . أما صاحبه ، فهو الخزاف<sup>٥</sup> .

١ اللسان ( ٦٧/٩ ) .

٢ الرحمن ، الآية ١٤ ، اللسان ( ٤٩/٥ ) وما بعدها .

٣ شرح القاموس ( ٤٦٦/٣ ) .

٤ شرح القاموس ( ٧٦/٤ ) .

٥ شرح القاموس ( ٨٤/٦ ) .

وقد عثر على جرار على هيئة (الثومة) ، أي ذات عنق طويل ، وأسفلها فواسع ، في مواضع متعددة من جزيرة العرب وفي بلاد الشام . وتعرف بـ (بقبق) و (بقبق) (بقبق) في العهد القديم<sup>1</sup> .

وللرتبة أهمية كبيرة في صنع الخزف ، ولهذا اشتهرت بعض المواقع ذات التربة الجيدة بجودة فخارها ، فكانت نصدره إلى أماكن أخرى . كما أن للعناية التي يبذلها الفخار في عجن الطين وفي تنقيته من الشوائب أهمية كبيرة في صناعة الفخار .

ولم يشر أهل الأخبار إلى الآلات التي يستعين بها الخزاف والكراز الجاهلي في صناعته . ولكن سكوتهم هنا لا يكون دليلاً بالطبع على عدم استعانته الفخار والكراز بالآلات ، فليس من المعقول صنع أنواع الفخار بغير آلة . فإن عملها باليد وبغير آلة ، أمر يكاد يكون صعباً . وكل الخزف الذي عثر عليه ، يدل على أنه صنع بآلة ؛ لأنه على شكل منتظم . والآلة التي يستخدمها الخزاف في صناعته ، هي دولاب يدبر قرصاً من الخشب ، يوضع عليه الطين ثم يحرك ، فيدور القرص ويدور الطين الذي عليه معه ، ويعالجه الخزاف بيده ليعطيه الشكل الذي يريده . ولصنع خزف جيد لا بد من العناية بالطين ، فيختار ترابه من تربة جيدة خالية من الأملاح والرمال ، ثم يعجن بعناية ، ويترك مدة ليختمر جيداً . وإلا كان الخزف رديتاً . وقد يدهن الخزف بعد جفافه بدهن ملون أو ينقش بنقوش ، ثم يفخر بالنار .

واستخدم (الأتون) ، لتحويل المواد التي صنعتها الخزاف من الطين إلى خزف . والأتون هو (كرة) في أسفله موقد توقد فيه النار ، فيرتفع لهيبها وتتصاعد حرارتها من خلال فتحات تكون في قاع الأتون الذي هو سقف الموقد إلى أعلى مارة بين مصنوعات الطين الموضوعة في باطن الأتون لتشويها فتتحول بذلك إلى خزف وفخار . وتكون الأتونات مرتفعة لها فتحة في أعلىها وفتحة في الجانب تغلق أثناء العمل ، وتفتح بعد نضوج الخزف والفخار . ولا يزال الخزافون والفخارون يصنعون بصناعتهم بهذه الأتونات على النحو المذكور . ويدرك علماء

العربية أن الأتون لفظة م ureبة . وأنها تطلق على أحدود الجبار والجصاص وأنون  
الحمام<sup>١</sup> .

وقد كان الجاهليون يدهنون الجرار أحياناً ، لسد مساماتها لمنع السوائل من  
السيلان منها ، فكانوا يضعون النيد فيها مثلاً والسمن وامثالهما . وصانعها هو  
الجبار<sup>٢</sup> . وقد كان أهل يثرب يحملون الخمر في جرار حمر ، يطلقون عليها اسم  
(الختم) ، وذكر أن (الختم) الخزف الأخضر أو كل خزف<sup>٣</sup> . وورد :  
الختم جرار مدهونة خضر كانت تحمل إلى المدينة فيها الخمر ثم اتسع فيها فقيل  
للخزف كله ختم . وقد نهي عن الدباء والختم . وإنما نهي عن الانتباذ فيها  
لأنها تسرع الشلة فيها لأجل دهنتها . وقد أشير إليها في شعر للنعمان بن عدي :

من مبلغ الحسناء أن حليلها بمبسان يسكنى من رخام وختم<sup>٤</sup>

وطالما استعملت الجرار لخزن الأشياء النفيسة فيها مثل الذهب والتقدور والحليلي  
وما شاكل ذلك ، إذ تتوضع هذه الأشياء في داخل جرة ثم تسد وتتدفن حتى  
لا يقف عليها اللصوص والطامعون في المال . وقد عبر الجاهليون وال المسلمين على  
كتوز كانت غبابة في جرار طمرت تحت التراب .

والقلال من صنع الخراف . وعرفت القلة بأنها الحب العظيم ، وقيل الجرة  
العظيمة ، أو الجرة عامة . وقيل الكوز الصغير . وذكر أنها إفأء للعرب كالجلرة  
الكبيرة ، إلى غير ذلك من آراء ، يظهر من غربتها أن القلة جرة كبيرة ، بدليل  
ما ورد عنها في الحديث من اشارات تفيد كلها أن القلة كبيرة . وقد اشتهرت  
(هجر) بقلالها ، فقيل (قلال هجر) . وهجر قرية قريبة من المدينة ، وليست  
هجر البحرين . وكانت تعيل بها القلال . واشتهرت الأحساء بقلالها أيضاً<sup>٥</sup> .

وعرف (الحب) بالجلرة الفضحة وبالخالية ، وبأنه الذي يجعل فيه الماء . وذكروا

١ اللسان (٧/١٣) .

٢

٣

٤

٥

٦

تاج المرؤوس (٩٢/٣) .

المغرب (ص ١٤٢) ، «الختم : الجرار الخضر ، كانوا يحملون فيها الخمر » ، جامع

الأصول (٥٠٠/٥) .

٤ تاج المرؤوس (٣٦٤/٨ وما بعدها) .

٥ اللسان (٥٦٥/١١) .

أنه فارسي معرب<sup>١</sup> . وعرفوا (الخابية) بالحُب ، سمي بانلابية لأنه يستر الشيء ويختفيه<sup>٢</sup> .

وقد عثر المنقبون على قلل وجرار وكؤوس من خزف ، وجدت على بعضها كتابات ، عثر على كثير منها في المقابر ، مما يدل على أنها دفنت مع الموتى في القبور . وقد يستنتج من ذلك أن أصحاب الموتى كانوا يتصرّرون أن موتابهم سيحتاجون إليها في حياتهم الثانية لشرب الماء بها ، ولذلك دفونها معهم ، وقد يدل دفونها معهم ، على أنهم أرادوا بذلك وضع ما كان يستعمله الميت في حياته لإظهار تقديرهم للميت ، وأنهم يتنازلون عنها إليهم ، ولذلك دفونا معه حليته وسلاجه وما كان عزيزاً عنده ، فقد عثر في المقابر على رؤوس حراب ، وعلى سيف وختاجر ، وسكاكين ، ولا يعقل دفن هذه الأشياء مع الميت وفي قبره عبثاً ، بل لا بد وأن يكون لهم رأي فيه .

وقد استعملوا القدور المصنوعة من الحجر ، كقدور (البرَّام) المصنوعة من حجر صلاد قوي يستخرج من موضع يسمى (المعدي) لا يبعد كثيراً عن الطائف<sup>٣</sup> .

والأعراب أقل من أهل المدر استعمالاً للفخار ، وذلك بسبب وضعه وطبيعة حياته . فالفخار ثقيل وهو سهل الكسر ، ويجب بذلك عناية في حفظه ، وحياة الأعرابي حياة تنقل ، ولا تردد لديه أوعية لحفظ الفخار من الكسر ، ولهذا استخدم الأدوات المصنوعة من الجلود والمعدن والخشب بدلاً من الفخار .

ومن أواني الشرب (الراقد) ، وهو دن<sup>٤</sup> ، يسع باطنه بالقار . وذكر (الجواليقي) أن اللفظة من الألفاظ الفارسية المعرية<sup>٥</sup> . و (القافزة) ، وهي (القاوزة) و (القاوزة) . وهي مشربة أو قدح ، أو الصغير من القوارير والطاس<sup>٦</sup> .

١ اللسان (١/٢٩٥) .

٢ اللسان (١/٦٢) .

٣ ابن المجاور (١/٢٥) .

٤ المَرْبُ (ص ١٦٠) ، تاج العروس (٢/٣٥٦) .

٥ المَرْبُ (ص ٢٧٣) .



أدوات مصنوعة باليد ، تمثل كفاءة وقدرة العامل اليماني ودقتها في الصنعة من كتاب «اليمن» «Yemen» ملولفه : «Günther Pawelke» (ص ١٦١) .

ولا بد أن يكون بين الجاهلين أناس تخصصوا بصنع الزجاج وعمله ، فقد عثر على أواني معمولة من الزجاج وعلى قطع زجاج . وقد ذكر علماء اللغة أسماء أدوات من الزجاج ، مثل (الباطية) ، وهو إناء واسع الأعلى ضيق الأسفل<sup>١</sup> . وذكر بعض العلماء أن الباطية شيء من الزجاج عظيم ، يعلّى من الشراب ويوضع

---

<sup>١</sup> المعرف (ص ٨٣) .

بين الشرب يغرون منها<sup>١</sup> وهو (الناجد) على رأي بعض علماء اللغة<sup>٢</sup>. وتصنع الأقداح والقوارير والقناطيل والأسرجة من الزجاج أيضاً ، والمصباح ، هو السراج يصنع من الزجاج كذلك ، وفيه موضع لوضع الفتيلة عليه ، لتأخذ وقودها الذي يساعد على إدامه استعمالها منه . وهذا الوقود هو الزيت<sup>٣</sup> .

وقد ذكر الزجاج في القرآن الكريم : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة »<sup>٤</sup> . وذكر علماء اللغة أن الزجاج : القوارير ، وان الزجاجة القناديل<sup>٥</sup> . وأن القوارير : أواني من زجاج في بياض الفضة لصفائها<sup>٦</sup> .

والمصباح : السراج ، وهو قرطه الذي تراه في القناديل وغيره<sup>٧</sup> . وعرف السراج ، بأنه المصباح الراهن الذي يسرج بالليل ، والمسرجة التي فيها الفتيل<sup>٨</sup> . و (القناديل) ، لفظة معربة ، عربت عن اللاتينية من لفظة Candela وتعني مصباح وسراج ونبراس . وتقابل لفظة (نبراس) لفظة (نبرشتا) Nebrastha في لغة بني إدم . ولفظة (منوره) (منوره) Manorah في العبرانية<sup>٩</sup> . والقناديل ، لفظة أعمجية تخصصت بالمصابيح المحمولة . وقد يعلق القناديل وقد يتصل برجل تحمله . وتقابله لفظة (نبرشتا) في لغة بني إدم . أي (النبراس) في عربتنا . و (منوره) (منوره) في العبرانية . وقد أشير إلى القناديل في التوراة . وتستعمل في المعابد وفي بيوت الأغنياء . وقد تصنع من الذهب والفضة والبرونز ، على أشكال متنوعة<sup>١٠</sup> .

- ١ المغارب (ص ٤١) .
- ٢ شرح القاموس (٣٧/١٠ ، ٥١١/٢) .
- ٣ شرح القاموس (١٧٥ ، ٥٢/٢) .
- ٤ النور ، الآية ٣٥ .
- ٥ اللسان (٢٨٧/٢) .
- ٦ اللسان (٨٧/٥) .
- ٧ اللسان (٥٠٦/٢) .
- ٨ اللسان (٢٩٧/٢) .
- ٩ Ency. Bibl. Vol. I, p. 644.
- ١٠ شرح القاموس (٨٨/٨) .

Ency. Bibl. Vol. I, p. 644, ff. Hastings, Vol. I, p. 348.

ومن مصنوعات الزجاج (المرآة) . وهي ( مرات ) في العبرانية أيضاً . وقد صنعت من المعادن المصقولة كذلك مثل النحاس . ووردت في التوراة لفظة (هجلونيم) فسرت بمعنى ( مرآة اليد )<sup>١</sup> ، وتعني ( المجلة ) في عربتنا . والكأس ، هو إناء الشرب ، يشرب به . ويصنع من مواد مختلفة فقد يكون من الزجاج وقد يكون من معدن مثل الذهب أو الفضة أو الحديد وقد يكون من فخار . ويقال له ( كوس ) عند العبرانيين<sup>٢</sup> . وقد ينقش وبخلي بزخارف وباللؤلؤ والجارة الكريمة . وقد ذكر ( الكأس ) في القرآن الكريم .

والراووق ، المصفاة ، وقيل : الباطية والناجود . وذكر بعض علماء اللغة ان الراؤوق الكأس . وقد وردت اللفظة في شعر لعدي بن زيد العبادي :

قدمته على عقار كعين الديك صفي سلاقه الراؤوق<sup>٣</sup>

وقد عرف أهل العربية الجنوبية (البلور) لوجوده في اليمن وفي أماكن أخرى . وهم يستخرجونه من نوع خاص من الحجر ويصفلونه بعنابة ، والغالب عليه اللون الأبيض غير ان بعضه ذو ألوان أخرى ، هر لون الحجر الذي أخذ منه .

ولا يزال أهل اليمن يمارسون صقل الحجارة الكريمة التي يستخرجونها من بعض الجبال ، مستعملين في ذلك الماء والتراب الناعم على حجارة رملية ويصنعونها بأشكال مختلفة ويستعملونها في صنع الخلي . وهي ذات ألوان متعددة : بيضاء وسوداء وخضر وصفر وحر ، ومنها ما يجمع عدة ألوان ممزوجة . وبعد جبل نقم وجبل الغراس من أهم المواطن التي تستخرج منها مثل هذه الحجارة على مقربة من صنعاء<sup>٤</sup> .

وقد عُني العرب الجنوبيون بشق الطرق وتهيئتها ، ويعمل القناطر والجسور وقد بلّطوا بعض الطرق بالحجارة وعادة تشبه (السمنت) ، وترى اليوم بقايا قنطر عملوها في الأودية للعبور عليها ، وقد دمر الكثير منها بسبب الحروب

1 Hastings, Dict. Vol. II, p. 181.

2 Hastings, Dictl. of the Bible, Vol. I, p. 533.

3 شرح القاموس ( ٣٩٣ / ٦ )

4 العظم ( الصفحة ١٣٦ )

والاهمال . ونرى في الصورة بقايا قنطرة جاهلية وقد نطرق اليها الخراب من كبر  
العمر . وقد عملت على وادٍ يفصل بين الجبال .



منظر طريق جبلي قديم  
من كتاب : Jemen ( ص ١٣٦ )

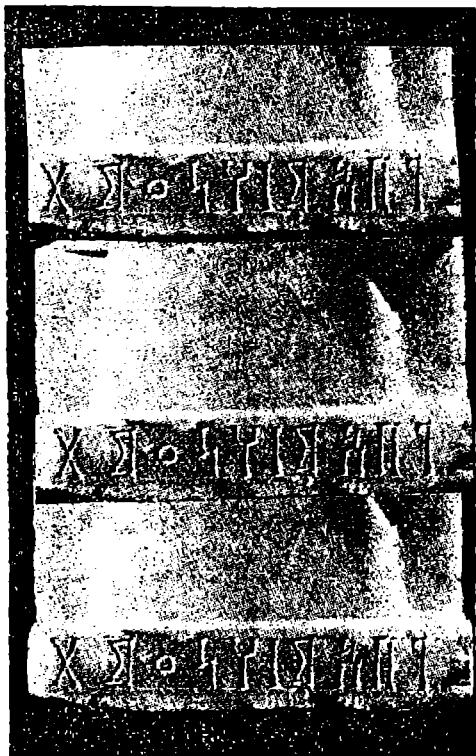
## الفصل التاسع عشر بعد المئة

### الفنون الجميلة

و بين الآثار التي عثر عليها الرحالون ، أو نقلت إلى بعض متاحف الغرب ، عدد من التأثيل والصور المنحوتة على الحجارة ، وهي قليلة في الوقت الحاضر لا تعطينا فكرة واضحة عن الفن العربي الجنوبي ، وبعضها يمثل فناً عربياً جنوبياً أصيلاً ، فلا يشبه المنحوتات اليونانية أو الرومانية ، أو المصرية ، أو الإيرانية ، أو غيرها ، وبعض آخر له شبه بفن بعض هذه الشعوب ، مما حمل المستشرقين على أن يذهبوا إلى أن هذا التشابه هو نتيجة تقليد ومحاكاة لذلك الفن<sup>۱</sup> .

ونلاحظ على هذا التمثال الذي عثر عليه في مقبرة قديمة عند ( تمن ) عاصمة ( قتبان ) ، ويعود عهده إلى القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد ، ان المثال حاول جهد إمكانه اعطاء تمثاله الذي صنعه طابعاً عربياً جنوبياً ، لكنه لم يتمكن من ذلك ، وقد دون في أسفله اسم صاحبه ، وهو ( جبا ام هنعت ) ، ( جبا أوم هنعت ) .

ومن الصعب لإصدار حكم عام على الفن العربي الجنوبي استناداً إلى هذه التأثيل والصور المنحوتة أو البارزة ، لأنها قليلة غير مغنية وغير كافية لإصدار حكم



من كتاب Qataban and Sheba (ص ١٢٤)

تمثال رجل اسمه « جبا أوم هنقت »  
عثر عليه في مقبرة قديمة عند « تمنع »  
يعود تاريخه إلى القرن الأول أو الثاني  
قبل الميلاد .

في هذا الموضوع . ثم هي من صنع أيدٍ متعددة ، فيها أيدٍ قوية ذات موهبة ، وفيها أيدٍ ضعيفة انتاجها بدائي يشبه فن البدائيين ، لا تناسق فيه ولا تناسب بين الأجزاء . وقد نشأ ذلك بالطبع عن تفاوت مواهب المشغلين بهذه الصناعات وعن وجود أناس اخذوا الحفر في المرمر حرفة يتكسبون بها ، وقد يكون لأنهم ورثوا تلك الحرفة ، فاشتغلوا بها ، مع عدم وجود قابليات فنية لديهم .

وقد عبر عن التحات ، أي المثال الذي يصنع الهائل بلفظة ( هصنع ) ، أي الصانع في اللغة اللحيانية . ويعبر عن صنع التمثال بلفظة ( نحت )<sup>١</sup> ، أي حسب تعبرنا عن نحت الهائل في الوقت الحاضر . وتطلق لفظة ( هصنع ) على الرسام

---

١ راجع النص ٨٣ في كتاب : W. Caskel, & 118

كذلك وعلى المear' .

ويلاحظ أن الفن العربي الجنوبي مثل أكثر الفنون الشرقية الأخرى، لا تجاري الفن اليوناني في هيأة الجسم في موضوع ليراز جماله<sup>١</sup> . فإذا ما نظرت إلى تمثال أو صورة بارزة أو حفر عربي جنوبي ، ترى فرقاً واضحأً بين عمل الفنان في هذه الصور وعمل الفنان الهمجياني اليوناني المعاصر له . ففي عمل هذا الأخير ترى عملاً فنياً جميلاً راقياً ، يبرز جمال الفن وروحية (الفنان) ، وهو عمل يقرب القطعة المعمولة إلى قلبك ، و يجعلها تؤثر فيك تأثيراً عميقاً ، على حين لا ترى مثل هذا الإبداع في الفنون الشرقية في الغالب .

وفي الفن اليوناني تناسق وتناسب بين الأجزاء . راعى الفنان فيه النسب الطبيعية للجسم فتلها في تمايله ، وأظهرها عظيم يشعرك بقوته ويعتمد من التعبير عن أحاسيسه . أما الفن الجاهلي ، عموماً عربي جنوبي أو من موضع آخر ، فإنه لم يتمكن من تحقيق هذا التناسق ولا النسب ولا الاتساق والتوازن بين الأعضاء . ولم يتمكن الفنان مع كل ما بذله من جهد من اظهار الجمال الفني على القطع التي صنعها ، ولا من اعطائها حياة ودماء وروحًا أخاذة تجعلك تشعر إنك أمام فنان غير عن إدراكه الفني وعن الحس الذي يشعر به أحسن تعبير بأية طريقة أو مدرسة من مدارس الفن . وبأية وسيلة من وسائل التعبير عن الذوق الفني الذي تملك الفنان يجعله يعبر عنه بطريقته التعبيرية الخاصة بهذا الانتاج المجمم لروحه والذي نسميه الفن .

ولا تملك المتألف في الوقت الحاضر تماثيل جاهلية بالحجم الطبيعي للإنسان . ويظهر أن اعتبار كثير من الناس للتماثيل أصناماً قد أدى بهم إلى اتلافها والقضاء عليها . وهناك أمثلة عديدة تؤيد هذا الرأي ذكرها القدماء والمحدثون . بل إن هذه النظرة لا تزال عند البعض . ثم إن الناس لم يكونوا يدركون قيمة الأثر في حفظ تاريخ أمتهم ، وهذا فلم يكونوا يهتمون بالتماثيل ولا بالأحجار المكتوبة ولا بكل أثر من الآثار . وتوجد اليوم قطع تماثيل يظهر أنها من تماثيل حطمها الإنسان بيده وهشمها بنفسه ، إما للقضاء على معالم الوثنية المتجسدة في نظره في هذا

١ راجع النص رقم ٣٢ في كتاب : W. Caskel, S. 93  
Handb. der alter. I, S. 166.

التمثال ، وإما للاستفادة من أحجاره في أغراض البناء أو أغراض أخرى تقضيده . ومن بينها رؤوس تماثيل أو أقدام تمثال ، أو جسم تمثال بلا رأس ولا أرجل . أما التماثيل الصغيرة ، فقد وصل عدد منها دون أن يمسها أي سوء . وقد استخرج عدد منها من باطن الأرض ، استخرجها المقبون والمواطنون الذين أخنووا بمحفرون التلول الأثرية للبحث عن أثر يبيعونه لتجار العاديّات . وتجد في دور المتحف وعند جماع العاديّات عدداً منها .

ومن بين التماثيل الكاملة التي تستحق الدراسة والانتباه ثلاثة تماثيل ملوك من مملكة ( أوسان ) . يبلغ ارتفاع احدهما (٨٩) سنتراً . وقد نحت من المرمر . وهي تمثل مرحلة من مراحل التطور في فن النحت عند العرب الجنوبيين . وقد حاول النحات جهد إمكانه بذل أقصى ما عنده من فن وقابلية وموهبة في اعطاء هؤلاء الملوك ما يليق بهم من جلال ووقار ومظهر ، وإبراز ملامحهم وملابسهم ، ولكنه فشل في نواحٍ ووقف قدر استطاعته في نواحٍ . وقد نحت : شعر الرأس وجعله متديلاً طويلاً بجعداً . وجعل للتماثيل قواعد استقرت عليها ، دون عليها أسماء أصحابها . وقد اختلف الباحثون الذين بحثوا في خصائص النحت البارزة على هذه التماثيل في تقدير عمرها ، فذهب بعض منهم إلى أنها ترجع إلى القرن السادس أو إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، وذهب بعض منهم إلى أنها ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد ، بينما رأى آخرون أنها من نحت القرن الأول بعد الميلاد<sup>١</sup> .

وهناك تماثيل صغيرة لرجال ونساء وأطفال بعضها من حجر وبعضها من معدن تكشف لنا عن عادات وتقالييد المجتمع في ذلك العهد . في مثل الكشف عن الحلي التي كانوا يخلون بها جيد المرأة وعنفها ، أو التي تحلى بها الأيدي أو الأرجل ، كما تكشف بعضها عن ملابس المرأة والرجل والأطفال في تلك الأوقات ، وهذا فإن لهذه التماثيل أهمية كبيرة لا من الناحية الفنية حسب ، بل من الناحية التاريخية أيضاً لأنها تتحدث عن العوائد الاجتماعية كذلك .

وتعبر بعض شواخص القبور عن شعور الحزن والأسى في نفس من أمر بمحفر

تلك الشواخص أو نحتها . فقد حرص صانعها على أن تكون معبرة عن المناسبة التي عملت من أجلها على أكمل وجه . وأكملها برموز وشارات دينية لها صلة وعلاقة بالحياة الثانية ، وتزيد في فوائد هذه الشواخص بالنسبة لعمل الباحث ، الماثيل التي وضعت مع الميت في قبره ، لتعبر عنه . فهي تعبير آخر عن هذا الشعور المؤسف في شكل آخر من أشكال الفن .

وقد كانت العادة آنذاك ، دفن تماثيل مع الميت ، أو صوراً محفورة على الصخر ، فقد عُثر في مصر وفي الحجاز وفي بلاد الشام على مثل هذه الماثيل مدفونة في القبور ، على مقربة من الأجداث . بعضها تماثيل رجال وبعضها تماثيل أطفال ، ومن النادر تماثيل نساء ، ولعل ذلك بسبب النظرة الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العهد ، من إعطاء الأولوية للرجل في المجتمع ثم للأولاد الذكور .

ونرى في هذه الصورة رأس رجل عربي جنوبي ، حفر النحات عيني الرجل حفرأً ، وجعلها واسعة ، فبدتا وكأنهما قد قلعتا ، وأوصل اللحية بشعر الرأس ، حتى أحاط الشعر بالرأس والوجه ، وصار كأنه حالة . أما القم ، فصغير مفتوح ، ولم يتمكن النحات من حفره حفرأً يقارب الطبيعة ، ولم يتمكن كذلك من إبراز معلم الأنف . أما الجبين فأملس ، وأما الوجنتان ، فلسوان كذلك ، وأما الحجر المحوت ، فن الرخام .



وإذا قارنت هذا التمثال والماثيل العربية الجنوبيّة بالماثيل اليونانية ، أو بالماثيل اليونانية التي عُثر عليها في جزيرة (فيلاكا) في الكويت ، تجد فرقاً عظيماً من التواهي الفنية : فالفنان اليوناني له إدراك عظيم للقيم الفنية ، له قدرة عظيمة على

لإبراز الملامح ، وفي تقدير النسب بين الملامح وأعضاء الجسد ، ثم هو متتمكن تماماً من كيفية إظهار الحاجبين وحفر الأنف ، وإبراز العينين . ومع مرور مئات السنين على الفن اليوناني ، فإنك تستطيع أن تجد فيه حتى يومنا هذا الإبداع والجلال والأساق والأنسجام . خذ هذه الصورة ، التي هي تمثال من الطين المحروق ، عثر عليه في جزيرة فيلكا ، ويعود عهده إلى حوالي (٢٠٠) سنة قبل الميلاد ، ثم قارنه بصور التأليل التي عثر عليها في العربية الجنوبيّة ترى فرقاً كبيراً جداً بين الفنانين .



تمثال من الطين المحروق من  
القلعة اليونانية حوالي ٣٠٠ ق.م. من  
جزيرة فيلكا .

ولكننا نجد مع ذلك في الفن العربي الجنوبي ، محاولة تستحق التقدير ، تظهر في طموح الفنان العربي الجنوبي ورغبته جهد لإمكانه في اظهار شخصيته ومواهبه الفنية ، وهو لو وجد التقدير الذي كانت يظله اليونان للفن ، لأبدع ولا شك أبداعاً كبيراً في عمله الفني .

وقد عبر الفنان العربي الجنوبي عن مشاعره بطريقة أخرى ، هي طريقة الحفر على الحجر أو المعدن أو الخشب أو أية مادة أخرى يمكن الحفر عليها . وذلك بطريقتين : طريقة الحفر أي نقش الصورة أو ما يراد تخليد أثره على المادة حفراً ، كأن تُحفر صورة إنسان أو حيوان حفراً عليها لأن تجعل معالم الصورة محفورة حفراً ، عميقاً نازلاً في تلك المادة . فالحفر في هذه الحالة هو رسم محفور . وطريقة الحفر البارز ، وذلك يجعل الأثر المراد تخليده بارزاً ظاهراً فوق سطح المادة التي حفر عليها . وذلك بأن يؤشر معالم ما يراد تخليده ويرسم ، ثم يحفر ما حوله من سطح المادة التي رسم عليها ، فتبين الصورة وترتفع بهذا الحفر عن سطح تلك المادة .

وعثر على عدد من تماثيل الحيوانات ، نحتت من المرمر ومن أحجار أخرى هـ فعثر على تمثال بقرة ، وعثرت بعثة (وندل فيلبيس) على تماثيل ثيران في خراب مأرب . كما عثر بعض الباحثين على تماثيل أسود أو خيل<sup>1</sup> . وقدتمكن الفنان من التعبير عن موهبته الفنية في بعض المنحوتات ، وأجاد في إبراز مظاهر بعض أعضاء جسم تلك الحيوانات التي نحتها . وقد وصلت بعض هذه التماثيل وهي مهشمة ، وقد فقدت بعض منها بعض أجزاء جسمها ، فأضاع هذا فقدان على الباحثين امكانية اعطاء رأي في علمي عن هذه المنحوتات .

ومن الصعاب التي اعترضت (الفنان) العربي الجنوبي مسألة التعبير عن الحركات ، ورسم الأشياء المجاورة ، والتمييز بين البعيد والقريب ، والتفريق بين المنازل الاجتماعية ، كالسيدة المصون صاحبة البيت وبين خادمتها . وهي مشكلات تواجه كل فنان، ولا يتغلب عليها بالطبع إلا من له قدرة وعلم بالتصوير والتحت . ومن جملة التواصص التي نلاحظها على الصور المحفورة أن أكثر القطع المحفورة لم تتمكن من التنسيق بين وضع صاحب الصورة . فيبينا نجد الوجه مثلاً وهو متوجه إلى الأمام ، كأن صاحبها ينظر اليك ، نرى الساقين والقدمين جانبين وهذا الوضع لا يتناسب بالطبع مع وضع القسم الأعلى من الجسم .

وقد نشأت عن صعوبة التعبير عن الأشياء المجاورة، مثل رسم ثورين متباينين يحران محراًثاً ، أو فرسين مربوطين معاً في حرباث ، مشكلة لم يتمكنوا من التغلب عليها ، فلجأوا إلى طريقة بدائية في الغالب ، يتحدد وضعها عن هذا العجز ،

هو رسم أحد الحيوانين مثلاً ، وكأنه تحت الحيوان الثاني المجاور له ، وذلك كما نرى في الصورة التي تمثل فلاحاً محركه وبحيره ثوران ، فوضع الفنان الثور الجانبي الأيمن فوق الثور الجانبي الأيسر ، ظاناً أن ذلك قد عبر عن هذا الوضع، فبذا الثوران وكان أحدهما قد ركب الآخر<sup>١</sup> .

وقد عثر على لوح يمثل وجه انسان مستدير ، رسم كأنه مع الجبين دائرة كاملة . وقد حفر الشعر على صورة قوس يكاد يحيط بالوجه إلا المتنك ، وقد برب الشعر متوجاً ، وقد فصلت بين الأمواج قواطع جعلت الشعر خصلة<sup>٢</sup> . أما العينان فصغيرتان بالنسبة إلى الأنف . وبدا الفم مقفلأً وقد حلق صاحب الرأس ذقنه ، وترك له شاربين طويلين يتصلان بالشعر المتسللي من الرأس . أما الأذنان فقد اختفتا تحت الشعر ولا أثر لها في الصورة . والرقبة غليظة وقد أحاطت بها حيتان ارتفعتا إلى أعلى على هيئة قوس . ويظهر في هذه الصورة أثر الفن للساسي<sup>٣</sup> .

وقد عبر النحات عن تبعد شعر الرأس بمحفريه بصورة تشعرك أنه يعبر عن شعر متبعداً . وذلك بإحداث ثغرات تظهر الشعر وكأنه عقد ، وقد جعله متداياً إلى الكتفين ، أو نازلاً على الجبين حتى الحاجبين ، ولأجل أن يربك العينين وكأنهما في صورة طبيعية وضع أحجاراً ملونة أو أصباغاً في بعض الأحيان على باطن العين لظهور التمثال وكأنه عينين حقيقيتين تنظران إلى الأشخاص<sup>٤</sup> .

وحال حفر الأزهار وعناقيد العنب ورؤوس الحيوانات وبعض الكروم هي خبر من حيث الإجادة من تصاوير الإنسان أو الحيوانات كاملاً . وقد عثر على قطع رسمت فيها التيوس وهي من الحيوانات الكثيرة في اليمن ، وقد رسمت بصورة تتمثل فيها القوة والحيوية<sup>٥</sup> .

وقد استعمل العرب الجنوبيون الكروم كثيراً للزخرفة ، ولا يستبعد ذلك منهم فالكروم من النباتات المحبوبة الكثيرة في اليمن . وقد دررت عليهم أرباحاً طائلة واستعملت للأكل والشرب . وهي تعطي نبيذاً طيباً وخرماً مشهوراً . فلا غرابة إذا

Handb. der altar. alter. I, S. 167. ١

Hand. der altear. alter. I, S. 168. ٢

Arabien, S. 274 f. ٣

Handb. der altar. alter. I, S. 168, A. Grohmann, Göttersymbole, S. 60. ٤

ما استعملوه بكثرة للزينة ، يخرون صوره في اطارات الألواح أو الصور ، أو يكتبون صوره في الجبس .

وعثر على قطع فنية نفيسة ، من الحجر النغيس الغالي المحفور ، أي من الأحجار الكريمة ، حفرت عليها صور ذات صلة بالأساطير الدينية ، مثل القطعة النفيسة المحفوظة في المتحف البريطاني ، ويفتخر أنها من صنع فنان قباني ، حفر عليها أيلين أو علينا وقد وقف كل واحد منها على جانب ، وفقا على القدمين الخلفيتين ورفعا القدمين الأماميتن إلى أعلى ، وصور النحات القدم المقابل للشخص الذي يقابل القطعة أو ينظر إليها وقد عقفت ، أي بوضع منحن . أما القدم المقابل للقدم المعقود ، فلم يتمكن النحات من اعطائها الوضع الصحيح . ونجد رأسي الحيوانين وقد اتجها إلى الداخل ، فكأنهما ي يريدان الكلام مع بعضها أو الالقاء ، ولا ظهار قرني الحيوانين معقودين ، نحت النحات عليها نحوتاً على شكل (الجزر) ، أو الورق الرفيع . ووضع للحيوانين ذيلين قصرين ، وقد جعل آلة الذكر للحيوانين متتصبين . وجعل تحت القدم المرتفع لكل حيوان رمزاً ، له فم مفتوح متصل ببرقبة أو بجسم ينتهي بدائرة صغيرة ، ثم بما يشبه كرة قائمة على ثلاثة أرجل . ووضع بين الحيوانين (طغاء) قراءته : (اب عم) ، (ابي عم) ، أي (أبى) (عم) إله قتبان<sup>۱</sup> .

وبين الأحجار الكريمة المحفورة التي عثر عليها في خراب اليمن ، أحجار أصلها من العراق ومصر ومن أحجار يونانية من أيام القياصرة ومن المصور الهيلينية ، وقد نحتت على بعض منها حروف بالمسند المعبرة عن بعض المعاني الدينية أو عن أسماء أصحابها<sup>۲</sup> . وهي تستعمل خاتماً في الأصابع ، وتختم بها الوثائق والرسائل .

وقد وضعوا (الدُّمَى) على ألواح الأبواب ، إما للزينة ، وإما لدفع الشر والأذى أو للتبرك والتقرب . وقد قيل ان (الدمية) الصورة المصورة أو الصنم<sup>۳</sup> . وقد عرفوا (الدُّمَى) بالصورة وبالصنم وبالصورة المنفحة بالعاج ، ونسوها . وعرفوها أيضاً بالصورة المصورة لأنها يتألق في ضعفها ويبالغ في تحسينها<sup>۴</sup> .

A. Grohmann, Göttersymbole, 56, Abb. 141, A. Grohmann, S. 241.

A. Grohmann, S. 242.

البرقوقي (من ٢١٩) ۰

اللسان (٢٧١/١٤) ۰

۱

۲

۳

۴

وقد اتخد العرب الجنوبيون من الحجر أناثاً لهم ، ففتحوا منه أسرة وعروشاً . وقد عثر على قطع من المرمر ، هي من بقايا عروش أو كراسى عملت لبعض الأغنياء . وعثر على كراسى مصنوعة من أحجار أخرى . كما عثر على صناديق صنعت من حجر ، وقد زوقت واجهاتها وزخرفت وحفرت عليها بعض الصور التي تمثل الأوراق والنباتات والأزهار والتراويف أو واجهات البيوت<sup>١</sup> .

وأتحنوا من الحجارة مذابح Altars . وللمذابح مكانة في الطقوس الدينية ورسوم العبادة عند الجاهليين . ويقال لها : ( مذبحت ) و ( مذبح ) و ( حردن ) . تذبح عليها حيوانات كبيرة مثل ثيران . وقد عثر على نماذج منها في مختلف المعابد<sup>٢</sup> . وقد زين بعض منها وزخرف بصور حيوانات حفرت عليها أو نحتت كما حفرت عليها رموز لها علاقة بالعبادة والآلهة . وهي تفيدنا من هذه الناحية في الوقوف على فن الزخرف والنقش وعلى كل ما له من علاقة بالحياة الدينية عند الجاهليين .

وللمبادر والمجامر والمحارق أهمية أيضاً بالنسبة لمن يريد الوقوف على الفن الجاهلي . وقد عرفت المحارق بـ ( مصرب ) و ( مشود ) . وهي مواضع لحرق ما يقدم إلى المعبود من ضحايا عليها<sup>٣</sup> . وعرفت المجامر بـ ( مسلم ) ، وأما المبخرة ، فهي ( متطر )<sup>٤</sup> . وقد عثر على نماذج عديدة منها . وقد صنعت من مواد مختلفة من مرمر ومن معادن . مثل البرنز أو الذهب أو الفضة . وقد تفنن في صنعها ، وبعضها مفتوح ليس له غطاء ، وبعض آخر له غطاء . وقد نقش على بعض منها اسم الطيب الذي يحرق بالمجمدة ، باسم صاحبها والمعبود أو الإله الذي خصصت به .

ولم يصل إلينا ويا للأسف من مصوغات الذهب والفضة شيء كثير . والصياغة صناعة اشتهر بها العرب الجنوبيون ، حتى بالغ في ذلك بعض الكتاب اليونانيان ، فأشاروا إلى أواني وأثاث وأدوات منزلية أخرى مصنوعة من الذهب والفضة<sup>٥</sup> .

A. Grohmann, S. 243.

Arabien, S. 247 f.

Arabien, S. 248. Rep. Epig. 4708, 4839.

Arabien, S. 248, A. Grohmann, Südarabien als Wirtschaftsgebiet, I, 115. f.,

C. Thompson, The Tombs and Moon Temple of Hureidha, 49.

De Mari Erythraeo, 2, Strabo, XVI, 778, Handb., I, S. 171.

ولكتنا لم نر شيئاً مما ذكروا ، ولم يروا هم ذلك أيضاً بالطبع ، وإنما رروا ذلك عن طريق الساع .

ويعرف الذهب بـ (ذهب) في العribيات الجنوبيّة . وأما الفضة ، فيقال لها (صرف)<sup>١</sup> . وقد وردت أرض (شبا) في جملة الأماكن التي مونت العربانين بالذهب ، حله اليهم تجار (شبا)<sup>٢</sup> .

وترد في الكتابات جمل مثل : (قديم تمثلاً من ذهب) ، مما يدل على أن العرب الجنوبيّين كانوا يتقدرون إلى آهاتهم إن منت عليهم وأجابت طلبهم بأن يقدموا لها نثاراً هو تمثال من ذهب . غير أن الباحثين لم يعثروا حتى اليوم إلا على عدد محدود من تماثيل صيغت من ذهب ، بل عثروا على تماثيل من البرنز . لذا ذهب بعضهم إلى أن العرب الجنوبيّين قصدوا بكلمة (ذهب) ، أي (الذهب) ، معدن البرنز ، وذهب بعضهم إلى أنهم قصدوا معدن طليت عاء الذهب<sup>٣</sup> .

وفي جملة ما هو محفوظ من أعمال الصاغة ، قلادة جميلة من الذهب عثر عليها في خراب مدينة (نعم)<sup>٤</sup> سبق أن وضعت صورتها قبل صفحات . وقلائد أخرى وصفائح من الذهب حفرت عليها صور بعض الحيوانات . كما عثر على معدن مطلية بطبقة من ذهب<sup>٥</sup> .

وقد وصلت قطع فنية تقىسية مصنوعة من المعادن ، تدل على ذوق عال وعلى مهارة في الصنعة واقتان . من ذلك مصباح يضيء بالزيت ، مصنوع من البرنز يتذكّر على قاعدة . أما موضع الزيت ، فينساب النساياً جيلاً ، وقد صنع بشكل مناسب ، وارتفاع فوق المصباح من الطرف العريض تمثال (ايل) جميل جداً ربطه بالمصباح حزمه افتتحت عند اتصالها بالمصباح على هيئة أصابع يد . فلما ارتفعت ، اتصل بعضها بعض على هيئة ضفيرة ، إلى موضع اتصالها بالأيل . وقد انكسرت يدا الحيوان وكانت ممتدة . أما الرقبة والرأس والقرنان ، فقد صنعت بدقة وبمهارة ، وعلى الجملة أن القطعة تدل على تطور كبير في فن الصناعات اليدوية عند العرب الجنوبيّين ، وذلك كما نراه في الصورة المذكورة .

Rhodokanakis, Stud., II, S. 167.

حرقيال : الاصحاح السابع والعشرون ، الآية : ٢٢ .

A. Grohmann, S. 230.

W. Phillips, Qataban and Sheba, p. 114.

A. Grohmann, S. 242.

١

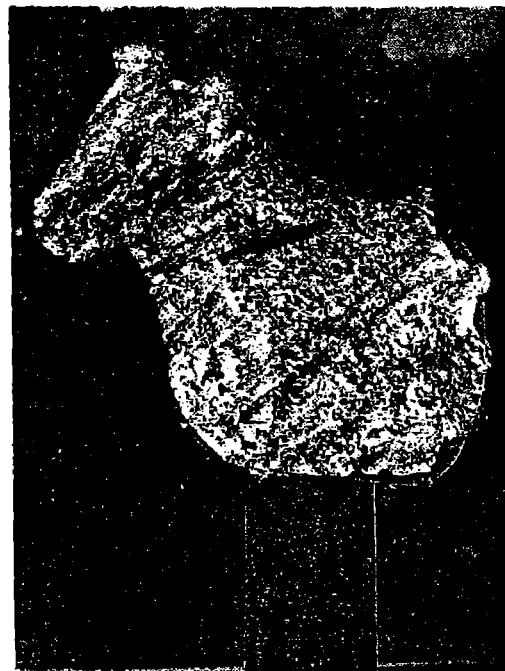
٢

٣

٤

٥

ونرى في قطعة أخرى مصنوعة من البرونز فناً وخيالاً ، نرى رجلاً قد وضع على رأسه غطاءً يشبه المحوذة ، وأمسك بيديه أسدين ، فاليد اليمنى أمسكت بيدأسد ، واليد اليسرى أمسكت بيد الأسد الآخر وقد أدار الأسنان رأسيهما إلى الجانبين ، وكأنهما يتلويان من شدة القبض عليهما ، وإن كانت لا تمثل أجزاء الأجسام تمثالاً كاملاً ، تعطي انطباعاً حسناً ، وتعبر عن الفكرة تعبراً طيباً<sup>١</sup>. وهناك قطعة مصنوعة من البرونز كذلك ، تمثل منظراً رمزاً : ففي الوسط راقص يشبه شكله شكل الشيطان في الأساطير ، وقد اتصل فوق رأسه ، وعلى الغطاء عمود يحمل طيراً ماداً جنائياً . ويقابل الطائر أيلان ، وتنصب كل أيل على جانب من جنبي الطير ، وكأنهما يتقابلان ، ويحمل الأيلان حيوانين<sup>٢</sup> . ونرى في هذه الصورة تمثالاً من البرونز ثور يرمي إلى الإله القمر ، وقد عثر عليه في (ظفار) .



تمثال مصنوع من البرونز يمثل  
الله القمر عثر عليه في ظفار .

من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٥٠)

Handb., I, S. 172.

١

راجع الصورة المرقمة ٦٨ والمشورة على الصفحة ١٧٢ من كتاب :

٢

Handb., I, S. 172.

ونرى في هذه الصورة تمثال رجل صنع من التحاس : نظير على شعر رأسه نتراءات بارزة كأنها الخرز ، ربما تمثل زينة ، أو تعبّر عن شعر صاحبها المتموج . أما الوجه ، فلا يمثل وجه أهل اليمن ، بل كأنه يمثل وجهاً لـ (بودا) ، أي وجهاً متأثراً بالفن الهندسي الصيني القديم . الأنف فيه ضخم ، والفم كبير ، وقد غطى الجسم بقميص له رأس يغطي الرقبة ويصل إلى الحنك ، وتجد القميص مفتوحاً تحت الخصر ، وأما أعلى القميص فغلق ، وقد شد على الخصر (خنجر) مستقيم ، على طريقة أهل اليمن في تحمل الخناجر إلى هذا اليوم ، وقد مدّت اليدين اليمني إلى أعلى ، وظهرت أصابع الكف واضحة مفصلة . أما اليد اليسرى ، فقد مدّت إلى أعلى قليلاً ، وكفها مقبوض ، مكتوّتاً ثقيلاً ، يظهر أنه صنع لوضع عصا في الثقب ، أو شيئاً آخر يرمز إلى سيادة ومتزلة اجتماعية . ونجد الجسم لا يتناسب مع ضخامة الرأس والكتفين ، فهو ضئيل ضعيف . ونجد الأذن صغيرة بالنسبة إلى الرأس . وقد وضعت في مقدم الشعر . ونرى أن الوجه حليق ، مما يدل على أن



بعض الناس كانوا يخلقون شعر أوجهم في تلك الأيام . وأما الرقة فغليظة<sup>١</sup> .  
وهناك قطع أخرى هي عبارة عن تماثيل بشر أو حيوانات مثل حيات أو  
جمال أو خيل أو جرذان وأمثال ذلك ، وقد صنعت من البرنز كذلك ، بعضها  
في غاية الجودة والانتقان . ومن بين هذه القطع المتقنة عصا انتهى طرف منها على  
هيئة أفعى ، نرى فيها الأناقة والرشاقة ، وعصا أخرى رأسها على هيئة حيضة  
وقد تدل إلى أسفل . والقطعتان من الصناعات المتأخرة ومن أواخر أيام دولة  
حمير<sup>٢</sup> .

وبين القطع القديمة المصنوعة من البرنز ، تمثال رجل ماش يبلغ ارتفاعه (٩٣)  
ستمتراً ، رجله اليسرى متقدمة على اليمنى ، ويرى القسم الأعلى من الجسم عارياً  
إلا من جلد أسد أو فهد لف على الظهر ، ويتصل طرافه بالصدر . أما الوركان  
فقد غطيا بمثغر شد على الجسم بحزام عريض . وقد جعل المثال الرأس وكأنه  
قد غطي بمخطدة مجده ، كتابة عن الشعر ، وقد تدل على الجبين . ووضع شيئاً  
أشبه بالريشة للمحافظة على الشعر ، وجعل للرجل لحية عبر عن تجاعيد شعرها  
بعد . وجعل العينين واسعين ، أما الأنف فكبير ملتحم ، وأما الفم فصغير .  
وأما الجسم عموماً ، فهو نحيف . وقد عثر على هذا التمثال في المدخل المؤدي إلى  
(حرم بلقيس)<sup>٣</sup> . ويرى بعض الباحثين أنه يعود إلى القرن السابع أو السادس  
قبل الميلاد . وأن صاحبه كان من كبار الموظفين في أيامه ، وربما كان بدرجة  
حامل أختام الملك أو كاتم أسراره ، وقد قدم التمثال تقربة وتندرأ إلى الإله  
(المقه) . ووجد اسم صاحبه مدوناً على الكتف الأيسر منه ، وهو (معد كرب)  
(معد كرب)<sup>٤</sup> .

وبين التماثيل المصنوعة من البرنز تمثال امرأة وهي ترقص ، وقد لبست فستانًا  
طويلاً يمتد على سروال ، وكأنه يمثل الزي الفارسي القديم ، المعروف في العراق ،

Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 270.

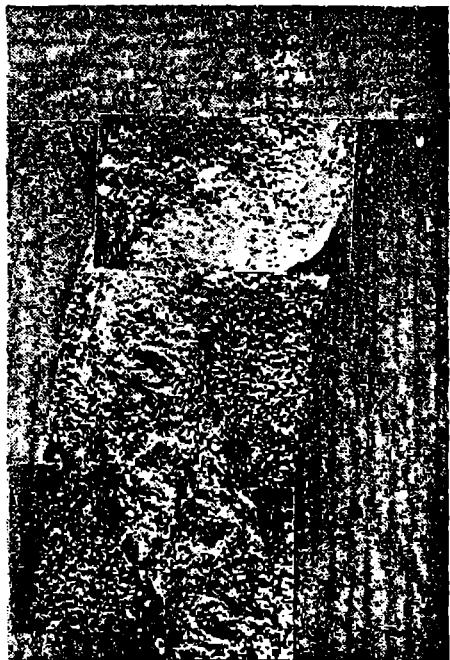
Handb., I, S. 173.

A. Grohmann, S. 232.

Jamme, Sahaean Inscriptions on two Bronze Statues from Marib, JAOS,

77, 1957, 32, 35, A. Grohmann, S. 232.

وقد أبدع صانع التمثال في عمله فجعله حياً ينبع بالحياة ، وقد ضيق خصر المرأة ، وجعل الساقين بعضها فوق بعض ، ليأخذ جسمها وضع راقصة وهي في حالة رقص ، كما ترى في هذا التمثال .



تمثال من البرونز لراقصة ، عشر  
عليه في ظفار .

من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٠٥)

ونجد في مصنوعات المعادن مصنوعات تتحدث عن وجود أثر عراقي عليها ، ومصنوعات أخرى تشير الى وجود أثر مصرى أو يوناني أو هندي عليها . وقد نسب بعض الباحثين وجود هذا الأثر الى الصلات التجارية التي كانت تربط بين الأرضين المذكورة وبين العربية الجنوبية ، كما نسبوه الى أثر الرقين المجرى من تلك البلاد والمستورد الى العربية الجنوبية ، حيث كلف بأداء الحرف البدوية . وحيث أن هذا الرقين كان من بلاد مختلفة ، لهذا ظهر التنوع في هذه الصناعات<sup>۱</sup> . ومن المصنوعات البرنزية التي يظهر عليها أثر الفن اليوناني مجموعة التأثير التي

عثر عليها في بيت ( يفس ) في خرائب ( تمنع )<sup>١</sup> ، وتماثيل أخرى حفظت في متحف ( صنعاء ) . وتماثيلن لزنجين عثر عليها في موضع ( نخلة الحمرا ) ( نخلة الحمرا ) على مسافة خمسين كيلومتراً جنوب شرق ( صنعاء ) . وتماثيل أخرى لبعض الحيوانات ، مثل تمثال حصان وتمثال آخر لأسد .

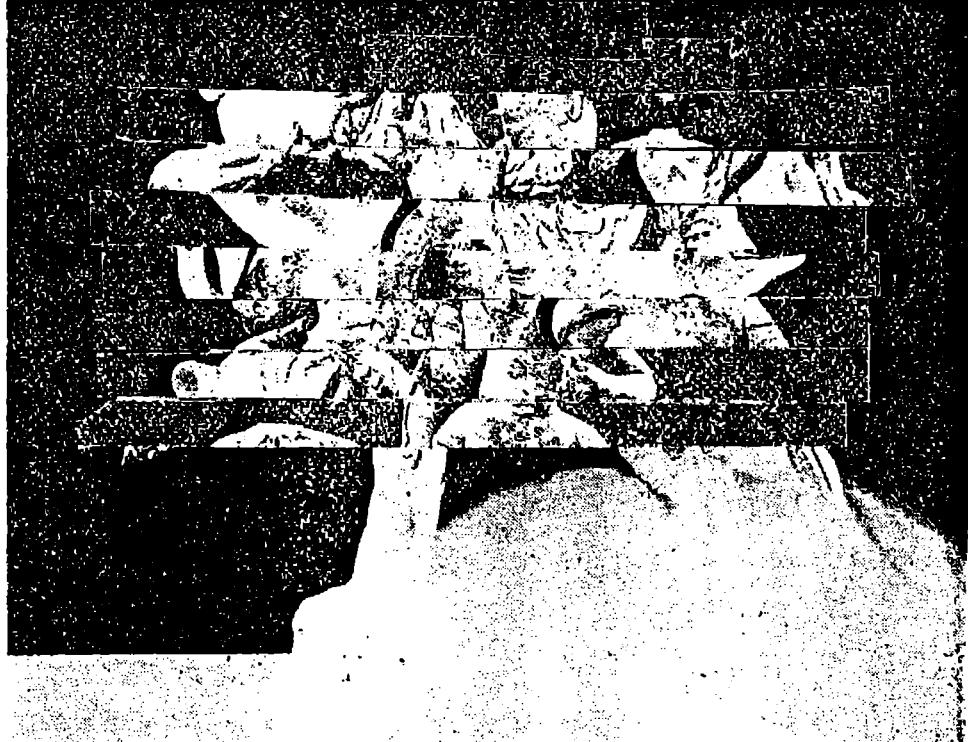
والمثاليل البرونزية التي عثر عليها في بيت ( يفس ) مدينة ( تمنع ) ، هي من الآثار المهمة التي عثر عليها في أرض قبان . ونظراً للأثر ( الهلنلي ) البارز على جسم الأسد وعلى وجه راكبه المحافظ على الملامح اليونانية يرى الباحثون أنها من القطع الفنية التي ربما يعود عهدها إلى القرن الأول للميلاد ، حيث كان اليونان إذ ذاك يخرون عباب البحار ، وكان تجارهم ينقلون المنتوجات اليونانية إلى مختلف الأنحاء من العالم ، لبيعها ولشراء ما يحتاجون إليه من الفنايس التي لا توجد في بلاد اليونان وفيها وراءها . والظاهر أن الفنانين العرب ، وقفوا على قطع فنية يونانية ، فقلدوها وعملوا على صنع مثلاها ، وقد ضربوا على القاعدة الحروف المسند ، الدالة على صاحب البيت . ومن هذه التمايل تمثال أسد ، امتنع على ظهره ولد بيده اليمني لجام ، وبيده اليسرى شيء يشبه القفل ، وقد صنع الأسد وكأنه يريد الوثوب ، وذلك كما تراه في الصورة . وقد قدر تاريخ صنعه فيما بين السنة ٧٥ و ٥٠ قبل الميلاد . ومنهم من يجعله بعد ذلك ، أي في القرن الأول للميلاد<sup>٢</sup> .

وقد تبين من هذه التمايل أن العرب الجنوبيين ، كانوا يتعلمون شيئاً على نحو أنواع هذا اليوم ، وهي سيكمة لمقاومة الأرض فلا تأكلها عند المشي ، كما تبين لنا من دراسة هذه التمايل أن بين ملابس العربية القديمة قبل الإسلام وبين ملابس العرب في اليمن وفي بقية العربية الجنوبيّة في الوقت الحاضر تشابه كبير . ومن الممكن في هذا اليوم عمل دراسة عن ملابس العرب الجنوبيين بالاستعانة بهذه التمايل وبالصور المحفورة على الأحجار ، التي تمثل مختلف طبقات المجتمع في ذلك العهد .

Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, I, 155, ff., B. Segall,  
Sculpture from Arabia Felix, The Hellenistic Period, AJA, 59, (1955), 210 ff.,

Grohmann, S. 234.

Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 155.



تمثال الاسد وعليه طفل . وقد أخذت الصورة من كتاب :  
ملوكه ونبل فيلبس (ص ١١٢) .



تمثالان صنعا من البرونز ، ويرى على التمثال أثر الفن « الهيليني » واضحا بارزا .  
من كتاب : Qataban and Sheba (ص ١٨٩)

أما الخشب المزخرف ، فهو وجه آخر من أوجه الفن وأضرابه ، وقد استعمل في البناء وفي أدوات البيت وفي صنع التماثيل والألواح المكتوبة وفي أغراض أخرى . وقد عثر المنقبون على نماذج منه . ولما كان الخشب معرضًا للتلف والهلاك أكثر من المعدن والحجر ، لذلك فإن يد الطبيعة قد لعبت بالكثير منه ، كما استعملته يد الإنسان قبل الإسلام وبعده في أمور أخرى غير الأمور التي خصصها أصحاب تلك الأخشاب لها ، لذلك زالت معالم الكثير منها ، واستعمل بعض منه في الوقود وفي أعمال البناء . ولا زلت لا نملك نماذج من الأثاث المعمول من الخشب ، مثل صناديق لحفظ الألبسة والأشياء الأخرى التي تحتاج إلى حفظ ، وسرر منامة وكرامي وغير ذلك مما يستعمله الإنسان في حياته من مصنوعات الخشب .

إن الفنان العربي الجنوبي حاول جهد طاقته إظهار شخصيته في أعماله الفنية ، وهو وإن كان قد حاكى غيره وقلده في بعض الأمور ، غير أنه نجح في اعطاء فنه صورة للمحيط الذي عاش فيه . فرى السمعنة اليابانية على وجوه بعض التماثيل ، ولا سيما في أوجه الرجال . ونجده الطابع العربي الجنوبي يبرز على بعض المصنوعات . وسوف يزداد علمنا ولا شك في المستقبل بالفن العربي الجاهلي في المستقبل حين تهدأ الأحوال وتقومبعثات العلمية بالحفر العلمي المنظم في جزيرة العرب ، فربما يعثر على أعمال فنية تغير وجهة نظر العلماء المكتوبة عنه في هذا اليوم .

وأما الحديث عن الفن في الحجاز قبل الإسلام ، فحدث مقتضب مختصر ، لأن البحث العلمي لم يبدأ هناك حتى الآن . فاقتصر علمنا عنه على ما ورد في الموارد الإسلامية وحدها . وما ورد في هذه الموارد هو اشارات عارضة ذكرت عرضاً في أحوال لا علاقة لها بالفن بل في البحث عن أمور أخرى ، مثل : فتح مكة ، حيث أشر إلى وجود تصاوير وأصنام في الكعبة ، أمر الرسول بطمسمها وإزالة معالمها وبكسر كل ما كان هناك من أصنام ، ومثل ما جاء في كتب الحديث والفقه عن ( الصور والتماثيل ) في باب النهي عنها في الإسلام . وذلك يدل على أن بعض أهل مكة وسائر مواضع الحجاز الأخرى ، كانوا يضعون الصور والتماثيل في بيوتهم ، وإن طائفة من الناس كانت تصور وتتعيش من بيع الصور . وأن طائفة أخرى كانت تتحت وتعلّم التماثيل ، وأن طائفة من النساء والخياطين كانوا يجعلون صور انسان أو حيوان على الستائر أو الملابس لتزييقها ، فنهى عن

ذلك الاسلام ١ .

ونحن لو أخذنا بروايات أهل مكة عن بناء الكعبة ، خرجنا منها على أن الكعبة لم تكن عند ظهور الاسلام وبعد تعميرها الأخير قبلبعثة ، شيئاً يذكر من ناحية الفن والهندسة المعمارية ، فهي لم تكن سوى بيت مكعب ، تحيط بحمره البيوت ، ولم يكن الحرم واسعاً وله سور ، وإنما كان ساحة مفتوحة تجاوز عليها أهل مكة ، فأدخلوا جزءاً منها في بيوتهم ، ولذلك اضطر الخلفاء إلى توسيعها ، بشراء البيوت المجاورة ودهمها لاعادة ادخالها في الحرم . ونحن لا نجد اليوم أثراً باقياً على وضسه وحاله من آثار الجاهلية سوى ( الحجر الأسود ) ، وبث زمز ، أما الأشياء الأخرى مثل الكعبة ، فإنها من بناء الاسلام .

أما بيوتها ، فلا علم واضح لنا عنها ، لأن أهل الأخبار لم يتحدثوا عنها حديثاً فيه إفاضة ، وقد ورد في خبر إسامة الجوار لرسول الله ، أن رسول الله كان يجلس تحت ظلة أمام باب داره ، فكان جيرانه يرمونه بالحجارة ، مما يدل على أنهم كانوا يبنون ظللاً على أبواب بيوتهم يجلسون تحتها على (دكة) ويستظلون بها من حرارة الشمس حين وقوفهم أمام الباب : ولا بد وأن تكون بيوت تجارة مكة ، من حجارة وكلس ، وقد تكون من طابقين أو أكثر ، ولكن الأخبار لا تحدث بحديث مفصل عنها .

وفي أعلى المجاز ، آثار من بقايا أبنية ومن تماثيل وكتابات مكتوبة ومن تصاوير نقشت على الصخور ، تعبّر عن حالة الفتاشر الذي نقشها ، وهو من الأعراب . وفي جملة الصور مناظر إنسان يصيد غزالاً ، أو يجاهد في قتلأسد أو حيوان مفترس ، أو فارساً قد امتطى ظهر فرسه : أو مناظر قطعان حيوانات وحشية أو أليفة ، وما شاكل ذلك من مناظر تمر على عيون الرعاة . وبعض هذه الصور مما يعود عهده إلى ما قبل الميلاد . وهي تستحق الدرس وتوجّب على عشاق الفن دراسة المواري الفنية والتعبيرية في هذه الصور المرسومة على الأحجار والصخور . وفي المتحف البريطاني حجر ، رمز إليه بـ B. M. 120928 كتب عليه بالحرف الصغيرة ( هف زين بن أحرب ) أي ( هذا لزبان بن أحرب ) . وقد حفر صورة جمل تحت الكتابة ، جعله لاعباً بذنبه ، وله سنام ضخم لا يتناسب حجمه

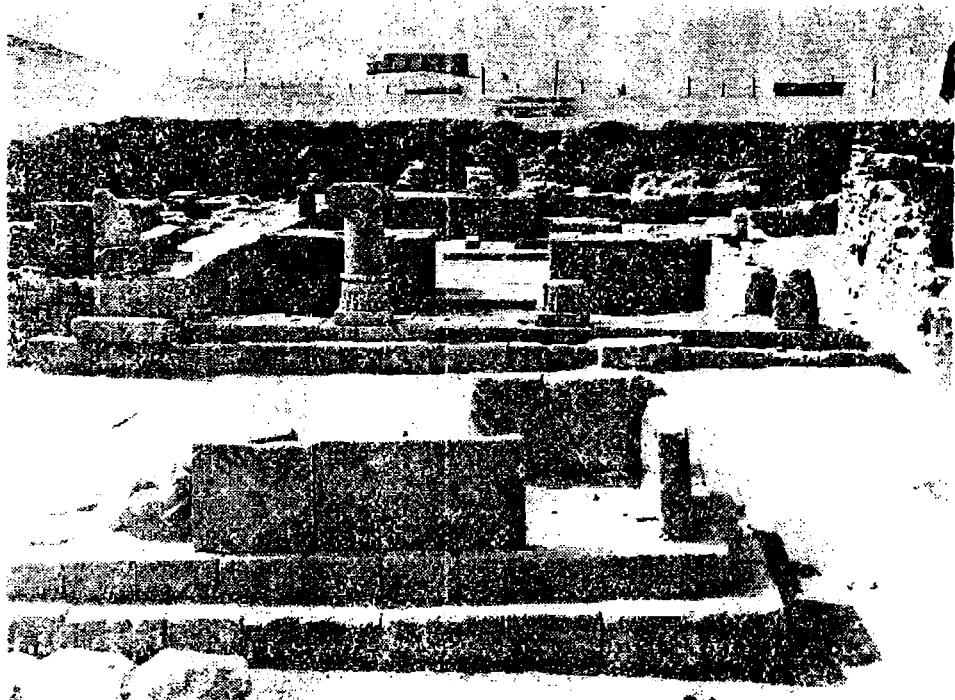
---

١ تنویر الحوالك ( ٢٤١ / ٢ ) ، تاج العروس ( ٤٢٣ / ٤ ) ، ( قصص ) .

مع جسم الجمل ، وله رقبة ورأس ، أقرب إلى رقبة الزرافة ورأسها من رأس ورقبة الجمل . ولكن الرسم لا يأس به بصورة عامة ، فإذا أدركنا أن راسه من الأعراب الذين عاشوا قبل الإسلام .

ونجد في الأحجار الصحفية الأخرى ، صور فرسان ، وهم يتحاربون ، أو يتسابقون ، وصور خيل وحيوانات أخرى . وبعض هذه الصور في غاية من الاتقان والإبداع ، وبعضاها تخل فتاً بدائياً ، لكنه يعبر عن وجود قابلية لدى رسامي هذه الصور الذين كانوا أعراباً ينتقلون في البوادي ، وهم مع ذلك كتبة ، لأننا نجد أسماء من رسم هذه الصور مكتوبة تحتها أو حوطاً لتدل عليهم .

وأما العربية الشرقية ، فقد عثرت العثاثات التي تقبت بها على أعمال فنية عديدة ، وقد عثر في (أبو ظبي) وفي أماكن أخرى من الخليج على آثار لم تكن معروفة من قبل . وقد أشرت في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب إلى عشر المئتين عن الآثار على آثار مهمة في البحرين وفي جزيرة (فيليكا) من جزر الكويت ، وهي



منظر المعبد الهيليني بعد تنظيفه ، وهو في جزيرة فيليكا وهو من منشورات قسم المتاحف والآثار بدولة الكويت

تشير الى اثر الاختلاط الذي كان بين الهند ، وفارس والروم والعرق وبين سكان الخليج ، قبل الميلاد بعهود طويلة . ولا بد وأن تتبت في هذه الأرضين حضارة مختلطة ، لأنها على ساحل بحر ، وعلى طريق يعتبر من أهم طرق العالم في التجارة وفي المواصلات الدولية في القديم وفي الحديث .

وفي جملة ما عثر عليه في جزيرة ( فيلكا ) بقايا معبد يوناني ، بناء جنود الاسكندر حين أقاموا واستقروا بها ، وقد تحكنت البعثة ( الدانماركية ) التي نقبت في هذه الجزيرة من العثور عليه ، ونظفت ساحتها حتى ظهر على هذه الصورة التي تراثا في الصفحة السابقة .

وفي جملة ما عثر عليه في جزيرة ( فيلكا ) نقود تعود الى أيام ( السلوقيين ) خلفاء الاسكندر ، وآثار اليونانيين الذين أقاموا في هذه الجزيرة منذ جاء جيش الاسكندر لفتح الهند . فاستقر قسم منهم بها وأنشأ معبداً فيها ، عثر في أنقاضه على بقايا أعمدة حجرية استخدمت لرفع سقفه ، يظهر عليها الأثر الهلنني بكل وضوح ، وعلى أحجار منقورة مزخرفة وعلى كتابات . وقد استخدم الحجر في أعمال البناء ، كما ترى ذلك في الصورة المأخوذة لموضعه، بعد تنظيفه وإعادة دائرة



تمثال أفروديت ، ويعود عهده الى حوالي السنة ٢٠٠ قبل الميلاد وهو من منشورات قسم الاثار والمتاحف بدولة الكويت

الآثار والمتاحف في الكويت للأحجار إلى مواضعها . كما عثر في هذه الجزيرة على جرار كثيرة تعود إلى العهد البرونزي ، تشبه الجرار الخزفية التي لا زال الناس يستعملونها في مواضع متعددة من جزيرة العرب .

ومن أبدع ما عثر عليه في هذه الجزيرة ، تمثال صغير من الطين المحمور يمثل ( أفروديت ) ، يعود عهده إلى حوالي السنة ( ٣٠٠ ) قبل الميلاد ، وهو تاريخ إنشاء هذا المعبد ، ومحبطة جميلة ، تمثل شجرة ، يظهر أنها كانت قد وضعت في أعلى واجهة المعبد . وتمثال رأس الاسكندر ، تحيط به الماء ، وتمثال آخر ، صنع من الطين المحمور ، وعدد كبير من الأختام ، حفرت عليها مناظر مختلفة ، فيها صور حيوانات ، يعود عهدها إلى القرن الثالث قبل الميلاد .



تمثال رأس الاسكندر تحيط به الماء  
من منشورات قسم الآثار والمتاحف بدولة الكويت

أما عن الفن العربي في العراق ، فنحن لا نستطيع أن نتكلم عنه إلا بإيجاز مخل ، وسبب ذلك ، أن الحيرة التي كانت عاصمة المناذرة ، والتي كانت من أكبر المستوطنات العربية ، هدمت في الفتح الإسلامي وما بعده لاستخدام طابوقها

وأنشأها في بناء ( الكوفة ) . فقد بني مسجد الكوفة بأنقاض قصور الخبرة ، فزالت بذلك معالم تلك المدينة ، ولم يبق منها أي شيء بتوالي الأيام .

ويظهر من الأخبار الواردة في كتاب أهل الأخبار ، أن أهل الخبرة كانوا يتذمرون ( إيواناً ) في قصورهم . يجعلونه موضوعاً مجلسون فيه . عرف بالإيوان الخبري . وقد كانوا يزخرفون الجدر باستعمال ( الأجر ) المزخرف . كما كانوا يطلون الجدر على الطريقة العراقية القديمة بطبقة من ( الجص ) ، ليظهر أملس أبيض ، وكأنوا يطلون الجدر الخارجية للبيوت بهذه الطبقة ، ومن هنا بدأ مدحاتهم وكأنها مدينة بيضاء ، فقيل لها الخبرة البيضاء .

### التصوير :

وقد عبر المقربون والباحثون عن الآثار القديمة على رسوم بشر وحيوان ونبات نقشها الجاهليون على الصخور والمجاراة ، يرمز بعض منها إلى أمور دينية وأساطير قديمة . ويعبر البعض الآخر عن مواهب فنية عند حافري هذه الصور ، وعلى مقدرة تقدر في الرسم ، وعلى وجود ميل فطرية عند أصحابها في الفن ، وفي محاولة لإبراز الم渥اط النفسية والتعابير بلغة فنية يفهمها كل إنسان ، هي لغة الرسم والتلمس .

وفي أخبار أهل الأخبار أن أهل الجاهلية كانوا يتقربون إلى الصور ، كما كانوا يزيتون بيوبهم بالصور وبالنسج المصور ، كما كانوا يستعملون ستائر ذات صور ، ويلبسون ملابس ذات صور ورسوم . ولما فتح الرسول مكة ، أمر بتحطيم ما كان بها من أصنام وأوثان . وقد ذكر أهل الأخبار ، انه كانت في الكعبة حمامات من عيدان فكسرها بيده ثم طرحتها ، ثم وجد صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم مصورةً في يده الأزلام يستقسم بها ، وصورة عيسى بن مریم وأمه ، وصورة الملائكة أجمعين . فأمر الرسول بطبع تلك الصور ، فغسلت بالماء ، ومسحت بثوب بلـ بالماء ، فطمسـت ، إلا صورة عيسى بن مریم وأمه ، إذ أمر الرسول باتفاقها كما تقول بعض الروايات ، فبقيت إلى أيام ( عبدالله بن الزبير ) ، فلما

تهم البيت ، تهدمت الصورة معه<sup>١</sup>.

وفي شعر ( امرى القيس ) اشارة الى التصوير . ففي البيت :

بلى ربَّ يَوْمٍ قَدْ هَرَتْ وَلِيْلَةٍ بِأَنْهَا خَطَّ تَشَال

اشارة الى التصوير . فالخط ، الكتابة والرسم ، والتمثال الصورة ، والصنم ، أي التمثال المجدس . والتماثيل الصور . وقد كانوا يصورون الصور ويرسمونها قبل الاسلام<sup>٢</sup> .

ولكتنا لا نملك اليوم صوراً زيتية أو صوراً أخرى مرسومة بالألوان او بالحبر او الصبغ الأسود على أدم او قراطيس ، او الواح ، فإن مثل هذه الصور لا يمكن أن تعمم طويلاً تحت الأرضية لذلك تبل ، ولا استبعد احتمال عشرات المئتين في المستقبل على مثل هذه الصور ، لما ذكرته من وجود الصور والتصوير عند الجاهليين .

وقد كان الجاهليون يقتنون الصور يضعونها في بيوتهم للزينة ، كما كان هناك مصوروون يعيشون من بيع الصور التي يرسمونها ، وصناعة تماثيل ، ينتجونها او يعملونها بالقوالب يجعل عجين الجبس فيها ، فإذا جفَّ أخذ شكل التمثال ، فيباع . وقد أشير الى التصوير وصنع التمايل في الحديث ، بمناسبة ما ورد فيه من كره الإسلام للتصوير ؛ أو تحريمكما ذهب اليه البعض ، فقد كره في الإسلام تصوير كل ذي روح ، مثل تصوير إنسان أو حيوان ، وكراهية بيع المصورات ، والخناد التصوير حرفة يتبعها . وقد سأله بعض المصورين ( ابن عباس ) رأيه في التصوير ، وهي حرفة التي كان يتبعها منها ، فنهاه عنها ، إلا إذا صور شجراً أو شيئاً لا روح فيه . وكانت معيشة هذا المصور من صنعة يده ، يصنع التصاویر ويبيعها للناس<sup>٣</sup> .

١ الازرقي ( ١٠٤ / ١ وما بعدها ) ، السيرة الحلبية ( ٨٧ / ٣ ) ، ابن هشام ، سيرة ( ٢٧٤ / ٢ وما بعدها ) ، ( حاشية على الروض ) ، الروض الانف ( ٢٧٤ / ٢ وما بعدها ) ، ابن الاثير ( ١٠٥ / ٢ ) ، نهاية الارب ( ٣١٣ / ١٧ ) ، أمتعة الاسماع ( ٣٨٥ / ١ ) .

٢ الغزانة ( ٣١ / ١ ) ، ( بولاق ) .

٣ ارشاد الساري ( ١٠٧ / ٤ ) ، ( باب بيع التصاویر ) .

وقد كانت الوثنية لا تتعارض مع التصوير ، بل كانت تشجعه وتشجع الفنانين الجميلة . فقد كانت الأصنام عماد سنتهم ، وال إليها كانوا يتقربون ، وكانوا يضعونها في بيوتهم للتقرب إليها والتبرك بها ، كما أنهم لم يكرهوا الغناء ولا الموسيقى ، لما لها من صلة بأعيادهم وبالطقوس الدينية .

وقد منع من بيع الأصنام ، أي التأليل في الإسلام ، كما حرم بيع الصور المتخالفة من جوهر تقدير<sup>١</sup> ، وكان بين أهل مكة وغيرها من القرى أناس يتعيشون من بيعها ، ويقتربون في صنعها ، فاتت بذلك هذه الحرفة التي هي من الفنون الجميلة ، مثل التصوير .

---

١ ارشاد الساري (٤/١١٤) ، (باب تحريم بيع الميتة والاصنام) .

## الفصل العشرون بعد المئة

### أمية الجاهليين

الشائع بين كثير من الناس ان العرب قبل الاسلام كانوا في جهالة عباء وضلاله، لا يقرأون ، ولا يكتبون ، وان الكتابة كانت قليلة بينهم ، واستدلوا على رأيهم هذا باطلاقهم لفظة (الجاهلية) على اياهم ، وبما جاء من انهم كانوا قوماً (أميّن لا يكتبون ) . واستدلوا على ذلك بحديث ذكر ان الرسول قاله ، هو « إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب »<sup>١</sup> .

وقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن معنى (الجاهلية ) ، وعن الآراء التي قيلت فيها ، حديثاً فيه إفاضة وإحاطة ، وقد قلت فيها قوله ان تفسير الجاهلية بالجهل ، الذي هو ضد العلم ، تفسير مغلوط ، وان المراد من الجاهلية السفه والخبيث والغلظة والغرور ، وقد كانت تلك أبرز صفات المجتمع الجاهيلي آنذاك ، وتحدثت في كتابي : ( تاريخ العرب قبل الاسلام ) عن معنى الأمية وذلك في اثناء كلامي على أميّة الرسول وآراء العلماء فيها من مسلمين ومستشرقين<sup>٢</sup> ، وقلت ان للأمية معنى آخر غير المعنى المتداول المعروف ، وهو الجهل بالكتابة والقراءة . فقد ذكر ( الفراء ) وهو من علماء العربية المعروفين ، ان الأميين هم

١ البيان والتبيين ( ٣/٢٨ ) ، الصاحبي ( ٨/١١ ) ، تفسير القرطبي ( ٥/٢ ) ، البقرة الآية ٨٧ ، اللسان ( ١٢/٣٤ ) ، ( أم ) ، تاج العروس ( ٨/١٩١ ) ، ( أم ) .  
٢ الصفة ١٣٦ وما بعدها .

العرب الذين لم يكن لهم كتاب<sup>١</sup> . ويراد بالكتاب . التوراة والإنجيل . ولذلك نعت اليهود والنصارى في القرآن بـ ( أهل الكتاب ) ، وهذا المعنى يناسب كل المناسبة لفظة (الأمين) الواردة في القرآن الكريم ، وتعنى الوثنيين أي جماع قريش وبقية العرب ، من لم يكن من يهود وليس له كتاب .

والعلماء آراء في الأمية ، وذلك لما لها من صلة بالرسول ، ولما كان القرآن قد نعمت قوم الرسول بالأمين ، وجعل الرسول أمياً مثلهم ، فقد ذهبوا إلى أن العرب كانوا قبل الإسلام أميين بمعنى أنهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون إلا من شدّ منهم وندر ، وإلا أفراداً من أهل مكة ، زعموا أنهم تعلموا الكتابة من عهد غير بعيد عن الإسلام ، ولو أخذنا أقوالهم مأخذ الجد ، وجب علينا القول بأنهم إنما تعلموها في حياة الرسول أي قبل الوحي بسنين ليست بكثيرة ، وإن مكة كانت المدينة الوحيدة التي عرفت الكتابة في جزيرة العرب ، وهو كلام لا يقوم على علم : فقد كان يُثرب كتاب يكتبون بكتاب مكة ، وكان في أماكن أخرى كتاب يكتبون بكتابهم أيضاً ، فضلاً عن انتشار الكتابة بالمسند في العربية الجنوبية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب .

والرسول أمي ، لم يقرأ ولم يكتب ، فإذا أراد كتابة رسالة أو عهد أو تدوين الوحي ، أمر كتابه بالتدوين . على ذلك أجمع المسلمون . وقد وردت في القرآن آيات مثل : « اقرأ باسم ربك »<sup>٢</sup> ، الآية : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمنيك اذا لاراتب المبطلون »<sup>٣</sup> . اخذها البعض على أن فيها دلالة على أن النبي كان يقرأ ويكتب ، واستدل أيضاً بعض ما ورد في كتب الحديث والسير ، وفيه ما يفيد أنه كان ملماً بالقراءة والكتابة . كالذى ورد في صحيح (الحدىبية) انه « هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة . وهو ما وقع في البخاري »<sup>٤</sup> . وما جاء في السيرة لابن هشام : « فيينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكتب

١ المفردات ( ص ٢٢ ) .

٢ سورة اقرأ ، الآية الأولى .

٣ العنكبوت ، الآية ٤٨ ، تفسير الطبرى ( ٤/٢١ ) .

٤ الروض الافت ( ٢٣٠/٢ ) ، الحلبية ( ٣/٣ وما بعدها ) .

Nöldeke, Geschichte des Qorâns, I, S. 13.

الكتاب هو وسهيل<sup>١</sup> . وما جاء في البخاري : « وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الكتاب ليكتب ، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد<sup>٢</sup> » . وقالوا ان في هذا المذكور وفي غيره من مثل ما ورد من ان الرسول « لما اشتد وجعه ، قال : اثنوني بالدواء والكتب اكتب لكم كتاباً لا تضلون معه بعدي أبداً<sup>٣</sup> » ، ومثل ما ورد « في حديث أبي بكر رضي الله عنه ، انه دعا في مرضه بدواء ومزبئر فكتب اسم الخليفة بعده<sup>٤</sup> ، دلالة صريحة على قدرته على الكتابة والقراءة<sup>٥</sup> .

وللعلماء كلام في الأدلة المذكورة ، وطم آراء في تفسير الآيات التي تعرضت لموضوع الأمية . والأمي في تفسير علماء اللغة من لا يكتب ، او العي الجلف الجافى القليل الكلام . قبل له أمي لأنه على ما ولدته أمه عليه من قلة الكلام وعجمة اللسان<sup>٦</sup> ، او الجهل الثام بالقراءة والكتابة . « لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب<sup>٧</sup> » ، او لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة او عدية<sup>٨</sup> ، او الأمي الذي على خلقة الأمة ، لم يتعلم الكتاب ، فهو على جبلته . وقد ورد في الحديث : « إنا أمة أمية لا نكتب<sup>٩</sup> » ، او « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب<sup>١٠</sup> » ، او « بعثت إلى أمة أمية<sup>١١</sup> » ، فذهبوا إلى ان العرب كانوا على أصل ولادة أمهم ، لم يتعلموا الكتابة ولا الحساب ، فهم على جبلتهم الأولى . « وكل شيء للعرب ، فإنما هو بدبه وارتجال ... ثم لا يقيده على نفسه ولا

١ Nöldeke, I, S. 13.

٢ الروض الانف (٢٣٠/٢) ، الطبرى (٨٠/٣) ، (السنة السادسة) ، (٦٣٥/٢) (دار المعارف) ، الحلبيه (٢٤/١) .

٣ البلاذري (٥٦٢/١) ، (اثنوني باللوح والدواة - او بالكتف والدواة - اكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده) ، (اثنوني اكتب كتاباً لا تضلوا بعدي أبداً) ، الطبرى (١٩٢/٣ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٤ تاج المرروس (٢٣١/٣) ، (ذير) .

٥ Nöldeke, I, S. 12. ff.

٦ اللسان (٣٤/١٢) ، (أمم) .

٧ تاج المرروس (١٩١/٨) ، (أمم) .

٨ تاج المرروس (١٩١/٨) ، (أمم) .

٩ النسان (٣٤/١٢) ، (أمم) .

١٠ تاج المرروس (١٩١/٨) ، (أمم) ، المفردات (٢٢) .

اللسان (٣٤/١٢) ، (أمم) .

يدرسه أحداً من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون <sup>١</sup> .

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (الأمي) <sup>٢</sup> ، و (أميون) <sup>٣</sup> ، و (أميين) <sup>٤</sup> ، ونعت الرسول بـ (النبي الأمي) <sup>٥</sup> ، وردت في سور مكية وفي سور مدنية . وردت لفظة (الأمي) في سورة الأعراف ، وهي من السور المكية ، ووردت لفظة (أميون) و (الأميين) في سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة الجمعة ، وهي من السور المدنية . ويلاحظ أن الآيتين المكتوبتين، خاصتان بالرسول، فنعت فيها بـ (النبي الأمي) ، أما الآيات المدنية ، فقد قصد بها (الأميين) ، الذين ليس لهم كتاب . بمعنى المشركين :

وقد بحث (الراغب الأصبهاني) في معنى (الأمية) فقال : « والأمي : هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه حمل: هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم . قال قطرب : الأمية : الغفلة والجهالة . فالأمي منه ، وذلك هو قلة المعرفة . ومنه قوله تعالى : ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا اماني ، اي إلا أن يتلئ عليهم . قال الفراء : هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب . والنبي الأمي الذي يجدونه مكتوبآ عندهم في التوراة والإنجيل ، قيل منسوب إلى الأمة الذين لم يكتبوا لكونهم على عادتهم . كقولك عامي لكونه على عادة العامة . وقيل : سمي بذلك لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وذلك فضيلة له لاستغفاره بحفظه واعتقاده على ضمان الله منه بقوله : سنقرئك فلا تنسي . قيل سمي بذلك لنسبته إلى أم القرى <sup>٦</sup> .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الأميين من لا كتاب لهم من الناس ، مثل الوثين والمجروس ، قال الطبرى في تفسير الآية : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلمتم؟ فإن أسلمو فقد اهتدوا <sup>٧</sup> : « يعني بذلك جل ثناوه ، وقل

١ البيان والتبيين (٢٨/٣) .

٢ الأعراف ، الآية ١٥٦ وما بعدها .

٣ البقرة ، الآية ٧٨ .

٤ آل عمران ، الآية ١٠ ، ٧٥ ، الجمعة ، الآية ٢ .

٥ الأعراف ، الآية ١٥٦ وما بعدها .

٦ المفردات في غريب القرآن (٢٢) .

٧ آل عمران ، الرقم ٣ ، الآية ٢٠ .

يا محمد للذين أتوا الكتاب من اليهود والتصارى والأمين ، الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب أسلم .. <sup>١</sup> . وذهب كثير من المفسرين إلى أن الأميين الذين لا كتاب لهم ، أي الدين ليسوا يهوداً ولا تصارى . وورد : « إن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم » <sup>٢</sup> . قال الطبرى : « وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم ، ففرح الكفار بحكمة وشتموا ، فلقو اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنكم أهل كتاب والتصارى أهل كتاب ، ونحن أميون ، وقد ظهر أخواننا من أهل فارس على أخوانكم من أهل الكتاب » <sup>٣</sup> . فالمسلمون أهل كتاب ، والمجوس أميون كمشركي مكة وبقية العرب المشركين ، لا لكونهم لا يقرؤون ولا يكتبون ، بل لأنهم لم يؤمنوا للتوراة والإنجيل .

ويلاحظ أن الآية : « وقل للذين أتوا الكتاب والأمين » <sup>٤</sup> ، والآية : « ومن أهل الكتاب من ان تأمه بقنتار يؤده اليك ، ومنهم من ان تأمه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل » <sup>٥</sup> ؛ والآية : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا امامي » <sup>٦</sup> ، وكذلك : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم » <sup>٧</sup> ، لا تؤدي معنى الأمية ، بمعنى الأمة الجاهلة بالقراءة والكتابة ، لعدم انسجام التفسير مع المعنى، وإنما تؤدي معنى وثنية ، اي امة لم تؤمن بكتاب من الكتب السماوية ، اي في المعنى المتقدم . « والأمي والأمان - بضمها - من لا يكتب او من هو على خلفية الأمة لم يتمتع الكتاب ، وهو باق على جبلته . وفي الحديث : إنما أمية ، لا نكتب ولا نحسب . اراد انه على اصل ولادة امهم ، لم يتعمدوا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى .

١ تفسير الطبرى (١٤٣/٣)

٢ روح المعانى (٢١/١٧ وما بعدها) ، (كان المسلمين يحبون أن تغلب الروم أهل الكتاب ، وكان المشركون يحبون أن يغلب أهل فارس لأنهم أهل أوثان) ، تفسير الطبرى (٢١/١٢ وما بعدهما) \*

٣ تفسير الطبرى (١٣/٢١)

٤ آل عمران ، الرقى ٣ ، الآية ٢٠

٥ آل عمران ، الرقى ٣ ، الآية ٧٥

٦ البقرة ، الرقى ٢ ، الآية ٧٨

٧ الجمعة ، الرقى ٦٢ ، الآية ٢

وقيل لسيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الأمي لأن امة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب ، وبعثه الله رسولًا ، وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة احدى آياته المعجزة ، لأنَّه صلى الله عليه وسلم ، تلا عليهم كتاب الله منظوماً نارة بعد أخرى ، بالنظم الذي انزل عليه ، فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، ففي ذلك انزل الله تعالى : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ، اذاً لارتاب المبطلون . وقال الحافظ ابن حجر في تخرير احاديث الرافعي ان مما حرم عليه صلى الله عليه وسلم : الخلط والشعر ، وإنما يتوجه التحريم ان قلنا انه كان يحسنها ، والأصح انه كان لا يحسنها ، ولكن يميز بين جيد الشعر ورديه . وادعى بعضهم انه صار يعلم الكتابة بعد ان كان لا يعلمها لقوله تعالى من قبله في الآية . فإن عدم معرفته بسبب الاعجاز . فلما اشتهر الاسلام وأمن الارتباط عرف حيثية الكتابة . وقد روي عن ابن أبي شيبة وغيره : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كتب وقرأ ، وذكره مجالد للشعبي . فقال ليس في الآية ما ينافي . قال ابن دحية : واليه ذهب ابو ذر الفتح النيسابوري والباجي وصنف فيه كتاباً ، ووافقه عليه بعض علماء افريقيا وصقلية . وقالوا : ان معرفة الكتابة بعد اميته لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة اخرى بعد معرفة اميته وتحقق معجزته ، وعليه تننزل الآية السابقة والحديث فإن معرفته من غير تقدم تعلم معجزة . وصنف ابو محمد بن مفروز كتاباً رد فيه على الباجي وبين فيه خطأه ، وقال بعضهم يحمل ان يراد انه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييز الحروف ، كما يكتب بعض الملوك علامتهم وهم اميون ، والى هذا ذهب القاضي ابو جعفر السمناني<sup>١</sup> .

وقد تعرض (الألوسي) لهذا الموضوع في تفسيره الآية : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ، اذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم ، وما يجحد آياتنا إلا الظالمون »<sup>٢</sup> . فقال : « وانختلف في انه صلى الله عليه وسلم ، أكان بعد النبوة يقرأ ويكتب ام لا ؟ فقيل انه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واختاره الغوي في التهذيب ، وقال : انه الأصح . وادعى بعضهم انه صلى الله عليه وسلم ، صار يعلم الكتابة بعد ان كان

١ تاج الروس (١٩١/٨) ، (آم) .

٢ العنكبوت ، ٢٩ ، الآية ٤٨ ، تفسير الطبرى (٤/٢١) ، تفسير الالوسي (٤/٢١)

لا يعلمها ، وعدم معرفتها بسبب المعجزة هذه الآية ، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتباط تعرف الكتابة جيداً . وروى ابن أبي شيبة وغيره : ما مات صلٰى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ . ونقل هذا للشعبي فصدقه ، وقال : سمعت أقواماً يقولونه وليس في الآية ما ينافيه . وروى ابن ماجه عن أنس قال : قال صلٰى الله عليه وسلم : رأيت ليلة أسرى بي مكتوباً على الجنة : الصدقة بعشر امثالها ، والقرض بئانية عشر .

ثم قال : ويشهد للكتابة أحاديث في صحيح البخاري وغيره ، كما ورد في صحيح المحدثية : فأخذ رسول الله صلٰى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، الحديث .

ومن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أبى الهروي ، وأبو الفتح النيسابوري ، وأبو الوليد الباقي من المغاربة ، وحكااه عن السمناني . وصنف فيه كتاباً ، وسبقه إليه ابن منية . ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمي بالزنقة وسبَّ على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه ، وكتب به إلى علماء الأطراف ، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتابة بعد ايمته صلٰى الله عليه وسلم ، لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم .

وقد رد بعض الأجلة كتاب الباقي لما في الحديث الصحيح إنما أمية نكتب ولا نحسب . وقال : كل ما ورد في الحديث من قوله : كتب ، فعناته أمر بالكتابة ، كما يقال : كتب السلطان بكلنا لفلان . وتقديم قوله تعالى : من قبله على قوله سبحانه : ولا تخطه كالصرير في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً . وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطرد . وظن بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده ، فقال : يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادرًا على التلاوة والخط بعد انتزال الكتاب ، ولو لا هذا الاعتبار ، لكان الكلام خلواً من الفائدة . وأنت تعلم أنه لو سُلِّمَ ما ذكره من الرجوع ، لا يتم أمر الإفادة إلا إذا قيل بمحاجة المفهوم ، والظان من لا يقول بمحاجته .

ثم قال الألوسي في تفنيـد هذه الردود ما نصـه :

ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام : إنما أمية لا نكتب ولا نحسب ، ليس نصاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام . ولعل ذلك باعتبار

انه بعث عليه الصلاة والسلام ، وهو واكثر من بعث اليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب اميون ، لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الامية في الاكثر بعد . واما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة ، فخلاف الظاهر . وفي شرح صحيح مسلم للنروي عليه الرحمة نقاً عن القاضي عياض : ان قوله في الرواية التي ذكرناها : ولا يحسن يكتب فكتب ، كالنص في انه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه ، فالعدل عنده الى غيره مجاز لا ضرورة اليه . ثم قال : وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة وشنت كل فرقة على الأخرى في هذا <sup>١</sup> .

وبحث ( القرطبي ) في هذا الموضوع ايضاً ، فقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، الضمير في قوله عائد الى الكتاب ، وهو القرآن المترول على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، اي وما كنت يا محمد تقرأ قبله ، ولا تختلف الى اهل الكتاب ، بل أنزلناه اليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيب وغير ذلك ، فلو كنت من يقرأ كتاباً ، وينحط حروفه لارتاب المبطلون اي من اهل الكتاب ، وكان لهم في ارتباهم متعلق ، وقالوا الذي نجده في كتابنا انه امي لا يكتب ولا يقرأ وليس به . قال مجاهد : كان اهل الكتاب يجدون في كتبهم ان محمداً صلى الله عليه وسلم ، لا يخط ولا يقرأ ، فترتت هذه الآية ؛ قال التحاش : دليلاً على نبوته لقريش ، لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط اهل الكتاب ولم يكن عبكاً اهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشك .

الثانية : ذكر النقاش في تفسير الآية عن الشعبي انه قال : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى كتب . واستند ايضاً حديث ابي كبشة السلوقي ؛ مضمنه : انه صلى الله عليه وسلم ، قرأ صحفة لعيينة بن حصن ، وأنخبر بمعناها . قال ابي عطية : وهذا كله ضعيف ، وقول الباقي رحمة الله منه .

قلت : وقع في صحيح مسلم من حديث البراء في صلح الحديبية ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال لعلي<sup>٢</sup> : اكتب الشرط بيننا : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال له المشركون : لو نعلم انك رسول الله تابعناك – وفي رواية بایتناك – ولكن اكتب محمد بن عبدالله ، فأمر علياً

<sup>١</sup> محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن (ص ٣٥٨ وما بعدها) (طبعة الثانية) ، (عيسي البابي الحلبي) .

ان يمحوها ، فقال علي : والله لا أخاه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرني مكانها ، فأراه فحاحا وكتب ابن عبدالله . قال علينا رضي الله عنهم : وظاهر هذا انه عليه السلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيده ، وكتب مكانها اين عبدالله ، وقد رواه البخاري بأظهر من هذا . فقال : فأخذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الكتاب فكتب . وزاد في طريق أخرى : ولا يحسن ان يكتب . فقال جماعة ، بمحواز هذا الظاهر عليه وانه كتب بيده ، منهم السناني وأبو ذر والباجي ، ورأوا ان ذلك غير قادر في كونه أميا ، ولا معارض بقوله : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيدينك ، ولا بقوله : إنما أمية لا نكتب ولا نحسب ، بل رأوه زيادة في معجزاته ، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته ، وذلك انه كتب عن غير تعلم لكتابه ، ولا تعاط لأسبابها ، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ابن عبدالله لمن قرأها ، فكان ذلك خارقاً للعادة ، كما انه عليه السلام عَلِمَ علم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب ، فكان ذلك أبلغ معجزاته ، وأعظم فضائله . ولا يزول عنه اسم الأمي بذلك ، ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة : ولا يحسن ان يكتب . فبني عليه اسم الأمي مع كونه قال : كتب . قال شيخنا أبو العباس احمد بن عمر : وقد أنكر هذا كثير من منفقة الأندلس وغيرهم ، وشددوا التكير فيه ، ونسبوا قاتله الى الكفر ، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية ، وعدم التوقف في تكفير المسلمين ، ولم يتغطنا ، لأن تكفير المسلم كفته على ما جاء عنه عليه السلام في الصحيح ، لا سيما رمي من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامية ، على ان المسألة ليست قطعية ، بل مستندا ظواهر أخبار آحاد صحيحه، غير ان العقل لا يحيلها ، وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

قلت : وقال بعض المتأخرین من قال هي آیة خارقة ، فيقال له : كانت تكون آیة لا تنكر لو لا أنها مناقضة لآیة أخرى وهي كونه أميا لا يكتب، وبكونه أميا في أمية قاست الحجة ، وأفحى المجادلون ، وانحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آیة . وإنما الآیة لا يكتب، والمعجزات يستحيل ان يدفع بعضها بعضاً . وإنما معنى كتب وأخذ القلم ، أي أمر من يكتب به من كتابه، وكان من كتبة الرحي بين يديه صلى الله عليه وسلم ، ستة وعشرون كتاباً.

الثالثة — ذكر القاضي عياض عن معاوية انه كان يكتب بين يدي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أتى الدواة وحرف القلم وأقم الباء وفرق السين ، ولا تهور الميم ، وحسن الله ، ومد الرحمن ، وجود الرحيم . قال القاضي : وهذا وإن لم تصح الرواية انه صلى الله عليه وسلم ، كتب ، فلا يبعد ان يُرزق علم هذا ، وينعن القراءة والكتابة .

قلت : هذا هو الصحيح في الباب انه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وإنما امر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجي . فإن قيل : فقد تهجي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حين ذكر الدجال ، فقال : مكتوب بين عينيه لك ا ف ر ، وقلت ان المعجزة قائمة في كونه أمياً ، قال الله تعالى : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، الآية . وقال : إنما أمية لا نكتب ولا نحسب . فكيف هذا ؟ فالجواب ما نص صلى الله عليه وسلم ، في حديث حذيفة ، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضاً . ففي حديث حذيفة : يقرأ كل مؤمن كتاب وغير كاتب ، فقد نص في ذلك على غير الكتاب من يكون أمياً . وهذا من أوضاع ما يكون جلياً<sup>١</sup> .

وقد ذهب (الطبرسي) في تفسيره للآية المذكورة الى ان الرسول ساوي قومه في المولد والنشأ ، لكنه جاء بما عجز عنه الآخرون من كلام الله والنبوة ، فهو أمي مثلهم . ثم عرض رأي (الشريف المرتضى) ، القائل : « هذه الآية تدل على ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ما كان يحسن الكتابة قبل النبوة ، فاما بعد النبوة فالذى نعتقده في ذلك التجويز ، لكونه عالماً بالكتابة والقراءة والتجويز لكونه غير عالم بما من غير قطع على أحد الأمرين . وظاهر الآية يقتضي ان النبي قد تعلق بما قبل النبوة دون ما بعدها ، ولأن التعليل في الآية يقتضي اختصاص النبي بما قبل النبوة ، لأن المبطلين اما يرتابون في نبوته صلى الله عليه وسلم ، لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة . فاما بعد النبوة ، فلا تعلق له بالريبة والتهمة فيجوز ان يكون قد تعلمها من جرائيل عليه السلام ، بعد النبوة »<sup>٢</sup> .

وتعرض (المحاظظ) لهذا الموضوع أيضاً ، فقال نقاً عن كلام شيخ من

١- الجامع لاحكام القرآن (١٣/٣٥١ وما بعدها) .

٢- الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن (الجزء الثامن من ٢٨٩) .

البصريين ، « إن الله إنما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ، ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يعتمد البلاغة ، ليتفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة، ويقتصره على معرفة مصالح الدين دون ما تباهى به العرب ، من قيافة الأثر والبشر ، ومن العلم بالأنواع وبالتحليل ، وبالأنساب وبالأخبار ، وتتكلف قول الأشعار ، ليكون اذا جاء بالقرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب ، كان ذلك أدل على انه من الله . »

وزعم ان الله تعالى لم يتعنده معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أقصى حظاً من الحاسب الكاتب ، ومن الخطيب المناسب ، ولكن ليجعله نبياً ، وليتولى من تعليمه ما هو أزكي وأنقي . فإنما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القبائل ليجلji له الكثير »<sup>١</sup> .

وقد رد (الجاحظ) على كلامه هذا ، بقوله : « وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يُرِد إلا الخير . وقال يبلغ علمه ومتنه رأيه . ولو زعم ان أداء الحساب والكتابة ، وأداء قرض الشعر ورواية جميع النسب ، قد كانت فيه تامة وافرة ، وبجتنمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة الى ما هو أزكي بالنبوة ، وأشبى بمرتبة الرسالة ، وكان اذا احتاج الى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، وإذا احتاج الى الخطابة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقورف من كل قائف ، ولو كان في ظاهره ، والمعروف من شأنه انه كاتب حاسب ، وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، ما كان ذلك بمانع من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لأمره على سخطهم ورضاهem ، ومكرورهم ومحبوبهم . ولكنه اراد ألا يكون للشاغب متعلق بما دعا اليه حتى لا يكون دون المعرفة بمحققه حجاب وان رق ، ول يكن ذلك أخف في المؤونة ، وأسهل في المحتنة . فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفوها ويتأفسون فيها ، فلما طال هجرانه لفرض الشعر وروايته ، صار لسانه لا ينطلق به ، والعادة توأم الطبيعة . فأما في غير ذلك فإنه اذا شاء كان أنطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقورف من كل قائف . وكانت آلة أوف وأداته أكمل ، إلا أنها كانت مصروفة الى ما هو أرد . »

وين ان نضيف اليه العجز ، وبين ان نضيف اليه العادة الحسنة وامتناع الشيء  
عليه من طول المجران له ، فرقٌ .

ومن العجب ان صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام في حال معجزة قط ،  
بل لم يره الا وهو ان أطال الكلام قصر عنه كل مُطيل ، وان قصر القول اتى  
على غابة كل خطيب ، وما عدم منه إلا الخط واقامة الشعر ، فكيف ذهب ذلك  
المذهب ، والظاهر من امره عليه السلام خلاف ما توهם ٤١ ١ .

فهذا هو رأي الملاحظ في امية الرسول .

واما حديث : « إنما أمة لا نكتب ولا نحسب » ، فيعارضه حديث آخر  
ينسب الى الرسول هو : « قريش اهل الله ، وهم الكتبة الحسبة » ٢ . « ويقال  
قريش اهل الله ، لأنهم كتبة حسبة » ٣ . والقرآن الكريم نفسه ، يفتد ان قريشاً  
لم يكونوا بخسنو الكتاب او الحساب ، لما فيه من آيات تناقض هذا الرأي . وفي  
الحديث ، أحاديث كثيرة يجب عدم الأخذ بها ، لأنها ضعيفة ، ويشبه ان يكون  
ال الحديث المذكور واحد منها . ومن هذه الأحاديث الضعيفة ، حديث : « حق  
الوالد على ولده ان يعلمه الكتابة والسباحة ، والرماء ، وان لا يرزقه إلا طيباً » ،  
وحديث : « حق الوالد على ولده ان يحسن اسمه ، ويزوّجه اذا أدرك ، ويعمله  
الكتاب » ٤ . والحديث المذكور من الأحاديث التي يرجع سندها الى (ابي هريرة)  
وفي الأحاديث المنسوبة اليه احاديث كثيرة يجب عدم الأخذ بها .

ولو أخذنا بالحديث على علاته ، وقبلناه دون نقد ، كما يفعل كثير من الناس ،  
وجب علينا القول ان الرسول كان يقرأ ويكتب . ورد : « وذكر صاحب  
الشرعية ايضاً ، انه صلى الله عليه وسلم ، قال لمعاوية رضي الله عنه ، وهو يكتب  
بين يديه : ألقِ الدواة ، وحرّقَ القلم ، وانصب الباء ، وفرقَ السين ، ولا  
تعورْ الميم ، وحسنَ الله ، ومدَ الرحمن ، وجودَ الرحيم » ٥ ، وانه قال  
(لزيد بن ثابت) وهو احد كتابه : « اذا كتبتَ بسم الله الرحمن الرحيم فين

١ البيان والتبيين (٤/٣٣ وما بعدها) .

٢ الصولي ، أدب الكتاب (٢٨) .

٣ حكمة الاشراف (٦٧) .

٤ الجامع الصغير ، رقم ٣٧٤٢ ، ٣٧٤٣ ، حكمة الاشراف (٦٦ وما بعدها) .

٥ حكمة الاشراف (٦٧) .

السين فيه <sup>١</sup> ، فهل يعقل صدور هذا الوصف ، وهذه التسمية للحروف ، وهذه المصطلحات من رجل أمي ، لا يقرأ ولا يكتب . وقد روى الرواة هذين الحديثين مع تعارضها لأقوال العلماء ، ورووا أيضاً أن (أبا ذر) الغفاري سأله الرسول : « يا رسول الله ، كل نبي مرسلاً يُرسل ؟ قال : بكتاب متزل . قلت : يا رسول الله ، أي كتاب أنزل على آدم ؟ قال : أب تث ج إلى آخره . قلت : يا رسول الله ، كم حرف ؟ قال : تسعة وعشرون . قلت : يا رسول الله ، عدلت ثمانية وعشرين ، فغضب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى احرثت عيناه ، ثم قال : يا أبا ذر ، والذي بعثني بالحق نبياً ! ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعة وعشرين حرفاً . قلت : يا رسول الله ، فيها ألف لام . فقال عليه السلام : لام ألف حرف واحد ، أنزله على آدم في صحيفة واحدة ، ومعه سبعون ألف ملك . من خالف لام ألف ، فقد كفر بما أنزل على آدم ! ومن لم يعد لام ألف فهو بريء مني وأنا بريء منه ! ومن لا يؤمن بالحروف ، وهي تسعة وعشرون حرفاً لا يخرج من النار أبداً <sup>٢</sup> . وبعد فهل تقبل بحديث من هذا النوع ، وكل ما فيه يطعن في صحته !

ويظهر صراحة من الآية : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفني ضلال مبين <sup>٣</sup> » ، ان مرادها من الأميين ، ليس الجهل بالكتابة والقراءة ، وإنما العرب الذين لم يكن عندهم كتاب متزل من السماء . ودليل ذلك ما اورده (الطبرى) في تفسيرها من اقوال وروايات . فقد قال : « والأميون هم العرب » ، قال (قتادة) : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم . قال : كان هذا الحمى من العرب أمة أمية ليس فيها كتاب يقرأونه ، فبعث الله نبيه محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، رحمة وهدى يهدى بهم بشه » ، وقال : « كانت هذه الأمة أمية لا يقرأون كتاباً » ، وقال : « إنما سميت أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأميين لأنهم لم ينزل عليهم كتاباً » ، قوله : « ويعلّمهم الكتاب . يقول ويعلّمهم

١- الجامع الصغير (٨٣٥) ، حكمة الاشراق (٦٧) .

٢- صبح الاعشى (٧/٣) .

٣- الجمعة ، الآية ٢

كتاب الله وما فيه من امر الله ونفيه وشرائع دينه، والحكمة يعني بالحكمة السنن ». وقال : « ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ايضاً ، كما علم هؤلاء . يزكيهم بالكتاب والأعمال الصالحة ويعلمهم الكتاب والحكمة كما صنع بالأولين » ، وقال في تفسيره « وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين . يقول تعالى ذكره ، وقد كان هؤلاء الأيمون من قبل ان يبعث الله فيهم رسولاً منهم في جور عن قصد السبيل وأخذ على غير هدى مبين . يقول بين ملئ ثأره انه ضلال وجور عن الحق وطريق الرشد »<sup>١</sup> . وقال ( ابن كثير ) في تفسيرها : « وذلك ان العرب كانوا قد عدواً متسللين بدين ابراهيم التليل عليه السلام فبدأوه وغيروه وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكراً ... فبعث الله محمدًا صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل لجميع الخلق ، فيه هدایته والبيان لجميع ما يحتاجون اليه من امر معاشهم ومعادهم »<sup>٢</sup> . وقال ( القرطبي ) : قال ابن عباس : الأيمون العرب كلهم ، من كتب منهم ومن لم يكتب ، لأنهم لم يكونوا اهل كتاب »<sup>٣</sup> . فالآيمون اذن هم العرب ، لأنهم كانوا اهل شرك ، وليس لهم كتاب ، وليس للقطة صلة بالأمية التي تعني الجهل بالقراءة والكتابة .

واما حديث : « إنما امة أمية لا نكتب ولا نحسب . الشهر هكذا وهكذا : مرة تسعه وعشرين ومرة ثلاثين »<sup>٤</sup> . وقد نسب سنده الى ( ابن عمر ) ، فحكمه حكم الحديث السابق ، وقد فسر الحساب ، بأنه حساب النجوم وتسيرها ، لا الجهل بالحساب .

وقد ذهب ( شيرنكر ) الى ان الرسول كان يقرأ ويكتب ، وانه قرأ ( اساطير الأولين )<sup>٥</sup> ، و ( شيرنكر ) من المستشرقين العاطفين : الذين يأخذون بالخبر ، منها كان شأنه فيبني حكمًا عليه .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان المقصود من الأميين هنا الوثنيون . وان الأمية هذه اخذت من اليهود الذين كانوا يطلقون لفظة ( امت ) و ( ايم )

١ تفسير الطبرى ( ٢٨/٦١ و ما بعدها ) .

٢ تفسير ابن كثير ( ٤/٣٦٣ ) .

٣ الجامع لاحكام القرآن ( ١٨/٩١ ) .

٤ ارشاد السارى ( ٣/٣٥٩ ) .

على غيرهم ، يريدون بها الوثنين . كما في جملة : ( امت ها عالولام ) Ummot ha Olam <sup>١</sup> . وقد أطلق اليهود على الغرباء وعلى كل من هو غير يهودي ، ( كوي ) Goy للواحد ، و ( كويم ) Goyim للجمع . وتقابل هذه اللفظة لفظة Gentile في اللاتينية . ويقال للغريب عنهم ( الآخرين ) Ahimmah و Nochrim ، كذلك ، تمييزاً لهم عن العبرانيين الذين يذهبون الى انهم أمة مقدسة مفضلة على العالمين <sup>٢</sup> .

وذهب بعض المستشرقين اليهود الى ان لفظة ( الأميون ) معرية من اصل ( كوي ) و ( كوييم ) المذكور <sup>٣</sup> .

والذي أراه ان لفظة ( أمي ) و ( أمية ) لم تكن تعني عند الجاهليين معنى عدم القراءة والكتابة والجهل بها ، وإنما كانت تعني عندهم : مشركون ووثنيون ، وهو المعنى الذي ورد في القرآن الكريم . والذي نعت الرسول فيه بالأمي ، لأنه من العرب ، ومن قوم ليس لهم كتاب ، عرفا بذلك من قبل اهل الكتاب اليهود . أما تفسيرها بالجهل بالكتابة والقراءة ، فقد وقع في الإسلام ، أخذوه من ظاهر معنى لفظة ( الكتاب ) الواردة في القرآن ، فظنوا أنها تعني ( الكتابة ) بينما المراد منها الكتاب المُتَزَلُّ ، لعدم انسجام تفسيرها بالكتابة مع معنى الآية ، ودليل ذلك أنهم لما فسروا ( الأمية ) بمعنى عدم القراءة والكتابة حاروا في إيجاد مخرج لهذا التفسير ، فقالوا ما قالوه في تفسيرها من أنها سميت بالأمية لأنها على خلقة الأمة ، أو لأنها على الجبلة والفطرة ، وأصل ولادة الأمهات وما شاكل ذلك من تفاسير مضطربة باردة ، تخبر أن علماء اللغة لم يجدوا لها أصلاً وجوداً عند الجاهليين فلجأوا الى هذه التعليلات <sup>٤</sup> . ولو كانت الأمية معروفة عند اهل الجاهلية بهذا المعنى لاستشهدوا عليها بشعر من أشعار الجاهليين أو المخضرمين ، ولما بلجأوا الى هذه التفاسير المتکلفة ، لأن من عادتهم الاستشهاد بالشعر في تفسير

Shorter Ency. p. 764, Horovitz, Koranische Untersuchungen, 1926, S. 51,  
Buhl - Shaeder, Das Leben Muhammeds, Leipzig, 1930, S. 58, Nöldeke,  
Geschichte des Qorans, I, S. 14.

The Universe. Jewish Ency. Vol. 4, p. 533.

Torrey, The Jewish foundation of Islam, New York, 1933, p. 38, Abram  
I. Katsh, Judaism in Islam, New York, 1934, p. 75.

١ تاج العروس ( ١٩١٨ ) ، ( أم ) .

الألفاظ ، ولا سيما الألفاظ الغريبة ، فعدم استشهادهم بشاهد من شعر او نثر في تفسير الأمية هو دليل على ان اللقطة بهذا التفسير من الألفاظ التي ولدت في الاسلام ، وانها لم تكن عربية خالصة ، وإنما سمعوها من اهل الكتاب .

وعندي ان يهود يثرب هم الذين أطلقوا لفظة (الأميين) على العرب المشركين ، على عادتهم حتى هذا اليوم في نعت الغرباء عنهم بألفاظ خاصة مثل ( كوييم ) ، لتمييزهم عن أنفسهم ، باعتبارهم ( شعب الله المختار ) المؤمن بالله اسرائيل . وما يؤيد هذا الرأي ، إننا نطلق في عريتنا لفظة (الأمي) على من لا يعرف القراءة والكتابة معاً ، بينما نطلق على الشخص الذي يحسن القراءة ولا يحسن الكتابة قارئ ، او قارئة ، وذلك لوجود جماعة كانوا يحسنون القراءة ، ولكنهم لا يكتبون . ونجد اليوم من النساء من يحسن القراءة ولا يكتبن ، ولما نزل الوحي على الرسول : باقرأ ، قال الرسول : ما أنا باقارء ، او لست بقاريء<sup>١</sup> ، ولم يقل : أنا أمي ، مما يدل على ان الأمية إنما صارت تعبير عن معنى عدم القراءة والكتابة فيما بعد . ثم إننا لا نجد في اللغات القديمة لفظة واحدة في معنى (الأمية) التي نستعملها في عريتنا في الوقت الحاضر ، اي في معنى الجهل بالقراءة والكتابة معاً ، وإنما يقال لا يقرأ او لا يكتب ، او يجهل القراءة والكتابة ، فلا يعقل خروج العربية على هذه القاعدة . واستعمالها الأمية قبل الاسلام مصطلحاً للتعبير عن الجهل بالكتابة والقراءة معاً . ولم أعثر في النصوص الجاهلية على هذه اللقطة او على لفظة اخرى تؤدي هذا المعنى .

ولا يعقل ان يكون اليهود او غيرهم قد أطلقوا الأمية على العرب ، بسبب جهل العرب الكتابة والقراءة . فقد كان سواد يهود ونصارى جزيرة العرب أمياً ايضاً ، لا يقرأ ولا يكتب ، إلا ان القرآن الكريم أخرجهم من الأميين ، واستثنائهم ، وأطلق عليهم ( اهل الكتاب ) ، وذلك يدل دلالة واضحة على ان المراد من (الأميين) العرب الذين لهم كتاب ، اي العرب الذين لم يكتُبُوا يهوداً ولا نصارى لا من لا يحسن الكتابة والقراءة . والقرآن الكريم هو الذي هدانا الى لفظة (الأميين) فلم ترد اللقطة في نص من نصوص الجاهلية وبفضله ايضاً عرفنا مصطلح ( اهل الكتاب ) دلالة على اهل الديانتين .

---

١ إمتناع الأسماع (١٣/١) ، ( ثم قال اقرأ : قلت ما اقرأ ) ، تفسير الطبرى ( ١٦١/٣٠ ) ، تفسير النيسابوري ( ١٢٥/٣٠ ) ، ( حاشية على تفسير الطبرى ) .

وأنا لا أريد ان أثبت هنا ان العرب قاطبة كانت أمّة قارئة كاتبة ، جماعها يقرأ ويكتب ، وإنما كانت ذات مدارس منتشرة في كل مكان من جزيرتهم ، تعلم الناس القراءة والكتابة والعلوم الشائعة في ذلك الزمن ، فقول مثل هذا هو هراء ، ما في ذلك شك ، ولا يمكن أن يدعيه أحد ثم ان شيوخ القراءة والكتابة بالمعنى المفهوم عندنا ، لم يكن معروفا حتى عند أرقى الشعوب إذ ذاك مثل اليونان والرومانيين والساسانيين في عالم ذلك العهد . فسواد كل الأمم كان جاهلاً لا يحسن القراءة ولا الكتابة ، وإنما كانت القراءة والكتابة في الخاصة وفي أصحاب المواهب والقابليات الذين تدفعهم مواهبيهم ونقوشهم على التعلم والتشقق وتترעם الحركة الفكرية بين أبناء جنسهم . ومن هنا كانت كل الأمم أمية من حيث الأكثريّة والغالبية ، إنما اختلفت في نسبة المتعلمين والمتخصصين والمجتهدين ودرجتهم فيها . وفي هذا تباين وتختلف أيضاً ، فقد كان اليونان والرومانيون والعالم النصراني في الدرجة الأولى في المهد الذي قارب الاسلام ، يليهم الفرس واليهود والمهدود . أما العرب ، فقد كانوا يتباينون في ذلك أيضاً تبايناً يختلف باختلاف أماكنهم كما سأبين ذلك .

فأهل البوادي ، ولا سيما البوادي الثانية عن الحواضر ، هم أميون ما في ذلك من شك، لأن طبيعة البدائية في ظروفها المعلومة لا تساعد على تعلم القراءة والكتابة ، ولا على ظهور العلوم وتطورها فيها ، غير إننا لا نعني أنهم كانوا جميعاً أميين ، لا قارئين بينهم ولا كتابين . فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب ، بدليل هذه التصوص الباحالية التي عبر عليها مبعثرة في مواضع متاثرة من البوادي ، وفي أماكن نائية عن الحضارة . وهي كتابات أعراب ورعاة إبل وبقر وأغنام، دونوها تسجيلاً لخاطر ، أو للذكرى ، أو رسالة لم يأتِ بينهم، فيقف على أمرهم ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن أعراب الباحالية ، كانوا أحسن حالاً من أعراب هذا اليوم ، فقد كان فيهم الكاتب القرائي ، الذي يهم بتسجيل خواطره ، وبائيات وجوده بتدوينه هذه الكتابات ، وأن الأمية المذكورة لم تكن أمية عامة جامدة ، بل أمية نسبية ، على نحو ما نشاهد اليوم في مجتمعاتنا من غلبة نسبة الأمية على نسبة المتعلمين .

وأما أهل الحواضر ، فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب ، كما كان بينهم الأمي أي الباحل بالقراءة والكتابة . كان منهم من يقرأ ويكتب بالقلم المسند ، وكان

يئنهم من يقرأ ويكتب بالقلم الذي دون به القرآن الكريم ، فصار القلم الرسي للاسلام ، بفضل تدوين الوحي به ، كما كان بينهم من يكتب بقلم النبط وبقلم بياني . وكان بينهم من يكتب ويقرأ بقلمين أو أكثر .

وقد سبق ان ذكرنا ان الأحناف كانوا يكتبون ويقرأون ، ورأينا بعضًا منهم كان يكتب بأقلام أعمجية ، وكان قد وقف على كتب أهل الكتاب ، وكانوا أصحاب رأي ومقالة في الدين وفي أحوال قومهم . وذكرت انهم قالوا عن بعضهم ، مثل ( ورقة بن نوفل ) ، انه كان « يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب بالعبرانية من الانجيل ما شاء أن يكتب » <sup>١</sup> .

وقد ذكر (المداني) ان العرب كانت « تسمى كل من قرأ الكتب أو كتب صاباتاً ، وكانت قريش تسمى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أيام كان يدعو الناس بحكة ويتلو القرآن: صاباتاً » <sup>٢</sup> . فالصيادة على تفسير (المداني) ، هم الكتبة وكل من قرأ الكتب ، وعلى ذلك يكون الحفاء في جملة الصيادة .

وقد ذكر أهل الأخبار انه كان لدى (الأكاسرة) ديوان خاص يدون فيه كل ما يخص عرب الحيرة وسائر العرب بالعربي ، ويتولى أيضًا ترجمة كل ما يرد الى الدولة بالعربية الى الفارسية ، ويترجم ما يصدر بالفارسية من الحكومة الى العرب بالعربية ، وان في جملة من اشتغل في هذا الديوان وقام بالترجمة فيه (زيد العبادي) ، أبو الشاعر الشهير (عدي بن زيد العبادي) ، وزعم (ابن الكلبي) ان ملوك الحيرة كانوا يملكون دواوين فيها أخبارهم ومقدار مدد حكمهم وما قيل في مدحهم من شعر ، وفي خبر صحيفة التلميس وقراءة أحد غلامي الحيرة للصحيفة التي كان يحملها ما يشير الى معرفة غلام أهل الحيرة القراءة والكتابة <sup>٣</sup> . وفي كل هذه الروايات والأخبار تفنيد لزعم من ذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا جميعاً في جهالة وأمية .

١- الأغاني (١٢٠/٣) .  
٢- الاكليل (٤٤/١) .

٣- الفهرست (من ١٢ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣٦٨/٣) وما بعدها .  
(فأعطي المتنم كتابه بعض الغلام فقرأه) ، (فإذا أنا ب glam من أهل الحيرة يسوق غنيمة له من نهر الحيرة ، فقلت: يا غلام . اتقرا! قال: نعم . قلت: اقرأ!) مجمع الأمثال (٤١٢/١ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣٧٤/٣) ، النصرانية وأدابها  
(١٥٧/١) .

بل ورد في روايات أهل الأخبار في ترجمة عدي بن زيد العبادي المذكور : ان كان في الحيرة معلمون ، يعلمون الأطفال القراءة والكتابة ، يذهبون الى بيت الأطفال يعلمونهم ان شاء أهلهم ، أو يعلمونهم في الكتاتيب . وقد ورد أيضاً : ان من الكتاتيب ما كانت تعلم بالعربية ومنها ما كانت تعلم بالفارسية . فكان جده عدي بن زيد العبادي مثلاً من تعلم في دار أبيه ، وخرج من أكتب الناس في يومه « وطلب حتى صار كاتب ملك العهان الأكبر . وكان أبوه زيد من حذق الكتابة والعربية ، ثم علم الفارسية . ولما تحرك عدي ، وأيَّفَ ، طرحة أبوه في الكتاب ، حتى اذا حدق أرسله المرزبان مع ابنه شاهان مرد الى كتاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ، ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس بها ، وأقصحهم بالعربية ، وقال الشعر وتعلم الرمي بالنشاب ، فخرج مع الأسورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوابحة وغيرها »<sup>١</sup> .

وذكر أهل الأخبار ان ( لقيط بن يعمر الإيادي ) الشاعر كتب صحيفة الى قومه لإياد ، محلرهم من كسرى<sup>٢</sup> . وكان كاتباً ومترجماً في قصر كسرى، يكتب من الفارسية الى العربية ومن العربية الى الفارسية<sup>٣</sup> ، فلما أراد كسرى الانتقام من قومه ، كتب اليهم قصيدة في صحيفة ، فيها :

### سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد

وذكر ان ( سعد بن ملك ) أرسل ابنته ( المرقش ) الشاعر المعروف وأخاه الى رجل من أهل الحيرة ، فعلمها الكتابة ، فكانا يكتبان أشعارهما<sup>٤</sup> ، وذكر انه كان يكتب بالحميرية ، وانه كتب أبياتاً بها على خشب رحل « الغفيلي الذي تركه وحده لما مرض ، فلما قرأوا الكتابة ضربوا ( الغفيلي ) حتى أقر<sup>٥</sup> .

وكان جفينة العبادي ، وهو من نصارى الحيرة ، وظفراً لسعد بن أبي وقاص ،

- |   |  |
|---|--|
| <p>١ - الأغاني ( ١٨/٢ وما بعدها ، ١٠١ )</p> <p>٢ - الأغاني ( ٢٣/٢٠ وما بعدها ) ، الشعر والشعراء ( ٩٧ وما بعدها ) ، بروكلمن ، تاريخ أدب اللغة العربية ( ١١٢/١ ) ، ( المترجم ) ، ( ١٠١/٢ وما بعدها )</p> <p>٣ - البكري ، معجم ( ٥٢/١ )</p> <p>٤ - المفضليات ( ٤٥٩ وما بعدها ) ، الأغاني ( ١٣٠/٦ )</p> <p>٥ - الشعر والشعراء ( ١٣٩/١ )</p> | <p>١ -</p> <p>٢ -</p> <p>٣ -</p> <p>٤ -</p> <p>٥ -</p> |
|---|--|

كتاباً ، قدم المدينة في عهد عمر ، وصار يعلم الكتابة فيها . وقد أتته  
( عبيد الله بن عمر ) بمشابعة أبي لؤلؤة على قتل أبيه ، فقتله وقتل ابنه<sup>١</sup> .

ولما نزل ( خالد بن الوليد ) الأنبار ، رأهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ،  
فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا  
ـ فكانت أولئك نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ـ  
قال : من تعلمتم الكتاب ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشدوه قول  
الشاعر :

قومي لإياد لو أنهم ألم أو لو أقاموا فهزل النعم  
٢  
 القوم لهم باحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم

ووجد ( خالد بن الوليد ) أهل ( النقرة ) يعلمون أولادهم الكتاب في  
كتبتها . وهي قرية من قرى ( عين التمر ) . ومنها كان ( حران ) مولى  
( عثمان بن عفان )<sup>٣</sup> . ولما فتح ( خالد ) حصن عين التمر ، وغم ما فيه ،  
١ وجد في بيتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل ، عليهم باب مغلق ، فكسره  
عنهم<sup>٤</sup> ، ثم أخرجتهم ، فقسمتهم في أهل البلاء ، فكان منهم نصير ، أبو موسى  
ابن نصير ، وسرين أبو محمد بن سرين ، وحران مولى عثمان وغيرهم .

فتحن في العراق أمام مدارس تعلم العربية في القرى وفي الأماكن التي تكون غالبية  
سكانها من العرب ، وتعلمهن أمور دينهم من نظر في الأنجليل وفي الكتب الدينية  
النصرانية والعلوم اللسانية المعروفة إلى غير ذلك من علوم ومعرفة وثقافة .

وورد في روایات أهل الأخبار ان عدداً من الشعراء الجاهليين كانوا يكتبون  
ويقرأون . وكان منهم من اذا نظم شعراً دونه ثم ظل يعمل في اصلاحه وتنقيحه  
وتحكيم ما نظمه الى أن يرضي عنه . فينشده الناس . ومن كان يكتب ويقرأ

١ الطبرى ( ٤٢/٥ ) ، ابن سعد ، طبقات ( ١/٣ ص ٢٥٨ ) ، ( ليدن ) ، البلاذري ،  
فتح البلدان ( ٤٦٠ ) .

٢ الطبرى ، ( ٣٧٥/٣ ) .

٣ البلدان ( ٤/٨٠٧ ) وما بعدها .

٤ الطبرى ( ٣٧٧/٣ ) ، ( خبر عين التمر ) .

سويدي بن الصامت الأوسي ، صاحب مجلة لقمان ، والزبير قان بن بدر<sup>١</sup> ، وكعب ابن زهير<sup>٢</sup> ، وكعب بن مالك الأننصاري<sup>٣</sup> ، والريبع بن زياد العبسي ، وكان هو واخوه من الكلمة . وقد كتب الى ( النعسان بن المنذر ) شرعاً يعتذر اليه فيه<sup>٤</sup> .

وذكر ان أهل ( دومة الجندل ) كانوا يكتبون ويقرأون ، وان أهل مكة انما تعلموا الكتابة من أحدهم . وورد ان قوماً من ( طيء ) تعلموا الكتابة والقراءة من كاتب الوحي لهود . وذكر ان ( بشر بن عبد الملك ) السكوني ، أخوه ( أكيلدر بن عبد الملك بن عبد الجن ) السكوني الكندي صاحب دومة الجندل ، وكان نصراوياً ، يأتي الحيرة فيقيم بها الجن ، تعلم الخط العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه ، فرأاه ( سفيان بن أمية بن عبد شمس ) و ( أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ) يكتب فسلاه أن يعلمها الخط ، فعلمها المجاء ، ثم أراهما الخط ، فكتبا . ثم ان بشرأ وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم ( غilan بن سلمة الشفقي ) ، فتعلم الخط منهم ، وبفارقهم بشر ومضى الى ديار مصر ، فتعلم الخط منه ( عمرو بن زراره بن علس) فسمى عمرو الكاتب . ثم أتى بشر الشام ، فتعلم الخط منه ناس هناك<sup>٥</sup> .

وتعلم الخط من الثلاثة الطائين : ( مرامر بن مرة ) ، و ( أسلم بن سدرة ) ، و ( عامر بن جدره ) ، الذين وضعوا الخط وقادوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم أهل الأنبار - رجل من طائفة كلب ، فعلمته رجالاً من أهل وادي القرى ، فأتى الرادي يتردد ، فأقام بها، وعلم الخط قوماً من أهلها<sup>٦</sup> .

وقد وصف الشاعر ( أبو ذؤيب ) الهنلي كاتباً من اليمن وهو يكتب كتاباً، ولم يكن خط هذا الكاتب بالقلم العربي ، قلم أهل مكة ، وإنما كان بقلم أهل اليمن وهو المستند . وذلك كما يظهر من تعبير هذا الشاعر الوارد في شعره ، إذ يقول :

- ١. الأغاني ( ١٨٠/٢ ) .
- ٢. الشعر والشعراء ( ٩١/١ ) .
- ٣. ابن هشام ( ٨٧/٢ ) وما بعدها .
- ٤. الأغاني ( ٢٢/١٦ ) وما بعدها ، المرتضى ، أمالى ( ١٣٦/١ ) .
- ٥. فتوح البلدان ( ٤٥٦ ) ، ( أمر الخط ) .
- ٦. فتوح البلدان ( ٤٥٧ ) ، ( أمر الخط ) .

وهي قصيدة عذتها أربعة عشر بيتاً ، ذكر في أولها دروس الديار وطموسها  
الى أن رثى ابن عمه (نشيحة) خمسة أبيات من آخرها<sup>٢</sup> .

ويظهر من هذه الآيات ان ذلك الكاتب الحميري كان يكتب بالحبر الموجود في دواة على شيء يصلح للكتابة عليه كأديم أو قرطاس ، ولم يكن يستعمل التزير المعمول من حديد ل نقش الحروف على الحجر . وهذا مما يدل على ان أهل العربية الجنوية كانوا يكتبون على مواد الكتابة الأخرى بالحبر والقلم ، فعل أهل مكة وأهل الحيرة ودومة الجندل .

وذكر أهل الأخبار أيضاً ، أن رجلاً من (بني نهد بن زيد) يقال لهما (حزن) و (سهل) كانا يكتبان ويقرآن . وكانا قد زارا (الحارث بن مارية) الغساني ، وكان عندهما حديث من أحاديث العرب ، ولهم ظراوة وأدب وصحبة ، فنزلوا متولاً طيباً من قلب الحارث ، فحسداً (زهير بن جناب الكلبي) وكان من ندام الملك ، فأراد افساد مكانهما عنده ، فقال له : « هما يكتبان إليه بعورتك وخلل ما يربيان منك »<sup>٣</sup> . يريد أخباره إنها كانوا يتجلسان عليه فيكتبان بأخباره إلى خصمه (المنذر) الأكبر ، ملك الحيرة ، جد النعمان بن المنذر .

وأما عرب بلاد الشام ، فلم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن علمهم بالكتابة والقراءة ، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون دليلاً على جهلهم بها . ولا سيما أنهم كانوا على اتصال ببني إدم في بلاد الشام وبعرب بلاد العراق ، ثم انه يجوز انهم يكتبون بقلم بني إدم ، على عادة معظم شعوب الشرق الأدنى إذ ذاك ،

١ دیوان المظلین ( ٦٤ / ١ )

٢ الخزانة (٣/٢٩١)، (بولاك).

٣ الاغاني (١١٨/٥) ، (دار الكتب) .

في الكتابة به ، لأنه كان قلم العلم والثقافة والأدب في ذلك الحين . ثم إننا سمعنا أن ملوكهم المتصرين كانوا يرأسون مجالس المنازرات في أمور الدين ، ويبحثون مع رجال الدين في موضوعات دينية ، ويدافعون عن مذهب اليعاقبة في طبيعة المسيح ، ومثل هؤلاء الملوك لا يعقل أن يكونوا جهله أميين لا يقرأون ولا يكتبون :

وقد سبق أن تحدثت عن الكتابات الصحفية وعن كتابات عربية شمالية أخرى ، غير عليها السباح والمستشرقون في مواضع متعددة من ( الصفا ) وفي البوادي ، كتبت على صخور وهشم صخور مشهور ، دلّ البحث فيها على أنها كتابات أعراب ، كان أصحابها يتنقلون من مكان إلى مكان طلباً للمراعي والصيد .

وتدل تلك الكتابات الصحفية على أن أعراب الجاهلية كانوا في أيام الجاهلية أحسن حالاً من حيث علمهم بالكتابة والقراءة من أعراب هذا اليوم . فالكتابات الصحفية الكثيرة المبعثرة في البوادي ، هي كتابات أعراب ، متوجلين ، كانوا يرعون الإبل وبقية الماشية ، فكانوا يسلّون أنفسهم بالكتابة والتصوير على الحجارة ، بينما لا نكاد نجد بين أعراب هذا اليوم من يكاد يقرأ ويكتب .

كما تحدثت عن كتابات ثمودية ، وثبتت قوم من لبّ العرب ومادة العرب البائدة الأولى في عرف الناسين ، وتحدثت أيضاً عن القلم المسند بلهجاته ولغاته ، فهل يصدق بعد هذا قول من زعم أن العرب قبل الإسلام كانوا في جهة عمياً ، لا يقرأون ولا يكتبون . .

ولا يعقل أن يكون المذكورون أميين كتبوا للتسلية والتلهية ، وإن الأوامر والقوانين التي دوّنها ملوك اليمن قبل الإسلام وأعلنوها للناس بوضعها في المحلات العامة وفي الأماكن البارزة كانت مجرد تدوين أو تروييق وتزيين ، لا للإعلان والإفهام المواطنين بمحتوياتها . إن تدوين تلك الكتابات ووضع الحجارة الفخمة المكتوبة للإعلان ، دليل على أن في الناس قوماً يقرأون ويكتبون ويفهمون ، وإن الحكومات إنما أمرت بتدوينها لإعلام الناس بمحتوياتها للعمل بها ، كما تفعل الحكومات في الوقت الحاضر عند إصدارها أمراً أو قانوناً يلزمه بالوسائل المعروفة على الناس للوقوف عليها ، وإن من بين الحجارة الصحفية واللحيانية والثمودية المكتوبة ، ما هو رسائل وكتب وجهت إلى أشخاص معروفين ، كما تفعل اليوم في توجيه الرسائل إلى الأقرباء والأصدقاء .

ووْجَدَ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ قَوْمًا كَانُوا يَكْتُبُونَ وَيَقْرَأُونَ وَيَطَّالِعُونَ الْكُتُبَ مَكَةَ وَلَمْ إِلَامْ بَكْتُبَ أَعْجَمِيَّةً ، وَمِنْ هُولَاءِ (الْأَحْنَافِ) وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ أَنْهِمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ بَعْضَ الْلُّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ ، وَأَنَّهُمْ وَقَفُوا عَلَى كُتُبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعَلَى كُتُبِ أُخْرَى . وَفِي مَعرَكَةِ (بَدْرٍ) اشْرَطَ الرَّسُولُ عَلَى مَنْ أَرَادَ فَدَاءَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَكُنْ مُوسِرًا مِنْ أَهْلِ مَكَةَ ، أَنْ يَعْلَمْ عَشْرَةً تَفَرَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ ، كَمَا كَانَ مِنْ عَادَةِ أَهْلِ مَكَةَ تَدْرِيْنَ مَا يَجْمِعُونَ عَلَيْهِ وَمَا يَلْزَمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ فِي صَحْفٍ يَخْتَمُونَهَا بِخَوَافِّهِمْ وَبِأَسْمَاهِهِمْ لِتَكُونَ شَوَاهِدٍ عَلَى عَزْمِهِمْ كَالْذِي فَعَلُوهُ فِي الصَّحِيفَةِ . وَذَكَرَ أَنَّ أُمَّيَّةَ بْنَ أَبِي الصَّلَتِ كَانَ فِيمَنْ قَرَأَ الْكِتَبَ وَوَقَفَ عَلَيْهَا<sup>١</sup> ، وَذَكَرُوا غَيْرَهُ أَيْضًا .

وَذَكَرَ أَهْلُ الْأَنْجَارَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ يَثْرَبِ مِنَ الْأُوسِ وَالْخَزْرَاجِ ، كَانُوا يَكْتُبُونَ وَيَقْرَأُونَ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ ، ذَكَرُوا فِيهِمْ : سَعْدَ بْنَ زَرَّاَةَ ، وَالْمَنْزِرَ أَبْنَ عُمَرَ ، وَأَبْيَ بْنَ كَعْبٍ ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابَتَ ، وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْكَتَابَيْنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ أَوِ السَّرِيَانِيَّةِ ، وَرَافِعَ بْنَ مَالِكٍ وَأَسِيدَ بْنَ حُضِيرٍ ، وَمَعْنِي (مَعْنِي) بْنَ عَدَى الْبَلْوَى ، وَأَبْوَ عَبْسٍ بْنَ كَثِيرٍ ، وَأُوسَ بْنَ خَوْلَى ، وَبَشِيرَ بْنَ سَعِيدَ ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ، وَالرَّبِيعَ بْنَ زَيَادَ الْعَبَسيِّ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ جَبَرٍ ، وَعَبْدَاللهِ أَبْنَ أَبِيِّ ، وَسَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ ، وَقَدْ رَجَعُوا أَصْلَ عِلْمِهِمْ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ إِلَى قَوْمٍ مِنْ يَهُودِ يَثْرَبِ ، مَارَسُوا تَعْلِيمَ الصَّبِيَانَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ ، دَعَوْهُمْ (بَنِي مَاسِكَةَ)<sup>٢</sup> . وَيُظَهِرُ ، إِنْ صَحَّتْ هَذِهِ الرَّوَايَةُ ، أَنَّ يَهُودَ يَثْرَبَ كَانُوا يَكْتُبُونَ بِالْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَهَا لِلْعَربِ . وَتَعَرَّضَ الْبَلَاضْرِيُّ لِهَذَا الْمَرْضَوْعِ فَقَالَ : « كَانَ الْكِتَابَ فِي الْأُوسِ وَالْخَزْرَاجِ قَلِيلًا » ، وَكَانَ بَعْضُ الْيَهُودِ قَدْ عَلِمَ كِتَابَ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَانَ تَعْلِمُهُ الصَّبِيَانُ بِالْمَدِينَةِ فِي الزَّمْنِ الْأَوَّلِ ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ وَفِي الْأُوسِ وَالْخَزْرَاجِ عَدَةً يَكْتُبُونَ »<sup>٣</sup> . وَنَجَدَ هَذَا التَّحْبِيرُ فِي مَوَارِدِ أُخْرَى ، أَخْدَتْهُ دُونَ أَنْ تُشَرِّفَ إِلَى السَّنَدِ ، فَظَهَرَ وَكَانَهُ حَقِيقَةً مُسْلِمَةً وَخَبَرَ مَوَاطِرَ ، حَتَّى جَازَ عَلَى الْمُحَدِّثِينَ ، فَبَنَوْا عَلَيْهِ حَكْمًا ، هُوَ أَنَّ الْكِتَابَ كَانَ فِي يَثْرَبِ قَلِيلًا ، حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ ،

١ المَعْرُوفُ ، لِابْنِ قَتِيبَةِ (ص ٢٨) .

٢ صَبِيعُ الْأَعْشَى (١٥/٣) .

٣ الْبَلَاضْرِيُّ ، فَتْرَحُ (٤٧٩) .

فانتشر بها ، وانه لو كانت الكتابة منتشرة عندهم ، لما كلف الرسول القارئين الكاتبين من أسرى بدر ، بأن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة ، فداءً لنفسه من الأسر<sup>١</sup> .

ويظهر ان اليهود يثرب ، وربما بقية اليهود ، مثل اليهود خبر ، وتباء وفذك ووادي القرى ، كانوا يكتبون بقلعهم ، كما كانوا يكتبون بالعربية ، ويظهر من استعمال (البلاذري) جملة : « وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية » ، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول<sup>٢</sup> ، ان اليهود يثرب كانوا يكتبون بالعربية ، كما كان يكتب بها صبيان المدينة ، وكانتا يعلمون الكتابة لصبيان يثرب في مدارسهم . وفي هذا الخبر وأمثاله دلالة على ان الكتابة كانت معروفة بين أهل يثرب أيضاً قبل الاسلام ، وانها كانت قديمة فيهم ، ولمن لا يعلم لزعم من قال انها انتشرت يثرب في الاسلام ، وان الكتابة كانت قليلة بها قبل هذا المهد.

وقصد أهل الأخبار بجملة « وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، الكتابة بالخط العربي الشمالي ، لا بالقلم المسند ، لأن هذا هو مرادهم من ( الكتاب العربي ) و ( كتاب العربية ) » ، ويظهر ان اليهود قد تعلموا الخط العربي من عرب العراق وببلاد الشام، أو من التجار والمبشرين الذين كانوا يفدون الى الحجاز ، وأما القلم المسند ، الذي هو قلم العرب الجنوبيين ، فلم يكن مستعملاً في يثرب ، وإلا لأشير اليه ، مع أنها من القواعد المتعصبة للقططانية ، وحاملة الدعوة الى اليمن قبل الاسلام وفي الاسلام . وهذا يدل على ان المسند كان قد طورد في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وأن سلطانه كان قد تقلص كثيراً خارج العربية الجنوبية قبل نزول الوحي على الرسول ، وربما كان القلم العربي الشمالي قد دخل العربية الجنوبية أيضاً قبل الاسلام ، فأخذ ينافس المسند فيها ، ولا سيما في المناطق التي تركزت فيها النصرانية وتحكمت في أهلها ، فأخذ النصارى يقاومون ذلك القلم ، لأنه قلم الوثنية ، ويعتمدون أولاد النصارى القلم العربي الشمالي ، لأنه قلمهم الذي كانوا يعلمون به في كنائس العرب في العراق وفي دومة الجندل وببلاد الشام .

وقد أطلق العرب على الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي ، وقيل الحساب

١ ابن سعد ، طبقات (الجزء الثاني ، القسم الاول) ، (١٤) .

٢ البلاذري ، فتوح (٤٥٩) ، (المكتبة التجارية) .

أيضاً ، والجلد أي الشجاعة ، وقول الشعر ، وأصحاب الشرف والنسب : الكلمة .  
وجمع بعض أهل الأخبار إلى ذلك استواء القامة وكمال الإنسان<sup>١</sup> . ومن هؤلاء الكلمة : ( سعد بن عبادة بن دليم ) سيد الخزرج ، وهو من أسرة غنية تطعم القراء ، وما أطع يأوي إليه القراء للأكل . ولما نزل النبي يثرب ، كانت جهنة ( سعد ) تدور مع النبي ، وكان يعشى كل ليلة أهل الصفة<sup>٢</sup> .

ومن الكلمة : الريح بن زياد العبسي . وكان هو واحد من الكلمة<sup>٣</sup> .  
و ( رافع بن مالك ) ، و ( أسيد بن حضير ) ، و ( عبدالله بن أبيي ) ،  
و ( أوس بن خولي ) ، و ( سعيد بن الصامت ) ، و ( حضير الكتاب)<sup>٤</sup> .  
ويظهر من النظر إلى قائمة أسماء من أدخلهم أهل الأخبار في الكلمة ، إن الكتابة والرمادة والعلوم ، لم تكن الشروط الأساسية الكافية ، لكي ي تعد الإنسان كاملاً ، فقد توفرت هذه الشروط في أناس آخرين ، لم يدخلوا مع ذلك في الكلمة ، وإنما هنالك أشياء أخرى بالإضافة إلى الأمور المذكورة ، هي الشرف وكمال الجسم والعقل والامتناع عن المجر في الكلام ، والتحلي بالحكمة وبالقطامة واللب وقول الشعر المحكم الحكيم .

وكان ( عبد الرحمن بن جبر ) ، أبو عبس الأنباري ، يكتب بالعربية قبل الإسلام . ومات سنة أربع وثلاثين<sup>٥</sup> .

وكان ( النثار ) ، ( منذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان ) الخزرجي من الكلمة . وكان أحد السبعين الذين بايعوا الرسول ، وأحد القباء

١ المعارف ( ٢٥٩ ) ، الأغاني ( ٣ / ٢٥ ) ، ( دار الكتب ) ، ابن سعد ، طبقات ( ٣ / ٥٤٢ )

٢ ابن سعد طبقات ( ٣ / ٦١٢ ) ، الاصابة ( ٢ / ٢٧ ) ، ( رقم ٣١٧٣ ) ، الاستيعاب ( ٢ / ٣٢ وما بعدها ) ، ( حاشية على الاصابة ) ، أسد الغابة ( ٢ / ٣٧٨ ) ، ابن الأثير ، الكامل ( ٢ / ٣٧٨ ) ، ابن هشام ( ٢ / ٨٩ )

٣ أمالي المرتضى ( ١ / ١٣٦ ، ١٩٠ ) ، الأغاني ( ١٦ / ٢٢ وما بعدها )

٤ فتوح البلدان ( ٤ / ٤٥٩ وما بعدها ) ، ابن سعد ، طبقات ( ٣ / ٥٤٢ ) ، الاصابة ( ٤ / ٩٨ وما بعدها ) ، ( رقم ٤٣٤ ) ، تفسير الطبرى ( ٤ / ٢٣ ) ، الروض الانف ( ١ / ٢٦٥ وما بعدها ) ، الأغاني ( ٢ / ١٦٤ ) ، ابن هشام ، سيرة ( ١ / ٢٦٥ ) ، ( حاشية على الروض )

٥ المعارف ( ٣٢٦ ) ، ( أبو عيسى ) ، الاصابة ( ٢ / ٣٨٦ ) ، ( رقم ٥٠٩٧ ) ، ( ٤ / ١٥٠ ) ، ( رقم ٨٨٠ )

الاثني عشر . و كان يكتب في الجاهلية بالعربية <sup>١</sup> . قتل يوم بشر معونة .  
و كان ( أبو جبيرة بن الصحاح ) الأنصاري ، من يكتب . وقد تولى الكتابة  
للخليفة ( عمر ) <sup>٢</sup> .

و كان ( قيس بن نشبة ) عم الشاعر ( العباس بن مرداس ) السلمي ، أو  
ابن عمه من الكتبة . ذكر انه كان من قرأ الكتب وتأنه في الجاهلية . والعباس بن  
مرداس نفسه كان كاتباً ، ذكر انه لما سمع ان رجلاً من أهل مكة اشتري إبلًا  
لقيس بن نشبة فلواه حقه ، وان ( قيساً ) قام بمحكة يقول :

يا آل فهرٍ كنت في هذا الحرم في حرمة البيت وأخلاق الكرم  
أظلم لا يمنع مني من ظلم

بلغ ذلك ( عباس بن مرداس ) فكتب اليه أبياتاً منها :

وأئـتـ الـبـيـوـتـ وـكـنـ مـنـ أـهـلـهـاـ مـدـدـأـ تـلـقـ اـبـنـ حـرـبـ وـتـلـقـ الـمـرـءـ عـبـاسـاـ

فقام العباس بن عبد المطلب وأخذ له محنته ، وقال : أنا لك جار ما دخلت  
مكة ، فكانت بينه وبينبني هاشم مودة <sup>٣</sup> .

وفي جملة من كان يكتب ويقرأ من أهل مكة ( حرب بن أمية ) . واليه  
ينسب قوم من أهل الأخبار ادخال الكتابة بين قريش . وهو أبو ( أبي سفيان  
ابن حرب ) ، فهو جد ( معاوية بن أبي سفيان ) . وورد ان الذي حمل  
الكتابة الى قريش بمحكة ( أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ) . فهو ناشر الكتابة  
على هذه الرواية بين أهل مكة <sup>٤</sup> . والاثنان على رأي أهل الأخبار من أقدم كتاب  
مكة اذن ، بل هما ناشرها الكتابة بها . وقد ذهب ( ابن قتيبة ) ان ( بشر بن  
عبد الملك العبادي ) علم ( أبا سفيان بن أمية ) ، و ( أبا قيس بن عبد مناف بن زهرة )

١ الاستيعاب ( ٤٣٨ / ٣ ) وما بعدها ، ( حاشية على الاصابة ) ، الاصابة ( ٤٤٠ / ٣ ) ،  
( رقم ٨٢٦ ) .

٢ الجهشياري ( ١٦ ) ، الاصابة ( ٣١ / ٤ ) ، ( رقم ١٨٨ ) .

٣ الاصابة ( ٣ / ٢٤٩ ) وما بعدها ، ( ٧٤٤ ) .

٤ الفهرست ( ص ١٣ ) ، المعارف ( ٧٣ ) .

الكتاب ، فعلماً أهل ( مكة )<sup>١</sup> . وقد ذكر ( السيوطي ) عن ( أبي طاهر ) السلفي في ( الطبوريات ) بسته عن ( الشعبي ) ، انه « قال : أول العرب الذي كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس » . تعلم من أهل الحيرة ، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار<sup>٢</sup> .

ولو أخذنا برأي من قال إن ( حرب بن أمية ) أو ( أبو سفيان بن أمية ) ، هما أول من علم أهل مكة الكتابة ، تكون قد جعلنا (بني أمية) أول من دخل القلم الى مكة ، بفضل تعليم (بشر) لهم هذا القلم . ومنهم انتشر بين أهل مكة في عهد غير بعيد عن أيام النبي .

وذكر أن في جملة من كان يكتب قبل الاسلام ( عمرو بن عمرو بن عدس )<sup>٣</sup> .

وذكر ( ابن النديم ) ان ( أسيد بن أبي العيس ) كان من كتاب العرب . وذكر ( ابن النديم ) ان ( المأمون ) كتاب بخط ( عبد المطلب بن هاشم ) في جلد أدم ، فيه ذكر حق ( عبد المطلب بن هاشم ) من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري ، من أهل وزل صنعا عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة وهي دعاه بها أجيابه . وكان الخط شبه خط النساء<sup>٤</sup> .

وكان ( حنظلة بن أبي سفيان ) من محسن الكتابة والقراءة بمكة . فقد ورد في الأخبار انه كتب من مكة الى والده ( أبو سفيان ) ، وكان إذ ذاك مع العباس بن عبد المطلب بنجران ، يخبره خبر الرسول<sup>٥</sup> . وكان والده يكفي به . وقد قتله ( علي بن أبي طالب ) يوم ( بدرا)<sup>٦</sup> .

وكان ( بغيض بن عامر بن هاشم ) من كتاب قريش قبل الاسلام . وهو الذي كتب الصحيفة علىبني هاشم<sup>٧</sup> . وورد ان ( أبا الروم بن عبد شرحبيل ) واسمه ( منصور بن عكرمة ) هو الذي كتب الصحيفة<sup>٨</sup> .

١ المعارف ( ٥٥٣ ) ٠

٢ المزهر ( ٣٤٢ / ٢ ) ٠

٣ المزهر ( ٣٥١ / ٢ ) ، ( النوع الثاني والاربعون : معرفة الكتابة ) ٠

٤ الفهرست ( ١٣ ) وما بعدها ٠

٥ الاغاني ( ٢٥٠ / ٦ ) ، ( دار الكتب ) ٠

٦ نسب قريش ( ١٢٣ ) ٠

٧ كتاب نسب قريش ( ٢٥٤ ) ٠

٨ كتاب نسب قريش ( ٢٥٥ ) ، الروض الانف ( ٢١٩ / ١ ) ٠

وكان (الوليد بن الوليد) وهو أخو (خالد بن الوليد) من يكتب ويقرأ، وكان (خالد) من يقرأ ويكتب كذلك. وكان الوليد سبب اسلام (خالد). فقد كان قد فر من مكة ولحق بالرسول عمرة القضية، وكتب إلى أخيه خالد، ان الرسول قال له : « لو أثنا ، لأكرمناه ، وما مثله سقط عليه الاسلام في عقله » ، فوقع الاسلام في قلب خالد . وكان سبب هجرته<sup>١</sup> .

وكان (نافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف بن قصي) القرشي من يكتب . أسلم يوم الفتح . وهو الذي كتب المصاحف لعمر بن الخطاب<sup>٢</sup> ، أو المصاحف له . وذكر انه كان يكتب المصاحف، وأنه كتب المصاحف لعثمان<sup>٣</sup> ، فيظهر انه كان من نسّاخ المصاحف ، ينسخها للناس .

وكان (حاطب بن أبي بلتعة) من الكتاب . وكان حليقاً لبني أسد بن عبد العزى ، ويقال حالف الزبير ، وقيل مولى (عبيد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد) . وهو الذي كتب كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله إليهم ، فنزلت فيه : « يا أيها الذين آمنوا لا تخذلوا عدوكم »<sup>٤</sup> . وقد شهد مع علي بن أبي طالب على كتاب رسول الله لسلمة بن مالك السلمي ، الذي كتب الرسول به اقطاعه ما بين ذات الحناظى إلى ذات الأسود<sup>٥</sup> .

وكان الحكم بن أبي أبيحة سعيد بن العاصي ، وهو الذي سمّاه رسول الله (عبد الله) من أولئك الذين أمرهم الرسول ان يعلم الكتاب بالمدينة . وكان كاتباً قتل يوم (مؤتة)<sup>٦</sup> .

يقول أهل الأخبار : ولما نزل الوحي كان « في قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، أخو سهيل بن عمرو العامري من قريش ،

١ نسب قريش (٣٢٤) .

٢ الاستيعاب (٣/٥١٠) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ الاصابة (٣/٥١٥) ، (رقم ٨٦٥٨) .

٤ الاصابة (١/٢٩٩) ، (رقم ١٥٣٨) ، المقرizi ، امتناع (١/٣٦٢) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٥) .

٦ نسب قريش (١٧٤) .

وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وأبأن بن سعيد بن العاص بن أمية ، وخالف بن سعيد أخوه ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ، وحويطب بن عبد العزى العامري ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهنم بن الصلت بن خرمة بن المطلب بن عبد مناف ، ومن حلقاء قريش : العلاء الحضرمي »<sup>١</sup> .

ولكتنا لو أحصينا أسماء من كان يكتب من أهل مكة ، من نص أهل الأخبار على أسمائهم ، ومنن لم ينصوا على اسمهم ، وإنما ذكر وهم عرضاً في اثناء كلامهم عنهم فذكروا انهم كانوا يكتبون ويقرؤون ، لوجدنا ان عددهم أكثر بكثير من هذا الرقم المذكور ، رقم سبعة عشر كتاباً ، او بضعة عشر نفراً<sup>٢</sup> ، وهو عدد ورد بهم على ما يظهر من خبر آحاد ، انتشر في الكتب ، فصار متواتراً منتشرآ حتى في كتب المؤلفين في هذا اليوم ، اخذوه دليلاً على أمية العرب قبل الاسلام .

وقد استعان الرسول بقوم كتبوا له ، أشار العلماء الى أسمائهم . منهم من كتب له الوحي ، فعرفوا من ثم بـ (كتاب الوحي) . ومنهم من كتب له بريده ورسالته ، ومنهم من تولى له تدوين المغانم وأمور الزكاة والحرص والصدقة وما الى ذلك من امور اقتصادها تطور الظروف والأحوال ، ومنهم مثل (زيد بن ثابت) من كتب له بالعربية وبالعبرانية او السريانية . وذكر ان بعضهم كان مثل زيد يكتب بغير العربية أيضاً . وكان من كتب له : (علي بن ابي طالب) ، و (عثمان بن عفان) ، و (معاوية بن أبي سفيان) ، و (حنظلة الأسيدي) ، و (خالد بن سعيد بن العاص) ، و (ابان بن سعيد) ، و (العلاء بن الحضرمي) ، و (عبد الله بن أبي سرح)<sup>٣</sup> .

وروي ان « أول من كتب له أبي بن كعب ، وكان اذا غاب أبي كتب له زيد بن ثابت » ، وكان يكتب في الجاهلية<sup>٤</sup> .

١ فتوح البلدان (٤٥٧) ، (أمر الخط) .

٢ فتوح البلدان (٤٥٧) ، (أمر الخط) ، العقد الفريد (٤/٤٢) .

٣ الطبرى (١٧٣/٣) (ذكر من كان يكتب لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ) ، التنبيه والاشراف (٢٤٥ وما بعدها) ، الوزراء والكتاب (١٢ وما بعدها) ، العقد الفريد (٤/٤٢) .

٤ الطبرى (١٧٣/٣) ، (دار المعارف) ، المعارف (١١٢ وما بعدها) .

وجاء في ترجمة أنس بن مالك : أن أمه جاءت به يوم قدم الرسول يثرب وقالت له : « يا رسول الله ، هذا ابني وهو غلام كاتب »<sup>١</sup> . ومعنى هذا أن غلاماً يثرب كانوا يقرأون ويكتبون .

وقد ورد في أخبار ( بدر ) أنه كان في أسرى قريش قوم يقرأون ويكتبون ، وقد أمر رسول الله بكل رقاب هؤلاء الأسرى على أن يكون فدائهم تعليم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة<sup>٢</sup> . وقد علم كل واحد منهم صبيان يثرب الكتابة فانشرت الكتابة بينهم<sup>٣</sup> .

وذكر أن من كتب لرسول الله : أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، والزبير بن العوام ، وخالد وابن سعيد بن العاص ، وحنظلة الأسدي ، والعلاء بن الحضرمي ، وخالد بن الوليد ، وعبدالله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وعبدالله بن عبد الله بن أبي بن سلول ، والمغيرة بن شعبة ، عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهم بن الصلت ، ومعيقib بن أبي فاطمة ، وشريحيل بن حسنة ، وعبدالله ابن الأرقم الزهري . وذكر أن عدد من كتب للرسول ثلاثة وأربعون كتاباً<sup>٤</sup> . وأول من كتب للنبي من قريش ( عبدالله بن سعد بن أبي سرح ) ، وأول من كتب له مقدمه المدينة ( أبي بن كعب ) ، وهو أول من كتب في آخر الكتاب : وكتب فلان بن فلان . وهو من كتاب الوحي والرسائل . وقد كان ( عبدالله بن الأرقم الزهري ) من كتاب الرسائل للرسول ، وأما الكاتب لم يهوده إذا عهد وصلحه إذا صالح ، فعلي بن أبي طالب<sup>٥</sup> . وقد وردت في أواخر بعض كتب الرسول أسماء كتاب تلك الكتب .

وفي طبقات ( ابن سعد ) صورة كتاب أمر بتدوينه رسول الله لنهاش بن مالك الواثلي من باهلة ، كتبه ( عثمان بن عفان )<sup>٦</sup> .

١ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ( ١٠/٧ ) .

٢ طبقات ( ١/٢ ص ١٤ ) .

٣ امتناع الاسماع ( ١٠١/١ ) .

٤ الاستيعاب ( ٣٠/١ ) ، ( حاشية على الاصابة ) ، الجهشياري ، كتاب الوزراء

والكتاب ( ١٢ وما بعدها ) ، العقد الفريد ( ٤/٢٤٦ ) .

٥ الاستيعاب ( ٣٠/١ ) ، الجهشياري ، ( ١٣ ) .

٦ ابن سعد ، طبقات ( ٢٨٤/١ ) .

وكان ( علي بن أبي طالب ) من كتاب الوحي ، والكاتب لعهود الرسول إذا عهد ، وصلحه إذا صالح<sup>١</sup> . ذكر أنه تعلم الكتابة وهو صغير ، ابن أربع عشرة سنة ، تعلمها في ( الكتاب)<sup>٢</sup> .

وكان من كتاب رسول الله الذين كتبوا له الرسائل إلى سادات القبائل يدعوهن فيها إلى الإسلام : خالد بن سعيد بن العاص<sup>٣</sup> ، والمغيرة بن شعبة<sup>٤</sup> ، ومعاوية<sup>٥</sup> ، وعبد الله بن زيد<sup>٦</sup> ، وأبي بن كعب<sup>٧</sup> ، وعلي<sup>٨</sup> . وجهم بن الصلت<sup>٩</sup> ، والأرقمن ابن أبي الأرقمن المخزومي<sup>١٠</sup> ، والزبير بن العوام<sup>١١</sup> ، والعلاء بن الحضرمي<sup>١٢</sup> ، وعقبة<sup>١٣</sup> ، والعلاء بن عقبة<sup>١٤</sup> ، وعثمان بن عفان<sup>١٥</sup> ، ومحمد بن مسلمة الأنباري<sup>١٦</sup> ، وثابت بن قيس بن شناس<sup>١٧</sup> .

وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، من كتاب الرسول ، وقد كان أول مرتد في الإسلام . ارتد وكان قد خالف في كتابه إملاءه ، فأنزل الله فيه آيات من القرآن نهى فيه عن اتخاذه كتاباً ، فهرب ، فلما كان يوم ( الفتح ) التجأ<sup>١٨</sup> إلى ( عثمان ) أخوه من الرضاعة فأجراه ، واستجوار له ( عثمان ) عند النبي فأجراه له . وقد عبه ( عثمان ) عاماً على مصر ، وافتتح إفريقية ، ومات سنة ست وثلاثين ،

- ١ الاستيعاب ( ٣٠ / ١ ) ، ( حاشية على الاصابة ) .
- ٢ الفصول المختارة ، للمفید ( ٦٦ / ٢ ) ، ( التعجب ) .
- ٣ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٦٥ / ١ ، ٢٧١ ) .
- ٤ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٦٨ ، ٢٦٦ / ١ ) .
- ٥ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٦٦ ، ٢٦٧ / ١ ) .
- ٦ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٦٧ / ١ ) .
- ٧ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٦٧ ، ٢٧٨ / ١ ) .
- ٨ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٦٧ / ١ ) .
- ٩ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٦٨ / ١ ) ، الاصابة ( ٢٥٧ / ١ ) ، ( ١٢٥٦ ) .
- ١٠ ابن سعد ، انطقيات ( ٢٦٨ / ١ ، ٢٦٩ ) .
- ١١ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٦٩ / ١ ) .
- ١٢ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٦٩ ، ٢٧١ / ١ ) .
- ١٣ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٧١ / ١ ) .
- ١٤ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٧١ ، ٢٧٣ / ١ ) .
- ١٥ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٨٤ / ١ ) .
- ١٦ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٨٦ / ١ ) .
- ١٧ ابن سعد ، الطبقات ( ٢٨٦ / ١ ) .
- ١٨ رسائل الجاحظ ( ١٨٨ / ٢ ) .

أو سبع وخمسين ، أو تسع وخمسين<sup>١</sup> . وروي أنه كان أول من كتب له من قريش<sup>٢</sup> .

وهناك رواية يرجع سندها إلى (أنس بن مالك) ، تذكر أن « رجلاً » كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملَ عليه سمِيعاً بصيراً ، كتب سمِيعاً عليها<sup>٣</sup> ، وإذا أملَ عليه سمِيعاً عليها<sup>٤</sup> ، كتب سمِيعاً بصيراً . وكان قد قرأ البقرة وأآل عمران ، وكان من قرآها قرأ قرآنَا كثِيرًا ، فتنصر الرجل ، وقال إنما كنت أكتب ما شئت عند محمد .. قال : فات<sup>٥</sup> . ولا نعرف كاتبًا ينطبق عليه هذا الوصف سوى (عبدالله بن سعد بن أبي سرح) . فهو المراد بهذه القصة . وهي قصة لا يمكن أن تكون صحيحة ، لأن ارتداد (عبدالله) إنما كان بعكة ، فدليل النص عليه في سورة الأنعام<sup>٦</sup> ، وهي سورة مكية ، فكيف يكون قد قرأ سورة البقرة وأآل عمران ، ثم تنصر ، وهو سرتان مدنتان .

وفي (عبدالله) نزلت الآية : « ومن أظلم من افترى على الله كذبًا ، أو قال : أوحى إليَّ ولم يوحَ إليه شيءٌ . ومن قال : سأنزل مثل الذي أنزل الله<sup>٧</sup> ، على رأي أكثر المفسرين . » كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيها يعلِي عزيز حكيم ، فيكتب غفور رحيم ، فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوالَ ، فيقول نعم سوء . فرجع عن الإسلام ، ولحق بقريش . وقال لهم : لقد كان ينزل عليه عزيز حكيم ، فأحرَّكَ ثم أقول لما أكتب ، فيقولون : نعم سوء . ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة<sup>٨</sup> . وورد في رواية أخرى : « وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملَ عليه سمِيعاً عليها<sup>٩</sup> ، كتب هو عليها حكيمًا : وإذا قال : عليها حكيمًا ، كتب سمِيعاً عليها<sup>١٠</sup> ، فشك وكفر . وقال : إنَّ كَانَ مُحَمَّدَ يُوحِي إِلَيْهِ ، فَقَدْ أَوْحَى إِلَيَّ وَإِنَّ كَانَ اللَّهَ يَنْزَلُهُ ، فَقَدْ أَنْزَلَتْ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ . قالَ مُحَمَّدٌ : سمِيعاً عليها<sup>١١</sup> . فقلَّتْ أَنَا : عليها حكيمًا .

١ الاصابة (٣٠٩/٢) ، (رقم ٤٧١١) .

٢ الاستيعاب (٣٠/١) ، (حاشية على الاصابة) ، البلاذري ، أنساب (٣٥٨/١) ،

الجهشيباري (١٣) .

٣ السجستانى ، المصاحف (٣) .

٤ أسباب النزول (١٦٥) .

٥ الانعام ، الآية ٩٣ .

فلحق بالشركين ، ووشى بعمّار وجبر عنـ ابن الحضرمي ، أو لبني عبد الدار ،  
فأخذوهم فعدّبوا » <sup>١</sup> .

وورد في رواية أخرى : « كان قد تكلم بالإسلام فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم يكتب له شيئاً ، فلما نزلت الآية التي في المؤمنين : ولقد خلقنا الإنسان من سلاة . أملأها عليه ، فلما انتهى إلى قوله : ثم أنشأ خلقاً آخر ، عجب عبدالله في تفصيل خلق الإنسان ، فقال : تبارك الله أحسن الخالقين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت عليّ » ، فشك عبدالله حيثنة ، وقال لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إليّ كما أوحى إليه ، ولكن كان كاذباً ، لقد قلت كما قال . وذلك قوله : ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . وارتدى عن الإسلام » <sup>٢</sup> .

وورد أنه كان يقول : كنت أصرف محمداً حيث أريد . كان علي عليه عزيز حكيم ، فأقول : أو عليم حكيم ، فيقول : نعم كل صواب . فهو  
النبي دمه <sup>٣</sup> . وذكر أنه « قال لقرיש : أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد . وكان  
علي عليه الطالبين ، فيكتب : الكافرين ، يعلى عليه سبع علم ، فيكتب : غفور  
رحيم وأشباء ذلك . فأنزل الله : ومن أظلم من افترى على الله كذباً ، أو قال  
أوحي إليّ ، ولم يوح إله شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . فلما كان  
يوم فتح مكة أمر رسول الله بقتله ، فكلمه فيه عثمان بن عفان ، فأمر رسول  
الله بتركه <sup>٤</sup> .

وقد ذكر (الجاحظ) أنه « كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخالف  
في كتابة أملائه . فأنزل الله فيه آيات من القرآن نهى فيه عن اتخاذه كاتباً ،  
فهرب حتى مات بجزيرة العرب كافراً » <sup>٥</sup> . والصحيح أنه هرب ، فلما كان يوم  
الفتح أمن النبي الناس إلا أربعة نفر وامرأتين . عكرمة ، وابن خطل ، ومقيس  
ابن صبابة ، وابن أبي سرح ، فأمّا عبدالله فاختبأ عند عثمان ، فجاء به حتى

١ تفسير الطبرى (١٨٠/٧ وما بعدها) .

٢ أسباب النزول (١٦٥) .

٣ المعارف (١٣٠ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (٣٩٣/١) .

٤ فتح البلدان (٤٥٩) ، (أمر الخط) ، المعارف (٣٠٠ وما بعدها) .

٥ ذم أخلاق الكتب ، رسائل الجاحظ (١٨٨/٢) .

أو قه على النبي ، وهو يابع الناس ، فاستجار له عثمان ، فأجراه . وعاش وشهد فتح مصر مع ( عمرو بن العاص ) ، وأمره ( عثمان ) على مصر . وانختلف في وفاته ، فقيل مات سنة ( ٣٦ هـ ) وقيل عاش إلى سنة تسع وخمسين . وكان أخاً لعثمان في الرضاعة<sup>١</sup> .

وكان ( جheim بن الصلت بن محرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلي ) ، من تعلم الخط في الجاهلية ، فجاء الإسلام وهو يكتب ، وقد كان كتب لرسول الله<sup>٢</sup> . ذكر أنه كان هو و ( الزبير بن العوام ) يكتبان أموال الصدقات<sup>٣</sup> . وهو الذي كتب كتاب الرسول إلى ( يحيى بن رؤبة ) بتبوك ، وكتابه ليزيد بن الطفيلي الحارثي<sup>٤</sup> .

وذكر اسم ( الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ) في جملة من كتب للرسول . ففي طبقات ابن سعد ، أنه كتب له كتابه لعبد يغوث بن وعلة الحارثي<sup>٥</sup> ، وكتابه لعاصم بن الحارث الحارثي<sup>٦</sup> ، وكتابه للأجب ، رجل من (بني سليم)<sup>٧</sup> . وكان اسمه ( عبد مناف بن أسد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ) ، ويكنى ( أبي عبدالله ) . كان من السابقين الأولين ، قيل أسلم بعد عشرة ، وقيل قبل ذلك . وكان رسول الله يجلس في داره التي على (الصفا) ، حتى تكاملوا أربعين رجلاً ، وكان آخرهم إسلاماً ( عمر ) فلما تكاملوا أربعين رجلاً خرجوا ، وأنقطع النبي داراً بالمدينة<sup>٨</sup> .

و ( عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم ) من كتاب الرسول كذلك . كان يحب عنه الملوك ، وبلغ من أمانته عنده أنه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك

- ١ الاصابة ( ٣٠٩/٢ ) ، ( رقم ٤٧١١ ) ، أسد الغابة ( ١٧٣/٣ ) ، الاستيعاب ( ٢٨١/١ ) .
- ٢ الاصابة ( ٢٥٧/١ ) ، ( رقم ١٢٥٦ ) ، فتوح البلدان ( ٤٥٩ ) ، ( أمر الخط ) ، الاستيعاب ( ٢٤٩/١ ) ، ( حاشية على الاصابة ) .
- ٣ المسعودي ، التنبية ( ٢٤٥ ) ، ( كتاب من حضر من الكتاب ) .
- ٤ ابن سعد ، طبقات ( ٢٦٨/١ ) .
- ٥ ابن سعد ، طبقات ( ٢٦٨/١ ) .
- ٦ ابن سعد ، طبقات ( ٢٦٩/١ ) .
- ٧ ابن سعد ، طبقات ( ٢٧٣/١ ) وما بعدها ) .
- ٨ الاصابة ( ٤٢/١ وما بعدها ) ، ( رقم ٧٣ ) .

فيكتب ويختم ولا يقرأه لأمانته عنده . « قال عمر : كتب الى النبي ، صلى الله عليه وسلم كتاب . فقال لعبدالله بن الأرقمن الزهري : أجب هؤلاء عنـي . فأخذ عبدالله الكتاب فأجابهم ، ثم جاء به ، فعرضه على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أصبت . قال عمر : فقلت : رضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما كتبت ، فـا زالت في نفسـي يعني حتى جعلـته على بـيت المـال »<sup>١</sup> . وكتب لأبي بكر وعمر ، وكان على بـيت المـال أيام عمر ، وكان أمـيراً عنـده . وذكر أنه كان إذا غـاب عنـ الرسـول ، وغـاب زـيد بن ثـابت ، واحتاج الرسـول أن يكتب إلى أحد أمرـ من حـضـرـ أن يـكتبـ . فـنـ هـؤـلـاءـ عـمـرـ وـعـلـيـ وـخـالـدـ بـنـ سـعـيدـ وـالـغـيرـةـ<sup>٢</sup> .

وكان عبدالله بن الأرقمن بن عبد يغوث الزهري ، والعلاـءـ بنـ عـقبـةـ ، يـكتـبـانـ بـينـ النـاسـ الـمـدـيـنـاتـ وـسـائـرـ الـعـقـودـ وـالـعـامـلـاتـ<sup>٣</sup> . وـذـكـرـ انـ (ـعـبدـالـلـهـ بـنـ الـأـرـقـمـ)ـ الزـهـرـيـ ،ـ كـانـ مـنـ الـمـواـظـبـيـنـ عـلـىـ كـتـابـةـ الرـسـائـلـ عـنـ النـبـيـ<sup>٤</sup> .

وكان (ـحـنـظـلـةـ بـنـ الـرـبـيعـ بـنـ صـيـفـيـ)ـ الـأـسـيـدـيـ ،ـ مـنـ كـتـابـ الرـسـولـ ،ـ وـقدـ نـعـتـهـ الطـبـرـيـ بـ (ـكـاتـبـ النـبـيـ)<sup>٥</sup> .ـ وـعـرـفـ بـ (ـالـكـاتـبـ)ـ .ـ وـهـوـ مـنـ (ـبـنـ أـسـيـدـ)ـ ،ـ وـبـنـوـ أـسـيـدـ مـنـ أـشـرـافـ تـيمـ .ـ وـهـوـ بـنـ أـخـيـ (ـأـكـمـ بـنـ صـيـفـيـ)ـ حـكـيمـ الـعـربـ<sup>٦</sup> .ـ وـقـدـ عـرـفـ بـ (ـحـنـظـلـةـ الـكـاتـبـ)<sup>٧</sup> .ـ وـذـكـرـ انـ كـانـ «ـخـلـيقـةـ كـلـ كـاتـبـ مـنـ كـتـابـ النـبـيـ ،ـ إـذـاـ غـابـ عـنـ عـمـلـهـ ،ـ فـغـلـبـ عـلـيـهـ اـسـمـ الـكـاتـبـ .ـ وـكـانـ يـضـعـ عـنـدـهـ خـاتـمـهـ ،ـ وـقـالـ لـهـ :ـ أـلـزـمـنـيـ ،ـ وـاـذـكـرـنـيـ بـكـلـ شـيـءـ لـثـالـثـةـ .ـ فـكـانـ لـاـ يـأـتـيـ عـلـىـ مـالـ وـلـاـ طـعـامـ ثـلـاثـةـ اـيـامـ إـلـاـ ذـكـرـهـ ،ـ فـلـاـ بـيـتـ رـسـولـ اللـهـ وـعـنـدـهـ شـيـءـ مـنـهـ<sup>٨</sup> .ـ وـمـاتـ بـمـدـيـنـةـ الرـهـاـ<sup>٩</sup> .ـ

١ الاصابة (٢٦٥/٢) ، (رقم ٤٥٢٥) ، نـزـهـةـ الجـلـيسـ (٦٥/٢) .

٢ الاصابة (٢٦٥/٢) ، (رقم ٤٥٢٥) .

٣ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) .

٤ الاستيعاب (١/٣٠) ، (حاشية على الاصابة) .

٥ الطبرى (٣/٥٧٠) ، دار المعارف ، المعارف (٢٩٩ وما بعدها) .

٦ الاستيعاب (١/٢٧٨) ، (حاشية على الاصابة) .

٧ فتوح البلدان (٤٥٩) ، الاصابة (١/٣٥٩) ، (رقم ١٨٥٩) .

٨ الجهشىاري (١٢) .

ومن كتاب الرسول : ( شرحبيل بن حسنة ) الطابخي . ويقال الكندي<sup>١</sup> ، ويقال التميمي<sup>٢</sup> . وهو من سيره ( أبو بكر ) في فتوح الشام . وكان أميراً على ربع من أرباع الشام لعمر بن الخطاب ، وقد مات في طاعون ( عمواس ) .

وكان ( خالد بن سعيد بن العاص ) ( خالد بن سعيد بن العاصي ) من كتب للرسول . كتب له كتابه إلى (بني عمرو بن حمير)<sup>٣</sup> . وهو من السابقين الأولين . وقد استعمله الرسول على صدقات مذحج<sup>٤</sup> وعلى صنائع ، فلم يزل عليها إلى أن مات رسول الله<sup>٥</sup> . وكان له اخوة هما : أبان وعمرو بن سعيد بن العاص ، وكانا من عملاء الرسول . فلما توفي الرسول ، رجعوا مع خالد عن أعمالهم ، فخرجوها إلى الشام<sup>٦</sup> ، وفي جملة ما كتبه خالد ، كتاب الرسول لبني أسد<sup>٧</sup> ، وكتابه للعداء بن خالد بن هودة ومن تبعه من عامر بن عكرمة<sup>٨</sup> ، وكتابه لراشد ابن عبد الس Kami ، وكتابه لحرام بن عبد عوف من (بني سليم)<sup>٩</sup> ، وكتابه لبني غاديا ، وهم قوم من يهود ، وكتابه لبني عريض ، قوم من يهود<sup>١٠</sup> ، وكتابه لشريف<sup>١١</sup> ، وكتابه لسعيد بن سفيان الرعلي<sup>١٢</sup> .

وكان ( أبان بن سعيد بن العاص ) ( العاصي ) ، وهو أخو خالد ، من أسلم بعد هجرة الرسول إلى يثرب . ويقال أيام خبر . وكان هو الذي تولى إملاء مصحف عثمان على زيد بن ثابت ، يوم جمعه في خلافة عثمان ، أمرهما بذلك عثمان . وذلك في رواية من جعله حيناً إلى أيام الخليفة ( عثمان ) . وزعم في

- |    |  |
|----|--|
| ١  | فتح البلدان (٤٥٩) ، (أمر الخط) .                             |
| ٢  | الاصابة (١٤١/٢) ، (رقم ٣٨٦٩) ، الاستيعاب (٢/١٣٨ وما بعدها) ، |
|    | (حاشية على الاصابة) .  |
| ٣  | ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٥) ، (الجهشياري ١٢) .                   |
| ٤  | الاصابة (١/٤٠٦) ، (رقم ٢١٦٧) ، الاستيعاب (١/٣٩٨ وما بعدها) ، |
|    | (حاشية على الاصابة) .  |
| ٥  | الاستيعاب (١/٤٠٠) ، (حاشية على الاصابة) .                    |
| ٦  | الاصابة (٢/٥٣٢) ، (رقم ٥٨٤٨) ، الاستيعاب (١/٤٠٠) .           |
| ٧  | ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٠) .                                    |
| ٨  | ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .                                    |
| ٩  | ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٤) .                                    |
| ١٠ | ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٩) .                                    |
| ١١ | ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٤) .                                    |
| ١٢ | ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٥) .                                    |

روايات أخرى انه قتل يوم أجنادين سنة ثلاثة عشرة ، أو يوم اليرموك . وقيل  
قتل يوم مرج الصفر . وذكر في رواية انه توفي سنة سبع وعشرين في خلافة  
عثمان<sup>١</sup> .

وكان ( طلحة ) من الكتبة<sup>٢</sup> . وهو أحد المائة الذين سبقوه إلى الإسلام ،  
وأحد الستة أصحاب الشورى . وكان تاجرًا ، وكان عند وقعة بدر في تجارة في  
الشام . ولما قدم المدينة آتى النبي بيته والزبير<sup>٣</sup> . وذكر انه آتى بيته وبين  
( كعب بن مالك ) حين آتى بين المهاجرين والأنصار . وكان من الأغنياء ،  
كانت غلته ألفًا وافية كل يوم . والواقي وزنه وزن الدبسار ، وعلى ذلك وزن  
درهم فارس التي تعرف بالبلغية<sup>٤</sup> .

والزبير بن العوام في جملة من كتب الرسول . كتب له كتابه لبني معاوية بن  
جرول الطائين<sup>٥</sup> .

و ( أبو عبيدة بن الجراح ) ، من هذه الجماعة الكاتبة القارئة . وهو من  
الأوائل الذين دخلوا في الإسلام ، كان إسلامه قبل دخول النبي دار ( الأرقم )  
وقد آتى الرسول بيته وبين ( سعيد بن معاذ )<sup>٦</sup> .

و ( العلاء بن الحضرمي ) ، وهو ( عبدالله بن عمار ) ، وكان أبوه قد  
سكن مكة وحالف حرب بن أمية ، وكان العلاء عدة إخوة منهم : ( عمرو بن  
الحضرمي ) ، وهو أول قتيل من المشركين ، وما له أول مال خمس في المسلمين ،  
وبسببه كانت وقعة بدر . وقد استعمل النبي ( العلاء ) على البحرين<sup>٧</sup> . وهو  
الذي كتب للرسول كتابه لبني معن الطائين<sup>٨</sup> ، وكتابه لأسلم من خزاعة<sup>٩</sup> . وكان

١ الاصابة ( ٢٤/١ ) ، ( رقم ٢ ) .  
٢ المزهر ( ٣٥١/٢ ) .

٣ الاصابة ( ٢٢٠/٢ ) ، ( رقم ٤٢٦٦ ) .

٤ الاستيعاب ( ٢١٠/٢ وما بعدها ) ، ( حاشية على الاصابة ) .  
٥ ابن سعد ، طبقات ( ٢٦٩/١ ) .

٦ الاصابة ( ٢٤٣/٢ ) ، ( رقم ٤٤٠ ) ، الاستيعاب ( ٢/٣ ) ، ( حاشية على الاصابة )  
٧ الاصابة ( ٤٩١/٢ ) ، ( رقم ٥٦٤٤ ) .

٨ ابن سعد ، طبقات ( ٢٦٩/١ ) ، ( صادر ) .  
٩ ابن سعد ، طبقات ( ٢٧١/١ ) .

أخوه (ميمون بن الحضرمي) صاحب بشر (ميمون) التي بأبطح مكة، احتفراها في الجاهلية . وذكر (المسعودي) أن العلامة ربما كتب بين يدي النبي مع (ابن ابن سعيد)<sup>١</sup> .

و (يزيد بن أبي سفيان) أخوه (معاوية) من الكتاب كذلك توفي سنة (١٨) أو (١٩) للهجرة<sup>٢</sup> . وهو من أسلم يوم الفتح . وقد كان عمر قد استخلفه على (الشام) بعد وفاة (معاذ) ، فلما مات استخلف أخاه (معاوية)<sup>٣</sup> .

وكان (معاوية بن أبي سفيان) من كتبة الرسول . وذكر أنه كان (من الكتبة المسيبة الفصحاء)<sup>٤</sup> . ومعنى هذا أنه كان يتقن الكتابة والحساب . ولم يذكر من ذكر سيرته متى تعلم الكتابة . ولا استبعد أن يكون قد تعلمها بمكثة قبل دخوله في الإسلام . وهو من ولد قبل الإسلام وأسلم عام الفتح . فتكون كتاباته للرسول اذن بعد هذا العام . ومن كتبه التي كتبها للرسول كتابه لريعة بن ذي مرحب الحضرمي<sup>٥</sup> ، وكتابه لبني قرة بن عبدالله بن أبي نجيح النبهانيين<sup>٦</sup> ، وكتابه لعتبة بن فرقان<sup>٧</sup> ، وكتابه لوايل بن حجر لما أراد الشخصوص إلى بلاده<sup>٨</sup> .

وذكر (المسعودي) أن (معاوية) كتب للرسول قبل وفاته بأشهر<sup>٩</sup> .  
و (المغيرة بن شعبة) من دهاء العرب وشياطينهم . أسلم قبل عمرة الحديبية .  
وكان يقال له (مغيرة الرأي) . وكان رسول (سعد) إلى (رسم) ، أصيبيت  
عيشه باليرموك ، وروي أنه كان أول من وضع ديوان البصرة ، وأول من سلم

- ١ التنبية (٢٤٦) .
- ٢ الاصابة (٦١٩/٣) ، (رقم ٩٢٦٧) .
- ٣ الاستيعاب (٦١٢/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
- ٤ الاصابة (٤١٢/٣ وما بعدها) ، (رقم ٨٠٧٠) الاستيعاب (٣٧٥/٣) وما  
بعدها ، (حاشية على الاصابة) ، الجهشياري (١٢) .
- ٥ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .
- ٦ ابن سعد ، طبقات (٢٦٧/١) .
- ٧ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/١) .
- ٨ ابن سعد ، طبقات (٢٨٧/١) .
- ٩ المسعودي ، التنبية (٢٤٦) .

عليه بالامرة<sup>١</sup> . وهو الذي كتب كتاب رسول الله الى اهل نجران<sup>٢</sup> . وكتابه ليزيد بن المحجل الحارثي . وكتابه لبني قنان بن ثعلبة من بنى الحارث<sup>٣</sup> ، وكتابه لبني جوين الطائين ، وكتابه لعامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي<sup>٤</sup> ، وكتابه لبني الجرمي بن ربيعة ، وهم من جهينة<sup>٥</sup> . وذكر انه والمحصين بن غير كانوا يكتبان ما بين الناس<sup>٦</sup> .

و (معيقيب) ابن أبي فاطمة ، من (ذى أصبع) وقبل من (بني سلوس) ، وكان حليفاً لبني عبد شمس .. أسلم بعكة . وقد ولاه (عمر) بيت المال ، ثم كان على خاتم (عثمان)<sup>٧</sup> . وورد انه كان حليف بني أسد ، وكان يكتب معاذم رسول الله<sup>٨</sup> .

وكان (عقبة بن عامر بن عبس) الجهمي الصحابي المشهور من الكتاب . وصف بأنه « كان قارئاً عالماً بالفراهنض والفقه ، فصيح اللسان ، شاعراً كاتباً ، وهو أحد من جمع القرآن » . وعثر على مصححه بمصر على غير تأليف مصحح (عثمان) « وفي آخره : كتبه عقبة بن عامر بيده »<sup>٩</sup> . ونجد في طبقات (ابن سعد) صورة كتاب أمر الرسول بكتابته لعروسة بن حرملة الجهمي في آخره : « وكتب عقبة وشهد »<sup>١٠</sup> .

وجاء في خبر ضعيف أنه كان للرسول كاتب يقال له (السجل) ، وكتاباً يقال له : « ابن خطل ، يكتب قدام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا نزل: غفور رحيم ، كتب رحيم غفور ، وإذا نزل : سميع عليم ، كتب عليم سميع . وفيه : فقال ابن خطل : ما كنت أكتب إلا ما أريد ، ثم كفر ولقى بعكة .

١ الاصابة (٤٣٢/٣) ، (رقم ٨١٨١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) ، (صادر) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٨/١) ، (صادر) .

٤ الطبقات (٢٦٩/١) ، (صادر) .

٥ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) .

٦ الجهمي (١٢) .

٧ الاصابة (٤٣٠/٣) ، (رقم ٨١٦٦) .

٨ الجهمي (١٢) .

٩ الاصابة (٤٨٢/٢) ، (رقم ٥٦٠٣) .

١٠ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قتل ابن خطل ، فهو في الجنة . فقتل يوم الفتح وهو متعلق بأسوار الكعبة <sup>١</sup> . وهذا وهم ، وقد خلط صاحب هذا الخبر بين (عبد الله بن أبي سرح) وبين (ابن خطل) الذي لم يرد في الأخبار أنه كتب للرسول .

وذكر (ابن دحية) أن في (بني النجار) كاتباً كان يكتب الوحي للرسول ثم تنصر <sup>٢</sup> . وهو خبر لا نجده في الموارد الأخرى ، ولم ينص على اسم الكاتب ، والأغلب في نظري أنه من الأخبار الموضوعة ، وضع على بني النجار للإساءة إليهم ، وضعه من كان يتحامل عليهم .

ويظهر أن كتاب الرسول قد وزعوا الأعمال الكتابية فيما بينهم ، أو ان الرسول هو الذي وزع تلك الأعمال عليهم ، بحيث شخص كل واحد منهم بعمل من الأعمال . فقد روي ان علياً وعمان كانوا يكتبان الوحي فإن غاباً كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت . وإن خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية يكتبان بين يديه في حواريه ، وإن المغيرة بن شعبة والحسين بن نمير يكتبان ما بين الناس . وإن عبدالله بن الأرقم والعلامة بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم وفي دور الانتصار بين الرجال والنساء . وإن زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي . وإن معيقib بن أبي فاطمة الدوسى يكتب مقام رسول الله . وإن حنظلة بن الريبع (ربيعة) بن المدقع بن أخي أثيم بن صيفي الأسدى (الأسيدي) ، خليفة كل كاتب من كتاب النبي ، اذا غاب عن عمله فقلب عليه اسم الكاتب . وكان يضع عنده خاتمه . وقال له : الزمي واذكرني بكل شيء لثلاثة . فكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة أيام إلا ذكره ، فلا يبيت رسول الله وعنه شيء منه <sup>٣</sup> . فهو كاتب عام يكتب للرسول في كل أموره ، وهو خليفة كل الكتاب . ولهذا غلت عليه لفظة (الكاتب) . وقد كانت وفاته في خلافة عمر ، ومات في (الرها) من بلاد مصر <sup>٤</sup> .

١ ابن سيد الناس ، عيون الآخر (٣١٦/٢) .

٢ ابن سيد الناس ، عيون الآخر (٣١٦/٢) .

٣ جهشياري (١٢ وما بعدها) ، المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) ، المعارف (١٣٠) .

٤ المسعودي ، التنبيه (٢٤٦) . المعارف (١٣٠) .

وذكر أن ( المغيرة بن شعبة ) و ( الحصين بن نمير ) يكتبهان أيضاً فيما يعرض من حوارجه<sup>١</sup> .

و ( حذيفة بن اليمان ) ( توفي سنة ٣٦ هـ ) من يكتب خرسن التخل<sup>٢</sup> . وخصص ( المسعودي ) عمله بخرسن الحجاز<sup>٣</sup> .

وذكر ( عبدالله بن زيد ) الصمرى في جملة كتاب رسول الله إلى الملوك<sup>٤</sup> . ونجد في طبقات ( ابن سعد ) صورة كتاب أرسله رسول الله ( لمن أسلم من حدسي من نجم ) ، كتبه له ( عبدالله بن زيد )<sup>٥</sup> .

وكان ( العلاء بن عقبة ) فيمن كتب للنبي . وذكر أن الرسول كان يعيشه والأرقم في دور الأنصار . وكانا يكتبهان بين الناس المدابين والمعاهود والمعاملات<sup>٦</sup> . وفي جملة ما كتبه للرسول كتابه لبني شتنخ من جهينة<sup>٧</sup> ، وكتابه للعباس بن مرداس السلمي ، أنه أعطاهم ( مدفواً)<sup>٨</sup> . وذكر أنها كانتا يكتبهان بين القوم في قبائلهم ومياهم ، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء<sup>٩</sup> .

و ( أبي بن كعب بن قيس ) من كتاب الوحي ، وهو من يثرب من ( بني النجار ) من ( الخزرج ) . وقد عرف بـ ( سيد القراء ) ، وكان أقرأ الناس للقرآن . وكان أحد فقهاء الصحابة وأقرأهم لكتاب الله . وكان من كتب النبي قبل ( زيد بن ثابت ) ومعه أيضاً . وذكر أنه كان أول من كتب لرسول الله مقدمه المدينة ، وأول من كتب في آخر الكتاب : « وكتب فلان » وكان اذا لم يحضر دعا رسول الله ( زيد بن ثابت ) فكتب . وكان وزيد يكتبهان الوحي

- 
- ١ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) ، نهاية الارب (١٨/٢٣٦ وما بعدها) .
  - ٢ المعارف (١١٤) ، نهاية الارب (٢٣٦/١٨) .
  - ٣ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) .
  - ٤ الاصابة (٢٠٥/٢) ، (رقم ٤٦٩٠) .
  - ٥ الطبقات (١/٢٦٦ وما بعدها) .
  - ٦ الاصابة (٤٩١/٢ وما بعدها) ، (رقم ٥٦٤٩) .
  - ٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١) .
  - ٨ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
  - ٩ الجهشيارى (١٢) .

بين يدي الرسول ، ويكتبان كتبه الى الناس وما يقطع وغير ذلك<sup>١</sup> . ونجد في طبقات ابن سعد ، صور كتب دوتها أبي للرسول ، منها كتابه لخالد بن ضماد الأزدي ، وكتابه لعمرو بن حزم ، وهو عهد يعلمه فيه شرائع الاسلام وفرايشه وحدوده ، حيث بعثه الى اليمن<sup>٢</sup> ، ومنها كتابه لجنادة الأزدي<sup>٣</sup> ، وكتابه للمتنز ابن ساوي ، وكتابه الى ( العلاء بن الحضرمي ) ، بشأن ارسال ما تجمع عنده من الصدقة والعشور<sup>٤</sup> ، وكتابه لجماع في جبل شامة كانوا قد غصبو المارة من كنانة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد<sup>٥</sup> ، وكتابه لبارك من الأزد . وقد شهد على صحته أبو عبيدة بن الجراح وحذيفة بن اليمان<sup>٦</sup> .

وزيد بن ثابت من الانصار ، من (بني التجار) . ولما قدم الرسول المدينة استكتبه ، فكتب له الوحي ، كما تولى له أمر كتابة الرسائل . ذكر أنه تعلم الكتابة على أسرى (بدر) في جماعة من غلبة الانصار . فقد كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية أربعين أوقية ، فمن لم يكن عنده علم عشرة من المسلمين ، فكان زيد بن ثابت من عُلّم<sup>٧</sup> . وذكر أنه جاء الى أبيه وهو يبكي ، فقال ما شألك ؟ قال : ضربني معلمي ، قال : الخبيث يطلب بذبح بدر ، والله لا تأتيه أبداً<sup>٨</sup> .

وروى أنه في السنة الرابعة من الهجرة أمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود ، وقال لا آمن أن يبدلوه كتابي<sup>٩</sup> . فتعلم كتابتهم ، وتولى أمر كتابة رسائل الرسول اليهم ، والرد على رسائلهم<sup>١٠</sup> . ونسب اليه اتقانه الكتابة بلغات أخرى . ذكر المسعودي منها : الفارسية والرومية والقبطية والحبشية . وأنه تعلم

- ١ الاستيعاب (٢٧/١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣١/١) ، (رقم ٣٢) ، فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) ،
- ٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٧/١) ، المعارف (٢٦٦) ،
- ٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) ،
- ٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٦/١) ،
- ٥ ابن سعد ، طبقات (٢٧٨/١) ،
- ٦ ابن سعد ، طبقات (٢٨٦/١) وما بعدها ،
- ٧ امتاع الاسماع (١٠١/١) ، الطبقات (١٤/٢) ، الجهشياري (١٢) ،
- ٨ امتاع الاسماع (١٨٧/١ ١٩٤) ، السجستانى ، المصاحف (٣) ،
- ٩ فتوح البلدان (٤٧٣ وما بعدها) ،

ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن ، وكان يكتب إلى الملوك ويحبب بمحضه النبي ويترجم له<sup>١</sup> وقيل إنه كان من أعلم الصحابة بالفراشض<sup>٢</sup> . وكان هو الذي تولى قسم غثائم البرموك . وتولى جمع القرآن في أيام أبي بكر ، بتتكليف من الخليفة . وذكر أنه كان « رأساً بالمدينة في القضاة والفتوى والقراءة والفراشض »<sup>٣</sup> . وقد عرض زيد القرآن على رسول الله ، « وكان آخر عرض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، القرآن على مصحفه ، وهو أقرب المصاحف من مصحفنا »<sup>٤</sup> .

وكان حين قدم رسول الله المدينة ابن احدى عشرة سنة . وكان يوم (بعثات) ابن ست سنين وفيه قتل أبوه . ويظهر انه كان قد تعلم الكتابة وهو صغير . ذكر انه أتى بزيد النبي مقدمه المدينة ، فقيل هذا منبني التجار وقدقرأ سبع عشرة سورة، فقرأ عليه فأعجبه ذلك، فقال : تعلم كتاب يهود، فإني ما آتتهم على كتابي . فتعلمتها ، وتولى الكتابة بالعبرانية أو السريانية بين الرسول واليهود ، فضلاً عن كتابة رسائله وما يتزل عليه من الوحي حين يكون عنده . لذلك عدّ من البارزين في قراءة القرآن . وبرز في القضاة والفتوى والفراشض، وعدّ من أصحاب الفتوى، وهم ستة : عمر وعلي وابن مسعود وأبي و أبو موسى ، وزيد بن ثابت . وهو الذي جمع القرآن<sup>٥</sup> .

وهو الذي جمع القرآن في عهد (أبي بكر) ، وقد اختلف في سنة وفاته، فقيل مات سنة التثنين أو ثلاثة أو خمس وأربعين ، وقيل سنة احادي أو اثنتين ، أو خمس وخمسين . وفي خمس وأربعين قول الأكثر . وذكر ان حسان رثاه بقوله :

١- التنبية (٢٤٦) ، فتوح البلدان (٤٧٩) ، السجستانى ، المصاحف .  
تقيد العلم (٥١) .

٢- الاستيعاب (٢٩/١) ، (حاشية على الاصابة) .

٣- الاصابة (٥٤٣/١) وما بعدها ، (رقم ٢٨٨٠) ، الاستيعاب (٥٣٢/١) ، (حاشية على الاصابة) .

٤- المعارف (٢٦٠) .

٥- الاصابة (٥٤٣/١) ، (رقم ٢٨٨٠) ، الاستيعاب (٥٣٢/١) ، (حاشية على الاصابة) ، نزهة الجليس (٦٥/٢) ، أسد الغابة (٢٢١/٢ وما بعدها) .

فن للقوافي بعد حسان وابنه ومن المعانى بعد زيد بن ثابت<sup>١</sup>

وعهد رسول الله الى ( زيد ) احصاء الناس والقائم ، وتقسيمها عليهم حسب  
حصصهم<sup>٢</sup> .

وكان ( ثابت بن قيس بن شناس ) الأنصاري من كتب للرسول . كتب له  
كتابه لوفد ثمالة والحدان . وقد شهد على الكتاب ووقع عليه ( سعد بن عبادة ) ،  
و ( محمد بن مسلمة )<sup>٣</sup> . وكان خطيب الأنصار . وقد قتل يوم اليمامة<sup>٤</sup> . وهو  
الذى أمره الرسول أن يجتيب على خطاب خطيب ( نعيم ) ولسانها الناطق ( عطّارد  
ابن حاجب ) . فكان خطيب المسلمين<sup>٥</sup> .

و ( محمد بن مسلمة ) ، هو من الأوس . ولد قبلبعثة ، وهو أول من  
ُسمى في الجاهلية محمداً . أسلم قدماً على يدي ( مصعب بن عمير ) ، وآتى  
الرسول بيته وبين ( أبي عبيدة ) . واستخلفه الرسول على المدينة في بعض غزواته .  
وقد كتب للرسول كتابه لموري بن الأبيض . توفي سنة ( ٤٣ ) هـ أو ( ٤٦ ) هـ<sup>٦</sup> .

وكان ( أوس بن خولي ) من كتاب يثرب ، ولما كان صلح ( الخديبية )  
وأراد الرسول تدوين الصلح « دعا أوسَ بن خولي يكتب ، فقال سهيل :  
لا يكتب إلا ابن عملك عليّ ، أو عثمان بن عفان ، فأمر علياً فكتب<sup>٧</sup> . وهو  
من الخزرج . ولما آتى الرسول بين الأنصار والمهاجرين آخر بيته وبين شجاع بن  
وهب<sup>٨</sup> . وكان من ( الكلمة ) ، ولما قبض الرسول وأرادوا غسله ، حضرت

١ الاصابة ( ١ / ٥٤٤ ) ، ( رقم ٢٨٨٠ ) ، الطبرى ( ٤٢١ / ٢ ) ، ( مطبعة الاستقامة  
بالمقاهرة ) ، تهذيب الاسماء واللغات ، للنووى ( ١ / ٢٠٠ وما بعدها ) ، تهذيب  
التهذيب ، للمسقلانى ( ٣٩٩ / ٣ ) ، ( حيدر آباد ١٣٢٥ھ ) ، اليعقوبى ( ١٥٧ / ٢ ) ،  
١٩٥ ، ( هوتسما ) ، ابن هشام ، سيرة ( ١١ / ٣ ) ، ( مطبعة حجازي بالمقاهرة )  
امتاع الاسماع ( ٤٢٦ / ١ ) .

٢ ابن سعد ، طبقات ( ١ / ٢٨٦ ) ، ( ٣٥٤ / ١ ) ، ( صادر ) .

٣ الاصابة ( ١ / ١٩٧ ) ، ( رقم ٩٠٤ ) .

٤ الطبرى ( ٣ / ١١٦ ) ، ( قدوم وفدى نعيم ونزول سورة الحجرات ) .

٥ الاصابة ( ٣ / ٣٦٣ ) ، ( وما بعدها ) ، ( رقم ٧٨٠٨ ) ، ابن سعد ، طبقات ( ١ / ٢٨٦ ) ،  
( ١ / ٣٥٥ ) ، ( صادر ) .

٦ امتاع الاسماع ( ١ / ٢٩٦ ) .

٧ الاصابة ( ١ / ٩٥ ) ، ( وما بعدها ) ، ( رقم ٣٣٤ ) .

الأنصار ، وأبى على المهاجرين إلا أن يحضر منها أحد ، فقيل لهم : اجتمعوا على رجل منكم ، فاجتمعوا على أوس بن خولي ، فحضر غسل رسول الله ودفنه مع أهل بيته . وتوفي في خلافة عثمان<sup>١</sup> .

وكان ( عبدالله بن رواحة ) الخزرجي من كتاب الرسول ومن الشعراء المعروفين بيترب ومن السابقين الأولين من الأنصار وأحد القباء ليلة العقبة . وكان الرسول يقول له : « عليك بالمرشحين » ، فينظم الشعر عليهم . وكان ينافض ( قيس بن الخطيم ) في حروبهم ، ولما دخل الرسول مكة في عمرة القضاء كان ابن رواحة بين يديه ، وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضركم على تأويله  
خربياً يزيل المهام عن مقيله ويدهل الخليل عن خليله

ومدح الرسول ، وكان من جيد مدحه له قوله :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبئك بالخبر<sup>٢</sup>

وذكر بعض أهل الأخبار أنه لما نزلت : « والشعراء يتبعهم الغاوون . قال عبدالله بن رواحة : قد علم الله أنني منهم ، فأنزل الله : إلا الذين<sup>٣</sup> آمنوا وعملوا الصالحات<sup>٤</sup> . وسورة الشعراء التي فيها آية : « والشعراء يتبعهم الغاوون » وما بعدها ، من السور التي نزلت بعكة إلا هذه الآية وما بعدها ، وهي أربع آيات في آخرها ، نزلت بالمدينة في شعراء الجاهلية ، ثم استثنى منهم شعراء المسلمين منهم : حسان بن ثابت وكمب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، فقال تعالى : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينتقلون ، فصار الاستثناء ناسخاً له من قوله والشعراء يتبعهم الغاوون<sup>٥</sup> .

١- الاستيعاب ( ٤٩/١ ) ، ( حاشية على الاصابة )  
٢- الاصابة ( ٢٩٨/٢ وما بعدها ) .

٣- في الاصابة ( إن الذين ) ، وهو غلط مطبعي .  
٤- الشعراء ، الآية ٢٤ وما بعدها .

٥- الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ( ص ١٥١ وما بعدها ) ، ( حاشية على أسباب النزول ) ، ( القاهرة ١٣١٥ھ ) .

وهناك كتبة آخرون كتبوا الكتاب والكتابين والثلاثة للرسول ، ذكر (السعودي) أنه لم يثبت أسماءهم في جملة أسماء من كتب للرسول لأنه لم يكتب من أسماء كتاب الرسول إلا من ثبت على كتبته واتصلت أيامه فيها وطالت مدة وصححت الرواية على ذلك من أمره دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كتاباً ويضاف إلى جملة كتابه<sup>١</sup> .

وذكر ان كتاب النبي كانوا يكتبون بالخط المقور ، وهو النسخي . أما الخط (المبسوط) ويسمى باليابس ، فقد استعمل في النقش على الأحجار وأبواب المساجد وجدران المباني ، وفي كتابة المصاحف الكبيرة ، وما يقصد به الزيمة والزخرف ، وغلب عليه اطلاق لفظ (الكوني)<sup>٢</sup> .

وكان بشير بن كعب العدوبي من قرأ الكتب<sup>٣</sup> . وذكر أنه كان من التابعين<sup>٤</sup> . وكان (عبد الله بن عمرو بن العاص) من قرأ الكتب ، وكان يكتب الحديث بين يدي رسول الله ، ويقرأ بالسريانية<sup>٥</sup> .

وذكر أهل الأخبار ان رجلاً من أهل اليمن كان يقرأ الكتب ، وان امرأة اسمها (فاطمة بنت مرّ) ، كانت قد قرأت الكتب كذلك<sup>٦</sup> .

وكان من النساء من يحسن القراءة والكتابة . منها : (الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس) القرشية العدوية . من رهط (عمراً)<sup>٧</sup> . أسلمت قبل المиграة ، وهي من المهاجرات الأول . وكانت من عقلاء النساء ، وكان (عمراً) يقدمها في الرأي . وكان رسول الله يزورها ويقيّل عندها في بيتها ، وكانت قد اتخذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه . وقد أمرها الرسول أن تعلم (حفصة) الكتابة ، فعلمتها ،

١ المسعودي ، التنبية (٢٤٦) .

٢ حفني بك ناصف (٦١ وما بعدها) .

٣ بضم أوله مصفرأ ، الاصابة (١٨٣/١) ، (رقم ٨٢٢) .  
٤ الاصابة (١٧٧/١) ، (رقم ٧٧٨) .

٥ المعارف (٢٨٧) ، الاصابة (٣٤٣/٢) ، (٤٨٤٧) ، الاستيعاب (٢/٣٣٨) وما بعدها ) ، (حاشية على الاصابة) .

٦ الروض الانف (١٠٤/١) .

٧ فتوح البلدان (٤٧٧ وما بعدها) ، (٤٥٨) ، (المكتبة التجارية) .

كما علمتها (رقية) تسمى (رقية النملة)<sup>١</sup>. وقد تعلمت الكتابة في الجاهلية<sup>٢</sup>. وكانت (حفصة) زوج النبي وابنة (عمر) تكتب<sup>٣</sup>. وكانت (أم كلثوم) بنت (عقبة) تكتب<sup>٤</sup>. وكذلك كانت (عائشة بنت سعد)، و(كريمة بنت المقداد)<sup>٥</sup>، و(شميلة)<sup>٦</sup>.

وورد أن (عائشة) زوج الرسول ، أنها كانت تقرأ المصحف ولا تكتب<sup>٧</sup>. ولا شك في أنها تعلمت القراءة في الإسلام .

وورد في بعض الأخبار أن العرب كانت تسمى كل من قرأ الكتب أو كتب: صابباً. وكانت قريش تسمى النبي أيام كان يدعوا الناس بمحنة ويتلو القرآن صابباً.<sup>٨</sup> وقد اشتهر أهل اليمن بشيوع الكتابة والقراءة فيهم ، فكان علمائهم يتعلمونها ويرددون قراءة ما يكتبون ويقرأون وقد أشير إلى ذلك في شعر (لبيد) فورد :

فتعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد عمان  
متعود لحن<sup>٩</sup> يعيد بكفه قلماً على عُسب، ذبان وبان<sup>١٠</sup>

والزبر : الكتب ، فقال : كأن تلك المنازل كتب يرددوها وليد عمان ، أي غلام عمان ، لأن الكتاب فيهم ، لأنهم أهل ريف . متعدد لذلك : فهم<sup>١</sup> ، ولحن<sup>٢</sup> : يعني فهم ، يعيد بكفه قلماً ، يكتب في العسب والبمان . وكانوا يكتبون في العسب والبمان والعرعر<sup>٣</sup> . فيظهر من ذلك أن أهل اليمن ، حتى علمائهم ، كانوا يكتبون ، ويردد الأطفال الكتب ، لحفظها ولتعلمها ، على نحو ما يفعلون في الكتابات هذا اليوم .

- ١ الاصابة (٤/٣٣٣) ، (رقم ٦٢٢) .
- ٢ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
- ٣ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
- ٤ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
- ٥ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
- ٦ البلاذري ، انساب (١/١٣٧) ، الاصابة (٤/٣٣٥) ، (رقم ٦٢٢) .
- ٧ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
- ٨ الاكليل (١/٤٤) .
- ٩ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، (تحقيق الدكتور احسان عباس) ، (ص ١٣٨) ، (طبعة الكويت ١٩٦٢) .
- ١٠ المصدر نفسه .

ويظهر أن ثقيفاً كانت قد حذقت الكتابة وبرزت بها . فقد ورد أن عمر بن الخطاب قال : « لا يعلِّم في مصاحفنا إلا غيلان قريش وثقيف » ، وأن عثمان ابن عفان قال : « أجعلوا المعلم من هذيل والكاتب من ثقيف »<sup>١</sup> . وذكر أن (غيلان بن سلمة بن معتب ) ، وهو من أسلم يوم الطائف ، كان كتاباً كما كان معلمًا<sup>٢</sup> .

وورد في الأخبار أن الجاهليين كانوا يضعون الكتب التي ترسل إلى الملوك من الآفاق ، على لوح ضمت إليه ألواح من جوانبه ، فلا تمسها إلا يد الملك ، يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء ويحب على ما فيها . وفي هذا الخبر دلالة على شيوخ الكتابة والمراسلات عند الجاهليين ، وعلى وجود ديوان خاص لدى الملك ، يتولى النظر في المراسلات . وفي هذا المعنى ورد في شعر ليلى :

أو مذهب "جدد على الواح" هن الناطق المبروز والمختوم<sup>٣</sup>

ويظهر أن قوماً من الشعراء كانوا يكتبون ويقرأون. ومنهم من كان على ثقافة وعلم . ورد في شعر للشاعر ( لييد ) قوله :

وَجْلَ الْسَّيُولُ' عَنِ الظَّلَوْلِ كَأَنَّهَا زُبَرٌ تَجْدَدُ مَتَوْهَمًا أَقْلَامُهَا،

ولا يمكن صدور هذا البيت ، إلا من رجل كاتب له ذكاء حاد ، وربما كان ذلك الشاعر كاتباً يدون شعره ويحفظه عنده ، فوصفه مثل هذا للطلول ، لا يمكن أن يقال إلا من رجل له علم بالكتابة ، وحذق ودرأة .

وفي البيت الآتي :

فَدَافَعَ الْرِّيَانُ عَرْتِي رَسِيمًا خَلْقًا كَمَا ضُمِنَ الْوَحْيِ سِلَامًا

إشارة إلى الكتابة كذلك ، فالوحى هو الكتابة ، والسلام الحجارة ، أي كان

ابن فارس ، الصاحبی (٢٨) .

المجبر (٤٧٥)

شرح دیوان لبید (ص ۱۱۹) .

<sup>٣٦٧</sup> شرح دیوان لبید (ص ٢٩٩) ، بلوغ الارب (٣ / ٣٦٧ وما بعدها) .

ما بقي من رسماها بعد أن عريت ، مثل ما يبقى من الكتابة في الأحجار<sup>١</sup>. ويؤخذ من ذلك أن الحجارة كانت – كما ذكرت في مواضع من هذا الكتاب – مادة من مواد الكتابة عند الجاهليين .

وفي شعر لبيد :

فتعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان  
مُتَعَوِّد لحن<sup>٢</sup> يعيد بكفه قلماً على عسب ، ذيلن وبان<sup>٣</sup>

دلالة واضحة على إلمامه بالكتابة والقراءة ، وعلى وقوفه على خط أهل اليمن ، وعلى دراسة غلستان اليمن للزبير ، وهي الكتب .

بل ورد : ان لبيداً كان بدون شعره ، ويمسهه بعد كتابته ، وأنه كان يكتب .  
روي : « ان عمر بعث الى المغيرة بن شعبة ، وهو على الكوفة ، يطلب اليه أن يستنشد من قبله من شعراء الكوفة ما قالوه في الاسلام . فأجابه الأغلب ، ورد عليه لبيد قائلاً : إن شئت ما عفى عنه – يعني الجاهلية – فقال : لا ، أنشدني ما قلت في الاسلام . فانطلق ، فكتب سورة البقرة في صحيفة ، ثم أتى بها ، وقال : أبدلتني الله هذه في الاسلام مكان الشعر . فكتب المغيرة بذلك الى عمر ، فنقص عطاء الأغلب خمس مئة ، وجعلها في عطاء لبيد »<sup>٤</sup> .

وكان الشاعر (المرقش) ، وهو من شعراء الحيرة ، كاتباً قارئاً ، تعلم الكتابة والقراءة في (الحيرة) مع أخيه (حرملة) عند رجل من أهل الحيرة<sup>٥</sup> . وكذلك كان الشاعر (لقيط بن يعمر الإيادي) كاتباً قارئاً ، وقد عرف بين أهل الأخبار بـ (صحيفته) التي أرسلها الى قومه (إياد) ، ينذرهم فيها بعزم (كسرى) على غزوهم ، وهي قصيدة افتتحت بهذا البيت :

١ شرح ديوان لبيد (ص ٢٩٧) .

٢ شرح ديوان نبيد (ص ١٣٨) .

٣ شرح ديوان لبيد (ص ٢٨ ، ٣٦) ، الأغاني (١٣١/١٥) .

٤ الأغاني (١٣٠/٦) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .

## سلام في الصحيفة من القبط إلى من بالجزيرة من إيماد١

ويجب ألا ننسى الشاعر : ( أمية بن أبي الصلت ) الذي لم يكن كاتباً قارئاً حسب ، بل كان واقفاً على كتب أهل الكتاب كذلك ، وكان يقرأها ، ويقتبس منها ، وقد استخلص في شعره ألفاظاً ذكر أنه أخذها من كتب أهل الكتاب<sup>٢</sup> .

ونضيف إلى من تقدم : ( الزبرقان بن بدر )<sup>٣</sup> ، و ( التابقة النباني )<sup>٤</sup> و ( الريبع بن زياد العبسي )<sup>٥</sup> ، و ( ليبد بن ربيعة العامري )<sup>٦</sup> ، و ( كعب ابن زهير بن أبي سلمي )<sup>٧</sup> .

ودعوى أن الجاهليين كانوا أمنين وعلى الفطرة والبداهة ، لا يحسنون كتابة وقراءة خلا نفر بحكة وأشخاص بغير ، دعوى باردة سخيفة ، لا يمكن له إللام بأحوال الجاهلية أن يصدق بها . فأهل الأخبار الذين يروون هذه الرواية ، يعودون فيخطئون أنفسهم ، بسرد أسماء رجال من جزيرة العرب ومن العراق وببلاد الشام ، ذكروا انهم كانوا يقرأون ويكتبون ، بل ذكروا أكثر من ذلك ، ذكروا أن منهم من كان يقرأ العبرانية أو السريانية ، كالأحناف ، ثم انهم يذكرون أخبار مراسلات سادات القبائل في مختلف مواضع جزيرة العرب مع الرسول ، ومكتبة مسلمة مع النبي وتأليفه كتاباً زعم انه وحي نزل عليه من السماء مثل ما نزل على الرسول ، فهل يعقل بعد ذلك ، قول قائل ان العرب كانوا أمنين ، خلا نفر . وقد رأينا انهم تركوا آلاف الكتابات باللهجات العربية

١ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ( ١٥٢/١ ) ، الأغاني ( ٢٤/٢٠ ) ، مختارات ابن الشجيري ( ٢ وما بعدها ) .

٢ ابن هشام ، سيرة ( ٤٨/١ ) ، الأغاني ( ١٢٣/٣ ) ، ( ١٢١/٣ وما بعدها ) ، ( ١٢٩/٤ ) ، ابن قتيبة ، المعارف ( ٢٨ ) ، ابن سعد ، الطبقات ( ٣٧٦/٥ ) ، المزهر ( ٣٠٩/٢ ) .

٣ الأغاني ( ١٨٠/٢ ) .

٤ البغدادي ، الخزانة ( ٣٩٢/٢ وما بعدها ) .

٥ الأغاني ( ٢٢/١٦ وما بعدها ) ، أمالي المرتضى ( ١٣٦/١ ) .

٦ ابن قتيبة ، الشعر ( ٢٢٣ وما بعدها ) ، الخزانة ( ٢١٥/٢ ) .

٧ ابن قتيبة ، الشعر ( ٩١/١ ) ، جمهرة أشعار العرب ( ٢٤ ) .

الجخوبية وبالشمولية واللحيانية والصفوية ، بل قد نجد الكتابة في بعض قبائل الجاهلية مثل قبائل الصفة ، أكثر اتساعاً وانتشاراً مما عليه الحال بين قبائل هذا اليوم .

وبعد ، فالآمية الجماعية التي فرضها أهل الأخبار على الجاهليين ، فجعلوهم أميين مائة بمالاتة ، لم تكن أمية صحيحة ، وإنما جاءت من وهم في فهم المراد من الموضع التي أشرت إليها من القرآن ، بدليل مناقضة أهل الأخبار أنفسهم ، بذلك أسماء من ذكرناهم ومن لم نذكرهم من كان يقرأ ويكتب بهذا القلم العربي الذي دون به القرآن . وبدليل ما أوردته من أقوال المفسرين في الآمية ، من أنها الوثنية ، لا الآمية يعني الجهل بالكتاب القراءة حتى ، لعدم انسجام هذا المعنى مع تفسير الآيات ، ثم إن القرآن الكريم حين تعرض للأمية ، يعني عدم القراءة والكتابة ، قال : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بأياتنا إلا الكافرون . وما كانت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لأرباب المبطلون »<sup>١</sup> . فعبر بذلك تعبرآ مبيناً عن معنى عدم القراءة والكتابة ، بأوضح عبارة ، فقال : « وما كنت تناول من قبله من كتاب ، ولا تخطه يمينك » ، ولو كانت الآمية بهذا المعنى لا أهل ذكرها في هذا المكان . ومن ذلك الوهم جاءت الأحاديث الضعيفة من أنه كان من أمة آمية لا تحسب ولا تكتب ، ولعاطفة دينية ، شددوا في آمية العرب ، فجعلوها جميعاً أميين ، لاظهار معجزة للرسول - هو في غنى عنها - في أنه ظهر بالبيبة في أمة آمية ، وجاء من الله بحسن بيان ، وهي حجة له على أهل الكتاب والشركين .

وبعد ، فقد فهمنا من روایات أهل الأخبار ، ان أهل مكة انما تعلموا الكتابة في عهد غير بعيد عن الاسلام . فهل يعني هذا انهم لم يكونوا يحسنون الكتابة والقراءة قبل هذا العهد أبداً ؟ والذي أراه ان ذلك شيء غير معقول ، وان أهل مكة كانوا يكتبون ويقرؤون ، كانوا يكتبون بالمسند ، القلم الذي كتب به أكثر أهل جزيرة العرب قبل الاسلام ، بدليل ما نقرأ في كتب أهل الأخبار من زعمهم ان أهل مكة كانوا يجدون بين الحين والحين كتابات مدونة بالمسند في مقبرة

١ العنكبوت ، الاية (٤٦ وما بعدها) .

مكة القديمة وفي مواضع أخرى منها ، وفي عشرات الناس على هذه الكتابات دلالة على أن سكان مكة كانوا يكتبون بالمسند أو بأقلام مشتقة منه ، ولا يعقل عدم استعمال أهل الحجاز لهذا القلم ، وقد وجدنا أنه والأقلام المشتقة منه ، قد كونت قلم أهل هذه البلاد قبل الإسلام ، والظاهر انهم وجدوا ان القلم الذي كان يكتب به النبط وبقية العرب ، مثل عرب الحيرة ، كان أسهل استعمالاً ومروفة من القلم المسند البطيء الحركة ، وأنه لا يأخذ حجماً كبيراً بالقياس الى النبط العربي الجنوبي ، لذلك فضلوا على هذا القلم ، واستعملوه عوضاً عنه ، دون أن يجرروا عليه تحويراً أو تغييراً ، لإصلاح ما فيه من خلل ، فلما جاء الإسلام ، أجري على ما أجري من تحوير وتغيير وتطور .

## الفصل الحادي والعشرون بعد المئة

### الخط العربي

للعلماء الذين اشتغلوا في موضوع نشوء الخط عند البشر ، والقلم الأول الذي تفرعت منه سائر الأقلام ، نظريات في تاريخ الكتابة وظهورها ، وفي المراحل التي مررت عليها من أول عهد مرت فيه وهو عهد الكتابة الصورية Pictography إلى وصولها إلى مرحلة الحروف . وهذه النظريات مع أنها مرت بمناقشات وبحوث وتحدّدت حتى أصبحت معروفة عند علماء الخطوط ، لم تستقر حتى الآن . لأن ما وصل اليانا من نماذج كتابية أثرية ، لا يكفي لإبداء رأي مقبول أو رأي قاطع في أصل الخط وفي منشئه وفي الأمة التي أوجنته . ولا أعتقد أن في امكان أحد القطع في ذلك ، ما لم يغير المتقبون في المستقبل على نماذج عادية غير معروفة ، تكون كافية لإبداء رأي علمي في هذا الموضوع .

واختراع الكتابة من الاختراعات الكبرى التي غيرت مجرب البشر، وهو اختراع لا تقل أهميته عن أعظم الاختراعات والاكتشافات والمغامرات التي قام بها الإنسان منذ يومه الأول حتى هذا اليوم . ومنها هروب الإنسان من أحضان أمه الأرض ، وعقورقه بمحفها ، والتبطير بها ، وذهابه إلى القمر ثم إلى ما وراء القمر من عوالم سائحة راقصة في هذا الذي نسميه السماء . ونحن لا نخفل اليوم بموضوع أهمية اختراع الكتابة ، بالنسبة إلى تقدم العقل البشري ، ولا يعرف معظم الناس عنه أي شيء ، ولا يحفلون به ، لأنه صار من القدم البائد . وكل قديم بايد يكتب عليه التسخان . وسيأتي يوم ولا شك ينسى فيه الجاءون من بعدهنا يثاثن وبآلاف

من السنين ، يوم هروب الإنسان من الأرض ، ولا ينظرون إليه إلا كما ينظر إلى الإنسان الأمي الجاهل إلى مبدأ الكتابة أو إلى اختراع النار أو اختراع الطباعة أو غير ذلك من المخترعات التي إذا مضى وقت طويل على اختراعها نسيتها ذاكرة البشر ، ونسخت كل أثر تركته في تطور حياة هذا الإنسان المغامر المغموم بالبحث عن المجهول .

ولعلني لا أخطأ إذا قلت إن الإنسان قد فكر في الكتابة منذ أيامه الأولى أي منذ شعر بنفسه ، وصار يُعبر عمّا في ذاته ، فكر بها لأنه كان في حاجة إلى تسجيل أعماله ومعاملاته وكلامه ، ليتمكن من تذكرها عند الحاجة والى مراجعتها. كما فكر في تسجيل حوادثه وشعوره وتأثيره بالمرئيات الجميلة أو المحزنة، وبالحواظر التي كانت تمر عليه ، وبكل إحساسه وعواطفه . وكان كلما تقدم عقله وتوسعت مداركه شعر بحاجته إلى تدوين أعماله وأحبابيه ، فعمد إلى الطرق البدائية في التدوين ، ثم طورها تدريجياً حتى وصل إلى مرتبة الكتابة الصورية ، أي أنه استخدم الصور في مقام الألفاظ . بأن يرسم صورة ، فإذا رآها أحد عرفها وسمها باسمها. وعرفت هذه الطريقة بالكتابية الصورية . غير أن هذه الطريقة وإن عبرت بعض التعبير عن مشاعر الكاتب ، إلا أنها كانت عاجزة عن التعبير عن الأمور الروحية وعن الألفاظ المعنية ، وعن الأمور الحسابية وغير ذلك . لذلك لم يقنع بها بل أخذ يشحد ذهنه لإيجاد طريقة أخرى مختصرة وبسيطة ولها قابلية على رسم المعاني والاحساس ، فأوجد من الكتابة الصورية ، اختزالاً نسبيه : الكتابة المقطعة. أي أنه اختزل الصور ، وجزأها إلى مقاطع . وأخذ منها مقاطعها الأولى . فسمها باسمائها الأصلية . فوصل بذلك إلى مرحلة المقاطع . وتمكن بسليقته وبذكائه من تخليل الأسماء والألفاظ التي يراد تدوينها إلى مقاطع ، وتدوين أي كلمة يمقاطعها التي تتألف منها . وقد سهلت هذه المرحلة عليه كتابة الكلمات التي تعبّر عن الآراء ومن تسجيل جميل وصفحات فيها ألفاظ مادية محسوسة وألفاظ ليست بسميات لأشياء مادية وإنما هي تعبير عن معانٍ وإحساس . مثل موت وحياة ورأي وما شاكل ذلك . إلا أنه وجد أن هذه الطريقة لا تزال طريقة صعبة عسيرة ، وأن على الإنسان أن يحفظ صور مثاث من العلامات التي تعبّر عن المقاطع لتدوين رسالته . لذلك فكر في اختزالها أيضاً وفي غربتها وجزم المقاطع للوصول إلى الجذور الأساسية للألفاظ وقد نجح في عمله هذا فوصل إلى إيجاد الحروف . بلغ بذلك النهاية .

وهي المرحلة الحقيقة للكتابة . وبذلك استطاع أن يدون كل ما يدور بخلده من آراء بحروف ، يضعها بعضها إلى بعض ليولد منها الألفاظ التي تدون بعضها إلى بعض لتعبير عما يريد الكاتب تدوينه .

وما ذكرته يمثل مجمل رأي العلماء في تطور الكتابة من الرموز والعلامات البدائية إلى بلوغها مرحلة الكمال وال تمام . وقد أخذوا رأيهم هذا من الصور والنقوش التي غر عليها في الكهوف وعلى الصخور وفي المقابر في مختلف أنحاء العالم . ولكن رأيهم هذا يتشعب ويتضارب عندما يتعرض للأصل الذي أوجد الحروف ، والمكان الذي صار له شرف ابجاد الكتابة ، وحل المشكلة المستعصية التي دوخت الإنسان ، مشكلة تدوين ما يدور بخلده بيسر وسهولة . فذهب بعض الباحثين إلى أن الكتابة إنما ظهرت في العراق ، وذهب بعض آخر إلى أنها ظهرت في لبنان ، وذهب بعض إلى أنها من نبت أرض النيل ، وذهب آخرون إلى أنها من ثمرات جزيرة (كريت) . ولكل رأي ودليل وحججة تقوم على دراسة الكتابات والتوصص التي غر عليها في تلك الأرضين .

والذين يرون ان العراق هو وطن الكتابة الأول ، يرون ان الخط إنما ظهر بتأثير عبادة التحريم ، وذلك في أرض (كلديا) ، وكان الكهنة قد وضعوا رموزاً للتحريم ، ومن تلك الرموز أخذت الأبجدية الأولى ، وتفرعت الألفباء السامية الفريدة التي صارت أمّا لمجموعة من الأبجديات ، ومن قائل هذه النظرية والمدافعين عنها المستشرق (هومل) <sup>١</sup> .

وهناك طائفة من العلماء رأت ان الأبجدية الأولى هي وليدة أرض النيل . وأن الذين أوجدوا الأبجدية إنما أخذوها منها . وكان المصريون قد استعملوا في بادئ أمرهم الكتابة الصورية ، ثم اختزلوها وأولدوا منها (الكتابة المبروغليفية) . وهي كتابة منظورة متقدمة بالنسبة إلى الكتابة الصورية . وقد صارت هذه الكتابة أمّا لأقدم الكتابات . إذ تعلمها أهل (سيناء) وأهل بلاد الشام، ثم اختزلوها وجزموها ، حتى أوجدوا من هذا الجزم الحروف الهجائية <sup>٢</sup> .

Grundriss, I, S. 97, Geschichte Babylonien und Assyrian, S. 50.  
Ency. Britanica, Vol. I p. 680, Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems, S. I, A.H. Gardiner, « The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet », in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916.

وغير المنقوبون في طور سيناء في ( سراليط الخادم ) على كتابة قديمة يعود عهدها إلى سنة ( ١٨٥٠ ) قبل الميلاد ، دفعت بعض العلماء مثل ( مارتن اشيرنكلنث ) على القول بأن هذه الكتابة هي وليدة الكتابة الهيروغليفية ، وإنها الحلقة المفقودة التي توصل بين الهيروغليفية وبين مرحلة الحروف . وذهب إلى أن العمال الذين كانوا يستغلون في مناجم طور سيناء إنما اهتدوا إلى التدوين بالحروف من معرفتهم للهيروغليفية . إذ اختزلوا المقاطع ، وأخذوا بالجزء الأول من كل مقطع وسموا ذلك الجزء باسم من أسماء الصور بلغتهم ، ف تكونت عندهم مجموعة من الحروف كونت الأبجدية الطورسينائية ، بلغ عددها الثين وعشرين حرفاً ، أصبحت نموذجاً للأبجديات الأخرى التي اعتمدت عليها<sup>١</sup> .

وقد انتشرت هذه الأبجدية من ( طور سيناء ) إلى الشرق فوصلت إلى الشأم وجزيرة العرب ، وصارت أصل الأبجديات في هذه الأماكن غير إنما لم تستعمل في العراق ، حيث كانت الكتابة المسماوية ، ولا في مصر ، حيث كانت الكتابة ( الهيروغليفية ) . وقد تغيرت أشكالها باستعمالها الطويل ، وتركت بصيراً عن الزمان ، وتبدل الأسماء التي وضعها كتاب طور سيناء لحروفهم ، كما تبدلت من حيث الترتيب وبذلك تولدت منها أفلام جديدة<sup>٢</sup> .

ورأى بعض العلماء أن الخط الكنعاني الذي هو من الخطوط القديمة ، قد اشتق من الخط الهيروغليفى ، لوجود شبه بين الحروف الكنعانية وبعض الصور الهيروغليفية . ورأى بعض آخر أنه مشتق من الكتابة المسماوية . ورأى آخرون أنه اشتق من الأبجدية ( الطورسينائية ) ، إذ يصعب تصور اشتقاء الخط الكنعاني من الهيروغليفية رأساً بعد ما بين الكتابتين ، وإن كان هناك شبه بين بعض الحروف الكنعانية والصور الهيروغليفية . ومن الخط الكنعاني تولدت بعض الأقلام السامية المتأخرة<sup>٣</sup> . وذهب باحثون إلى أن الفينيقيين هم أول من اخترعوا الأبجدية ، ومن هذه الأبجدية الفينيقية تولدت الأبجديات الأخرى ، وذهب قسم منهم إلى أن الفينيقيين ، إنما أخذوا بمجدهم هذه من الهيروغليفية ، بأن شذّبوا وجزموا مقاطعها ، وأولدوا

Martin Sprengling, The Alphabet : its Rise and development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931, The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

١

The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

٢

The Jewish Quarterly Review, XII, (1950), 83-100, 159-179.

٣

منها الحروف<sup>١</sup>. ونظراً إلى وجود هوة كبيرة بين الكتابة الفينيقية وبين المبروغليفية، رأى بعض الباحثين ، أن الفينيقيين ، إنما أخذوا خطهم من الخط الطورسيتاني ، ثم طوروه وحسّنوه وأوجدو منه خطهم الذي أولد جملة خطوط .

وطائفة أخرى من العلماء ، رأت أن وطن (الألفباء) الأول هو جزيرة قبرس أو جزيرة كريت ، حيث عثر فيها على نماذج قديمة للكتابة اتخذوها حجة يستند إليها في هذا الرأي. وقد زعم أصحاب هذه النظرية أن أهل ساحل البحر الأبيض إنما تعلموا الكتابة من أهل (كريت) أو (قبرس) . وذلك باحتكارهم بهم ، وبهجرة الفلسطينيين *Philistines* ، من جزيرة (كريت) إلى سواحل فلسطين التي عرفت باسمهم (فلسطinia) *Philistia* ، ثم أطلقت على المنطقة التي قيل لها فلسطين كلها . ومن الفلسطينيين أخذ الفينيقيون الأبجدية<sup>٢</sup> .

وقد عثر الباحثون على عدد من الكتابات القديمة في جزيرة (كريت) ، تبين من دراسة بعض منها أنها مكتوبة على طريقة الكتابة المبروغليفية ويرجع عهدها إلى ما بين (٢٠٠٠) إلى (١٦٠٠) قبل الميلاد . كما عثروا على كتابة صورية يعود عهدها إلى حوالي السنة (١٧٠٠) قبل الميلاد . وعثروا على كتابات أخرى حللتهم على القول بأن (كريت) كانت الموطن الأول للكتابة ، ومنها انتقلت الكتابة إلى مواضع أخرى من البحر الأبيض<sup>٣</sup> . كما بين ذلك في الفقرة السابقة .

وقد عثر المستشرق (كلود شيفر) M. Claude Schaeffer ، المعروف بتقنيته عن النصوص (اليعاريتية) *Ugarit* في شهر (نوفمبر) من عام ١٩٤٩ م على آجرة صغيرة من الصلصال المق朽ر بالنار حجمها (٥) سنتيمترات في ١٥ ملتمتراً في موضع (رأس الشمرة) الواقع على مسافة عشرة أميال من شمال اللاذقية ، ظهر أنها على صغرها وتفاهتها البدية عليها من أهم ما عثر عليه من نصوص . وهذه الآجرة الصغيرة التي لا تلفت إليها الأنظار هي لوح في

١ الدراسات الأدبية ، الجامعة اللبنانية ، السنة الثانية ، العدد الأول ، ١٩٦٠ م (من ٤٤ وما بعدها) .

Ency. Brita., I, p. 680, A.H. Gardiner, The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet, in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916, M. Dunand, *Byblia Grammata*, Beyrouth, 1945, p. 71.

Ency. Brit. I, p. 680, Hastings, p. 672, Ency. Bibl., p. 3434.

The Art of Writing, Unseco, p. 8.

غاية من الأهمية كتبت عليه الأبجدية (اليعاريتية) المؤلفة من ثلاثين حرفًا ، وهي على الرغم من صغر حروفها مكتوبة كتابة واضحة بخط قوي جلي . وقد كان العلماء يبحثون عن هذه الأبجدية بكل شوق ، والظاهر ان أحد الطلاب كتبها على هذا اللوح ، ويرجع عهده الى القرن الرابع قبل الميلاد<sup>١</sup> .

وهذه الأبجدية (اليعاريتية) مكتوبة كتابة اسفينية ، ولذلك رأى بعض الذين يبحثوا في (اليعاريتية) أنها وليدة الكتابة المسماوية . ورأى بعض آخر أنها متأثرة بالمهروغليفية من حيث تكوين الحروف الصامتة . وأما من ناحية الرسم ، فلأنها متأثرة بالكتابة المسماوية . وتتألف من ثلاثين حرفًا ، فهي تتضمن جميع الحروف في الأبجديات السامية الشمالية الغربية المكونة من اثنين وعشرين حرفًا صامتاً . ونجد أنها أوردت هذه الحروف على ترتيب الأبجدية الإرمية والعبرانية ، خلا أنها وضعت خمسة أحرف أخرى لم ترد في العبرانية بين هؤلاء المجموعة ، فتكون منها سبعة وعشرون حرفًا تضاهي الأبجدية الكنعانية ، ثم أضاف اليها كتابة (اليعاريتية) أحرفًا أخرى ، فأصبحت مجموع الحروف ثلاثين حرفًا تألف منها الأبجدية (اليعاريتية)<sup>٢</sup> .

نرى مما تقدم ان آراء علماء الخط تكاد تتفق على ان مخترعي الأبجديات هم أناس يجب أن يكونوا من أهل الشرق الأدنى أو من حوض البحر الأبيض ، من أهل جزيرة (كريت) أو (قبرس) . وآراؤهم هذه هي بالنسبة الى الأفلام المشهورة التي لا تزال مستعملة وحية معروفة مثل الخطوط المستعملة في اوروبا ، وفي اميركا ، ومثل الخط العربي والعربياني والسرياني وبالنسبة الى أفلام أخرى ماتت ، غير ان العلماء المتخصصين يعرفون عنها شيئاً ويقرؤون نصوصها مثل الكتابات المسماوية وأمثالها . إلا ان هناك أفلاماً هي قديمة أيضاً، وطا أهمية كبيرة ،

١ راجع وصف هذه الاجرة الصغيرة والابجدية (اليعاريتية) في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : ٤٤ مجلد ٢٥ (١٩٥٠ م) ، (٦٢ وما بعدها) ،

The Glasgow Herald, Saturday March 4, 1950, Manchester Guardian Weekly, March 23rd, 1950, p. 13, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12.

The Glasgow Herald, Saturday March, The 4th., 1950, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12, Le Muséon, LIX, (1948), 1-4, p. 95, C.H. Gordon, Ugaritic Grammer, Analecta Orientalia, 20, Roma, 1939, p. 69, Claude F. A. Schaeffer, The Cuneiform Texts of Ras Shamra Ugaril, London, 1939.

ونصوص وكتابات ، لذلك يجب البحث عنها ، لمعرفة تأريخها ودرجة صلتها بالآلة التي نتحدث عنها . للوقوف على البواعث التي دفعت أصحابها على إيجادها والراحل التي مررت بها . فليس من الصواب إهمال تلك الآلة وغض النظر عنها باعتبار أنها آلة بعيدة عن أفلامنا ، وهي تمثل ثقافة بعيدة عن ثقافتنا .

كل ذلك يجب البحث عن الرسوم والرموز والإشارات التي سجلها الإنسان البدائي للتعبير عن نفسه ولتخليد ما كان يدور بخلده . ومقارنته ذلك مع أمثاله في كل أنحاء العالم . فإذا فعلنا ذلك وجمعنا كل الآلة القديمة مثل آلة الصين والهند وبقية آلة آسيا وألة إفريقية وأميركا ، ودرستها دراسة علمية . صار في إمكاننا تكوين رأي عام علمي تقريبي عن تاريخ ظهور الخط عند البشر : متى كان ذلك وأقدم من بدأ به ، مع بذل الجهد للبحث عن نماذج جديدة من الخطوط في كل مكان من العالم لتزيد بها على علمنا المتجمع من الكتابات التي وصلت إلينا ولا نضيف عليه علماً جديداً ولن يكون حكماً قريباً من المطلق والعلم .

والرأي عندي أنه لأجل الإحاطة بتاريخ تطور الخط ، لا بد من الاستمرار في البحث عن كتابات أخرى جديدة ومن دراسة مظاهر أشكال الحروف وكيفية ترتيبها وكيفية النطق بها ، أي الإحاطة بأسماء الحروف . فإن هذه الأمور تساعدننا كثيراً على فهم تطور الخط عند البشر وعن صلته ببعضه البعض ومن التوصل إلى نتائج علمية قوية ، لا تقاس بالنتائج التي تبني على مجرد الظن والتخيّل والتصور .

والذي نلاحظه اليوم أن حروف الخطوط السامية المستعملة عند الغربين ، تكاد تتفق في أسمائها وفي ترتيبها ، وبشير هذا التشابه إلى وحدة الأصل ، وإلى أن الأبجديات المذكورة قد تفرعت كلها من شجرة واحدة ، ونبعت من منيع واحد . فكلها تبتدئ بحرف واحد ، هو (الالف) وكلها تجعل الباء حرفاً ثانياً ، ثم إن في وحدة تسمياتها مع اختلاف اللغات التي تدون بها دليلاً كافياً على إثبات أن هذه الأبجديات هي من أصل واحد . وعلى أن الأسماء الحروف علاقة وثيقة بالصور وبالكتابة الصورية للغة الأم التي اخترع تلك الحروف وأوجدها من مرحلة المقاطع . وإذا ثبتتا أسماء الحروف ، وعرفنا من أين أخذت ، وإذا استطعنا العثور على أقدم نص للأبجدية ، يكون في إمكاننا ابداء رأي علمي في منشأ الحروف وفي المكان الذي كان له شرف إيجادها ، أو الأماكن التي ساهمت بصور مستقلة

في إيجاد الحروف . وهذا ما أراه . لأنني أعتقد أن الإنسان فكر في أول ما فكر به في إيجاد وسيلة يسجل بها أعماله وأفكاره ، وأن تفكيره هذا لم ينحصر في بقعة واحدة ، بل وجد في كل مكان . حتى في البيشات البدائية، إذ نجد الشعوب البدائية تتخلد وسائل للتعبير عن آرائها وعن تدوين أفكارها بطرق تتفق مع مستواها العقلي ودرجتها في الثقافة .

والحرف الأول، وهو الألف ، يعني (ثوراً) ، ولذلك مثل في الهبروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل رأس ثور، وأما الحرف الثاني، وهو الباء أو Beth ، فإنه يعني (بيتاً)، وقد صور في الهبروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل يصور مقدمة بيت . وأما الحرف الثالث ، وهو الجيم ، فإنه (كمل) (كيميل) ، أي الجمل، وصوريته لا ترمز إلى الجمل رمزاً تاماً . وأما حرف الدال، فيقال (دالت) ، ومعناه باب . وأما حرف الهاء ، فإنه من He (هي) بمعنى شباك . وأما الواو ، فهو يشير إلى وتد . وأما الزاي ، فإنه من زين بمعنى سلاح . وأما الحاء ، فإنه من (حيث) بمعنى حائط . وأما الياء ، فإنه من (يود) بمعنى يد أو يد مفتوحة . وأخذ حرف الكاف من (كاف) (كوف) بمعنى كف اليد ، أو يد مقبضة . وأما حرف اللام ، فإنه من (لد) (لامد) ، ومعناه عصا لضرب الثور . وأما الميم ، فإنه من (ميم) بمعنى ماء . وأما النون ، فإنه من نون بمعنى سمكة . وأما حرف السين فهو ساميخ ، بمعنى آلة يعتمد عليها كالعصا . وقد أخذ حرف العين من عين ، عين الإنسان . وأخذ الفاء من فم (فيم) Pe بمعنى فم ، وأخذ حرف الصاد من (صادى) ، بمعنى صياد . وحرف القاف من قوف Kof بمعنى الرأس إلى الخلف ، وحرف الراء ، من ريش بمعنى رأس ، وحرف الشين من (شين) (شن) بمعنى سن . وأما التاء ، فمن كلمة (تار) (تو) بمعنى علامة أو صليب ، وهكذا<sup>١</sup> .

ولمسألة ترتيب الحروف أهمية كبيرة لا تقل عن أهمية أسماء الحروف . ويظهر أن ترتيب (أبجد هوز حطي ... الخ) ، وهو ترتيب سار عليه العرب أيضاً ، هو ترتيب قديم . وقد عرف عند السريان وعند النبط وال עברانيين، وعند (بني إرم) ويظن أنهم أخذوه من الفينيقيين . وقد سار عليه الكلناعانيون أيضاً ، غير أنهم

زادوا عليه الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . وقد وضع علماء العربية بعد ( قرشت ) التي يمثل حرف التاء فيها آخر حروف الأبجدية الحروف التي لم ترد في ترتيب ( أبجد هوز ) ، وهي موجودة في العربية ويقال لها ( الروادف )<sup>1</sup> . أما الترتيب السائر اليوم في كتابة الحروف العربية مبتدئين بالألف ومتنهن بالياء ، فهو ترتيب إسلامي ، وقد وضع على ما يخلي إلیه لتيسير حفظ أشكال الحروف للطلاب ، لأنه راعى الجمع بين الحروف المشابهة ، ولم يتوجب مع ذلك الترتيب الأصل المراعي في نظام ( أبجد هوز ) تجنبًا تاماً . وضعه ( نصر بن عاصم ) في أيام الحجاج .

ومن الفينيقين الذين كانوا يقطعون البحار والبراري للاتجار مع مختلف الشعوب ، انتشرت الكتابة بالحروف إلى حوض البحر الأبيض . فقد كان تجارةهم يسجلون ما يبيعون ويشترون ليضبطوا بذلك أعمالهم ، فظن من كان يتعامل معهم من اليونان وغيرهم أنهم كانوا يقرون بأعمال سحرية . ولما عرروا أنهم إنما يكتبون ذلك لضبط أعمالهم وتجارةهم تعلموا منهم سر الكتابة . ثم سرعان ما أخذوا يكتبون . وبذلك انتشرت الكتابة في أوروبا . ويظهر أن انتقال الخط إلى أوروبا كان في القرن العاشر قبل الميلاد<sup>2</sup> . وقد حافظ اليونان القدماء على أشكال الحروف الفينيقية وعلى طريفتهم في التدوين من اليمين إلى اليسار . وحافظوا على أسماء الحروف كذلك . ثم وجد اليونان أن الحروف الفينيقية هي حروف صامتة ولا توجد فيها حروف تعبّر عن الحركات . فأكملوها بإضافة الحركات إليها . ثم طوروها بالتدرج . وكان في جملة التطورات الابتداء بالكتابة من اليسار نحو اليمين . وعن اليونان أخذ الرومان وغيرهم من الشعوب الأوروبيّة الكتابة ، وأخذ كل قوم منهم يوجد منها طرقًا جديدة في الخط حتى صارت على نحو ما هي عليه في هذا اليوم .

### الخط العربي :

والعرب من الشعوب التي عرفت الكتابة ومارستها قبل الإسلام بزمان طويل كذلك . بل عرروا الكتابة قبل الميلاد ببعض مئات من السنين . وقد عثر في مواضع

---

Ency. I, p. 68.  
The Art of Writing, Unesco, 36.

من جزيرة العرب على كتابات دونت باليونانية وبلغات أخرى . وتبين من دراسة النصوص الجاهلية ، ان العرب كانوا يدونون قبل الاسلام بقلم ظهر في اليمن بصورة خاصة ، هو القلم الذي أطلق عليه أهل الأخبار ( القلم المسند ) أو ( قلم حبر ) . وهو قلم يبيان القلم الذي نكتب به الآن . ثم تبين انهم صاروا يكتبون في الميلاد بقلم آخر ، أسهل وألين في الكتابة من القلم المسند ، أخذوه من القلم النبطي المتأخر وذلك قبيل الاسلام على ما يظهر . كما تبين ان النبط وعرب العراق وعرب بلاد الشام كانوا يكتبون أمورهم بالإرمية وبالنبطية ، وذلك لشيوخ هذين القلدين بين الناس ، حتى يبن من لم يسكن من (بني لدم) ولا من النبط ، كالعبرانيين الذين كتبوا بقلم إرمي الى جانب القلم العبراني ، ولاختلاط العرب الشماليين ببني لدم واحتراكم لهم بهم ، مما جعلهم يتاثرون بهم ثقافياً ، فبان هذا الأثر في الكتابات القليلة التي وصلت اليها مدونة بنبطية متأثرة بالعربية .

ويظهر من عثور الباحثين على كتابات مدونة بالمسند في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، ومنها سواحل الخليج العربي ، بعض منها قديم وبعض منها قريب من الاسلام ، ان قلم المسند ، كان هو القلم العربي الأصيل والأول عند العرب . وقد كتب به كل أهل جزيرة العرب ، غير ان التبشير بالنصرانية الذي دخل جزيرة العرب ، وانتشر في مختلف الأماكن ، أدخل معه القلم الإرمي المتأخر ، قلم الكنائس الشرقية ، وأخذ ينشره بين الناس لأنه قلمه المقدس ، الذي به كان يكتب رجال الدين . ولما كان هذا القلم أسهل في الكتابة من المسند ، وجد له أشياعاً وأتباعاً بين من دخل في النصرانية وبين الوثنيين أيضاً ، لسهولةه في الكتابة ، غير انه لم يتمكن مع ذلك من القضاء على المسند إذ بقي الناس يكتبون به . فلما جاء الاسلام ، وكتب كتبة الولي بقلم أهل مكة لتزول الولي بينهم . صار قلم مكة هو القلم الرسمي للمسلمين ، وحكم على المسند بالموت عندئذ ، فات ونسيه العرب ، الى أن بعثه المستشرقون ، فأعادوه الى الوجود مرة أخرى ، ليترجم لنا الكتابات العادية التي دونت به .

وهناك أقلام عثر عليها المستشرقون في أعلى الحجاز ، تشبه القلم المسند شيئاً كبيراً ، لذلك رأى الباحثون أنها من صلب ذلك القلم ومن فروعه للشبة المذكور ، ولأنها متأخرة بالنسبة له ، فلا يمكن أن تكون هي الأم . وقد سمى قلم منها بالقلم الثمودي نسبة الى قوم ثمود ، وسيجي قلم آخر بالقلم اللحياني ، نسبة الى

(الحيان) . وعرف القلم الثالث بـ ( الكتابة الصفوية ) ، نسبة الى أرض (الصفاة) الأرض التي عثر بها على أول كتابة مكتوبة بهذا القلم .

وقد عرف علماء العربية القلم المسند ، ومنهم حصل هذا القلم على اسمه : ولكنهم لم يعرفوا من أمره شيئاً يذكر . وكل ما عرقوه عنه أنه خط أهل اليمن القديم ، وأنه خط حمير . وأن قوماً من أهل اليمن بقوا أمداً يكتبون به في الإسلام ويقرأون نصوصه . كما عرفوا القلم الذي دون به القرآن الكريم . ودعوه ( القلم العربي ) او ( الخط العربي ) حيناً و ( الكتاب العربي ) أو ( الكتابة العربية ) حيناً آخر تميزاً له عن المسند<sup>١</sup> . ولم يشيروا الى أسماء خطوط جاهلية أخرى .

وقد تكلم (المهداني) ومشائخه من قبله عن المسند ، كما أشار اليه (ابن النديم) ، وذكر أن نماذج منه كانت في خزانة (المأمون) . غير أن علمهم به لم يكن متقدماً على ما يظهر من نقوشهم عنه . كما تحدثت عن ذلك في أثناء كلامي عن (المهداني) . ولم يكن لهم إدراك عن كيفية تطوره . وقد دعوه بالخط الحميري . وعرفوه بأنه خط مختلف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه أيام ملكهم فيها بينهم . قال (أبو حاتم) هو في أيديهم الى اليوم باليمن<sup>٢</sup> . هذا ولم أجده في المؤلفات الإسلامية المعروفة في هذا اليوم ما يفيد بأن أحداً من العرب المسلمين كان له علم متقدم بالعربيات الجنوية ، أو كان له علم بتاريخ العربية الجنوية القديم ، وفي الذي ذكروه عن الخط المسند وعن لغات العرب الجنوبيين وتاريخهم تأييد لما أقوله .

والعرب تسمى ( الكتاب العربي ) أي خطنا : (الجزم) ، وذكروا أنه إنما سمي جزماً لأنه جزم من المسند ، أي قطع منه ، وهو خط حمير في أيام ملكهم<sup>٣</sup> ولا أستبعد احتمال كون كلمة (الجزم) تسمية ذلك القلم في الجاهلية ، وأما تفسير

١ الفهرست (ص ٦ فما بعدها) ، صباع الاعتنى (١١/٣) ، الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس (ص ٧ وما بعدها) ، تاريخ الخط العربي وأداته ، تأليف محمد بن طاهر بن عبد القادر الكردي الخطاط ، مكة ، ١٩٣٩ م ، البلاذري ، فتوح (٤٧٦ وما بعدها) ، الجهشياري ، الوزراء (١٢٠١ وما بعدها) ، السجستانى ، كتاب المصاحف (٤ وما بعدها المولى ، أدب الكتاب (٢٨ - ٣١) ، القاهرة ١٣٤١ هـ ، الإياعات ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الأول (ص ١١ وما بعدها) ، العقد الفريد (٤٠/٤ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢/٣٨٢) ، (مسند) .

٣ النساء (١٢/٩٧ وما بعدها) ، (جزم) ، تاج العروس (٢٢٨/٨) ، (جزم) .

أهل الأخبار لسبب التسمية ، فهو من نوع التفاسير المعروفة المألوفة عن أهل الأخبار ، يضعونها حينما يجاذبهم شخص يريد معرفة سبب تسمية شيء بالاسم الذي عرف به . ودليل ذلك ما ذكره (البطليوسى) من أن أهل الأنبار كانوا يكتبون المشق ، وأن أهل الحيرة كانوا يكتبون (خط الجزم) وهو خطفهم ، وهو الذي صار خط المصاحف<sup>١</sup> . و (المشق) في تفسير علماء العربية مدة حروف الكتابة<sup>٢</sup> ومعنى هذا أن خط أهل الأنبار ، كان متصل الحروف بمدودها ، بينما غلب على القلم الحيري ، الشكل التربيعي الجاف ذو الزوايا للحروف . وهو شكل تكون الكتابة به أبطأ من الكتابة بالقلم المشق . ونظيره هو القلم الكوفي في الإسلام ، الذي اختص بأنواع معينة من أغراض الكتابة، ومنها الكتابة على الأحجار والخشب . ونظرًا لبطء الكتابة به على الغالب لم يستعمل بكثرة في الكتابة .

ولعل سبب اختلاف قلم أهل الحيرة عن قلم أهل الحيرة ، هو في المنيع الذي استقى كل من أهل المدينتين قلمه منه . فقد استعمل نصارى العراق في كتبهم الطقوسية القلم (السطرنجيلي) ، المشق من القلم التدمري . وكتبوا به الأنجليل والكتب المقدسة وأحجار المباني ، مثل الأحجار التي توضع فوق أبواب المعابد كالكتانيس أو البيوت أو القبور وما شاكل ذلك . وهو خط ثقيل يحتاج إلى بذل وقت في نقشه وإلى جهد في حفره على الخشب أو الحجر ، بل وفي الكتابة به أيضًا . واستعملوا قلماً آخر أسرع منه وأسهل وأطوع في الكتابة به من (السطرنجيلي) ، كتبوا به الأعمال التجارية والمخابرات والرسائل والكتب ، كتبوا به بقلم القصب وبالحجر . فكان منه خط النسخ<sup>٣</sup> .

هذا وقد كتب النبط بقلمين كذلك: قلم قديم ، ثقيل في الكتابة تكثُر فيه الخطوط المستقيمة والزوايا والتبعيات فهو على شاكلة (السطرنجيلي) ، والخط الكوفي . كتبوا به على الأخشاب والحجارة والمعادن والصخور ، حيث حفروا الكتابة حفرًا ، كما استعملوه في ضرب نقودهم . وهو ثقيل في الكتابة لذلك لم يستعمل في أغراض اليومية كتدوين المعاملات التجارية والمراسلات وما شاكل

١- الاقتضاب (٨٩) .

٢- ناج العروس (٧٠/٧) ، (مشق) .

٣- الابعاث ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الأول (ص ١٥) .

ذلك من أمور تستدعي السرعة ، بل استخدم الكتاب قلماً آخر لهذه الأغراض ، هو القلم المدور الذي يشبه النسخ ، والذي نستطيع أن نسميه ( المشق ) ، قلم أهل الأنبار . وهو قلم متأخر ظهر عندهم بعد القلم الأول<sup>١</sup> .

ونجد أكثر شعوب الشرق الأدنى على هذه العادة في اتخاذ قلم خاص يكتبون به الكتب المقدسة والأحجار التذكارية، التي توضع فوق أبواب المعابد وفي داخلها أو على القبور للذكرى والتاريخ . لذلك يجتهد فيه أن يكون مزوقاً ذا زوايا وتربيعات وزخرف ونقوش ، باعتبار أنه إنما يدوّن للتخليل ولتدوين شيء مقدس ثمين . ومن هذه النظرة تولدت طريقة رسم الحروف الأولى لكلمات الجمل أو عنوان الفصول بحروف بارزة مغايرة للحروف الأخرى التي تدوّن بها الكلمات التالية . واتخذوا أقلاماً أخرى راعوا فيها السهولة والليونة في الكتابة . لتدوين الكتب الأخرى التي لا صلة لها بالدين ولتدوين الأعمال اليومية . جعلوا حروفها مدورة أو مقوسة ، ليتمكن الكتابة بها بسهولة بدون حاجة إلى بذل عناية في رسم خطوطها المستقيمة والمربعة والزوايا التي تكون الحروف .

وقد تحدث (الباحث) عن الخط ، فقال : « وليس في الأرض أمة بها طريق أو لها مسكة ، ولا جبل لهم قبس وبسط ، إلا ولم يخط . فاما أصحاب الملك والملكة والسلطان والجباية ، والديانة والعبادة ، فهناك الكتاب المتقن ، والحساب المحكم ، ولا يخرج الخط من الجزم والمسند المنعم كذا كيف كان ، قال ذلك المheim بن عدي وابن الكلبي »<sup>٢</sup> . فالخط العربي الجاهلي ، قلمان : جزم ومسند ، ولا ثالث لها . المستند خط العربية الجنوبية وخط من كتب بهذا القلم من بقية أنحاء جزيرة العرب ، والجزم ، خط أهل مكة والمدينة وعرب العراق وغيرهم من العرب الشهاليين .

ولما كان عرب العراق قد خالطوا بني ادم وأخذلوا من ثقافتهم ، ومنهم من اعتنق دينهم ، فدخل في النصرانية . فلا أستبعد استعمالها قلمين ، أو أكثر في الكتابة . قلم رويعي فيه ما رأه نصارى العراق في ( السطرنجيلي ) ، والسمى أيضاً

١ الابحاث ، ١٩٥٢ ، ( ٢ - ١٤ ص ) وما بعدها .

٢ الحيوان ( ٧١ / ١ ) ، البلاذري ، فتوح ( ٤٧٦ وما بعدها ) ، السجستانى ، المصاحف ( ٤ وما بعدها ) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، بجامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٥ م .

بالنحط الراهوي ، وقلم آخر استعملوه للكتابات السريعة . ولا أستبعد احتمال كتابة أهل الأنبار أو أهل الحيرة أو غيرهم من عرب العراق بالقلمين معاً . القلم الذي دعا به البطليوسى بالمشق ، وهو على حد قوله قلم أهل الأنبار ، والقلم الحيري ، وهو الجزم على رأيه أيضاً . ويدرك أن القلم السطرنجىلى قد استنبط في مطلع القرن الثالث للبياند . وقد استنبطه ( بولس بن عرقا ) أو ( عتنا الراهوي ) . وشاع استعماله بين الناس<sup>١</sup> .

هذا وللعلماء المسلمين مؤلفات في تاريخ الخط العربي وتطوره ، ولم نظريات  
وآراء في منشأ الخط ، منها آراء تنسّب إلى ( ابن الكلبي ) ، وهو في مقدمة  
علماء الأخبار في هذا الباب . واليه يرجع أكثر من جاء بعده في رواية أخباره عن  
منشأ الخط ، وعن كيفية تطوره حتى بلغ مبلغه هذا في الإسلام . ومنها آراء  
تنسّب إلى غبرة كابن عباس<sup>٢</sup> .

ونستطيع تلخيص وجهات نظرهم في منشأ المختلط العربي في الملاحمات الآتية :

١) كان منشأ الخط في اليمن ، ثم انتقل منه الى العراق حيث تعلمه أهل الخبرة ، ومنهم تعلم أهل الأنبار، ومنهم تعلم جماعة نقلوه الى الحجاز . فالاصل ، على رأي هؤلاء ، هو القلم المسند وكان كما يقولون بالغاً يبلغ الاتقان والجودة في دولة التابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف<sup>٢</sup> .

٢) أول من كتب الخط العربي حمير بن سبا ، وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند ، سمي بذلك لأنهم كانوا يستندونه إلى ( هود )<sup>٤</sup>.

٣) أول ما ظهرت الكتابة العربية بمكة من قبل ( حرب بن أمية ) وقد

١٢  
١١  
١٠  
٩  
٨  
٧  
٦  
٥  
٤  
٣  
٢  
١  
مجلة المجتمع العربي بدمشق ، (١٩٥٩ م) ، (ص ٤٢١) .  
راجع ادب الكتاب للصولي (٢٨ وما بعدها) ، والهرست لابن التديم (وما بعدها)  
وحكمة الاشراق الى اختراق الافق ، للسيد منتصف الزبيدي ، فنادر المخطوطات ،  
المجموعة الخامسة (ص ٥٠ وما بعدها) ، البلاذري فتوح البلدان (٤٧٦ وما  
بعدها) والجهة ياري ، الوزراء (٢٥١ وما بعدها) ، صبح الاعشرى (٩/٣ وما  
بعدها) ، السجستانى ، المصاحف (٤ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣٠٣/٣) المزهر

٢١ - انظر (٣٤٩/٢)، مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .  
٢٢ - حسن الاعشر (٣/٩) .

أخذها من طارىء طرأ على مكة من اليمن . وقد أخذ ذلك الطارىء علمه بالكتابة من كاتب الوجهى لهودا .

٤ ) أول من كتب بالعربية اسماعيل<sup>١</sup> . كتب على لفظه ومنظقه موصولاً ، حتى فرق بينها ولده هيسع وقينر<sup>٢</sup> .

٥ ) أول من وضع الكتاب العربي نقيس ، ونصر ، وتياء ، ودومة . هؤلاء ولد اسماعيل ، وضعيه موصولاً ، وفرقه قادر بن هيسع بن قادر<sup>٣</sup> .

٦ ) إن نقيس ، ونصر ، وتياء ، ودومة ؛ بي اسماعيل ، وضعوا كتاباً واحداً وجعلوه سطراً واحداً غير متفرق ، موصول الحروف كلها ، ثم فرقه بنت ، وهيسع ، وقينار ، وفرقوا الحروف وجعلوا الأشباء والنظائر<sup>٤</sup> .

٧ ) كان قلم ( الجزم ) في نظر بعض العلماء أساس القلم العربي وقد سي بالجزم ، لأن مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، وهم من طيء من بولان ، سكروا الأنبار واجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة . فاما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام . وقد اقطع مرامر الخط من المستند فسجى الجزم ، لأنه جزم أي اقتطع ، ولذلك قبل له الجزم قبل وجود الكوفة ؛ فتعلمته منهم أهل الأنبار ، وتعلمه منهم أهل الحيرة وسائر عرب العراق ، وتعلمته من أهل الحيرة بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندي ، وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر إلى

١ صبح الاعشى ( ١٠/٣ ) .

٢ صبح الاعشى ( ١٠/٣ ) ، المزهر ( ٣٤٢/٢ ) ، ( وعن علية الصلاة والسلام ، أنه أول من كتب بالعربية اسماعيل ) ، الروض الانف ( ١٠/١ ) ، الجهشياري ، كتاب الوزراء والكتاب ( أو ما بعدها ) .

٣ المزهر ( ٣٤٢/٢ ) ، ( كان ابن عباس يقول : أول من وضع الكتاب العربي اسماعيل - عليه السلام - وضعه على لفظه ومنظقه ) ، الصاحبي ( ٣٤ ) .

٤ الفهرست ( ص ١٣ ) ، ( الكلام على القلم العربي ) .

٥ حكمة الاشراق ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ( ص ٦٤ ) ، صبح الاعشى ( ٩/٣ ) .

مكة فتعلم منه جماعة من أهلها ، فلهذا أكثر الكتاب من قريش<sup>١</sup> .

٨ ) أول من وضع الخط العربي (أبجد وهو ز حطي وكلمن وسعفص وقرشت) ، وهم قوم من الجبليات الأخيرة ، وقيل : لئنهم بنو المحسن بن جندل ابن يصعب بن مدين ، وكانوا نزولاً مع عدنان بن أدد ، فكان (أبجد) ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمدين ، وقيل يبلاد مصر ، فوضعوا الكتاب على أسائهم ، ثم وحدوا بعد ذلك حروفًا ليست من أسائهم ، وهي الثناء والخاء والذال والظاء والصاد والغين فسموها الروادف<sup>٢</sup> .

٩ ) أول من وضع الخط العربي وألف حروفه ستة أشخاص من طسم ، كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد ، وكانت أسائهم : أبجد هُوز حطي كلمن سعفص قرشت ، فوضعوا الكتابة والخط على أسائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفًا ليست في أسائهم ألحقوها بها ، وسموها الروادف ، وهي تختض ضغط<sup>٣</sup> .

١٠ ) أول من خط هو : مرام بن مرة من أهل الأنبار ، وقيل إنه من بني مرة . ومن الأنبار انتشرت الكتابة في الناس . ذكروا أن قريشاً سُئلوا : من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا : من الأنبار<sup>٤</sup> .

(١١) تعلم بشر بن عبد الملك الكتابة من أهل الأنبار وخرج إلى مكة وتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) . وتعلم منه حرب ، ومنه ابنه سفيان ، ومنه ابن أخيه معاوية بن أبي سفيان ، ثم انتشر في قريش ، وهو الخط الكوفي الذي استنبطت منه الأقلام<sup>٥</sup> .

١ الفهرست (ص ٦) مختلبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم (ص ٩٨) ، المزهر (٣٤٦/٢) ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الإشراق (ص ٦٥) ، صبح الاعشى (٤٢١/١) الجهشياري ، الوزارة (١) ، تاج العروس

٢ المزهر (٣٤٨/٢) ، الفهرست (ص ١٢) ، الكلام على القلم العربي ، العقد

٣ الفريد (٢٤٢/٤) ، نزهة الجنليس (٦٣/٢) .

٤ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الإشراق (ص ٦٤) ، صبح الاعشى (٩/٣) ، نزهة الجنليس (٦٣/٢) وما بعدها ، الفهرست (١٢) ، الكلام على القلم العربي .

٥ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الإشراق (ص ٦٥) ، ابن خلkan ، عيون الأخبار (٤٣/١) (الكتب والكتابة) .

٦ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الإشراق (ص ٦٤ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١٠/٣) ، الجهشياري ، كتاب الوزارة والكتاب (٢ وما بعدها) .

١٢ ) كان الكتاب العربي قليلاً في الأوس والخزرج ، وكان يهودي من يهود ماسكة قد علمها ، فكان يعلمها الصبيان ، فجاء الإسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، يكتب الكتابين جميعاً العربية والبرانية ، ورافع بن مالك ، وأسید ابن حضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عبس بن كثيم ، وأوس بن خولي ، وبشير بن سعد<sup>١</sup> .

١٣ ) أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان ، وبولان قبيلة من طيء ، نزلوا مدينة الأنبار ، وهم مرامر بن مرأة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها على هجاء السريانية . فأما مرامر ، فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام ، ثم نقل هذا العلم إلى مكة وتعلمها من تعلمه وكثير في الناس وتداولوه<sup>٢</sup> .

١٤ ) أول من كتب الكتاب العربي ، رجل منبني النضر بن كنانة ، فكتبته العرب حينئذ<sup>٣</sup> .

١٥ ) رأى نفر من العلماء أن أهل مكة إنما تعلموا الكتابة من إياد أهل العراق وكانتوا يكتبون ، ورووا في ذلك شرعاً زعموا أن ( أمية بن أبي الصلت ) قاتله ، منه :

فَوْمَ لَهُمْ سَاحَةُ الْعَرَاقِ إِذَا سَارُوا جَمِيعاً وَالْحُطُّ وَالْقَلْمُ<sup>٤</sup>

١٦ ) أول من وضع حروف أب ت ث نفر من أهل الأنبار من إياد القديمة ، وعنهم اختلت العرب<sup>٥</sup> .

١ صبح الاعشى ( ١١/٣ ) .

٢ صبح الاعشى ( ٨/٣ ) ، العقد الفريد ( ٤/٢٤٢ ) .

٣ صبح الاعشى ( ٩/٣ ) ، ( رجل منبني مخلد بن النضر بن كنانة ) ، الفهرست ( ١٣ ) .

٤ بلوغ الارب ( ٣٦٩/٣ ) ، الروض الانت ( ٤٣/١ ) .

٥ الفهرست ( ص ١٣ ) .

١٧) الذي حمل الكتابة الى قريش بمكة ، أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وقيل حرب بن أمية<sup>١</sup> .

١٨) من حبر تعلم مضر الكتابة العربية<sup>٢</sup> .

١٩) أصل الخط العربي من الأنبار ، وإنما سكن الأنبار والخبرة بقايا العرب المearبة وكثير من المستعربة فقلوا ذلك<sup>٣</sup> .

٢٠) وضع الكتاب العربي عبد ضخم ويبيض ولد أميم بالحجاز ، ولهن يقول حاجز الأزدي :

عبد بن ضخم إذا نسبتهم ويبيض أهل العلو في النسب  
ابتلعوا منطقاً لخطهم فين الخط لهجة العرب<sup>٤</sup>

٢١) أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها ، آدم - عليه السلام - قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبعه ، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه ، فأصحاب إسحائيل - عليه السلام - الكتاب العربي<sup>٥</sup> .

٢٢) أول من كتب بالعربية مرامر بن مرة ، رجل من أهل الأنبار . ومن الأنبار انتشرت في الناس .

٢٣) تعلم قريش الكتابة من الخبرة ، وتعلم أهل الخبرة الكتابة من الأنبار<sup>٦</sup> : وذكر بعض علماء العربية أن العرب المearبة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعترفوا نحوأ ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا هنزاً<sup>٧</sup> . وهذه هي آراء علماء العربية في أصل الخط عند العرب ، وفي كيفية منشأه وظهوره .

١) الفهرست (ص ١٣) .

٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .

٣) الالكليل (٧٨/١) مما بعدها .

٤) الالكليل (٧٨/٦) .

٥) الصاحبي (٣٤) ، المزهر (٣٤١/٢) .

٦) ابن رستة ، الاعلاق (١٩٢) .

٧) الصاحبي (٣٥) .

وقد ذكر ( ابن النديم ) مختلف الروايات التي كانت شائعة في أيامه عن القلم العربي . وذكر منابعها أحياناً وأهل ذكرها أحياناً أخرى . وفي جملة من أشار إليهم ( ابن عباس ) ، فنسب إليه قوله إن أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان على نحو ما ذكرت قبل قليل<sup>١</sup> . و ( محمد بن إسحق ) و ( ابن الكلبي ) ، و ( ابن الكوفي ) ، و ( كعب الأحبار ) و ( مكحول ) و ( عمر بن شبة ) في كتاب مكة ، و ( ابن أبي سعد )<sup>٢</sup> . وذكر أنه كان في خزانة المأمون كتاب يخاطب عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم . فيه حق عبد المطلب على رجل من حمير ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة . وكان خطه شبه خط النساء . وذكر أن من كتاب العرب أسيد بن أبي العيص . وأن الناس عثروا على حجر كان على قبره كتب عليه اسمه<sup>٣</sup> .

ولدينا رأي آخر يقول : « كانت الكتاب في العرب من أهل الطائف ، تعلموها من رجل من أهل الحيرة ، وأنحدرها أهل الحيرة عن أهل الأنبار »<sup>٤</sup> . وهو رأي نبع من المذاهب المتقدمة .

وقد جزم قوم من العلماء أن أول من كتب بالعربية ( مرّامر بن مرّ)<sup>٥</sup> ، ( مرّامر بن مرّة ) ، وذهب قوم أن أول من كتب يخاطبنا ( عامر بن جدرة ) ، وتوقف قوم هل هو خلاف أو يمكن التوفيق . وذهب آخرون إلى أن أول من كتب بالخط العربي عامر بن جدرة ومرّامر بن مرّة الطائيان ، ثم ( سعد بن سبل )<sup>٦</sup> . وقال ( شرقي بن القطامي ) أن أول من وضع خطنا هذا رجال من طيء منهم مرّامر بن مرّة . قال الشاعر :

تعلمت بجاد وآل مرّامر وسودت ثوابي ولست بكاتب

وانما قال وآل مرّامر ، لأنّه كان قد سمي كل واحد من أولاده بكلمة من أبجد ، وهي ثمانية . وأول من كتب بالعربية مرّامر بن مرّة من أهل الأنبار ،

١ الفهرست ( ص ١٢ ) .

٢ الفهرست ( ص ١٢ وما بعدها ) .

٣ الفهرست ( ص ١٣ وما بعدها ) .

٤ اللسان ( ٣٤/١٢ ) ، ( أم ) .

٥ تاج العروس ( ٣/٩٠ ) ، ( جدر ) ، حكمة الأشراف ( ٦٥ ) ، ابن خلkan ، وفيات ( ١/٣٤٦ ) .

ويقال من أهل الخبرة . ويقال انه سئل المهاجرون من أين تعلمتم الخط؟ فقالوا: من الخبرة . وسئل أهل الخبرة من أين تعلمتم الخط؟ فقالوا : من الأنبار<sup>١</sup> . والذين يذكرون ان (بشر بن عبد الملك) أخو (أكيدر بن عبد الملك) الكندي صاحب (دومة الجندي) ، الذي تعلم الكتابة من أهل الأنبار ، وخرج الى مكة ، فتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) أخت (أبي سفيان) ، وعلم جماعة من أهل مكة الكتابة ، فلذلك كثُر من يكتب عَكَة من قريش ، يروون شعراً لرجل من أهل دومة الجندي ، زعموا انه قاله لظهوراً لمن قومه على قريش ، هو :

لا تجحدوا نعاء بشر عليكم  
فقد كان ميمون النقيبة أزهرا  
أناكم بخط الجزم حتى حفظتمو  
من المال ما قد كان شئ مبعرا  
وانتقتمو ما كان بالمال مهملاً  
وطامتمو ما كان منه متمرا  
 فأجرتكم الأقلام عَوْدَاً وبِدَأْ  
وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا  
وأغنيتمو عن مسند الحبيّ حِيرَ  
ومازبرت في الصحف أقِيال حِيرَ<sup>٢</sup>

فبشر بن عبد الملك ، هو الذي نقل (الجزم) الى (مكة) . والجزم هو الخط الذي دون به القرآن : أي القلم الذي نكتب به اليوم . فاغنى به أهل مكة عن الكتابة بقلم المسند قلم حير التقيل ، وصاروا يكتبون بالقلم وبالحبر ، على طريقة الفرس والروم يدونون به أموالهم . ويظهر من ذلك أن القلم المسند ، كان ثقلياً في الكتابة ، وهذا وجد أهل مكة صعوبة في تدوين أمرهم به ، فعدلوا عنه الى القلم الجزم .

ولو صح هذا الشعر ، فإن البيت الأخير منه يدل على أن أقِيال حِير وغيرهم كانوا يكتبون بخطهم : المسند على الصحف ، وأنه قد كانت عندهم كتابات دونوها به بالحبر والقلم على الصحف والأدم ومواد الكتابة الأخرى ، ولم يكونوا يكتفون بالكتابة به على الأحجار فقط ، لأننا نجد أن كتاباتهم الواصلة اليانا إنما

١ تاج المرؤس (٣/٥٤٠) ، (مرد) ، المزهر (٢/٣٤٧) .

٢ المزهر (٢/٣٤٧) .

قد كتبت بهذه الطريقة حسب . وسبب عدم وصول هذه الصحف اليها ، أنها من مادة سريعة العطب ، لذلك لم تتمكن من المحافظة على حياتها فذهبت مع أهلها ، وقد يُعَذَّر على شيء منها مدفون تحت الأرض بصورة يمكن أن يستفاد منها كما استفيد من المسند المنقوش على الحجر .

وورد ان رجلاً قال لابن عباس : « معاشرَ قريش ، من أين أخذتم هذا الكتاب العربي قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، تجتمعون منه ما اجتمع ، وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام ؟ قال : أخذناه من حرب بن أمية . قال : فمن أخذه حرب ؟ قال : من عبدالله بن جدعان ، قال : فمن أخذه ابن جدعان ؟ قال : من أهل الأنبار ، قال : فمن أخذه أهل الأنبار ؟ قال : من أهل الحيرة ، قال : فمن أخذه أهل الحيرة ؟ قال : من طارىء طرأ عليهم من اليمن من كندة . قال : فمن أخذه ذلك الطارىء ؟ قال : من الحفلجان بن الوهم كاتب الوحي هود عليه السلام »<sup>١</sup> .

وذكر بعض العلماء ان أول من وضع الخط العربي وألف حروفه وأقسامه ستة اشخاص من طسم ، كانوا نزواً عند عدنان بن أدد ، وكانت اسماؤهم : أججد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، فوضعوا الكتابة والخط على اسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في اسمائهم أحقوها بها ، وسمّوها الرؤادف ، وهي : ثمذ ضطخ<sup>٢</sup> .

وذكر بعض اهل الأخبار ان (كلمن) كان رئيس ملوك مدين الذين وضعوا الكتابة العربية على عدد حروف اسمائهم ، وقد هلكوا يوم الظلة، فقالت ابنته كلمن ترثي اباها :

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحلة  
سيد القبرم أثار الحتف ناراً وسط ظله  
جعلت نار عليهم دارهم كالمض محله<sup>٣</sup>

١ المزهر (٣٤٩/٢)

٢ حكمة الاشراق (٦٤) ، (ستة اشخاص من طفيم) ، نزهة الجليس (٦٣/٢) .

٣ نزهة الجليس (٦٣/٢) ، المزهر (٣٤٨/٢) .

كلمون هدم ركني هلكه وسط المحلة

ويوم الظلة غيم تحته سیوم ، او سحابة أظلتهم ، فاجتمعوا تحتها مستجبرين  
بها ما نالتهم من الحر ، فأطبقت عليهم<sup>١</sup> . وقد أشير الى عذاب يوم  
الظلة في القرآن الكريم<sup>٢</sup> . وذكر أن هذا العذاب أصاب قوم (شعيب) لتكذبهم  
رسالته ، فرفع الله غامة فخرجوها اليها ليستظلوا بها فأصابهم بها عذاب عظيم .  
التهبت عليهم وأحرقهم<sup>٣</sup> . ولما كان أبعد هوز ملوك مدين ، وأهل مدين هم  
قوم شعيب ، ربط أهل الأخبار مصيرهم بمصير قوم شعيب ، وجعلوا نهاية لهم  
يوم الظلة . فالكتابة علىرأي هؤلاء تعود الى هؤلاء الملوك ، الذين هلكوا بذلك  
اليوم .

ورويت الآيات على هذه الصورة :

كلمن هدم ركني هلكه وسط محله  
سيد القوم آناء الـ حتف تحت ظله  
كونت ناراً ، وأضحت دار قومي مضمحه<sup>٤</sup>

ووردت على هذه الصورة :

كلمن هدم ركني هلكه وسط محله<sup>٥</sup>  
سيد القوم آناء الحتف ناراً وسط ظله  
جعلت ناراً عليهم دارهم كالمضمحه<sup>٦</sup>

وقد تعرض (السعدي) لموضوع الحروف ، فقال : « وقد كانوا عدة  
ملوك تفرقوا في ممالك متصلة ومنفصلة ، فنهم المسى بأبى جاد وهوز وخطي  
وكلمون وسعفص وقرشت ، وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل ، وأحرف

١ تاج العروس (٤٢٧/٧) ، (ضليل) .

٢ الشعرا ، ٢٦ ، الآية ١٨٩ .

٣ تفسير الطبرى (١٩/٦٦ وما بعدها) .

٤ اليعقوبي ، مروج (١٢٩/٢) ، (دار الاندلس) .

٥ كلمن هدم ركني هلكه وسط محله

المزهر (٣٤٨/٢) ،

٦ ابن امي هدم ركني ، تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بعد) .

٧ تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بعد) .

الجمل على أسماء هؤلاء الملوك ، وهي التسعة والعشرون حرفاً التي يدور عليها حساب الجمل » . « وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكان هو ز وخطي ملكين ببلاد وج ، وهي أرض الطائف ، وما اتصل بذلك من أرض نجده ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً مدين ، وقيل : ببلاد مصر ، وكان كلمن على ملك مدين ، ومن الناس من رأى أنه كان ملوكاً على جميع من سينا مشاعماً متصلًا على ما ذكرنا ، وأن عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم » . وأورد (المسعودي) أيساتاً زعم أن (المتصر بن المنذر المدني) قالها في هؤلاء الملوك ، هي :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة أنيت بها عمراً وحيّ بني عمرو  
هم ملوكوا أرض الحجاز بأوجه كمثل شعاع الشمس في صورة البدر  
ملوك بني حطّي وسعفص ذي الندى وهوز أرباب البنية والحجر  
وهم قطنوا البيت الحرام ورتباوا خطوراً وساموا في المكارم والفاخر<sup>٢</sup>

وقد وردت في (تاج العروس) على هذا النحو ، وقد نسب قولها إلى رجل من أهل مدين ، ذكر أنه قالها يرثيم :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة سبقت بها عمراً وحيّ بني عمرو  
ملوك بني حطّي وهوّز منهم وسعفص أهل في المكارم والفاخر  
هم صبحوا أهل الحجاز بغارة كمثل شعاع الشمس أو مطلع الفجر<sup>٣</sup>

وروي أن (عمر بن الخطاب) لقى أعرابياً فسأله هل تحسن القراءة؟ فقال : نعم . قال : فاقرأ أم القرآن؟ فقال الأعرابي والله ما أحسن البنات فكيف الأم؟ فصربه عمر بالبرة وأسلمه إلى الكتاب ليتعلم . فكث حيناً ثم هرب ، ولما رجع لأهله أشدّهم :

١ مروج ، للمسعودي (١٢٨/٢) ، (دار الاندلس) .

٢ المسعودي ، مروج (١٢٩/٢) ، (دار الاندلس) ، حفني بك ناصف (٤٧) ، (أورد الإبيات مع بعض الاختلاف) ، المزهر (٣٤٨/٢) .

٣ تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بيجد) .

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أسطر متتابعات  
 كتاب الله في رقٍ صبح وآيات القرآن مفصلات  
 فخطروا لي أبا جاد وقالوا : تعلم سعفاصاً وقرشات  
 وما أنا والكتابة والتهجي وما حظ البنين مع البنات<sup>١</sup>

ويرجع أهل الأخبار (الروادف) ، أي الحروف : الناء ، والخاء ، والذال ،  
 والضاد ، والظاء ، والغين إلى أيام الملوك المذكوريين في بعض الروايات . وهي  
 حروف لم ترد في تركيب الأبجدية السامية القدمة ، لأنها غير واردة في أكثر  
 لهجاتها ، لذلك وضعها أهل الأخبار في آخر الأبجدية ، فأكملوا بذلك الأبجدية  
 العربية . وقد ألحقوها الكتاب بها بعد أن تبين لهم بالطبع أن في العربية حروف غير  
 موجودة في الأبجدية المذكورة ، فأوجدوها بوضع علامات على الحروف المذكورة  
 التي لم تكن معلمة ، فعبرت عن أسماء الحروف الناقصة واستعملوها في الكتابة  
 دون أن يعلموا على إيجاد حروف جديدة للتعبير عن الحروف الناقصة .

ولعلماء العربية مثل (سيبويه) والبرد والسيرافي وغيرهم آراء في الأسماء المذكورة  
 يفهم منها أن منهم من جعل بعض تلك الأسماء مثل (أبا جاد) و (هواز)  
 و (حطيا) أسماءً عربية ، وبعضاً منها مثل : سعفاص وكلمن وقرشنات أعجميات؛  
 ومنهم من جعلها أعجميات<sup>٢</sup> . ويظهر من مراجعة آرائهم هذه أنهم كانوا قد  
 عرروا ترتيب حروف الأبجدية على التحو المتقدم ، فلما قرأوها على أنها كلمات ،  
 كما كان يفعل (بني لارم) وغيرهم في تعليمهم الكتابة والقراءة للمبتدئين تولد  
 عندهم هذا القصص ، الذي قد يكون مصدره قصص قديم . ثم تولد لديهم  
 قصص كونهم ملوكاً من مدين ، أو رجالاً من أهل الأنبار إلى آخر ما رأينا  
 من قصص عن منشأ الحروف ، ليجدوا بذلك مخرجاً في تعليل تلك التسميات .

وذكر بعض أهل الأخبار أن أول من أتى أهل مكة بكتابه العربية (سفيان  
 ابن أمية بن عبد شمس) ، ثم انتشرت<sup>٣</sup> .

١ تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بعد) .

٢ نزهة الجليس (٦٤/٢) ، المزهر (٣٤٧/٢) .

٣ نزهة الجليس (٦٤/٢) .

وترجع أسباب الروايات المذكورة الى ( عبدالله بن عباس ) ، و ( كعب الأحبار ) ، و ( الشعبي ) و ( أبي ذر ) ، و ( عوانة ) ، و ( ابن الكلبي ) ، و ( الشرقي بن القطامي ) ، و ( الأصمي ) و ( الهيثم بن عدي )<sup>١</sup>.

وبظهور من هذه الروايات ومن روايات أخرى أن رأي علماء العربية أن الخط العربي لم يكن أصلياً في الحجاز ، وإنما دخله من اليمن ، أو من العراق أو أرض مدين . وأن أهل مكة إنما تعلموه من الأماكن المذكورة ، في وقت غير بعيد عن الإسلام ، لا يمكن أن يرتقى عنه بأكثر من قرن ، إن لم يكن أقل من ذلك ، وفقاً لرواياتهم هذه . وأن أقدم من كتب به هم أهل مكة . ولذلك قدم أهل الأخبار خط أهل مكة على سائر الخطوط التي عرفت في الإسلام . وجعلوه أول الخطوط العربية وبعده المدني ، أي خط أهل المدينة<sup>٢</sup>.

أما أن أصله من اليمن فدعته لا يمكن الأخذ بها ، لأن أهل اليمن كانوا يكتبون بالمسند ، والمسند بعيد عن هذا القلم الذي يسميه أهل الأخبار : القلم العربي أو الكتاب العربي أو الخط العربي بعداً كبيراً . وقد بقوا يكتبون بقلمهم هذا زمناً في صدر الإسلام . ثم ان الروايات التي ترجع علم مكة بالخط إلى اليمن ، هي آحاد بالنسبة إلى الروايات الأخرى التي تنسبأخذ الخط من العراق .

وأما دعوى مجته من مدين ، أي من أعلى الحجاز إلى مكة ، فدعوى أراها غير مستبعة . لأن أهل هذه المنطقة كانوا قبل الميلاد وبعده من النبط . والنبط هم عرب . وقد سبق ان تحدثت عنهم . وكانوا يكتبون خط أخذ من قلم (بني لارم) ، حروفه منفصلة ومتصلة . وترتيب أبجديته هو ترتيب (بني لارم) أي (أبجد هوز) . وقد طوروه بعض التطوير ، فصار الكاتب يكتب به بالحبر بسرعة ، وهو سريع وسهل أيضاً عند حفره على الحجر أو المعدن أو الخشب ، ويناسب التاجر والكاتب ورجل الفكر . وقد وصلتنا كتابات كثيرة كتبت به . وفي ضمنها الكتابات الخمسة التي اعتبرها العلماء النموذج الأول والأقدم للكتابات المدونة بلغة قوم كانوا يتكلمون بالعربية ، غير ان عريتهم كانت متأثرة بالنبطية عند الكتابة . أو انهم كانوا يكتبون بالنبطية ، غير ان نبطيتهم لم تكن صافية

١ المزهر (٣٤١/٢) ، ( النوع الثاني والرابعون : معرفة كتابة اللغة ) .

٢ الفهرست (١٤) ، ( الكلام على القلم الحميري ) .

نقية ، بل كانت متأثرة بلغتهم اليومية العربية . وفي ضمنها كتابة ( المارة ) التي يعود عهدها الى سنة ( ٣٢٨ ) للميلاد ، وكتابة ( حرّان اللجا ) التي هي أقرب هذه الكتابات الى عريتنا . ونظرآ الى ما نجده من تشابه في رسم الحروف بين أقدم الكتابات العربية وبين الخط النبطي ، وفي قواعد الإملاء وترتيب الأبجدية ، فلا يستبعد أن يكون أهل مكة قد أخذوا هذا الخط فكتبوا به . باحتكارهم بأهل أعلى الحجاز وببلاد الشام حيث كانوا يتاجرون معهم ، أو بمحاجة النبط اليهم للاتجار تعلمه أهل مكة منهم .

وذهب الدكتور ( خليل يحيى نامي ) ، الى أن أصل الكتابة العربية من الحجاز ، لما كان للحجاز من مكانة روحية عند العرب ولاستغاثهم بالتجارة . والمكانة الروحية والتجارة تستدعيان القراءة والكتابة أخذلها من التجار النبط الذين كانوا يتواجدون عليهم للاتجار أو من اختلاطهم بالنبط أثناء ذهابهم الى بلاد الشام . فهو يرى أن الخط النبطي هو والد الخط العربي ، ودليله أن ترتيب الحروف على طريقة أبجد هوز ، وترتيبها من حيث حساب الجمل ، أي جعل كل حرف من حروف أبجد هوز في مقابل رقم حسابي ، يرددان في عريتنا على نحو ما ورد عند النبط . مما يدل على أن الخط العربي أخذ من ذلك الخط ، أضعف الى ذلك تشابه رسم الحروف المنفصلة والمتصلة في القلمين<sup>١</sup> .

وأما موضوع أخذ أهل مكة خطهم المذكور من العراق ، فرأى لا يستبعده أيضاً ، فقد كان عرب العراق يكتبون ، ولم مدارس لتعلم الكتابة ملحقة بالكتائش والأديرة ، وقد كان بين أهل مكة وبين عرب العراق ولا سيما الأنبار والخيرة اتصال تجاري وثيق ، وكان تجار مكة يأتون بتجارتهم الى الخيرة ويقيمون بها ، فلا يستبعد تعلمهم أو تعلم بعضهم الخط من أهل الخيرة ومن أهل الأنبار . كما كان للتبيشير يد في نقل هذا الخط الى الحجاز وربما إلى مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد كان هؤلاء المبشرون يكتبون بقلم نبطي أو بقلم إرامي متأخر ، وهو والد القلم العربي الذي نكتب به . وقد كان المبشرون من أهل العراق نشطون في التبشير في جزيرة العرب ، فلا يستبعد أن يكون من بينهم مبشرون حبريون

١ - خليل يحيى نامي ، مجلة كلية الاداب ، الجامعة المصرية ، ١٩٣٥ م ، مجلد ٣ ، جزء ١ ( ص ١٠٢ وما بعدها ) .

نقلوا الكتابة الى ( دومة الجندل ) والمحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان كتبة الوجهة : إنما كتبوا خطأ خطأ من (الجزء) ، أي من خط أهل الخبرة . وذلك بحكم اتصال أهل مكة بالخبرة ، اتصالاً تجاريًّا ، فتعلموا منهـم<sup>١</sup> . فهم يوافقون بذلك بعض الروايات العربية التي ترجع علم أهل مكة بالكتابـة الى الخبرة .

وقد بقي أهل الخبرة يكتبون للولاية ، ويقرأون عليهم ما يرد اليـهم من رسائل أهل العراق وبـلـاد الشـام ، وذلك لـحسـن خطـهم واتـقـانـهم الكتابـة . فـكان لأـبي مـوسـى الأـشـعـري كـاتـب ، وـلـا سـأـلـه (عـمر) عـن سـبـب اـخـذـه كـاتـبـاً مـن التـصـارـيـ أـجـابـه : ( لـه دـيـنـه وـلـي كـاتـبـته ) . وـلـا أـرـاد (عـمر) اـخـتـيـار كـاتـبـ حـاذـق حـافـظ ذـكـرـ له غـلام نـصـرـانـي مـن أـهـلـ الـخـبـرـة<sup>٢</sup> .

ومـا يـلـفـتـ النـظـرـ وـيـسـرـ عـيـنـ الـانتـباـهـ ، هو أـنـ المـنـطـقـةـ الـيـ ذـكـرـ أـهـلـ الـأـخـبـارـ أـنـهاـ كـانـتـ الـأـرـضـ الـيـ فـيـتـ بـهاـ الـخـطـ الـعـربـيـ ، وـهـيـ الـأـنـبـارـ وـالـخـبـرـةـ ، لـمـ تـعـطـ الـبـاحـثـينـ حـتـىـ الـآنـ أـيـ نـصـ مـكـتـوبـ . كـمـاـ أـنـ مـكـةـ الـمـدـيـنـةـ الـآـخـذـةـ لـلـخـطـ لـمـ تـعـطـنـاـ أـيـ نـصـ جـاهـلـيـ مـكـتـوبـ . مـعـ أـنـ نـصـوصـ هـذـهـ الـأـرـضـيـنـ نـهـمـاـ بـصـورـةـ خـاصـةـ ، مـاـ لـهـاـ مـنـ عـلـاقـةـ بـالـخـطـ الـعـربـيـ الـذـيـ تـكـلـمـ عـنـهـ ، وـبـالـلـغـةـ الـيـ نـزـلـ بـهاـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ وـنـظـمـ بـهاـ الـشـعـرـ الـجـاهـلـيـ ، وـبـالـأـدـبـ الـجـاهـلـيـ . فـلـمـ لـمـ تـصـلـ نـصـوصـ الـبـيـانـ مـنـ الـعـرـاقـ وـلـاـ مـنـ مـكـةـ مـعـ أـنـ أـهـلـ مـكـةـ كـانـوـاـ يـكـتـبـونـ عـنـدـ ظـهـورـ الـإـسـلـامـ ، وـكـذـلـكـ أـهـلـ الـخـبـرـةـ كـانـوـاـ يـكـتـبـونـ ، وـلـمـ دـوـاـيـنـ فـيـ أـخـبـارـهـ ، رـجـعـ الـهـمـاـ ابنـ الـكـلـبـيـ ، كـمـاـ نـصـ عـلـىـ ذـلـكـ . هـلـ سـبـبـ عـدـمـ وـصـرـطاـ ، أـنـ الـدـيـنـ كـتـبـاـ بـهـذاـ الـقـلـمـ إـنـاـ كـتـبـاـ عـلـىـ موـادـ سـرـيعـةـ التـلـفـ وـبـالـحـرـ ، وـلـذـلـكـ ، تـلـفتـ ، وـلـمـ تـمـكـنـ مـنـ الـعـيـشـ طـرـيـلاـ<sup>٣</sup> . كـمـاـ تـلـفتـ مـخـطـوـطـاتـ أـهـمـ مـنـهـاـ شـائـنـاـ مـثـلـ النـسـخـ الـأـوـلـىـ لـلـقـرـآنـ الـكـرـيمـ ، وـالـنـسـخـ الـأـصـلـيـةـ مـنـ رـسـائلـ وـكـتـبـ الرـسـولـ الـىـ الـمـلـوـكـ وـالـأـمـرـاءـ وـالـأـصـحـابـ . وـكـذـلـكـ خـطـوـطـ الـخـلـفـاءـ الرـاشـدـيـنـ وـسـجـلـاتـ دـوـاـيـنـهـمـ وـمـاـ شـاـكـلـ ذـلـكـ مـنـ وـثـائقـ . قدـ يـكـونـ مـاـ ذـكـرـتـهـ هـوـ السـبـبـ فـيـ عـدـمـ وـصـولـ نـصـ مـنـ هـذـهـ الـأـرـضـيـنـ الـبـيـانـ ، وـقـدـ تـكـوـنـ هـنـاكـ أـسـبـابـ أـخـرىـ . عـلـىـ كـلـ ، عـلـيـنـاـ أـلـاـ نـيـأسـ مـنـ الـمـسـتـقـبـلـ ، فـلـعـلـ

Die Araber, II, S. 357.

١

٢ عـيـنـ الـأـخـبـارـ ( ٤٣ / ١ )

الباحثين سينقبون في باطن الأرض وينبشون الأماكن الأثرية فيجدون أشياء ، هي تحت قشرة الأرض في الوقت الحاضر . فيكون من يأتي بعدها سعداء بالطبع لوقوفهم على أشياء حرمنا من رؤيتها نحن فصرنا في جهل من أمرها ، وصاروا هم في نعيم من العلم .

وقد ذهب (جرجي زيدان) إلى أن المضريين الذين تحضرروا وأقاموا في العراق وفي بلاد الشام ، اقتبسو الكتابة من جيرانهم ، فكتب منهم من كتب بالعبرانية وكتب منهم من كتب بالسريانية ، ولكن القلمين النبطي والسرياني ظلاً عندهم إلى ما بعد الفتوح الإسلامية ، فتختلف عن الأول الخط التسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة إلى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الإسلام الحيري نسبة إلى الحيرة ، وهي مدينة عرب العراق قبل الإسلام وابنها المسلمين الكوفة بجوارها .

ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون بجموعة أقلام من الخط السرياني ، في جملتها قلم يسمونه (السطرنجلي) كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس ، فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الإسلام ، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم وعنده تختلف الخط الكوفي . وما متشابهان إلى الآن<sup>١</sup> .

ثم تعرض إلى ناقل الخط إلى مكة ، فقال : « واحتلقو فین نقله إلى بلاد العرب ، والأشهر أن أهل الأنبار نقلوه ، وذلك أن رجلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكوفي أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هذا الخط من الأتبار وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية اخت أبي سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من أهل مكة ، فكثر من يكتب عكة من قريش عند ظهور الإسلام ، ولذلك توهم بعضهم أن أول من نقل الخط إلى العرب سفيان بن أمية<sup>٢</sup> .

ولما أراد أبناء رأيه في أصل الخط العربي جمع بين الرأيين : الرأي القائل أن أصل الخط العربي من العراق ، والرأي القائل أن أصله من حوران ، فقال : « والخلاصة على أي حال إن العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في أثناء

١ تأريخ التمدن الإسلامي (٥٨/٣) ، (الخط العربي) .

٢ تأريخ التمدن الإسلامي (٥٨/٣) ، السجستان ، المصاحف (٤) .

تجاراً لهم إلى الشام ، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظلل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معاً: الكوفي لكتابه القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتاب الأسفار المقدسة النصرانية ، والنبطي لكتابه المراسلات والمكابيات الاعتيادية . وما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي – فضلاً عن شكله – أن الألف إذا جاءت حرف مدد في وسط الكلمة تمحفظ، وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية، وكان ذلك شائعاً في الإسلام ، وخصوصاً في القرآن، فيكتبون (الكتب) بدل (الكتاب) ، و (الظالمين) بدل (الظالمين)<sup>١</sup> .

والقلم الكوفي هو من أقدم الأقلام العربية الإسلامية . وهو كما ذكرت قبل صفحات ، قريب الشبه بالقلم السطرنجيلي ، قلم المصاحف عند نصارى العراق ، ومن أجل أقلامهم لاستخدامه في كتابة الكتابات الدينية ، ومنها الأنجليل . وقد أخذ من القلم الحيري على ما يظهر ، لأن أهل الخبرة كانوا يكتبون (الجزم) ، والجزم وليد السطرنجيلي ، ذلك لأن الكوفة نشأت في خلافة عمر) ، فانتقل إليها في جملة من انتقل إليها أهل الخبرة ، الكتاب بالقلم الجزم . وهذا صار<sup>٢</sup> قلم الكوفة تقليلاً في الكتابة ذا زوايا مربعة وحروفاً مستقيمة ، والكتابة تمثل إلى التربع<sup>٣</sup> . وقد أخذ من (الجزم)<sup>٤</sup> ، ونسب إلى الكوفة لظهوره لأول مرة بها في الإسلام .

ولا يبعد أيضاً أخذ أهل مكة خطهم المدور المسني (النسخ) من (حوران) أو من (البتراء) و (العلا) فيبين مكة والمكائن المذكورين اللذين سكن بهما النبط اتصال وثيق . أو من الخبرة او الأنبار . فالخط المدور هو قلم النبط المتأخر ، وقلم كتبة العراق أيضاً ، وهو والد القلم (النسخ) . ومن الخطأ اعتبار (النسخ) وليد الخط الكوفي<sup>٤</sup> . لأن الخط الكوفي هو الجزم أو قلم آخر مثله اشتقت من القلم المربع الروايا (السطرنجيلي) ، بينما النسخ وليد القلم المدور الذي أستطيع تسميته

١ تاريخ التمدن الإسلامي (٣/٥٩) .

٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، (١٢ ص ١٥) .

٣ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، ١٩٥٢ م ، (ص ٤٢١) .

٤ الابحاث ، ١٩٥٢ م (١٢ ص ١٥) .

بالمشتّق مجازة للبطليوسyi ، الذي شخصه بأنه قلم أهل الأنبار .

ويرى بعض الباحثين أن القلم العربي قد أخذ من قلم بني ادم . وذلك أن السريان الذين هم من (بني ادم) كانوا قد طوروا القلم الإرمي ، وكتبوا بقلمين : قلم قديم كتب به الأنجليل والكتب المقدسة ، وهو المربع، ذو الحروف المستقيمة ذات الزوايا المربعة ، الذي هو الخط (الاسطرنجيلي) ، وقلم سهل ذو حروف مستديرة أي على شكل أقواس ، هو قلم النسخ . وقد عرف العرب القلمين وكتبوا بهما ، فسموا السهل النسخ والآخر الكوفي<sup>١</sup> .

وحجتهم في ذلك أن القلم العربي أخذ بترتيب (أبجد هوز حطي) ، وهو ترتيب وجد في لغة (بني ادم) ، كما أخذ بهذا الترتيب بمحاسب الجمل . وهو ترتيب موجود عند بني ادم أيضاً . كما أخذ بقواعد من قواعد رسم الحروف في الإملاء موجودة في خط (بني ادم) ، مثل قاعدة ربط أو فصل الحروف عند تدوين الكلمة ، وقاعدة حذف الألف عند وقوعه في وسط الكلمة ، في رحان ومساكن ويتامي ومساجد وكتاب وابراهيم واسحاق واسماعيل ، فإنها كتبت في خط المصاحف بدون ألف . ومثل حذف ألف فاعل وتفاعل في السريانية وفي العربية أيضاً ، كما في بارك حيث كتبت (برك) في خط المصاحف ، ومثل حذف الألف من ضمير الجمع المتلكلم (نا) ، كما في (أرسلنك) و (اصطفينه) و (بشرنه) ، في موضع (ارسلناك) و (اصطفينا) و (بشرناه) ، وذلك في خط المصاحف ، وحذف ألف جمع المؤنث السالم في السريانية وفي العربية ، كما (صدقت) و (طبيت) ، بدلاً من صدقات وطبيات . ومن هذا القبيل أيضاً ، تدوين (شهد) و (كفرین) ، بدلاً من شاهد وكافرين . ومثل حذف ياء المتلكلم في السريانية وفي القلم العربي القديم ، كما في كتابة يرب في موضع يا رب<sup>٢</sup> .

ورأيي ان القول الجزم في أصل قلم أهل مكة ، هل هو من العراق أو من بلاد الشام ، يجب أن يكون للكتابات . فتى عثرنا على كتابات مدونة بالعربية

١- الدراسات الأدبية ، العدد الاول ، السنة الثانية ، ١٩٦٠ م (ص ٧٦ وما بعدها) ، (مقال للدكتور أنيس فريحة) .

٢- الدراسات الأدبية ، السنة الثانية ، العدد الاول (ص ٧٦ وما بعدها) .

بالحبرة أو بالأنبار أو بالأماكن الأخرى من العراق تعود إلى الجاهلية والى صدر الإسلام وعلى كتابات مثلها من حيث الزمان يعثر عليها في بلاد الشام وفي الحجاز أو نجد أو أي مكان آخر من جزيرة العرب ، وقارناها بعضها ببعض ، وطابقنا فيما بين خطوطها ورسم حروفها وما شاكل ذلك ، جاز لنا حينئذ القول بأصل قلم مكّة والأقلام الأخرى المشابهة له . وبأصل اللغة التي دونت به، ومزاياها والأماكن التي كانت تتكلم بها . وعندئذ نخل مشكلة أصل اللغة العربية الفصحى أيضاً ، وهي من أهم مشكلات تأريخ الأدب الجاهلي ولا شك .

وأما جمهرة المستشرقين المعاصرين الذين عثروا بدراسة تطور الخطوط السامية ، ومنشأ الخطوط العربية ، فقد رأوا أن الخط العربي الذي دون به القرآن أخذ من الخط النبطي المتأخر الذي كان يستعمله النبط ، وهو خط تولد من القلم الإرامي المترعرع من الفينيقية على رأي المستشرق ( هرمل )<sup>١</sup> . وقد استعمل في نهاية وبين الخط الذين كانوا يقيمون في أعلى الحجاز وفي سينا<sup>٢</sup> . وقد عثر على كتابات دونت به في مواضع مختلفة من الحجاز واليمن .

وستد القائلين بهذا الرأي ودليلهم هو عدد من الكتابات عثر عليها السياح ، كتبت بلهجـة غير بعيدة عن اللهجة العربية التي نزل بها القرآن ، ومحروـفـ مرتبطة ، وبالقلم النبطي المتأخر الشبيـه جداً بأقدم الخطوط العربية ولا سيـاـ الكوفـيـة منها . ومن مـيزـاته ارـتـباطـ بعضـ حـرـوفـ بـعـضـ وـكتـابـةـ بـعـضـ الـحـرـوفـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـكـلـمـةـ بشـكـلـ يـخـتـافـ عـنـ رـسـمـ الـحـرـوفـ الـتـيـ منـ نـوـعـهـاـ المـسـعـمـلـةـ فـيـ أـوـاـلـ الـكـلـمـةـ أوـ أـوـاسـطـهـاـ .

ولهذه الكتابات على قلة عددهـا أهمـيـةـ كبيرةـ لـدىـ العـلـمـاءـ ، لماـ هـاـ مـنـ خـصـائـصـ وـمـيـزـاتـ لـغـوـيـةـ تـقـيـيدـ فـيـ درـاسـةـ تـطـورـ الـلـهـجـاتـ الـعـرـبـيـةـ ، وـفـيـ درـاسـةـ تـطـورـ الـقـلـمـ الـعـرـبـيـ . وـقـدـ تكونـ مـقـدـمـةـ لـعـدـدـ آـخـرـ مـنـ الـكـتـابـاتـ الـمـكـتـوبـةـ بـهـذـاـ الخطـ .

<sup>١</sup> Ency. Brita., I, p. 684, Grundriss, I, S. 154.

ناصر النقشبendi ، منشأ الخط العربي وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين ، مجلة سومر ، كانون الثاني ١٩٤٧ م ، ( ١٢٩ وما بعدها ) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الاداب ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٥ م .

<sup>٢</sup> Ency. Brita., I, p. 684.

وأقدم هذه الكتابات الكتابة التي يقال لها كتابة ( أم الجمال ) الأولى ويعود تارikhها الى سنة ( ٢٥٠ ) أو ( ٢٧٠ ) للميلاد . وقد وضعت شاهداً على قبر ( فهر برسي ) ( فهر بن سلي ) مرببي ( جديعت ) ( جدمت ) ( جدمعة ) جديعة ملك ( تنوح ) ( تنوخ ) ، وغير عليها في موضع يقال له ( أم الجمال ) ، في جنوب حوران من أعمال شرق الأردن<sup>١</sup> . ويعتقد ( ليهان ) ، أن تاريخ هذا النقوش لا يبعد كثيراً عن تاريخ كتابة أخرى هي كتابة المارة ( نم رت ) . ونجد في هذه الكتابة حروف غير مرتبطة وحروفاً مرتبطة مشابهة لبعض حروف الخط الكوفي . وقد كتبت بالإرمية ، ومع ذلك فإن لها أهمية لوجود أسماء عربية فيها ، ولأن القبائل العربية الشهابية كانت تستعمل الإرمية في الكتابة<sup>٢</sup> .

وقد عثر الباحثون على كتابات معدودة سبقت هذه الكتابة ، دُوّنت بالقلم النبطي أيضاً ، هي كتابة عثر عليها في ( وادي المكتب ) في طور سيناء ، يعود تارikhها الى سنة ( ١٠٦ ) من سقوط ( سلح ) ، المقابلة لسنة ( ٢١٠ ) للميلاد ، وكتابة ثانية يعود تارikhها الى سنة ( ١٢٦ ) من سقوط ( سلح ) أي سنة ( ٢٣٠ ) للميلاد . وقد وجدت في وادي فران بطور سيناء كذلك ، وكتابة ثالثة هي من كتابات ( طور سيناء ) أيضاً ، وقد أرخت بستة ( ١٤٨ ) من سقوط ( سلح ) أي سنة ( ٢٥٣ ) للميلاد ، وكتابة رابعة عثر عليها في الحجر ، وتارikhها سنة ( ١٦٢ ) من سقوط ( سلح ) ، أي سنة ( ٢٦٧ ) للميلاد .

ولكن هذه الكتابات بعيدة بعض البعد عن القلم العربي ، وأما لغتها فنبطية ، ونجد نص ( الحجر ) ( مداين صالح ) ، وقد حوى كلمات كتبت بقلم ثمودي . ولذلك فإن له ميزة من هذه الناحية على الكتابات الأخرى ، ومنطقة الحجر من

١ السامية ( ١٣٩ ) ، ( سنة ٢٧٠ ) ، خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتطوره إلى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، مايو ١٩٣٥ ،

De Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitique, PL. 15, 11.

٢ السامية ( ١٤٠ ) ، مجلة سومر ( م ٣ ، ٢ ، ١ ، كانون الثاني ١٩٤٧ ، ص ١٣٠ ) ، Nabia, 4, Littmann, Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, Princeton University Expeditions to Syria, in 1904-1905, and 1909, p. 37, Cantinean, Nabateen et Arabe, pp. 72-79, Institut d'Etudes Orientales, Annales, I, 1934-1936.

المناطق التي عثر فيها على عدد من كتابات قوم ثمود . ونظراً إلى أن خط نص (أم الجمال) أقرب إلى الخط العربي من الكتابات المذكورة التي سبقته ، لذلك قدمته عليها .

وتنى كتابة أم الجمال الأولى في الزمن كتابة الهارة ، وقد عثر عليها المستشرق الفرنسي (دوسو) M. René Dussaud في الهارة في الحرة الشرقية من جبل الدروز ، و (الهارة) قصر صغير كان للروم . وجدها على قبر امرئ القيس الأول ابن عمرو ملك العرب المتوفى في يوم ٧ بكسلاول من سنة ٢٢٣ ، المقابلة لسنة ٣٢٨ للميلاد ، وقد دونت سنة الوفاة ، وهي سنة تاريخ الكتابة كذلك وفقاً للتقويم (بصري) وهو التقويم الذي كان يستعمله عرب هذه الأطراف وبنطها . وتعد هذه الكتابة أول كتابة وأقدم كتابة عثر عليها حتى الآن مدونة باللهجة العربية الشهالية القريبة من لهجة القرآن ، وإن كتبت بالقلم النبطي المتأخر وبأسلوب متاثر بالإرامية<sup>١</sup> .

وعثر على كتابة في خرائب (زيد) بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرق حلب ، كتبت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية ، يرجع تاريخها إلى سنة (٦١٢) للميلاد (٨٢٣) للتقويم السلوقي<sup>٢</sup> . والمهم عندنا هو النص العربي ، ولا سيما قلمه العربي . أما من حيث مادته اللغوية ، فإن أكثر ما ورد فيه أسماء الرجال الذين سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت فيها الكتابة<sup>٣</sup> . وقدقرأ العالم (ليذبار斯基) الكلمة الأولى منه (بسم) . أما الكلمة الثانية ، فهي (الإله) فأصبح مطلع النص : (بسم الإله) ، فإذا كانت القراءة هذه صحيحة ، تكون الكلمة (بسم الإله) أهمية كبيرة في موضوع الفكرة الدينية . أما العالم (ليتمن) فقدقرأ الكلمة الأولى منه (بنصر) ، فتكون فاتحة النص : (بنصر الإله)<sup>٤</sup> .

Fritz Hommel ,Grundriss der Geographie und Geschichte des alten  
Orients, München, 1904, BD., I, S. 155, Dussaud, Les Arabes en Syrie, p. 34,

Nabia, p. 4, Revue Archéologique, 31 Série, XLII, (1911), p. 411.  
Grundriss, I ,S. 156, E. Sachau, Eine Dreisprachige Inschrift aus Zebed: Monatsberichte der Preussische Akademie der Wissenschaften, Berlin,

10 Febr. 1881, S. 169, Zur Trilinguis Zebedaea, in ZDMG., 36, 1882),  
S. 345 - 352.

٢ السامية (١٩١) .  
Lidzbarsky, Handbuch der Nordsemit. Epigraphik, Weimar, 1898, S. 484,  
Ephemeris, Giessen, 1902, BD., 2, S. 35.

٤ السامية (١٩١) .  
A. Littmann, in Rivista degli Studi Orientali, 1911, p. 195.

وقد دوّن النص العربي على هذه الصورة :

- ١ - .. م الإله سرحوبر امت منفو وهي برمي القيس .
- ٢ - وسرحوبر سعدو وسترو وشريحو بتيمى .

ومعناه : بسم الإله . سرحو بن أمت منفو ، وهيء بن امرىء القيس ، وسرحو بن سعدو ، وستر ( ستار ) ( ساتر ) وشريح . أتّوا .

والنص العربي ، ليس ترجمة للنص السرياني أو اليوناني ، لذلك ذهب بعض الباحثين إلى احتمال كونه متأخراً بالنسبة إلى التصين المذكورين ، أي أنه كتب بعدهما . وهو يتناول تحليلاً عمل المذكورين في بناء الكنيسة .

وعثر المستشرقون في حرّان اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز على كتابة أخرى مدونة باليونانية والערבية قيل لها ( نقش حرّان ) ، وقد وضعت فوق باب كنيسة ، وصاحبها ( شرحيل بر ظلمو ) ( شراحيل بن ظالم ) ( شرحيل بن ظالم ) ، ويعود تاريخ الكتابة إلى عام ( ٤٦٣ ) من ( الأندقسطية الأولى ) ، وتقابل ستة ( ٥٦٨ ) للميلاد<sup>١</sup> . أما النص العربي ، فقد أرخ بستة ( ٤٦٣ ) أيضاً ، وأضيف إلى هذا التاريخ عبارة ( بعد مقدس خير بعم ) أي ( بعام ) . ومعنى هذا أن حدثاً تاريخياً كان قد وقع قبل هذا التاريخ بستة صار الناس هنالك يؤرخون به ، فأرخ النص به . ويرى ( ليتمن ) أن ذلك يعني وقوع غزو على خير ربما قام به أحد ملوك غسان<sup>٢</sup> .

وهذا النص هو من أهم النصوص المتقدمة وأذكرها قيمة بالنسبة لمؤرخ اللغة العربية ، لأنّه نص دوّن بلهجـة القرآن الكريم ، باستثناء أثر سهل للنبيـة بـرز عليهـ . ولأهميةـ هذه أدواتـه على نحوـ ما جاءـ في النـص العـربـيـ : ( أنا شـرحـيل برـ ( بنـ ) ظـلمـو بـنـيتـ ذـا المـرـطـولـ ( سـنـتـ ) سـنـة ٤٦٣ـ بـعـدـ مـقـسـدـ خـيرـ ( بـعـامـ ) ( بـعـامـ ) . فـأـنـتـ أـمـامـ نـصـ عـربـيـ وـاضـحـ ، تـفـهـمـهـ مـنـ دـوـنـ صـعـوبـةـ وـلـاـ مـشـقـةـ .

---

١ السامية ( ١٩٢ ) .

Nabia p. 5, Dussaud, Mission, p. 324, Grundriss, S. 156, Schröder, In ZDMG.

38, ( 1884 ), p. 530.

٢ السامية ( ١٩٢ ) .

A. Littmann, In Revist, 1911, p. 195, Nabia, p. 5, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und verwandte Gebiete, Leipzig, 1922, VII, S. 197.

على حين نجد النصوص الأخرى وقد كتبت بنبطية متأثرة بالعربية الشمالية بعض التأثر . ولهذا فإنني أفرق بين هذا النص وبين النصوص السابقة له ، وأعدّه أول نص وصل إلينا حتى هذا اليوم كتب بلهجـة عربية القرآن الكريم .

وتعـد الكتابة التي عـثر عليها في موضع (أم الجـمال) وقيل لها كتابة (أم الجـمال الثانية ) تـفرـيقـاً لها عن كتابة أم الجـمال الأولى ، أـحـدـث ما عـثر عليه من كتابات بهذا القـلم الذي نـتحدـث عنه ، وباللهـجـة الـنبـطـيـة المـتأـثـرـة بلـهـجـة الـقـرـآن ، أو باللهـجـة الـعـرـبـيـة الشـمـالـيـة الـقـرـيبـة من لـهـجـة الـقـرـآن . وهي لا تـعـلـمـانـتـارـيـخـاً . غير أنـمـن عـالـجـهـا منـالـمـسـتـشـرـقـين يـرـى أنها تـعودـإلىـالـقـرـنـالـسـادـسـلـلـيـلـادـاً . ولـغـتها قـرـيبـة منـالـلـغـةـالـعـرـبـيـةـالـمـعـرـوـفـة ، كـماـأنـهاـمـتـحـرـرـةـمـنـالـنـبـطـيـةـوـالـإـرـمـيـةـإـلـىـحـدـكـبـيرـ .

وعـثرـفيـالـيـمـنـعـلـىـبعـضـكتـابـاتـنـبـطـيـةـلـعـلـهـاـمـنـآـثـارـالـتـجـارـالـنـبـطـالـذـينـكـانـواـيـنـدـهـبـونـإـلـىـالـيـمـنـبـقـصـدـالـتـجـارـةـ ،ـوـلـاـسـيـاـفـيـالـقـرـنـيـنـالـأـوـلـيـنـلـلـمـيـلـادـ ،ـأـوـمـنـآـثـارـتـجـارـأـهـلـالـحـجازـأـوـمـنـأـهـلـالـيـمـنـ ،ـكـانـواـقـدـتـعـلـمـواـالـكـتـابـةـبـهـذـاـقـلـمـالـذـيـأـخـذـيـتـشـرـعـبـعـدـالـمـيـلـادـلـأـنـهـأـسـهـلـفـيـالـاسـتـعـمـالـمـنـالـمـسـنـدـالـذـيـيـخـتـاجـإـلـىـدـقـةـفـيـالـرـسـمـ ،ـوـالـيـبـطـءـفـيـالـكـتـابـةـ .ـوـلـوـحـظـأـنـإـحـدـيـهـذـهـكـتـابـاتـكـتـبـتـبـالـقـلـمـالـبـطـيـالـمـتأـخـرـالـذـيـيـشـبـهـقـلـمـالـذـيـاستـعـمـلـفـيـنـقـشـ(ـفـهـرـبـنـسـلـيـ)ـ<sup>٢</sup>ـ .

ولـكـنـالـعـلـمـاءـلـمـيـتـمـكـنـواـمـنـالـعـثـورـعـلـىـعـدـدـكـافـمـنـالـكـتـابـاتـالـمـدوـنةـبـهـذـاـقـلـمـ،ـتـكـفـيـلـإـصـدـارـحـكـمـعـلـيـعـنـوقـتـدـخـولـقـلـمـالـبـطـيـالـمـتأـخـرـإـلـىـالـحـجازـوـالـيـمـنـوـمـلـىـاـنـتـشـارـهـبـنـالـنـاسـ .ـوـلـاـكـانـقـلـمـالـبـطـيـالـمـتأـخـرـقـدـظـهـرـبـعـدـالـمـيـلـادـعـلـىـرـأـيـأـكـثـرـالـعـلـمـاءـ ،ـيـكـوـنـهـذـاـخـطـقـدـوـصـلـالـحـجازـوـالـيـمـنـبـعـدـالـمـيـلـادـبـالـطـبـعـبـالـاـنـتـصـالـالـتـجـارـيـوـالـقـوـافـلـالـسـيـيـكـانـتـتـقـومـبـرـحـلـتـهـاـبـنـالـيـمـنـوـبـلـادـالـشـامـ ،ـوـبـوـاسـطـةـالـنـصـرـانـيـالـتـيـوـجـدـتـلـهـسـبـيلـاًـإـلـىـالـيـمـنـ .

ويـلاحظـأـنـالـسـدـنـيـنـكـتـبـواـبـالـقـلـمـالـعـرـبـيـالـشـمـالـيـ ،ـالـذـيـأـخـذـمـنـقـلـمـمـكـةـ ،ـهـمـمـنـالـعـرـبـالـنـصـارـيـفـيـالـغـالـبـ ،ـفـأـهـلـالـأـبـنـارـ ،ـوـالـحـيـرـةـ ،ـوـعـيـنـالـشـمـسـ ،ـ

Nabla, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, 197-204.

Nabla, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, S. 197-204.

ودومة الجندل ، وببلاد الشام ، كانوا من النصارى ، فلا استبعد احتمال استعمال رجال الدين للقلم السرياني المتأخر ، الذي كون القلم النبطي في كتابة العربية ، لاجتثتهم الى الكتابة في تعليم أولاد النصارى الكتابة ، وتفقيفهم ثقافة دينية ، فكانوا يعلمونها في المدارس الملحقة بالكنائس ، وربما نشروها في البحرين ، أي في سواحل الخليج حيث كانت هنالك جاليات نصرانية ، وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب التي كانت النصرانية قد وجدت سبيلاً لها بينها ، ولا استبعد احتمال عثور المتنبيين في المستقبل على كتابات مطمورة كتبت بهذا القلم .

ونعيدنا دراسة شكل خط هذه النصوص فإنّلة كبيرة في الوقوف على تطور الخط العربي ، في بين رسم هذه الخطوط وبين رسم أقدم الخطوط العربية الإسلامية تقارب كبير ، يشير الى اشتقاق القلم الذي دون به الوجي من هذا القلم ، وهو القلم الذي كان يكتب به عرب العراق كذلك على ما أرى . وهو قلم وصل بين حروفه ، وفصل في مواضع أخرى . وهو مختلف بذلك عن القلم المستند الذي استعمل حروفاً منفصلة فقط ، ولم يعرف الحروف المتصلة ، كما ان شكل حروفه بعيد جداً عن شكل حروف هذا القلم ، وهو أسهل وأسرع في الكتابة على الكاتب من المستند .

ونرى في هذه الصورة التي تضم رسم الحروف في الخط النبطي المتأخر والقلم العربي القديم ، تشابهاً كبيراً في الشكل ، ينبع ذلك بوجود نسب بين القلمين ، وان القلم العربي القديم ، قد تولد منه . ولا أستبعد ان يكون قلم أهل الحبرة هو هذا القلم نفسه ، استعملوه في تدوين العربية . وقد رأينا ان النصوص القليلة المكتوبة بنبطية متاثرة بالعربية ، قد كتبت بهذا القلم ، وبينها نص (المهارة) الذي هو شاخص قبر (امرأة القيس) أحد ملوك الحبرة .

واني لا أستبعد احتمال عثور المتنبيين والباحثين في المستقبل على كتابات عربية قديمة تعود الى الجاهلية الملائقة للإسلام والى أيام الرسول بكثرة تمكّن العلماء من وضع رأي واضح عن منشأ وتطور الخط العربي القرآني .

وقد استعملت جملة (الخط العربي القرآني) ، لأن القرآن هو في الواقع صاحب الفضل على هذا الخط في تحليده وثبتته لأمر الرسول بتدوين الوجي به ، اي بهذا القلم العربي القديم الذي أتحدث عنه ، الذي أخذنه اهل مكة عن اهل

(الحيرة) ، أو عن (بشر بن عبد الملك) السكوني ، من (دومة الجندل) على رواية أهل الأخبار . واني أرى ان البحث عن الكتابات العربية القديمة في الحجاز وفي (دومة الجندل) و (الحيرة) و (الأنبار) و (عن التمر) ، وفي القرى العربية الأخرى التي أقيمت على الفرات وفي بلاد الشام أهمية كبيرة بالنسبة لبحثنا في تاريخ نشوء وتطور الخط العربي القرآنى ، لأنى أكره الطرق التي يأخذ بها بعض الباحثين من اللجوء الى الحدس والظن في وضع آراء علمية قاطعة ومهمة ، مثل الخط ومشتئه وتطوره وما شابه ذلك ، لمجرد رأي ورد عند أهل الأخبار ، او ظن مال اليه عالم ، وعندى ان آراءاً مثل هذه يجب الاتصال إلا باستناد على دليل مادي ملموس ، مثل أثر ، او مصدر تأريخي قديم محترم .

والصورة التي نراها في الصفحة المقابلة تمثل نماذج من الكلميين : القلم البطيء المتأخر ، والقلم العربي القديم ، مأخوذة من مختلف الصور الأصلية التي عبر عليها العلماء في مختلف الأتجاه من العراق وببلاد الشام وجزيرة العرب .

ويرى المستشرق ( وايل ) Weil أن الترتيب الذي يرد للحروف العربية على طريقة : (أبجد هوز حطي ... الخ) ، هو ترتيب أخذته العرب من النبط أو اليهود ، وقد أخذته النبط والبرانيون من القلم الإرامي . وتشير هذه الطريقة بكل جلاء الى اشتقاق القلم العربي من القلم البطيء المترعرع عن الخط الإرامي<sup>١</sup> . أما الترتيب الذي عند الكهانين ، فهو هذا الترتيب مع زيادة الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . ويرى بعض العلماء أن البرانيين أخذوا ترتيبهم هذا من الكهانين<sup>٢</sup> . ونجد هذا الترتيب عند الفينيقيين أيضاً ، وهذا يرى بعض الباحثين أن البرانيين والأراميين أخذوا الكتابة من الفينيقيين، وأخذوا منهم استعمال الحروف للعدد أيضاً ، على نحو ما نجده في العربية من استعمالها في حساب الجمل<sup>٣</sup> .

وقد وضع علماء العربية بعد (قرشت) التي يمثل سرف (التاء) فيها آخر حروف الأبجدية التي بلغ عدد حروفها اثنان وعشرون حرفاً، الحروف التي لم ترد

١ Ency. I, p. 68.

٢ السامية (١٠٢) .

٣ الابحاث ، (١٩٥٢ م) (١ ص ٥ وما بعدها) .

| القلم العربي القديم | القلم النبطي المتأخر | القلم العربي القديم | القلم النبطي المتأخر |
|---------------------|----------------------|---------------------|----------------------|
| ١٦٦٦٦٦٦             | ك                    | ٧٧٧٧٧               | ٦٦٦٦                 |
| د د د د د د د د د د | د                    | د                   | د                    |
| ٦٤٤٤٤٤٤             | ح ح ح ح              | ٦٦                  | د                    |
| ٦٦٦٦٦٦              | ب ب ب ب              | ٦٦                  | د                    |
| ٥٥٥٥٥٥٥٥            | ٣٣٣٣٣                | ٥٥٥٥                | ٥٥٥٥                 |
| ٩٩٤٢                | ٩٩٤                  | ٩٩٩                 | ٩٩                   |
| ١                   | ٤٤                   |                     |                      |
| ٤٤٤٤٤٤              | ٤٤                   | ٤٤                  | ٤٤                   |
| ٦٦٦٦٦٦              | ك                    | ط ط                 | ط ط                  |
| ٤٤٤٤٤٤              | ك                    | ك                   | ك                    |
| ٤٤٤٤٤٤              | ك                    | ك                   | ك                    |
| ٤٤٤٤٤٤              | ل ل ل ل              | ل ل ل ل             | ل ل ل ل              |
| ٥٥٥٥٥٥٥٥            | م م م م              | م م م م             | م م م م              |
| ٤٤٤٤٤٤              | ر ر ر ر              | ر ر ر ر             | ر ر ر ر              |
| ٤٤                  | ه                    |                     |                      |
| ٤٤٤٤٤٤              | ع ع ع ع              | ع ع ع ع             | ع ع ع ع              |
| ٩٩٩٩                | و و و و              | و و و و             | و و و و              |
| ٤٤٤٤                | ه                    |                     |                      |
| ٤٤٤٤                | و                    |                     | و و                  |
| ٦٦٦٦                | ه                    | ر                   | ر ر ر ر              |
| ٤٤٤٤                | ع ع ع ع              | س س س س             | س س س س              |
| ٤٤                  | ه                    |                     | ه ه ه ه              |
| ٤                   | أ                    | أ                   | أ                    |

١ ٢ ٢ ٤

نماذج من القلمين النبطي المتأخر والقلم العربي القديم  
يمثل العمود « ١ » نماذج من الحروف العربية المستعملة في القرن  
الأول للهجرة ويمثل العمود « ٢ » نماذج من حروف كتابتي زيد  
وحربان . وأما العمودان « ٣ » و « ٤ » فيمثلان نماذج من كتابة  
السمارة وبطرا .

في هذه الأبجدية ، ولكنها ترد في العربية ، ودعوها بـ (الروادف)<sup>١</sup> . وضعوها بصورة ينفي عنها كل نشاز قد يظهر بين رسماها ورسم الحروف الأخرى ، وذلك باعتمادهم على تكرار الحرف ، وبذلك أولدوا الروادف المذكورة<sup>٢</sup> .

ويظهر من الروايات العربية القديمة أن كتاب الجاهلية المتصلة بالإسلام وكتاب صدر الإسلام كانوا يسرون في تعلم الكتابة على طريقة (أبجد هوز) أي على طريقة الآراميين والنبط وال עברانيين . وقد ورد في الأخبار أن الناس في أيام (عمر ابن الخطاب) ، كانوا يتعلمون الكتابة على طريقة (أبجد هوز) . قال (القلقشني) : « وقد جاء أنها كانت تعلم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويشهد لذلك قول الأعرابي في أبياته :

أيت مهاجرين فَعَلَّمُونِي ثَلَاثَةَ أَسْطُرِي مُتَابِعَاتِ  
وَخَطَّرَا لِي أَبَا جَادَ وَقَالُوا : تَعْلَمُ سَعْفَاصًا وَقَرِيشَاتٍ »<sup>٣</sup>

والترتيب الذي يعمل به الآن في البلاد العربية من الابتداء بالألف ثم بالباء ، فالثاء ، فالفاء ، فالجيم ، فالخاء ، فالخاء ... هو ترتيب وضع في زمن (عبد الملك بن مروان) ، عمل به (نصر بن عاصم) ، و (يجي بن يعمر) العدواني . وقد بدأ به ضم كل حرف إلى ما يشبهه في الشكل ، وقد ساد هذا الترتيب ومشي. وجرى عليه أصحاب الصحاح ولسان العرب والقاموس ، وتاج العروس ، وأصحاب معاجم اللغة في هذا اليوم<sup>٤</sup> .

أما ما ورد في بعض الروايات من أن (أبا ذر الغفاري) سأله رسول الله عن الحروف ، فقال له أنها تسع وعشرون ، وأنها نزلت على ترتيب : (ا ب ت ث ج) ، أي على الترتيب الذي نسر عليه في الوقت الحاضر ، وأنه عجب من قول الرسول له أنها تسع وعشرون ، لأن حروف العربية هي ثمان وعشرون،

١ Ency. I. p. 68.

١

٢ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ١٩٥٩ م ، (ص ٥٧٦) .

٢

٣ صبح الاعشى (١٩/٣) .

٣

٤ حفني بك ناصف ، تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية ، (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (الطبعة الثانية) ، (الكتاب الأول) ، (ص ٢٧) .

ومن تأكيد الرسول له أنها تسع وعشرون ، نزلت كلها على آدم<sup>١</sup> . فخبر غير صحيح ولا يُعوَّل عليه ، وهو موضوع ، لما ذكرته من أن الترتيب المذكور إنما ظهر في الإسلام .

هذا وإن مما يؤسف له كثيراً إننا لا نملك اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدونة في أيام الرسول ، ولا نملك أي نسخة من نسخ القرآن أو من صحفه المدونة في أيامه . فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم ، ولا نسخة (عثمان ابن عفان)<sup>٢</sup> ولا النسخ التي دونت بأمره لتوزع على الأمصار ، ولا أية نسخ أخرى من النسخ التي دوتها الصحابة لأنفسهم . ولا نملك النسخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل إلى الملوك أو سادات القبائل والأمراء . نعم يقال إن هناك نسخاً من المصاحف ترجع إلى أيام الخلفاء ، وقد دون بعض منها بأقلام أجيال الصحابة ، وإن هناك بقية من رسائل الرسول وإن هناك كتابات يرجع تاريخها إلى أيام الرسول<sup>٣</sup> ، ولكن المتاخرين في العلم العارفين بكيفية ثبات أمغار الوثائق لم يتمكنوا من البت في صحة هذه الدعاوى ، ولم يقطعوا بصحة هذه الوثائق . لذلك فليس لنا أمام هذه الحجج التي أبدىت عن هذه الآثار سوى التحفظ والتوقف عن ابداء رأي فيها ، فعلل الأيام تهيء للقادمين من بعدها وثائق جديدة تعود إلى الأيام التي نبحث فيها .

هذا وإن الممكن التثبت في الوقت الحاضر من صحة الوثائق المنسوبة إلى أيام الرسول أو أيام من جاء بعده ، بعرضها على الفحوص المختبرية الحديثة ، التي باستطاعتها تقدير أمغارها ، وثبتت أسنانها ، ولكن لا أعلم أن أحداً عرض هذه الوثائق مثل هذه الفحوص .

هذا وللإvidence التي دونت عليها تلك الكتابات ولندرة الورق إذ ذاك ولغلاء ثمنه ، ولعدم ادراك الناس في ذلك الوقت لأهمية حفظ الوثائق ، ول تعرض تلك الوثائق إلى عوامل عديدة عن عوامل التلف والبلل مثل الحرائق والماء والأرضة وما شاكل

١ صبح الاعشى (٣/٧ وما بعدها) ، (المسلك الثاني في وضع الحروف العربية) .  
٢ ليس فيما يقال عن وجود نسخة عثمان من مصحف عثمان في « استانبول » أو في أماكن أخرى أساس من الصحة ، وإنما هو زعم من غير دليل .

M. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, Islamic Culture, Vol. 13, NUM : 4, 1939, p. 427.

ذلك ، دخل ولا شك في اختفاء الخطوط القدمة التي دونت في الجاهلية المتصلة بالاسلام وفي صدر الاسلام ، مما أضاع علينا فوائد كثيرة كنا سنتفع بها لو كانا نملك تلك الوثائق ، ولكن من يدري فعل الأ أيام ستعطف على الباحثين المساكين المتعطشين دوماً الى الوقوف على أخبار الماضين ، فتقديم لهم وثيقة او جملة وثائق تكون خير هدية هؤلاء ، لا يوازيها في نظرهم اي من الأثمان التي تقاس بالورق وبالجنيهات او الدولارات .

ولكنني أود أن أبين ان هذه الحقبة من الجاهلية المتصلة بالاسلام وكذلك أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين هي حقبة شحيحة جداً بالكتابات ، فما عن عر عليه من الكتابات فيها محدود ، مع أنها من أهم الأزمنة بالنسبة لنا لأنها ذات صلة وعلاقة مباشرة بظهور الاسلام . وينطبق ما أقوله هنا على كتابات المسند كذلك وعلى الكتابات المدونة باللهجات الجاهلية الأخرى ، ولجمعيتها أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ الذي يريد شرح تاريخ تلك الأيام التي ظهر فيها الاسلام . وفي جملة هذا التاريخ تاريخ تطور الخطوط العربية .

وإذا كان ما ذكره الدكتور ( م. حميد الله ) عن الكتابات التي وجدتها على الطرف الجنوبي لجبل سلع في المدينة المنورة ، والتي يرى ان تاريخها يرجع الى غزوة الخندق ، اي الى السنة الخامسة من الهجرة ، صحيحاً من الوجهة العلمية ، فإننا نكون أمام أقدم كتابات عر عليها حتى الآن بعربيه القرآن الكريم<sup>١</sup> . وهي سفید الباحثين ولا شك في التعرف على تاريخ تطور الخط العربي ، وعلى أساليبه . وربما يغير الباحثون في المستقبل على كتابات قد تكون أقدم من هذه أو من أيامها ، لأن البحث عن الكتابات والآثار بصورة منتظمة وعلمية لم يأخذ مجراه في الحجاز حتى الآن .

وأشار ( عثمان رسم ) Osman R. Rostem الى وجود كتابات بخط كوفي وبخطوط عربية أخرى في جبل سلع وفي وادي العقيق وعند جبل أحد وفي مواضع أخرى في مؤلفه عن الكتابات المدونة على الصخور في الحجاز ، لكنه لم يشر الى تاريخ تلك الكتابات ولم ينشر صورها كلها<sup>٢</sup> هنا وقد أشار غيره الى وجود هذه

M.Hamidullah, In Islamic Culture, Vol. 13, Num : 4, October, 1939, p. 427.

Rock Inscriptions in The Hijaz, Le Caire, MCMXLVIII.

الكتابات . إلا أن أكثر ما كتب عن هذا الموضوع ، لم يكتب بقلم أصحاب الاختصاص ولم يصور تصويراً جيداً أو يدرس دراسة علمية في مكان وجوده . ثم إن معظم الكتابات لا تزال مهملاً غير مصورة ولا مدقولة مستنسخة ، لذلك فإن إبداء رأي علمي عن أصلها وتطورها غير ممكن في الوقت الحاضر . ولعل الحكومة السعودية ستهتم بهذه الناحية المهمة ، فترسل إلى الباحثين العرب والمسلمين أو المستشرقين تستفيتهم في أمر هذه الكتابات . بعد أن تطلب من المتخصصين دراستها في مكانها وأخذ صور جيدة لها ، وطبع نسخ بواسطة الجبس أو بوسائل أخرى لهذه الكتابات ، ليكون من الممكن دراستها دراسة علمية .

### الإعجم والحرّكات :

ولا بد لي هنا من التعرض لناحيتين مهمتين من نواحي تطور الخطوط عند العرب . هما : الإعجم والحرّكات .

ويراد بالإعجم ، تقسيط الحروف المسمومة بشكل متقارب أو بشكل واحد ، لتمييزها بعضها عن بعض . وذلك لأن هذه الحروف مثل الباء والتاء والثاء، والجيم والراء والخاء، والدال والذال، والراء والزاء، والسين والشين ، والصاد والضاد ، والطاء والظاء ، والعين والغين ، والفاء والقاف ، إذا كتبت من غير نقط صار من الصعب على الإنسان التمييز بينها لأنها تكتب بشكل واحد ، فيلزم على القارئ عندئذ الرجوع إلى علمه في اللغة وسليقته في الفهم لإدراك المعنى ، لأنها بشكل ويرسم واحد . فالباء والتاء والثاء بل وحرفاً التون والياء أيضاً ، إذا كتبت في الكلمة ولا سيما في الوسط ، بغير نقط ، صار من الصعب تمييز هذه الحروف بعضها عن بعض ، وإدراك المعاني الصحيحة والمراد من الكتابة نتيجة لذلك . فلتغلب على هذه المشكلة أجمع علماء الخطوط بعض هذه الحروف ، بوضع نقط فوقها أو تحتها لتمييزها بعضها عن بعض ، وعرف هذا التقسيط بالإعجم<sup>١</sup> .

وقد وقع الإعجم في الإسلام على رأي أكثر العلماء . بعمل أبو الأسود الدؤلي

---

١ اللسان (١٢/٣٨٨) ، (عجم) ، صبح الاعشى (٣/١٥٥) ، مفتاح السعادة (١/٨٠).

والخليل بن أحمد الفراهيدي وآخرون في قصص لا علاقة لذكره في هذا المكان . وهو مكان خصص لأقلام الجاهلية . أما بالنسبة إلى الجاهلية ، فإننا لا نملك وثيقة معجمة . ونقش ( حَرَانُ الْلَّجَا ) المكتوب بعربي شمالي مشوبة بالبخطية ، حال من الأعجم أيضاً ، وكذلك النقش الأخرى المكتوبة بالبخطية المتأثرة بالعربية الشمالية . وهلنا فإني لا أستطيع الادعاء بأن الإعجم كان معروفاً بالقلم العربي المكي الجاهلي ولا بغيره من الأقلام العربية الجاهلية .

غير أن هناك رواية تنسب لابن عباس ، تزعم أن الثلاثة الذين هم من بولان من طيء ومن أهل الأنبار ، لما وضعوا الحروف وضعوا مقطعة وموصلة ، ثم وضع أحدهم وهو ( عامر ) الإعجمان<sup>١</sup> . أي ان العرب وضعوا الأعجمان في الوقت الذي اخترعوا فيه قلهم العربي ، وجاء في كتاب النشر في القراءات العشر : « ثم إن الصحابة رضي الله عنهم ، لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كل اللفظين المتقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلاله اللفظ الواحد على كل المعنين المعقولين المفهومين .. »<sup>٢</sup> . وفي هذا الخبر دلالة على معرفة الصحابة بالنقط والشكل .

وهناك خبر يرفع سنته إلى ( ابن مسعود ) ، يذكر أنه قال : « جوَّدوا القرآن ليربو فيه صغيركم ، ولا ينأى عنه كبيركم » . وقد شرح الزمخشري ذلك بقوله : « أراد تجريدته من النقط والقوافع والعشور لشلا ينشأ نشاء » فيرى أنها من القرآن<sup>٣</sup> . فيفهم من هذا الخبر أن التقطيط كان معروفاً ، وأن ( ابن مسعود ) عرفه ، وأنه رأى تجريد القرآن من النقط ليصرف الصغير منه في فهمه فيما عيناً وفي إدراكه إدراكاً صحيحاً عن دراسة ، لأن تجريده يحمل الطالب علىبذل الجهد في فهم غامضه ومشكله ومعناه فيرسخ فهمه في عقله ، أما إذا كانت الحروف معجمة ومشكلة ، فلا يجد الطالب ما يحمله على بذل الجهد وإجهاد نفسه لفهم القرآن . ففتقر همه عن فهمه ، ولا يبذل نفسه بذلاً مرضياً في تعلم كتاب الله .

١ الفهرست ( ص ١٢ وما بعدها ) ، ( الكلام على القلم العربي ) .

٢ ابن الجوزي ، النشر في القراءات العشر ( ٣٢ وما بعدها ) ، مصادر الشعر الجاهلي ( ٣٥ ) ، للدكتور ناصر الدين الأسد .

٣ الزمخشري ، الفائق ( ١٨٦ / ١ ) ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ( ٩٣ ) .

وخبر آخر يدل على وجود الإعجمان عند العرب ، رواه ( سفيان بن عيينة ) ،  
يفيد أن ( زيد بن ثابت ) نقط بعض الحروف<sup>١</sup> .

وورد أن بعض الباحثين عن الكتابات الإسلامية القديمة عثروا على آثار للنقط  
في بعض الوثائق القدمة . فقد ذكر الدكتور ( جروهمن ) انه وجد في وثيقة من  
وثائق البردي المدونة بالعربية واليونانية ويعود تاريخها إلى سنة ( ٢٢ ) للهجرة حروفاً  
منقطة<sup>٢</sup> . وهذا التقييط إن صح وثبت ، فإنه يدل على وجود التقييط في هذا  
العهد . كذلك ذكر ( مايس ) G. C. Miles انه وجد حروفاً منقوطة في كتابة غير  
عليها قرب الطائف يعود عهدها إلى سنة ( ٥٨ ) للهجرة<sup>٣</sup> . وإذا صح أن هذه  
النقط قديمة قدم الخط ، فإن معنى هذا أن الكتابة على الحجر قد عرفت التقييط  
أيضاً في هذا العهد قبله ، إذ لا يعقل أن تكون أول كتابة على الحجر استخدمت  
التقييط .

ونسب بعض أهل الأخبار الإعجمان إلى ( أبي الأسود الدؤلي ) ، كما نسبوا  
إليه النقط . وهو وهم وقعا فيه من عدم ادراكهم للعمل الذي قام به ( أبي الأسود )  
فظنوا أنه استعمل النقط في الحالين : في النقط الذي هو الشكل ، وفي النقط الذي هو  
الإعجمان . والذي عليه الجمهر أن الإعجمان كان من عمل ( نصر بن عاصم ) .  
فلا كثر الخطأ في قراءة القرآن بسبب عدم تمييزهم بين الحروف المشابهة ، وتتشابه  
وباء الجهل بعدم التمييز في القراءة بين الحروف المشاكلة ( فزع الحاجاج إلى  
كتابه ، وسأله أن يضعوا لهذه الأحرف المشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ،  
فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فرضح النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين  
أماكنها ، بتوجيه بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف ، فغير الناس بذلك  
زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ، فكان التصحيح مع استعمال النقط أيضاً يقع ،  
فأحدثوا الإعجمان ، فكأنوا يتبعون النقط بالإعجمان<sup>٤</sup> .

١ معاني القرآن ، للفراء ، ( ١٧٢ / ١ و ما بعدها ) .

٢ Grohmann , From the World of Islamic Papyri , PL. II , A , pp. 82, 113-114.

٣ G. C. Miles , Early Islamic Inscriptions Near Taif in the Hijaz ,

in JNES , 7 , 1946.

٤ ابن خلkan ( ١٢٥ / ١ ) ، تاريخ التمدن الإسلامي ( ٦١ / ٣ ) اللسان العربي ، ١٩٦٩ م

( ص ٥٢ ) .

وذكر أن (نصر بن عاصم) و (بيحيى بن يعمر)، وكانا من أخذوا العلم عن أبي الأسود الدؤلي<sup>١</sup> نقطا الإعجام بنفس المداد الذي كان يكتب به الكلام، حتى لا يختلط بمنقط استاذهما أبي الأسود، التي كانت بمداد مختلف المداد الذي كتب به الكلام. وقد انتشرت تلك الطريقة وأضاف إليها الناس علامه التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى، وزاد أهل المدينة التشديد فجعلوها قوسين يعلان فوق المشدد المفتوح، وتحت المكسور، وعن يسار المضموم، ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس، والكسرة تحت حدبته والضمة على شماليه، ثم استغناوا عن النقطة وقلوا القوس مع الضمة والكسرة، وأبقوه على أصله مع الفتحة. وزاد أهل البصرة السكون فجعلوه جرة أفقية فوق الحرف متصلة عنه<sup>٢</sup>.

وال المشكلة الثانية في العربية ، هي مشكلة الحركات ، أي كيفية النطق بمحروف الكلمة وبأواخر الكلم ليظهر المعنى حسب موقع الكلم من الاعراب . والعربية من اللغات العالمية التي احتفظت بخاصية الاعراب بينما تركتها لغات أخرى كانت لغات م ureبة في الأصل . لأن اهمال الحركات فيها يؤدي إلى وقوع أخطاء كبيرة في فهم معنى الكلام ، لذلك وجب التغلب على هذه المشكلة بوضع علامات تعبير عن الحركات .

وبسبب وجود هذه المشكلة في العربية ، هو أن أعلام العربية القديمة هي مثل الأعلام السامية الأخرى مؤلفة من حروف صامتة فقط ، ولا توجد فيها حروف تمثل الحركات ، تكتب في الكلمة . كما هو الحال في اليونانية وفي اللاتينية وفي الأبجدية الغريبة الأخرى المشتقة منها ، فيقرأ الإنسان الكلمة قراءة صحيحة بغير خطأ لوجود حروف الحركات مع الحروف الصامتة ، ويكتب كتابة صحيحة ، لأنه حين يكتب الكلمة ويلفظها يكتبها بمحروف صامتة وبمحروف الحركات . ويدرك أهل الأخبار أن العرب كانوا يفهمون معنى الكتابة بحدة ذكائهم وبطبعهم وسلبيتهم فلم يخطروا في فهم المعنى ، فلم يجدوا حاجة إلى الشكل ، فلما جاء الإسلام ، ودخل الأعاجم بكثرة فيه واحتلوا بالعرب واحتلوا بالعرب بهم ، فشا اللحن في الكلام ،

<sup>١</sup> الفهرست (ص ٦٨) ، (تسمية من أخذ التحوير عن أبي الأسود الدؤلي) ، « ويقال : أول من نقط المصاحف ووضع العربية أبو الأسود الدؤلي ، أبو الدليلي ، من تلقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، حكمة الآشراق (٨١) .

<sup>٢</sup> اللسان العربي ، ١٩٦٩ م (ص ٥٢) .

وظهرت الحاجة الى تقويم الألسنة فوضع أبو الأسود الدؤلي مبادئ النحو والشكل . أي علامات الحركات . وسلك الناس طريقته ووسع من جاء بعده جادة هذا العلم ، حتى صار من أهم العلوم عند العرب .

وعلينا أن نفرق بين التنقيط أي الإعجام عند العرب وبين التنقيط عند غيرهم من الشعوب السامية . فالتنقيط عند العرب هو لتوضيح الحرف . يعني تعينه وتبينه لتمييزه عن الحرف الآخر المشابه له . أما في اللغات السامية الأخرى ، فقد استعمل التنقيط فيها للتعبير عن الحركات . فالحركات في بعض اللغات السامية يعبر عنها بقطاطع توضح فوق الحرف أو تحته . كما استعملت الخطوط المستقيمة وما يشبه الضمة للتعبير عن الحركات عند بعض لغات أخرى . ولم يستعمل الإعجام أي تنقيط الحرف لتمييزه عن حرف آخر مشابه له إلا في القليل ، وذلك بسبب أن المروف عندها غير مشابهة كثيراً ، ولذلك فلا يلتبس أمر قراءتها على أحد ، فلم تظهر الحاجة فيها الى إزالة اللبس بالتنقيط . ومن هنا اختلف مبدأ التنقيط في العربية عن مبدأ التنقيط في اللغات السامية الأخرى .

والتنقيط في كلتا الحالتين أي في حالة استخدامه للتعبير عن الحركات ، أي الشكل ، او في حالة استعماله للإعجام ، أي لتمييز المروف المشابهة ، هو عمل متأخر عن الكتابة عند العرب وعند غيرهم . وسبب ذلك ان الكتابة صنعة اختص بها رجال الدين والعلماء والمتقوون ثقافة عالية ، وهم طبقة خاصة كانت فوق مستوى الجماهير ، وكان من مصلحتهم حصرها بأنفسهم وبأولادهم وجعلها صنعة خاصة بهم جهد الامكان . وعدم السماح لغيرهم من سواد الناس بتعلمها ومارستها . لأن جعلوا لها أدباً وقواعد وشروطاً يجب أن تتتوفر فيمن يمارس هذا الفن . جمعوها في ( أدب الكاتب ) أو ( أدب الكتاب ) . وكان في جملة قواعد هذا الأدب تصعيب الصنعة وتعقيدها حتى لا يطرقها إلا الذكي الأريب . وانحاز أفلام خاصة ، يكون لكل قلم قواعده وأصوله في رسم المروف ، وإهمال التنقيط أو الشكل ، لأن من مستلزمات الكاتب أن يكون فطناً يستربط المعنى بذكائه بربط الكلمات بعضها بعض . وهو ما يعجز عنه القارئ الكاتب الاعتيادي . فتجريده الكتابة من النقط والشكل امتحان يميز الكاتب العالم عن غيره من تعلم كيف يقرأ ويكتب وكفى . حتى لقد وقر في ذهنهم ان من ينقط الكتابة ويشكلها ويرسلها الى كاتب ، فكأنما أراد بذلك إهانته ورميه بالجهل والغباء ، إذ عني بهذا التنقيط والتشكيل ان

المرسل اليه لا يفهم المعنى إلا إذا نقطت له الكلمات ، فكيف الحال اذن اذا كانت الرسالة من هو دون من أرسلت اليه في المترلة والمكأة ، ومن رجل من طبقة سوية الى رجل أعلى طبقة منه . فكان من أدب الكتاب عندهم التردد عن مستوى القراء الكاتبين ، بترك النقط والشكل . كانوا يقولون : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » . نظر ( عبدالله بن طاهر ) خط كتاب وقع اليه ، فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه أي نقطه »<sup>١</sup> .

غير ان الحاجات دفعت بالناس ولا سيما بذوي الأعمال منهم الى التهاس أيسر الطرق وأبسطها في تدوين أمورهم . فاختزلوا الخطوط وبسطوها ودفعوا التعسر بالتسير . وكان من التيسير ، وضع علامات للحركات ونقط للإعجام . أما اليونان فصاغوا من الحركات حروفاً كتبوها جنباً إلى جنب مع الحروف الصامتة ، فحلوا بذلك أهم مشكلة من مشكلات الكتابة . وأما الشعوب السامية ، فاختذلت التنقيط والعلامات فوق أو تحت الحرف أو في داخله لتمييز بذلك حرفاً متشابهاً عن الحرف الذي يشابهه ، او لتعيين حركته . وأما الجشبية ، التي أخذت قلمها من المسند ، فاتبعت طريقة اليونان وتغلبت بذلك على المشكلتين وظهرت بذلك أقلام شعبية تنقط وتشكل ، استعملها السود ، أما أرباب العلم من الكتاب ، فقد أبوا كتابة الكتب المقدسة وكتب العلم والتراث خطوط السود ، وأبوا إلا الكتابة بالقلم القديم ، والمحافظة على الضبط القديم ، لأنه في نظرهم جزء من النصوص فلا يمكن اجراء أي تغيير عليها . أما ما سوى ذلك فدون بالأقلام الشعبية التي أوجدتها ضرورات التيسير وتطور الزمن .

وأغلب روایات اهل الأخبار أن الخط العربي الأول لم يكن مشكلاً . وأن الشكل إنما وجد في الإسلام . وكان موجده ( أبو الأسود الدؤلي ) المتوفى سنة (٦٩) للهجرة ، فاستعمل النقط بدل الحركات ، ثم أبدل ( الخليل بن أحمد الفراهيدي ) ، النقط برموز أخرى هي الفتحة والكسرة والضمة . ويرى بعض الباحثين أن نقط ( أبو الأسود الدؤلي ) ، هو على نحو النقط في الخط النسطوري السوري ، ويختملون تعلمه قاعدة التنقيط منهم<sup>٢</sup> . وكان عندهم نقط كبيرة

١ تاريخ التمدن الإسلامي (٣/٦٢) .

٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، ( - ١٩ ص ) .

توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعين الكلمة الواقع هو فيها: اسم هي أم فعل أم حرف . مثل قولهم : كتب ، فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب ، او فعلاً ماضياً معلوماً أو مجهولاً ، وكان عندهم ايضاً نقطه هي حركات وضعها يعقوب الراهاوي قبيل ذلك الزمن . وهي عبارة عن نقطه كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقطه مزدوجة ت庖 عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن آباً الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويريد ذلك انه لما أراد تنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الأسود : إذا رأيتك قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة فرقه على أعلاه ؛ وإذا ضمت في فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقطه ، والغالب ان يكتبوا بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجده في جامع عمر وبجوار القاهرة ، وهو من أقلم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حراء اللون ، فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحته كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها ابو الأسود<sup>١</sup> .

ويرى بعض المستشرقين أن ضبط الكتابة العربية قد بدأ به قبل الإسلام<sup>٢</sup> . وذلك لأن عرب العراق وعرب بلاد الشام كانوا يكتبون بالسريانية ، وقد عرفت السريانية مشكلة الشكل وعالجتها ، فلا بد وأن يكون العرب الذين أخذوا قلمهم من السريانية او النبطية المتأخرة قد وقفوا على المشكليتين فعالجوهما على نحو ما . وأود ان أبين بهذه المناسبة ان تنقيط (ابو الأسود) للحروف لم يكن اعجماماً، بل كان شكلاً ، اي ضبط حركة الحرف من حيث الضم او الفتح او الكسر او السكون حسب تكوين الحروف للكلمة . فهذا كان تنقيط (ابو الأسود النثولي)<sup>٣</sup> أما شكل الوقت الحاضر ، فهو من اختراع (الخليل بن احمد الفراهيدي) . ولذلك يجب علينا التفريق بين تنقيط (ابو الأسود) ، وبين الاعجم الذي هو

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٦٠ وما بعدها) ، الفهرست (ص ٦٦) ، الدراسات الادبية السنة الثانية ، العدد الاول ، ١٩٦٠ م ، (ص ٨٣) .

٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م (٢ ص ١) .

٣ الفهرست (٦٦) ، (في أخبار النحوين واللغويين وأسماء كتبهم) ، (الفن الاول) .

تنقیط الحروف المشابهة لإزالة اللبس بينها ، ثم التفريغ بين شکل ( ابو الأسود ) وبين شکل ( الخليل بن أحد ) واسع الشکل المتبع الآن ، لموت طريقة ( ابو الأسود ) ، في الشکل ، وتخصيص النقط بالاعجماء ، ومن هنا وقع البعض في ليس من أمر النقط والاعجماء ، فلم يفرقوا بينها . والصحيح هو ما قلته من ان النقط هو الشکل في الأصل ، فبهذا المعنى كان في أيام ( الدؤلي ) الى أن قامت الحركات التي هي الصمة والفتحة والكسرة مقام نقط الدؤلي ، فوجد الناس في الحركات سهولة مكتتهم من التفريغ بين اعجماء الحروف وتشكيلها ، فخصصوا النقط بالإعجماء والحركات بالشكل ، وبذلك زال اللبس الذي أدى الى وقوع أخطاء في فهم المراد من الإعجماء ومن الشکل الذي هو الحركات .

والتنقیط من الأمور التي كان يراعيها العبرانيون منذ القدم في قراءة التوراة . فقد كانوا ينقطون بعض حروف الكلمات لتبنيه القارئ الى أهمية الكلمة ولمكانتها المقدسة، وعرف هذا التنقیط بـ *Puncta extraordinaria* عند رجال الدين . فقد نقطوا لفظة ( عانقه ) في الآية : « فبادر عيسو وتلقاه وعانقه وألقى بنفسه على عنقه وقبله وبكيها »<sup>١</sup> ، ونقطوا لفظة ( فاحني ) ، من الآية : « والآن إن غفرت خطيبتهم ولا فاحني من كتابك الذي كتبت »<sup>٢</sup> ، ولفظة ( يمحوها ) في الآية : « فيكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ويمحوها بالماء المر »<sup>٣</sup> ، وقد فعل ذلك في الأنجليل أيضاً ، كما في لفظة ( حما ) الواردۃ في الآية : « وما الصك الذي كان علينا بموجب الأقضیة الذي كان هلاكتنا وأخذه من الوسط وسکرہ في الصليب »<sup>٤</sup> . ثم زاد علماء التوراة وكتابها زيادات أخرى في أصول التنقیط ووضع العلامات الخاصة على الحروف التي هي الإعجماء ، وصيروها علمًا خاصاً بالتوراة أشير اليه في ( السوفيريم ) وفي التلمود<sup>٥</sup> .

ونجد في ( انجيل متى ) اشارۃ الى التنقیط في الحروف ، جاء : « الحق أقول لكم : انه إلى أن تزول السماء والأرض ، لا تزول ياء أو نقطۃ واحدة من

١ سفر التكوین ، الاصحاح ( ٣٣ ) ، الآية ٤ .

٢ الخروج ، الاصحاح ( ٢٢ ) ، الآية ٣٢ .

٣ سفر العدد ، الاصحاح الخامس ، الآية ٢٣ .

٤ رسالة القديس بولس الى أهل كولونی ، الاصحاح الثاني ، الآية ١٤ .

Hastings, p. 979.

الناموس حتى يتم الكل <sup>١</sup> . وفي هذه الآية إشارة الى تدقيقاتهم في الكتابة، وتعيزهم بين حرف وآخر بالنقطة <sup>٢</sup> .

وكان كتاب الأنجليل والكتب المقدسة ، اذا أضافوا كلاماً من عندهم على النص ، او فسروا لفظة من ألفاظه ، كتبوه بخط ثجبن عريض ، ليتبين للقارى ان ما هو مدون ليس من صلب الكتاب المقدس ، وانما هو إضافة لتفسير او شرح <sup>٣</sup> .

وأود أن أبين ، ان موضوع النقط الذي هو الإعجام وموضوع الشكل من الموضوعات التي لم تدرس دراسة كافية علمية حتى الآن . وهما مما لا يمكن البت فيها الآن ، إلا إذا عثر على كتابات جاهلية عربية وعلى كتابات تعود الى أيام الرسول وما بعده ، وإلا بعد نشر ما ألفه العلماء عن النقط والشكل . فقد ألف العلماء في ذلك كتاباً ، أشار اليها ( ابن النديم ) ، فقال : « الكتب المؤلفة في النقط والشكل للقرآن : كتاب الخليل في النقط ، كتاب محمد بن عيسى في النقط ، كتاب البزريدي في النقط ، كتاب ابن الأنباري في النقط والشكل ، كتاب أبي حاتم السجستاني في النقط والشكل بمداول ودارات ، كتاب الدينوري في النقط والشكل » <sup>٤</sup> .

وهناك مؤلفات أخرى دونت في ( لامات القرآن ) <sup>٥</sup> ، وفي هجاء المصاحف <sup>٦</sup> ، وفي اختلاف المصاحف وأمثال ذلك <sup>٧</sup> ، تنبئنا كلها في تكوين رأي عن تطور الخط العربي في أوليات أيامه ولا سيما في صدر الإسلام .

وقد سار الخط العربي الشهالي على نسق أغليبية الخطوط السامية مثل الخط النبطي والإرامي والعربياني فاتجه من اليمين الى اليسار . ونظراً لوجود حروف منفصلة

١ الاصحاح الخامس ، الآية ١٨ .

٢ قاموس الكتاب المقدس ( ٤٣١ / ٢ ) .

٣ قاموس الكتاب المقدس ( ٣٥٢ / ٢ ) .

٤ الفهرست ( ص ٥٩ ) ، ( كتاب النقط والشكل ) ، للخليل بن أحمد الفراهيدي ، الفهرست ( ص ٧١ ) .

٥ الفهرست ( ٦٠ ) .

٦ الفهرست ( ٦١ ) .

٧ الفهرست ( ٦٠ ) .

وحرروف متصلة فيه ، دوّنت كتابة الكلمات فيه بالجمع بين النوعين من الحروف ، وبذلك سهل أمر الكتابة بهذا القلم ، وصار على غرار القلم النبطي في السرعة . وللتمييز بين الكلمات ، لم يستعمل الخطوط العمودية النازلة بين الكلمات للفصل بينها ، على نحو ما كان في المستند ، بل سار على طريقة النبط في وضع فراغ صغير مناسب بين كل كلمة وأخرى ، دلالة على انفصالها بعضها عن بعض . أما المستند ، فقد اشتهر عند علماء العربية بأنه خط حمر ، ولذلك قال له بعضهم ( الخط الحمري ) ، و ( القلم الحمري )<sup>١</sup> ، كما قال له المستشرقون فيما بعد . وهي تسمية مغلوطة على كل حال ، لأن الحميرين لم يكونوا أول من أوجد هذا الخط ، لقد سبّقهم في استخدامه السبيّيون والمعينيون وأقوم عربية أخرى ، وقد عرّفه بعض علماء العربية بقوله : « المستند : خط لحمير مختلف خطنا هذا ، كانوا يكتبونه أيام ملوكهم فيها بينهم ، قال أبو حاتم : هو في أيامهم إلى اليوم باليمن »<sup>٢</sup> . وقد ذكر ( ابن خلدون ) أن حمير كانت تمنع من يريد أن يتعلم المستند إلا يداذها<sup>٣</sup> .

والآبحاث التي قام بها الباحثون عن الخط العربي قبل الإسلام ، لا تزال في مراحلها الأولى ، ولا يمكن في نظري نصح هذه البحوث والوصول إلى نتائج علمية مرضية إلا إذا قام المتخصصون بالتنفيذ تقيياً علمياً في جزيرة العرب كلها ، وهذا ما يستقر بالطبع وقتاً طويلاً . ولا يستبعد أن يتوصل المتخصصون إلى معرفة أجدثيات وأقلام قد تكون أقدم عهداً من هذه الأقلام التي تحدثت عنها ، وقد يجدون أقلاماً أخرى جديدة تسمى بأسماء جديدة ، قد تغير من هذه النظريات العلمية التي تلوّكها أسسُ العلماء في هذا اليوم . فقد عثر على نصوص يظهر أنها بقلم ثمودي في موضع ( ينبع النخل ) الذي يبعد مسافة أربعين كيلومتراً عن ( ينبع )<sup>٤</sup> . كما وجدت كتابات بخطوط جاهلية وبخط عربي من صدر الإسلام في ( جبل سلع ) عند المدينة ، وفي ( وادي العقيق ) الذي لا يبعد كثيراً عن المدينة<sup>٥</sup> . وكذلك في ( وادي رانونا ) الواقع جنوب المدينة على مسافة ثمانين

١ اللسان ( ٣/٢٢٤ ) ، ( صادر ) ، ( حمر ) .

٢ مقدمة ابن خلدون ( ص ٣٤٩ ) .

٣ مقدمة ابن خلدون ( ص ٣٤٩ ) .

٤ Rock Inscriptions in the Hijaz, A Report by Osman R. Rostem, p. 2.

٥ Rostem p. 4.

كيلومترات ، حيث وجدت نقش صور حيوانات كذلك<sup>١</sup> . وفي (الصويرة) ، و (بستان شهار) ، وهو موضع يقع على مسافة كيلومترین جنوب الطائف ، حيث يذكر من رأه انه وجد فيه كتابات تظهر وكأنها كتابات يونانية<sup>٢</sup> . ووجدت كتابات بعضها بدائية او من شكل جديد في مواضع أخرى من الحجاز ، قد تكون أقلاً جديدة ، كتبت بلهجات لا نعرف عنها اليوم شيئاً .

لقد كان من الشائع بين الباحثين ان المنطقة الواقعة فيما بين المدينة والطائف منطقة فقرة بالكتابات ، ولكن عشرات بعض الباحثين على كتابات مُودية وعلى كتابات أخرى وفي ضمنها كتابات قديمة تمثل أقدم أنواع الخط الذي دون به القرآن الكريم ، قد مزق حجب ذلك الشائع ، وسوف يقف الباحثون ولا شك على كتابات أخرى جديدة في مواضع أخرى من الحجاز ولا سيما في الموضع الواقعة على طرق القواقل القديمة . وعندئذ سيزيد علمهم عن الأقلام العربية الجاهلية وعن علم الناس بلهجات العرب قبل الإسلام ، ولا سيما بلهجات أهل الحجاز لما في ذلك منفائدة في الوقوف على اللغة التي نزل بها الوحي .

هذا - وأعود فأقول - إن من الخطأ بجارة أهل الأخبار رأيهم في أن الكتابة العربية كانت قد نقلت أول ما نقلت إلى مكة ، ثم انتشرت منها إلى (يُرب) وإلى الأماكن الأخرى . إذ يروي أهل الأخبار أنفسهم أنه كان يشرب قبل الإسلام رجال كانوا يقرأون ويكتبون بهذا القلم ، ومنهم من كتب للرسول : وأما ما ذكروه من أن الرسول طلب من أسرى (بدر) من لم يكن يستطيع فداء نفسه ، تعلم عشرة أطفال من أهل يُرب القراءة والكتابة في مقابل ذلك أسرهم ، فليس فيه دليل على عدم وجود قارئين كاتبين بها ، وإنما فعل النبي ذلك لتكثير الكتابة فيها ، ولنشر التعليم بين المسلمين .

وقد أخطأ (ريجس بلاشير) في رأيه القائل : « لدينا مصادر أكثر قدماً ، تدفعنا إلى الاعتقاد بأنها كانت كثيرة الاستعمال في الطائف بعكس انتشارها في المدينة الذي لقي صعوبات » ، ثم قال في الملحوظة<sup>(٥)</sup> : « من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الطريقة الكتابية العربية » ، واستدل على الحالتين باستعانته

١ المصدر السابق .

٢ المصدر السابق (ص ١١) .

الرسول بأسرى بدر لتعليم المسلمين القراءة والكتابة ، لأن المصادر المحلية كانت غير كافية<sup>١</sup> . ولا أعرف شيئاً عن المصادر القدمة التي ذكر أنها تشير إلى كثرة الكتابة بالطائف ، عكس المدينة ، لأنه لم يشر إليها ، وإنما قال قوله عاماً ، لم يؤيده بذلك اسم المورد الذي استقرى رأيه منه . ولعله قصد ما ورد في حديث تدوين القرآن من أجعلوا الملي من قريش ، أو من هذيل ، والكاتب من ثقيف ، وهو حديث لا صلة له بقلة أو بكثرة انتشار الكتابة في مكان ، ثم إنه يتناول مكة كذلك ، كما يتناول المدينة ، ونحن لو أحصينا عدد من كان يكتب من أهل يرب من الصحافة لما وجدناه يقل عن عدد كتاب الطائف قبل الإسلام ، بل هو فوقه بكثير ، كما رأينا فيما سلف . أما قوله : من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الكتابة في يرب ، فيخالفه ما ورد في الأخبار من أن أحد يهود (بني ماسكية) كان يعلم أهل يرب الكتابة ، وتعلم أهل يرب الكتابة بالعربية ، لا يضر اليهود شيئاً ، حتى يقاوموا تعلمها ، بل ربما كان العكس هو الصحيح ، لأن في تعلمهم الكتابة والقراءة يجعلهم أقرب إلى التفكير والتأمل والاستقرار والميل إلى المدح والوقوف على الكتب من الجهة الأمين ، الذين تحكم العواطف والعنجهيات في عقولهم ، فتبعدهم عن حياة المدح والمسالة .

ولم يصل إلى علمي أن أحداً من الباحثين قد تذكر حتى الآن من الحصول على كتابات في العربية الجنوية مدوة بهذا القلم الذي نكتب به ، ولكن هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم استعمال أهل تلك البلاد له ، فقد يجوز أن يكونوا قد استعملوه في أمورهم التجارية وفي مراسلاتهم وأعمالهم الأخرى ، استعمال أهل مكة ويزب له ، إلا أنه لم تبق منه بقية بسبب كونه قد كتب على الأدم والمواد الأخرى السريعة التلف ، فلم تبق منه بقية ، شأن كتابات أهل مكة ويزب المكتوبة على هذه المواد . إذ لا يعقل عدم وصول هذا القلم إلى نجران والى صنعاء والى الأماكن التي وجدت النصرانية سبيلاً لها بينها ، وقد كان النصارى يكتبون به ، وهم من أهم العناصر التي أدخلته إلى جزيرة العرب .

إن القلم الذي دون به الوحي ، والذي صار بفضله القلم الرسمي للعرب ولعدد كبير من الشعوب الإسلامية ، حل في نفسه مثل أكثر الخطوط السامية وغيرها ،

نقاط ضعف ، عوّلّجت بعضها وتغلّب عليها ، كما في موضوع تشابه الحروف مثل الباء والثاء ، حيث تغلّب عليها بالتنقيط ، وكما في كيّفية التلفظ بالحرّكات ، حيث عولج بوضع علامات لها فوق او تحت الحروف ، ومثل حرف (المد) والتنوين ، وأمثال ذلك ، مما جعل قارئ الكتاب يلاقي صعوبة كبيرة في قراءة الخط وفي فهم المراد منه ، تجلّت في المحاوّلات التي ظهرت في صدر الاسلام لاصلاح هذا الخلل ، الذي ورد اليهم من نقلهم الخط نقلآً، دون اجراء اصلاح عليه ، ومع ذلك فلا تزال هناك مواطن ضعف فيه يجب التغلّب عليها ، نجدها مدونة في البحوث التي تقرّأها بين الحين والحين في موضوع إصلاح الخط العربي ، لا مجال لسردها ولسرد حججها وأدلةها في هذا المكان .

أصل الخط :

<sup>١</sup> صبيح الاعشى (٦/٣ وما بعدها) ، حكمة الاشراق ، للزبيدي (٦٤) ، (نواذر المخطوطات) .

<sup>٢</sup> عيون الاخبار ( للدينوري ٤٣ / ١ ) ، ( الكتاب والكتابة ) .

٣ ابن أبي أصيبيعة ، عيون الانباء (ص ٣٠ وما بعدها) ، (ابنجهبز) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٥ وما بعدها) .

أول من خاطث الثياب ولبسها<sup>١</sup> . وذكروا أنه عرف بـ ( هرمس المرامسة ) ، تمييزاً له عن ( هرمس الثاني ) ، وهو ( هرمس البابلي ) ، وعن ( هرمس الثالث ) ، وهو ( هرمس المصري )<sup>٢</sup> . وانه هو باليونانية أرميس وعرب بهرمس . ومعنى أرميس عطارد وانه بالعبرانية ( خنوح ) وعرب ( أخنوح ) . وسماه الله في كتابه العربي المبين ادريس . وان معلمه اسمه ( اغاثاذيمون ) المصري . الى غير ذلك من قصص<sup>٣</sup> نجده في كتب أهل الأخبار .

وهو في زعم أهل الأخبار ( أخنوح بن يارد بن مهلاطيل بن قينان بن أنوش ابن شيت بن آدم ) . ومولده مصر في مدينة ( منف ) . ووصفوه وصفاً كأنهم كانوا معه وقد شاهدوه وجالسوه ، فقالوا : « كان عليه السلام رجلاً آدم اللون تام القامة ، أجلع ، حسن الوجه ، كث اللحية ، مليح التخاطيط ، تام الباع ، عريض المنكبين ، ضخم العظام ، قليل اللحم ، برأس العن أكحل ، متأنياً في كلامه ، كبير الصوت ، ساكن الأعضاء ، اذا مشى أكثر نظره الى الأرض ، كبير الفكرة ، به حدة وعبة ، يحرك اذا تكلم سبابته »<sup>٤</sup> . وكان كبير الأسفار : زار الهند ، وجاء الى فارس وبابل . وعرف بـ ( ارميس ) عند اليونان . وهو د اسم عطارد . ويسمى عند اليونان أطربين<sup>٥</sup> . استخرج سائر الصنائع والفلسفة والطب<sup>٦</sup> . وهو الذي علم ( اسقلبيوس ) الطب .. وهو أول من تكلم في شيء من الطب على طريق التجربة وامام الطب ، وأبو أكثر الفلاسفة<sup>٧</sup> . « وأول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات التجوية ، وان جده كيورث ، وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار ، وهو أول من بنى المباكل ومجند الله فيها ، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه . وانه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة ، وأشاراً

١. ابن أبي أصيبيعة ، عيون الانباء ( ص ٣٢ ) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء ( ص ٥ وما بعدها ) .
٢. ابن جلجل ، طبقاء الاطباء والحكماء ( ص ٨ وما بعدها ) ، ابن القسطي ، تاريخ الحكماء ( ص ٢ وما بعدها ) .
٣. ابن القسطي ، طبقات الاطباء والحكماء ( ص ٢ ) .
٤. ابن أبي أصيبيعة ، عيون ( ٣١ ) .
٥. ابن أبي أصيبيعة ، عيون ( ٣١ ) .
٦. المصدر نفسه ( ص ١٢ ) .
٧. ابن أبي أصيبيعة ، عيون الانباء ( ص ٢٩ وما بعدها ) .

مزرونة وقواف معلومة بلغة أهل زمانه في معرفة الأشياء الأرضية والعلوية . وهو أول من أنذر بالطوفان ، ورأى أن آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار ، وكان مسكنه صعيد مصر ، تخير ذلك فبني هناك الأهرام ومدائن التراب ، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبني البرابي ، وهو الجبل المعروف بالبرابر بأختيم وصوار فيها جميع الصناعات وصناعها نقشاً ، وصور جميع آلات الصناع ، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده برسوم حرصاً منه على تحديد العلوم لمن بعده ، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم »<sup>١</sup> .

ونسبوا له النبوة والقول بالتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحض على الزهد والعدل والصيام أيامًا معروفة في كل شهر والجهاد على الأعداء وإيتاء الزكاة معونة للضعفاء ، وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة والحسار والكلب . وحرم المسكر من كل شيء من المشروبات ، وشدد فيه أعظم تشديد ، وجعل لهم أعياداً كثيرة ، وقربات . ورتب الناس ثلاث طبقات : كهنة وملوكاً ورعية . وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك ، لأن الكاهن أقرب إلى الله من الملك والرعية <sup>٢</sup> .

و ( هرمس ) من ( أرميس ) Ermis ، اسم إله من آلهة اليونان . ويقابل الإله ( تحوت ) Thot عند قدماء المصريين . وينسب المصريون إليه اختراع كل علم . ويقابل Mercurius عند الرومان . وهو ( عطارد ) عند العرب . وقد عرف عند المسلمين بـ ( هرمس المثلث النعم ) وبـ ( المثلث النعم ) ، وقد أخذ ذلك عن اليونانية ، إذ لقب فيها بـ ( طريسميجيسطيون ) Hermes Trismegistes ومعناه ثلاثي التعليم . وقد عربوه فجعلوه ( اطربين )<sup>٣</sup> . وقد وقف المسلمون على قصص قديم شاع بين البابليين والمصريين والبرتانيين واليونان والروماني والفرس عن أصل المعرفة وكيف ظهرت بين البشر ، فزجوا بينها وجمسماً لها في قصص ادريس . وفي جملة ذلك اختراع الكتابة ، فنسبوها إليه .

ولأهل الأخبار آراء في كيفية ظهور الكتابة عند كل أمة من الأمم . أخذوها من أهل الكتاب أيضاً ومن النصوص والأساطير . فذكروا مثلاً أن الله أرسل ملكاً

١ ابن أبي أسبيبة ، عيون الانباء ( ص ٣٢ ) .

٢ ابن القسطني ، تاريخ الحكماء ( ٥ وما بعدها ) .

٣ ابن جبلجل ، طبقات الاطباء والحكماء ( ص ٦ وما بعدها ) . Shorter Ency. p. 158.

اسمه ( سيمورس ) ، علم آدم الكتابة السريانية ، على ما في أيدي النصارى . ونفرعت منها ثلاثة أقلام ، وهي : المفتوح ويسمى اسطرنجالاً ، وهو أجلها وأحسنها ، ويقال له الخط الثقيل ونظيره قلم المصاحف . والتحرير المخفف ، ويسمى اسكوليتا ، ويقال له الشكل المدور ، ونظيره قلم الوراقين . والسرطا وبه يكتبون الترسل ، ونظيره في العربية الرقاع<sup>١</sup> . وذكروا ان أول من كتب بالفارسية ( جم الشيد بن اونجهان ) ( جمشيد ) ( جم شيد ) ، « وكان ينزل أسنان من طساسيج تستر ، فزعمت الفرس انه لما ملك الأرض ودانت له الجن والأنس وسخر له أبييس ، أمره ان يخرج ما في الضمير الى العيان فعلمه الكتابة<sup>٢</sup> . وزعموا ان أول من كتب بالعبرانية عابر بن شالخ ، وضع ذلك بين قومه فكتبوا به<sup>٣</sup> . وزعموا ان اليونان لم يكونوا يعرفون الخط حتى ورد رجلان من مصر ، يسمى أحدهما قيس والآخر أغنور ومعهما ستة عشر حرفاً ، فكتب بها اليونانيون ، ثم استبط أحدهما أربعة أحرف ، فكتب بها . ثم استبط آخر يسمى سمونيتس أربعة آخر ، فصارت أربعاً وعشرين<sup>٤</sup> .

ترى مما تقدم أن أهل الأخبار أخذوا أخبارهم المتقدمة عن نشوء الخط ، من أهل الكتاب ومن الأساطير المترسبة من القصص الساذج القديم الذي كان شائعاً عند الشعوب القديمة ، ثم صاغوه صياغة إسلامية، دون نقد ولا تمحيق ، ومراجعة لاستخراج عناصر السذاجة والخرافات منها ، وسبب ذلك أن مملكة التقدّم كانت هزلة عندهم ، وقد تقبلت كل ما سمعته من ( أهل العلم الأول ) دون تقدّم ولا تمحيق ، تقبلت حتى الخرافات والأباطيل المخالفة لأبسط قواعد المنطق والعقل .

### قلم النبط :

وقلم النبط هو على عكس الأقلام العربية الأخرى التي عرفناها ، وهي: المستند ، والقلم الشمودي ، والصفوري ، واللحاني ، قلم يرجع أصله الى القلم الذي يتعني اليه قلم بني لارم وقلم تدمر ، والى المجموعة السامية الشهالية للخطوط . وقد تطور

- 
- |   |                  |
|---|------------------|
| ١ | الفهرست ( ٢٤ )   |
| ٢ | الفهرست ( ص ٢٥ ) |
| ٣ | الفهرست ( ص ٢٨ ) |
| ٤ | الفهرست ( ص ٢٩ ) |

القلم النبطي ، كما تطور غيره من الخطوط ، فصار له قلم قديم وقلم متأخر ، امتاز بميله إلى ربط حروفه بعضها البعض ، حتى اكتسب شكلاً يمكن قراءة القلم العربي الشهالي من التعرف عليه بسهولة ، وبعد استعراض قليل له . وقد عمل مهندسو هذا الخط في تدريب بعض الحروف نحو اليسار ، حتى ابتعدت عن سمائها في الأبجدية الإرمية بعض البعد .

إن هذا التطور الذي مرّ به الخط النبطي ، يظهر لنا أن النبط لم يكونوا يقنعون بالأخذ والاقتباس ، وإنما كانوا يكيفون ما يتلقونه من غيرهم ويطورونه حتى يكتسب شخصية خاصة مستقلة .

هذا ولا بد لي من الإشارة إلى أن الألف في اللهجة النبطية قد تقوم مقام المءزة في أبجديتنا في بعض الأحيان ، وقد تقوم مقام المدة (ā) عند وجودها في وسط اللقطة وفي نهايتها . وقد يحمل محلها الحرفان الـ (و) والـ (ي) كما في (روفر) في موضع (رأفو) ، و (رأف) و (اروس) في موضع (أراس) . ولما كانت الألف من الحروف الساكنة في الأبجديات السامية في الغالب ، فاستعملها في موضع الألف المدودة وإحلال بعض حروف العلة في موضعها في النبطية وفي بعض الأبجديات السامية ، يدل على أن الأبجديات السامية المتأخرة نظرت إليها على أنها من حروف العلة المعبرة عن بعض الأصوات<sup>١</sup> .

وحرف الـ (ج) هو (كيمل) في الأبجديات السامية ، وهو قريب في النطق من الكاف (ك) (كاف) الفارسية . غير أن الكتابات النبطية المتأخرة استعملت هذا الحرف في مواضع كثيرة على نحو نطقنا بالجيم في عريستنا<sup>٢</sup> .

Nabataen Inscriptions, Leiden, 1914 ,p. 37 ff, in Publ. of the Princ. Univ.  
Archae. Expedi. to Syria, Section A Semitic Inscriptions, p. XXV.

١ المصدر نفسه .  
٢

## الفصل الثاني والعشرون بعد المئة

### المسندي ومشتقاته

والمسندي من الأقلام العتيقة ، وهو أعتق من القلم النبطي المتأخر ، وهو أقدم الأقلام التي عرفت في جزيرة العرب حتى الآن . وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة أن استعماله لم يكن قاصراً على اليمن حسب ، بل لقد كان القلم المستعمل في كل أنحاء بلاد العرب . وقد استعمله العرب في خارج بلادهم أيضاً، لأنه قلمهم الوطني الذي كانوا به يكتبون فغتر في موضع قصر البنات على طريق (قنا) على كتابات بهذا القلم ، كما عثر على كتابة بهذا القلم كذلك بالجيزنة كتبت « في السنة الثانية والعشرين من حكم بطليموس بن بطليموس » . وهي ليست بعد سنة (٢٦١) قبل الميلاد بأي حال من الأحوال<sup>١</sup> . وعثر على كتابات بالمسندي في جزيرة (ديلوس) من جزر اليونان<sup>٢</sup> .

---

Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 56, M.A.S .Tritton. Nous Signale deux Graffites, Publiéés par A. E. P., Weigall, Travels in the upper Egyptian Deserts, London and Edinbourg, 1909, PL. IV, Fig. 13, 14. H.A. Winckler, Rock Drawings of Southern upper Egypt. I, London, 1928, Site I, p. 4. Ryckmans, in Le Muséon, XLVIII, (1935) ,p. 228, J. Leibovich, Les Inscriptions Protosinaïtiques, Le Caire, 1934.

F. V. Winnett, « The Place of the Minaeans in the History of Pre-Islamic Arabia », in BOASOOR, Num : 73, February, 1939.

المساير المذكورة .

وذكر السائح الانكليزي (وليم كننت لوفتس) William Kennett Loftus انه لاحظ فجوة في (وركاء) Uruk في العراق ، فبحث فيها ، فتبين له أنها كانت قبرأً وجد في داخله حجر مكتوب بالمسند ، فيه : ان هذا قبر ( هتسر بن عيسو بن هتسر ) ١ .

ولهذه الكتابة المدونة بالمسند ، أهمية كبيرة جداً ، لأنها أول كتابة وجدت بهذا الخط في العراق . وهي تشير الى الروابط الثقافية التي كانت بين اليمن وال العراق ، والى وجود أشخاص في هذا المكان كانوا يستعملون المسند ، سواء أكانوا عراقيين أم يمنيين .

وقد عثر على كتابات بالمسند في مواضع من الحجاز ، ويظهر أنه كان قبل الحجازيين قبل الميلاد . وقد وصل هذا القلم الى بلاد الشام . فقد عثرت بعثة علمية قامت بأعمال الحفر في ميناء (عصيون كبر) Ezion Geber (عصيون جابر) على جرار عليها كتابات بمحروف المسند رأى بعض العلماء أنها معينة ، تنص عن الأثر العربي في هذا الميناء المهم الذي حاول سليمان أن يجعله ميناء اسرائيل على البحر الأحمر ٢ .

ويظهر من روایات أهل الأخبار أن غير أهل اليمن ، لم يكونوا يستعملون المسند في كتابتهم ؛ ولا يتعاطونه ، كالذى يستفاد من قصة (قيسية بن كلثوم السكوني ) ، وكان ملكاً وقع في أسربني عامر بن عقيل ، فذكر انه كتب بالسکین على مؤخرة رجل أبي الطمحان حنظلة بن الشرقي أحدبني القبن بالمسند ، يخبر قومه بوقوعه في الأسر . ولم يكن أحد من غير أهل اليمن يكتب بالمسند ،

Travels and Researches in Chaldaea and Susiana, by W. K. Loftus,  
London, MDCCCLVII, p. 233, Corpus Inscriptionum Semiticarum, IV,  
As NUM : 699.

لم يعن موضع المكان بالضبط ولا يبعد كثيراً عن (أيلة) على خليج العقبة ومنهم من يظن أنه كان عند موضع (عين الغديان) الذي هو على بعد عشرة أميال من البحر في قفر (وادي العربة) . وكان (خليج العقبة) على ما يظن بعض العلماء يمتد قدماً الى هذا الموضع ، قاموس الكتاب المقدس (١٠٦/٢) ،

Ency. Bibl., p. 1472, BOASOOR, NUM : 75, p. 19

NUM : 71, p. 15, Revue Biblique, XLVIII, 1939, p. 247, Asia, May, 1939,  
p. 294.

فلا قرأه القوم ، ساروا الى بني عامر ، وفتكتوا بهم ، وأنقذوا قيسية منهم<sup>١</sup> .  
 ورواية أهل الأخبار هذه لا يمكن أن تكون دليلاً على عدم وقوف غير أهل  
 اليمن على المسند في العهود البعيدة عن الإسلام . ولا على عدم استعمالهم لذلك القلم  
 في حياتهم اليومية . لأن علم أهل الأخبار بأحوال الجاهليين لا يرقى كما سبق أن  
 قلت الى عهود بعيدة عن الإسلام ، ولأن في أكثر الذي ذكروه عنهم ، قصص  
 ونسج خيال ، يستوي في ذلك حتى ما ذكروه عن الجاهلية الملاصقة للإسلام ،  
 ثم إن في الذي عبر عليه السياح من كتابات مدونة بالشمودية أو بأقلام أخرى  
 مشتقة من قلم المسند ما يفتض الرواية المذكورة في عدم استعمال غير أهل اليمن  
 للمسند وفي عدم وقوفهم عليه . ويمكن حمل كلامهم في عدم استعمال أهل المحاجز  
 أو غيرهم للمسند على أيام الجاهلية القريبة من الإسلام . حيث ظهر القلم العربي  
 الشمالي .

والرواية لا يمكن أن ترقى الى زمن بعيد عن الإسلام . فتحن نعلم ان  
 (حنظلة بن شرقى) المعروف بالطمحان ، وهو من (بني القين بن جسر)<sup>٢</sup>  
 كان شاعراً فاسقاً من المخضرمين . وكان نديعاً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية ،  
 ثم أدرك الاسلام<sup>٣</sup> ، ولو صدقنا الرواية المذكورة وأخذنا بها ، وجب ان تكون  
 الكتابة قد وقعت قبيل الاسلام ، ومعنى ذلك ان (قيسية) وهو من (بني السكون)  
 كان يكتب بها ، أي ان المسند كان معروفاً ويكتب به خارج اليمن في هذا  
 العهد ، وهذا يكون قول (الاصبهاني) : « وليس يكتب به غير أهل اليمن » ،  
 مغلوطاً ، لأن (قيسية) لم يكن من أهل اليمن ، حتى يصح قوله .

وكشفت العروض ونبأ واماكن أخرى عن سر كان العلماء يبحثون عنه في  
 شوق ، فقدأت للعلماء عدداً من الكتابات المدونة بالمسند ، وبذلك ثبت علمياً ان  
 (المسند) كان معروفاً قبل الاسلام في كل جزيرة العرب ، وربما كان القلم العام  
 للعرب قبل المسيح ، اي قبل ظهور أقلام أخرى ولدت على ما يظن بعد الميلاد .  
 ففي سنة ١٩١١ للميلاد عبر (الكاتب شكسبير) Capt. W.H. Shakespear<sup>٤</sup> على

١ (وليس يكتب به «أي بالمسند» غير أهل اليمن) ، الاغاني (١٢٥/١١) .

٢ الاشتقاد (٣١٧) .

٣ الخزانة (٢٢٦/٣) ، الشعر والشعراء (٣٠٤/١) ، المؤتلف (١٤٩) ، الاغاني

(١٢٥/١١) ، السوط (٣٣٢) .

BOASOOR. Nub. 102, (1946), p. 4 .

كتابتين بالمسند في موضع ( حنا ) ( الحناء )<sup>١</sup> وفي خرائب ( ثج ) ( ثأج ) التي تبعد خمسين ميلاً تقريباً عن ساحل الخليج وزهاء مئة ميل من شمال غربي القطيف<sup>٢</sup>. وقد نشر ترجمة الكتابتين (ماركليوث)<sup>٣</sup>. وعُثر بعد ذلك على كتابة أخرى في موضع ( ثج ) ( ثأج ) دخلت في ملك أمير الكويت ، وقد نشر ترجمتها ( ركمنس )<sup>٤</sup>. وهي حجر قبر لشخص من قبيلة ( شذب ) . وعُثر على كتابة أخرى في هذا الموضع ، وقد بلغ عدد ما عُثر عليه في هذا المكان أربع كتابات<sup>٥</sup>.

وعُثر عمال شركة البترول العربية السعودية الأمريكية ( أرامكو ) في أثناء الحفر على مقربة من ( عين جوان ) ( جوان )<sup>٦</sup> عام ١٩٤٥ للميلاد على حجر مكتوب تكسرت بعض أطرافه بالماuel قبل معرفته ، اتضحت بعد أنه حجر قبر لامرأة يقال لها ( جشم بنت عمرت ) ( عمرت ) بن تحيي من أسرة ( عور )

١ ( حنا : لعل صوابها الحناء ، واحدة الحناء بتسهيل الهمزة كما هي عادة عرب هذا الزمان في الكلمات المهزوة . والحناء : موضع يقع غرب بلدة الجبيل - المعروفة قدماً باسم ( عينين ) الواقعة على البحر الشرقي ( الخليج الفارسي ) . وتبعد الحناء عن الجبيل ٨٣ كيلومتراً ، وتقع على مر الطريق منه ومن الظهران والاحساء ولن يقصد الكويت أو العراق أو نجداً ) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م ، ( عينين ) ، البلدان ( ٢٥٨ / ٦ ) .

٢ ( ثاج بالجيم : قال الغوري : يهمز ولا يهمز عين من البحرين على ليال . وقال محمد ابن ادريس اليمامي : ثاج قرية بالبحرين ) ، البلدان ( ٢ / ٣ ) ، ( ثج ) ، وهي التي وردت في الشعر العربي القديم . وفي ياقوت مهزوة . ولكن العرب في هذا العهد لا يهمزونها . وثأج : موضع فيه سكان وزروع قليلة ، يقع بقرب الحناء في الجنوب الغربي منها بمسافة لا تتجاوز عشرة كيلومترات ) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ ، البكري ، معجم ( ٣٣٣ / ١ ) .

٣ Douglas Crruthers , « Captain Shakespear's Last Journey » , in the Geographical Journal , LIX , ( 1922 ) , 321-323 , Corpus Inscriptionum Semiticarum ,

Nos. 984 - 985.

Ryckmans , in Le Muséon , L , p. 239 , Ryckmans 155.

Le Muséon , L , p. 237 , Ryckmans 155.

٤ ( عين جوان - الصواب : جوان ) ، ويقع موضع جوان في داخل الرأس المعروف حديثاً باسم ( رأس تنورة ) في الجهة الشمالية منه على ساحل البحر ، بعد مدخل الرأس ببضعة كيلومترات . وكانت عينه تسقي نخيلاً وزروعه ولكن ماءها قل ، حتى زالت مزروعاتها . كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م .

(آل عور) من قبيلة شذب<sup>١</sup>.

واستخرج (كورنول) P.B. Cornwall لوحًا مكتوبًا بالمسند كان مدفوناً في أحد بساتين القطيف ، دفنه أصحاب البستان ، وقد ذكر أنه نقل من جزيرة (ثاروت) أو من موضع لا يبعد كثيراً عن القطيف ، وقد وجد أن هذا اللوح هو مثل الألواح التي عثر عليها قبلًا ، شاهد قبر ، وضع على قبر رجل يقال له (إيليا بن عبيبي بن شصر من أسرة سهم من عشيرة ذات من قبيلة شذب)<sup>٢</sup>. ويرى بعض الباحثين أن صاحب القبر كان نصراوياً ، عاش في القرن الخامس أو السادس للميلاد.

وعثر على شاهد قبر آخر مدون بالمسند ، هو شاهد قبر (شمام بنت صحار ابن عنهل بن صامت) من قبيلة (يدعب) ، وجد على مقربة من القطيف<sup>٣</sup>. و(يدعب) بطن من بطون قبيلة (شذب). ويظهر أن قبيلة (شذب) كانت من القبائل المعروفة في العروض ، وكانت ذات عدد من البطون ، ولا تحمل الكتابة تاربخاً ، ويرى الذين درسوها أنها تعود إلى القرن السادس للميلاد . وأما الرقم الذي ذكر في نهاية النص وهو رقم (٩٠) ، فالظاهر أنه يشير إلى عمر صاحبة القبر<sup>٤</sup>.

هذا ما عثر عليه من كتابات بالمسند في العروض . وأما في أواسط جزيرة العرب وفي باطنها وفي الأماكن التي لم يكن يتصور العثور فيها على أثر لحضارة ، فقد عثر فيها على كتابات بهذا القلم كذلك ، وهذه الكتابات أهمية كبيرة ؛ لأنها أول وثيقة تاريخية لا يتطرق إليها الشك ، ترد علينا عن هذه المناطق التي لم يرد لها ذكر مفصل عند المؤرخين السابقين ، لأنها أول دليل على يثبت انتشار هذا الخط في أواسط جزيرة العرب . عثر (فابي) في هذه المناطق على فخار وآثار

BOASOOR, NUM : 102, April 1946, p. 4, « A Himjaritic Inscription from the Persian Gulf Region », by F.V. Winnett, BOASOOR, Supplementary Studies Nos. 7-9, « The Early Arabian Necropolis of Ain Jawan », by Richard Lebron, 1950.

Geographical Journal, Vol. CVII, 1-2, 1946, « Ancient Arabia : Explorations in Hasa, 1940-1941 », by P.B. Cornwall, p. 44.

١ المصدر نفسه (ص ٤٥) .  
٢ المصدر نفسه .

أرسلها الى المتحف البريطاني ظهر انها تعود الى القرن الثاني قبل الميلاد . ويبطن من فحصها انها من آثار السبعين<sup>١</sup> . كما عثر على كتابات وصور ، وبقايا مقابر وعظام .

وقد صور (فلي) بعض الكتابات ، وصور بعضاً آخر رجال شركة البترول العربية السعودية الذين وصلوا الى هذه المواقع للبحث عن البترول . وقد وصلت تصاوير عدد منها الى العلماء فنشروا نصوصها وترجمتها ، مثل كتابات (القرية) او (قرية الفاو) التي سبق أن تحدثت عنها . وقد وجد اسم الصنم (ود) مكتوباً بحروف كبيرة بين تلك الكتابات<sup>٢</sup> ، وحيث أن هذه الكنوز الثمينة إنما عثر عليها ظاهرة على سطح الأرض ، وحيث أن الباحثين لم يفحصوا الكهوف فحصاً دقيقاً ، ولم يتطرقوا من الأربعة والرمال التي في داخلها ، فإننا نأمل العثور على أشياء ثمينة ذات بال بالنسبة للتاريخ الجاهلي إذا اهتمت الحكومة العربية السعودية بهذا الأمر ، وقامت بتجهيز بعثة علمية من المتخصصين بالأثريات العربية ، أو سهلت للعلماء والبعثات سبل الوصول اليها ، وحافظت على تلك الآثار من التلف وبعث العابثين .

ووجد (فلي) كهوفاً ومقابر في مواقع أخرى من (وادي الفاو) ، وقد وجدت حيطان بعض الكهوف (سردب) (سردب) مكسوة بالكتابات (والوسم) وال تصاوير المحفورة . ويظهر أن أبنية ضخمة كانت في هذه الأماكن<sup>٣</sup> .

وعثرت شركة (أرامكو) على رأس نحت من الحجر في (القرية) كتب عليه بالمستند أنه (ثار ونقسي عازن بن قلنونين)<sup>٤</sup> ، أي (اثر وقر عازن ابن قلنون الغلوني) . كما وجدت كتابات بهذا القلم عند جبل عبيد وفي حصن ناطق وفي شمال موضع (خشم كملة) على مسافة (١٠٠) كيلومتر من شمال قرية

<sup>١</sup> « A Further Journey across the Empty Quarter », by W. Thesiger,  
in Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 21.

<sup>٢</sup> Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 91.

<sup>٣</sup> Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 90, Le Muséon, LXII, 1-2, (1949),  
p. 87.

<sup>٤</sup> Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 87, Qariya, I, Philby 221a.

الفأو في وادي الدواسر<sup>١</sup> ، وفي ( وادي هبن ) ( جبن )<sup>٢</sup> على ( ١٢٠ ) ميلاً شمال شرقى عدن<sup>٣</sup> . وفي ( عين قرية ) على ( ٣٠ ) ميلاً تقريباً من شمال ( زفر ) وفي ( منخل ) في جنوب خشم العرض حيث يعتقد البدو أن هذا الموضع هو بشر من آثار عاد<sup>٤</sup> .

لم يفسر علماء العربية سبب تسمية ( المسند ) مسندأً ، وقد قرأت لإسرائيل ولفسون تعليلاً لتسمية هذا القلم مسندأً ، فقال : « والخط المسند يميل إلى رسم الحروف رسمأً دقيقاً مستقيماً على هيئة الأعمدة . فالحروف عندهم على شكل العمارة التي تستند إلى أعمدة . وعلى العلوم فإن لخماره جنوب بلاد العرب عقلية ت نحو نحو الأعمدة في عمارة القصور والمعابد والأسوار والسدود وأبواب المدن .

ومن أجل ذلك يوجد عندهم ميل شديد لإيجاد حروف على هيئة الأعمدة ، أي ان الحروف كلها عبارة عن خطوط تستند إلى أعمدة .

وقد تنبه علماء المسلمين إلى شكل هذه الكتابات وأطلقوا عليها لفظة المسند ؛ لأن حروفها ترسم على هيئة خطوط مستندة إلى أعمدة » .

وهو رأي سبقه إليه ( ليذبارסקי ) Lidzbarski إذ أشار إلى أثر العمارة والأعمدة في شكل هندسة حروف الخط المسند<sup>٥</sup> وهو تفسير يشبه تفاسير الأخباريين واللغورين للأسماء والأعلام التي لا يعرفون من أمرها شيئاً ، فيلتجاؤن إلى الخيال ليستكروا لهم سبيلاً وتعليقلاً يناسب الكلمة، ويتصورون عندئذ أنهم قد أوجدوا السبب، وأن من يأتي بعدهم سيكتفي بذلك ويأخذ به .

وكذلك كونت الكلمة ( المسند ) في مخيلة ( إسرائيل ولفسون ) ولدى ( ليذبار斯基 ) فكرة استناد خطوط الحروف وقيامها بعضها إلى بعض استناد المبني ،

١ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 99, Philby, Wadi Dewasir, I,

٢ هكذا ورد في مجلة ( Le Muséon ) ( هبن ) ( Haban ) بدون نقطة أو علامة تحت حرف H تدل على أنه ( حاء ) . ولعل الكلمة ( العبن ) ، وهو موضع ذكره الهمданى في صفة جزيرة العرب ( ص ٦٨ ) .

٣ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 103.

٤ Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 31, 34.

٥ تاريخ اللغات السامية ( ٢٤٣ وما بعدها ) .

Lidzbarski, Ephemeris, I, S. 114, Hommel, Grundriss, Erste Halfte, S. 146.

وقد وجدا من مباني اليمن وقصورها ما قوى هذا الخيال عندهما ، مع ان كلمة (المستند) التي تطلق في المؤلفات العربية الاسلامية على خط أهل اليمن قبل الاسلام لا علاقة لها بالقصور والمباني ، واستناد أجزاء الحرف الواحد بعضها الى بعض ؛ وإنما تعني شيئاً آخر ، تعني خط أهل اليمن القديم لا أكثر ولا أقل . وكلمة (مستند) (مزند)<sup>١</sup> في العربية الجنوبية تعني ( الكتابة ) مطلقاً ، وقد وردت في مواضع متعددة من الكتابات والتقوش ، فورد في نص أبرهة مثلاً ( سطرو ذن مزندن ) ، وترجمتها : ( سطروا هذه الكتابة ) ، وتؤدي كلمة (سطرو) المعنى نفسه الذي يرد في لغتنا ، وهو : (سطروا) ، اي كتبوا ودوّنوا ، فكلمة (مزندن) التي صارت (المستند) في عربتنا تعني في العربية الجنوبية ما تعنيه كلمة الخط او الكتابة في لغة القرآن ، ولم تكن مخصصة عند اليانين بخط حبر ، او غير حبر ، وإنما حدث هذا التخصيص في المؤلفات الاسلامية فصار فيها (المستند) اسم علم لخط حبر وحده . ولا ندرى مني حدث ذلك : أحدث في الجاهلية المتصلة بالاسلام أم في الاسلام ؟

وإذا كان هذا التخصيص قد وقع في الاسلام ، فإننا لا نستطيع أيضاً التكهن عن الوقت الذي ظهر فيه هذا التخصيص ، لأننا لا نملك مصادر اسلامية تشير الى هذا ولا مؤلفات من صدر الاسلام ع垦 ان نجد فيها ما نبحث عنه .

ويتألف المستند من تسع وعشرين حرفاً، وأبجديته مثل الأبجديات السامية الأخرى من حيث أنها تتألف من الحروف الصامتة ولا حركة في الكتابة فيها ولا ضبط في أواخر الكلمات ولا علاقة للسكون او التشديد . وبفصل بين الكلمة والكلمة التي تليها فاصل هو خط مستقيم عمودي . وقد يكتب الحرف المشدد مرتبة كما في اللغات الأوروبية .

وما يلاحظ على الكتابات المعينة انه لم يطرأ عليها تغير كبير في المهد الذي مرت بها . أما الكتابات السبئية ، فيمكن التمييز بين القديم منها والمتاخر في الأسلوب ، وفي شكل الكتابة<sup>٢</sup> .

١ بعرف الزاي في لغة أهل اليمن لا السين .

٢ غوريدي : المختصر في علوم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، القاهرة ، ١٩٣٠ ، (ص ٣)

Höfner, Altsüdarabische Grammatik, Leipzig, 1943, Weber, S. 12,  
Pfannmuller, S. 86, Mordtmann, Beiträge zur Minäischen Epigraphik,  
Weimar, 1896.

وللمستند ميزات امتاز بها عن القلم العربي ، فحروفه منفصلة ، وهي بشكل واحد لا يتغير بتغير مكان الحرف من الكلمة . فإذا جاء الحرف في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها ، كتب بشكل واحد . وقد جعلت هذه الخاصية لهذا القلم ميزة أخرى ، هي ميزة الكتابة به من أي جهة شاء الكاتب ان يبدأ بها . فله ان يكتب من اليمين الى اليسار وله أن يكتب من اليسار الى اليمين ، وله ان يعزز بين الطريقتين ، بأن يكتب على الطريقة الخلزونية ، من اليمين الى اليسار ، ثم من اليسار الى اليمين ، ثم من اليمين الى اليسار ، أو العكس ، وله أن يكتب من أعلى الى أسفل أو العكس وهكذا ، ثم ان حروفه غير متشابهة لذلك لم يعرف المستند الإعجماء ، ولو كتب له ان يكون قلم المسلمين ليشر لنا اليوم وقتاً واماً في موضوع الطباعة به . ولكنه أبطأ في الكتابة نوعاً ما من الخط العربي لشكل حروفه الصخمة بالنسبة الى الحروف العربية المختلفة ، فالخط العربي يمتاز عليه بهذه الناحية فقط . أما موضوع الشكل ، فالمستند غير مشكول، بل يكتب بحروف صامتة فقط .

وفي القرن التاسع عشر وما بعده كشف المستشرقون النقاب عن أفلام أخرى لم يعرفها علماء العربية ، هي : القلم الشمودي ، والصفوري ، واللحياني . وكتابات أخرى كتبت بلهجات محلية غير عليها في الجوف ، وفي الحجر وفي العلا ، وفي مناطق أخرى كجبل شيهان ، وكوكبان ، وجبل شتر ، لها بعض الخصائص والمميزات اللغوية . والظاهر ان خط هذه الكتابات كان مستعملاً بين السود في الأمور الشخصية<sup>١</sup> .

أما القلم الشمودي ، فقد عثر على كتاباته في العربية الفربية ، وفي الجمهورية العربية السورية وفي المملكة الأردنية المهاشية وفي الحجاز ، فقد عثر على كتاباته في مواضع متعددة من الحجاز ، فيها بين المدينة ومكة وعلى مقربة من الوجه والطائف ، وفي ( ربيع الزلالة ) عند السيل الكبير على طريق الطائف

Grundriss, I. S. 147, Transaction of the 9th Inter. Congr. of Orientalists,  
Vol. I, p. 86, (London), 1893, Über die Protoarabischen Inschriften, in Aufs  
und Abh., S. 41, 161, Saudarabische Chrestom., S. 6, Lady A. Blunt,  
A Pilgrimage to Nejd, London, 1881, Vol. 2.

مكة<sup>١</sup> . وعثر على كتابات ثمودية في (حائل) وأماكن أخرى من نجد وفي اليمن . وفي هضبات شبه جزيرة سيناء<sup>٢</sup> .

هذا وقد عثر على كتابات ثمودية كثيرة في (ربع الزلاة) (سيل الغربان) ، إلى الشمال من الطائف على مسافة أربعين كيلومتراً منها<sup>٣</sup> . وفي وادي (الاب)<sup>٤</sup> ، وفي مواضع أخرى من الحجاز ونجد ، مما يدل على انتشار التموديين في مواضع واسعة من جزيرة العرب .

وأما القلم الصفوي ، فقد عثر عليه في منطقة الصفا شرقى الشام ، وفي بادية الشام ، ولا يعني هذا أن هنالك قبائل كانت تسمى قبائل صفوية ، بل هو اصطلاح أطلقه المستشرقون على الخطوط التي وجدت في ناحية الصفا ، وهي تشتمل على كتابات قريبة من كتابة لحيان وثمود . كما عثر على كتابات صحفوية في مواضع من بادية العراق ، ويوجد عدد منها في ملك مديرية الآثار القدمة العامة في العراق<sup>٥</sup> . كما عثر على عدد كبير منها في المملكة الأردنية الهاشمية . وقد نشرت نصوص بعض منها في جريدة الآثار للملكة الأردنية الهاشمية<sup>٦</sup> .

والموطن الرئيسي للكتابات اللحيانية هو منطقة العلا ، ولا سيما موضع (الخربيبة) والصخور الواقعة إلى شرقه ، حيث عثر فيها على مئات من الكتابات التي تعود

١ (عقبة الزلاة ، الواقع بين مكة وبين الطائف ، وهي تالية ينحدر منها القادر من الطائف على السيل الكبير) ، الموضع المعروف قد يسمى باسم (قرن النازل) وتبعده عن هذا الموضع خمسة كيلومترات تقريباً وتقع في شرقه ، وتسمى الآن (الريع الصغير) . وقد شاهدت بقربها بينها وبين السيل الكبير جبلًا فيه كتابات كوفية قديمة . وحدثت بآن (فلبي) رأى في تلك الجهة تماثلاً من الصخر منحوتاً في الجبل يمثل رجلاً واقفاً ، وانه اطلع على كتابات قديمة في تلك الجهة ) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣٥٠ نوفمبر ١٩٥٠ م ،

٢ نقش سامي قديمة من جنوب بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٤٣ م ، (ص ١٠٩) ، E. Littmann, Entzifferung der Thamudischen Inschriften, 1904, Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems, Die Althamudische Schrift, Münster, 1926.

٣ A. Grohmann, Arabic Inscriptions, Louvain, 1962, p. 2.

٤ كتابات من الأدب ، للدكتور عبد الرحمن الانصاري ، مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض ، المجلد الأول ، السنة الأولى (١٩٧٠) ، (ص ١١٣ وما بعدها) .

٥ راجع نشرات مديرية الآثار القديمة في العراق ومجلة سومر . Annual of the Department of Antiquities of Jordan.

الى شعب لحيان<sup>١</sup> .

والأقلام الصفرية والثمودية واللحيانية ، مثل المسند ، ليس لها علامات لا الفتح ولا للكسر ولا للضم ولا للأشاعر ولا لاتخاد الفتحة والواو والباء ( أي الإمالة Diphthong ) الخ ... كما ان حروفها تأخذ صوراً متعددة ، فيرد الحرف الواحد في كل قلم من الأقلام المذكورة بصور مختلفة ، ولذلك تجاهبنا صعوبات كبيرة في محاولتنا قراءة الكلمات والجمل قراءة صحيحة. ويحتاج القارئ الى مران طويل ودراسات للهجرات العربية الأخرى لضبط الكلمات في هذه اللهجات، ومعرفة معانيها .

وقد لاحظ المستشركون مشابهة كبيرة بين الأقلام المذكورة وبين المسند ، كما وجدوا هذه المشابهة بين عدد من الأقلام التي استعملت في غير جزيرة العرب والمسند، وبعد مقابلات بينها ودراسات ذهبا الى تفرعها من المسند . وهذه الأقلام المذكورة كلها متأخرة عن المسند ، وتعود تواريخ قسم منها الى ما قبل الميلاد ، ومنها ما يعود تاريخه الى ما بعد الميلاد .

وما يلاحظ على هذه الأقلام اختلاف صور أكثر الحروف فيها ، فقد تكون للحرف صورتان ، وأحياناً ثلاث صور أو أكثر ، غير أن هذا الاختلاف ليس كبيراً في الغالب بحيث يتعذر معه تمييز أشكال الحرف الواحد ، ولا نجد فيها الوضوح والبساطة التي نجدها في المسند ، كما لا نجد فيها هذه الخطوط المستقيمة المقوسة بدقة وعناية في الكتابات المعينة او السببية او الحضرمية او القتبانية او الحميرية ، فكان كتابهم كانوا يرون العجلة في الكتابة والاسراع في التسطير لضيق الوقت ، لذلك لم تكن حروفهم دقيقة واضحة .

وأما الأقلام التي تشبه حروفها المسند . واستعملت عند أقوام عاشوا في أقطار لم تكن من جزيرة العرب ، فنها القلم الجبشي القديم ، وقد عثر على كتابات به في منطقة ( يحا ) ( بها ) Jeha ، وهي تحمل أقدم نماذج الكتابات الجبشية، وقلمها هو القلم السبئي القديم ، وفي ( اكسوم ) وتعود الى القرن الرابع للميلاد<sup>٢</sup> ،

Ency. Vol. 3, p. 26, Müller, Epigraphic Denkmäler aus Arabien, XXXVII,

1889, Jaussen and Savignae Mission Archéologique en Arabie, I, Paris,  
1909, p. 263, Vol. II, p. VIII-XIV, 27-77, 361-534, Lidzbarski, Ephemeris fur  
Semit. Epigraphic, II, 23-48, 345-361, III, 214-217, F.V. Winnet, A Study of  
Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto, 1937.

السامية ( ٢٥٧ ) . Grundriss, I, S. 148.

وكتابات نصرانية كتبت باللهجة (الجعزية) وتعود إلى القرن الخامس للميلاد<sup>١</sup>. وقد استعملت في هذه الكتابات الجعزية الأصوات مع الحروف ، وبذلك اختلفت عن الأبجدية السامية التي استخدمت الحروف الصامتة حسب ، وذلك بإضافة شيء يشبه الحركات في صلب الحروف يقرأ معها ولا تفهم هي بدونها<sup>٢</sup> . ومع ذلك احتفظت بالأشكال الأصلية للحروف العربية الجنوية ، ولم تبتعد عنها كثيراً . ويمكن إدراك أثر المستند في الكتابة الحبشية المستعملة في الوقت الحاضر دون كبير عناء .

وذهب كثير من المشرقين إلى أثر المستند نفسه أو بالواسطة في عدد من الأقلام الأخرى ، منها كتابات عمر عليها في إفريقيـة Meroitische Schrift في إحدى اللهجات الكوشية أو النوبية<sup>٣</sup> . والخلط البربرـي القديم الذي يعود إلى أيام قياصرة رومـة . والقلم البراهـي (Brahma Script – Devanagari Alphabet) ، حيث نلاحظ شيئاً كبيراً بين حروف هذا القلم والمستند . ولا يستبعد أثر المستند فيه ؛ لأن العلاقات بين العربية الجنوية والهند كانت قديمة جداً<sup>٤</sup> .

يظهر أن المستند كان القلم الرئيسي في جزيرة العرب قبل الإسلام ، وأن جزيرة العرب كانت تكتب به قبل المسيح . وأن أقـلاماً تفرعت منه قبل المسيح وبعد المسيح ، لأسباب لا تزال غير واضحة ، وقد تكون لـأشـكالـالـحـرـوفـالـتيـتـطلـبـدـقةـفيـالـرـسـمـعـلـاقـةـبـذـلـكـ ، فـالـكـتـابـإـلـىـابـتـكـارـأـشـكـالـمـرـةـلـاـتـخـاجـإـلـىـعـنـايـةـفـيـالـرـسـمـ ، فـاستـخـدمـهـاـفـيـالـكـتـابـةـلـسـهـولـتـهاـ . فـولـدتـمـنـهـالـكـتـابـاتـالمـذـكـورـةـ .

Grundriss, I, S. 148, D.H. Muller, Epigr. Denkmäler aus Abessinien, Wien,  
1894, Tafel, II, IV.

السامية (٢٥٦) ،

٢

Grundriss, I, S. 148, Glaser, Die Altabess. Inschr. von Marib, in ZDMG.,  
Bd., 50, (1896), S. 468, Die Abessinier in Arabien und Afrika,  
München, 1895, S. 168.

R. Lepsius, Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien, VI, Bd., I-II  
in Bd., XI, Grundriss, I, S. 149.

٣

Grundriss, I, S. 149, Isaac Taylor, The Alphabet, Vol. 2, p. 314,  
Georg Buhlets, Indian Brahma Alphabet, Wien, 1895, p. 2,  
Ency. Brit. I, p. 683.

٤

## أصل القلم المسند :

ذكرت أن أكثر المستشرقين رأوا أن القلم العربي الذي دوّن به القرآن الكريم، أخذ من القلم النبطي المتأخر . أما المسند ، فقد رأى كثيرون منهم أنه اشتقت من الأبجدية السامية الشهالية كذلك<sup>١</sup> . وذهب بعضهم أن أنه تفرع من نفس الأصل الذي هيئته ومنهم من قال إن الأبجدية العربية الجنوبية تفرعت من الأبجدية التي أوجد الخط الصيني ، فهي لذلك من أقدم الأبجديات المعروفة<sup>٢</sup> . ونحن إذا أمعنا النظر في شكل الأبجدية الطورسينائية والمسند، نجدهما لا تتشابهان إلا في رسم حرفين أو ثلاثة<sup>٣</sup> . وت تكون الأبجدية الطورسينائية من اثنين وعشرين حرفاً كالصينية والعبرانية . أما الأبجدية العربية الجنوبية ، فتتألف من تسعة وعشرين حرفاً ، أي بزيادة سبعة أحرف على أبجدية طور سيناء .

وحجة القائلين أن المسند قد أخذ من القلم الصيني ، وأن الأبجدية الصينية هي أقدم الأبجديات وأم الأبجديات<sup>٤</sup> . ولتكن إذا أمعنا النظر في رسم حروف الأبجديتين ، نجد التشابه بينها في هيئة الحروف ورسمها ليس كبيراً ، كما أن الأبجدية العربية الجنوبية تزيد عليها في سبعة أحرف، وهذه الأحرف الزائدة لا تختلف عن الأحرف المشتركة بين الأبجديتين في هندسة الرسم والشكل . فلعل الأبجديتين قد تفرعتا من أصل واحد<sup>٥</sup> ، فلا يعد المسند لذلك فرعاً نبت من الصينية .

وزعم نفر من الباحثين في تطور الخط أن المسند مشتق من القلم الكنعاني ، ولكن بعض علماء العربية الجنوبية ينكر هذا الرأي . إذ يرى أن المسند أقدم عهداً من الأبجدية الكنعانية ، وأن الكتابات العربية الجنوبية أقدم زمناً من أقدم الكتابات الكنعانية، فلا يصح إذن القول بأن المسند مشتق من القلم الكنعاني . وما يلاحظ على الأبجديتين ان الأبجدية الكنعانية يعوزها من الحروف : ذ ، ض ، ظ ، س (سامغ) ، ث ، غ . ولكن الأبجديتين تشركان اشتراكاً تاماً في الحروف : ح ، ط ، ل ، ن ، ع ، ق ، ت ، و . وتحتفلان في بعض الحروف

BOASOOR, NUM : 118, April 1950, p. 13.

Background, p. 11.

Ency. Brita. I, p. 680.

Lidzbarski, Ephemeris, I, S. 109, The Art of Writing, p. 11.

Grundriss, I, S. 145.

اختلافاً كبيراً ، وليس مستبعد أن تكون الأجدبيات قد تفرعنا من أصل واحد .

والرأي عندي أن من الصعب البث في الوقت الحاضر في موضوع أصل المسند، لأن صور الأنجديات القديمة الواردة إليها لا تزال قليلة ، ولا نجد بين صورها وبين صور المسند تشابهـاً كبيرـاً بحيث يمكن أن تستنبـط من هذا التشابـه حكـماً يـفيدـنا في تعـين أصل المسـند . والتشـابـه بين حـروف قـليلـة لا يـمكـن أن يكون سـبـباً للحـكم باشتـفـاق خطـ من خطـ . وعـنـدي أن الأنجـديـة العـربـية الجنـوـبية تمـثل مـجمـوعـة خـاصـة ، تـفرـغـت من أـصـل لا نـعـرـف من أمرـه الـيـوم شـيـئـاً، لأن شـكـل حـروف المسـند لا يـشـبه شـكـل حـروف الأنجـديـات المعـروـفة ، فـلـتـنتـظر فـلـعـل المـسـتـقبـل يـكـشف للـعـلـماء النقـاب عن أـنجـديـات مـجهـولة<sup>١</sup> .

ولا يعقل بالطبع ان يكون أهل العربية الجنوبية قد أوجدوا خطهم من العدم، من غير استعاناً بعلم مسبق عن الحروف والأبجديات ، بل لا بد ان تكون أبجديتهم قد أخذت من أبجدية أخرى ، ومن فرع من فروع الخط الذي أوجده البشرية، ودليل ذلك ان أسماء الحروف الأساسية التي ترد في كل أبجدية هي واحدة ، وفي وحدة الأسماء دلالة على وجود أصل واحد ، تفرعت منه الخطوط. والمستند بالنسبة لنا ، هو خط قائم بذاته ، يشابه الخط المبشي ، ومن فروعه الأبجدية اللهجانية والشمودية والصفوية . فكل هذه الأبجديات هي من فصيلة واحدة رأسها المستند ، أما ما فوق المستند ، فلا نعرف من أمره أي شيء .

وفي المسند حرف لا وجود له في أبجديتنا يكُون على هذا الشكل :



وهسو بين الراي والسين ، ولذلك يجعله البعض سيناً حين يتقلون نص كتابة عربية جنوبية الى عربيتنا ، او الى اللغات الاوروبية . كما يقرأ حرف الجيم (ج) « كما » في المسند على نحو نطق المصريين بهذا الحرف في لسانهم .

ومن القلم المستند أخذ الأحباش قلمهم الذي يكتبون به ، نقله اليهم السبيّيون

السامة (٢٤٢ فما بعدها) .

الذين هاجروا الى الجبنة قبل الميلاد وأقاموا لهم حكومة هناك وأثروا في الأighbاش، فكان من تأثيرهم فيهم هذا القلم الجبشي .

وحروف المسند منفصلة غير متصلة ، أعني أنها ليست كحروف الأبجدية التي نكتب بها ، بل الحروف فيها مستقل بعضها عن بعض غير متصل به . ولتمييز الكلمات بعضها عن بعض ، وضع الكتاب خطوطاً مستقيمة عمودية تشير الى انتهاء الكلمة والى ابتداء كلمة جديدة . وتبدأ الكتابة عندم من اليمين في العادة، وتنتهي في اليسار ، غير أنهم قد يكتبون من اليسار أيضاً ، ويتهون بالسطر في اليمين . وقد يزجون بين الطريقتين فيبتعدون في اليمين مثلاً ويتهون بالسطر في اليسار ، ثم يبدأون في السطر الذي يليه من اليسار ، ويتهون في اليمين ، ويبدأون بالسطر الذي يليه من اليمين ليتهون باليسار، ويبدأون في الثالث من اليسار وتهون باليمين ، وهكذا حتى تنتهي الكتابة . أما اذا ابتدأوا بالكتابه من اليسار ، فيتهون بالسطر في اليمين ، ثم يبدأون في السطر الثاني باليمين ليتهوا به في اليسار ، وليبدأوا بالسطر الثالث من اليسار وتهونوا به في اليمين ، وهكذا يسرون على هذا المثال حتى تنتهي الكتابة . ويلاحظ ان لشكل حروفهم خاصية جعلتها تصلح لأن يكتب بها في أول الكلمة او في وسطها او في أواخرها من دون حاجة لاجراء اي تعديل على جسم الحرف العام ، لأنها حروف منفصلة غير مربوطة . وهي تمتاز من هذه الناحية عن حروف أبجديتنا ، التي ترتبط فيها الحروف ، فتستعمل حرف العين مثلاً في أول الكلمة بصورة مختلف عن صورة هذا الحرف اذا استعمل في الوسط ، وتستعمل هذا الحرف في آخر الكلمة بصورة مختلف عن استعماله في أول اللفظة او في وسطها ، أي أنها تحدث تغييراً على جسم الحرف . وهذه الخاصية صار في الامكان الابداء بحروف المسند من آية جهة أراد الكاتب أن يكتب بها من ناحية اليمين او من ناحية اليسار ، او بالجمع بين الطريقتين من غير أي تأثير في قابلية القراءة على القراءة ، كما صار من السهل على المبتدئ بالكتابة والقراءة تعلم الخط بالمسند بكل سهولة ، لوجود شكل واحد لا يتغير للحروف . فهو لهذا صار أسهل تعلمياً من الخط الذي نكتب به الآن ذي الأشكال المتعددة الحروف ، كما انه حال من التقبيط الموجود في عريتنا لتمييز الحروف المتشابهة في هذا الشكل بعضها عن بعض ، وهو ما سبب لنا مشاكل خطيرة في كيفية ضبط الحروف والألفاظ ، عند وقوع التصحيح ، بسقوط نقطة من الكتابة سهراً ، او بوضع

النقطة في موضع يجب ألا توضع فيه ، او بوقوع سهو في عدد النقط .  
 وقد راعى الكتاب استعمال الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات مراعاة تامة ، لأنها هي العلامة الوحيدة التي ترشد القارئ إلى انتهاء لفظة وابتداء لفظة جديدة ، ولم يخطر بالهم وضع فراغ بين نهاية كلمة وابتداء كلمة جديدة ، أو لأنهم لأمر ما لم يستعملوا هذا الفراغ خشية حصول التباس قد يفسد على القارئ قراءته ، وقليلًا ما خالف كتابهم هذه الطريقة فأغفلوا وضع هذه الأعدمة الفاصلة . ولم يستعمل كتابهم علامة<sup>١</sup> ما دالة على انتهاء جملة وابتداء جملة أخرى جديدة أو انتهاء فصل وابتداء فصل جديد ، كذلك لم يستعملوا ما نستعمله نحن في الزمن الحاضر من علامات فواصل لأداء معانٍ خاصة يقتضيها الكلام وعلامات استفهام ، لأن هذه الأشياء من الأمور المتأخرة التي أدخلت على الكتابات الغربية ، ولم تكن معروفة عند الأقدمين .

وحرروف المستند حروف غير مشكلة ، فليس فوقها أو تحتها حرّكات كما هي الحال في عربيتنا حين نرغب في تحرير الحروف . وهي غير منطقة كذلك فلا نقط فوق بعض الحروف أو تحتها لتمييزها عن غيرها من الحروف المشابهة لها كما هي الحال في أبجديتنا أيضًا ، ولم يرمز عن الحركات بحرف أو برموز تستعمل مع الحروف الصامتة داخل الكلمة ليتمكن بها القارئ من النطق بالكلمة النطق الصحيح كما حدث ذلك في الأبجدية اللاتينية ، وفي الأبجديات الأخرى التي سارت على نهجها وسبيلها ، ولم يرمزوا عن حرف المد بشيء ولا عن السكون أو التشديد . وهذا مما جعلنا في حيرة من النطق بكلماتهم نطقاً صحيحاً مضبوطاً ، وجعل القارئ الحديث يذهب مذاهب مختلفة في كيفية ضبط الكلمة وفي كيفية النطق بها . فلفظة مؤلفة من حروف صامتة وحدها ، لا يمكن أن ينطق بها النطق الصحيح المضبوط ولا يمكن معرفة معانٍها بسهولة ، وقد ولدت هذه الطريقة مشكلات كبيرة لنا من حيث التوصل إلى معرفة نحو تلك اللهجات وصرفها<sup>٢</sup> .

ولا توجد في المستند علامة لتشديد الحرف ، وقد يكتب الحرف مرتين كما هي الحال في الأبجديات الأوروپية للدلالة على أن الحرف مشدد ، ويكون ذلك في الكتابات المعينة<sup>٣</sup> .

١ - غويدي ، المختصر (ص ٣) .  
 ٢ - المصدر نفسه .

واقتصار الكتاب على استعمال الحروف الصامتة وحدها ، جعل من العسير علينا البت في كيفية النطق بالكلمات والتعرف بسهولة على مواضع الكلم من الإعراب . ولولا الاستعانة باللهجات العربية الباقية المستعملة في اليمن، وبلغة القرآن الكريم، وباللهجات ، وباللغة الجبشية ، لكان من الصعب على القارئين للكتابات العربية الجنوية التوصل إلى فهم معانيها وإلى قراءتها قراءة مضبوطة أو قريبة من القراءة الصحيحة ، والتوصول إلى استخراج القراءات منها . ففضل هذه المواد المساعدة ، تمكنا من الوصول إلى ما توصلنا إليه عن تلك اللهجات المكتوبة بالقلم المسند<sup>١</sup> .

ومن جملة المسائل التي جعلت فهم النصوص العربية الجنوية أمراً صعباً على الباحث في بعض الأحيان ، اشتتمالها على اصطلاحات غير موجودة في العربية ، وعلى كلمات غير موجودة في اللغات السامية الأخرى ثم إن بعضها قد كتب كتابة موجزة صيغتها غامضة غير مفهومة ، وهذا اضطر علماء العribيات الجنوية إلى تلخيص معناها على وجه التقرير<sup>٢</sup> .

ومما يؤسف عليه كثيراً أن كتبة المسند لم يتركوا لنا كتابة تشير إلى ترتيب حروف الهجاء عندهم ، وأسمائها التي كانت تعرف بها عند قرائهم وكتابتهم . وعدم وصول كتابة بهذا الموضوع منهم إلينا ، خسارة كبيرة ، إذ أصبح من الصعب التحدث عن كيفية ظهور الخط بين العرب الجنويين وعن صلاته بالخطوط الأخرى ، وبين أشد الحاجة إلى معرفة كيفية توصل الإنسان إلى هذا الاختراع العظيم الذي غير تاريخ البشرية وأحدث فيها انقلاباً لا يدركه المرء إلا إذا تصور البشرية وهي جاهلة لا تحسن قراءة ولا كتابة ، فما الذي كان يمكن أن نعرفه لو لا وجود هذه العلامات الصغيرة المحدودة التي نسميها حروفاً والتي نكتب بها وندون بها كل ما يجول في خواطernا من آراء دون أن نعرف عظم قيمة هذه العلامات التي ميزت الإنسان عن الحيوان ، ورفعته عنه إلى أعلى الدرجات !

ولو قدر للعلماء الحصول على ألواح فيها الأبجديات مرتبة بحسب الطريقة التي كانت تسير عليها الشعوب القديمة في تعلمها ، وخاصة إذا كانت مقرونة بأسمائها التي كانت تعرف بها ، لصار في وسع العلماء التوصل إلى نتيجة علمية مقبولة

Hofner, S. 15.  
١ وننسون ، السامية ( ٢٤٦ ) .

بشأن نشأة الخط وتطوره . فإن في استطاعتهم عند ذلك الحكم - من نظرهم إلى أقدم هذه الكتابات والى أصول كلمات المسميات - على أقدم مكان ظهرت فيه تلك الكتابة ، وعلى تعين اسم الشعب الذي كان له شرف هذا الاختراع . وهو اختراع لم يظهر بالطبع فجأة إلى العالم ، أي انه لم يكن من ابتكار رجل واحد ف saja الناس به ، بل هو اختراع مرت عليه قرون حتى بلغ ما بلغه من شكل المروف . مرّ في مراحل كثيرة بدائية في بادئ الأمر ، ثم انتقل من تلك الأشكال إلى أشكال أرقى منها ، حتى اهتدى عقل الإنسان إلى معرفة المروف . ولم يتوصل بالطبع إلى هذه المرحلة بسهولة ، إذ يقتضي ذلك وجود علم عند الإنسان عن تكون الكلمات من حروف ، وهو لم يتوصل إلى هذا العلم إلا بعد تعب استمر قروناً ، وتعاون كتاب مختلف الشعوب لتحليل كلمات الإنسان إلى عناصرها الأولى ، وعناصرها الأولى هي هذه الحروف .

وقد كان من الضروري وضع أسماء للحروف ، ليميز بها حرف عن حرف آخر . وقد وضع مخترعوا الحروف تلك الأسماء ، وهي أسماء لا تزال البشرية تعدها مع شيء من الاختصار والتحريف ، وقد يمكن التوصل من تلك الأسماء إلى أسماء تلك الشعوب القديمة التي ساهمت وعملت في ترقية ذلك الاختراع العظيم . فإن تلك الأسماء علاقة وصلة بسميات مادية ، وبالإمكان تشخيص مواطن تلك المسميات بالرجوع إلى الأماكن التي عرفت واشتهرت بها ، ومن ثم نتوصل إلى تعين تلك الشعوب على وجه التقريب .

وتحتختلف أشكال حروف المسند اختلافاً كبيراً عن حروفنا المألوفة التي نكتب بها . ولما كانت هذه الحروف حروفًا منفصلة غير متصلة كما هي الحال في حروفنا ، فهي لذلك في أثناء كتابة الكلمات لا تتصل بعضها ولا يتلقى فيها حرف بحرف آخر . ولهذا السبب كان شكل الحرف في المسند لا يتبدل ولا يتغير بتغيير موضعه في الكلمة ، بل يحافظ على وضعه في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها ، إلا في بعض الأحيان حين يكتبون من اليسار نحو اليمين ، فيغيرون اتجاه الحرف بأن يجعلوه نحو اليمين .

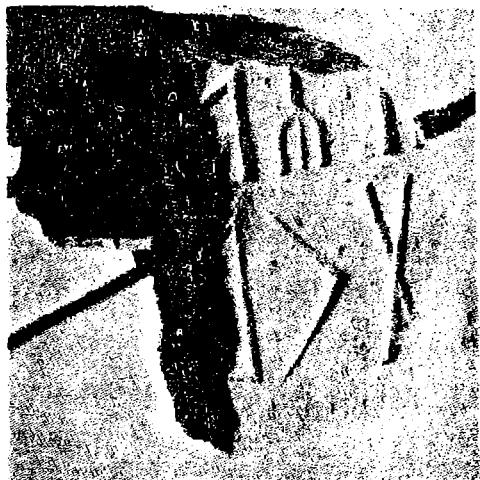
وقد يتحدد حرف النون الساكن مع الحرف الذي يليه ويسقط من الكتابة ، ففي كلمة (بنت) أسقطت الكتاب حرف النون من الكلمة ، واكتفوا بهذا الشكل : (بت) أي بالحرفينباء والتاء<sup>١</sup> .

والى القارئ أشكال حروف المسند مرتبةً على ترتيب حروف الهجاء التي نسبت  
عليها في زمننا :

|          |          |          |          |          |
|----------|----------|----------|----------|----------|
| କ        | କା       | କାନ୍ତି   | କାନ୍ତିର  | କାନ୍ତିରା |
| କା       | କାନ୍ତି   | କାନ୍ତିର  | କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା |
| କାନ୍ତି   | କାନ୍ତିର  | କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା |
| କାନ୍ତିର  | କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା |
| କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା | କାନ୍ତିରା |

**ج**: وليس لهذا الحرف مقابل في عربتنا وهو بين السين والزاي

ولا توجد في المسند تاء قصيرة ، أي تاء التي نكتبها تاء قصيرة في أواخر الكلم . فالناء هي تاء طويلة أبداً ، ورددت في أول الكلمة ، أو في وسطها ، أو في آخرها ، فلفظة (سنة) تكتب (سنٰة) ، و (عمرة) ، اسم امرأة ، يكتب (عُمرٰت) ، وهكذا .



وهناك كتابات بربور حروفها ، وذلك أن كاتبها خطتها على الحجر أولاً ، ثم حفر ما حولها وفي باطنها بمزير صلد ، أو بسكون أو باللة حادة ، فظهرت الكتابة بارزة ، وقد استخدمت مثل هذه الكتابات لتوضع على أبواب المعابد وعلى واجهات الدور وفي المناسبات التذكارية ، كما فعل الاسلاميون في كتاباتهم التخليدية التي وضعوها على واجهات القصور والمساجد والأبنية المهمة ، أما الكتابات المحفورة فقد استخدمت في الاعمال الاعتيادية في الغالب ، وهي أسهل في الكتابة من الكتابة البارزة ، ولا تحتاج إلى وقت طويل يصرفه الكاتب على الحفر لابراز الحروف .

وأما الفاصل الذي يفصل بين الكلمات ، فهو على هذا الشكل :



ويعبر عن العدد من الواحد إلى الأربعة بخطوط عمودية ، فيرمز الخط العمودي الواحد عن ( الواحد ) ، ويرمز الخطان العموديان المتوازيان عن الرقم ( ٢ ) ، وإذا أرادوا كتابة الرقم ( ٣ ) وضعوا ثلاثة خطوط عمودية متوازية للدلالة عليه . أما الرقم ( ٤ ) ، فيمثل بأربعة خطوط عمودية متوازية . وأما الرقم ( ٥ ) فيرمز عنه بالحرف ( خ ) الذي هو الحرف الأول من الكلمة ( خمس ) . وإذا أرادوا الإشارة إلى الرقم ( ٦ ) وضعوا خطأ عمودياً على الجانب الأيسر لحرف ( الخاء ) الذي يرمز عن الخمسة ، ومن هذا الحرف والخط العمودي الكائن مكانه في موضع العشرات بالقياس إلى حسابنا يتكون الرقم ( ٦ ) . وإذا أرادوا الرقم ( ٧ ) وضعوا خطين عموديين على الجانب الأيسر للحرف خمسة ، فيعبر هذا المجموع المكون من الخاء ومن الخطين العموديين المستقيمين عن الرقم ( ٧ ) . وإذا أرادوا الرقم ( ٨ ) ، وضعوا على الجانب الأيسر من الحرف خاء ثلاثة خطوط تشير إلى الرقم ( ٣ ) ، فيتكون بذلك من حرف الخاء الذي يرمز عن الخمسة ومن الثلاثة ، المجموع ثمانية ، وهو الرقم المطلوب . أما الرقم ( ٩ ) ، فيتكون من مجموع رقم ( ٥ ) الذي يرمز عنه الخاء ومن الرقم ( ٤ ) الذي تمثله خطوط عمودية أربعة . وأما الرقم عشرة ، فيرمز عنه بحرف العين الذي يمثل الحرف الأول من الكلمة عشرة . وأما الرقم ( ١٠٠ ) فيرمز عنه بالحرف الأول من الكلمة مئة ، أي بحرف الميم . وأما الرقم ( ١٠٠٠ ) فرمز عنه بالحرف ألف ، أي بالحرف الأول من الكلمة أيضاً ، فيلاحظ

من هنا أن العرب الجنوبيين استعملوا الحروف الأولى من أسماء بعض الأرقام عوضاً عن الأرقام نفسها، ولم يتبعوا الطرق التي نتبعها اليوم في كتابة أمثال هذه الأعداد. والظاهر أن استعمالهم حرف الخاء مقام العدد (٥) ، جعلهم يخaron بعض الحيرة في التعبير عن العدد (٥٠) الذي يبدأ مثل العدد (٥) بحرف الخاء ، فتخصيص هذا الحرف بالعدد (٥) جعل من غير الممكن تخصيصه بالعدد (٥٠) كذلك . ولما كان من الصعب كتابة الـ (٥) عشر مرات للتعبير عن العدد (٥٠) الذي هو حاصل جمع عشر خسات خاصة لأن هذا العدد يتضاعف ويتكسر ، فكروا في حل آخر يخل لهم هذه المشكلة . مشكلة إيجاد حرف أو علامة ترمز عن الرقم (٥٠) . وقد وجدوا ذلك الحل من حقيقة العدد (٥٠) الرياضية . فالعدد (٥٠) هو نصف الـ (١٠٠) كما هو معلوم . ولما كان حرف الميم يرمز عن المئة ، والمئة هي حاصل جمع خسين مع خسين ، فيكون حرف الميم هو حاصل جمع خسين مع خسين . ولما كان حرف الميم في المسند هو على شكل خط عمودي يرتكز عليه مثليان قاعدتهما متصلة على ذلك العمود ، فإن كل مثلث من ذينك المثلثين يعبر في الواقع عن الرقم (٥٠) ، فهذاهم تفكيرهم هذا إلى رفع المثلث الأسفل ليبقى مثلث واحد هو المثلث الأعلى مرتكزاً على الخط العمودي ، ليعبر عن قيمته المتبقية وهي خسون ، وصار هذا الرمز الذي هو نصف حرف الميم رمزاً عندهم للعدد (٥٠) . وبذلك أوجدوا لهم حلّاً لتلك المشكلة التي لا بد أنها شغلت بالكتابهم مدة من الزمن .

وأما الأعداد التي تلي العشرة فيبدأ بها بحرف العين أولاً ومعناه عشرة ، ثم تليه بقية الزيادة أي مقدار زيادة ذلك العدد عن العشرة . فإذا أرادوا الرقم (١١) مثلاً يبدؤوا بحرف العين ، ثم وضعوا بعده أي على يساره خطأً عمودياً واحداً يعني واحد ، ويكون المجموع أحد عشر . أما إذا أرادوا الرقم (١٢) ، فإنهما يضعون مستقيمين عموديين على يسار حرف العين ليدل ذلك على عشرة زائد اثنين وهو اثنا عشر . وإذا أرادوا (١٣) وضعوا ثلاثة خطوط عمودية مستقيمة لتدل عليه . أما إذا أرادوا (١٤) فإنهما يضعون أربعة خطوط عمودية ، ليكون مجموعها مع العشرة أربعة عشر . أما إذا أرادوا (١٥) ، فإنهما يكتبون حرف العين ثم يضعون من بعده وعلى جهة يساره حرف الخاء الذي هو يعني خمسة . وإذا أرادوا (١٦) وضعوا بعد حرف العين ما يرمز عن الستة ، وهكذا بقية الأعداد

إلى العدد (١٩) . أما العدد (٢٠) فإنه يكتبون عنه بكتابه حرف العين مرتين ، ومعنى ذلك عشرة مضافة إليها عدد عشرة والجمع عشرون . وإذا أرادوا الرقم (٢١) كتبوا حرف العين مرتين ليرمز عن العشرين ثم وضعوا خطأ عمودياً واحداً على جهة يساره ليرمز عن الرقم (١) ، فيكون المجموع عشرين وواحداً ، وهكذا يكتبون بقية الأعداد ابتداء بالعشرين أي بحرف العين مضافة العدد المقصود حتى الرقم (٣٠) فيضعون له ثلاثة أحرف من حرف العين . أما العدد (٤٠) فيضعون له أربعة أحرف من حرف العين ، ثم يستمرون على طريقتهم في العدد بعد الأربعين على الطريقة المألوفة في الابتداء بالعدد العشرات ، ثم كتابة الرقم المقصود الذي هو دون العشرة من بعده إلى الرقم التاسع والأربعين . فإذا أرادوا الرقم (٥٠) وضعوا الرمز المخصوص الذي تحدثت عنه ، وهو نصف حرف الميم . أما الرقم (٦٠) فيرمز عنه بهذا الرمز ، أي نصف حرف الميم مضافة إليه الحرف عين رمز العشرة ليشير إلى مجموع العدددين وهو ستون . أما الرقم (٧٠) فيكتبون من هذا الرمز مضافة إليه حرفان للعين . وأما الرقم (٨٠) فيكون بإضافة ثلاثة أحرف عين على الجهة اليسرى للرقم (٥٠) . وأما الرقم (٩٠) فيكون من رمز (٥٠) مع إضافة أربعة أحرف عين إليه .

وتكتب الأرقام ما بعد المائة إلى الألف على الترتيب الآتي : يكتب الحرف رمز المائة في الأول ، ثم يوضع الرقم الذي يلي المائة على جهة يساره على النحو الذي شرحته إلى حد الرقم (١٩٩) فإذا أرادوا كتابة (٢٠٠) كتبوا حرف الميم ، وإذا أرادوا (٣٠٠) وضعوا ثلاثة أحرف من حروف الميم ، وإذا أرادوا (٤٠٠) وضعوا أربعة أحرف من حروف الميم ، وإذا أرادوا (٥٠٠) وضعوا خمسة أحرف من حروف الميم ، وهكذا تزداد كتابة الميم بزيادة عدد المئات حتى تصل إلى تسع ، ويكون الرقم عندئذ تسع مائة . أما الألف ، فيرمز عنه بحرف الألف كما ذكرت .

وطريقة التعبير عن الأعداد في حالة الآحاد وفي العشرات وفي المئات هي طريقة واضحة مفهومة بعض الفهم كما رأينا ، إذ عبر عن الأرقام من واحد إلى أربعة بخطوط مستقيمة ، وعبر عن الخمسة بحرف الخام تزداد عليه خطوط بزيادة الأرقام المطلوبة ، حتى تصل إلى الرقم (١٠) ، فيعبر عنه بحرف عين . وفي باب العشرات يقدم حرف العين الذي هو عشرة على الأرقام المقصودة التي هي دون العشرة ، وتتبع هذه الطريقة إلى المائة . أما في حالة المئات إلى الألف فيبتدىء العدد بالمئات ،

ثم تليه العشرات ، فالآحاد ، فهو في نفس المبدأ الذي وضعه علماء الرياضيات عندهم للعشرات ، أي على قاعدة تفضيل العدد الأكبر من ناحية العدد على العدد الأصغر ، فقدموا العشرات على الآحاد ، وقدموا المئات على العشرات ، ثم الآحاد . أما في حالة الاعداد الالوف ، فلم يتقييد كتاب حسابهم بهذه القاعدة ، بل ساروا على طرق أخرى ، فكتبوا حروف الالف ، وهما مجموع ألف مع ألف أخرى ، وللتعبير عن ثلاثة آلاف وضعوا ثلاثة أحرف ألف ، وهكذا ساروا في كتابة بقية الاعداد الالاف . غير أنهم ساروا على طريقة أخرى في كتابة العدد ستة عشر ألفاً مثلاً . فوضعوا ستة أحرف ألف ، ووضعوا إلى الجنب الأيسر من الحرف الأول الأخير الحرف عين رمز العشرة ، وقد رممت العشرة هنا عن العدد (١٠٠٠٠) ، ورممت الحروف الستة عن (٦٠٠٠) ، ومن مجموع الستة آلاف والعشرة آلاف يتكون العدد (١٦٠٠٠) . وفي كتابة العدد (٣١٠٠٠) كتبوا حرفاً واحداً من حروف الألف ليدل على الرقم ألف ، ووضعوا على الجهة اليسرى منه ثلاثة أحرف عين وتعني ثلاثة ألفاً . ومن الألف والثلاثين ألفاً يتكون العدد (٣١٠٠٠) . أما في حالة كتابة الرقم (٤٠٠٠٠) ، فقد اكتفوا بكتابية أربعة أحرف من حروف العين ، مع أن هذه الأحرف تعني مجموع أربعين عشرات ، أي أربعين ، بينما أرادوا بهذه الأحرف العدد (٤٠٠٠٠) في هذا الموضع . أما في رقم مثل (٤٥٠٠٠) ، فقد كتبوا خمسة أحرف من حروف الألف أولاً ، ثم وضعوا أربعة أحرف من العين في أيسر آخر ألف ، والمجموع هو خمسة آلاف وأربعون ألفاً . وفي الرقم (٦٣٠٠٠) وضعوا ثلاثة أحرف من (الألف) لتعني ثلاثة آلاف ، ووضعوا نصف حرف ميم وهو رمز الخمسين ، وفي أيسر حرف العين رمز العشرة ، وبذلك عبروا عن الستين . ولورود هذا الرقم بعد عدد ألف قصدوا به ستين ألفاً . ومن مجموع ثلاثة آلاف والستين ألفاً ، يتكون العدد ثلاثة وستون ألفاً . وقد اكتفوا في كتابة الرقم (١٥٠٠٠٠) بكتابية الرمز الخمسين وهو نصف حرف ميم ، ووضعوا إلى الأيسر منه حرف ميم رمز المئة ، وقصدوا بذلك خمسين ومائة ألف . ولو كانوا قد كتبوا حرف الميم أولاً ، ثم وضعوا نصف حرف الميم إلى يساره ، لكان حاصل جمع العدددين خمسين ومائة . وبتقدير نصف حرف الميم وبتغير اتجاه مثلي حرف الميم ومثلث نصف حرف الميم يجعله نحو اليمين ،

عبروا عن الرقم (١٥٠٠٠٠) . أما في كتابتهم الرقم ٢٠٠٠٠٠ ، فقد كتبوا ميدين ، وقد عبر كل ميم في هذا الموضع عن مئة ألف .

ويرى بعض المتخصصين بقراءة النصوص العربية الجنوية ان كتاب المسند لم يتركوا كتابة حروف الألف التي تشير الى الأعداد الآلاف إلا إذا كان العدد مدورة ، وألافاً خالية من الأرقام الأحداد ، كما رأينا في الرقم (٤٠٠٠٠) ، و (١٥٠٠٠٠) ، و (٢٠٠٠٠٠) <sup>١</sup> .

وقد سار كتاب المسند على قاعدة كتابة الرقم افظاً ، أي كتابة مقداره بالكلمات ، وتدوين المقدار المكتوب بعد الرقم ، وقد حلّ لهم على اتباع هذه الطريقة خوفهم من الواقع في الخطأ في قراءة الأرقام والرموز التي خصصوها بالأرقام ، كما انهم اصطلحوا على رسم مستطيل تتخلله خطوط تجعله على هيئة شباك تقريباً ، يوضع في أيمان الرقم ، أي قبل ابتدائه ، ومستطيل آخر يوضع في يسراه أي في نهاية الرقم تماماً للدلالة على ان ما هو مكتوب بين هذين الرقين هو عدد ، وبذلك تسهل قراءته .

ولم يصل اليانا ان كتاب المسند استخدمو علامات خاصة بكسور الأعداد ، كالأنصاف أو الأربع أو الألائل أو الأخاس أو ما شاكل ذلك ، او انهم استعملوا علامات خاصة للجمع او الطرح او القسمة او الضرب او علامات للتزييع او للجذور وأمثال ذلك من العلامات المستعملة في علوم الرياضيات . وقد عبروا عن كسور الأعداد بذكر ألفاظها . واذا لم تصل اليانا كتابات في موضوعات رياضية ، فلا نستطيع ان نجزم في موضوع أمثال هذه العلامات عند العرب الجنوبيين . فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات رياضية تربينا ان رياضي العرب الجنوبيين كانوا أرقى كثيراً مما نظن الآن .

وللوقوف على صور الأعداد عند العرب الجنوبيين أدون نماذج من الأرقام ، مقرونة بما يقابلها من الأرقام التي نستعملها عندنا في الحساب :

|   |   |
|---|---|
| $\text{oo} = \text{c.}$                           | $1 = 1$   |
| $100 = <1$  | $11 = \text{e}$   |
| $1100 = <\text{e}$                                | $111 = \text{x}$  |
| $11100 = <\text{x}$                               | $1111 = \text{n}$                                       |
| $111100 = <\text{v}$                              | $1\text{4} = \text{o}$                                  |
| $1\text{4}00 = <\text{o}$                         | $1\text{4}\text{4} = \text{r}$                          |
| $1\text{4}100 = <\text{r}$                        | $1\text{4}\text{4}\text{4} = \text{v}$                  |
| $1\text{4}\text{4}00 = <\text{v}$                 | $1\text{4}\text{4}\text{4}\text{4} = \text{a}$          |
| $1\text{4}\text{4}\text{4}00 = <\text{a}$         | $1\text{4}\text{4}\text{4}\text{4}\text{4} = \text{q}$  |
| $1\text{4}\text{4}\text{4}\text{4}00 = <\text{q}$ | $0 = \text{l.}$   |
| $000 = \text{x.}$                                 | $10 = \text{ll}$  |
| $0000 = \text{n.}$                                | $110 = \text{l}^{\text{c}}$                             |
| $\text{4} = \text{o.}$                            | $1110 = \text{lx}$                                      |
| $0\text{4} = \text{r.}$                           | $11110 = \text{l}\text{v}$                              |
| $00\text{4} = \text{v.}$                          | $1\text{4}\text{0} = \text{lo}$                         |
| $000\text{4} = \text{a.}$                         | $1\text{4}\text{1}\text{0} = \text{lv}$                 |
| $0000\text{4} = \text{q.}$                        | $1\text{4}\text{4}\text{0} = \text{lw}$                 |
| $\text{4}, \text{B} = \text{l..}$                 | $1\text{4}\text{4}\text{4}\text{0} = \text{la}$         |
| $\Sigma \Sigma \cdot \Sigma \text{B} = <..$       | $1\text{4}\text{4}\text{4}\text{4}\text{0} = \text{lv}$ |

$$\Delta \Sigma = ?$$

मात्रा = ३.

888888 = 0..

**मक्कमक्कमक्कम** = v.

मामामामामाम - ४.

ম ম ম ম স স স স = ১০

$$\frac{1}{2} \cdot \frac{1}{2} = \dots$$

$$\begin{array}{r} 4 \\ \times 4 \\ \hline \end{array} = 5$$

4 4 4 = 4

$$\frac{4}{4} \frac{4}{4} \frac{4}{4} \frac{4}{4} = 1$$

卷之三

A horizontal row of approximately ten lit candles in a church setting. The candles are white with yellow flames, arranged in a straight line. The background is dark, making the light from the candles stand out.

$$0 \text{ } \square = 17.$$

$$000\frac{4}{5} = \dots$$

0000 = ε...

0000 4 4 4 4 4 = 50...

$$0.96666 = 78 \dots$$

$$B_P = \{0, \dots\}$$

**क्षमा = क्षमा**

وأما الفواصل التي تشير إلى الأرقام وتوضع في أول الرقم وعندها منتهاه، فهي على هذا الشكل :



ومادة الكتابة عند العرب الجنوبيين ، هي الحجارة والصخر والخشب والمعادن، يكتبون عليها بالحفر ، ولم أسمع أن أحداً من الآثاريين حتى الآن عثر على كتابات بالمستند مدونة بالحبر على القراطيس والجلود والرق أو على ورق البردي على نحو ما كان يفعله المصريون وغيرهم . والظاهر أنهم لم يكونوا يتبعون طريقة كتابة بابل في الكتابة على لواح الطين التي تجفف بعد ذلك بالشمس أو بالنار ، فتكون كتابة ثابتة مدونة على مادة صلبة ، لأن الباحثين لم يعثروا على كتابات بالمستند مدونة على هذه الطريقة .

غير أن عدم وصول كتابات بالمستند مدونة على القراطيس أو الجلد ، لا يعني أن العرب الجنوبيين لم يكونوا يعرفون الكتابة عليها وعلى مواد مشابهة لها ، إذ لا يعقل عدم وقوف العرب الجنوبيين على استعمال الجلد والقراطيس وظام الحيوانات مادة للكتابة ، وقد كان استعمالها في العالم يومئذ شائعاً معروفاً . وموردُ السبب في عدم وصول شيءٍ من الكتابات المدونة على تلك المواد ، إلى قابلية هذه المواد للتلف ، وحاجتها إلى العناية الشديدة ، بدليل عدم وصول شيءٍ ما من الكتابات المدونة على الجلد وعلى جريد النخل وعلى اللحاف والمعظام والقراطيس من صدر الإسلام ومن أيام الرسول خاصة مع أهميتها وقدسيتها . وليس في استطاعة أحد أن ينكر أن القرآن الكريم قد كتب على هذه المواد المذكورة ، وإن الرسول قد أمر فكتبت له عدة كتب وعقود ومواثيق ، ولكن باذت أصولها .

والبحث في أصل المستند مثله في أصل الخط، ما زال موضع جدل بين العلماء الباحثين في العribيات الجنوبية . فنهم من يرجع أصله إلى الخط الفينيقي ، ومنهم من يرجعه إلى كتابات سيناء حيث عثر فيها على كتابات قديمة جداً يعدّها الباحثون أقدم عهداً من الكتابات العربية الجنوبية ، وقد وجد بين بعض حروف هذه الكتابات وحروف المستند شبه جعلهم يذهبون إلى اشتتقاق المستند من خطوط سيناء<sup>۱</sup> .

ومنهم من يذهب الى اشتقاق المسند من الخط الكنعاني، للتشابه بين بعض حروف الخطين . وللتوصل الى معرفة منشأ الخط المسند ، لا بد من تعين تاريخ لأقدم كتابة مدونة بالمسند ، ولم يتطرق العلماء على تاريخ ثابت معين . انا رجع بعضهم تاريخ أقدم الكتابات الى ستة ١٥٠٠ أو ١٣٠٠ قبل الميلاد ، على حين لم يرتفع آخرون بتاريخ أقدم كتابة غير عليها بالمسند الى أكثر من ٧٠٠ أو ٨٠٠ قبل الميلاد . ولضبط هذا التاريخ أهمية جد عظيمة في البحث عن أصل منشأ ذلك الخط . ثم انه لا بد في تعين أصل الخط المسند من النص على أسماء الحروف نصاً ليس في أمره شك ، ثم لا بد أيضاً من النص على نظام ترتيب حروف المسند عند العرب الجنوبيين . وكل هذه الأمور غير متفق عليها ، واذن فليس من الممكن في مثل هذه الظروف التوصل الى حل علمي يوافق عليه جميع الباحثين في العribيات الجنوبية .

وإذا كان أغلب الكتابات في موضوع واحد ، هو التقرب الى الآلهة بهدايا وبنور ، كان أسلوبها يكاد يكون واحداً ، فهي تبدأ عادة باسم المهدى أو بأسماء المهدىين ، ثم يعقب ذلك فعل يشير الى التقديم مثل استعمال فعل قدم أو أهدى وما شاكل ذلك من أفعال مناسبة ، ثم اسم الإله أو أسماء الآلهة التي قدمت لها الهدايا ، يليها بيان السبب الذي من أجله قدمت ، مثل شفاء من مرض أو وفاة لذر ، أو طلباً من الإله أو الآلهة ان تطيل عمر المهدى ، أو تشفيه من مرضه ، أو لتحل له مشكلاً وقع فيه أو مشكلات تحيط به .

القلم المحياني :

ومن القلم المسند اشتق القلم اللحياني ، والقلم الشمودي ، والقلم الصفوی ، وذلك لأن القلم المسند متقدم في الوجود على هذه الأقلام ، فلا يمكن أن يكون قد أخذ منها . ثم إن المناطق التي وجدت فيها الكتابات اللحيانية والكتابات الشمودية ، كانت في حكم المعينين والسبعين ، بدليل عثور العلامة على كتابات معينة فيها . وهذه الكتابات أقدم عهداً من الكتابات اللحيانية والشمودية ، ولذلك ذهب الباحثون في اللحانيات والشموديات إلى اشتلاف خططها من الخط المسند .

ولم ينقل أهل أعلى الحجاز القلم المسند فقلاباً تماماً؛ بل عدّلوا بعض حروفه

وغيرها فيها بعض التغيير . فظهر من ذلك القلمُ اللحياني والقلم الشمودي ، غير أنها نجد أن كتابات القلم اللحياني تختلف بعض الاختلاف . وقد قسمها (ورنر كاسكل ) إلى نوعين : كتابات لحيانية مقدمة ، وكتابات لحيانية متاخرة . وقد بني تقسيمه هذا على أساس قدم الكتابات وتأخرها في التاريخ . والواقع أنها نجد الكتاب قد تحرروا في كتابة حروفهم في جميع العهد ، في العهد المتقدم وفي العهد المتأخر ، بحيث لم يتركوا لنا مجالاً للأخذ بهذا التقسيم . ففراهم وقد كتبوا بعض الحروف بأوضاع قد تزيد على الخمسة . غير أنها إذا ما تصفحت هذه الحروف المخالفة الأشكال ، لا نجد لها تختلف اختلافاً يبينا ، إنما يرجع هذا الاختلاف في الواقع إلى ضعف وقوه يد الكاتب الذي حفر تلك الكتابات على الحجارة أو الخشب أو المواد الأخرى التي حفر الكتابة فيها . فنهم من كان قويًا في حفريه للحروف ، ومنهم من كان ضعيفاً ، فبان هذا الاختلاف في هيئات رسم الحروف . ومن هنا أرى أن اختلاف صور الحروف ، لا يدل حتماً على تطور الخط ، بل يدل على مهارة أو ضعف الكاتب في الكتابة .

والقلم اللحياني مثل المسند حالٍ من الشكل ، وخالٍ من الرموز أو الحروف التي تشير إلى المد أو النشيد أو الإشاع أو الإيمالة وما شابه ذلك . وقد أوجد هذا النقص لقراء الكتابات اللحيانية مشكلات كبيرة في فهمها وفي ضبط الكلمات والأسماء فيها . فلفظة ( زد ) مثلاً المكتوبة بحروفين ، قد تقرأ على أشكال مختلفة ، قد تقرأ ( زَد ) و ( زِد ) و ( زَاد ) و ( زَيْد ) و ( زُود ) ، إلى غير ذلك من أشكال . وهي قد تكون اسمًا ، كما قد تكون فعلًا أو مصدرًا ، وعلى القارئ استخراج نوعها من موقعها في الجملة ومن معنى الحال . ومثل ذلك عن ( شم ) التي تعني ( شيم ) اسم رجل ، و ( كتب ) يعني ( كاتب ) اسم رجل أيضاً ، مع أن الكلمة عده معانٍ يفهمها الإنسان من موقع اللقطة في النص .

ولم يتقييد كتاب الكتابات اللحيانية تقيداً تماماً بكتاب الفواصل العمودية التي تستعمل الفصل بين الكتابات ، كما تقييد بها كتاب المسند . غير أنهم لم يسرعوا في كتاباتهم على وثيرة واحدة . ففراهم يخالفونها أحياناً فيفصلون الألفاظ بفواصل . وقد رفعت الفواصل عن الألفاظ المؤلفة من مقطع واحد ، مثل مع ، وكتب مع اللقطة التي تليها . أما إذا اجتمعت لفظتان ، كل واحدة منها ذات مقطع

واحد مثل (و) حرف عطف و (ل) فالكتاب يكتبونها على طريقة كتاب المسند أي ممزوجتين ، على هذا الشكل : (ول)<sup>ا</sup> .

ونجد في هذه الصورة كتابة لحيانية متاخرة ، يظهر منها و كان صاحبها قد كتبها على عجل ، فالخلط فيها سريع ضعيف يدل على عجلة ، والمحروف غير واضحة ، وقد كتبت بطريقة الحفر بقلم من حديد أو سكين أو آلة حادة أخرى على الحجر ، حفراً سريعاً ، كما نكتب بسرعة في القلم . ومن هنا يختلف القلم اللحياني عن القلم المسند ، يختلف عنه في عدم تمسك كتابته بكتابة المحروف بصورة واضحة بينة وبخط قوي واضح يقرأ بسهولة . ولعل موقع اللحيانيين ولموقع من كتب مثلهم بسرعة وبغير نظام ثابت وتقييد ببنية المحروف وأشكالها ، فيما بين الأبجديات الشمالية ، والأبجدية العربية الجنوبية أثراً في هذا التغير ، إذ نجاد نلمس من قراءتنا لهذا الخطوط أنها تحاول الهروب من نظام المسند ، المستند على الشكل الهندسي المرتب للحروف ، الذي يفصل بين الحروف ، والذي يحتاج الكاتب فيه إلى الثاني في كتابة الحرف ، فيضيع بعض الوقت بسبب ذلك ، كما يحتاج إلى إشغال مكان واسع للحروف . بينما نرى الأبجديات الشمالية تفلق من حجم حروفها وتحاول جهد امكانها ربطها بعضها بعض اختصاراً في الوقت وفي المكان وفي الجهد . وحروف هذه الأبجديات وإن بقيت محافظة على استقلالها وعلى أشكالها الدالة على أنها من نبت المسند، إلا أنها اتخذت صوراً متعددة، كما أنها لم تقييد بما تقييد به المسند في نظامه من السير على طريقة السطور ، وهو نظام يسهل على القارئ قراءة الكتابة من اليمين إلى اليسار ، أو من اليسار نحو اليمين ، أو بطريقة (حلزونية)، بل خرجت على هذا النظام ، ولا سيما في حالة الكتابات الشمودية والصفوية ، فكتبت بصور غير منتظمة ، على صورة هلال ، أو كرة ، أو نسيج العنكبوت ، مما جعل من الصعب على القارئ فهم الكتابة ، ويظهر أن ذلك إنما وقع بسبب أن الكتبة كانوا من الرعاة أو الفلاحين ، وإن الكتابات التي عثر عليها هي من

كتاباتهم ، وقد كتبوها تعبيراً عن خاطر عن لهم ، فهي لا تمثل اذن كتابات رسمية أو كتابات جماعة من المثقفين الذين يعتنون بحسن الخط ، وإنما هي خواطر دونت على أي حجر وجده الكاتب ، ودوّتها بالشكل الذي وجده يناسب ذلك الحجر .

وهذه الكتابة التي تراها في هذه الصورة هي كتابة محفورة على لوح من الحجر ، وهي من الكتابات اللاحينية المتأخرة ، المحافظة على نظام السطور . وخطتها وإن كان ضعيفاً غير أنه واضح نوعاً ما ونبعد الشبه كثيراً بينه وبين المستند .



كتابة لاحينية متأخرة: (من كتاب Caskel, Nr. 2)



كتابه لخانة قدحه

### Caskel, Nr. 1 : گلے کے من

أما هذه الصورة ، فتتمثل كتابة  
الحيوانية قديمة ، وقد تفنن في كتابتها  
كتابها ، وحفر الحروف فيها حفراً  
جعلها يارزة ، وقد حافظ فيها على  
نظام السطور . ونرى الشبه بين  
أشكال هذه الحروف وأشكال المسند  
بياناً ، إذ لم تكن الكتابات الحيوانية  
القديمة قد ابتعدت بعد بعدهاً كبيراً  
عن الخط العربي الجنوبي .

والخط الشمودي مثل الخط المسند والخط اللحياني والخط الصفوي ، حال من الشكل ومن التشديد ومن الإشاع ومن علامات الحركات تكتب مع الحروف في صلب الكلمة . وهذا يلقي قارئه من الصعوبات ما يلاقيه قارئ القلم المسند والقلم اللحياني . فكلمة ( بت ) يمكن أن تقرأ بأوجه متعددة كأن تقرأ ( بات ) فعلاً ماضياً ، و ( بيت ) اسماً . ولفظة ( عف ) ، تكتب بهذه الصورة ، ويقصد بها ( عوف ) إن كتبت مع الأسماء . ولفظة ( زد ) هي ( زيد ) ، ولفظة ( تم ) هي ( تميم ) ، ولفظة ( منت ) هي ( مناة ) ، وقد يراد بها ( منيت ) ، أي المنية . وجملة ( قنص اسد ) تتحتمل أن تكون على هذا النحو : ( قَنَصَ أَسْدًا ) ، وقنص اسم رجل ، وهو مبتدأ خبره ( أَسْدًا ) . ويتحتمل أن تكون على هذه الصورة : ( قَنَصَ أَسْدًا ) فتكون جملة فعلية ( قنص ) فيها فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر تقديره هو ، وأَسْدًا مفعول به .

غير أن بعض الكتابات قد استعملت حروف العلة : الواو والألف والياء ، في بعض الأحيان لسد النقص الخاصل من عدم وجود الحركات ، كما في ( نور ) ، و ( اموت ) ( أموت ) حيث قامت ( الواو ) بأداء واجب الـ ( او ) ( ة ) وكما في لفظة ( دين ) ، وعظيم ، حيث قامت الياء بأداء الحركة ( اي ) ( ئ ) ( ي ) ، وكما في ( موت ) ( بيت ) و ( علبت ) يعني كنت معتلاً ، و ( رضو ) ( اسم ) الإله ، و ( مو ) يعني ماء ، و ( لي ) يعني ( لي ) ، و ( ذى ) يعني ( هذا ) ، و ( اتا ) يعني ( أتي ) ، وأمثال ذلك . غير أن هذا الاستعمال لم يكن عاماً ، وإنما كان خاصاً يرد في بعض الكتابات . ونجد هذه الكلمات التي ذكرتها ، خالية من الحروف المذكورة ، في نصوص أخرى ، مما يدل على أن هذه حالات كتابية خاصة ، ولم تكن قاعدة عامة متّعة في كل الكتابات .

ومن ميزات القلم الشمودي أنه لم يتقييد باستعمال الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات ، وهذا نجد الحروف والكلمات متصلة بعضها ببعض في كثير من الكتابات لا يفصل فاصل بينها . وقلما نجدها تستعمل بعض العلامات مثل النقط أو الخطوط الصغيرة لتحديد الجمل . ثم إنه أطلق لنفسه العنوان في اتباع الجهة التي يسير عليها

الخط ، فتراه تارة يسير سيرنا في الخط ، أي من اليمين الى اليسار وباتجاه أفقى ، وتارة أخرى يتوجه من اليسار الى اليمين . وأحياناً من أعلى الى أسفل ، ومن أسفل الى أعلى في أحياناً أخرى ، كما تراه يتخد شكل قوس في بعض الأحياناً ، أو أشكالاً أخرى ، كأن يعزز بين هذه الطرق بحسب رغبة الكاتب وشكل المادة التي يكتب عليها . وعلى قارئ النص للذك انتبه الى هذه الاتجاهات ، لمعرفة مبدأ الكلام من متنه .

ونجد بعض الكتابات الشمودية ، وكأنها رموز أو طفراه ؛ إذ نجد حروفها وقد تداخل بعضها في بعض ، أو بعض حروف منها وقد تشابكت بحيث يصعب على القارئ حلها . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها نوع من (الوسم) ، غير أن من المهتمين بالشموديات من لا يوافقونهم على هذا الرأي ، وإنما يرون أنها تمثل رموزاً دينية ، أو الأحرف الأولى من أسماء كاتبيها ، أو أسماء بعض الآلهة ، أو ما شاكل ذلك مما كان له معنى معروف في نفوس أصحابه ، وقد خفي ذلك علينا ، لعدم وجود مفاتيح لدينا تخل لنا هذه الكتابات المتختنة طابع الرموز والإشارات .

ونجد الكتابات الشمودية تعاف بعض حروف الكلمات أحياناً وتختزلها ، كما في (ب) ، التي تعني (ابن) ، فقد تركت حرف التون واكتفت بالباء . ويستطيع القارئ ادراك معنى (ب) من القراءة . وكما في (ل) يعني (لنا) و (لي) ، و (ب) يعني (بي) ، أي أنها تقطع الضمير اللاحق بحرف الجر في بعض الأحياناً .

### الأبجدية الصفوية :

والأبجدية الصفوية مثل الأبجدية الحبانية والأبجدية الشمودية ، أصلها من القلم العربي الجنوبي . وهي تتألف من ثمانية وعشرين حرفاً ، غير ان كتاب هذا القلم قد تلاعبوا به كما تلاعبوا بكتاب القلم الحباني والشمودي بمحروف المستند ، وأوجدوا لهم منها أشكالاً أخرى ميزتها عن الأصل ، فأخذ الحرف الواحد أشكالاً

متعددة ، تباعد أشكال بعضها تباعداً كثيراً عن الأصل ، حتى عسرت على القارئ قراءة النص ، وهذا مما أوجد مشاكل لقراء هذه النصوص في قراءتها قراءة صحيحة .

و (هاليفي) الذي هو أول من تمكن من تشخيص الأبجدية الصفوية ، وأول من سماها بهذه التسمية، لم يتوقف في الواقع إلا في معرفة (٦) حرفًا من الحروف الـ ثمانية والعشرين التي تتكون منها الأبجدية الصفوية . أما الحروف الـ باقية ، فقد انحطاً في تشخيصها ، حتى جاء (بريتوريوز) فتمكن من تشخيص خمسة أحرف أخرى ، كما تمكن الأستاذ (ليهان) من تشخيص هوية سبعة أحرف ، فاكتمل العدد ثمانية وعشرين حرفاً<sup>١</sup> .

ومن الصعوبات التي تعرّض قارئ الكتابات الصفوية في قراءة هذه الكتابات وفي فيها أن الحروف فيها كما قلت آنفًا جملة رسوم ، وإن بعض رسوم الحرف الواحد هي رسوم لحرف آخر . فبعض صور الباء هي أيضاً صور للظاء ، وهذا قد تقرأ (باء) ، كما تقرأ (ظاء) . ويتشابه كذلك رسم اللام مع التاء ، واللام مع التون ، واللام مع الصاد ، وكذلك رسوم حروف أخرى ، فكانت من هذا كله صعوبات كبيرة تعرّض الباحث في قراءة هذه النصوص وفي تثبيت معناها ، ولا سيما أن هذه الأبجدية هي كالأبجدية الأخرى خالية من الشكل ومن التشديد ومن حروف العلة في أكثر الأحيان ومن المقاطع ، فلا فرق فيها في الكتابة بين الفعل والاسم والفاعل والمفعول به ، وفيها مصطلحات وتراكيب نحوية غير معروفة في عربتنا أو في اللهجات السامية الأخرى . وعلى الباحث إعمال ذكائه في كشف المعاني وموقع الكلم في هذه النصوص .

وهناك صعوبة أخرى تعرّض الباحث في قراءة النصوص الصفوية تكمن في عدم وجود قاعدة معينة للابتداء في الخط . فالكاتب بهذا القلم حر كما يظهر من

---

Semitisk, Dritter Band, Zweiter und Dritter Abschnitt, 1945, S. 213.

ريه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ٦٥ وما بعدها) ، (تعريب عبد الحميد الدوالي) .

الكتابات في اختيار الجهة التي يبدأ بها في الكتابة ، فله أن يبدأ بكتابته من اليمين إلى اليسار ، أي على نحو ما نفعله نحن في كتابتنا وعلى نحو ما فعله أكثر كتاب المسند ، وله أن يكتب من اليسار إلى اليمين ، أي على نحو ما يفعله الكاتبون بالأبجدية اللاتينية ، وله أن يزج بين الطريقتين كما رأينا ذلك في بعض كتابات المسند ، كما أن له أن يبدأ بالكتابة من أعلى إلى أسفل ، وله أن يعكس الوضع فيكتب من أسفل إلى أعلى ، وله أن يبدأ بالكتابة من أيسر الجهة السفلى للحجر ويتجه إلى اليمين ، ثم إلى اليسار وفي أي اتجاه أحبْ وأشتهى ، وله أن يختار العكس ، أو أية جهة شاء ، حتى إنك لترى بعض الكتابات وكأنها خطوط متداخلة ، وعلى القارئ ان ينفق جهداً طويلاً في استخراج رأس الخطوط واستلاله للوصول إلى منتها .

والكتابات الصفرية مثل الكتابات التمودية والمعيانية هي في أمور شخصية، فهي إما في بيان ملكية شيء ، أو في تعين قبر أي كتابات قبورية ، أو في رجاء وتوسل إلى الآلة . وإنما تسجيل خاطر ، مثل تذكر أهل أو صديق أو حبيبة أو نزول في مكان أو في تعليق على كتابة قديمة . وكتابات مثل هذه تكون قصيرة في الغالب ، وقد تكون من كلمة واحدة في بعض الأحيان . ولما كان معظمها في هذه الأمور ، صارت أساليبها في الإنشاء متشابهة ، لا تختلف أحياناً إلا في أسماء أصحابها . وهي لذلك لا تفيينا كثيراً من ناحية الدراسات اللغوية ، غير أنها مع ذلك أفادتنافائدة كبيرة في نواحي أخرى ، من مثل الكشف عن أسماء آلة العرب المجهولين ، أو أسماء القبائل والأشخاص والنبات والحيوان وبعض العادات وغير ذلك مما يتصل بحياة العرب قبل الإسلام .

وترى في هذه الصورة كتابة صفوية وقد كتبت على شكل ثعبان ، إذ لم يسر كتابتها على طريقة الكتابة بالسطور ، تكتب بعضها فوق بعض . وهي من الكتابات الموزخة ، وترى بعض الحروف مشابهة لحروف المسند ، أما البعض الآخر ، فقد ابتعد كثيراً عن الأصل .

1198-1198a.

كتابة صفوية أرخت بسنة ٢٤ المقابلة لسنة ١٢٩ لليلاد ، ويرى الرقم على الجانب الأيمن من الكتابة . من كتاب : Safaitic

وفي هذه الصورة الثانية كتابة صفوية ، وقد كتبت على النحو الذي نراه في الصورة ، وقد تصرف كتابتها في الحروف ، تصرفًا تظهر عليه روح الاختزال وتصغير حجم الحرف وهي من الكتابات الموزخة .

كتابة صفوية يعود تاريخها إلى سنة ٤٢ . وقد رقت برقم ١٦٢ في كتاب : (ص ٣٦) . Safaitic

والصفوية مثل اللهجات العربية الأخرى في خلوّها من الشكل ، لذلك تجاهه الباحث في قراءة كتاباتها ما يجاهه قارئ اللهجات الأخرى من مشكلات في فهم الكتابات فيها صحيحاً واضحاً، فلا بدّ من الاستعانة بعربيّة القرآن الكريم وباللهجات السامية لفهمها فيها صحيحاً . ولم يحفل الكتاب بشيّت الحروف في صلب الكتابة باعتبارها تعيّراً عن الحركات ، ولم يستعملوا المقاطع المعبرة عن الأصوات، لضبط النطق . وقد يكتب فيها الحرف مرتين في مواضع نستعمل لها الشدة في عربتنا ومادة الكتابات الصحفية ، هي العجارة الطبيعية بأشكالها المختلفة ، يأخذها الكاتب فيحرر عليها باللة ذات رأس حاد الكلمات التي يريد تدوينها . أما الورق أو المواد المشابهة الأخرى المستعملة في الكتابة ، فلم يعثر على شيء منها مكتوب بهذه الأبجدية .

ويجب أن أبين أن هذه الكتابات اللحيانية والشمعودية ، والصفوية ، لا تعني أنها خطوط (بني لحيان) ، و (قوم ثمود) بالضرورة ، فبين الكتابات المنسوبة إلى مجموعة من هاتين المجموعتين ما لا يمكن عده من كتابة قوم من (بني لحيان) ولا من قوم ثمود ، وإنما هي من كتابات قبائل أخرى ، وقد أدخلت في الخط الليبي أو في القلم الشمودي ، لمجرد تشابه الخط . وقد ذكرت أن الكتابة الصحفية ، إنما عرفت بهذه التسمية ، بسبب عشر العلماء عليها في (الصفاة) في الغالب ، فنسبوها إلى هذه الأرض ، مع أنها قبائل وعشائر مختلفة . ويلاحظ أن التباين في أشكال الحروف داخل المجموعة الواحدة مثل اللحيانية والشمعودية والصفوية ، لا يقل عن التباين الذي نراه بين صور الحروف المكونة لهذه المجموعات . فأنت ترى في هذه الصورة وقد كتب حرف الألف في الصحفية بصور متباعدة ، تكاد تجعل من الصعب التوصل إلى أنها تمثل كلها هذا الحرف ، ثم ترى الحرف نفسه في (الشمودية) ، وقد كتب بصور متباعدة ، ويقال نفس الشيء بالنسبة لهذا الحرف في الكتابة اللحيانية . ونجد هذا التباين في كل الحروف الباقية كذلك . أما المسند ، فلا نجد فيه هذا التباين ، مما يجعلنا على ارجاع سببه إلى ضعف وقوه يد الكتاب ، وإلى تباين القلم الذي يكتب به . فالمسند قلم ، استعمل في تدوينه قلم حاد قوي ، حفر الكتابة على الحجر حفرأ وبعنایة ، بسبب أنها وثائق وكتابات ذات أهمية بالنسبة لكتابتها ، أما الأقلام الأخرى، فقد استعملت في التعبير عن خواطر في الغالب : لذلك سجلها كتابها بأي أداة وجدها أو

كانت عنده تؤدي إلى إحداث خدش أو حفر على المادة التي وجدها أمامه صالحة للكتابية ، فنقش عليها رأيه بسرعة وبغير تأنق ، فظهرت الخطوط متباعدة متغيرة لهذا السبب ، كما ترى في هذه الصورة :

الإقليم الصيفية والشمولية والتجانية والعربي الجنوبي والغيرانية

ل Higgins عیرانی

٢٥

١٥

لقد تحدثت عن الترميم عند الصفررين ، وذكرت أنهم ساروا فيه من الواحد إلى الخمسة على أساس وضع خطوط عمودية ، مثل كل خط منها العدد (١) . فإذا أرادوا كتابة الرقم (١) ، وضعوا خطًا واحداً يمثله . وإذا أرادوا كتابة (٢) ، وضعوا خطين عموديين . وإذا أرادوا العدد (٣) ، وضعوا ثلاثة أعمدة . وإذا أرادوا العدد (٤) ، كتبوا أربعة خطوط عمودية . وأما إذا أرادوا الرقم (٥) وضعوا خمسة خطوط .

وكتابة الأرقام من المسائل العريضة التي جابت الكتاب في الأزمنة القدمة . وقد كان كتابهم يكتبون بالحروف ، ولكنهم كانوا إذا أرادوا تدوين الأرقام تحرروا: هل يكتبونها كتابة بالحروف أو يجعلون لها رموزاً خاصة تشير إلى الأعداد . وقد وجدنا أن العرب الجنوبيين كانوا قد اختاروا الخط العمودي لتمثيل الرقم (١) ، فإذا أرادوا الرقم (٢) ، وضعوا خطين ، وإذا أرادوا الرقم (٣) ، وضعوا ثلاثة خطوط . وإذا أرادوا الرقم (٤) ، وضعوا أربعة خطوط . ولصورية الاستمرار على هذه الطريقة ، بسبب كبير الأعداد ، اختاروا الحرف الأول من لفظة خمسة وهو الحاء لتمثيل العدد (٥) ، واختاروا الحرف (ع) وهو الحرف الأول من العدد عشرة لتمثيل هذا العدد ، واختاروا رمزاً آخرى كما رأينا لمعالجة مشكلة العدد عندهم ، فحلوا بذلك عقدة الترميم بعض الحل، ولم يبلغوا منه التمام .

وقد اختارت بعض الشعوب النقط ، بدلاً من الخطوط . فالرقم (٧) مثلاً تمثله سبع نقط ، والرقم (٣) تمثله ثلاثة نقط . وسارت شعوب أخرى على طريقة الخطوط فرمزوا عن الرقم (٥) بخمسة خطوط ، وعن الرقم (١٠) بعشرة خطوط عمودية ، وعن الرقم (١٥) بخمسة عشر خطًا عمودياً . ودفعتهم صعوبة كتابة الأرقام الكبيرة بهذه الطريقة ، إلى التفكير في طريقة أخرى تكون خصبة بعض الاختصار وسهلة في التعبير عن قيم الأرقام ، فاختار بعضهم النقطة رمزاً عن العدد (١٠) ، وختار بعض آخر خطًا أفقياً ليكون ذلك الرمز ، وبذلك سهلت عليهم كتابة الأرقام الآحاد مع العشرات . فإذا أرادوا كتابة الرقم (١٠) ، وضعوا نقطة واحدة (٠) أو خطًا أفقياً على هذا الشكل — ليشير إلى الرقم (١٠) ، وإذا أرادوا الرقم (١١) ، كتبوه على هذه الصورة : (١٠) أو (١ - ١) .

وإذا أرادوا الرقم (١٥) ، كتبوه على هذا الشكل (١١١٠) او على هذا الشكل : (١١١١ - ) .

وغير الفينيقيون وبنو إرم وأهل تدمر بعض التغيير في شكل الخط الأفقي الدال على العدد (١٠) ، بأن جعلوا في طرفه الأيمن خطأً متداً إلى الأسفل قليلاً على شكل زاوية متوجهة نحو اليسار . ثم أجرى النبط تعديلاً يسيراً في هذه العلامة الجديدة بأن جعلوا رأسها متوجهاً إلى أعلى اليمين ، اي نحو الزاوية اليمنى للإادة التي يكتب عليها . أما مؤخرتها ، فقد وجدها نحو الجهة الجنوية اليسرى<sup>١</sup> .

وقد سار الفينيقيون وبنو إرم على طريقة الترقيم بالخطوط العمودية للأعداد من (١) إلى العدد (٩) . ولتسهيل قراءة الأعداد التي تزيد قيمتها العددية على ثلاثة ، جعلوا كل ثلاثة خطوط متقاببة ، بحيث تظهر في شكل مجموعة واضحة ، وتمثل هذه المجموعة الرقم (٣) ، ووضعوا على يسار هذه المجموعة ما يكملها لتكونين العدد المطلوب . فكانوا اذا أرادوا مثلاً كتابة الرقم (٥) ، كتبوه على هذه الصورة : (١١١١١) اي الرقم (٣) الذي تمثله ثلاثة خطوط عمودية منضمة بعضها إلى بعض ، ثم الرقم (٢) الذي يمثله خطان منضمان ، وبين هذين الرقين فراغ قليل يفصل بين العددين . اذا أرادوا الرقم (٦) كتبوه بمجموعتين متجاورتين ، كل مجموعة ذات ثلاثة خطوط منضمة ، وبين المجموعتين فراغ صغير . غير ان بعض الكتابات كتبت الرقم (٦) على هذا الشكل : ١١١  
أي أنها وضعت الرقين ثلاثة أحدهما فوق الآخر ، ليشير هذا الوضع إلى حاصل جمع العددين ، وهو ستة<sup>٢</sup> .

وقد اصطلاح النبط على اتخاذ علامة خاصة بالعدد (٤) جعلوها على هيئة التاء في المسند ، أي على هذا الشكل : (٨) ، كما اصطلحوا على اتخاذ علامة أخرى خاصة بالرقم (٥) ، شكلها قريب من شكل الرقم (٥) في الحروف اللاتينية ، اي على هذا الشكل تقريباً : (٥) . على حين رمز غيرهم مثل أهل تدمر عن الرقم (٥) يرمز يشبه حرف الـ (٢) في الأبجدية اللاتينية . فإذا أرادوا كتابة

Mark Lidzbarski, Handbuch der Nordsemitischen Epigraphik, Weimer,  
1898, S. 198.

المصدر نفسه (ص ١٩٩) .

الرقم (٦) ، وضعوا الرقم الذي يرمز عن العدد (٥) ، ووضعوا خطأً على يساره ليشير بذلك إلى العددين خمسة زائداً واحداً (٥ + ١) (٧١) ومجملهما ستة . وإذا أرادوا الرقم (٧) ، كتبوا خمسة زائداً خطين يوضعان على يسار الرقم (٥) ، ليكون من العددين العدد (٧) ، (٧١) ، وهكذا إلى العدد (٩) .

وقد سار الكتاب في ترقيم الأعداد التي بعد العشرة على طريقتهم التي اتبعوها في السير أفقياً في الترميم ، إلا في حالات قليلة ساروا على طريقة وضع الأرقام بعضها فوق بعض ، وجعلوا للرقم (٢٠) علامة تتألف من نقطتين إحداهما فوق الأخرى ، أو من خطين أفقين أحدهما فوق الآخر على شكل علامة مساوٍ (=) في علم الحساب ، أو من علامة تشبه حرف الشين في المستند (ش) ، أو من علامة تشبه حرف الـ (N) في اللاتينية . ووضع النقط للعشرين علامة تشبه الـ (ش) اللاتيني في بعض الأحيان ، وتشبه الرقم (٨) اللاتيني في أحياناً أخرى ، غير أنهم فتحوا النهاية السفلى من الرقم (٨) جعلوها مفتوحة في الغالب<sup>١</sup> .

وتكتب الأعداد الآحاد على الجهة اليسرى من العشرات ، فإذا أردنا كتابة الرقم (١١) ، كتبنا الرقم (١٠) أولاً ثم العدد (١) من بعده ويكتب إلى يسار الرقم (١٠) . فإذا أردنا كتابته على الطريقة الفينيقية او الإرمية ، كتبناه على هذه الصورة : ( - ١ ) . وإذا أردنا كتابته على طريقة أهل تدمير او طريقة النبط ، وضعنا العلامة التي وصفتها الخاصة بالعشرة ، ووضعوا إلى يسارها خطأً واحداً يمثل العدد (١) ، وإذا أرادوا العدد (١٢) ، وضعوا خطين بعد الرقم (١٠) ، وإذا أرادوا (١٣) وضعوا ثلاثة خطوط . وإذا أرادوا (١٤) ، وضعوا أربعة خطوط . أما إذا أرادوا الرقم (١٥) ، فإن منهم من وضع خمسة خطوط بعد الرقم عشرة كما كان يفعل الفينيقيون ، ومنهم من اتبع هذه الطريقة وطريقة تمثيل العدد بخطوط . فوضع خمسة عشر خطأً لهذا العدد . ومنهم من وضع بعد العلامة الخاصة بالرقم (١٠) العلامة الخاصة بالرقم (٥) كالنبط وأهل تدمير .

أما مكررات العشرة ، فتكتب على هذه الصورة . إن كان العدد العشرات من الأعداد الزوجية فيكتب العدد بقدر احتواه العدد المراد تسجيله على العدد عشرين . فإذا أردنا كتابة الرقم (٤٠) ، كتبنا الرقم (٢٠) مرتين . وإن كان

العدد (٦٠) ، كتبنا العدد (٢٠) ثلاث مرات . وإن كان العدد (٨٠) ، كتبناه أربع مرات . أما إذا كان العدد العشرات من غير الأعداد الزوجية كما في مثل ثلاثين ، فإننا نكتب العدد (٢٠) أولاً ثم نضع الرقم (١٠) على يساره ، فيكون من مجموع قيمة العدين (٣٠) . أما إذا أردنا الرقم (٧٠) مثلاً ، كتبنا العدد (٢٠) ثلاث مرات ، ثم العدد (١٠) على الجهة اليسرى من الأرقام الثلاثة . وقد كتب هذا العدد في بعض الكتابات الإرمية بست نقط : ثلاث نقاط في أعلاه وثلاث نقاط في أسفلها ، ونقطة على الجهة اليسرى من المجموعتين وفي مقابل الموضع الوسط الذي يكون الحد الفاصل بين المجموعتين وعلى هذا الشكل (... . . .)

...

أما العدد مئة ، فقد رمز عنه بعلامات متعددة ، منها هذه العلامات : (١٠) و (٥) و (٤) . ونرى أن العلامة الأولى هي توسيع للرقم الذي رمز اليه عن العشرة . وقد اخند البيط علامة تشبه الرقم (٩) ، أو الحرف (P) في اللاتينية . وقد سبق أن ذكرت أن العرب الجنوبيين كانوا قد اتفقوا على اعتبار الحرف الأول وهو الميم من لفظة مئة هو الرمز الذي يشير إلى العدد ، واعتبروا نصف هذا الحرف رمزاً على العدد (٥٠) باعتبار أن الخمسين نصف المئة ، فنصف الحرف ميم هو رمز عن هذا العدد .

أما العدد ألف ، فقد وجدت له في بعض الكتابات علامات خاصة . وقد رمز عنه الفنيقيون وبنو إرم بعلامة هي عبارة عن خط مائل يتصل به ما يشبه نصف القوس من جهة اليمين ، ورأس الخط مائل إلى اليمين ، أما أسفله فتجده نحو اليسار<sup>٢</sup> .

ولم ترد في الكتابات الصفوية أرقام كثيرة ، لذلك لا نستطيع أن نحكم على طريقة رسم في الترميم وفي العدد . غير أن في استطاعتنا القول ، استناداً إلى هذه النماذج القليلة التي وصلت إلينا ، أنهم اتبعوا في الترميم الطريقة النبطية وطريقة أهل تدمير ، ولم يتبعوا طريقة العرب الجنوبيين في تدوين العدد . ويمكن ارجاع سبب ذلك إلى اتصالهم اتصالاً مباشرأً بالبط وبأهل تدمير ، وإلى تأثيرهم بثقافتهم .

١ راجع الألواح الخاصة الملحة بكتاب : M. Lidzbarski والخاصة بالتصوصن .

٢ راجع آخر المصور الملحق بكتاب M. Lidzbarski اللوح الخاص بالآرقام .

# جدول الأرقام

| Nabatäisch. | Palmyrenisch | Aramäisch. | Phönizisch. |
|-------------|--------------|------------|-------------|
| ۱           | I            | I          | I           |
| ۲           | II           | II         | II          |
| ۳           | III          | III        | III         |
| ۴           | IV           | IV         | IV          |
| ۵           | V            | V          | V           |
| ۶           | VI           | VI         | VI          |
| ۷           | VI           | VI         | VI          |
| ۸           | VII          | VII        | VII         |
| ۹           | VIII         | VIII       | VIII        |
| ۱۰          | VII          | VII        | VII         |
| ۱۱          | VII          | VII        | VII         |
| ۱۵          | VII          | VII        | VII         |
| ۱۶          | VII          | VII        | VII         |
| ۲۰          | VII          | VII        | VII         |
| ۲۱          | VII          | VII        | VII         |
| ۳۰          | VII          | VII        | VII         |
| ۷۰          | VII          | VII        | VII         |
| ۱۰۰         | VII          | VII        | VII         |
| ۲۰۰         | VII          | VII        | VII         |
| ۱۰۰۰        | VII          | VII        | VII         |
| ۳۰۰۰        | VII          | VII        | VII         |

بعلبي

تدمرى

باري

فينيقى

ولما كانوا محتاجين الى تدوين الأرقام اضطروا الى اقتباس طريقة النبط وأهل تدمر في كتابة الأعداد بالأرقام .

وتجدر في الجدول المقابل كيفية تدوين الأرقام في الفينيقية والآرامية، والتدميرية ، والنبطية . وهي تختلف اختلافاً بيناً عن صور الأرقام التي نستخدمها اليوم في عربيتنا . ونلاحظ أن من بين الترقيم في المسند ، وبين الترقيم في هذه الأبجديات تشابه كبير الى حد الرقم (٤) ، ثم يختلف ، فقد أخذ العرب الجنوبيون الحرف الأول من لفظة (خمسة) ، وجعلوه رمزاً الى العدد (٥) ، بينما اتبع الباقيون طريقة التخطيط بالرقم (١) الى العدد (٩) في الفينيقية ، ثم بدلوا الطريقة . وسلكت هذا المسار الأبجدية الآرامية ، أما الأبجدية التدميرية والأبجدية النبطية ، فقد اتبعتا سبيلاً آخر ، فيه اختلاف في بعض الأعداد ، ولكن بينهما تجانساً بوجه عام . مما يدل على أنها أخذتا الترقيم من منبع واحد .

## الفصل الثالث والعشرون بعد المئة

### الكتابة والتدوين

لا خلاف في أن التدوين كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام ، بدليل ما تحدثنا عنه من وجود الآلوف من النصوص الجاهلية التي عثر عليها في العربية الجنوبية وفي العربية الغربية وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب . كتبت باللهجات العربية متعدة ، تختلف عن عربية القرآن الكريم ، اختلافاً متبيناً ، أقربها إلى عربيتنا الكتابة التي وسمت بـ ( نص الزيارة ) أو كتابة الزيارة ، التي هي شاهد قبر ( أمرىء القيس ) ، المتوفى سنة ( ٣٢٨ ) للميلاد ، والكتابات الأخرى التي كتبت بعده<sup>١</sup> .

ولا خلاف بين العلماء في أنهم لم يتمكنوا حتى الآن من العثور على أي نص جاهيلي مكتوب بهذه اللهجة التي نزل بها القرآن ، والتي ضبط بها الشعر الجاهلي ، لا من الجاهلية البعيدة عن الإسلام ، ولا من الجاهلية الغربية منه ، مع أنهم تمكناً من العثور على كتابات جاهلية مدونة بلهجة عربية أخرى ، تعود إلى عهد لا يبعد كثيراً عن الإسلام ، مثل النص المعروف بنص ( حران ) المدون سنة ( ٥٦٨ م ) .

وإذا صح أن الكتابة المعروفة بـ ( أم الجمال ) الثانية<sup>٢</sup> ، هي كتابة جاهلية

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ( ١٨٩/١ وما بعدها ) .

أصلية ، تكون أول نص يمكن أن تعتبره بحق وحقيقة من النصوص المدونة بلغة القرآن والشعر الجاهلي . ويرجع العلماء الذين درسوه تأريخه إلى أواخر القرن السادس للميلاد . وقد جاء فيه :

- ١ - الله غفرا لاليه
- ٢ - بن عبيده كاتب
- ٣ - الخلیدا على بنی
- ٤ - عمری کتبه عنه من
- ٥ - يقروه<sup>١</sup>

ولكن عبارة وأسلوب تدوين الكتابة ، يوحان للمرء ، أنها من الكتابات المدونة في الإسلام . وأناأشك في كونها من مدونات أواخر القرن السادس للميلاد ، حتى إذا ذهبنا أن صاحبها كان نصرانياً ، وأن لفظة (غفرا) من الألفاظ الدينية التي كان يستعملها النصارى ، فلا غرابة من ورودها في نص جاهلي ، لأنها كتابة نصرانية . ومحاجي أن أسلوبها يفصح عن أسلوب الكتابات الإسلامية القديمة التي دوّنت في صدر الإسلام . وقد تكون في القراءة بعض المفوّمات والشطحات ، على كلّ فإنّ الزمان بين المعهددين غير بعيد ، ثم إن استعمال (الناء القصيرة) في (عييدة) الاسم الوارد في السطر الثاني من النص لم يكن معروفاً في هذا المعهد ولا في صدر الإسلام ، لذلك أرى أنها من الكتابات الإسلامية . وفيها هفوات . وبناءً على ما تقدم نقول إننا لم تتمكن من الحصول على نص جاهلي مدون بلغة عربية قرآنية ، لا شك في أصلاته ، ولا شبهة في كونه جاهلياً . وأن أقدم ما عثر عليه من كتابات بهذه العربية ، هي كتابات دوّنت في الإسلام . في رأسها الكتابات التي عثر عليها مدونة على جبل (سلع) قرب المدينة ، يرى (الدكتور حميد الله) أنها ترجع إلى السنة الخامسة للهجرة<sup>٢</sup> .

ثم الكتابة التي كتبت على شاهد قبر رجل اسمه (عبد الله بن خير) ، أو (عبد الله بن جبر) الحجازي أو الحجري ، المحفوظة في دار الآثار العربية بالقاهرة

١ - ديجيس بلاشير ، تاريخ الأدب العربي (الشكل رقم ٥ مقابل الصفحة ٧٣) .

H. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, in Islamic Culture, Vol. 13, No. 4, 1939, p. 427.

ويعود عهدها الى ( جادى الآخرة ) من سنة احدى وثلاثين<sup>١</sup> .

ولا خلاف بين الباحثين في أن كل ما وصل اليانا من نصوص جاهلية إنما هو بلغة التتر ، إذ لم يعثر حتى الآن على نص مكتوب شرعاً . ونظراً الى وجود التدوين عند أصحاب هذه النصوص ، ونظرأ لأن الشعر ، شعور ، لا ينحصر ب الإنسان دون إنسان ، وبعرب دون عرب ، فأنما لا استبعد احتمال ، تدوين الجاهليين الشعر أيضاً ، مثل تدوينهم لخواطرهم وأمورهم ثرآ . دونوه بهجاتهم التي كتبوا بها . وهي بالنسبة لهم هجاتهم الفصيحة المرضية . أما سبب عدم وصول شيء مدون منه اليانا ، فقد يعود حسب رأيي ، الى أن تدوين الشعر والتتر يكون في العادة على مواد قابلة للتلف ، مثل الجلود والخشب والظامام وما شاكل ذلك ، وهي لا تستطيع مقاومة الزمن ، لا سيما إذا طمرت تحت الأرضية ، ثم هي معرضة للتهام النار لها عند حدوث حريق ، أو للتلف إن أصابها الماء ، أضف الى ذلك أنهم كانوا يغسلون الجلد المكتوب ، للكتابة عليه مرة أخرى ، لغلاء الجلود ، وهو ما حدث عند غير الجاهليين أيضاً . ونجد في المؤلفات الإسلامية أمثلة كثيرة على غسل الصحف المكتوبة للكتابة عليها من جديد . ورسائل النبي وكتبه وأوامره الى عماله ورسله على القبائل ، فقد فقدت وضاعت مع ما لها من أهمية في نظر المسلمين ، وقل مثل ذلك عن كتب الخلفاء ، فلا تستغرب إذن ضياع ما كان مدوناً من شعر جاهلي ، فقد نص مثلاً على ان الشاعر ( عدي ابن زيد ) العبادي ، وكان كتاباً مجيداً بالعربية وبالفارسية حاذقاً باللغتين قارئاً لكتب العرب والقرس ، كان يدون شعره وهو في سجن النهان ويرسل به الى الملك ، يتولى اليه فيه أن يرحم به ، وأن يعيد اليه حريته ، وكان الشعر يصل الى الملك ، فلما طال سجنه صار يكتب الى أخيه أبي بشعر<sup>٢</sup> ، لم تبق من أصوله المكتوبة أية يقية ، وقد ضاعت أصول شعره المكتوب المرسل الى النهان كذلك ، حتى أننا لا نجد أحداً من رواة شعره يروى أنه رجع اليها فنقل منها ، مما يبعث على الظن أنها فقدت منذ عهد بعيد عن بداية عهد التدوين .

وبذلتنا موضوع التدوين الى البحث عن تدوين الأدب والعلم عند الجاهليين ،

١ ولفنsson ، السامية ( ٢٠٢ ) .

٢ الطبرى ( ١٩٧ / ٢ وما بعدها ) ، ( ذكر خبر ذي قار ) .

وعما إذا كان للجاهليين أدب مثور وعلم مدون ؟ لقد ذهب بعض الباحثين إلى وجود هذا الأدب عند أهل الجاهلية ، وتوقف بعض آخر ، فلم يجد رأياً في الموضوع ، وتوسط قوم ، فقالوا باختصار وجود تدوين أو شيء منه عندهم ، إلا أنهم أحجموا عن الحكم على درجة تقدمه واتساعه في ذلك العهد . لعدم وجود أدله ملموسة يمكن اتخاذها سندًا لابدء رأي واضح علمي في هذا الموضوع .

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أنه لو كانت هنالك مدونات في الأدب ، لما خفي ذكرها وطغى اسمها حتى من ذاكرة أهل الأخبار ، ومن أحاديث الرواية . إنه لو كان أهل الجاهلية قد زاولوا التأليف وتدوين العلم ، لما اقتصر علم أهل الأخبار في الأدب على ذكر قطع من الحكم ، يشك في صحتها ، وعلى إيراد الشعر روایة وعلى روایة بعض القصص والأمثال ، وسردهم كل شيء يتعلق بأمر الجاهلية روایة . وأنه لو كان لديهم تأليف منظم ، لسار على هديهم من جاء بعدهم في الإسلام ، ولسلكوا مسلكهم في التدوين : تدوين الكلام المثور وتدوين الكلام الموزون المفني ، وحيث أن أحداً لم يذكر اسم مدون من مدونات أهل الجاهلية ، وحيث أن المسلمين لم يشرعوا بالتدوين إلا بعد حين ، فلا يمكن لأحد النص بكل تأكيد على وجود تدوين عند الجاهليين<sup>١</sup> .

ولم نعثر على خبر في كتب أهل الأخبار يفيد أن أحداً من الرواية والعلماء أخذ نص كلام حكيم من حكماء الجاهلية ، أو خبر أو شعر من صحف جاهلية ، أو من كتب ورثوها من ذلك العهد . هذا (قنس بن ساعدة) الإيادي ، مع ما قيل عنه من أنه كان كاتباً قارئاً للكتب ، واقفاً على كتب أهل الكتاب ، خطيباً عاقلاً حكيناً ، وإن العرب كانت تعظمه وضررت به شعراً لها الأمثال ، وأنه كان خطيب العرب قاطبة ، نجدتهم يختلفون في خطابه المعروف ، ويررون أنه يختلف الروايات ، حتى ذكر أن الرسول كان قد سمعه ، وسمع خطابه ، فلما جاء ذكره ، وأراد أن يتذكر خطابه ، وجد بين الصحابة اختلافاً في تلاوته ، لأنه لم يكن مدوناً ، ولو كان مدوناً لم يختلف فيه<sup>٢</sup> .

١ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الإسلام (٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العدل للملاتين) .

٢ الاصابة (٣/٢٦٤) ، (رقم ٧٣٤٢) .

وليس في الأخبار عن الجاهلية خبر يفيد أن السدنة أو غيرهم من الساهرين على الأصنام والأوثان وبيوتها ، ألقوا كتاباً في الوثنية وفي أحکامها وقواعدها . أما اليهود والنصارى ، فقد كان لهم علماء يشرحون للناس في معابدهم أحکام دينهم ، ويعلّموهم الكتابة والقراءة وما في كتبهم المقدسة من أوامر ونواه . فكان « أبو الشعاء » وهو رجل ذو قدر في اليهود ، رأس اليهود التي تلي بيت الدراسة للتوراة <sup>١</sup> . وهو من يهود بنى ماسكة . وكان آخرون بينهم يعلمون أحکام دينهم في بيت المدارس .

وفي لغة الجاهلين مفردات تستعمل في القراءة والكتابة ، مثل : قلم ، وقرطاس ، ودواة ، ومداد ، ولوح ، وصحف ، وكتاب ، ومجلة ، وغير ذلك لا يشك في استعمال الجاهلين لها ، لورودها في القرآن الكريم . وورودها فيه ، دليل على استعمالهم لها . وورد بعضها أيضاً في الحديث النبوي وفي الشعر الجاهلي . وفيينا حصر هذه الألفاظ وضيّقها في تكوين رأي علمي صحيح سديد في الكتابة والقراءة عند الجاهلين ، والمؤثرات الخارجية التي أثرت في العرب في هذا الباب ، وفي تكوين رأي قاطع في الجهة التي أمدت العرب كثيراً أو قليلاً بعلمهم في قلمهم العربي الشمالي الذي يكتب به إلى هذا اليوم .

وأعتقد أن من واجب علماء العربية في هذا اليوم ، العمل على حصر ألفاظ العلوم والحضارة والثقافة التي ثبت لديهم استعمال الجاهلين لها ، وتعيين تاريخ استعمالها وأصولها التي وردت منها إن كانت أعرجية دخلة ، والاستشهاد بالأماكن التي وردت فيها ، ففي هذا العمل العلمي ، مساعدة كبيرة للباحثين على تشعب علومهم ومواضيعهم في الوقوف على تطور الفكر العربي قبل الإسلام . ولا أقصد الإحاطة بالمفردات الواردة في الشعر الجاهلي أو القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو معجمات اللغة وغيرها من الموارد الإسلامية وحدها ، بل لا بد من اضافة المفردات الواردة في الكتابات الجاهلية التي عنر والتي سيعثر عليها إلى تلك المادة لأنها مادة العصر الجاهلي وجرثومة اللغة ، وبدونها لا تسعن الإحاطة بلغة أهل الجahلية وتطور فكرهم أبداً .

ومن يراجع الموارد العربية وعلى رأسها المعجمات ، يدرك الصعوبات التي يلاقيها

المرء في الحصول على مادة ما، العدم وجود الفهرسة للألفاظ والمواد في معظم هذه الموارد ، فعل المراجع قراءة صفحات وأجزاء أحياناً للحصول على شيء زهيد . ولهذا زهد معظم المؤلفين في مراجعة ما هو مطبوع مع أهميته ودسم مادته ، لأن الصبر قاتل ، والأكتار من المراجعة عمل شاق مرهق ، والحياة تستلزم السرعة والانتاج بالجملة . وقد ماتت هم الماضين ، وحلت محلها عجلة المستعجلين الذين يريدون الانتاج السريع الخفيف الحالب للاسم والمال .

وبعض الألفاظ الخاصة بالكتابة القراءة ، هي ألفاظ معرفة ، وإن وردت عند الجاهلين واستعملت قبل الاسلام بزمن طويل ، عرب بعضها عن اليونانية ، وعرب بعض آخر عن الفارسية أو السريانية أو القبطية ، وذلك بحسب الجهة التي ورد منها العرب ووجد سبيلاً الى العربية ، ويمكن التعرف عليه بمقابلة اللفظ العربي مع اللفظ المقابل له عند الأمم المذكورة ، وبضبط الزمن الذي استعمل فيه والظروف المحيطة به ، للتأكد من أصله ، فقد يكون عربياً أصيلاً انتقل من العرب الى تلك الأقوام ، وقد يكون العكس ، نتمكن من الحصول على دراسة علمية قيمة في باب المعربات والتبادل الفكري بين الجاهلين والأعاجم .

والقلم ، هو من أدوات الكتابة المذكورة عند الجاهلين . وقد ذكر في القرآن الكريم . أقسم به في سورة (ن والقلم) ، وعظم وفخم شأنه في سورة العلق<sup>١</sup> . يكتب به على الورق والرق والجلود والقرطيس والصحف ومواد الكتابة الأخرى ، وكان يتحذى من القصب في الغالب ، فتقطع القصبة قطعاً يساعد على مسكة باليد ، ثم يبرى أحد رأسيها ، ويشق في وسطه شقاً لطيفاً خفيفاً يسمح بدخول الخبر فيه ، فإذا أريدت الكتابة به ، غرس في الخبر ، ثم كتب به . ويعرف هذا القلم بقلم القصب ، تمييزاً له عن الأقلام المستعملة من مواد أخرى .

ولفظة (القلم) من الألفاظ المعرفة عن أصل يوناني ، فهو (قاموس) في اليونانية ، ومعناها القصب ، لأن اليونان اخترعوا قلمهم منه<sup>٢</sup> .

١ سورة العلق ، الآية ٤ ، سورة القسلم ، الآية ١ ، لقمان ، الآية ٢٧ ، المفردات (ص ٤٢٢) ، شر. القاموس (٣١/٩) ، صبح الاعشى (٢/٤٣٤ وما بعدها) .

٢ الأب رفائيل نخلة اليسوعي (ص ٣٦٦) ، فرائد اللغة (ص ٢٩٣) ، Ency. II, p. 675.

وينبت القصب في موانع من جزيرة العرب حيث تتوافر المياه . وقد أشار (بلينيوس) Pliny ، في تاريخه إلى قصب Kalamus عربي ، وقصب ينمو في الهند ، وذكر أنهم يستعملونه في عمل الأنسجة .

وهناك نوع من القصب قوي متين ، يطول فيستعمل في أغراض متعددة ، يقال له (قنا) ، ومنه (القنى) و (القناة) التي يستعملها المحاربون ، وتعرف بـ (قنة) في العبرانية . وكانوا يستوردونه من (صور) <sup>١</sup> .

وقد وردت لفظة (القلم) و (قلم) في شعر عدد من الشعراء الجاهلين في شعر زيد وعدى <sup>٢</sup> بن زيد العبادي والمرقش وأمية بن أبي الصلت وغيرهم من وقفوا على الكتابة وكانت لهم صلات بالحضارة وب أصحاب الديانات . وذكر أن الخط يكون بالقلم <sup>٣</sup> .

ويعرف القلم بـ (المِزْبَر) كذلك ، من أصل زبر يعني كتب . وقد ذكر في الحديث النبوي <sup>٤</sup> . ويعرف بـ (المِرْقَم) أيضاً ، إذ هو أداة للرقم ، أي الكتابة .

ويقظ القلم بقطة <sup>٥</sup> ، وتستعمل السكين في بريه أيضاً . ويعني بذلك حتى يكون القلم جيداً سهلاً في الكتابة <sup>٦</sup> . ويقال للسكين : المدينة على بعض لهجات العرب <sup>٧</sup> . والقلم قبل أن تبريه : أنبوية ، فإذا بريته ، فهو قلم . وما يسقط منه

Smith, Dictionary of the Bible, I, p. 241.

١

قال عدي :

٢

ما تبین العین من آیاتها غير نؤی مثل خط بالقلم  
الاغانی (١١٩/٢)، سبط الالی (٨٧٦) <sup>٠</sup>  
وورد في شعر لامية بن أبي الصلت :

قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعاً والخط والقلم  
سيرة ابن هشام (٤٨/١)، بلوغ الارب (٣٦٩/٣)، المزبانی، معجم (٢٠١)،  
الاغانی (١٢٧)، النقاد (١٠٦)، شرح العلاقات، للتبریزی (١٢٨) <sup>٠</sup>  
صبح الاعشی (٤٣٤/٢)، المفردات (ص ٢١٠)، الفائق (٥٢٢/١)، تاج  
العروس (٣٣١/٣)، (زبر) <sup>٠</sup>

٣

بلغ الارب (٣٧٢/٣)، تاج العروس (٣١٦/٨)، (رقم) <sup>٠</sup>  
شرح القاموس (٢٠٧/٥) <sup>٠</sup>

٤

السمعاني، أدب الاملاء والاستملاء (ص ١٦١) <sup>٠</sup>  
صبح الاعشی (٤٥٥/٢ وما بعدها) <sup>٠</sup>

٥

٦

٧

عند البري: الْبُرَائِيُّ<sup>١</sup>. والمِقْطُ<sup>٢</sup> : ما يقطع عليه . والقطط : القطع عرضًا ، والقد<sup>٣</sup> : أن يقطع الشيء طولاً<sup>٤</sup> .

وهنالك أنواع أخرى من الأقلام غير قلم القصب ، صنعت من الحديد . وقد استعمل العبرانيون وغيرهم أقلاماً من حديد ذات رؤوس من الماس ، ليكتب بها على صفائح من الحجر أو من المعدن ، كما استعملوا القلم الحديد أو القلم الرصاص وأقلاماً من معادن أخرى للكتابة بها على صفائح من الخشب مغطاة بشمع . ولهذا القلم رأسان : رأس محمد للكتابة ، ورأس مفلطح لمحو الغلطات وتسوية سطح الشمع ثانية ، كما استعملت الفرشاة لرسم الحروف<sup>٥</sup> . واستعمل أيضاً ريش الطيور . وقد عرف القلم المصنوع من الحديد بـ (عيت) ET عند العبرانيين<sup>٦</sup> .

وذكر ان ( زيد بن ثابت ) دخل على رسول الله وهو علي في بعض حوارجه ، فقال : « ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمملي به »<sup>٧</sup> .

وقد استعملوا السكين والآلات الحادة في الكتابة على الخشب أو الحجر ، كما استخدمو الفحم وكل ما يترك أثراً على شيء ، مادة للكتابة . وذلك حين يعن لهم خاطر أو حين يريدون ابلاغ رسالة أو تقييد أمر هام ، مثل وقوع اعتداء على شخص ، فيكتب ما وقع له ، وهو لا زال متمنكاً من الكتابة ، على ما قد يكون عنده ، حتى يعلم عصيره من قد يمر به مينا<sup>٨</sup> . وقد حفر ( قيسة بن كلثوم السكوني ) على رحل ( أبي الطمحان القيني ) رسالة ، دونها بسكتين<sup>٩</sup> . ودون أحدهم ، وهو يختصر ، خبر قته على راحلة قاته ، بعد أن غافله ، ذكر فيها اسم قاته<sup>١٠</sup> . وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل ، توسل فيها كتابوها بمختلف الوسائل لايصال رسائلهم إلى من يريدون وصوتها لهم . وقد وصلت بعضها وجاءت بالنتائج التي كان يريد لها أصحابها منها .

١ بلوغ الارب ( ٣٧٠ / ٣ وما بعدها ) .

٢ قاموس الكتاب المقدس ( ٢٢٣ / ٢ ) .

HASTINGS, p. 981.

٣ Hastings, p. 981.

٤ عيون الاخبار ( ٤٢ / ١ ) .

٥ ابن سعد ، الطبقات ( ٣ / ٣ ص ١٥١ ) ، المفضليات ( ٤٥٩ وما بعدها ) .

٦ الاغانى ( ١٣١ / ١١ ) .

٧ المفضليات ( ٤٥٩ وما بعدها ) .

وأما المادة التي يكتب بها ، فهي عديدة ، أهمها : الخبر ، ويعرف أيضاً بالمداد<sup>١</sup> . ويصنع من مواد متعددة ترك أثراً في المادة التي يكتب عليها . من ذلك الزجاج وسخام المصايبع ، يمزج مع مادة لزجة مثل صنع العفص أو صنع آخر ، فيكتب به . ولما كان الخبرأسود ، قيل له ( ديو ) في العبرانية ، وقد عرف بهذا المعنى أي ( سواد ) في اليونانية كثلك<sup>٢</sup> . وعرف بـ Atramentum في اللاتينية ، وهي في المعنى نفسه<sup>٣</sup> .

وقيل للداد ( نفس ) ، وقد وردت اللفظة في بيت شعر للشاعر ( حميد بن ثور ) حيث قيل إله قال :

لمن الديار بجانب الحبس كخط ذي الحاجات بالنفس<sup>٤</sup>

وأشير إلى ( المداد ) في شعر لـ ( عبدالله بن عنمة ) ، حيث يقول :

فلم يبق إلا دمنة ومتازل<sup>٥</sup> كما رُدَّ في خط الدواة مدادها<sup>٦</sup>

وقد ذكر ( المداد ) في القرآن : « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنْفَدَ الْبَحْرُ ، قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتِ رَبِّي »<sup>٧</sup> ، يقول عزَّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلام ربِّي لنفَد ماء البحر قبل أن تُنْفَد كلام ربِّي )<sup>٨</sup> ، فالمداد إذن من الألفاظ التي كانت مستعملة قبل الإسلام .

وقد صُنِعَ الخبر من مواد مختلفة ، صنعه العبرانيون من سخام المصايبع ، أما المصريون فصنعوه من مواد متعددة ، فصار أتقن من المداد العبراني ، ولذلك حافظ على بريقه ولوته ، كما أنه لا يُعْجِز بسهولة ، بينما كان الخبر العبراني

١ شرح القاموس ( ٤٩٨ / ٢ ) ، ( ١١٧ / ٣ ) ، المفردات ( ص ١٠٤ ) .

٢ بلوغ الارب ( ٣٧٢ / ٣ ) ، Smith, A Dict., III, p. 1802.

٣ Hastings, A Dictionary, II, p. 472.

٤ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، للدكتور ناصر الدين الاسد ( ص ١٠٠ ) .

٥ المفضليات ( ٧٤٣ ) .

٦ الكهف ، الآية ١٠٩ .

٧ تفسير الطبرى ( ٣١ / ١٦ ) ، صبح الاعشى ( ٤٧١ / ٢ ) .

قابلًا للغسل بكل سهولة<sup>١</sup> . ولا نجد بين العلماء اتفاقاً في أصل معنى (الحبر) ، مما يدل على أن الكلمة<sup>٢</sup> من المغربات . أما المداد ، فذكر علماء اللغة ، أنه ما مددت به السراج من زيت ونحوه ، ثم خص بالحبر . والظاهر أنها أخذت من سخام الزيت الذي يحترق في السراج ، وأنها تعني (سوداد) ، على نحو ما نجده في لفظة *Melan* اللاتينية ، التي تعني السواد ، سواد السراج ، وخصصت بالحبر<sup>٣</sup> .

وليست لدينا أخبار عن كيفية صنع الحبر عند الجاهليين ، ولم يصل اليانا نص جاهلي مدون بالحبر نتمكن بتحليل مادته من الوقوف على تكوينه . ولكننا نستطيع أن نقول إن حبر الجاهليين لم يكن مختلفاً عن أنواع الحبر المستعملة عند الشعوب الأخرى في ذلك العهد وأبسطها الحبر المصنوع من القحム المسحوق ، مضافاً إليه الماء وقليل من الصمغ في بعض الأحيان . والحبر المصنوع من بعض المواد المستخرجة من زيوت بعض الأشجار وعصاراتها ، أو من مسحوق عظام الحيوانات المحروقة أو من بعض الأوراق المؤكسدة بالحديد وبعض المعادن . ويراد بالحبر ، الحبر الأسود في الغالب ، غير أن القدماء كانوا يستعملون أصباغاً مثل الأحمر والأخضر ، في تدوين الشرح واللاحظات والأمور المهمة التي تلفت النظر ، كما استعملت في التصوير وفي رسم بعض الرسوم التوضيحية ، كما يظهر ذلك من الأوراق القديمة التي عثر عليها في مصر وفي اليونان وغير ذلك من الأماكن . وقد ورد في كتب الحديث النبوي وموارد اسلامية أخرى ، ان الجاهليين كانوا يستعملون الصور والنقوش . ويريدون بالنقش تلوين الشيء بلونين أو عدة ألوان . ويقولون له : الشمنة كذلك<sup>٤</sup> . وكان منهم مصوروون يصوروون الانسان والحيوان والأشجار وغير ذلك . وقد نهى الرسول عن تصوير كل ما هو ذو روح . وهذا التحريم هو دليل شيع التصوير واستعمال الصور عند الجاهليين .

ويحفظ الحبر في أداة ، يقال لها (الدواة) و (المجرة)<sup>٥</sup> ، يحملها الكاتب

1 Hastings, p. 383.

2 تاج العروس (٤٩٨/٢) ، (مدد) .

3 Hastings, p. 383.

4 شرح القاموس (٤/٣٥٨ وما بعدها)

5 تاج العروس (١٠/١٣٣) ، تفسير ابن عباس (٤٥١) .

6 تاج العروس (٣/١١٧) .

معه ، فيعلقها بحزامه ، أو يضعها تحت ثيابه ، ويكون لها غطاء يمنع الخبر أن يناسب منها ، ويكون بها تجويف تخزن فيه الأقلام والمقطة . وقد تكون المجبرة كأساً صغيرة ذات غطاء يخزن الخبر فيها . وقد عرفت لذلك بـ (كست هسفل ) ( كاست هاسيفر ) ، أي ( كأس الكتاب ) في العبرانية<sup>١</sup> . وقد يقى الكتاب وطلاب العلم والعلماء يستعملون تلك المحابر القديمة إلى عهد قريب ، إذ حللت محلها الأقلام الحديثة المحملة بالخبر ، وما زال بعض رجال الدين ومن يعنون ب مجال الخط وتحسينه يستعملون أقلام التصub والخبر القديم على الطريقة القديمة المذكورة.

وقد عرفت المجبرة الكبيرة التي يحفظ فيها الخبر والأقلام والمقطة ومواد الكتابة الأخرى بـ ( قلباريون ) ( قلمريون ) ( قلم رين ) في ( المشنا ) أي المقلمة في العربية ، تمييزاً لها عن أداة أخرى عرفت بـ ( ترنوق ) ، وهي مقلمة تتوضع فيها الأقلام والمبرأة . وهناك لفظة أخرى ، هي ( لبلرين ) وتنقابل Libelari في اللاتينية يطلقها المتأدبون على المقلمة<sup>٢</sup> .

وقد أشير إلى الدوي ، أي المحابر في بيت شعر ينسب لأبي ذؤيب :

عرفت الديار كخط الدوي يحبّه الكاتب الحميري<sup>٣</sup>

وذكر أن من أسماء المجبرة (ن) وأن (ن والقلم) يعني الدواة والقلم<sup>٤</sup> .

وقد كان من عادة الكتاب ترميل الكتابة لتجف ، وكانوا يضعون الرمل في إناء خاص ثم يلبرون منه شيئاً على الكتابة .

وأما المواد التي يكتب عليها ، فعديدة ، تتوقف على ظروف المكان ومقدرة أهلة المالية ، منها الحجر والخشب وختلف أنواع المعادن والطين وورق الشجر والجلود والقراطيس وأكتاف الإبل واللخاف والعسب والقصم وغير ذلك<sup>٥</sup> . والى الحجر المكتوب ، يعود الفضل الأكبر في حصولنا على معارفنا عن عرب اليمن

Smith, A Diction., I, p. 1802.

١

Smith, A Diction., III, p. 1789.

٢

النسان (٢٧٩/١٤) .

٣

النسان (٤٢٧/١٣) ، تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ، للفيروز آبادي (٤٥١) .

٤

الفهرست (ص ٣١ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٤٧٥/٢) ، الفائق (٢/١٥٠) .

٥

قبل الإسلام ، وعرب بلاد الشام وأعلى الحجاز . فلولاه لكان علمنا بهم نزراً يسيرًا .

والعسب ، جريد التخل ، وهي السعفة مما لا ينبع عليه الخوص . ولوفرته في الحجاز استعمله كتاب الوحي وحفظة القرآن في تدوين الوحي عليه . وقد رجع إليه زيد بن ثابت في جملة مارجع إليه من مواد يوم كُلُّف جمع القرآن الكريم . وقد ورد ( عسيب يماني ) في شعر لامرئ القيس ، هو قوله :

لن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني<sup>٢</sup>

وقد ورد عن ( زيد بن ثابت ) ، إن ( أبي بكر ) لما أمره بجمع القرآن ، أخذ يتبعه من ( الرقاع والعسب واللخاف ) ، واللخاف : حجارة بيض . وورد في حديث ( الزهرى ) : « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن في العسب والقضيم والكرانيف »<sup>٣</sup> .

وذكر ( ليبد ) العسب في شعره حيث ورد :

متعدد لحنٌ يعيد بكفه قلماً على عسب ذيلن وبان<sup>٤</sup>

والجريدة من مادة التدوين عند أهل الحجاز . والجريدة السعفة ، بلغة أهل الحجاز ، وفي الحديث : كتب القرآن في جرائد ، جمع جريدة<sup>٥</sup> .

واستعمل ( الكرناف ) ( الكرانيف ) و ( الكرب ) مادة للكتابة كذلك . وقد ورد أن كتبة القرآن استعملوا الكرانيف مادة لتدوين الوحي<sup>٦</sup> . والكرانيف والكرب ، أصول السعف الغلاظ العراض التي تلاصق الجذع ، وتكون على هيئة الأكتاف<sup>٧</sup> . قال الطبرى قبض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « ولم يكن

١ صبح الاعشى ( ٤٧٥/٢ ) ، تاج العروس ( ٣٨١/١ ) ، ( عسب ) .

٢ ديوان امرئ القيس ( ١٢٠ ) ، تاج العروس ( ١٢٩/٥ ) .

٣ الفائق ( ١٥٠/٢ ) .

٤ الامالي ( ٥/١ ) .

٥ النساء ( ١١٨/٣ ) وما بعدها ، ( جرد ) .

٦ تفسير الطبرى ( ٦٣/١ ) ، الفائق ( ١٥٠/٢ ) .

٧ تفسير الطبرى ( ٦٣/١ ) .

القرآن جمع ، وإنما كان في الکرانيف والعسوب <sup>١</sup> .

واستعمل الجاهليون كتف الحيوان أيضاً ، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان للكتابة عليه ، وقد كتب عليه كتبة الوحي . وفي الحديث : ائتوني بكتف ودواء أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده . أو ائتوني باللوح والدواء والكتف <sup>٢</sup> . ولما كانت العظام مادة مبنية ميسورة في استطاعة الكاتب الحصول عليها بغير عناء ، وهي صالحة للكتابة بكل سهولة على شكلها الطبيعي أو بعد صقل وتشذيب قليلين ، لذلك استعملها الكتاب بكثرة . فكانت مادة مهمة استعملها كتبة الوحي في تدوين القرآن . وقد ذكر ( ابن النديم ) أن في جملة العظام التي كتب عليها العرب : أكتاف الإبل <sup>٣</sup> .

وكانوا إذا كتبوا في الأكتاف حفظوا ما كتبوه في جرة أو في صندوق حتى يحفظ ، ويكون في الامكان الرجوع اليه . وقد كانت الأكتاف في جملة المواد المكتوبة التي استنسخ ( زيد بن ثابت ) منها ما دون من القرآن .

واستعملوا الجلد مادة من مواد الكتابة : الجلد المدبوغ والجلد الغير المدبوغ . وقد كانوا يبدعون الجلد أحياناً ويصقولنه ويرققونه حتى يكون صالحاً مناسباً للكتابة . وقد يبدعونه ويصبعونه، وقد ذكر علماء اللغة أنواعاً من أنواع الجلد التي استعملوها في كتابتهم، منها :

القضيم ، جمع قضيم ، الجلد الأبيض يكتب فيه . وقيل الصحيفة البيضاء ، أو أي أديم كان . وقد أشير إليه في شعر للنابغة :

كان مجرّ الرامسات ذيولها عليه قضيم نفته الصوان <sup>٤</sup>

وأشير إلى ( القضيم ) و ( القضيمة ) في شعر ( زهير بن أبي سلمي ) <sup>٥</sup> ، وفي شعر ( أمرىء القيس ) <sup>٦</sup> .

١ تفسير انطوري ( ٦٣/١ ) .

٢ تاج العروس ( ٢٢٩/٦ ) ، الطبرى ( ١٩٣/٣ ) ( حوادث السنة العادية عشرة ) .

٣ الفهرست ( ص ٣١ ) .

٤ تاج العروس ( ٢٩/٩ ) ، ( قضيم ) ، الفائق ( ١٥٠/٢ ) .

٥ ديوان زهير ( ٢٣١ ) .

٦ ديوانه ( ص ٨٦ ) .

ويظهر من تفسير العلامة للكلمة ، ان (القضيم) الصحف البيضاء المستعملة من الجلد . وذلك بأن تقطع وتصقل حتى تكون صالحة للكتابة . وقد ورد ان كتبة الولي استعملوا القضم في جملة ما استعملوه من مواد الكتابة<sup>١</sup> .

وأما الأدم ، وهي الجلد المدبوغة ، فقد كانت مثل القضم من مواد الكتابة الشمية . وقد استعن بها كتبة الولي في تدوين القرآن<sup>٢</sup> . كما كانت مادة لتدوين المراسلات والعقود والمواثيق<sup>٣</sup> . وقد أشير الى (الأدم) في شعر للمرعش الأكبر<sup>٤</sup> : وذكر ان بعضه كان أديعاً آخر ، أي مدبوغ بمادة حراء ، ومن أنواعه (الأدم الخولاني ) . والظاهر انه كان من أوسع مواد الكتابة استعمالاً في أيام الجاهيلية وصدر الاسلام، لوجوده عندهم ، ولرخص ثمنه بالنسبة الى الورق المستورد من مصر أو من بلاد الشام<sup>٥</sup> . وقد جاء في بعض الأخبار ان بعض مكاتبات الرسول كانت في الأدم<sup>٦</sup> .

وكان الدباغون يدبغون الأدب ويصلحونها بصفتها ، فإذا دبغ الإهاب صار أديعاً . وقد ذكر ان أهل مكة كانوا يشترون قطع الأدم، ويكتبون عليه عهودهم ومواثيقهم وكتبهم . ولما توفي ( سعيد بن العاص ) جاء في من قريش بذلك حقاً له في كراع من أديم بعشرين ألف درهم على ( سعيد ) ، بخط مولى سعيد كان يقوم له على بعض نفقاته ، وبشهادة ( سعيد ) على نفسه بخطه . فأعطي حقه على ما كان مدوناً في قطعة الأدم<sup>٧</sup> .

وذكر بعض علماء اللغة أن القرطاس : الكاغد ، يتخذ من بردي يكون بمصر . وذكر بعض آخر أن القرطاس الصحيحة من أي شيء كانت ، يكتب فيها ،

١ الفتن ( ٢ / ١٥٠ )

٢ تفسير الطبرى ( ١ / ٥٩ ) ، السجستانى ، كتاب المصاحف ( ٢٣ وما بعدها )

٣ نسب قريش ، لرزبى ( ١٧٧ وما بعدها )

٤ الدار وحش والرسوم كما رقتش فى ظهر الأديم قلم المزبانى ، معجم ( ٢٠١ ) ، الاغانى ( ٦ / ١٢٧ ) . وورد : الدارقرف ) ، عوضاً عن ( الدار وحش ) ، المفضنيات ( ص ١١١ ) ( بقلم السنديوبى ) ( القاهرة ١٩٢٦ م ) ، البيان والتبيين ( ٣٧٥ )

٥ تقيد العلم ( ٢ / ٢٥٢ ) ، مستند أحمد ( ٤ / ١٤١ ) ، الطبقات ( ٧ / ٥٤ ) ، نسب قريش ( ١٧٧ وما بعدها ) ، المصاحف ( ٢٣ وما بعدها )

٦ صبح الاعشى ( ٢ / ٤٧٥ )

٧ نسب قريش ( ١٧٧ وما بعدها )

والجمع قراطيس<sup>١</sup>. وقد وردت لفظة<sup>٢</sup> (قرطاس) و (قراطيس) في القرآن الكريم<sup>٣</sup>. وورود اللفظة في القرآن الكريم دليل على وقوف العرب عليها. وهي من الألفاظ التي دخلت إلى العربية من مصر أو من بلاد الشام ، حيث استورد أهل مكة والعربية الغربية مختلف التجارة منها ، ومنها القراطيس ، ويعرف القرطاس في اليونانية بـ <sup>٤</sup> Khartis .

ويظهر أن أهل بلاد الشام كانوا قد استعملوا اللفظة اليونانية ، فلما نقل الجاهليون القرطاس منهم وتعلموه عنهم ، استعملوا المصطلح اليوناني بشيء من التحرير والتحوير ليتناسب النطق العربي . وقد نص بعض علماء اللغة على أن اللفظة من الألفاظ المغربة<sup>٥</sup> .

وتقابل لفظة (قرطاس) لفظة Papyri في اللغة الانكليزية . وقد كان القدماء في مصر وفي حوض البحر المتوسط يكتبون على القرطاس . وهي على صورة لفقات تلف كالأسطوانة تحفظ في غلاف حنر تلفها وتمزقها . وأسفار اليهود هي على هذه الصورة<sup>٦</sup> . ولا زالت معابدهم تستعمل توراتهم المكتوبة على هيئة (سقر) أي مكتوبة على هيئة صفحات متصلة بعضها بعض على شكل اسطوانة ، يسحب أحد طرفيها الذي يوصل باسطوانة أخرى ، ثم يقرأ من السفر .

وذكر علماء اللغة أن (الرفاع) ، هي القرطاس<sup>٧</sup> .

ووردت لفظة (رق) في القرآن الكريم : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور »<sup>٨</sup> . وقد فسر العلماء الرق بأنه ما يكتب فيه شبه الكاغذ ، أو جلد رقيق

١ المفردات (ص ٤٠٩) ، تاج العروس (٤٢٥/٤) ، صبح الاعشى (٤٧٤/٢) ، الجواليني (ص ٢٧٦) ، شفاء الغليل (ص ١٥٩) ، ابن خلدون ، مقدمة (٤٧٠ وما بعدها) .

٢ (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلسموه بأيديهم) ، الانعام ، الآية ٧ ، (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) ، الانعام ، الآية ٩ ، صبح الاعشى (٤٨٥/٢) .

٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٤) ، فرائد اللغة (ص ٢٧٧) .

٤ الجواليني (٢٧٦) ، الخفاجي ، شفاء الغليل (ص ١٥٩) .  
Hastings, p. 676, 978.

٥ تاج العروس (٥/٣٦٠) .

٦ سورة الطور ، الآية ٢ وما بعدها .

يكتب فيه ، أو الصحيفة البيضاء<sup>١</sup> . وقد اشتهرت جملة مواضع في الحجاز وفي اليمن برقيق الجلد ودباغته ، ليصلح للعمل ، وفي جملته الرق المستعمل في الكتابة . ويعرف الرق بـ ( رقو ) Raqo و ( رق ) Raq في الإرمية . وتؤدي اللفظة في هذه اللغة المعنى نفسه المفهوم منها في عربتنا ، وهذا ذهب بعض العلماء الى ان اللفظة من أصل إرمي<sup>٢</sup> . ومن أجود أنواع الرق ، الرق المعقول من جلد الغزال . وذكر ان الصحابة أجمعوا على كتابة القرآن في الرق ، لتبسره عندهم ، ولطول بقاء الكتابة فيه<sup>٣</sup> .

وقد كان الكتاب يستعملون الرق في المراسلات وفي السجلات وفي الكتب الدينية . فقد استعمل الفرس جلود البقر المدبوغة لكتابه كتباهم الدينية عليها ، واستعمل العبرانيون جلود الغنم والمعز والغزال لكتابه التوراة والتلمود عليها . وقد اشترطوا في الجلود أن تكون من جلود الحيوانات الطاهرة . استعملوها صحائف منفصلة ، واستعملوها صفائح على هيئة الكتب ، كما استعملوها مدوره ملفوفة قطعة واحدة يتصل كل رأس منها بقضيب ، فتكون لفتين متصلتين ، وذلك بربط قطع الجلود بعضها البعض وثبيتها لتكون صحيفة واحدة طويلة مستطيلة ، يقال لها ( مجلوت ) ( م ج ل و ت ) ، أي المجلة ، من أصل ( جلل ) ، بمعنى لف وأدار<sup>٤</sup> .

وفي الشعر الجاهلي إشارات الى استعمالهم ( الرق ) في كتاباتهم . وقد أشار بعضهم الى سطور الرق ، وكيف رقشها كاتها ونعت الكتابة مسطرها . وكيف خط ملي الكتاب ما أريد إملاؤه في الرق . وقد عبر عن الخطاط الذي خط السطور على الرق بالمرقش وبالكاتب<sup>٥</sup> . ومن أنواع الرق الجيد الرق المصنوع بـ ( خولان ) والذي عرف بـ ( الأديم التولاني )<sup>٦</sup> .

١ المفردات ( ص ٢٠٠ ) ، شرح القاموس ( ٦/٣٥٨ ) ، صبح الاعشى ( ٢/٤٧٤ ) .  
بلوغ الارب ( ٣/٣٧٨ ) .

٢ برصوم ( ص ٧٣ ) ، غرائب اللغة ( ص ١٨٣ ) .

٣ صبح الاعشى ( ٢/٤٧٥ ) .

Smith, A Dictio., III, p. 1802.

٤ ديوان الهذلين ( ٣/٧٠ ) ، الآمدي ، المؤتلف والمختلف ( ٢٧ ) ، ديوان طرفة

( ٦٨ ) ، ديوان حاتم الطائي ( ٢٣ ) .

٥ تقيد العلم ( ٧٢ ) .

ونجد الشاعر المخضرم ( معقل بن خويلد ) الهذلي ، يشير الى ( ملي كتاب )  
يلى على كاتب ، يخط على رق ، وذلك بقوله :

فأني كما قال ملي الكتاب في الرق إذ خطه الكاتب  
يرى الشاهد الحاضر المطمئن من الأمر ما لا يرى الغائب <sup>١</sup>

ومعقل من سادات قومه ، ومن شعرائهم المعروفين ، وكان أبوه رفيق ( عبد  
المطلب ) الى ( أبرهة ) <sup>٢</sup> .

وأما ( القتب ) ، فالإيكاف الصغير الذي على قدر سنام البعير <sup>٣</sup> . ويصنع من  
الخشب . وقد كتب الناس على ( القتب ) . وقد استخدم ( الرجل ) مادة للكتابة  
عليها ، عند الحاجة والضرورة <sup>٤</sup> .

وقد استعملت الألواح مادة للكتابة ، ومن هذه الألواح ما صنع من الحجر ،  
بشر الحجر وصقله ، ومنها ما صنع من الخشب ، ومنه من لوح الكتف أي  
العظم الأمثل منه . واللوح كل صفيحة عريضة خشباً أو عظاماً <sup>٥</sup> . وأشار في  
القرآن الكريم الى اللوح ، فورد : « بل هو قرآن مجید . في لوح محفوظ » <sup>٦</sup> .  
وورد « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة » <sup>٧</sup> وغير ذلك . فبظاهر من  
ذلك أن الألواح كانت تكتب فيحفظ بها ما يراد حفظه من آراء وأنكار .

وقد كان بعض الصحابة والتابعين يستعملون الألواح لتقيد ما يريدون حفظه  
وتقييده من أقوال الرسول ومن سيرته أو غير ذلك . فذكر أن ( ابن عباس )  
كان يأتي ( أبا رافع ) ويسأله : ما صنع رسول الله يوم كذا؟ ومع ابن عباس  
اللواح يكتب فيها . وأن مجاهداً كان يسأل ( ابن عباس ) عن تفسير القرآن

١ ديوان الهذلين ( ٣/٧٠ ) .

٢ الاصلية ( ٣/٤٢٥ ) ، ( رقم ٨١٣٧ ) .

٣ تاج العروس ( ١/٤٣٠ ) ، وما بعدها ، ( قتب ) ، السجستان ، المصاحف ( ٢٠ ) .

٤ ابن سعد ، النطبقات ( ٣/٢ ص ١٥١ ) ، تقيد العلم ( ١٠٢ ) .

٥ المفردات ( ص ٤٧٢ ) ، تاج العروس ( ٢١٨/٢ ) ، صبح الاعشن ( ٢/٤٧٢ ) وما  
بعدها ، شمس العلوم ( ١/٣٤ ) .

٦ البروج ، الآية ٢١ وما بعدها .

٨ البروج ، الآية ٢١ وما بعدها .

ومنه ألواره ، يكتب فيها ما عليه عليه <sup>١</sup> . وعرف اللوح بـ (السبورجه) ، وهي لفظة فارسية الأصل <sup>٢</sup> .

وقد ورد في حديث زيد بن ثابت عن جمع القرآن أنه جمعه من الرقاع واللخاف والمسب <sup>٣</sup> . وقصد باللخافحجارة يضاً رقاً ، واحدتها لحفة <sup>٤</sup> . كان يكتب عليها أهل مكة .

والحجارة هي المورد الرئيسي الذي استخرجنا منه علمنا بتاريخ العرب الجزيريين وبتاريخ أعلى العجائز وأماكن أخرى من جزيرة العرب. ويضاف إلى ذلك الصخرة الصغيرة والصخرة الكبيرة، فقد نقش عليها الجاهليون أوامرهم وأحكامهم وخواطرهم ورسائلهم وذكري نزولهم في مكان ، فالفضل يعود إلى هذه الكتابات في حصولنا على أخبار الجاهليين المذكورين .

وقد كتبوا على الخزف ، وبقي الناس يكتبون على الحجارة والخزف إلى الإسلام . فقد كان (أبو الطيب) اللغوي ، وهو (عبد الواحد بن علي) ، يعلق عن (أبي العباس) ثعلب على خزف ، ثم مجلس فيحفظ ما دونه عليه <sup>٥</sup> . ويقال لما يكتب في الحجارة وينتشل عليها (الروح) . والروح الكتابة والخط . وبهذا المعنى ورد في شعر شعراً جاهلياً وأسلامياً ، مثل شعر (لبيد) ، حيث قال :

فداعم الريان عرتي رسها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها .

وشعر (زهير) حيث يقول :

من الديار غشيتها بالقفل كالوحى في حجر المسيل المخلد <sup>٦</sup>

١ تفسير الطبرى (٢١/١) ، البغدادي ، الخطيب ، تقىيد العلم ، (تحقيق يوسف العش) ، (دمشق ١٩٤٩) (ص ٩١ وما بعدها) .

٢ تقىيد انعلم (٧٢) .

٣ تاج العروس (٢٤٤/٦) ، الفهرست (٣١) .

٤ رسالة الغفران (٦٣) .

٥ اللسان (١٥/٣٧٩) (صادر) ، البرقوقي (ص ١٤) .

٦ ديوان زهير (١٢٦ ، ١٥٠) .

وأما الورق ، فأريده به جلود رقاق يكتب فيها ، ومنها ورق المصحف<sup>١</sup> . ويظهر أنهم أطلقوا اللفظة على القطع الرقيقة من الجلد أو من المراد الأخرى التي كانوا يكتبون عليها ، تشبيهاً بورق الشجر . ولذلك فإنها لا تعني نوعاً معيناً من الورق . كما يجوز أن يكون المراد من الورق المستورد من بلاد الشام أو من مصر ، أو المصنوع من صقل الكتان ونسج القطن وغير ذلك .

ولقلة وجود القصب الصالح لصنع الورق في جزيرة العرب ، لا نستطيع أن نذهب إلى وجود صناعة ورق من هذه المادة في هذه البلاد ، بل كانوا يستوردونه من مصر مصدر الورق المصنوع من القصب ، والمعروف بـ ( البايروس ) .

والصحيفة المسوطة من الشيء ، والتي يكتب فيها ، والكتاب ، وجمعها صحائف وصحف ، ومنها « إن هذا لقى الصحف الأولى : صحف إبراهيم وموسى »<sup>٢</sup> ، و « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة »<sup>٣</sup> . وقد أشير إلى الصحيفة في كتب السيرة حين اتفقت قريش على مقاطعةبني هاشم ، وكبّلت بذلك صحيفة ، كتبها ( بغيض بن عامر بن هاشم ) ، أو ( منصور بن عبد شرحيل ) المعروف بأبي الروم على بعض الروايات<sup>٤</sup> . والمصحف ما جعل جاماً للصحف المكتوبة بين الدفين . والتصحيف قراءة المصحف وروايته على غير ما هو لأشباء حروفه<sup>٥</sup> .

وقد قيل للقرآن : المصحف ، وإنما سمي المصحف مصحفاً لأنه أصحف أي جعل جاماً للصحف المكتوبة بين الدفين<sup>٦</sup> . وتقرأ في الأخبار أن بعضًا من الصحابة والتابعين كانوا يملكون صحيفة أو صحفاً دونها فيها حديث الرسول أو أمراً من مور الشعر وأخبار العرب وأمثال ذلك . فكان ( عبدالله بن عمرو بن العاص ) قد كتب حديث الرسول في صحيفة؛ وقد أذن الرسول له أن يكتب حديثه فيها<sup>٧</sup> .

١ تاج العروس ( ٨٦/٧ ) ، المغرب ( ٢٤٦/٢ ) ، صبح الاعشى ( ٤٧٦/٢ ) .

٢ سورة الأعلى ، الآية ١٨ وما بعدها .

٣ سورة البينة ، الآية ٢ وما بعدها .

٤ نسب قريش ( من ٢٥٤ وما بعدها ) ، ابن هشام ( ٣٧٥/١ ) وما بعدها .

٥ المفردات ( من ٢٧٦ ) ، المغرب ( من ٢٩٨ ) ، تاج العروس ( ١٦١/٦ ) ، صبح

الاعشى ( ٤٧٤/٢ وما بعدها ) ، بلوغ الارب ( ٣٧١/٣ ) .

٦ اللسان ( ١٨٦/٩ ) وما بعدها .

٧ تذكرة الحفاظ ( ٥/١ ) .

وقد أشير الى الصحيفة في شعر (المتلمس)<sup>١</sup> ، ويظهر من الشعر الذي ذكرت اللقطة فيه ، أنه قصد بها رسالة ، أي كتاباً أمر ملك الحيرة (عمرو بن هند) بتدوينه ، وأعطاه اليه ، ليحمله الى عامله على البحرين على نحو ما ورد في خبره. كما أشير الى الصحيفة في شعر شعراء آخرين<sup>٢</sup> .

ويقال للصحيفة طرس ، ويجمع على طروس<sup>٣</sup> . ويقال إن الطرس الصحيفة المكتوبة<sup>٤</sup> ، وقيل: الكتاب الممحو الذي يستطاع أن تعاد فيه الكتابة. والتطريس: فعلك به . وطرس الباب سواده ، والطليس : كتاب لم ينعم محوه ، فيصير طرساً . والتطريس اعادة الكتابة على المكتوب الممحو<sup>٥</sup> .

ورأى بعض العلماء أن الصحف ما كان من جلود<sup>٦</sup> . وذهب بعض آخر ، الى أنها من جلد أو قرطاس . وأن القرطاس والصحيفة ، هما في معنى واحد ، وهو الكاغد<sup>٧</sup> .

وذكرت (الصحيفة) في شعر القبيط بن يعمر الإيادي ، هو قوله :

سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد

وذلك في قصيدة التي كتبها اليهم ، يخبرهم فيها بمسير (كسرى) عليهم ، وبعذرهم من قدومه<sup>٨</sup> .

١ أودى الذي علق الصحيفة منها  
الق الصحيفة ، لا أبدا لك انه

...

ورهنتني هندا ، وعرضك في صحف تلوح كأنها خلل

الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (ص ١٣٢) ، الأغاني (١٣٥/٢١) .

٢ الشعر والشعراء (١٥٢/١) ، ديوان قيس بن الخطيم (١٩) ، ديوان الهدليين (٦٤/١) ، المرزباني ، معجم (٣٠٤) ، الاصمعيات (٦٣) .

٣ صبح الاعشى (٤٧٦/٢) .

٤ فرأى الله اللغة (ص ٢٧٧) ، ورد في شعر للبيد :

فاجازني منه بطرس ناطق ويكل أطلس جوبه في المنكب

٥ شرح ديوان نيد (ص ١٥٥) .

٦ بلوغ الارب (٣٧١/٣) ، الاقتضاب (٩٣) ، الفائق (٨١/٢) ، اللسان (٦/١٢١) ،

٧ تاج العروس (٤/٤) (طرس) .

٨ بلوغ الارب (٣٧١/٣) ، مبادي اللغة (ص ٩٠) ، (مطبعة السعادة ١٣٢٥) .

٩ صبح الاعشى (٤٧٤/٢) .

١٠ الشعر والشعراء (١٢٩/١) ، الأغاني (٢٣/٢٠) .

كما ذكرت في شعر لعدي بن زيد العبادي ، وصف فيه قصة ( الزباء )  
و ( جذمة ) و ( قصیر ) ، حيث يقول :

ودست في صحيفتها اليه ليملاك بُضعها ولأن تدينا

وكان من عادة أهل الجاهلية تدوين أحلافهم في صحف ، توكيداً للعهد ،  
وتثبيتاً له . وقد أشير إلى ذلك في الشعر وفي الأخبار . ورد في شعر قيس بن  
الخطيم :

لما بدت غدوة جياثهم حنت علينا الأرحام والصحف<sup>١</sup>

وأشير إليها في شعر ينسب لدرهم بن زيد الأوسي ، يخاطب الخزرج بما كان  
بينهم من عهود ومواثيق ، إذ يقول :

ولأن ما بيننا وبينكم حين يقال الأرحام والصحف<sup>٢</sup>

ولما قاطعت قريش (بني هاشم وبني المطلب) ، كتبت بذلك كتاباً عرف  
بـ (صحيفة قريش) ، وختموا عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة ،  
وقيل : بل كانت عند أم الجلاس مخربة الحنظلية ، حالة أبي جهل ، وقبل  
عند هشام بن عبد العزي<sup>٣</sup> .

وترد الصحف بمعنى الوثائق ، وكل تسجيل يراد الاحتفاظ به للرجوع إليه  
عند الحاجة ، فالذيون تسجل في صحف وكتب ، والأمور الهامة تسجل فيها  
كذلك ، هذا (علاء بن أرقم بن عوف) الشاعر البشكري ، يذكر ديناراً دون  
في صحيفة ، فيقول :

أخذت للدين مطمئن صحيفة وخالفت فيها كل من جار أو ظلم<sup>٤</sup>

١ الشعر والشعراء (١٥٢/١) ، الاغاني (١٠١/٢) .

٢ ديوان قيس (١٩) .

٣ مصادر الشعر الجاهلي (٦٦) .

٤ امتاع الاسماع (٢٥/١) .

٥ الاصميات (٦٣) ، الخزانة (٣٠٤/٢) ، (٣٦٥/٤) ، (٣٨٤) ، المرزبانى ، مجم<sup>٥</sup>  
(١٦٩) ، (فراج) .

وقد ورد ذكر صحف الدين هذه في كتاب الرسول إلى نقيف، إذ جاء فيه : «وما كان لنقيف من دين في صحفهم اليوم الذي أسلموا عليه في الناس فإنه لهم». وقد ذكر أن الناس كانوا يكتبون بالهارق قبل الفراطيس في العراق . وقد ذكر (المهرق) في شعر حسان :

### كم للمنازل من شهر وأحوال كما تقادم عهد المهرق البالي<sup>١</sup>

وكانوا يغسلون الصحف المكتوبة للاستفادة منها ، بكتابة شيء جديد يراد كتابته عليها ، وذلك لغلاء مادة الكتابة وصعوبة الحصول عليها ، فيطمسون معلم الكتابة السابقة بغسلها بالماء مثلاً ، فإذا جفت كتبوا عليها. وقد تسبب هذا الفعل إلى وقوع خسارة كبيرة بالنسبة لتدوين العلم ، إذ غسل هذا الماء مادة علمية ثمينة كانت ستفيدها كثيراً بالطبع لو بقيت مدونة على الصحف . فخسرنا نحن خسارة ثمينة ولا شك لا تعوض .

واستعمل الجاهليون السبورة في الكتابة . ويريدون بها جريدة من الألواح من ساج أو غيره ، يكتب عليها . فإذا استغروا عنها محواها ، وهي معربة . وقد رواها جماعة من أهل الحديث (ستورة) . وبهذا المعنى وردت السبورة ، وهي معربة كذلك<sup>٢</sup> .

والمهارق من الألفاظ المعربة ، يرى علماء اللغة أنها من الفارسية ، وإن أصلها (مهر كرده) (مهر كرد) ، أي صقلت بالخرز . وقد عرفها بعض علماء اللغة بأنها ثياب بيض أو حرير أبيض ، تسقى بالصمغ وتصقل ، ثم يكتب عليها . وقيل : هي الصحائف ، الواحد مهرق . وذكر الجاحظ أن الكتب لا يقال لها مهارق ، حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود ، أو ميثاق وأمان<sup>٣</sup> .

١ الدكتور محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية (١٦٠) .

٢ تاج العروس (٩٥/٧) ، (هرق) .

٣ شرح القاموس (٢٥٣/٣) ، (٢٧٠) .

٤ قال العارث بن حلزة اليشكري :

لن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس  
المغرب (ص ٣٠٣ وما بعدها ، الحيوان ١/٧٠) ( تحقيق عبد السلام هارون ) ،  
صحيح الاعushi (٤٧٦/٢) ، المفضليات (ص ٥٣) (طبعة السنديوبى) ، غرائب  
اللغة (ص ٢٤٦) ، شرح ديوان الحماسة (٤/١٣٠) ، شرح القصائد العشر  
(٢٦٨) (الطبعة المنيطرية) ، المخصص (٤/٣٤٠) ، (آياتها كمهارق العبس) ،  
تاج العروس (٧/٩٥ وما بعدها) ، (هرق) ، الحيوان (١/٧٠) ، اللسان  
(١٠/٣٦٨) ، (هرق) .

ويظهر من الشعر النسوب للحارث بن حلزة اليشكري ، ان أصل المهارق من الفرس وهذا عبر عنها بقوله : ( كمهارق الفرس ) . ولعله قصد كتاباً وصحفاً دينية من دياتهم المجوسيّة . وقد وردت اللفظة في شعر ينسب للأعشى<sup>١</sup> وفي شعر آخر ينسب للحارث بن حلزة اليشكري المذكور<sup>٢</sup> .

قال ( المباحث ) : « والمهارق ، ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود ، وميثاق ، وأمان ». وقال قبل ذلك : « لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكوك ، وكل إقطاع ، وكل اتفاق ، وكل أمان . وكل عهد وعقد ، وكل حوار وحلف ، ولتعظيم ذلك ، والثقة به والاستناد اليه ، كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والمدنة ، تقطيماً للأمر ، وتبعداً من التسبان ، ولذلك قال الحارث بن حلزة ، في شأن بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّم فيه ، العهود والكفلاء  
حذر الجور والتعدي ، وهل ينقض ما في المهارق الأهواء »<sup>٣</sup>

وقد أشار ( الحارث بن حلزة ) اليشكري الى ( مهارق الفرس ) ، وذلك في قوله :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس<sup>٤</sup>

ونوع آخر من ( المهارق ) عمل من الكرايس ، أي من الثياب المصنوعة من الكرباس وهو القطن الأبيض ، وذلك يسمى الكرباس ، بصبغ أو ياطلاته بشيء آخر يسد المسامات ، ثم يقصله بالحرز<sup>٥</sup> . فهو إذن من النوع الجيد الغالي بالنسبة

١ ربي كربم لا يكدر نعمة واذا ينشد بالمهارق انشدا  
ديوان الأعشى ( ٢٢٩ ) ( القاهرة ١٩٥٠ م ) ، أدب الكتاب ( ١٠٦ ) ، ( اذا  
تنوشد ) ، اللسان ( ٣٦٨ / ١٠ ) ، ( هرق ) .

٢ حذر الجور والتعدي وهل ينقض ما في المهارق الأهواء  
شرح المعلقات السبع ، للزوذني ( ص ١٦٧ ) ، المفضليات ( ٢٥ ) ، شرح المعلقات ،  
لتبريزى ( ٢٦٨ ) وما بعدها .

٣ العيون ( ٦٩ / ١ ) وما بعدها .

٤ المفضليات ( ١٣٢ ) .

٥ شرح المعلقات ( ٢٠٠ ) وما بعدها ، ٢٦٨ وما بعدها .

إلى مواد الكتابة ، ولذلك كانوا يستعملونه في الأمور الكتابية الجليلة .

وقد أشير في شعر (الأسود بن يعفر) إلى سطور يهوديين في مهربقيها مجيدين في الكتابة ، هما من أهل (تيماء) أو من (أهل مدین)<sup>١</sup> . ولم يشر إلى نوع القلم الذي كتبوا به ، وأغلب الظن أنه قلم عراني .

وقد استعمل الجاهليون (الصكوك) في تعاملهم . وذكر علماء اللغة أن (الصلك) الذي يكتب للعهدة ، وكانت الأزرق تسمى صلاكاً لأنها كانت تخرج مكتوبة . ومنه الحديث في النهي عن شراء الصلاك ، وذلك أن الأمراء كانوا يكتبون للناس بأرزاقهم وأعطياتهم كتاباً ، فيبيعون ما فيها قبل أن يقبضوها معجلاً ، ويعطون المشتري الصلك ليمضي ويقبضه ، فنهوا عن ذلك لأنه بيع ما لم يقبض . وذكروا أن اللفظة من الألفاظ العربية ، أصلها فارسي<sup>٢</sup> . واستعملت الصكوك في الدين . فورد (صلك دين)<sup>٣</sup> .

وقد أخذنا جزيرة العرب بمحاجرة كثيرة مكتوبة ، ولكنها لم تتدنى باللين المكتوب أو الطين المكتوب المشوي بالنار إلا في النادر . مع أن الكتابة على الطين أسهل من الكتابة على الحجر . ولعل وجود الحجر بكثرة في العربية الغربية والجنوبية ومقاومة الحجر للبلل والتلف مما اللدان دفعاً أهل هذه البلاد على تفضيل الحجر في الكتابة على الطين . ولا يستبعد عنور الآثاريين والمتخصصين في المستقبل على كتابات جاهلية مسجلة على الطين ولا سيما في المناطق الماحلة أو التي يقل فيها وجود الحجر ، هي الآن مطحورة في باطن الأرض .

وأعطوا للصحف أسماء إذا كانت قد كتبت في أغراض خاصة . فإذا كانت الصحيفة اعطاء أرض لشخص ، كإقطاعه أرضاً ، يعطى الشخص صحيفة مدونة بذلك ، تثبت له تسجيل الأرض المقطعة باسمه يقال لها (الوصر) و (الاصر) . وقد ذكر علماء اللغة ان الاصر : العهد والعقد . وقيل العهد التقييل<sup>٤</sup> . وإن

١ سطور يهوديين في مهربقيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدین  
مصادر الشعر الجاهلي (٨٢) .

٢ اللسان (٤٥٧/١٠) ، (صلك) ، مفاتيح العلوم (ص ٣٨) .

٣ مجالس ثعلب (٢٧) .

٤ تاج العروس (٣/١٤) ، (اصر) .

(الوصر) الصك الذي تكتب فيه السجلات . والأصل اصر ، سمي به لأن الأصر العهد ويسمي كتاب الشروط كتاب العهد والوثائق، ويطلق غالباً على كتاب الشراء . قال علدي بن زيد :

فأيكم لم ينله عرف فائله دثراً سواما وفي الأرياف أو صارا<sup>١</sup>

أما إذا كانت الصحيفة صحيحة جوازها ، كان يعطي الملك جواز ل أصحابه وأتباعه ، قبل للصحف التي يدون قدر الجائزة أو نوعها عليها القطوط والمفرد : القط . وقد ذكرها الأعشى في شعره :

ولا الملك النعمان يوم لقيته يامته يعطي القطوط ويافق<sup>٢</sup>

وورد ذكرها في شعر المتمس ، إذ قال :

وأليقيتها بالثني من جنب كافر كذلك ألقى كل قط مضلل<sup>٣</sup>

وقد عرفت (القط) أنها الصك بالجائزه ، وهي الصحيفة للانسان بصلة يوصل بها . وقيل القط الصحيفة المكتوبة وكتاب المحاسبة . قيل : سميت قطوط لأنها كانت تخرج مكتوبة في رقاع وصكاك مقطوعة<sup>٤</sup> .

وقد كانت الحاجة تدفع الكتاب الى تدوين ما يريدون تقديره وكتابته على ملابسهم وعلى راحة أيديهم ، بل على نعالم أحياناً . روي عن (سعید بن جبیر) انه قال : « كان ابن عباس على علي في الصحيفة حتى أملأها وأكتب في نعلي حتى أملأها ». وقد كانوا يكتبون على المودج أو على أي شيء يجدونه أمامهم ، مثل الرحل ، لندرة الورق عندهم و الحاجتهم الى تسجيل ما يسمعونه ، أو ابلاغ قومهم بسر أو بر رسالة ، فيغافل المرسل من يعرف أنه قاصد الجهة التي يريد لها

١ تاج العروس (٦٠٢/٣) ، (الوصر) .

٢ تاج العروس (٢٠٩/٥) ، (قطط) .

٣ الباطليوسى ، الإقتضاب (٩٣) ، مصادر الشعر (٧٠ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٢٠٩/٥) ، (قطط) .

٥ تقدير العلم (١٠٢) .

فيحفي بسكنه على الراحلة ما يريده تبليغه من سر<sup>١</sup>. وورد عن (سعيد بن جير) قوله «كنت أكتب عند ابن عباس في صحيحتي حتى أملأها ، ثم أكتب في ظهر نعلي ، ثم أكتب في كفي». وروى أنهم كانوا يكتبون على أكفهـ بالقصب عند البراء ، وأن (الزهري) ربما كتب الحديث في ظهر نعله مخافة ان يفوته<sup>٢</sup>.

ولفظة : (كتب) التي نستعملها اليوم ، ومن أصلها اشتقت لفظة (كتابة) و (كتاب) وكاتب وأمثالها ، هي من الألفاظ العربية الشهالية المعروفة المتداولة عند الجاهليـن . وقد وردت لفظة (كتاب) بمعان متعددة ، منها هذا المعنى المعروف ، ومنها الصحيفة مع المكتوب فيها . وقد قصد بها التوراة في مواضع من القرآن الكريم . وأريد بـ (أهل الكتاب) اليهود والنصارى ، أهل التوراة والأنجـيل<sup>٣</sup> .

وقد استعملت اللحـيانـية لفظة (كتب) أيضاً ، فوردت في عدد من الكتابات . عبرت عن (الكتابة) و (الخط) بلفظة ( هـكتب )<sup>٤</sup> . ولهـاء أدـاة للتعريف عندـهم ، ويجـوز أنـهم كانوا يـنطقـون بها على هذه الصورة : ( هـكتـاب ) ، أو ( هـاكتـاب ) ، أي : ( الكتاب ) و ( الكتابة ) .

ومـى فـكر الإـنسـانـ في الكـتابـةـ تـذـكـرـ ( القرـاءـةـ ) . فالكتـابـةـ التـدوـينـ ، القرـاءـةـ قـراءـةـ الشـيءـ المـدوـنـ . ولهـذا يـقالـ : القرـاءـةـ والكتـابـةـ ، كـما يـقالـ : قـارـئـ كـاتـبـ ، أي يـحسـنـ وـيـجيـدـ الـحالـيـنـ . فـقدـ كانـ الـبعـضـ يـقرـأـونـ وـلاـ يـكـتبـونـ . روـيـ أنـ ( عـائـشـةـ ) كانت تـقـرـأـ المـصـحـفـ ، وـلاـ تـكـتبـ ، وـأنـ ( أمـ سـلـمـةـ ) كانت مـثـلـهاـ تـقـرـأـ وـلاـ تـكـتبـ<sup>٥</sup> .

ونجد لـفـظـةـ (كتـابـ)ـ في شـعـرـ عـدـدـ منـ الشـعـراءـ الجـاهـليـنـ . وـقدـ استـعملـ (عـدـيـ ابنـ زـيدـ العـبـاديـ)ـ (كتـابـ اللهـ)ـ فيـ شـعـرهـ<sup>٦</sup> ، وـلـماـ كانـ هـذاـ الشـاعـرـ نـصـرـانـيـاـ ،

١ المفضليـاتـ (٤٥٩ـ وـمـاـ بـعـدـهـ)ـ ، الطـبـقاتـ (٢/٣ـ صـ ١٥١ـ)ـ ، تـقيـيدـ الـعـلـمـ (١٠٢ـ)ـ ، المصـاحـفـ (٢٠ـ)ـ .

٢ تـقيـيدـ الـعـلـمـ (١٠٢ـ ، ١٠٥ـ ، ١٠٧ـ)ـ .

٣ المـفرـدـاتـ (صـ ٤٣٤ـ وـمـاـ بـعـدـهـ)ـ .

٤ رـاجـعـ النـصـنـينـ (٤٨ـ وـ٤٩ـ)ـ مـنـ كـتابـ : Lihyanisch, S. 99.

٥ فـتـرـحـ الـبـلـدـاـنـ (٤٥٨ـ)ـ ، (أـمـ الـخـطـ)ـ .

٦ وـناـشـدـتـنـاـ بـكتـابـ اللهـ حـرـمـنـاـ وـلـمـ تـكـنـ بـكتـابـ اللهـ تـرـقـعـ شـعـراءـ النـصـرـانـيـةـ (صـ ٤٧٢ـ)ـ .

يكون قصد بـ (كتاب الله) الإنجيل ولعله قصد التوراة والإنجيل معاً . وجاءت جملة : (آيات الكتاب) في شعر (تميم بن أبي بن مقبل العامري)<sup>١</sup> . أما زهير ، فقد استعمل لفظة (كتاب) أيضاً في معنى الشيء الذي يكتب ويدوّن عليه ليحفظ لوقت الحساب<sup>٢</sup> .

وتؤدي لفظة (كتاب) معنى رسالة . فقد كانوا يطلقون على الرسالة لفظة (كتاب) ، والجمع (كتب) . ومن ذلك ما ورد في خبر (كتب رسول الله إلى الملوك)<sup>٣</sup> و (خبر كتاب مسلمة إلى رسول الله والجواب عنه)<sup>٤</sup> . ولفظة (دفتر) ، في معنى جماعة الصحف المضمومة ، وهي الكرايس<sup>٥</sup> . وفي قول عمرة : « ولو انطبق عليكم الدفتر » ، يعني ولو أن تكتبوا آخر الناس<sup>٦</sup> . ولا أظن أن اللفظة قد دخلت العربية في أيام عمر ، بل لا بد وأن تكون من الألفاظ المستعملة في الجاهلية . وذكر أن الدفتر جريدة الحساب والكراسة<sup>٧</sup> . والكراسة الجزء من الصحفة والكتاب . يقال : « هذا الكتاب عدة كرايس » ، و (كراس أسفار)<sup>٨</sup> . وترد اللفظة في لغةبني لرم ، بمعنى (كتيب) وجزء من كتاب يحتوي في الغالب ثانوي ورقات<sup>٩</sup> .

وكانوا يسجلون عقودهم وأخبارهم في كتب ، أي صحف ، من ذلك ما ورد في قصة النهان مع (الحارث بن ظالم) ، فقد ورد انه كتب اليه كتاباً وكان يومئذ بمكة يؤمه إإن عاد اليه ، فلما جاء إلى (النهان) ، وقال له : أنعم صباحاً أبىت اللعن ، انتهره الملك بقوله : لا أنعم الله صباحك . فقال الحارث : هذا كتابك ! قال النهان : كتابي والله ما أنكره أنا كتبته<sup>١٠</sup> . وكان (عبد الرحمن ابن عوف) ، قد كاتب (أميمة بن خلف) في أن يحفظه في صاغيته بمكة ،

١ جمهرة أشعار العرب (٣١٨) .

٢ يؤخر فيوضع في كتاب فيدخل  
ديوان زهير (١٨) .

٣ تاريخ الطبرى (٢/٦٤٤ وما بعدها) .

٤ (الطبرى ١٤٦/٣ وما بعدها) .

٥ النساء (٢٨١/٤) ، (دفتر) .

٦ تاج العروس (٣/٢٠٩) ، (دفتر) .

٧ تاج العروس (٣/٢٠٩) ، (دفتر) .

٨ تاج العروس (٤/٢٣٣) ، (كرس) .

٩ غرائب اللغة (٢٠٣) .

١٠ الأغاني (١١/١٢٠) .

وأن يحفظه في صاغيته بالمدينة ، وكتباً هذه المكابية في كتاب<sup>١</sup> .

وترد لفظة (كتاب) بمعنى اعلان واحراق حتى ، كالذى ورد في خبر (رؤيا) (عاتكة بنت عبد المطلب) ، عن مصير معركة (بدر) ، وقول قريش للعباس : « يا بني عبد المطلب ! أما رضيتم أن يتربأ رجالكم حتى تتبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة في رؤياها انه قال : انفروا من ثلاثة ، فستربص بكم هذه الثلاث ، فإن يلكم حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً انكم أكذب أهل بيته في العرب »<sup>٢</sup> .

ويعبر عن الكتابة بالخط ، وتعنى لفظة خط<sup>٣</sup> ، كتب . في القرآن الكريم : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه يمينك »<sup>٤</sup> . وقد عبر عنها بالقلم كذلك ، قبيل : القلم العربي ، والقلم الحميري . ويراد بالقلم الحميري المستند ، ويقولون له الخط المستند كذلك . وقد يقى ناس من أهل اليمن يكتبون به في الإسلام<sup>٥</sup> . وقد وردت لفظة (خطسط) ، أي الخط والرمم ، في النصوص الصفرية<sup>٦</sup> . وهذا يدل على أن هذه اللفظة هي من الألفاظ التي كان يستعملها العرب الشماليون . واهاء في (خطسط) أداة التعريف (الـ) في عريتنا .

وتعبر الكلمة (سطر) عن معنى خط وكتب . و (السطر) الخط والكتابة . ووردت لفظة (يسطرون) في القرآن الكريم في سورة (ن) بمعنى يكتبون<sup>٧</sup> . ووردت لفظة (سطر) في نص (أبرهة) بهذا المعنى أيضاً . كما نجدتها في نصوص عربية جنوبية أخرى ، مما يدل على ورودها في اللهجات العربية الجنوبية كذلك . وتقابلاها لفظة (سرتو) Serto و (سورتو) Sourto من الفعل (سرت) Srat في الإرمية . ومن هنا ذهب بعض الباحثين في الإرمية إلى أن (سطر) العربية هي

١ الزمخشري ، الفائق (٢/٢٦) .

٢ ابن هشام (٢/٦٢) ، (حاشية على الروض) .

٣ سورة العنكبوت ، الآية ٤٨ ، المفردات (ص ١٥٠) .

٤ تاج المرروس (٢/٣٨٢) ، (سنند) .

٥ CIIH, Pars Quinta, I, p. 27, NU : 141, Dunand, 1249a, p. 385, NU : 3943, J. Ryckmans', Inscriptions Safaitiques, Louvain, 1951, p. 3, Littmann, Safa., p. 80, 82.

٦ سورة القلم ، الآية ٦٨ ، الآية ١ وما بعدها .

(كلمة سريانية الأصل)<sup>١</sup>. وهو رأي يمثل وجهة نظر طائفة من الباحثين ترجع أصول أكثر المصطلحات الحضارية والثقافية الواردة في العربية إلى أصل سرياني . وفيه تسرع وبعد عن العلم .

والسطر ، الصف من الشيء . والتسطير ، كتابة بسطور ، أي الخط والكتابة<sup>٢</sup> . وقد كان معظم الجاهليين يجعلون كتابتهم سطورةً سطراً فوق سطر ، ليكون من الممكن تبع الكتابة إلا بعض الكتابات الصفوية والشودية واللحيانية التي اخْذت أشكالاً مختلفة ، تارة على هيئة هلال ، وتارة أخرى على شكل دائرة ، وحينما على شكل غير منسق ولا منظم ، إذ كان أصحابها رعاة في الغالب متنقلين ، فلم تكن كتابتهم متقدة ، كما أنهم لم يكونوا يملكون ورقاً وقرطاً ، فكتبوها على آلة حجارة وجدوها ، فاختلف شكل الخط لذلك .

والتسطير التخطيط . أي تدوين السطور وتخطيطها على شكل خطوط . ومن المجاز خططت عليه ذئبها ، أي سطرت<sup>٣</sup> . ووردت لفظة (اسطرن) (الأسطر) بمعنى الوثيقة والسطور في كتابات المسند<sup>٤</sup> .

ونجد في شعر الشاعر (الشماخ) ، وصفاً للخط ، كتبه حبر بيته من أسطر ، عرض فيها وأبيح . إذ يقول :

أَنْعَرَفُ رِسْمًا دَارِسًا قَدْ تَغَيَّرَا  
بِنَرْوَةِ أَنْوَرِي بَعْدَ لَيلٍ وَأَقْفَرَا<sup>٥</sup>  
كَمَا خَطَ عِرَانِيَّةَ بِيَمِينِهِ بَتِيهِ حَبْرٌ ثُمَّ عَرَضَ أَسْطَرَا

« والتعريف أن يشجع الكاتب ولا يبين الحروف ولا يقوم الخط » .

وتترد لفظة : (النقش) بمعنى الكتابة والتدوين والتخطيط . ورد : رجع النقش ، والوشم ، والكتابة : رد خطوطها ، وترجمتها أن يعاد عليها السواد مرة بعد أخرى . ومنه رجع الواشمة . قال ليدي :

١ برصوم (ص ٨٣) ، الأب رفائيل نختة اليسوعي ، غرائب اللغة العربية (بيروت ١٩٠٧) (ص ١٨٧) (١٨٧) ، Smith, A Dictio. III, p. 1789.

٢ تاج العروس (٣/٢٩٦ وما بعدها) ، (سطر) .

٣ تاج العروس (٥/١٣١) ، (خط) .

٤ Le Muséon, 1953, 1-2, p. 114.

٥ تاج العروس (٥/٥٠) ، (عرض) .

أو رجع واثمة أسف توررها كففا ، تعرض فوقهن وشامها

وقول زهير :

مراجع وشم في نواشر معصم<sup>١</sup> .

وفي هذا المعنى أيضا لفظة ( زَبَر ) . و ( الزبر ) الكتابة . و يذكر علماء اللغة أنها تعبّر عن معنى النتش في الحجارة كذلك . وأما ( المِزْبِر ) ، فهو ( القلم ) . كما ذكرت ذلك قبل قليل . وقد ورد في حديث وفاة الرسول انه دعا بدوامة ومزير ، أي قلم<sup>٢</sup> . وذكر ان الزبور الكتاب<sup>٣</sup> . وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم . للفظة ( زَبَر ) بالفتح اذن فعل ماضٍ بمعنى كتب ، وفي هذا المعنى أيضا لفظة ( ذَمَرَ ) . فنقول ( ذمرتُ الكتابَ ) ، أي زبرته وكتبته<sup>٤</sup> . وقصد ب ( الزبور ) في القرآن الكريم ، المزامير ، أي ( مزامير داود ) . وتقابيل لفظة ( زمرة ) ( زمراه ) في العبرانية<sup>٥</sup> .

ويظهر من البيت المنسوب الى لبيد :

فتعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان<sup>٦</sup>

ومن البيت المنسوب الى ( أبي ذؤيب ) :

عرفت الديار كرقم الدواة يزبرها الكاتب الحميري<sup>٧</sup>

ان أهل اليمن كانوا قد اشتهروا بالكتابة والقراءة بين الجاهليين وان ولدان أهل اليمن كانوا يرجعون أي يقرأون ويكررون ما هو مزبور أمامهم لحفظه . وأن ( الكاتب الحميري ) ، أي كاتب أهل اليمن كان معروفاً مشهوراً ، يحمل

١ اللسان ( ٨/١١٥ ) ، ( رجع ) .

٢ تاج العروس ( ٣/٢٣١ ) ، ( زبر ) .

٣ بلوغ الارب ( ٣/٣٧١ ) .

٤ الاشتقاء ( ص ٣٠ ) .

A Dictionary of Islam, p. 698.

٥ ديوان لبيد ( ١٢٨ ) .

٦ ديوان الهذللين ( ١/٦٤ ) .

٧

٨

٩

١٠

١١

١٢

١٣

الدواة ويكتب بها على مادة الكتابة . « قال أعرابي حيري : أنا أعرف تزبرتي أي كتابتي<sup>١</sup> . »

وأشير الى ( خط زبور ) في شعر امرئ القيس :

أنت حبيج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان<sup>٢</sup>

وذكر علماء اللغة أن ( الزبور ) الكتاب ، وفي هذا المعنى ورد قول لبيد :

وجلا السيل عن الطلول كأنها زير تحد متونها أفلامها

وذكروا أن الزبور قد غالب على كتاب ( داود ) ، أي ( المزامير ) ، وكل كتاب زبور . وقيل : هو الكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية<sup>٣</sup> .

واستعمل ( المدائني ) جملة : ( زير حير القديمة ومساندها الدهرية ) ، وقال إن ( أبي نصر ) الخبصي ، كان قد قرأها وكان بحاجة عالماً بها . وقد فرق بين ( الزير ) وبين ( المسائد )<sup>٤</sup> ، مما يدل على أنه قصد بالزير شيئاً آخر مختلف عن المسائد ، ربما أراد بالزير صحفاً أو مجموعة صحف ، أو كتاب ، أما المسائد ، فالكتابات المدوّنة على الحجر .

ومن المصطلحات المعبرة عن معنى كتب ونقش وخط لفظة ( رقم ) . و( كتاب مرقوم ) ، بمعنى مكتوب ، وأما المرقم فالقلم ، لأنه يرقم به<sup>٥</sup> . وذكر بعض علماء اللغة أن الرقم : الخط الغليظ ، وقيل : تعجم الكتاب . وقد ورد في القرآن الكريم : ( كتاب مرقوم)<sup>٦</sup> . وذكر أن: (الرقم)، الكتاب . والكتابة والخط<sup>٧</sup> .

١ الامالي ، للقالي ( ١٧٢/٢ ) .

٢ ديوان امرئ القيس ( ١٢٥ ) .

٣ تاج العروس ( ٢٣١/٣ ) ، ( زير ) ، راجع معلقة لبيد .

٤ الاكنيل ( ١٣/١ ) .

٥ تاج العروس ( ٨/٣١٥ ) وما بعدها ، ( رقم ) ، التهانوي ، كشف اصطلاحات الفنون ( ٦٥٢/١ ) .

٦ سورة المطففين ، الآية ٩ ، المفردات ( ٣٠١ ) .

٧ بلوغ الأدب ( ٣٧١/٣ ) ، اللسان ( ١٢/٢٤٨ ) وما بعدها .

« وفي الحديث أنه كان يسوى الصنوف حتى يدعها مثل القدر أو الرقيم ، أي مثل السهم أو سطر الكتابة » . وليس بين الرقام والخطوط فرقٌ<sup>١</sup> .

يقول علماء العربية : « ورقم الكتاب : أعمجه وبيته ، أي نقطه وبين حروفه . وكتاب مرقوم : قد بيّنت حروفه بعلاماتها من التقىط »<sup>٢</sup> . وإن الإعجام التقىط بالسوداد ، مثل الناء عليها نقطتان<sup>٣</sup> . وأن التقىط يعني وضع النقط على الحروف ، أي إعجامها<sup>٤</sup> . ويحملنا قولهم هذا على الذهاب إلى أن الإعجام كان معروفاً بين الجاهلين .

وفي هذا المعنى ، أي الرقام والترقيم والرقيم ترد لفظة (الترقين) ، و(الرقن) ، و (المرقون) ، و (الرقين) . و (ترقين الكتاب) : المقاربة بين السطور . وقيل نقط الخط وأعجامه ليتبين ، وأيضاً تحسين الكتاب وتزيينه )<sup>٥</sup> . « والترقين تسوييد مواضع في الحسابات لثلا يتورهم أنها بيضت كيلا يقع فيه حساب )<sup>٦</sup> .

وقد وردت لفظة (المنق) وجملة (الكتاب المنق) في شعر ينسب لسلامة ابن جندل ، هو :

لمن طلل<sup>٧</sup> مثل الكتاب المنق خلا عهده بين الصليب فطرق<sup>٨</sup>

وذكر علماء اللغة أن معنى (نق) كتب . فيقال : ناق الكتاب ينميه ، أي كتبه وحسنته وزينته بالكتابة وجوده<sup>٩</sup> . وفي هذا المعنى نبق ، فيقال : نبق الكتاب ونممه اذا سطره<sup>١٠</sup> . أما لفظة ، دبج ، فتعني التقوش والتزيين<sup>١١</sup> .

- ١ اللسان (٥٥٦/٢) ، الحيوان (١/٧٠) .
- ٢ تاج العروس (٣١٥/٨) ، (رقم) .
- ٣ تاج العروس (٣٩٠/٨) ، (عجم) .
- ٤ تاج العروس (٢٣٤/٥) ، (نقط) .
- ٥ تاج العروس (٢١٨/٩) ، (رقن) .
- ٦ المصدر نفسه .
- ٧ الأصمسيات (١٤٦) ، (دار المعارف) .
- ٨ قال النابغه :

- كان مجر الرامسات ذيولها عليه قضيم نمته الصوانع
- ٩ تاج العروس (٨١/٧) ، (نق) .
- ١٠ تاج العروس (٧٤/٧) ، (نبق) .
- ١١ تاج العروس (٣٧/٢) ، (دبج) .

وذكر علماء العربية ان (الرقش) الخلط الحسن ، وان الرقش والترقيش : الكتابة والتقطيط ، وان (رقش) ، يعني نقط الخطوط والكتاب . وأن الترقيش: التسطير في الصحف<sup>١</sup> . ويظهر ان الكلمة علاقة بتنمية الخلط وتحسينه وتجويده ، وان الخلط المرقش ، هو الخلط المننم المزوق المنقط المعنى به . قالوا : ومن هنا مي الشاعر (المرقش) مرقداً . وهو المرقش الأكبر عم (المرقش الأصغر) . وبدل هذا التفسير لمعنى (الترقيش) على ان التقطيط كان معروفاً عند الجاهليين . ورووا له قوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم<sup>٢</sup>

وقد وردت لفظة (رقش) في شعر ينسب للأختنس بن شهاب التغليبي ، هو :  
لابنة حطآن بن عوف منازل كما رقش العنوان في الرق كاتب<sup>٣</sup>  
كما وردت في شعر لطيفة ، هو :

كسطور البرق رقه بالضحي مرقش يشمء<sup>٤</sup>

و (اللنق) الكتابة في لغة (بني عقيل) ، وسائل (قيس) يقولون : اللنق : المحو . وقال بعضهم : « لقه بعدما نفعه ، أهي محاه بعدما كتبه » . فهو ضد . يقال لقه اذا كتبه ولقه اذا محاه<sup>٥</sup> .

و (النبق) الكتابة ، مثل النفق . ونبي الكتاب ونفعه اذا سطره<sup>٦</sup> .  
و (القرمطة) في الخلط دقة الكتابة وتداني الحروف والسطور ، وقرمط الكاتب  
إذا قارب بين كتابته . وكان الامام (علي) ، يقول للكاتب : « فرج ما بين  
السطور وقرب بين الحروف »<sup>٧</sup> .

- ١ اللسان (٣٠٥/٦) ، تاج العروس (٣١٤/٤) ، (رقش) .
- ٢ الاصميات (٢٣٧) ، (دار المعارف) ، تاج العروس (٣١٤/٤) ، (رقش) .
- ٣ الغزانة (١٦٥/٣) .
- ٤ الامالي ، للنفاري (٢٤٦/٢) .
- ٥ تاج العروس (٦٣/٧) ، (لق) .
- ٦ تاج العروس (٧٤/٧) ، (نبق) .
- ٧ تاج العروس (٢٠٤/٥) ، (قرمط) .

و (المنمة) ، خطوط متقاربة قصار ، وكتاب مننم ، منقش ، ومرقش وزخرف ، أي به زخرفة . ولكل شيءٍ منمة . فيظهر من ذلك أن بعض صحف وكتب أهل الجاهلية كانت منمنمة ذات رقوش ونقوش وoshi . وقد نعت (الجاحظ) الخط المسند بـ (المننم)<sup>١</sup> .

ويعبر عن الكتابة بلقطة (النقر) على سبيل المجاز . وقد ورد (نقر في الحجر) يعني كتب<sup>٢</sup> ، وذلك لأن الحجر المكتوب ، هو حجر منقول ، ظهرت الكتابة عليه بطريقة النقر . وكل ما وردلينا من الكتابات الجاهلية قد كتب على الحجر أو الخشب بالنقر والمحفر .

والمشتى السرعة في الكتابة . وقيل مشق الخط يمشقه مشقاً : مدة . فالمتشق الخط المدود الذي كتب بسرعة وبعجلة . ولذلك عبر عن القلم السريع الجري في الفرطاس بـ (قلم مشاق)<sup>٣</sup> . وورد أن أهل الأنبار كانوا يكتبون بالمشق . وهو خط فيه خفة<sup>٤</sup> .

ويعبر عن الكتابة الفاسدة المكتوبة بخط رديء فاسد بـ (كتابة غربشة) وبـ (كتاب غربش)<sup>٥</sup> . وبهذا المعنى أيضاً (الخرمسة) . فالخرمسة والخرمسة في معنى واحد<sup>٦</sup> .

وقد كانوا يستنسخون الكتب والصحف والأسطر كما تفعل . فقد ورد أن منهم من استنسخ كتاباً في الجاهلية والاسلام ، أي ينقلون الكتابة تقلاً بنصها وحروفها حرفاً حرفاً حتى تكون عند الناقل نسخة كاملة تامة للكتاب التي نقل عنها . والكاتب فاسخ ومتنسخ . والاستنساخ اكتتاب كتاب عن كتاب حرفاً حرفاً . وفي هذا المعنى ورد في القرآن : «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» ، أي نستنسخ ما تكتب الحفظة<sup>٧</sup> .

١ اللسان (١٢/٥٩٢ وما بعدها) ، (نم) ، تاج العروس (٨٥/٩) ، (نم) ، العيون (١/٧١) .

٢ تاج العروس (٣/٥٨٠) ، (نقر) .

٣ اللسان (١٠/٣٤٤ وما بعدها) ، (مشق) ، تاج العروس (٧/٧٠) ، (دمشق) .

٤ الاقتضاب (٨٩) ، المصاحف ، لرسجستانى (١٣٤) .

٥ اللسان (٦/٢٩٥) ، تاج العروس (٤/٣٠٤ وما بعدها) ، (خربس) ، (خرمس) .

٦ اللسان (٦/٢٩٥) .

٧ الجانة ، الآية ٢٩ ، تفسير القرطبي (١٦/١٧٥) ، (قال ابن عباس : هل يكون النسخ الا من كتاب) ، تاج العروس (٢٨٢/٢) ، (نسخ) .

وتعد لفظة (الترقين) ، بمعنى ترقين الكتاب وهو تزيينه ، وقيل (رقنَ الكتاب) قارب بين سطوره ، والترقين في كتاب الحسابات . والمرقين : الكاتب<sup>١</sup> . وقال بعضهم : « الترقين خط خط في التاريخ أو العريضة اذا خلا باب من السطر ، لكي يكون الترتيب محفوظاً به . وهو منزلة الصفر في حساب الهند وحساب الجمل ، واستعاقده من (رقان) وهو بالبنطية الفارغ »<sup>٢</sup> . وقيل الترقين : نقط الخط وإعجامه ليتبين ، وتسويده مواضع في الحسابات ثلاثة يتوجه منها بيضت كيلا يقع فيه حساب<sup>٣</sup> .

ولفظة (قرأ) من الألفاظ الجاهلية المعروفة . وهي أصل لمعانٍ عديدة ذات صلة بالقراءة . وتعبر جملة (قارأه مقارأة وقِراء) عن معنى دراسة . ومن الأصل المتقدم قارئ وقراءة<sup>٤</sup> . ولفظة (اقرأ)، هي أول لفظة نزل بها الوحي ، وأول كلمة من القرآن . كما ذكر ذلك أكثر المفسرين وأصحاب كتب السير والأخبار<sup>٥</sup> . كما وردت لفظة (قاريء) في حديث أول نزول الوحي على الرسول . وفي تفسير سورة (اقرأ) . وأما (المقارء) فبمعنى الذي قرأ . الكتب<sup>٦</sup> .

وتؤدي لفظة (تلاء) معنى قرأ ، والتلاوة القراءة<sup>٧</sup> . وتعد لفظة مبروز بمعنى منشور ، استشهد على ذلك بشعر للبيهقي ، هو :

الناطق المبروز والمحظوم<sup>٨</sup> .

ومن أصل (درس) المدرس ودارس ومدارس، وهي تقابل (درش) في العبرانية والسريانية . وقد ذكر علماء اللغة أن المدرس الموضع الذي يدرس فيه كتاب الله ، ومنه مدارس اليهود، وأن المدارسة والدارسة القراءة ، وأن المدرس

- |   |  |
|---|--|
| ١ | اللسان (١٢/١٨٥)، (صادر)، (رقن) .                 |
| ٢ | مفاتيح العلوم (٣٩) .                             |
| ٣ | تاج العروس (٩/٢١٨)، (رقن) .                      |
| ٤ | تاج العروس (١/١٠١)، (قرأ) .                      |
| ٥ | رابع تفسير سورة : اقرأ باسم ربك .                |
| ٦ | تاج العروس (٤/١٥٠)، (درس) .                      |
| ٧ | تاج العروس (١٠/٥٢ وما بعدها) ، المفردات (ص ٧٤) . |
| ٨ | شمس العلوم (١/١٤٦) .                             |

صاحب دراسة اليهود ، كما ذكروا أن الآية : « ول يقولوا دارست » في قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، معناها « قرأت على اليهود وقرأوا عليك » ، وتعني دراس النبي اليهود . وقبل: دارست ذاكرتهم<sup>١</sup> . و (المدرس) ، من (مدرس) في العبرانية ، وتعني المدرسة بالمعنى العام . وخصصت بالشروح والتفسيرات التي وضعها الأخبار على الأسفار<sup>٢</sup> . وتؤدي لفظة (درس) و (درش) الدراسة العميقه للفهم والتعلم ، فهي أعمق غوراً من معنى قرأ . وقد كان العبرانيون يعبرون بها عن دراسة الشريعة للتوراة .

وقد كان (عمرو) من (بني ماسكة) ، وهو المعروف بـ (أبي الشعثاء) قد رأس اليهود التي تلي بيت الدراسة للتوراة . وكان ذا قدر فيهم<sup>٣</sup> .

وقد أشار علماء اللغة الى كتب كانت عند الجاهليين ذكروا أنها عرفت عندهم بالروايم جمع روسم<sup>٤</sup> ، ولم يذكروا محتوياتها ومضمونتها . و (الراشوم) في السريانية لوح منقوش تختتم به البيادر من (رسمو) Rouchmo بمعنى العلامة . والآللة (رسمه) Rshme كما أن (رسم) معناها رسم ، ومنها الراسم والمرسوم المستعملتان في التصرينية في رسم الأسقف<sup>٥</sup> . ولا أستبعد أن يكون مراد تلك الكتب كتاباً دينية مستعملة عند النصارى الجاهليين .

وعرفت لفظة (الوضائع) عند الجاهليين ، فذكر علماء اللغة أن الوضيعة كتاب فيه الحكمة . وقد ورد في الحديث: إنه نبى وإن اسمه وصورته في الوضائع<sup>٦</sup> .

وقد ذكر علماء اللغة أن (السفر) الكتاب الذي يسفر عن الحقائق . وفيه الكتاب الكبير ، والجزء من أجزاء التوراة . وأما (السفرة) فمعنى الكتبة ، وسفر الكتب كتبها . وقد ذكر علماء اللغة أن السفر ، يقابلها (سافرا) بالنبطية<sup>٧</sup> .

١ تاج العروس (٤/١٥٠) (درس) ، أساس البلاغة (١/٢٦٨) ، برصوم (ص ٦١).

٢ A Religious Ency. III, p. 1504.

٣ الأغاني (٦/١٥) .

٤ تاج العروس (٨/٣١٢) .

٥ برصوم (ص ٧٣ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ١٨٣) .

٦ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، اللسان (٨/٣٩٩) ، صادر ، (وضع) .

٧ تاج العروس (٣/٢٧١) ، (سفر) .

وقصد بـ (أسفار) الواردۃ في القرآن الكريم ، التوراة . وبـ (سفرة) كتبة<sup>١</sup> . وقد قال السيوطي : إن الأسفار الكتب ، والكتاب بالنبطية يسمى سفراً<sup>٢</sup> .

وقد وردت لفظة (هسپر) أي (السفر) في اللهجة الصفویة بمعنى الكتابة . فورد في أحد النصوص ( وعور للد يعور هسپر )<sup>٣</sup> ، ومعناها ( وعور " للنبي يعور " الكتابة ) ، وبعبارة أوضح ( وعور للنبي يوذى هذه الكتابة ) . والعور في اللهجة الصفویة بمعنى عواره أي أذية وأذى . ولا بد أن يكون مدلول (سفر) عندهم كمدلول كتب في عربتنا . وقد وردت لفظة (سفر) بمعنى كتابة وخط في نصوص أخرى ، إذ ورد فيه : « ووْجَد سُفْرَ دَدَه »<sup>٤</sup> ، أي « ووْجَد كِتابَةً أَيْهَا » . و « ووْجَد خَطَّ أَيْهَا » .

وتعد اللفظة في العبرانية أيضاً . فلفظة (س ف ر) (سافور) تعني يخط ويكتب ومن هذا الأصل (سيفير) Sepher ويراد بها كتاب . كتاب يلف فيكون على هيئة شيء ملفف ، أو أوراق تجمع بعضها إلى بعض وترتبط<sup>٥</sup> . ومن العبرانية أخذ السريان لفظة (سُفْرُو) Sefro بمعنى سيفر . ومن هذا الأصل (سفر) Sfar بمعنى درس وكتب وتفقه وتعلم . وأما Sofro فيمعنى الكتاب ، أي المسجلون والفقهاء والأساتذة ورؤساء ، والجمع (سوفرة) Sofre . وأما Sofrouth فهي الكتابة ، أي حرفة الكاتب والفقه والعلم والخداقة<sup>٦</sup> . وعرف علماء اليهود حلة الشريعة بـ (سوفريم) Sopherim ، لأنهم يكتبون الشريعة<sup>٧</sup> .

١ المفردات (ص ٢٣٣) .

٢ المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الجبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجبية والنبطية والتقطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية ، دمشق ١٣٤٨ (ص ١١) .

CIS, Pars Quinta, Tome, I, p. 13, NUM : 58, p. 23, NUM : 105, Dunand, 1229.

CIS, Pars Quinta, Tome, I, p. 19, NUM : 93, p. 19, NUM : 93, p. 1, NUM : 94, 95, Littmann, Saf. p. 27.

Hastings p. 981.

برصوم (ص ٨٤ وما بعدها) غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

Smith, A Dictio., III, p. 1162.

و (السفير) الكتاب ، و (السفارة) أصحاب الأسفار ، وهي الكتب .  
وبه فسر قول (أبي طالب) حم النبي :

فإني والسبعين كل يوم وما تلو السفارة الشهدود<sup>١</sup>

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (السجل)<sup>٢</sup> ، وذهب بعض المفسرين الى أنها بمعنى الصحيفة والكتاب<sup>٣</sup> . وذهب بعض آخر الى أنها حجر يكتب فيه ، أو كل ما يكتب فيه<sup>٤</sup> . ولكنهم لم يذكروا شكل السجل وهيئته . وقد جعلها بعض العلماء من الألفاظ المعرفة . ورجع السيوطي أصلها الى الحبشية ، فقال أنها عندهم بمعنى الرجل<sup>٥</sup> . وذهب بعض آخر الى أنها من أصل فارسي<sup>٦</sup> . ولا تزال اللفظة حية مستعملة في الدوائر ، وتطلق على الأضابير والأوراق المحفوظة بين دفین في دوائر الحكومات والشركات والأعمال الأخرى ، كما تؤدي لفظة (مسجل) و (سجل) معنى مكتوب ويكتب . فلفظة سجل اذن بمعنى كتب ودون . واللفظة من الألفاظ المعرفة عن اللاتينية ، محرفة من *Sigillum* بمعنى ختم ، أي ختم العقود والوثائق وأمثال ذلك<sup>٧</sup> . ولا علاقة لها بالحبشية أو الفارسية . وقد تعني عند العرب كتاب العهد<sup>٨</sup> . وذكر بعضهم ان (السجل) ، اسم كاتب للنبي<sup>٩</sup> .

وروي ان السجل : الكتاب يكتب للرسول أو المخبر أو الرحال أو غيرهم باطلاق تفنته حيث بلغ فيها كل عامل يجتاز به . والسجل أيضاً المحضر يعقده القاضي بفصل القضاء<sup>١</sup> . وهذه المعاني ، هي من المعاني المتأخرة التي عرفت وشاعت في الاسلام . والظاهر ان أهل مكة لم يكونوا على علم تام بمعنى اللفظة ،

- ١ تاج العروس (٣/٢٧٢) ، (سفر) .
- ٢ الانبياء ، الآية ١٠٤ .
- ٣ الطبرسي (٧/٦٦) ، الاتقان (١/٢٣٦) ، تفسير الطبرى (١٧/٧٨) .
- ٤ المفردات (ص ٢٢٣) ، الا ب هنري يكوس لامنس اليهودي ، فرائد اللغة في الفروق الطبيعية الكاثوليكية (بيروت ١٨٨٩) (ص ١٢٠) مادة ٤٦٢ .
- ٥ المتوكلى (ص ٥) ، الاتقان (١/٢٣٦) .
- ٦ الاتقان (١/٢٣٦) .
- ٧ غرائب (ص ٢٧٨) ، فرائد اللغة في الفروق (ص ١٣٠) ، Ency., IV, p. 403.
- ٨ بلوغ الارب (٣/٣٧١) .
- ٩ تاج العروس (٧/٣٧٠) ، (سجل) .
- ١٠ مفاتيح العلوم (٣٨ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١١/٣٤٧) ، سورة الانبياء (١٠٤) .

لذلك اختلفوا في تفسيرها اختلافاً يرد في كتب التفسير في تفسير معنى (السجل) .  
ولا أستبعد استعمال الجاهليين للكتب التي تلف لفأ ، وذلك لسهولة المحافظة  
عليها ونقلها ، كالذى كان يفعله العبرانيون ولا يزالون يفعلونه في كتبهم المقدسة.  
ولا أستبعد أن يكون السجل المذكور في القرآن الكريم على هذا الشكل إذ يطوى  
ويلف لفأ ، وتوضع الكتب داخل غلاف للمحافظة عليها ، وقد زين أهل الكتاب  
أغلفة كتبهم المقدسة مبالغة في احترامها وتقديسها وتعظيمها . وإذا أرادوا فتحها ،  
أخذوها باحترام وتبجيل وقبلوها ، ثم تلوا منها على المتعبدين ما شاؤوا .

وإذا ثبت أن لفظة (مصحف) ، هي من الألفاظ الجاهلية ، فإن ذلك يدل  
على ان المصاحف ، أي الكتب المؤلفة من صحائف منضدة ومجلدة بين دفتين ،  
كانت معروفة عند الجاهليين . وأنا لا شئ للي في وجودها بهذا المعنى في أيام  
الرسول . غير اننا نلاحظ ان المسلمين خصصوا (المصحف) بالقرآن الكريم .  
و (المصحف) بالقرائين جمع قرآن . وحين يقولون (خطوط المصاحف) <sup>١</sup> ،  
فإنهم يقصدون كتابة القرائين .

ولفظة (القرآن) ، و (قرآن) ، نفسها تدل على وقوف الجاهليين على  
معنى المفهوم من اللفظة ، وهو القراءة . ولا بد أن يكون منهم من سمع من  
اليهود لفظة (مقرأ) التي تعني القراءة و (قرآن) ، أي تلاوة الكتاب المقدس  
وقد كانوا يتداولونها فيما بينهم ، ومنهم يهود اليمن والحجاز .

وتعد لفظة (الفهرس) في العربية ، وهي من الألفاظ المعرفة . ذكر بعضهم  
انها الكتاب الذي تجمع فيه الكتب <sup>٢</sup> . وعرفت كلمة (الفهرست) ، بـ (ذكر  
الأعمال والدفاتر تكون في الديوان ، وقد يكون لسائل الأشياء) <sup>٣</sup> . وهي من  
الألفاظ المعرفة عن الفارسية ، بمعنى جدول ، ومواد كتاب أو نحوه <sup>٤</sup> . ولكننا  
لا نستطيع إثبات أنها من الألفاظ التي عرفت بهذا المعنى عند الجاهليين .

وذكر ان (الديوان) ، مجتمع الصحف ، وإنما لفظة فارسية معرفة . وفي

- ١ الفهرست (ص ١٥) ، تاج العروس (٦/١٦١) ، (تصحيف)
- ٢ اللسان (٦/١٦٧) ، (فهرس) (صادر) ، تاج العروس (٤/٢١١) ، (فهرس) .
- ٣ مفاتيح العلوم (٣٩) .
- ٤ غرائب اللغة (٤٠) .

الحديث : « لا يجمعهم ديوان حافظ ». . وقيل الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء . وأول من دون الدواوين عمر . وذكر بعض العلماء ان الديوان الدفتر ثم قيل لكل كتاب . وقد ينحصر بـ شاعر معين وبمجموع الشعر<sup>١</sup> .

و (التاريخ) و (الإرادة) : شيء من كتب أصحاب الدواوين ، و (الأوراج) من كتب أصحاب الدواوين في المراج ونحوه<sup>٢</sup> . وقيل : التاريخ لفظة فارسية ، معناها النظام ، لأن التاريخ يعمل للعقد لعدة أبواب يحتاج إلى علم جملها ، لأن التاريخ يعمل للعقد شيئاً بالأوراج ، فإن ما يثبت تحت كل اسم من دفاتر القبض يكون مصقوفاً ليسهل عقده بالحساب . وهكذا يعمل التاريخ<sup>٣</sup> . والدفتر جماعة الصحف المضمومة ، وواحد الدفاتر<sup>٤</sup> . وهي من الألفاظ العربية عن الفارسية . ومعناها في الفارسية كتاب وسجل وحساب . ومن هذا الأصل لفظة ( دفتر خانة ) ، أي البيت الذي تحفظ فيه الدفاتر والوثائق ونحوها ، ولفظة ( دفتردار ) ، يعني الخازن ، وخازن الدفاتر<sup>٥</sup> . وما مصطلحان استعملما في الإسلام .

والكراسة واحدة الكراس والكراريس من الكتب<sup>٦</sup> . فهي مجموعة من صحف وجزء من كتاب . لأن الكراسة من الكتاب ، والكتاب بمجموع كراريس<sup>٧</sup> . وقد ذكر عليه اللغة أن المجلة ، الصحيفة يكتب فيها شيء من الحكم . وقال أبو عبيدة : كل كتاب عند العرب ، فهو مجلة<sup>٨</sup> . وقد وردت هذه اللفظة في شعر التابعية ، هو :

**مجلتهم ذات الإلَّاَهِ ودينهم قومٌ فَايْرِجُونَ غَيْرُ الْوَاقِبِ<sup>٩</sup>**

- |   |   |
|---|---|
| ١ | اللسان (١٦٦/١٣) ، (دون) ، تاج العروس (٢٠٤/٩) ، (دون) .  |
| ٢ | اللسان (٢٠٨/٢) ، (صادر) ، (أرج) .   |
| ٣ | مفآتيخ العلوم (٣٧) .  |
| ٤ | اللسان (٢٨٩/٤) ، (صادر) (دفتر) .  |
| ٥ | غرائب اللغة (٢٢٨) .   |
| ٦ | اللسان (١٩٣/٦) ، (كرس) .  |
| ٧ | تاج العروس (٢٣٢/٤) ، (كرس) .  |
| ٨ | شمس العلوم (الجزء الأول - القسم الثاني) ، (ص ٢٨١) .   |
| ٩ | برصوم (ص ١٦٣) ، بلوغ الارب (٣٧١/٣) ، (ويروى محلتهم بال Hague ، أي أنهم يبحجون فيحملون مواضع مقدسة) ، تاج العروس (٢٦١/٧) ، (جلل) . |

وقد قال النابغة ذلك في مدح الغساسنة . ولما كان الغساسنة نصارى ، فالمراد من المجلة إذن في هذا المكان ، الكتب المقدسة . وتخصيص علماء اللغة المجلة بالصيغة التي يكتب فيها الحكمة ، هو تفسير نشأ عن عدم فهمهم للكلمة . وذلك أنها من الألفاظ المستعملة عند أهل الكتاب يعني كتاب ملقوف على طريقة تلك الأيام في استعمال الكتب الملقوفة ، فظنوا أنها نوع خاص من الكتب خصص بالحكمة ، لوجود مواطن حكم فيها ، يستعملها رجال الدين في مواطنهم ، ففسروها بهذا التفسير .

وقد أشير في كتب السير والأخبار إلى (مجلة لقمان) ، وقيل : إنها حكمة لقمان . وأشار إلى أمثال لقمان<sup>١</sup> . والمجلة هي (مكلوت) : و(مكلتو) Magaltho في العبرانية والسريانية<sup>٢</sup> . ويراد بها كراس ملقوف وملف خطوطات ، وكتاب من أصل Golo يعني لف<sup>٣</sup> . وقد ذكر أن (سويد بن الصامت) كان يملك (مجلة لقمان) ، (حكمة لقمان) ، وأنه لقي الرسول يوماً ، فدعاه الرسول إلى الإسلام فقال له سعيد : لعل الذي معلمك مثل الذي معي . وكانت معه (مجلة لقمان) (حكمة لقمان) . فقال له الرسول : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أحسن منه وأفضل<sup>٤</sup> .

و (سويد بن الصامت) المذكور ، رجل مثقف مهذب ، ذو علم وفهم في أيامه وبين قومه . وقد عرف عندهم بالكامل ، للخلال الحميدة التي كانت فيه . ولا يلقب بـ (الكامل) في الجاهلية إلا من كانت له صفات معينة . وصفه صاحب كتاب الأغاني ، فقال : « وكان يقال له الكامل في الجاهلية . وكان الرجل في الجاهلية إذا كان شاعراً شجاعاً كاتباً ساخحاً رامياً سموه الكامل . وكان سعيد أحد الكلمة »<sup>٥</sup> .

وكان كما يذكر أهل الأخبار حكيمياً كثير الحكم في شعره ، حتى قيل إن قومه أتوا سموه (الكامل) لحكمة شعره وشرفه فيهم . وقد رروا له شعراً في ذلك .

Ency., II, p. 53.

١

برصوم (ص ١٦٣) .

٢

غرائب اللغة (ص ١٧٧) .

٣

البلاذري (١/٣٣٨) ، الروض الافت (١/٢٦٥) .

٤

الأغاني (٢/١٦٤) (طبعة السياسي) .

٥

هذا ويشك في اسلام ( سويد بن الصامت بن خالد بن عقبة ) الاوسي ، إذ ذكر انه لما انصرف من مقابلة الرسول له ، عاد الى قومه بيترب فقتل<sup>١</sup> . قتلها ( المجندر ) في الجاهلية<sup>٢</sup> .

وأنا لا أستبعد احتمال قدوم يوم ، قد يعثر فيه الباحثون على وثائق تبين ان عرب العراق كانوا قد وضعوا أساساً لقواعد العربية ، وكانوا أصحاب رأي في أساليب الكتابة وصوغ الكلام ب نوعيه : من نثر وشعر . إذ لا يعقل في نظري أن يكون ظهور علوم العربية في العراق قبل الأمسكار الاسلامية الأخرى ، طفرة من غير سابقة ولا أساس . وأن يكون تفرق الكوفة والبصرة على المدن الاسلامية الأخرى وفي ضمنها مدن جزيرة العرب في علوم العربية صدفة وفجأة ومن غير علم سابق ولا يبحث في هذه الموضوعات قبل الاسلام . اني أعتقد ان علم العروض وعلم النحو وعلم الصرف وسائر علوم العربية الأخرى لم تظهر في العراق إلا لوجود أسس لهذه العلوم فيه تعود إلى أيام ما قبل الاسلام ، وهذه الأسس القديمة الجاهلية هي التي صيرت العراق الموطن الأول لهذه العلوم في الاسلام . واني لا أستطيع أن أتصور ان في مقدور انسان منها أوتي من العلم والذكاء ، استنباط أوزان الشعر وبخوره من نقرات مطارق النحاسين أو من التأمل والتبصر ، فشخص مثل هذا ، لا بد وأن يكون قد وقف على البحور وأوزان الشعر وعلى مقدمات وبخور في موضوع الشعر ، منها استنبط علم العروض ، وقل هذا الشيء عن علم النحو وعن سائر علوم العربية الأخرى .

وقد كان العبرانيون يكتبون التوراة على جلود البقر؛ ثم يلفونها لفافاً على قضيب أو قضيبين تكون لفة واحدة أو لفتين متصلتين بعضها ببعض ، ويطلقون عليها (مجلوت) ( مكلوت ) . وتعني لفظة ( كلل ) لف دوار<sup>٣</sup> . وقد كانت كتب ذلك العهد تكتب وتتلف بهذه الطريقة ، فلا يستبعد وجود هذه المجالات ، أي الكتب المفقودة عند الجاهليين .

وقد أورد الأخباريون نصوص رسائل نسبوها إلى بعض الملوك الجاهليين وسادات القبائل ، وهي رسائل مسجعة في الغالب موجزة . وفي أثناء حديثهم عن رسائل

١ الاصابة ( ١٣٢ / ٢ ) ، ( ٣٨١٨ ) .

٢ الاصابة ( ٣٤٣ / ٣ وما بعدها ) ، ( رقم ٧٧٢٨ ) .

Smith, A Diction. I, p. 1802.

٣

٤

٥

الرسول الى قصر وكسرى ذكروا ان الصحابة أشاروا على الرسول ان يتخذ خاتماً يحتم به كتبه ، لأن الروم لا يقرأون كتاباً غير مختم . ويظهر من كلامهم هذا ان أهل مكة لم يكونوا يختمون رسائلهم بخاتم ، وإنما كانوا يكتفون بتدوين الاسم . والذي يتبيّن لي من ملاحظتهم هذه عن الروم انهم قصدوا بالخاتم الختم ، على الكتب ، اضافة الى الاسم ، وهو ما يقال له Sigillum عندهم ، كما أشرت الى ذلك آنفاً . وهو يقابل ختم الدوائر في الزمن الحاضر ، وطبع شعار الدائرة على الورق ، ليكون ذلك تعبيراً عن صفة الورقة الحكومية . فالغاية من إشارة الصحابة على الرسول بختم كتابه ، هو اكتسابه صفة رسمية ، ليكون ذلك متفقاً مع طريقة الروم . ولا بد أن يكون روساء مكة قد رأعوا هذا الأسلوب في مراسلاتهم مع البيزنطيين .

وقد استعمل الخاتم في القالب لتصديق الأوراق الشخصية والمعاملات الحكومية . فإذا أردت تصديق معاملة أو ارسال كتاب أو ختم صندوق ، ختم بالخاتم ، وعلى الخاتم شيء من الكتابة يأمر صاحب الخاتم بمحفرها ، كي يظهر أثرها على الورق أو الشمع أو الطين . وكان منع الخاتم لموظف دليلاً على منحه الثقة وتعيينه في وظيفته التي اختير لها<sup>١</sup> .

وقد كان رجال التجارة والأعمال وأصحاب المصالح يثبتون أعمالهم وعقودهم في صحف وكتب . وإذا أرادوا عقد عقد ، مثل اتفاق على شيء أو تدوين ميثاق ، دونوه على صحيفة وأشهدوا على ذلك ، ليكون أوراق وثابت للعقد . وقد عرف كتاب الشراء بالعهدة<sup>٢</sup> . وأما كتاب العهد ، فهو ما يعهد به . وقد وردت في القرآن الكريم إشارة الى الكاتب بالعدل . أي الكاتب الذي يتولى كتابة العهود والمواثيق بين الناس .

وقد ورد في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ : ان الرسول قال : « اذا كتب أحدكم فليترتب كتابه<sup>٣</sup> ، أي : ان الكاتب اذا انتهى من كتابة كتابه ، فليضع التراب عليه ، ليجف حبره .

١ قاموس الكتاب المقدس (٤٠٥/١) ، Smith, A Diction., III, p. 1188.

٢ بلوغ الارب (٣/٣٧١) .

٣ البيان (٣/٢٠٤) .

## الفصل الرابع والعشرون بعد المئة

### الدراسة والتدريس

الكتابات :

وفي العربية لفظة ( الكتاب ) ، ويراد بها في عرف هذا اليوم المدرسة التي يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ المعرفة . وهي من الألفاظ العربية المستعملة في العهود الأولى من الاسلام . وعندى أنها من الألفاظ العربية التي كانت مستعملة في الجاهلية ، وهي في معنى بيت ( هاسيفر ) Beth Ha-Sepher أي ( بيت الكتاب ) في العبرانية . وقد كان العبرانيون يطلقونها على المدارس التي تدرس القراءة والكتابة ومبادئ المعرفة ، تمييزاً لها عن المدارس التي تعلم الديانة والعبرانية والمعارف التي لها علاقة بالديانة . ويطلقون عليها ( بيت هامدراش ) Beth Ha-Midrash أي ( بيت المدراش ) ، و ( بيت هاتلמוד ) ، أي ( بيت التلمود ) في بعض الأحيان<sup>۱</sup> .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أسماء جماعة ذكروا أنهم كانوا من المعلمين في الجاهلية وكانوا من أصحاب الوجاهة والمكانة ، منهم على سبيل المثال : ( بشر ابن عبد الملك السكوني ) ، آخر ( أكيدر ) صاحب ( دومة الجندل ) ، و ( سفيان بن أمية بن عبد شمس ) ، و ( أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة )

---

Hastings, A Dictionary of Christ. and the Gospels, I, p. 222.

و(عمر بن زرارة بن عدس بن زيد ) ، وقد كان يسمى (الكاتب) ، و (غيلان ابن سلمة بن معتب الثقفي ) وهو مخضرم<sup>١</sup> ، مما يدل على وجود المدارس والتعليم عند الجاهليين .

وقد ورد ان الرسول أمر (عبدالله) واسمه الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية ، بأن يعلم في الكتاب بالمدينة<sup>٢</sup> . كما ورد ان (جفينة) ، وهو من نصارى الخبرة ، جاء المدينة فصار يعلم الكتابة بها<sup>٣</sup> . وورد في رواية ان (علي بن أبي طالب) اختلف الى الكتاب ، فتعلم الكتابة به وله ذوبة وهو ابن أربع عشرة سنة<sup>٤</sup> . وورد ان رجلاً نزل بوادي القرى ، وعلم الخط بها<sup>٥</sup> . وورد ان غلاماً جاء « يسكي الى أبيه ، فقال : ما شأتك ؟ قال : ضربني معلمي ، قال : الخير ! ! يطلب بدخل بدر<sup>٦</sup> ، والله لا تأتيه أبداً<sup>٧</sup> . اذا صبح هذا الخبر ، تكون قد عرنا على كلمة (المعلم) بالمعنى المفهوم منها في الوقت الحاضر في الأيام الأولى من ظهور الاسلام .

وورد أن (عبدالله بن سعيد بن العاص بن أمية ) ، كان من أسر يوم بدر ، فأمره الرسول أن يعلم عشرة من غلنان الانصار الكتابة ، وبخليه لسيله ، فيومنه تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلنان الانصار . وكان كاتباً محسناً<sup>٨</sup> . غير أن الموارد الأخرى ، تذكر أنه كان قدم على رسول الله مهاجرًا ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : الحكم . فقال : أنت عبدالله . فغير رسول الله اسمه<sup>٩</sup> . وتذكر أنه أمره أن يعلم الكتاب بالمدينة وكان كاتباً . وتذكر أنه قتل يوم بدر شهيداً . أي إن اسلامه كان قبل يوم بدر . ولكن أكثر الروايات تذكر أن وفاته تأخرت<sup>١٠</sup> .

وذكر بعض أهل الأخبار ، أن المدينة كانت متاخرة بالنسبة الى مكة في الكتابة

١- المخبر (ص ٤٧٥) ، الاعلاق النفيسة ، لابن رستة (٢١٦) .

٢- ابن حزم ، جمهرة (٧٣) .

٣- الطبرى (٤٢/٥) ، ابن سعد ، طبقات (٣) القسم الاول ص ٢٥٨ .

٤- الفضول المختار من العيون والمحاسن ، للشيخ المقيد ، النجف (٢/٦٦) .

٥- فتوح البلدان (٤٧٧) .

٦- امتاع الاسماع (١/١٠١) .

٧- المشرق ، انسنة العاشرة (٤٧٨) .

٨- الاستيعاب (٣١٢/١) ، (حاشية على الاصابة) .

٩- الاصابة (٣٤٣/١) ، (رقم ١٧٧٧) .

والقراءة . بل ذهب بعضهم الى أنه لم يكن في الأنصار من يحسن الكتابة<sup>١</sup> . وكلامهم هذا يصطدم مع ما ذكروه أنفسهم من أن (سويد بن الصامت) الأوسي ، وسعد بن زراة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وغيرهم من أشرت إليهم في مواضع أخرى من هذا الكتاب ، كانوا من الكتاب .

ويفهم من قول (الشماخ) :

كما خط عرانية بيمينه بتيماء حبّر ثم عرض أسطرا

أن هذا الشاعر كان قد زار تيماء ، وقد وقف على خط اليهود ، ورأى أحدهم وقد عرض أسطر الكتابة دونها بيمينه<sup>٢</sup> . وقد وصف غيره كتابة اليهود وتعلمهم الخط في مدراسهم بالمستوطنات اليهودية .

وكانوا يستعينون بصبيان الكتاب في بعض الأحيان لكتابه جملة نسخ مما يراد نشره أو ذاعته أو حفظه . فورد أن النجاشي الشاعر ، لما هجا (بني التجار) من الأنصار شكوا ذلك إلى حسان ، فقال قصيدة في هجائه وفي هجاء قومه ، ثم « قال اكتبوها صكوكاً وألقوها إلى صبيان المكاتب ، فما مرَّ بضع وخمسون ليلة حتى طرت بنو عبد المدان حسان بالنجاشي موثقاً معهم » ، وذلك للإعتذار إليه واسترضائه<sup>٣</sup> .

وقد كان للديانتين اليهودية والنصرانية فضل كبير على أهلها في نشر الكتابة والعلوم بينهم إذ صارت معايدهم مدارس يتعلم فيها الناس أصول ديانتهم ومبادئ المعرفة والكتابة والقراءة لمن يرغب من الأطفال ، كما أدت حاجة الديانتين إلى رجال دين يقومون بتبنيف الناس وتعليمهم أصول دينهم ونشر ديانتهم بين الوثنين ، أو بين أصحاب الديانات الأخرى ، إلى تكوين معاهد خاصة لتخريج هؤلاء الرجال ، ألحقت بالمعابد ، درسوا فيها الكتب المقدسة وما وضع عليها من تفاسير وشروح ، وما يتعلق بشرحها من دراسة اللغات وفلسفة وجدل وأمور أخرى لها علاقة وصلة بالديانات . وقد كان من بين هؤلاء الرجال أناساً ذكياء ذوي نظر واسع ، فلم

١ امتاع الاسماع ، للمقرizi ( ١٠١ / ١ ) .

٢ ديوان الشماخ ( ٢٦ ) ، ديوان زهير ( ٥ ) .

٣ شرح ديوان حسان ( ص ٢١٣ وما بعدها ) ( البرقوقي )

يكتفوا بحفظ ما ورد اليهم ، وبالتعصب لكل ما تلقنوه، بل تتبعوا ثقافات غيرهم وعلومهم ، ودرسو اللغات والفلسفات الأخرى، وكونوا لهم آراء خاصة اعتمدت على استعمال العقل والمنطق ، فظهرت النقد عندهم ، والنقد يخلق الرأي .

والبيت هو المدرسة عند الجاهليين وعند غيرهم من شعوب ذلك الزمن ، فيه يتعلم الطفل ، واليه يرد المعلم لتعليم أولاد الموسرين ما يحتاجون اليه من كتابة وعلم بأجرة تدفع اليه ، وفيه قد يتعلم الطفل الكتابة من الرقيق المجلوب الذي كان له حظ من العلم . وفيه تشرف أمه على تربيته وادارته ما دام صغيراً ، ثم يشرف عليه أبوه فيلقنه شؤون الصنعة وأمور الحياة متى تجاوز الخامسة أو السابعة من عمره، وفي البيوت والطرقات والأزقة يلعب الأطفال ، أما الشبان، فقد كانوا يتبارون بالألعاب في الساحات العامة خارج المدن ، والقرى في الغالب . يتسابقون بركوب الخيل والمصارعة وبالجري وبرمي السهام . وقد يخرجون الى الصيد ولا يزال أطفال جزيرة العرب يلعبون بعض الألعاب التي كان أطفال الجاهلية وشبانهم يلعبونها قبل الاسلام .

وقد قامت المعابد بدور فعال ناشط في نشر القراءة والكتابة . وإذا كنا نجهل اليوم موقف معابد الوثنين من تعليم القراءة والكتابة بها ، فإننا لا نستطيع أن ننكر موقف (الكنيسة) و (المدراس) (المدارس) عند اليهود ، و (الكنائس) عند النصارى من تشجيع التعليم وهيئة الأطفال لتعلم القراءة والكتابة ، لخدمة الدين ، أو للأغراض التصيفية والشؤون الخاصة بالحياة . وقد قام (المدراس) وقامت الكنيسة بدور فعال في تعليم الناس أمور دينهم وشرح ما ورد في التوراة وفي الانجيل الى المؤمنين بها . فقد كان أخبار اليهود (بئرب) وقرى (وادي القرى) يجلسون في المعابد ليفسروا للناس أحكام شريعة اليهود .

ومدراس ، لفظة عبرانية الأصل ، هي (مدرس) Midrash ، وتعني بحث وشرح نص<sup>1</sup> . وقد أطلقت على المكان الذي تدرس فيه التوراة . فصار مثابة المدرسة ، يقصد به اليهود للتفقه فيه والتعلم ، وقد قصده الجاهليون أيضاً ليسمعوا ما عند اليهود . كما قصده المسلمين . وقد كانت لليهود جملة بيوت عبادة يجلس فيها أخبارهم لللاقات ولشرح الكتب المقدسة لتلذذهم وللناس . فكانت بيوت عبادة ومدارس للتعليم .

وقد كان الجاهليون يسألون اليهود عن تواريХ الماضين وقصص الأولين والآتنياء والمرسلين . وعن بعض المشكلات الدينية مثل الحياة بعد الموت وأمثال ذلك مما تعرضت له اليهودية . وقد جأ اليهم أهل مكة الوثنيون يسألونهم عن أشياء عویصة لليهود علم بها ، ليتحسنوا بها الرسول<sup>١</sup> .

وقد ورد في الأخبار أن « بعض اليهود قد علم كتاب العربية . وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول ، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون »<sup>٢</sup> .

وقياساً على ما نعرفه من تخصيص الكنائس مواضع خاصة ملحقة بالكنائس لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، فإننا نستطيع أن نقول إن الكنائس التي كانت في جزيرة العرب في نجران مثلاً أو في صنعاء أو في عدن أو في قطر ، لم تكن مستثنة من هذه العادة . وإن كنا لا نملك دليلاً تستند إليه في إثبات قيام الكنائس في جزيرة العرب بتعليم الأطفال القراءة والكتابة .

أما بالنسبة لكتائس العرب في العراق ، فإن لدينا شواهد بينة تثبت قيام الكنائس بتعليم الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ الدين . وتثبت وجود مكان خاص يخصص بالأطفال ليتعلموا فيه . فقد جاء في أخبار ( عين التمر ) أن خالد بن الوليد لما دخل حصن عين التمر وغم ما فيه وجد في بيتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم<sup>٣</sup> . وذكر أن تلك البيعة كانت في القبرة من أطراف عين التمر<sup>٤</sup> .

وورد في الأخبار أن من أهل الحيرة من كان يتعلم العربية ، يقرأ بها ويكتب ويتفقه ويتأدب ، كالذى حدث لزيد والد ( عدي بن زيد العبادي ) ، ولابنه ( عدي ) ، وأن منهم من كان يتعلم الفارسية ، إذ فيها جماعة من الفرس ، ومنهم من يتعلم الإرمية ، لغة ( بني لارم ) ، ومنهم من تعلم العربية والفارسية وأجاد بها كتابة ونطقاً ، وتولى الكتابة بها عند الفرس مثل ( عدي بن زيد

<sup>١</sup> ابن هشام ( ٢٧٤/١ ) .

<sup>٢</sup> فتوح البلدان ( ٤٧٩ ) ، المعارف ( ١٩٢ ) ، الطبرى ( ٣٧٧/٣ ) ، ( دار المعارف ) ، البلدان ( ٤/٤ وما بعدها ) ، الاغانى ( ١٠١/٢ ) ، المجلد لعمرو بن متى ( ٣١ ) ،

<sup>٣</sup> ٣٥ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٧١ ، ٠ .

<sup>٤</sup> الطبرى ( ٣٧٧/٣ ) ، ( دار المعارف بمصر ) .

<sup>٤</sup> البلدان ( ٤/٨٠٧ وما بعدها ) .

العبادي ) وابنه ( زيد بن عدي ) وغيرهما من آل ( زيد ) والعباديين نصارى الحيرة<sup>١</sup>

ولما فتح خالد ( الأنبار ) : « رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ، فقال : من تعلمكم الكتابة ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشده قول الشاعر :

قومي إياد<sup>٢</sup> لو أنهم أنم<sup>٣</sup> أو لو أقاموا فتهزل النعم  
قوم لهم باحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم<sup>٤</sup>

وهو شعر نسب قوله الى الشاعر ( أبية بن أبي الصلت ) ، ذكر أنه مدح به بني إياد<sup>٥</sup> . ومعنى هذا ، أن ( بني إياد ) كانوا قد عُرِفوا بالكتابة في العراق ، ولهذا وضعا هذه القصة في كيفية نشوء الكتابة العربية ، وإياد من القبائل العربية القديمة التي نزحت من البحرين الى العراق .

وقد كان العرب في الأنبار ، والحبيرة ، وعين التمر والمواضع الأخرى يخترعون بأبجية محسنة ، يقيم بها ساداتهم ، وتكون مواضع دفاعهم أيام الخطر ، يقولون لها ( القصور ) . وقد كانت الحبيرة مؤلة من جملة ( قصور ) ، ولا يزال عرب الفرات يطلقون لفظة ( القصر ) على المواقع الحصينة المقامة في الباادية ، لصد غارات المهاجمين ، مثل ( قصر الأخضر ) ، و ( قصر العين ) ، في ناحية ( عين التمر ) . وتحتوي الكنائس وبيوت الناس بهذه التصور ، ولما فتح ( خالد ابن الوليد ) ( عن التمر ) ، بعث الى ( كنيسة اليهود ، فأخذ منهم عشرين غلاماً وصار الى الأنبار<sup>٦</sup> ، وهو خطأ ، لأن الذي نجده في الموارد الأخرى ، إن ( خالد بن الوليد ) ، لما فتح حصن ( عين التمر ) وجد في كنيسة جماعة يتعلمون سباهم ، فكان من ذلك السبي : ( حران بن أبان بن خالد ) التمري ،

١. الأغاني ( ١٠١/٢ ) .

٢. الطبرى ( ٣٧٥/٣ ) ، ( حديث الأنبار ) .

٣. ابن هشام ، سيرة ( ٤٨/١ ) .

٤. اليعقوبي ( ١٢٣/٢ ) ، ( النجف ١٩٦٤ ) .

( سيرين ) أبو ( محمد بن سيرين ) المشهور بتفسير الأحلام ، و ( أبو عمارة ) جدّ ( عبد الأعلى ) الشاعر ، و ( يسار ) جدّ ( محمد بن إسحاق ) صاحب ( السيرة ) ، و ( نصیر ) أبو ( موسى بن نصیر )<sup>١</sup> ، وذكر ( الطبری ) أن ( خالد بن الولید ) وجد « في بيتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجیل ، عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم ، وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رهن ، فقسمهم في أهل البلاد<sup>٢</sup> . وقد كان كل هؤلاء من الكتاب القارئين للانجیل الدارسين لعلوم الدين ، فأسلموا وبرز أبناؤهم في المجتمع الاسلامي .

وفي خبر ( وفـ نـجـرـان ) الـذـي قـدـمـ عـلـى الرـسـوـل ، إـفـادـة بـوـجـود مـوـاضـع لـتـعـلـيمـ أـمـوـر الدـيـن ، وـتـقـيـيفـ النـاسـ بـمـا يـلـزـمـ مـن ثـقـافـة ، فـقـدـ وـرـدـ أـنـ أـسـقـفـ نـجـرـانـ كـانـ حـبـرـهـمـ ، إـلـاـمـهـمـ ، وـصـاحـبـ مـدارـسـهـمـ ( صـاحـبـ مـدـارـسـهـمـ )<sup>٣</sup> ، أـيـ المـوـضـعـ الذي يـتـدـارـسـونـ فـيـهـ ، وـالـغالـبـ أـنـ يـكـوـنـ ذـلـكـ المـكـانـ فـيـ الـكـتـيـسـةـ عـلـى الـطـرـيـقـ الـمـتـبـعـةـ فـيـ ذـلـكـ الـعـهـدـ ، كـمـ صـارـ الـمـسـجـدـ مـوـضـعـاً لـتـعـلـيمـ .

وقد كان يهود الحاجز والمواضع الأخرى من جزيرة العرب يلحقون بكليسهم كتاباً يعلموه به أطفالهم أصول القراءة والكتابة ، كما كان أحجارهم يتخلدون به مجلساً لتعليم اليهود أمور دينهم وللإفقاء بينهم في أمور الشرع ، وقضى ما قد يقع بينهم من خلاف . وكذلك كان شأن نصارى العرب اتخذوا من كنائسهم مواضع للتدريس ولتعليم القراءة والكتابة كالذى رأيناها بين نصارى العراق . ولا استبعد احتلال اتخاذهم مدارس في قرى البحرين ، التي كانت بها جاليات نصرانية كبيرة وكذلك في الهمامة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وأصول الدين .

مواد الدراسة:

لم نعثر على أي نص جاهلي فيه شيء عن التدريس وعن مواد الدراسة عند الجahلين انتسبت منه مادة عن الدراسة عند عرب الجahلية ، غير أننا اذا ما

<sup>١</sup> البلاذري ، فتوح ( ٢٤٨ ) .

٢ الطبرى ( ٣٧٧/٣ )

<sup>٣</sup> طبقات ابن سعد (١/٣٥٧) (طبعة صادر).

أخذنا بما جاء في الموارد النصرانية الشرقية عن التربية والتعليم عند نصارى العراق وعن مواد المعرفة التي كانوا يعلمونها للطلاب المدارس العالية ، فإننا نستطيع أن نقول إن مدارس الأنبار والجيرة والقرى العربية الأخرى، لا بد وان تكون قد سارت وفقاً لمنهج أهل العراق في تعليم أبنائهم في ذلك الوقت . من تعليم مبادئ القراءة والكتابة وإجاده الخط وشيء من الحساب والأمثال والحكم ومبادئ الدين . وهي المواد الرئيسية التي كانت تعلم في الكتاتيب في بلاد الشرق الأوسط في ذلك الوقت ، والتي لا تزال تدرس في الكتاتيب القديمة حتى اليوم .

والعادة في الكتاتيب حتى الآن في تعليم الخط للأطفال ، أن يخط المعلم أو ( خليفته ) أو من يقوم مقامه من التلامذة المقدمين ، سطراً من الحكم والأمثال أو من الكتب السماوية ، لينتشش التلميذ سطوراً مثلها على لوح يحاول الإجاده جهود امكانيه في كتابتها لتقوية يده على الخط . وقد كان العبرانيون يعلمون الآية : « رأس الحكمة مخافة الرب » ، « رأس الحكمة معرفة الله » ، « مخافة الرب رأس الحكمة »<sup>١</sup> ، في أول ما كانوا يعلموه للتلامذتهم<sup>٢</sup> . ويعلمونهم أمثال ذلك من الحكم والأمثال الواردة في التوراة . ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال والحكم في مقدمة ما كان يدرسه المعلمون اليهود في مستوطناتهم في بلاد العرب بيتاء ووادي القرى وقرى المدينة .

وورد أن نصارى العراق ، درسوا في مدارسهم اللغة بني إرم ، لغة الثقافة والعلم آنذاك ، درسوا مفردات اللغة وقواعدها وأصواتها ، وعاتموا معها مبادئ العربية وقواعدها وأدابها في الأرضين التي كانت غالبية سكانها من العرب<sup>٣</sup> . ونجد في الموارد النصرانية اشارات تشير إلى تدريس العربية في الأنبار وفي الجيرة . ولا يعقل أن يكون المراد من العربية ، الكتابة والقراءة بها فقط ، بل لا بد وأن يعلم معها شيء من أصول الكتابة من كيفية قبط القلم ورسم الحروف ، وأنواع المخطوط ، ثم الأمثال والحكم ، وقواعد اللغة وأدابها ، أي منهجه المدارس المقرر في الشرق الأدنى في ذلك العهد . وقد كان رجال الدين يسرون عليه ويتبعونه في مدارسهم . وكان لهم علم بقواعد وبلغة بني إرم .

١ سفر الأمثال ، الاصحاح الاول ، الآية ٧ .  
Hastings, p. 204.  
٢ تاريخ كلدو وآثور ( ٧ / ٢ ) .

أما عن تعلم الأطفال في جزيرة العرب ، فلا نستطيع التحدث عنه بسورة جازمة لعدم ورود شيء عن ذلك في الكتابات الجاهلية أو في روايات أهل الأخبار. ويمكن أن نقول باحتمال تعلم الأطفال في الموضع الذي وجدت النصرانية اليها سبيلاً ، مثل مدينة (نجران) وبعض مواضع من سواحل الخليج ، على النمط الذي كان متبعاً عند نصارى العراق وببلاد الشام من تعلم مبادئ القراءة والكتابة وتحسين الخط ومبادئ أمور الدين . ثم المعرف العالمية مثل اللغة والعلوم اللاحورية والطب وما شاكل ذلك ، للمتفوقين من الطلاب من أصحاب المواهب والقابليات ، وذلك لأن الكنيسة كانت تتبع نظاماً واحداً في التعليم ، ولأن الذين كانوا يعيشون بالنصرانية بين العرب ، كانوا من أهل العراق في الغالب ، وقد درسوا عرب العراق وعرب مواضع أخرى في جزيرة العرب ، وقد درسواهم على طريقة تدريس الكنيسة الشرقية ، فيحتمل لذلك أن يكون التدريس على نمط واحد في مدارس الكنيسة ، ولا أستبعد احتمال تدريس السريانية لهؤلاء الطلاب ، باعتبار أنها لغة الدين وتساعد في فهم الأنجليل والكتب النصرانية والعلوم .

وقد ورد أن : عمر بن الخطاب ، كان يقول في تربية الأولاد وتنقيفهم : « علموا أولادكم العوم والرمایة ، ومرهوم فليثروا على الخيل وثباً ، وروههم ما يجعل من الشعر »<sup>١</sup> . وذكر أنه كتب إلى الأمصار : « أما بعد ، فعلموا أولادكم العوم والفروسية ، وروههم ما سار من المثل وحسن من الشعر »<sup>٢</sup> ، وأن الرسول دعا لمعاوية ، فقال : « اللهم علمه الكتاب والحساب »<sup>٣</sup> . ويظهر أن هذا التوجيه في تربية النساء كان معمولاً به عند الجاهليين .

ويظهر أن الحديث على تعلم السباحة ، إنما ظهر في الإسلام ، بعد الفتوح ، وذلك بعد أن اتصل العرب بالأنهار الواسعة العميقه وبالبحار ، فأجبرهم الواقع على تعلم العوم . ونجد (الحجاج) يقول لعلم ولده : « علم ولدي السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يصيرون من يكتب عنهم ولا يصيرون من يسبح عنهم »<sup>٤</sup> .

١ المبرد ، الكامل (١٥٥/١) .

٢ البيان (١٨٠/٢) ، (١١٦/٢) ، (القاهرة ١٩٣٢ م) .

٣ البيان (١١٦/٢) ، (١٩٣٢ م) .

٤ البيان (١٧٩/٢) .

وقد كان (عمر) ينhib البحر ، فأوصى قواد جيشه بالتأني في ركوب البحر ، خشية غرق المسلمين .

والمثل والشعر من أهم المواد التي كان يعني بها الجاهليون . وكان أهل الكتاب ينتون بالمثل ويعا ورد في الكتب المقدسة من حكم ، وبالشعر كذلك في تعليم أطفالهم في الكتاتيب .

وذكر (الهمداني) ، أن (عمر بن الخطاب) ، قال : « تعلمون من التجوم ما تهتدون به ، ومن الأنساب ما تعارفون به وتواصلون عليه ، ومن الأشعار ما تكون حِكْمَةً ، وتدلّكم على مكارم الأخلاق »<sup>١</sup> .

ويقوم بالتعليم معلمون . امتهنوا التعليم واتخذوه حرفة لهم . ومنهم من اتخذ حرفة رئيسية له ، إذ كان يمارس حرفاً أخرى ، ليتمكن بذلك من إعاشه نفسه . ولما كان التعليم الابتدائي الذي يقوم على تعليم الخط والتراجمة والكتابة وبعض المبادئ الأخرى شيئاً بسيطاً لا يحتاج إلى علم وكثير ومعرفة ، لذلك لم يشترط في متاعطيه أن يكون من أصحاب العلم ، بل قم به من وجد في نفسه قابلية تعليم الأطفال من رجال الدين ومن غيرهم ، على نحو ما نجده في المدارس القديمة التي تقوم بتعليم الأطفال القراءة والكتابة لهذا اليوم .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية شيء يتعلق بأسماء المعلمين الجاهليين . لذلك لا نستطيع أن نذكر اسم معلم من معلمي الجاهلية بالاستناد إليها . أما أهل الأخبار ، فقد تعرض تقرير منهم للذكر بعض المعلمين الذين عاشوا قبل الإسلام ، والذين أدرك بعض منهم الإسلام . فذكر (محمد بن حبيب) في الفصل الذي سماه : (أشراف المعلمين وفقهازهم) ، اسم (بشر بن عبد الملك السكوني) آخر (أكيدر ابن عبد الملك) صاحب (دومة الجندل) ، فذكر أنه كان في جملة المعلمين<sup>٢</sup> . واليه ينسب أهل الأخبار نشر الكتابة بمكة على نحو ما يبيّن ذلك في موضوع تاريخ الخط .

وأشار (ابن حبيب) إلى (أبي قيس بن عبد مناف بن زهرة) ، وهو جاهيلي ، على أنه من أشراف المعلمين . كما أشار إلى (عمرو بن زراره بن عدس

---

١ الأكليل (٦/١ وما بعدها) .  
٢ المحرر (٤٧٥) .

ابن زيد ) ، وهو جاهلي كذلك في جملة من أشار إليهم من المعلمين . وذكر  
إنه كان يسمى (الكاتب) . وأشار أيضاً إلى ( غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي ) ،  
وهو من المخضرمين . على أنه كان من أشراف المعلمين<sup>1</sup> . وهو من الشعراء  
الحكاء ، إذ كان أحد حكام ( قيس ) في الجاهلية . وكان أحد وجهه ثقيف ،  
وقيل أنه أحد من نزل فيه : « على رجل من القربيتين عظيم » ، وانه كان  
صاحب تجارة ، وقد سافر في قوم من تجار ثقيف وقريش وعلى رأسهم (أبو سفيان)  
إلى العراق ، للتجارة ، فوصلوا إلى ( كسرى ) فتكلم معه باسم التجار ، فأعجب  
به ، وأشتري منه التجارة بأضعاف ثمنها وبعث معه من بي لـ اطمـ بالطائف ،  
فكان أول اطم بيـ بها . وذكر أن كسرى لما كلمه ووقف على حكمته قال له :  
« هذا كلام الحكاء ، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم فما غداوك ؟ قال :  
خبيـ البر ، قال : هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر »<sup>2</sup> . في حديث يقصـه  
أهل الأخبار وكأنـهم كانواـ شهـودـ عـيـانـ .

ولا بد وأن يكون في ثقيف قوم كانوا مهرة في الكتابة ، لسم خط حسن وإملاء صحيح ، وذلك فيها اذا أخذنا بصحمة الأخبار الواردة عن تدوين القرآن وجمعه من قوله إن الخليفة ( عمر ) أو ( عثمان ) ، قال : « اجعلوا الملي من هذيل والكاتب من ثقيف » ، إذ لا يعقل النص على أن يكون الكاتب من ثقيف من غير سبب ، اللهم اذا اعتبرنا الخبر من الموضوعات التي صنعت في أيام الحجاج ، للتقرب اليه ، ولرفع شأن ثقيف ، بعد أن ظهرت أخبار في أيامه ، رجعت نسب ثقيف الى قوم ثمود ، وصبرت ( أبا رغال ) خائن العرب الى غير ذلك من أخبار تحدثت عنها في أثناء حديثي عن ثمود وعن قبيلة ثقيف .

وكان (جفينة) العبادي من أهل الخبرة ، وكان نصراً ، قلم المدينة ، وأخذ يعلم بها الكتابة في أيام الخليفة (عمر) . وكان ظثراً لسعد بن أبي وقاص. فأنهمه (عبد الله بن عمر) عشاية (أبي لؤلؤة) على قتل أخيه فقتله<sup>٢</sup> .

١- المعيار (٤٧٥) .

الاصابة (١٨٦ وما بعدها) ، (رقم ٧٩٢٦) ، الاستيعاب (٣/١٨٦ وما بعدها)،  
• (حاشية على الاصابة) .

فتح البلدان (٤٦٠) ، (أمر الخط) ، ابن سعد ، الطبقات (٣) القسم الأول ص ٢٥٨ ، الطبرى (٤٢/٥) .

وورد في كتب الحديث « عن الأسود بن يزيد بن قيس التخمي ، أنه قال : أنا معاذ بن جبل ، رضي الله عنه باليمن معلماً وأميراً » . وقد أرسل الرسول معاذًا إلى اليمن لتعليمهم الفرائض وأحكام الدين . وإذا صح النص ، صار دليلاً على شيوخ لفظة ( معلم ) في ذلك العهد .

ووردت لفظة ( المعلم ) في رسائل ( عمر ) إلى عماله ، ففي رسالة له ( إلى أهل الكوفة ) : « إني قد بعثتُ إليكم عمّار بن ياسر أميراً ، وعبدالله بن مسعود معلماً وزيراً » . وأراد بلفظة المعلم ، من يعلم الناس ويرشدتهم ويفقههم في أمور الدين . وكانوا يطلقون على من يعلم الكتابة في ( الكتاب ) : معلم كتاب . والكتاب والمكتب ، الموضع الذي يتعلم به .

ولست أعلم شيئاً عن مدى تقدم علم الحساب عند الجاهليين . وكل ما أستطيع أن أقوله ، هو أنهم كانوا يعلمون أولادهم مع الخلط بمبادئ الحساب المعروفة ، وهي الجمع والطرح والضرب والتقسيم ، وذلك ل حاجتهم إليها في حياتهم اليومية ، ولا سيما بالنسبة إلى التجار أصحاب المصالح الكبيرة ، إذ تدفعهم الحاجة إلى ضبط أعمالهم وحسابهم . وقد ذكر أهل الأخبار أن الجاهليين استعملوا حساب عقود الأصابع في حسابهم : فوضعوا كلّاً منها بزياء عدد مخصوص ، ثم رتبوا لأوضاع الأصابع آحاداً وعشراً وثلاث وألفاً ، ووضعوا قواعد يترعرف بها حساب الآلوف فما فوقها بيد واحدة . وقد أشير إلى حساب اليد في الحديث ، كما استعملوا العد باللحمي ، وبه يحسبون المعدود » . والعد يرسم خطوط ، فيدل كل خط على عدد ، ومجمل الخطوط هو المعدود .

وورد في الأخبار أن الرسول دعا لمعاوية بقوله : « اللهم علمه الكتاب والحساب » ، وقد نعت بأنه كان من الكتبة الحسبية الفصحاء ، والحديث المذكور من أحاديث أهل الشأم ، وطم أحاديث أخرى في الثناء على ( معاوية ) ، وهي

١ ارشاد الساري ( ٤٢٩/٩ ) .

٢ خورشيد احمد فاروق ، حضرت عمر ( ١١٦ ) ، ( رقم ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ) .

٣ بلوغ الارب ( ٣٧٩/٣ وما بعدها ) .

٤ البيان والتبيين ( ١١٦/٢ ) .

٥ الاصابة ( ٤١٢/٣ ) ( رقم ٨٠٧٠ ) .

٦ الاستيعاب ( ٣٨١/٣ ) ( حاشية على الاصابة ) .

من الأحاديث التي أوجدها العصبية السياسية ، على نحو ما نجد من أحاديث في (عبد الله بن عباس ) وفي العلوبين . وقد روى الحديث المذكور في حق أشخاص آخرين . وقد وضعت أحاديث في مدح معاوية وبني أمية . وأرى أن الحديث المذكور وضع في مقابل حديث « اللهم علمه الحكمة » ، الذي روي أن الرسول قاله في (ابن عباس ) ، وحديث : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » ، أو « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب » ، و « اللهم بارك فيه وانشر منه » ، وأحاديث أخرى ذكر أنها قيلت فيه<sup>١</sup> .

وأما ما نسب إلى الرسول من قوله : « إنما أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا » فإنه حديث ضعيف ، وقد ورد أيضاً أن رجلاً قال : ما كنت أظن أن عدداً يزيد على ألف<sup>٢</sup> ، وهو قول ينطبق على حالات فردية للأعراب ، ولا يمكن أن ينطبق بالنسبة للحضر ، ولا سيما لأهل مكة الذين كانت لهم تجارة ضخمة وقوافل تذهب إلى مختلف الأتجاه ، تحمل تجارة تقدر أثمانها بعشرات الآلاف ، فهل يعقل صدور مثل هذا الحديث من الرسول<sup>٣</sup> ؟

وقد كان الجاهليون يتراسلون بينهم ، فيكتبون كتاباً إلى من يريدون مراسلته . والكتاب هو صحيفة قد تكون من جلد ، أو من مادة أخرى . وقد ذكر أن الرسول كتب كتاباً إلى (بني حارثة بن عمرو بن قريظ ) ، فأخذنا الكتاب وغسلوه ، ثم رقعوا به دلوهم<sup>٤</sup> . وبدل هذا على أن الكتاب كان صحيفة من جلد .

والرسائل من حقول التدوين المهمة عند الجاهليين . وهي رسائل قد تكون في أمور خاصة ، كرسائل أب إلى ابنه أو العكس ورسائل أصدقاء وأقارب من ذوي الأرحام ، وهي تتناول مسائل شخصية خاصة بهم المتكلمين . وقد تتناول الأحداث التي يكون لها شأن عند الناس وخطر ، فيكتب المتكلمون عنها ، لما فيها من أهمية ولذة بالنسبة لهم . وقد تكون الرسائل إخبارية ، كأخبار عن تجارة ومعاملة أو عن حدث وقع أو غزو أو قرب وقوع حرب أو اخبار بهجوم عدو ومقدار قوته وما شاكل ذلك من أمور ، ذات أهمية خاصة ، بالنسبة للمرسل إليهم .

١ الاصابة (٢/٠٠٠) .

٢ الاحكام السلطانية (١٩٢) .

٣ امتاع الاسماع (٤٤١/١) .

ونجد في كتب أهل الأخبار صور رسائل في أمور ذات طابع إخباري . منها رسائل دوّنت بعبارات واضحة صريحة ، يظهر أن أصحابها كانوا مطمئنين من عدم إمكان سترطها في أيدي عدوه فتفق على ما جاء فيها ، لذلك كتبوا بعبارات مفهومة مكشوفة . ومنها ما كتب شعراً كالذى روى من ارسال شعر كتبه (لقيط بن يعمر الإيادى ) لقومه يخترهم فيه من كسرى<sup>١</sup> . أو ثرآ وقد كتبها أصحابها على شيء لا يلفت النظر . كحدوح الجمال المسافرة الى جهة معينة ، لتقرأ هناك ، أو رسائل لا تلفت النظر ولكنها ذات معان مفهومة عندما ترسل اليه ، وقد تحمل الرسالة لرسول ينقلها شفاهآ الى من يراد اخبارهم خبراً ، وذلك في الأمور الهامة بالطبع ، التي لا يمكن الإفصاح عنها ، لما لها علاقة بمحروب أو غزو أو وضع أسير واقع في عذاب أسر آسرية ، ويريد ابلاغ أهله بذلك ليخلصوه من وضعه السيء<sup>٢</sup> .

ومن رسائل الإنذار : الرسائل التي كتبها المسلمين المتخوفون أو المشركون الماليين للمسلمين على قريش ، يخبرون فيها الرسول وأصدقاءهم المسلمين بأمر قريش . وعورتهم واستعدادهم ليكونوا على حذر منها ، والرسائل التي كتبها بعض المسلمين الذين لم يكن الاسلام قد تمكن بعد من قلوبهم ، أو كتبوا شفقة لبعض أصدقائهم من المشركين عن الاسلام والمسلمين . منها كتاب ( حاطب بن أبي بلتعة ) الى صفوان بن أمية وسهل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل . يقول فيه : إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحبت أن يكون لي عندكم يد بكتابي اليكم » . وأعطي الكتاب الى امرأة من مزينة ، وجعل لها مبلغاً من الدنانير على أن تبلغه قريشاً ، وقال : أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق فإن عليه حرساً . فجعلته في رأسها ثم قتلت عليه قروها سلكت على غير نقب ، فبلغ الرسول أمرها ، فأرسل من قبض على الرسالة . وتسلل حاطب الى الرسول ، بأن يغفو عنه ، لأنه كان رجلاً ليس له في القوم أصل ولا عشرة ، فصاروا له أهلاً واعتبروا ولداً فصانعهم فعوا عنه . ونزل الوجي في شأنه في سورة المتحنة<sup>٢</sup> .

١ ابن قتيبة ، الشعر ( ٩٧ وما بعدها ) ، الاغاني ( ٢٣ / ٢٠ وما بعدها ) .

٢ الآية ١ ، امتاع الاسماع ( ٣٦٣ ) .

وفي كتب السير والتاريخ إشارات الى مخابرات أرسلها مسلمون الى ذوي رحهم ، يطلبون اليهم الدخول في الاسلام ، وبأن الرسول سيعفو عنهم ويغفر لهم ما بدر منهم من إساءة اليه إن جاءوا اليه مسلمين ، من ذلك ، ما كتبه (بجير) الى أخيه (كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، بطلب منه الدخول في الاسلام ، والتوبة ، وإلا فصبره كمحبير (ابن خطل) الذي كان يعن في هجاء الرسول ، قُتِل<sup>١</sup> . ومن ذلك كتاب (الوليد بن الوليد) الى أخيه (خالد بن الوليد) ، يدعوه الى الاسلام ، فجاء مسلماً<sup>٢</sup> .

ويذكر أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا يستفتحون كتبهم بجملة : (باسمك اللهم) ، ويذكر بعضهم ان أمية بن أبي الصلت كان هو الذي ابتدع هذه البدعة . فشت بين الناس . وصارت سنة لأهل مكة في تدوين رسائلهم . فجعلوها في أول كتبهم . فكانت قريش تكتب بها . وبها افتتح الرسول كتبه في بادئ أمره ، ثم أبدلت باسم الله بعد نزول سورة هود ، ثم باسم الرحمن ، بعد نزول سورة اسرائيل ، ثم باسم الله الرحمن الرحيم ، بعد نزول سورة النمل<sup>٣</sup> .

وكان من رسم الجاهليين اذا كتبوا أن يبدأوا بأنفسهم من فلان الى فلان .  
ونجد هذا الأسلوب في كتاب رسول الله<sup>٤</sup> .

وتحتم الرسالة بخاتم كاتها أو بتدوين اسمه في نهايتها . كأن يقول : (وكتب فلان) أو (كتب فلان) . وقد ورد في كتاب السير ، ان الرسول حين هم بتوجيه الكتب الى قيسار وكسرى وغيرهما ، قبل له : إن الروم لا يقرأون كتاباً غير ختوم بختوم صاحب الرسالة ، فأمر بصنع خاتم له ، ختم به كتبه . وورد ان قريشاً حين اثمرت مقاطعةبني هاشم وبني المطلب ، وكتبت بذلك صحيفه ، ختمت عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة<sup>٥</sup> .

١ الاصابة (٢٧٩/٣) ، (٧٤١٣) .

٢ نسب قريش (٣٢٤) .

٣ الجهشيني (١٢ وما بعدها) ، الاقضاص ، للبطليوسى (١٠٣ وما بعدها) ، أدب الكتاب ، للصولي (٣١) ، الاغانى (٣/١٢٣) ، تفسير الطبرى (١٩/٥٩ وما بعدها) ، تفسير الطبرى (١٢١/١٥ وما بعدها) .

٤ القرطبي ، الجامع (١٩٢/١٣ وما بعدها) .

٥ امتعال الاسماع (٢٥/١) .

وأشير الى الخاتم في شعر لامرئ القيس . فورد فيه :

## ترى أثر الفَرْحَ في جلده كنفشن الخواتم في الجرجس

والجرجس : الشمع ، وقيل هو الطين الذي يختم به ، وقيل هو الصحيفة . وبكل من ذلك فسر قول الشاعر المذكور<sup>١</sup> . ومن معاني ( الجرجس ) البعض الصغير<sup>٢</sup> . ويظهر ان اللفظة من المغربات ، عربت عن الإرمية . فهي تعني البعض الصغير ، اذا قيل Gargso ، وهي تعني الصلصال والطين الذي يختم به اذا قيل Garguechto<sup>٣</sup> .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان أول من ختم رسائله ( عمرو بن هند )<sup>٤</sup> . وذكر علماء اللغة ان خاتم الملك الذي يكون في يده يسمى ( الخاتم ) . وأنشدوا في ذلك :

وأعطى منا الخلق أياض ماجد رديف ملوك ما تغب نوافله  
كما أنشدوا ييتاً للشاعر جرير ، ذكر فيه ( الخلق ) : حلق المنذر بن محرق  
إذ قال :

فغاز بحلق المنذر بن محرق فتى منهم رخو النجاد كريم<sup>٥</sup>

وذكر أيضاً ان الخلق خاتم من فضة بلا فص<sup>٦</sup> . ويظهر من ذلك ان الملوك كانوا يصطنعون خاتماً لهم ، يكون دليلاً على صدق رسائلهم وأوامرهם ، تحملونه معه ، أو يودعونه عنه كاتم أسرارهم ، وعلى ذلك جرى الأمر في الاسلام . فقد سار الخلفاء على سنة الرسول من اتخاذه خاتماً يختم به الرسائل ، والكتب والأوامر ، وبقي الأمر كذلك عند من جاء بعده من الخلفاء .

١ ديوان امير القيس ( ١٠٢ ) ، ( سنديبي ) ، الاقتضاب ، للبطليوسyi ( ٩٧ )  
برواية أخرى ، تاج العروس ( ١١٨ / ٤ ) ، ( الجرجس ) .

٢ تاج العروس ( ١١٨ / ٤ ) ، ( الجرجس ) .

٣ غرائب اللغة ( ١٧٦ ) .

٤ الاقتضاب ، للبطليوسyi ( ١٠٤ ) .

٥ تاج العروس ( ٦ / ٣٢٤ ) ، ( حلق ) .

٦ تاج العروس ( ٦ / ٣٢٤ ) ، ( حلق ) .

والخاتم ما يوضع على الطينة وما يحتم به . والختام الطين أو الشمع أو الحبر أو أي مادة أخرى تترك أثراً يحتم بها على الشيء<sup>١</sup> . وتحم الأوراق والرسائل من العادات القديمة المستعملة عند الشعوب . ويقوم الخاتم مقام التوقيع في وقتنا الحاضر: وتحم رسالة معناه المصادقة عليها وتصديقها . واستعمل الخاتم في ختم الأوراق العامة والأوراق الشخصية والعقود والمعاملات . وكان الشخص إذا أراد إرسال رسالة ختمها ، ولذلك كانوا يحملون خواتيمهم معهم ، إنما في جيوبهم وإنما في أصايبهم وقد يضعونها في سلسلة يعلقونها حول أنفاسهم<sup>٢</sup> ..

وقد صنعت الخاتم من مواد مختلفة . صنع من ذهب ومن فضة ومن معدن آخر ومن الحجر . وقد كتب على بعض الحواف اسم صاحبه ، ونقشت أمثلة وحكم وعبارات دينية أو أسماء الآلهة على بعض الحواف . كما حفرت على بعض منها صور ترمز إلى رموز مقدسة أو صور حيوانات . وعثر على خواتم في العربية الجنوبية ، وبها تصاويف من أحجار ثمينة من أحجار اليمن الشهيرة . وقد كان يستعملها الناس إذ ذلك في التوقيع على رسائلهم ومخابراتهم ومعاملاتهم . ولا زال الناس يغرون على خواتم جاهلية في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية ، فيستعملونها لتربين أصايبهم بها .

وبعد أن تختم الرسالة ، توضع داخل ظرف ، حتى لا يطلع عليها أحد ثم يغلق ، ثم يحتم على موضع فتحه بالطين أو على الموضع التي يحتمل أن يفتح منها حتى تكون في مأمن تام . فلا يقف عليها إلا من أرسلت له . فإذا وصلته ، ووجد أن خاتمتها سليم ، كسره ، ليستخرج الرسالة من ظرفها . وكانت الكتب على هيئة لفائف . وكان من عادة الشعوب القديمة أن المكتوب إذا أريد إرساله إلى شخص من طبقة أدنى من طبقة الكاتب ، أي صاحب الرسالة ، أرسل المكتوب إليه منشراً ، أما إذا كان المكتوب إلى شخص مكافئ لصاحب الكتاب أو أعلى مرتبة منه ، أرسل مختوماً وموضوعاً في كيس<sup>٣</sup> .

ولحماية الأشياء من التطاول والتتجاوز عليها جلأوا إلى طبعها وختمتها ، فاختتموا

١ تاج العروس (٢٦٦/٨) ، (ختم) ، اللسان (١٦٣/١٢) ، (ختم) .  
Hastings, p. 833.

٢ نحنيا ، الأصحاح السادس ، الآية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٥٣/٢) .

الأكياس التي تملأ بالفقد أو بأي شيء آخر ، وختموا زق الحمراء حتى لا ينطأول عليه متطاول . قال الأعشى :

وصهباء طاف يهودها وأبرزها وعليها ختَم<sup>١</sup>

كما ختموا الطعام بالرسوم ، وهو خشبة مكتوبة بالنقر . أو لويح فيه كتاب منثور ، تختَم به الأكdas<sup>٢</sup> . وقيل له (الروشم) أيضاً في لغة السواد<sup>٣</sup> . وكلمة (رشم) ، تعني (كتب) في الإرمية . و (راشوم) ، يعني لوح منقوش تختَم به البيادر في لغة بني ادم ، Rouchmo ، وتعني علامة<sup>٤</sup> .

وكان من عادتهم ختم الأمور المهمة أيضاً خشية ضياعها أو التطاول عليها أو لحفظها . فلما كتب أهل مكة فيما بينهم كتاباً يتعاقدون فيه إلا يناكتروا ببني هاشم وبني المطلب ولا يباعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يُسلموا اليهم مهدداً . كتبوا بذلك صحيفة ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة<sup>٥</sup> . ويظهر أنهم بعد أن كتبوا الصحيفة وضعوها في ظرف ثم سدوه وختموا عليه ثلاثة خواتيم ، حتى لا يفتح الظرف . أو أنهم طردوها بعد أن كتبواها ثم ختموا عليها حتى لا تفتح ، فلما أرادوا فتحها وجدوا أنها قد تهافت وتلفت من فعل لعب الأرضة بها . ويجوز أنهم ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، بخواتيم الكتبة الثلاثة الذين نسبت كتابتها إلى كل واحد منهم ، بحسب اختلاف الروايات . وهم : منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ، أو النضر بن الحارث ، أو بيض بن عامر بن هاشم .

### الكاتب :

والكاتب في اصطلاحنا هو الذي خصص نفسه بالكتابة ، أو من يقوم بعمل

١ مصادر الشعر الجاهلي (٧٦) .

٢ تاج العروس (٣١٢/٨) ، (رسم) .

٣ تاج العروس (٣١٣/٨) ، (رشم) .

٤ غرائب اللغة (١٨٣) .

٥ امتاع الاسماع (٢٥/١) .

كتابي، أو من أشهر وعرف بمحذه في فن الكتابة. وذكر علماء اللغة أن الكاتبين، هم الكتبة وحرفهم الكتابة. وذكروا أن الكاتب في أيام الجاهلية : العالم . «وفي كتابه إلى أهل اليمن : قد بعثت اليكم كتاباً من أصحابي . أراد عالماً سُمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة »<sup>١</sup>. الواقع أن نسبة العلم للكتاب ، لم تكن نظرة أهل الجاهلية وحدهم بالنسبة إلى كتابهم ، بل كانت وجهة نظر شعوب العالم كلها إلى الكتبة في ذلك العهد . لأن أكثر كتاب تلك الأيام كانوا من أبناء العوائل المتمكنة ومن أبناء طبقة رجال الدين ، وكانتوا يتعلمون إلى جانب الكتابة في الغالب علم اللسان ، كالعربية بالنسبة إلى العرب والإرمية بالنسبة إلى بني إرم، وشيئاً من الأدب من منظوم ومنتور وحساب وأمثال وحكم ، لذلك يخرج المتعلّم ، وقد تثقف بثقافة تجعله فوق مستوى أقرانه، فيكون بعلمه هذا أعلم من غيره وأدرك منهم بشؤون الحياة . ومن هنا صار أعلم من بقية الناس . ونظر إليه نظرة تقدير وتبجيل .

ومن هنا نجد أن الأحناف ، وهم الدعاة إلى الاصلاح والى رفع مستوى الحياة في الجاهلية ، كانوا كلهم من الكتاب بالعربية . وقد نسب إليهم أنهم كانوا يكتبون ويقرأون بالعبرانية أو بالسريانية أو باللغتين أيضاً ، كما عرف عن بعض الخطباء والشعراء أنهم كانوا يقرؤون ويكتبون، ومنهم من كان له اطلاع على الثقافات واللغات الأعجمية حتى بان ذلك على كلامه المنظوم أو المنشور ، وغير مثال على هؤلاء : عدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصيل والأعشى ولبيد .

وقد عرفت حرفة احتراف الكتابة بين الجاهليين أيضاً ، كالذي كان من أمر (زيد) والد (عدي بن زيد العبادي) مع الفرس ، وكالذي كان من أمر ابنه عدي نفسه مع الفرس أيضاً ، ثم ما كان من أمر ابن عدي معهم . وكالذى كان من أمر (لقيط بن يعمر الإيادى) ، وغيرهم . وقد رأينا ان الناس أطلقوا على (حنظلة بن الربيع) ، كاتب الرسول (الكاتب) ، حتى عرف بـ (حنظلة الكاتب) ، لأنه كان قد قضى معظم وقته في الكتابة للرسول ، فكان يكتب له اذا غاب كاتب من كتابه عنه . فهو لاء اذن ، هم كتاب ، صارت الكتابة حرفتهم ، ولا بد وأن نتصور أنهم كانوا قد أتقنوا حرفتهم لطول مرانهم بما

وخبروها على خير وجه . ومن المؤسف ، إننا لا نملك نماذج من رسائلهم ولا من خطوطهم في هذا اليوم . كما لا نملك من خطوط غيرهم شيئاً ، وسبب ذلك هو ندرة مواد الكتابة وغلانها بالنسبة للذلك الوقت ، فكانوا يغسلون الصحيفة المكتوبة ويمحون ما كتب عليها ، ليكتبوا عليها من جديد ، ثم عدم ادراك الناس إذ ذلك لأهمية وقيمة الوثائق ، حتى بالنسبة الى الوثائق المهمة كرسائل الرسول وأوامره وأحاديثه وأمثال ذلك ، فضاعت الأصول بسبب هذا الإهمال ، وهي أصول سريعة التلف ، لأنها كتبت على الجلد وعلى مواد تبل بسرعة ، وتحتاج الى عناية وحرص كي تحافظ على حياتها مدة طويلة .

وقد سار الكتاب الجاهليون على الجادة التي سلكها الكتاب الآخرون الكائنوں بالأقلام السامية من عدم وضع علامات للحروف المشابهة مثل الباء والباء والباء ، بحيث أنهم كانوا اذا كتبواها ، لم يضعوا عليها نقاطاً لتمييز حرف منها عن حرف مشابه له أو بعلامة أخرى فارقة ، تفرق هذا الحرف عن الحرف الآخر . كما ساروا على الجادة التي سار عليها غيرهم من عدم وضع علامات خاصة بالحركات . فكتبوا ما كتبوا من غير اعجم ولا حركات . تاركين أمر القراءة الصحيحة وفهم المكتوب الى علم القارئ وفهمه وذكائه وحذقه باللغة وبالمهنة . وللعلم فعلوا ذلك محاكاة لغيرهم مثل الكتبة النبط والأراميين والعربانيين ، الذين تمسكوا بهذا الأسلوب ، على اعتبار أنه سنة قدمة ورثت عن الآباء ، وقد كتبت بها الكتب المقدسة . أو لأن القاريء يجب أن يكون عالماً بفنه بارعاً به ، فلا يكتب له بما يشعره أن مستوى في فهم المكتوب ، هو مثل مستوى سائر الكتبة ، من تعلموا القراءة والكتابة وكفى . فكتبوا من غير اعجم ولا حركات . وقد جعلوا ذلك خاصة في مخاطبة ذوي المكانة والحكم ، أما إذا كان الانسان المكتوب اليه من سواد الكتاب القراء ، فكانوا يبήبون لأنفسهم حرية إعجم الكتابة وتحريكها . ومن هنا أيضاً ، ظهرت نماذج من الخطوط ، خصصت بكتاب العامة . وكانوا يميزون بين الخطوط ، ويرجحون الخط القوي السوي على الخط الضعيف . والخط الجيد هو الخط الذي يجرد فيه . ولا يستبعد أن تكون لهم مدارس في كيفية تدوين الخط . فقد أطلقوا على خط أهل الأنبار المثقب . وقد عرفوا هذا الخط ، بأنه فيه خفة . ولا يعقل بالضبط أن يكون هذا الخط خطأً رديئاً وهذا سيء مشقاً ، بل هو طريقة خاصة من طرق رسوم الخطوط التي امتازت بمصد-

المحروف وبختتها في الكتابة أي سهولتها ، ولا تزال هذه الطريقة المعروفة بـ (خط المشق ) معروفة . وهي تستعمل عند الخطاطين في كتابة بعض الأمور التي يناسبها هذا الخط . ذكر أن الخليفة (عمر) ذكره فقال : « شر الكتابة المشق وشر القراءة المسرمة »<sup>١</sup> . لما في الاثنين من السرعة والتسريع . فالهذرمة السرعة . وذكر أيضاً أن (ابن سيرين) ذكر كتابة المصاحف بالمشق<sup>٢</sup> .

والنوع الثاني الذي نعرفه من أنواع الخطوط ، هو الجزم . وهو خط أهل الخبرة . وهو خط المصاحف<sup>٣</sup> .

ويجب أن نضيف إلى هذين القلمين قلم أهل مكة ، الذي دعاه (ابن النديم) بـ (الخط الملكي ) ، ثم الخط المدني . وقد ذكر أن ما بعدهما الخط البصري ثم الكوفي . وما خطان اسلاميان ، وإن كنت لا أستبعد من كونهما قد أخذنا من خط عرب العراق في الجاهلية ، ولعلهما قد طبعا بشيء من قلم أهل مكة أو المدينة . وقد وصف (ابن النديم) بعض خصائص القلم الملكي والقلم المدني ، فقال : « فأما الملكي والمدني ، ففي ألفاته تنويع إلى يمنة اليد وأعلى الأصابع وفي شكله انضجاع يسير<sup>٤</sup> . ويمكن استخراج بعض خواص رسم خطوط أهل الحجاز في القرن الأول للهجرة من الكتابات التي عثر عليها بعض الباحثين في مواضع متعددة من الحجاز ، والتي قد يعثر عليها في المستقبل .

والصفة التي يذكرها (ابن النديم) عن ألفات أهل مكة وأهل المدينة ، تدل على أن أهل المدينتين قد أخذلوا خطهم من أهل العراق والبطط ، لأن الصورة المذكورة هي صورة كتابة الألف في الخط الشمالي ، ولم يعدل الألف، بحيث صير مستقيماً إلا في الإسلام .

وأنا لا استبعد احتمال تدريس مبادئ اللغات وبينها مبادئ اللغة العربية في الخبرة وفي الأنبار وفي مواضع حضرية أخرى ؛ فليس يعقل انتصار التعليم في هذه الموضع على تعليم الخط والقراءة ثم لا يتتجاوزها إلى مراحل أخرى ومراتي أرفع . خاصة وأن السريانين كانوا قد اقتبسا من اليونان أجرؤمية النحو وأصول

١ الصولي ، أدب الكتاب (٥٦) .

٢ تاج المرروس (٩/١٠١) ، (هذرم) ، المصاحف ، للسجستانى (١٣٤) .

٣ الاقضاص ، للبطليوسى (٨٩) .

٤ الفهرست (١٤) .

الشعر وفلسفة قواعد اللغات بترجماتهم الكتب اليونانية إلى اللغة السريانية . . وأن جماعة من النصارى العرب كانوا يزورون القسطنطينية وببلاد الشام ويقرأون الكتب الدينية من آرامية ويونانية للتعلم والثقف ، وهؤلاء هم الذين تولوا تفسيف أبنائهم العرب وتعليمهم . وأناس من هذا الطراز لا بد وأن يكونوا قد تأثروا بما تعلموه من اليونان ومن السريانية فطبقوه على العربية ، ووضعوا القواعد لصيانته الألسنة ولترقيعها ، وسلكوا سبلاً في البيان ترتفع فوق مستوى تفكير السواد والسوقه بدرجات . وترجموا الموضوعات الدينية ولا سيما الكتب الدينية إلى الناس لتفسيفهم بأمور دينهم .

ورجل مثل ( عدي بن زيد العبادي ) ، ولّي ديوان الرسائل والإنشاء عند كسرى وهو ديوان مهم ، لم يكن الفرس يسلمون أمره إلا لرجل أديب حاذق، لا يعقل أن يكون مجرد قارئ خطاط ناقش للحرروف ، لا بد وأن يكون صاحب فن وحذق له أسلوب في تنبيق الكلام والتحبير ، قوي البيان ، يكتب وفق قواعد اللغة وأصولها . درس القواعد والأدب وأساليب العرب والعجم في التعبير والبيان ، فصار من ثم كاتباً بالعربية وبالفارسية كما يذكر أهل الأخبار .

## الفصل الخامس والعشرون بعد المئة

### الكتاب والعلماء

والعلم المعرفة . ورجل عالم وعلم ، صاحب معرفة ، وأصحاب المعرفة والعلم هم العلماء . ويقال في جمع علم : علام ، كجهال في جاهل . قال يزيد بن الحكم :

ومسترق القصائد والمضاهي سواه عند علام الرجال<sup>١</sup>

وذكر علماء اللغة ان ( الناخع ) العالم ، وقيل هو المبين للأمور ، وقيل هو الذي قتل الأمر علمًا . قال شقران السلامانى :

إن الذي ربضتها أمره سراً وقد بين للناخع  
لكالسي يحسها أهلها عن رأبكرأ وهي في الناس<sup>٢</sup>

والعلامة ، والعلامة ، والتعلمة ، والتعلامة : العالم جداً ، وذلك للمبالغة في سعة علم العالم . وذكر علماء اللغة ان « العلامة والعلم : النساية »<sup>٣</sup> ، ويظهر انهم ائماً قالوا ذلك ، بسبب ان النسب كان عند الجاهليين من أهم علومهم التي

١ تاج العروس ( ٤٠٥/٨ ) ، ( علم ) .

٢ تاج العروس ( ٥٢٠/٥ ) .

٣ تاج العروس ( ٤٠٦/٨ ) ، ( علم ) .

برعوا ونخصصوا بها ، حتى صار النسب مرادفاً للعلم عندهم . وفي القرآن : « إنما يخشى الله من عباده العلماءُ »<sup>١</sup> ، و ( علماء بنى إسرائيل )<sup>٢</sup> ، وألفاظ كثيرة لها صلة بالتعلم والعلم ، وفي ورودها فيه دلالة على وقوف الجاهلين على العلم والتعلم وعلى وجود العلماء عندهم .

وتعد لفظة ( الكاتب ) بمعنى العالم . « قال الله تعالى : ألم عندهم الغيب ، فهم يكتبون »<sup>٣</sup> ، وفي كتابه إلى أهل اليمن : قد بعثت إليكم كتاباً من أصحابي ، أراد عالماً ، سمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة ، والكاتب عندهم العالم . والاكتاب الإماماء . تقول : أكتبني هذه القصيدة ، أي أملاها عليّ<sup>٤</sup> ، و ( الكاتب ) عند الشعوب الأخرى ، بمعنى العالم كذلك ، وقد كانت للكتاب منزلة كبيرة في مجتمعهم ، إذ كانوا يعدون من الطبقات العالية الممتازة . وذلك لأن الكاتب لا يكون كاتباً إذ ذاك ، ولا ينال العلم ، إلا إذا كان من الطبقة العالية المتقدمة ومن أسرة عرفت بالعلم . والعلم إذ ذاك محصور في العوائل ، وفي رجال الدين وفي الطبقة التي تتولى الكتابة في قصور الملوك .

ونجد في القرآن لفظة : ( كتب ) و ( كتبتَ ) و ( كتبتُ ) و ( كتبنا ) ، و ( كتبها ) ، و ( فسألكتبها ) ، و ( نكتب ) ، و ( يكتب ) ، و ( يكتبون ) و ( أكتب ) ، و ( فاكتبهما ) ، و ( كُتِبَ ) و ( ستكتب ) ، و ( اكتبهما ) ، و ( فكتابوهم ) ، و ( كاتب ) ، و ( كتاباً ) و ( كتابون ) ، و ( كتابين ) ، و ( الكتاب ) ، و ( كتاباً ) ، و ( كتابك ) ، و ( بكتابهم ) ، و ( كتابنا ) ، و ( كتابه ) ، و ( كتابها ) ، و ( كتابي ) ، و ( كتابيه ) ، و ( كُتُبَ ) ، و ( كُتُبِهِ ) ، و ( مكتوبياً ) . وفي ورود هذه الألفاظ فيه معيرة عن معانٍ مختلفة لها صلة بالكتابة وبالعلم ، دلالة على أن الجاهلين كانوا على علم ، وأنهم كانوا يكتبون في أغراض مختلفة من أغراض الحياة ، وأنهم لم يكونوا على نحو ما يقص عنهم أهل الأخبار من الجهل والأمية .

- ١ فاطر ، الآية ٢٨ ، تفسير الطبرى ( ٢٢/٨٦ ) ، تفسير اللوysi ( ٢٢/١٧٦ ) .  
 ٢ الشعراء ، الآية ١٩٧ .  
 ٣ الطور ، الآية ٤١ ، القلم ، الآية ٤٧ .  
 ٤ تاج العروس ( ١/٤٤٥ ) ، ( كتب ) .

وذكر علماء اللغة ان (الشهر) وجمعها (شهور) بمعنى العالم ، واستشهدوا على هذا المعنى ببيت شعر ينسب الى أبي طالب ، هو :  
 فإنني والضوابع كل يوم وما يتلو السفاسرة الشهود<sup>١</sup>

قال الصاغاني : هكذا أنشده الأزهري لأبي طالب ، ولم أجده في شعره<sup>٢</sup> .  
 ولكن الرواية يروونه على هذا التحوى :  
 فإنني والضوابع كل يوم وما تتلو السفاسرة الشهود<sup>٣</sup>

والسفاسرة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب ، والشهود أنساب في تفسير الشعر من الشهور ، لأننا لا نعلم ان أحداً قال إن الشهر : العالم ، وأرى ان تصحيفاً قد وقع في البيت حول حرف ( الدال ) ( راء ) ، ففسرت لفظة الشهور بالملاء ، لعدم تصادم هذا التفسير مع المعنى ، وفي العربية مثاث الأمثلة على مثل هذا التصحيح .

وترد لفظة (الفقه) بمعنى العلم بالشيء والفهم له . ويظهر ان الجاهليين كانوا يستعملون لفظة ( فقه ) ومشتقاتها في معان لها صلة بالعلم . ودليل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من قوله « فلولا نقر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »<sup>٤</sup> ، ومن ورود (تفقهيون) ، و (تفقهاء) ، و (يفقهوا) ، و (يفقهون) ، و (يفقهوه) في مواضع منه . وورد في كتب اللغة والأدب والأخبار : « فقيه العرب : عالم العرب » ، و « فقهاء من العرب »<sup>٥</sup> . وورد في الحديث : « أبغضكم إلى الثرثاثون المتفقهون »<sup>٦</sup> ، أي الثرثاثون المدعون العلم والفقه .  
 وفيهم أيضاً من روایات أهل الأخبار ، انه قد كان للجاهليين أئمة وفقهاء يقضون بينهم ، ويفتتون في دينهم ، ومحافظون على دينهم . فهم عندهم سلطنتهم وأمثالهم . وقد ذكر ( ابن حبيب ) أسماء نفر من ( تميم ) تولوا الموسم والقضاء

- ١ تاج العروس ( ٣٢٠ ، ٢٧٢ / ٣ ) ، ( سفر ) ، ( شهر ) .
- ٢ تاج العروس ( ٣٢٠ / ٣ ) ، ( شهر ) .
- ٣ تاج العروس ( ٣٧٢ / ٣ ) ، ( سفر ) .
- ٤ التوبه الرقم ٩ ، الآية ١٢٢ .
- ٥ اللسان ( ٥٢٢ / ١٣ ) ، ( فقه ) .
- ٦ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول ( ص ٢٤٢ ) .

بعكاظ . فكانوا يجلسون في مكان من السوق ، بين المتخادعين ولللافتاء فيها يشكل عليهم من أمر دينهم . وكان منهم من تخصص بالإجازة بالموس . ومنهم من تخصص بالفتيا والقضاء . ومنهم من جمع بين الاثنين<sup>١</sup> .

وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن كتب ومؤلفات نقول إن الجاهلين كتبواها بالعربية على نمط اليونان واللاتين والقرس والسريان في الكتابة والتأليف ، ذلك لقصور علمنا في الموضوع ، ولعدم وصول أي خبر اليانا عنه حتى الآن .

نعم ، لقد أشرت الى وجود ما يسمى (مجلة لقمان) و (حكمة لقمان) والى كتب امتلكها بعض الجاهلين ، إلا أن الخبراء لم يصفوا كيف كانت مجلة لقمان ، ولم يتطرقوا الى ما كان فيها ، كما أن الظواهر تشير الى أن تلك الكتب هي مؤلفات جيء بها من بلاد الشام والعراق واليمن ، أغلبها في موضوعات دينية وتاريخية وقصص . وأما لغتها ، فيظهر أن بعضها بعربية القرآن الكريم ، كمجلة لقمان ، وبعضها بلغة بني إدم .

أما ما قيل له (الأساطير) أو (كتب الأساطير) ، فهو كتب قصص وسر حكايات وتاريخ . وتدل التسمية على أنها من أصل يوناني ، هو : Historia و Storia في اللاتينية وتعني التاريخ ، عربت فصارت (أسطورة) وجمعت على أساطير واستعملها الجاهليون استعمال اليونان واللاتين ، أي أرادوا بها تاريخ الماضي وحكاياتهم وقصصهم .

وأما ما قيل له (السفارة) ، فالسفير الحاذق بالشيء . والسفارة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب . والكلمة من أصل (إرمي) على رأي علماء اللغة . و (سفير) يمعنى (مسمار) في لغة (بني إدم) ، أي المسماوم<sup>٢</sup> . والظاهر ان (السفارة) ، من (سفر) ، و (سفر) (سيفير) يمعنى كتاب في عدد من اللغات السامية . وتقابل (سفر) في لغة بني إدم ، يمعنى كتاب<sup>٣</sup> . وقد كان عكة ويغيرها رجال يتلون الكتب ويقرأون أسفار أهل الكتب من دينية وغيرها قبل الاسلام وفي الاسلام . وفي الحديث : لا تعلموا أبكار أولادكم كتب

١ المعير (آئمة العرب) ، (ص ١٨١ وما بعدها) .

٢ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

٣ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

النصارى : يعني أحداثكم <sup>١</sup> . وفي هذا الحديث إن صح دلالة على أن قراءة الكتب كانت منتشرة في ذلك العهد . ولا تعنى جملة ( كتب النصارى ) الكتب الدينية بالضرورة ، إذ قد تعنى كل ما كان يتناوله النصارى من كتب في ذلك العهد . وقد يكون من بينها مؤلفات في الفلسفة وفي الطب وفي فروع المعرفة الأخرى التي كان الناس يتدارسونها إذ ذاك .

وفي الآية : « قالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تعلى عليه بكرة وأصيلاً ». قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض . إنه كان غفوراً رحيماً <sup>٢</sup> ، دلالة صريحة على وجود الكتب والأساطير عند الجاهليين . فلما نزل القرآن ، قال المشركون : « إن هذا إلا افک افتراه محمد صلی الله عليه وسلم ، هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين ، يعنون أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم . اكتتبها محمد صلی الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تعلى عليه ، يعنون بقوله : فهي تعلى عليه ، وهذه الأساطير ، تقرأ عليه ، من قولهم أميلت عليك الكتاب ، وأميلت بكرة وأصيلاً » ، يقول وتعلى عليه غدوة وعشياً . وقوله : قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض . يقول تعالى ذكره : قل يا محمد طؤلاء المكذبين بآيات الله من مشركي قومك ما الأمر كما تقولون من أن هذا القرآن أساطير الأولين ، وأن محمداً صلی الله عليه وسلم ، افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، بل هو الحق أنزله الرب الذي يعلم سر من في السموات ومن في الأرض ولا يخفى عليه شيء <sup>٣</sup> . وزعموا أن الرسول اكتب القرآن من ( أساطير الأولين ) ، وهي أحاديث سطراها المتقدمون كأخبار الأعاجم ، « فهي تقرأ عليه أو كتبت له » <sup>٤</sup> ، وقالوا : « ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأولين وأحاديثهم » <sup>٥</sup> . وكانوا يرونون الأساطير وأحاديث الخلق ، وهي الخرافات من الأحاديث المفتعلة ، فرمى المشركون الرسول بهذه الفرية <sup>٦</sup> .

١ تاج العروس ( ٣/٥٧ ) ، ( بكر ) .

٢ الفرقان ، الآية ٥ .

٣ تفسير الطبرى ( ١٨/١٣٧ وما بعدها ) .

٤ تفسير النيسابورى ( ١٨/١٢٥ وما بعدها ) ، ( حاشية على تفسير الطبرى ) ، تفسير الالوسي ( ١٨/٢١٣ ) .

٥ تفسير الطبرى ( ٦٠/١٩ ) ، تفسير الالوسي ( ١٩٠/١٠٠ ) .

٦ اللسان ( ١٠/٨٨ ) ، ( خلق ) .

وقد ذهب (شبرنكر) - وهو من الزاعمين أن الرسول كان يكتب ويقرأ - إلى أن النبي قرأ كتاباً في العقائد والأديان وأخبار الماضين ، وقد زعم أن اسم هذا الكتاب هو : (أساطير الأولين)<sup>١</sup> . وقد أخذ رأيه هذا من الآية: «وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تعلى عليه بكرة وأصيلاً»<sup>٢</sup> . وهذه السورة هي من سور المكية . فهي تشير إلى زعم قريش في أن القرآن ، هو شيء اكتتبه الرسول ، وقد أملأ عليه من الأساطير . وقد سبق أن قالوا إنه يتعلمه من أناس عاونوه وساعدوه عليه . قالوا إن هذا القرآن «إفك إفراه محمد صلى الله عليه وسلم»، وهذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين يعني أحاديثهم التي كانوا يستطرونها في كتبهم ، اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تتملي عليه . يعنون بقوله : فهي تتملي عليه ، وهذه الأساطير تقرأ عليه ، من قولهم أمليت عليك الكتاب وأمليت ، بكرة وأصيلاً . يقول وتملي عليه غدوة وعشياً ، «وأعانه عليه قوم آخرون . يقول : وأعان محمدًا على هذا الإفك الذي افراه يهود»<sup>٣</sup> . وقد رد على هذا الرأي (نولدهك) في كتابه : (تأريخ القرآن)، وعده قوله لا أهمية له<sup>٤</sup> .

وقد ذكر علماء اللغة أن الأساطير هي الأباطيل والأكاذيب والأحاديث لا نظام لها ، وهي جمع (أسطار) و (أسطير) و (أسطور)<sup>٥</sup> . واللفظة من الألفاظ المغربية . وهي *Istoriya* (استوريَا) في اليونانية ، و *Historia* في اللاتينية ، وقد أطلقت عندهم على كتب الأساطير والتاريخ . ويظهر أن الجاهليين قد أخذوها من الروم قبل الإسلام ، واستعملوها بالشكل المذكور وبالمعنى نفسه ، أي في معنى تاريخ وقصص .

ولا أستبعد وجود الكتب التاريخية باليونانية وباللاتينية في مكة ، فقد كان في مكة وفي غير مكة رقيق من الروم ، كانوا يتكلمون بلغتهم فيما بينهم وينطقون

Noldeke I, S. 16, Ency. of Islam vol. IV, p. 1016.

١

الفرقان ، الآية ٥ .

٢

تفسير الطبرى (١٨/١٣٧ وما بعدها) ، أسباب النزول ، لتنيسابوري (١٦٠) .  
Noldeke, I, S. 17.

٣

تاج العروس (٣/٢٩٧) ، المفردات (٢٣١) ، البيضاوى ، تفسير (١/١٤٤) ،  
تفسير الطبرسى (٧/٣٢) ، (١٤/٦٦) .

٤

٥

بها إذا تلقوها ، كما كانوا يحتفظون بكتابهم المقدسة، ويكتب أخرى مدونة بلغتهم. وقد ذكر علماء التفسير اسم رجل زعمت قريش أنه كان هو الذي يعلم الرسول وبلقنه القرآن . وإليه الإشارة في الآية : « لسان الذي يلحدون اليه أحجمي » <sup>١</sup> . وهي في سورة النحل ، وسورة النحل من سور المكية . « كانوا يزعمون أن الذي يعلم محمداً هذا القرآن عبد رومي » <sup>٢</sup> ، وكان صاحب كتب ، عبد لابن الحضرمي <sup>٣</sup> . فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حبين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه <sup>٤</sup> .

وقد ذهب ( شرنكر ) إلى وجود ( صحف ابراهيم ) عند الجاهليين ، زعم ان الرسول قرأها وأخذ منها . وقد رد على رأيه هذا ( نولدكه ) ، بقوله : لو فرضنا أن محمداً أخذ من هذه الصحف ، ونبيه لنفسه وادعاه ، على أنه وحي أوحى الله به إليه ، لو فرضنا ذلك ، فإن من غير المقبول عندئذ ذكر محمد لتلك الصحف في القرآن . لأن ذكرها فيه معناه إرشاد الناس إلى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه ، وهذا فلا يعقل الأخذ بكلام ( شرنكر ) <sup>٥</sup> .

وورد في كتب أهل الأخبار أن ( الأحناف ) كانوا يقرؤون الكتب ، وتبحروا في التوراة والإنجيل ، ومنهم من وقف على لغة (بني إرم) وعلى العبرانية . ومن هؤلاء ( ورقة بن نوفل بن أسد ) ، الشاعر صاحب العلم في الجاهلية ، وكان قد قرأ الكتب وتبحر في التوراة والإنجيل ، وهو الذي لقبته خديجة في أمر النبي <sup>٦</sup> .

وورد في بعض الأخبار في تفسير الآية : « ومن الناس من يشتري له الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذه هُرُواً » <sup>٧</sup> . ان هذه الآية إنما نزلت في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السمر والأحاديث القديمة ، ويصاہون بها القرآن ، ويقولون إنها أفضل منه <sup>٨</sup> . وفي هذا الخبر دلالة على وقوف الجاهليين

١- النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٢- تفسير الطبرى ( ١٤/١١٩ ) وما بعدهما .

Noldeke, I, S. 17, Sprenger, Lebens Muhammad, II, S. 367.

٣- الاشتراق ( ١٠٢ ) .

٤- سورة لقمان ، الآية ٦ .

٥- العقد الفريد ( ٩/٦ ) .

على الكتب واستعمالهم لها ، وخاصة كتب السمر والأحاديث القديمة ، إذ لا يعقل أن يكون شراؤهم لها حادثاً طارئاً ، ظهر عندهم بتزول القرآن .

وذكر بعض المفسرين أن الآية المذكورة نزلت في حق « النضر بن الحارث و كان يتجر إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم : رسم واسفنديار فيحدث بها قريشاً . وقيل كان يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحد ي يريد الإسلام إلا انتلقي به إلى قينته ، فيقول أطعهه واسقيه وغشه ، ويقول هذا خير مما يدعوك محمد إليه من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه »<sup>١</sup> .

وإذا صح ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن هذه الآية قد نزلت بحق (النضر) لأنّه كان يعاون الرسول ويعارضه وقت يكون مجتمعًا بنفر من الناس يلقى عليهم مباديء الإسلام ، فيقرأ عليهم من كتب الأعاجم ومن قصص : رسم واسفنديار فإن ذلك يدل على أنه كان يتقن الفارسية ، وأنه كان يمتلك كتب الفرس ويقرأ بها وهو بمكة ، ويتترجم ما جاء فيها لمن يتجمع حوله . وأنه اشتري جملة كتب خلال تجاراته مع العراق .

فنحن إذن أمام أقدم مترجم يصل إلينا خبره من مترجمي العرب قبل الإسلام بمكة . يقسم بترجمة كتب من الأعجمية إلى العربية . ويكون بذلك قد سبق المسلمين بزمن طويل في ترجمة كتاب رسم واسفنديار إلى العربية . غير أننا يجب أن نتحفظ ونخترز كثيراً في قولنا هذا . فنحن لا نقصد أنه ترجم كتاب رسم واسفنديار ترجمة تدوين وتحبير ، وبالتمام والكمال . فقول مثل هذا يكون قوله جزاً ، لا يستند إلى علم أو دليل إن قلته . وإنما أقصد ترجمة شفوية على نحو ما ذكره وأورده المفسرون وأصحاب السيرة . وقد ترجم هذا الكتاب في الإسلام . ترجمته جبلة بن سالم<sup>٢</sup> .

ولا أعتقد أن رجلاً مثل الحارث بن كلدة الثقفي ، أو ابنه النضر ، وما من العلماء بالطبع ، لم يرجعوا إلى مؤلفات في الطب مدونة بلغة من اللغات الأعجمية ، للحصول على علمها في الطب . وكيف يمكن ذلك ، وقد درسا في مدرسة لم تكن

١ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبراني (٥٢/٢١) ، سيرة ابن هشام (٣٨٣/١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٥٢/١٤) .

٢ الفهرست (٤٣٨) .

مدرسة عربية ، هي مدرسة ( جنديسابر ) ، عرفت واشتهرت في الطب . وقد كان عماد دراستها في الطب ما ألقه اليونان ، وما نقله منها علماء السريان . ولا أعتقد أنها كانت في جهل بمؤلفات أباقرط وجالينوس وغيرهما من بنوا صنعة الطب، ووضعوا فيها المؤلفات. بل لا أعتقد أن رجالاً في مكة أو في يثرب أو الطائف كانوا على جهل بأسماء مشاهير حكماء اليونان ، وبينهم من كان له اتصال ببلاد الثقافة والعلم وبالجانب على نحو ما ذكرت ، وإن أغفل عن ذكرهم أهل الأخبار .

ويظهر من روايات أهل الأخبار - مثل رواية ابن الكلبي عن وجود دوافين فيها ما مدح به آل نجم وما قبل فيهما من شعر ومقدار ما حكم كل واحد منهم ، وروايات غيره عن تدوين الشعر قبل الاسلام - أن الجاهليين كانوا قد شرعوا في تدوين الأخبار والشعر وما لفت انتباهم قبل الاسلام ، وقد يكون ذلك قبيل الاسلام بعهد غير بعيد ، وأن التدوين كان بهذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، أو بلهجات قريبة منها . ومعنى هذا أن هذه اللهجة كانت قد أكتسبت قوة في هذا العهد ، حملت الناس على التدوين وعلى نظم الشعر بها . ولكن الذي رفعها وجعلها لغة للعرب أجمعين ، هو القرآن الكريم من غير شك ، فبفضلة صارت هذه اللغة لغة للعرب كلهم ولغة المسلمين الدينية .

ويظهر من القرآن الكريم أن هذه اللغة كانت قد عرفت ألفاظ الحضارة والفكر في يوم نزوله ، لورودها فيه . ولورودها فيه أهمية كبيرة في إعطاء فكرة عن مستوى أهل الحجاز العقلي في ذلك اليوم ، فقيه ألفاظ مثل العلم والعلماء والحكمة والأساطير والأمثال الخ ... وألفاظ ذات صلة بالكتابة والتدوين تحدثت عنها ومصطلحات أخرى ، ولا يمكن ورود مثل هذه الكلمات في لغة قوم ما ، مما لم يكن لهم أو بجماعة منهم على الأقل ، حظ من ثقافة وتفكير وعلم .

ولا أقصد أن الجاهليين استعملوا تلك الألفاظ بدلواها المفهوم في الزمن الحاضر ، أو بمعاني المفهومة منها عند اليونان . لفظة ( علم ) مثلاً ، لا تعني علماً بالمصطلح الحديث أي في مقابل Science في الانكليزية ، وإنما تعني المعرفة عامة . ولفظة ( علماء ) ، لا تعني المشغلين بالعلوم خاصة أي ما يقال لهم Scientist في الانكليزية ، وإنما يراد بهم العارفون أصحاب المعرفة والفهم . وقد صار لفظين مدلولان خاصان في العصر العباسي ، ولكن هذا لا يعني أن لفظة ( علم ) أو ( علماء ) ، لم تكن تعني معنى خاصاً عند الجاهليين ، وإنما استعملت للتعبير

عن معانٍ معينة في القرآن الكريم ، وما ميز القرآن الكريم والحديث النبوي العارفين بالحقيقة علماء ، لتمييزهم عن السواد . وبهذا المعنى وردت لفظة (علم) وعلم عند العبرانيين<sup>١</sup> .

ولا أستبعد تأثير المثقفين الجاهليين ومن كان على اتصال بالعجم وباليهود والنصارى بالأراء الفلسفية والدينية وبالجدل الذي وقع بين المذاهبنصرانية في أمور عديدة . فقد خالط الجاهليون ، ولا سيما في بلاد العراق وببلاد الشام ، أنواعاً عديدة ذات ثقافات متباينة ، واحتکروا بها ، وأخذلوا منها ، فلا يعقل ألا يتأثروا ببعض آرائهم في الكون وفي الحياة وفي سائر نواحي التفكير . وقد وردت في شعر للأعشى وفي شعر لبيد ، فكرتان متناقضتان عن الجبر والاختيار ، فذهب الأعشى في هذا البيت :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولي الملامة الرجل

مذهب القائلين بالاختيار ، أي أن الإنسان مختار قادر على أفعاله . أما الأعشى فذهب مذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبر ، مسير ، وذلك في قوله :

إن تقوى ربنا خير نقل وبإذن الله ربى وعجل  
من هداه سُبل الخير اهتدى ناعم البال، ومن شاء أضل؟

وقد سبق أن ذكرت في مواضع متعددة من هذا الكتاب أن أكثر من نسبة إلى التوحيد ، أي من ينتهي أهل الأخبار بالحنفاء ، كانوا يقرؤون ويكتبون ، وكانت عندهم كتب أهل الكتاب : وان أكثرهم كانوا أصحاب رأي وفكرة في الخلق وفي هذا العالم . ولكنهم لم يدخلوا في يهودية ولا في نصرانية ، لأنهم لم يجدوا في الديانتين شيئاً يفرج ويرفعه عما كان يحول في رؤوسهم من آراء ومقالات عن الخلق والكون . وقد جالس هؤلاء رجال اليهود والنصارى ، وتكلموا معهم في أمور عديدة من أمور الفكر والدين في جزيرة العرب وفي بلاد العراق وببلاد الشام . وينسب بحسب بن عمرو بن حمزة ، وهو من دوس ، أنه كان يقول في الجاهلية :

---

Hastings, Dict. of the Bible, p. 831.

١ العقد الفريد (٣٧٨/٢) .

إن للخلق خالقاً لا أعلم ما هو . ثم جاء إلى الرسول ، فأسلم . وقد ذكر أن ورقة بن نوفل ، وهو واحد من المذكورين ، كان قد قرأ الكتب وكتب بالعبراني أو السرياني ، وإنه كتب بالسريانية (العبرانية) من الإنجيل ما شاء أن يكتب . وكان قد امتنع عن أكل ذبائح الأوثان<sup>١</sup> . وذكر أيضاً : أن زيد بن عمر بن نفيل ، وهو من كان على الحنيفة ، كان يعتقد قريشاً ، ولا يأكل ذبائحها ، لأنها ذخت للأصنام والأوثان<sup>٢</sup> ؛ وأن عبد الله بن عبد الملك بن غفار المعروف بأبي اللحم الغفارى كان يأبى أن يأكل اللحم ، وهذا سمي : ( أبي اللحم ) . وكان شريفاً شاعراً . وقد أسلم : وشهد حينئذ<sup>٣</sup> . وكان لكل هؤلاء وقوف على كتب أهل الكتاب ، وهم علم بأقلامهم .

وقد ذكر أهل الأخبار أن وهب بن منبه وأخاه كانوا يستوردان الكتب القديمة من بلاد الشام . ويرد مصطلح ( الكتب القديمة ) في كتب السير والأخبار<sup>٤</sup> . ووهد بن منبه وأخوه من المسلمين ، ولكن استيرادهما للكتب ، لم يكن بداعاً واكتشافاً منها ، بل لا بد أنه كان قديعاً معروفاً عند الجاهليين .

وقد ذكر أهل الأخبار عبد عمرو بن صيفي النعسان المعروف بأبي عامر الراهب في جملة من كان يناظر أهل الكتاب، ويتبع الرهبان ، ويألفهم ، ويكثر الشخصوص إلى الشام . ومن هنا قيل له : الراهب<sup>٥</sup> . وقد علم بذلك علم أهل الكتاب .

وورد أن أهل الكتاب ، وهم اليهود ، « كانوا يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربة لأهل الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبواهم<sup>٦</sup> » ، وورد جواز تفسير التوراة والإنجيل باللغة العربية<sup>٧</sup> . وكان اليهود يجادلون رسول الله في أمور الدين ، وقد أشير إلى جدالهم له في القرآن الكريم : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بما تي هي أحسن إلا الذين ظلموا

١. الأغاني (١٤/٣) ، (١٢٠/٣) ، (١٢) ، (٥٢/١٢) .

٢. الأغاني (١٥/٣) وما بعدها .

٣. الاصابة (١٣/١) ، الاستيعاب (١١١/١) ( حاشية على الاصابة ) .

٤. شرح القاموس (٤٢١/٥) .

٥. نسب قريش (ص ٢٨١) .

٦. ارشاد الساري (٤٦٦/١٠) .

٧. المصدر نفسه (ص ٤٦٥) .

منهم . وقولوا : آمنا بالذي أنزل علينا وأنزل إليكم وإلينا وإنكم واحدونحن له مسلمون <sup>١</sup> ، وكانوا يستعينون في جدهم للتوراة ، بفسرها بالعربية للمسلمين <sup>٢</sup> . وقد فسر بعضهم الآية : « ليقولوا دارست » ، « بقوله : قرأت على اليهود وقرأوا عليك » ، وفسرها بعضهم بذاكرتهم ، أو قرأت كتب أهل الكتاب <sup>٣</sup> ، فتحن إذن أيام أقدم أخبار تشير إلى ترجمة العهد القديم إلى العربية ، ليفهمها العرب المشركون . وقد كان جدال اليهود مع النبي على أمور واردة في التوراة ، فلا بد وأنهم كانوا يستعينون بالترجمة في هذا الجدال .

وفي أخبار أهل الأخبار هذه مواضع تثير السؤال وتوجه الانتباه إلى قضية وقف أهل الجاهلية وصدر الإسلام على كتب أهل الكتاب ، ونقلهم عنها وشرحهم البعض ما نقلوه باللغة العربية . فقد وقفتنا توأ على ما ورد عن بعض الأحناف من وقوفهم على كتب أهل الكتاب ومن معرفتهم بالعبرانية والسريانية ، وقد وقفتنا من أخبارهم على أن ( عبد الله بن عمرو بن العاص ) كان قدقرأ ( الكتاب الأول ) <sup>٤</sup> . وأنه كان يقرأ بالسريانية <sup>٥</sup> ، وأنه استأذن رسول الله في أن يكتب ما سمعه منه ، فأذن له ، فدوته في صحيفة سماها : ( الصادقة ) <sup>٦</sup> ، وروي أنه كان يقرأ الكتابين : التوراة والإنجيل <sup>٧</sup> . وأنه « كان فاضلاً عالماً قرأ الكتاب واستأذن النبي في أن يكتب حدثه ، فأذن له ، فكتب عنه حدثه وحفظ عنه ألف مثل <sup>٨</sup> . وروي أنه كان على علم بالثناء ، و ( الثناء ) ( المشنا ) في تفسير التوراة ، وأنه جمع كتاباً حصل عليها يوم ( اليرموك ) ، وكان له علم بها <sup>٩</sup> . وروي أن ( عمر ) انتسخ كتاباً من كتب أهل الكتاب ووضعه في أديم ، وجاء به إلى رسول الله ، فقال له : « ما هذا في يدك يا عمر ؟ قال : يا رسول

١ العنكبوت ، الآية ٤٦ .

٢ تفسير الطبرى ( ٢١ / ٢ ) وما بعدها .

٣ تاج العروس ( ٤ / ١٥٠ ) ، ( درس ) .

٤ الطبقات ( ٤ / ٢٦٧ ) ( صادر ) .

٥ الطبقات ( ٤ / ٢٦٦ ) ( صادر ) ، المعارف ( ٢٨٧ ) .

٦ الطبقات ( ٤ / ٣٦٢ ) ( صادر ) .

٧ الاصابة ( ٢ / ٣٤٣ ) ، ( رقم ٤٨٤٧ ) .

٨ الاستيعاب ( ٢ / ٣٣٩ ) ، ( حاشية على الاصابة ) .

٩ تاج العروس ( ١٠ / ٦١ ) ، ( ثنى ) .

الله كتاب استنسخه لتردداد به علمًا إلى علمتنا . ففضب رسول الله حتى احرّت وجنتاه » . وورد أيضًا أن رجلاً من (بني عبد القيس) سكته بالسوس ، كان قد نسخ (كتاب دانيال) ، وكان يقرأه ويفسره للناس ، وذلك في أيام عمر ، فنهاه عن ذلك ، وشدد عليه في وجوب حمو ما كتبه<sup>١</sup> . وورد أن (عمر) كتب إلى عامله (أبي موسى الأشعري) كتاباً نسخته : « إغسلوا دانيال بسدر وماء الريحان »<sup>٢</sup> .

وورد أن (عمر بن الخطاب) ، قال للنبي : أنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فنهى الرسول عن ذلك<sup>٣</sup> .

ويرد اسم (كتاب دانيال) في خبر آخر ، فقد ورد عن (عمرو بن ميمون الأودي) ، أنه كان جالساً مع قوم ، فجاء رجل ومعه كتاب ، فقالوا له : ما هذا الكتاب : قال كتاب دانيال<sup>٤</sup> .

ولم يرد اسم (Daniyal) في القرآن ولا في الحديث ، ولكنه معروف جداً عند المسلمين ، بأنه نبي ، ولهم قصص في أخبار الرسل والأنبياء<sup>٥</sup> . وقد وصلتهم قصصه من أسلم من يهود ومن اليهود الذين عاشوا بين الماجاهلين وبين المسلمين . حيث اكتسبت رؤيا (Daniyal) وتنبؤاته وتفسيره لحلم (نيوخذ نصر) شهرة خاصة عند يهود ، وانتقلت منهم إلى المسلمين . وبعد (Daniyal) أحد الأنبياء الأربع الكبار ، وتولى مناصب عالية عند البابليين والميديين (الماديين) ، وقد اشتهر بتعبير الرؤيا وبالتالي عن المستقبل<sup>٦</sup> ، والظاهر أن شهرته هذه عند أهل الكتاب ، أكسبته منزلة خاصة عند المسلمين .

وورد أن (ابن قرة) جاء بكتاب من بلاد الشام إلى (عبدالله بن مسعود) ، وكان قد أعجب به ، فأمر (عبدالله بن مسعود) بطبعه فيه ماء ، مما به أثر الكتابة<sup>٧</sup> .

١ الخطيب البغدادي ، تقييد العلم (٥١) .

٢ كنز العمال (٦/٢١٠) ، خورشيد أحمد (١٢٢) ، القسم العربي (رقم ٢٤١) .

٣ الفائق (٢١٨/٣) .

٤ تقييد العلم (٥٦ وما بعدها) .

٥ راجع قصص الأنبياء (ص ٢٣١) .

٦ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٣٢) .

٧ سنن الدارمي (١/١٢٣) ، تقييد العلم (٥٣) .

وذكر أن (عمر بن الخطاب) قال: «أيها الناس، إنه قد بلغني أنه ظهرت في أيديكم كتب، فأجبتها إلى الله أعدها وأقومها، فلا يعيين أحداً عنده كتاب إلا أتاني به، فرأى فيه رأيي. فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها، ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف؛ فأثاروه بكتبهم. فأحرقها بالنار»<sup>١</sup>. ويظهر أن هذه الكتب هي من كتب أهل الكتاب، فعندنا أخبار عديدة تذكر حصول الصحابة على كتب كبيرة وقعت اليهم في الغزوات والمحروب التي جرت في بلاد الشام.

وقد ورد في شعر بعض الشعراء الجاهليين ما يفيد وقوف أصحاب ذلك الشعر على كتب أهل الكتاب. كالزبور و (خط زبور) و (مصاحف الرهبان) و (التوراة) و (المجلة) أي الانجيل وأمثال ذلك، مما يدل على أنهم كانوا قد وقروا على خبرها و شأنها، وأن اليهود والتصارى وهم عرب على اليهودية والنصرانية كانوا يتداولونها فيما بينهم، باعتبار أنها كتبهم المقدسة<sup>٢</sup>.

وقد وجد المسلمون مصاحف لليهود في مستوطناتهم فيها التوراة وفيها كتبهم الأخرى. فذكر أن المسلمين لما فتحوا (خبيث) «وجمعت مصاحف فيها التوراة، ثم ردت على اليهود»<sup>٣</sup>.

وأنا لا أستبعد احتمال ترجمة الكتاب المقدس بقسميه، كلاماً أو جزءاً منه إلى العربية، فقد كان اليهود - كما سبق أن قلت - يفسرون ليهود يثرب ولعربها التوراة وكتبهم الدينية بالعربية، كما كان المبشرون يفسرونها بالعربية؛ وقد رأيت أن قريشاً أتّهموا الرسول بأنه كان يستمع إلى رجل نصراوي، ويأخذ منه. وأنهم ذكروا أن الأحناف كانوا يقرأون التوراة والإنجيل، وأن عرب العراق كانوا يدرّسون في الكنائس والأديرة بالعربية، فلا أستبعد احتمال وجود ترجمات عربية للكتب الدينية قبل الإسلام، تلقت لأسباب عديدة، منها أنها لم تكن إسلامية، ولأسباب أخرى، فلم تصل إليها لذلك.

وقد ورد في بيت شعر ينسب إلى (بشر بن أبي خازم)، ذكر كتاب كان عند نبي نعيم، إذ جاء فيه:

١ تقدير العلم (٥٢).

٢ خزانة الأدب (١١/٣)، ديوان المسؤول (١٢)، اللسان (١٢/١١٣)، «صادر».

٣ امتناع الاسماع (٣٢٣/١).

## وجدنا في كتاب بنى تميم أحق الخليل بالركض المعارض

ولو أخذنا بظاهر العبارة ، دل البيت على وجود كتاب عند بنى تميم ، قد يكون صحيفه وقد يكون كتاباً مؤلفاً من صفحات . ولو أخذنا بالتأويل وقلنا معناه : وجدنا هذه اللقطة مكتوباً ، ان أحق الخليل بالركض المعارض ، انتهى وجود كتاب لدليهم<sup>٢</sup> . وقد نسب هذا البيت الى (الطرماح بن حكيم) ، وهو شاعر اسلامي . واذا صح ان هذا البيت هو من شعر الطرماح ، جاز أخذ لقطة (كتاب) بالمعنى الحقيقي ، إذ كانت الكتب معروفة في هذا الوقت .

وجاء في كتاب (امتناع الأسماع) ، أن الرسول « كتب هذه السنة المعاقل والديات ، وكانت معلقة بسيفه »<sup>٣</sup> . وأشار الطبرى الى هذه الصحيفه بقوله : « وقيل : ان هذه السنة كتب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المعاقل فكان معلقاً بسيفه »<sup>٤</sup> ، والسنة المشار اليها هي السنة الثانية من الهجرة . والخبر أشبه ما يكون بخبر (الصحيفه) المنسوبة الى (علي بن أبي طالب) ، فقد ورد في (صحيح البخاري) : « عن أبي جحيفة ، قال : قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفه . قال : قلت : وما في هذه الصحيفه ؟ قال : العقل وفكاك الأسر ولا يقتل مسلم بكافر » . وورد أنها « كانت معلقة بقبضة سيفه . إنما احتياطأ أو استحضاراً » ، وورد « فأخرج كتاباً من قراب سيفه »<sup>٥</sup> . ويکاد يكون الخبر واحداً ، فالصحيفه صحيفه المعاقل والديات ، وموضعها في الخبرين السيف ، معلقة به ، أو في قرابة . ويظهر من روایات أخرى أن فيها أحاديث عن الرسول : مثل : المدينة حرام ما بين عاثر الى كذلك ، فن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس

١ المفضليات (٩٨) ، الموسوع (١٧٩) ، تاج العروس (٤٣٤/٣) ، (غير) .

٢ (فمعناه وجدنا هذه اللقطة مكتوبة) ، المرزبانى ، الموسوع (١٧٩) .

٣ المقريزي ، امتناع الأسماع (١٠٧/١) .

٤ الطبرى (٤٨٦/٢) .

٥ ارشاد السارى (٢٠٣/١ وما بعدها) .

أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ومن والى قوماً غير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل » . وورد انه كان فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل<sup>١</sup> .

ولم نجد في الأخبار ما يفيد أن الصحابة كانوا على علم بصحيفة النبي ، ولو كانت للرسول صحيفة فيها أحكام المعاشر والديات ، كان الرسول قد علقها على سيفه ، دلالة على اهتمامه بها ، لما سكت عنها الصحابة ، مع ما لها من الأهمية بالنسبة لاصدار الأحكام ، ولأنها يجب أن تكون المرجع المطاع الثاني بعد القرآن. ولذلك فانا أشك في أمر هذه الصحيفة ، وفي صحيفة الإمام كذلك المأمورة من كلام الرسول ، ولو كانت صحيفة الإمام ، هي صحيفة الرسول نفسها ، صارت إليه بعد وفاته ، لما سكتت الأخبار من الإشارة إليها وعن انتقالها إلى (علي) لما لها من أهمية ، ولا سيما بالنسبة الى الشيعة الذين يفتشون عن هذه الأمور باعتبارها منقبة تضاف إلى مناقب الإمام، وحججه في اثبات إمامته واعتباره وحده. ولو كانت الصحيفة صحيفة الإمام ، دونها بنفسه ، معتمداً على حديث الرسول ، وكانت عنده معلقة بسيفه ، حرصاً عليها ، لتكون معه وتخت متداول يده ، يراجعها متى شاء، فلا يعقل أن تكون مقتصرة على المعاشر والديات وأسنان الإبل ، وهي أمور يعرفها الإمام ، وهو فقيه ، ومرجع من مراجع الافتاء ، دون حاجة إلى أن يكتبها في صحيفة يحرض على حملها معه معلقة بسيفه ، ثم إنها إذا كانت على هذه الأهمية بالنسبة للإمام ، لما تركها أصحابه ، فلم ينقلوها بالنص والحرف ، وهي أخطر وثيقة ، مع أنهم رروا عنه أحاديث كثيرة ، حتى نسب الناس له خطباً وأشياء لا يصح صدورها منه . ومنها صحيفة تسمى : (الصحيفة الكاملة، أو زبور آل محمد وإنجيل أهل البيت) <sup>٢</sup> .

ورأيي ان ما ورد من ان الخليفة (أبو بكر) كان يمتلك صحيفة فيها حديث الرسول <sup>٣</sup> ، هو خبر غير صحيح كذلك ، ولو كانت لديه صحيفة ، لما خفي أمرها عن الصحابة ، فلم يحفظوها ولم ينقلوا عنها . وأما ما ورد من أمر صحيفة

١ الكافي للكليني ، (٨٥) ، الارشاد (٢٥٨) ، أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٩٤ وما بعدها) .

٢ بروكلمن (١٨٣/١) .

٣ الذهبي ، تذكرة الحفاظ (٥١) .

( عبد الله بن عمرو بن العاص ) ، المسأة بالصحيفة الصادقة ، وما كتب فيها من حديث الرسول ، ومن انه قد جمع ألف مثل من أمثال الرسول<sup>١</sup> ، وما ورد من صحيفه ( همام بن منبه ) ، المسأة بالصحيفة الصحيحة ، فقد بحث في أمر هذه الصحف العلامة<sup>٢</sup> .

وقد عدَّ ( الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان ) التميي المجاشعي ، في جملة علماء العرب وحكامهم . قال عنه بعض العلماء : « وكان عالم العرب في زمانه<sup>٣</sup> . كان عالماً بالنسبة وبأخبار الناس ، ولهذا كانوا يتنافرون اليه . وكان شريفاً في الجاهلية والاسلام . وقد حكم في المنافرة التي وقعت بين ( جرير بن عبد الله ) البجلي ، وبين ( خالد بن أرطاة ) الكلبي . وكان ( خالد ) زعيم ( قضاة ) يومئذ ، فنفر ( الأقرع ) جريراً على خالد ، بمصر وربعة<sup>٤</sup> . وكان من المؤلفة قلوبهم<sup>٥</sup> . »

والنسب هو من أهم المعارف التي عرف بها أهل الجاهلية . وهو علم يرتقي إلى عهد بعيد عن الاسلام من دون شك ، لما له من تماش مباشر بجيشه الاجتماعي وبنظمهم السياسية ، ولأنه الملاية بالنسبة إلى الجاهلي في تلك الأيام . وأستطيع أن أدخل في علم النسب ، العلم بأنساب الخيل ، فقد عثروا بالخيل عنابة كبيرة ، وحفظوا أنسابها ، ووضعوا شجرات أنساب لها . كما عثروا بأنساب الإبل ، لما لهذا النسب من صلة بالأصالة وبسرع بيعها وشرائها . ونجد في الأخبار ما يشير إلى وجود أناس تخصصوا بحفظ نسبها .

والنسب : العالم بالنسبة ، وهو النسبة . أدخلوا الماء للمبالغة والمدح . « وفي حديث أبي بكر ، رضي الله عنه : وكان رجلاً نسبة ، النسبة : البليغ العالم بالأنساب<sup>٦</sup> . »

١ الاصابة ( ٣٤٣ / ٢ ) ، ( رقم ٤٨٤٧ ) ، الاستيعاب ( ٣٣٨ / ٢ وما بعدها ) ، ( حاشية على الاصابة )<sup>٠</sup>

٢ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الثامن والعشرين ( ١٩٥٣ )<sup>٠</sup>

٣ الغزانة ( ٣ / ٢٩٦ ) ، ( بولاق )<sup>٠</sup>

٤ الغزانة ( ٣ / ٢٩٦ وما بعدها ) ، ( بولاق )<sup>٠</sup>

٥ الاصابة ( ١ / ٧٢ ) ، ( رقم ٢٣١ )<sup>٠</sup>

٦ اللسان ( ١ / ٧٥٦ ) ، ( نسب )<sup>٠</sup>

والنسبة : نسبة القراءات . يكون بالأباء ، ويكون بالقبائل ، ويكون إلى  
البلاد ، ويكون في الحرف والصناعة<sup>١</sup> .

وقد نبغ بين القبائل والقرى أناس تخصصوا بحفظ النسبة ، منهم من برع في  
حفظ نسب قبيلته ، ومنهم من برع في حفظ أنساب جملة قبائل ، ومن اشتهر  
وعرف من قريش بحفظ النسبة وبالعلم به ، (أبو بكر) . وكان علمه بعلم  
الأنساب ، ثم بأموز الناس ، ثم الشعر . قيل إنه « كان أنساب قريش لقريش  
وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر » ، وقيل إنه كان أنساب العرب ، وأعلم  
قريش بأنسابها ، وأنساب هذه الأمة<sup>٢</sup> . و « كانت قريش تألف متزل أبي بكر ،  
رضي الله عنه ، لخلصتين : العلم والطعام »<sup>٣</sup> . ولما أمر الرسول حسان بن ثابت  
بالردد على شعراً قريشاً قال له : « إلت أبي بكر ، فإنه أعلم بأنساب القوم  
منك ». فكان يمضي إلى أبي بكر ليقفه على أنسابهم<sup>٤</sup> . فلما سمعت قريش شعر  
(حسان) ، قالت : « إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة »<sup>٥</sup> . ولما  
مر بالناس في معسكرهم بالجرف ، جعل ينسب القبائل<sup>٦</sup> .

وكان (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف) ، وهو أحد  
أشراف قريش وحلائهم من علماء النسبة في قريش ، وكان من أخذ النسبة من  
أبي بكر . وكان من يؤخذ عنده النسبة لقريش وللعرب عامه<sup>٧</sup> .

وعرف (أبو جهم بن حذيفة) القرشي العدوى بعلمه بالنسبة ، وكان من  
المعرّين في قريش . عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام . وكان من مشيخة قريش  
وصاحب النبي<sup>٨</sup> . وكان أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسبة<sup>٩</sup> .

١ اللسان (٧٥٥/١) ، (نسبة) ، تاج العروس (٤٨٣/١) ، (نسبة) .

٢ الاصابة (٣٣٢/٢) ، (رقم ٤٨١٧) ، البيان والتبيين (٣١٨/١) .

٣ البيان والتبيين (٧٦/٤) .

٤ الاستيعاب (٣٣٥/١) ، (حاشية على الاصابة) .

٥ الفائق في غريب الحديث (١٨٤/١) .

٦ الاصابة (٢٢٧/١) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (٢٣٢/١) ، (حاشية على  
الاصابة) ، كتاب نسب قريش (٢٠١) ، البيان والتبيين (٣١٨/١) ، تاج العروس

(٤٤/٦) ، (الف) .

٧ نسبة قريش (٣٦٩) .

٨ الاصابة (٣٥/٤) ، (رقم ٢٠٧) .

ومنهم : ( مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف ) . وقد أخذ عنه النسب . وكان عالماً بأنساب الحرم<sup>١</sup> . قال عنه ( أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيري ) « وكان له سر وعلم ، وكان يؤخذ عنه النسب »<sup>٢</sup> ، وقد أرسله ( عمر ) مع ( سعيد بن يربوع ) ، و ( أزهر بن عبد عوف ) ، و ( حويطب بن عبد العزى ) لتجديده أنساب الحرم ، فجذبواها ، ويقال إن ( عثمان ) بعضهم كذلك . وهو راوي خبر قصة استقاء ( عبد المطلب ) ، وما ورد فيه من الشعر<sup>٣</sup> .

قال ( الجاحظ ) : « أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار ، وعلاؤهم بالأنساب والأخبار : مخرمة بن نوفل بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وأبو الجهم بن حذيفة بن عامر بن عبد الله بن عوف ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبي طالب . وكان عقيل أكثرهم ذكرآ لما تلا على الناس ، فعادوه لذلك ، وقالوا فيه وحقوه »<sup>٤</sup> . و ( حويطب ) من مسلمة الفتح ومن المثلفة قلوبهم<sup>٥</sup> . ومات زمان معاوية ، وهو ابن عشرين ومائة ستة . وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار<sup>٦</sup> . وتوفي سنة ( ٥٤ هـ )<sup>٧</sup> .

وروى أن غنائم الخبرة لما وصلت الخبرة وفيها سيف التuhan بن المتنر، استدعي ( عمر ) ( جبراً ) ، فسألته عن نسب ( التuhan ) فقال له : انه أشلاء قفص بن معد . فأعطاه سيفه ، وذكر انه كان أنساب العرب ، وعنه أخذ ( سعيد بن المسيب ) النسب<sup>٨</sup> .

ومن ناسبي قريش ( عقيل بن أبي طالب ) . وما وضع ( عمر ) الديوان، استuan بعقيل وخرمة ، وجبر في ترتيب عطاء الناس على منازلهم ، قبدأوا ببني هاشم<sup>٩</sup> . وعقيل هو أخ ( علي بن أبي طالب ) ، ذكر أنه « كان عالماً بأنساب

١ الاصابة ( ٣٧٠ / ٢ ) ، ( رقم ٧٨٤٢ ) .

٢ نسب قريش ( ٢٦٢ ) .

٣ الاصابة ( ٣٧٠ / ٣ ) ، نكث الهميان ( ٢٨٧ ) .

٤ البيان والتبيين ( ٣٢٣ / ٢ ) .

٥ البيان والتبيين ( ٣٢٣ / ٢ ) .

٦ نسب قريش ( ٤٢٥ ) وما بعدها .

٧ الاصابة ( ٣٦٣ / ١ ) ، ( رقم ١٨٨٢ ) .

٨ الاصابة ( ٢٢٧ / ١ ) ، ( رقم ١٠٩١ ) ، الاستيعاب ( ٢٣٢ / ١ ) وما بعدها ، ( حاشية

٩ على الاصابة ) ، الفائق ( ٦٠٨ / ١ ) وما بعدها ، البيان والتبيين ( ٣٠٣ / ١ ) .

١٠ ابن سعد ، المجلد الثالث ، الجزء الاول ( ٢١٢ ) .

قريش وما ترثها ومثالبها ، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة ، فهو من شيوخ العلم الذين نصبو أنفسهم لتعليم الأنساب والماثر والمثالب . قبل « كان في قريش أربعة يتحاكم الناس إليهم في المناورات: عقيل ، وعمرمة ، وحويطب ، وأبيو جهم . وكان عقيل يعد المساوي ، فن كانت مساوته أكثر يقر صاحبه عليه ، ومن كانت معاشره أكثر يقره على صاحبه »<sup>١</sup> ، ونظرًا لتكتلاته مع الناس وتمدده عن مساوئهم فقد عودي وحق<sup>٢</sup> .

وقد صار مسجد الرسول في المدينة موضع دراسة المسلمين ، فقد رأينا ( حسان ابن ثابت ) ، وهو ينشد الشعر فيه ، وهذا ( عقيل ) يعلم الناس الأنساب فيه ، وهناك غيرهما من كان يعلم الناس في هذا المسجد .

ومن عرف واشتهر بعلم النسب ، وأخذ النسب عن الجاهلين ، دغفل السدوسي من بني شيبان ، وعميرة أبو ضعضم ، وابن لسان الحمرة من بني تم اللات ، وزيد بن الكيس التمري ، والنخار بن أوس القضاعي ، وصعصعة بن صوحان ، وعبدالله بن عبد الحجر بن عبد المدان ، وعيبد بن شريه وغيرهم<sup>٣</sup> .

وذكر عن ( دغفل بن حنظلة ) النسبة السدوسي الشيباني ، انه كان عالماً بالعربية والأنساب والنجوم ، وقد اغتله النسب . وقد أعجب به ( معاوية ) لما سأله أموراً كثيرة في هذه العلوم<sup>٤</sup> . ولا بد وأن يكون قد أخذ علمه من أدرك الجاهلية من رجال ، ومن عاصر الرسول . وذكر انه و ( زيد بن الكيس ) التمري ، كانوا من أثاراً أحاديث عاد وجرهم ، ولذلك قال فيها الشاعر :

أحاديث عن أبناء عادٍ وجرهم يثورها العضان زيد ودغفل<sup>٥</sup>

وروى أن معاوية « قال للدغفل بن حنظلة النسبة . بمَ ضبطت ما أرى ؟

١ الاصابة ( ٤٨٧/٢ ) ، ( رقم ٥٦٣٠ ) .

٢ البيان والتبيين ( ٣٢٤/٢ ) ، نكث الميمان ( ٢٠٠ ) .

٣ الاصابة ( ٤٦٤/١ ) ، ( رقم ٢٣٩٩ ) ، البيان والتبيين ( ١١٨/١ ) ، بلوغ الارب ( ١٩٦/٣ ) ، التمدن الاسلامي ( ٣٤٠/٣ ) وما بعدها ، الفهرست ( ١٣٧ ) وما بعدها ، البيان والتبيين ( ١/٣٢٢ ) وما بعدها .

٤ الاصابة ( ٤٦٢/١ ) ، ( رقم ٢٣٩٩ ) ، الاستيعاب ( ١/٤٦٧ ) .

٥ العسكري ، جمهرة ( ١١٣/٢ ) ، ( رقم ١٣٥٨ ) ، الميداني ( ٢٤/٢ ) .

قال : بِمَفَاوِضَةِ الْعُلَمَاءِ . قَالَ : وَمَا مَفَاوِضَةُ الْعُلَمَاءِ ؟ قَالَ : كَنْتُ إِذَا لَقِيْتُ عَالَمًا أَخْذَتُ مَا عَنْهُ ، وَأَعْطَيْتُه مَا عَنِّي<sup>١</sup> . وَذَكَرَ أَنَّ (أَبَا بَكْرَ) ، سَأَلَ قَوْمًا مِنْ (رَبِيعَةِ) عَنْ نَسَبِهِمْ ، وَفِيهِمْ (دَغْفَلٌ) ، وَكَانَ غَلامًا إِذْ ذَاكَ ، فَلِمَ اتَّهَى أَبُو بَكْرُ مِنْ اسْتِجَوابِهِمْ ، سَأَلَهُ (دَغْفَلٌ) عَنْ نَسَبِهِ ، فَأَفْحَمَهُ<sup>٢</sup> .

وَقَدْ اشْتَهَرَ (دَغْفَلٌ) فِي التَّسْبِ ، حَتَّى ضَرَبَ بِهِ الْمَثَلُ فِي التَّثْرِ وَفِي الشِّعْرِ بِسَعَةِ عِلْمِهِ بِهِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ (الْفَرِزْدَقُ) بِقَوْلِهِ :

أُوصِي عَشِيَّةَ حِينَ فَارَقَ رَهْطَهُ عَنْدَ الشَّهَادَةِ فِي الصُّحِيفَةِ دَغْفَلٌ  
أَنَّ ابْنَ ضَبَّةَ كَانَ خَيْرَ الدَّارِ وَأَتَمَ فِي حَسْبِ الْكَرَامِ وَأَفْضَلَ<sup>٣</sup>

وَنَجَدَ اسْمَهُ فِي شِعْرِ شَعَرَاءِ آخَرِينَ<sup>٤</sup> .

وَكَانَ مِنْ أَدْرَكِ النَّبِيِّ ، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ . وَاسْمُهُ (الْحَجَرُ بْنُ الْحَارِثِ) الْكَنَانِيُّ ، وَدَغْفَلُ لَقْبُهُ<sup>٥</sup> .

وَكَانَ (صَحَّارُ ) الْعَبْدِيُّ مِنَ النَّاسِبِينَ الْبَلْغَاءِ ، وَلَهُ مَعَ (دَغْفَلٌ) مَخَاوِراتٍ . وَكَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ إِلَى مَعَاوِيَةِ وَمِنَ الْمُطَالَبِينَ بِدَمِ (عَمَّانِ)<sup>٦</sup> .

وَ (صَعْصَعَةُ) بْنُ صَوْحَانَ (الْعَبْدِيُّ) ، وَكَانَ مُسْلِمًا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَمْ يَرِهِ . وَشَهَدَ صَفَينَ مَعَ (عَلِيٍّ) ، وَكَانَ خَطِيئًا فَصَبِحَ حَسِيبًا ، لَهُ مَعَ مَعَاوِيَةِ مَوَاقِفٍ . « قَالَ الشَّعْبِيُّ : كَنْتُ أَتَلَمُ مِنْهُ الْخُطَبَ<sup>٧</sup> » . وَلَهُ أخْوَةٌ ، مِنْهُمْ (سِيَحَانُ بْنُ صَوْحَانَ) الْعَبْدِيُّ ، كَانَ أَحَدَ الْأَمْرَاءِ فِي قَتْلِ فِي أَهْلِ الرَّدَةِ<sup>٨</sup> وَمِنْهُمْ (زَيْدُ بْنُ صَوْحَانَ) وَكَانَ سِيدًا فِي قَوْمِهِ ، وَقَدْ شَهَدَ الْجَمْلَ مَعَ (عَلِيٍّ)<sup>٩</sup> .

- |   |   |
|---|---|
| ١ | الفائق (٣٠٤/٢)  |
| ٢ | الفائق (٨٤/٣)   |
| ٣ | النَّقَائِضُ (١٨٩/١)  |
| ٤ | ديوان القطامي (٣١)، البيان والتبيين (١/٣٢٢ وَمَا بَعْدَهَا) |
| ٥ | الفهرست (١٣٧)، (المقالة الثالثة)                            |
| ٦ | الاصابة (١/١٧٠)، (رقم ٤٠٤١)                                 |
| ٧ | الاصابة (٢/١٦٢)، (رقم ٤١٣٠)                                 |
| ٨ | الاصابة (٢/١٠٢)، (رقم ٣٦٣٠)                                 |
| ٩ | الاصابة (١/٥٦٥ وَمَا بَعْدَهَا)، (رقم ٢٩٩٧)                 |

ومن نسابي ( كلب ) : ( محمد بن السائب ) الكلبي ، وابنه ( هشام بن محمد بن السائب ) ، و ( شرقي بن القطامي )<sup>١</sup> ، و ( الشرقي بن القطامي ) ، اسمه ( الوليد بن الحصين ) ، وقد اتهم بالكذب<sup>٢</sup> . وقد ذكر ( الجاحظ ) و ( ابن النديم ) أسماء عدّ من عرفوا باشتغالهم بالأنساب . . .

وقد بُرِزَ بعض النسابين في ذكر مثالب الناس ، وقد كان ( عقيل بن أبي طالب ) منهم ، كما ذكرت . وبذكر ان ( زياد بن أبيه ) كان أول من ألف كتاباً في المثالب ، ودفعه إلى ولده ، قائلاً لهم : استظهروا به على العرب فإنهم يكفرون عنكم<sup>٣</sup> . ومن طلاب المثالب وناشرها بين الناس ( أبو عبيدة معمر بن المثنى ) التميمي ، من تم قريش . وكان مكروراً هاماً فلما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنّه لم يكن يسلم منه شريف ولا غيره<sup>٤</sup> .

وعدّ الشعر عند أهل الجاهلية علماً من علومهم ، يقوم عندهم ( مقام الحكمة وكثير العلم ) ، « ولم يكن لهم شيء يرجعون إليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر . فيه كانوا يختصرون وبه يتمثلون ، وبه يتفضلون ويتقاسرون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويعابون »<sup>٥</sup> . وقد أوردوا أسماء أشخاص عرفوا بسعة علمهم وبيحرهم بالشعر .

### الملحن والألغاز :

وما أثر عن أهل الجاهلية مما يتعلق باستعمال الذكاء والقطنة واختبار العلم ، الملحن والألغاز . واللحن عند العربقطنة . وقد وضع ( ابن دريد ) كتاباً في الملحن ، سماه : ( كتاب الملحن )<sup>٦</sup> . وقد كانت العرب تعتمد الملحن وتقصدها ، إذا أرادت التورية أو ( التعمية )<sup>٧</sup> . وقد ذكر أهل الأخبار أنهم

- |   |   |
|---|---|
| ١ | البيان والتبيين ( ٣٢٢/١ ) .   |
| ٢ | الفهرست ( ١٣٨ ) .   |
| ٣ | الفهرست ( ١٣٧ ) ، ( المقالة الثالثة ) ، تهذيب الأسماء واللغات للنحووي ( ٢٥٩/١ ) |
| ٤ | كتاب المعارف لابن قتيبة ( ١٧٦ ) ، بروكلمن ( ٢٥٠ ) .                             |
| ٥ | الفهرست ( ٨٥ ) .  |
| ٦ | اليعقوبي ( ٢٣٠/٢ ) ، ( النجف ١٩٦٤ م ) .   |
| ٧ | المزهر ( ٥٦٧/١ ) وما بعدها .  |
|   | المصدر نفسه .   |

استعملوها استعمال (الشفرة) ، أو الرسائل السرية المعاه في نقل الأخبار ، كالذى روى من أن طيباً أسرت رجلاً شاباً من العرب ، فقدم أبوه وعمه ليقدياه ، فاشطروا عليها في الفداء ، فأعطيها لهم به عطية لم يرضوها ، فقال أبوه: لا والذى جعل الفرقدين يمسيان ويصبان على جبلي طيء لا أزيدكم على ما أعطيتكم ، ثم انصرفا .

قال الأب للعم : لقد أقيمتُ إلى أبني كلية ، لمن كان فيه خير لينجرون. فما لبث أن نجا وأطرد قطعة من إبلهم ، فكان أبوه قال له : إلزم الفرقدين على جبلي طيء فلأنهما طالعان عليها لا يعيان عنه<sup>١</sup> .

ورروا قصصاً أخرى من هذا القبيل<sup>٢</sup> ، تحمل تحايل الناس إذ ذاك في كيفية إبلاغ خبر ، أو إيصال رسالة من أسير وقع في أسر ، أو من شخص اعتدى عليه ، أو من رجل طعن ، فأراد إبلاغ قومه باسم طاعنه . فيعتمد الشخص إلى الكلام المعنى الدال على سذاجة ، لإيصاله إلى أهله ، لعلمه بأن في وسع أهله استنباط الغازه وحل معاه .

وأما الألغاز ، فهي لامتحان الذكاء في الغالب ، ولتمضية الوقت والتسلية . وتكون شعراً كما تكون ثرأ<sup>٣</sup> . و (الألغاز) ما يعمى به من الكلام<sup>٤</sup> .

- ١ المزهر (١/٥٦٧) .
- ٢ المزهر (١/٥٦٨ وما بعدها) .
- ٣ المزهر (١/٥٧٨ وما بعدها) .
- ٤ تاج العروس (٤/٧٨) ، (اللغز) .

## الفصل السادس والعشرون بعد المئة

### الفلسفة والحكمة

أما مؤلفات في العلوم والفلسفة ، منقولة عن اليونانية أو اللاتينية إلى العربية ، فلا أدرى أن أحداً من أهل الأخبار ذكر وجودها عندهم بلغة بني إدم ، أو بلغة اليونان ، ذلك لأن المثقفين وأصحاب الرأي والعلم كانوا على اتصال بالعالم الخارجي ، وكانوا يدارسون الأعاجم ويأخذون عنهم ، وقد درس بعضهم في مدارس الفرس وال伊拉克 وببلاد الشام ، ولغة الدراسة في تلك البلاد السريانية واليونانية والفارسية ، فلا يستغرب أن يكون مِنْ هؤلاء مَنْ درس بلغة من هذه اللغات في الحجاز أو في اليمن . أما في بلاد العراق وببلاد الشام ، فالامر لا يحتاج فيها إلى نظر ، فقد رأينا أن عربها أسهموا في الحركة العلمية قبل الإسلام لكنهم أسهموا بلغة السريان ، لا باللغة العربية ؛ لأن العربية لم تكن عربية واحدة يومئذ ، وإنما كانت جملة لهجات ، ثم إنها كلها ، لم تكن قد وصلت إلى درجة من الاستعمال والانتشار تجعلها لغة للترجمة والتأليف .

#### الحكمة :

وأما (الحكمة) ، فقد ذكر أهل الأخبار أمثلة عديدة منها زعموا أنها لحكماء جاهلين ، أوردوا أسماءهم ، ولكنهم لم يفينا في بيان سيرهم وترجمهم حياتهم ،

بعض ما نسب اليهم سجع قصير ، وبعضه كلام منظوم وبعضه مثل " زعم انهم ضربوه فسار بين الناس .

وقد اشتهر الشرق بالحكمة ، وهو ما زال على حبه لها باعتبارها أداة للتعليم والتنقيف . والحكيم ، هو ( حكيمو ) Hakimo في الإرمية ، يعني عالم<sup>١</sup> . ونرى في التوراة اصلاحات مثل : الأمثال وأيوب ونشيد الأنساد وغيرها ، ملئت حكمة . والحكيم هو ( حكمي ) عند العبرانيين . وأما الحكمة ، فهي : ( حوكماه ) ( حوكمة )<sup>٢</sup> Hokhmah .

و ( الحكيم ) في تعريف علماء اللغة العالم وصاحب الحكمة ، المصيب برأيه ، الذي يقضي على شيء بشيء ، فيقول : هو كذا وليس بكذا . وهو الذي يحسن دقائق الصناعات ويتقنها . وقد ورد في الحديث : إن من الشعر حكما ، أي إن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه وينهى عنها ، قبل أراد به الموعظ والأمثال التي يتغنى بها الناس . ويرى إلن من الشعر حكمة . وقد سئل الأعشى قصيدة المحكمة حكمة ، أي ذات حكمة ، فقال :

وغريبة تأني الملوك حكيمـة قد قلتـها ليقالـ من ذـا قالـها<sup>٣</sup>

وقالوا ان من معاني : الحكيم الحاكم ، وهو القاضي ، أو هو الذي يحكم الأشياء ويتقنها ، وان الحكمـة : العدل ورجل حـكيم ، عـدل حـكيم . وان ( المحـكم ) هو الشـيخ المـجـرب المـسـبـبـ إلىـ الحـكـمـةـ ، ولـذلك يـقالـ لـلـرـجـلـ إـذـاـ كانـ حـكـيـماـ : قدـ أـحـكـمـتـهـ التجـارـبـ . والـحـكـيـمـ : المـتـقـنـ لـلـأـمـورـ . وـفـيـ هـذـهـ التـارـيـفـ دـلـلـةـ عـلـىـ أـنـهـمـ كـانـوـاـ يـسـمـونـ الـحـكـمـةـ بـالـتـبـصـرـ فـيـ الـأـمـورـ ، وـبـاسـتـقـراءـ الـحـوـادـثـ وـدـرـاستـهـ لـاستـخـراـجـ التجـارـبـ مـنـهـاـ ، والـحـكـمـ بـمـوجـبـهـ ، وـمـنـ هـنـاـ دـخـلـوـاـ الـحـكـمـ بـيـنـ النـاسـ ، وـالـنـظـرـ فـيـ الـأـحـكـامـ فـيـ جـمـلـةـ أـمـورـ الـحـكـمـةـ .

وليس هذا الرأي ، هو رأي العرب وحدهم . فقد كان هذا الرأي معروفاً

١ غرائب اللغة ( ص ١٧٩ ) .

٢ Hastings, Diction., I, p. 648, A Dictionary of christ, and the Gospels, Vol., II, p. 825. ff., B.W. Anderson, understanding the old Testament, p. 467.

٣ تاج المرؤوس ( ٢٥٠ / ٨ ) ، ( حكم ) .

٤ اللسان ( ١٤٠ / ١٢ ) وما بعدها .

عند غيرهم أيضاً. فنجد الحكماء عندهم حكامًا محكمون في المخصوصات وفي المنازعات: بفضل ما أوتوا من فطنة وصبر وذكاء وعلم ، وهي من أهم صفات الحكم . ونجد في أدب الشرق الأدنى القديم أشخاصاً مثل (أحياقار) الشهير ، يجمعون بين الحكم والحكمة ، وقد ضرب بهم المثل في نجاحهم في اصدار الأحكام .

والحكيم في الشرق عازلة الفيلسوف عند اليونان . وما (ارسطو) الفيلسوف اليوناني الشهير وكذلك أفلاطون ، غير حكماء في نظر الشرقيين . ولذلك ادخلوا في (الحكماء) . والحكيم هو مؤدب ومرشد وواعظ يعظ الناس ويرشدهم في هذه الحياة ، وهو خير مستشار في كل شيء ، لأنَّه يفضل ما يملكه من عقل ومن تجربة يستطيع أن يفصل بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ . ولذلك كان الحكماء هؤلاء قومهم وأساتذتهم فلاستھم ، أقوالهم حكمة للناس ودرس في كيفية السير في العالم .

ولكننا لا نستطيع أن نرافق بين (الحكمة) وبين (الفلسفة) . فين الاختلاف فرق كبير في المفهوم . ولا يمكن أن نقول إن الفلسفة بالمعنى اليوناني ، هي في مفهوم (الحكمة) عند شعوب الشرق الأدنى . لأنَّ بين الفيلسوف وبين (الحكيم) تباين كبير في اسلوب البحث وفي كيفية التوصل الى النتائج والمعرفة وفي مفهوم كل واحد منها لهدف الآخر ، وفي الغاية المقصودة من كل منها . فالغاية من الحكمة العبرة والإيعاظ والأخذ بما جاء فيها من حكم ، أي غaiات عملية وتأديبية، بينما الغاية من الفلسفة البحث عن معنى الحكم وعما يكون وراء الطبيعة من خفايا غير مكتشفة وأسرارٍ .

وقد وردت لفظة (الحكمة) في القرآن الكريم<sup>٢</sup> . وقد ذكر العلماء أن الحكمة اسم للعقل ، وإنما سمي حكمة لأنَّه يمنع صاحبه من الجهل<sup>٣</sup> . فالحكمة إذن ، هي بمعنى العلم والتفقه . وهي بذلك ذات حدود واسعة ، بل لا نكاد نجد لها حدوداً معينة فاصلة ، فقد شملت أموراً كثيرة ، اطلقت على رجال اشتهروا بالحكم بين الناس ، أي بالبت فيها ينشأ بيتهم من شجار وخصوصة . وأطلقت على آناس ذكر

---

1 Hastings, p. 975.

2 وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، راجع المعجم المفهرس (ص ٢١٣ وما بعدها) .

3 غريب القرآن ، للسباعي (ص ١١٨) ، (سنة ١٩٢٤) .

أنهم كانوا كهاناً ، وأطلقت على جماعة عرفت بأن لها رأياً في الدين ، وأطلقت على نفر كان لهم رأي في المعالجة والتطبيب ، وأطلقت على تقر عرفا بقراءة الكتب القديمة ، أي الكتب الساوية وغيرها مما كان عند يهود والنصارى وعنده الروم والفرس ، وأطلقت على غير ذلك ، فهي إذن كما ترى ذات معان واسعة شاملة .

ويلاحظ أن القرآن الكريم ، قد أورد لفظة (الحكمة) بعد لفظة (الكتاب) وفي حالة العطف ، أي على هذه الصورة : ( الكتاب والحكمة ) ، واستعملها بعد لفظة (الملك) في الآية : « وقتل داود جالوت وأناه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء »<sup>١</sup> . واستعملها مفردة كما في « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثراً »<sup>٢</sup> ، وفي مواضع أخرى . وقد ذهب المفسرون إلى أن المراد من الكتاب القرآن ، ثم اختلفوا في معنى الحكمة ، فنفهم من قال أنها السنة ، ومنهم من قال المعرفة بالدين والفقه ، ومنهم من قال : الحكمة العقل في الدين ، أو الاصابة في القول والفعل ، إلى غير ذلك من أقوال<sup>٣</sup> ، تدل على أن تفسيرها بمعنى السنة والتفقه في الدين من التفسيرات التي ظهرت في الإسلام . أما معناها عند الجاهلين ، فكان بمعنى الخبرة المكتسبة من الملاحظات العميقية إلى الأشياء ، أو المستخلصة من التجارب ، وبمعنى العلم والرأي الصائب . وبهذا المعنى جاءت الحكمة عند الساميين . فقد كان الحكم عندهم العالم الذكي الفطن الذي ينظر بعين البصيرة إلى أعماق الأمور بتؤدة وتبصر وأنة ، فيبني رأيه في كل شيء في هذه الحياة ، من سياسة واقتصاد ، ومن أمور شخص السلم أو الحرب ، أو الخدع ، والحكم بين الناس . وهذا كان الحكماء في أعلى الدرجات في مجتمعهم من ناحية الثقافة والرأي .

ويظهر من دراسة ما ورد في المؤلفات الإسلامية عن الحكمة والحكماء أن الجahelien أرادوا بالحكمة حكایات وأمثال فيها تعليم ووعظ للإنسان ، يقولونها ليتعظ بها في حياته وليس على وفق هدى هذه الحكم . وهي حكم حصلت من تجرب عمليه ، ومن ملاحظات وتأملات في هذه الحياة . وهذا نسبوا الحكمة إلى

١- البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٥١ .  
٢- البقرة ، الآية ٢٦٩ .  
٣- تفسير الطبرى ( ٤٣٦ / ١ ) .

أناس مجريين أذكياء لهم صفاء ذهن وقوة ملاحظة مثل : (أكثم بن صيفي) و (قنس بن ساعدة الإيادي) وغيرهما من سيأتي الكلام عليهم . روي أن (عمر ابن الخطاب) قال لکعب الأحبار وقد ذكر الشعر : « يا کعب ، هل تجد للشعراء ذكراً في التوراة ؟ فقال کعب : أجد في التوراة قوماً من ولد اسماعيل ، أناجيلهم في صدورهم ، ينطقون بالحكمة ، ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب »<sup>١</sup> . فالعرب هم أصحاب حكمة وأمثال على رأي (کعب الأحبار) ان صبح ان هذا القول المناسب اليه هو من أقواله حقاً ، والأمثال باب من أبواب الحكمة ، بل تکاد تؤدي معناها عند الجاهلين ، فالحكيم عندهم هو الذي ينطق بالحكم يقرئها بالأمثال ، وبالقصص والتوادر .

وإذا بحثت عن الحكمة في العهد القديم تجدها في الأمثال ، وفي سفر أیوب ، وفي نشيد الانشاد ، وفي سفر الجامعة والحكمة وفي (سیراخ) ، وفي حكمة (سلیمان) التي هي في المزامير<sup>٢</sup> . وهي أمثال في الغالب نبت من تجارب أخذ العبرانيون بعضها من غيرهم ، ونبع بعض آخر من تجاربهم الخاصة ، وظهرت عندهم أمثال إنسانية عامة تخطر على بال كل إنسان ، فهي عامة مشتركة ، لم يأخذوها قوم من قوم ، وإنما هي خاطرات وتجارب تظهر لكل إنسان ، فضرب بها المثل في كل لسان .

ونحن لا نملك في هذا اليوم كتابة جاهلية ، فيها حكم من حكم الجاهلين . وكل ما ورد علينا من حكمهم مأخوذ من موارد اسلامية . ولذلك صار كلامنا على الحكمة في الجاهلية مثل كلامنا علىسائر معارف الجاهلين ، ضيقاً محدوداً ، متبعاً ما ورد عنها عند المسلمين .

ويظهر من بعض الحكم المنسوبة الى الجاهلين ، أنها ترجع الى أصل يوناني ، حيث تجدها مدونة في كتب فلاسفتهم مثل سocrates وأفلاطون وأرسطو ، مما يدل على أنها دخلت الى العربية عن طريق الترجمة من اليونانية أو من السريانية ، وعن طريق بلاد الشام في الأغلب ، حيث كانت الثقافة اليونانية قد وجدت لها سبيلاً هناك ، بحكم خضوعها لليونانيين قبل الميلاد وبعد الميلاد ، وبحكم وجود جاليات يونانية كبيرة هناك .

ويظهر من دراسة بعض آخر من الحكم المنسوبة الى الجاهليين انها من أصل فارسي . ولا يستبعد أن تكون قد دخلت من الأدب الفارسي القديم الى عرب العراق ، وقد عاشوا قبل الاسلام في اتصال وثيق مع الفرس . وكان بعض العرب قد أتقنوا الفارسية وأجادوا فيها ، كما ان من الفرس من كان قد تعلم العربية وبرع فيها . ثم إن بين ذوقى العرب والفرس تشابه في نواح من الأدب ، وهذا كان أثر الأدب الفارسي في الأدب العربي أكبر وأظاهر من أثر الأدب اليوناني فيه.

ونجد في الحكم المنسوبة الى (أحيقار) ، شيئاً لها في الحكم العربية القدمة ، وترجمة أصلية لبعض حكمه أحياناً . خذ قوله : « يا بني إذا أرسلت الحكم في حاجة ، فلا توصه كثيراً ، لأنك يقضي حاجتك كما تريده . ولا ترسل الأحمق ، بل امض أنت واقض حاجتك »<sup>١</sup> . ولو درست بقية حكمه ، وما ورد في الحكم المنسوبة الى الجاهلين ، ترى شيئاً كبيراً في المعنى بل وفي اللفظ في الغالب ، مما يدل على أنها ترجمة أخذت من السريانية فعربت ونسبت الى الجاهلين ، أو أن الجاهلين وقفوا عليها فصاغوها بأسانهم ، فنسبت اليهم . وأكثر حكمه موجهة الى ابن اخته (نادان) ، حيث يعظه فيقول : « يا بني ... » .

غير أن علينا ألا ننسى ، بأن من الحكم ، ما هو عام ، يرد على خاطر أغلب الشعب ، وعلى لب أكثر الناس ، حتى وإن لم يكونوا من المثقفين الدارسين . لأنه مما يتشارك فيه العقل الإنساني ، فيكون عالمياً إنسانياً . ولطذا ، فتحن لا تستطيع أن ترده الى أحد ، ولا أن ترجعه الى مرجع معين . ولا تستطيع أن تقول ان العرب أخذوه من غيرهم ، أو أن الأعاجم أخذوه من العرب . بسبب ما ذكرته من كونه من نتاج عقل واحد ، هو القاسم المشترك بين عقول الإنسان .

وإذا صبح ما روي من أن (سويداً بن الصامت) المعروف به (الكامل) ، كان يملك (مجلة لقمان) ، وقد أرها الرسول مقدمه عليه بحكة ، وما ذكر من أنها كانت في الحكمة<sup>٢</sup> . فتكون هذه المجلة ، أو الكتاب ، أقليم شيء يصل إليه اليها من الكتب التي تداولها أهل الجاهلية . ولم يذكر الرواية - وبما للأسف -

١ أغناطيوس افرايم الاول برصوم ، المثلوز المنشور في تاريخ العلوم والاداب السريانية (٦٧) ، (حصن ١٩٤٣) ، تاريخ كلدو وآثور (١١٣/١ وما بعدها) ، (٤٠/٢) .

٢ الروض الانف (٢٦٥/١) .

محتويات تلك المجلة ونوع الحكم التي احتوتها .

فقد روي « ان سعيد بن صامت قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، وكان سعيد انا يسميه قومه فيهم الكامل جلده وشرفه ونبله ... فقصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سمع به ، فدعاه إلى الله والاسلام ، فقال له سعيد : فعل الذي معك مثل الذي معى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعرضها عليَّ ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذي معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله عليَّ ، هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الاسلام فلم يبعد منه . وقال : إن هذا لقول حسن . ثم انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج » وكان قتله قبل يوم بعاث<sup>١</sup> .

والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، وكل كتاب عند العرب مجلة<sup>٢</sup> ، وقيل : « كل كتاب حكمة عند العرب مجلة ». قال التابغة :

مجلتهم ذات الإله ودينه قوم فما يرجون غير العاقب<sup>٣</sup>

وبالنظر إلى اشتهر لقمان في الأدب العربي بالحكمة عن طريق ضرب الأمثال . ونظراً لظهور أمثال كثيرة في الإسلام نسبت إليه ، فإن من المحتمل أن تكون تلك المجلة التي زعم أنها كانت عند (سعيد) مجموعة من حكم وأمثال . لا ندري من جمعها فنسبها إليه ، لعدم اشارة أهل الأخبار إلى ذلك ، ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال من الأمثال المتزرعة من التوراة أو من الإنجيل أو من كليهما ، فدولت في مجلة أي في كراسة أو كتاب فنسبها أهل الأخبار إليه . نظراً لما جاء في القرآن الكريم من نسبة الحكمة إليه . وقد تكون تلك المجلة من حكم الحكيم (أبيقار) ، الحكيم الشهير صاحب الأمثال الذي كان مقرباً إلى الملك (سنجاريب) ومستشاراً له . فله في أدب (بني إرم) ذكر خاص ، وله أمثال في الإرمية طبعت وترجمت إلى جملة لغات . وعرفت أمثاله في العربية كذلك ، في أيام

١ ابن هشام ، سيرة (١/٢٦٥ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الفائق (١/٢٠٦)

٢ تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .

٣ الفائق (١/٢٠٦) .

الجاهلية ، فأشار ( عدي بن زيد العبادي ) اليه والى قصته <sup>١</sup> .

ولقمان : شخصية ذكرت في القرآن ، وفي القرآن الكريم سورة سميت باسمه . ووروده في كتاب الله ، دليل على وقوف الجاهلين بقصصه وشروع خبره وأمره بينهم . ونجد في كتب التفسير والأدب والأخبار وكتب المعمرين قصصاً عنه<sup>٢</sup> . وقد عرف بـ ( لقمان الحكم ) . وقد بحث عنه المستشرقون ، وحاولوا تحليل الفحص الوارد عنه وإرجاعه إلى أصوله . وقد بحث في ذلك المحدثون في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية <sup>٣</sup> .

قال (الباحث) : « وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر لقمان بن لقمان في النهاة والقدر ، وفي العلم والحكم ، وفي اللسان والحلم . وهذا شأن لقمان الحكم المذكور في القرآن على ما يقوله المفسرون . ولارتفاع قوله وعظم شأنه ، قال التمر بن ثوب :

لُقْيَمْ بْنُ لِقْمَانَ مِنْ أَخْتِهِ فَكَانَ ابْنُ أَخْتِهِ لَهُ وَابْنًا  
لِيَلِيَّ حَقَّ فَاسْتَحْضَنَتْ عَلَيْهِ فَغَرَّهَا مَظْلَمًا  
فَغَرَّهَا رَجُلٌ حَكْمٌ فَجَاءَتْ بِهِ رَجُلًا حَكِيمًا<sup>٤</sup>

وقد أشار ( المسيب بن علس ) إلى ( لقمان ) في شعره<sup>٥</sup> ، كما ذكره ( ليد ابن ربيعة ) الجعفري في شعره كذلك<sup>٦</sup> ، وأشار إليه ( يزيد بن الصمع ) الكلابي في شعر هو :

١ الحماسة ، للبحترى ، (٨٦) ، (بيروت ١٩١٠ م) .

٢ « لقمان بن عاد » ، مجمع الأمثال ( ٣٠٣ / ١ ) .

٣ فجر الاسلام ( ١ / ٧٨ ) وما بعدها ، الدكتور عبد المجيد عابدين ، الامثال في النشر العربي القديم مع مقارنتها في الادب السامي الأخرى ( ص ٤٣ وما بعدها ) ، مجمع الأمثال ، للميداني ( ٣٧ / ١ ) .

٤ البيان والتبيين ( ١ / ١٨٤ ) .

٥ البيان والتبيين ( ١ / ١٨٨ ) .

٦ البيان والتبيين ( ١ / ١٨٩ ) .

اذا ما مات ميت من تميم فسرّك أن يعيش فجيء بزاد  
بنجز أو بلحم أو بتمر أو الشيء الملفف في البجاد  
تراه يطوف الآفاق حرصاً ليأكل رأس لقمان بن عادٍ

وقيل إن هذا الشعر هو لأبي مهوش الفقعي<sup>١</sup>.

وورد ذكر (لقمان) في شعر (أفنون) التغلبي<sup>٢</sup> ، وفي شعر (سارة بنت دباب بن عامر بن ثعلبة)<sup>٣</sup> ، وفي شعر شعراء آخرين.

وعرف لقمان عند الجاهليين كذلك بالنباهة والذكاء وبالعلم وبقوه اللسان ومخالل أخرى يرون أنها من سجايا الحكماء ، حتى زعم أن أختاً له ، مُحَمَّقة ، تحايلت عليه ، فاتصلت به اتصال الزوجات ، طمعاً في الحصول ولد ذكي حكيم منه يكون على شاكلته ، فأحببها بولد عرف بـ (لقيم) في شعر ينسب إلى التمر بن تولب. وأهل الأخبار قصص عنه وعن أخته<sup>٤</sup>.

وذكر (الجاحظ) أن (لقمان) قتل ابنته ، وهي صحر أخت لقيم ، حين قتلها : ألسْت امرأة ! وذلك أنه كان قد تزوج عدة نساء ، كلهن في أنفسهن ، فلما قتل آخرهن ونزل من الجبل ، كان أول من تلقاه صحر فوثب عليها قتلتها<sup>٥</sup> وقال : وأنت أيضاً امرأة ! وللجاحظ قصص عنده<sup>٦</sup>.

وفي سورة (لقمان) ، « ولقد آتينا لقمان الحكمة : أن اشكر لله ، ويشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد . وإن قال لابنه ، وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم »<sup>٧</sup> . إذن حكيم من الحكماء ، وحب الحكمة وصواب الرأي . له ولد وعشه ونها

١ المرذباني ، مجمع (٤٨٠) ، البيان والتبيين (١٩٠/١) ، الخزانة (٣/٢٩)  
٢ الاقتضاب (٣٨٨) ، العقد الفريد (١٤٢/٣) .

٣ البيان والتبيين (١٩٠/١) .

٤ المصدر نفسه (١٩٠/١) .

٥ بلوغ الارب (٢١٢/٣ وما بعدها) .

٦ الحيوان (٢١/١) .

٧ المحسن والاضداد (١٣٣) .

٨ الآية ١٣ وما بعدها .

وفي كتب قصص الأنبياء وكتب الأخبار والأدب وصايا لقمان ، وعظ بها ابنه ، وأدبه ، هي قطع في التأديب وفي قواعد السلوك<sup>١</sup> .

وفي جملة ما رواه أهل الأخبار من حكمه أن مولاه قال له يوماً « اذبح لنا هذه الشاة ، فذهبها ». قال : أخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب . ثم مكث ما شاء الله ، ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة ، فذهبها . فقال : اخرج أثثي مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب . فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرجنها ، وأمرتك أن تخرج أثثي مضغتين فيها فأخرجنها . فقال له لقمان : انه ليس من شيء أطيب منها اذا طابا ، ولا أثثي منها اذا خبشا<sup>٢</sup> .

وقد ذكر أهل الأخبار امرأة يقال لها : ( صحر بنت لقمان ) ، قالوا : أنها اشتهرت بالعقل والكمال والقصاحة والحكمة ، وإن العرب كانت تحاكم عندها فيما بينهم من المشاجرات في الأنساب وغيرها . وقالوا أنها كانت ابنة لقمان ، ومنهم من زعم أنها اخته لا ابنته<sup>٣</sup> .

وذكر أهل الأخبار أن ( لقمان ) هو من آمن به ( هود ) ، وأما لقمان المذكور في القرآن ، فهو غيره . وكان لقمان القرآن ابن أخت أيوب ، او ابن خالته ، وقيل كان من ولد ( آزر ) ، وأدرك داود وأخذ منه العلم ، وكان يفني قبل مبعث داود ، فلما بُعث قطع الفتوى ، وكان قاضياً فيبني اسرائيل ، وكان حكيمًا ولم يكننبياً . وورد أنه كان راعياً أسود ، فرزقه الله العنق ، وقيل : كان أسود من سودان مصر خياطاً ، وقيل كان نجارة<sup>٤</sup> . وذكر ( الجاحظ ) : أن ( لقمان ) من السودان ، وهو الذي يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند المخوف ، والأخ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردت أن تجالط رجلاً فاغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك وإلا فاحذره .

١ العقد الفريد ( ٣/١٥٢ ) ٠

٢ تفسير الطبرى ( ٢١/٤٣ ) وما بعدها ٠

٣ بلوغ الارب ( ١/٣٤٢ ) ٠

٤ الخزانة ( ٢/٧٨ ) ، ( بولاق ) ٠

ولم يرووا ذلك عنه إلا وله أشياء كثيرة . وأكثر من هذا مدح الله لآية وسميتها الحكيم ، وما أوصى به ابنه <sup>١</sup> .

ويشبه قصص (لقمان) وما يضرب على لسانه من أمثال ، قصص (ایسوب) عند الأوروبيين . وهو الباحث عن الحكمة عن طريق ضرب الأمثال وقول الألغاز والقصص <sup>٢</sup> . وقد رأى بعض الباحثين أن لآمثال لقمان وحكمه صلة بـ (احيقار) . وذهب بعض المستشرقين إلى وجود صلة بين لقمان وبين بعض الشخصيات القديمة التي يرد اسمها في الأدب القديم مثل Prometheus و Alkmaion و Prometheus و Lucian و (سلیمان) ، وبليام .

وقد ضرب (أبو الطمّحان حنظلة بن الشرقي القيسي) المثل بتشتت حي لقمان، ويتفوّهم أفراداً اذ يقول :

أمسَتْ بُنْوَةَ الْقِبْنِ أَفْرَادًا مُوزَّعَةً كَأَنَّهُمْ مِنْ بَقَايَا حَيِّ لَقَمَانٍ<sup>٣</sup>

وقد اشتهر (سلیمان) عند العرب بالحكمة أيضاً ، فعرف عندهم بـ (سلیمان الحكيم) ، وقد أشير إليه في القرآن الكريم . وكان اليهود والنصارى هم نقلاً أخبار هذه الحكمة إلى الروشين . وكان يهود المدينة مصدر هذه الأخبار بالدرجة الأولى ، فقد كانوا يحكمون اختلاطهم بأهل يثرب قد أذاعوا بينهم قصصاً إسرائيلياً، ومنه قصص داود وسلیمان .

و (سلیمان) أحكم الحكام عند اليهود . يذكرون « ان حكمته فاقت حكمة جميع العلماء في عصره . وكان أحكم من جميع الناس » <sup>٤</sup> . ويزكرون انه ألف الأمثال . ونطق بثلاثة آلاف مثل ، وألف خمس نشائد <sup>٥</sup> . ووضع نشيد الأنساد والجامعة . وذاعت حكمة سلیمان وانتشر خبرها في كل الأنهاء بحيث أتى أناس من الأبعد ليشاهدوها وكانتا يتحدونه بمسائل عسرة <sup>٦</sup> ، في جملتهم ملكة سبا

رسائل الجاحظ (١٧٩/١) ، (فخر السودان على البيضان) .  
Shorter Ency., p. 290.

١

٢

البيان (٨٨٧/١) وما بعدها ، الخزانة (٤٢٦/٣) .

٣

قاموس الكتاب المقدس (٥٧٩/١) ، (سلیمان) .

٤

الملوك الأول ، الاصحاح الرابع ، الآية ٣٢ .

٥

الایام الثاني ، الاصحاح التاسع ، الآية ٦ ، قاموس الكتاب المقدس (٥٧٩/١) ، (سلیمان) .

٦

التي سمعت بحكمته فجاءت تتحمّل ذلك في التوراة . وتقربن لفظة ( مجلة ) عادة بالحكمة . قال علماء العربية : « والمجلة ، بفتح الميم ، الصحيفة فيها الحكمة »<sup>١</sup> ، وقد تألف من ( صحف ) . و ( الصحيفة ) الكتاب . وذكر علماء اللغة ان « الوضيعة » : كتاب تكتب فيه الحكمة .. وفي الحديث انه نبي وان اسمه وصورته في الوضائع »<sup>٢</sup> .

وقد ذكر أهل الأخبار أن ( قيس بن نشبة ) ، كان منجياً متكلساً في الجاهلية . وهو من أدرك أيام الرسول<sup>٣</sup> . وذكر أنه من ( بني سليم ) ، وأنه كان يعرف الرومية والفارسية ويقول الشعر<sup>٤</sup> . وانه جاء الى الرسول « بعد الخندق فقال : إني رسول من ورائي من قومي ، وهم لي مطيعون وإنني سائلك عن مسائل لا يعلمها إلا من يوحى اليه ! فسأله عن السموات السبع وسكناتها وما طعامهم وما شرابهم ، فذكر له السموات السبع والملائكة وعبادهم ، وذكر له الأرض وما فيها فأسلم ورجع الى قومه ، فقال : يا بني سليم ! قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأشعار العرب والكهان ومقابل حير ، وما كلام محمد يشبهه شيئاً من كلامهم فأطيعوني في محمد فإنكم أخواهه فإن ظفرت بتنتعما به وتسعدوا وإن تكن الأخرى ، فإن العرب لا تقدم عليكم . فقد دخلت عليه وقلبي عليه أقصى من الحجر ، فما برحت حتى لان بكلامه . وقيل عنه إنه كان يتألم في الجاهلية وينظر في الكتب ، فجاء الى الرسول لما سمع به ، وسألته ، فآمن به . ولعلمه سماه رسول الله : ( حبر بني سليم ) ، وكان إذا افتقده يقول : يا بني سليم أين حبركم . وهو عم الشاعر العباس بن مرداس ، أو ابن عمّه . ولما أسلم قال قال هذه الآيات :

تابعت دين محمد ورضيته كل الرضا لأمانتي ولديني  
ذلك أمرؤ نازعته قول العدا وعقدت فيه عينيه بسميني  
قد كنت آمله وانتظر دهره فالله قادر أنه يهديني  
أعني ابن آمنة الأمين ومن به أرجو السلامة من عذاب الهون

١ تاج العروس ( ٢٦١/٧ ) ، ( جلل ) .

٢ تاج العروس ( ٥٤٥/٥ ) ، ( وضع ) .

٣ تاج العروس ( ٩٥/٨ ) ، ( كحل ) .

٤ اللدان ( ٢٥٠/٢ ) .

وذكر أنه كان قد قدم مكة في الجاهلية فباع إبلًا له فلواه المشتري حقه ،  
فكان يقول :

يا آل فهر كنت في هذا الحرم في حرمة البيت وأخلاق الكرم  
أظلم لا يمنع مني من ظلم

فسمع به عباس بن مرداس ، فكتب إليه أبياتاً منها :  
وائت البيوت وكن من أهلها وداداً تلق ابن حرب وتلق المرء عباساً

فقام العباس بن عبد المطلب وأخذ له بمحقه . وقال : أنا لك جار ما دخلت  
مكة ، فكانت بينه وبينبني هاشم مودة<sup>١</sup> .

وذكر ان ( أبا العاصي بن أمية بن عبد شمس ) ، كان حكيمًا . وقد عدَّ  
من حكماء قريش وشعرائهم<sup>٢</sup> . كما ذكر ان ( الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية )  
الأموي ، وكان من الكتابة في الجاهلية ، والذي علم الكتابة بالمدينة بأمر  
الرسول ، كان يعلم الحكمة<sup>٣</sup> . وذكر ( ابن حبيب ) ، ان ( الحكم بن سعيد )  
كان من أمراء الرسول ( على قرئي عربية )<sup>٤</sup> ، وذكر أيضاً ان الرسول سماه  
( عبدالله وجده يعلم الحكمة ) ، وقد استشهد يوم مؤتة<sup>٥</sup> .

ويظهر ان الحكم المنسوبة الى ( قيس بن نشبة ) ، او الى ( الحكم بن سعيد )  
كانت نوعاً من العلوم التي يدرسها الفلاسفة والحكماء في ذلك الوقت ، أي علماء  
يونانية ، وتأملات وملحوظات عن هذا العالم ، فهي دراسة منتظمة تختلف في  
طرازها عن الحكمة القائمة على القصص وضرب الأمثال . وقد تكون قد أخذت  
من الكتب اليونانية أو السريانية ، أو الفارسية ، فقد رأينا أهل الأخبار يذكرون  
ان ( قيس بن نشبة ) كان يعرف الرومية والفارسية ، كما ذكروا مثل ذلك عن  
النصر بن حارث بن كلدة وعن الأحناف ، وأنا لا أستبعد احتمال ذلك ، لأن

١ الاصابة ( ٣/٢٤٩ وما بعدها ) ، ( رقم ٧٢٤٤ ) .

٢ كتاب نسب قريش ( ٩٩ ) ، المعارف ( ٧٣ ) .

٣ الاصابة ( ١/٣٤٣ وما بعدها ) ، ( رقم ١٧٧٧ ) .

٤ المعتبر ( ١٢٦ ) .

٥ المعتبر ( ٤٦٠ ) .

بعضهم كان قد وصل العراق وببلاد الشام وخالط الأعاجم، كما كان من الأعاجم من سكن مكة والقرى العربية الأخرى لأغراض مختلفة ، ومنهم من كان على فقه بعلوم قومه ، ومعرفة علمية بلغتهم ، فلا يستبعد اذن تعلم من كان فيه ميل من العرب إلى العلم والثقافة، العلم والفلسفة والنظر من تلك البلاد التي زاروها ، ومن هؤلاء .

وذكر أن (النصير بن الحارث بن علقة بن كلدة بن عبد مناف ) العبدري القرشي كان من حكماء قريش . وقد استشهد يوم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة . وكان أخوه (النصر بن الحارث ) ، شديد العداوة للرسول ، فقتله عليّ يوم بدر كافراً ، قتله بالصفراء<sup>١</sup> .

وروى (عمران بن حصين) ، (عمران بن الحصين) ، حديثاً عن رسول الله ، هو : « الحياة لا يأتي إلا بغير » ، فقال « بشير بن كعب ، وكان قدقرأ الكتاب : إن في الحكمة : أن منه ضعفاً . فغضب عمران ، وقال : أحدثك بما سمعت من النبي ، وتحدثي عن صحفتك هذه الخبيثة »<sup>٢</sup> . ويظهر أن (بشيرآ) لهذا كان من طالع كتب أهل الكتاب ووقف على الحكمة .

وقد ذكر الأخباريون أسماء آناس آخرين عرفوا بالحكمة كذلك ، مثل : أكثم بن صيفي التميمي ، من رؤساء تميم ومن (حكام العرب)<sup>٣</sup> . ويلاحظ أن الأخباريين يخلطون في الغالب بين الحكم والحاكم ، فيجعلون (حكام العرب) من (حكماء العرب) ويدركون أحکامهم في باب الحكم . كذلك نسبوا معظم خطباء الجاهلية إلى الحكمة كذلك ، مما يدل على أن للحكمة عند الأخباريين معنى واسعاً ، يشمل كل ما فيه عظة وتعلم<sup>٤</sup> . وقد كان العرانيون وبقية الساميين يجعلون الحكم من طبقة الحكماء ، لأن الحكم لا بد وأن يكون حكماً ، أي مدركاً فطناً نافذاً إلى بوطن الأمور ، يحكم عن عقل ناضج وعن رأي مصيّب ، فهم أولى وأقدر على ابداء الأحكام الصحيحة من غيرهم ، وهذا نجد ارتباطاً كبيراً في المعنى وفي اللفظ بين لفظي حاكم وحكم .

١ الاستيعاب (٥٣٥/٣ وما بعدها) ، الاصابة (٥٢٥/٣) ، (رقم ٨٧١٣) .

٢ مصادر الشعر الجاهلي (١٦٨ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (١٧٢/٣ وما بعدها) .

ومن حكام العرب الذين ذكرهم أهل الأخبار ، ونسبوا إليهم الحكم والاصابة في الرأي وصدق الأحكام ( عامر بن الظرب العدواني ) حكم قيس ، وقد عدوه ( من حكماء العرب ، لا تعدل بهمه فهماً ولا بحكمه حكماً ) . وقالوا : انه هو المراد في قول العرب : « إن المصا قرعت لذى الحلم » . أما ( ربعة ) ، فتقول : انه ( قيس بن خالد بن ذي الجدين ) . وأما تميم ، فتنسب هذا الفخر الى رجل منها هو ( ربعة بن مخاشن أحد بنى أبيب بن عمرو بن تميم ) . وأما اليمن ، فتقول : انه ( عمرو بن حمزة الدوسى ) ، ويذكر بعض آخر انه ( عمرو بن مالك بن ضبيعة ، أخوه سعد بن مالك الكتاني )<sup>١</sup> .

وفي كتاب ( العقد الفريد ) ، قصة اجتماع وقع بين عامر بن الظرب العدواني وحمزة بن رافع الدوسى وبين ملك من ملوك حمير ، ورد فيها : أن الملك قال لها : تساعلا ، حتى أنسع ما تقولان ؟ ودون رواة هذه القصة ما جرى في الاجتماع من أسئلة وأجوبة . ومدارها خاطرات عن الحياة وعن الناس وعن الأدب ، بالسجع المأثور<sup>٢</sup> . وما جاء فيها ان أحكم الناس « من صمت فاذكر ، ونظر فاعتبر ، وروعظ فازدجر » ، وان أجهل الناس من رأى الحُرْق مفيناً ، والتتجاوز مغمراً<sup>٣</sup> .

وذكر أنه كان قد جمع قومه ( عدون ) ، فتصحهم بقوله : « يا معشر عدون : انحر ألواف عروض ، وإنه لن يفارق صاحبه حتى يفارقه ، وإنني لم أكن حكياً حتى صاحبت الحكام ، ولم أكن سيدكم حتى تبعدت لكم » . وكان كما يقول ( ابن حبيب ) ، آخر حكام العرب وقضائهم وأثتمهم قبل انتقال الحكومة الى ( بنى تميم ) بعكاظ<sup>٤</sup> ، وروي له حكم في ( الخنثى ) ، وأيد الإسلام حكمه<sup>٥</sup> . ورووا له شعراً في الخمر ، يقول فيه :

- ١ « إن المصا قرعت لذى الحلم » ، مجمع الأمثال ( ٣٩/١ وما بعدها ) ، الامدى ، المؤتلف ( ص ١٥٤ ) .
- ٢ العقد الفريد ( ٢/٢٥٥ وما بعدها ) .
- ٣ الامالي ( ٢/٢٧٦ وما بعدها ) .
- ٤ الامالي ( ٢/١٥٧ ) ، البيان والتبيين ( ١/٤٠١ ) ، ( ٢/١٩٩ ) .
- ٥ المحبر ( ١٨١ ) .
- ٦ المحبر ( ٢٣٦ ) .

إن أشرب الخمر أشربها للذها  
لولا اللذادة والفتيان لم أرها  
سئلة للفى ما ليس علکه  
مورثة القوم أضغاثاً بلا احنٍ  
أقسمت بالله أسيتها وأشربها  
ذهابة بعقول القوم والممال  
مزراية بالفى ذي التجدة الحال  
حتى يفرق ترب القبر أوصالىَ

و فيه يقول ذو الاصبع العدواني :

ومنا حكم يقضى فلا ينفع ما يقضى<sup>٢</sup>

ومن حكمه: « الرأي نائم ، والهوى يقطنان ، فمن هنالك يغلب الهوى الرأى »<sup>٣</sup> .  
وله جواب على خطاب ( صعلدة بن معاوية ) حين جاء اليه يخطب ابنته<sup>٤</sup> .  
وكانت له بنت عدت من حكمات العرب ، حتى جاوزت في ذلك مقدار  
( صحر بنت لفهان ) ، و ( هند بنت الحس ) ، و ( جمعة بنت حابس بن  
مُليل ) الآيادين<sup>٥</sup> .

وذكر أهل الأخبار أن من حكام نعيم في الجاهلية : أكثم بن صيفي ، وحاجب  
ابن زرار ، والأقرع بن حابس ، وربيعة بن مخاشن ، وضميرة بن ضمرة .  
ويذكرون أن ( ضمرة ) حكم ، فأخذ رشوة ، فغدر . والغدر عيب كبير ، ومن  
آذم الصفات عند الجاهليين<sup>٦</sup> .

وقد نسب أهل الأخبار حكماً وأمثلة لأكثم بن صيفي ، منها المثل : « مقتل  
الرجل بين فكتيه » يعني لسانه<sup>٧</sup> ، ومن الأقوال المنسوبة إليه ، قوله : « تناعوا  
في الديار ، وتواصلوا في المزار »<sup>٨</sup> ، وقوله : « تباعدوا في الديار تقاربوا في

- |   |   |
|---|---|
| ١ | المجبر ( ٢٣٩ ) ٠                            |
| ٢ | البيان والتبيين ( ٢٦٤ / ١ ) ، ( حاشية ٣ ) ٠ |
| ٣ | البيان والتبيين ( ٢٦٤ / ١ ) ٠               |
| ٤ | البيان ( ٧٧ / ٢ ) ٠                         |
| ٥ | البيان والتبيين ( ٣٨ / ٣ ) ٠                |
| ٦ | مجمع الأمثال ( ٤١ / ١ ) ٠                   |
| ٧ | خلق الإنسان ( ص ١٩٥ ) ٠                     |
| ٨ | البيان والتبيين ( ٣ / ٢٥٥ ) ٠               |

المردة<sup>١</sup> . وقد عد أسلوب كلامه من أرشق أساليب الفصحاء ، ومن أحكم كلام ، فيه نصائح وحكم مع بلاغة متناهية وفصاحة . ونسبوا له خطباً منمقة<sup>٢</sup> ، هو في نظري من هذا التر المصنوع ، الذي وضع على لسانه في الاسلام .

وقد اشتهرت ( تيم ) بكثرة حكمائها<sup>٣</sup> ، ونلاحظ ان هؤلاء الحكماء كانوا حكاماً كذلك ، يحكمون بين الناس فيما يقع بينهم من شجار . ومعنى هذا ان بين الحكمة والحكم عند العرب الجاهليين صلة متباعدة . وقد رأيت ان تيمياً كانت قد احتكرت لنفسها الحكومة في سوق عكاظ على ما يذكره أهل الأخبار . وهم من القبائل المتقدمة بالنسبة الى القبائل الأخرى التي كانت عند ظهور الاسلام ، انتقلت اليها هذه الحكومة من ( بني عدوان ) ، الذين كان آخر حكامهم ( عامر بن الظرب ) العدواني .

وقد كان لاتصال أهل الأخبار بتيم ، دخل ولا شك في كثرة أسماء حكمائها التي وصلت اليها من خلال دراستنا لكتابهم ، فقد كان اتصالهم بها أكثر من اتصالهم بأية قبيلة أخرى ، لوجودها على مقربة من الكوفة والبصرة ، ولذلك أكثروا اللغة عنها ، حتى صرنا نعرف من أمور نجحها ولغتها ما لا نكاد نعرفه عن نحو ولغة أية قبيلة أخرى . ولرجال تيم خطب طويلة ، في الحكم ، هي تأملات وخارطات وضعت على ألسنتهم في الاسلام ، إذ لا يعقل كما سبق أن قلت في مواضع متعددة من هذا الكتاب وصول نصوص تر ، بهذا النوع من الضبط والتحرى عن أهل الجاهلية حتى نحكم بصحة نصوص مما نسب الى حكماء تيم . نعم قد يقول قائل ، ان الشاعر ( بشر بن أبي خازم ) كان قد أشار الى ( كتاب بني تيم )<sup>٤</sup> ، فلا يستبعد أن يكون ( بنو تيم ) قد سجلوا خطب وأشعار سادتهم فيه ، ولكنني أقول إن من العلماء من نسب هذا الشعر الى ( الطرماح ابن حكيم ) وهو شاعر اسلامي ، توفي في حوالي السنة ( ١٠٥ ) ، وانا حتى لو فرضنا أن ذلك الشعر هو للطرماح ، وأنه يدل على وجود كتاب قديم عند

١- البيان ( ٢/٧٠ ) .

٢- بلوغ الارب ( ٣/١٧٢ ) .

٣- Goldziher, History of classical Arabic Literature, p. 7.

٤- المفضليات ( ٩٨ ) ، الامثال ، للميداني ( ١٣٧/١ ) ، العسكري ، جمهرة الامثال ( ٢٨٩ ) .

(بني تميم) ، فإننا لا نستطيع أن نأخذ بالظن ، ونقول بصحبة مثل هذه الخطب المنسوبة إلى خطباء وحكماء تميم لمجرد وجود إشارة إلى كتاب عندهم لا نعرف من أمره شيئاً ، غير إشارة إلى اسمه وردت في شعر ، لا ندرى مبلغ درجته من الصحة والاصالة .

ومن نسبت إليه الحكمة (الأفوه الأودي) ، وهو شاعر اسمه (صلاحة بن عمرو) من (أود) . وله قصيدة دالية ، فيها رأيه في الحكم وفي الناس وفي الخير والشر<sup>١</sup> . وذكر أنه هو القائل :

ملكتنا ملك لقاح أول وأبونا من بي أود خيار<sup>٢</sup>

والعادة أن تنسب الحكم إلى المسنين ، وقلما نجد حكماً صادرة من شبان وأحداث وذلك أن العقل لا يكتمل إلا بتكامل العمر ويتقدم الإنسان في السن ، ويتقدمه في السن تزيد تجاربه واختباراته في هذه الحياة ، فيكون عندئذ أهلاً للنطق بالحكمة . ولم يكتف أهل الأخبار ببلوغ الحكماء سن الشيخوخة الطبيعية ، بل صبروا عمر معظم المعمرين فوق المائة ، بل جعلوها مئات . وعبر مثل هذا كفيل بأن يكون مصدراً للحكم والأمثال . ونجد في (كتاب المعمرين من العرب) للسجستاني أمثلة من عمر هؤلاء الحكماء .

١- الأغاني (١١/٤٤) ، الشعر والشعراء (١١٠) ، ديوانه ، الامالي ، للقالبي (٢/٢٢٨) ، تاريخ آداب اللغة العربية ، لزیدان (١٣٤/١ وما بعدها) .

٢- تاج العروس (٢/٢٩٢) ، (أود) .

## الفصل السابع والعشرون بعد المئة

### الامثال

و (المثل) لون من ألوان الحكمة . وهو يقابل (مثل) في العبرانية، ومعنى آخر هو الحكمة والأساطير والقصص ذو المغزى . ولا يشرط في المثل أن يكون نثراً ، فقد يكون شعراً . وفي الموارد الإسلامية أمثلة جاهلية كثيرة من النوعين ، لم يصل أي مثل منه مدوناً في نص جاهلي<sup>١</sup> .

وللحكماء المذكورين أمثلة كثيرة ترد في كتب الأدب والمواعظ والأمثال . وقد شرح غرضها أصحاب الموارد التي ذكرتها، وتعرض الرواة للقصص المروي عنها . غير أن من الصعب التثبت من صحة نسبة تلك الأمثال إلى أولئك الحكماء والتثبت من صحة هذا القصص المروي عنها .

وكلمة المثل من المثلة . وهو الشيء المثل لشيء يشبهه ، والشيء الذي يضرب لشيء مثلاً ، فيجعل مثلاً<sup>٢</sup> ، والأصل فيه التشبيه ؛ ويقابلها ( مثل ) ( Mashal ) Mashal في العبرانية ، و Parable في اليونانية ، و معناها المثلة والتشابه ، أي المعنى الوارد للفظة في العربية . والغاية من الإهتمام بما فيه من حكمة ومن

١ « والمثل : الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً فيجعل مثلاً » ، اللسان ( ١١ / ٦٠ ) وما بعدها ) « صادر » ، نهاية الارب ( ٣ / ٢ وما بعدها ) ، كتاب جمهرة الأمثال ، لا يبي هلال العسكري ، ( القاهرة ١٩٦٤ م ) ، ( ١ / ٧ ) .

٢ اللسان ( ١١ / ٦٠ وما بعدها ) ، ( مثل ) .

حسن توجيهه ، ومثل أخلاقية للسير على هديها في الحياة<sup>١</sup> . وقد ضربت التوراة الأمثال للناس للاتعاظ بها والأخذ بما فيها من عبر . ورد في سفر (حزقيال) : « هوذا كل ضارب مثل يضرب مثلاً عليك قائلاً : مثل الأم بيتها »<sup>٢</sup> ، وجاءت الأمثال في الأنجليل فورد : « في هذا يصدق القول : إن واحداً يزرع وأخر يحصده »<sup>٣</sup> .

وقد نص الاصحاح الأول من سفر (الأمثال) الغاية من ضرب الأمثال بقوله : « لمعرفة حكمة وأدب ، لادراك أقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والمعدل والحق والاستقامة ، لتعطى الجهال ذكاءً والشاب معرفة وتدبرًا ، لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغواصتهم : مخافة الرب رأس المعرفة . أما الجاهلون فيحتقرن الحكمة والأدب »<sup>٤</sup> . فالامور المذكورة ، تمثل الغاية التي يتوجهها ضرائب الأمثال من الأمثال : وقد جعلت أسفار الأمثال المثل : مخافة الرب رأس المعرفة أول أمثالها : وهو في العربية : رأس الحكمة مخافة الله .

ونجد في سفر (أمثال) كلاماً للحكماء ، هو مزيج من أمثلة وحكم وألغاز ، دون أن يشير إلى أسماء أصحابه<sup>٥</sup> ، ونجد مثل ذلك في الأدب العربي . وقد اشتهر أبناء الشرق بالحكمة عند العبرانيين .

والمثل بعد ، هو عقل ضاربه ، وثقافة البيئة التي ظهر فيها . ولهذا نجد الأمثال متباينة مختلفة حسب تنوع القوم الذين ظهر بينهم . ففي البيئة التجارية يكون المثل من هذه البيئة في الأغلب ، وفي البيئة الزراعية يكون المثل مشرباً بروح المزارعين ، وفي البادية تكون الأمثال ذات طبيعة بدوية . ومن هنا اختلفت أمثال قريش عن أمثال الأعراب ، وأمثال عرب العراق عن أمثال أهل العربية الجنوبية ، وهكذا . ولهذا فإن للمثل في نظر المؤرخ قيمة كبيرة من حيث أنه يرشد إلى مظاهر تفكير من ضرب بينهم ، ويعرفه ببلغ ثقافة قائله .

ولما كانت الأمثال مرآة لعقلية زمانها ولعقلية من ينسب قول المثل إليه ، أو من

Hastings, p. 767.

١

حزقيال ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٤٤ .

٢

أنجيل يوحنا ٤ ، الآية ٣٧ .

٣

أمثال ، الاصحاح الاول ، الآية الاولى وما بعدها .

٤

أمثال ، الاصحاح الثاني والعشرون ، والاصحاح الرابع والعشرون .

٥

ضرب به المثل . تبانت في البلاغة وفي قوة التعبير وعمق المعنى ، وفي الفكرة ، فصار بعضها آية في الحكمة وفي قوة البيان وفي عمق المغزى والمعنى ، وصار بعض منها بسيطاً تافهاً . ونجد هذه الحالة في أمثال كل الأمم . إذ ان المثل لا يصدر عن طبقة معينة ، بل قد يأتي من رجل جاهل بسيط ، وقد ينسب الى غبي بليد او الى شخص من سواد الناس اتخذ رمزاً للتعبير عن ناحية من نواحي الحياة ، او نموذجاً يعبر عن طبقة من الطبقات . وانما المهم في رواج المثل وفي بقائه ، أن يكون منبعاً عن واقع حال ، معبراً عن رأي سديد ، قصير قدر الامكان مركزاً له وقع حسن على السمع ، يصلح أن يكون مثلاً لكل زمان ومكان . فيروج ويذوم ، وقد يتخذ مثلاً من أمثلة الحكمة ، وهو كلاماً قصر ، سهل حفظه وطال عمره .

وأفضل المثل السائرون ، أوجزه ، وأحكمه أصدقه ، وقولهم : مثل شرود ، وشارد ، أي سائز لا يريد كالجمل الصعب الشارد الذي لا يكاد يعرض له ولا يريد . وقد ثأرني الأمثال محكمة إذا تولاهما الفصحاء من الناس ، وإذا جاءت في الشعر ، سهل حفظها<sup>١</sup> .

والأمثال مادة مهمة غنية في الأدب الجاهلي والاسلامي . وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة ضربت للناس للتفكير والتعقل ، وهي تدل على ما لها من أهمية تعليمية في العقل العربي . والأمثال المضروبة مرجع لمن يريد الوقوف على بعض الأمثلة التي استعملها الجاهليون . وفي الحديث النبوى مادة مهمة تندد هذا الباحث بمادة غزيرة عن المثل عند الجاهليين<sup>٢</sup> .

و « الأمثال من حكمة العرب في الجahلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبليغ بها ما حاولت من حاجتها في النطق بكلناية بغير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : المجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه »<sup>٣</sup> . فالآمثال اذن عند الجاهليين نوع من أنواع الحكمة السائرة بين الناس . يقولها السيد والمسود ، البارز والخامل ، وهي تحفظ بسهولة ولا يحتاج المرء لتعلمها الى

١ العددة ( ٢٨٠ / ١ ) وما بعدها .

٢ المستطرف في كل فن مستطرف ( ٢٧ / ١ ) وما بعدها .

٣ المزهر ( ٢٣٤ / ١ ) .

مهارة وذكاء . وكان لحفظ الأمثال مقام عندهم ، لأنهم من وهبوا بياناً ناصعاً وقوفة في اللسان، تمكن صاحبه من ضرب المثل في موضعه ، ومن قوله في مكانه . والعادة أن يكثر الحكم من الأمثال في كلامه ، لأنها المادة التي يستعين بها في إظهار حكمته وعقله ، يضيف عليها أمثلاً من عنده ، هي من وحي تجربة وقوفة ملاحظته .

وقد وردت الكلمة (مثل) و (أمثال) في مواضع كثيرة من القرآن ، وفي ورود الكلمتين بهذه الكثرة دلالة بالطبع على ما كان للمثل من أهمية كبيرة عند المتألهين . وفيه أمثلة كثيرة ضربت للعبرة والذكر ، لتكون درساً يتعظ به أولو الألباب . ويلاحظ أن العرب يضعون لفظة (ضرب) قبل كلمة المثل في الغالب ، ورد في القرآن الكريم « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً »<sup>١</sup> ، و « ضرب الله مثلاً »<sup>٢</sup> ، وورد « وضربنا لكم الأمثال »<sup>٣</sup> ، و « فلا تضربوا الله الأمثال »<sup>٤</sup> ، و « تلك الأمثال نضربها للناس »<sup>٥</sup> ، وفي مواضع أخرى منه . وضرب المثل ايراده ليتمثل به ويتصور ما أراد المتكلم بيانه للمخاطب . يقال : ضرب الشيء مثلاً وضرب به وتمثله وتمثل به . وضرب المثل اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به . وقد أشاد العلماء بما للأمثال من أهمية في الحث على إصلاح النفس ، فقال بعضهم : « إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكرةً ووعظاً » ، وقال بعض آخر : « ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكرة ، والوعظ ، والمحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد من العقل ، وتصويره بصورة المحسوس ... الخ » . وروي أن الرسول قال : « إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتباشه ، وأمثال . فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتباشه ، واعتبروا بالأمثال »<sup>٦</sup> . وجعل (الماوردي) الأمثال من أعظم علم القرآن<sup>٧</sup> .

١ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٢٤ .

٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٧٥ وما بعدها ، ومواضع أخرى .

٣ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٤٥ .

٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٧٤ .

٥ المشر ، الرقم ٥٩ ، الآية ٢١ .

٦ تاج العروس (٣٤٧/١) ، (ضرب) .

٧ السيوطي ، الاتقان (٣٨/٤) .

٨ المصدر نفسه .

والرسول أمثال كثيرة ، وذكر عن ( عمرو بن العاص ) ، أنه حفظ عن النبي ألف مثل<sup>١</sup> . ونجد في كتب الأمثال أمثلاً نسبت إلى الرسول . منها : « إن من البيان لسحراً »<sup>٢</sup> ، و « إن مما ينتي الريع لما يقتل جبطاً أو يلم »<sup>٣</sup> . و « ليأكلون خضراء الدمن »<sup>٤</sup> ، و « من كثر كلامه كثر سقطه »<sup>٥</sup> ، و « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »<sup>٦</sup> ، ويروى أنه من أمثلة أهل الجاهلية<sup>٧</sup> . وقد نسبت أمثلة جاهلية أخرى إلى الرسول .

والأمثال أقوال مختصرة ، يراعى في وضعها الإيجاز والبلاغة والتأثير . وقد يكون المثل كلمتين ، وقد يكون أكثر من ذلك . ولكن العادة لا تكون طويلاً، لأن طول المثل يفقده روعته وتأثيره ، فلا يكون مثلاً ، ولا يمكن حفظه عند ذكره فيضيع . ويراعى أن يكون سجيناً أو طباقاً . وأن يرتب في جمل متوازية بسيطة العبارة ، أو مزدوجة أو أكثر من ذلك قليلاً . وأن تكون هناك مناسبة بين الجمل حتى يبلو المثل جميلاً متناسقاً .

والقاعدة في الأمثال الاـ تغير ، بل تجري كما جاءت . وقد جاء الكلام بالمثل وأخذ به وإن كان ملحوظاً . لأن العرب نجحوا في الأمثال على ما جاءت، ولا تستعمل فيها الإعراب<sup>٨</sup> . والأمثال قد تخرج عن القياس ، فتحكى كما سمعت ، ولا يطرد فيها القياس ، فتخرج عن طريقة الأمثال . « قال المزوقي : من شرط المثل الاـ يغير عما يقع في الأصل عليه »<sup>٩</sup> .

وقال المزوقي « في شرح الفصيح : المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها ، فتتسنم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها ، وعما يوجه الظاهر إلى

١ الاستيعاب ( ٢٣٩ / ٢ ) ، ( حاشية على الاصابة ) .

٢ العسكري ، جمهرة الأمثال ( ١٣ / ١ ) .

٣ المصدر نفسه ( ١٦ / ١ ) .

٤ العسكري ، جمهرة ( ١٧ / ١ ) ، الميداني ( ٢١ / ١ ) ، المستقصي ( ١٨٠ ) .

٥ العسكري ، جمهرة ( ١٩ / ١ ) .

٦ العسكري ، جمهرة ( ٥٨ / ١ ) ، الميداني ( ١٩٤ / ٢ ) ، الفاخر ( ١٤٧ ) ، السيوطي ،

الجامع الصغير ( ١٨٨ / ١ ) .

٧ المزهر ( ٤٨٧ / ١ ) ، ( النوع الخامس والثلاثون ، معرفة الأمثال ) .

٨ المزهر ( ٤٨٧ / ١ وما بعدها ) .

أشبهه من المعاني ، فلذلك تُضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها ، واستجزىء من الحذف ومُضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام<sup>١</sup> .

ويلاحظ أن العرب قد أجازت لضارب المثل المروج فيه على قواعد اللغة ، كما أجازت ذلك للشاعر بدعوى ضرورات الشعر، ليستقيم الشعر مع القوافي والوزن . أجازته في المثل لأنها قد يصدر شعرًا ، وقد يصدر سجعًا ، وقد يصدر من أفواه أناس جهله لا يبالون بالقواعد ، أو ليس لهم علم بها ، وقد يصدر من قبيلة لا تتعيّن في لغتها قواعد الإعراب .

ونجد في كتب الأمثال وفي كتب الأدب أمثلاً وضعت لأغراض مختلفة، يغلب عليها الطابع التعليمي ، أي تعلم من يقرأها حكمة الحياة ، وتجارب الماضين حتى يستفاد ويُتعظ . بعض منها نابع من محيط البداوة ومن الطبيعة الأعرابية ، وبعض منها تجارب عملية عامة تنطبق على كل الناس وتصلح لكل الأوقات<sup>٢</sup> .

والأمثال عند بعض الشعوب صنف من أصناف الشعر ، لما فيها من الخصائص المتوفرة في الشعر عندهم . وقد روّعي في المثل بصورة عامة أن يكون قصراً موجزاً وبليغاً معبراً عن حكمة ، فيه نغمة وترنيم . ليؤثر في النفوس . ويحمل الطبع قائل المثل على مراعاة هذه الأمور من غير تفكير ولا تصنع ، وهو إذا كان صادراً من قلب وسجية ، ومعبراً عن نفس جياشة وعن حس بشري عام ، يشعر به كل إنسان قبله الناس بسرعة ، ووُجد له مجالاً من الانتشار ، وعبر عمراً طويلاً .

والأمثال ، هي في صدر المؤلفات التي وضعها المسلمون ، فقد روى : أن عبيداً بن شريبة الجرمي ، وهو من أهل (صنعاء) باليمن ، من أوائل المؤلفين في الأخبار وملوك العرب والعجم ، ألف كتاب (الأمثال) وقد رأه (ابن النديم) في نحو خمسين ورقة . كذلك ألف صحاح بن العباس العبدى ، وهو من بنى عبد القيس ، ومن أدرك الرسول ، (كتاب الأمثال)<sup>٣</sup> . وذكروا

١ المزهر (٤٨٦/١) وما بعدها .

٢ الامالي (١١/٢) ، (٥١، ٢٨، ٧٧) وما يخليه آخر (المستطرف (٢٧/١) وما

بعدها) ، المزهر (٤٨٨/١) وما بعدها .

٣ الفهرست (ص ١٣٨) ، ابن الأثير (١٤٩/١) .

ان ( عِلَاقَةُ الْكَلَابِيِّ ) جمع الأمثال في عهد يزيد بن معاوية<sup>١</sup> ، وأن ( المفضل الصبي ) ( ١٦٨ ) من مشاهير علماء الكوفة في الشعر واللغة ألف كتاباً في الأمثال دعاه : كتاب الأمثال<sup>٢</sup> ، وأن أبو عبد القاسم بن سلام ( ٥٢٢٣ ) ( ٥٢٤ ) ، ألف كتاباً في الأمثال كذلك<sup>٣</sup> .

وألف ( يونس بن حبيب ) ( ١٨٣ ) كتاباً دعاه ( كتاب الأمثال )<sup>٤</sup> ، وألف ( أبو المنهال ) كتاباً في الأمثال ، عرف بـ ( كتاب الأمثال السائرة ) وقف عليه ( ابن النديم )<sup>٥</sup> ، ولأبي عبيدة ( ٢٠٩ ) ( ٢١٠ ) ( ٢١١ ) ( ٢١٧ ) كتاب في الأمثال ، عرف بكتاب الأمثال<sup>٦</sup> ، ولالأصمعي ( ٢١٧ ) كتاب في الأمثال كذلك<sup>٧</sup> ، وللشوري ، وهو من أخذ عن الأصمعي كتاب في الأمثال<sup>٨</sup> ، ولأبي اسحاق ابراهيم بن سفيان ، من تلامذة الأصمعي ، كتاب في الأمثال<sup>٩</sup> . وألف غير هؤلاء من العلماء كتاباً في هذا الموضوع طبع بعض منها فتال شهرة ، مثل كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ( ٣٩٥ ) ، وكتاب جمجمة الأمثال للميداني ( ٥١٨ )<sup>١٠</sup> ، وقد أخذ ( أبو هلال العسكري ) أمثلاً وردت في كتاب لخمرة الأصبهاني في الأمثال ، وهو كتاب توجد نسخة خطية منه في القاهرة<sup>١١</sup> .

وبين المؤلفات في الأمثال رسالة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرييا الرازى

١ الفهرست ( ٩٠ ) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي ( ٢٦١ / ١ ) ، فجر الاسلام ( ص ٦١ ) « الأمثال » ، « الطبعة العاشرة » .

Wüstenfeld, Geschichtschr., 11, Goldziher, Muh. Stud., II, 204.

- |    |  |
|----|--|
| ٢  | الفهرست ( ١٠٨ ) .                                |
| ٣  | الفهرست ( ١١٢ ) .                                |
| ٤  | الفهرست ( ٦٩ ) .                                 |
| ٥  | الفهرست ( ٧٨ ) .                                 |
| ٦  | الفهرست ( ٨٥ ) .                                 |
| ٧  | الفهرست ( ٨٨ ) .                                 |
| ٨  | الفهرست ( ٩١ ) .                                 |
| ٩  | الفهرست ( ٩٢ ) .                                 |
| ١٠ | كارلو نلينو ، تاريخ الادب العربي ( ٩٦ ) .        |
| ١١ | ال العسكري ، جمهرة ( ٦ / ١ ) ، ( حاشية رقم ٥ ) . |

(٣٩٥هـ) ، طبعت بعنوان : (كتاب أبيات الاستشهاد)<sup>١</sup> ، دون فيها بعض الشعر الذي استشهد به الناس في أمثالهم . ورسالة أخرى ألفها (أبو العباس محمد بن يزيد المبرد) الأزدي (٢٨٥هـ) ، بعنوان : « رسالة في أعيجاز أبيات تغنى في التمثيل عن صدورها »<sup>٢</sup> .

وهنالك مؤلفات عديدة أخرى ، وضعت في الأمثال . وفي إقبال المؤلفين على التأليف بها بهذه الكثرة ، دلالة على ما كان للمثل من أهمية ، وعلى ما كان له من قيمة في نظر أهل الجاهلية . حفظوه حفظهم للشعر ، بل أكثر من الشعر ، لأنه يرد على كل لسان ، يرد على لسان الحكم البيهقي كما يرد على لسان الغبي والجاهل ، ثم إنه توجيه وتربيه وتعليم ، فلا تستغرب إذن إذا ما وجدنا كتب الأمثال في صدر الكتب التي ظهرت في الإسلام . وقد رأيت أنها ظهرت في عهد (معاوية) وبأمره ، فهي بحق من أوائل المؤلفات التي وصلتينا بالعربية . وكان معاوية مولعاً بسماع الأمثال والقصص وأخبار الماضين والشعر .

والأمثال ، هي أيضاً مادة مهمة لفهم التاريخ الجاهلي . فقد تعرض جامعوها لأصل المثل ولأسبابه ، وجاؤوا بشرحهم هذه بمادة تاريخية استعينا بها على فهم مواضع من ذلك التاريخ . ولكننا يجب أن نأخذ هذه الأمثال وشرحها بمحذر . ففي أكثر الشروح تكلف وضعف ، يدلان على عدم امكان الاعتماد عليها في تكوين حكم علمي .

ونجد في الأمثال الجاهلية أمثالاً ضربت بالناس ، مثل : أنسخي من حاتم ، وأشجع من ربيعة بن مقدم ، وأدهى من قيس بن زهير ، وأعز من كلبي واثل ، وأوفي من السموأل ، وحجام سباط ، وقوس حاجب ، وغيرها . ونجد أمثالاً تمثل فيها بالبهائم ، وغير ذلك . ولكل مثل قصة تروي مشاً ضرب ذلك المثل وما وراءه من خبر . وهي تعبر عن روح الزمان الذي قيل فيه وعن نفسية الممثلين به . وكثير من الأمثال الجاهلية ما زالت دائرة على ألسنة الناس . وفي وجودها دلالة على أن الأحوال التي قيلت فيها لا تزال قائمة ، ودليل ذلك اعتبار الناس بها والاستشهاد بها في المناسبات .

١ سلسلة نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٣٧ وما بعدها) ، ( تحقيق عبد السلام هارون ) ، (القاهرة ١٩٥١م) .  
٢ نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٦٣ وما بعدها) .

وبين أمثال العرب أشعار جاهلية الأصل صارت مثلاً ، ولا يزال بعض منها حي يضرب به مثل ، لما فيه من حكمة ومن ملائمة لكل وقت وزمان<sup>١</sup>. وضرب المثل بعجز البيت أحياناً أو بجزء منه ، كما في المثل : « بعض الشر أهون من بعض » . فهو من بيت ينسب لطرفة هو :

أبا منذر أقنيت فاستيق بعضاً حنانيك بعض الشر أهون من بعض<sup>٢</sup>

ومن الأمثلة القديمة المشهورة حتى اليوم : ( آخر الدواء الكي ) ، و ( آخر الطب الكي ) ، زعم أنه من أمثلة ( لقمان بن عاد ) . وقد ذكر ( الزمخشري ) سبب ضرب ( لقمان ) له ، وأورد له كلاماً مع امرأة خانت زوجها ، وكلاماً مع زوجها وكيف عرفه فأرشده إلى خيانتها له<sup>٣</sup> . وأورد مثلاً ضرب بكثرة أكل ( لقمان ) ، هو: أكل من لقمان . وكانوا يزعمون أنه كان يتغدى بجزور ، ويتعشعى بأخرى ، ويتحلل بمحوار . وانه ضاجع امرأته يوماً ، وقد أكل جزوراً ، وأكلت فصيلاً ، فما قدر على الإفقاء إليها ، فقال : كيف أفضي إليك وبيني وبينك بغير ان<sup>٤</sup> .

ويظهر من القصص المتسبّب إليه ، أنه قد انتزع من قصص قديم ، كان معروفاً عند الجاهليين ، مروياً بينهم . فإذا أعدنا قصته المذكورة مع المرأة ، وقد رواها ( ابن الكلبي ) عن ( عوانة )<sup>٥</sup> . نجد أنها وقد غصت بالأمثلة ، وبطريقة الجاهليين في التفسير والتعليق ، مما يجعل الإنسان يرى أنها من القصص الجاهلي القديم ، الذي احتفظ بمعناه ومضمونه ، وإن صيف بلغة حاكمه .

ورروا لقس بن ساعدة اليادي ، أمثلاً ، منها : إذا خاصلت فاعدل ، وإذا قلت فاصدق ، ولا تستودعن سرك أحداً ، فإنك ان فعلت لم تزل وجلاً ، وكان بالخيار ، إن جنى عليك كنت أهلاً لذلك ، وان وفي لكَ كان المدوح

١ المستطرف ( ٣٠ / ١ ) وما بعدهما .

٢ العسكري ، جمهرة ( ٦٧ / ١ ) .

٣ الزمخشري ، المستقصي في أمثال العرب ( ٣ / ١ ) ، ( حيدر إبراد الدكن ١٩٦٢ م ) ، العسكري ، جمهرة ( ٩٧ / ١ ) ( ٤٢٦ ) .

٤ المصدر نفسه ( ص ٧ ) .

٥ العسكري ، جمهرة ( ٤٢٤ / ١ ) وما بعدهما .

دونك . وكن عف العيلة ، مشرك الغى تسد قومك . الى غير ذلك من أمثال  
نسبوها اليه <sup>١</sup> .

وفي ( كتاب الجوهرة في الأمثال ) من ( العقد الفريد ) ، باب خاص عنوانه:  
« أمثال أكثم بن صيفي ويزر جمهور الفارسي » <sup>٢</sup> . وهي تستحق الدرس والنقد ،  
لمعرفة أصولها وعلاقة هذه الأمثال بالأدبين العربي والفارسي .

ونجد في كتب الأدب طائفة من الأمثال في الأدب والحكمة ، نسبت الى  
( أكثم بن صيفي ) ، منها : رب عجلة ثعب ريثا ، وادرعوا الليل فإن الليل  
أخفى للوبل ، والمرء يعجز لا المحالة ، ولا جماعة من اختلف ، ولكل أمرىء  
سلطان على أخيه حتى يأخذ السلاح فإنه كفى بالشرفية واعظا ، وأسرع العقوبات  
عقوبة البغي ، وشر النصرة التعدي ، ورب قول أندى من صول ، والحر حر  
وإن مسه الفسر ، والعبد عبد وإن ساعده الجد ، وإذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد ،  
ورب كلام ليس فيه اكتام ، وحافظ على الصديق ولو في الحريق ، وليس من  
العدل سرعة العدل ، وليس يسير تقويم العسير ، وإذا بالفت في النصيحة هجمت  
بك على الفضيحة ، ولو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم <sup>٣</sup> .

وليس في امكان أحد اثبات ان هذه الأمثال وغيرها هي لأكثم بن صيفي حقاً ،  
وييتها أمثال انسانية عامة نجدها عند مختلف الأمم ، وييتها أمثال قيلت في اليونانية  
وفي بعض اللغات الأخرى قبل أيام ( أكثم ) بزمان طويل . إلا ان نسبة هذه  
الأمثال اليه ، تشير الى انه كان من حكماء الجاهليّة البارزين ومن ذوي الرأي  
والحكمة عند قومه .

والأمثال النابعة من صيم الحياة الإنسانية ومن التجارب العملية ، والاختبارات  
الطويلة ، تكون ذات طبيعة حكمة عامة ، فتظهر للذك عند كل الناس ، وتخرج  
على كل لسان ، فسلا يمكن أن يقال إنها من مخترعات الأمة الفلاحية ، ومن  
مبتكرات العقل الفلاني ، لأنها كما قلت خواطر إنسانية ، تنظر على بال كل

١ العسكري ، جمهرة ( ٢٤٩/١ ) ، الميداني ( ١/٧٣ ) .

٢ العقد الفريد ( ٣/٦٣ وما بعدهما ) ، ومن أمثاله : « مقتل الرجل بين فكيه » و « ربما  
أعلم فأذر » ، يزيد أنه يدع ذكر الشيء وهو به عالم لما يحذر من عاقبته ، العقد

الفريد ( ٣/٨١ ) .

٣ المزهر ( ١/٥٠١ وما بعدها ) .

شخص ، له رأي سديد ، وفکر صائب . وإن نسبت إلى شخص معين ، لذلك  
يصعب علينا إرجاع الأمثال الإنسانية العامة إلى جماعة معينة . قال ( الباحث ) :  
وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثلة سائرة ، ولم يكن  
الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والارتفاع ؛ ومدار العلم على الشاهد  
والثالث .

ومن أمثل أهل الجاهلية : إن من البيان لسحراً ، وإن الجنود قد يعثرون ، وإن البلاء موكل بالنطق ، وإن آخاً الهيجة من يسعى معلك ومن يضر نفسه ليتفعلك . وأنف في السماء وأنف في الماء . وأجع كلبك يتبعك ، واشتدي أزمة تنفرجي ، ورب رمية من غير رام ، ورب أكلة تمنع أكلات ، واستراح من لا عقل له ، وبسبق السيف العدل ، إلى غير ذلك من أمثلة .

ومن الأمثال الجاهلية الباقية حتى اليوم مثل : مواعيد عرقوب ، مثل يضرب  
لمن بعد ولا يفي . فقد ورد في شعر المتنم ، إذ قال :

الغسلر والآفات شيمته فافهم فعرقوب له مثل

## وورد فی شعر کعب بن زهر :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل

فَيَقُولُ الْأَشْجَعِيُّ : عَرْقُوبُ رَجُلٌ مِنْ خَبِيرٍ ، كَانَ يَهُودِيًّا وَكَانَ يَعْدُ وَلَا يَفِي ، فَضَرِبَتْ بِهِ الْعَرَبُ الْمُثْلَ . وَقَيْلٌ : رَجُلٌ مِنْ الْعَالَيْقِ أَتَاهُ أَخٌ لَهُ يَسْأَلُهُ فَقَالَ لَهُ عَرْقُوبٌ : إِذَا أَطْلَبْتَ هَذِهِ النَّخْلَةَ فَلَكُمْ طَلْمَهَا . فَلَمَّا أَطْلَبَتْ أَنَّاهُ لِلْعَدْدَةِ ، قَالَ : دُعَاهَا حَتَّى تَصْبِرَ بِلْحًا ، فَلَمَّا أَبْلَحَتْ قَالَ : دُعَاهَا حَتَّى تَصْبِرَ زَهْوًا ، فَلَمَّا أَزْهَتْ قَالَ : دُعَاهَا حَتَّى تَصْبِرَ رُطْبًا ، فَلَمَّا أَرْطَبَتْ قَالَ : دُعَاهَا حَتَّى تَصْبِرَ تَمْرًا ، فَلَمَّا أَتَمَرَتْ عَمِدَ إِلَيْهَا عَرْقُوبٌ مِنَ اللَّيلِ فَجَذَّهَا ، وَلَمْ يَعْطِ أَخَاهُ مِنْهُ شَيْئًا ، فَصَارَ مُثْلًا ، وَفِيهِ

وَعَدْتَ وَكَانَ الْحُكْمُ مِنْكَ سُجْيَةً مَوْاعِدَ عُرْقُوبٍ أَخْاهَ يَثْرَب

|   |
|---|
| <p>١ - البيان والتبيين (٢٧١/١) .</p> <p>٢ - المستطرف (٢٨/١ وما بعدها) .</p> |
|---|

وقال آخر :

وأكذب من عرقوب يُربّ لهجةٍ وأبن شؤماً في الخواج من زُحل١

وذكر ان اسمه ( عرقوب بن صخر ) ، أو ( عرقوب بن معبد (معيد) بن أسد ) ، رجل من العمالقة على القول الأول . قاله ابن الكلبي ، وعلى القول الثاني ، فهو رجل من (بني عبد شمس بن سعد) ، وقيل انه كان من الأوس . كان أكذب أهل زمانه ، ضربت به العرب المثل في التلطف ، فقالوا : مواعيد عرقوب<sup>٢</sup> .

ومن الأمثال القدعة : صحيفة المتلمس ، روی ان الرسول كتب كتاباً لعيينة بن حصن ، فلما أخذه ، قال : « يا محمد أتراني حاملاً إلى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس ». هي احدى الصحيحتين اللتين كتبها ( عمرو بن هند ) لطيفة والمتلمس ، الى عامله بالبحرين في إهلاكها ، وخبلها أنها كتاباً جائزة ، فنجحى المتلمس عمله على الخرم وهربه الى الشأم ، وسارت صحيفته مثلاً في كل كتاب يحمله صاحبه يرجو منه خيراً وفيه ما يسوءه<sup>٣</sup> .

ومن الأمثلة القدعة ( عنقاء مغرب ) ، والمثل به « طارت به عنقاء مُغْرِبٌ » زعموا انه طائر كان على عهد ( حنظلة بن صفوان الحميري ) نبي أهل الرس عظيم العنق ، وقيل كان في عنقه بياض ولذلك سمي عنقاء، اختطف غلاماً فأغرب به ، ولذلك سمي المغرب ، قدعا عليه حنظلة فرمى بصاعقة . وقد ذكر المثل في الشعر<sup>٤</sup> .

ومن الأمثال الجاهلية الحية التي لا تزال ترزق ، المثل : « تسمع بالمعيدي خيراً من أن تراه » . يضرب مثلاً ملن بخبره خير من مرآه . ذكر (ابن الكلبي) ان هذا المثل ضُرب ( للصقعب بن عمرو ) النهدي . قاله له التعبان بن المتنر . وقال (المفضل) : المثل للمتنر بن ماء السماء ، قاله لشقة بن ضمرة سمع بذلكه ، فلما رأه افتحمته عينه فقال : تسمع بالمعيدي خيراً من أن تراه ، فأرسلها مثلاً

١ المزهر (٤٩٤/١) وما بعدها .

٢ تاج العروس (١/٣٧٨) ، (عرقب) .

٣ الفائق (٢/١٣) .

٤ الزمخشري ، المستقصي (٢/١٥٠) .

فقال : له شقة : أبىت اللعن ! إن الرجال ليسوا بمحزر يراد منهم الأجسام ، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فذهب مثلاً ، وأعجب المنذر بما رأى من عقله وبيانه ، ثم سماه باسم أبيه فقال : أنت ضمرة بن ضمرة . وقيل إن المثل للنعمان ابن المنذر ، قاله لشقة بن ضمرة<sup>١</sup> .

وقد أورد ( ابن الكلبي ) قصة تأريخ المثل على هذا النحو : قال : وفد ( الصقعب بن عمرو ) النهدي في عشرة من ( بني هند ) على ( النعمان بن المنذر ) وكان ( الصقعب ) رجلاً قصيراً دمياً تقتصره العين ، شريفاً بعيد الصوت ، وكان قد بلغ النعمان حديثه ، فلما أخبر النعمان بهم قال للأذن : إلذن للصقعب ، فنظر الأذن إلى أعظمهم وأجملهم ، فقال : أنت أنت الصقعب ؟ قال : لا . فقال : الذي يليه في العظم والميئنة : أنت هو : فقال : لا . فاستحيى فقال : أيكم الصقعب ؟ فقال الصقعب : هأنذا ! فأدخله إلى النعمان ، فلما رأه قال : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ! فقال الصقعب : أبىت اللعن ! إن الرجال ليسوا بالمسوك يستنقى فيها ، إنما الرجل بأصغريه بلسانه وقلبه ، إن قاتل قاتل بجنان ، وإن نطق نطق بيان . فقال له النعمان : فله أبوك ! ثم سأله أسئلة امتحنه بها ، ليرى عقله ، فكان يحييه أحسن جواب . فقال له النعمان : أنت أنت ! فأشحن صلته وصلة أصحابه<sup>٢</sup> .

وينسب المثل : « ألوى بعید المستمر » ، إلى ( النعمان بن المنذر ) ، وأخرجه ( طفیل الغنوی ) فأدخله شعره<sup>٣</sup> . ومن الأمثلة الشهيرة القديمة قوله : « على أهلها جنت برافقش » ، يضرب مثلاً للرجل يملك قومه بسيبه<sup>٤</sup> .

وينسب المثل : « إن الشقي وافق البراجم » لعمرو بن هند ، ملك الحيرة ، حلف ليقتلن مائة من نعم ، فقتل تسعة وتسعين رجلاً منهم إحراقاً بالنار ، وبقي واحد ، فلما دنا رجل من البراجم من الملك ، وسأله عن أهله ، فقال : من

١ الخزانة ( ١٥١/١ ) ، ( بولاق ) .

٢ المزهر ( ٤٩٥/١ ) وما بعدها ، العمدة ( ٢٨٥/١ ) .

٣ الفيتني ألوى بعید المستمر أحمل ما حملت من خير وشر العسكري ، جمهرة ( ٣٢/١ ) وما بعدها ) .

٤ العمدة ( ٢٨٥/١ ) .

البراجم ، قال : إن الشقي وافق البراجم ، وأمر به فألقى في النار<sup>١</sup> .

ومن الأمثال المشهورة قوله : « عند جهينة الخبر اليقين » . وقيل : « عند جهينة الخبر اليقين » ( حُفْيَة ) . وكان من حديثه أن ( حصين بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن كلاب ) خرج، ومعه رجل من ( جهينة ) يقال له ( الأَخْنَسْ ) فنزل متزلاً ، فقام الجهني إلى الكلابي فقتلته ، وأخذ ماله ، وكانت أخته ( صخرة ) بنت ( عمرو ) تبكيه في الموسم ، وتسأله عنده فلا تجد من يخبرها ، فقال الأخنس فيها :

كصخرة إذ تسائل في مراح وفي جررمٍ وعلمها ظنونٌ  
تسائل عن حصينٍ كل ركبٍ وعن جهينة الخبر اليقين<sup>٢</sup>

ومن أمثلهم المشهورة قوله : بمثل جارية فلتزن الزانية ، وذلك أن ( جارية بنت سليمان بن الحارث بن يربوع بن حنظلة ) كان أحسن الناس وجهًا وأ美德هم قامة ، وأنى سوق عُكاظ فأبصرته فتاة من خشم فأعجبها فلطفت له ، حتى وقع عليها ، فعلقت منه ، فلما ولدت أقبلت هي وأمها وخالتها تلتسمه بعكاظ ، فلما رأته الفتاة قالت : هذا جارية ! فقالت أمها : بمثل جارية فلتزن الزانية سرًا أو علانية ، فذهب مثلًا<sup>٣</sup> .

ونسب المثل : « أرسل حكيمًا ولا توصه » إلى ( الزبير بن عبد المطلب)<sup>٤</sup> ، ونسب المثل « استنوف الحمل » لطرفة بن العبد<sup>٥</sup> . ومن الأمثلة القديمة : « على أهلها دلت براقيش » ، و « عشن رجباً تر عجبًا »<sup>٦</sup> ، و « العصا من العصبة » و « أعز من كليب وائل » ، و « أعز من بيسن الأنوق » و « أعز من

١ المسكري ، جمهرة ( ١٢١/١ ) ، ( يذكر ٩٨ شخصاً ، ثم يتم العدد ، بذكر هذا الرجل ، ثم أكمله بالعمراء بنت خمرة ، حيث أحيرتها ، وتحلل من يعيشه ، وتذكر الموارد الأخرى خلافه . وقد تحدثت عن هذا المثل ) .

٢ المزهر ( ٤٩٨/١ وما بعدها ) ، المسكري ، جمهرة ( ٤٤/٢ ) .  
٣ المزهر ( ٤٩٩/١ ) .

٤ المسكري ، جمهرة ( ٩٨/١ ) .

٥ المسكري ، جمهرة ( ٥٤/١ ) ، الأغاني ( ١٣٢/١ ) ، الشعر والشعراء ( ١٣٥/١ )  
المسكري ، جمهرة ( ٥٢/٢ وما بعدها ) ، الميداني ( ٣١٠/١ ) ، الحيوان ( ٢٦٠/١ ) ، العقد الفريد ( ٥٤/٣ ) .

الغراب الأعمى » ، و « أنصف القارة من راماها ». والمثل : « أرسل حكماً ولا توصه » ، هو في الواقع مثل قديم ، لا بد وأن يكون قد وضع في العربية ، قبل أيام (الزبير) ، إذ ينسب إلى الحكم (أحريقار) ، وربما نقل من السريان إلى العرب .

وقد ضرب المثل بشخصيات جاهلية ، تركت أثراً في أيامها ، فضرب بها المثل . مثل : « أبلغ من قس » ، ويراد به قس بن ساعدة الخطيب الشهير ، وأعيا من باقل . وهو رجل من إباد ، وقيل من ربعة . اشتري ظبياً بأحد عشر درهماً ، فرّ بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبي ؟ فنَدَ يديه وأخرج لسانه يريد أحد عشر ، فشدّ الظبي حين مد يديه ، وكان تحت ابطيه<sup>١</sup> . وضرب المثل بيعمل مادر ، قليل : أدخل من مادر ، وبفصاحة سجان ، قليل : أخطب من سجان ، وهو القائل :

لقد علم الحي اليانون أني اذا قلت أما بعد أني خطيبها<sup>٢</sup>

وضرب الجاهليون الأمثال بكل ما وجدوه حوصلة من حيوان ومن نبات وصخور ، ولذا نجد على أمثلهم طابع محيطهم ، فالحيوان الذي ضربوا به المثل ، هو من حيوان جزيرة العرب ، ومن النوع المألوف عندهم ، مثل الضب والجنة والعتر والإبل وما إلى ذلك . ومن هنا اختلفت أمثلة الأعراب أهل الباية عن أمثلة الحضر ، أهل المبر ، لاختلاف طبيعة الباية عن طبيعة الريف ، ولو وجود أشياء في أحدهما يندر وجودها في المحيط الآخر .

وفي شعر (عندي بن زيد) العبادي أمثلة كثيرة ، تميز شعره عن شعر بقية الشعراء الجahلين . ولو درسنا شعره ، نجد أن فيه ما يشير إلى مواعظ ترد في النصرانية كما ترد على خاطر كل إنسان يصاب بذمة ، فتهز مشاعره فتجعله ينظر إلى الدنيا نظرة زاهد فيها ، ولا استبعد احتمال تأثيره بالكتب التي كان قد وقف عليها ، فقد كان نصرانياً ( وقدقرأ كتب العرب والقرن )<sup>٣</sup> . ولم يذكر أهل

١ المزهر (٥٠٣/١) .

٢ المزهر (٥٠٤/١) .

٣ الطبرى (١٩٣/٢) ، (دار المعارف) .

الأنباء شيئاً عن ( كتب العرب ) ، هل أريد بها كتب دينية وضعت في العربية ، أم قصد بها كتب في القصص والأمثال وفي الشعر والأنباء وما شابه ذلك ، ولعلهم أرادوا بكتب الفرس ، الكتب التي تبحث عن قصص ملوكهم . وقد ترجم قسم منها في الإسلام ، وقصص الأساطير . وقد رأينا أنها كانت معروفة عند العرب وان ( النضر ) كان يقص منها لأهل مكة ، وكانوا يسمونها الأساطير . ونجد في شعر الشعراء الآخرين أمثلة عديدة دخلت شعرهم ، أخذوها من المثل السائرك ، ومن الحكم التي كانت شائعة في أيامهم ، أو من القصص ، أو من مبتكراهم ومخترعاتهم ، ولا تزال بعض الأمثال الشعرية حية ترزق ، يضرب بها الناس المثل فيما يريدون التمثيل به .

ومن الموارد التي أمدت الأدب الجاهلي بالمثل ، الكهان ، وكلام الكهان قصیر مسجع يميل الى الرمز والألغاز ، يتتجنب الصراحة ، لتكون فيه قابلية التفسير والتأويل واعطاء كثير من الاحتمالات ، وذلك لما تقتضيه طبيعة الكهانة من تأويل التكهن حسب الأحوال والمناسبات . ونجد في كتب الأدب أمثلة عديدة منسوبة الى هؤلاء الكهان . ولما كان كلامهم مسجوعاً ، قيل له : « سجع الكهان » . وقد جاء في الحديث النبوى : « هذا من سجع الكهان »<sup>١</sup> . وفي الكهان جماعة من الكاهنات ، عرفن بالتكهن ، مثل : الشعثاء الكاهنة ، وطريفة ، وينذرون أنها هي التي أنثرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه ، وأخبرته بخراب سد مأرب<sup>٢</sup> ، وزبراء الكاهنة<sup>٣</sup> ، وسلمي الهمدانية الحميرية<sup>٤</sup> ، وعفراء الكاهنة الحميرية<sup>٥</sup> ، وفاطمة بنت مر الخعمية ، وقد ذكروا أنها كانت قد قرأت الكتب<sup>٦</sup> :

ومن الأمثلة الواردة في كتب الأدب : « إن العصا من العصبة » ، وهو مثل ينسب الى ( الأفعى الجرهي ) ، وهو من الكهان . قاله لما احتمك اليه أولاد ( نزار ) بمدينة النجران<sup>٧</sup> . و « الصيف ضيغت اللbn » ، وأول من قاله ( عمرو

- |   |                                 |
|---|---------------------------------|
| ١ | بلغ الارب ( ٢٧٢/٣ ) .           |
| ٢ | بلغ الارب ( ٢٨٣/٣ وما بعدها ) . |
| ٣ | بلغ الارب ( ٢٨٨/٣ وما بعدها ) . |
| ٤ | بلغ الارب ( ٢٩٥/٣ وما بعدها ) . |
| ٥ | بلغ الارب ( ٢٩٦/٣ وما بعدها ) . |
| ٦ | بلغ الارب ( ٣٠٥/٣ وما بعدها ) . |
| ٧ | نهاية الارب ( ٧/٣ وما بعدها ) . |

ابن عدس)<sup>١</sup> ، والمثل « أوسعتهم سبأ وأودوا باللابل » وينسب الى ( كعب بن زهير بن أبي سلمى )<sup>٢</sup> ، والمثل « ان الشقي وافد البراجم »<sup>٣</sup> . الى غير ذلك من أمثلة تجدها في كتاب الأمثال والأدب . ولا يزال بعضها حياً يتمثل الناس به . وبعض منه يرد على لسان كل إنسان . أي أمثلة تنطبق على كل البشر ، لأنها صادرة من نفس انسانية عامة ، فلا تعدّ من الأمثلة المحلية أو القومية ، أي أمثلة نبتت من حيّط أمة معينة . لذلك تجد لها شبيهاً عند أمم أخرى . ولا نستطيع أن نقول إن الأمة أخذتها من تلك .

- ١ نهاية الارب ( ١٣/٣ وما بعدها ) .
- ٢ نهاية الارب ( ١٧/٣ ) .
- ٣ نهاية الارب ( ١٨/٣ ) .

## الفصل الثامن والعشرون بعد المئة

### القصص

والقصص ، مظهر من مظاهر الفكر الجاهلي ، أشير اليه في القرآن الكريم ، وكان شائعاً عند الجاهليين . و دراسته تمكن الدارس من تحليل عقلية صاحب القصص ، وفهم عقلية الزمن الذي شاع فيه . وقد ورد في المؤلفات الإسلامية شيء منه ، وفي بعضه ملامح يمكن ارجاعها الى عناصر أعمجية : دينية ، وغير دينية ، تسرب الى الجاهليين من اتصالهم بالأعاجم ، واتصال الأعاجم بهم .

والقص البیان ، والقاص من يأتي بالقصة على وجهها ، كأنه يتبع معانيها وأفاظها . وقيل : القاص يقص القصص لأنباءه ، خبراً بعد خبر وسوقة الكلام سوقة . وقد كان القص شائعاً متفشياً بين الجاهليين والاسلميين ، وكانوا يقبلون عليه اقبالاً شديداً ، ومن هنا ورد في الحديث « انبني اسرائيل لما قصوا هلكوا . وفي رواية لما هلكوا قصوا ، أي اتكلوا على القول وتركوا العمل ، فكان ذلك سبب هلاكهم ، أو بالعكس ، لما هلكوا ترك العمل أخلدوا الى القصص »<sup>١</sup> . ولما نزل القرآن : « قالوا : يا رسول الله : لو قصصت علينا ، قال : فنزلت : نحن نقص عليك أحسن القصص »<sup>٢</sup> . وذكر ان أصحاب رسول الله سأله أن يقص عليهم ، فنزل : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ،

١ تاج العروس (٤٤٢/٤) ، (قصص) .

٢ سورة يوسف ، الآية ٣ ، تفسير الطبرى (٩٠/١٢) .

« من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم » . وورد أنهم قالوا له : « يا رسول الله ! حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص » فأنزل الله الآية المذكورة<sup>١</sup> . وفي هذا الالاحاج على الرسول بأن يقص عليهم ، دلالة على مدى حب المخالفين واعجابهم بالقصص .

وللمخالفين غابات من الاسباب الى القصص ، منها : العبرة والاتعاظ . والى ذلك أشير في القرآن الكريم : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب »<sup>٢</sup> . وقد كان في مكة وفي غيرها قوم يقصون على الناس ويعظونهم ، ولما جاء الإسلام كانوا على عادتهم يقصون لإثارة العقول الى آنباء الماضين وأخبار السالفين ، وإثارة تفكيرهم في الكون وفي الخلق وفي شؤون الحياة ، كالذى يظهر من القرآن الكريم : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »<sup>٣</sup> و « نحن نقص عليك أحسن القصص »<sup>٤</sup> و « تلك القرى نقص عليك من آنبائها »<sup>٥</sup> . ويدخل في هذا النوع القصص الذي يدخلونه في باب (الحكمة) ، ومعناه القصص التعليمي ، الذي يتعظ به ، ويستفاد منه ، إذ يعد دروساً تعلم الإنسان في حياته وترسله الى النجاح ، ويشمل قصص الماضين ، ما قاموا به من خير ، وما عملوا في أيامهم من شر ، فأصحابهم من أجله هلاك وسوء المصير ، وقصص الأشخاص ، أما القصص المروي على السنة الحيوانات على نمط قصص (كليلة ودمنة) ؛ فإننا لا نجد منه مادة غزيرة في القصص المروي عن المخالفين ، وهو قليل المادة أيضاً في الأدب الإسلامي ولا سيما في القصص الطويل . وقد نجد بقايا قصص على السنة الحيوانات مرويأ في كتب الأدب ، لكنه من النوع القصير الذي لا يمثل نفساً طويلاً في القص . وأغلبظن انه متزع من قصص قديم ، فقد طوله ، بسبب قدمه ، فبقيت منه هذه البقايا .

ومن أبواب القصص ، المقال على السنة الحيوانات ، كالقصص المقال على لسان (النعامة) ، من أنها ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين . والقصص

- ١ تفسير الطبرى (٩٠/١٢) .
- ٢ يوسف ، الآية ١١١ .
- ٣ الاعراف ، الآية ١٧٦ .
- ٤ يوسف ، الآية ٣ .
- ٥ الاعراف ، الآية ١٠١ .

الذى وضعوه عن الغراب ، وعن الصدق ، والمدهد ، والمدىل ، وغير ذلك مما يميل إليه العامة بصورة خاصة ، لما يتركه من أثر في نفوسهم<sup>١</sup> .

ومن القصص ، قصص الملوك والأبطال وسادات القبائل والأيام ، ويلعب قصص الأيام الدور الأول في هذا القصص ، ملأه من أثر في العصبية . وكان هذا القصص من أحب القصص إلى نفوسهم ، وقد زوق ونمط ، وتولى قصبه قصاصون كانت لهم مواهب خاصة وقابلية على القص والتأثير في النقوس ، وكان أصحاب الرسول حين يتسامرون يتناشدون الشعر ويتذاكرون الأيام ، جرياً على سنتهم في الجاهلية ، وقد استمر هذا القصص إلى عهد قريب ، ولا زال معروفاً في القرى وفي بعض الأقطار العربية ، لا سيما في أيام رمضان ، حيث تقرأ قصص أبو زيد الملالي وقصة عنترة وغيرها في المقاهي ، يقرأها قصاصون متخصصون بأسلوب مؤثر جذاب ، يتلاعبون به في عقول السامعين ، ويشرون فيهم الحماس ، ينصلتون بكل خشوع إلى صوت القاص ، يرددون منه سماع المزيد من الأخبار .

وفي قصص أهل الأخبار النسوب إلى الجاهلية ، قصص عن الأسفار وعن مشقات السفر وعن الأهوال التي كان يلاقيها المسافرون في ذلك العهد من الجن والسعالي والغيلان ، وقد رصع بأبيات من الشعر وبقصائد أحياناً ، في وصف تلك المخلوقات الرهيبة المفزعية ، ولم ينس بعض هذا القصص من ايراد شعر لها في محاجرة الأشخاص الذين تعرضوا لها ، تجده في الجن والسعالي والغيلان، تنظم الشعر بلسان عربي مبين ، وتحبيب فيه الشعرا بشعر مثل شعرهم ، قد تظهر رقة وأدباً فيه ، مع ما عرف عن هذه القوى من الميل إلى الأذى والشر .

وفي قصصهم قصص له أصل تأريخي ، لكنه لم يحافظ على نقاوته وأصله ، وإنما غلب عليه عنصر الخيال فحوّله إلى أسطورة ، رصعت بالشعر في الغالب ، وبالجنس ، لتشير الغرائز ، فتقبل الأنفس على سماعها ، ومن هذا القبيل قصص طسم وجديس<sup>٢</sup> ، وقصص الزباء ، والتبايعة ، والأقوام الغابرة ، حيث تجد قصصهم في كتب الأخبار والأدب .

وفي أبواب القصص ، باب للمجون والخلاعة ، وأحاديث الهوى والتشبب .

---

١ فجر الاسلام (٦٦) ، (١٩٦٥ م) .  
٢ المحسن والاضداد (١٣٨) .

وهو باب يقدم على سماعه الشبان ، طلاب هذا الفن في هذا الدور من أدوار الحياة ، أما الشبيبة ومن تقدمت بهم السن ، فإن الجنس ، يكون قد ابتعد عنهم وتركهم في الغالب ، وما تمسكهم به وهم في أرذل العمر ، إلا من باب التذكر ب أيام الزمان ، وذكريات الشباب ، لطريقة العمر ، والترويح عن كربة التقدم في السن .

والقاص من الشخصيات المحبية إلى نفوس الجاهلين ، يقص على أبناء جبهة القصص المسلية ، مستمدًا مادته من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم ، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتاريخية المأثورة عن العرب، أو عن جاورهم . ومن ذلك قصص الأقوام القديمة التي بقيت ذكرياتها في أذهان الجاهلين ، وقصص الملوك مثل الزباء ، التي كيفت قصتها ، وابتعدت عن التاريخ وقصص جذمة الأبرش ، وقصير ، وعمرو بن عدي ، والتبايعة وغير ذلك من قصص ، له أصل تأريخي ، لكنه تغير وتبدل حتى صار من الأساطير . وهو يصلح أن يكون اليوم موضوع دراسة خاصة للوقوف على مقدار عناصر الابتكار وال الخيال فيه ، ومقدار التحوير الذي ألمَ به ، وسيبه ومن أدخله عليه من جاهلين أو مسلمين .

وقصص النوادر والنكبات من القصص المعروفة عند أهل الجاهلية . وقد اتخذ الملوك والأشراف لهم نداء عرفاً يبلغاتهم في قول الملح والنواود والأمور الغريبة المضحكة ، حتى اشتهر أمرهم بين الناس ، وحتى بالغ الناس في نسبة النوادر إليهم ، وحوّلوا بعضهم إلى شخصيات أسطورية ، من كثرة ما تقولوا عليهم وما نسبوه إليهم . ومنهم من سجلت كتب أهل الأخبار والأدب أسماءهم ، لما حصلوا عليه من شهرة بين الناس في أيامهم . منهم (سعد) المعروف بـ (سعد القرقرة) هازل (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، كان يضحك منه<sup>١</sup> . ذكر أنه كان من أهل (هجر) ، فدعا النعمان بفرسه اليحوم ، وقال له : اركبه وأطلب الوحش ، فقال سعد اذن والله أصرع . فأبى النعمان إلا أن يركبه . فلما ركب سعد نظر إلى بعض ولده قال : واباى وجهي البشامى ، ثم قال : نحن بغرس السوديِّ أعلمنا متى بركس الجناد في السدف<sup>٢</sup>

١ تاج المرروس (٣/٤٨٩)، (قرر) .  
٢ تاج المرروس (٦/١٣٦)، (سدف) .

وفيه قال الشاعر ( أبو قردة ) ، وكان ( سعد القرقرة ) قد أكل عند النهان بن المنذر مسلوخاً بعظامه :

بن النعامٍ وبين الكلب منبه وفي الذئب له ظهر وأخوال<sup>١</sup>

ومنهم ( النعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحرش ) من (بني التجار) من يُربّ ، المتوفى في أيام ( معاوية ) . كان هازلاًً ومازحاً لطيفاً . ذكر أنه كان لا يدخل المدينة طرفة إلا أشرى منها ثم جاء بها إلى النبي ، فيقول لها أهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بشمنها أحضره إلى النبي ، وقال : اعط هذا ثمن متعاه ، فيقول : ألم تهده لي ! فيقول : إنه والله لم يكن عندي ثمنه ولقد أحبيت أن تأكله ، فيصحيحه ويأمر لصاحبها بشمنه . ودخل أعرابي على النبي ، وأناخ ناقته بفنائه ، فقال بعض الصحابة للنعمان لو عقرتها فأكلناها ، فإنما قد فرمنا إلى اللحم . فعل . فخرج الأعرابي وصاح واعقراه يا محمد ! فخرج النبي ، فقال : من فعل هذا ؟ فقالوا النعيمان فاتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب واستخفى تحت سرب لها فوقه جريداً . فأشار رجل إلى النبي حيث هو فأنحرجه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلوك على يا رسول الله ، هم الذين أمروني بذلك . فجعل يمسح التراب عن وجهه ويصحيحه ، ثم غرمها للأعرابي . وروي أن ( خرمة بن نوفل ) كان قد كبر وقد عمي ، فقام في المسجد يريد أن يبول ، فصاحت به الناس المسجد المسجد ! فأخذ نعيمان بيده وتحى به ، ثم أجلسه في ناحية أخرى من المسجد فقال له : بل ه هنا . فصاحت به الناس . قال : أما إن الله على إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت . فبلغ ذلك نعيمان . فكث ما شاء الله ، ثم أتاه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد . فقال لمحرقه : هل لك في نعيمان . قال : نعم . فأخذ بيده حتى أوقفه على عثمان ، وكان إذا صلى لا يلتفت . فقال : دونك هذا نعيمان فجمع يده بعصاه فضرب عثمان فشجه ، فصالحوا به ضربت أمير المؤمنين<sup>٢</sup> .

١ـ الحيوان ( ١٤٧ / ١ ) ٠

٢ـ الاصابة ( ٣ / ٥٤٠ ) ، ( رقم ٨٧٩٠ ) ٠

وروي ان (أبا بكر) خرج تاجراً الى (بصري) ومعه (نعمان) و (سوبيط ابن حرملة) ، وكان (سوبيط) على الزاد ، فجاءه (نعمان) ، فقال : أطعمني . فقال : لا، حتى يجيء (أبو بكر) ، فقال : لأنّي غائبتك ، فذهب الى ناس جلبوا ظهراً . فقال : ابتعوا مني غلاماً عريباً فارهاً ، وهو ذو لسان ولعله يقول أنا حر ، فإن كنتم تاركيم للذك فدعوه لا تفسدوا عليّ غلامي . فقالوا : بل نتبعه منك عشر قلائص ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا . فجاء القوم . فقالوا : قد اشتربناك ، فقال سوبيط : هو كاذب أنا رجل حر . قالوا : قد أخبرنا بخبرك ، فطرحوا الجبل في رقبته فذهبوا به . وجاء أبو بكر ، فأخبر . فذهب هو وأصحاب له فرداً القلائص وأخلدوه . فضحك النبي وأصحابه من ذلك حولاً<sup>١</sup> .

وبعض القصص الشائع المتواتر عن الجاهليين ، مثل قصة يومي البوس والنعيم ، وقصة (شريك) مع الملك (المندر) ، وقصة (سinar) وأمثال ذلك ، قصص وان اقتنى بأسماء جاهلية ، إلا ان أصوله غير عربية ، دخلت العرب من متابع خارجية ، من متابع يونانية وفارسية ، ونصرانية ، وهو أيضاً من القصص الوارد عند شعوب أخرى ، بدليل وجود شبه ومثيل له في أساطير الأعاجم ، وفي حكايات النصارى<sup>٢</sup> .

وقاص ذلك اليوم ، هو أديب الحي ، وأديب القوم ، وهو لا بد أن يكون من أصحاب المawahب والقطنة، ومن رزق موهبة التأثير على القلوب بفضل ما رزق من حسن عرض الكلام وتخريج القصص ، وتنسيقها . واظهار الأدوار البارزة للأبطال ، وعرضها بأسلوب مشوق مرغب ، تنسى السامع كل شيء إلا تتبع الحكاية . ولا بد وأن يملئ الفاقص قصصه بداخل شيء من الشعر فيها ، لا سيما شعر الفرسان والحروب والمغامرات .

ولا نعرف من أسماء قصاص الجاهلية أسماء كثيرة، وأشهر اسم نعرفه هو اسم (النضر بن الحارث بن علقة بن كلدة بن عبد مناف) . (النضر بن الحارث

١ الاستيعاب (٥٤٣/٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ فجر الاسلام (٦٧) ، (١٩٦٥ م) .

ابن كلدة بن علقة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي<sup>١</sup> ، وكان من (شياطين قريش) ، أي أذكيائهم ، ومن يؤذون الرسول ، وكان يحدث قريشاً بأحاديث رسم واستندiar وما تعلم في بلاد فارس من أخبارهم<sup>٢</sup> ، ويزعم أن في استطاعته أن يأتي بمثل ما أتى به الرسول من أمر القرآن ، فأشير إليه في الآية : « ومن أظلم من افترى على الله كذباً ، أو قال أوحى لِمَّا لم يوح اليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله»<sup>٣</sup> ، وذكر أن كل ما ذكر في القرآن من (الأساطير) ، فإنما قصد به (النصر) ، وقد نزلت في حقه ثمانية آيات<sup>٤</sup> ، تدل على أنه كان يتحدى الرسول وبخاصمه ويقول في القرآن أنه من صنع محمد ، وكان يأتي بقصص يزعم أنه يضاهيه بها كتاب الله . وقد أرسلته قريش مع (عقبة بن أبي معيط) إلى يهود (يُرب) ليأخذنا منهم من أمور التوراة والدين ما يجادلا به الرسول ، فعلموا بما يجب أن يسألوا به ، فجاءوا سالاً الرسول وحاججه ، وقد أشير إلى هذه المحاججة في القرآن<sup>٥</sup> .

وقد أمر الرسول بقتل (النصر) ، فقتله (علي) وهو بالصفراء ، فقالت فيه (ليل) ابنته ، أو (قتيلة) ابنته ، وهي ابنته في رواية ، أو أخته في رواية أخرى ، شرعاً تبكيه وتتوজع فيه على قتله . أوله :

يا راكباً ان الأئل مظنة من صُبْح خامسة وأنت موقف  
أبلغ بها ميئتاً بأن قصيدة ما ان تزال بها الركائب تخفق  
فليسمع النصر ال ناديه إن كان يسمع ميت لا ينطق  
ظللت سيفبني أبيه تنوشه الله أرحام هناك تشدق  
قسرأ يقاد الى المنيمة متبعاً رَسْفَ المقيد وهو عان موثق  
أحمد هـا أنت ضئـنْ نجيبة في قومها والفحـل فـحل مـعرق

١ الاشتقاء (٩٩) ، كتاب نسب قريش (٢٥٥) ، ابن هشام (١٨٨/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .

٢ الروض الانف (١٨٨/١) .

٣ الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ٩٣ ، الروض الانف (١٨٩/١) ، ابن هشام (١٨٩/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .

٤ ابن هشام (١٩٠/١) ، (حاشية على الروض) .

٥ ابن هشام (١٩٠/١) ، (حاشية على الروض) .

ما كان ضرك لو متنت وربما من الفتى وهو المغفظ المُحتق  
فالضر أقرب من تركت قرابة وأحقهم إن كان عشق يعتق<sup>١</sup>

وورد اسم رجل أدخل لل المسلمين القصص الديني ، هو (تميم بن أوس بن خارجة ) الداري<sup>٢</sup> ، ذكر أنه أسلم سنة تسع من الهجرة ، وأنه كان نصرانياً ، وأنه لقي النبي ، فقص عليه قصة الجساسة والدجال . وذكر أنه كان يزهب وبذلك مسلك رجال الرهبانية حتى بعد إسلامه ، وأنه استأذن الخليفة (عمر) أو الخليفة (عثمان) في أن يذكر الناس في يوم الجمعة ، فأذن له ، فكان يقرئ في مسجد الرسول . وكان بذلك أول من قص في الإسلام . وروي أنه أول من أمر بالسراج في المسجد<sup>٣</sup> . وكان قد قدم مع أخيه (نعميم) الداري في وفد الداريين على الرسول منتصراً من تبوك<sup>٤</sup> . وكان مقامه في الشام ، وربما وضع القصص على اسمه<sup>٥</sup> .

وهذا النوع من التذكير والوعظ والارشاد القائم على الترغيب والترهيب بذلك أساطير الأولين والقصص والحكايات والغرائب والعجائب والقصص المتعلقة بالحيوانات أو المدون على ألسنتها، هو نوع من الوعظ الذي كان يقوم به رجال الدين اليهود والنصارى في تهذيب أبناء دينهم وفي ارشادهم إلى سواء السبيل، على نحو ما كانوا يتخيلونه ويتصورونه . ومن مدرستهم في الوعظ ، تعلم صاحبنا تميم علمه هذا على ما يظهر .

ويُمكن الوقوف على طبيعة قصص (تميم) ونوعيته وعلى درجة ثقافته ومقدار عقليته بالرجوع إلى ما نسب إليه من قصص ، وما ورد على لسانه من وعظ . ولكتنا لا نجد في الكتب مادة من قصصه تكفي للحكم بوجوبها على نوعيته . ولكننا

١ البيان (٤٣/٤ وما بعدها) ، الحصري ، زهر الاداب (٢٧/١) ، الاغانى (٩/١) ، العلقة (٣٠/١) .

٢ تميم بن أوس بن حارثة ، وقيل خارجة بن سود ، وقيل سواد بن جذيمة بن دراع ابن عدى بن الدار ، أبو رقية الداري ، الاصابة (١٨٦/١) ، (رقم ٨٣٧) .

٣ الاصابة (١٩١/١) ، أسد الغابة (٢١٥/٢) ، ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١) ، (رقم ٥٣٦/٣) ، صحيح مسلم ، شرح الترمذى ، (٤٢٠/٥) وما بعدها .

٤ مسالك الابصار (١٧٢/١) ، البخلاء (٣١٣) .

The Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. XIX, No. 3-4, (1941).

لا نستبعد أن يكون قد خلط بين القصص النصراني وبين الأساطير العربية . فقد كان نصرانياً ، يسمع أقوال وعاظ الكنائس ، فتعلم منهم ، وطبق ما تعلم في الإسلام .

وذكروا أن ( الأسود بن سريع بن حمير ) بن عبادة بن التزال التميمي السعدي ، كان قاصاً ، وكان شاعراً مشهوراً ، وهو من الصحابة ، وكان أول من قص في مسجد البصرة . قبل أنه مات سنة اثنين وأربعين<sup>١</sup> . ولعله كان من النصارى كذلك .

ويجب أن نشير إلى قاص آخر هو ( عبيد بن شريعة الجرهمي ) ، وإن كان من المتأخرین . فقد كان في أيام ( معاوية ) ، وقد كان من الملذمين له . وكان الخليفة يحنّ إليه ، ويتلذذ بسماع قصصه عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسب تبليل الألسنة ، وأمر افراق الناس في البلاد . وهو شخص لا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وذكر ( ابن التيم ) أنه عاش إلى أيام ( عبد الملك بن مروان ) ، وأن معاوية أمر غلمانه بتدوين ما كان يقصه وينسب إليه . وله من الكتب : كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين<sup>٢</sup> .

---

١- الاصابة ( ١/٥٩ وما بعدها ) ، ( رقم ١٦١ ) ، الاستيعاب ( ١/٧٢ ) ، البيان والتبين ( ١/٦٧ ) .

٢- الفهرست ( ص ١٣٨ ) .

## الفصل التاسع والعشرون بعد المئة

### الطب والبيطرة

والطب من العلوم المطلوبة في كل زمان ومكان ، لما له من صلة بحياة الإنسان. ولعله اللغة آراء في معنى (الطب) وقد ذكروا أن من المجاز : الطب بمعنى السحر ، قال ابن الأستاذ :

ألا من مبلغ حسان عني أطب كان داوزك أم جنون<sup>١</sup>

فوجدوا أن بين الطب والسحر صلة . وهو تعبير عن مداواة الأمراض في السابق بالسحر ، فقد كان الساحر طيباً ، يداوي المرض ويشفى المريض بسحره، وكذلك كان الكهان يداوون المرضى ، ولا زال الناس يعتقدون بأثر السحر في مداواة المرض ، فيراجعون من يدعي العلم بالسحر لـليل الشفاء<sup>٢</sup> .

وكان الطب ، في ذلك الزمان ، شرف ، فللطبيب مكانة كبيرة عند الجاهلين. قال (المتنبي) في حديثه عن زهير بن جناب : « كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وواحدهم إلى الملوك ، وطبيبهم . والطب في ذلك الزمان

١ وورد : « أسحر كان طبك » ، تاج العروس (٣٥١/١) ، (طب) .

٢ ارشاد الساري (٣٦٠/٨) .

شرف ، وحازى قومه ، والهزارة الكهان »<sup>١</sup> . فهو قد جمع خللاً كثيرة . وفي جملتها الطب والكهانة . وقد كان الكهان يداوون المرضى ، فكان كهنة مصر يعالجون المرضى ويطيبونهم ، لاعتقادهم ان الأمراض هي من الآلهة ، تنصيب الإنسان فلا تشفيه منها إلا التوصلات اليها باشفائه ، وحيث ان المقربين اليها هم الكهنة ، لذلك جأ المرضى اليهم لاشفائهم . ونجد في النصوص العربية الجنوبيّة توصلات كثيرة وتضرعات الى الآلهة ، لأنّ عنّ على المتسولين اليها بالصحة والعافية ، وبالشفاء من الأمراض التي نزلت بهم ، وأن تحميهم من الأوبئة التي تفشت بين الناس ، فأخذت تبتعد عنهم .

ولا بد وأن يكون السحر والخزاة والكهنة في الجاهلية ، هم الذين مارسوا الطب ، وعالجو المرضى ، بالسحر وبالادعية ، أو بالأدوية التي أخذوها عن سبّهم ومن تجربتهم الخاصة . ونحن نأسف لأن نقول إن النصوص الجاهليّة لم تعطنا حتى الآن نصوصاً طيبة ، أو نصوصاً فيها وصفات أدوية الشفاء من الأمراض .

والطب ، هو من فروع العلم المحظوظة بالنسبة الى فروع العلم الأخرى عند الجاهليّين . فقد أشير اليه ، وأشير الى اسم نفر من الأطباء ، هم : الحارث بن كلدة التقي ، والتضير بن الحارث ، و (ابن أبي رمثة التميمي) و (ضماد) وكلهم من عاصر الرسول وأدرك زمانه ، وبفضل هذه المعاصرة ، ذكرت أسماؤهم في كتب الحديث والسير والأخبار ، ولو لاها لكان شأنهم شأن غيرهم من لم يصل اسمهم الى أحد ، فصاروا نسياناً منسياً .

وذكر ان رجلاً جاء الى النبي ، فرأى بين كتفيه خاتم النبوة . فقال : إن أذنت لي عالجتها فإني طبيب . فقال له النبي ، طببها الذي خلقها ، معناه العالم بها خالقها الذي خلقها لا أنت<sup>٢</sup> .

أما الحارث بن كلدة التقي ، فإنه من ثقيف ومن أهل الطائف . ذكر أنه سافر إلى البلاد، وتعلم الطب بناحية فارس على رجل من أهل جنديسبور، وغيرها.

١ - أمالي (١/٢٣٨) .

٢ - اللسان (١/٥٥٣) ، (طبب) ، تاج العروس (١/٣٥٢) ، (طبب) ، « فان يك بك طب داويتك ، فاني أطب العرب » ، الطبرى (٢/٢٩٧) .

وتمرن هناك ، وطب بأرض فارس ، وعالج وحصل له بذلك مال ، وعرف الداء والدواء . وكان صاحب حسّ مرهف ، وموسيقياً يضرب بالعود . تعلم ذلك بفارس واليمن .

قيل إن سعد بن أبي وقاص مرض بعكة ، فعاده رسول الله ، فقال له : أدعُ الحارث ، فإنه يتطلب . فعاده الحارث ودواه فشهاده . ونسبوا له كلاماً مع كسرى أنو شروان . وقيل : إنه هو القائل : « الطب : الأزم ، والبطنة بيت الدواء ، والحميّة رأس الدواء ، وعورّدوا كل بدن ما اعتاد » ، وأشياء أخرى تنسب إلى فلاسفة متقدمين ، ولحكمة من العرب غير الحارث<sup>١</sup> .

وقيل إن من حكمه : « خير الدواء الأزم ، وشرّ الدواء إدخال الطعام على الطعام » . وقيل إنه وصى ولده بقوله : « يا بني عود نفسك الأثرة ومجاهدة الشهوة ، ولا تنهش نعش السباع ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال . إن الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ، واحدلر سرعة الكطة وسرف البطنة ، فقد قال بعض الحكماء : إذا كنت بطيناً فعد نفسك مع الزماني<sup>٢</sup> . ومن حكمه قوله : لا تنكحوا من النساء إلا الشابة ، ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتى ، ولا من الفاكهة إلا النضيج<sup>٣</sup> .

وقد نسبوا إلى الحارث كتاباً، هو كتاب المحاوره في الطب بينه وبين كسرى أنو شروان<sup>٤</sup>، ولم يشيروا إلى مضمونه ومحاتاته وحجمه . والظاهر أنه هذه المحاوره التي دبجوها في ترجمته ، ونسبوها إليه ، وزعموا أن كسرى أمر بتدوين ما نطق به<sup>٥</sup> .

١ عيون الانباء لابن أبي اصيبيعة ( ١٠٩ / ١ وما بعدها ) ، أخبار الحكماء ( ص ١١١ وما بعدها ) ، ابن صاعد ( ص ٤٧ ) ، ابن جلجل ( ص ٥٤ وما بعدها ) ، ابن القسطاني تاريخ الحكماء ( ص ١٦١ وما بعدها ) ، ابن العبري ( ص ١٥٦ وما بعدها ) ، ابن حجر ، الاصابة ( ٢٨٨ / ١ ) ، بلوغ الارب ( ٣٢٨ / ٣ وما بعدها ) ، شرح ديوان لبيد ( ص ١٠٢ ) .

٢ الجنان في تشبيهات القرآن ( ٢٥٦ ) .

٣ المحسن والاضداد ( ١١٠ ) .

٤ عيون الانباء ( ١١٠ / ١ وما بعدها ) .

٥ ابن أبي اصيبيعة ( ١١٢ / ١ ) ، بلوغ الارب ( ٣٢٨ / ٣ وما بعدها ) ، العقد الفريد ( ٣٧٣ / ٦ ) .

وقد ذكر أن الحارث بن كلدة كان شاعرًا ذا حكمة في شعره ، وقد أورد الآحدى له أبياتاً في أثناء ترجمته له<sup>١</sup> . وذكره ( أبو العلاء المعري ) في (رسالة الغفران ) ، ونسب له قوله :

فَاعْسُلْ بِيَارَدْ مَاءَ مَزْنَ عَلَى ظَمَأْ ، لِشَارِبِهِ يُشَابِ  
بِأَشْهَى مِنْ لَقِيقَمِ الْيَنَّا فَكَيْفَ لَنَا بِهِ وَمَنِ الإِيَّابِ<sup>٢</sup>

وذكر الأخباريون ، إن ( الحارث ) هذا ، كان قد داوى الملك ( أبي جبر ) الكendi ، وكان ملكاً شديداً على الأنس ، فخرج إلى كسرى يستجشه على قومه فأعطاه جيشاً من الأسورة ، فلما بلغوا ( كاظمة ) سموه ، ثم تركوه وعادوا ، فسار ( أبي جبر ) إلى ( الطائف ) ، ليداويه ( الحارث بن كلدة ) ويشفيه ، فدواه فبرىء وارتخل يربد اليمن فنكسر ومات . فرثته عمته ( كبشة)<sup>٣</sup> .

وقد عاصر رسول الله ، وفي بعض الروايات أنه أسلم ومات مسلماً في خلافة عمر ، وأنه أكل مع ( أبي بكر ) وأنه شهد أن ( أبي بكر ) مات مسموماً<sup>٤</sup> وأنه خرج مع النساء حينها حاصر المسلمون الطائف سنة تسع للهجرة . وأنه عاش إلى أيام معاوية في رواية . وإن ( آل نافع ) و ( آل أبي بكرة ) كانوا يزعمون أنهم من نسله<sup>٥</sup> .

وأما النضر بن الحارث بن كلدة الثقي فهو ابن خالة الرسول . وكان النضر قد سافر البلاد أيضاً كأبيه ، واجتمع بالأفضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأخبار والكهنة ، واشتعل وحصل من العلوم القديمة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه ما كان يعلمه من الطب وغيره وكان يؤتني أبا سفيان في عداوة النبي : ومحسده ، ويكثر الأذى له ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة ، ويحيط من قدره عند أهل مكة . فلما كانت وقعة بدرا ، كان على رأس

١ المؤتلف والمختلف ( ص ١٧٢ ) .

٢ ( ١٦٦ ) ، ( تحقيق بنت الشاطئ ) .

٣ نزهة الجليس ( ١ / ٤٨٤ ) .

٤ الطبرى ( ٤١٩ / ٣ ) ذكر مرض أبي بكر ووفاته ،

٥ الاشتقاء ( ص ١٨٥ ) ، مختصر ابن العبرى ( ص ١٥٦ ) ، أخبار الحكماء ، لابن الققطى ( ١٦١ ) ، Die Araber IV , S. 33.

المشركين ، فوقع أسرآ ، ولما كان الرسول بالصفراء أو الأثيل ، أمر بقتله ، قُتِل<sup>١</sup> .

وقد نسب بعض أهل الأخبار ( النضر بن الحارث ) على هذه الصورة : ( النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار )<sup>٢</sup> ، وقالوا إنه من أشراف قريش وأسيادها ، وكان من مطعمي (بني عبد الدار)<sup>٣</sup> ، ونصوا أنه « كان من كفار قريش شديد العداوة لرسول الله »<sup>٤</sup> ، وأنه كان ابن خالة الرسول ، ولهذا فلا يمكن أن يكون هذا النضر ابناً للحارث بن كلدة الثقفي ، الذي هو (الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج) على رواية من ضبط نسبه من أهل الأخبار<sup>٥</sup> . ثم إن (الحارث بن كلدة الثقفي) ، لم يخلف إلا ابنة يقال لها أزدة ، على ما ذكره (أبو عبيدة)<sup>٦</sup> ، لذلك فلا يمكن أن يكون (النضر بن الحارث) ابناً له ، كما ذهب إلى ذلك (ابن أبي أصبيعة) وغيره<sup>٧</sup> ، لا سيما وإن (ابن أبي أصبيعة) نفسه قد جعله في عداد المشركين من قريش الذين آذوا الرسول ، وذكر أنه ابن خالة النبي ، وأنه آذاه وساهم مع المشركين في معركة بدر ، فأسر<sup>٨</sup> . وأن أخيه (قتيلة) قد رثه بشعر دونه، كما دونه غيره<sup>٩</sup> . وما دونه عنه ، دونه غيره من ترجمة (النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار) القرشي، وتتجده مذكورةً مع شعر الرثاء في كتاب (نسب قريش)

١ عيون الانباء (١١٢/١ وما بعدها) ، البلاذري (١٤١/١) ، شمس العلوم (٧٩/١) ،  
بلوغ الارب (٣٣٥/٣ وما بعدها) ، الاشتقاء (ص ٩٩) . شرح نهج البلاغة ،  
لابن أبي الحميد (٣٤٨/٣) ، البيان والتبيين (٢٣٦/٢) ، (٤٣/٤) ، (السلام هارون) ،  
البلدان (١١٢/١) ، شرح ديوان العباسة ، للتترizi . حاشية  
الشهاب على تفسير البيضاوي (٤١/٤) .

٢ نسب قريش ، للزبيري (٢٥٥) ، ابن هشام ، سيرة (٣٢٠/١) ، (النضر بن  
الحارث بن علقة بن كلدة بن عبد مناف) .

٣ سيرة ابن هشام (٣٢٠/١) ، (٣٢٠/٢) .

٤ الاشتقاء (٩٩) .

٥ الاشتقاء (١٨٥) .

٦ الاشتقاء (١٨٥) .

٧ عيون الانباء (١٦٧) ، (النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي) .

٨ عيون الانباء (١٦٧ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (٢٩٧/٢ وما بعدها) .

للزبيري<sup>١</sup>. وهو من العلماء بنسب قريش ومن المتقدمين على (ابن أبي أصبيعة)<sup>٢</sup>. وفي رواية يرجع سنهما إلى (الكلبي) و (مقالات) ، أن في حق (النضر ابن الحارث) ، نزلت الآية « ومن الناس من يشتري لها الحديث »<sup>٣</sup> . فقد قيل : « إنه كان يخرج تاجراً إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم فيروها ومحدث بها قريشاً ، ويقول لهم : إن مهداً ، عليه السلام ، يحدثكم بمحدث عاد وآمود ، وأنا أحذركم بمحدث رسم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملعون حديثه ويتكون اسماع القرآن »<sup>٤</sup> . وقد نزلت في حقه ثمانى آيات<sup>٥</sup> ، يفهم من تفسير علماء التفسير لها ، أنه كان ذكياً لبقاً و (شيطاناً) من شياطين قريش ، له علم بالشعر وبأخبار الأمم ، يراجع أخبار اليهود وعلماء النصرانية ، ليزيد بذلك علماً على علمه ، وكان يعتقد لذكائه وعلمه أنه أحق بالدعوة من النبي ، وحسده وصار يعاكسه في كل مكان .

ووصف بأنه صاحب أحاديث ونظر في كتب الفرس . كان بمحدث ، ثم يقول : أينا أحسن حديباً : أنا أم محمد ؟ ويقول : إنما يأتكم محمد بأساطير الأولين . وقيل : إنه كان يقول إنما يعينه على ما يأتي به في كتابه هذا جبر ، غلام الأسود بن المطلب ، وعداس غلام شيبة بن ربيعة ، ويقال : غلام عتبة ابن ربيعة ، وغيرهما . فأنزل الله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمهم بشر . لسانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٍ وَهَذَا لسانُ عَرَبِيٍّ مَبِينٌ »<sup>٦</sup> . وكذلك « قال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعوانه عليه قوم آخرن . فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا : أساطير الأولين ، اكتبها ، فهي تعلى عليه بكرة وأصيلاً »<sup>٧</sup> . وروي أنه كان بمحدث قومه أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رسم واسفنديار<sup>٨</sup> . وعلى هذا ، فلم يكن النضر ، في عدد الأطباء ، وإنما كان في عدد الواقفين

١ (ص ٢٥٥) ٠

٢ (١٥٦ - ٢٣٦) ٠

٣ سورة لقمان ، الآية ٦ ٠

٤ أسباب النزول (٢٥٩) ، (سورة لقمان) ٠

٥ سيرة ابن هشام (١/٣٢٠ وما بعدها) ٠

٦ التحل ، الآية ١٠٣ ٠

٧ الفرقان ، الآية ٤ وما بعدها ، البلاذري (١/١٤١) ٠

٨ ابن هشام (١/٣٢٠) ٠

على أساطير الفرس ولغتهم ، ولا تستبعد مع ذلك عنه مزاولة الطب ، لأن المتفقين في ذلك الوقت ، كانوا يعالجون ويدرسون مختلف العلوم والمعرفة .

وأما ابن أبي رمثة التميمي ، فكان طبيباً على عهد الرسول مُزاولاً لأعمال اليد وصناعة الجراح<sup>١</sup> . ولم يذكروا عنه شيئاً غير هذا المذكور . وذكر من الأطباء طبيب يقال له ابن حِذْم ، من تيم الرباب . قيل : إنه حاز على شهرة واسعة بين الجاهليين ، وأنه ذكر في شعر لأوس بن حجر ، هو :

فهل لكم فيها إلى ، فلاني طبيب بما أعا النطاسي حِذْماً<sup>٢</sup>

وزعم أنه كان أطيب العرب ، وأنه كان أطيب من الحارث بن كلدة ، حتى ضرب بطبته مثل ، فقيل : أطيب من حِذْم . وذكر أنه كان بارعاً في الكي ، فقيل : أطيب في الكي من ابن حِذْم<sup>٣</sup> . وقيل هو انه كان من (تيم الرباب) وكان متطبيباً عالماً ، وهو أقدم من الحارث بن كلدة . وقد جعله بعضهم (ابن حذام) (ابن حام) الشاعر المذكور في شعر (أمرىء القيس) ، وهو خطأ ورد من باب التصحيف<sup>٤</sup> .

ويظهر من كتب الحديث والأخبار والتراجم ، أن هناك نفرآ آخرین مارسوا الطبيب في أيام النبي . فقد أشير إلى نفر من قبيلة أنمار زاولوا الطب في أيام الرسول<sup>٥</sup> . وذكر أن النبي بعث إلى أبي بن كعب طبيباً ، فقطع له عرقاً ، وكواه عليه<sup>٦</sup> .

وأشير إلى اسم طبيب آخر ، عرف بـ (ضماد بن ثعلبة الأزدي) ، ذكر أنه كان يداوي ، وأنه جاء إلى رسول الله<sup>٧</sup> . وأنه كان صديقاً للنبي في الجاهلية ،

١ عيون الأطباء لابن أبي أصيحة (١١٦/١) ، ابن جلجل (ص ٥٧) ، ابن صاعد (ص ٤٧) ، ابن الققطي (٤٣٦) ، تهذيب التهذيب (٩٧/١٢) ، مسند ابن حنبل (١٦٣/٤) ، اللسان (٢٣٢/٦) ،

٢ تاج العروس (٣٣٨/٨) ، (حدم) .

٣ بلوغ الارب (٣٣٧/٣) .

٤ الخزانة (٢٢٢/٢) ، (بولاق) .

٥ ابن جلجل (ص ٥٤) .

٦ ابن جلجل (ص ٥٨) ، زاد المعاد (٣/٨٤) .

٧ نهاية الارب (١٨/٧ وما بعدها) ، (١٧/٣٥٠) .

وكان من أزد شنوة . وكان رجلاً يتطيب ويرق ويطلب العلم ، ويداوي من الريح . وقد أسلم . وكان محترماً مقدراً . ذكر أن بعثاً بعثه رسول الله أو أبو بكر ، من بلاد ضماد ، فلما جاؤوا تلك الأرض . وقف أميرهم ، فقال : أعزت على كل رجل أصحاب شيئاً من أهل هذه الأرض إلا رَدَه ، لِمَكَانَةِ هَذَا الرَّجُلِ وَلِشَرْفِهِ وَلِصَدَاقَتِهِ لِلرَّسُولِ<sup>١</sup> . « وروي انه قدم مكة معتمراً ، فسمع كفار قريش يقولون: محمد مجرون ، فقال : لو أتيت هذا الرجل فداويته . فجاءه فقال له : يا محمد إني أداوي من الريح فإن شئت داويني لعل الله ينفعك . فتشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً ، فقال : أعيدها على<sup>٢</sup> ، فأعادها عليه فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت الكهنة والسمحة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط<sup>٣</sup> . »

ولا يستبعد تعلم هؤلاء الأطباء في جنديسابور مركز الطب والعلوم في الانبراطورية الساسانية ، او في أماكن من بلاد الشأم ، فقد كان الطبيب الحاذق محتاجاً في هذا اليوم الى تعلم هذا العلم في أماكن متعددة للاستفادة من تجارب الأطباء . وقد كان السفر متصلةً غير منقطع، فلا يستبعد قدوم الأطباء وطلاب الطب من جزيرة العرب الى هذه الأماكن للتعلم فيها .

واشتغلت النساء بالمعالجة والتطبيب أيضاً . فقد قامت ( رفيدة ) تداوي جرحى المسلمين يوم ذهابهم الى (بني قريظة)<sup>٤</sup> . وكانت امرأة تداوي الجرحى وتحسب نفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكانت لها خيمة في المسجد، مسجد الرسول يئرب تداوي بها الجرحى . ولما جرح ( سعد بن معاذ ) يوم الخندق ، قال رسول الله : « اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتى أعوده من قريب » ، وكان الرسول يزوره في خيمتها في الصباح وفي المساء<sup>٥</sup> . واشتهرت ( زينب ) ، وهي من (بني أود) بالطب . كانت تتطيب و تعالج العين والجراح<sup>٦</sup> .

١ الاصابة ( ٢٠٢/٢ ) ، ( رقم ٤١٧٧ ) ، الاستيعاب ( ٢٠٩/٢ ) ، حاشية على الاصابة<sup>٧</sup> .

٢ ابن سعد ، طبقات ( ٢٤١/٤ ) .

٣ نهاية الارب ( ١٩١/١٧ ) .

٤ الاصابة ( ٢٩٥/٤ ) ، ( رقم ٤٢٤ ) .

٥ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ( ٤٠/١ ) ، ( ١٩٥٧ م ) .

والرجع المرض المؤلم<sup>١</sup> ، والعرب تسمى كل مرض وجعاً<sup>٢</sup> ، ويعبر عنه بالسقام كذلك<sup>٣</sup> . وذكر أن (الوعك) الحمى أو المها وأذاتها ومتها في البدن ، وذكر أن الوعك لا يكون إلا من الحمى دون سائر الأمراض<sup>٤</sup> .

وقد عالج الأطباء الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجرح ، أي بتضميدها بها ، ويقال لذلك (الغميل) . وكانوا إذا أرادوا تعريف المريض، غلره<sup>٥</sup>، أي غطوه بالثياب ليعرف ، فيشفى من البرد والزكام . والضماد العصابة او الخرقة تشد فوق الجرح او الرأس ، او اي موضع من الجسم يشتكى من وجود ألم به، فكانوا يتضمنون الرأس للصداع ، كما كانوا يتضمنون العين ، بوضع الدواء في العين ، أو على الخرقة ثم تضميد العين بها ، ورد ان (طلحة) ضمد عينيه بالصبر ، كذلك كانوا يضعون الأدهان على الضماد لتضميده الجروح ، أو الأورام او موضع الألم<sup>٦</sup> .

ويذكر علماء اللغة أن (النطاسي) ، العالم الشديد النظر في الأمور<sup>٧</sup> ، فهي معنى الحاذق . ويقال : طبيب نطيس ونطاسي ، وورد : نطس الأطباء . وهي أكثر ما ترد مع الأطباء ، للدلالة على الحذق والفهم في هذه الصناعة . وذكر علماء اللغة ان اللفظة من المغربات ، عربت من أصل (نسطاس) ، وهي من لغة الروم . والنطس الأطباء الحاذق ، والعالم بالطب بالرومية<sup>٨</sup> .

ولعدم وصول كتب او صحف او أحجار لها علاقة بالطب عند الجاهليين ، اضطررنا الىأخذ معارفنا في الطب من الموارد الاسلامية ، مثل كتب التفسير والحديث والادب ، وفيها إشارات الى بعض الامراض ، وفي بعضها اشارات الى معالجة بعض منها . هذا ، وتفيدنا الموارد الاعجمية في هذا الباب كثيراً ،

- ١ تاج العروس (٥٣٣/٥) ، (وجع) .
- ٢ ارشاد الساري (٣٤٣/٨) .
- ٣ تاج العروس (٣٣٦/٨) ، (سقم) .
- ٤ ارشاد الساري (٣٤٣/٨) ، تاج العروس (١٩٢/٧) ، (وعك) .
- ٥ تاج العروس (٥٠/٨) ، (غل) .
- ٦ تاج العروس (٤٠٥/٢) وما بعدها ، (ضمد) .
- ٧ بلوغ الارب (٣٣٨/٣) .
- ٨ تاج العروس (٤٢٥٨/٤) ، (نسطاس) ، (نطس) ، (٣١٠/٦) .

لورود أمراض فيها وطرق معالجة ، كانت معروفة وشائعة في الشرق الأوسط قبل الإسلام . ونجد في المعجمات الخاصة بالعهدين القديم والجديد وفي تواريخ الطب القديم معلومات ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلينا ، لأنها تعينا على تكوين رأي في الطب عند الجاهليين .

والمذكورون ، هم أطباء نشأوا في المدن ، وأقاموا في الحضر ، وتعلموا من أطباء مخترفين . أما الأعراب ، فقد كان لهم أطباء ، ولكن طبهم ، هو طب العرف والمعادة . طب موروث ، يداوي بالوصفات التي داوي بها الآباء والأجداد ، دون تغيير وتبدل وجدل ونقاش . وهذا ، فهو طب بدائي تقليدي موروث ، يعتمد في مداواته على قدرة القبيلة ، وعلى ما يجده الطبيب حوله من نبات وأعشاب وحيوان ونار فيداوى بها . وما زال الأعراب على طبهم هذا ، يداوون به على نحو ما داوي أجدادهم وأجدادهم في الإسلام وقبل الإسلام .

وليس طب البايدية اتصال بالطب الخارجي ، إلا ما كان من طب القبائل القاطنة على مقربة من الحواضر ، أو القبائل التي كان لها اتصال مباشر منتظم أو غير منتظم بالعالم الخارجي . فقد تسرب إلى علم (العوارف) فيها نفع من الطب الغريب ، عالج به (عوارف) القبيلة ، واستمروا على المعالجة به ، حتى صار ستة لهم وطبياً قبلياً . ومن أهم صفات الطب القبلي ، أنه طب لا يثق إلا بنفسه ، ولا يرى الشفاء إلا من أطبائه وبأدويته المتعارفة عنده . والمريض الأعرابى لا يعمل إلا بطب أصحاب الخبرة من الشيبة والعجائز الذين عرّفوا بممارستهم معالجة المرضى : وللسن عندهم قيمة في نجاح المعالجة والحصول على الشفاء ، فالسن تجربة وعلم . ولذلك فلم يحسن المعالج الذي يرجع إليه عند الشكاية من الألم والمرض ، تأثير كبير على المريض من الناحية النفسية ، لاعتقاده بأن السنين تزيد في خبرة الإنسان وتضيف إلى علمه القديم علمًا جديداً . لذلك يثق المرضى به ، مع أن طب الأعراب ، لا يعرف البحث والمطالعة لزيادة العلم ، ولا يركن إلى التجديد بالحصول على معارف طبية جديدة ، بدراسة أثر أعشاب البايدية بصورة مستمرة في شفاء المرضى واستخلاص النتائج من مراقبة تأثير الدواء على حالة المريض .

وقد عرف طب البايدية بـ ( طب الأعراب ) وبطب البايدية ، وعرف دواء الأعراب بدواء أهل البايدية . وهو دواء نابت من محظتهم يستند على المعالجة بالأعشاب وبالرماد وبالألبان وبأبوال الإبل وبالحرز . ومن أدويتهم ( النهاء ) دواء

يكون بالبادية ي تعالجون به ويشربونه . ويظهر انه من حجر يقول له ( النهاء ) ، وهو حجر أيضأً أرخي من الرخام ، يكون بالبادية ، ويجاء به من البحر . وضرب من الخرز<sup>١</sup> .

و ( العقار ) و ( العاقير ) الأدوية . وقيل ما يتداوي به من النبات أو أصولها والشجر<sup>٢</sup> . و ( العقار ) في الآرامية ما يتداوي به من النبات ، أي دواء<sup>٣</sup> .

وطب مثل هذا ، لا يمكن أن يأتي بنتائج إيجابية في معالجة الأمراض الصعبة العسرة ، وفي حالات مرضية مهمة جداً في نظر بعض الناس ، ولا سيما مشائخ القبائل ، كالعقم وقوية الشهوة الجنسية ، ولهذا كانوا يلجأون إلى أطباء الحضر . وقد أدرك الرهبان والمبشرون أثر هذه الحالات المرضية، ولا سيما الأمراض النفسية منها في نفوس أولئك الرؤساء ، وجلهم من درس الطب وقرأ الكتب المؤلفة فيه ومارسه عملياً ، فذهبوا بأنفسهم إلى القبائل للتبيشير ، وعالجوا الرؤساء معالجة نفسانية في الغالب ، وأثروا فيهم ، ونجحوا في مثل هذه الحالات في كسب عطفهم عليهم وتأييدهم لهم ، وفي الدخول في جوارهم ، للقيام بالتبيشير . ونجح في التتف الباقيه عن حياة المبشرين الذين بشروا بين العرب قصصاً من هذا النوع روي في معالجة بعض الرؤساء، يذكر أنهم نجحوا في معالجتهم وأن نجاحهم هذا هو كرامة ومعجز قد تمت بفضل الله ومنة المسيح .

ويكون الشفاء عند العرب في ثلاثة : شربة عسل وشرطة محجم وكبة نار . وإذا عجز الطبيب من اشفاء مريضه بما عنده من وسائل جلأ إلى ( الكي ) ، ولذلك جاء : « آخر الدواء الكي » . وكان أهل الجاهلية يرون انه محسم الداء بطريقه فيقادرون اليه قبل حصول الاضطرار اليه ويعالجون به أكثر الأمراض . وروى في الحديث قوله : « الشفاء في ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكبة نار ، وأنهى أمي ثمن الكي »<sup>٤</sup> .

والعسل من الأدوية والوصفات التي أمر بها الأطباء في معالجة بعض الأمراض ، ولا سيما أمراض المعدة ، عولج به وحله ، وعولج به ممزوجاً بماء أخرى ،

١ تاج العروس ( ٣٨٢/١٠ ) ، ( نهي ) .

٢ تاج العروس ( ٤١٧/٣ ) ، ( عقر ) .

٣ غرائب اللغة ( ١٩٦ ) .

٤ ارشاد الساري ( ٣٦١/٨ ) « كتاب الطب » .

لتكون عجائب ولصقات منه<sup>١</sup>. واستعملت العجائب المكونة من الدقيق والتمر والسمن في معالجة أمراض الجلد وآلام المفاصل ، والزلات . كذلك استعملت لصقات كونت من مواد أخرى في معالجة مثل هذه الأمراض . والنتائج هي من طرق المعالجة أيضاً ، ومنها مناقع الخل والزيوت .

وقد ورد في رواية : ان الرسول أرسل عكة عسل الى ليد الشاعر الشهير حين علم بعرضه ، فشرب منها ، وبرىء<sup>٢</sup> ، وفي هذا الخبر دلالة على تداویهم بالعسل .

وقد أقام أهل مكة والنجاشي وزناً كبيراً للمداواة بالعسل . ونجد في كتب الحديث وفي كتب الأدب والأخبار إشارات الى هذه المداواة . وقد استعملوا العسل في مداواة «المبطون» الذي يشتكى بطنه من الأسهال المفرط ، ومن سوء الهضم ، لانخراج الفضول المجتمع في المعدة وفي الأمعاء<sup>٣</sup> .

وفي جملة معالجات الأطباء ووصفاتهم للمرضى ، استعمال الحجامة ، أي استخراج مقدار من الدم بكأس يسحب هواؤها بالمض ، فيخرج الدم من الشروط التي عملت في ظهر الرقبة . وقد استخدموها في معالجة الرأس والشقيقة والصداع<sup>٤</sup> . والقصد . واستعمال ديدان خاصة لامتصاص الدم<sup>٥</sup> . والشقيقة صداع يصيب شقى الرأس ، وان أصاب الصداع فته الرأس أحدث داء البيضة . وأما الصداع فهو عام<sup>٦</sup> .

والقصد ، هو شق العرق لإخراج مقدار من الدم للمعالجة من بعض الأمراض.

١ عمدة القاريء (٢١/٢٣٢) ، «عليكم بالشفاءين : القرآن والعسل » العقد الفريد (٦/٢٧٣) .

٢ شرح ديوان ليدي (ص ٢٥ مقدمة) .  
٣ ارشاد الساري (٨/٣٧٨ ، ٣٦٣) .

٤ عمدة القاريء (٢١/٢٤٢ وما بعدها) ، «أن عيطة بن حصن دخل على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يحجم في نأس رأسه » فقال : ما هذا ؟ قال : هذا خبر ما تداویتم به ، «الحجامة والكتي » ، العقد الفريد (٦/٢٧٥ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٧٠) .

٥ عمدة القاريء (٢١/٢٣٠ وما بعدها) .  
٦ ارشاد الساري (٨/٣٧٠) .

وقد عرف عند العرب كما عرف عند غيرهم<sup>١</sup>. وقد داواه الصبيان بـ (الفصيدة) تمر يعجن ويُشَاب، أي يخلط بدم<sup>٢</sup>. والظاهر أن هذا الدم ، هو من دم الفصد . وقد كان الجاهليون يأكلون دم الحيوان ، يجفونه بعد خلطه مع مادة أخرى ، أو وضعه في أمعاء ليجف فيه كل ، أو مع الشعر ثم يأكلونه ، ومنهم من كان يشرب الدم ، للقوءة . و « وفي حديث عكرمة : كان طعام أهل الجahلية العلهز . قال ابن الأثير : هو طعام من الدم والوبر » ، وذلك أن يخلط الدم بالوبر ، أو الصوف ينفش ويشرب بالدماء ويشوى ويؤكل . وقد نسب أكله إلى الفقراء ولدى أيام المجاعة ، وزعم أنهم كانوا يخالطون فيه القردان . أو دم الحلم . ونسب أكله إلى القحطانيين ، وذلك في شعر هجاء ، هو :

وإن قرئ قحطان قرف وعلهز فأتبع بهذا وبع تقىك من فعل<sup>٣</sup>

وهو من الشعر المنبعث عن عاطفة العصبية ولا شك .

وكان الفصد عند العرب من جملة وسائل القتل التي تستعمل في قتل الملوك والأشراف . تمييزاً لهم عن السوق وسود الناس الذين يقتلون بحد السيف . فقد كان الشريف إذا سقط في أيدي عدوه ووجد نفسه أنه مقتول لا محالة ، أوصى بإسقائه الحمر ، حتى يسكر ، فيخف بذلك ألمه ثم يقصد عرق اليد فيخرج منه الدم حتى يموت ميتة الأشراف .

واستعمل الكي في معالجة أمراض المفاصل ، مثل الركبة (الروماتزم) ، وقد يبرع في ذلك الأعراب بصورة خاصة . وهو معالجة أخذ بها أطباء أهل الوبر أيضاً ، وطريقتهم هي كي الجزء المريض بمديدة حمأة ، أو بحجر حمي . وقد استعمل الكي أيضاً في معالجة الجروح والتقرح وجع الرأس . وفي العربية مثل قديم ، له علاقة به ، هو : آخر الدواء الكي . فالكي اذن معالجة يلجا اليها حينما يعا الدواء عن الشفاء . واستعمل في معالجة الاستسقاء . بالكي على البطن<sup>٤</sup> . وينسب أهل الأنبار مثل المذكور إلى (لقمان بن عاد)<sup>٥</sup> . وفي نسبتهم هذه المعالجة إليه

١ اللسان (٣/٣٣٦)، (فصد) .

٢ اللسان (٣/٣٣٦)، (فصد) ، تاج العروس (٢/٤٥٣)، (فصد) .

٣ تاج العروس (٤/٦١)، (العلهز) .

٤ الفاخر (ص ٥٨، ١٢٦) .

٥ الزمخشري ، المستقسى في أمثال العرب (١/٣) ، (حيدر آباد الدكن ١٩٦٢ م) .

دلالة على قدمها عند العرب . وهي معاجلة لا زال الأعراب يستعملونها في مداواة أمراض عديدة عندهم ، لا سيما في معاجلة أمراض الروماتزم . وقد ورد أن ( خباب بن الأرت ) أكتوى في بطنه سبع كيات<sup>١</sup> .

و (الريثة) وجع المفاصل واليدين والرجلين ، وقيل وجع الركبتين والمفاصل ، أو ورم وظلاع في القوائم ، أو هو كل ما منعك من الالتفات أو الانبعاث من بكر أو وجع<sup>٢</sup> .

وقد استعملوا ( الكي ) للشوكه . والشوكه حمرة تظهر في الوجه وغيره من الجسد . وقد كوى ( أسعد بن زدراة ) من الشوكه<sup>٣</sup> . وقيل الشوكه داء كالطاعون ، وكانوا يسكنون الشوكه بالرقى كذلك<sup>٤</sup> .

والبصل والثوم والكمون والكرفس والخردل هي من النباتات التي عولج بها ، فاستعمل البصل لمعالجة التزلات الصدرية وبعض أنواع الحميات وللتقضاء على الديدان في داخل الجسم . واستعمل الثوم لمعالجة أمراض المعدة والديدان أيضاً ، وفي معاجلة أمراض القلب<sup>٥</sup> . واستعمل الكمون في معاجلة التزلات الصدرية كذلك . وهو من الأدوية المعروفة عند غير العرب أيضاً ، فقد كان العبرانيون يستطون به<sup>٦</sup> ، وكانوا يحصلون عليه بواسطة الصينيين والعرب . وأحسنها هو الكمون المستورد من ( سيلان )<sup>٧</sup> . وعالجوه في الأدرار ، وفي مطاردة الريح في المعدة والهضم<sup>٨</sup> . وعولج بالستا وبالشبرم وبالزبيب ، ويرون أن الزبيب يذهب النصب ، ويشد العصب ، ويطفئ الغضب ، ويصفي اللون ، وبالسفرجل ويرون أنه يشد القلب ، ويطيب النفس ويذهب بطخاء الصدر<sup>٩</sup> . وعالجوه بالعين ، استعملوه لمعالجة الإمساك والكبش والطحال<sup>١٠</sup> ، وعالجوه بالرمان<sup>١١</sup> .

١ ارشاد الساري ( ٣٥٦/٨ ) .

٢ تاج العروس ( ١٤٤/١٠ ) ، ( رئي ) .

٣ الطبرى ( ٣٩٨/٢ ) ، النهاية لابن الأثير ( ٤/٤٢٤٠ ) وما بعدها .

٤ تاج العروس ( ١٥٢/٧ ) ، ( شوك ) ، اللسان ( ٤٥٥/١٠ ) ، ( شوك ) .

٥ « الثوم : ويسمى ترياق البدو » ، شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول ( ص ٢٧٠ ) .

The Bible Dictionary, I, p. 275.

٦

تاج العروس ( ٣٢٢/٩ ) ، ( كمن ) .

٧

W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 330.

تاج العروس ( ٣٢٢/٩ ) ، ( كمن ) .

٨

العقد الفريد ( ٦/٢٧١ ) وما بعدها .

٩

تاج العروس ( ١٥٤/٩ ) ، ( التين ) .

١٠

تاج العروس ( ٢١٩/٩ ) ، ( رمان ) .

١١

و (الخلبة<sup>١</sup>) من النبات الذي عولج به في أمراض كثيرة ، فعولج به أمراض الصدر مثل الربو والسعال والبلغم، وعولج به الكبد والمثانة والبواسير وألام الظهر . وذكر أن (الخلبة) طعام أهل اليمن عامة ، وبالغنا في فوائدها حتى رروا أن حديثاً ورد فيها : « لو يعلم الناس ما في الخلبة لاشتروها ولو بوزنها ذهباً »<sup>٢</sup> . وتطيب بالسعوط والشوق . وقد استعملوا لذلك جملة مواد ، منها : دهن الخردل ، ودهن البان ، والقسط الهندي والبحري ، وبالعود الهندي والكافور . وقد استخدم العود الهندي في معالجة ذات الجنب<sup>٣</sup> . ويرى بعض الباحثين أن الشوق من أصل آرامي هو (نسكو Nosko ) من Nsk يعني أسال في شيء ، أي دواء يسكن في الأنف<sup>٤</sup> . واستخدم (الستبل) ، وهو نبات طيب الرائحة في التداوي كذلك ، ويعرف بـ (سبل) في السريانية أيضاً<sup>٥</sup> .

وذكر أن (السعوط) اسم الدواء يصب في الأنف . وذلك بأن يوضع الدواء في إناء يجعل فيه السعوط ويصب منه في الأنف ويقال للإناء المسعوط والمعيط والمسعوط<sup>٦</sup> . ويستعمل السعوط من مختلف الدهون . وقد استعمل في مداواة (العلدة) ، وهو وجع يأخذ الطفل في حلقه ، يهيج من السلم أو في (الحرم) الذي هو بين الأنف والحلق ، وهو سقوط اللهاة . وقيل قرحة تخرج بين الأنف والحلق تعرض للصبيان غالباً عند طلوع العذرة . وهي خمس كواكب تحت الشعرى . أي العبور وتطلع وسط الحر<sup>٧</sup> .

و (القسط) عود يجاء به من الهند ، فعرف لذلك بالقسط الهندي ، وعود يؤتى به من اليمن ، ويعرف بالقسط البحري . وعود عرف بـ (قسط أظفار) وقسط عرف بـ (القسط المر) وهو كثير ببلاد الشام . ويقال للقسط (الكست) و (كشط) . وذكر أن الرسول أشار إلى (القسط) فقال : « عليكم بهذا العود الهندي ، فإن فيه سبعة أشفيه : يستعطف به من العذرة ويلد به من ذات

- ١ تاج العروس (٣١٢/٢) ، (طبعة الكويت) ، (٢٢٢/١) ، (حلب) .
- ٢ عمدة القاريء (٢١/٢١ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٧٥/٦) ،
- ٣ غرائب اللغة (ص ٢٠٧) .
- ٤ غرائب اللغة (ص ١٨٩) .
- ٥ اللسان (٣١٤/٧ وما بعدها) ، (سعط) .
- ٦ ارشاد الساري (٣٦٧/٨) .

الجنب<sup>١</sup> . وقد استعمل القسطنطيني بخوراً ودواء . وهو من نبات أصله من الهند ، يقال له ( قسطس ) ، وهو معروف عند غير العرب أيضاً ويداوي به<sup>٢</sup> . وعالجوها به ( العيد ) ، شجر جبلي ضمدوه بلحائه الجرح الطري فيلشم<sup>٣</sup> . وب ( السنى ) ، نبت يتداوي به . وقد جاء ذكره في الحديث . وقد خلطوه بالحناء لتقوية اللون وتسويفه<sup>٤</sup> . وداووا به ( السعتر ) ( الصعتر )<sup>٥</sup> ، وبالقرطم ، في معالجة أمراض عديدة<sup>٦</sup> .

وقد كانت النساء تعالج الصبيان من العذرة بالغمز ، وذلك أن المرأة كانت تأخذ خرقة فتفتلها فتلاً شديداً وتدخلها في حلق الصبي وتعصر عليه ، فينفجر منه دم أسود وربما أفرخته<sup>٧</sup> .

وعرف ( الدرياق ) ( الترياق ) في التطبيب به . استعمل لدفع السم من الأدوية والمعالجين ، والعرب تسمى الخمر ( ترياقاً ) و ( درياقاً ) لأنها تذهب بالهم . و ( الترياق ) ، فارسي معرب . ويقال درياق . بالدال أيضاً . وفي الحديث إن في عجوة العالية ترياقاً . الترياق ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعالجين<sup>٨</sup> .

والبلسم ، من المواد المهمة في المعالجات الطبية ، وقد اشتهر كثيراً في الطب القديم ، ليس عند العرب فقط ، ولكن عند أكثر الأمم الأخرى . اشتهر في معالجة الجروح خاصة ، إذ هو مادة صمغية تضمن بها الجراحات . ووطنه بلاد الحبشة ، واسْتُهِرَّ من أنواعه الجيدة ( بلسم جلعاد ) عند العبرانيين ، وهو ذو رائحة عطرة . وقد مدحه الأطباء وأثنوا عليه في معالجة الأمراض والجروح<sup>٩</sup> . وذكر علماء اللغة أن ( البلسم ) ، هو ( البلسام ) وهو البرسام ، والموم .

١ ارشاد الساري ( ٣٦٧/٨ ) ، اللسان ( ٣٧٩/٧ ) .

٢ غرائب اللغة ( ٢٦٥ ) .

٣ تاج العروس ( ٤٣٨/٢ ) ، ( عود ) .

٤ تاج العروس ( ١٨٥/١٠ ) ، ( سنى ) .

٥ تاج العروس ( ٢٦٩/٣ ) ، ( السعتر ) .

٦ تاج العروس ( ٢٤/٩ ) ، ( قرطم ) .

٧ ارشاد الساري ( ٣٦٩/٨ ) .

٨ اللسان ( ٣٢/١٠ ) ، ( ترق ) .

٩ قاموس الكتاب المقدس ( ٢٤٥/١ ) . Hastings, p. 872. f.

والبلنس: القطران<sup>١</sup>. و (البلسم) هو (بسمون)، و (بلسان) Valsamon<sup>٢</sup>. وقد استعمل لداء (العقد) لتضييد الجرح الطري، فilitتحم خاصية فيه<sup>٣</sup>: عالجوا به (البان)، وهو شجر معروف، ذكر في شعر (أمرىء القيس)، ولحب ثمرة دهن، وحبته نافع للبرش، والتنفس، والكلف، والمحضف، والبهق، والسعفة، والجرب، وتفشى الجلد، واستعمل في الاسلام لمداواة أمراض عديدة<sup>٤</sup>.

و (السفوف) كل دواء يؤخذ غير معجون، مثل سفوف حب الرمان وغيره<sup>٥</sup>. وترد اللقطة في الآرامية بالمعنى نفسه، وهي من المعرفات عنها<sup>٦</sup>.

واستعملت الزيوت في معالجة عدد من الأمراض والجروح، فاستعملت في معالجة البطنة مثلاً<sup>٧</sup>. وقد تخلط بغيرها، كالحمر أو التخل أو الملح، وقد تغلى ثم توضع على الجرح لقطع التزيف منه ولتعقيمه. والمعالجة بالزيوت، قدية معروفة عند المصريين والعبرانيين واليونان وغيرهم، أشير إليها في كثير من الموارد القديمة<sup>٨</sup>. وعولج (الباسور) بدهنه بزيت الزيتون<sup>٩</sup>.

وعالجوا باستعمال (الحبة السوداء). استعملوها قليلاً، وأكلاً ولطخوا، كما سحقوها وخلطوها بالزيت لاستعمالها قطرات في معالجة أمراض الأنف. وقد كانوا يبالغون في منافعها، فاستعملوها في معالجة أمراض كبيرة باطنية وخارجية<sup>١٠</sup> وذكروا أن الرسول قال: «إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام»، والسام الموت<sup>١١</sup>.

وعولج بالألبان، ولا سيما ألبان الإبل. وهم يفضلون لبن الإبل على سائر

١ تاج العروس (٢٠٦/٨)، (بلسم).  
٢ غرائب اللغة (٢٥٥).

٣ تاج العروس (٤٢٧/٢)، (عقد)، (٤٣٨/٢)، (عود).

٤ تاج العروس (١٤٧/٨)، (بون).

٥ تاج العروس (١٣٩/٦)، (سف).

٦ غرائب اللغة (١٨٧).

The Bible dicti., vol., II, p. 154.

٧ العقد الفريد (٦/٢٧٤).

٨ عمدة القاري (٢١/٢٣٥ وما بعدها).

٩ ارشاد الساري (٣٦٥/٨ وما بعدها).

الألبان<sup>١</sup> . وقد عولج به مختلف الأمراض ، ومن ذلك (القسم)<sup>٢</sup> . عالجوا بآبوا الإبل أيضاً . وورد في شعر (لبيد بن ربيعة العامري) أنهم عالجوا ببول الإبل ، وكانوا يغلونها أحياناً لشربها المريض<sup>٣</sup> .

وعولج بـ (التلبينة) ، حساء من نخالة وبن وعسل ، وقيل حساء يتخذ من ماء النخالة فيه لبن . وذكر أنها تُجنم فواد المريض وتذهب بعض الحرث وتنتفظ المعدة<sup>٤</sup> . وعالجوا بالحساء لغسل البطن وتنظيفها من سوء المضم<sup>٥</sup> .

وعولج بإهراق الماء على المريض ، وذلك في أمراض الحمى ، وفي الأمراض التي يشعر المريض بأن في جسمه حرارة والتهاباً ، فيجلس على كرسي ويصب الماء عليه ، حتى يخفف من شدة حرارة المريض<sup>٦</sup> . كما عولجت الحمى بنصائح المريض بالأكثار من شرب الماء البارد وغسل الأطراف<sup>٧</sup> .

وللحافظة على الأسنان ولظهورها بيضاء نظيفة ، استعملوا السواك وبعض الأعواد لاستخراج الفضلات التي تتخلل الأسنان ، وما زال الحاجاج يستوردون المساويك من مكة . وقد اشتهرت مكة منذ الجاهلية بالسواك ، يستخرج من أغصان أشجار تنبت هناك ، لأنها رائحة طيبة ، وتساعد على تبييض الأسنان . ومن المواد التي عملت منها المساويك : الشمام ، والضرم ، والعلم ، والأراك ، والمرجون ، والجريد ، والإسحل<sup>٨</sup> .

وقد حدّ الإسلام على تنظيف الأسنان بالسواك . ورد في الحديث : « السواك مطهرة للقلم » أي بطهر القلم . وأشار إلى السواك في الشعر ، إذ ورد :

وكان طعم الزنجبيل ولذة صهباء ساك بها المسحر فاها

١ عمدة القاريء (٢١/٢٣٤ وما بعدها) .

٢ ارشاد الساري (٨/٣٦٤) .

٣ شرح ديوان نبيد (ص ١١٦) ، عمدة القاريء (٢١/٢٣٤ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٦٤) .

٤ ارشاد الساري (٨/٣٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٣/٣٧٦) ، (لبن) .

٥ ارشاد الساري (٨/٣٦٦ وما بعدها) .

٦ ارشاد الساري (٨/٣٧٧) .

٧ ارشاد الساري (٨/٣٨١) .

٨ البيان (٣/١١٤) .

وهو للشاعر ( عدي بن الرقاع ) ، وورد في شعر آخر :

إذا أخذت مسواكها مبحث به رضاباً كطعم الزنجيل المعلٰ<sup>١</sup>

واستعمل الإنمذ والكحل في معالجة الرمد<sup>٢</sup> ، كما استعملوا قطرات من أدوية استحضروها مثل ماء الكلمة في معالجة أمراض العين<sup>٣</sup> . وذكر أن الإنمذ يحدّ البصر ، ويقوي النظر<sup>٤</sup> .

والكحل ، من جملة مواد تطبيب العيون ، ومن جملة وسائل الرينة كذلك . يستعمله الرجال والنساء . وقد كان معروفاً عند الشعوب الأخرى ، يصنع من حرق اللبان أو قشور اللوز ، ومن السخام المتبقى من حرق بعض الدهون والزيوت<sup>٥</sup> . وقد عرفت مكة بصنع الكحل قبل الإسلام ، ولا تزال مشهورة به . وقد كان الناس يحملون المكاحل في جيوبهم ويحتفظون بها في بيوتهم ، يعملونها من القرون أو المعدن ، ويبالغ الأغنياء منهم في زخرفتها وفي تزيينها للتبرج بها عند اخراجها أمام الناس<sup>٦</sup> .

ونصحوا بتقطيع نقط من ماء بارد في العين عند النهوض من النوم ، بللاتها وإزالة الفشاشة عنها ، كما نصحوا بوضع القدمين واليدين في ماء بارد أو حار ، وذلك لمعالجة العين ، ولمعالجة القدمين واليدين أيضاً . وقد عرف العبرانيون هذه المعالجة كذلك<sup>٧</sup> .

وكانوا يعالجون الماء الأسود الذي يحدث في العين بالنقب ، أي القدح . وقد ورد في حديث ( أبي بكر ) أنه اشتكي عينه فكره أن ينقبها<sup>٨</sup> . و ( الناقب )

١ تاج العروس ( ١٤٦/٧ ) ، ( سوك ) .

٢ عمدة القاريء ( ٢٤٥/٢١ ) ، ارشاد الساري ( ٣٧٣/٨ ) .

٣ عمدة القاريء ( ٢٤٨/٢١ ) ، « ان الكلمة من اكمـن ، ومازها شفاء للعين ، وهي شفاء من السم » ، العقد الفريد ( ٢٧٢/٦ ) .

٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول ، ( ص ٢٦١ ) ، « عليكم بالإنمذ عند النوم ، فإنه يحد البصر ، وينبت الشعر » ، العقد الفريد ( ٢٧٣/٦ ) .

The Bible dictio., vol. II, p. 234.

Hastings, Dict., vol. I, p. 814.

Ency. of Relig. knowledge, vol., III, p. 1456.

٥ تاج العروس ( ٤٩٣/١ ) ( نقـب ) .

٦

٧

٨

و (الناقبة) داء يعرض للإنسان من طول الضجعة ، وقيل هي القرحة التي تخرج بالجلب<sup>١</sup> . وعالجو الماء الأبيض باستعمال الأشياء الرفيعة الحادة مثل السكين أو العاقول ، لرفع الغشاء الرقيق وسحبه عن العين ، بعد اكمال نزول الماء بها .

ولقطع تزيف الدم المنبعث من الجروح ، استعملوا الرماد<sup>٢</sup> ، والزيوت المغلية تسكب على الجرح ، لقطع تزيف الدم . أما التزيف النازل من الأنف ، وهو الرعاف ، فقد استخدمو الماء البارد لقطعه . وقد عرفوا كذلك ربط الجروح بشدة حتى يقف الدم فينقطع ، واستعملوا الضماد والمناديل لمنع الدم من الخروج ، ومن ذلك قولهم : ضمد الجرح ، أي شده<sup>٣</sup> . واستعملوا حرق الحصير والمواد القابلة للاشتعال لاستعمال رمادها لقطع التزيف<sup>٤</sup> ، أو وضع الملح على الجرح لايقاف تزيف الدم منه . ولمعرفة عمق الجروح ومقدار غورها ، استعملوا آلة يسمونها المسبار<sup>٥</sup> . والسبار<sup>٦</sup> ، فتيل يجعل في الجرح<sup>٧</sup> . ويعبرون عن مداواة الجرح بقولهم أَسَا الجُرْحَ ، أي داوه وشفاه<sup>٨</sup> .

وقد عولج الإمساك بالحقن ، أي حقن المريض ، وباستعمال المسهلات لتليين المعدة<sup>٩</sup> .

والباسور من الأمراض المعروفة عند الجاهلين ، وقد أشير إليه في كتب الحديث<sup>١٠</sup> . وفي حديث عمران بن حصين ، وكان مبسوراً ، أي به بواسير<sup>١١</sup> . وللقطة معربة . وال بواسير جمع (باسور)<sup>١٢</sup> . والناسور<sup>١٣</sup> علة تحدث في حوالى المعدة ، وعلة تحدث في المآقي ، وفي اللثة<sup>١٤</sup> .

- ١ تاج العروس (٤٩٣/١)، (نقب).
- ٢ عمدة القاريء (٢١/٢١)، صحيح مسلم (١٧٨/٥).
- ٣ غرائب اللغة (ص ١٩٣).
- ٤ ارشاد الساري (٣٨٠/٨).
- ٥ المغرب (٢٤٠).
- ٦ كتاب المعاني الكبير (٩٨٣/٢).
- ٧ شرح القاموس (٢٥٣/٣).
- ٨ غرائب اللغة (ص ١٧٢).
- ٩ المغرب (١٣٣)، تاج العروس (١٨٢/٩)، (حقن).
- ١٠ صحيح البخاري (٤٨١/٢)، الجمهرة (٢٥٥/١)، المغرب للجواليقي (٥٨).
- ١١ تاج العروس (٤٢/٣)، (بسـر).
- ١٢ تاج العروس (٥٦٤/٣)، (نـسر).

وعولجت الأورام التي تصيب الجلد بالمناقيع واللصقات ، ولا سيما اللصقات الحارة ، كي تعجل في اخراج الصديد من العضو المترم . واستعملت هذه اللصقات من سحق بعض الحبوب ذات المادة الدهنية ، مثل حب الكتان أو حب البخور ، وبعد سحقها توضع على النار ثم تفرغ في قاش لتوضع فوق الورم لازالته ، وتحويله إلى صديد . واستعملت من مواد أخرى مثل التمر مع الزبد وأمثالها ، وكلها على أساس ان الدفء الذي يكون فيها يسبب زوال الورم وتحول الدم الفاسد إلى صديد يخرج أو يجف .

واستعمل (الزقوم) في معالجة الجروح . وهو مر شديد المرارة ، وأشار إلى (شجرة الزقوم) و (شجر من زقوم) في القرآن الكريم<sup>١</sup> ، ولما نزلت الآية لم تعرف قريش معنى الكلمة ، فقال أبو جهل : إن هذا الشجر ما ينبع في بلادنا ، فلن منكم يعرف الزقوم ؟ فقال رجل قدم عليهم من أفريقيا : الزقوم بلغة أفريقيـة : الزبد بالتمر . فقال أبو جهل : يا جارية هاتي لنا زبـداً وتمراً نزدقـه ، فجعلـوا يأكلـون منه ويقولـون : أـفـهـمـاـ يـحـنـقـنـاـ مـحـمـدـ فـيـ الـآـخـرـةـ ! <sup>٢</sup> . والزقوم تبات بالبادية له زهر ياسيـنيـ الشـكـلـ . وقبل شجرة غبراء صغيرة الورق مدورةـ لاـ شـوكـ لهاـ ذـفـرةـ مـرـةـ لهاـ كـعـابـرـ فيـ سـوقـهاـ كـثـيرـ وـطاـ وـريـدـ ضـعـيفـ جـداـ مـجـرسـهـ النـحلـ وـنـورـهـ بـيـضـاءـ وـرـأـسـ وـرـقـهاـ قـبـيعـ جـداـ . وـفيـ أـرـيـحاـ شـجـرـةـ يـقالـ لهاـ الزـقـومـ لهاـ ثـمـ كـالـتـمـ حـلـ عـفـصـ ، وـلـنـوـاهـ دـهـنـ عـظـيمـ المـنـافـعـ فـيـ تـحـلـيلـ الـرـيـاحـ الـبـارـدةـ وأـمـراضـ الـبـلـغـ وـأـوـجـاعـ الـمـفـاصـلـ وـالـنـقـرـسـ وـعـرـقـ النـسـاـ ، وـذـكـرـ أـنـ أـصـلـهـ مـنـ الـهـنـدـ ، جـاءـتـ بـهـ بـنـوـ أـمـيـةـ مـنـ أـرـضـ الـهـنـدـ وـزـرـعـتـ بـأـرـيـحاـ <sup>٣</sup> .

وعولجت كسور العظام بالجهايز ، وبالدالك ، ووضع المناقيع فوق العضو المصاب عظمـهـ بالـكـسـرـ ، وـالـجـبـرـةـ : العـيـدانـ الـتـيـ تـجـبـرـ بـهـاـ الـعـظـامـ ، وـذـكـرـ جـبـرـ المـجـبـرـ هـاـ <sup>٤</sup> .

وـمـنـ الـمـصـطـلـحـاتـ الـطـبـيـةـ الـمـتـعـارـفـةـ عـنـدـ الـجـاهـلـيـينـ : (الـبـطـنـةـ)ـ ، وـهـيـ التـخـمـةـ .

١ الصافات ، الآية ٦٢ ، الدخان ، الآية ٤٣ ، الواقعة ، الآية ٥٢ .

٢ تاج العروس (٣٢٦/٨) ، (زقم) .

٣ تاج العروس (٣٢٦/٨) ، (زقم) .

٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٩٧) .

وتعالج بالحمية وبالمنتقعات والحقن . وقد عرف الجاهليون أثر المعسلة في الصحة العامة ، فعدّت بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء .

والأمراض التي تعرض لها الجاهليون عديدة ، منها : العمى ، والعمور ، والتهاب العيون ، والرمد ، ومنها : ما يصيب الجلد ، مثل البرص والوضح ، والبهق ، والحكمة ، والدمامل ، والبثور ، والجرب ، والقرح ، ومنها أمراض داخلية ، مثل أوجاع المعدة والكبد واليَرْقان والصداع والشقيقة ، وذات الجنب وأوجاع المفاصل والظامان ، والفالج ، والسل ، والحمى ، وأمراض أجهزة البول والحمى والبرُداء . وأمراض القلب والرعشة والجنون والأمراض العصبية الأخرى وغير ذلك من أمراض لا تزال معروفة .

ومن الأمراض المعروفة عند الجاهليين البرص ، وهو مرض يصيب الجلد ، وهو غير الجذام ويطلقون عليه (الوضوح) كذلك ، لبياض يظهر في ظاهر البدن <sup>١</sup> ومنه قيل لجميمة الأبرش جذبة الوضاح <sup>٢</sup> . وقد كان معروفاً في الشرق الأدنى ، وأشار إليه في التوراة ، وهو نوع من (البسوريات) Psoriasis أو (اللبرا) Lepra, Leprosy <sup>٣</sup> . ويظهر أنه كان كثير الانتشار ، ومن أصيب به (الحرث ابن حازة البشكري) <sup>٤</sup> ، وجاءة آخرون من الأشراف والمعروفين ذكرهم أهل الأخبار .

وقد نعت البرص بعض النعوت، فقيل له برص (المحلل) <sup>٥</sup> ، و(الوضاح) ، و (الوضوح) البرص . وقد كان الناس يكرهون مجالسة البرص خشية العدوى ، فكان الملك (عمرو بن هند) يتتجنب مؤاكلة البرص ، ويأمر بنضج الأمكنة التي يجلسون عليها حذر العدوى <sup>٦</sup> . وكانت قريش قد أخرجت (أبا عزة ، عمرو

١ تاج العروس (٤/٣٧٣) .

٢ «ويكتبي به عن البرص ، ومنه قيل لجميمة الأبرش : الوضاح . وسيأتي الكلام عليه وفي الحديث : رجل بكفه وضيق ، أي برص » تاج العروس (٢٤٧/٢) .

٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٢٢٠ وما بعدها) ،

The Univer. Jewish Ency., 7, p. 434.

٤ شرح المعلمات السبع ، للزوذني « دار صادر » (ص ١٥٤) .

٥ المعبر (ص ٢٩٩ وما بعدها) .

٦ المعبر (ص ٣٠١) .

٧ شرح المعلمات السبع ، للزوذني (ص ١٥٤) .

ابن عبدالله بن عمير بن وهيب بن حذافة ) ، وهو من البرص ، من مكة مخافة العدوى ، فكان يكون بالليل في شعف الجبال ، وبالنهار يستظل بالشجر<sup>١</sup> . وأما الجدام ، فإنه من الأمراض المعدية ، وقد كان معروفاً بين الجاهلين ، وقد ورد النهي عن الاختلاط بالمجنومين في حديث : « فر من المجنوم فرارك من الأسد » ، مما يدل على شدة عدوه واحتلاط المجنومين بين الناس في ذلك العهد . وذكر علماء اللغة أن الجدام علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله ، فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها ، وربما انتهى إلى تقطيع الأعضاء وسقوطها عن تفريح<sup>٢</sup> .

و (البهق) ، هو مرض جلدي أيضاً ، يترك بياضاً في الموضع المصايب من الجسد ، وهو (زرعة) في العبرانية . ويدعى Laprosy<sup>٣</sup> .

وقد كانت أمراض الجلد من الأمراض المتفشية بالنسبة إلى تلك الأزمة ، لقلة النعمة الطيبة وللقر وعدم توفر وسائل النظافة والتنظيف بين معظم الناس . ولوسوء تغذيتهم بسبب فقرهم العام .

و (السفعة) من أمراض الجلد ، وهي سواد أو حمرة يعلوها سواد أو صفرة ، تظهر في الوجه . وقد علل حدوثها بإصابة العين<sup>٤</sup> . والثولول ، بثر صغير صلب على صور شئ تصيب الجسد<sup>٥</sup> . وقد مات (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) من ثولول كان برأسه ، حلقة حلاق فقطعه فات منه<sup>٦</sup> .

ومن الأمراض الخطيرة التي أشير إليها في كتب الحديث والأخبار : الحمى ، وقد كانت شديدة الانتشار في المدينة<sup>٧</sup> ، حتى أضفت أجسام معظم أهل المدينة والمهاجرين . وهي علة يستحر بها الجسم . وقد أهلكت كثيراً من الناس ، ولذلك

١- المعبير (ص ٣٠٠ وما بعدها) .

٢- تاج العروس (٢٢٣/٨) ، تفسير الطبرى (٣٠/٢٠٠) .

٣- Hastings, A Dictionary of Christ and The Gospels, II, p. 24.

٤- ارشاد السارى (٣٩٠/٨) .

٥- تاج العروس (٢٤٣/٧) ، (٢٠٠) (ثالث) .

٦- الإصابة (٩٠/٤) ، (رقم ٥٣٨) .

٧- « والحمى والحمبة : علة يستحر بها الجسم من الحمم ، قيل سميت لما فيها من الحرارة المفرطة ، ومنه الحديث : الحمى من فبيع جهنم » ، تاج العروس (٨/٢٦١) (حمس) .

قيل : الحمى رائد الموت ، أو بريد الموت ، وقيل : باب الموت<sup>١</sup> . وقد اشتهرت خبر بنوع خاص من الحمى عرف باسمها ، فقيل : هي خبرية وهي خبر وهي خبيري<sup>٢</sup> . وذكر علماء اللغة أسماء للحمى تحكى صفاتها وكيفية ظهورها وتحكمها في البدن ، فقالوا : هي الغب ، وذلك إذا أخذت المريض يوماً وتركته يوماً<sup>٣</sup> ، وهي الربيع ، وهي الصالب ، وهي الحمى التي يكون معها صداع ، والنافس ، والراجف التي تكون معها رعدة ونفحة ، وهي مغبطة ومردمة ، أي دائمة عليه لا تقلع ، وتسمى الحمى المطيبة أيضاً ، والرعل الحمى ، وهي الروح ، وهي الدق<sup>٤</sup> أن يعني عليه في الحمى ، والورد هو يوم الحمى . ويقال للعرق الذي يتصلب من الحمى : الرُّحَضَاء ، ولأول ما يحس بالحمى : المسى<sup>٥</sup> . ويقال في السربانية للحمى ( جتو ) Hemto يعني حرارة<sup>٦</sup> .

وذكر أن ( هي صالب ) ، أو ( الصالب ) هي معها حر شديد وليس معها برد . وقال بعض علماء اللغة : الصالب من الحمى الحارة خلاف النافس . وقيل هي التي فيها رعدة وقشعريرة<sup>٧</sup> . و ( الحمة ) في تعريف العلماء علة يستحر بها الجسم ، سميت لما فيها من الحرارة المفرطة ، وإنما لما يعرض فيها من الحميم ، وهو العرق . وزد في الحديث : الحمى من فيح جهنم<sup>٨</sup> .

وقد لاقى الرسول<sup>٩</sup> والصحابة شدة من ( هي ) المدينة، وقد ذكر أن (أبا بكر) كان إذا أصابته الحمى – وكانت تزوره مناوبة – قال :

كل أمرئ مصبح في أهلها والموت أدنى من شراك نعله

١ تاج العروس ( ٢٦١/٨ ) ، ( حم ) .

٢ قال الشاعر الاخنس بن شهاب :

كما اعتاد محموما بخيبر صالب ، تاج العروس ( ١٦٩/٣ ) .

٣ تاج العروس ( ٤٠٣/١ ) ، ( غب ) .

٤ بنوغر الارب ( ٣٣٩/٣ وما بعدها ) .

٥ غرائب اللغة ( ص ١٧٩ ) .

٦ تاج العروس ( ٣٣٨/١ ) ، ( صلب ) .

٧ تاج العروس ( ٢٦١/٨ ) ، ( حم ) .

٨ ارشاد الساري ( ٣٤٩/٨ وما بعدها ) .

وكان بلال ، إذا أفلعت عنه الحمى ، يقول :

ألا لبيت شعري هل أبین ليلة بسادٍ وحولي اذخر وجليل  
وهل أردن يوماً مياء مجنة وهل تبدون لي شامة وطفيل

وكان عامر بن فهيرة ، يقول :

قد وجدت الموت قبل ذوقه كل امرئٍ مجاهد بطريقه  
كالثور يحمى جسمه بروقه<sup>١</sup>

إلى غير ذلك مما يخبر عن شدة وقع تلك الحمى في أجساد المهاجرين ، ولما رأى الرسول ما حلّ ب أصحابه من هذه الحمى ومن ضجرهم من الإقامة يثير بسيها توسل إلى الله أن يخفف عنهم أذاها وأن يزيل عنها هذا المرض ويرأها منه<sup>٢</sup> .

ويقسم العرب الحمى إلى نوعين : حمى يشعر الإنسان فيها بحرارة شديدة تصيب الجسم ، قد يجعله يتضيق عرقاً من شدة وقع الحمى على الجسم ، ولا يكون ما برد ، وقد يصاب المريض بها بصداع ووجع شديد في الرأس ، وهي يش الإنسان فيها بتنفسة ورعدة وقشعريرة ، يقال لها ( نافض ) و ( النافض ) و ( حمى نافض )<sup>٣</sup> ، وهي هي الرعدة ، لوجود رعدة وقشعريرة بها تصيب الجسم<sup>٤</sup> . ويقول العرب لقرة الحمى ومنها في أول عدتها ( العرواء ) ، وقد أول ما تأخذ من الرعدة<sup>٥</sup> . ويقال لهذه الحمى ( الراجف ) ، لأنها ذات رعد ترتجف مفاصل من هي به<sup>٦</sup> . و ( القعناع ) ، وهي حمى نافض تقعع الأضراس<sup>٧</sup> و ( الففة)<sup>٨</sup> .

١ ارشاد الساري ( ٣٤٧/٨ ) .

٢ اللهم حبب إلينا المدينة كجعبنا مكة أو أشد ، اللهم وصحبها وبارك لنا في مد وصاعها وانقل حمامها فاجعلها بالجحفة ، ارشاد الساري ( ٣٤٧/٨ ) .

٣ تاج العروس ( ٩٢/٥ ) ، ( نفط ) .

٤ تاج العروس ( ٣٥٤/٢ ) ، ( رعد ) .

٥ تاج العروس ( ٢٣٩/١٠ ) ، ( عرى ) .

٦ تاج العروس ( ١١٣/٦ ) ، ( رجف ) .

٧ تاج العروس ( ٤٧٧/٥ ) ، ( قع ) .

٨ تاج العروس ( ٢٢٥/٦ ) ، ( قف ) .

وقد كانت الحمى منتشرة في المواقع التي تكون فيها الينابيع والمستنقعات والمياه الآسنة الواقفة وما شاكل ذلك من أمكنته ، ولما كان العرب في حاجة شديدة إلى الماء ، كانوا يشربون منها اضطراراً ، فأصيروا بسبب ذلك بأنواع من الأمراض : وقد كانت وسائل مقاومة البعض الناقل للحمى غير معروفة ، كما ان وسائل العناية بالصحة وتنظيف الجسم لم تكن متوفرة عندهم بسبب فقر أكثرهم ، للذلك صارت أجسامهم معرضة ل مختلف الأمراض ، ولا سيما بين أهل المدر الدفين لم تكن بيونهم صحية ، ولا مياههم نقية ، وكانت بيونهم ضيقية غير صحية ، فكانوا يصابون بالسل وبالأمراض الأخرى ، أكثر من الأعراقب المباغعين في السكن ، والذين لا يعرفون البعض ، ويستنشقون الهواء النقي ، وتقيمهم الشمس من شر الجراثيم .

والذبحة ، وهي داء يأخذ بالحلق ، وقد كان معروفاً بين الجاهلين ، وكانوا يعالجوها بالكبي . ذكر أن الرسول كوى (أسعد بن زرار) في حلقة من (الذبحة) ، وقيل (الشوكة)<sup>١</sup> . وأنه عاد (البراء بن معروف) ، وأخذته الذبحة ، فأمر من لعنه بالنار<sup>٢</sup> :

وقد أشير إلى مرض عرف بـ (خطط) في نصوص المسند ، وقد فسر أنه برد شديد في الرأس<sup>٣</sup> .

وقد كانت الأوسمة تفتت الناس فتكاً ، فكان الأغنياء والموسردون يفرون من الأماكن المزدحمة إلى أماكن بعيدة ، ويلجأون إلى الصحاري ابتعداً عن المصايب بها . وكانوا يرجعون أسبابها وأسباب الأمراض عموماً إلى غضب الآلهة على الناس ، وإلى أرواح شريرة تصيب الجسم من الأكل والشرب ، وإلى أنواع من الموارم والمحشرات . ومن أشهر أنواع هذه الأوسمة الطاعون والجدري والهيضة .

والطاعون المرض العام والوباء ، وقد أشير إليه في كتب الحديث . ويظهر انه كان منتشرآً معروفاً في الحجاز وفي سائر أنحاء جزيرة العرب آنذاك<sup>٤</sup> . وقد جعل

١ اللسان (٤٣٨/٢) ، (ذبح) ، الاصابة (١/٥٠) ، (رقم ١١١) .

٢ اللسان (٤٣٨/٢) ، (ذبح) .

Mahram, p. 437.

٤ تاج المرروس (٢٦٩/٩) ، « طاعون عمواس » في أيام عمر ، ارشاد الساري (٨/٤٨٣ وما بعدها) .

بعض العلماء الطاعون نوعاً من أنواع الوباء ، وفرق بينها بعض علماء اللغة ، وجعلوا الوباء المرض العام عامة ، منها كان ، مثل انتشار الحمى والجذري والطاعون والتزلات والحكمة والأورام . وقد ذكرت الأوبئة في كتب الحديث<sup>١</sup> . و ( الدبل ) الطاعون<sup>٢</sup> .

ونسب البهائيون حدوث الطاعون الى ( وخز الجن ) ، فهو يقع لأن الجن تعن الشخص وتخذه فيصاب بالطاعون . وقد أشار الى هذا الرأي ( حسان بن ثابت ) ، أشار اليه في أثناء حديثه عن أعاصير نزلت به ( بصرى ) وبـ ( رمح ) وعن ( دخان نار ) ، حتى أثرت في كل قصر ومتزل في ذينك المكانين ، ثم أعقب ذلك ( وخز جن بأرض الروم )<sup>٣</sup> ، أي بلاد الشام وفيها المكانان المذكوران إذ كانت تحت حكم الروم ، كما أشار الى هذه الفكرة شاعر آخر اسمه ( الغساني)<sup>٤</sup> .

ونجد في كتابات المسند إشارات الى أوبئة تكسح البلاد فتفني عدداً كبيراً من الناس . فنجد فيها أن فلاناً يحمد الله لأنها منت عليه بالعافية وأنقذته من الوباء الذي تفشى في أيامه فأهلك الناس . وقد كان القدراء من الناس يهربون من الأرضين الموبوءة إلى أرضين أخرى بعيدة سالمة ليتخلصوا من الوباء . ونجد في الكتابة الموسومة بـ ( CIH 343 ) رجالاً اسمه ( يحيى ) يشكرون الله ( تائب ريام ) ، لأنه من عليه بالعافية وشفاه من المرض الذي نزل به في وباء انتشر فيها بين ( هوزن ) ( هوازن ) ( هوزان ) و ( سهرتن ) ( سهرت ) . وقد كانت الأوبئة تكسح المناطق الواقعة عند قواعد الجبال وفي المناطق الحارة الرطبة ، ولا سيما التهائم . وتقع ( هوزن ) ( هوزان ) ( هوازن ) عند مرتفعات ( حراز)<sup>٥</sup> .

وقد كانت الحروب من المصادر التي غدت العربية الجنوية بمادة دسمة من الأوبئة . فقد كانت تأتي على عدد كبير من الناس ، فتدركهم جثثاً تتغفن على ظاهر الأرض ، كما كانت تأتي على مواطن السكن ومواقع المياه وتأتي على كل

١ شرح القاموس ( ١ / ١٣٠ ) .

٢ تاج العروس ( ٧/٣١٧ ) ، ( دبل ) .

٣ فأجلل القوم عن حاجاتهم شغل من وخز جن بأرض الروم منكور البرقوقي ( ص ٢١٩ ) .

٤ البرقوقي ( ص ٢١٩ ) ، ديوان حسان ( ص ٧٩ ) « هرشفلد » .

٥ Beiträge, S. 119.

ما يملأ الناس ، وترتيد في مشكلة الفقر مشكلة ، وتبعد الناس عن النظافة ، فتهيئ بذلك للأوبئة أمكنة جيدة ، لتلعب بها كيف تشاء . ودليل ذلك ما نجده في كتابات المسند من اشارات الى أمراض وأوبئة تعم المناطق المنكوبة بالحروب ، حيث تكسح من الأحياء ، ما لم يتمكن السيف من اكتساحه منهم .

وذكر الأخباريون نوعاً من البثور يخرج بالبدن ، دعوه : العدسة ، عرفوه أنه : بثرة صغيرة شبيهة بالعدسة ، تخرج بالبدن مفرقة ، كالطاعون ، فتفتسل غالباً ، وقلما يسلم منها . وقد رمي بها أبو هب فات . والظاهر أن هذا المرض كان منتشرًا بمحنة ، فقد روی أن قريشاً كانت تتقى العدسة ، وتحذف عدواها<sup>١</sup> .

وقد كان الجاهليون يعرفون عدوى بعض الأمراض ، فكانوا يتتجنبونها ولا يقتربون من المريض المصاب بها ، وبطقون عليها العدوى<sup>٢</sup> ، فكانوا إذا أصيبوا بأوبئته ، فروا إلى أماكن بعيدة سليمة تهرباً منها ، وحجرروا على المريض ، لثلاث يقرب منهم ، فيتنتقل المرض إليهم . وذلك لما كانت الجاهلية تعتقد في بعض الأمراض من أنها تعدى بطبعها ، مثل الجذام<sup>٣</sup> .

والخصبة ، من الأمراض المعروفة عند الجاهليين<sup>٤</sup> . وكذلك الجدرى . وقد ذكر بعض الأخباريين أن أول جدري ظهر هو ما أصيب به أبرهة<sup>٥</sup> . وهو قول من هذه الأقوال المعروفة عند الأخباريين ، فالجدرى من الأمراض القديمة المعروفة عند الجاهليين قبل أبرهة بزمان .

وذكر أن العرب عالجت الخصبة والجدرى بمرار الشجر ، وبالحنظل والحرمل<sup>٦</sup> . و ( السل ) من الأمراض المعروفة بين الجاهليين . ذكر بعض أهل الأخبار انه عرف بـ ( داء الياس ) ، لأن ( الياس بن مضر ) أول من مات من السل ، فسمى بذلك ، وسي بـ ( ياس )<sup>٧</sup> .

١ تاج العروس ( ٤/١٨٦ ) ، الاشتقاد ( ص ١٤٣ ) .

٢ شرح القاموس ( ١٠/٢٣٤ ) .

٣ ارشاد الساري ( ٨/٣٧٣ ) .

٤ شرح القاموس ( ١/٢١٤ ) .

٥ شرح القاموس ( ٣/٨٩ ) .

٦ الاشتقاد ( ص ١٠١ ) .

٧ الروض الانف ( ٧/١ ) ، تاج العروس ( ٧/٣٧٨ ) ، ( سلل ) .

ومن العلل : البرقان ، والصداع ، و (الشقيقة) ، وهو وجع يكون في  
شت الرأس ، و (السعال) وجع في الصدر ، والزكام ، والزحير ، والمحصر  
وهو انقباض البطن ، والأسر وهو احتباس البول والمحصى في مجرى البول، والمحكة ،  
والمحضف ، والحرمة ، والشرى ، والحمق ، والقوباء ، والثقلول ، والعُرَّ  
وهو الجرب الأبيضن ، وداء الشعلب ويصيب الشعر ، وداء الفيل ويغتري الرجلين ،  
والدُّوَار ، والهيفة ، وتسمى الفضحة ، والنملة ، وهي بثور صغار مع ورم  
يسير ثم تفترج فتسى وتتشع ، وتسمى أيضاً النباب ، والجنون والخدر ، والفالج ،  
والحزاز وهي القشرة التي تصيب الرأس ، والخدبة ، والطرش ، والطلق ، والجشاء ،  
والباسور ، والناسور ، والبهق ، والكلف ، والمفس ، والمغضن ، والاستسقاء ،  
والإغماء ، والاختلاج ، والبخر ، والقواق ، والجشاشة ، والفلمس<sup>۱</sup> .

وَعْرَفَ الْقُوَّبَاءَ بِأَنَّهَا حَزَازَةٌ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَتْ بِوْجَهِ أَيْضَنِ بْنِ حَمَالِ بْنِ مَرْثَدِ بْنِ ذِي لَحِيَانِ الْمَأْرَبِيِّ السَّبَّئِيِّ حَزَازَةٌ ، تَوَسَّعَ فَالْتَّقَمَتْ أَنْفُهُ<sup>٢</sup> . وَالْقُوبَاءُ هُوَ الَّذِي يَظْهُرُ فِي الْجَسَدِ وَيُخْرُجُ عَلَيْهِ ، يَقْشُرُ وَيَتَسَعُ ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَعْالِجُ بِالْبَرِيقِ . وَقَالُوا :

يا عجباً هذه الفليقة هل تخلين القوباء بالريقة <sup>٣</sup>

وَدَمُ الْمَلُوكِ ، دُوَاءٌ يَنْفَعُ وَيَفِيدُ فِي مَعَالِجَةِ مِنْ يَعْصِيهِ كَلْبٌ كَلْبٌ فِي نَظَارِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَإِذَا أُصِيبَ إِنْسَانٌ بَدَاءَ الْكَلْبِ ، فَشَفَاؤُهُ بِمَعَالِجَتِهِ بِدَمِ الْمَلُوكِ . وَقَدْ عَرَفَهُ (ابْنُ دَرِيدَ) بِقَوْلِهِ : « وَالْكَلْبُ دَاءٌ يَصِيبُ النَّاسَ وَالْإِبَلَ شَيْءٌ بِالْجَنُونِ . وَكَانَتِ الْأَرْبَابُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَصَابَ الرَّجُلَ الْكَلْبَ ، قَطَرُوا لَهُ دَمَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ ، وَهُوَ عَامِرٌ بْنُ ثَعْلَبَةَ الْأَزْدِيِّ ، فَيُسْقَى ، فَكَانَ يُشْفَى مِنْهُ . قَالَ الشَّاعِرُ : دَمَّاْهُمْ مِنَ الْكَلْبِ الشَّفَاءَ »<sup>٤</sup>.

وكانوا إذا خافوا على المرأة الحامل ، ووجدوا أن ولادها ميت في بطنهما ،

١ بلوغ الارب ( ٣٣٩ / ٣ وما بعدها ) .

٢ - الاصابات (١٧/١)

٢ تاج المروس (٤٤١/١)، (قوب) .

الاشتقاق (ص ١٤) .

استخر جوه منها . وجوزوا قيام الرجل بذلك . وعبروا عن ذلك بـ (السطو)<sup>١</sup> .  
 ويلعب التطبيب بالسحر والرق والتعميد دوراً خطيراً في حياة الجاهلين ، كما يظهر ذلك من الأخبار الواردة في كتب الحديث والأدب ، حتى عد السحر نوعاً من الطب<sup>٢</sup> . وقد منع الإسلام أكثرها وحرمتها ، ومع ذلك بقيت حية مستعملة بين الأعراب والجهلة من أهل القرى الذين لا تساعدهم أحواهم المعاشرة على مراجعة الأطباء . ويقوم هذا التطبيب على التأثير في المريض ، واستعمال بعض الحرزاً أو عظام بعض الحيوانات والسحر ، بمحجة وجود علاقة بين المرض والأرواح ، وأن هذا النوع من التطبيب يطرد الروح الخبيثة التي تدخل الجسم فتصيبه بالمرض من ذلك الجسم . وهذا الرأي في المرض ، رأي شرق قديم ، سسيطر على كل الشعوب القديمة . فقد كان في رأي الأطباء ، أن المرض روح شريرة تستولي على الجسم المريض بدخولها فيه ، وإن واجب الطبيب العمل بعلمه وبفنه لاخراج الروح الشريرة من الجسم<sup>٣</sup> .

وفي جملة الوسائل التي استعملت لمكافحة المرض والتغلب على الأرواح الشريرة أو النظر ، أي إصابة الإنسان بالعين من حاسد تصيب عينه إصابة مؤذنة ، الاستعانت بالرق والتعميد . وقد كان العبرانيون يطلقون على التعميد لفظة ( حرط )<sup>٤</sup> ، وهي أنواع ، بعضها على هيئة قلب يعلق بسلسلة في العنق ، ويهطل القلب إلى الصدر ، فيكون من جملة وسائل الزينة ، وبعضها يربط بالعهد وفي مواضع أخرى من الجسم .

ولم يقتصر الجاهليون في اتخاذ هذه الوسائل على حماية أنفسهم فقط، بل اخذوها لحماية ما يملكونه أيضاً من حيوان وزرع وملك ، فلعلوا العظام أو المعادن أو نعل الحيوان مثل نعل الفرس ، ورسموا العين واليد على الجدر وفوق الأبواب ، لحمايتها من العيون المؤذنة ومن حسد الحاسدين ، ولا يزال الناس يستعملونها لحماية أنفسهم ومقتنياتهم من الإصابة بأذى العين وبحسد الحاسدين .

١ تاج العروس ( ١٧٧/١٠ ) ، ( سطا ) .

٢ عمدة القاريء ( ٢٦٣/٢١ ) وما بعدهما ) شرح القاموس ( ٣٥١/١ ) .

A. Jeremias, Altorientalische Geisteskultur, S. 55. ff., The Universal Jewish Ency., Vol. 7 pp. 434.  
Hastings Dict., Vol. I, p.88.

والجنون وسائر الأمراض العصبية معروفة بين الجاهلين أيضاً ، وهم يعدوتها من الأمراض التي تحدث للإنسان بسبب دخول الجنون والشياطين في جسد الإنسان فتسلكه ، ولا يمكن شفاء من أصحابه مس من الجنون أو لوثة في العقل ، إلا بإخراج الأرواح المسيطرة على المريض من جسده، ولذلك كان علاج هذه الأمراض من واجب الكهان والسحرة في الغالب ، بسبب كونها أمراضاً لم تقع من آفة في الجسد ، وإنما وقعت من عارض خارجي ، هو دخول الأرواح إلى الأجساد ، ومهمة إخراج تلك الأرواح من وظائف المذكورين .

وقد عالج العرب الجنون والخليل بشرب دماء من دماء الملوك . ومن أقوالهم: دماء الملوك شفاء من عضة الكلب الكلب والجنون والخليل . ومعالجة داء الكلب، بلعث دم الملوك أو الأشراف من الأدوية المشهورة عند الجاهلين في مداواة هذا المرض . ونسب إلى (الخليل بن أحمد) « أنه قال : دواء عضة الكلب الكلب النزاريع والعدس والشراب العتيق . وقد ذكر كيف صنعته وكم يُشرب منه وكيف ي تعالج به »<sup>١</sup> . وذكر أهل الأخبار أن (الأسود بن أوس بن الحمراء) أتى (النجاشي) فعلمه دواء الكلب ، وقد ورث ولده هذا الدواء . ومن ولده (المحل) . وقد داوى (عنيبة بن ميردادس) فأخرج منه مثل جراء الكلب<sup>٢</sup> . و (الأسود بن أوس) ، هو من (بني الحمراء) ، وهم من (ثعلبة بن يربوع) . وقد ذكر (ابن دريد) ، أن (الأسود بن أوس) تعلم من (النجاشي) ، دواء الكلب ، وأن نسله يداوون به العرب إلى اليوم ، أي إلى يومه ، وقد صار منهم اليوم إلى (بني المحل) ، فهو فيهم أيضاً<sup>٣</sup> .

وقد ظن الجاهليون أن النوم يؤدي إلى امتداد السم في جسد اللدغة ، فكانوا يلقون الجلاجل والخل على اللدغة ثم تحرك ثلا ينام فيدب السم في جسده<sup>٤</sup> . ويقولون انه اذا علق عليه أفق ، فيلقون عليه الأسوره والرُّعاث ، ويتركونها عليه سبعة أيام وينعن من النوم . قال النابغة :

١ عيون الاخبار (٢/٧٩) .

٢ عيون الاخبار (٢/٨٠) .

٣ الاشتقاء (١٣٨) .

٤ المعاني الكبير (٢/١٠٠٨) .

يسهد في وقت العشاء سليمها لحل النساء في يديه قعاقع<sup>١</sup>

وفي جملة ما داواها به الخدر الذي يصيب الرجل ، انهم كانوا يذكرون أحب الناس الى الشخص ، فيذهب الخدر عنه<sup>٢</sup> .

وزعموا انه اذا ظهرت بشفة الغلام بثور ، يأخذ منخلاً على رأسه ويمر بين بيوت الحي ، وينادي : **الحلا الحلا** ، فيلقى في منخله من ها هنا ثمرة ، ومن ها هنا كسرة ، ومن ثم بضعة لحم ، فإذا امتلأ ، نثره بين الكلاب ، فيذهب عنه البثور ، وذلك البثور يسمى : **الحلا**<sup>٣</sup> .

وإذا أراد أحدهم دخول قرية ، فخاف وباءها ، أو جنها ، فله سبيل سهل يحميه وبقيه ، هو أن يقف على باب القرية والموضع الذي ي يريد دخوله ، ثم ينبعق نهيق الحمار ، ثم يعلق عليه كعب أربب ، فيدخل عنده الموضع دون خوف . فقد فعل ما يتنبئ به الأذى والسوء . ويسمون ذلك التغشير . قال عروة بن الورد :  
لعمري لئن عشرت من خشية الردى نهاق الحمير لاني بلزوع<sup>٤</sup>

وإذا أردت المرأة المقلة أن يعيش ولدتها ، ففي إمكانها ذلك اذا تخطت القليل الشريف سبع مرات ، وعندئذ يعيش ولدتها . وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يلقى على المرء مترء<sup>٥</sup>

والجاهليون ، مثل غيرهم من شعوب ذلك الزمن ، وفي جملتهم العبرانيون ، كانوا يرون أن الأمراض هي غضب يسلطه الآلة على الإنسان لتنقم منه ، لسبب ما ، مثل عدم قيام المريض بواجباته تجاهها ، وهذا كانوا يسرعون بتقديم التذكرة والقرابين اليها ترضية لها . ويرد المرض اليهم ، بتسلط الهوام وبعض الديدان والأرواح الشريرة على الإنسان ، فخصصيه بالمرض . وهذا كان الطب من واجب

- 
- ١ نهاية الارب ( ١٢٤/٣ ) .
  - ٢ نهاية الارب ( ١٢٥/٣ ) .
  - ٣ نهاية الارب ( ١٢٥/٣ ) .
  - ٤ نهاية الارب ( ١٢٥/٣ ) ، بلوغ الارب ( ٣١٥/٢ ) .
  - ٥ نهاية الارب ( ١٢٤/٣ ) .

الكهان ورجال الدين بالدرجة الأولى ، هم يداوون المريض ويعطونه الوصفات التي يعتقدون أن فيها الشفاء للمريض ، كما كانوا يعتقدون بالنظر ، أي بإصابة الإنسان ، فيلحقه المرض<sup>١</sup> .

وقد مارس التطبيب بين العرب المبشرون ، وذلك بعد الميلاد بالطبع، وأكثرهم من الأعاجم ، وكانوا قد درسوا الطب وتعلموه على الطريقة اليونانية في الغالب ، فلما أرسلوا إلى بلاد العرب أو جاءوا هم أنفسهم للتبرير ، مارسوا تطبيب المرضى ، وقد شفوا جماعة من سادات القبائل ، وأثر شفاؤهم هذا عليهم فاعتنقوا النصرانية. واشتهر ( العباديون ) بالتطبيب كذلك<sup>٢</sup> ، ولعل ذلك بعامل تنصرهم ، فقد كان أكثر رجال الدين النصارى يدرسون مختلف العلوم ، وفي جملة ذلك الطب ، ومنهم من ترجم كتب العلوم اليونانية إلى السريانية ، فدرس العباديون هذه العلوم . وكان طبهم مبنياً على العلوم والتجارب السابقة ، ومتقدماً جداً بالنسبة إلى طب أهل الbadia ، لذلك نجح المبشرون والنصارى في معالجة أمراض الأعراب ، ولا سيما سادتهم ، الذين صاروا يقصدونهم لتأليل الشفاء على أيديهم . ومن ثم اشتهر النصارى بالطب ، ولما جاء الإسلام ، كان أكثر الأطباء من النصارى ، وعلى أيديهم تخرج الأطباء المسلمين .

وقد استخدم الجاهليون النساء لتمريض الجنحى في غزوهم وغارائهم ، وقد فعل المسلمون فعلهم . قالت ( بنت معوذ بن عفراء ) : « كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نسقى القوم ونخدمهم ونردّ القتلى والجنحى إلى المدينة »<sup>٣</sup> . وقد كان في مسجد الرسول موضع يعالج فيه المرضى والجنحى ، وكان الرسول والصحابة يتقدون المرضى النازلين به<sup>٤</sup> .

وليس في الموارد المتوفرة لدينا ما يدل على إقدام الأطباء الجاهليين على التشريح ، للاستفادة منه في زيادة علمهم بالطب . وقد كانت شعوب الشرق الأدنى تفتر من تشريح الإنسان ، وتعدّه مثلاً واهنة للمتوفى ، و عملاً مخالفًا لأحكام الدين ،

1 Hastings. Dict. of the Bible, p. 597. ff.

2 الفاخر ( ص ٥٨ ) .

3 ارشاد الساري ( ٣٦١/٨ ) .

4 كتاب الجهاد .

ولذلك نهت عنه<sup>١</sup>. والجاهليون لا يختلفون من هذه الناحية عن غيرهم لأن لم يزيلوا عليهم في هذه الأمور التي يعدّونها حرمة وكرامة للإنسان . وتشريع الميت وتنقطيع بعض أجزاء جسمه ، اعتداء على حرمة الميت ، واهانته له ولأهلة الأحياء ، وهذا لا نطعم في الحصول على موارد قد تقيد بوجود خبرة علمية عند الأطباء الجاهليين ناتجة من تجاربهم وبخوضهم التي حصلوا عليها من التشريح .

ولم يرد البنا أي شيء مفيد في الكتابات الجاهلية عن الطب والأطباء ، وإن أملنا الوحيد في الحصول على معارف عن الطب ، متوقف على المستقبل يوم يقوم علماء الآثار بالتنقيب تقييماً علمياً عميقاً في باطن الأطلال الأثرية ، للكشف عن تاريخ المرضين . وعندئذ يكون من الممكن العثور على نصوص قد تكشف النقاب عن الطب الجاهلي وعن العلوم الأخرى وعن مختلف فواعي الثقافة عند الجاهليين .

ويقال للمرض ( مرض ) أي مرض في الكتابات الجاهلية<sup>٢</sup> . وتؤدي للفظة ( حلزم ) ( حلظم ) ( حلظ ) معنى مرض ووباء<sup>٣</sup> . ويتبين من بعض الكتابات أن أوبئة شديدة وأمراض مهلكة كانت تقع في بعض الأحيان « ففتك بالناس . وقد كانوا يتتجنبونها بالضرر إلى الآلهة للرحمة بهم وتخلصهم من الضر ، كما كانوا يتربكون المدن والأماكن المزدحمة إلى محلات بعيدة مكشوفة غير موبوءة حتى ينكشف الوباء . وفي جملة هذه الأوبئة الطاعون .

ويعبر عن المرض في المستند بلفظة أخرى هي ( شين ) ، وهي في معنى ( شعين ) Sha'en في الأثيوبية و ( سيعون ) Se'on في العبرانية و ( شينو ) Shenu في البابلية<sup>٤</sup> ، وذلك كما في هذا النص السبئي : « تشين شين ارجلهرو » ، أي

Hastings, Dict., p. 598.

١

Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 33, Jamme, Sabaen Inscriptions, p. 441.

٢

خليل يحيى نامي ، نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرقها ، ( ص ٣٦ ) ، السطر السادس من النص رقم ٢٢ .

٣

Rhodokanakis, Kata. Texte, II, S. 33, CIIH, 407, Mardtmann und mittwoch, alt. Inseri., S. 47.

٤

Repe. Epi. Semi., Tome VII, Prim. Livr., p. 30. f. Num. 3991.

٥

المصدر نفسه ، الفقرة : ٧

المرض الذي مرض أرجله ، و (تشين) بمعنى المرض . وكما في هذه الجملة : « بن هو تشن »<sup>١</sup> ، أي « في هذا المرض » و « من هذا المرض » . وتعني (شن) أذى ومكروه ومعنى سوء كذلك ، وهي في عربتنا العرقية ضد (الزين) أي الحسن ، فنقول : زين وشين ، أي حسن وقبيح ، أو جيد وسُكرُوه .

ووردت لفظة (عوس) بمعنى وباء أو طاعون . وأما (خوم) ، فتؤدي معنى (وخم) و (خامة) ، ويراد بها انتشار الأمراض والأوبئة ، أي وباء . جاء في بعض النصوص (عوس ذكون بأرضن) ، أي (الأوبئة التي انتشرت بالأرضين)<sup>٢</sup> . وورد (خوم وعوس وموت كون بأرضن)<sup>٣</sup> ، أي (الوخامة) (الوخم) والأوبئة والواقفيات التي نفست في الأرض . ورد « كن ضلم وعوس باشعبن وهكزن » ، أي « وكانت أو وفشت أمراض وأوبئة بالقبائل والمدن»<sup>٤</sup> . وورد « خرم ذكين بكل ارضن » ، أي « الوخامة (أوبئة) نفست في كل أرض»<sup>٥</sup> . وفيهم من هذه النصوص أن العربية الجنوبية ، كانت معرضاً للأوبئة عامة ، تأتي فتكتسح البلاد اكتساحاً ، تميت الأعراقب ، أبناء القبائل ، كما تميت أهل المدن ، فتشمل مناطق واسعة من البلاد . وقد كانت تظهر خاصة بعد الحروب التي كانت تفني القرى والمدن ، وتدمي مواضع المياه ، وتترك الجثث ملقاة على سطح الأرض حتى تتنفس وتجيف ، فتفتشي منها الأمراض ، وتظهر الأوبئة ، وتتسرب إلى مواضع نائية لتضيف إلى خسائر الحرب خسائر أخرى فادحة في الأرواح .

وقد وردت في نصوص ثودية إشارات إلى أمراض كانت معروفة في ذلك الوقت<sup>٦</sup> .

١ المصدر نفسه ، الفقرة : ١٢ .

٢ خليل يحيى نامي ، تقويم عربية جنوبية ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ١٩٣٧ ، (ص ١٣ ، ١٦ ، ٢ قسم ١٩٥٤) ، (ص ٢١ وما بعدها) .

CIH 81, 4, Jamme 645, Ma. Mb. 275.

Ja 645, 13-14.

CIH 541, 72-73.

Rep. Epig., 4138, 4-5.

Grimme, S. 40.

٣

٤

٥

٦

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبّر عن الأوجاع والألام والأمراض والأسقام التي تصيب الإنسان ، وستعمل للتعبير عن منزلة ودرجة من درجات الأمراض التي تصيبه ، من نفسية وغير نفسية . وتحديد مدلولاتها وحدودها ، يفيدنا كثيراً في تكوين رأي في مدى تأثير الجاهليين بالنواحي الطبية والنفسية في ذلك العهد .

وقد كان الختان شائعاً بين العرب ، ويستعمل (الموسي) للختان ، ولوقف الدم تستعمل أدوية خاصة من مراهم ومواد ، كما يستعمل الضماد أيضاً . ولم يكن الختان من أعمال الطبيب ، إنما يقوم به الختان ، والخلافون والمجامون .

وقد عرف الجاهليون طريقة تغطية بعض العيوب أو الاصابات التي تلحق بأعضاء الجسم ، بالاستعانة بالوسائل الصناعية ، فشدوا الأسنان وقووها بالذهب ، وذلك بصنع أسلال منه تربط الأسنان ، أو يوضع لوح منه في محل الأسنان الساقطة<sup>١</sup> . واتخذوا أنوفاً من ذهب ، لتغطية الأنف المقطوع ، كالذى روى عن عرفجة بن أسعد من انه اتخذ أنفًا من ذهب ، وكان قد أصيب أنفه (يوم الطلاب) في الجاهلية<sup>٢</sup> .

وتحصص نفر من الجاهليين بمعالجة الحيوان ، وهم البياطرة ، يعالجون أمراضها فيصفون الأدوية ، يقال للواحد منهم البطير والبيطر والبيطار ، وقد أشير اليهم في أشعار الجاهلين<sup>٣</sup> . ويعالجون الجروح التي تصيبها . وفي جملة ما كانوا يعالجون به الكي<sup>٤</sup> . والمعالجة باستعمال القطران ، وذلك بطي الحيوان المريض به<sup>٥</sup> . ومن هذه الأمراض الجرب . ويقال للحيوان المطلي بالقطران (المقطور) أما اذا كان أثني ، مثل ناقة ، فيقال : «مقطورة»<sup>٦</sup> . ويقال إن الجرب ، هو العُر<sup>٧</sup> . والعُر<sup>٨</sup> بئر في الإبل ، ويعالج بالقطران . قال علامة الفحل :

قد أدبر العُر عنها وهي شاملها من ناصع القطران الصرف تدسيم<sup>٩</sup>

١- المعارف (ص ٨٢) .

٢- العقد الفريد (٦/٣٥٤) ، الطبقات ، لابن سعد (٤٥/٧) .

٣- تاج العروس (٣/٥١) ، (بطر) .

٤- تاج العروس (٣/٥٠٠) ، (قطر) .

٥- شرح ديوان لبيد (ص ١٢٢) .

٦- الفاخر (ص ٦٦) .

وكان بعضهم إذا وقع العُرَّ في إبلهم ، « اعترضوا بغيراً صحيحاً من تلك الإبل ، فنكروا مشفره وغضبه وفخدنه ، يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العُرَّ عن إبلهم ». ويقال لهم كانوا يفعلون ذلك ، ويقولون : تؤمن معه العدوى : قال النابغة :

وكلبني ذنب امرئه وتركه كذبي العُرَّ يكوى غيره وهو راتع<sup>١</sup>

والمناء : ضرب من القطران نطل به الإبل ، لمعالجة الجرب وغير ذلك . ويقال للجرب عند أول ظهوره : النقب<sup>٢</sup> . ويقال للبغير المهنئ بالقطaran (المشوف)<sup>٣</sup> .

وعالجوأ أمراض الجلد التي تصيب بها الإبل بطيتها بالنفط . ويقال لذلك : (الكمحيل)<sup>٤</sup> .

ومن الأمراض التي تصيب (الإبل) مرض (الدبرة) ، يظهر في ساق الإبل فلا يزال يأكل سaname حتى يُحبَّ ، أي يقطع ، وإلا نزل على السناسن فيصيبيها ويموت الحيوان . وإذا كان السنام مكسوفاً ، فإن الطير تنقره فيتآذى الحيوان ويتألم وقد يموت ، ولعل ذلك هو الذي حل الجاهلين على الشاوم من (الأخيل) وبعض الطيور الأخرى التي كانت تحيط على ظهور الإبل فتنقر سنامها . ويقال للجمل الذي يقطع سنامه (الأجب)<sup>٥</sup> .

ومن الأمراض التي كانت تصيب الإبل (السواف) ، وقد عرف بأنه داء يصيب الإبل فنهلك<sup>٦</sup> . و (الجارود) ، وهو مرض معد ، إذا فشا أهلك الإبل . وقد ظهر في (بكر بن وائل) ، فأهلك إبلها . وهم يعلمون انه من

١ نهاية الارب (١٢٣/٣) ، اللسان (٦/٢٣٠ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨) وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٦) .

٢ البيان (١/١٠٧) .

٣ شرح ديوان لميد (ص ١١٥) .

٤ تاج العروس (١/٣٣٢) ، (صبب) .

٥ شرح ديوان لميد (ص ١) .

٦ الاشتقاد (٢/٣١١) .

الأمراض التي تعدى ، وتنتقل بالعدوى<sup>١</sup> . وذكر أهل الأخبار ان ( الجارود العبدى ) ، وهو رجل من الصحابة من عبد القيس ، إنما سمي ( جاروداً ) لأنه فرّ يابله إلى أخواله من (بني شيبان) ويابله داء ، ففتشا ذلك الداء في إبل أخواله فأهلوكها ، وفيه يقول الشاعر :

لقد جرد الجارود<sup>٢</sup> بكر بن وائل

ولذلك سمي المشؤوم جاروداً<sup>٣</sup> .

ومن أمراض الدواب مرض يقال له ( العقل ) ، يصيب رجل الدابة ، إذا مشت ظلت ، وأكثر ما يعتري في الشاء<sup>٤</sup> . ومرض ( الحلمة ) ، دودة تقع في جلد الشاة الأعلى وجلدتها الأسفل ، وقيل : دودة تقع في الجلد فتأكله ، فإذا دبغ وهي موضع الأكل وبقي رقيقاً . وقيل : القراد أول ما يكون صغيراً ققامة ، ثم يصير حناناً ، ثم يصير قرadaً ، ثم حلمة<sup>٥</sup> .

وكانوا ينقون رحم الفرس أو الناقة من النطف ، وبخرون الولد من بطئ الفرس أو الناقة ويعبر عن ذلك بلفظة ( مسى )<sup>٦</sup> .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن لفظة ( بيطار ) ، هي من أصل يوناني ، هو

Ippiyatros

ومن الذين عرروا بين الماجهelin بمعرفتهم بالبيطرة ( العاص بن وائل ) ، وكان يعالج الخيل والإبل<sup>٧</sup> . وقد برع البياطرة بمعرفتهم خاصة بالخيل والإبل ، لأنها أثمن أموال العرب . وعناية العرب بالخيل ، هي التي حلت الإسلاميين على وضع مؤلفات خاصة فيها . ومن جملة من ألف في الخيل ( أبو عبيدة )

١ الاشتقاد ( ص ١٩٨ ) .

٢ اللسان ( ١١٦/٣ ) ، ( صادر ) ، ( جرد ) .

٣ اللسان ( ٤٦٣/١١ ) ، تاج العروس ( ٢٨/٨ ) ، ( عقل ) .

٤ تاج العروس ( ٢٥٦/٨ ) ، ( حلم ) .

٥ تاج العروس ( ٣٤٢/١٠ ) ، ( مسى ) .

٦ غرائب اللغة ( ص ٢٥٦ ) .

٧ المعارف ( ٥٧٦ ) ، ( اخراج ثروت عكاشة ) .

و (أبو زيد الأنباري) و (الأصمي) و آخرون<sup>١</sup> . وللأصمي كتاب في الإبل<sup>٢</sup> ، ولأبي عبيدة كتاب في الإبل كذلك<sup>٣</sup> . ولأبي زيد الأنباري كتاب في هذا الموضوع أيضاً . ولأحمد بن حاتم مثله ، وقد ألف غيرهم في الإبل وفي حيوانات أخرى<sup>٤</sup> . وقد طبعت بعض هذه الكتب .

- 
- ١ الفهرست (ص ٨٥ وما بعدها) .
  - ٢ الفهرست (ص ٨٨) .
  - ٣ الفهرست (ص ٨٦) .
  - ٤ الفهرست (ص ٨٧ وما بعدها) .

الفصل الثالثون بعد المئة

الهندسة والتكنولوجيا

ولا بد أن يكون للجاهلين علم بطرق السيطرة على المياه ، وبطرق استنباطها والاستفادة منها . ففي مواضع من اليمن والمحجاز والمرية الجنوبية آثار سدود مثل سد مأرب ، لا يمكن أن تكون قد أنشئت بغير علم ودرأية وخبرة . وفيها في كيفية جمع المياه في خزاناتها ، وفن في كيفية تصريفها وتوزيعها وقت الحاجة بقدر ، وفيها أبواب تحكم في سير الماء . كذلك كان لهم علم في حفر الآبار وإنشاء الصهاريج لجر المياه إلى الأماكن التي تحتاج إليها . وقد اشتهرت ثقيف بعلمها بطرق استنباط المياه . واشتهرت قبائل أخرى بهذا العلم أيضاً ، وذكر أن بعضها كانت تفترس وتحدرس بوجود الماء من نظرها إلى لون التربة ومن شمها ومن علامات أخرى عرفوها وأدركتوها بالتجربة .

ونجد اليوم بقایا سدود استخدمت لحبس (السيول) للاستفادة منها في الشرب وفي الزراعة . وتقع أكثر هذه السدود في الأودية التي تكون مساليل تسيل منها الأمطار المتساقطة في موسم المطر في العربية الجنوبيّة . فتعمل الأحباس بين طرفي الوادي لتحبس الماء ، فلا يندفع إلى الموضع المنخفضة فيه عيشاً ، وبذلك يرتفع مستوى ، فيسقي الزرع على جانبيه ، وتعمل سواعي تسيل منها المياه إلى الأماكن المنخفضة التي تقع تحت هذه الأحباس وهكذا تسقي بقية المزارع . وتختلف هذه الأحباس من حيث جودة العمل والاتقان ، في بعضها أحباس بدائية بسيطة ،

عملت من الأتربة ، أو من الأحجار والصخور ، على شكل ( سكر ) ، يمنع الماء من المرور ، وبعضاها عملت بصورة فنية متقدة من الحجر الموضوع بعضه فوق بعض ، مع استخدام مواد ماسكة لشد الحجر بعضه إلى بعض ، وقد يطلي السد عادة تمنع الماء من اللعب به . وتعمل به منافذ ذات أبواب ، تسد وتفتح حسب الحاجة للتحكم بالماء . وتلاحظ بقايا هذه السدود اليوم في وادي مبلقه ، وفي وادي بيحان ، وفي وادي حربيب ، وفي أودية أخرى عديدة .

أما أهل الموضع المرتفعة مثل الهضاب والجبال ، فقد عمدوا إلى عمل حواجز وحوائط منخفضة ، لمنع المطر من الانحدار ، إذ تخسره هذه الحواجز ، فيسفل إلى المزارع ليسقيها ، وقد تعمل له مجاري ليسيّل الزائد منه والذي لا يحتاج إليه إلى أسفل ، فلا يغرق الزرع . وقد يوجه إلى كهوف وآبار محفورة وكهاريس ، لاستغلال الماء ، للاستفادة منه في مواسم انحباس الأمطار .

وتوجد في المعابد فوهات تدفع مياه الأمطار حين سقوطها إلى مجاري بنيت تحت الأرض تؤدي إلى صهاريج تخزن فيها مياه الأمطار . وقد عثرت بعثة (وندل فيليس) الأمريكية على مواضع خزن الماء في معبد مأرب المعروف في الكتباليات بمعبد (أوم) ، (أوام) المخصص لعبادة (المقه) إله سبا الرئيس . ونجد مثل هذه المخازن في المعابد الأخرى أيضاً . وخزن الماء على هذه الطريقة، أسلوب متبع في فلسطين وفي المواقع الأخرى ذات الأرض الصلدة الحجرية ، حيث تنقر الأرض وتعمل بها كهوف كبيرة تخزن فيها المياه <sup>١</sup> .

وقد تخصص قوم وتفرسوا بمعرفة مواطن المياه واستنباطها وساعدوا في حفر الآبار وفي حفر القنوات وإنشائها . وفي كتب اللغة ألفاظ أطلقـت على الأدلة الخبراء أصحاب العلم بمواضع وجود الماء في باطن الأرض ، مثل جواب الفلاة ، وذلك لأنـه كان لا يـخـرـ صـخـرـةـ إـلـاـ أـمـاهـاـ ، وـالـقـنـاقـنـ ، وـهـوـ الدـلـيلـ الـهـادـيـ الـبـصـيرـ بـالـمـاءـ تخـنـتـ الـأـرـضـ فيـ حـفـرـ القـنـىـ ، وـالـعـيـافـ ، وـقـدـ تـحـدـثـتـ عـنـهـ وـتـطـلـقـ أـيـضـاـ عـلـىـ الدـلـيلـ الـذـيـ يـعـرـفـ مـوـضـعـ الـمـاءـ مـنـ الـأـرـضـ <sup>٢</sup> .

والماء في الأرضين الجافة القاحلة ، نعمـةـ كـبـرىـ وـجـاـةـ لـأـهـلـهـاـ ، فـكـانـواـ يـفـرـحـونـ

ويشكرون آلهتهم ويترقبون إليها بالذبائح والتنور عند عثورهم على الماء في الأرضين التي يحفرون فيها الآبار . ولهذا قدسوا الآبار وأسبغوا عليها القدسية ، وتقربوا لها بالتنور والهدايا ، وعدوا مياها شافية نافعة مقدسة . والبشر ثروة تدر على أصحابها المال . وقد يبارك الكهان والرؤساء تلك الآبار ، لتنعم على أصحابها بالماء الغزير . وقد كان ( المحققون ) ( مختقim ) ، وهو الرؤساء عند العبرانيين ، يحضرن الاحتفالات ، ويشكرون إله إسرائيل عند ظهور الماء في الآبار ، على نحو ما يفعله العرب في مثل هذه الأحوال<sup>١</sup> .

وقد جأ الجاهليون إلى التحايل في استصلاح الماء الأجاج أو الكدر ، للاستفادة منه في الشرب ، فذكر إذا كانت بهم حاجة ماسة إلى الماء ، ولم يجدوا إلا ماء البحر أو الماء الأجاج الملح ، وضعوه في قدر ، ووضعوا فوق القدر قصبات وعليها صوف منفوش ، ثم يوقد تحت القدر ، حتى يرتفع البخار ، فيدخل مسامات الصوف ، ويمتلئ به . فإذا كثُر ، عصر في إناء ، ولا يزال على هذا الفعل حتى تجتمع كمية من الماء العذب ، وترسب الأملاح في القدر . وذكر أيضاً أنهم كانوا يحفرون في الشاطئ حفرة واسعة ، ليترush إلى يترush إليها ماء البحر ، ثم إلى جانبيها وقرب منها حفرة أخرى يترush إليها الماء من الثانية ، ثم تمحف حفرة ثالثة ، وهكذا حتى يعذب الماء .

أما الماء الكدر ، فقد كانوا يتخلصون من كدرته باليقاء مواد فيها لتعلق الكدرة بها ، فإذا رسبت ، رسبت الكدرة معها ، وبذلك يتنقى الماء . وفي جملة المواد التي استعملوها الجمر الملتهب ، يلقى به في الماء ، فإذا انطفأ وتحول إلى فحم ، أخذ معه ما يجده من الكدرة ، فيصفو بذلك الماء ، واستعملوا نوعاً من الطين وسوق الحنطة<sup>٢</sup> .

وقد عرفت هذه الفراسة ، فراسة استبطاط الماء من الأرض ، بالأمارات الدالة على وجوده ، على نحو ما ذكرت من شم التربة ، أو برائحة بعض النباتات فيه ، أو بمراقبة حركات الحيوان ، ويقال لها : الريافة<sup>٣</sup> .

Ency. Bibl., vol., I, p. 515.

١

بلوغ الارب ( ٣٩٦ / ١ ) ٠

٢

بلوغ الارب ( ٣٤٣ / ٣ ) ٠

٣

وتوجد اليوم آبار قديمة في مواضع مختلفة من جزيرة العرب عميقه جداً ، ولا زال الناس يستقون منها الماء . وهي عاديه ، أي قديمة تعود إلى ما قبل الاسلام . وكانت عليها مستوطنات تعيش على ماء هذه الآبار . ولهذا فلا غرابة إذا ما وجدنا القدماء يقدسون الآبار ويعتبرونها من مصادر الحياة بالنسبة لهم ، لأنها تمدهم وتمد إياهم وكل ماشيتهم بعرق الحياة وروحها . ويبدل عمقها على مقدار ما بذله الخفارون من جهد حتى توصلوا إلى تلك الأعمق بوسائلهم البدائية التي كانت متوفرة عندهم في ذلك العهد .

والآبار هي من مصادر الحضارة والتحضر في جزيرة العرب ، فلولاها ولو لا موارد الماء الأخرى ، لما ظهرت المستوطنات ، ولما ظهر زرع ، ولما عاش ضرع . ولهذا صارت البوادي أرضين فقراء لا يسكنها ساكن إلا إذا استنبط ماء فيها ، أو سقط غيث عليها . ولقيمة الماء في حياة جزيرة العرب ، نجد نصوص المسند تذكرها وتشر إلى الأرضين التي تسقى منها ، وتعتبرها من مصادر النعمة والثراء . ولأهمية الماء ، كانوا يتقربون إلى آهتهم بالقربان وبالأدعية والتسلات ، لأن تمنحهم المطر ، وتسقى أرضهم على أحسن وجه ، وقد كان من واجب رجال الدين الاستقاء ، وذلك بأن يتسلوا إلى آهتهم بأن تمنَّ على عبيدها بالمطر ، يقومون به بإجراء طقوس دينية خاصة ، وربما استعنوا بالسحر في هذا الاستقاء . وقد كانت الشعوب الأخرى تستسقى كذلك ، وتستعين بالسحر في إرضاء الآلهة لكي تنزل الغيث على المحتججين اليه . وقد عرف الاستقاء بمكة وعند سائر العرب ، كما تحدثت عن ذلك في مواضع من هذا الكتاب . والأغلب أن الكهنة كانوا هم الذين يقومون بالاستقاء ، لأنه من صميم أعمالهم وواجباتهم<sup>١</sup> .

وقد سبق أن تحدثت عن شق الطرق في الهضاب وفي جبال اليمن ، لايصال القرى والمدن بعضها البعض . وقد أبدع المهندسون في ذلك الوقت في شق الطرق في المناطق الجبلية ، ويسمونها (مسبا)<sup>٢</sup> ، ولا تزال آثار بعض منها موجودة حتى اليوم . ووردت لفظة (مذهب) في نصوص المسند ، بمعنى المر والطريق والمعبر<sup>٣</sup> .

١ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 53, amm. 2, 5, R. Smith, Religion der Semiten, S. 59, Goldziher, im Festschrift für Th. Nöldeke, S. 300.

٢ راجع النص رقم ٤٦٢٤ المنشور في الصفحة ٢٧٦ من كتاب : REP. EPIG., VII, II.

٣ Jamme 618, 16, Mahram, p. 119.

وقد قام المهندسون بإصلاح الطرق ، ونجد لفظة ( درك ) Derek في العبرانية يعني ( الطريق )<sup>١</sup> . والدَرْكُ في العربية أَسْفَلُ كُلِّ شَيْءٍ ، ومراتب الهبوط<sup>٢</sup> ، ولعلها في الأصل الطريق المنحدر إلى أسفل . وأما السبيل ، فالطريق . وتنقابل هذه اللفظة لفظة ( شَبَيل ) في العبرانية<sup>٣</sup> . و ( السراط ) ( الصراط ) الطريق المهد المعبد ، واللفظة من الألفاظ المغربية عن اللاتينية ، من أصل Strata ، يعنى طريق مبلط ، وطريق كبير واضح<sup>٤</sup> .

### النوع والتوقيت :

ومعارفنا بالأنواع والتوقيت عند الجاهليين قليلة ضحلة . وهي مبعثرة في كتب اللغة والأدب وفروع المعرفة الأخرى ، مثل كتب الجغرافيا والأنواع . ولم يصل اليانا شيء منها في نصوص المسند . غير أن ما نجده في المؤلفات المذكورة على قلته وضالته يدل على أن الجاهليين كانوا أصحاب عناية ودرأة بالأنواع والتوقيت وأنهم كانوا على علم أو شيء من العلم بالأنواع عند غيرهم ، مثل أهل العراق أو أهل بلاد الشام . ولعلهم كانوا على اتصال مباشر أو بالواسطة بعلم اليونان واللاتين بالأنواع .

وعدم وصول شيء – في كتابات المسند – من علم النجوم والأنواع وما يتعلق بعلم الفلك ، لا يمكن أن يكون دليلاً بالطبع على عدم وجود علم لأهل العربية الجنوية الجاهلين بالفلك ، ولا يعقل ألا يكون لهم علم به . فقد كان العرب الجنوبيون أصحاب زراعة وتجارة ، وكانوا يركبون البحر . وركوب البحر يحتاج إلى علم بالنجوم وبتقديرات الجو كما كانت دياناتهم تقوم على أساس تقديس النجوم . ولهذه الملاحظات لا بد أن يكون لأهل اليمن وغيرهم من أهل العربية الجنوية علم بالأنواع . وقد يعثر في يوم ما على نصوص مدونة بلهجاتهم فيها شيء مما من أمر هذا العلم .

Hastings, extra volume, p. 368.

١ تاج انطروس ( ١٢٧/٧ ) ، ( درك ) .

٢ Hastings, extra volume, p. 368.

٣ غرائب اللغة ( ٢٧٨ ) .

والنوء عند الجاهليين هو النجم إذا مال للغرب ، أو هو سقوط النجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه ، وهو نجم آخر يقابلة من ساعته في المشرق . وإنما سمي نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع ، وذلك الطلع هو النوء . وبعضهم يجعل النوء هو السقوط . وكانت العرب تضييف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، فتقول : مطرنا بنوء كذا<sup>١</sup> . قال الشاعر :

ينعي امرءاً لاتغب الحيَّ جفته إذا الكواكب أخطأ نوءها المطر<sup>٢</sup>

وذكر أن من طلوع كل نجم إلى طلوع رقيبه ، وهو النجم الآخر الذي يليه ثلاثة عشر يوماً ، وهكذا كل نجم منها إلى القضاء السنة ، ما خلا الجبهة ، فإن لها أربعة عشر يوماً ، فتنقضي جميعها مع القضاء السنة . وذلك ليكمل السنة ثلاثة وخمسة وستين يوماً . وذكر بعض العلماء أن العرب لا تستثنى بالنجوم كلها ، إنما يذكر في الأنواء بعضها . وقال (ابن الأعرابي) : « لا يكون نوء حتى يكون مطر معه ، وإلا فلا نوء »<sup>٣</sup> .

وقد زعموا أن لكل نوء أثر في هذا الكون وفي الإنسان . فإذا حدث شيء وقع أمر نسبوه إلى نوئه . وفي جملة ما نسبوا أثره إلى الأنواء : حدوث المطر ، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى أثر النجم الطالع في ذلك الوقت . فيقولون مطرنا بنوء كذا . وقد ذهبوا إلى أن الأنواء (٢٨) نوءاً أو نجماً اعتقادوا أنها علة الأمطار والرياح والحر والبرد<sup>٤</sup> . وقد ذكروا الأنواء المطرية ومواسم المطر<sup>٥</sup> . ونظراً إلى أن السنة أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، لكل نوء ثلاثة عشر يوماً ، إلا نوء الجبهة فإنه أربعة عشر يوماً ، فيكون مجموع أيام السنة (٣٦٥) يوماً ، وهو المقدار الذي تقطع الشمس فيه بروج الفلك الثاني عشر<sup>٦</sup> . ونظراً لأهمية المطر في حياة جزيرة العرب ، اهتموا بمراقبة مظاهر الأنواء

١ تاج العروس (٤٧٢/١ وما بعدها) ، المخصص (١٣/٩ وما بعدها) ، العمدة (٢٥٣/٢).

٢ الخزانة (٩٣/١) ، (بولاق) .

٣ تاج العروس (٤٧٣/١) ، « الكويت » ، العمدة (٢٥٣/٢).

٤ زيدان : تاريخ ادب اللغة العربية (٢٠٢/١) .

٥ تاج العروس (٤٧٣/٢) .

٦ العمدة (٢٥٣/٢) .

وألوان السحب ، وقد علمتهم تجاربهم ان السحب البيضاء ، لا تكون مطرة ، وأن السحب السوداء تكون هطلة ، تهطل الأمراض وتغيث الناس<sup>١</sup>.

هذا وتجد للسحب أسماء كثيرة من حيث ترتيبها وأوصافها وقرها أو بعدها عن الأرض ومن حيث لونها واحتلال وجود الغيث فيها<sup>٢</sup>. وفي كثرة هذه الأسماء دلالة على شدة اهتمام العرب بالسحب لما له من أثر في حياتهم ، لا سيما بالنسبة الى نزول الغيث . فقد كانوا يستسقون بالنوء، ويرجعون سبب سقوط المطر إليه .

ولتعارض عقيدة الجاهلين هذه مع عقيدة الإسلام في الخلق والأسباب ، جاء التهبي عنها في الإسلام . ورد في الحديث : « من قال سقينا بالنجم ، فقد آمن بالنجم وكفر بالله »<sup>٣</sup> . وجعلت الأنواء من الأمور الثلاثة التي عرفت بالجاهلية والتي نهى عنها الإسلام : الطعن في الأنساب والنياحة والأنواء<sup>٤</sup> .

وكانوا يكرهون نوء السياك ، ويقولون فيه داء الإبل ، قال الشاعر :

ليت السياك ونوءه لم يختلفا ومشي الأفريقي في البلاد سلاماً

والسياك ، سماكان : الأعزل والرامح وهو نجحان نيران : وسيسي أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب ، كالعزل الذي لا رمح معه . ويقال لأنه إذا طلع لا يكون في أيامه ريح ولا برد ، وهو أعزل منها . وهو من منازل القمر ، والرامح ليس من منازله ولا نوء له ، وهو إلى جهة الشمال . والأعزل من كواكب الأنواء وهو إلى جهة الجنوب . وهذا في برج الميزان . ويقول الساجع : إذا طلع السياك ، ذهب العكاك ، فأصلح قتاك ، وأجد حذاك ، فإن الشتاء قد أتاك<sup>٥</sup> .

وقد تخصص قوم بالنوء ، ورد أن ( عمر بن الخطاب ) « نادى العباس : كم بقى من نوء الثريا ؟ فقال : إن العلماء بها يزعمون أنها تغترض في الأفق سبعاً

١ الميداني ( ١٠٩/٧ ) .

٢ نهاية الارب ( ١٠٧/٧٢ ) وما بعدها .

٣ تاج العروس ( ٤٧٤/١ ) « الكويت » .

٤ الأنواء ( ص ١٣ ) وما بعدها .

٥ نهاية الارب ( ٣/١٢٦ ) .

٦ تاج العروس ( ٧/١٤٤ ) وما بعدها .

بعد وقوعها . فوالله ما مضت تلك السبع <sup>١</sup> حتى غيث الناس <sup>٢</sup> . وكانوا إذا أرادوا الوقوف على ظواهر الجمود جلأوا إلى العالمين بالأنواع ، وكانوا إذا أرادوا التعبير عن خبرها ، قالوا مثلاً : « ما بالبادية أثوا منه ، أي أعلم بالأنواع منه » <sup>٣</sup> . وذكر أهل الأخبار أن ( الحارث بن زياد بن ربيع ) ، لم يكن في الأرض عربي أبصر منه بنجم <sup>٤</sup> .

واعتقاد راسخ مثل هذا في الكواكب والنجوم ، لا بد أن يحمل الجاهليين على تبع ما ورد عند الأمم الأخرى من علم الأنواع ، للاستفادة منه في حياتهم العملية ، وقد عاش بينهم عدد كبير من اليهود ، وهؤلاء علم أيضاً بالأنواع ، ولم يهتم بهذا العلم ، لما له من علاقة بشئونهم الدينية . ثم كان بينهم نصارى وقفوا على هذا العلم أيضاً ، وكان هؤلاء قد هضموا علم الشرقيين به وطعموا علمهم وعلم الشرقيين بما ورد في كتب اليونان واللاتين من علم به .

وقد اتخذ الجاهليون النجوم دليلاً لهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر . وقد أشير إلى ذلك في سورة الأنعام : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » <sup>٥</sup> . ولا بد للإهتداء بها من الوقوف عليها ، ووضع أسامة لها ، وتعيين البارز منها ، ووضع معالم لها ، ليكون في الامكان معرفتها ومعرفة اتجاهات السير بها ، والاستعانة بها وبالجهات الأربع في معرفة الاتجاه المأودي إلى المكان المراد . فكانوا إذا سألهم سائل عن طريق قالوا : « عليك بنجم كذا وكذا » ، أو « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء البسرى العاقد لها .. » <sup>٦</sup> إلى آخر ذلك من إشارات تفيد استدلالهم بالنجوم والكواكب وبالطالع لمعرفة الطرق .

وفي الشعر الجاهلي أبيات تشير إلى اهتداء الناس في سيرهم بالنجوم فورد في شعر لسلامة بن جندل في المسير ليلاً :

ونحن نعشو لكم تحت المصايح

- |   |  |
|---|--|
| ١ | تاج العروس ( ٤٧٤/١ ) .   |
| ٢ | تاج العروس ( ٤٧٤/١ ) .   |
| ٣ | الاستيقان ( ٢٣٩ ) .  |
| ٤ | الأنعام ، سورة رقم ٩٧ .  |
| ٥ | البيروني ، الآثار الباقية ( ٢٣٨ ) ، تاريخ التمدن الإسلامي ( ١٥/٣ ) . |

وقد سار أهل الجاهلية مثل غيرهم من الأمم القديمة على فكرة تقسيم السماء إلى (بروج) . وقد أشير إلى البروج في القرآن في سورة الحجر : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً »<sup>٢</sup> ، وفي سورة البروج : « والسماء ذات البروج »<sup>٣</sup> . وقد قسم اليونان واللاتين السماء إلى (بروج) . وعرف كل برج عندهم بلفظة : (بركس) Burgus . ومن هذا الأصل أخذت لفظة (البرج) و (البروج) . أخذت إما من اللاتينية أو اليونانية مباشرة ، وإما من السريانية بالواسطة<sup>٤</sup> ، وذلك قبل الإسلام بأمد ، فتعربت وصارت من الألفاظ العربية الأعجمية الأصل ، مثل ألفاظ أخرى دخلت العربية من أصل يوناني ولاطيبي قبل الإسلام بستين .

وال McCabe أفلالك تدور فيها ، وقد أشير إليها في القرآن ، فورد : « وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون »<sup>٥</sup> . وهي عندهم مدارات دائيرية على هيئة حجر الرحى ، تدور الشمس والقمر وال McCabe بها ، كل في فلك مقدر له<sup>٦</sup> .

ويرى ( ناليتو ) ، أن ما ورد في القرآن الكريم عن (البروج) ، وكذلك ما ورد في الخطبة المنسوبة إلى قُس بن ساعدة الإيادي من قوله : « وسماء ذات أبراج » لا يعني بالضرورة وقوف الجاهليين على البروج الثاني عشر ، وأخذهم بهذه النظرية الفلكية ، وذلك لأمور ذكرها ، وحجج أوردها . وفي جملتها أن سماء كل البروج ، ما عدا الجوزاء مترجمة من أعمالها اليونانية والسريانية . ثم إن هذه البروج لم تكن ذات فائدة عملية للجاهليين ، وهذا لا يتحمل اهتمام بها ، وأنذهم بها ، ولا سيما ان معارفهم الفلكية لم تكن واسعة عميقه . وهذا ذهب إلى أن ما ورد في القرآن عن البروج ، لا يراد به الصور المعروفة الموجودة عند

١ الانواء (ص ١٨٦) .

٢ السورة رقم ١٦ .

٣ سورة البروج .

٤ كتاب صور McCabe التمانية والأربعين ، تأليف عبد الرحمن بن عمر الرازي الصوفي ، المطبعة العثمانية ١٩٥٤ م ، كتاب الانواء (ص ط) ، المخصص (١٢/٩) Ency., I, p. 796, Fränkel, Die Aramaische Fremdwörter in Arabisch, S. 235.

٥ الانبياء ، الآية ٣٣ ، تفسير الطبرى (١٧ / ١٦ وما بعدها) .

٦ تفسير الطبرى (١٦ / ١٧ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٢) .

اليونانيين والتي وقف عليها العرب في عصور الترجمة ، وإنما هي مجرد نجوم . وقد استشهد بعض مقطفات من كتب التفسير ، في تفسير لفظة ( البروج )<sup>١</sup> . وقد ذكر ( الطبرى ) أن ( البروج ) الواردة في ( سورة البروج )<sup>٢</sup> الكواكب ، والنجوم ، والأصوب : منازل الشمس والقمر ، « وذلك أن البروج جمع برج ، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة ، ومن ذلك قول الله : ولو كتم في بروج مشيدة . وهي منازل مرتفعة عالية في السماء . وهي اثنا عشر برجاً ، فسir القمر في كل برج منها يومان وثلث ، فذلك ثمانية وعشرون متولاً » ، ثم ثم يستسر ليتين . ومسير الشمس في كل برج منها شهر »<sup>٣</sup> .

ونسب إلى أمية بن أبي الصلت علم بالبروج والكواكب ، وقد ورد في الأخبار : أن الرسول أشد قوله :

**زُحْلٌ وثور تحت رجل يمينه والنسر الأخرى وليث يرصده**

وفي هذا البيت ، إن صحة قول الرواة ، أن الرسول أشده دلالة على وقوفه على شيءٍ من هذا بالفلق .

ويذكر العرب أن القمر يأخذ كل ليلة في منزل من المنازل حتى يصير هلالاً ، وقد أشير إلى المنازل في القرآن : « والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون التقديم »<sup>٤</sup> . والمنازل ثمانية وعشرون متولاً في كل شهر يتزها القمر<sup>٥</sup> . وكل من الشمس والقمر مجريان في فلكها ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس ، وكل في فلك يسبعون»<sup>٦</sup> . والعرب تزعم أن الأنواء المنازل ، وتسماها نجوم الأخذ ، لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها حتى يصير هلالاً ، وهي منسوبة إلى البروج الثانية عشر . وفي كل برج من

١ نالينو ( ص ١٠٨ وما بعدها ) .

٢ البروج ، الرقم ٨٥ .

٣ تفسير الطبرى ( ٣٠/٨١ ) ، تفسير النيسابورى ( ٥٩/٣٠ ) ، ( حاشية على تفسير الطبرى ) ، تفسير ابن كثير ( ٤٩١/٤ ) .

٤ الاصابة ( ١٢٩/١ ) .

٥ سورة يس ، الآية ٣٩ .

٦ الجنان في تشبيهات القرآن ( ٢٠١ ) .

٧ تفسير الطبرى ( ٢٣/٥ وما بعدها ) .

البروج متزلان وثلث من منازل القمر ، وهي نطاق الفلك ، والفقك مدار لها .  
ولأنها سُميَّة فلكاً لاستدارتها<sup>١</sup> .

وأول ما يعد العرب من ( المنازل ) ( الشرطان ) ، وهما كوكبان يقال لهما  
قرنا الحمل ، ويسميان النطح والساطح ، وبينهما في رأي العين قاب قوسٍ ،  
وأحددهما في جهة الشمال والأخر في جهة الجنوب والى جانب الشمال كوكب صغير  
يعد معها أحياناً فيقال الأشراط ، وقد يعرف بـ ( الشرط ) . و ( الشرطان )  
نجهان من الحمل ، وهو قرناه ، والى جانب الشمالي منها كوكب صغير<sup>٢</sup> . ومن  
العرب من يسمى هذه النجوم الثلاثة الأشراط . وقيل لها أول نجم الربع ، ومن  
ذلك صار أوائل كل أمر يقع أشراطه<sup>٣</sup> ، والربع أول الأزمنة للعرب ، فيه  
الخير والبركة لهم . وإذا نزلت الشمس بهذا المترail فقد حللت برأس الحمل ،  
وهو أول نجوم فصل الربع ، وعند ذلك يعتدل الزمان ، ويستوي الليل والنهار  
إذا استوى الزمان ، يليه نهاية الربع ، وعودة العرب الى الأوطان . « يقول  
ساجع العرب : إذا طلع الشرطان استوى الزمان وحضرت الأوطان ، وتهادت  
الجلiran . أي : رجع الناس الى أوطانهم من البوادي بعد ما كانوا متفرقين في  
السبعين »<sup>٤</sup> .

ثم ( البطين ) ، وهو ثلاثة كواكب خفية ، ويقال : هي بطن الحمل ،  
ثم ( الثريا ) ، وهي أشهر منازل القمر ، ويسمونها : التجم . وقد أكثر  
الشعراء من التشبيه بها<sup>٥</sup> . ولم في فعلها أنسجاع . منها : « إذا طلع التجم ،  
فالغر في حلم ، والعشب في حطم ، والعانة في كدم » ، و « إذا طلع التجم  
عشاء ، ابتفى الراعي كسام » ، و « إذا طلع التجم غدية ابتفى الراعي  
شكيبة »<sup>٦</sup> .

وعرفت ( الثريا ) بـ ( كيمه ) Kimah عند العبرانيين وعند السريان ، وعرفت

١ الجمان في تشبيهات القرآن ( ٢٠١ ) .

٢ الجمان في تشبيهات القرآن ( ٢٠٢ ) .

٣ تاج العروس ( ١٦٦ / ٥ وما بعدها ) ، ( شرط ) .

٤ الجمان ( ٢٠٢ وما بعدها ) .

٥ المصدر نفسه ( ٢٠٣ وما بعدها ) .

٦ الجمان ( ٢٠٦ وما بعدها ) .

بـ (النجم) كثلث<sup>١</sup>. وقد ذكرت بـ (النجم) وبـ (النجم الثاقب) في القرآن الكريم. وقد ذكرت الريا في شعر امرئ القيس<sup>٢</sup>، وفي شعر (قيس بن الأسلت)، و (قيس بن الخطيم)، و (أحيمحة بن الجلاح)<sup>٣</sup>، كما ذكرت في شعر شعراء آخرين من جاهليين وإسلاميين.

<sup>١</sup> ويرى العرب أن لها أثراً في الصحة وفي وقوع الأوبئة. وأوياً أوقات السنة عندهم ما بين مغيبها إلى طلوعها. قال طبيب العرب : أضمننا ما بين مغيب الريا إلى طلوعها ، وأضمن لكم سائر السنة . ويقال : ما طلعت ولا نأت إلا بعاهة في الناس والإبل وغروها أعوه من شرورها . وفي الحديث : «إذا طلع النجم لم يبق في الأرض من العاهة شيء إلا رفع . فإنه يزيد بذلك عامه المبار ، لأنها تطلع بالجهاز وقد أزهى البدر ، وأمنت عليه الآفة وحلَّ بع النخل»<sup>٤</sup>.

ثم الدبران ، وهو كوكب أحمر منير يتلو الريا ويسمى تابع الريا ، ثم المفعة ، وهي ثلاثة كواكب صغيرة ، يقال أنها رأس الجوزاء ، ثم المفعة ، وهي كوكبان أيضان ، ومنها الشعري العبور ، التي ذكرت في القرآن : «وانه هو رب الشعرى»<sup>٥</sup> ، وكان من العرب من يتبعه لها ، وأول من عبدها (أبو كبشة) ، الذي كان المشركون ينسبون الرسول إليه . والقميصاء ، والثرة<sup>٦</sup> ، ثم الطرف ، ثم الجبهة ، ثم الزبرة ، ثم الصرقة ، ثم العواء ، ثم السماك الأعزل ، ثم الغفر ، ثم الزباني ، ثم الإكليل ، ثم القلب ، ثم الشولة ، ثم العولة ، ثم العائمه ، ثم البلدة ، ثم سعد الذابع ، ثم سعد بلع ، ثم المرع ، ثم سعد السعود ، ثم سعد الأخيبة ، ثم الحواء ، ثم الفرغ المقدم ، ثم الفرغ المؤخر ، ثم بطن الحوت<sup>٧</sup> .

وقد جعلوا لكل منزل من المنازل المذكورة أثراً في حياة الناس ، يتمثل في أشعارهم المروية في كتب الأدب وفي كتب الأنوار . أخذوها من الظروف والأحوال

Hastings, Diet., Vol. I, p. 192.

١

اذا ما الريا في السماء تعرضت

٢

الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٤)

٣

الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٤)

٤

الجمان (٢٠٧)

٥

النجم ، الآية ٤٩

٦

الجمان (٢١١ وما بعدها)

٧

الجمان (٢١١ وما بعدها)

والتجارب العملية التي كانت تقع لهم عند طلوع الكواكب المذكورة . فنسبوا الفعل إليها ، من جفاف ورطوبة وحرّ وبرد ، وهطول مطر أو انحساره ومن حصول أوبئة إلى غير ذلك من أثر .

ويظهر من دراسة ما ورد عن أنواع أربعان السنة وعن عدة المنازل وصفاتها ومن الأسماء التي أطلقت عليها على أن الجاهلين كانوا على علم بها وبالبروج<sup>١</sup> . فالمصطلحات المستعملة في هذه الأنواع وكذلك الأسماء هي مصطلحات أخذها المسلمون من لغة أهل الجاهلية ، وأخذهم لها عنهم ، كلاماً أو بعضاً ، هو دليل على وجود علم للجاهلين بالأنواع والفلك . ولا يستبعد ذلك عنهم ، لأن الجاهلين كانوا في حاجة شديدة إلى معرفة الأنواع وعلم الفلك ، وقد كان لأهل العراق ولأهل بلاد الشام علم بها ، يعود بعضه إلى البابليين ويعود بعض آخر إلى اليونان ، وقد كان السريان يدرسون الفلك ، والعرب على اتصال بهم ، ولا سيما عرب النصارى مثل أهل الخبرة ، حيث درسوا علوم تلك الأيام ، ولا كانت معارف الأنواع والفلك ضرورة لهم ، فلا يستبعد أخذ الجاهلين معرفتهم بها من المكانين .

والأجرام السماوية هي كواكب وبجوم ، وقد أشير إليها في القرآن الكريم . و(الكوكب) من التسميات التي ترد في اللهجات السامية الأخرى . فهي (كوكب) (كوكاب) في العبرانية ، و (كوكبا) في السريانية ، و (كوكب) في الحبشية ، و (ككبو) Kakkabu في الآشورية<sup>٢</sup> . ويراد بالكوكب النجوم المتحركة التي تتغير مواضعها . أما الأجرام التي تبدو ثابتة لا تترك محلاتها ، فهي النجوم . وقد اشتهرت مجموعة من النجوم باسم (بنات نعش) عند العرب . ولا تزال هذه التسمية دائرة على ألسنة الناس يطلقونها على المجموعة نفسها المعروفة بهذه التسمية عند الجاهلين ، وللأخباريين قصص أوردوه عن هذه التسمية يرجع إلى ما قبل الإسلام . وتعرف بنات نعش بـ (عش) (عاش) و (عيش) عند العبرانيين<sup>٣</sup> .

وعرفت مجموعة أخرى من النجوم باسم (جبار) . وتسمى (جيارة) Gabbara

١ العدة (٢٥٢) « باب ذكر منازل القمر » .

Hastings, Dict., Vol. I, p. 191.

Hastings, Dict., Vol. I, p. 191.

٢

٣

٤

في السريانية ، وبـ (نفه) Niphla في الكلدانية ، وـ (فسيل) في العبرانية . ويظهر أنها من الأبراج السماوية القديمة المعروفة عند الساميين<sup>١</sup> . وعرفت (زحل) وـ (سهيل) عند الجاهليين كذلك . وكذلك (عثtar) معبدة العرب الجنوبيين . وـ (القرب) أحد البروج .

وقد وردت في سفر (أيوب)<sup>٢</sup> جملة (حدرى تهان) ، ومعناها (الحادر الجنوب) أو (خداع الجنوب)<sup>٣</sup> ، مما يدل على أن المراد بها نجوم تقع في الجنوب ، أي في جنوب فلسطين . وقد ورد في العربية (وسهيل يمان) ، أي جنوبية ، وذلك بالنسبة إلى أهل الحجاز .

وـ (الزُّهرَةُ) ، هي من الكواكب الظاهرة البارزة التي تعرف بسهولة . وهي (هيل) عند العربانيين .

وهناك كوكب اسمه Kaawanu عند الأشوريين . ويراد به (كيون) Kiyyun عند العربانيين . ويقابل (كيون) في العربية . وهو معروف عند النجومين . ومن المعرابات<sup>٤</sup> . والساطرون ، من الكواكب المعبدة عند بعض الشعوب السامية<sup>٥</sup> . أما الشمس ، فهي أعرف الأجرام السماوية ، وبها استدل على الوقت على الساعات والأيام والسنين والمواسم . وفي القرآن الكريم آيات توضح لنا رأي الجاهليين في الشمس .

وأما القمر ، فمن آلهة العرب الجنوبيين البارزة . ويعرف عندهم بـ (هـلـلـ) أي (هـلـلـ) .. والقمر من التسميات العربية الشهالية . وأما الملال ، فإنه القمر في أيامه الأولى عند أهل الحجاز . وللقمر أسماء نطقت بها العرب . فنها : الطوس والباهر والغاسق والزيرقان والواضح والزهرير والستمار والساهرور<sup>٦</sup> . والساهرور هو القمر في الآرامية ، من Sahro<sup>٧</sup> .

Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.

١

أيوب ، الاصحاح التاسع ، الآية التاسعة .

٢

Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.

٣

Hastings, Dict., Vol., I, p. 193.

٤

Hastings, Dict., Vol., I, p. 193.

٥

نهاية الارب (٥١/١ وما بعدها) .

٦

غرائب اللغة (١٨٩)

٧

وقد اشتهر بعض الجاهليين بعلمهم بواقع النجوم ، منهم : ( بنو مُرَّةَ بن همام الشيباني ) و ( بنو مارية بن كلب )<sup>١</sup> .

## الكسوف والخسوف :

والكسوف والخسوف من الظواهر المعروفة عند الجاهليين . وقد عُدَّ وقوعها من الأمارات التي تشير إلى وقوع حوادث جسمية في العالم . شأنهم في ذلك شأن شعوب العالم الأخرى في ذلك العهد .

فقد كان بعض الجاهليين يرى أن كسوف الشمس آية دالة على موت رجل عظيم . فقد ورد أن الشمس كسفت في عهد رسول الله ، ووافق ذلك موتَ إبراهيم بن رسول الله ، فقال الناس : إنما كسفت الشمس لأجله . فقال النبي : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى يخوّف بهما عباده ، وإنهما لا يكسفان موت أحد ولا لحياته »<sup>٢</sup> . وقد حدث ذلك في المدينة . وورد في الأخبار أن الانصار كانوا يقولون في التجم الذي يرمي به ، مات ملك ، ولد مولود<sup>٣</sup> . وكانت يتصورون أن الكهان كانوا يستعينون على معرفة المغيبات والخفايا بواسطة شياطينهم الذين كانوا يصعدون إلى السماء فيخذلون أخبارهم . وأن الرعد صوت الموكل بالسحاب يزجر السحب من أن تخالف أمره ، حيث يسوقها من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله<sup>٤</sup> .

ويظهر من الموارد الإسلامية أن الجاهليين كانوا يثبتون الوقت بموقع ظل الشمس . ويستعين أهل الباذة بالظل ، ظل إنسان أو عصا أو ظل خيمة ، ويدركون من هذا الظل مقدار الوقت بصورة تقريرية . وعلى هذا المبدأ قدر الفقهاء أوقات الصلاة . ولا يستبعد استعanaة أهل القرى والمدن بـزاول ثابتة في تقدير الوقت . وذلك بأن تخطط درجات على جدار ثابت أو على أرض ، أو تعمل فتحات في

١- البيروني (٢٤١) ، زيدان : أدب اللغة (٢٠٦/١) .

٢- نهاية الارب (٤٨/١) .

٣- نهاية الارب (٨٧/١) .

٤- نهاية الارب (٨٨/١ وما بعدها) .

جدار ، ويعلن الرقت ببرؤية ظل قضيب أو عمود مثبت على الدرجة المرسومة أو الفتحة ، ويستدل من الظل على متزلة الساعة من النهار .

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب يلمجأون إلى المترفدين في دراسة الأجرام السماوية لمعرفة الأمور الخافية عليهم من حاضر ومستقبل ، وذلك بالاستدلال عليها من ظواهر الكواكب والتجموم . والكهان ، هم المتخصصون بهذه المعرفة عند الجاهليين ، فكانوا يتبنّون لهم بما سبق من أمور وأحداث بالاستدلال بمحركات تلك الأجرام ، وبما تجمع عندهم من فراسات وتجارب ورثوها في هذا الشأن . وقد كان الجاهليون يبالغون في ذلك كثيراً ويؤمنون بالتنجيم وبتأثير الطالع في حياة الإنسان ، ولهذا ذم الإسلام المنجمين وكذبهم ومنع المسلمين من التصديق بهم .

وكان لأهل الجاهلية رأي في تساقط الشهب والنیازک ، ويررون أن تساقط النجوم أثر في الإنسان وفي العالم . ذكر أنهم كانوا يرون أنه إذا انقض شيء من البروج الاثني عشر ، فهو ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منها شيء ، بل رأوا انقضاض النجم وسقوطها ، فإن ذلك يدل على حدوث أمر عظيم في الدنيا<sup>١</sup> .

### التوقيت :

وقد اهتم الجاهليون بأمر التوقيت ، أي تعين الأوقات وضبط الأزمنة ، لعوامل ضرورية عديدة . فالزراعة خاصّة لتقلبات الجو وتبدل الموسم ، والاعياد وكثير من الشعائر الدينية وأمور العبادة لها علاقة بالتوقيت كذلك ، كما أن للتجارة وللسير في البر وفي البحر صلة كبيرة بمعرفة الأنواء . وهذا عنوا بتتبع سير الكواكب ودراسة ملامح السماء وظواهر الطبيعة التي لها علاقة بالرياح والأمطار وبأمثال ذلك للاستفادة منها في الحياة العملية .

ويحدثنا الجاحظ في كتاب الحيوان عن حاجة الأعرابي إلى معرفة حال السماء وتقلبات الجو ، فيقول : « عرروا الآثار في الأرض والرمل ، وعرفوا الأنواء ونجوم الاتهاد ، لأن كل من كان بالصخوص الأماليس ، حيث لا أمارة ولا هاوي مع حاجته إلى بعد الشقة ، مضطر إلى الناس ما ينجيه ويؤديه . ولجاجته

---

١ تفسير القرطبي ، الجامع (٨٢/١٧ وما بعدها) ، (سورة والنجم) .

إلى الغيب ، وفراره من الجدب وضنه بالحياة ، اضطرره الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى النساء وما يجري فيها من الكواكب ، ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها ، وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً<sup>١</sup> . وفي هذا وفي غيره تفسير لسبب اهتمام الجاهليين بالتوقيت دراسة الأنواء<sup>٢</sup> .

وقد اعتبر القدماء أمر التقويم من واجبات رجال الدين ، فكان رجال العبادة والكهان هم الذين يقومون بضبط الوقت وتثبيت الأعياد وأوقات العبادة . ظلّوا على ذلك أمداً طويلاً ، ولا تزال آثار ذلك باقية حتى اليوم . وكان هؤلاء الرجال قد احتكروا المعرفة والعلم لاعتقاد الناس أنهم أقرب البشر إلى الآلهة ، وأن ما يتكلمون به إنما هو وحي منها ، يوحى إلى هؤلاء ، فعلمهم أذن نابع من مصدر صادق لا يتطرق إليه الشك .

ولذا كانت كتابات المسند لم تتحدث عن الموقتين ضيّاط الزمن في العربية الجنوبية ، فإنّا لا نعتقد بشذوذ العرب الجنوبيين عن غيرهم في هذا الباب ، خاصة وأننا نرى أن الكهان وسدنة الكعبة ومن لهم صلة بالأصنام ، كانوا هم الذين يقومون في الحجاز بضبط الموسيقى والنسيء ، فليس بمستبعد أن يختص رجال الدين في العربية الجنوبية بالتوقيت .

<sup>١</sup> مقدمة كتاب الأنواء في مواسم العرب ، لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ، سنة ١٩٥٦ م (ص ١ وما بعدها) ، وسيكون رمزه : الأنواء .

<sup>٢</sup> العمدة ، لابن رشيق (٢/٢٥٢) « القاهرة ١٩٦٤ م » .

## الفصل الحادي والثلاثون بعد المئة

### الوقت والزمان

يقول علماء العربية : الوقت مقدار من الزمان ، وكل شيء قدرت له حيناً، فهو وقت . والوقت تحديد الاوقات كالتوقيت<sup>١</sup> . واختلفوا في zaman ، فقالوا: zaman الدهر ، وعارضه آخرون . إذ قالوا : يكون zaman شهرين إلى ستة أشهر والدهر لا ينقطع . والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه<sup>٢</sup> ، ويظهر أن بين العلماء خلافاً في تحديد المراد من الفظتين ثم في تحديد معنى كل لفظة منها ، وفي معنى (الدهر) ، وذلك بسبب مسألة القدم والحدث ، وما للتفاسير من صلة بها ، وأثر ذلك في مسائل ذات صلة بعلم الكلام .

وروي عن الرسول قوله : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » ، وفي رواية أخرى : « فإن الله هو الدهر » ، وورد في الحديث عن (أبي هريرة) ، « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وإنما أنا الدهر . أقلب الليل والنهار »<sup>٣</sup> . فالدهر zaman الطويل ، أو الدائم . وقد عبر عنه في الاسلام بالأبدية ، التي هي الله .

ويقاس الوقت بالسنين . والسنة أطول وحدة قياسية له . وتنقسم الى أجزاء .

---

١ تاج العروس (١/٥٩٤) ، (وقت) .  
٢ تاج العروس (٩/٢٢٧) ، (زمن) .  
٣ تاج العروس (٣/٢١٨) ، (دهر) .

ولفظة (سنة) من الألفاظ العربية القدمة ، وترد في جميع لهجات الجاهلين ، وهي من الألفاظ السامية التي ترد في كل لغاتها ، مما يدل على أنها من الكلمات السامية القدمة . ويعبّر عن كثرة السنين بمصطلحات ، مثل : (عصر) ، وهو كل مدة ممتدة غير محدودة تحتوي على أمم تفرض بانقراضهم ، وفي القرآن الكريم : « والعصر إن الإنسان لفي خسر »<sup>١</sup> . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن (العصر) الدهر<sup>٢</sup> . وتقابل لفظة (العصر) لفظة (دور) Dor في العبرانية . ومنها جملة (دور وآدھور) Dor Wadhor ، يعني الدهر والدهور ، أي الزمان الدائم . وذلك بالنسبة لله<sup>٣</sup> . لأن الزمن لا شيء بالنسبة له . « لأن ألف سنة في عينك مثل يوم أمس بعد ما عبر وكهزيع من الليل »<sup>٤</sup> ، و « لأن يوماً واحداً عند رب كألف سنة ، وألف سنة كيوم واحد »<sup>٥</sup> . وقد أيد القرآن الكريم هذا المعنى ، فذكر أن الوقت لا شيء بالنسبة إلى أبيته : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون »<sup>٦</sup> .

ولفظة سنة لفظة عربية شمالية ، ترد في عربية القرآن الكريم ، كما ترد في النصوص العربية الشمالية ، مثل نص المارة الذي يعود عهده إلى سنة (٣٢٨) للميلاد ، ونص (حرآن) الذي يعود تاريخه إلى سنة (٥٦٨) للميلاد ، أي إلى عهد لا يبعد كثيراً عن أيام مولد الرسول . وقد كتب لفظة (سنة) على هذه الصورة (سنن) ، أي بالتاء المبسوطة . وقد وردت هذه اللفظة في الكتابات الصحفية وفي اللهجات العربية الشمالية الأخرى أيضاً<sup>٧</sup> .

ولدينا لفظة أخرى مرادفة للسنة هي العام ، فيقال لعامنا هذا ، أي لستنا .

١ سورة والعصر ، تاج العروس (٤٠٤/٣) ، (عصر) .

٢ تفسير الطبري (٣٠/١٨٧) .

٣ « من دور إلى دور » ، Hastings, p. 288. المزמור العاشر ، الآية ٦ ، « وخلاصي إلى دور الادوار » ، اشعياء ، الاصحاح ٥١ ، الآية ٨ ، المزמור التسعون ، الآية ١ .

٤ المزמור التسعون ، الآية ٤ .

٥ رسالة القديس بطرس الثانية ، الاصحاح الثالث ، الآية ٦ .

٦ سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٤٧ .

٧ « سنت حرب نبط » ، « سنة حرب النبط » ، « سنة محاربة النبط » ، تاريخ اللغات السامية (ص ١٨٠) .

وذكر علماء اللغة ان العام أخص مطلقاً من السنة ، فتفول كل عام سنة ، وليس كل سنة عاماً . وذكر بعض العلماء أن العام كالسنة ، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الجدب والشدة ، وهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، والعام فيها فيه الرخاء واللحسب . وقال بعض آخر : السنة أطول من العام ، وهي دورة من دورات الشمس ، والعام يطلق على الشهور العربية بخلاف السنة . وذكر بعضهم أن العام لا يكون إلا شتاءً وصيفاً ، وأنك إذا عدلت اليوم إلى مثله فهو سنة<sup>١</sup> .

وقد وردت لفظة (عوم) في نص واحد من نصوص المسند ، بمعنى سنة ، أي في معنى (عام) في لساننا<sup>٢</sup> . ولكن الغالب أن يعبر عن السنة بلفظة (حرف)، أي (الحريف) ، وبطهور أنهم أطلقوا على السنة (الحريف) ، لأن الحريف هو من أبرز المواسم في العربية الجنوبيّة ولها أهمية خاصة بالنسبة لهم ، ولذلك غالباً التسمية على كل العام .

و (الحول) السنة اعتباراً باقلاب الشمس ودوران الشمس في مطالعها ومخاربها . وقد وردت في القرآن الكريم . ويظهر أنها من الألفاظ الجاهلية القدمة . والحوالي: ما أني عليه حول من ذي حافر وغيره ، ويقال جمل حولي ونبات حولي<sup>٣</sup> .

وذكر علماء اللغة أن (الحريف) السنة والعام ، أي بمعنى المفهوم من اللفظة في كتابات المسند . وذهب بعض العلماء إلى أن الحريف هو الفصل المعروف . وأما ورود اللفظة بمعنى السنة والعام في أحاديث الرسول ، فلأن الحريف لا يكون في السنة إلا مرة واحدة ، ولذلك قصد باللفظة المسافة تقطع من الحريف إلى الحريف ، وهو السنة<sup>٤</sup> .

ويستعمل العرب الجنوبيون لفظة (حرف) (حريف) في مكان سنة في لغتهم . وترد في التصوص المؤرخة ، حيث تفيد تاريخ حادث ما وتبينه بذلك السنة التي وقع بها من سني الملك أو الرئيس الذي أرخ الحادث به . فيكتب :

١ تاج العروس (٤١٢/٨) .

٢ Le Muséon, 66, p. 119, Beeston, p. 20, 44, CIH. 575, 8, Rep. Epig. 2958 A.

٣ تاج العروس (٢٩٣/٧) .

٤ تاج العروس (٨٣/٦) .

( بـ خرف .. ) ( بخرف .. ) ، أي ( بسنة ... ) ، ثم يذكر بعدها اسم المؤرخ به . كما ترد بمعنى التحريف ، الفصل المعلوم من السنة .

وتؤدي لفظة (كبير) معنى سنة في بعض الأحيان ، وقد رأينا أن اللفظة تعني ( كبير ) ، وهي كنابة عن وظيفة كبيرة في الحكومة ، والظاهر أن الناس قد تجوّزوا في الاصطلاح ، فأطلقوا معنى السنة ، لأنهم كانوا يؤرخون بمعنى حكم الكبار ، فصاروا يطلقونها على السنة أيضاً ، وفيهم معناها عندئذ من الجملة . كما في جملة : « عد ورخ وكبر نجو ذات هقينٍ »<sup>١</sup> ، ومعناها : « إلى شهر وسنة إعلان ذلك التمليك »<sup>٢</sup> .

وتؤدي لفظة (الحقيقة) معنى السنة عند بعض علماء اللغة ، وتجمع على حقب ، وذكر أن الحقب ثمانون سنة ، وقيل أكثر ، والجمع أحقاب . وتؤدي لفظة (الحجّة) معنى السنة كذلك<sup>٣</sup> .

وتتألف السنة عند العرب وسائر العجم من اثني عشر شهراً<sup>٤</sup> ، وأيام السنة ثلاثة وأربعة وخمسون يوماً ، تتفق عن السرياني أحد عشر يوماً وربع يوم ، لأن أيام السنة عند السريان ثلاثة وخمسة وستون يوماً وربع يوم . وقد كانت العرب في الجاهلية تكتب في كل ثلاثة سينين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير<sup>٥</sup> .

### الفصول الأربع:

ونقسم السنة إلى فصول أربعة بحيث يتكون كل فصل من هذه الفصول من ثلاثة أشهر ، تكون ربع السنة . وهذه الفصول هي : الشتاء ، والريّس ، والعصيف ، والخريف . ويقال للصيف القبط أيضاً<sup>٦</sup> . ويظهر من هذه التسميات ومن هذا النوع من التقسيم أنه تقسيم بنى على أساس التقويم الشمسي ، لا التقويم

M. Tawfik, Les Monuments de Main, Plate, 32, fig. 65. (Cairo 1951).

1 Beeston, p. 20.

2 المخصص (٦٦/٩ وما بعدها) .

3 مروج الذهب (٢/١٧٧) .

4 مروج الذهب (٢/١٨٨) ، (ذكر سنى العرب وشهورها) .

5 Reste, S. 95.

٦

٢

٣

٤

٥

٦

القمري . وهو تقسيم يقي مستعملًا في الاسلام ، مع أن التقويم الرسي الاسمي هو تقويم قمري ، لأنه تقسيم طبيعي مني على طبيعة التغير الذي يطرأ على شهور السنة . ولو بني تقسيم الفصول على الشهور القمرية ، لما كان في الامكان السير عليه بالقياس إلى الحياة العملية المبنية على الزرع والتجارة والتقليل في المراعي ، وكل هذه لها علاقة بتبدل طبيعة الشهور .

والتقسيم المذكور قائم على أساس ملاحظات الانسان للطبيعة ودراسته لها ، وعلاقة البرد والحر بحياته ويزرعه وحيوانه . فقسم السنة إلى موسمين : موسم زرع يبدأ فيه ويزرع ، وموسم حصاد يحصد فيه زرعه ويجهزي ثماره . وهو موسم يبدأ فيه الزرع بالأفول وبالذبول ، حتى إذا ما جاء البرد ، تساقط فيه الورق ، وتعرت الأشجار من الخضرة ويقابل هذا البرد الحر ، وهو موسم واضح ظاهر في جزيرة العرب حياته فيها أطول من بقية الفصول . فأدرك الانسان من تأثير الطبيعة عليه وجود أربعة فصول . وقد عبرت التوراة عن هذه الفصول بقولها : « مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل »<sup>١</sup> .

ولكن الواضح من الفصول في بلاد العرب : الصيف . ويتأثر بالنسيب الاكبر من السنة ، لامتداد حرمه ، ثم الشتاء . ولذلك نجد الناس يقسمون السنة إلى نصفين : صيف وشتاء .

ونجد هذه الفكرة عند العبرانيين كذلك ، فالصيف والشتاء هما الفصلان الواضحان البارزان عندهما . ويسمى الصيف بـ ( قيز ) ( قيسن ) عندهم ، أي بالتسمية الواردة عند العرب ، أما الشتاء ، فهو ( خرف ) في العبرانية<sup>٢</sup> .

وبعض العرب يقسم السنة نصفين : شتاءً وصيفاً ، ويقسم الشتاء نصفين ، فيكون الشتاء أوله ، والربع آخره . ويقسم الصيف نصفين ، فيجعل الصيف أوله ، والقيظ آخره<sup>٣</sup> .

وذكر أهل الاخبار وعلماء اللغة أن العرب تبتدئ بفصل الخريف وتسميه

١ التكوين ، الاصحاح الاول ، الآية ١٤ ، الاصحاح الثامن ، الآية ٢٢ ، قاموس الكتاب المقدس ( ٤٧٨ / ٢ ) .

٢ W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 315.

٣ الانواء ( ص ١٠٤ ) ، بلوغ الارب ( ٢٤٤ / ٣ ) .

الربيع ، لأن أول الربيع ، وهو المطر ، يكون فيه ، ثم يكون بعده فصل الشتاء ثم يكون بعد الشتاء فصل الصيف ، وهو الذي يسميه الناس الربيع ، وقد يسميه بعضهم الربيع الثاني ، ثم يكون بعد فصل الصيف فصل القيظ ، وهو الذي يسميه الناس الصيف<sup>١</sup> . وذكر (اليعقوبي) أن العرب اختلفت « في أسماء الأزمنة الأربع : فزعمت طائفة منها أن أولها الوسمى ، وهو الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف ، ثم القيظ ، ومنهم من يعد الأول من فصول السنة الربيع ، وهو الأشهر والأعم ، والعرب تقول : خرفنا في بلد كذا ، وشتونا في بلد كذا ، وتربعنا في بلد كذا ، وصيفنا في بلد كذا »<sup>٢</sup> .

وأول وقت الربيع عندهم ، وهو الخريف ، ثلاثة أيام تخلو من أيلول . وأول الشتاء عندهم ثلاثة أيام تخلو من كانون الأول . وأول الصيف عندهم ، وهو الربيع الثاني ، خمسة أيام تخلو من آذار . وأول وقت القيظ عندهم أربعة أيام تخلو من حزيران . والخريف عندهم المطر الذي يأتي في آخر القيظ ، ولا يكادون يجعلونه اسمًا للزمان<sup>٣</sup> .

وهناك أسماء أخرى لهذه الفصول ، فـ (الصفيرية) هو الجزء الأول من السنة وسي مطره الوسي ، والشتاء هو الجزء الثاني منها . أما الصيف فهو الجزء الثالث . وأما الجزء الرابع ، فهو القيظ ، وسي مطره الخريف . وقد حددوا مبدأ كل فصل ومتناه بالفصول .

وهناك كما يتبع من روایات علماء اللغة اختلاف في تشخيص الربيع ، منهم من يذهب إلى أنه الفصل الذي يتبع في الشتاء ، وب يأتي فيه الورد والنور ، « ومنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تدرك فيه الثار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده . ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذي تدعوه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ بعده وهو الذي تدعوه العامة الصيف . ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثار وهو الخريف الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذي يتلو الشتاء وب يأتي فيه الكمة والنور الربيع الثاني . وكلهم مجتمعون على أن الخريف هو الربيع»<sup>٤</sup> .

١ الانواء (ص ١٠٤ وما يليها) ، المخصص (٧٩/٩ وما بعدها) .

٢ مروج (١٩٢/٢) .

٣ الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) .

٤ بلوغ الارب (٣/٢٤٣ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٤١٤/٢ وما بعدها) .

وهناك من يجعل السنة ستة أزمنة : الوضي ، والشتاء ، والربيع ، والصيف ، والخريف ، والحريف<sup>١</sup> . وحصة كل زمن من هذه الأزمنة شهران .

وذكر بعض العلماء أن السنة عند العرب ستة أزمنة : شهران منها الربيع الأول وشهران صيف وشهران قيظ وشهران الربيع الثاني ، وشهران خريف وشهران شتاء . وذكر بعضهم أن السنة أربعة أزمنة: الربيع الأول وهو عند العامة الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف وهو الربيع الآخر ، ثم القيظ . وهذا هو قول العرب في البادية . والربيع جزء من أجزاء السنة ، وهو عند العرب ربيعان : ربيع الشهور وربيع الأزمنة . فربيع الشهور شهران بعد صفر . سنتين بذلك لأنهما حدا في هذا الزمن فلزمهما في غيره . ولا يقال فيها إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر . وأما ربيع الأزمنة . فربيعان : الربيع الأول وهو الفصل الذي يأتي فيه النور والكمأة ، وهو ربيع الكلأ . والربيع الثاني ، وهو الفصل الذي تدرك فيه الهمار . ومن العرب من يسمى الفصل الذي تدرك فيه الهمار ، وهو الخريف : الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذي يتلو الشتاء ويأتي فيه الكمة والنور الربيع الثاني . وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع<sup>٢</sup> .

وقد بعضهم الشتاء إلى ربيعين : ربيع الماء والأمطار وربيع النبات لأن فيه ينتهي النبات منتهاه . والشتاء كله ربيع عند العرب لأجل الندى<sup>٣</sup> .

ويظهر من المستند أن العرب الجنوبيين كانوا يقسمون السنة إلى فصول كذلك ، وأنهم كانوا مثل غيرهم يقسمونها إلى فصول أربعة : الشتاء والربيع والصيف والخريف . ولا يعني هذا التقسيم الرباعي أن الجو في العربية الجنوبية أو في أي مكان آخر في جزيرة العرب كان مختلفاً اختلافاً واضحاً يتناقض من حيث التطرف أو الاعتدال باختلاف هذه الفصول الأربع ، وأن شهور الفصول هي متساوية بالفعل ، وأن عدة كل فصل ثلاثة أشهر ، بل هو في الواقع تقسيم علمي نظري . أما من الناحية العلمية ، فإن فصلي الصيف والشتاء هما أبرز الفصول وأوضحها

١ بلوغ الارب (٣٤٤/٣) ، صبح الاعشى (٤٠٥/٢) .

٢ تاج العروس (٥/٣٤٠ وما بعدها) ، (ربع) ، صبح الاعشى (٤١٥/٢) وما بعدها .

٣ تاج العروس (٥/٣٤٠) ، (ربع) .

في جزيرة العرب كلها . ولا سيما فصل الصيف الذي يُعد أطول الفصول وأوسعها فيها . وهذا هو الذي دفع العرب لا شك إلى تقسيم السنة إلى نصفين ، شتاء وصيف . يبتداون بالشتاء ويختلرون النصف الأول ، ويبتدئون به عندهم بابتداء النهار في القصر وابتدائه في الزيادة . وأما الصيف ، فيبدأ عند انتهاء النهار بالطول وابتدائه بالقصاص<sup>١</sup> .

والشتاء هو ( صرين ) في المسند . أما الربيع ، فهو ( دثا ) . وأما الصيف ، فهو ( قيصن ) ، أي القيظ ، وأما الخريف ، فهو ( خرفن ) ، أي الخريف<sup>٢</sup> . ويذكر علماء اللغة أن القيظ هو أشد الحر ، وأن الخريف ليس في الأصل باسم الفصل ، إنما هو اسم لمطر القيظ ، ثم سمى الزمان به فجرى<sup>٣</sup> .

وترتبط مسميات الفصول ارتباطاً متيناً مع مواسم الحصاد . ففي أحد النصوص : ( صريم وقيضم )<sup>٤</sup> ، ومعناه ( شتاء وصيف ) ، ويظهر أن صاحبه قصد من لفظة ( صريم ) الحصاد الذي يتم في أول موسم الشتاء<sup>٥</sup> . وأما ( قيصن ) ، فهو الصيف ، حيث تشتد الحرارة فيه . وفي نص آخر : ( قيصن ودثا وصرب وميلم )<sup>٦</sup> وكلمة ( ميلم ) يجب أن تؤدي معنى الخريف ، إذ القيصن ، هو الصيف ( دثا ) الربيع و ( صرب ) الشتاء ، فتكون لفظة ( ميلم ) بمعنى الخريف إذن ، وربما الحصاد ، أي الحصاد الذي يجمع في آخر الشتاء ، قبل هطول أمطار الربيع<sup>٧</sup> .

وفي الربيع والخريف تساقط الأمطار الفصلية في العربية الجنوبيّة ، تساقط الأمطار الربيعيّة في شهري آذار ونيسان . وأما أمطار الخريف القرية القليلة ، فتهطل في تموز ( جولي ) وآب ( أغسطس ) وأيلول ( سبتمبر ) . وتعرف أمطار الخريف فسماها بـ ( خرف ) ( خريف ) . دعيا بذلك لتزولها في هذين الموسمين . وإلى هذين الفصلين أشار ( بلينيوس ) Pliny حين قال إن العرب الجنوبيّين

١ المخصص ( ٩/٧٩ ) ، الانوار ( ص ١٠٤ وما بعدها ) .

٢ Mitt., S. 62, 65, 71, Rep. Epi., 4250.

٣ المخصص ( ٩/٨٠ ) .

٤ Rep. Eplg. 4230/8.

٥ Beeston, p. 20.

٦ CIH 174/4.

٧ Beeston, p. 20.

يسمون غلة البخور التي يجمعونها في فصل الخريف باسم *Dathiathum* ، ويسمون الغلة التي تجمع من هذه المادة في فصل الصيف بـ *Cariathum* . والكلمة الأولى هي تحرير للفظة ( خريف ) . وأما الثانية ، فتحرير للفظة ( دثا ) ، أي الربيع<sup>١</sup> . وقد دخلت التسميتان بواسطة التجارة والتجار إلى اليونان ، ولا شك . وما تسميتان واضحتان صحيحتان .

وتؤدي لفظتا ( دثا ) و ( خرفن ) معنى الأمطار الموسمية في الغالب ، أي أمطار الربيع وأمطار الخريف في بعض الكتابات<sup>٢</sup> . وقد تؤديا معنى ( الغلات ) أي ( فرع ) ، التي تجمع في موسي الربيع والخريف<sup>٣</sup> .

ولدينا نص طريف يفيد أن أصحابه قد أذنوا بعدم إيقائهم بما نذروه لأنهم وكان عليهم الوفاء به في ( ذ موصيم ) كما عاهدوا آلهتهم . ولمخالفتهم عهدهم هذا ، أرسلت الآلهة عليهم سيلًا جارفًا من أمطار شديدة سقطت في موسي الربيع والخريف ، فأتلفت زرعهم وأصابتهم بضرر كبير ، واعتراضًا منهم بتقصيرهم هذا وبذنبهم ، كتبوا النص المذكور ، وقدموا نذرهم كاملاً ، راجين من الآلهة الصفح عن ذنبهم والعفو عنهم ، وأن تبارك في زرعهم ، وأن تعوضهم عن خسارتهم التي أصابتهم بغلة وافرة وحاصل غير<sup>٤</sup> .

### الشهور :

وتتألف السنة عند العرب الشهاليين من اثني عشر شهرًا ، وقد أشير إلى ذلك في القرآن : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله . يوم خلق السماوات والأرض ، منها أربعة حرم »<sup>٥</sup> . وهو التقسيم الشائع المعروف عند بقية الساميين واليونان وغيرهم . والمعمول به حتى اليوم . ولم ترد إشارة إلى هذا التقسيم في نصوص المسند ، ولكن ورود ذكر السنين والشهور في كتابات

Pliny, Hist. Nat., XII, 60, Beeston, p. 19, CIH 540, 547.

١ CIH 547, 540.

٢ CIH 2.

٣ CIH 547, Beeston, p. 20 f.

٤ التوبة ، رقم ٩ ، الآية ٣٧ ، ابن الأجدابي ( ٣٠ ) .

المستند ، واستعمال العرب الشهاليين وغيرهم التقسيم الاثني عشرى للسنة ، يحملنا على القول إن العرب الجنوبيين كانوا يقسمون السنة إلى اثنى عشر شهراً أيضاً ، وإن لم ينص على ذلك في النصوص .

وقد لاحظ (رودوكاناكس) أن المزارعين المحدثين في العربية الجنوبية يسرون بوجب تقويم فلكي Sidereal Calender ، يقسم السنة إلى ثمانية وعشرين شهرآ ، مدة كل شهر ثلاثة عشر يوماً ، فاستنتج من ذلك احتمال كون هذا التقويم من بقايا تقويم عربي جنوبى كان العرب الجنوبيون يسرورون عليه قبل الإسلام . ولهذا رأى أن (ذ فرع) و (ذا جبي) (ذا جبو) ، لا يمثلان شهرین من شهور السنة ، وإنما يمثلان وقتاً من أوقات العمل والزراعة ، بالمصطلح المستعمل الآن في العربية الجنوبية ، أي جزءين من (٢٨) جزءاً من أجزاء السنة<sup>١</sup> . وذهب (بيستان) إلى احتمال تقسيم العرب الجنوبيين للشهر إلى ثلاثة أقسام ، يتكون كل قسم منها من عشرة أيام<sup>٢</sup> .

ويرى (رودوكاناكس) أن سنة العمل عند القبائل تبدأ باليوم الأول من شهر (ذ فرعم) (ذو فرعم) (ذو الفرع) ، وتنتهي إلى اليوم السادس من (ذ قمحو) ، ويرى أن السنة عند الفلاحين ، تتكون من (٣٦٠) يوماً ، أما الأيام الباقية وهي ما بين (٥) و (٦) ، فتضادف إلى أحد الأشهر وتأخذ اسمه ، فتتكون السنة بهذا العمل سنة شمسية كاملة . ويختلف الفلاحون عند انتهاء تقويمهم الزراعي بانتهاء السنة ، حيث يعودون عيداً يسمونه (مصب) ، (تصوب) ، ويعد شهر (فرعم) الشهر الأول من السنة الزراعية ، حيث تزهر الأشجار ، وتظهر الأوراق . وتحتفي هذه السنة عن سني التقويم الرسمي الذي تسير عليه الحكومة في جباية استحقاقها من حاصل الزرع<sup>٣</sup> .

والإهلال هو المبدأ الذي سار عليه الجاهليون في تعين أوائل الشهور<sup>٤</sup> . فإذا اختفى القمر في آخر الشهر ولم يظهر ، خرجوا لمراقبة الهلال وثبيت مبدأ الشهر .

Beeston, p. 4, R.B. Serjeant, Star Calendario and an Almanac from South West Arabia, in Anthropos, Bd. 49, 1954, S. 433.

١

Beeston, p. 5.

٢

Rhodokanakis, Katab. Texte II, S. 19 ff.

٣

صبح الاعشى (٣٦٩/٢) ، نهاية الارب (١٥٦/٣) .

٤

وقد كانوا يعدون الرؤية من الحوادث المؤثرة في حياة الشخص . من حيث جلب النحس والسعادة للمستهل . وهذا كانوا ينظرون الى المناظر الجميلة حين الاستهلال ، لاعتقادهم أن ذلك يجلب لهم البركة والخير . والشهر كما جاء في الحديث : «مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »<sup>١</sup> ، أي يوماً .

ويعبّر عن الشهر بلفظة ( ورخ ) في العرييات الجنوية . والجمع ( اورخم ) ( اورخ ) . وللفظة ( ورخ ) تعني القمر في عربية القرآن الكريم . وهي من الألفاظ السامية القدّعية ، وتؤدي معنى ( ارخ ) وتاريخ أيضاً<sup>٢</sup> . فكان العرب الجنويّون إذا أرادوا التاريخ بالأشهر ، قالوا : « ورخ كذا ... ، أي شهر كذا ... » . والتاريخ بالشهور لا يعني أن العرب الجنويّين أو غيرهم من العرب ، كانوا لا يُؤرخون إلا بالتقويم القمري ، وأنهم لم يكونوا يستعملون غير هذا التقويم . فقد كان غيرهم يؤرخون بالشهور القمرية كذلك ، وكانوا مع ذلك يؤرخون بالتقويم الشمسي ، أو بالتقويمين .

ولا تعني لفظة ( ورخ ) التي هي ( الشهر ) أن العرب الجنويّين كانوا يتبعون تقويماً قرياً ، بسبب أن لفظة ( ورخ ) تعني ( قر ) في الأصل ، فالانكليز يستعملون لفظة Month بمعنى الشهر ، وهي من أصل Moon أي القمر ، ومع ذلك فإن شهورهم شمسية ، وللفظة ( الشهر ) نتعمّلها في عربيتنا ، هي في معنى ( ورخ ) في الأصل . فالشهر : القمر ، والمحلل<sup>٣</sup> . أي مرادف ( ورخ ) تماماً . وقد سمي الشهر به ، لأنهم كانوا يوقتون به ، فالمدة التي تمضي بين هلال وهلال جديد ، هي شهر . نسي المعنى الأصلي للكلمة ، وبقي الاصطلاح ومن ذلك قولهم : أشهروا ، بمعنى أتى عليهم شهر ، وشاهدوا مشاهرة وشهاراً ، استأجره للشهر<sup>٤</sup> .

ووردت لفظة ( شهر ) بمعنى هلال في العرييات الجنوية ، وذلك كما في هذه الجملة : « يوم شهر و يوم شيم ذنم »<sup>٥</sup> ، أي « يوم المحلل ، ويوم

١ ارشاد الساري ( ٣٥٩/٣ ) .

٢ نص ابنه Rhodokanakis, Stud. II, S. 48, Bruno Meissner Supplement  
nyu den Assyrischen Wörterbüchern, Leiden, 1891, S. 18.

٣ تاج العروس ( ٣٢١/٣ ) ، ( شهر ) .

٤ تاج العروس ( ٣٢١/٣ ) ، ( شهر ) .

٥ Jamme 651, 19.

المطر الثاني » ، أو بعبارة أخرى « يوم الاهلال ، وزمان سقوط المطر الثاني ». وقد وردت في كتابات المسند أسماء عدّ من الأشهر ، يتبيّن من دراستها أن بعضها وارد في نصوص لهجتين مثل لهجة معين وبأ ، ولهجة سبأ وقبيان ، مما يدل على أنها كانت مشتركة ومستعملة عند المعينيين والسبئيين ، أو عند السبئيين والقبيانيين . ولكن الأغلب انفراد كل لهجة بتسمية شهر ، بدليل ما نجده في كتابات كل لهجة من اللهجات التي نعرفها من أسماء أشهر لا ترد في الكتابات الأخرى . ومن الأشهر المشتركة التي ورد اسمها في كتابات سبئية ومعينة ، شهر ( ذ دثا ) وشهر ( ذ سحر ) ، وقد ورد اسمه في كتابات سبئية وقبانية ، و ( ذ ابهى ) ( ذ اب هو ) ، وقد ورد في كتابات معينة وسبئية وقبانية كذلك<sup>١</sup> . وعثر على أسماء هذه الشهور في النصوص المعينة : ( ذ ابهى ) ( ذو ابهى ) ، و ( ذو ابرهن ) ، و ( ذو اثرت ) ، ( ذو عشرة ) ، و ( ذ دثا ) ، و ( ذو حضر ) ، و ( ذو طفت ) ، و ( ذو نور ) ، و ( ذو سمع ) ، و ( ذو شمس )<sup>٢</sup> . ومن الشهور الواردة في كتابات السبئيين المقدمة : ( ورخ ذا بهي ) ، أي شهر ذو ابهى ، و ( ورخ ذو دنم )<sup>٣</sup> ، و ( ورخ ذ دثا ) ، ( ذ دثا ) ، و ( ورخ ذو نيلم ) ، و ( ورخ ذو نسور ) ، و ( ورخ ذو سحر ) ، و ( ورخ ذو فلسم ) ، و ( ورخ ذو قيفن ) ، و ( ورخ صربن ) ، و ( ورخ صر ) ، و ( ورخ ذو الالت ) ، و ( ملت )<sup>٤</sup> ، و ( ذو عشر ) ، و ( ذو موصب ) ، و ( ذو مخضدم )<sup>٥</sup> . وشهور أخرى .

أما الشهور : ( ورخن ذو الالت ) ، و ( ورخ ذو داون ) و ( ورخو ذو حجتن ) و ( ورخ ذو خرف ) و ( ورخو ذو مذران ) و ( ورخن ذو مهلن ) و ( ورخن ذو محجن ) و ( ورخ ذو معن ) و ( ورخ ذو صربن ) و ( ورخو

١ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ( ٢٣٤ / ٥ و ما يليها ) ،

Rhodokanakis, Kataba. I, S. 133, Beeston, p. 10.

Rhodokanakis, Studi. II, S. 141, Sab. Denkm. 21, CIH 380.

Beeston, p. 10.

٢ « بورخ ذو دونم » ، Rhodokanakis, Studi. II, S. 75 ZDMG. 29.

٣ Beeston, p. 12 f.

٤ CIH 547.

٥

٦

٧

٨

ذ قيصن ) و ( ورخ ذ ثبن ) ، فإنها من الشهور الواردة في الكتابات السبئية المتأخرة<sup>١</sup> .

ويظهر من اسم الشهر ( ورخن ذ الالت ) ( ذ الالات )<sup>٢</sup> ، و ( ورخن ذ حجتن ) ، أن لها صلة بالحياة الدينية عندهم . فورخن ذ الالت معناه شهر الآلهة . فالظاهر أنه شهر خصص بالآلهة ، كانوا يتقررون فيه إليها بالتنور مثلاً أو العبادة . فهو شهر مقدس ، ربما يكون مثل شهر ( رمضان ) في الإسلام . وأما ( ورخن ذ حجتن ) ، فمعناه ( شهر الحج ) ، فهو شهر يحج فيه إلى الأصنام ، على نحو ( شهر ذي الحجة ) في الإسلام .

أما الشهور القتبانية التي وردت أسماؤها في كتاباتهم ، فهي : ( ورخس ذ ابهو ) و ( ورخس ذ برم ) و ( ورخس ذ بشم ) و ( ورخس ذ مسلعت ) و ( ورخس ذ سحر ) و ( ورخس ذ عم ) و ( ورخس ذ تمنع ) و ( ورخس ذ فرعم ) ، و ( ورخ ذ فقهور )<sup>٣</sup> . ويلاحظ أن اللهجة القتبانية تضع حرف ( و ) في نهاية ( ابهى ) ( فقهى ) ، فتقول : ( ذ ابهو ) ، و ( ذ فقهور ) بدلاً من ( ذ ابهى ) و ( ذ فقهى ) كما هو الحال في اللهجات الأخرى ، مما يدل على أن هذا الحرف ، هو من خصائص هذه اللهجة<sup>٤</sup> .

وذكر ( بستان ) أن الكتابات الخضرمية لم تذكر من أسماء الشهور إلا اسم شهر واحد ، هو ( ورخس ذ صيد )<sup>٥</sup> .

ويلاحظ ورود لفظي ( قد من ) و ( اخرن ) مع أسماء بعض الأشهر كما في هذه الجمل : ( ورخ ذ نسور قد من ) و ( ورخ ذ نسور اخرن ) ، و ( ورخس ذ برم قد من ) ، و ( ذ برم اخرن )<sup>٦</sup> . ومعناهما : ( شهر

Beeston, p. 13 f.

١

Jamme 642, 6, Mahram, p. 141.

٢

Rhodokanakis, Katab. I, S. 96, II, S. 5, Glaser, 1396, 1310, Die Inschri.  
an der Mauer von Kohlan — Tamna' 1924, S. 15, SE80, Beeston, p. 11 f.

٣

Beeston, p. 41, note : 4.

٤

Beeston, p. 15.

٥

Rhodokanakis, Die Inschri. an der Maner von Koblan — Timna'  
1924, S. 52 ff., Glaser 1609, Beeston, pp. 11, 13, REP. EPIG. 3688, 3879.

ذو نسور الأول ) و ( شهر ذو نسور الثاني ) و ( ذو نسور الآخر ) ، و ( شهر ذو برم الأول ) و ( شهر ذو برم الآخر ) . وذلك أن لفظة : ( قد من ) تعني ( الأقدم ) و ( الأول ) . وأما ( اخرن ) ، فتعني ( المتأخر والثاني والآخر ) . وذلك كما فعل نحن اليوم إذ نقول ( شهر ربيع الأول ) و ( شهر ربيع الآخر ) و ( جادى الأولى ) و ( جادى الآخرة ) في التقويم المجري ، و ( كانون الأول ) و ( كانون الثاني ) في التقويم الميلادي .

ويتبين من استعمال اللفظتين المذكورتين أن بعض العرب الجنوبيين ، ويحوز أن يكونوا كلهم ، كانوا كالعرب الشاليين ومثل بعض الساميين ، قد استعملوا اسماً واحداً لشهرين ، وللتفریق بينهما أطلقوا لفظة ( قد من ) بعد اسم الشهر الأول ، لتمييزه عن سميته الشهر التالي له ، ولفظة ( اخرن ) أي المتأخر والتالي أو الثاني بعد اسم الشهر الثاني لتمييزه عن الأول المتقدم عليه .

ويظن أن شهر ( ذو برم اخرن ) ، ( ذو برم الآخر ) ( ذو برم التالي ) أو ( الثاني ) إنما هو من شهور ( الكبس ) ، ولهذا فهو لا يكون في كل ستة، بل في السنين المكبوسة فقط<sup>۱</sup> .

ويظهر من دراسة بعض الأسماء أن بعضها معاني ذات علاقة بالجو ، ولبعض آخر علاقة بالحياة الدينية أو بالناحية الزراعية . ومن النوع الأول : ( ذو دثا ) ، ( ذو دثا ) وله معنى الربيع ، وهو مثل شهر ( ربيع الأول ) أو ( ربيع الآخر ) في التقويم المجري . ف ( دثا ) هو الربيع في المستند<sup>۲</sup> . وأما شهر ( ذو خرف ) فإن له صلة بموسى الخريف ، وقد يكون من شهور هذا الموسم . و ( خرف ) يعني ( الخريف ) الموسم المعروف بلغتنا ، وبمعنى سنة<sup>۳</sup> . وأما شهر ( ذو قيضن ) فإنه من أشهر القيط ، والقيط هو الحرّ ، فهو شهر من أشهر الصيف . و ( القيض ) ، بمعنى الصيف كذلك ، والموسم الذي تنضج أumar الصيف فيه<sup>۴</sup> . ومن الشهور التي لها علاقة بالزراعة ، شهر ( ذو مترن ) ، ( ذو متران )

Beeston, p. 12.

۱

Jamme 610, 615, 618, 623, 627, 628, 650, 681, 686, 704.

۲

Mahram, p. 437.

۳

Mahram, p. 447.

۴

( ذو مدران ) ، ومعناه شهر البذر ، ولعله دعى بذلك لأن الزراعة كانتوا يبذرون بذورهم للزرع فيه . وشهر ( ذو صربن ) ، ( ذو صربن ) . وهو من أشهر الخريف ، قد يكون في أوله وقد يكون في أواخره ، أي في ابتداء الشتاء ، وهو يقابل شهر ( صراغ ) من الأشهر المستعملة في العربية الجنوبيّة في أيامنا هذه . و ( صربن ) ( صراغ ) ، بمعنى أمّار الخريف وحاصل الخريف ، أي غلة الخريف<sup>١</sup> .

ويرى بعض الباحثين أن شهر ( ذو ثين ) علاقة بالزراعة كذلك ، وأنه يعني الشهر الذي تهطل فيه الأمطار ، وتجمع فيه السيول لخزانتها في السدود ، وأن شهر ( ذو مهتن ) علاقة بالزراعة كذلك ، وأن في معناه ( المهلة ) أي التأخير في عمليات الزراعة أو جمع الحاصل<sup>٢</sup> .

ويظن أن للشهرين ( ذو دنم ) ( ذو نيلم ) علاقة بالزراعة كذلك . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن معنى ( دنم ) ( دينيم ) الدين ، وأن المراد بها الشهر الذي تجتمع فيه ديوان المعبد . أي ضرائب المعبد . وذهب بعض آخر إلى أن اللفظة من أصل ( دون ) ، ومعناها الإرواء والإسقاء ، وأن لهذا الشهر علاقة أذن بشؤون الري . وأمسا ( ذو نيلم ) ، فإنه شهر حصاد الغلات وجمع الحبوب<sup>٣</sup> .

ومن الشهور التي لها علاقة بالحياة الدينية ، ( ذو عشر ) و ( ذو الالت ) و ( ذو حجتن ) و ( ذو محجن ) و ( ذو شمسى ) وغيرها . وشهر ( ذو عشر ) منسوب إلى الإله ( عشر )<sup>٤</sup> . وأما ( ذو الالت ) ، فيبين الدلالة على المعنى الديني كذلك . فإنه يعني شهر الآلهة . وأما ( ذو حجتن ) و ( ذو محجن ) ، فهو مثل شهر ( ذي الحجة في التقويم الهجري وفي معناه . وأما ( ذو شمسى ) ( ذو شمس ) فيجوز أن يكون نسبة إلى الآلهة الشمس من الناحية الدينية ، ويحوز أن يكون نسبة إلى الشمس من ناحية تأثيرها في الجو ، أي من ناحية تأثير حرارة

١ Jamme 594, 617, 631, 651, 655, 719.

٢ Beeston, p. 17.

٣ Jamme 633, 16<sup>٤</sup>.

٤ Beeston, p. 17.

٥ Jamme 611, 7-8, Mahram, p. 108.

أشعتها في الناس وفي المزروعات . وذلك بكونه من أشد الشهور حرّاً ، فيكون هذا الشهر بذلك من أشهر الصيف .

ويفهم من جملة : « ورخ ذ هبس وعشر » ، أن هناك شهراً اسمه شهر ( هوبس وعشر ) ، أو شهراً اسمه ( هوبس ) ، نسبة إلى الإله ( هوبس ) وشهر آخر اسمه ( عشر ) ، نسبة إلى الإله ( عشر )<sup>١</sup> . وورد اسم الشهر ( ورخ ذ عشر ) في جملة نصوص<sup>٢</sup> .

والأشهر التي لها صلة بالحياة الدينية ، هي : ( شهر الآلة ) ( ورخ ذ ال آلت ) ( ذ ال آلت ) ، و ( شهر ذ حجتن ) ، ( ورخ ذ حجتن ) ، و ( شهر ذ محجتن ) ، ( ورخ دمحجتن ) ، أي شهر المحججة . وبصعب في الوقت الحاضر علينا ثبيت أوقات هذه الأشهر المقدسة بالنسبة للمواسم ولترتيب الشهور ، لعدم وجود أدلة يمكن أن تستخرجها من النصوص لثبيت زمن الحج عددهم مثلاً ، أو زمن الشهر المخصص للآلة .

ونجد أسماء بعض الشهور مثل : ( ذ سمع ) ، تتمثل صفة من صفات الآلة . ف ( ذ سمع ) يعني ( ذو السمع ) ، فالآلة تسمع الناس وتجيب دعائهم . كما نجد أسماء شهور أخرى تشير إلى أمور دينية وطقوس . مثل شهر ( ذ حضر ) ، فإنه شهر الأضاحي ، من ( حضر ) بمعنى ضحى ، أي ذبح ذبيحة للآلة ، ومثل شهر ( ابر ) ، ومعناه ( شهر حرق البخور ) ، أو تقديم التنور ، أو النذور التي تقدم لمحارق الآلة . وربما أدى اسم شهر ( ذ نور ) هذا المعنى أيضاً ، ف ( نور ) بمعنى نار . فيكون المعنى شهر النيران .

وقد ورد اسم الشهر ( ورخ ذ ملت ) ، ( ورخ ذ مليت ) في عدد من النصوص<sup>٣</sup> . وهو من الأشهر التي لها صلة بموسم الزرع والمواسم . وهذه الأشهر هي : ( ذ دئا ) ، و ( ذ ملت ) ( ذ مليت ) ، و ( ذ قبضن ) ، و ( ذ دنم ) ( ذ دونم ) ، و ( ذ نيلم ) . ومن الشهور الواردة في نصوص ( هرم ) ، شهر ( ذ سلام ) ( ورخ ذ سلام ) .

١ راجع السطر ٧ - ٨ من النص : Jamme 611, MaMB 277.

٢ Jamme 567, 6-7, 607.

٣ Jamme 613, 10, 653, 10, 14.

وهناك احتمال بأن : ( ذ موص ب م ) ، و ( ذ عث ر ) ، و ( ذ مخضب م ) ، هي أسماء شهور كذلك . وقد ورد : ( حين ذ مخضب م قد متن ) ، مما يدل على أن اسم هذا الشهر هو مؤنث ، وهو الشهر الأول ، لوجود لفظة ( قد متن ) وأن هنالك شهرآ آخر ، يمكن تسميته بـ ( حين مخضب م الثاني ) <sup>١</sup> .

ويظهر من أسماء هذه الشهور المتقدمة ، أن العرب الجنوبيين ، كانوا يسمون بعض أشهرهم بما يقع فيها من حوادث مهمة ، مثل موسم جمع الديبون أو التعبد للآلهة أو إلة معين ، أو للحج إلى المعابد ، أو بالظواهر الطبيعية التي تمتاز بها مثل الحر أو البرد ، أو بموسم الصيد .

وقد حاول ( بيستان ) ثبيت بعض شهور العرب الجنوبيين بالنسبة إلى المراسم وإلى الأشهر المستعملة في الوقت الحاضر ، فذهب إلى أن شهر ( ذ ثيتن ) قد يكون هو شهر آذار أو شهر نيسان ، وأن شهر ( ذ قيصن ) ، أي شهر القسط ، يعني الحر ، الذي يقابل ( رمضان ) قد يكون شهر ( مايس ) أو حزيران ، وأن شهر ( ذ خرف ) ، و ( ذ مذرن ) قد يكونا تموز إلى أيلول ، وأن شهر ( ذ داون ) ، قد يكون شهر ( أكتوبر ) ( تشرين الأول ) ، وأن شهر ( ذ صربن ) قد يكون شهر ( نوفمبر ) ( تشرين الثاني ) ، وأن شهر ( ذ معن ) قد يقابل شهر ( ديسمبر ) ، أي ( كانون الأول ) <sup>٢</sup> .

وليس في امكاننا في الزمن الحاضر وضع تقاويم ثابتة كاملة للشهور في العربية الجنوبية . نعم ، يمكننا ثبيت بعضها استناداً إلى معاني أسمائها كما رأينا ذلك فيما تقدم ، وذلك بأن نجعل الشهر الفلاحي في الفصل الفلاحي من فصول السنة مثلاً . ولتكن عاجزون عن ترتيب كل الشهر الإلأي عشر ترتيباً زمنياً صحيحاً لنقص في علمتنا بالشهور . ومن أجل الوصول إلى ذلك ، لا بد من أن نريث حتى تهياً لنا نصوص كثيرة جديدة ، قد تكون من بينها نصوص فلكية ، أو نصوص أخرى ترد فيها أسماء شهور جديدة ، وأسماء شهور مرتبة ترتيباً زمنياً يساعدنا على ترتيبها وتنظيمها في تقاويم منتظمة لمختلف القبائل العربية الجنوبية ودولاتها . ولا بد لي هنا من الإشارة إلى وجوب الاستعانة بالتقاويم المستعملة عند بقية الساميين

Beeston, p. 12.

١

Beeston, p. 24.

٢

و عند القبائل العربية الشهالية و عند القبائل الإفريقية التي كانت لها صلات بالعرب الجنوبيين ، لمطابقة شهورها على شهور التقاويم العربية الجنوبية و تثبيتها عندئذ على هذا الأساس .

ولم ترد في كتابات المسند أسماء الشهور المستعملة عند الشعوب السامية الشهالية ، وهي : نيسان ومايس وحزيران وتموز وآب ويلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني وشباط وآذار .

ويظهر أن سنة العرب الجنوبيين ، كانت تتكون من ( ٣٦٠ ) يوماً ، مقسمة على اثني عشر شهراً ، ولأجل جعل هذه السنة سنة طبيعية كاملة ، متفقة مع الدورة السنوية الحقيقية للأرض ، كانوا يعالجون ذلك بالكبس . إما بكبس بقية الأيام على السنة نفسها ، ويم ذلك في كل سنة ، وإما بإضافة شهر إضافي على التقويم في نهاية كل ثلاثة سنوات<sup>١</sup> .

وربما يدل اسم الشهر ( ذ برم اخرن ) ، ( ذو برم الآخر ) ، وهو من شهر قبان ، على انه شهر كبس ، يضاف إلى سنة الكبس لتكون سنة شمسية تامة . وربما أدى اسم الشهر : ( ذ نسور اخرن ) ، وهو من شهور السبعين هذا المعنى كذلك . وهناك شهر اسمه ( بين خرفنهن ) أي ( بين الشهرين ) ، ربما يدل على الكبس ، واضافة شهر بين الشهرين ، لتكون السنة كاملة ، أي كبس شهر على السنة الاعتيادية ، فت تكون عدتها ثلاثة عشر شهراً ، وذلك بعد السنة اللازمة ، لإصلاح التقويم ، حتى يكون مطابقاً للدوره الأرض حول الشمس<sup>٢</sup> . وقد كان العبرانيون يضيفون شهراً على تقويمهم بسبب أن الشهور الاثني عشر القمرية لم تكن إلا ( ٣٥٤ ) يوماً وست ساعات ، فنقصت بذلك السنة اليهودية أحد عشر يوماً عن الرومانية ، ولسبب ذلك أدخل اليهود شهرًا ثالث عشر كل ثلاث سنوات ، سمته ( فيadarًا ) ، أي ( آذار الثاني ) ، وهكذا جعلوا طول السنة القمرية يعادل الشمسية تقريباً<sup>٣</sup> .

وقد ورد في النصوص اللحيانية اسم ( منز ) ، يظهر أنه اسم شهر ، يقال

1 Beeston, p. 18.

2 Beeston, p. 18.

3 قاموس الكتاب المقدس ( ٦٣٩ / ١ وما بعدها ) .

له (مسنر) ، أي (منير)<sup>١</sup> . واسم آخر هو (مسنر) ، يظهره انه اسم شهر كذلك .

أما النصوص العربية الشهالية ، فهي بختلة كل البخل في ايراد أسماء الشهور ، فلم يرد في النصوص العربية الخمسة المذكورة بعربيه قريبة من عربية القرآن الكريم من أسماء الشهور ، إلا اسم شهر واحد ، هو (كسلول) . وقد ورد اسمه في (نص الهرة) . ويقابل هذا الشهر ، كانون الأول . ويدل استعمال النص هذه التسمية على أن العرب الشهاليين ، كانوا يستعملون التقويم البابلي في التاريخ .

و (كسلول) ، هو الشهر التاسع من الشهور المتساوية في العراق وفي بلاد الشام . وأصله (كسلو) ، وهو بابلي . وهذه الشهور هي : نيسان ، وزين ، وسيوان ، وتموز ، وآب ، وایلول ، وايثنام ، وبول ، وكسلو ، وطبييت ، وشباط ، وآذار . وهي الشهور المقدسة عند العبرانيين<sup>٢</sup> . ويقال لشهر نيسان شهر (أيب) ، ولشهر (زيف) (أيارا) ، وأما (سيوان) فهو (سيوان) وتمزق هو تموز ، وآب هو آب ، وأما أيلول فهو أيلول ، وأما ايثنام فهو تشرى (تسرى) و (تشريتو) ، وأما (بول) فهو مارشوان ، وكسلو هو (كسلو) ، و (طبيت) هو (بت) ، ويسمى بـ (نمطرو) أيضاً . وأما (شباط) فهو (سبت) (شبات) ، وأما (آذار) فهو آذار<sup>٣</sup> .

وقد ذكر الأخباريون أسماء أشهر ترك استعمالها في الاسلام ، ذكرروا أنها كانت مستعملة عند قدماء الجاهلية ، وهم العرب العاربة ، كما ذكرروا أسماء شهور قالوا أنها كانت أسماء الشهور عند ثمود ، وأسماء شهور قالوا أنها الشهور التي كان يستعملها العرب عند ظهور الاسلام .

أما الشهور التي زعموا أنها كانت شهور العرب العاربة ، فهي : المؤتمر ، وقد زعموا أنه في مقابل المحرم ، وناجر ، وهو في موضع صفر ، ونحوان (وروبي حران) ويقابل ربيعياً الأول ، ووبصان (ويقال صوان وبصان) ، وهو في مقابل ربيع الآخر ، والحنين أو شبيان ، وهو جمادى الأولى ، وملحان وهو

---

١ Caskel, Lihyan, S. 129, 127.

٢ قاموس الكتاب المقدس (٦٣٩/١)، (شهر) ، Hastings, p. 936.

٣ The Bible Dictionary, vol. II, p. 182.

جادى الآخرة ، والأصم ، وهو شهر رجب ، وعادل (عادل) ، وهو شعبان ،  
وناقق ، وهو شهر رمضان ، ووعل وهو شوال ، ورنة ، وهو ذو القعدة ،  
وبرك وهو ذو الحجة . وذكر بعضهم أن خواناً اسم يوم من أيام الأسبوع ،  
 وأن شيئاً اسم كانون الأول ، وأن ملحاً هو كانون الثاني . وهذا الترتيب الذي  
ذكرته هو كما جاء في رواية ابن سيدة<sup>١</sup> .

وذكر الفراء أن من العرب من سنتي المحرم المؤخر ، وصفراً ناجراً ، وربع  
الأول خواناً ، وربع الآخر بسان أو وبسان أو يوصان ، وجادى الأولى الحنين<sup>٢</sup> ،  
وجادى الآخرة ورنة (ورني) ، ورجب الأصم ، وشعبان علاً ، ورمضان  
ناتناً ، وشوال عاذلاً<sup>٣</sup> ، ذو القعدة هُواعاً ، ذو الحجة بركاً<sup>٤</sup> . وذكرها  
غيره على هذا النحو : المؤخر وهو المحرم ، وناجر وهو صفر . وخوان ،  
وهو رباع الأول ، ووبسان وهو رباع الآخر ، وحنين وهو جادى الأولى .  
وربي وربة لجادى الآخرة . والأصم وهو رجب . وعادل وهو شعبان  
وناقق وهو رمضان . ووعل وهو شوال ، وورنة وهو ذو القعدة ،  
وبرك وهو ذو الحجة<sup>٥</sup> .

ورتب المسعودي أسماء الشهور الجاهلية على هذا النحو : ناقق ، وثقيل ،  
وطليق ، وناجر ، وسماح (أسلح) ، وأمنح (أمسح) ، وأحلك ، وكسع ،  
وزاهر ، وبرط ، وحرف ، ونسع . وجعلها في مقابل المحرم ، وصفراً ، فبقيت  
الشهور . وذكر أن (نسعاً) هو ذو الحجة<sup>٦</sup> .

ورتبها البيروني على هذا النحو : المؤخر ، وناجر ، وخوان (خوان) ،  
وصوان ، وحنتم أو حنن ، وزباء ، والأصم ، وعادل ، وناقق ، وواغل ،  
وهواع أو رنة ، وبرتك<sup>٧</sup> .

١ المخصص (٩/٤٣)، الأيام والليالي والشهور، للفراء، القاهرة، ١٩٥٦م (ص ١٨)، المزهر (١/٢١٩) .

٢ بالفتح وبالضم، المرزوقي (١/٢٧٩ وما بعدها)، المزهر (١/٢٢٠)، نزهة الجليس (١/٢١٨) .

٣ الأيام والليالي والشهور، للفراء، (ص ١٧ وما بعدها) .

٤ صبح الاعشى (٣٧٨/٢ وما بعدها)، تاج العروس (٣/٢٠)، (أمر) .

٥ مروج الذهب (٢/١١٠)، (٢/١٩١)، (دار الاندلس) .

٦ الآثار الباقية (١/٦٠)، طبعة سخاو، «لابيزك ١٨٧٦م»، التقويم (ص ١٦٧) .

ورتبها آخرون على هذا النحو : مؤتمر ، وناجر ، وحوان ( بالحاء المهملة واللقاء المعجمة ) ، وصوان ويقال فيه وبصان ، وربى ، وأيدة ، والأصم ، وعادل ، وناظل ، وواغل ، وورنة ، وبرك<sup>١</sup> . أو على هذا النحو : ناق ، ونقبيل ، وطليق ، وأسنح ، وانخ ، وحلك ، وكصح ، وزاهر ، ونوط ، وحرف ، ويفش .

وذكرها بعض آخر على هذا النحو : مؤتمر ، وناجر ، وحوان ، وصوان ، أو ( وبصان ) ، و ( حبن ) وربى ، وأيدة ، والأصم ، وعادل ، وناظل ، وواغل ، وورنة ، وبرك . أو هي : ناق ، ونقبيل ، وطليق ، وأسنح ، وأنخ ، وحلك ، وكصح ، وزاهر ، ونوط ، وحرف ، ويفش . وهناك من يقول : مؤتمر ، وناجر ، وحوان ، وصوان ، وحتم ، وزبا ، والأصم ، وعادل ، ونافق ، وواغل ، وهواع ، وبرك ، وما شاكل ذلك . وهناك آراء أخرى في ترتيب هذه الشهور وفي ضبط هذه الأسماء<sup>٢</sup> .

وذكر علماء اللغة أن الحال من الشتاء عند العرب شهراً ، يطلقون عليها ( قاحاً ) ، ويقال للشهرين : ملحان وشيان<sup>٣</sup> .

ويسمون شهري القبظ الذي يخلص فيها حرّة ، شهري ناجر ، وذكر أنهما : وقدة وعكّان . وهذا الشهاران هما بيبة الصيف<sup>٤</sup> .

وذكر علماء اللغة كذلك ، أن شهراً ( قاح ) شهراً الكانون لأنهما يكره فيها شرب الماء إلا على ثقل . قال مالك بن خالد المتنلي :

فَيْ ما ابن الأَغْرِ إذا شتونا وحب الزاد في شهر قاح<sup>٥</sup>

و ( ملحان ) اسم شهر جادى الآخرة ، سمي بذلك لا يضاضه ، قال الكحيت :

١- نهاية الارب ( ١٥٧/١ ) .

٢- وسيان وبصان اذا ما عدته وبرك لعمري في الحساب سواء صبح الاعشى ( ٣٦٨/٢ وما بعدها ) ، تاج العروس ( ٤٤٤/٤ ) ، اللسان ( ٣٧٤/٨ ) .

٣- الانواه ( ص ١٠٥ وما بعدها ) ، المرزوقي ( ٢٧٩/١ ) .

٤- الانواه ( ص ١٠٦ وما بعدها ) .

٥- تاج العروس ( ٢٠٩/٢ ) .

## إذا أمست الآفاق حراً جنوباً لشبيان أو ملحان واليوم أشهب

شبيان جمادى الأولى ، وقيل كانون الأول ، وملحان كانون الثاني<sup>١</sup> . وورد  
أن (شبيان) ، شهر فيه برد وغيم وصراط ، و (فاح) أشد الشهور برداً . وهما  
اللذان يقول من لا يعرفها كانون الأول وكانون الثاني<sup>٢</sup> .

ويتبين من البيت المنسوب إلى (الكميت) أنها كانا معروفيين في أيامه .

وأما شهور ثُمود على حد زعم الأخباريين ، فهي : موجب ، وموجر ،  
ومور (مورد) ، وملزم ، ومصلد ، وهوبر ، وهوبل ، وموها ، وذمر  
(ذمر) ، ودابر (دابل) ، وحيل ، ومبيل (مسلسل)<sup>٣</sup> . وضبطها بعض  
آخر على هذا النحو : موجب ، وموجز ، ومور ، وملزم ، ومصلد ، وهوبر ،  
وموبل ، وموهبا ، وذمر ، وجيل ، وملس ، ومبيل<sup>٤</sup> . وموجب هو المحرم ،  
وموجر هو صفر . ويدركون أنهم كانوا يبدأون في تقويمهم بذمر ، وهو شهر  
رمضان ، فيكون أول شهور السنة عندهم<sup>٥</sup> .

وذكر أن (مُصلد) من أسماء جمادى الأولى<sup>٦</sup> .

ونحن لا نستطيع في الوقت الحاضر التأكيد على أن هذه الشهور ، هي شهور  
(ثُمود) ، كما لا نريد أن تقف منها موقفاً سليماً ، فنقول إنها من مخترعات  
أهل الأخبار ، وضعوها على لسانهم وضعاً . وعندى أن من الخبر لنا في الوقت  
الحاضر وجوب البحث عن كتابات ثُمودية علنا نجد فيها أسماء أشهرهم .

أما الشهور التي ذكر الأخباريون أنها كانت مستعملة عند العرب حين ظهور  
الإسلام ، فهي : المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الثاني ، وجمادى

١ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملحق) .

٢ وقد أعاد ذكر بيت الكميـت ولكن على هذه الصورة :

إذا أمست الآفاق غبراً جنوباً بشبيان أو ملحان واليوم أشهب

تاج العروس (١/٣٢٨) ، (شاب) .

٣ بلوغ الارب (٣/٧٦ وما بعدها) ، الانوار الباقية (١/٦٣) ، صبح الاعشى

(٢/٣٦٨) .

٤ المرزوقي (١/٢٨٣) .

٥ بلوغ الارب (٣/٧٦ وما بعدها) .

٦ اللسان (٤/٤٥٠) ، (صدر) .

الأولى، ومجادى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، و Shawal ، وذو القعدة، وذو الحجة . زعموا أن أسماءها وضعت على هذه الصورة باتفاق حال وقت في كل شهر منها ، فسمى الشهر بها عند ابتداء الوضع . وذكروا التعليل الذي رواه عن كل تسمية . وذكروا أيضاً أن أول من سماها بهذه الأسماء هو كلام بن مرّة . ومن هذه الشهور أربعة حرم لا يجوز فيها غزو ولا قتال<sup>١</sup> . وقال (الطبرى) : « وكان المشركون يسمون الأشهر : ذو الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع ، وربيع ، ومجادى ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، و Shawal ، وذو القعدة <sup>٢</sup> . »

ويذكر الأخباريون أن الاسم القديم للحرم هو صفر، وأنه كان يعرف عندهم بـ ( صفر الأول ) ، ثم قبل له ( المحرم ) . وقد عرف الشهاران : المحرم وصفر لذلك بـ ( الصفرتين ) <sup>٣</sup> . ويظن أن هذه التسمية الجديدة : أي المحرم لصفر الأول إنما ظهرت في الإسلام<sup>٤</sup> . وذهب بعض علماء اللغة إلى أن لفظة ( موجب ) هي الاسم العادى للمحرم . أي التسمية القديمة لهذا الشهر عند قدماء العرب<sup>٥</sup> . فلفظة ( حرم ) اذن ، لم تكن تسمية لذلك الشهر ، وإنما كانت صفة له ، لحرمة ، ثم غلبت عليه ، فصارت متنزلة الاسم العلم عليه . وأما اسمه عند الجاهليين ، فهو : صفر ، أي صفر الأول ، تمييزاً له عن صفر الثاني ، الذي اختص بهذه التسمية أي ( صفر ) بعد تغلب لفظة ( المحرم ) على صفر الأول . بحيث صار لا يعرف إلا به ، فصار صفر لا يعرف بعد ذلك إلا بـ ( صفر ) . وقد تغلبت لفظة ( حرم ) عليه ، لأنه شهر من الأشهر الحرم ، فهو ( صفر )

١. بلوغ الارب ( ٧٨/٣ ) ، صبح الاعشى ( ٢/٣٦٤ وما بعدها ) ، نهاية الارب ( ١٥٨/١ ) .

٢. تفسير الطبرى ( ٩٢/١٠ ) ، صبح الاعشى ( ٢/٣٧٤ وما بعدها ) .

٣. اللهم اني قد أحملت لهم أحد الصفرتين . الصفر الاول ، ونسأت الآخر العسام المقلب ، ابن هشام ( ٤٥/١ ) ، « أول من نسأ الشهور » ، اللسان ( ٦/١٣٣ ) ، البخاري ( ٢/٢٥٧ ) ، تاج العروس ( ٣/٣٣٦ ) .

٤. تاج العروس ( ٣/٣٣٦ ) .

Reste, S. Raccolta, vol. V, p. 169, Winckler, Zur Altarabischen Zeitrechnaung, in Altorientalische Farschungen, II, Reihe, Bd. 2,

S. 324, 1900, Arabisch — Orientalish, Berlin, 1901, S. 81, in MVG.,

VI, 4-5, 1901.

٥. تاج العروس ( ١/٥٠٢ ) .

المحرم ، تبيّناً له عن (صفر) الثاني ، الذي لم يكن من الأشهر الحرم . ثم غلب المحرم عليه ، وماتت لفظة صفر منه . قال (السخاوي) : « إن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محراً » ، وعندني انه سمي بذلك تأكيداً لتحرّيه ، لأن العرب كانت تتغلب به فتحله عاماً وتخرمه عاماً »<sup>١</sup> .

وذكر أن المحرم لم يكن معروفاً في الجاهلية ، « وإنما كان يقال له ولصفر الصفررين ، وكان أول الصفررين من أشهر الحرم ، فكانت العرب تارة تحرّم منه ، وتارة تقاتل فيه ، وتحرم صفر الثاني مكانه » ، « فلما جاء الإسلام ، وأبطل ما كانوا يفعلونه من النبي صلى الله عليه وسلم ، شهر الله المحرم »<sup>٢</sup> .

ويتبين من دراسة أسماء هذه الشهور أن منها ما هو تكرار للاسم الواحد، وهي ربيع الأول وربيع الثاني وجادى الأولى وجادى الآخرة ، ومجموعها أربعة أشهر، فهي ثلث السنة إذن . وتقع في النصف الأول من السنة وعلى التوالي ، تليها أشهر مفردة ، ثم شهراً يبتدئ اسمها المركبان بكلمة (ذو) ، وهما : ذو العقدة . ذو الحجة ، وهما آخر شهور السنة . وإذا صحت روایة من قال ان الاسم القديم للمحرم هو صفر الأول ، كانت الأشهر المكونة للنصف الأول من السنة أشهراً مزدوجة تتألف من ثلاثة أزواج ، هي : صفران وربيعان وجاديان<sup>٣</sup> .

وإذا درسنا أسماء هذه الشهور الجاهلية التي ذكرها أهل الأخبار ، وجدنا أنها لا تشبه أسماء الشهور البابلية ولا الشهور السريانية والمعرانية . وهي لا تشبه كذلك أسماء الشهور الواردة في المسند . فليس في الذي بين أيدينا من أسماء الشهور العربية الجغنبوية على اختلافها ما يشبه هذه الشهور .

وقد انتبه علماء العربية الى أن أسماء بعض الأشهر التي استعملت في الإسلام ، مثل رمضان ، لا تتطابق مع المعاني التي يفهم منها ، فرمضان من الرمض ، وهو الحر الشديد ، مما يدل على انه من أشهر الصيف ، بينما هو شهر منتقل ، يأتي في كل الموسم ، فلجلأوا الى تعليل مصطلح ، على عادتهم عند وقوفهم على اسم لا يعرفون عن أصله شيئاً ، فقالوا : « يقال انهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة

١ تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢) .  
٢ المزهر (٣٠٠/١) .  
٣ Reste, S. 95, Shorter, p. 409.

القديمة سمحوا بالأذمنة التي وقعت فيها ، فوافق شهر رمضان أيام رمض الحمر ، فسمى بذلك <sup>١</sup> ، ولم يعرفوا أن ذلك يسبب أتباع الاسلام التقويم القرمي ، مما دعا الى تحرك الشهور وتنقلها في الفصول ، لكون الشهور القرمية غير ثابتة على نعط الشهور الشمسية .

ويبدأ الجاهليون بالمحرم ، فهو أول السنة عندهم <sup>٢</sup> ، وهو أيضاً الشهر الأول من شهور السنة المجرية في الاسلام . وأرى ان اتخاذ المسلمين للمحرم ، مبدئاً للسنة الأولى من المجرة ، وجعله الشهر الأول من التقويم المجري ، هو من الأمور التي أبقاها الاسلام من أمور الجاهلية ، لأن هجرة الرسول الى المدينة لم تكن في شهر (محرم) حتى يقول إن المسلمين جعلوا (المحرم) الشهر الأول من السنة المجرية ، لهذه المناسبة ، إذ كانت المجرة في شهر ربيع الاول ، وأرخ بها <sup>٣</sup> ، لذلك يكون الابتداء بشهر محرم ، هو اقرار لما كان عليه الجاهليون من ابتدائهم بـ (محرم) ، مبدئاً لشهور السنة . وقد قيل إن وصوله المدينة كان يوم الاثنين الثامن من ربيع الاول ؛ وقيل لثني عشرة منه ، وقيل دخل ملال ربيع الاول ، وقيل غير ذلك <sup>٤</sup> .

وقد أورد العلماء شروحًا وتفسيرات لمعاني الشهور المقدمة الجاهلية ، والشهور التي استعملت في الاسلام واقتربت بالتقويم المجري . فذكروا مثلاً أن المؤمن معناه أن يأنف بكل شيء مما تأنى به السنة من أقضيتها . وناجر من النجر ، وهو شدة الحر ، ونحوان من الحياة ، وصوان من الصيادة ، والزباء يعني الظاهرة العظيمة المتکاففة سمى بذلك لكثرة القتال فيه وتكافنه ، والبائد سمى لأنه كان يبيد فيه كثير من الناس ، وكانوا يستعجلون فيه ويتوخون بلوغ ما كان لهم من الأثار والغارات قبل دخول شهر رجب وهو شهر حرام ، والأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح . والواغل الداخل على شراب ولم يدعوه ، وذلك لهجومه على شهر رمضان ، وكان يكثر في رمضان شربهم

١ المزهر (١/٢٢٠) .

٢ مروج الذهب (٢/١٨٨) . (ذكر سنتي العرب وشهورها وتسمية أيامها ولالياليها) .

٣ تاريخ الطبرى (٤/٣٨) ، اليعقوبي (١/١٣٥) ، « أيام عمر بن الخطاب » ، ابن

٤ هشام ، سيرة (٢/١٥) ، (حاشية على الروض) .

٥ امتاع الاسماع (١/٤٤) .

للخمر ، لأن ما يتلوه شهور الحج ، وناظل مكياً للخمر ، سمي لفراطهم في الشرب وكثرة استهلاكم لذلك المكياً ، والعادل من العدل ، لأنه من أشهر الحج ، وكانوا يشغلون فيه عن الناطل ، والرنة كانت الأئمَّة ترن فيه لقرب التحرز ، وبرك سمي لبروك الإبل إذا أحضرت المنحر<sup>١</sup> .

وعملوا تسمية المحرم بهذا الاسم ، لكونه من جملة الحرم ، وصفر بالأسواق التي كانت باليمن تسمى الصفرية ، وشهري الربيع للزهر والأنوار ونواتر الأندية والأمطار ، وهو نسبة إلى طبع الفصل الذي نسميه نحن التزيف ، وكانوا يسمونه ربيعاً ، وشهري جمادي بلجمود الماء فيها ، ورجب لاعتدادهم الحركة فيه ، لأن جهة القتال ، أو لخوفهم إياه ، يقال : رجبت الشيء ، إذا خفت ، وشعبان لتشعب القبائل فيه ، ورمضان للحجارة ترمض فيه من شدة الحر ، وشوال لارتفاع الحر وادباره ، وذي القعدة للزومهم منازلهم ، وذي الحجة لحجمهم فيه<sup>٢</sup> .

وعمل بعضهم تسمية الأشهر بقوله : سمي المحرم حرماً تأكيداً لتحرمه ، لأن العرب كانت تتقلب به ، فتحله عاماً وتحرمه عاماً ، وسي صفر بذلك ، تخلو بيوتهم حين يخرجون للقتال والأسفار . وشهر ربيع الأول ، سمي بذلك ، لارتباعهم فيه ، والارتباع الاقامة في عمارة الربيع ، وربيع الآخر كالاول . وجمادي : سمي بذلك بلجمود الماء فيه . ورجب من الترجيب ، وهو التعظيم . وشعبان من تشعب القبائل وتفرقها للفارة . ورمضان من شدة الرمضاء ، وهو الحر . وشوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق ، ذو القعدة ، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، ذو الحجة : لايقاعهم الحج فيه<sup>٣</sup> .

ويظهر من تفسير أسماء بعض الأشهر وتحليلها أن تسمياتها علاقة بالمواسم وبالعوارض الطبيعية الجوية مثل البرد والحر والاعتدال في الجو ، وأن تسمياتها ، أي الشهور المسماة بها ، كانت شهوراً ثابتة في الأصل ، وإنما فلا يعقل تفسيرها

١ الآثار الباقية (٦١/١) ، المزوقى (١٢٧٥/١ وما بعدها) .

٢ الآثار الباقية (٦٠/١) ، الفراء (ص ٩ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٧٨/٣) ، المسعودي ، مروج (١٨٨/٢ وما بعدها) ، (ذكر سنتي العرب وشهورها وتسمية أيامها وليلاتها) ، وتجد تفسيرات عديدة أخرى في تعليم تسمية هذه الأشهر ، تدل على أنها مما وضعه الرواة فيما بعد ، حينما احتاج الناس إلى التعرف على سبب التسميات ، صبح الاعشى (٢٣٧٥/٢ وما بعدها) .

٣ ابن كثير (٣٥٤/٢) ، المسعودي ، مروج الذهب (١٨٨/٢ وما بعدها) .

بغير هذا التفسير . فكيف يسمى رمضان رمضان مثلاً لرمضان الحجارة من شدة الحر فيه ، إن لم يكن ثابتاً وشهراً من أشهر الصيف الحارة ؟ وكيف يسمى جمادى بجمادى لجمود الماء فيه ، إن لم يكن هو والشهر التالي له والمسمى بجمادى الآخرة ثابتين ، ومن أشهر الشتاء ؟ وهكذا يجب أن يقال عن بقية الشهور ، ولا لم يصح ما قيل فيها من التفاسير<sup>١</sup> . وقد فطن (ال سعودي ) إلى ذلك فقال : « وجماًد ، بجمود الماء فيها في الزمان الذي سميت به هذه الشهور ، لأنهم لم يعلموا أن الحر والبرد يدوران فتنقل أوقات ذلك »<sup>٢</sup> . فأدرك أن شهور العرب في الجاهلية كانت أشهرأ تعيش ظواهر طبيعية مثل الحرارة والبرودة في الأصل ، لكنه لما وجد – كما وجد غيره أيضاً – أن أوقات الشهور هي متغيرة ، بحث لا تستقر على قرار في الموسم ، ذهب إلى أن الجاهليين لم يكن لهم علم بأن الحر والبرد يدوران ، مع انهم كانوا على علم تام بذلك ، فكانت أشهرهم ثابتة ، ولم يفطن سعودي إلى ذلك ، لأنه أخذ حكمه من الوضع الذي كانت عليه الاشهر في الاسلام ، ولم يفطن إلى أن إبطال النبي في الاسلام ، هو الذي أطلق هذه الحرية للأشهر فصارت تدور بحرية وتدخل في كل الموسم ، ولم تقييد بالوقت الذي خصصت به . ولما تكلم (ال سعودي ) عن الشهور قال : « شهور الروم مرسومة على فصول السنة دون شهور العرب : وشهور العرب ليست مرتبة على فصول السنة ولا على حساب سنة الشمس ، بل المحرم وغيره من الشهور العربية قد يقع نارة في الربع وتارة في غيره من فصول السنة »<sup>٣</sup> .

### الاسبوع :

ويقسم الشهر الى أربعة أقسام ، كل قسم منها هو اسبوع ، ويكون من

الاثار الباقية (٦٢/١) .

<sup>٢</sup> سعودي ، مروج (١٨٩/٢) ، تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢ وما بعدها) .

<sup>٣</sup> مروج (١٩٢/٢) .

<sup>٤</sup> ناج العروس (٤٠١/٧) ، (شول) ، صبح الاعشى (٣٧٦/٢) .

سبعة أيام . وتعزى فكرة هذا التقسيم الى البابليين . ولكن ضبط الأسابيع وتنابعها على النحو المعروف حتى اليوم هو نظام ظهر بعدهم بأمدٍ . وقد ذكر الأسبوع ( Shabu'a ) في التوراة ، في سفر التكوانين<sup>١</sup> . وعلى أساس الجمع بين السبت اليهودي وقصة الخلق ، نظم الأسبوع بحسب العرف الشائع اليوم<sup>٢</sup> .

ولا أعرف لل أسبوع اسمًا في المستند ، إذ لم ترد لفظة (أسبوع) أو آية لفظة أخرى مرادفة لها في تلك النصوص<sup>٣</sup> . غير أن هناك نصاً من نصوص قوانين البيع والشراء ، ذكر أن إنساناً إذا اشترى حيواناً ، ثم مات ذلك الحيوان بعد سبعة أيام من يوم البيع ، فلا يكون البائع مسؤولاً عن وفاته ، ولا يتحمل أي ضرر عنها<sup>٤</sup> . فلعل النص على هذه الأيام السبعة ، يشير الى وجود فكرة الأسبوع عند العرب الجنوبيين .

وقد يقسم الجاهليون الشهر الى عشرة أقسام . يتألف كل قسم منها من ثلاثة أيام . هي : غدر . والغُرر : ثلاثة أيام من أول كل شهر . وغرة الشهر ليلة استلال القمر<sup>٥</sup> . ونفل أو شهب وتشع أو بَهْر . وهي الليلة السابعة والثامنة والتاسعة<sup>٦</sup> . وعشرين وبعده ودرع وظلم وحنادس أودهم ودادي<sup>٧</sup> ( داداً ) ومحاق<sup>٨</sup> . ويذكر أهل الأخبار<sup>٩</sup> أن العرب في الجاهلية إذا كان يوم المحاق من الشهر يذر الرجل الى ماء الرجل اذا غاب عنه فينزل عليه ويستقي به ما له ، فلا يزال قيم الماء ذلك الشهر وربه حتى ينسليخ ، فإذا انسليخ كان ربه الاول أحق به . وكانت العرب تدعوا ذلك المحاق<sup>١٠</sup> .

Universal Jewish Encyclopaedia, vol. 10, p. 482.

١ التكوانين الاصحاح السابع ، الآية ٤ وما بعدها ، والاصحاح الثامن الآية ١٠ وما

٢ بعدهما ، قاموس الكتاب المقدس ( ٧٩/١ ) .

Universal Jewish Encyclopaedia, 10, p. 482.

٣ Beeston, p. 3.

٤ Rep. Epigr. 3910.

٥ اللسان ( ١٥/٥ ) ، ( غدر ) .

٦ اللسان ( ٨١/٤ ) ، ( بَهْر ) .

٧ اللسان ( ٥٨/٦ ) ، ( حندس ) ، اللسان ( ١٠/١٠ ) ، ( محق ) ، ( أسماء أيام

٨ الأسبوع وأسماء العدد وتفسير معانيها ) ، لاتيس فريحة ، الابحاث ، السنة ( ١١ )

٩ الجزء الاول ( ١٩٥٨ م ) ( ص ٣٢ ) .

١٠ اللسان ( ٣٣٩/١٠ ) ، ( محق ) .

وذكر بعض أهل الاخبار ، أن العرب كانت تسمى الثلاث الاولى من ليلي الشهر ، فتقول : ثلاث غرر ، والثلاث التي تليها ثلاث سمر ، والثلاث التي تليها ثلاث زهر ، والثلاث التي تليها ثلاث درر ، والثلاث التي تليها ثلاث قر ، وثلاث بيس ، وتقول في النصف الثاني من الشهر في الثلاث الأول ثلاث درع ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث ظلم ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث حناديس ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث دواري ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث محاقد . وقيل انه يقال لليالي الشهر : ثلاث هلل ، وثلاث قر ، وست قفل ، وثلاث بيس ، وثلاث درع ، وثلاث بهم ، وست حناديس ، وليلتان داريتان ، وليلة محاقد .

### الأيام :

والى يوم في عرف علاء اللغة من طلوع الشمس الى غروبها<sup>٢</sup> . ولكنهم يتسعون في معناه أيضاً ، فيقصدون به معانٍ أخرى ، مثل الدهر . أما في الاصطلاح فإنه جزء من أيام الأسبوع والشهر والسنة . وهو ليل ونهار، وهو مجتمعان يكونان اليوم . فاستعمل اليوم على وجهين : أحدهما أن يجعل اسماً للنهار خاصة : والوجه الآخر أن يكون اليوم اسمـاً للمدة الجامدة للزمانيـن جميعـاً ، أعني الليل والنـهار<sup>٣</sup> . واعتبر البـاهـليـون مبدأـ اليـومـ من وقتـ غـروبـ الشـمـسـ . وأما انتهاـؤـهـ فـيـابـتدـاءـ التـفـرـوبـ التـالـيـ لهـ . فـصـارـ اليـومـ عـنـدـهـمـ بـلـيـلـهـ منـ لـدـنـ غـروبـ الشـمـسـ عـنـ الأـقـقـ إلىـ غـروبـهاـ منـ الغـدـ ، فـصـارـتـ اللـيـلـةـ عـنـدـهـمـ قـبـلـ النـهـارـ<sup>٤</sup> .

وهـذاـ السـبـبـ غـلـبـتـ العـرـبـ الـلـيـلـيـ عـلـىـ الـأـيـامـ فـيـ التـأـريـخـ ؛ « لأنـ لـيـلـةـ الشـهـرـ سـبـقـتـ يـوـمـهـ ، وـلـمـ يـلـدـهـ ، وـلـوـلـدـتـهـ ، وـلـأـنـ الـأـهـلـةـ الـلـيـلـيـ دونـ الـأـيـامـ ، وـفـيـهاـ دـخـولـ الشـهـرـ»<sup>٥</sup> . وـالـعـرـبـ تـسـتـعـمـلـ اللـيـلـ فيـ الـأـشـيـاءـ الـيـشـارـكـهـ فـيـهاـ النـهـارـ ، فـيـقـولـونـ :

١ مروج (١٩٥/٢) ، وتخالف هذه التسميات باختلاف روايات أهل الاخبار ، صبح الاعشى (٣٧٠/٢ وما بعدها) .

٢ اللسان (٦٤٩/١٢) « صادر » يوم ، صبح الاعشى (٣٣٩/٢) .  
٣ الازمنة والانواع ، ابن الاجدادي (ص ٢٨) ، (الدكتور عزة حسن) ، (دمشق ١٩٦٤ م) .

٤ الآثار الباقية (٥/١ وما بعدها) ، ابن الاجدادي (٢٨) .  
٥ بلوغ الارب (٣/٢١٦) .

أدركتني الليل بموضع كثنا ، وصمنا عشرأ من شهر رمضان ، وإنما الصوم للأيام ، ولكتنهم أجازوه إذ كان الليل أول شهر رمضان<sup>١</sup> .

أما اليونان ، فقد عدوا مبدأ اليوم عند شروق الشمس ، وأما متاهه فابتداء شروق آخر ، وذلك مخالف الرومان الذين عدوا متتصف الليل هو ابتداء اليوم . ومتاهه عند متتصف ليلٍ تالي له<sup>٢</sup> . وقد عد التقويم العبراني ( لوح ) ، مبدأ اليوم من وقت غروب الشمس . وأما انتهاءه فابتداء الغروب التالي له<sup>٣</sup> .

وذكر أن العرب خصصوا من الشهر ليالي بأسماء مفردة كآخر ليلة منه ، فإنها تسمى ( السرار ) لاستمرار القمر فيها ، وتسمى ( الفحمة ) أيضاً لعدم الضوء فيها ، ويقال لها البراء ، وكآخر يوم من الشهر ، فإنهم يسمونه التحرير ، وكالليلة الثالثة عشرة ، فإنها تسمى السواء ، والرابعة عشرة ليلة البدر<sup>٤</sup> .

وقد عرف اليوم بـ ( يوم ) في نصوص المسند كذلك . كما وردت فيها لفظة ( ليل ) ، أي ( ليل ) للتعبير عن الليل ، أي الفحظة ذاتها التي تستعملها عربية القرآن الكريم . ووردت فيها لفظة ( صبح ) بمعنى صبح وصبح . ولا بد أن تكون في لهجات العرب الجنوبيين مسميات لأقسام الليل والنهار على نحو ما نجد في عربية القرآن الكريم . ولا يستبعد أن يظفر بها الباحثون بعد قيام العلماء بمحفوظيات علمية منظمة في العربية الجنوبية .

وقد أوردت كتب اللغة والأخبار أسماء الأيام التي كان يستعملها بعض الجاهليين ، ويبين منها أن الجاهليين كانوا يسمون الأيام بأسماء مختلفة متباعدة بحسب تباين الأماكن والقبائل . وقد ماتت تلك الأسماء الجاهلية ، وحلت محلها أسماء متأخرة لم تكن معروفة عند قدماء الجاهليين . فأسماء الأيام عند بعض الجاهليين منأخذ علماء اللغة عنهم ، هي كما زعموا : ( شيار ) ويراد به السبت ، وأول ويراد به الأحد ، وأهون ، وأوهد ويراد بها يوم الاثنين ، وجبار ويراد به الثلاثاء ، ودباد ويراد به الأربعاء ، ومؤنس ويراد به الخميس ، وعربوبة أو العروبة

١ بلوغ الارب ( ٢١٦ / ٣ ) .

٢ Dictionary of Classical Antiquities, p. 110.

٣ The Jewish Encyclopaedia, III, p. 501.

٤ الآثار الباقية ( ٦٤ / ١ ) .

أي بالتعريف ويراد به الجمعة<sup>١</sup>.

وقد جمعت أسماء الأيام القديمة المذكورة في هذين البيتين :

أُولَئِنَّ أَعْيَشُ ، وَأَنْ يَوْمِي بَأْلُ أو بَاهُونَ أو جَبَارٌ  
أَو التَّالِي دَبَارٌ ، فَيَانْ أَفْتَهُ فَؤُنْسٌ فَالْعُرُوبَةُ أَو شِيَارٌ

وهي أبيات ، يرى بعض علماء اللغة أنها موضوعة<sup>٢</sup> . وقد زعم (ابن كثير) أن البيتين المذكورين من شعر العرب العرباء المتقدمين<sup>٣</sup> .

وقد نسب بعض هذه الأخبار هذه الأيام إلى العرب العاربة من بنى قحطان وجرهم الأول<sup>٤</sup> .

ويذكر علماء اللغة أن أيام الأسبوع المعروفة والمتداولة عندنا في الزمن الحاضر ، وهي : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت ، هي أيام إغما عرفت وظهرت في الإسلام<sup>٥</sup> . ولكنهم لم يذكروا ، ويا للأسف ، متى كان ظهورها ولا في آية سنتها كان ذلك ، أكان ذلك في مكة أمي قبل الهجرة أم بعد الهجرة إلى المدينة ؟ وقد ذكر (المسعودي) هذه الأيام ، ثم قال : « وكانت العرب تسميتها في الجاهلية : الأحد أول ، والاثنين أهون ، والثلاثاء جبار ، والأربعاء دبار ، والخميس مؤنس ، والجمعة عروبة ، والسبت شيار »<sup>٦</sup> .

١ المخصوص (٤٢/٩) ، « أسماء الأيام في الجاهلية » ، نهاية الارب ، للنويري (١٤٢/١) ، مروج الذهب (١١٠/٢) ، الآثار الباقية (٦٤/١) ، الأيام والليالي والشهر للفراء (ص ٦) ، شرح القاموس (٥٤٩/٢) ، (٣٠٦/٥) ، صبح الاعشى (٣٥٤/٢) ، نهاية الارب (١٤٨/١) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١) ، المزهر (١/٢١٩) ، Ency. IV, p. 1210.

٢ اللسان (١/٥٩٣) ، (عرب) ، المسعودي ، مروج (١٩١/٢) ، تفسير ابن كثير (٣٥٥/٢) ، صبح الاعشى (٢/٣٦٥) ، اللسان (٤/٢٧٥) ، (دبر) ، نزهة الجليس (١/٢٩١) ، وتجدر بعض الاختلاف في النص .

٣ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) .

٤ صبح الاعشى (٢/٣٦٤) .

٥ الآثار الباقية (١/٦٣) وما بعدها ، بلوغ الارب (١/٢٧٣) وما بعدها ، الابحاث (١٩٥٨م) (١ ص ٣٣) ، نهاية الارب ، للنويري (١/١٤٢) .

٦ المسعودي ، مروج (٢/١٩١) .

وهناك من اللغويين والأخباريين من يرى أن هذه الأسماء المتداولة مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن العرب العاربة لم تكن تعرف هذه الأسماء<sup>١</sup> .

وذكر بعض أهل الأخبار ، أن الأيام المذكورة ، هي ما نطق به العرب المستعربة من ولد إساعيل ، وهي مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماء التي وبضعتها العرب العاربة ، وهي أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت<sup>٢</sup> .

ولا يملك الاخباريون دليلاً مقنعاً يثبت لنا بخلاف أن أيام الأسبوع المفروضة اليوم إنما وضعت في الاسلام . وفي رواياتهم عن يوم الجمعة ما يخالف زعمهم هذا . ثم إن كلمة (السبت) وردت في آية مكية<sup>٣</sup> . وورودها في آية مكية دليل على وقوف أهل مكة عليها ومعرفتهم بها . أما لفظة (الجمعة) ، فقد وردت في سورة مدنية ، أي أنها نزلت بعد الهجرة<sup>٤</sup> .

وعندى أن أسماء أيام الأسبوع المستعملة عندنا كانت معروفة في يهرب وفي مكة قبل الاسلام . وقد تعلمتها أهل يهرب من اليهود ، من اختلاطهم بهم . فإن هذا الترتيب للأسبوع مبني على قصة الخلق الواردة في التوراة . ولا بد لذلك لاستعمال هذا الترتيب من أن يكونوا قد تعلموه من مصدر يهودي أو من مصدر له صلة باليهود ، أو من النصارى الساكنيين بيهرب أو بمكة . فإننا نعرف أن العبرانيين كانوا لا يسمون أيام الأسبوع بأسماء خصوصية ، ولكنهم كانوا يعدونها بحسب ترتيبها ، فيقولون اليوم الأول والثاني والثالث كما هو في العربية ، إلا يوم الجمعة والسبت ، فقد كانوا يسمون الجمعة ( عريب شبات ) Ereb Shabat ومعناه ( مساء السبت ) و ( عشية السبت ) . وأما السبت ، فهو ( شبت ) ( شبات ) ومعناه الراحة Rest ، وذلك لاعتقادهم ولما ورد في سفر التكويرين : أن الله خلق العالم في ستة أيام ، واستراح في اليوم السابع . فسموا هذا اليوم :

١ بلوغ الارب ( ٢٧٥/١ ) .

٢ صبح الاعشى ( ٣٦٥/٢ ) .

٣ النحل : الآية ١٢٤ .

٤ الجمعة : الآية ٩ .

( يوم الراحة ) ( يوم ها - شبات ) yom ha-shabbat . و اختصرت بـ ( شبات ) أي السبت<sup>١</sup> .

ولست أعرف نصاً من نصوص المستند ، ورد فيه اسم معين ليسوم من أيام الأسبوع، مثل الجمعة أو السبت أو الأحد وغير ذلك . وكل ما نعرفه من النصوص أن العرب الجنوبيين كانوا يذكرون موقع اليوم من الشهر ، فيكتبون في اليوم السابع من الشهر الفلاحي ، أو في اليوم الخامس عشر منه ، أو في اليوم العشرين منه ، وهكذا . وذلك لتعيين مكان اليوم من الشهر . وطريقتهم هذه طريقة معروفة عند الساميين وعند غيرهم ، وهي لا تزال مستعملة حتى في هذه الأيام كتابة وفي الاستعمال الاعتيادي وفي التوريخ ، وذلك للسهولة والاختصار .

ولا نستطيع أن نتحدث عن اليوم المهم في الأسبوع مثل يوم السبت عند اليهود أو يوم الأحد عند النصارى وعند الوثنيين ، وإن كان في بعض الروايات ما يفيد أن يوم الجمعة كان من الأيام المعظمة في نظر قريش ، وقد عرف عندها بـ ( يوم العروبة ) ، وكانت تجتمع في كل جمعة إلى كعب بن لؤي بن غالب فيخطب فيها ، وأنه هو الذي سمي يوم العروبة يوم الجمعة ، وذلك لجتماع الناس حوله في ذلك اليوم<sup>٢</sup> .

وقيل : إن يوم الجمعة لم يعرف بهذا الاسم إلا في الإسلام<sup>٣</sup> . وأن الانصار هم الذين بدلوا اسم ( يوم العروبة ) فجعلوه ( الجمعة ) ، ذلك أنهم نظروا فإذا لليهود يوم في الأسبوع يجتمعون فيه ، وللنصارى يوم يجتمعون فيه هو الأحد ، فقالوا : مالنا لا يكون لنا يوم كيوم اليهود أو النصارى ، فاجتمعوا إلى سعد ابن زرارة ، ففصل لهم ركتعبن وذكرهم ، فسموا ذلك اليوم يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، وأنزل الله سورة الجمعة ، فهي على حد قول أصحاب هذه الرواية أول الجمعة في الإسلام<sup>٤</sup> . وقد اتبأه بعضهم إلى خطل رأي من ذهب إلى أن يوم الجمعة إنما سمي بهذه التسمية في الإسلام ، فقال إن يوم الجمعة كان يسمى بهذا

---

1 The Jewish Encyclopedia, Vol. III, p. 502, Art : Calender.

2 تاج العروس ( ٣٠٦ / ٥ ) ، بلوغ الارب ( ٢٧٣ / ١ ) .

3 الأيام والليالي ( من ٦ ) .

4 صبح الاعشر ( ٣٦٣ / ٢ ) ، بلوغ الارب ( ٢٧٤ / ١ ) .

الاسم قبل أن يصل إلى الأنصار الجمعة<sup>١</sup>.

وقد انتبه علماء العربية إلى اسم (يوم عروبة) ، فقالوا : هو اسم قديم للجمعة . (وكأنه ليس بعربي)<sup>٢</sup> . و (عروبة) يعني غروب في السريانية وفي العبرانية ، وقد سمي اليوم السابق للسبت (عروبة) ، لأنّه غروب ، أي مساء نهار مقدس<sup>٣</sup> . وذكر أهل الأخبار ، أن كل أربعة يواقيع أربعاء من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع عشرة خلت ، وأربع عشرة بقية ، وأربع وعشرين ، وأربع بقين ، فهي : (أيام نحسات)<sup>٤</sup> . ونظرًا لورود الاشارة إلى هذه الأيام في كتب أهل الأخبار ، ولاعتقاد الجاهليين بالتحس ، وبوجود تمجيد للسعادة والتحس ، كما في قول الشاعر :

يومين غيمين ويوماً شمساً تجيمين بالسعادة ونجماً نحساً<sup>٥</sup>

فإن في استطاعتنا القول بوجود الأيام التحسات عند الجاهليين .

ويقسم النهار والليل إلى اثنى عشر قسمًا ، كل قسم منها ساعة ، فيكون مجموع ساعات اليوم أربعاء وعشرين ساعة . وساعتنا المعروفة مأخوذة من الساعة السوميرية البابلية ، فقد قسم البابليون الليل والنهار إلى ساعات متساوية هي اثنتا عشرة ساعة لكل من الليل والنهار ، وجرى الناس على هذا التقسيم حتى اليوم<sup>٦</sup> . وذكر بعض علماء اللغة أن (الآباء) الساعات . وكان الجاهليون إذا شغلو إنساناً بالساعات ، قالوا لذلك (المتساوية)<sup>٧</sup> .

ويروي الأخباريون أن العرب وضعوا ساعات النهار والليل أسماء غير مستعملة عندنا ، فاما ساعات النهار ، فهي : (النرور) (الذرور) ثم للبزوع (البزاغ) ، ثم الضحى ، ثم الغزالة ، ثم الماجرة ، ثم الزوال ، ثم الدلوك ، ثم العصر ، ثم الأصيل ، ثم الصبور : ثم الحدود ، ثم الغروب . ويقال فيها أيضًا : البكور

١ صبح الاعشرى (٣٦٣/٢) .

٢ اللسان (١/٥٩٣) ، (عرب) .

٣ الابحاث ، السنة (١٩٥٨م) ، (١ ص ٤٨) .

٤ المسعودي ، مروج (١٩١/٢) .

٥ تفسير الطبرى (٦٧/٤) .

Alfred Jeremias, Handbuch der Altorientalischen Geistesgeschichte, Leipzig,

1929, S. 29.

٦ المخصص (٤٤/٩) .

ثم الشروق ، ثم الاشراق ، ثم الرأد ، ثم الصبح ، ثم المتروع ، ثم الماجرة ،  
ثم الأصيل ، ثم العصر ، ثم الطقل ، ثم العشي ، ثم الغروب<sup>١</sup> .  
وأما ساعات الليل ، فهي على حد قولهم : الشاهد<sup>٢</sup> ، ثم الغسق ، ثم العتمة ،  
ثم الفحمة ، ثم الموهن ، ثم القطع ، ثم الجوس (الجوشن) (الجوشن) ، ثم  
الشبكة ، ثم التبشير ، ثم الفجر الأول ، ثم المعرض ، ثم الإسفار . وأسماء أخرى  
يذكرها اللغويون<sup>٣</sup> ، حيث يرون أن الملاهين كانوا يقسمون اليوم إلى أربع  
وعشرين ساعة . غير أن من الصعب العثور<sup>٤</sup> على دليل يفيد وجود هذا التقسيم  
عندهم<sup>٥</sup> .

ويقول أهل مكة بوجود فجرين ، أحدهما قبل الآخر . فالفجر الأول هو  
الفجر الكاذب ، ويسمى (ذنب السرحان) لدقته . والفجر الثاني هو الفجر  
الصادق ، ويقال له (المستطير) ، ومنه الحديث : « ليس بالمستطيل ، يعني  
الفجر الأول ، ولكن المستطير » ، يريد المتشر الضوء . ومع طلوعه يتبيّن الخيط  
الأبيض من الخيط الأسود<sup>٦</sup> .

وهناك شفقان ، أحدهما قبل الآخر : الشفق الأحمر ، والشفق الأبيض . وهو  
يغرب في نصف الليل<sup>٧</sup> .

ويقال لل يوم الذي يسبق اليوم الذي نحن فيه . يوم أمس ، أو الأمس ، ونهار  
امس . أما البارحة ، فيراد بها أقرب ليلة مضت ، أي الليلة الماضية . وأما اليوم  
الذي يلي اليوم الذي نحن فيه ، فهو نهار الغد ، والغد ، وبكرة .

١ بلوغ الارب (٢٧٤/١) ، صبح الاعشى (٣٤٨/٢) ، نهاية الارب (١٤٧/١) .  
٢ الشاهد يوم الجمعة ٠٠٠ وصلة الشاهد صلاة المغرب ٠٠٠ ، تاج العروس  
(٣٩٢/٢) .

٣ بلوغ الارب (٢٧٤/١) ، «المهتكة» ، صبح الاعشى (٣٤٨/٢) .

*Ency., IV, p. 1210.*

٤ الانوار (ص ١٤٣) .

٥ الانوار (ص ١٤٣ وما بعدها) .

## الفصل الثاني والثلاثون بعد المئة

### الأشهر الحرم

قسم الجاهليون شهور السنة الى قسمين : أشهر اعتيادية هي ثمانية شهور . وأشهر أربعة حرم مقدسة خصت بالهتّهم ، لا يجوز فيها قتال ولا بغي ولا انتهاء لحرمات . وكانوا يقاتلون في الشهور الثمانية يتغزون بعضهم بعضاً ، ويغزون بعضهم على بعض . ثم يتوقفون عن القتال في الشهر الحرم الباقي .

والأشهر الحرم هي أربعة : ثلاثة متاليات سرد ، وهي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر منفرد هو شهر ( رجب )<sup>١</sup> . فهي ثلث السنة اذن . وكان الجاهليون يعظمونها ، ولا يستسيرون القتال فيها ، حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أخيه وأخيه فلا يرجعه ، استعظاماً لحرمة هذه الأشهر التي هي هدقة تستريح فيها القبائل فتنصرف الى الكيل والامتياز والذهب الى الأسواق ، وهي آمنة مستقرة لا تخشى اعتماداً ولا هجوماً مفاجئاً . وتحرم هذه الأشهر ضرورة من الضرورات استوجبتها طبيعة الحياة في الباية ، فأهل الباية بما هم فيه من فقر وضنك عيش يتنافسون فيما بينهم ويقاتلون على الكلأ والماء وعلىأخذ حق المرور من القواقل وعلى الغزو والغارات يعيشون . وحياة عاصفة هذا شأنها لا بد لها من فترة تستريح

---

١ بلوغ الارب ( ٨٢/٣ ) ، روح المعاني ( ٩٠/١٠ ) ، كتاب الاذمنة والامكنة للمرزوقي ( ١/٢٢١ وما بعدها ) ، ( طبع حيدرآباد الدكن ١٣٣٢ھ ) ، تفسير الطبرى ( ١٠/٨٨ ) ، تفسير ابن كثير ( ٣٥٥/٢ ) .

فيها ، وتعتار فيها ، وتصفي فيها حسابها بدفع أثمان الديات بهذه وبتسوية المشكلات بالمساومة والمقاؤمة ، وتلك الفترة هي الأشهر الحرم .

هذا ما يذكره ويرويه العلماء عن الشهور بصورة عامة . ويجب حل كلامهم هذا على قريش ومن والاها، وعلى القبائل التي كان للعلماء اتصال بها وعلم بأخبارها أما القبائل البعيدة عنهم ، والقبائل التي لم يتصلوا بها اتصالاً وثيقاً ، فنحن لا نستطيع أن ندخلهم في هذا الكلام فنقول إنهم كانوا يحرمون شهرآ ويحرمون أخرى ، لعدم وجود دليل لدينا يثبت ذلك ، وسبقى على رأينا هنا حتى يظهر لنا دليل يؤيده أو ينفيه .

والذكورون قوم يحرمون إذن شهورآ ويخلون أخرى ، لا يقاتلون ولا يغزون في شهور ، حرمة وتقديساً لها ، إلا عن ضرورة ولجاجة ، ويعاتلون ويعزون في الأشهر الأخرى المتبقية من السنة ، فيقتصرن نشاطهم في الغزو وفي الأخذ بالثأر على أشهر الخلل فقط .

قال ( الطبرى ) في تفسيره الآية : « فإذا انسلاخ الأشهر الحرم ، فاقتروا المشركين حيث وجدتهم وختنوهما واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد » <sup>١</sup> : « فإذا انسلاخ الأشهر الحرم ، وهي الأربعة التي عدلت لك ، يعني عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وريعاً الاول ، وعشراً من شهر ربيع الآخر . وقال قاتلو هذه المقالة : قيل لهذه الأشهر الحرم ، لأن الله عز وجل حرم على المؤمنين فيها دماء المشركين والعرض لهم إلا بسبيل خير » <sup>٢</sup> . وقال ( النيسابوري ) في تفسيرها : « واختلفوا في الأشهر الأربعة ، فمن الزهري أن براءة نزلت في شوال ، والمراد : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وقيل : هي عشرة من ذي الحجة والمحرم وصفر وريعاً الأول وعشراً من ربيع الآخر . وكانت حرماً لأنهم أموموا فيها وحرم قتلهم وقتالهم ، أو سميت حرماً على التغليب لأن ذا الحجة والمحرم منها . وقيل : ابتداء المدة من عشر ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأول ، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنبيء الذي كان .

١ التوبة ، الرقم ٩ ، الآية ٥ .

٢ تفسير الطبرى ( ٥٦/١٠ ) .

ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة <sup>١</sup>. فدخل صفر وربيع الأول وربيع الآخر في الأشهر الحرم، حسب هذه الروايات . مع أنها ليست من الأشهر الحرم المقررة المعروفة عند الجاهليين . وقد رأيت تعليل ذلك في تفسير (النيسابوري) لها، وهو فعل عامل النسيء <sup>٢</sup> .

ولما وصل (الطبرى) إلى الآية : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض . منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم » <sup>٣</sup> ، قال : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا . منها أربعة حرم متزalias : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مصر الذي بين جمادى وشعبان . وهو قول عامة أهل التأويل » <sup>٤</sup> . وقال (النيسابوري) : « منها أربعة حرم : ثلاثة سرد ، أي مسرودة : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، وواحد فرد هو رجب » <sup>٥</sup> . وورد في خطبة الوداع : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهرًا . منها أربعة حرم . ثلاث متزalias : ذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم ، ورجب مصر الذي بين جمادى وشعبان » <sup>٦</sup> . فهذه هي الشهور الحرم . أما ما تقدم ، فقد كانت محمرة بمحنة ما كان قد وقع عليها بفعل النبي <sup>٧</sup> . فقد كانت العرب قد نسأت النبي <sup>٨</sup> ، فكانوا يبحرون في كثير من السنين ، بل أكثرها في غير ذي الحجة <sup>٩</sup> .

وعرف المحروم للأشهر الحرم بـ (المحربن) ، وبـ (البسل) أيضاً . ذكر ان من معاني (البسل) : الحرام والشجاعة ، وهي معانٍ نجدتها في لفظتي (مس) و (حرم) . وذكر علماء اللغة ، أن « البسل ثانية أشهر حرم كانت لقرون لهم صيانته . وذكر أنهم من غطفان وقيس . يقال لهم : الهايات » <sup>١٠</sup> . وذكر أن البسل : (بني عامر بن لؤي) <sup>١١</sup> ، أو (عوف بن لؤي) ، أو (مرة بن

١ تفسير النيسابوري (٣٧/١٠) ، (حاشية على تفسير الطبرى) .

٢ التوبية ، رقم ٩ ، الآية ٢٦ .

٣ تفسير الطبرى (٨٨/١٠) .

٤ تفسير النيسابوري (٧٩/١٠) ، (حاشية على تفسير الطبرى) .

٥ تفسير ابن كثير (٣٥٣/٢) .

٦ تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢) .

٧ تاج العروس (٢٢٧/٧) ، (بسيل) .

٨ تاج العروس (٢٢٧/٧) ، (بسيل) .

عوف بن لوى ) . وكانتوا يحرمون ثمانية أشهر من السنة . وقد امتنعت بعض القبائل من الاغارة عليهم في هذه الأشهر<sup>١</sup> . فالبسيل اذن جماعة تعظم ثمانية أشهر من السنة ، وتحرمها فلا تقاتل فيها . فهم مختلفون اذن عن ( المحرمين ) من قريش ومن دان بدينهما في انهم يحرمون ثمانية أشهر من السنة ويخلون الأربعية الباقية ، أي على العكس منهم ، يفعلون ذلك تعمماً وتشديداً<sup>٢</sup> .

والبسيل كما يتبع من تفسير علماء اللغة لها : الحرام . ولهذا قالوا : الإبسال : التحرم . ومن ذلك قيل للأشهر الحرم ( البسل ) . وهي الأشهر الثمانية التي حرمتها قوم من ( غطفان ) و ( قيس ) . وبهذا المعنى وردت في قول الأعشى :

أجارتم بسل علينا محرم وجارتنا حل لكم وحليلها<sup>٣</sup>

وذكر أنها تعني الحرام وأيضاً الملال . وهي من الأضداد<sup>٤</sup>

فبحن اذن أمام طائفتين من العرب المحرمين للشهور . طائفة اقتصرت على تحريم أربعة أشهر من السنة ، جعلتها أشهراً حرماً . وطائفة جعلت عدة الشهور الحرم ثمانية ، وعدة الشهور الحل أربعة ، وهم أقل عدداً من الطائفة الأولى .

ولكتنا نجد طائفة أخرى من الجاهلين ، استهترت بحرمة كل الأشهر ، فلم تحرم أي شهر من شهور السنة ، ولم تعرف لها بقسيسها ، وساوت بين جميع أشهر السنة ، بأن أحلتها كلها ، فعرفوا بال محلين وهم عكس ( المحرمين ) . فقد نص أهل الأخبار على وجود قوم من العرب هم : خشم وطيء ، ذكروا أنهم كانوا يستحلون الأشهر الحرم فيقاتلون فيها ، ولا يقدسونها ولا يرعنون للحرام ولا للأشهر الحرام حرمة . وذكر بعضهم أن أحياء من قضاة ويشكر والحارث بن كعب كانوا على مذهب هؤلاء<sup>٥</sup> . فهم لا يفرقون بين الأشهر ، ولا يميزون

١ أبوذر ، شرح السيرة ( ٧٨/١ ) ، ابن كثير ، البداية ( ٢٠٤/٢ ) ، القلاعي ، الاكتفاء ( ٧٨/١ ) ، Kister, p. 141.

٢ تفسير ابن كثير ( ٣٥٥/٢ ) .

٣ تاج العروس ( ٢٢٧/٧ ) ، ( بسل ) .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاج العروس ( ٢٤١/٨ ) ، ( حرم ) ، الجاحظ ، الحيوان ( ٢١٦/٧ وما بعدها ) ، النجيري ( ١٢ ) ، المعبر ( ٣١٩ ) ، الأزرقي ( ٣٤١/١ ) .

بينها ، وهي كلها في نظرهم سواء . فلا يؤمنون بوجود أشهر حرم مقدسة ، ولا بوجود أشهر حل ، بل الأشهر عندهم كلها حلال . ولا يمتنعون من القتال في أي يوم أو شهر من السنة . فهم اذن على تقىض (المحرمين) للأشهر المعظمهن للحرم وللأشهر الحرم ، قوم لا عهد لهم ولا ذمة بالنسبة إلى شهور السنة .

والظاهر ان (المحلين) كانوا يتحارشون بالمحرمين وبغيرهم في الأشهر الحرم ، ولما كان من شرع (المحرمين) الامتناع عن القتال في تلك الأشهر ، فللدفاع عن النفس أباح النساء لمقاتلتهم المحرمين مقاتلة المحلين اذا تعرضوا لهم . إذ جاء : « كان الذين ينساؤن الشهور أيام الموسم يقولون : حرمنا عليكم القتال في هذه الشهور إلا دماء المحلين . فكانت العرب تستحل دماءهم في هذه الشهور »<sup>١</sup> . وجاء : « ولاني قد أحالت دماء المحلين من طيء وختعم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم اذا عرضوا لكم »<sup>٢</sup> .

ويجب أن نضيف على هؤلاء طائفه من العرب من ذي الباشه والصاليلك وأصحاب الطاول ، وأمثالهم من كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للأشهر الحرام قدرأ<sup>٣</sup> . فكانوا يغترون في هذه الأشهر ويحللون القتال فيها وفي كل وقت ، كما كانوا لا يؤمنون على الحرم . فإذا وجدوا فرصة سرقوا في الحرم وأخذوا ما يقع في أيديهم دون استحياء ولا مبالاة بحرام وحلال ، نظراً لما هم فيه من جوع وفاقة وحاجة ، دفعتهم إلى الكفر بكل قانون وعقيدة وعرف .

ويجب أن نضيف الى المحلين العرب الذين لم يكونوا على دين أهل الشرك ، مثل النصارى واليهود . فقد كانت التصرانبة قد وجدت سببها بين تغلب ، وشيان ، وعبد القيس ، وقضاءع ، وغسان ، وسلیع ، والعباد ، وتنوخ ، وعاملة ، وتلم ، وجذام . وكثير من بلحارث بن كعب<sup>٤</sup> ، وبعض طيء وتميم . فهؤلاء لم يكونوا على شرك ، لذلك لم يراعوا حرمة تلك الأشهر ، ولم ينجحوا الى محاجات المشركين ، وإنما كانوا يتقربون الى قبور شهداء الكنيسة والى أضرحة القدسين ،

١ تاج العروس (٢٤٤/٨) ، (حرم) .

٢ نقلاب عن مخطوططة أنساب الاشراف على رواية : Kister, p. 142.

٣ ثمار القلوب (٨٨) ، Kister, p. 143.

٤ الحيوان (٢٦٦/٧) ،

ولهم أعيادهم الخاصة بهم لا يقاتلون فيها إلا دفاعاً عن نفس ، ولم يقم اليهود كذلك لتلك الأشهر المقدسة حرمة ، إذ كان السبت ، يوم راحة بالنسبة لهم ، لا يحل فيه قتال ، وكذلك كانت أعيادهم أيام حرمة ، لا يجوزون فيها قتال ، أي مهاجمة أحد ، إلا إذا هوجموا ، فيحصل عندئذ لهم القتال دفاعاً عن نفس ، ولما وقعت المناوشات بينهم وبين المسلمين كانوا يتتجنبون فيها القتال أيام السبت والأعياد .

وذكر أن قريشاً، كانت لا تتجاهر إلا من ورد إليها في مكة في الأشهر الحرم . لا تبرح دارها ولا تتجاوز حرمها . وذلك لتحميسها في دينها والحب لحرمتها . وكانت تخاف على تجاراتها من لصوص الطرق وصعاليك الأعراب وطلاب الطلائب وذوبان العرب ، لأنهم كانوا يرون للشهور الحرم حرمة، ولا للشهر الحرم قدرأ ، ولا للحرم حرمة ، فأعطت الإيلاف ، وافت القبائل ، وقاومت بذلك الملحين . وقد قسم (المروزي) العرب إلى ثلاثة أهواء بالنسبة إلى أشهر الحج . منهم الملحون ، الذين كانوا يستحلون الكعبة والأشهر الحرم ويسرقون ويقتلون في (الحرم) ، ومنهم من يحرم الشهور الحرم ، ومنهم (أهل هوى) على شرع (صلصل) . وهو (صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف) من بني عمرو بن تيم<sup>١</sup> . وهو الذي أحلَّ للعرب قتال الملحين في الأشهر الحرم . وكان من حكام العرب ومفتوههم ومن اجتمع له الموسم والقضاء في عكاظ .

والمحرمون هم : الحمس والحلة . أما (الملحون) ، فالقبائل التي لم تخترم حرمة الكعبة ولا الأشهر الحرم ، أي أولئك الذين أباح النساء دمهم ، وجرواوا قاتلهم في الأشهر الحرم . وأما أولئك الذين كانوا على شرع (صلصل) ، فلا تدري مذهبهم وهوام ، فلم يتحدث (المروزي) عنهم<sup>٢</sup> . وقد كان (صلصل) من اجتمع له الموسم وقضاء عكاظ من بني تيم<sup>٣</sup> . ولم يذكر (ابن حبيب) الأمور التي أوجدها وأحدثها ، حتى كون له طائفة خاصة لها رأي في الحرم وفي الأشهر الحرم .

١ المروزي ، الامكنته (١٦٦/٢) ، المحرر (١٨٢ وما بعدها) ، Kister, p. 143.

٢ Kister, p. 143.

٣ Kister, p. 144.

٤ المحرر (١٨٢ وما بعدها) .

وتجويز مقالة (المحلين) في الأشهر الحرم ، هو دفاع عن النفس ، وضرورة واجبة . لذلك نص عليه النساء في أمرهم السنوي الذي يعيتون فيه (النبي «) في الموسم ، ليقف الناس على موعد الأشهر الحرم ومكانتها من السنة في السنة المقبلة : إذ لا يعقل بالنسبة للمحرمين الامتناع من قتال مقاتل في الأشهر المذكورة ، لأنها أشهر حرم مقدسة . وإلا عرضا أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى التهلكة ، خاصة وإن المقاتلين هم من أهل عقيدة مخالفة لعقيدتهم عام المخالفة ، فشرعية الدفاع عن النفس أباحت لهم حق قتال المحلين .

ولكن تعليل أهل الأخبار لحرمة (رجب) التعليل المذكور لا يتناسب مع تعليتهم لحرمة الأشهر الثلاثة المحرمة ، فإذا كانوا قد حرموا ذا القعدة والمحرم بسبب الاستعداد للحج ، وبسبب العودة منه إلى ديارهم كما زعموا ، فإن تحريم (رجب) بسبب مجيء العرب فيه من أقصى جزيرة العرب للحجارة فيه ، يستوجب أيضاً اعطاء المعتمرين مدة مناسبة قبله وبعده للإعمار فيه ، حتى يضمنوا ذهابهم إلى مكة وعودتهم منها بأمان ، فالسفر سفر واحد لا يتغير من حيث الطول أو القصر في موسم الحج أو في موسم الحجارة ، لأن المسافات لا تتبدل بتبدل الطقوس الدينية ، ولو عللنا سبب اطالة تحريم الأشهر الثلاثة بسبب الحج وجود الأسواق ،

١ تفسیر ابن کثیر (٣٥٥/٢)

أي لعوامل اقتصادية ومنافع مادية ، جاز قبول هذا التعليل ، ولكن لم يفعلوا هذا الفعل بالنسبة لرجب ، الذي تحتاج العمرة فيه إلى مدة أطول من الشهر للوصول في خلاطها من أقصى مكان في جزيرة العرب إلى مكة ، وللعودة منها إلى مواطنهم ، إذ لا يعقل أبداً بلوغ مكة والعودة إليها سالمن إلى مواطنهم في العربية الجنوبيّة أو الخليج أو العراق في خلال شهر واحد ، بل هو في نظري زعم من مزاعم أهل الأخبار . وما كان الحج إلى مكة إلا من القبائل الاقربة منها ، وإنما صار الحج إليها عاماً ومن كل مكان في الإسلام وبفضله وحده . وعندني أن شهر رجب ، كان شهرآ مقدساً محظياً ، تعرّ في العتائر ، عند قبائل مصر وقبائل ربيعة ، وما حلّفان في الأصل ، وقد تناول قبائل متّجاورة ، ثم انفصل ، فصار ربيعة ومصر . وفي هذا الشهر كانوا يتقرّبون إلى (الله) بالعتائر ، ومنهم من يعتمر ، فيبقى عكة ما يشاء ، ولم تكن العمرة على شاكلة الحج من حيث العدد والكثرة ، بل كانت قاصرة على التمكّن الذين لهم عهود ومواثيق مع أهل مكة وغيرها من سادات قبائل مصر وربيعة ، فلا خوف على أمثال هؤلاء من الرجوع إلى وطنهم في أي وقت شاؤوا ، إذ لا يطبع فيهم طامع بسبب ما كانوا محملونه من تجارة ، كالذى كان يفعله التجار الذين يذهبون إلى الاتّجار بالأسواق وفي جملتها سوق مكة في موسم الحج الذي هو تجارة وحج ، لأنّهم كانوا من عامة القبائل ومعهم تجارة ، فكان من الضروري تطويل الموسم ليكون أمّا لهم بمحيمهم من الأذى إلى عودتهم إلى مواطنهم .

وفي هذه الأشهر الحرم تعقد الأسواق مثل سوق عكاظ وذى المجاز وذى المجة ودومة الجندي وغيرها ، فيقصدها الناس من مواضع بعيدة ، وتكتظ أرضها بمجموع غفيرة لم تكن تقصّدها في غير هذه (المواسم) .

وقد عرف شهر ( ذو القعدة ) بهذا الاسم ، لأن الناس - كما يقول علماء اللغة - كانوا يقطدون فيه عن الأسفار والغزو والميرة وطلب الكلأ ويخجون في ذي الحجه<sup>١</sup> . وهو تفسير آخر من ظاهر التسمية ، ودليل ذلك قولهم : « لفزعهم فيه عن القتال والرجال »<sup>٢</sup> . فالمعنى فيه عن القتال جائز بالنسبة للمحرّمين ،

١ تاج العروس (٤٦٩/٢) ، (قعد) ، تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢) .

٢ تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢) .

ولكن قعودهم عن الترحال خطأ ، إذ كانوا على العكس يتهدّون فيه للأسفار الى الانجمار والحج ، فهو شهر ترحال لا شهر قعود وجلوس .

وأما ( ذو الحجة ) ، فقد عرف بذلك لايقاعهم الحج فيه . وقد رأينا ان في نصوص المستند اسم شهر عرف بـ ( ذ حجتن ) ، أي ( ذي الحجة ) ، وبـ ( ذ محجن ) ، أي ( ذي المحجة ) ، مما يدل على أن له صلة بالحج . ولم تعيّن نصوص المستند موسم حج العرب الجنوبيين ، ولم تذكر اسم محجتهم ، ولكننا نستطيع أن نقول أنها كانت الى محجات آلتهم المعروفة المنصوص عليها في نصوصهم ، وهي غير آلة أهل مكة من غير شك .

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن العرب كانت تسمى شهر رجب ( رجب الأصم ) و ( المحرم ) ، وذكر بعض آخر أن المحرم لم يكن يعرف بهذا الاسم إلا في الاسلام ، فقد كان الجاهليون يسمونه صفرأ . ولذلك كان في تقويمهم صفران ، كما كان عندهم شهراً باسم ربيع الأول وربيع الآخر ، وشهراً باسم جمادى الاول وجمادى الآخرة . وصفر الأول هو المحرم في عرفنا ، وصفر الآخر هو صفر في اصطلاحنا اليوم . وقد كان الجاهليون يؤخرنون المحرم الى صفر في تقويمه ، فيكون شهرآ حراماً<sup>١</sup> .

ويظهر أن الدخول ( ال ) أداة التعريف على ( المحرم ) أهمية في تثبيت هذا الشهر ، فإن اللفظة ( محرم ) دلالة دينية ، يراد بها كل شهر من الأشهر المحرمة . فكل شهر من هذه الشهور المحرم هي محرم وحرام ، ومن ضمنها ( المحرم ) . وقد دخلت ( ال ) على هذه اللفظة لتصفيصها وجعلها علمية خاصة بهذا الشهر . وإلا دخلت على الشهور الأخرى العلمية ، مثل رجب وشعبان ورمضان وصفر ، فلا يقال فيها الرجب والشعبان والرمضان والصفر ، بل يقال قدم شهر رجب . وقدم شعبان وشهر رمضان وصفر . وهذا يفسر قول ( ابن كثير ) : « زعندي

---

1. REP. EPIG. 4176/7.

٢. تاج العروس ( ٣/٢٣٦ ) ، ( ٨/٢٤٠ وما بعدها ) ، ( حرم ) ، قال حميد بن ثور :

ربعين المدار الجنون من كل مذنب      شهور جمادى كلها والمحرما  
وقال آخر :

اقمنا بها شهري ربيع كلامها      وشهري جمادى واستبخلوا المحرما  
تاج العروس ( ٨/٢٤١ ) ( حرم ) .

أنه سمي بذلك ، تأكيداً لتجربته ، لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتحله عاماً ، أي انه كان قلقاً متنقلًا ، ولم يكن ثابتاً ، ثم ثبت في الإسلام .

وقد ورد في كتب الحديث أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء ، كما اليهود يصومون ذلك اليوم . ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من المحرم . الرسول حين قدم المدينة وجد اليهود يصومونه . وأن الرسول كان يصومه الجاهلية أيضاً . ولما قدم المدينة ، كان يصومه ، وأمر بصيامه . فلما فر رمضان ، ترك عاشوراء ، فلن شاء صامه ، ومن شاء تركه<sup>٢</sup> . وورد وأن قر كانت تعظم هذا اليوم ، وكانتوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيمه ولكن إنما كانوا يعدون بالأهلة ، فكان عندهم عاش المحرم . فلما قدم المدينة وجدتهم يعظمون ذلك اليوم ويصومونه ، فسألهم عنه ، فقالوا : هو اليوم ||  
نجي الله فيه موسى وقومه من فرعون<sup>٣</sup> .

وذكر أيضاً : أن رسول الله ، كان يتحرى يوم عاشوراء على سائر الأيام وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صام ومن شاء تركه ، وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقيل له : « يا رسول الله انه تعظمك اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل شاء الله صمنا اليوم التاسع ، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله » ..

ويرجع حديث صيام قريش يوم عاشوراء الى (عاشرة) ، وقد رواه :  
(عروة بن الزبير بن العوّام ) . فقد روى أنها « قالت : كان يوم عاشوراء قريش في الجاهلية ، وكان رسول الله يصومه . فلما قدم المدينة صامه والناس بصيامه ، فلما فرض رمضان ، ترك يوم عاشوراء ، فلن شاء صامه وشاء قركه » . ويروى أيضاً عن معاوية ، فقد ورد عن ( حميد بن عبد الرحمن ) عوف انه سمع معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنها ، يوم عاشوراء

ابن کثیر ، تفسیر ( ۳۵۴ / ۲ ) .

جامعة الأصول (١٩٩٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٤٠٠) ، الازمنة والاماكن

للمرزوقي (١/٧٢٦ وما بعدها) .

زاد المعاد (١٦٤/١ وما بعدها) .

<sup>١٦٤</sup> الطبرى (٢/٤٧ وما بعدها)، امتاع الاسماع (٦٠/١)، زاد المعاذ (١/١)

ارشاد المساری ( ۴۲۱/۳ )

عام حج على المبر ، يقول : يا أهل المدينة أين علاؤكم ؟ سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : هذا يوم عاشوراء ولم يكتب عليكم صيامه ، وأنا صائم فلن شاء فليصم ، ومن شاء فليفطر »<sup>١</sup> .

وقد حاول شراح حديث (عائشة) إيجاد مخرج له ، فقالوا في شرحه : « كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية » ، « يختتم أنهم افتدوا في صيامه بشرع سالف » ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه » . وقد وضع بعضهم بعد « وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يصومه » جملة (في الجاهلية) . وحاولوا إيجاد مخرج آخر لحديث (معاوية) ، بقولهم : « والظاهر أن معاوية قاله لما سمع من يوجبه أو يحرمه ، أو يكرهه ، فأراد إعلامهم بنفي الثلاثة ، فاستدعاوه لهم تنبئها لهم على الحكم أو استعانة بما عندهم على ما عنده » . وقالوا : « إن معاوية من مسلمة الفتح ، فإن كان سمع هذا بعد اسلامه ، فإنساناً يكون سمعه ستة تسع أو عشر ، فيكون ذلك بعد نسخه بإيجاب رمضان ، ويكون المعنى لم يفرض بعد إيجاب رمضان ، جمعاً بينه وبين الأدلة الصريرة في وجوبه ، وإن كان سمعه قبله فيجوز كونه قبل افتراضه »<sup>٢</sup> . ثم ذكروا بعد هذين الحديثين ، حديثاً يناقضها تماماً ، وهو أن النبي حين قدم المدينة فرأى اليهود تصوم ، فقال : ما هذا الصوم ، قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بي إسرائيل من عدوهم ، فصاموه موسى . قال النبي : فأنما أحق بموسى منكم فصاموه ، وأمر بصيامه »<sup>٣</sup> . وهو حديث للعلماء عليه كلام .

وحديث معاوية لا يدل على صوم قريش ليوم عاشوراء في الجاهلية ، وقد استدل به (ابن الجوزي) على أن صوم عاشوراء لم يكن واجباً ، ولا يفهم منه أبداً أن قريشاً كانوا يصومونه قبل الإسلام . ولو كان معروفاً لما خفي أمره عليه وعلى غيره من قربش ، وحديث (عائشة) حديث مفرد ، ويجوز أن يكون قد وضع على لسانها ، ولا يعقل انفرادها به وعلمهها وحدتها بصيام قريش في ذلك اليوم ، وخفاء أمره على غيرها من الرجال والنساء من عاش معظم حياته في الجاهلية .

١ ارشاد الساري (٤٢٢/٣) .

٢ ارشاد الساري (٤٢٢/٣) .

٣ ارشاد الساري (٤٢٢/٣) .

و يوم (عاشوراء) هو يوم (ع ش و ر) (عشور) (عشوراً) عند العبرانيين ، ويقع في اليوم العاشر من شهر (تشري) <sup>١</sup> . وهو يوم خاص بيهود . وأنا أشك في صحة رواية أهل الأخبار القائلة ان قريشاً كانوا يصومونه في الجاهلية ، إذ ما هي صلة قريش الوثنين الذين لم يكونوا من أهل الكتاب بصيام يوم هو من صميم أحكام ديانة يهود . وما يؤيد رأيي ، هو ان أهل الأخبار أنفسهم يذكرون ان الرسول « حين قدم المدينة » ، رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فأخبروه انه اليوم الذي غرق الله فيه آل فرعون ، ونجى الناس موسى ومن معه منهم ، فقال : « نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فرض صوم شهر رمضان ، لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه <sup>٢</sup> . فلو كان الصيام معروفاً عند قريش ، لما سأله الرسول يهود يثرب عن صومهم صيام عاشوراء ، وما جاء من قوله : « نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه » الى أن فرض رمضان ، فرفع عنهم صومه ، وجعلهم أحراراً إن شاءوا صاموا وإن شاءوا أفطروا ، أي صار تطوعاً ، وهو حديث يشك فيه العلماء كذلك . وهذه الرواية تناقض تماماً رواية صيام قريش يوم عاشوراء . ثم إننا لا نجد في القرآن ولا في الحديث - غير حديث عائشة - ما يشير الى وجود ذلك الصوم بمكة قبل الهجرة ، ولو كان معروفاً لما سُكت عنه . ويرجع بعض المستشرقين دعوى صيام قريش لذلك اليوم الى محاولة ارجاع الأصول الإسلامية الى الحنيفية القدمة والتي قدماه العرب ثم الى ابراهيم ، فصيروا قريشاً تصوم عاشوراء لارجاع الصيام الى أصل قديم <sup>٣</sup> .

ولا يعقل وجود الصيام عند المشركين ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، وإنما كان الصيام معروفاً عند الاحناف لاتصالهم بهم ، وتأثيرهم بكتبهم وبما كان عندهم من أحكام ، ومن ذلك ترهيم وزهدهم ، وقد كان الرهبان يكتبون من الصوم والاعتكاف .

وأنا لا استبعد أن لفظة (عمر) هي نعت لهذا الشهر لا اسمها له ، عرف بها تكونه شهراً حراماً . تقع عليه الحرمة ، ومن حرمته أن الجاهليين كانوا يتذمرون

<sup>١</sup> Shorter Ency., p. 47.

<sup>٢</sup> الطبرى (٤١٧/٢) .

<sup>٣</sup> Shorter Ency. p. 48.

ستهم به . فالمحرم ، هو أول شهر من شهور السنة في حسابهم ، ولا يتدانهم به ، فقد تكون له حرمة خاصة عندهم .

وقد نسب أهل الأخبار شهر رجب إلى مصر ، فقالوا! رجب مصر ، وقد أشير إلى ذلك في الحديث أيضاً ، مما يدل على أن هذا الشهر هو شهر مصر خاصة . وقد ذكر العلماء أنه إنما عرف بذلك لأنهم كانوا أشد تعظيمًا له من غيرهم ، وكأنهم اختصوا به<sup>١</sup> . وذكروا أيضاً أنهم كانوا يرجون فيه ، فيقدمون الرجبية ، وتعرف عندهم بالعتبة ، وهي ذبيحة تنحر في هذا الشهر . ويقال عن أيامه هذه أيام ترجيب وتعتير<sup>٢</sup> .

ويذكر علماء الأخبار أن تأكيد الرسول على « رجب مصر الذي بين جمادى وشعبان » في خطبة حجة الوداع ، هو أن ربيعة كانت تحرم في رمضان وتسمه رجباً ، فعرف من ثم بـ ( رجب ربيعة ) ، فوصفه بكلمة بين جمادى وشعبان تأكيد على أنه غير رجب ربيعة المذكور الذي هو بين شعبان وشوال . وهو رمضان اليوم<sup>٣</sup> . فرجب إذاً عند الجاهليين رجبان : رجب مصر ورجب ربيعة ، وبين الطائفتين اختلاف في مسائل أخرى كذلك .

وما يؤيد أن شهر ( رجب ) كان شهر مصر المحرم عندهم بصورة خاصة ، ما ورد في أقوال علماء التفسير من أن ( الشهر الحرام ) الوارد في الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تخلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدي ولا الفلائد »<sup>٤</sup> ، هو شهر ( رجب ) ، وهو شهر كانت مصر تحرم فيه القتال<sup>٥</sup> . وما ورد في الآية:

١ - « رجب مصر : إنما أضيف رجب إلى هذه القبيلة ، لأنهم كانوا يحافظون على تحريرمه ، أشد من سائر العرب » ، عمدة القارئ ( ٤٢/١٨ ) ، تاج العروس ( ٢٦٦/١ ) وما بعدها ، روح المعاني ( ١٠/٩٠ ) .

٢ - تاج العروس ( ٣٢/٣ ) .

٣ - الروض الانف ( ٢/٣٥١ ) ( حجة الوداع ) ، بلوغ الارب ( ٣/٧٢ ) ، تفسير الطبرى ( ١٠/٨٨ ) وما بعدها ، تفسير ابن كثير ( ٢٥٥/٢ ) ، « وان عددة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواالية ورجب مصر الذي بين جمادى وشعبان » ، ابن هشام ، سيرة ( ٢/٣٥١ ) ، ( حاشية على الروض ) .

٤ - المائدة ، الرقم ٥ ، الآية ٢ .

٥ - تفسير الطبرى ( ٦/٣٦ ) وما بعدها ، روح المعاني ( ٦/٤٧ ) .

١ يسألونك عن الشهر الحرام . قتال فيه ؟ ، واجماع علماء التفسير والأخبار على انه شهر ( رجب ) ، وان الآية نزلت في أمر قتل ( ابن المضرمي ) في آخر يوم من جمادى الآخرة ، وأول ليلة أو يوم من رجب . وقد كان المسلمين يبابونه ويعظمونه ، وكان النبي يحرم القتال في الشهر الحرام ، حتى نزلت الآية في حق القتال فيه وفي بقية الشهور . وقد ذهب المفسرون أيضاً الى ان ( الشهر الحرام ) ، هو كل شهر حرام من هذه الأشهر الأربعة ، وان الآية لا يراد بها التخصيص ، وان ما ذكر من انه شهر رجب ، فالأجل وقوع الحادث المذكور فيه .

وعرف ( رجب ) بـ ( منصل الألّ ) والألة والألال في الجاهلية . أي مخرج الأسنة من أماكنها . كانوا إذا دخل رجب نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام ابطالاً للقتال فيه ، وقطعاً لأسباب الفتن بحرمنته ، فلما كان سبباً لذلك سبي به ، اعظماماً له ، فلا يغزون ولا يغير بعضهم على بعض<sup>٣</sup> . وعرف أيضاً بـ ( متزع الأسنة ) للسبب المذكور .

ومن دلائل حرمة شهر ( رجب ) ومكانته العظيمة عند أهل الجاهلية ، تقديمهم العتائر فيه والاضاحي التي عرفت عندهم بـ ( الرجبية ) ، ووقوع أكثر المناسبات الدينية فيه . وقد نعت هذا الشهر بـ ( الاصم ) ، فقيل له ( رجب الاصم ) ، لعدم ساع استغاثة أو قفعقة سلاح فيه<sup>٤</sup> ، لأن العرب كانت لا تقرع فيه الأسنة ، فيلقى الرجل قاتل أخيه أو أخيه فيه ، فلا يهوجه ، تعظياً له<sup>٥</sup> . وعرف بـ ( رجب الفرد ) وبـ ( الفرد ) ، لأنفراده وحده من بين الأشهر الحرم الأخرى<sup>٦</sup> .

ويرى ( وهو زن ) ، استناداً الى بعض الموارد اليونانية وغيرها ان العرب كانوا يحرمون شهراً واحداً منفرداً ، هو ( رجب الفرد ) ، وهو من شهور الرياح ، وشهرين آخرين متصلين يقعان في القبظ ، أي في أوج الصيف . أما الشهر الثالث

١ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢١٧ .

٢ تفسير الطبرى ( ٢٠١/٢ ) وما بعدها .

٣ تاج العروس ( ١٣٧/٨ ) ، ( نصل ) .

٤ تاج العروس ( ٣٨٠/٣ ) ، ( عتر ) ، اللسان ( ٤/٥٣٧ ) ، المعاني الكبير ( ٢/١١٣ ) .

٥ تفسير الطبرى ( ٢٠١/٢ ) .

٦ تاج العروس ( ٨/٤٢ ) ، ( حرم ) ، الاذمنة والامكنته ، للمرزوقي ( ١/٨٥ ) .

التي أحق بالشهرين ، فصارت به ثلاثة أشهر حرم متسللة متداخلة ، فقد حرم في عهد متأخر لا يبعد كثيراً عن الاسلام ، وهو المحرم<sup>١</sup>.

وبالحظ ان الموارد الاسلامية قد وضعت بعض الاحداث المهمة في شهر محرم مثل صوم يوم عاشوراء ، ومثل اختيار القدس قبلة للمسلمين ، فقد ذكروا ان ذلك كان في اليوم السادس عشر من المحرم ، ومثل ذكرهم ان وصول حملة الفيل الى مكة كان في اليوم السابع عشر منه ، وان ابتداء السنة المجرية ، كان في أول المحرم<sup>٢</sup> ، مع اننا لو دققنا ذلك تدققاً عيناً ، وجدنا ان أكثر هذا المروي لم يثبت وقوعه في هذا الشهر .

ونجد في كتب الحديث والاخبار ما يفيد بأن الجاهليين كانوا يعظمون شهرى شعبان ورمضان تعظيمياً يكاد يضاهي تعظيمهم للأشهر الحرم . وسبب ذلك في نظري ، هو بفعل النسيء في الشهرين ، وتلاعفهم بالأشهر وتنسبتهم لها تسميات كيفية ، ووقوع ذلك التلاعف على الشهرين المذكورين دون بقية الشهور . وقد يكون بسبب أن العرب كانوا يقدسون الشهرين ويحرمونها أيضاً ، وأن قريشاً كانت تحرمنها أيضاً ، ومن هنا فضل شعبان ورمضان على بقية الأشهر الثانية مع أنها من الأشهر الاعتيادية على حسب رواية أهل الاخبار . ولم يدخلوهما في جملة الأشهر الحرم . ونجد للشهرين حرمة كبيرة في الاسلام .

وقد كان عرب العراق وبادية الشام يتجنبون أيضاً مثل عرب الحجاز القتال في أشهر معينة ، لأنها أشهر مقدسة حرم عندهم ، كما يفهم ذلك من مؤلفات الروم والسريان . فقد أشار المؤرخ (افيقانوس) Epiphanius الى وجود شهر عند العرب ، قال إن العرب تختلف فيه ، وهو عندهم شهر مقدس ، ويقع في شهر تشرين الثاني ، ويريد به شهر (ذي الحجة) على ما يظن . وقد دعي شهر (حمحث) في بعض الموارد اليهودية<sup>٣</sup> . كما ذكر (بروكوبيوس) Procopius أن عرب المناذرة لم يكونوا ليحاربوا في شهورهم المقدسة ، وقال لهم كانوا قد جعلوا شهرين في السنة حرمآ لآهتمم لا يغزون فيها ولا يقاتلون

Reste, S. 100.

١

Shorter, p. 410.

٢

Aboda Zara, II b., Epiphanius, Haer., 51, 24.

٣

بعضهم بعضاً ، ويقعان في تموز وآب<sup>١</sup> . وذكر ( فوتیوس ) أن العرب يحجون الى معبدهم مرتين في السنة: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف ، وذلك لمدة شهرين<sup>٢</sup> .

وفي هذه الإشارات معلومات قيمة ، تشير الى وجود الاشهر الحرم عند العرب الشماليين . وفيهم منها أن الاشهر الحرم كانت ثابتة لا تتغير ، فلا يقع حجتهم مرة في شتاء ومرة في صيف ، وأخرى في ربيع ، ومرة في خريف . فحجهم ثابت ، وأشهرهم ثابتة . وما يؤسف له أن أولئك المؤرخين لم يشاروا الى أسماء المواقع التي كانوا يحجون اليها .

### الشهور الحل :

وأما الشهور الثانية الأخرى ، غير الحرم ، فهي : صفر ، وشهر ربيع الأول ، وشهر ربيع الآخر ، وجاهد الأول ، وجاهد الآخرة ، وشعبان ، وشهر رمضان ، و Shawwal . وقد استحل فيها القتال والغزو .

وقد عرفت هذه الشهور : الحرم منها والشهور الحل بشهر معد<sup>٣</sup> . وكان أهل مكة يستعملونها عند ظهور الاسلام . والظاهر ان القبائل المجاورة لمكة كانت تستعملها أيضاً . وبهذه الأشهر أرخت رسائل الرسول وأوامره ، وصارت باستعمال الرسول لها الشهور الرسمية في الاسلام ، عليها يسير كل المسلمين على اختلاف ألوانهم حتى اليوم لما لها من صلات بأمور دينهم في مثل الصوم والحج .

وصفر ، هو الشهر الذي يلي المحرم . « قال بعضهم : إنما سمي لأنهم كانوا يختارون الطعام فيه من الموضع ، وقيل لا صفار مكة من أهلها اذا سافروا ، وروي عن رؤبة انه قال : سُرّوا الشهر صفراً لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صفراً من الماء ، وذلك ان صفراً بعد المحرم ، فقالوا صفر الناس منا

Reste, S. 100 f., De Bello Persi., 11, 16, Photius, Bibl. Cod., 3.

Reste, S. 101, Winckler, Alt. Orient. Forsch., II, Reihe, I Band, S. 336.

قال قائل من بنى كنانة :

النساء الناضئن على معد شهر الحل يجعلها حراما  
تاج العروس ( ٤ / ٢٢ )

صفراء<sup>١</sup> . وكانوا اذا جمعوا المحرم مع صفر ، قالوا : صفران . وفي ذلك قول أبي ذؤيب :

أقامت به كمقام الحنيف شهری جادی وشهری صفر<sup>٢</sup>

وكان أهل مكة يفتتحون ستهم بالمحرم . فهو أول شهر عندهم من أشهر السنة . وقد أقر الإسلام هذا المبدأ ، فجعل المحرم أول شهر من شهور السنة المجرية<sup>٣</sup> .

ويذكر أهل الأخبار أن أول من سمي الشهور المحرم وما بعده باسمها هذه هو (كيلاب بن مرّة)<sup>٤</sup> .

---

١ تاج العروس (٣٣٦/٣) ، (صفر) .

٢ المصدر نفسه .

٣

٤

« قال أبو جعفر : فإذا كان الامر في تاريخ المسلمين كالذى وصفت ، فإنه وإن كان من الهجرة ، فإن ابتداءهم أيام قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بشهرین وأيام ، هي اثنا عشر ، وذلك ان أول السنة المحرم ، وكان قدوة النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، بعد مضي ما ذكرت من السنة ، ولم يؤرخ التاريخ من وقت قدومه ، بل من أول تلك السنة » ، الطبرى (٣٨٨/٢ وما بعدها) ، « ذكر الوقت الذي عمل فيه التاريخ » ، روح المانى (٩٠/١٠ وما بعدها) ، الأيام والليالي Reste, S. 97.

والشهور (ص ٩) ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، المرزوقي (٢٨٣/١) ، بلوغ الارب (٧٨/٣) .

٥

## الفصل الثالث والثلاثون بعد المئة

### النسيء

عرف علماء العربية النسيء بقولهم : « والنسيء المذكور في قول الله تعالى : إنما النسيء زيادة في الكفر<sup>١</sup> ». شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية ، فنهى الله عز وجل عنه في كتابه العزيز حيث قال : إنما النسيء زيادة في الكفر ، الآية ، وذلك أنهم كانوا إذا صدروا عن مني يقوم رجل<sup>٢</sup> من كثافة ، فيقول : أنا الذي لا يرد لي قضاء ، فيقولون : أنسنا شهراً ، أي آخر عننا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم<sup>٣</sup> . وعرف النسيء بأنه تأخير بعض الأشهر الحرم إلى شهر آخر . وذلك من ( نسا ) . والنسيء تأخير الورقة<sup>٤</sup> . وجعله بعضهم بمعنى ( الكبس ) ، المعروف<sup>٥</sup> . وقد ذهب العلماء إلى أن النسيء كل زيادة حدثت في شيء ، فالشيء الحادث فيه تلك الزيادة بسبب ما حدث فيه نسيء<sup>٦</sup> . فالنسيء تأخير حرمة المحرم إلى صفر ، وجعل المحرم شهراً حلالاً ، يجوز لهم القتال فيه ، لأنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم ، لا يغرون فيها

١ التوبة ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبرى ( ٩١/١٠ ) ، روح المعانى ( ٢٨/١٠ ) ، تاج المروس ( ٤٥٦/١ ) ، ( طبعة الكويت ) ، اللسان ( ١٦٧/١ ) ، الكشاف ( ٢٣/٢ ) .

٢ صبح الاعشى ( ٣٦٦/٢ ) ، ( صادر ) ، المختار من صحاح اللغة ( ٥٢٠ ) .

٣ اللسان ( ١٦٧/١ ) ، ( صادر ) ، ( تاج المروس ( ٤٥٦/١ ) ، ( الكويت ) .

٤ المفردات ( ٥١١ ) ، الروض الانف ( ٤١/١ ) ، ٨٥ .

٥ ابن الاجذابي ( ٣٠ ) .

٦ تفسير الطبرى ( ٩١/١٠ ) ، القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ( ١٣٧/٨ ) .

ولا يغرون ، ومعاشرهم على الغارات والغزو . ففعلوا النبي ، لإحلال ذمته من حرمة محرم ، ولتجويز القتال فيه، فكانوا يؤذنون تحرير المحرم الى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم فيما تكون بذلك زماناً ، ثم يزول التحرير الى المحرم، ولا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة<sup>١</sup> . وقد عرف بعض العلماء النبي بأنه تأخير حرمة شهر الى شهر آخر<sup>٢</sup> . و «العرب تقول : نَسأَ اللَّهَ فِي أَجْلِكَ ، وَأَنْسَاهُ اللَّهَ أَجْلَكَ ، أَيْ أَخْرَ اللَّهَ أَجْلَكَ »<sup>٣</sup> .

فهم كانوا يستحلون ترك الحج في الوقت الذي هو واجب فيه ، ويوجبونه في الوقت الذي لا يجب فيه، وجوائزها ذلك عليهم حتى ضلوا باتباعهم هذا التجويز . بأن جعلوا الشهر الحرام حلالاً ، إذا احتاجوا إلى القتال فيه ، وجعلوا الشهر الحلال حراماً ، ويقولون شهراً بشهر ، وإذا لم يحتاجوا إلى ذلك لم يفعلوه<sup>٤</sup> . فكانوا يحجون في كثير من السنين ، بل أكثرها في غير ذي الحجة<sup>٥</sup> ، ومن هنا تلاعبوا بالأشهر وأخرجوها عن حقائقها ، بأن جعلوا الشهر الحرام حلالاً والشهر الحلال حراماً ، فخالفوا بذلك ما اتفق عليه من تحريم أشهر يعندها هي من الأشهر الحل ، ومن تحليل أشهر هي الأشهر الحرم .

وإذا أخذنا بما جاء على لسان بعض الشعراء عن النبي ، مثل قوله :

السن الناثن على معد شهور الحل يجعلها حراما

وقول أحدهم :

وكنا الناثن على معد شهورهم الحرام الى الحليل

١ تفسير الطبرسي (٩/٥) ، (طبعة طهران) ، الامالي ، للنقالي (٤/١) .

٢ تفسير الرازى (٥٥/١٦) ، تفسير البيضاوى (١/٢٥٣ وما بعدها) ، الكشاف (٣٨/٢) ، التسهيل لعلوم التنزيل ، محمد بن احمد بن جزي الكلبي (٧٥/٢) ،

تفسير القاسمي (٣١٤٣/٨) .

٣ الامالي ، للنقالي (٤/١) .

٤ تفسير الطبرسي (٢٩/٥) ، (طهران) .

٥ تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢) .

وقول الآخر :

نشوا الشهور بها<sup>١</sup> وكانوا أهلها من قبلكم والعزم يتحول<sup>٢</sup>

واعتبرناه صحيحاً ، نستنتج منه أن النبيَّ كان خاصاً بحج (مكة) ، وبالقبائل التي عرفت بقبائل (معد) . وقد عرفنا قبائل وعشائرها وفي جملتها قريش .

وإذا أخذنا النبيَّ بهذا المعنى ، صار معناه مجرد تبدل شهر بشهر ، وتأخير حرمة شهر إلى الشهر الذي يليه . وليس هذا بزيادة ، أي زيادة أيام أو شهر على شهور السنة ، وهي الأيام التي تختلف فيها السنة القمرية عن السنة الشمسية ، لتتساوى بها ، فتشتت الأشهر في مواضعها من الفصول ، وهو ما يعبر عنه بالكبس فليس هذا النبيَّ كبراً إذا .

وقد تعرض (البيروني) لموضوع النبيَّ عند العرب ، فقال : « وكانوا في الجاهلية يستعملونها على نحو ما يستعمله أهل الإسلام . وكان يدور حجتهم في الأذمنة الأربع . ثم أرادوا أن يحجوا في وقت ادراك سلطهم من adam والجلود والثار وغير ذلك ، وأن يثبت ذلك على حالة واحدة ، وفي أطيب الأذمنة وأخصبها . فتعلموا الكبس من اليهود المجاورين لهم . وذلك قبل الهجرة بقريب من مئتي سنة . فأخذوا يعملون بها ما يشكل فعل اليهود من إلحاد فضل ما بين ستهم وستة الشهرين شهراً بشهورها إذا تم ... ويسمون هذا من فعلهم النبيَّ ، لأنهم كانوا ينساؤن أول السنة في كل ستين أو ثلاث شهراً ، على حسب ما يستحقه التقدم »<sup>٣</sup> .

وتعرض (ابن الأجدابي) لموضوع (الكبس) والسنة (الكبيسة) عند العبرانيين واليونانيين كذلك ، فقال : « وقد كانت العرب في الجاهلية تفعل مثل هذا ، وتزيد في كل ثلاثة من سنينها شهراً ، على نحو ما ذكرناه عن العبرانيين واليونانيين . وكانت سنة النبيَّ شهراً . وكانت سنة النبيَّ ثلاثة عشر شهراً قريبة . وكانت

١ مرجع الضمير فيه « مكة » .

٢ الامالي ، للقالي (٤/١) .

٣ الآثار الباقية (١١، ١٢، ٦٢، ٣٢٥) ، ابن الأجدابي (٣٢)، القانون المسعودي (٩٢، ١٣١)، التفسير الكبير ، للرازي (٤/٤٤٧)، روح المعانى (١٠/٩١ وما بعدها) .

شهرورهم حينئذ غير دائرة في الأزمنة ، كان لكل شهر منها زمن لا يعوده . فهذا كان فعل الجاهلية حين أحدثوا النسيء ، وعملوا به . فلما جاء الله تعالى بالإسلام بطل ذلك ، وحرم العمل به . فقال : إنما النسيء زيادة في الكفر . وقال عزّ وجلّ : إن عدة الشهور عند اللهاثا عشر شهراً في كتاب الله . فسنة العرب اليوم اثنا عشر شهرأ قرية دائرة في الأزمنة الأربعه <sup>١</sup> .

والنسيء الذي ذكره (البيروني) و (ابن الأجدابي) ، هو كبس صحيح، وليس مجرد تقديم شهر وتأخير آخر على نحو ما رأيت . غايته تثبيت الأزمنة ، وجعل الحج في موسم ثابت معين ، فلا يكون في شتاء مرة ، وفي صيف مرة أخرى ، وفي ربيع مرة ، وفي خريف مرة أخرى ، بجعل السنة سنة قرية شمسية على نحو فعل اليهود بستتهم . وهو بهذا المعنى في رواية (المسعودي) . فقد قال : « وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلات سنين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير ، وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله : « إنما النسيء زيادة في الكفر » <sup>٢</sup> .

وكان النسيء الأول للمحرم ، فسمي صفر به . وشهر ربيع الأول باسم صفر ثم والوا بين أسناء الشهور . وكان النسيء الثاني لصفر ، فسمي الذي كان يتلوه بصفر أيضاً . وكذلك حتى دار النسيء في الشهور الاثني عشر ، وعاد إلى المحرم ، فأعادوا بها فعلهم الأول . وكانتوا يعدون أدوار النسيء ، ويحددون بها الأزمنة ، فيقولون : قد دارت السنون من زمان كذا إلى زمان كذا دورة . فإن ظهر لهم مع تقدم شهر عن فصله من الفصول الأربع لما يجتمع من كسور سنة الشمس وبقية فضل ما بينها وبين سنة القمر الذي أحققه بها ، كبسوه كبساً ثانياً . وكان بين لهم ذلك بظهور منازل القمر وسقوطها حتى هاجر النبي عليه السلام ، وكانت نوبة النسيء كما ذكرت بلغت شعبان ، فسمي محrama ، وشهر رمضان صفرأ ، فانتظر النبي ، صل الله عليه وسلم ، حينئذ حجة الوداع ، وخطب بناس ، وقال فيها : « ألا ، وإن الزمان قد استدار كهياته يوم خلق الله السموات

١ سورة التوبه ، الآية ٣٧ .

٢ التوبه ، الآية ٣٦ .

٣ ابن الأجدابي (٣٣) .

٤ مروج الذهب (١٨٨/٢) ، (ذكر سني العرب وشهرورها) .

والارض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواالية : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي يدعى شهر مصر الذي جاء بين جمادى الآخرة وشعبان ، والشهر تسعه وعشرون وثلاثون<sup>١</sup> . ومنذ ذلك الحين ترك النبي<sup>٢</sup> . « وعنى بذلك ان الشهر عادت الى مواضعها ، وزال عنها فعل العرب بها . ولذلك سميت حجة الوداع الحج الأقوم . ثم حرم ذلك ، وأهل أصلًا<sup>٣</sup> . وقد ذكر ( المسعودي ) ان عدة الشهور عند العرب وسائر العجم اثنا عشر شهرآ<sup>٤</sup> . وتقسيم السنة الى اثني عشر شهرآ ، هو تقسيم قديم يعود الى ما قبل الميلاد .

وذكر أن نبي<sup>٥</sup> العرب كان على ضربين : أحدهما تأخير شهر المحرم الى صفر . لجاجتهم الى شن الغارات وطلب الثارات ، والآخر تأخير الحج عن وقته تحييأً منهم للسنة الشمسية ، فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوماً ، حتى يدور الدور فيه الى ثلاث وثلاثين سنة ، فيعود الى وقته<sup>٦</sup> . وهذا الرأي يلخص ما أورده أهل الأخبار في النبي<sup>٧</sup> . ويخلص في شترين : النبي<sup>٨</sup> ، تأخير الشهور ، وذلك بإحلال شهر في مكان شهر آخر ، للإستفادة من ذلك في التحليل والتحريم ، والنبي<sup>٩</sup> يعني الكبس ، وهو إضافة الفرق الذي يقع بين السنة الشمسية والسنة القمرية ان الشهور القمرية تتلاقي التقويم الكائنة بين الستين ، ولتكون الشهور القمرية بذلك ثابتة لا تتغير ، تكون في موسمها المعينة ، فلا يقع حادث في شهر من شهورها في الشتاء ، ثم يتحول بعور السنين ، فيقع بعد أحد في الصيف أو في الربيع ، كما يقع ذلك في الشهور القمرية الصرف المستعملة في الإسلام .

وتسمى الطريقة الثانية ، وهي إضافة فرق الأيام بين الستين الشمسية والقمرية الى السنة القمرية . ( الكبس ) في اصطلاح العلماء . وقد كانت شهور اليهود ، وهي شهور قبرية : تساري ( ٣٥٤ ) يوماً وست ساعات ، فهي لذلك أقل من بأحد

١ امتناع الاسماع ( ٥٣١ / ١ ) ، ويختلف هذا النص في مختلف الموارد ، راجع عمدة القاري<sup>١</sup> ( ٤١ / ١٨ ) ، مجالس ثعلب ( ١٢١ ) ، سيرة ابن هشام ( ٣٥١ / ٢ ) ، ( حاشية على الروض الانف ) ، الروض الانف ( ٣٥١ / ٢ ) .

٢ الآثار الباقيه ( ٦٢ / ١ وما بعدها ) ، روح المعاني ( ٩١ / ١٠ وما بعدها ) .

٣ مروج الذهب ( ١٧٧ / ٢ ) ، ( ذكر سنتي العرب والعمجم وشهورها ) .

٤ بلوغ الارب ( ٧١ / ٣ ) ، نهاية الارب ( ١٦٦ / ١ وما بعدها ) .

عشر يوماً عن السنة الرومانية ، فادخلوا شهرأً ثالث عشر في كل ثلاث سنوات ، سموه (فيadar) أو (آذار الثاني) ، وبهذه الطريقة جعلوا السنة القمرية متساوية للسنة الشمسية<sup>١</sup> . وقد ذكر (ال سعودي ) ، أن أيام السنة « ثلاثة وأربعة وخمسون يوماً ، تتفق عن السرياني أحد عشر يوماً وربع يوم ، فتفرق في كل ثلاث وثلاثين سنة ، فتسلخ تلك السنة العربية ولا يكون فيها نوروز ، وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً ، وتسميه النبيء وهو التأخر »<sup>٢</sup> .

وذكر (القلقشندى ) ، أنهم كانوا يؤخرن في كل عام أحد عشر يوماً ، حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة ، فيعود إلى وقته، فلما كانت سنة حجة الوداع ، وهي تسع من المجرة ، عاد الحج إلى وقته انفافاً في ذي الحجة كما وضع أولاً ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيه الحج ، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ : إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض ، يعني أن الحج قد عاد في ذي الحجة<sup>٣</sup> . وذكروا أن المشركين كانوا « يحجون في كل شهر عامين ، فمحجوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين ، وكذلك في الشهور كلها حتى وافت حجة أبي بكر التي حجها قبل حجة الوداع ذا القعدة من السنة التاسعة ، ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم ، في العام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة ، فذلك قوله في خطبته : إن الزمان قد استدار ... الحديث . أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت إلى مواضعها ، وعاد الحج إلى ذي الحجة وبطل النبيء<sup>٤</sup> .

وورد في خبر يرجع سنته إلى (إياس بن معاوية) ، أن المشركين كانوا « يحسرون السنة التي عشر شهراً وخمسة عشر يوماً ، فكان الحج يكون في رمضان وفي ذي القعدة ، وفي كل شهر من السنة بحكم استداره الشهر بزيادة التسعة عشر يوماً ، فحج أبو بكر سنة تسع في ذي القعدة بحكم الاستدارة ، ولم يحج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فلما كان في العام المقبل وافق الحج ذا الحجة في العشر ، ووافق ذلك الآهلة<sup>٥</sup> . وقد ورد في الحديث : « الشهر هكذا وهكذا ، يعني

١ قاموس الكتاب المقدس (٦٣٩/١ وما بعدها) .

٢ مروج (١٨٨/٢) ، (ذكر سني العرب وشهورها وتسمية أيامها وليلاتها) .

٣ صبح الاعشى (٣٩٧/٢) .

٤ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (١٣٧/٨) .

٥ المصدر نفسه (١٣٨/٨) .

مرة تسعه وعشرين ومرة ثلاثين <sup>١</sup> ، كما ورد : « شهران لا ينقصان شهرأ رمضان ذو الحجة <sup>٢</sup> ». فإذا أخذنا بذلك ، كان الفرق بين أيام السنة التي وأيام السنة الشمسية ، هو ما يجب اضافته على السنة القمرية لتكون سنة شمسية ذات أشهر ثابتة .

وإذا صحت رواية بعض الأخباريين عن إضافة الجاهليين أحد عشر يوماً ، السنة القمرية ، ليضمّنوا بذلك ثبات الأشهر ، وعدم تغير أوقاتها . فإن يكون كبساً صحيحاً بالمعنى المفهوم من الكبس ، مؤدياً للغاية المتداخة منه . وع تكون سنة أولئك الجاهليين المستعملين للكبس سنة قربة شمسية . وأنا لا أستبع شيوعاً عند أهل المدينة ، بسبب اختلاطهم باليهود ، ولا أستبعد كذلك إنما مع يهود يثبت في استعمال السنة المستعملة عند اليهود نفسها ، وابتدائهم بالذ الذي كان يبدأ به أولئك اليهود .

ويؤيد هذه الرواية ما ذكره أهل الأخبار كلهم من ان الغاية التي حلّت العا بالنسيء على استعمالهم له « انهم كانوا يحبون ان يكون يوم صدرهم عن ا في وقت واحد من السنة » فكانوا ينشونه . والنسيء التأخير ، فيؤخر ونه في سنة أحد عشر يوماً ، فإذا وقع في عدة أيام من ذي الحجة ، جعلوه في ا المقليل لزيادة أحد عشر يوماً من ذي الحجة ، ثم على تلك الأيام يفعلون كذا في أيام السنة كلها . وكانوا يحرمون الشهرين اللذين يقع فيها الحج ، والشهر الـ بعدهما ، ليواطروا في النسيء بذلك عدة ما حرم الله . وكانوا يحرمون رجباً كـ وقع الأمر . فيكون في السنة أربعة أشهر حرم <sup>٣</sup> .

أما التفسير الأول للنسيء ، وهو تفسيره بمعنى تخليل شهر حرم ، وتحريم ثـ حلال ، وتأخير شهر وتقدم شهر ، فإنه لا يتحقق ما ذكر من رغبة الناس بـ في حجهم في وقت ثابت لا يتغير ولا يتبدل ، لأن الحج يتغير فيه ، فيـ أحياناً في الصيف ، وأحياناً في الشتاء ، وأحياناً في الربيع ، وأحياناً في الخريف وهذا لا يتفق مع زعم أهل الأخبار في السبب الذي دعا إلى الأخذ بالنسيء . والنسيء بهذا التفسير ، لا يفيد إلا من ناحية التحابل والتلاعـب في ايجاد حـ

١) رشاد الساري (٣٥٩/٣) .

٢) المصدر نفسه .

٣) تاج العروس (١٢٥/١) ، (نساء) .

مشروعه في تجويف القتال في بعض الأشهر الحرام ، وذلك لأن تكون قبيلة قوية تزيد القتال في شهر محرم ، لاستعدادها له فيه فتعمد إلى هذا الحل ، والتحايل على العرف بالتوسل إلى (القلمس) لتغيير الشهور ، فيصير الشهر الحرام حلالاً ، وبذلك يباح لها القتال فيه .

ولاني أرى في هذا التفسير تكلاً ظاهراً ، وهو يعارض مع ما ذكر من الغاية من النبي . وإذا جاز إحدائه في سنة ما للغایات المذكورة ، فلا يعقل إحدائه في كل سنة بانتظام . وإلا لم يبق له معنى ما ولافائدة ترجى عندئذ منه .

وقد جاء معنى النبي في الآية : « إنما النبي زباد في الكفر ، يصل به الذين كفروا ، يخلونه عاماً ومحروننه عاماً . ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحصلوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدى القوم الكافرين »<sup>١</sup> . فقال بعض علماء التفسير : كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرم صفرأ ، فيستحلون فيه الحرمات ، فأنزل الله إنما النبي زباد في الكفر<sup>٢</sup> . « وكان المشركون يسمون الأشهر : ذو الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع ، وربيع ، وجادى ، ومجادى ، ورجب ، وشعان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، يحجون فيه مرة ثم يسكنون عن المحرم فلا يذكروننه ، ثم يعودون فيسمون صفر صفر . ثم يسمون رجب جادى الآخر ، ثم يسمون شعبان رمضان ، ثم يسمون رمضان شوالاً ، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً ، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ، ثم يسمون المحرم ذا الحجة ، فيحجون فيه ، واسمه عندهم ذو الحجة . ثم عادوا بمثل هذه القصة ، فكانوا يحجون في كل شهر عامين ، حتى وافق حجة أبي بكر ، رضي الله عنه ، الآخر من العامين في ذي القعدة ، ثم حج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حجته التي حج ، فوافق ذا الحجة ، فذلك حين يقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في خطبته إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض<sup>٣</sup> . فالنبي هو المحرم ، وكان يحرم المحرم عاماً ، ويحرم صفر عاماً ، وزيد صفرأ في آخر الأشهر الحرام ، وكانوا يؤخرن الشهور

١ التوبة ، الآية ٣٧ .

٢ تفسير الطبرى ( ٩٣/١٠ ) .

٣ تفسير الطبرى ( ٩٢/١٠ وما بعدها ) ، تفسير النسفي ( ١٢٥/٢ وما بعدها ) ، تفسير ابن كثير ( ٣٥٣/٢ وما بعدها ) ، تفسير القرطبي ( ١٣٧/٨ وما بعدها ) .

حتى يجعلوا صفر المحرم ، فيحلوا ما حرم الله . وكانت هوازن ، وغطفان ، وبينو سليم ، يعظمونه ، وهم الذين كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية<sup>١</sup> . وهكذا كانوا يجعلون سنة المحرم صفراً ، فيغزون فيه ، فيغتصبون فيه وبصيرون ويحرمونه سنة<sup>٢</sup> . وذكر أنهم كانوا يسكنون عن المحرم ولا يذكرونه ، ثم يعودون فيسمون صفراً<sup>٣</sup> .

وقد تحدث (الطبرسي) عن النبي ﷺ فقال : « قال مجاهد : كان المشركون يجعلون في كل شهر عامين ، فحجوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين ، وكذلك في الشهور حتى وافقت الحجة التي قبل حجة الوداع في ذي القعدة ، ثم حج النبي ﷺ ، صلى الله عليه وسلم ، في العام القابل حجة الوداع ، فوافق في ذي الحجة ، فذلك حين قال النبي ﷺ ، صلى الله عليه وسلم ، وذكر في خطبته ألا وإن الزمان قد استدار كهنته يوم خلق الله السماوات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلث متوالات : ذو القعدة ، ذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مصر الذي بين جادى وشعبان . أراد عليه السلام الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحج إلى ذي الحجة وبطل النبي ﷺ »<sup>٤</sup> .

وهذا الفعل الذي هو النبي ﷺ ، هو الذي جعل العلماء يقولون : إن الصفر النبي ﷺ الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم إلى صفر في تحريره وبجعلون صفراً هو الشهر الحرام<sup>٥</sup> . فهم يدخلون شهرأً جديداً على السنة بعد ذي الحجة ، يكون مقامه بين هذا الشهر وبين شهر صفر الأول ، الذي هو المحرم من الأشهر الحرم . وبذلك يكونون قد فصلوا بين الأشهر الحرم الثلاثة ، بأن جعلوا شهرأً حلالاً جديداً بين الشهرين المحرمين : ذو القعدة وذو الحجة ، وبين الشهر الثالث المتصل بهما ، وهو المحرم ، ففصل عن الشهرين ، وصار وحيداً . فعلوا ذلك ليحافظوا على وقت الحج ، يجعله ثابتاً . ولما كان ذلك معناه

١ تفسير الطبرى (٩٢/١٠ وما بعدها) .

٢ تفسير الطبرى (٩٢/١٠) .

٣ تفسير ابن كثير (٣٥٧/٢) .

٤ تفسير الطبرسى (٢٩/٥) .

٥ تاج العروس (٣٣٦/٣) ، (صفر) .

تغيير حرمة الأشهر الحرم الثلاثة يجعل الشهر الحلال شهرًا حراماً ، والشهر الحرام حلالاً ، حرم النسيء في الاسلام . فابتعدت السنة بذلك عن السنة الشمسية ، وصار الحج يدور باختلاف المواسم ، لأن السنة صارت سنة قمرية . وبذلك تغير وقت الحج عما كان عليه في الجاهلية ، فلم يعد ثابتاً على نحو ما كان عليه عند الجاهليين . وفراراً من اسم النسيء ، الذي هو زيادة في الكفر ، كانوا في صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عربية ، سنة ويسمونها : سنة الا زدلاق لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية تساوي الثنتين وثلاثين سنة شمسية تقريباً<sup>١</sup> .

### مبدأ النسيء :

ويرجع أهل الأخبار مبدأ ادخال النسيء الى الجاهليين الى ( عمرو بن لحي ) أو الى ( القلمس ) ، وهو ( حذيفة بن فقيم بن عامر بن الحارث ) ، أو ( حذيفة بن عبد بن فقيم )<sup>٢</sup> ، أو ( نعيم بن ثعلبة )<sup>٣</sup> ، أو ( قلع بن حذيفة بن عبد بن فقيم ) ، أو آخرون<sup>٤</sup> . وذلك ان العرب كانوا لا يكسون ، الى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادوا أن يكون حجهم في أخصب وقت من السنة وأسهلها للتردد في التجارة ، ولا يزول عن مكانه ، فتعلموا الكبس من اليهود<sup>٥</sup> . فصار النسيء عادة من عادات العرب منذ ذلك الحين الى منعه في الاسلام .

وكانت النسأة في بني مالك بن كنانة ، وكان أولهم القلمس حذيفة بن عبد ابن فقيم بن عدي<sup>٦</sup> بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ثم ابنته قلع بن حذيفة ، ثم عباد بن قلع ، ثم ( قلع بن عباد قلع ) ثم أمية بن قلع

١ صبح الاعشى ( ٣٩٨/٢ ) .

٢ بلوغ الارب ( ٧١/٣ ) ، نهاية الارب ( ١٦٥/١ ) ، ( حذيفة بن عبد بن نهم بن عدي ابن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ) ، المحرر ( ١٥٧ ) ، تاج العروس ( ٤/٢٢٢ ) ، تفسير الطبرسي ( ٥/٢٩ ) ، ( طبعة طهران ) .

٣ الروض الانت ( ٤١/١ ) ، تفسير الطبرسي ( ٥/٢٩ ) ، ( طهران ) ، تفسير الخازن ( ٢/٢٢١ ) ، تفسير القاسمي ( ٨/٣١٤٣ ) ، البحر المحيط ( ٥/٣٩ ) .

٤ تاج العروس ( ١/٤٥٦ ) وما بعدها ، ( الكويت ) .

٥ بلوغ الارب ( ٣/٧١ ) .

ثم عوف بن أمية ، ثم جنادة بن عوف بن قلع<sup>١</sup> . وذكر أن أول من نسيه قلع ، نسأ سبع سنين ، ونسأ أمية إحدى عشرة سنة<sup>٢</sup> . وذكر عن (ابن اسحاق) أن أول من نسأ عند العرب (القلمس) ، وهو (خذيفة بن عبد فقيم ابن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، ثم قام بعده على ذلك ابنه (عبداد) ، ثم من بعد عبداد ابنه (قلع بن عبداد) ، ثم ابنه (أميمة ابن قلع) ، ثم ابنه (عوف بن أمية) ثم ابنه (أبو ثمامة) (جنادة بن عوف) ، وكان آخرهم وعليه قام الإسلام<sup>٣</sup> . وذكر (القرطبي) عن (ابن الكلبي) أن أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة ، يقال له : نعيم بن ثعلبة ، ثم كان بعده رجل يقال له : جنادة بن عوف ، وهو الذي أدركه رسول الله، صلى الله عليه وسلم . وقال الزهرى : حي من بني كنانة ثم من بني قُصيم منهم رجل يقال له القلمس ، واسمه خذيفة بن عبيد . وفي رواية مالك بن كنانة . وكان الذي يلي النسيء يظفر بالرئاسة لرئيس العرب إياه . وفي ذلك يقول شاعرهم :

ومنا ناميء الشهر القلمس

وقال الكعبيت :

ألسنا الناسين على معد شهور الخل نجعلها حراما<sup>٤</sup>

وذكر (اليعقوبي) ، أن أول من نسأ الشهور : (سرير بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة) . وهو والد (هند) التي تزوجها (مرة بن كعب) ، فولدت له (كلاباً) . وشرف (كلاب بن مرة) وجل قدره واجتمع له شرف الألب ، وهو (كعب بن لؤي) ، الذي كان أول من سمي يوم الجمعة بالجمعة ، وكانت العرب تسميه (عروبة) ، وشرف الجد من قبل الأم ، لأنهم كانوا

١ تاج العروس (٤٥٧/١) ، (١٢٥/١) ، (نسأ) ، مروج الذهب (١/٣٦٧) وما بعدها ، بلوغ الارب (٧٢/٣) ، نهاية الارب (١٦٦/١) ، (خذيفة بن عبد بن

٢ نعيم بن عدي بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، المحiber (١٥٧) .  
٣ تاج العروس (٤٥٦/١) ، تفسير الطبرسي (٢٩/٥ وما بعدها) ، تفسير سورة التوبة ، الآية ٣٦ وما بعدها ، تاج العروس (١/١٢٤) ، (نسأ) .

٤ تفسير ابن كثير (٣٥٧/٢) .

٥ تفسير القرطبي (١٣٨/٨) .

يحيزون الملح ويحرمون الشهور ويخلوتها ، فكانوا يسمون النساء والقلاس<sup>١</sup> .

وذكر (الزبيري) ، ان (سريراً) أول من نسأ الشهور ، وقد انقرض سريره ، ونسأ الشهور بعده ابن أخيه القلميس ، واسميه عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث ابن كنانة . ثم صار النبي في ولده . وكان آخرهم جنادة بن عوف<sup>٢</sup> ، وهو (أبو ثامة) . وورد في رواية أخرى ، ان آخرهم هو (فقيم بن ثعلبة) ، أو هو غيره . وقد ذكروا أن (أبا ثامة) ، وهو (جنادة بن أمية) منبني (المطلب بن حدثان بن مالك بن كنانة) ، من نساء الشهور على معد ، كان يقف عند (جمرة العقبة) ، ويقول : اللهم اني ناسى الشهور وواضعها مواضعها ولا أعب ولا (أحاب) أجاب : اللهم لاني قد أحللت أحد الصفررين وحرمت صفر المؤخر ، وكذلك في الرجبين ، يعني : رجبًا وشعبان . ثم يقول : انفروا على اسم الله تعالى . وفيه يقول قائلهم :

ألسنا الناسين على معد شهور الحل نجعلها حراما<sup>٣</sup>

وذكر أن أول من نسأ بعد (القلميين) القلمسيين : ( حذيفة بن عبد نعيم ابن عدي ) ، و ( زيد بن عامر بن ثعلبة ) ( وهو القلمي بن عامر بن ثعلبة ) ( عياد بن حذيفة ) ، ثم ( قلع بن عياد ) ، ثم ( أمية بن قلع ) ، ثم ( عوف ابن أمية ) ، ثم ( جنادة ) قادركم الإسلام<sup>٤</sup> .

وذكر (الطبرى) ، «أن جنادة بن عوف بن أمية الكتاني ، كان يوافي الموسم كل عام ، وكان يكتفى أبا ثامة ، فينادي : ألا ان أبا ثامة لا يجاف ولا يعب ، ألا وان صفر العام الأول حلال ، فيحله الناس ، فيحرم صفر عاماً ويحرم المحرم عاماً» . ودعا به (أبي ثامة صفوان بن أمية)، أحد (بني فقيم

١. اليعقوبي (٢٠٧/١) ، (طبعة النجف) .

٢. نسب قريش (ص ١٣) .

٣. تاج العروس (٤/٢٢٢) ، (القلمس) ، تاج العروس (١٢٥/١) ، (نساء) ، ينسب هذا البيت الى «عمر بن قيس بن جذل الطعان» ، اللسان (١/٦٧) ، (صادر) ، نهاية الارب (١/١٦٦) .

٤. الاصادة (١/٢٤٨) ، (رقم ١٢٠٧) .

٥. تفسير الطبرى (٩١/١٠) .

ابن الحارث ، ثم أحد بنى كنانة<sup>١</sup> . وذكر أنه « كان رجل من بنى كنانة ، يأتي كل عام في الموسم على حمار له ، فيقول : أئها الناس ؛ اني لا أعب ولا أجب ، ولا مردّ لما أقول . أنا قد حرمنا المحرم ، وأخرنا صفر . ثم يجيء العام المقبل بعده ، فيقول مثل مقالته . ويقول إنما قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : ليواطئوا عدة ما حرم الله<sup>٢</sup> » . وكان هذا الرجل يقال له : القلمس<sup>٣</sup> .

وكان آخر النساء ، ( جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عياد ( عياد ) بن حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن زيد بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك ابن كنانة ) ، أبو ( ثامة<sup>٤</sup> ) ( أبو أمامة ) الكناني . نسا الشهور أربعين سنة ، وأدرك الاسلام . وكان أبعد النساء ذكراً ، وأطوطهم أمناً . وذكر ان اسمه ( أمية بن عوف بن جنادة بن عوف بن عياد بن قلع بن فقيم بن عدي بن عامر ابن الحارث بن ثعلبة<sup>٥</sup> ) ، وذكر أيضاً انه ( القلمس بن أمية بن عوف بن قلع ابن حذيفة بن عبد بن فقيم<sup>٦</sup> ) .

وورد في خبر ينسب الى ( ابن عباس ) ، انه قال : النساء في كندة<sup>٧</sup> . وانهم كانوا النساء الأول ، قبل المذكورين<sup>٨</sup> . وذهب ( الجاحظ ) الى ان النسيء كان في كنانة ، وأما السданة ، فكانت في ( مرّ بن أذ<sup>٩</sup> ) « من رهط صرفة والرُّبِطُ منها أصحاب المزدلفة ، وكانت عدوان وأبو سيارة عيلة بن أعزل ، تدفع الناس »<sup>١٠</sup> . ويكاد يكون الاجماع على أن النسيء كان من حق ( كنانة ) ، لم يتوله غيرهم .

وذكر أن النسيء ، كان يحل للمحرمين قتال ( خثعم ) و ( طيء ) ، « لأنهم كانوا لا يحرمون الأشهر الحرم ، فيعيرون فيها ويقاتلون . فكان من نسا الشهور

١ تفسير الطبرى ( ٩٢/١٠ ) .

٢ تفسير الطبرى ( ٩٢/١٠ ) .

٣ تفسير الطبرى ( ٩٣/١٠ ) ، تفسير ابن كثير ( ٣٥٦/٢ وما بعدها ) .

٤ تاج العروس ( ١٢٤/١ ) ، ( نسا ) ، ( ٤٥٦/١ ) ، « طبعة الكويت » ، نهاية الارب ( ١٦٦/١ ) ، الروض الانف ( ٤٢/١ ) .

٥ الاصابة ( ٢٤٨/١ ) ، ( رقم ١٢٠٧ ) .

٦ نهاية الارب ( ١٦٦/١ ) ، تاج العروس ( ١٢٤/١ ) ، ( نسا ) .

٧ المسنان ( ١٦٧/١ ) ، ( صادر ) .

٨ الاذرقي ( ١١٨/١ ) .

٩ الحيوان ( ٢١٥/٧ ) .

من الناسين يقوم ، فيقول : إني لا أحب ولا أعاد ، ولا يرد بما قضيت به ، ولاني قد أحللت دماء المحلين من طيء وخشعم ، فاقتلوهم حيث وجذبواهم إذا عرضوا لكم<sup>١</sup> .

ويذكر أهل الأخبار أن أولئك الناسين كانوا نابحين في قومهم ، لهم مركز عظيم و شأن . فكان (القلمس) ، مثلاً ملكاً في قومه ، وهو من بنى كنانة<sup>٢</sup> ، وكان عالم قومه وفقيرهم في الدين ، وكان الذي يلي النسيء يظفر بالرئاسة لتربيته العرب إياه<sup>٣</sup> . ويظهر أنهم كانوا أصحاب علم ونظر ومكانة محترمة ، في أمور الدين ، في قومهم وفي القبائل التي تخرج إلى مكة .

وكلمة (قلمس) على ما يتبعن من روايات الأخباريين ، لم تكن اسم علم ، وإنما هي لفظة يراد بها عند الجاهليين ما يراد من معنى الفقيه والمفتري في الإسلام<sup>٤</sup> . وقد ذكر علماء اللغة أن من معانى القلمس : السيد العظيم ، والرجل الخير المعطاء والمفكر البعيد الغور ، والداهية من الرجال ، ونحو ذلك من معانٍ تشير إلى صفات عالية في الرجل الذي أطلقت عليه ، وقد تكون بمعنى العالم العارف ، وقد أطلقت بصورة خاصة على هذه الجماعة ، لسعة علمها بهذا الموضوع وغيره ، ولو قوفها على التوقيت وعلم الفلك في تلك الأيام<sup>٥</sup> . وقد تكون لفظة من جملة الألفاظ المغربية التي دخلت العربية قبل الإسلام .

وطريقة النسيء في اعلانه النسيء على الناس في الحج ، أن يقوم رجل من كنانة فيقول : أنا الذي لا يرد لي قضاء ، فيقولون : أنسنا شهراً ، أي آخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم<sup>٦</sup> . وهذا الرجل هو النسيء ، أو أن يدعو النسيء الناس في آخر موسم الحج إلى الاجتماع حوله ، فإذا اجتمعوا ارتفع موضعًا مرتفعاً ظاهراً ، أو قام على ظهر جمله ليراه الناس ثم يقول بأعلى

١

تاج العروس (١٢٥/١) ، (نساء) .

٢

المعاني الكبير (١١٧/٣) ، المحرر (١٥٦ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٧٢/٣) .

٣

تفسير القرطبي (١٣٨/٨) .

٤

المحبر (ص ١٥٦) ، تاج العروس (٢٢٢/٤) ، (القلمس) ، تفسير الطبرى (٩٣/١٠) .

٥

راجع معنى « القلمس » في اللسان (١٨٢/٦) .

٦

تاج العروس (٤٥٦/١) (الكويت) .

صوته : « اللهم إني لا أعباب ولا أحباب ، ولا مردّ لما قضيت . اللهم ، إني أحللت شهر كذا ( ويدرك شهرأ من الأشهر الحرم ، وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه ) ، وأنساته إلى العام القابل ، أي آخرت تحريره ، وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر الباقي ، فكانوا يخلدون ما أحلّ ويحرمون ما حرم » . فإذا انتهى من هذا الخطاب وأمثاله ، أباحوا لأنفسهم الغارة في ذلك الشهر ، وغزوا من نوروا غزوه . فإذا جاء العام القابل ، نهض الناس ليقول : إن أهلكم قد حرمت عليكم الشهر الثلاثي ، وهو الشهر الذي أحله في العام الماضي فحرّموه ، فيحرمونه<sup>١</sup> . وورد في بعض الروايات ، انه كان يقوم فيقول : « إني لا أعباب ولا أحباب ولا يردّ ما قضيت به ، وإنني قد أحللت دماء المحليين من طيء وختنم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم اذا عرضوا لكم » . وذلك لما ذكر من عدم تحرير طيء وختنم للشهور الحرم ، فكانوا يغيرون ويعاتلون فيها ، ولذلك استثناهم القلامسة من علم مقاتلتهم في تلك الشهور ، وذلك لضرورات الدفاع عن النفس<sup>٢</sup> .

وقد نسب الى بعض القلامسة شعر ، قبل انهم قالوه يفتخرون فيه باحتكارهم  
النبيء ، وبارشادهم الناس الى مناسك دينهم ، وقيادتهم الحجاج ، يسرورون تحت  
لوائهم ، يبيتون لهم شهور الحل والأشهر الحرم ، كما ورد شعر منسوب الى بعض  
كتاباته يفتخر فيه بأن قومه ينسئون الشهور على معد ، فيجعلون شهور الحل حراماً  
والشهور الحرام حلالاً<sup>٣</sup> .

وقد قال (عمير بن قيس بن جذل الطعان)، شرعاً افتخر فيه و تعرض لأمر النسيء، فكان مما جاء فيه قوله :

اللسان الناطق على معدة شهر الحل، يجعلها حراماً

المعاني الكبير (١١٧١/٣) ، بلوغ الارب (٧٣/٣) ، نهاية الارب (١/١٦٦) ، « أنا الذي لا أتعاب ولا أخاب ؟ ولا يريد لي قضاة ، فيقولون : نعم . صدقـتـ أـنـسـتـناـ شـهـرـاـ ، أوـ آخرـ عـنـاـ حـرـمـةـ المـحـرـمـ ، وـاجـعـلـهـاـ فـيـ صـفـرـ وأـحـلـ المـحـرـمـ ، فـيـفـعـلـ ذـلـكـ » ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩) ، (طهران) .

٢٤ تاج العروس (١٤٥٧)، (الكويت)، مادة: «نساء».

اللسان (١/١٦٧)، ونسبة (الطبرسي) الى الكميت ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩)،  
طهران ) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦) ، سنن ابن ماجة (٥/١٨٠) ، السنن  
الكبري (٥/١٦٥) ،

وقال بعض بنى أسد :

لهم ناسٍءٌ يعشون تحت لوائه يخل إذا شاء الشهورَ وينحرِمُ<sup>١</sup>

وقال آخر :

نسمة الشهور بها وكانوا أهلها من قبلكم والعز لم يتحول<sup>٢</sup>

وقد نسب (القرطبي) البيت :

أللنا الناسين على معدّ شهور الخل ، نجعلها حراما  
إلى الكبّيت<sup>٣</sup>.

وقد استمرت طريقة النبي هذه إلى أيام الإسلام ، فحج أبو بكر في السنة التاسعة من الهجرة ، فوافق حجه ذا القعدة ، ثم حج رسول الله في العام القابل الموافق للسنة العاشرة للهجرة ، المصادفة لسنة (٦٣١) للميلاد ، فوافق عود الحج في ذي الحجة . ثم نزل الحكم بإبطال النبي في الآيات : « إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم . وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتدين . إنما النبي زبادة في الكفر ، يصل به الذين كفروا ، يخلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين »<sup>٤</sup> . وخطب الرسول في جموع الحجاج خطبته الشهيرة التي بين فيها مناسك الحج وسننه وأموراً أخرى أوضحتها لهم ، فكان مما قاله لهم : « إنما الناس إنما النبي زبادة في الكفر ، وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن

١ تاج العروس (٤٥٧/١) ، (الكويت) .

٢ تفسير بحر المحيط (٣٩/٥) .

٣ تفسير القرطبي (١٣٨/٨) .

٤ سورة التوبة : الآية ٣٦ وما بعدها ، راجع تفسير الطبرى (٩١/١٠ وما بعدها) ،  
تفسير الرازي (٤٤٦/٤ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٢٣/٣ وما بعدها) ،  
الكتشاف (١٥٠/٢ وما بعدها) .

عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرأ<sup>١</sup> . فألغى الإسلام منذ ذلك الحين النسيء، وثبتت شهور السنة وجعل التقويم القمري هو التقويم الرسمي لل المسلمين .

وروي كلام الرسول عنه على هذه الصورة : « أئها الناس . إن النسيء زيادة في الكفر ، يصل به الدين كفروا بخلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطأوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهياته يوم خلق الله السموات والأرض . وان عددة الشهور عند الله اثنا عشر شهرأ ، منها أربعة حرم . ثلاثة متالية ، ورجب مصر الذي بين جمادى وشعبان»<sup>٢</sup> . فألغى الإسلام منذ ذلك الحين النسيء ، وجعل التقويم القمري الخالص هو التقويم الرسمي لل المسلمين .

ويظهر من القرآن الكريم ان سبب تحريم النسيء في الاسلام هو تلاعيب القلامسة بالشهور ، بتحريمهم شهرأ حلالاً في عام ، ثم تخليلهم له في العام القابل . فازال الاسلام ذلك التلاعيب بتحريم النسيء ، واتخاذ السنة سنة قرية ذات اثنى عشر شهرأ لا غير . كما صيرها الجاهليون ثلاثة عشر أو أربعة عشر شهرأ<sup>٣</sup> . ولما كان الزرع يعتمد على المواسم الطبيعية ، وعلى الأشهر الشمسية ، لذلك صار اعتماد المزارعين في الزرع وفي الحصاد على الشهور الشمسية ، أي على السنة الشمسية . أما الأمور الدينية ، مثل الحج والصيام ، فالاعتماد بالطبع على الشهور القمرية<sup>٤</sup> .

واتخاذ التقويم القمري تقويم رسمياً للإسلام ، هو من السمات التي امتاز بها الاسلام عن الجاهلية، واعتبر من النقاط الفاصلة التي فصلت بين الجاهلية والاسلام . وهكذا زال الكبس كما زال النسيء عن السنة القرمية وعن الشهور لتحويلها إلى سنة شمسية على نحو ما رأينا من فعل الجاهلين .

ويرى بعض المستشرقين أن النسيء والناسيء من الألفاظ المعرفة عن العبرانية .

١ ابن الأثير (١٢٦/٢) ، الواقدي (٤٣١) (طبعة ولہوزن) ، ابن كثير (٣٥٣/٢) وما بعدها ) ، وقد رویت خطبة الرسول بصورة مختلفة ، اختلافاً يدل على أن الرواية لم يكونوا قد دونوا النص ، وإنما رووا عن ذاكرة وحفظ ، فاختلفوا من ثم في رواية النص .

٢ ابن مثام (١/٣٥١) ، حاشية على الروض الانف ) .

٣ بلوغ الارب (٣/٧١) ، روح المعاني (١٠/٩٣) وما بعدها ) .

Caetani, I, 356, Bubl, Muhammed, S. 350, H. Winckler, in Arabisch — Semitisch Orientalish, 85. ff., Berlin, 1901.

وقد دخلت الى العربية بتأثير يهود يثرب . والناسى عند اليهود هو الرئيس الديني . وكان يقوم عندهم بتقديم وتأخير الشهور ، ويعين مواعيد الأعياد والصيام ، وينبئ النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة<sup>١</sup> . والناسى يقابل رئيس قبيلة عند بني اسرائيل<sup>٢</sup> ، وهذا التعريف ينطبق تماماً مع ما ذكره أهل الاخبار عن (الناسى) عند الجاهليين .

وقد بحث عدد من المستشرقين في حساب السنين عند الجاهليين وفي النبي ، فجاؤوا بآراء متباعدة غير متفقة ، لكل واحد منهم رأي ومذهب في طريقة العرب قبل الإسلام في حساب الشهور وفي السنين القمرية والشمسية والكبس والنسي . وقد ناقشها وخلصها (نالينو) في كتابه : « علم الفلك تاریخه عند العرب في القرون الوسطى » . وهو من يرون أن البحث في هذا الموضوع صعب عسر ، وأن البت فيه غير ممكن في الزمن الحاضر ، لقلة الموارد وعدم وجود أخبار وروايات واضحة صريحة يمكن أن يستند اليها في ابداء رأي علمي ناضج في الموضوع<sup>٣</sup> .

والذي أراه ان أهل الحجاز كانوا يتبعون التقويم الشمسي مع مراعاة الإهلال ، أي تقويم شمسي قرياً ، بدليل ان لأسماء الأشهر علاقة بالجو من برد وحر ، وربيع وخريف . فقد ذكر علماء اللغة ان الربيع انما سمي ربيعاً ، لارتباعهم فيه والارباع الاقامة في عمارة الربيع ، وأن (جذادي) سمي بذلك لجمود الماء فيه ، أي أنها من أشهر الشتاء . قال الشاعر :

وليلة من جذادي ذات أندية لا يضر العبد في ظلمائها الطبا  
لا ينبع الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خرطومه الذبا<sup>٤</sup>

وأن رمضان من شدة الرمضاء ، وهو الحر . ولا يعقل أن تكون هذه التسميات قد جاءت عفراً ومن غير ارتباط بحالة من حالات الطبيعة . وقد اتبه المتقدمون

١ ولفسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١ ) .  
٢ الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الآية ٣١ ، العدد ، الاصحاح ٧ ، الآية ٣٢ ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١ ) .  
٣ (ص ٩٤ وما بعدها ) .  
٤ تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢ ) .

الىها ، فقال بعضهم « وكانت الشهور في حسابهم لا تدور » ، ولكن بعضهم لم يقبل بذلك إذ قال : « وفي هذا نظر ، إذ كانت شهورهم بالأعوام ، فلا بد من دورانها » ، وقال في تفسير اسم جادى « فلعلهم سموه أول ما سمي عند جمود الماء في الرد » .<sup>١</sup>

ما ذكرناه عن النسيء وعن الكبس يخص عرب الحجاز ، وأهل مكة بصورة خاصة ، ولا يتناول العرب الجنوبيين . ولا عرب بقية أنحاء جزيرة العرب ، لعدم وجود أخبار لدينا عنها تتناول المواضيع الأخرى ، لا في النصوص الجاهلية ولا في أخبار أهل الأخبار . ولكن الذي يظهر من النصوص العربية الجنوية المتعلقة بالزراعة ومن أسماء الشهور ، أنها كانت شهوراً ثابتة ، أي شهوراً شمسية لا قمرية ، وأن السنة التي كانوا يسيرون عليها سنة شمسية ، غير أن هذا لا يمنع مع ذلك من سيرهم على مبدأ الإهلال في حياتهم الاعتيادية ، أي على الشهور القمرية ، بحيث تكون الرؤية مبدئاً للشهور . وذلك لوضوح الأهلة وإمكان رؤيتها بسهولة وتبسيط الأوقات بموجهاً ، بمعنى أنهم كانوا يسيرون على التقويمين : التقويم الشمسي في الزراعة وفي دفع الغلات ، والتقويم القمري في الأمور الاعتيادية .

ولا نستطيع أن نتحدث عن كيفية احتساب العرب الجنوبيين للسنة الشمسية ، ولا عن الكبس عندهم ، لعدم ورود شيء عنها في النصوص .

ويظن أن سنة العرب الجنوبيين كانت من (٣٦٠) يوماً ، مقسمة إلى اثني عشر قسماً ، أي شهراً ، نصيب كل شهر منها (٣٠) يوماً . وحيث أن هذا المقدار من الأيام ، وهو (٣٦٠) يوماً هو دون الأيام التي تمضيها الأرض في دورانها الحقيقي حول الشمس ، لذلك كانوا يعوضون عن الفرق إما بإضافة الأيام الالزامية على أيام السنة لتكتسبها مساوية للسنة الطبيعية ، وذلك في كل سنة ، وإما بإضافة شهر كبسة مرة واحدة في نهاية كل ست سنوات<sup>١</sup> .

ويظن (بيستن) ، أن القتباين قد أخذوا بالطريقة الثانية : طريقة إضافة شهر زائد كامل على التقويم في كل ست سنوات ، لتعادل السنة بذلك مع السنة الطبيعية ، وإن ذلك الشهر المضاف هو الشهر المسمى بـ (ذ برم آخر) ، أي بـ (ذى برم الآخر) ، أو (ذى برم الثاني) ، عند القتباين وبشهر (ذنسور آخر) ، أي (ذى نسور الآخر) ، أو (ذى نسور الثاني) عند السبئيين .

ووردت في أحدى الكتابات جملة (بين خرفهن) ، أي بين الستين . وقد رأى (ونكلر) ، أنها تعني الأيام التي تضاف إلى نهاية السنة لكتسبها حتى تكون سنة طبيعية كاملة . أي سنة شمسية ، ولذلك عبر عنها بـ (بين الستين) ، أي بالإضافة التي توضع فيها بين الستين . السنة المتقدمة والستة التالية لها<sup>٢</sup> . وذهب (كريمه) إلى أنها تعني شهراً ، هو الشهر الذي يضاف على التقويم لكتسب الستين ، ويرى (بيستن) ، أن هذا الرأي يصعب قبوله ، لأنه لو كان شهراً كاملاً ، لسموه باسم معين ، أو لرمزوا إليه برمز يميزه عن شهور السنة الأخرى ، كأن يقولوا له (آخر) ، أي الآخر ، أو الثاني<sup>٣</sup> .

أما اليهود ، يهود جزيرة العرب ، فقد كانوا يسلكون طريقتهم الخاصة في

Beeston, p. 18.

١

Winckler, Altorientalische Forschungen, II, (1900), S. 351.

٢

Beeston, p. 43.

٣

التوقيت ، ويسلكون منهجهم في تعين الشهور ، كما يتأيد ذلك من الأخبار التي نجدوها عنهم في كتب الأخباريين .

وأما النصارى العرب ، فقد كانوا يتبعون التقويم الشرقية ، ويسلكون على الشهور السريانية المعروفة ، وعلى وفق شعائر الكنيسة ، ويختلفون بأعيادهم على وفق ما ثبت عندهم في كنيستهم . وقد أشير إليها في بعض الشعر الجاهلي وفي كتب الأخباريين .

## الفصل الرابع والثلاثون بعد المئة

### القاويم والتاريخ

القاويم :

هناك نوعان من السنين : سنين بنيت على أساس الشهور القمرية التي ثبتت بمراقبة القمر ، وستهانـا سنة قمرية Lunar Year . والتقويم الذي يقوم عليه تقويم قمري . وسنون بنيت على أساس شمسي Solar Year . والتقويم القائم عليها ، تقويم شمسي ، شهوره ثابتة لا تتغير . وعدة الشهور عند العرب اثنا عشر شهرـا ، سواء كانت السنة شمسية أم قمرية <sup>١</sup> .

ولقد قلت فيها سبق : يظهر من النصوص الجاهلية ، أن أهل العربية الجنوبيـة كانوا يعملون بالتقويم الشمسي ، وفقاً للمواسم الزراعية ، لأنـنا نراهم في هذه النصوص يزرون ويبذرـون وبمحضـون في شهور معينة ، ويدفعـون الضرائب في مواسم ثابتـة ، كما نرى أن أسماء الشهـور ، عندـهم ذات معانـ متصـلة بالطبيـعة ، مثل الجفاف ، والمطر ، والحر ، والبرد ، والربيع ، والخريف ، ولو كانت سنتـهم سنة قمرية مختـصة ، لما سـمـوا أشهرـهم بأسمـاء اشتـقت من الحر والبرد واعـتدـال الجوـ وحلولـ الخـريف ، إذـ لا يـعـقـلـ وقـوعـ المعـانـي المـذـكـورـةـ معـ تـغـيرـ الشـهـورـ وـعدـمـ استـقـرارـهاـ عـلـىـ حـالـ منـ الأـحوالـ . إـلاـ أنـ تـوارـيـخـهـمـ بالـسـنـةـ الشـمـسـيـةـ ،

---

١. اليعقوبي (١٧٧/١) .

لم ينفعهم من التقويم القمري في أمورهم الاعتبادية ، كما في وفاء الديون ، وأخذن الديات ، والبيع والشراء ، والأسفار ، لوضوح الشهر القمري ، وامكان حساب الأهلة وضبط عددها بسهولة ويسر ، فيسهل على المتعاقدين العاقد بمحض عدد الأهلة ، أما الزراعة ، وتربية الحيوان ودفع الفرائض وما شابه ذلك ، فلا صلة لها بالأهلة ، وإنما صلتها بالمواسم والفصول ، وهي من مكونات السنة الشمسية . إذن كان العرب الجنوبيون يؤرخون ويعملون بتقويمين : تقويم قري ، وآخر شمسي .

استعمل العرب الجنوبيون التقويم الشمسي في الزراعة ، واستعملوا التقويم القمري للأغراض التي ذكرتها ، والتقويم النجمي ، أي التقويم الذي يقوم على رصد النجوم لأغراض دينية وللوقوف على الأنواء الجوية لما لها من صلة بالزراعة وبالحياة العامة<sup>١</sup> .

ويتبين من النصوص الشمودية واللحيانية والصفوية ، ومن النصوص النبطية ، ومن نص المارة ، ان أصحابها كانوا يتعاملون وفقاً للتقويم الشمسي في الأمور التي لها اتصال مباشر بالطبيعة ، ووفقاً للتقويم القمري في الأمور الأخرى ، لسهولة ضبط الأهلة ، وتحقيق العقود بمحضها . واذا كان الحال على هذا المنوال عند هؤلاء وعند العرب الجنوبيين ، فاما كانا القول ان بقية المحاجلين ، من لم يترکوا لنا نصوصاً ، كانوا يتبعون التقويمين كذلك ، جرياً على سنته الناس في ذلك العهد ، ومنهم الأعاجم ، من اتباعهم التقويمين المذكورين في تنفيذ العقود والالتزامات وفي ضبط الأزمات .

وما يؤيد اتباع العرب الشماليين للتقويم الشمسي ، ما ذكره الكتاب اليوناني واللاتين ، من أن العرب كانوا يقيمون طقوسهم الدينية ويتبعون شعائرهم المقدسة كالحج الى المحجات في أوقات ثابتة ، فقد ذكر (أفيقانيوس) ، ان للعرب شهرآ يحجون فيه الى محاجاتهم ، ويقع ذلك في شهر (تشرين الثاني)<sup>٢</sup> ، كما

Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsüdarabischen, Band., 2 S. 145, Sab. Denkm., S. 21, Glaser, Zwei Inschriften, S. 47, Note 7, ZDMG., 46, 322, Glasser, Die Sternkunde der Südarabischen Qabylen

in SBWA., Winckler, AOF., 2, S., 351.

Epiphanius, Haer., 51, 24, Reste, S. 85, 100, Ency. Religi., 10, p. 10.

ذكر (بروكوبيوس) ، ان العرب كانوا قد جعلوا شهرين في السنة حرماً لآهليهم لا يغزوون فيها ولا يهاجمون بعضهم بعضاً ، ويقعان في تموز وآب<sup>١</sup> ، وذكر (فوئيروس) ، أن العرب كانوا يحتفلون مرتين في السنة بالحج الى معبدتهم المقدس: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف ، وذلك لمدة شهرين<sup>٢</sup> . وفي هذه الاشارات الى الأشهر المقدسة ، والى كونها ثابتة لا تتغير بتغير المواسم ، دلالة على سير العرب في تقويمهم ، وفقاً للتقويم الشمسي .

وقد عرف التاريخ عند الجاهلين ، بدليل عشرة الباحثين على نصوص كبيرة مؤرخة . وقد زعم علماء اللغة « أن التاريخ الذي يورنه الناس ليس بعربي شخص ، وأن المسلمين أخذوه من أهل الكتاب »<sup>٣</sup> ، وفي كلامهم صحة ، إذا كان قصدهم التاريخ العام للعالم ، الذي يبدأ وفقاً لما جاء عند أهل الكتاب من الخلق وظهور آدم فالأنبياء والرسل والملوك الى أيامهم ، وفيه خطأ ، إذا قصدوا به ، التاريخ مطلقاً ، أي تثبيت الوقت ، على نحو ما نفهم من قولنا أرخت الحادث ، وأرخت الكتاب ، فقد عرف التاريخ عند الجاهلين ، بدليل وروده في نصوصهم . واستعماهم لفظة (بورخ) ، للتاريخ . وكلمة (ورخ) ، من الكلمات الواردة بكثرة في النصوص ، ومنها لفظة (توريخ) و (ورخ) بمعنى أرخ في عريتنا . ولفظة (أرخ) نفسها هي من هذا الأصل .

وقد عرف (الجاحظ) أن الجاهلين كانوا يورنون إذ قال : « و كانوا يجعلون الكتاب حفرأ في الصخر ، و نقشاً في الحجارة ، و خلقة مركبة في البناء ؛ فربما كان الكتاب هو الثاني » ، وربما كان الكتاب هو الحفر ، إذا كان تاريناً لأمر جسم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعدة يرجى تفعها ، أو احياء شرف يريدون تحليل ذكره ، أو تطويل مدته ، كما كتبوا على قبة غمدان ... وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشرق ، وعلى الأبلق الفرد ... يعمدون الى الأماكن المشهورة ، والمواضع المذكورة ، فيضطرون الخط في أبعد المواقع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ،

وأجدر أن يراها من مرّها ، ولا تنسى على وجه الدهر ١ .

ثم قال : « وكانت العرب في جاهليتها تختال في تخليدتها ، بأن تعتمد ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المففى ، وكان ذلك هو ديوانها ... ثم إن العرب أحببت أن تشارك العجم في البناء ، وتتفرد بالشعر ، فبنيوا غمدان ، وكعبة نجران وقصر مارد ، وقصر مأرب ، وقصر شعوب ، والأبلق الفرد ، وفيه وفي مارد ، قالوا : تمرد مارد وعز الأبلق ، وغير ذلك من البنيان » ٢ . ثم تعرض لأهمية الكتب ولشأنها في تخليد الذكرى، فقال : « والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر ، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم ، وأن يعيروا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المسدن وأكثر المحسون ، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في أيام الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان ، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان » ٣ .

وتتناسب أساليب التاريخ مع درجة عقلية المؤرخ ومستواه العقلي ، لذلك نجد التواريخ بالأمور العادلة البسيطة بين الرعاة والأعراب والسوقة من الناس ، بينما نجد غيرهم من هم فوقهم درجة في العقل والثقافة يؤرخون بمناسبات لها شأن وأهمية ، مثل القاوم العامة المهمة ، الثبات بعيداً ، حيث يؤرخ بموجبهما .

وقد تبين لنا من دراسات نصوص المسند ، أن أصحابها استعملوا جملة طرق في تأريخهم للحوادث ، وتبينت زمانها ، فأرجعوا حكم الملوك ، فكانوا يشيرون إلى الحادث بأنه حدث في أيام الملك فلان ، من غير تعينه بينين ، وذلك كما في هذا المثل : « يوم اليفع يشر ملك معن » ٤ ، أي « يوم اليفع يشر ملك معن » ، و « يوم يذمر ملك وترال » ٥ . ومعناهما في « أيام حكم اليفع يشر ملك معن » ، أو « وكان ذلك في حكم اليفع يشر ملك معن » بالنسبة للفقرة الأولى و « في أيام يذمر ملك وترابل » ، أو « في حكم يذمر ملك ووتر ايل » ،

١ الحيوان (٦٨/١) ، المحسن والاضداد (٣) ، (مجلس الكتابة والكتب) .

٢ الحيوان (٧٢/١) .

٣ الحيوان (٧٣/١) .

REP. EPI. 2869.

٤ المصدر نفسه الرقم ٢٧٤٠ ، p. 28

٥

أو « وكان ذلك في أيام حكم يذمر ملك وترابلس »، بالنسبة للجملة الثانية . فلم يذكر النص السنة التي دون فيها النص ، أو أرخ فيها النص من سني حكم الملك المذكور . وهي سنون قد تكون قصيرة ، وقد تكون طويلة . وللفظة ( يوم ) هي بمعنى : ( حكم ) و ( أيام ) .

وقد يورخ حكم موظف من كبار موظفي الحكومة من حلة درجة ( كبير ) ( كبير ) ، مثلاً ، أو غيرها من الدرجات العالية في الحكومة أو في المجتمع . كما أرخوا بأيام الرؤساء والسدادات وأرباب الأسر . وليس العرب الجنوبيون بدعاً في هذا الباب ، فقد كان غيرهم يورخ بهذه الطرق ، وذلك قبل توصلهم الى اتخاذ تقويم واحد ثابت له بداية معينة تورخ به .

والغالب ذكر اسم الشهر مع حكم الكبير أو الرئيس أو أي إنسان آخر ، كما في هذا المثال : « بورخ ذو طنفت ذ كبير أيام ذو عرقن »<sup>١</sup> ، ومعناها « بشهر ذو طنفت من كبيرة أيام ذو عرقن » ، وبعبارة أوضح « بشهر ذو طنفت من حكم الكبير أيام ذو عرقن » ، و ( ذو طنفت ) ، اسم شهر من الشهور .

والكتابات المؤرخة بهذه الطريقة ، على أنها أحسن حالاً في نظرنا من الكتابات المهملة التي لم يورخها أصحابها بتاريخ ، إلا أنها قلماً تستفيد منها فائدة تذكر . إذ كيف يستطيع مؤرخ أن يعرف زمانها بالضبط ، وهو لا يعرف شيئاً عن حياة الملك الذي أرخت به الكتابة ، أو حكمه ، أو زمانه ، أو زمان الرجال الذين أرخ بهم ؟ لقد فات أصحاب هذه الكتابات أن شهرة الإنسان لا تدوم ، وأن الملك فلاناً ، أو رب الأسرة فلاناً ، أو الرعيم فلاناً سيensi بعد أجيال ، وقد يصبح نسيماً منسياً ، لذلك لا يجدي التاريخ به شيئاً ، وذاكرة الإنسان لا تعي إلا الحوادث الجسمانية . لهذا السبب لم تستفاد من كثير من هذه الكتابات المؤرخة على وفق هذه الطريقة ، وإن استفادنا منها في أمور أخرى لا صلة لها بثبات تواريخها .

وقد تجمعت لدينا أسماء أشخاص أرخ الناس بأيامهم لأنهم كانوا أصحاب جاه ونفوذ ، لكننا لا نعرف اليوم من أمرهم شيئاً ، لأن النصوص لم تذكر شيئاً

عنهم ، وعن أيامهم، منهم : (عم على) من (آل رشم) من عشيرة (ققعن)<sup>١</sup> ، و (موهيم ذ ذرحن) ، أي (موهب ذو ذرحان)<sup>٢</sup> . و (غوث ايل) من (آل بيحان) (بيحن)<sup>٣</sup> . و (شهر يجر)<sup>٤</sup> ، و (ذران) (ذرغان)<sup>٥</sup> ، و (اب على بن شحر) ، أي (أبو على) من قبيلة (شحر)<sup>٦</sup> . وكل هؤلاء الذين أرخ بهم هم من قتبان .

ومن الأسر التي أرخ بأيامها أسرة (نبط) و (مبحظ)<sup>٧</sup> و (حزفوم كبر خلل) (حزفر كبر خليل) و (حلمت) و (فضصم)<sup>٨</sup> .

كما تجمعت لدينا أسماء عدد من الأشهر في اللهجات العربية الجنوبية المختلفة ، تحتاج إلى دراسة لمعرفة ترتيبها بالنسبة للمواسم والسنن . ويظهر أنهم كانوا يستعملون أحياناً مع التقويم الذي يورخ بحكم الرجال ، تقويداً آخر هو التقويم الحكومي ، وتختلف أسماء شهور هذا التقويم عن أسماء شهور التقاوم التي تورخ بالرجال<sup>٩</sup> .

وقد تغير الحال في كتابات المسند منذ سنة (١١٥) قبل الميلاد ، على رأي غالبية الباحثين ، أو السنة (١٠٩) على رأي (ريكمنس) ، إذ أرخت بتقويم ثابت أرخت موجبه إلى قبيل الإسلام . مبدأه سنة سقوط حكومة سبا وتكوين حكومة (سبا وذى ريدان) ، على رأي بعض علماء العribيات الجنوبية ، فارخ

١ السطر الثاني والعشرون من النص المنشور في :

Rep. Epig., VI, I, p. 218, Glaser, Alt. Nachr., S. 162. ff., Grundriss, S. 33,  
Glaser 2566.

٢ راجع نهاية الفقرة ٦ وأول الفقرة ٧ من النص Rhodokanakis, K.T.B., I, S. 8. ff.

Rep. Epig., 3693, Tome VI, II, p. 275.

Rhodokanakis, K.T.B., I, S. 122. f., Rip. Epig. 3663, Tome VI, II, p. 259.

SE. 80a, Glaser 1398, 1809, Rep. Epig. 3879, Vol. VI, II, p. 334.

Halevy 504, Rhodokanakis, K. T.B., I, S. 34, II, S. 7.

A.F.L. Beeston, Epigraphic South Arabian Calenders and Datings, London, 1956, A.G. Lundin, Eponymat Sabéen et Chronologie Sabéene, 26, Congr. Intern. des Orientalistes, Conf. Prés. par la délégation de l'URSS, Moscou, 1963, Le Muséon, 1964, 3-4, p. 429.

Le Muséon, 1964, 3-4, p. 496.

Rhodokanakis, KTB., I, S. 81. f.

بـهـذـاـ الحـادـثـ ، وـلـاـ سـيـاـ فـيـ الـكـتـابـاتـ الرـسـمـيـةـ المـاـخـرـجـةـ ١ـ .ـ وـيـرـىـ (ـبـيـسـنـ)ـ أـنـ مـبـدـأـ هـذـاـ التـقـوـيـمـ غـيرـ مـضـبـطـ ،ـ وـأـنـ مـبـدـأـ فـيـاـ بـيـنـ السـنـةـ ١١٨ـ -ـ ١١٠ـ قـبـلـ المـيـلـادـ .ـ وـيـرـىـ أـيـضـاـ أـنـ الـعـرـبـ الـجـنـوـبـيـنـ لـمـ يـؤـرـخـواـ بـهـ فـيـ هـذـاـ الـعـهـدـ ،ـ لـأـنـ النـصـوصـ الـتـيـ تـعـودـ إـلـىـ الـقـرـنـ الـأـوـلـ قـبـلـ المـيـلـادـ كـانـتـ لـاـ تـزـالـ تـوـرـخـ بـالـتـارـيـخـ الـقـدـيمـ ،ـ أـيـ بـالـتـارـيـخـ الـغـيـرـ الثـابـتـةـ ،ـ مـثـلـ التـارـيـخـ بـأـيـامـ الـمـلـوـكـ وـالـكـبـراءـ وـالـكـهـنـمـ وـأـمـاثـلـهـمـ ،ـ فـلـوـ كـانـواـ يـؤـرـخـونـ بـهـ لـاـ أـهـلـوـهـ .ـ وـيـرـىـ أـنـهـمـ اـنـجـاـ أـرـخـواـ بـهـ بـعـدـ ذـلـكـ ،ـ فـيـ حـوـالـيـ الـقـرـنـ الـثـالـثـ لـلـمـيـلـادـ .ـ

وـقـدـ سـاعـدـنـاـ هـذـاـ التـقـوـيـمـ عـلـىـ تـبـيـيـنـ تـوـارـيـخـ عـدـدـ مـنـ النـصـوصـ أـرـخـتـ بـمـوجـبـهـ ،ـ وـعـلـىـ مـعـرـفـةـ تـارـيـخـ هـذـهـ الـحـقـبـةـ الـتـيـ أـرـخـتـ بـهـ .ـ وـلـكـنـ النـصـوصـ الـمـؤـرـخـةـ قـلـيلـةـ الـعـدـدـ ،ـ ثـمـ إـنـنـاـ لـاـ نـمـلـكـ نـصـاـ وـاحـدـاـ مـنـ اـبـدـاءـ الـعـهـدـ بـالـتـارـيـخـ بـهـ ،ـ كـذـلـكـ لـاـ نـمـلـكـ نـصـوصـاـ مـؤـرـخـةـ يـعـودـ عـهـدـهـاـ إـلـىـ قـبـيلـ الـمـيـلـادـ ،ـ أـوـ إـلـىـ الـقـرـنـ الـأـوـلـ أـوـ الـثـانـيـ مـنـهـ .ـ

وـأـقـدـمـ نـصـ مـؤـرـخـ بـهـذـاـ التـقـوـيـمـ ،ـ هـوـ النـصـ الـمـوـسـومـ بـ CIH 46ـ ،ـ وـتـارـيـخـهـ سـنـةـ (ـ٣٨٥ـ)ـ مـنـ هـذـاـ التـقـوـيـمـ ،ـ وـهـوـ يـساـوـيـ السـنـةـ (ـ٢٧٠ـ)ـ أـوـ (ـ٢٧٦ـ)ـ لـلـمـيـلـادـ .ـ وـهـوـ مـنـ أـيـامـ الـمـلـكـ (ـيـسـرـمـ يـهـنـمـ)ـ (ـيـاسـرـ يـهـنـمـ)ـ (ـشـمـرـ يـهـنـمـ)ـ الـثـالـثـ (ـشـمـرـ يـهـرـعشـ)ـ .ـ وـيـرـادـ بـهـاـ (ـيـاسـرـ يـهـنـمـ)ـ الـثـانـيـ وـ (ـشـمـرـ يـهـرـعشـ)ـ الـثـالـثـ عـلـىـ رـأـيـ (ـفـوـنـ وـزـمـنـ)ـ ٢ـ .ـ وـنـصـ آـخـرـ لـلـمـلـكـ (ـيـاسـرـ يـهـنـمـ)ـ ،ـ تـارـيـخـهـ سـنـةـ (ـ٢٧٤ـ)ـ أـوـ (ـ٢٨٠ـ)ـ لـلـمـيـلـادـ .ـ وـالـنـصـ الـمـوـسـومـ بـ MM 150 = CIH 448ـ ،ـ وـهـوـ يـساـوـيـ سـنـةـ (ـ٢٨١ـ)ـ أـوـ (ـ٢٨٧ـ)ـ بـعـدـ الـمـيـلـادـ .ـ

وـهـنـاكـ نـصـوصـ مـؤـرـخـةـ أـخـرىـ مـنـ أـيـامـ الـمـلـكـ (ـشـمـرـ يـهـرـعشـ)ـ ،ـ وـنـصـوصـ مـنـ بـعـدـ أـيـامـهـ حـتـىـ أـيـامـ تـمـلـكـ الـجـبـشـةـ لـلـيـمـنـ .ـ أـمـاـ مـاـ بـعـدـ أـيـامـ الـجـبـشـةـ فـيـ الـيـمـنـ ،ـ أـيـ أـيـامـ اـسـتـيـلـاءـ الـفـرـسـ عـلـيـهـاـ ثـمـ أـيـامـ دـخـولـهـاـ فـيـ الـإـسـلـامـ ،ـ فـلـمـ يـصـلـ إـلـيـنـاـ مـنـهـاـ نـصـ ،ـ لـاـ مـؤـرـخـ وـلـاـ غـيـرـ مـؤـرـخـ ٣ـ .ـ

Mordtmann und Eugen Mittwoch, Sabäische Inschriften, Hamburg, 1931,  
S. I.

١

Le Muséon, 1964, 3-4, p. 484, Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 353.  
Mordtmann und Eugen Mittwoch, Sabäische Inschriften, Hamburg, 1931,  
S. I.

٢

٣

وآخر هذه النصوص المؤرخة ، هو النص الموسوم بـ CIH 525 ، وتاريخه سنة (٦٦٩) من التاريخ الحميري ، وهو يقابل سنة (٥٥٤) للميلاد . ويمكن أن نقول إن هذا النص هو آخر نص مؤرخ غير عليه لا في المسند وحده ، بل في كل اللهجات العربية الأخرى ، وهو أقرب تلك الكتابات عهداً بالاسلام .

ويلاحظ أن بعض الكتابات المؤرخة تذكر لفظة (بورخ) أو (ورحسن) (ورخ) ، ثم تذكر بعدها اسم الشهر الذي أرخ النص به ، ثم عدد السنين بالنسبة للتقويم . ويراد بها معنى (شهر) ، وذلك كما في هذه العبارة : «ورحسن ذو سحر ..» ، أي «في شهر ذو سحر ..» ، و «بورخ ذو خرف ..» ، أي « بشهر ذو الخريف ..» ، أو «بورخ ذمعن» ، أي «بشهر ذي معان ..» ، « بشهر ذي مدين » ، « بشهر ذي معون » ، وهنالك كتابات مؤرخة استعملت لفظة «ورخهو» بمعنى (وتاريخه) . كما في هذه الجملة : «ورخهو ذو لثني وست مام »<sup>١</sup> ، أي « وتاريخه لاثني وستين وست مائة » ، وبعبارة أوضح : « وتاريخه لسنة اثنين وستين وست مائة » . فاستعملت لفظة (ورخهو) اذن ، بالمعنى العلمي الذي نستعمله اليوم حين تورخ عهودنا ووثائقنا ، فتقول : (أرخت بـ ..) أو (تأريخها ..) .

وترد لفظة (خرفن) ، أي سنة قبل عدد السنين في بعض النصوص ، مثل: « خرفن ذو ثلاثة واربعي وخمس ماتم »<sup>٢</sup> ، ومعناها : « السنة الثالثة والأربعين بعد الخامس مائة » ، وقد تلحق لفظة (خرفتم) ، بعد عدد السنين . كما في هذا المثال : « ورخهو ذو حجتن ذو اربعين وست ماتم خرفتم »<sup>٣</sup> . ومعناه : « تاريحة أو شهره ذو الحجة لأربع وسبعين سنة». وتقابل هذه السنة سنة (٤٨٩) أو (٤٩٥) للميلاد.

ويلاحظ أن النصوص السبئية المؤرخة قد أرخت بتفصيل : تقويم عرف بـ ( خريف بن خريف نبط ) ، ( خرفتم بن خرف نبط )<sup>٤</sup> ، أي بـ ( سنين

CIH 541, Glaser 618.

١

Ryckmans 534, Beeston, p. 57.

٢

CIH 621, Beeston, p. 37, Glasr, Die Abessinier in Arabien und Afrika, 1896,

٣

S. 152 ,Zwei Inschriften, S. 86.

٤

REP. EPIGR. 4196.

٥

من سنة نبط ) ، ومعناه أن هذه السنين المذكورة ، هي وفقاً للتقويم الجاري على سني ( نبط ) ، أو تقويم ( نبط ) ، وتقويم آخر قدّرت السنين فيه وفقاً لبني ( مبحض بن أبْحَض ) ، ( ذ بْخْرْفَنْ ذل بن خرف مبحض بن أبْحَض )<sup>۱</sup>. ويشير ذلك إلى وجود مبدأين للتاريخ عن السنتين : التاريخ بتقويم ( نبط ) ، والتاريخ بتقويم ( مبحض بن أبْحَض ) . وذلك في الكتابات التي تعود إلى القرن الثالث ونهايته لما بعد الميلاد . كالكتابات التي تعود إلى أيام ( ياسر بهنم ) و ( شمر برعش ) ، أما الكتابات المتأخرة ، فقد اختفت منها هاتين التسميتين ، ويظن أنهم أخذوا بالتاريخ بتقويم ( مبحض ) ولذلك اهملوا الإشارة إلى الاسم ، لأنهم كان معلوماً عندهم . ويرى ( بيستان ) أن الفرق بين التقويمين هو قرابة نصف قرن أو ثلاثة أرباع قرن<sup>۲</sup> .

وأسلوب التوريخ في النصوص السبئية المتأخرة هو أن تذكر لفظة ( ورخن ) أولاً ، ثم اسم الشهر من بعده ، ثم السنة ، كأن يقول : « ورخن ذ ملنون ذل ۳۱۶ خرقم بن خرف نبط »<sup>۳</sup> ، أي « وبشهر ذ ملنون لـ ۳۱۶ سنة من سنة نبط » ، أو « وبتاریخ ذ ملنون من سنة ۳۱۶ من سني نبط » ، أو مثل « ورخن ذ داون ذ تحرفين ذل اربعت وسبعين وخمس ماتم » ، أي « وشهره ذ داون للسنتين التي هي ۵۷۴ »<sup>۴</sup> ، أو « وتاریخه ذ داون للسنة ۵۷۴ » ، ومثل : « خرفن ذل ثلثت واربعي وخمسين ماتم » ، أي « سنة ۵۴۳ »<sup>۵</sup> ، ومثل : « وخر فهو ذ حجتن ذل اربعي وست ماتم خرفن »<sup>۶</sup> ، أي « وشهره ذو الحجة لأربعين وستمائة سنة » ، أو « وتاریخه ذو الحجة المافق لـ ۶۴۰ سنة مضت » ، ومثل : « وخر فهو ذل ثي وستي وست ماتم »<sup>۷</sup> ، أي « وتاریخه لاثنين وستين ومائة »<sup>۸</sup> .

---

CIH 46, 448, REP. EPIGR. 3866, Beeston, p. 36.

Beeston, p. 36.

REP. EPIG. 4196.

Ryckmans 520.

Ryckmans 534.

CIH 621.

Ryckmans 506.

Beeston, p. 73.

ومن الغريب ان أهل الأخبار قد أغفلوا الاشارة الى هذا التقويم فلم يذكروا عنه شيئاً ، ولم يشيروا الى أن العرب الجنوبيين كانوا يؤرخون به ، مع أهميته وكونه تقويماً رسمياً .

هذا ، وان في استطاعتنا القول بأن اليمن لم تسر رسمياً على التقويم العربي او التقويم الصراني ، حتى في أيام احتلال الجيش الآخر لليمن ، او في أيام استيلاء الفرس عليها ، وذلك بدليل توريخ أبرهة عامل الجبهة على اليمن ، وهو نصراني ، نصوصه بالتقويمالياني المستعمل في اليمن الذي تحدثت فيما سلف عن مبدئه ، مع أنه حاكم اليمن وممثل الجيش فيها وهو نصراني . وبدليل توريخ عدد من كتابات المسند المتأخرة من عهد لا يبعد كثيراً عن الاسلام بهذا التقويم . وليس بالتقويمين المذكورين ، أو بأي تقويم آخر من التقاوم المستعملة عند الشرقيين .

ولكن ما ذكره لا يعني بالطبع عدم اهتمام توريخ يهود اليمن أو نصاراها أو غيرهم بتقاوم أخرى ، مثل التقويم العربي أو الميلادي ، أو غيرهما . وما أقوله هو عن التقويم الرسمي المدون في المسند ، وربما سيطر في المستقبل على نصوص تعود إلى عهد احتلال الجيش لليمن ، يرد فيها التاريخ بأيام الجيش فيها ، أو بالتأريخ الرسمي الذي كان يتبعه الأسباب في مملكتهم .

أما العرب الشماليون ، عرب العراق وبادية الشأم وببلاد الشأم ، فلم يرد علينا من نصوصهم المؤرخة إلا عدد محدود ، منها نص النهارة الذي يعود عهده إلى السنة (٣٢٨) للميلاد . وهو مؤرخ بتقويم بصري ، وبصري مرکز منهم ، كان يقصده عرب الحجاز للاتجار وقد وصل اليه النبي . وكان عرب هذه المنطقة يؤرخون به . ويبدأ هذا التقويم بدخول بصري في حوزة الروم سنة (١٠٥) أو (١٠٦) للميلاد ، أي السنة التي تم فيها القضاء على حكومة النبط والحاقد (بترا) بـ (الكرة العربية) <sup>١</sup> .

ولهذا فإذا أردنا تحويل سنة من السنين التي أرخ بها وفقاً لتقويم بصري ، فعلينا اضافة الرقم (١٠٥) أو (١٠٦) على سني تقويم بصري ، فيكون حاصل

الجمع السنة وفقاً للتقويم الميلادي تقريباً . فتأريخ نص النهارة هو سنة (٢٢٣) من تقويم بصرى ، وقد أضفنا اليه الفرق وهو (١٠٥) ، فصار الحال (٣٢٨) ، وهو ما يقابلها من سني الميلاد .

وقد أرخت كتابة (حران) اليونانية بسنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطية الأولى ، وهي تقابل سنة ٥٦٨ للميلاد ، والأندقطية هي دائرة ثمانية سنتين عند الرومانيين ، وكانت تستعمل في تصحيح تقويم السنة . أما النص العربي فقد أرخ سنة (٤٦٣) ، بعد مفسد خير بعام . ويراد بجملة : « بعد مفسد خير بعمر » ، غزو قام بها أحد أمراء غسان أو غيره خير ، وذلك في رأي الأستاذ (ليمان)<sup>١</sup> . وعندي أن السنة (٤٦٣) ، التي أرخ بها النص العربي ، هي من سني تقويم بصرى ، بدليل أننا لو أضفنا إليها الرقم (١٠٥) المذكور ، صار الحال (٥٦٨) ، وهو كتابة عن سني الميلاد ، المقابلة لسني بصرى . وعلى ذلك يكون تدوين هذا النص قد تم بعد غزو خير بعام ، أي أن هذا الغزو قد وقع سنة (٥٦٧) للميلاد . وقد كان (الحارث بن جبلة) يحكم (غسان) آنذاك ، فتصدق رواية (ابن قتيبة) حينئذ التي تذكر أنه غزا خير ، وسيا أملاها ثم اعتقهم بعدما قدم الشام<sup>٢</sup> .

وقد استعمل التقويم الذي يؤرخ بحكم (الاسكندر) تقوياً عند اليونان وفي بلاد الشام ، وعند عرب بلاد الشام أيضاً . ومبداه الأول من شهر نيسان لسنة (٣١١) قبل الميلاد<sup>٣</sup> ، ونجده أثر التأريخ بهذه التقويم في الروايات التي يروها أهل الأنجوار عن عرب بلاد الشام وال العراق . وقد يقى الناس يؤرخون به إلى أن حل التقويم الميلادي محله ، فتسى ذلك التقويم . وذكر (السعودي) أن ما بين الاسكندر إلى المسيح ثلاثة سنة وتسع وستون<sup>٤</sup> .

وقد كان الصفويون مثل غيرهم يؤرخون بالحوادث التي يكون لها شأن عندهم ،

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١٨/١) ، السامية (١٩٢) ، Rivista degli stud. Orientali 1911, p. 195.

٢ المعارف (٦٤٢) .

Die Araber, II, S. 236, Hastings, extra Volume, (1904), p. 483.

٣

مروج الذهب (٢/١٨٣ وما بعدها) ، (ذكر شهور السريانيين) .

٤

مثل حروبهم بعضهم مع بعض ، أو حروبهم مع غيرهم مثل النبط أو الروم . وقد أرخ بعضها بحوادث ذات صفة خاصة وعائلية ، مثل ( سنة قتله خاله ) ، أو ( سنة وفاة والده ) . وهي حادث لا يمكننا الاستفادة منها في استنباط تاريخ منها ؛ لأننا لا نعرف من أمرها شيئاً . غير أن هناك نصوصاً مؤرخة أفادتنا بعض الإفساد في الوقوف على التوقيت عند الصفوين . ففي نص لرجل اسمه ( انعم بن فحش ) ، ما يفيد أنه استولى على غنائم ( سنة الحرب مع النبط ) . ويقصد بسنة الحرب مع النبط ، السنة التي قضى فيها الرومان على مملكة النبط ، وهي سنة ( ١٠٥ ) أو ( ١٠٦ ) للميلاد . وقد صارت هذه السنة مبدأً للتاريخ في (بصرى) ، وعند العرب الصفوين<sup>١</sup> .

ولدينا نص صفوى آخر ، أرخ بـ « سنت حرب هدى ال روم » ، أي « سنة محاربة المدينين الروم » ، أو « سنة حرب المدينين الروم » . ويرى (بيان) انه قد توصل الى ضبط تاريخ هذه الحرب . وهناك نص أرخ بـ « سنت قتل ال حمد » ، ويفطن انه يشير الى معركة دارت على قبيلة تسمى (آل حمد) . وصاحب النص رجل من قبيلة تسمى (الرحبة)<sup>٢</sup> ، ولا زال الأعراب يورخون بأيام قتالهم بعضهم مع بعض .

ونحن لا نعلم اليوم كيف كان يورخ أهل الحيرة أو الفاسنة ، لعدم ورود نصوص مدونة عن ذلك سوى ما ذكرته من نص الماء المؤرخ بموجب تقويم بصري . ولا أستبعد احتمال استعمال أهل الحيرة التقاوم العراقية أو الفارسية التي كانت شائعة عندهم في ذلك العهد أساساً للتاريخ . وقد يكون من بينها التقريم النصراني بالنسبة للنصارى ، وينطبق ذلك على نصارى الفاسنة أيضاً ، كما لا أستبعد استعمال الفاسنة لتقويم الروم . وللتقاوم العربية المألوفة التي تستعمل الأساليب المحلية في ثبيت التواريخ . ويفظهر من تاريخ ( ابن الكلبي ) لحوادث الحيرة وعرب العراق بتقويم الساسانيين لتواريخ ملوكهم ، ان أهل الحيرة كانوا قد دوتوا تواريχهم بموجتها ، ولكن هذا لا يمنع من احتمالأخذ ابن الكلبي أقواله في تواريχهم من تواريχ الفرس ومن رواياتهم رأساً ، فلا يكون عندذلك ذكره

١ رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ( ص ١٠٣ ) .

٢ العرب في سوريا قبل الاسلام ( ص ١٠٥ ) .

لتاريخهم دليلاً على تاريخ أهل الخبرة بتقويم الفرس .

ويروي أهل الأخبار أن العرب كانوا يؤرخون بالحوادث العظام التي تحدث لهم ، من ذلك عام الخنان . وهو عام وقع فيه كما يقولون مرض خطير عضال فتث الناس وبالإبل ، فأرخوا به ، وروروا في ذلك شرعاً للنابغة الجعدي<sup>١</sup> . وقد وقع زمن الخنان في عهد المنذر بن ماء السماء ، وماتت الإبل منه . فصار ذلك تاريخاً لهم<sup>٢</sup> . ويظهر أنه كان وباء فتك الناس وبالإبل ، وانتشر في العراق وفي نجد ، فأرخ به لأهميته بالنسبة لهم ، والتاريخ بالأوبئة شيء مألف ، وأهل بغداد كانوا يؤرخون بظواهرها وقع عندهم في عهد العثمانيين وقبل الحرب العالمية بسنوات ولا زال الشيء يؤرخون به .

وكان أهل مكة يؤرخون بما يقع عندهم من أحداث جسمية ، فإذا أرخوا بمحادث ومضى عهد عليه ، ووقع لهم حادث آخر أكثر أهمية وشعبية منه ، أرخوا به . فتوالت لهم عدة تواريХ ، نسخت بعضها بعضاً ، فأرخوا كما يذكر أهل الأخبار بعام رئاسة عمرو بن ربيعة المعروف بعمرو بن حني ، وهو الذي يقال انه بدل دين ابراهيم ، وحمل من مدينة البلقاء صنم هبّل<sup>٣</sup> ، وعمل إسافاً ونائلة ، وذلك كما يقال في زمن (سابور ذي الأكاف) . وأرخوا بعام موت كعب بن لؤي الى عام الفيل ، وهو الذي نهب فيه بنو يربوع ما ألقنه بعض ملوك حمير الى الكعبة من الكسوة ، ووثب بعض الناس على بعض في الموسم . ثم أرخوا بعام الغدر الى عام الفيل الذي أرخوا به<sup>٤</sup> . قال (الحافظ) : « ومن الخطباء القدماء كعب بن لؤي ، وكان يخطب على العرب عامة ، ويحضر كناة على البر ، فلما مات أكبروا مسنته ، فلم تزل كناة تورخ بمسوت كعب بن لؤي الى عام الفيل »<sup>٥</sup> .

١ فمن يحرص على كبرى فانني من الشبان أيام الخنان  
بلوغ الارب (٢١٤/٣ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٩/١٩٣) (خنن) ، بلوغ الارب (٣/٢١٤) ، اللسان (١٣/١٤٣)  
« صادر » ، (خنن) .

٣ الآثار الباقية (١/٣٤) .

٤ البيان والتبيين (١/٣٥١) .

وذكر (اليعقوبي) ، أن قريشاً كانوا يؤرخون بالستين ، يؤرخون بعمر (قصي) بخلافه قصي عندهم ، فسنة وفاته هي مبدأ تارikhهم إلى أن كان عام الفيل ، فأرخوا به لاشهار ذلك العام<sup>١</sup> .

وذكروا أنهم أرخوا بعام وفاة هشام بن المغيرة المخزومي ، وهو والد أبي جهل ، وكان من رؤساء بي مخزوم ، وله صيت عظيم بمكة ، كما كان سيد قريش في زمانه<sup>٢</sup> : وقد مات بالرعاف ، ذكر أنه كان آخر من مات به من سادة قريش . وزعموا أن الرعاف من منايا (جحراهم) أيام جحراهم ، وأنه أهلكهم ، فأرخوا به . قال بشير بن الحمير الإيادي :

ونحن إِيَادُ عبادَ إِلَاهٍ  
ورهطٌ مُنْاجِيَهُ فِي سُلْطَمٍ  
ونحن ولَّةٌ حِجَابُ الْعَتِيقِ زَمَانُ الرَّعَافِ عَلَى جَحْرَهُمْ<sup>٣</sup>

وورد (زمان النخاع) في موضع (زمان الرعاف) ، وهو داء أيضاً ، زعم أنه فتك بجرهم ، فهلك منهم ثمانون كهلاً في ليلة واحدة سوى الشبان<sup>٤</sup> . فهو وباء أيضاً زعم أن الناس أرخوا به .

وأرخوا بعام الفيل ، بقوا يؤرخون به إلى أن أرخ بالهجرة<sup>٥</sup> . وقد ترك الحادث أثراً مهماً في ذاكرة قريش ، ولهذا ذكروا به في القرآن ، حتى يتعظوا به . ويجعلون عام الفيل في الثانية والأربعين من ملك كسرى أنور شروان ، وقبل ولادة النعمان بن المنذر المعروف بـ (أبي قابوس) بسنتين من سبع عشرة سنة ،

<sup>١</sup> اليعقوبي (٤/٤) ، (مولود رسول الله) .

<sup>٢</sup> بلوغ الارب (٣/٢١٥) ، (واتخذت قريش موته تاريخاً . وله يقول بجير بن عبد الله بن عامر بن سلمة بن قثيير :

فأصبح بطん مكة مقشعراً  
كأن الأرض ليس بها هشام ) ،  
المحيبر (١٣٩) .

<sup>٣</sup> الحيوان (٦/١٥١) .

<sup>٤</sup> الحيوان (٦/١٥١) .

<sup>٥</sup> بلوغ الارب (٣/٢١٥) .

وهي احدى وثمانين وثمانمائة لغبة الاسكتندر على دارا ، وهي سنة ألف وثلاثمائة وستة عشر لابتداء ملك بخت نصر<sup>١</sup> . وهو العام الذي ولد فيه الرسول على أغلب الروايات .

وأرخت قريش بيوم الفجر وبحلف القضول .

وكانوا يسمون السنين بالحوادث الخطيرة الجليلة التي تقع فيها . وقد فعل ذلك المسلمون أيضاً في صدر الإسلام ، فسموا كل سنة مما بين الهجرة والوفاة باسم مخصوص بها مشتق مما اتفق فيها للنبي . فسموا السنة الأولى للهجرة سنة الأذن ، والثانية سنة الأمر بالقتال ، والثالثة سنة التمحيص ، والرابعة سنة الترفقة ، والخامسة سنة الزلزال ، والسادسة سنة الاستئناس ، والسابعة سنة الاستغلال ، والثامنة سنة الاستواء ، والتاسعة سنة البراءة ، والعاشرة سنة الوداع، فكانوا يستغنون بذلك عن عددها من لدن الهجرة<sup>٢</sup> .

وأما الأعراب ، فتواريختهم برئاسة ساداتهم ، وبالأحداث التي تقع لهم من أفراح وأتراح ، ومن غزو أو نكبة ، وبالعوارض الطبيعية ، مثل سقوط مطر غزير ، أو انحساره مدة طويلة ، أو هزة أرضية ، أو ظهور جراد ، أو وقوع وباء ، وما أشبه ذلك من أمور . وهم على هذا النوع من التاريخ حتى اليوم .

وليس في الذي رواه أهل الأخبار عن أهل الجاهلية ما يشير إلى وقوف العرب على كتب في التاريخ يونانية أو لاتينية أو سريانية أو عبرانية ، أو على معربات لها . وليس في كل الذي ذكروه اسم مؤرخ من المؤرخين الذين نجلتهم الشعوب المذكورة . غير أن هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم وقوفهم على تواريخت تلك الأمم وأخبارهم ، ففي التصصن المنسوب إلى الجاهليين ، قصص يدل على أنه مأخوذ عن تلك الأمم مستورد منها . ثم إن أهل الأخبار أنفسهم أشاروا إلى نفر ذكروا عنهم أنهم نظروا في كتب الأساطير ورووا منها أخبار العجم ، وإلى نفر ذكروا عنهم أنهم نظروا في الكتب القديمة وحدقوا لغات أهل الكتاب ، ورووا في شعرهم أو في كلامهم شيئاً مقتبساً من قصص أهل الكتاب ، بضاف

---

١ امتناع الاسماع (٤/١) .

٢ الآثار الباقية (٣٤/١) .

إلى ذلك وجود الكنائس والنصرانية في بلاد العرب . والتاريخ ، ولا سيما تاريخ الكنيسة موضوع مهم من الموضوعات التي استعان بها المبشرون ورجال الدين في الوعظ والارشاد . ولا يستبعد أن تكون كتب التاريخ التي كتبها آباء الكنيسة ، مثل ( أوسيبيوس القيصري ) وأمثاله ، في جملة الكتب التي استعانت بها الكنيسة لفهم الناس تارikhها وتطورها وتطور العالم على نحو ما دونوه بالاستناد إلى التوراة والأنجيل .

## الفصل الخامس والثلاثون بعد المئة

### اللغات السامية

اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي التي يقال لها اللغة العربية الفصحى وكذلك سائر لهجات العرب الأخرى ، هي فروع من مجموعة لغات عرفت عند المستشرقين بـ ( اللغات السامية ). وقد أولع بعض المستشرقين بدراسة هذه اللغات ، فألقوا فيها كثيراً وأبحاثاً ، وأنشأوا مجلات عدة تفرغت لها ، وما زالوا يسعون في توسيعها وتنظيمها وتبويبها ، وقد عرفت دراساتهم هذه عندهم بالساميات « Semitistik » . وهي تتناول بالدرس كل اللغات التي يحشرها علماء الساميات في مجموعة اللغات السامية : تناولها بغض النظر عن وجود اللغة أو عدمه في هذا اليوم ، فالباحث علم ، والعلوم تتغنى بالمعرفة دون قيد بزمان أو مكان .

وينفق علماء الساميات مجهوداً كبيراً في المقارنة بين اللغات السامية وفي معرفة ميزات كل لغة ، وما بينها وبين اللغات الأخرى من فروق أو تطابق أو تشابه ، وبحال ينتمي في تقدم وتوسيع ، خاصة بعد أن أخذ هؤلاء العلماء بأساليب البحث الحديثة التي تعتمد على الفحص والاختبارات واللاحظات والتقدير .

وقد جاءت نظرية ( اللغات السامية ) من التسمية التي أطلقها ( شلوتر ) Schlözer على العبرانيين والفينيقيين ، والعرب والشعوب المذكورة في التوراة على أنها من نسل ( سام بن نوح )<sup>١</sup> . ولم تقم نظرية التوراة في حصر اولاد

1 Theodore Nöldeke, Sketches from Eastern History, Beirut, 1963, p. 1.

2 الاصحاح العاشر من سفر التكوين .

سام على أساس عرقي ، بل بنيت على عوامل جغرافية وسياسية ، وهذا أدخلت الميلامين واللودين « Lud » في أبناء (سام) ، مع أنها ليسا من الساميين ، ولا تشبه لقنهما لغة العبرانيين<sup>١</sup> .

والقرابة بين اللغات السامية واضحة وضوحاً بينما ، وهي أوضح وأمن وأوثق من الروابط التي تربط بين فروع طائفة اللغات المسماة باللغات الهندوأوروبية « Indogermanischen Spraden » أو الهندوجرمانية « Indoeurpaichen Sprachen » على حد تعبير بعض العلماء<sup>٢</sup> . وقد أدرك مستشرق القرن السابع عشر بهوله الواشاج التي تربط بروابط متينة ما بين اللغات السامية ، وأشاروا إليها ، ونوهوا بصلة القربي التي تجمع شملها . بل لقد سبّهم إلى ذلك علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين هداهم ذكاؤهم وعلمهم إلى اكتشاف تلك الواشاج والى التنوية بها . فقد تحدث عالم يهودي اسمه : ( يهودا بن قريش ) « Jehuda ben Koraish » ، وهو من عاشوا في أوائل القرن العاشر ، عن القرابة التي تجمع بين اللغات السامية ، وعن الخصائص اللغوية العديدة المشتركة بين تلك الألسن ، كما أبدى ملاحظات قيمة عن الأسس اللغوية التي تجمع شمل تلك اللغات<sup>٣</sup> .

والأساس الذي بني عليه رأي العلماء في حشر من يرون حشره في عائلة الساميات ، أو إخراج من يرون اخراجه منها ، هو قرب لغة من يرون فحصه لتشبيهه لخصوصية تلك العائلة من اللغات السامية ، أو بعد لقنه عنها ، ثم قرب عقلية من يرون إدخاله في السامية من العقلية العامة التي رسمت حدودها لعقلية الساميين ، من دين وأساطير وحياة اجتماعية وأدب ونحو ذلك مما يحدد عقليات الناس . وبهذه الطريقة يبحث العلماء اليوم موضوع الساميات<sup>٤</sup> .

Theodore Nöldeke, *Die Semitischen Sprachen*, Leipzig, 1899, S. I, Richard J.H. Gottheil, *Semitic Literatures*, p. 1, The Columbia University Press, 1911.

Theodore Nöldeke, *Die Semitischen Sprachen*, S. II,  
Sprachen

وس يكون رمزه :

Carl Brockelmann, *Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen*, Bd. I, S. I.

Sprachen, S. 2, *Gründriss*, I., S. I, Geiger, *Ursprung der Sprache*, 1869, 22.

Richard Hartmann und Helmuth Schell, *Beiträge Zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschafts*, Leipzig, 1944, S. 3 ff.

وقد حلت الخصائص المشتركة والألفاظ المهمة الضرورية لشئون الحياة التي ترد في كل اللهجات السامية بعض العلماء على تصور وجود لغة أم ، في الأيام القدิمة، تولدت منها بعوامل مختلفة متعددة مجموعة (اللغات السامية) . ويؤدي تخيل وجود هذه الأم الى تخيل وجود موطن قديم لساميين كان يجمع شملهم ، ويوحد بين صفوفهم ، الى أن أدركتم الفرق لعوامل عديدة ، فاضطروا الى الهجرة منه الى مواطن جديدة ، والى التفرق، فكانت هذه الفرقاً إيداناً بتبليل ألسنة البابليين ، وسبياً الى تفرق ألسنتهم وظهور هذه اللغات .

ولا يعني تصور وجود لغة سامية أم «Ursemitish» على رأي بعض العلماء ضرورة وجود لغة واحدة بالمعنى المفهوم من اللغة الواحدة ، كانت أمّاً حقيقة لجميع هذه اللغات البنات . بل الفكرة في نظرهم مجرد تعبير قصد به شيء مجازي هو الإفصاح عن فكرة تقارب تلك اللغات وتشابها ، واشتراكها في أصول كثيرة اشتراكاً يكاد يجمعها في أصل واحد ، ويرجعها إلى شجرة واحدة هي الشجرة الأم . فالسامية الأولى أو السامية الأم ، أو السامية الأصلية ، هي بهذا المعنى تعبير مجازي عن أقدم الأصول المشتركة التي جمعت بين اللهجات السامية القدิمة في الأيام القدิمة ، أيام كان المتكلمون بها يعيشون في أمكنة متجاورة وفي اتصال وتقرب عبر عنه بفكرة النسب المذكور في التوراة<sup>١</sup> .

وليس من السهل علينا أن نتصور كيف كانت اللغة السامية الأولى . ولكننا لا نستطيع – بسبب قدم زمان هذه اللغة إن كانت هناك لغة سامية أولى وبسبب الأحوال البدائية التي كانت تحيط بالمتكلمين بها شأن البشرية جموعه في ذلك العهد ولقلة مستلزمات المعيشة يومئذ وانخفاضها – أن نتصور أن هذه اللغة كانت واسعة جداً بمفرداتها غنية بسمياتها ، وفي قواعد صرفها ونحوها وفي أساليب بيانها ، لأن ما نذكره لا يمكن أن يتتوفر إلا في مجتمع متتطور متقدم ، وإلا بعد تطور استمر أمداً طويلاً ، ولم يكن الساميون الأولون في ذلك العهد على درجة كبيرة من التطور والتقدم، حتى تكون لغتهم الأولى على نحو ما نذكره من اتساع وارتفاع . وتسوينا إشارتنا العابرة هذه الى السامية الأم الى الإشارة الى الوطن السامي الأول الذي عاش فيه الساميون . أيام اجتمعوا وتكلموا في وطن واحد ، وأيام

١ جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام (١٦٦ / ١٦٦ وما بعدها) ، (٧ / ١٠ وما بعدها) .

تكلّمهم بلسان واحد أو بالستة متقاربة متشابهة ، يفهم أحدهم الآخر بيسير وسهولة . ثم عن الأيام التي نزلت فيها المكاره على أولئك السامين القدماء فأجبرتهم على ترك ذلك الوطن في دفعات وفي هجرات متعددة والارتحال عنه إلى مواطن أخرى جديدة .

وقد اختلف العلماء في تعين الموطن الأصلي للسامين ، وذهبوا في ذلك مذاهب ، يخرجنا الحديث عنها عن صلب موضوعنا هذا . والمفروض في هذا الوطن أن يكون المهد الأول الذي ضم الشعوب السامية ، والمكان الذي اتصلت فيه تلك الشعوب بعضها ببعض ، الأثر الذي نراه في اللغة وفي الدين وفي التواحي العقلية وما شاكل ذلك .

وبما أن من غير الممكن التعرف على اللغة السامية الأم ، لأن الكتابة لم تكن معروفة في ذلك العهد ، فكر المستشرقون في دراسة أقرب اللغات السامية إلى الأصل ، فذهب بعضهم إلى أن العبرانية هي أكثر تلك اللغات شبهاً بالسامية الأولى ، وهي لذلك أقرب بنيات سام إليها . وذهب آخرون إلى تقديم لغة بني إرم على غيرها جاعلين إياها البنت الأولى التي اجتمعت فيها الخصائص السامية الأصلية أكثر من اجتمعها في آية لغة أخرى ، وهذا استحققت في رأيهما هذا التكريم والتقدم . وذهب آخرون إلى تقديم العربية على سائر اللغات الأخرى ، لمحافظتها أكثر من بقية اللغات السامية على الخصائص السامية الأولى وعدم تصلبها منها وتركها لها . كالذى نراه من استعمالها للمقاطع القصيرة الصامتة ومن كثرة تعدد قواعدها التي زالت من قواعده بقية اللغات . غير أن هذه الامتيازات والخصائص التي تتمتع بها هذه اللغة ، يقابلها من جهة أخرى ميزات في العربية لا نجد لها في اللهجات السامية الباقية ، مما يبعث على الظن أنها طرأت عليها فيما بعد ، وأن اللغة العربية قد مرت بأدوار تطورت فيها كثيراً ، والتطور هذا معناه ابتعاد هذه اللغة عن الأصل . ثم إننا نجد في العبرانية وفي لغة بني إرم قطعاً من الكلام قد يُقال جداً لا نجد له مثيلاً في العربية ، وهذا مما يدعو إلى حسبان اللغتين المذكورتين أقدم عهداً من اللغة العربية . غير أننا لا نستطيع مع كل ذلك أن ننكر أن معرفتنا وإحاطتنا باللغة العربية لا تكاد تدانها معرفتنا وإحاطتنا ببقية اللغات السامية . ومن هنا صارت اللغة العربية بلهجاتها المتعددة حقولاً مهماً لإجراء التجارب والاختبارات في ميدان

مقارنات اللغات السامية ودراستها ، فيه من الامكانيات والقابلities ما لا نجد له في  
بقية الحقول<sup>۱</sup> .

وقد ذهب (نولدكه) إلى أن من الضروري في دراسة مقارنات اللغات السامية البدء باللغة العربية ، وذلك بأن تأخذ في تسجيل خصائصها ومميزاتها وقواعدها وكيفية النطق بألفاظها وما إلى ذلك ، ثم تقارن ما سجلناه بما يقابلها في بقية اللغات السامية ، لتفق بذلك على ما بين هذه اللغات من مفارقات ومطابقات . ولا بأس في رأيه من الاستعانت باللهجات الحالية أيضاً ، لأنها مادة معاونة جداً ومنفعة كبيرة في الكشف عن خصائص اللغات السامية وعن مميزاتها وتطورها في مختلف المصور . وفي رأيه أن دراسة من هذا النحو ليست بالأمر اليسير ، فإنها تتطلب جلداً وعلماً وإحاطة باللغات السامية كلها وبآثارها القديمة ، وأن يقوم بها علماء لغويون متخصصون ، على جانب كبير من العلم والذكاء والإحاطة بالساميات<sup>۲</sup> .

وليس بين اللغات السامية لغة واحدة تستطيع أن تدعي أنها سامية صافية نقية ، وإنما لم تتأثر فقط باللغات الأخرى التي تنتمي إلى مجموعات لغوية غير سامية وقضية صفاء لغة ما من لغات العالم وخلوها من الألفاظ والكلمات الغريبة ، قضية لا يمكن أن يقولها رجل له إلمام بعلوم اللغات ولو بسراً جداً . وإذا كانت اللغات السامية قد تأثرت باللغات الأخرى بسبب اختلاط الشعوب واتصال ألسنتها بعضها البعض نتيجة ذلك الاختلاط ، فإن من الطبيعي أن تكون اللغات السامية قد أثرت بعضها في بعض ، وهذا نجد في كل لغة من اللغات السامية أفالطاً أخذتها من لغة ما من لغات أبناء سام .

ونحن ما يمكن أن نفعله الآن في موضوع اللغة السامية وأقرب اللغات السامية إليها ، هو أن نقوم باستخلاص القديم المشترك من كل اللغات السامية ، ثم نكون من هذا المجتمع لغة نعدّها أقرب اللغات السامية صورة إلى اللغة السامية الأولى . وتعدّ للضمائر وأسماء العدد وأسماء أعضاء الجسم الأساسية المهمة . وجملة ألفاظ تخص الحياة الإنسانية الأساسية ، مثل بيت وسماء وأرض وجمل و الكلب وحرار وعد

---

Sprachen, S. 5 ff.

۱

Sprachen, S. 7.

۲

من حروف الجرّ ، من جملة القديم المشترك في جميع اللغات السامية أو في أكثرها ، وهو لذلك يفيدنا من هذه الناحية كثيراً في تكوين فكرة عن اللغة السامية القديمة وعن أقرب اللغات السامية إلى الأصل .

ويقسم علماء الساميات اللغات السامية إلى قسمين : لغات سامية شمالية ، ولغات سامية جنوبية . ويقسم بعض العلماء اللغات السامية الشمالية إلى مجموعتين : مجموعة شرقية ، ومجموعة غربية . ويقصدون بالمجموعة الشرقية اللغات السامية المترکزة في العراق ، ويقصدون بالمجموعة الغربية اللغات السامية المترکزة في بلاد الشام . وقد تأثرت كل مجموعة من المجموعتين بالمؤثرات اللغوية والحضارية للمكان التي عاشت فيه ، ومن هنا حدث بعض الاختلاف بين الجماعتين .

ومن أهم الخصائص التي امتازت بها اللغات السامية من غيرها من اللغات :

اعتمادها على الحروف الصامتة « Konsonant » = « Consonant » أكثر من اعتمادها على الأصوات « Vocal » = « Vokale » ، فنرى أن أغلب كلامها تتألف من اجتماع ثلاثة أحرف صامتة . أما الأصوات ، فلا نجد لها حروفاً تمثلها في اللغات السامية . وهي بذلك على عكس اللغات الآرية التي اهتمت بالأصوات ، فدونتها مع الحروف الصامتة . وقد اضطررت اللغات السامية نتيجة لذلك إلى الاستزادة من الحروف ، فزادت في عددها عن العدد المألف في اللغات الآرية ، وأوجدت لها حروفاً للتضخيم والتريقيق وإبراز الأسنان والضغط على الحلق<sup>١</sup> .

ويتولد في اللغات السامية من تغيير حركات الأحرف الثلاثية الصامتة وتبديلها ، معان جديدة . ولهذا كان من أهم واجبات الأصوات في اللغات السامية تغيير حركات الحروف لتوليد معان جديدة . فالأحرف الثلاثة الصامتة إذن هي التي تكون مفهوم الكلمة وهيكلها ، ولكن مفاهيم هذه الأصول الثلاثية لا تبقى على حالها متى تغيرت حركات هذه الحروف . فكلمة ( فعل ) المؤلفة من ثلاثة أحرف صامتة ، هي حروف الفاء والعين واللام ، هي أصل ، غير أن هذا الأصل غير ثابت . بل هو عرضة للتغيير ، ويكون تغيره بتغيير حركات أحرفه ، فإذا تغيرت

١ ولفسون ، تاريخ اللغات السامية ( ص ١٤ ) ،

Brockelmann, Grundriss, I, S. 5.

حركات هذه الأحرف تغيرت معانيها حتماً . فكل تغير إذن في حركات أحرف الأصل يعقبه تغير في معنى ذلك الأصل . فلفظة ( فعل ) ، تختلف في المعنى عن لفظة ( فعلٌ ) ، واللقطتان ( فعل ) و ( فعلٌ ) مختلفان أيضاً في المعنى عن معنى لفظة ( فعلٌ ) . وقد تولد هذا الاختلاف من تغير حركات حروف الأصل وتبدلها .

ومن الممكن إحداث معانٍ جديدة في اللغات السامية ، وذلك بإضافة زوائد تتألف من حرف أو أكثر إلى الأصول الثلاثية ، فيتبديل بذلك معنى الأصل . فإذا أضفنا حرف الألف بين حرفي الفاء والعين من ( فعل ) ، تغير المعنى ، وصارت اللقطة ( فاعل ) ، وإذا وضعنا حرف الواو بين حرفي العين واللام من فعل ، تغير المعنى ، وصارت اللقطة ( فعول ) ، وهكذا .

فترى مما تقدم أن المعاني المشتقة من الكلمات ذات الأصل الثلاثي منها تغيرت وتولدت نتيجة لتغيير حركات تلك الحروف الثلاثة الصامتة ، فإنها لا تتصل من هذه الحروف ولا تتركها ، بل تبقى في صلب كل كلمة ، منها صار معناها . فكلمة ( قتل ) العربية مثلاً المزدوجة من ثلاثة أحرف صامتة ، يمكن أن تولد منها معانٍ جديدة ، أي كلمات جديدة ، بتغيير هذه الأحرف الثلاثة ، أو بادخال زوائد إليها ، أو بتشديد بعض حروفها كما ذكرت ، غير أنها لا تستطيع أن تترك حرفًا من هذه الأحرف الثلاثة التي هي الأصل .

فالألفاظ مثل قاتل، وقتل، وقاتل، ومقتول ، وقتل ، وقتلَ ، وقتلُ ، وكلها مشتقة من الأحرف الصامتة الثلاثة : الفاف والتاء واللام ، لم نتمكن من الاستغناء عن حرف من هذه الأحرف الثلاثة ، بل اضطررنا إلى ابقاءها كلها فيها . إلا أنا أجبرنا على التفريق بينها بسبب دخول الزيادات<sup>۱</sup> .

وليس في اللغات السامية ادغام للكلمات ، أي وصل الكلمة بأخرى ، لكن تكون من الكلمتين الكلمة واحدة يكون لها معنى مركب من معنى الكلمتين المستقلتين كما في اللغات الآرية . وأما ما نراه من عدم كتمان مضائقتين الكلمة واحدة تؤدي معنى واحداً ، فإن هذا النوع من التركيب بين الكلمتين شيءٌ جديد في اللغات

السامية ، لم يكن معروفاً عند أجدادهم القدماء<sup>١</sup> . وهو معروف في اللغات الآرية، كما في حالة الـ « Genitive » في اللاتينية حيث تولد معانٍ جديدة باضافة لفظة الى لفظة أخرى ، فتولد من هذا التعلق دلالة معنى جديد .

هذا ، ونجده أن بين اللغات السامية وبين اللغات الآرية اختلافات في كثيرة من الأمور ، فاللفظة في اللغات السامية ذات مدلول عام ، وقد يكون لها جملة مدلولات تدل على معانٍ عامة مطلقة ، أما اللغات الآرية ، مثل السنسكريتية ، واليونانية ، والألمانية ، فكل جملة فيها هو الكلمة ذات معنى مقييد محدود ، أخذت منه المصادر والغيرات . وهناك اختلافات أخرى في موضوع الـ « Conjunctions » والـ « Substantive » والـ « Syntax » ، والـ « Interdependence of sentences » وغير ذلك من أمور يعرفها علماء اللغات والنحو والصرف .

ويرى العلماء أن الفعل قد تطور في اللغات السامية تطوراً خطيراً ، استغرق قرونًا طويلاً ، وأن ما نعرفه من تقسيم الأفعال إلى ماضٍ ومضارع وأمر، لم يكن معروفاً على هذا النحو عند قدماء الساميين . ويرى بعضهم أن الصيغة الأصلية لل فعل إنما كانت صيغة الأمر ، وهذه الصيغة هي أقدم صيغة للأفعال عند الساميين . وقد كانت هذه الصيغة تستعمل للدلالة على جميع صيغ الفعل من الماضي والمضارع والأمر ، ثم تخصصت فصارات تشير إلى حدوث الفعل في صيغة الأمر ، وذلك بعد ظهور صيغتي المضارع والماضي .

ومن صيغة فعل الأمر ، اشتقت فعل المضارع . وذلك بزيادة حرف على أول لفظة فعل الأمر ، لتدل على حالة الإسناد إلى الفاعل أو الضمير مثلاً . وقد سبقت هذه الزيادة "الريادة" التي لحقت آخر الفعل ، فمن فعل (قم) مثلاً تولد الفعل (أقام) و (يقوم) و (نقوم) ثم يقومون وتقومون<sup>٢</sup> .

ومن علماء اللغات من يرى أن صيغة المضارع كانت أولاً تدل على جميع الأزمنة ، وأن هذا الأداء كان مستعملاً عند قدماء الساميين استعمال اللغة الصينية

1 Brockelmann, Grundriss, I, S. 5.

2 ولفسون ، السامية (ص ١٥ ) ، The Bible Dictionary, Vol. II, p. 429.

واللغة المندوجرمانية الأصلية له<sup>١</sup>.

ونجد اليونانية تغير معاني الفعل بإدخال حرف الجر عليه ، فإذا دخل حرف جر على الفعل تغير معناه .

ويظن ان الكلمات المؤلفة من حرفين صامتين ، أي الألفاظ الثنائية الأصل مثل أب وأم وأخ ويد ، كانت أقدم من الأفعال المشتقة من ثلاثة أحرف مثل فعل ، صنع ، أكل ، ذهب ، وأن الأفعال الثلاثية أقدم من الأفعال الرباعية . وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان الأفعال الرباعية المؤلفة من أربعة أحرف كانت مؤلفة في الأصل من حرفين اثنين ، ثم تطورت بالاستعمال في خلال العصور الطويلة حتى صارت رباعية الأصل<sup>٢</sup> .

وفي العبرانية صيغتان للفعل الماضي : الصيغة المألوفة للماضي ، وصيغة ثانية مشتقة من المضارع مع إضافة واو العطف ، وهي صيغة قديمة جداً . وهي موجودة في البابلية القديمة وفي الكتيعانية العتيقة . ولعلها كانت صلة بين المضارع وبين الماضي . وليس بهذه الصيغة وجود في العربية الشمالية وفي العربية الجنوبية والجشية وفي لغة بني لرم<sup>٣</sup> .

ويلاحظ ان العبرانية تشارك اللهجات العربية الجنوبيّة في أمور عديدة غير معروفة في عربية القرآن الكريم ، كما توجد أوجه شبه بين ألفاظ جشية وعبرانية<sup>٤</sup> .

وللدلالة على الجمع استعملت العبرانية حرفا (يم) للمذكر ، و (واو وتاء) للمؤنث . أما الآرامية ، فاستعملت حرفا (ين) علامه للجمع ، وأما العربية فاستعملت (الواو والتون) للجمع المذكر السالم ، و (الألف والتاء) في الجمع المؤنث السالم ، وهناك جموع تكسير كثيرة لا نكاد نرى لها مثيلاً في اللغات السامية الأخرى<sup>٥</sup> . وذلك بسبب أن هذه الجموع هي في الواقع جموع وردت في لهجات عربية متعددة ، وردت سعاءً ، فلما جمعها علماء العربية ودونوها

١ المصدر السابق (ص ١٦) .

٢ ولفسون ، السامية (١٧) .

٣ ولفسون ، السامية (١٦) .

٤ ولفسون ، السامية (١٩) .

٥ ولفسون ، السامية (١٩) .

في كتب اللغة والمعاجم ، لم يشيروا إلى أسماء من كان ينطق بها ، فظن أنها جموع استعملت في هذه العربية التي نزل بها الوحي .

ومن أهم الاختلافات التي نراها بين اللغات السامية . اختلافها في التعريف . فيما نرى بعض اللغات كالآشورية والبابلية والحبشية لا أداة للتعريف فيها ، نرى العبرانية وبعض اللهجات العربية مثل الشودية واللحجانية تستعمل حرف الـ (هـ) أداة له ، تضعه في أول الكلمة ، وبينما نرى السبئية واللهجات العربية الجنوبية الأخرى تستعمل أداة أخرى للتعريف هي حرف (النون) ، تضعها في آخر الكلمة المراد تعريفها ، نجد العربية الفصحى تستعمل (الـ) أداة للتعريف ، تضعها في أول الكلمة . وتشترك السريانية العربيات الجنوبية في مكان أداة التعريف ، فكأنها عندها في نهاية الكلمة أيضاً ، غير أنها تختلف عنها في استعمالها أداة أخرى هي حرف الـ (هـ) أي الواو .

وقد درس بعض المستشرقين أوزان الأسماء في اللغات السامية ، كما درسوا اشتقاقها وأصولها التي أخذت منها ، وبخثروا في حالات التصغير أي في الأسماء المصغرة وطرق التصغير عند جميع الساميين ، والأسماء البسيطة والأسماء المركبة ، ليستخرجوا منها قواعد قدماء الساميين في كيفية تكوين الأسماء ، ولا سيما تلك الأسماء التي ترد في جميع اللغات السامية . ففي اللغات السامية أسماء مترددة ترد في كل اللغات ، منها ما هو بسيط مؤلف من كلمة واحدة ، ومنها ما هو مركب ، أي أسماء مؤلفة من أكثر من كلمة بطريقة الإضافة . ودراسة هذه الأسماء بأنواعها ، تقيدنا كثيراً في الوقوف على العقلية السامية وعلى الخواص المشتركة التي كانت تربط بين الساميين .

ونجد الإعراب في اللغة العربية الفصحى ، وينذهب العلماء إلى أن الإعراب كان موجوداً في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات . ونرى له أثراً يدل عليه في العبرانية في حالي المفعول به وفي ضمير التعبية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التعبية ، فإن هاتين الحالتين تدلان على وجود الإعراب في أصولها القديمة<sup>١</sup> .

---

١ ولقنسون ، السامية (ص ١٥) .

ونجد العربية ذات حروف يزيد عددها على حروف اللغات السامية الأخرى . ولعل اللغات الأخرى كانت تملك حروفاً أخرى ، ثم قلَّ استعمالها فزالت من أبجديتها ، ولم تبق لها حاجة بها . فالعبرانية لا تمتلك الحروف : (ذ) ، (ع) ، و (ظ) ، و (ض) . والبابلية لا تمتلك أيضاً الحروف : العين والخاء والغين والهاء وهي من أحرف المخلق ، ولا الأحرف : الطاء والظاء والصاد ، وهي من أحرف التضييم والتضخم ، ولا القاف . ونجد بهود السامرية لا يستعملون حرف السين<sup>١</sup> . وهنالك أمثلة أخرى ثبت حدوث تطور في عدد الحروف في اللغات السامية ، مما سبب حدوث اختلاف في عددها ، وهذا حدث هذا الاختلاف الذي نراه ونلاحظه بين أبجديات تلك اللغات .

ونجد العربية الجنوبيَّة تمتلك حروفاً لا تمتلكها العربية الفصحى ، وذلك بسبب اختلاف طبيعة اللهجتين .

ولا بد أن تكون هنالك عوامل عديدة دعت إلى حدوث تغير في عدد الحروف في لغات الساميين . وقد عزا بعض الباحثين سقوط الأحرف التي ذكرتها من الكتابة البابلية إلى استعمال البابليين للكتابة المسماوية<sup>٢</sup> . غير أن هذا رأي يجب أن يدرس بعناية ، وأن يكون مبنياً على دراسات عديدة أصلية ، ليكون في الامكان تكوين رأي صحيح في هذا الموضوع .

واللغة العربية اليوم ، هي من أعظم اللغات السامية الباقيَّة ، وبكثرة من يتكلَّم ويكتب بها ، وبكثرة ما ألف ودونَ بها . وهي تستعمل اليوم قلماً اشتقت من قلم سامي شمالي ، وكان لها في الماضي قلم قديم كان مستعملاً عند العرب من أيام ما قبل الميلاد إلى ظهور الإسلام ، مات بسبب اتخاذ الإسلام القلم المجزم قلماً للوحى ، دونَ به القرآن الكريم ، فصار بذلك القسم الشرعي الرسمي ، وأمامت بذلك الأقلام الجاهليَّة الأخرى المشتقة من القلم (المسند) . ونجد في المعاجم اللغوية مئات الآلاف من الألفاظ المعبرة عن معانٍ ، وقد قدر بعض العلماء عدد ألفاظ العربية بنحو من (١٢٣٠٥٠٥٢) كلمة<sup>٣</sup> . ويعود سبب غناها في الألفاظ إلى

١ ولفسون ، السامية (١٩ وما بعدها ، ٣٩) .

٢ ولفسون ، السامية (٣٩) .

The Bible Dictionary, Vol. I, p. 101.

٣

كثرة وجود المترادفات فيها ، التي هي من بقايا لغات قبائل ، والى خاصية جذور الكلم فيها في توليد الألفاظ الجديدة بتحريك هذه الجذور .

وهناك لهجات تستحق الدراسة ، فهي من اللهجات السامية المتفرعة عن لهجات قديمة ، وهي لهجات منبوذة لم يحفل بها علماء اللغة ، مثل اللهجة ( الأمهرية ) واللهجة ( المهرية ) لغة أهل ( هرر ) . وهي من بقايا لهجات لم يعن بها العلماء إلا منذ احتكاك الغربيين بالمتكلمين بها . ومع ذلك فلا تزال البحوث العلمية عنها قليلة .

## الفصل السادس والثلاثون بعد المئة

### العربية لسان آدم في الجنة

رأى علماء العربية أن العربية قديمة ، وهي في نظرهم أقدم من العرب أنفسهم ، فلما كان آدم في الجنة كان لسانه العربية ، ولما عصى سبط الله العربية فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه وعلى بعض أحفاده العربية . ونظريه ان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة كان عربياً ، فلما بعد العهد وطال ، حرف وصار سريانياً ، وكان يشاكل اللسان العربي ، إلا انه حرف ، وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح إلا رجلاً واحداً يقال له جرهم ، فكان لسانه لسان العرب الأول ، فلما خرجوا من السفينة تزوج إرم بن سام بعض بناته ، فنفهم صار اللسان العربي في ولده عورص أبي عاد وعييل، وجائز أبي ثمود وجديس، وسيمت عاد باسم جرهم ؛ لأنه كان جدهم من الأم ، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشذ بن سام ، الى أن وصل الى يشجب بن قحطان من ذريته وكان باليمن ، فنزل هناك بنو اسماعيل ، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي<sup>١</sup> .

وقد تحدث (المعربي) على لسان (آدم) في موضوع لسانه ، وما روی من شعر نسب اليه ، فجعله يقول : « أیتم إلا عقوقاً وأذية ، إنما كنتُ أتكلّم

---

١ « عن ابن عباس ، ان آدم عليه السلام ، كان لغته في الجنة العربية ، فلما عصى سبط الله العربية فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية » المزهري (٣٠/١)

بالعربية وأنا في الجنة ، فلما هبطت الى الأرض ، نقل لساني الى السريانية ، فلم أنطق بغيرها الى أن هلكت ، فلما ردني الله - سبحانه وتعالى - الى الجنة ، عادت على العربية ، فأيّ حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة أم الآجلة ؟<sup>١</sup> . وذلك ردّاً على من زعم أنَّ آدم كان يعرف الشعر العربي ، وقد نظم شعره بالعربية ، ورووا له شرعاً زعموا أنه قاله لتأييد صحة دعواهم .

وقد ذهب قوم من العلماء الى أنَّ لغة العرب ، هي أول اللغات ، وكل لغة سواها حديثها إما توثيقاً أو اصطلاحاً ، واستدلوا بأنَّ القرآن كلام الله هو عربيٌّ ، وهو دليل على أنَّ لغة العرب أسبق اللغات<sup>٢</sup> .

ومنهم من قال : لغة العرب نوعان :

أحدُها : عربية حير ، وهي التي تكلموا بها من عهد هود ومن قبْلِه ، وكانت قبل اسماعيل .

والثانية : العربية المحسنة التي نزل بها القرآن ، وأول من أنطق لسانه بها اسماعيل ، فعلى هذا القول يكون توقف اسماعيل على العربية المحسنة محتملاً أمرين : إما أن يكون اصطلاحاً بينه وبين جرهم النازلين عليه بمحنة ، وإنما أن يكون توثيقاً من الله<sup>٣</sup> .

والعربية المحسنة هي العربية الحالصة ، وهي العربية الأصيلة عربية اسماعيل ، وقد نعتت بالعربية المتنية . قالوا : أول من فتن لسانه بالعربية المتنية اسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة<sup>٤</sup> . روی «أنَّ رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تلا: قرآنًا عربياً لقوم يعلمون ، ثم قال : ألم اسماعيل هذا اللسان إلهاماً»<sup>٥</sup> . والعربية التي تكلم بها (اسماعيل) والتي نزل بها القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي ، تختلف عن عربية حير وبقایا جرهم<sup>٦</sup> ، وذكر أنَّ (عمر بن الخطاب) ،

١ رسالَة الغفران (٣٦١ وما بعدها) .

٢ المزهر (٢٨/١) .

٣ المزهر (٢٨/١) .

٤ المزهر (٣٤/١) .

٥ المزهر (٣٣/١) .

٦ المزهر (٣٣/١) .

قال للرسول : يا رسول الله ؟ مالك أفصحتنا ولم تخرج من بعن أظهرنا ؟ فقال رسول الله : كانت لغةبني اسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتها<sup>١</sup>.

والعربية بعد ، في اصطلاح أئمة العربية : العربية المتينة . أما عربية أهل اليمن : عربية أبناء قحطان فرعية أخرى . وعلى هذا فتحنن أيام عربتين : عربية قحطانية ، وعربيّة عدنانية اسماعيلية . وبالعربية المتينة تكلم عرب الحيرة ، كما يظهر ذلك من خبر دونه (الباحث) في كتابه (البيان والتبيين ) ، والطبرى في تاريخه ، فقد ذكر (الباحث) ان ( خالد بن الوليد ) سأله ( عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيان بن بقيلة ) : « أعراب أنت أم نبط ؟ قال : عرب استبطننا ، ونبيط استعرينا . قال : فحرب أنت أم سلم ؟ قال : سلم »<sup>٢</sup> ، أو انه قال لهم : « ويحكم ! ما أنت ! أعراب ؟ فما تتقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تتقمون من الإنساف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تجادوتنا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عدي : ليذلك على ما تقول انه ليس لنا لسان إلا بالعربية »<sup>٣</sup> . فلسان أهل الحيرة عربي ، ليس لهم لسان سواه . بها كانوا ينظمون الشعر وبها كتبوا . فهذه العربية هي عربية الحيرة وعرب العراق .

وساير كثير من المستشرقين علماء العربية في تقسيم اللهجات العربية الى عربتين : عربية جنوبية ، هي العربية القحطانية . وعربيّة شمالية ، هي عربية القبائل العدنانية . ولكل مجموعة لهجات محلية ، لم تكن تختلف فيها بينها اختلافاً كبيراً ، وتباين بوناً شاسعاً ، وإنما اختلفت في أمور بسيطة من الفروق اللسانية ، بحيث لا تستطيع أن نضعها في مجتمع لغوية جديدة<sup>٤</sup> .

ومن الكتابات الجاهلية التي يعود عهد بعض منها الى ما قبل الميلاد ، حصل الباحثون على علمهم بلغة العرب الجنوبيين وبخضارتهم ، وقد تبين لهم منها أن تلك الكتابات تمثل لغة متطرفة ذات قواعد نحوية وصرفية ، وإنما كانت لغة التدوين

١ المزهر ( ٣٥ / ١ ) .

٢ البيان والتبيين ( ١٤٨ / ٢ ) ، أمالى المرتضى ( ٢٦١ / ١ ) .

٣ الطبرى ( ٣٦١ / ٣ وما بعدها ) .

٤ Ignace Goldzher, History of Classical Arabic Literature, P. 2, (1906).

عندهم ، وقد استعملت مصطلحات فنية تدل على وجود حضارة لدى الكاتبين بها ، وقد دام التدوين بها إلى ظهور الإسلام<sup>١</sup> .

أما علمنا بقواعد نحو وصرف اللغة العربية الشمالية ، التي نسميتها اللغة الفصحى ، فستمد من الموارد الإسلامية فقط ، لعلم ورود نصوص جاهلية مدونة بها . ولهذا اقتصر علمنا بها على ما جاء عنها في الموارد الإسلامية ليس غير . أما النصوص المعدودة القصيرة ، التي تبدأ بنص المارة ، وتنتهي بكتابه (حران المجا) التي يعود عهدها إلى سنة (٤٦٣) من سقوط (خبر) (خبر) ، المقابلة لسنة (٥٦٨) للميلاد ، فإنها وإن كانت قد كتبت بعربي قريبة من العربية المحضرية ، إلا أنها تمثل في الواقع طحة من اللهجات العربية الشمالية ، متأثرة بالإرمية (النبيطية) ولذلك لا أستطيع اعتبارها نصوصاً من نصوص العربية الفصحى الخالصة ، ثم إنها قصيرة أط渥ها نص المارة ، المدون بخمسة سطور فقط . ويعود عهده إلى سنة (٣٢٨) للميلاد . ولهذا لم تتمكن من استباط شيء منها ، يفيدنا في تعين صرف نحو العربية الفصحى ، أو هذه العربية التي دونت بها . ولهذه الأسباب صار علمنا اليوم بقواعد وبنحو كتابات المسند ، والكتابات الشمودية واللحيانية والصفوية والنبيطية ، مستمد من موارد هي أقدم جداً من الموارد الإسلامية ، يعود تاريخ بعض منها إلى ما قبل الميلاد . ووثائق هذه العribيات جاهلية أصلية ، لا يشك أحد في أصلتها ، أما العربية الفصحى فنصها الوحيد ، الذي لا يشك أحد في أصلته هو القرآن الكريم ، فلا نص بها قبله ، وهو أطول نص وردلينا بهذه العربية وبسائر العribيات الأخرى بغير استثناء .

هذا وقد سبق لي أن تحدثت في الفصل الأول من هذا الكتاب عن تحديد لفظة العرب ، وعن معانيها ، وعن ورودها في مواضع من القرآن ، مثل : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعمجمي ، وهذا لسان عربي مبين »<sup>٢</sup> . وفيه « وانه لتزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المتنرين . بلسان عربي مبين »<sup>٣</sup> . وفيه : « أَعْجَمِي وَعَرَبِي

Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2.

١

٢ التحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٣ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٣ وما بعدها .

قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء »<sup>١</sup> . وفيه : « إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لعلكم تتعلمون »<sup>٢</sup> . و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً »<sup>٣</sup> . و « كذلك أنزلناه قرآنًا عربياً وصرفنا فيه من الوعيد »<sup>٤</sup> . و « قرآنًا عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقنون »<sup>٥</sup> . و « كتاب فصلت آياته قرآنًا عربياً لقوم يعلمون »<sup>٦</sup> . وكذلك أوحينا اليك قرآنًا عربياً »<sup>٧</sup> . و « إنا جعلناه قرآنًا عربياً لعلكم تتعلمون »<sup>٨</sup> . و « وهذا كتاب مصدق لسانًا عربياً ليذر الدين ظلموا »<sup>٩</sup> .

فاللسان الذي نزل به القرآن ، هو اللسان العربي « الفصيح الكامل الشامل ليكون بيتاً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر مقيناً للحججة دليلاً إلى المحجة »<sup>١٠</sup> . وقد نزل « حكماً معرجاً »<sup>١١</sup> . وذلك تميزاً لهذا اللسان عن ألسنة الأمم الأخرى التي نسبت إلى العجمة ، فصارت ألسنتها ألسنة أعمجية »<sup>١٢</sup> .

فاللغة العربية إذن ، هي لغة (العرب) ، وبهم سُميت وعرفت فأخلدت تسميتها من اسمهم . وقد عرفنا أن المدلول الأول للفظة (العرب) هو البداوة والأعرابية ثم توسع في مدلولها ، حتى شمل كل سكنة جزيرة العرب من بدو وحضر ، فأهل المدر عرب ، وأهل الوير عرب كذلك ، وعرف أهل البوادي بالأعراب ، تميزاً لهم عن أهل القرى ، أي الحضر ، وصارت اللفظة سمة خاصة بهم . أما لسانهم ولسان الحضر ، فهو اللسان العربي وكفى .

وسميت هذه العربية بسمة أخرى ، صارت ترافقها حتى اليوم ، هي (العربية الفصحى) و (اللغة الفصحي) ، يريدون بها هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم.

- ١ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٤٤ .
- ٢ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .
- ٣ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .
- ٤ طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ١١٣ .
- ٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٢٨ .
- ٦ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣ .
- ٧ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .
- ٨ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٣ .
- ٩ الاحقاف ، الرقم ٤٦ ، الآية ١٢ .
- ١٠ تفسير ابن كثير (٣٤٧/٣) ، (تفسير سورة الشعراه) .
- ١١ تفسير ابن كثير (٥١٨/٢) ، (تفسير سورة الرعد) .
- ١٢ الجزء الأول (ص ١٣ وما بعدها) من هذا الكتاب ، والجزء الأول من كتابي القديم : تاريخ العرب قبل الاسلام .

تمييزاً لها عن بقية اللغات واللهجات . والفصح والفصاحة البيان<sup>١</sup> . وبما أن اللغة العربية بيّنة بلغة قيل لها ذلك . وهي في معنى ( لسان عربي مبين ) ، أي لسان عربي فصحى أو بين . وبذلك لا ينصرف الذهن إلى لغات العام ولا إلى لهجات القبائل في الجاهلية أو لغات أهل العربية الجنوبية ، لأنها لا تتصف بصفة الفصاحة في نظر علماء اللغة .

واللغة العربية التي تكتب بها ، لغة واسعة ، ما في سعتها من شك : ألفاظها كثيرة ، حتى تجده فيها مئات وعشرات من المسميات وضفت كلها لسمى واحد على ما يذكره أهل اللغة . فاللاؤس والقرس وللجمل وللسيف وما يتعلق بها ألفاظ كثيرة ، تجدها في كتب اللغة والمعجمات . ونحن لا نريد الشك في ذلك ، ولكننا إذا أردنا أن نبحث بأسلوب علمي حديث مستند إلى لهجات القبائل ، وإلى ما ورد في النصوص الجاهلية ، فإننا سنضطر إلى القول بأن هذه الكثرة من الألفاظ ليست مسميات لشيء واحد في لغة واحدة ، هي لغة القرآن الكريم ، وإنما هي مسميات لذلك الشيء في لهجات عربية أخرى ، جمعها علماء اللغة في الإسلام من أفواه أناس يتبعون إلى قبائل متعددة ، أشاروا إلى أسماء القبائل التي تكلمت بها أحياناً ، ولم يشرروا إليها في أغلب الأحيان . فذهبوا بين الناس على أنها مسميات لسمى واحد في لغة واحدة ، هي هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، أي أنهم جعلوها من الألفاظ المترادفة .

ولم تعيّن الموارد الأعجمية شكل اللغة العربية ، ولم تنص على لسان واحد من ألسنة العرب ، على أنه اللسان العربي الفصحى العام الذي كان يتكلّم به كل العرب . ولم يعين القرآن هوية اللسان العربي ، ولم يخصّصه بلسان معين من ألسنة العرب المتعددة ، وإنما جاءت التسمية فيه عامة شاملة ، لا تخصل لساناً واحداً ، ولا لغة معينة محددة . قال المفسرون في تفسير الآية : « وكذلك أنزلناه قرآننا عربياً » ، « فأنزلنا هذا القرآن عربياً إذ كانوا عرباً »<sup>٢</sup> ، وقالوا في تفسير الآية : « وكذلك أنزلناه حكمًا عربياً » ، « كذلك أيضاً أنزلنا الحكم والدين حكمًا عربياً » وجعل ذلك عربياً ووصفه به لأنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربي

١ تاج المرروس (١٩٧/٢) ، (فتح) .

٢ تفسير الطبرى (١٥٩/١٦) .

فتبث الدين اليه ، اذ كان عليه نزل فكذب به الأحزاب <sup>١</sup> ، وقالوا في تفسير الآية : « وَكُلُّكُمْ أُوحِيَ إِلَيْكُمْ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِتَتَنَزَّلَ أُمُّ الْقَرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا » : « يقول تعالى ذكره وهكذا أوحينا إليك يا محمد قرآنًا عربياً بلسان العرب لأن الذين أرسلتك إليهم قوم عرب فأوحينا إليك هذا القرآن باليست لهم ليفهموا ما فيه من حجج الله وذكره لأننا لا نرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم، لتتنزّل أُمُّ الْقَرَى وهي مكة وما حولها <sup>٢</sup> . »

وقال (الطبرى) في مقدمة تفسيره « فإن كان ذلك كذلك ، وكان غير مبين منّا عن نفسه من خاطب غيره بما لا يفهمه عنه المخاطب ، كان معلوماً أنه غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطب ، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل إليه ، لأن المخاطب والمرسل إليه إن لم يفهم ما خطّب به وأرسل به إليه فحاله قبل الخطاب وقبل حبيه الرسالة إليه وبعد سواء ، إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً ». والله جل ذكره يتعالى عن أن مخاطب خطاباً أو يرسل رسالة لا توجبفائدة لمن خطّب أو أرسل إليه ، لأن ذلك فيما من فعل أهل التقص والعبث والله تعالى عن ذلك متعال . ولذلك قال جل ثناوه في حكم تنزيله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليين لهم . وقال لنبيه محمد صل الله عليه وسلم : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . فغير جائز أن يكون به مهتمياً من كان بما يهدى إليه جاهلاً ». فقد تبين اذن بما عليه دللتا من الدلالة ان كل رسول الله جل ثناوه أرسله إلى قوم ، فإنما أرسله بلسان من أرسله إليه ، وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها إلى أمة ، فإنما أنزله بلسان من أرسله إليه، وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها إلى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه . واتضح بما قلنا ووصفنا ان كتاب الله الذي أنزله على نبينا محمد صل الله عليه وسلم ، بلسان محمد صل الله عليه وسلم ، وإذا كان لسان محمد صل الله عليه وسلم عربياً ، فيبين ان القرآن عربي . وبذلك نطق حكم تنزيل ربنا ، فقال جل ذكره : إنما أنزلناه قرآنًا عربياً

١ تفسير الطبرى (١٣/١١٠) .

٢ تفسير الطبرى (٦/٢٥ وما بعدها) .

لعلمكم تعلقون ، وقال : وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ببيان عربي مبين <sup>١</sup> .

وقد تعرض علماء العربية لمعنى (العجم) والعرب ، فقالوا : (العجم) خلاف العرب ، والأعجم من لا يفصح ولا يبيّن كلامه وإن كان من العرب ، ومن في لسانه عجمة وإن أفصح بالعربية ، « وفي التنزيل : ولو فرلتناه على بعض الأعجمين »<sup>٢</sup> . وكل من لم يفصح بشيء فقد أعمجه ، وأعجم الكتاب خلاف أعرابه ، أي نقطه بال نقط ، وورد في شعر قيل هو لرؤبة ويقال للحطبة :

الشعر صعب وطويل سامه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه  
زلت به الى الحضيض قدمه

ومنه :

والشعر لا يط因其 من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه  
أي يأتي به أعمجياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبيّنه فيجعله مشكلة  
لا بيان له <sup>٣</sup> .

وقالوا : العرب خلاف العجم ، ورجل مغرب ، إذا كان فصيحاً وإن كان عجمي النسب . والإعراب الإبابة والإفصاح عن الشيء . وأن يعرب بن قحطان هو أول من تكلم بالعربية ، وأول من انعدل لسانه عن السريانية الى العربية ، وبه سمي العرب عرباً . وقيل : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا قرآن عربياً لقوم يعلمون ثم قال : ألم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً » ، وقيل إن يعرب أول من نطق بعنتق العربية ، وإسماعيل هو أول من نطق بالعربية الحالصة الحجازية التي أنزل عليها القرآن <sup>٤</sup> . إلى غير ذلك من أقوال تحاول ربط لفظة (العرب) بالإعراب والإفصاح والإبابة ، وربط العربية ، أي لسان العرب بقططان ، وباسماعيل ، ووراء كل هذه الأقوال المصطنعة عصبية تحاول لقططانية

١ تفسير الطبرى (١/٥ وما بعدها) .

٢ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبرى (١٩/٦٩ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .

٤ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .

أو لعدنانية ، التي هي اصطنعت هذه الأقوال في الإسلام ، وحذقة مصطنعة باردة استغلت المجانسة الفقهية بين عرب ويعربي وأعرب ، لإيجاد صلة بين معاني هذه الألفاظ وفي جذورها .

وتشمل لفظة ( العجم ) كل من ليس بعربي ، وهي في مقابل لفظة : « Barbarian » في اللغة الانكليزية المأخوذة من أصل يوناني ، وهي لا تعني التوحشين وإنما ( أعاجم ) و ( غرباء ) بتغيير أصح ، الذين كانوا لا يحسنون التكلم بلغة المهدبين ، بل كانوا يرطون في كلامهم ، ويتكلمون بهجات رديئة ، ثم أطلقها اليونان على كل من لا يحسن التكلم باليونانية وعلى كل من يتكلم بلغة غير يونانية . ولما دخل اليونان في حكم الرومان ، صارت الكلمة تطلق على كل الشعوب الأخرى التي لا تتكلم باليونانية ، أو اللاتينية<sup>١</sup> . ولا استبعد احتمال بجيء هذه النظرية عند العرب من اليونان ، وإن كان اليونان ، لم ينفردوا بها وحدهم ، فقد كانت الشعوب القدمة تعرف مثل هذه المصطلحات ، ومصطلح : ( كوييم ) « Goim » العبري ، الذي يعني « Gentiles » في الانكليزية ، وغرباء ، وشعوب ، ومشركين عبادة أصنام<sup>٢</sup> ، يعبر عن هذه النظرة . فكل الشعوب باستثناء ( العبرانيين ) هم ( كوييم ) ، والبرانيون هم المتكلمون بالعبرانية ، وغيرهم هم الذين لا يتكلمون بها .

ولفظة ( العجم ) ، وإن كانت لفظة عامة ، قصد بها كل من هو ليس بعربي ، لكنها أطلقت في الغالب على الفرس واليونان ، وهم أرقى الشعوب التي احتلها العرب في ذلك الوقت . وأطلقت على الفرس بصورة خاصة ، لما كان للساسانيين من اتصال خاص بالعرب قبيل الإسلام . أما سكان إفريقيا ، فلم تطلق عليهم هذه اللقبة إلا قليلاً ، لأن العرب لم ينظروا إليهم نظرة احترام ، وهذا عرفوا عندهم بالعبيد ، وباللحش ، وبالسودان . وقد نعموا بالطمأنينة ، فورد ( طمطم<sup>٣</sup> جشيون ) ، بالنظر إلى لقائهم ، وعدم تحكمهم من الافصاح بالعربية . وقد ورد في معلقة ( عنترة ) : ( أعظم طمطم ) ، في هذا البيت :

تأوى له قلص النعام كما أوت حرق عمانية لأعجم طمطم

<sup>١</sup> Hastings, P. 84.

<sup>٢</sup> Hastings, P. 303.

<sup>٣</sup> البيت الـ ( ٢٥ ) من المعلقة .

ومن القرآن واللغة استنبط علماء اللغة قولهم في أن العربية من الإبابة والإفصاح ، وإنما دعيت بذلك لأن ( يعرب بن قحطان ) كان أول من أعرب بلسانه فنسب هذا اللسان إليه . فقد رأينا ان الآيات المقدمة التي أشرت إليها ، ذكرت ان القرآن نزل بلسان عربي مبين ، وقد جعلته في مقابل اللسان الأعجمي ، فاستنجدوا منها ان العربية يعني الإفصاح والإبابة ، وان التسمية إنما جاءت من هذا القبيل ، مع ان الوصف راجع للغة القرآن ، لا للعربية نفسها ، ثم وجدوا أن الإعراب في اللغة يعني الإفصاح والإبابة ، فربطوا بين هذه اللقطة وبين لقطة (العرب) ، وقالوا ان (عرب) يعني فصح ، وأن (العرب) من هذا الأصل ، مع انهم يذكرون أيضاً ان تعرب معناها أقام بالبادية ، وأن تعرب واستعرب ، يعني رجع الى البادية بعد ما كان مقيناً بالحضر فلحق بالأعراب . وأن تعرب يعني تشبّه بالعرب وتعرب بعد هجرته ، أي صار أعرابياً ، وأن في الحديث : ثلاث من الكبار ، منها التعرب بعد الهجرة ، وهو أن يعود الى البادية ويقيم مع الأعراب ، بعد أن كان مهاجراً ، وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه من غير عذر يدعونه كالمتردّ ، ومعنى هذا ان صيتها بالأعرابية وبـ (العرب) يعني البدو أهل البادية ، أقرب الى المنطق والمعقول من صيتها بالإبابة والفصاحة ، أي الإعراب . وقد سبق أن ذكرت ان معنى اللقطة في النصوص الأشورية وفي كتب اليونان واللاتين والبرانيين والسريان ، وفي المسند ، هو (البداوة) والأعرابية لا غير ، ثم أطلقت على جميع سكّنة جزيرة العرب ، لغة الحياة الأعرابية عليها حتى صارت لقطة (ال العربية) يعني بلاد العرب ، تدخل فيها مواطن أهل المدر وأهل الوير ، وصارت لقطة (العرب) عملاً على جنس وقوم .

وإذا أحذنا بهذا التفسير التأريخي المستمد من النصوص ، لزم علينا القول إن العربية من (عرب) (العرب) ، أهل العربية ، وهم (الأعراب) ، وقد أطلقت على أسمتهم جميعاً من غير تمييز ، فكل لهجات العرب : لهجات بدو أو لهجات حضر ، هي لهجات عربية ، لأنهم عرب ومن سكّنة بلاد العرب ، ولهذا عرفت (جزيرة العرب) كلها (بالعربية) في كتب اليونان واللاتين على نحو ما تحدثت عن ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب ، لا نستثنى منها لهجة من اللهجات ، منها كان قربها أو بعدها من العربية التي نزل بها الوحي .

فما ذكره علماء اللغة من تجزير في وجه تسمية العرب بهذا الاسم ، من اشتغال اللقطة من ( عربة ) التي قالوا إنها باحة العرب ، أو من ( يعرب ) ، أو من اعراب لسانهم ، أي ايصاله وبيانه ، لأنه أوضح الألسنة وأعربها عن المراد بوجوه من الاختصار ، أو بما شاكل ذلك ، هو كله تجزير متكلف ، يمثل تخطبهم فيه ، كتخطبهم في تفسير الأسماء التي لم يعرفوا من أصلها شيئاً، فوضعا لها تجزيجات أوجدوها لإظهار علمهم بها ، ووقفهم عليها ، وعلى كل شيء قديم<sup>١</sup> .

وفي العربية الحالية : الإعراب . وهو تغير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلية عليها بالرفع والنصب والجر والسكن . احتفظت العربية به على حين فقدته معظم اللغات السامية ، باستثناء البابلية القديمة<sup>٢</sup> . ويظهر من القرآن ومن الشعر الجاهلي ، أن الإعراب كان من سمة هذه اللغة التي نزل بها الرحي .

ويرى بعض المستشرقين أن الإعراب كان موجوداً في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات . ونرى له أثراً يدل عليه في العبرانية في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فإن هاتين الحالتين تدلان على وجود الإعراب في أصولها القديمة<sup>٣</sup> .

ولعلماء العربية بحوث مستفيضة في ( الإعراب )<sup>٤</sup> ، كما أن للمستشرقين بحوثاً فيه . وقد ذهب بعض منهم إلى أن بعض اللهجات العربية القديمة ، مثل لهجة قريش لم تكن معربية ، أو أنها لم تكن على هذا النحو من الإعراب الذي ثبته وضبطه علماء العربية في الإسلام ، حتى ذهب ( كارل فولرس ) إلى أن القرآن لم يكن معيرياً في أول أمر نزوله ، لأنه نزل بلسان قريش ، وهو لسان غير معرب ، وإنما أعرب حين وضع علماء اللغة والنحو قواعد العربية على وفق لغة

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ( ٤٣/١ ) .

٢ العربية ، ليوهان فاك ( ص ٣ ) ، السيوطي ، الاشباه والنظائر ( ٧٢/١ وما بعدها ) ، الخصائص ( ٣٤/١ ) ، السيوطي ، الحاوي للفتاوى ، ( ٢٦٩/٢ وما بعدها ) .

٣ تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ( ٣١/٧ ) .

٤ راجع الفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون ( ١٢١/١ ) ، حيث تقف على أسماء بعض المؤلفات التي ألفت في اعراب القرآن .

الأعراب العربية ، التي أخلوها من تبعهم الشعر الجاهلي وكلام الأعراب<sup>١</sup> . وقد لمس ( كاله ) هذا الموضوع كللث ، وطرق الى ما ورد في الرواية من أخبار تحت المسمى على وجوب مراعاة قواعد الإعراب عند قراءته القرآن . فاستنتج منها ان كتاب الله لم يكن عند نزوله معرباً ، فلما جعل الإعراب من سمات العربية ، أعراب وفقاً لقواعدة . وساق دليلاً على رأيه هذا ما ورد من آراء بهذا الموضوع للفراء ( ٢٠٧ ) . وهو يرى ان علماء العربية استبطروا قواعد الإعراب من الشعر ومن لغات الأعراب ، ثم ضبطوا بها النص القرآني بموجها ، وبذلك سعوا خدمة القرآن<sup>٢</sup> .

وقد خالف ( كاير ) « R. Geyer » و ( نولدكه ) « Th. Nöldeke » رأى ( فولرس ) ، وذهبا الى أن ما ذهب اليه من أن القرآن لم يكن معرباً ، ثم أعراب ، رأى لا يؤيده دليل ، لا من حديث ولا من خبر أو لغة ، وذهبا الى احتمال حدوث اختلاف في القراءات ، بسبب كون الحروف صامتة ، فلما كان الرسول يتلو القرآن ، وكان الصحابة يدونونه بمحروف صامتة ، لا حرکات فيها ولا علامات تميز الحروف المشابهة بعضها من بعض ، وقع اختلاف في التلفظ بسبب عدم وجود الحرکات ، وقع اللحن من بعضهم في القراءة ، ولكن القرآن معرب ، وآية ذلك وجود آيات عديدة لا يمكن فهم معانيها إلا بقراءتها معربة<sup>٣</sup> .

ففي القرآن آيات لا تترك مجالاً للشك في أنه نزل معرباً ، ففي آية « إنا ننحي الله من عباده العلماء »<sup>٤</sup> ، وفي آية « أن الله بريء من المشركين ورسوله »<sup>٥</sup> ، وآية « وإذ ابْتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ »<sup>٦</sup> ، وآية « وإذا حضر القسمة أولوا القربي »<sup>٧</sup> ، وغيرها ، برهان واضح تفيد أن موقع الكلم فيها كان معرباً ، وأن هذا التركيب الذي مختلف معانيه باختلاف تحريكه أواخر الكلمة ، لا بد وأن يكون كلاماً معرباً

K. Vollers, Volkssprache und Schriftsprache in alten Arabien.

Strassburg, 1906, Shorter Ency., p. 276.

پوهان فك ، العربية ( ٥ حاشية ) .

Shorter Ency., p. 276.

سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

التوبه ، الآية ٣ .

البقرة ، الآية ١٢٤ .

النساء ، الآية ٨ .

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

في أصله ، وليس من التراكيب التي أصلحت فيما بعد وفقاً لقواعد الإعراب<sup>١</sup> . وروي ان أغراياً سمع إماماً يقرأ : « ولا (تنكحوا) المشركون حتى يؤمنوا » ، بفتح تنكحوا ، فقال : سبحان الله هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده ! فقيل له : إنه لحن القراءة : « ولا تُنكِحوا » ، فقال : قبحه الله ، لا تجعلوه بعدها إماماً ، فإنه يحل ما حرم الله<sup>٢</sup> .

والعربية المحسنة ، هي عربية معربة ، فيها كل خصائص الإعراب ، غير ان الإعراب يتباين فيها بعض التباين بحسب تباين اللهجات ، نقول ذلك استناداً الى ما ضبطه علماء اللغة من وجوه الاختلاف بين لغات العرب . ونرى أن الإعراب في النص المعروف بنص ( حران ) لصاحبها ( شرحيل بن ظلمو ) ( شراحيل بن ظالم ) ، ففي جملة ( بنت ذا المرطول ) الواردية فيه ، والمكتوبة بصيغة المفعولة بنصب لفظة ( ذا ) لوقوع الفعل عليها ، دلالة على وجود الإعراب في لغة هذا النص . أما جملة ( أنا شرحيل بر ظلمو ) ، فقد دونت وفقاً لقواعد النبطية لا العربية الفصحى ، مما يدل على تأثر الكاتب باللهجة النبطية .

أما بالنسبة الى عربية المستند ، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن وجود من يتكلم بها على نحو ما كانت في الجاهلية من الصفاء والأصالة ، لأن المستند لا يستعمل الحركات في الكتابة ولا آية علامة تدل على تغير أو آخر الكلمات ، فلا ندرى كيف كانوا يحرّكون أو آخر الكلم ، وعلى معرفة هذه الحركات يتوقف بالطبع معرفة وجود الأعراب من عدم وجوده في لهجة من اللهجات .

وأما بالنسبة الى النبطية ، وهي لهجة عربية شمالية ، أقرب الى العربية الفصحى من العribيات الجنوبيّة ، فقد ذهب الباحثون في قواعدها ، الى أن أواخر الكلمات فيها ، تتغير فيها بحسب مواقعها من الإعراب ، حتى ذهب بعضهم الى وجود الحركات فيها ، وهي الضمة في حالة الرفع ، والفتحة في حالة النصب ، والكسرة في حالة الجر ، غير أنهم لم يكونوا يعيّبون هذه الحركات بالتون .

والإعراب وإن سقط اليوم من لغاتنا الدارجة ، ومن لهجات الأعراب ، غير أن هنالك قبائل في جزيرة العرب ، لا تزال تتكلّم باللهجة عربية معربة ، إعرابها

١ يوهان فك ، العربية ( ٣ وما بعدها ) .

٢ عيون الاخبار ( ٢ / ١٦٠ ) .

موافق لإعراب هذه العربية الفصحى : ونحن نأسف لأن علماء العربية في هذا اليوم ، لم يهتموا حتى الآن بدراسة لهجات هذه القبائل ، ودراسة أصواتها وأنسابها ، ولم يعنوا بوضع خريطة بمواضع القبائل موزعة على حسب لهجاتها وخصائص ألسنتها ، في الماضي وفي الحاضر ، مع أن في وضع هذه الخرائط أهمية كبيرة في تعين لغات العرب ، وفي كيفية ثبيت المناطق التي انتشرت فيها العربية الفصحى ، والمناطق التي لا تزال تتحدث بها بطبيعتها ، لا عن دراسة وتمرير .

والعربية لغة واسعة ، « قال بعض الفقهاء : كلام العرب لا يحيط به إلا نبي »<sup>١</sup> . و « أن الذي انتهى اليـنا من كلام العرب هو الأقل ، ولو جاءـنا جميع ما قالـوه بلـاجـاعـنا شـعـرـ كـثـيرـ وـكـلامـ كـثـيرـ »<sup>٢</sup> . وفي كلام علماء اللغة هذا حق ، فالألـفاظـ وهي مـادـةـ الـلـغـةـ وـسـدـاـهـاـ وـلـحـمـتـهاـ لاـ يـعـكـنـ أنـ يـسـاـيـرـ عمرـهاـ عمرـ اللـغـةـ ، فـنـهـاـ مـاـ يـمـوتـ ، لـذـهـابـ الـحـاجـةـ إـلـيـهـ ، وـمـنـهـاـ مـاـ يـقـلـ اـسـتـعـالـهـ فـيـهـمـلـ ، وـمـنـهـاـ مـاـ يـوـلدـ ، لـظـهـورـ الـحـاجـةـ إـلـيـهـ ، وـقـدـ تـبـدـلـ مـعـانـيـ الـأـلـفـاظـ وـتـغـيـرـ ، إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ مـنـ أـمـورـ تـطـرـأـ عـلـىـ الـأـلـفـاظـ بـحـثـ عـنـهـاـ عـلـمـاءـ الـلـغـةـ ، وـهـيـ لـاـ تـدـخـلـ فـيـ مـوـضـوـعـنـاـ هـذـاـ ، فـيـ هـذـاـ المـكـانـ .

هـذـاـ وـلـيـسـ مـنـ السـهـلـ عـلـىـ أـحـدـ التـحدـثـ فـيـ هـذـاـ الـوقـتـ عـنـ مـبـداـ نـشـوـءـ الـعـرـبـيـةـ الفـصـحـىـ ، وـعـنـ الـأـدـوـارـ الـيـةـ مـرـتـ عـلـيـهـاـ حـتـىـ بـلـغـتـ الـمـرـاحـةـ الـتـيـ وـصـلـتـ إـلـيـهـاـ بـثـبـيـتـهـاـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ . وـذـلـكـ بـسـبـبـ عـدـمـ وـجـودـ نـصـوصـ جـاهـلـيـةـ مـدـوـنـةـ بـهـذـهـ الـلـهـجـةـ . فـالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ هـوـ الـذـيـ ثـبـيـتـهـاـ وـعـرـفـنـاـ عـلـيـهـاـ ، وـبـفـضـلـ كـوـنـهـ كـتـابـاـ مـقـدـساـ أـقـبـلـ الـعـلـمـاءـ عـلـىـ دـرـاسـةـ لـغـتـهـ ، وـاضـطـرـواـ عـلـىـ جـمـعـ قـوـاعـدـهـ ، فـصـارـتـ لـغـتـاـ الـفـصـحـىـ ، أـمـاـ الـشـعـرـ الـجـاهـلـيـ ، فـعـمـ اـقـدـمـ عـهـدـاـ مـنـ الـقـرـآنـ ، لـكـنـهـ ثـبـتـ وـدـونـ بـعـدهـ ، إـذـ لـمـ يـصـلـ إـلـيـهـاـ حـتـىـ الـآنـ أـيـ أـثـرـ مـنـ مـدـوـنـ تـدوـيـنـاـ جـاهـلـيـاـ ، وـهـذـاـ فـالـقـرـآنـ وـالـشـعـرـ هـمـ أـقـدـمـ مـاـ عـنـدـنـاـ مـنـ نـصـوصـ بـهـذـهـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ النـثـرـ وـفـيـ النـظـمـ ، وـلـوـلـاـهـمـاـ لـمـ كـانـ فـيـ وـسـعـنـاـ الـوـقـوفـ عـلـيـهـاـ .

ولـعـربـيـتـاـ بـعـدـ ، فـيـ نـظـرـ عـلـمـاءـ الـعـرـبـيـةـ خـصـائـصـ وـمـيـزـاتـ ، مـيـزـتـهـاـ كـمـاـ يـقـولـونـ عـنـ بـقـيـةـ الـلـغـاتـ مـنـهـاـ : اـتـسـاعـهـاـ مـنـ حـيـثـ الـمـفـرـدـاتـ ، وـمـنـهـاـ تـخـصـصـهـاـ دـوـنـ غـيرـهـاـ

١ المزهر (٦٤/١) ، الصاحبي (٤٧) .

٢ المزهر (٦٦/١) .

على حد قولهم بالاعراب ، ومنها ، تفردها بالمترادفات ، وبالأضداد ، أضف الى كل ذلك اتساع حجم قواعد نحوها وصرفها . قال (ابن فارس) : « فلما خص - جل ثناؤه - اللسان العربي بالبيان عُلم ان سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه . فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربي ، لأن كل من افهم بكلامه على شرط لغته فقد بين ، قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يُعرِّب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أحسن مراد البيان، لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ، ثم لا يُسمى متكلماً ، فضلاً عن أن يسمى بياناً أو بلاغاً .

وإن أردت أن سائر اللغات تبين إيانة اللغة العربية فهذ غلط ، لأننا لو احتجنا إلى أن نعبر عن السيف وأوصافه بالفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المتراوحة . فأين هذا من ذلك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ ١ .

### المترادفات :

وفي العربية ألفاظ عديدة يراد بها معنى واحد ، فللعمل (٨٠) اسماء ، وللأسد (٣٥٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وقيل (٦٧٠) ، وللحجنة (٢٠٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وللداهية (٤٠٠) ، وقيل أربعة آلاف ، وللحجر (٧٠) ، وللكلب (٧٠) ، وللسيف (٣٠) ، وقيل (١٠٠) ، وللناقة (٢٥٥) ، وللبعير (١٠٠) ، وللشمس (٥٢) ، وللخمر (١١٠) ، وقيل (٢٠٠) ، وللبشر (٨٨) ، وللماء (١٧٠) وغير ذلك ، وخاصية ما يدخل في باب الصفة ، وما يدخل في باب الميل الجنسي ، فلا تكاد تتصحّح مادة في معجم ، حتى تصيب من مترادفاته لفظاً أو أكثر ٢ .  
ويقال لهذه الألفاظ التي تدل على شيء واحد : (المترادفات) . والمتراو

١ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

٢ الرافعي (١٩٣/١) ، المزهر (٤٠٧/١) ، « جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحجنة مائتين » ، حفظت للحجر سبعين اسماء ، الصاحبي (٤٤) .

أن تكون أسماء لشيء واحد ، وهي مولدة ومشتقة من تراكب الأشياء<sup>١</sup> . وعرف بعض العلماء الترادف ، بأنه الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد<sup>٢</sup> . ولعلماء اللغة كلام في الترادفات . منهم من يقول بالترادفات ، وبأن الألفاظ وإن اختلفت فإنها ترجع إلى معنى واحد ، ومنهم من أنكر الترادف ، وزعم أن كل ما يُظن من الترادفات ، فهو من المتبادرات التي تباين بالصفات<sup>٣</sup> ، وإن في كل واحدة معنى منها معنى ليس في الآخر<sup>٤</sup> . ومن قال بالترادف ، نظر إلى اتحاد دلالتها على الذات ، ومن يمنع نظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهي تشبه الترادفة في الذات والمتبادرات في الصفات . وجعل بعضهم هذا قسماً آخر ، سماه التكافئة<sup>٥</sup> .

والذين ينکرون الترادف ، يقولون : إن كثرة الألفاظ للمعنى الواحد إذا لم تکثر بها صفات هذا المعنى كانت نوعاً من العبث تجل عنده اللغة . ويررون أن كل لفظ من الترادفات فيه ما ليس في الآخر من معنى وفائدة ، وإن كل حرفين أو قعنهما العرب على معنى واحد ففي كل واحد منها معنى ليس في صاحبه<sup>٦</sup> .

وهم يعتبرون الترادفات أسماءً تزيد معنى الصفة ، ويختلفون بذلك عن غيرهم من أنكر الترادف وقالوا إن الموضوع للمعنى الأصلي اسمًا واحدًا والباقي صفات له لا أسماء ، فأسماء السيف كلها أصلها السيف وسائرها صفات له ، كالمهند ، والصارم والغضب وغيرها<sup>٧</sup> ، ثم تنویت هذه الأحوال بالتدرج ، وكادت تتجرّد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال ، وغابت عنها الإسمية<sup>٨</sup> .

ومذهب آخر يرى إثبات الترادف ، لكنه يخصله بإقامة لفظ مقام لفظ آخر لمعان متقاربة يجمعها معنى واحد . كما يقال أصلح الفاسد ، ولم الشعث ، ورق

- |   |                                      |
|---|--------------------------------------|
| ١ | تاج العروس (١١٦/٦) ، (ردد) .         |
| ٢ | المزهر (٤٠٢/١) .                     |
| ٣ | المزهر (٤٠٣/١) .                     |
| ٤ | المزهر (٤٠٥/١) .                     |
| ٥ | المزهر (٤٠٥/١) .                     |
| ٦ | الرافعي (١٩٠/١) .                    |
| ٧ | الرافعي (١٩٠/١) .                    |
| ٨ | محمد هاشم عطية ، الأدب العربي (٣٧) . |

الفتق ، وشعب الصدع ، ونحوها . أما اطلاق الأسماء على المسمى الواحد ، فيسمونه المتورد : كالحمر ، والعقار ، والليث ، والأسد .

ومنهم من أثبت الترادف مطلقاً بدون قيد ولا اعتبار ، ولا تقسيم ، وعليه أكثر اللغويين والنحاة<sup>١</sup> .

ومن أهم أسباب الترادف في العربية ، ان العرب كانوا قبائل لها لهجات وألسنة مختلفة ، فتباينت بتباين أسمتها أسماء الأشياء . فالسكنين لغة في المدينة ، والمدينة لغة في السكين عند دوس . وفي حديث أبي هريرة : « والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » ، وذلك حين قدم من دوس ولقي الرسول ، وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : ناولني السكين ، فلم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، فقال : ألمدية ت يريد ؟ وأشار إليها فقيل له : نعم ، فقال : أو تسمى عندكم السكين ، والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » . فقد تكون قبيلة استعملت كلمة لم تستعملها الأخرى ، أو استعملت غيرها ، خصوصاً وإن بعض البيئات الطبيعية والاجتماعية لقبيلة قد تختلف ما للقبيلة الأخرى ، فقبيلة على الساحل وأخرى في جبل ، وثالثة في بادية ، وقد تأخذ قبيلة اسمآ من الأعاجم لشيء لم يعرف اسمه عندها فتعربه ، فيكون اسمآ له ، وقد تأخذ قبيلة اسمآ أو أسماء توجد في لسانها من لسان قبيلة أو ألسنة قبائل أخرى ، فلما جمع علماء اللغة ألفاظ العربية ودونوها ، ولم يفطنوا إلى أصلها ولا إلى القبائل التي استعملتها ، ولا إلى تأريخها ، لعدم وجود هذا النحو من البحث عندهم في ذلك الوقت ، فدونت على أنها مترادفات ، وهم في ذلك على صواب ، ولكنهم كانوا على خطأ ، من حيث أنهم لم يدركوا أنها كانت لغات قبائل ، وإن جمعهم للألفاظ ، وإهمالهم الاشارة إلى أسماء القبائل المتكلمة بها ، جعلها مترادفات بالمعنى الذي ذهبوا به اليه . وبذلك اتسعت مادة مفردات المعجم العربي اتساعاً كبيراً ، وهو في حقيقته حاصل جمع لهجات ،أخذ من اختلاف الألسنة ومن مختلف اللهجات ، فضم كله إلى معجم العربية ، وظهر على أنه مفردات هذه العربية ، لعدم إفصاح علماء اللغة

١ الرافعي (١٩١/١) .

٢ تاج العروس (٢٣٨/٩) ، (سكن) ، الاصابة (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (رقم ١١٩٠) ، الاستيعاب (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، فجر الاسلام (٥٢) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٢١٤) .

عن أصل كل متزادف وعن اللسان الذي نطق به في الغالب، فعمي الأمر علينا ، وصرنا نعتبر هذه الألفاظ التي تقصد مسمى واحداً من المتزادات .

ويرى بعض علماء اللغة أن من أسباب وقوع التزاد أن الصفات قد تحول بخشى الاستعمال وبكثره ورودها على الألسنة فتزل هذه الصفات منزلة المحسائق العُرْفِيَّة<sup>١</sup> . وقد تضخمت كتب اللغة كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء، فذكرها اللغويون على أنها أسماء تلك الأشياء ، « فثلاً إذا أطلق شاعر كلمة أهْسِّصْمْ على الأسد من المضم وهو الكسر ، وأطلق عليه آخر المُرَأَّسْ من المهرس ، وهو الدق ، وضع أصحاب المعاجم الكلمتين على أنها اسمان مرادفات للأسد »<sup>٢</sup> .

ولا يبعد ثراء لغة بكثرة مفرداتها ومتزاداتها دليلاً على ثراء تلك اللغة ، ولا امارة على تقدمها من الناحية العقلية ، فإن اللغة تستمد مادتها من جميع مخصوصيات اللغة الخاصة بالحرف ، والمعنى ، وبالحياة الروحية ، كما تستمدها من جميع لهجات القبائل ، وما نجده من كثرة مفردات ومتزادات في العربية ، لا يعود إلى كون هذه العربية لغة قبيلة واحدة ، أو عرب من العرب ، وإنما بسبب كونه حاصل جمع لغات ، جمعه العلماء من ألسنة متعددة فدوّنوه ، فظاهر الشيء الواحد وقد يكون له عشرة أسماء أو أكثر من ذلك أو أقل حسب كثرة أو ندرة استعماله بين العرب ، فما كان مألوفاً عندهم ، وكانوا في حاجة ماسة إليه ، وكان استعمالهم له كثيراً ، وقوائمه بالنسبة لهم عديدة ، كثرت مسمياته ، بل مسميات أجزائه كما كثرت عندهم صفاتيه ، التي تحول عرور الزمن إلى أسماء ، وهذا نجد في العربية كثرة من الأسماء والألفاظ ، هي في الأصل صفات ونوعات لخصائص أشياء<sup>٣</sup> .

ومن أمثلة المتزادات في العربية : القمح ، والبر ، والحنطة ، قال علماء اللغة : القمح : البر ، لغة شامية ، « وأهل الحجاز قد تكلموا بها ، وقد تكرر ذكره في الحديث . وقيل لغة قبطية<sup>٤</sup> ، والبر بالضم الحنطة ... قال المتنحى المذلي :

١ المزهر (٤٠٢/١ وما بعدها) ، الرافعي (١٩٢/١) .

٢ فجر الاسلام (٥٤) .

٣ بروكلمن (٤٣/١) .

٤ تاج العروس (٢٠٨/٢) ، (قمح) .

## لا درّي إن أطعمت نازلكم قرف الحني وعندي البر مكنوز

قال ابن دريد : « البر أفعص من قولهم الحنطة واحدته بُرّة »<sup>١</sup> ، « والحنطة بالكسر البر الحب المعروف »<sup>٢</sup> . وهي في الواقع ألفاظ وردت في لغات ، حين ضبطها علماء اللغة ، فات عليهم أنها لم تكن مستعملة في كل لغات العرب ، وإنما هي في لغات بعض منهم . فالقمع مثلاً ، لفظة وردت في لغات عرب الشام والهجاز ، لأنها من أصل آرامي ، هو ( قحو )<sup>٣</sup> ، وقد كان أهل الهجاز في الجاهلية يستوردون القمح من بلاد الشام ، فأبقوها التسمية الآرامية على حمالها ، بعد أن أجروا عليها بعض التعديل . وأما ( الحنطة ) ، فنجدها مقلباً في العبرانية هو « Chittah » في العبرانية<sup>٤</sup> ، مما يدل على ان اللفظة كانت مستعملة في العربية الغربية . وأما لفظة ( بُرّ ) ، فهي من الألفاظ التي وردت في نص ( أبرهة ) ، فهي لغة عمانية وحجازية ، وقد نص علماء اللغة على ورودها في لغة أهل الهجاز ، وربما أخذوها من أهل اليمن ، الذين عرفوا بزراعتهم للبر قبل الاسلام . ووردت لفظة ( بُرّ ) بمعنى حنطة في النص الموسوم بـ « Jamme ٦٧٠ » إذ ورد فيه : ( برم وشعرم على أرضهم )<sup>٥</sup> ، أي ( حنطة وشبر في أرضهم ) ( حنطة وشبر من أرضهم ) .

وما يكثر في هذه العربية ( المشترك ) ، وحده : اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة . ولعلماء اللغة بحوث فيه ، فنهم من يؤيد وقوعه ومنهم من ينكر : ومن المشترك : العم ، فالعم آخر الأب ، والعم : الجمع الكبير ، ومشى ، فشي يعشى من المشي ، ومشى إذا كثرت ماشيته ، وللنوى مواضع ، وللروبة والرؤبة معان ، وللأرض معان ، وللفظة الملال معان ، وللفظ العين معان كثيرة ومواضع عديدة ، إلى غير ذلك من ألفاظ تجدها في كتب اللغة<sup>٦</sup> .

- ١ تاج العروس ( ٣٨/٣ ) ، ( بُر ) .
- ٢ تاج العروس ( ١٢١/٥ ) ، ( حنط ) .
- ٣ غرائب اللغة ( ٢٠٢ ) .
- ٤ راجع سفر التكوير ، الاصحاح ٣٠ ، الآية ١٤ ، سفر الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الآية ٢٢ ، الأصل « العبري » .
- ٥ السطر ٢٦ - ٢٧ من النص .
- ٦ المزهر ( ٣٦٩/١ ) ، ( النوع الخامس والعشرون ) .

وفي العربية : الأضداد . وهو أن يكون للكلمة معنى ، ثم يكون لها معنى آخر مضاد له . وهو ما اتفق لفظه وانختلف معناه ، مثل جلل للكبير والصغير ، والعظيم والمحبب . ومثل الجنون ، للأسود والأبيض . والقوى ، للقوي والضعف ، والرجاء للرغبة والخوف . والبسيل للحلال والحرام . والنائل للعطشان ، والنائل ، الذي قد شرب حتى روي . والسدفة في لغة تميم : الظلمة ، والسدفة في لغة قيس : الضوء . والللتقة : الكتابة في لغةبني عقيل ، والمحو في سائر قيس . والحادي : السائل ، والمعطي . والرس : الإصلاح بين الناس ، والإفساد أيضاً . والشري : رذال المال ، وأيضاً خياره . إلى غير ذلك من أمثلة ذكرها علماء العربية<sup>١</sup> .

ولبعض علماء العربية قصة يضربونها مثلاً على الأضداد ، فيقولون : « خرج رجل من بني كلاب ، أو من سائر بني عامر بن صعصعة ، إلى ذي جدن ، فأطلع على سطح ، والملك عليه ، فلما رأه الملك اختبره ، فقال له : ثِبْ أيَ أَقْدَعْ . فقال : لِيَعْلُمَ الْمَلِكُ أَنِّي سَامِعٌ مَطْبِعٌ ، ثُمَّ وَثَبَ مِنَ السَّطْحِ : فَقَالَ الْمَلِكُ : مَا شَأْنُهُ ؟ فَقَالُوا لَهُ : أَبَيْتَ اللَّعْنَ ! إِنَّ الرَّوْبَ فِي كَلَامِ نَزَارِ الطَّمَرِ . فَقَالَ الْمَلِكُ : لَيْسَ عَرِيبَتِنَا كَعِرِيبَتِهِمْ ؛ مِنْ طَفْرِ حَمْرَ . أَيُّ مِنْ أَرَادَ أَنْ يَقِيمَ بِظَفَارِ فَلِيَنْكِلَ الْعَرَبِيَّةَ ؟ وَرَوَاهَا (السيوطى) فِي كِتَابِهِ (المزهـر) الَّذِي أَنْجَدَتْ مِنْهُ الْقَصْةُ بِهَذَا الشَّكْلِ أَيْضًا : « وَرَوَى زَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَارَمَ ، وَفَدَ عَلَى بَعْضِ مَلُوكِ حَمْرَ ، فَأَلْفَاهُ فِي مَتْصِيدٍ لَهُ عَلَى جَبَلٍ مَشْرُفٍ ، فَسَلَمَ عَلَيْهِ وَانْتَسَبَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : ثِبْ ، أَيِّ اجْلَسَ ، وَظَنَّ الرَّجُلُ أَنَّهُ أَمْرٌ بِالْوَثْوَبِ مِنَ الْجَبَلِ ، فَقَالَ : سَتَجْدِنِي أَيْمَانِ الْمَلِكِ مَطْوَاعًا ؛ ثُمَّ وَثَبَ مِنَ الْجَبَلِ فَهَلَكَ . فَقَالَ الْمَلِكُ : مَا شَأْنُهُ ؟ فَخَبَرُوهُ بِقَصْتِهِ وَغَلَطَتِهِ فِي الْكَلْمَةِ . فَقَالُوا : أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ عَرِيبَتِنَا عَرِيبَتِهِمْ ؟ أَيُّ فَلِيَتَعْلَمُ الْحَمِيرِيَّةَ ؟ وَذَكَرَ أَنَّ « عَامِرَ بْنَ الطَّفِيلَ » قَدَمَ عَلَى الرَّسُولِ ، فَوَثَبَهُ وَسَادَةُ ، وَالْوَثَابُ الْفَرَاشُ بِلِغَةِ حَمْرَ .

١ المزهـر (٣٨٧/١) ، (النوع السادس والعشرون : معرفة الأضداد) .

٢ المزهـر (٣٩٦/١) وما بعدها ) .

٣ المزهـر (٢٥٦/١ وما بعدها) ، تاج العروس (٤٩٩/١) ، (ونب) ، الصاحبـي (٥١) ، الفائق (١٤٤/٣) .

وهم يسمون الملك إذا كان لا يغزو موئبان، يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو<sup>١</sup>. ومن الأضداد ألفاظ قليلة ، واضحة الصدية يطلقها الناس على الضد لاعتبارات لديهم ، مثل اطلاق لفظة ( البصير ) على الأعمى ، و ( السليم ) على اللدغ . ولعلماء العربية بحوث وآراء في علة ظهور الأضداد . منهم من يرى ان الحرف اذا وقع على معنين متضادين ، فالاصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع ، فن ذلك **الصريم**<sup>٢</sup> ، يقال لليل صريم ، ولنهار صريم ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنين من باب واحد وهو القطع . وقال آخرون : اذا وقع الحرف على معنين متضادين ، فحال أن يكون العربي أوقعه عليها بمساواة منه بينها ، ولكن أحد المعنين **لحي**<sup>٣</sup> من العرب والمعنى الآخر **لحي غيره**<sup>٤</sup> ، فلما سجل علماء اللغة مفردات الألفاظ لم يسجلوا في الأكثر اسم القبيلة أو القبائل التي كانت تقطن بها ، فظن أن هذا التضاد هو مما وقع هذه العربية ، وأغا هو في الأكثر حاصل جمع لغات .

وقد أنكر ناس مذهب الأضداد ، ومذهبهم ان الشيء لا يمكن أن يدل على الشيء وضده ، وأن النقيضين لا يوضع لها لفظ واحد ، ومن هؤلاء : (أبو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه) ، (توفي نيف وثلاثين وثلاثمائة) ، وهو من علماء البصرة ومن المتعصبين لأهل البصرة ، وهو صاحب مؤلف في الأضداد ، ذكره (ابن النديم)<sup>٥</sup> ، فهو من ذهب الى انكار الأضداد ، وأئبته آخرون قائلين : يجوز أن يوضع لها لفظ واحد من قبيلتين . وأن المشترك يقع على شترين ضديدين ، وعلى مختلفين غير ضديدين<sup>٦</sup> . ومن المثبتين له : قطرب ، وابن الأنباري ، و (ابن فارس) ، وغيرهم<sup>٧</sup> .

وقد ألف في الأضداد قوم من العلماء ، منهم : أبو علي محمد بن المستير ، ويقال أحمد بن محمد ، ويقال الحسن بن محمد ، المعروف بقطرب المتوفى سنة

- |   |   |
|---|---|
| ١ | الصاجي (٥١) .                             |
| ٢ | المزهر (١/٤٠٠ وما بعدها) .                |
| ٣ | الفهرست (٩٩ وما بعدها) ، المزهر (٣٨٧/١) . |
| ٤ | المزهر (٣٩٦/١) .                          |
| ٥ | المزهر (٣٨٧/١) .                          |
| ٦ | المزهر (٣٨٧/١ وما بعدها) .                |

(٢٠٦) للهجرة ، فله كتاب في هذا الموضوع ، يسمى : كتاب الأضداد ، كما أن له كتاباً منهاً في علل النحو ، اسمه كتاب العلل في النحو ، ولله مؤلفات أخرى ذكرها (ابن النديم)<sup>١</sup> . ومنهم (الأصمعي)<sup>٢</sup> ، و(التوزي)<sup>٣</sup> ، وهو (أبو محمد عبدالله بن محمد بن هارون) المتوفى سنة (٤٢٥)<sup>٤</sup> ، و (ابن السكيت)<sup>٥</sup> ، و (السجستاني)<sup>٦</sup> ، وابن الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم المتوفى سنة (٣٢٨)<sup>٧</sup> ، صاحب مؤلف في الأضداد دعاه (ابن النديم) كتاب الأضداد في النحو . وهو من اشتغل بجمع دواين من أشعار العرب الفحول<sup>٨</sup> ، وغيرهم .

وعدّ علماء اللغة القلب ، والإدغام ، والابدال من خصائص العربية التي امتازت بها على اللغات الأخرى<sup>٩</sup> . وهي أمور تحتاج إلى دراسة عميقة ، لأن دراسة علماء اللغة لها ، لم تنبت عن دراسات علمية لبقية اللهجات ، ثم أنها ملاحظات سطحية أخذت من أشخاص ، وليس من دراسة قبيلة كلها ، إذ كان ذلك إذا ذلك أمراً غير ميسور ولا يمكن . ولو درستنا الأمور المذكورة ، نجد أنها حاصل لهجات ، لا من تبديل شخص لحرف أو قلبه حرفاً أو ما شاكل ذلك ، واتباع الناس بعد ذلك له .

وما يلاحظ في هذه العربية هو كثرة ما فيها من جموع التكسير . وقد نجد فيها لفظة واحدة ، وقد جمعت في عدة جموع ، وهو دليل في نظري على أنه من بقایا اللهجات . فلما شرع العلماء بالتدوين ، وراجعوا الشعر والأخبار ، والأعراب ، وجدوا أمامهم جموعاً لكلمة واحدة ، فسجلوها دون أن يشيروا إلى الجهة التي أخذوا الجمع منه ، والى قبيلة الأعرابي الذي نطق لهم به ، فظن أنها جموع هذه العربية ، ولا يعقل أن تكون كل هذه الجموع حاصل لغة واحدة . وهي

- ١ الفهرست (٨٤) ، المزهر (٣٩٧/١) .
- ٢ الفهرست (٨٨) ، المزهر (٣٩٧/١) .
- ٣ المزهر (٣٩٧/١) .
- ٤ الفهرست (١١٤) ، المزهر (٣٩٧/١) .
- ٥ الفهرست (٩٣) ، المزهر (٣٩٧/١) .
- ٦ الفهرست (١١٨) ، المزهر (٣٩٧/١) .
- ٧ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

سماوية سمعت من أبناء القبائل فجمعت ، وهي لم تخضع لذلك لأحكام القياس والقواعد المألوفة .

ومن هذا القبيل بعض الجموع الملحقة بجمع المذكر السالم ، مثل : أرضون ، وأهلون ، وعلمون ، وستون ، ومئون ، وعشرون ، وععزون ، فهذه من بقايا قواعد قدية ، ترجع الى لهجات ، حين شرع علماء اللغة في تدوينها لم يفطنوا الى تدوين اسم اللسان الذي نطق بها .

وطبيعي أن تكون العربية فقيرة في الألفاظ التي لا تدخل معانيها في ضمن حياة أهلها ، كألفاظ الترف التي ينعم بها المنغمسون في الحضارة ، والألفاظ المستعملة في الحكومات وفي أنواع الدواوين والصناعات وما شاكل ذلك مما يكون عند الحضر ، ولا يألفه أهل الوبير ، لعدم وجوده عندهم ، ولكن العربية ، إذا شعرت بالحاجة اليها ، أو اضطررت الى استعمالها ، أخذ أهلها أسماءها عن يعرفها ، واستعملوها معربة أو بأصولها في لغتهم ، ومن هنا كثُر الدخيل في العربية في الإسلام<sup>١</sup> .

وحيث أن اللغة دلالة على طراز حياة الأمة وعلى مقدار درجة حياتها العقلية ، نجد العربية غنية غنى مفرطاً في الحدود التي رسمتها لهم بيتهن ، فهم أغنياء في الجمل ، يعرفون كل جزء منه ، وقد وضعوا ألفاظاً لكل عضو من أعضائه منها دق فيه . وهم أغنياء فيها يتعلق بالصحراء وفي المطر ، وفي كل شيء يتصل بحياتهم ، فهي من هنا لغة تمثل عقلية التكلمين بها ، غلت مصطلحات البداوة فيها على مصطلحات الحضارة ، ستة كل أمة تكون حياتها على هذا النط من المعيشة .

وليست اللغة العربية غنية بمفرداتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها أيضاً، فجموح التكثير وأحياناً الأفعال كثيرة كثرة زائدة عن الحاجة<sup>٢</sup> . وهي « غنية باشتراكها وتصريف كلماتها » ، فوضع صيغة فعلية لكل زمن ، والمشتقات العديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعاني والأشخاص ، كل هذا يشعرنا شعوراً تاماً بمعنى اللغة وصلاحيتها للبقاء<sup>٣</sup> .

---

١ فجر الاسلام (٥٥) .  
٢ فجر الاسلام (٥٤) .  
٣ فجر الاسلام (٥٥) .

وليس غنى العربية بالمفردات بدليل حتى على سعة هذه اللغة . وإنما هو غنى نتج من حاصل لغات العرب ومن كثرة تعدد همجانهم . فلما كانت القبائل تتصل بعضها بعض وتكون مجموعات وكل وأحلاف سياسية ، للدفاع عن نفسها وللغزو ، وما كان الشعراء وسادات القبائل وغيرهم ، يزورون غيرهم ويتنقلون من مكان إلى مكان ، وقد يقيمون اقامة طويلة في مكان ما ، يجاورون ويواتون ، اشتبكت أسمتهم ، فأخذت وأعطت ، وزاد هذا الاشتباك حدة ، تنافس الماذرة والفساسنة على الزعامة ، وتدخل الروم والفرس والجيش في شؤون جزيرة العرب ، وجيء المبشرين النصارى إلى القبائل للتبشر بينها ، واحتلاط اليهود بالعرب ، وهم أصحاب دين ، واحتلاط التجار الأعاجم بالعرب في السواحل وفي البواطن ، وسفر أهل القرى وسادات القبائل إلى الشام والعراق للتجارة وللتزيارة وللتربوية عن النفس ، وأمثال ذلك ، فكان أن أوجد كل هذا المذكور وغيره وعيًّا وحساً وشعوراً بوجوب التكتل والتجمع وبأنهم من أممة واحدة ، وبأن في حياتهم التي يعيشونها من جميع نواحيها ما يحتاج إلى اصلاح وتحير ونظر . وقد تجسد هذا الوعي في لغاتهم التي تقارب ، وفي آراء الأحناف وأصحاب الرأي ، وفي أقوال الحكماء ولا سيما المتألهين والمعتقلين منهم ، وفي الشعر الجاهلي ، ولا سيما في شعر أولئك الشعراء الذين زاروا الحضر واتصلوا بأهل الحضارة ، وجالوا أهل الديانات وأطلعوا على مقالاتهم وآرائهم وكتابهم ، فنجد فيه أثر الأخذ والتأثير ، حتى في استعمال الألفاظ ، إذ سمحوا لأنفسهم باستعمال الألفاظ الأعمجمية ، كما في شعر الأعشى وأمية بن أبي الصلت ، الذي أدخل ألفاظاً في شعره غير مألوفة عند العرب .

ثم جاء الإسلام ، بكتاب سماوي ، صار لسانه لسان المسلمين ، فظهرت الحاجة إلى التدوين والبحث والتنتقيب لشرح كتاب الله وحديث رسوله وتفسير أحكام الله . فكان حاصل ذلك علوم اللسان . من مفردات جمعت من القرآن ومن الحديث ومن الشعر ومن السنة العرب ، ضربت في كتب اللغة والمعاجم ، وكزنت بذلك هيكل العربية الفصيحة . وهو بناء عملاق لم يعمل من مادة واحدة ، وإنما من مواد أساسية عديدة ، هي هججات القرآن والشعر ولغات القبائل التي رجع علماء اللغة إلى أفرادها وإليها للأخذ منها ، فهذا الغنى الملمحوظ في مفردات العربية الفصيحة ، إذن هو غنى سببه كونه حاصل لغات قبائل ، لا حاصل لغة واحدة أو لسان عربي معين .

وتولدت في الاسلام معانٍ خاصةً للفاظ جاهلية غلت عليها واحتضنت بها ، والى معانيها الجديدة قصد في الاسلام ، كما ماتت ألفاظ جاهلية أماتها الاسلام ، بسبب أنها كانت تؤدي معانٍ خاصةً بالنسبة لذلك الوقت ، فقد روي ان النبي قال : « لا تقولوا ددع ولا لملع ، ولكن قولوا : اللهم ارفع واقع . فلولا أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرهها النبي »<sup>١</sup> ، وروي انه نهى عن قول : خبشت نفسى ، واستأثر الله بفلان<sup>٢</sup> .

ومن الألفاظ الاسلامية : المؤمن ، والمسلم ، والكافر ، والمنافق<sup>٣</sup> ، ومحضمر ، وصلة ، وصوم ، وغير ذلك . ومن الألفاظ التي كانت فزالت يزولها معانيها : المربع ، والشبيطة ، والفضول ، والإتاوة ، والخلوان ، وأيّت اللعن ، والتوافع ، للإبل تساق في الصداق ، وحجرأً محجوراً ، لمعتين : الحرمان ، اذا سئل الانسان قال : حجرأً محجوراً ، والوجه الآخر الاستعاذه<sup>٤</sup> ، وأنعم صباحاً ، وأنعم مساء ، وأنعم ظلاماً ، وعموا صباحاً ، وعموا ظلاماً ، اذ حل السلام محلها في الاسلام . وظهرت الحاجة في الوقت نفسه الى وضع قواعد في نحو وصرف هذه اللغة ، لصيانة الانسان من الخطأ ، ولتعلم الأعاجم بها كيفية النطق بفصاحة وسلامة بهذا اللسان الجديد عليهم . فكان ما كان من وضع التحو مستعيناً بالأسس النحوية (التراماتيقية) ، التي كانت قد وجدت سبيلها الى العراق من أصول قديمة ، ثم تتبع كلام العرب وبالاستقراء ، وقياس القواعد بعضها على بعض وبالتعليل ، يعللون التحو ويعتبرون به كلام العرب ، ثم لم يكتفوا بذلك كله ، فأخذوا دروب الbadia ، للأخذ عن القبائل التي اشتهرت بالفصاحة والمحافظة على سلامتها لسانها ، وتلقوا الأعراب الذين يطربون من الbadia على الحضر ، فأخذوا من هؤلاء ومن هؤلاء علمآً كثيراً باللغة وبالشعر وبالغريب وبالنادر وبكل ما يتصل بالعربية من أسباب حتى جمعوا ما جمعوه من تراث هذه اللغة الخالد في بطون الكتب .

١ الصاحبي ( ٧٠ ) .

٢ الصاحبي ( ٩٢ وما بعدها ) .

٣ الصاحبي ( ٧٩ ) .

٤ الصاحبي ( ٨٩ وما بعدها ) .

٥ المزهر ( ٢٩٤ / ١ وما بعدها ) ، ( النوع العشرون : معرفة الألفاظ الاسلامية ) .

## الفصل السابع والثلاثون بعد المئة

### لغات العرب

قال ( الطبرى ) في تفسيره : « كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان متباهيوا المنطق والكلام »<sup>١</sup> . وأن ألسنتهم كانت كثرة كثرة يعجز عن احصائها<sup>٢</sup> . وقد ذكر غيره مثل ذلك ، ذكر أن لغات العرب كانت متباهية ، وأن بعضها كانت بعيدة بعدها<sup>٣</sup> كبيراً عن عربيتنا ، كالألسنة العربية الجنوبية ومنها الحميرية . قال ( ابن جني ) : « وبعد فلنسنا نشك في بعده لغة حمير ونحوها عن لغة بن نزار »<sup>٤</sup> ، وقال ( أبو عمرو بن العلاء ) : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » . وذكر ( ابن فارس ) ، أن ولد ( اسماعيل ) ، يزيد بهم العدنانية « يعبرون ولد قحطان أنهم ليسوا عرباً ويحتاجون عليهم بأن لسانهم الحميرية ، وأنهم يسمون اللحية بغير اسمها مع قول الله - جل ثراه - في قصة من قال : لا تأخذ بلحبي ولا برأسى ، وأنهم يسمون الذئب القلوب مع قوله : وأخاف أن يأكله الذئب ... وما أشبه ذلك »<sup>٥</sup> . وقد عرف ذلك الكتبة ( الكلاسيكيون ) وغيرهم . فذكر مؤلف كتاب

١ تفسير الطبرى ( ٩/١ ) ، ( بولاق ) .

٢ تفسير الطبرى ( ١٥/١ ) .

٣ الخصائص ( ٣٩٢/١ ) ، « وقال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » ، ابن سلام ، طبقات ( ٤ وما بعدها ) .

٤ الصاحبي ( ٥٥ ) .

( الطواف حول البحر الأحمر ) « Periplus mare Erythrae » أن سكان سواحل البحر الأحمر الذين كافسوا يقيمون بين مدينة « Leuke Kome » ، وميناء Muza ، يتكلمون بلهجات مختلفة ولغات متباينة ، قل منهم من يفهمها عن الثاني ، وبعضها بعيد عن بعض بعدهاً كثيراً<sup>١</sup> . وقد عاش مؤلف هذا الكتاب في القرن الأول للميلاد ، والسائل الذي ذكره هو ساحل العجاز .

وأصبح اليوم من الأمور المعروفة أن أهل العربية الجنوية كانوا يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، بدليل هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها في تلك الأرضين ، وهي بلسان ميابن لعربتنا ، حيث تبين من دراستها وفحصها أنها كتبت بعربيه تختلف عن عربية الشعر الجاهلي ، وبقواعد تختلف عن قواعد هذه اللغة<sup>٢</sup> . وهي لو قرئت على عربي من عرب هذا اليوم ، حتى إن كان من العربية الجنوية ، فإنه لن يفهم منها شيئاً ، لأنها كتبت بعربيه بعيدة عن عربية هذا اليوم ، وقد ماتت تلك العربية ، بسبب تغلب عربية القرآن عليها .

كما عثر في العربية الغربية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب على نصوص معينة ولحيانية وثوردية وغيرها ، وهي مختلفة بعضها عن بعض ، ومتقدمة أيضاً عن (العربيه) لغة القرآن الكريم .

ومع إدراك الرواة وعلماء اللغة وجود الخلاف في السنة العرب ، فإنهم لم يدونوا اللهجات على أنها اللهجات مستقلة ذات طابع لغوي خاص ، لها قواعد نحوية وصرفية ، تختلف اختلافاً متبايناً عن نحو وصرف عربية القرآن الكريم ، وإنما تناقلوا من ذلك أشياء كانت لعهد الإسلام ، وأشياء أصابوها في أشعار العرب مما صحت روایته قبیل ذلك . أما سواد ما كتبوه ، فقد شافهوا به العرب في بواديها وسمعوا منهم ، وهو بلا ريب من بقايا اللهجات التي كانت لعهد الجاهلية<sup>٣</sup> .

على أنهم لم يدونوا من كل ذلك إلا كفاية الحاجة القليلة في تصاريف الكلام أو ما تنهض به أدلة الاختلاف بين العلماء المتناظرين من شواهد في الغريب والنادر وفي القواعد . أما تدوين اللهجات على أنها أصل من أصول اللغة ، وأما تسجيل

1 The Periplus of the Erythrean Sea, 24.

2 الصفة ( ١٣٤ ) .

3 الرافعي ، تاريخ آداب العرب ( ١٢٣ / ١ وما بعدها ) .

قواعد صرف ونحو تلك اللهجات ، فهذا ما لم يحصل به أحد ، ولم يقدم عليه عالم فيها نعلم من أخبار الكتب التي وصلت إلينا ، لأن أكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يرجع إلى علوم القرآن والحديث ، ولغتها اللغة الفصحى ، اللغة التي تعلو على اللغات ، أما ما دونها فلغات دونها في المزلة والفصاحة ، وألست شاذة غير فصيحة ، ليس من اللائق بالعالم إضاعة وقته في البحث عنها ، وفي التقبيل في قواعد نحوها وصرفها ، وهي فوق ذلك لغات بطون وعشائر وقبائل ومواضع ، ليس لها أتباع كثيرون ، وقد أقبلوا على استعمال عربية الإسلام ، وفي إحياء العribيات الأخرى إحياء للجاهلية<sup>١</sup> .

«رأينا علماء اللغة وأهل العربية قد طرحا أمثلة اختلاف اللغات في كتبهم ، فلا قيمة لها عندهم إلا حيث يطلبها الشاهد وتقتضيها النادرة في عرض كلامهم ، لأنهم لم يعتبروها اعتباراً تاريجياً ، فقد عاصروا أهلها ، واستغثوا بهذه المعاصرة عن توريث تاريجها لمن بعدهم ، ولو أن منهم من نصب نفسه لجمع هذه الاختلافات وإفرادها بالتدوين بعد استقصائها من لهجات العرب ، وتمييز أنواعها بحسب المقاربة والمباعدة ، والنظر في أنساب القبائل التي تتقارب في لهجاتها والتي تبتعد ، وتعيين منازل كل طائفة من جزيرة العرب والرجوع مع تاريجها إلى عهدها الأول الذي يتوارث علمه شيوخ القبيلة وأهل أنسابها ، نخرج من ذلك علم صحيح في تاريخ اللغة وأدوار نشأتها الاجتماعية ، يُرجع اليه على تطاول الأيام وتقادم الأزماء ، ولكن هذا يعد أصلاً فيما يمكن أن يسمى تاريخ آداب العرب ، يفرعون منه ويختذلون مثاله في الشعر وغيره من ضروب الأدب .

ولكن القوم انتصرفوا عن هذا وأمثاله لاعتقادهم أصالة اللغة ، وانما خلفت كاملة بالوحى والتوقيف ، وإن أوضح اللهجات إنما هي لهجة اسماعيل عليه السلام ، وهي العربية القديمة الجيدة كما قال سيبويه<sup>٢</sup> .

« وعلى هذا اعتبروا لهجات العرب لعهدهم كأنها أنواع منحطة خرجت عن أصلها القرشي بما طرأ عليها من تقادم العهد وعبث التاريخ ، فلم يجيئوا ببعضها إلا شاهداً على الفصاحة الأصلية في العربية وخلوها من التناحر والشذوذ ، وإنما

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٢٣/١ وما بعدها) .

٢ الرافعي (١٣٣/١ وما بعدها) .

على الذي جمعوه من أصول العربية ، وتفصيلاً لكل شيء لا التاريخ »<sup>١</sup> .

« ومنع أن الرواية قد وضعوا كثيرة ومصنفات ممتعة في قبائل العرب ومنازلها وأنسابها وأسمائها واشتقاق الأسماء وألقابها ومدحها وأشعارها وفوانيسها وأيامها ، ونحو ذلك مما يرجع إلى التاريخ المتعدد ، فلو أنهم اعتقادوا اللغات بسبب من ذلك ولم يعرفوها بالوصف الديني الثابت الذي لا يتغير في حقيقته ، لأجزروها مجرى غيرها من آثار التاريخ ، ولكن ذلك الزمن قد طُوي بأهله ، ولحق فرعه بأصله ، فبقي ذلك الخطأ التاريخي كأن صوابه من بعض التاريخ الذي هو حديث العيب »<sup>٢</sup> .

ويستمر (الرافعي) في حديثه هذا ، فيقول : « نقول هذا وقد قرأتنا ما بين أيدينا من كتب الفهرست والترجمات والطبقات على كثرتها ، وتيتنا ما يسرد فيها من أسماء الكتب والأصناف ، عسى أن نجد من آثار أحد الرواية أو العلماء ما يدل على وضع كتاب في تاريخ لهجات العرب وتمييز لغاتها على الوجه الذي أومنا به ، أو ما عسى أن نستدل به على أنهم كانوا يعتبرون ذلك اعتباراً تاريجياً ؛ ولكننا خرجنا منها على حساب ما دخلنا فيها : صفر في صفر ؟ ولم يزدنا تعداد أسماء الكتب علماً بموت هذا العلم وأنه لا كتب له ، للسبب الذي شرحناه من اعتبارهم أصلالة العربية »<sup>٣</sup> .

وفي كتاب (الفهرست) لابن التديم ، وفي المؤلفات الأخرى أسماء كتب وضعها علماء اللغة في اللغات ، من ذلك (كتاب اللغات) ليونس بن حبيب (١٨٣ هـ) من علماء العربية ، وكان أعلم الناس بتصاريف النحو ، و (كتاب اللغات) لأبي زيد الانصاري (٢١٥ هـ)<sup>٤</sup> ، و (كتاب اللغات) للأصمعي (٢١٣ هـ)<sup>٥</sup> ، (٢١٧ هـ)<sup>٦</sup> ، و (كتاب اللغات) لابن دريد (٣٢١ هـ)<sup>٧</sup> ، و (كتاب

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٣٤/١) .

٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٣٤/١) .

٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٣٤/١ وما بعدها) .

٤ الفهرست (ص ٦٩) .

٥ الفهرست (٨٧) .

٦ الفهرست (٨٨) .

٧ الفهرست (٩٧) .

اللغات ) لأبي عمرو الشيباني ( ٢١٣ هـ )<sup>١</sup> ، و ( كتاب مجرد الغريب ) على مثال العين وعلى غير ترتيبه ، وأوله هذا كتاب ألفه في غريب كلام العرب ولغاتها على عدد حروف المجامه المئانية والعشرين ، وهو لعلي بن الحسن ، ويكوني أبو الحسن المئاني<sup>٢</sup> ، و ( كتاب الاستعانة بالشعر وما جاء في اللغات ) لعمر بن شبة ( ٢٦٢ هـ )<sup>٣</sup> ، الى غير ذلك من مؤلفات دونت في هذا الباب . لكننا لا نستطيع أن نتحدث عما عاجلته من موضوعات وعما ورد فيها من بحوث ، بسبب أنها لا تملك نسخاً منها ، فلا ندرى إذا كانت قد وضعت في خصائص لغات العرب من نحو وصرف ومفردات ، أم أنها ألفت في الشواذ والتواتر وفي الأضداد واختلاف الألفاظ ، وما يتعارض الأبنية من الاختلاف الصRFي والنحوى ، لأن كل وجه من ذلك إنما هو أثر من لغة . والأصح ، أنها لم توضع في خصائص لغات الجاهليين وفي قواعد نحوها وصرفها لضبطها ، كالذى فعلوه في دراسة عربية القرآن الكريم ، فهذا عمل كبير ، يحتاج الى استقراء وتتبع لألسنة العرب في الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، وإنما كانت قد ألفت فيما جاء في الشعر الجاهلي وفي نوادر الأعراب وكلامهم من اختلاف وتغاير وشواذ ، مما يغاير لغة القرآن الكريم . ودليل ذلك ، أننا نرى أن المؤلفات التي نقلت من تلك الكتب في باب لغات العرب ، لم تتحدث بشيء عن أصول نحو وصرف تلك اللغات ، وإنما تحدثت عن أمور ذكرت أنها خرجت فيها على قواعد العربية الفصحى ، وشددت بها عنها ، مما يدل على أن علماء اللغة لم يوجهوا عنايتهم نحو تلك اللغات للدرسها بذاتها دراسة مستقلة ، كما فعلوا بالنسبة للعربية الفصحى وإنما أرادوا إظهار بعض مواضع خلافها مع العربية ، أو مواضع الاتفاق معها لإثبات قاعدة نحوية أو صرفية ، أو لإظهار سمو هذه العربية وعلوها على العربيات الأخرى من حيث السليقة والدلوق والسلامة .

وقد بني سبب اهتمام اللهجات الأخرى ، على اعتقادهم أنها لهجات رديئة فاسدة ، وأن اللغة الفصحى هي اللغة الوحيدة التي يجب حفظ قواعدها والعنابة بها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، وأن البحث في اللهجات الأخرى يؤدي الى تثبيت

- ١ الفهرست ( ١٠٧ ) .
- ٢ الفهرست ( ١٣٠ ) .
- ٣ الفهرست ( ١٦٩ ) .

لغات فاسدة الى جانب لغة الوجي ، ولم يكن هذا عملاً مطأقاً ولا مقبولاً بالنسبة الى ذلك الوقت . ولذلك انحصر عملهم في المجال اللغوي على التوسيع والتبسيط في هذه اللغة التي أسموها اللغة العالية أو الفصحى ، وعلى ما تحتها من لهجات ، وما اختلفت فيه بعضها عن بعض ، وهي لهجات كانت قريبة من مواطن علماء اللغة ، أما اللهجات البعيدة عنهم ، فلم تكن منهم أية رعاية أو عناية ، ونجد مواضع الاختلاف مسجلة في كتب اللغات والنحو وشواهده وفي كتب النوادر والغريب ، وب مجالس العلماء ، حيث كانوا يباحثون في أمور اللغة والشعر وأيام العرب وما كان يتلذذ بساعته الخلفاء والحكام الذين كانوا يشبون من يستمعون اليه ، مما حلّ العلماء وأهل الأخبار على تطلب الغريب والتنقير عن الشارد والهارب للتفوق به على أصحاب الحرفة المتنافسين فيما بينهم في عرض بضائعهم على أصحاب الحكم والمال . وأجمل ما ذكره هنا علماء العربية من مواضع اختلاف العribيات الأخرى عن العربية المحضة في الأمور الآتية :

أحدها الإختلاف في الحركات ، نحو نَسْتَعِن وفِسْتَعِن بفتح التون وكسرها . فهي مفتوحة في لغة قريش ، وأسد وغيرهم يكسرها ، ونحو الحَصَادُ وَالحِصَادُ . والوجه الآخر ، الإختلاف في الحركة والسكون نحو مَعَكْ وَمَعَكْ . ووجه آخر هو الإختلاف في إيدال الحروف ، نحو : أُولَئِكَ وَأُولَالِكَ . ومنها قولهم : أن زِيداً وَعَنْ زِيداً .

ومن ذلك : الإختلاف في المز والتلدين نحو مُسْتَهْزِئُون وَمُسْتَهْزِئُون . ومنه : الإختلاف في التقديم والتأخير ، نحو صاعقة وصاعقة . ومنها : الإختلاف في الحذف والاثبات ، نحو استحبثت واستحيثت ، وصدقت وأصدقت .

ومنها : الإختلاف في الحرف الصحيح يبدل حرفاً مُعْتَلَاً ، نحو أَمَا زِيد ، وأَيْمَا زِيد .

ومنها : الإختلاف في الإمالة والتقطيم مثل قضى ورمى ، فبعضهم يفتح وبعضهم يعيّل .

ومنها : الإختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله فنهم من يكسر الأول ، ونهم من يضم ، نحو اشتروا الصلاة .

ومنها : الاختلاف في التذكير والتأنيث ؛ فإن من العرب من يقول : هذه البقر ، وهذه النخل ، ومنهم من يقول : هذا البقر ، وهذا النخل .  
ومنها : الاختلاف في الإدغام نحو : مهتدون ومُهَدَّدون .

ومنها : الاختلاف في الإعراب نحو : ما زيد قائماً ، وما زيد قائم ، وإن هذين ، وإن هذان . وهي بالألف لغة لبني الحارث بن كعب .

ومنها : الاختلاف في التحقيق والإخلاص نحو : يأمرُكم ويأمرُكم ، وعُفِيَ له ، وعُفِيَ له .

ومنها : الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل : هذه أمَّهْ وهذه أمتْ .  
ومنها : الاختلاف في الزيادة نحو : أنظرُ ، وأنظُرُ .

ومن الاختلاف اختلاف التضاد ، وذلك كقول حمير للقائم : ثُب ، أي اقعد ، وثُب بمعنى اقفر<sup>١</sup> .

ومنها الاختلاف في الكلمة ، فقد يقع فيها ثلاثة لغات ، نحو : الزجاج ، والزجاج ، والزجاج . وقد يقع في الكلمة أربع لغات ، نحو الصداق ، والصداق ، والصدقة ، والصدقة . ويكون فيها خمس لغات ، نحو: الشَّمَال ، والشَّمَل ، والشَّمَال ، والشَّيمَل ، والشَّمَل . ويكون فيها ست لغات ، نحو : قُسْطَاس ، وقُسْطَاس ، ولا يكون أكثر من هذا<sup>٢</sup> .

ومنها الاختلاف في صورة الجمع ، نحو أسرى وأسرى ، ومنها الاختلاف في التحقيق والإخلاص ، نحو يأمرُكم ويأمرُكم ، وعُفِيَ وعُفِيَ له . ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل : هذه أمَّهْ وهذه أمتْ . ومنها الاختلاف في الزيادة نحو : أنظر وأنظُر<sup>٣</sup> .

وقد أشار (أبي العلاء) المعربي في رسالة الغفران إلى أن (عدي بن زيد) العبادي ، كان يجعل (الجيم) (كافاً) ، فيقول : (يا مكبور) يريده (يا مجبور) ، وهي لغة رديئة يستعملها أهل اليمن . وجاء في بعض الأحاديث

١ المزهر (١/٢٥٥ وما بعدها) ، الصاحبي (٤٣ ، ٤٨ وما بعدها) .

٢ المزهر (١/٢٦٠) .

٣ الصاحبي (٥٠) ، المزهر (١/٢٥٦) .

ان الحارث بن هانئ بن أبي شمر بن جبلة الكندي ، استلحم يوم سبات ، فنادى : يا حُكْرَ يا حُكْرَ ، يزيد يا حجر بن عدي الأدبر ، فعطف عليه فاستنقذه ، ويكتب في موضع يجب <sup>١</sup> . و(الحارث بن هانئ) من كندة ، وهو من الصحابة ، وكندة من العربية الجنوبية في الأصل <sup>٢</sup> ، فلا يستبعد منه نطق الجيم كافاً على الطريقة المصرية في الوقت الحاضر ، إذ يقول العرب الجنوبيون (هكر) في موضع (هجر) ، ولكن (عدي بن زيد) من (تميم) ، وليس (تميم) من العربية الجنوبية ، ثم إن (المعرى) ، يقول عنه : « فيقول عدي بعبادته يا مكبور لقد رزقت ما يكتب أن يشغلك عن القريض » <sup>٣</sup> ، أي : « يا مجبور لقد رزقت ما يجب أن يشغلك عن القريض » فجعل قلب الجيم كافاً من سمات لغة العباديين .

ونخص بعض العلماء الوجوه التي تختلف بها لغات العرب ، في سبعة أسماء لا تزيد ولا تنقص : الوجه الأول إبدال لفظ بالفظ كالحوت بالسمك وبالعكس ، وكالهن المنشوش ، قرأها (ابن مسعود) كالصوف المنشوش . الثاني : إبدال حرف بحرف كالتابوت والتابوه . الثالث : تقديم وتأخير ما في الكلمة ، نحو : سلب زيد ثوبه ، وسلب ثوب زيد . وأما في المروف نحو : أفلم يأس الدين ، وأفلم ي AIS . الرابع زيادة سرف أو نقصانه نحو : ماليه وسلطانيه ، وفلا تأك في ميرية . الخامس : اختلاف حركات البناء نحو تحسين بفتح السين وكسرها . السادس : اختلاف الأعراب نحو ما هذا بشر بالرفع . السابع : التضخم والإملاء . وهذا اختلاف في اللحن والتزيين لا في نفس اللغة . والتضخم أعلى وأشهر عند فصحاء العرب . فهذه الوجوه السبعة التي بها اختلفت لغات العرب <sup>٤</sup> .

وجمع (مصنطفى صادق الرافعى) أنواع الاختلاف الوارددة في كتب اللغة ، فحصرها في خمسة أقسام :

- ١ رسالة الغفران (٢٠١) .
- ٢ الاصابة (٢٩٢/١) ، (رقم ١٥٠٢) .
- ٣ رسالة الغفران (٢٠٠/١) .
- ٤ تفسير النيسابوري (٢٢/١) ، (جاشية على تفسير الطبرى . بولاق) .

١ - لغات منسوبة ملقبة .

٢ - لغات منسوبة غير ملقبة تجري في إبدال الحروف .

٣ - لغات من ذلك في تغير الحركات .

٤ - لغات غير منسوبة ولا ملقبة .

٥ - لغة أو لغة في منطق العرب<sup>١</sup> .

### النوع الأول :

وقد عده علماء اللغة من مستبعش اللغات ، ومستتبع الألفاظ ، ولذلك أطلقوا على اللغات التي تمارسها : اللغات المذومة<sup>٢</sup> ، من ذلك :

(الكسكشة) وهي إبدال الشين من كاف المخاطب للمؤنث خاصة ، كعليش ومشيش وبش ، في عليك ، ومنك ، وبك ، في موضع التأنيث ، أو زيادة شين بعد الكاف المجرورة . تقول عليكش ، واليكيش ، وبكش ، ومنكش ، وذلك في الوقف خاصة . ولا تقول عليكش بالنصب . وقد حكى كذا كشن بالنصب . وإنما زادوا الشين بعد الكاف المجرورة لتبين كسرة الكاف فتقرك التأنيث ، وذلك لأن الكسرة الدالة على التأنيث فيها تخفى في الوقت فاحتاطوا للبيان أن أبدلواها شيئاً ، فإذا وصلوا حذفوا لبيان الحركة ، ومنهم من يجري الوصل مجرى الوقف فيبدل فيه أيضاً . وربما زادوا على الواو في الوقف شيئاً حرضاً على البيان أيضاً ، فإذا وصلوا حذفوا الجميع وربما ألحقو الشين فيه . وذكر أن (الكسكشة) في بني أسد وفي ربيعة . « وفي حديث معاوية تيسروا عن كشكشة تيم ، أي أبدلهم الشين من كاف الخطاب مع المؤنث »<sup>٣</sup> .

« والكسكشة في ربيعة ومضر . يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيئاً . فيقولون رأيتكم ومررت بكم . والكسكشة فيهم أيضاً ، يجعلون بعد الكاف أو مكانها شيئاً في المذكر »<sup>٤</sup> . وورد : « والكسكشة لغة لتميم لا لبكر ، كما

١ الرافعى ، تاريخ آداب العرب (١/١٣٧ وما بعدها) .

٢ الصاحبى (٥٣) ، المزهر (١/٢٢٢ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٤/٣٤٥) ، (كشش) ، الصاحبى (٥٣) ، المزهر (١/٢٢٢ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس) ، تاريخ آداب العرب (١/١٣٨) ، (مصطفى صادق الرافعى) ، المزهر (١/٢٢١) .

زعمه ابن عباد ، وإنما لهم الكشكشة ياعجام الشين . هو لخاهم بكاف المؤنث سيناً عند الوقف دون الوصل . يقال : أكترمتكس ومررت بكس ، أي أكترمتك ومررت بك . ومنهم من يبدل السين من كاف الخطاب ، فيقول أبوس وأمس ، أي أبوك وأمك . وبه فسر حديث معاوية رضي الله عنه تيسروا عن كشكشة بكر . وقيل : الكشكشة لهاوان <sup>١</sup> . « ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل ويسكتها في الوقف ؛ فيقول : مِنْشَ وَعَلَيْشَ <sup>٢</sup> .

والديش بالكسر : الديك ، لغة فيه عند من يقلب الكاف شيئاً ، شبه كافه بكاف المؤنث لكسرتها <sup>٣</sup> .

وذكر (السيوطى) أن الكشكشة في ربيعة ومضر ، يجعلون بعد الكاف أو مكانها في خطاب المذكر سيناً <sup>٤</sup> . وذكر بعضهم أن الكشكشة في لغة تميم ، والكسكشة في لغة بكر . وذكر بعضهم أن الكشكشة لبكر لا لربيعه ومضر ، وهي زيادة سين بعد كاف الخطاب في المؤنث لا في المذكر <sup>٥</sup> .

« والوتم في لغة اليمن ، يجعل الكاف شيئاً مطلقاً . كلبيش اللهم ليش . ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعية يربيد الكعبة » <sup>٦</sup> . وقيل : « الوتم في لغة اليمن ، يجعل السين تاءً كالثات في الناس » <sup>٧</sup> . « والشنستة في لغة اليمن ، يجعل الكاف شيئاً مطلقاً كلبيش اللهم ليش ، أي ليك » <sup>٨</sup> .

وقد استشهد علماء اللغة على الوتم بشعر نبوه الى (علباء بن أرقم) هو :

يا قبح الله بني السعلات عمرو بن يربوع شرار النات  
ليسوا أفعاء ولا أكباث

١ تاج العروس (٤/٢٣٤)، (كشت)، الصلحجي (٥٣) .

٢ المزهر (١/٢٢١)، (النوع العادي عشر) .

٣ تاج العروس (٤/٣١٢)، (الديش) .

٤ المزهر (١/٢٢١) .

٥ الرافعى (١/١٣٨) .

٦ تاج العروس (٨/١)، (المقصد الخامس) .

٧ المزهر (١/٢٢٢) .

٨ المزهر (١/٢٢٢) .

فاستعمل الناس بدل الناس ، والأكياس بدل الأكياس . ولكن الشاعر من (بكر) لا من حيراً .

و « الفحضة في لغة هذيل » يحملون الماء عيناً . والوكم والوهم كلاماً في لغةبني كلب . من الأول يقولون : عليكِم وبكم حيث كان قبل الكاف ياء أو كسرة في موضع عليكم وبكم ، ومن الثاني يقولون : منهم وعنهم وبينهم ، وإن لم يكن قبل الماء ياء ولا كسرة <sup>١</sup> . « وهم يكملون الكلام بكسر الكاف من يكملون ، أي يقولون السلام عليكم بكسر الكاف <sup>٢</sup> . ومن أمثلة الفحضة قولهم عيادة في موضع حياة ، وعلى لغتهم قرأ (ابن مسعود) عتني عيادة في قوله تعالى : حتى حين . فكتب إليه (عمر) إن القرآن لم يتزل على لغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش <sup>٣</sup> . ومن الفحضة قولهم : الععن في الحسن ، واللعن في اللحم . وذكر أن ثقيفاً كانت تفخخ في كلامها ، فتفقول عتني في موضع حتى . وقد ورد في (تاج العروس) ، أن (الوكم) « لغة أهل الروم الآن <sup>٤</sup> » ، ولعل هذه اللغة ائماً جاءتهم من (كلب) ، وهم من عرب بلاد الشام القدماء . « قال الفراء : حتى لغة قريش وجميع العرب إلا هذيلاً وثقيفاً ، فإنهم يقولون : عتني . قال : وأشدني بعض أهل اليمامة :

لا أضع الدلو ولا أصلأي عتني أرى جلتها تولي  
صوارداً مثل قباب التل

قال أبو عبيدة : من العرب من يقول : أقم عتني عتني آتيك ، وأتني آتيك ، يعني حتى آتيك ، وهي لغة هذيل <sup>٥</sup> .

و (العجبجة) في قضاعة كالعنونة في تيم . يحولون الياء جيماً مع العين .

- ١ شوقي ضيف ، العصر العجمالي (١٢٣) .
- ٢ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس) ، المزهر (٢٢٢/١) .
- ٣ تاج العروس (٦٩/٩) ، (وكم) .
- ٤ الفائق (١١٣/٢) .
- ٥ تاج العروس (٦٩/٩) ، (وكم) .
- ٦ الفائق (١١٤/٢) .

يقولون : هذا راجع خرج معج ، أي راعي خرج معه<sup>١</sup> . وقيل : « العجمجة في قضاة ». يجعلون الياء المشدة جيناً . يقولون في تميمي تميمج<sup>٢</sup> . وكانت قضاة إذا تكلموا غمموا ، فلا تكاد تظهر حروفهم . وقد سئى العلماء ذلك غممة قضاة<sup>٣</sup> .

والاستنطاء ، قول أنطي بدل أعطي . « قال الجوهرى : هي لغة اليمن » . وقال غيره : هي لغة سعد بن بكر . والجمع بينها أنه يجوز كونها لها » ، وقيل : « هي لغة سعد بن بكر ، وهذيل ، والأزد ، وقيس ، والأنصار يجعلون للعين الساكنة نوناً إذاجاورت الطاء ... ولهؤلاء من قبائل اليمن ، ما عدا هذيل . وقد شرفها النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما روى الشعبي « أنه صلى الله عليه وسلم ، قال لرجل : أنطه كذا وكذا ، أي اعطه . وفي حديث آخر أن مال الله مسؤول ومنطي ، أي معطى . وفي حديث الدعاء : لا مانع لما أنتي . وفي حديث آخر : اليد المطية خير من اليد السفل . وفي كتابه لروائل : وأنطوا البتجة . وفي كتابه لتميم الداري : هذا ما أنطى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخره . ويسمون هذا الانطاء الشريف . وهو محفوظ عند أولاده . وقريء بها شاداً إننا انطيناك الكوثر »<sup>٤</sup> .

وعرفت لغة ( بهراء ) بوجود ( التلة ) بها . وتلالة بهراء كسرهم تاء تفعلون : مثل كسر تاء تعلم ، في موضع الفتح . وكسر التاء من ( تكتب )<sup>٥</sup> . وذلك أنهم يكسرن أحرف المضارعة مطلقاً . « ونسب ابن فارس في فقه اللغة هذا الكسر لأسد وقيس ، إلا انه جعله عاماً في أوائل الألفاظ ، فقل له بقوله : مثل تعلمون وتعلم وشيعر وبغيره »<sup>٦</sup> .

وعرفت « القطعة في لغة طيء » : وهي قطع الفظ قبل تمامه ، فيقولون في

١ تاج العروس ( ٨/١ ) ، ( المقصد الخامس ) ، ( ٧١/٢ ) ، ( عج ) ، المزهر ( ٢٢٢/١ )<sup>٠</sup>

٢ تاج العروس ( ٨/١ ) ، ( المقصد الخامس ) ، المزهر ( ٢٢٢/١ )<sup>٠</sup>  
الرافعي ( ١٣٩/١ )<sup>٠</sup>

٤ تاج العروس ( ١٠/٣٧٢ ) ، ( نطا ) ، المزهر ( ٢٢٢/١ )<sup>٠</sup>

٥ تاج العروس ( ٧/٢٤١ ) ، ( تل )<sup>٠</sup>  
الرافعي ( ١٤٠/١ )<sup>٠</sup>

مثل يا أبا الحكم : يا أبا الحكا . وهي غير الترجم المعروفة في كتب النحو ، لأن هذا مقصورة على حذف آخر الاسم المنادى ، أما القطعة فتتناول سائر أبنية الكلام <sup>١</sup> .

ومن لغة تميم كسر الشين في شهيد ، وكذا كل فعيل حلقي العين سواء كان وصفاً كهذا ، وأسماً جامداً كرغيف وبغير . « قال المهداني في اعراب القرآن : أهل الحجاز وبنو أسد يقولون رحيم ورغيف وبغير بفتح أوائلهن . وقبس وربيعة وتميم يقولون : رحيم ورغيف وبغير بكسر أوائلهن . » قال السهيلي في الروض : الكسر لغة تميم في كل فعيل عين فعله همزة أو غيرها من حروف الخلق ، فيكسر وبنو الله كرحيم وشهيد . وفي شرح الدرية لابن خالويه : كل اسم على فعيل ثانية حرف حلق يجوز فيه اتباع الفاء العين كغير وشعيير ورغيف ورحيم . وحكى الشيخ التوسي في تحريره عن الليث أن قوماً من العرب يقولون ذلك وإن لم يكن عينه حرف حلق ككبير وكمير وجليل ونمزو . قلت : وهم بنو تميم كما تقدم <sup>٢</sup> .

وما اختلفت به تميم عن قريش أنها تذكر السوق والسبيل والطريق والزقاق والصراط والكلاء ، وهو سوق البصرة ، أما أهل الحجاز فذكرون الكل <sup>٣</sup> .

ومن ميزات لهجة تميم ، أنها تنطق بالهمزة إذ وقعت في أول الكلمة علينا . فيقولون في أسلم عسلم ويسمى العلماء ذلك (العنونة) . « وعننتم ابدالهم العين من المهمزة . يقولون : عن موضع أن » . « قال القراء : لغة قريش ومن جاورهم أن ، وتميم وقبس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف أن إذا كانت مفتوحة عيناً . يقولون أشهد عنك رسول الله ، فإذا كسروا رجعوا إلى الألف . وفي حديث قيلة : تحسب عن نائمة ، وفي حديث حصين بن مشتى أخبرنا فلان عن فلاناً حدثه : أي أن فلاناً حدثه . قال ابن الأثير رحمه الله تعالى : كأنهم يفعلونه لبحث في أصواتهم . والعرب تقول : لأنك ولعنة ، يعني لعنة . قال ابن الأعرابي لعنك النبي تميم ، وبنسو تميم الله بن ثعلبة يقولون رعنك . ومن

١ الرافعي (١/١٤٠) .

٢ تاج العروس (٢/٣٩١) ، (شهد) .

٣ تاج العروس (٦/٣٧١ ، ٣٨٧) ، (رق) ، (ساق) .

العرب من يقول رغبك بمعنى لعلك <sup>١</sup> . « قال الفرّاء : العنونة في قيس وتميم . يجعل المهزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في انك عنك وفي أسلم عسل <sup>٢</sup> . »

وذكر ان العنونة في كثير من العرب ، في لغة قيس وتميم ، وقيل في لغة قضاعة أيضاً ، وفي لغة أسد ومن جاورهم ، يجعلون المهزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في انك عنك ، وفي أسلم عسل ، وفي أذنْ علن ، وفي ظنت انك ذاهب ، ظنت عنك ذاهب <sup>٣</sup> .

ومن مواضع الاختلاف بين لغة أهل الحجاز ، ولغة تميم ، الاختلاف في عمل ما وليس النافتين . وتردد الكلمة بين الإدغام والفك ، وبين الإنعام والقص ، أو بين الصحة والإعلال والإعراب والبناء ، فثلاً أهل الحجاز يفكون المثلين من المضارع المجزوم بالسكون وأمره ، وتميم تقوظها بالإدغام ، وختعم وزبيد تقص نون من الجارة ، فيقولون : خرجت مليت في قولهم : خرجت من البيت وغيرهم يتمها <sup>٤</sup> .

و (ضلالت) بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع . وهذه هي اللغة الصحيحة ، وهي لغة نجد . و « ضلالت تضل مثل مللت تغل ، أي بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع ، وهي لغة الحجاز والعالية . وروى كراع عن (بني تميم) كسر الصاد في الأخيرة أيضاً . قال اللحياني : وبها قرىء قوله تعالى : قل إن ضلالت فإنما أضل على نفسى . الأخيرة قراءة أبي حية ، وقرأ يحيى بن ثايب أضل بكسر المهزة وفتح الصاد . وهي لغة تميم . قال ابن سيده : وكان يحيى بن ثايب يقرأ كل شيء في القرآن ضلالت وضلالنا بكسر اللام . ورجل ضلال نال <sup>٥</sup> . و (الضلالة والتلالة) <sup>٦</sup> . »

والخلخانية العجمة في المنطق ، وهو العجز عن ارداد الكلام بعضه ببعض . ورجل الخلخاني غير فصيح . ويعرض ذلك في لغة أعراب الشحر وعمان . كقولهم

١ تاج العروس (٩/٢٨٣)، (عن).

٢ تاج العروس (١/٨)، (المقصد الخامس في بيان الأفصح).

٣ المزهر (١/٢٢١)، الصاحبي (٥٣).

٤ محمد هاشم عطية ، الأدب العربي وتاريخه (٣٩).

٥ تاج العروس (٧/٤١)، (ضل).

٦ تاج العروس (٧/٢٤١)، (تل).

في ما شاء الله مشا الله<sup>١</sup> . والطمطمانية تعرض في لغة حمير ، كقولهم طام هو ، أي طاب الماء<sup>٢</sup> . وطمطمانية حمير بالضم ما في لغتها من الكلمات المنكرة ، تشبهها لها بكلام العجم . وفي صفة قريش ليس فيهم ططممانية حمير ، أي الألفاظ المنكرة المشبهة بكلام العجم<sup>٣</sup> . وذكر أن الططممانية كانت أيضاً عند بعض عشائر طيء ، وهي ابدال لام التعريف ميماً . فيقولون في السهم والبر والصيام : اسمهم ، وأمير ، واميام ، وهذا ليس ابدالاً ، وإنما هي لهجة معنية ، إذ كانوا يُعرفون بالألف والميم ، ولعل في ذلك ما يدل على صحة ما ذهب إليه النسابيون من أن طيء قبيلة معنية<sup>٤</sup> . ولكن حمير لا تعرف بالألف والميم ، وإنما تعرف بـ (ان) (ن) ، تensus هذه الأداة في آخر الكلمة التي يراد تعريفها . وهذا ، أخطأه من ذهب إلى أن هذه الططممانية ابدالاً ، أو « ليس ابدالاً » ، وإنما هي لهجة معنية ، إذ كانوا يُعرفون بالألف والميم<sup>٥</sup> ، لما ذكرته من أن التعريف يلحق في الحميرية أو آخر الكلم ، ولا يكون في أولها ، ويكون بالأداة (ن) (ان) ، لا بالألف واللام ، كما هو الحال في عربتنا ، وإن التكير عندهم يكون يلحاق حرف (الميم) أو آخر الألفاظ التي يراد تكيرها ، ولم يصل إلى علمي أن أحداً من الباحثين عثر على نص جاهلي في العربية الجنوبية عرف بـ (ال) أداة التعريف في عربية القرآن الكريم .

ومن الشائع بين الناس ، أن الرسول قال : « ليس بمبرم صيام فم سفر » ، أي « ليس من البر الصيام في السفر »<sup>٦</sup> ، وعندى أن هذا الحديث من الأحاديث الضعيفة أو المكتوبة ، وقد وضع ليكون شاهداً على (الطمطمانية) المذكورة ، جادوا به شاهداً على تكلم الرسول بلسان حمير ، ولكن لسان حمير لم يكن يعرف الغير معرف بهذه الأداة من التعريف ، وقد يكون لهجة من لهجات بعض القبائل على نحو ما نسب إلى بعض عشائر طيء ، كما ذكرت ذلك قبل قليل .

١ تاج العروس (٢/٢٧٧)، (لخ)، المزهر (١/٢٢٣) .  
٢ تاج العروس (١/٨)، (المقصد الخامس)، « طاب امهواه : أي طاب الماء »، المزهر (١/٢٢٣)، (معرفة الردى: المذموم من اللغات) .

٣ تاج العروس (٨/٣٨١)، (طم) .

٤ شوقي ضيف، العصر الجاهلي (١٢٣) .

٥ شوقي ضيف (١٢٣) .

٦ تاج العروس (٣/٣٧)، (بر) .

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعية يريد الكعبة . ومنهم من يستعمل الحرف الذي بين القاف والكاف كما في لغة تميم ، والذي بين الجيم والكاف في لغة اليمين ، وإبدال الياء جيماً في الاضافة نحو غلامج ، وفي النسبة نحو بصرّج وكوفّج<sup>١</sup> . ومن ذلك الحرف الذي بين الياء والفاء ، مثل بور اذا اضطروا قالوا : فور<sup>٢</sup> .

ومن النوع الثاني ، وهو الخاص بلغات منسوبة غير ملقة عند العلماء :  
إبدال (قَيْم) الياء جيماً ، ولغتهم في ذلك أعم من لغة قضاعة التي مرت في النوع الأول ، لأنها غير مقيدة ، فيقولون في بختي وعلى<sup>٣</sup> بُخْتَجْ وعلج<sup>٤</sup> . وحجج في حججى ، وبج في موضع بي . « وقال ابن فارس في فقه اللغة : إن الياء تجعل جيماً في النسب عندبني تميم ، يقولون غلامج ، أي غلامي ، وكذلك الياء المشددة تحول جيماً في النسب ، يقولون بصرّج وكوفّج في بصري وكوفي . وعكس هذه اللغة في تميم - على ما نقله صاحب المخصص - وذلك انهم يقولون : صِهْرِي<sup>٥</sup> والصهاري ، في صهريج والصهاريج »<sup>٦</sup> .

في لغة مازن يبدلون الميم باءً والباء بيماءً ، فيقولون في بكر : مكر ، وفي اطمئن اطبين ، ويقولون بالاسمك ؟ مكان ماسملك ؟

وفي لغة طيء يبدلون تاء الجمع هاءً إذا وقفوا عليها ، إلخاقاً لها بتاء المفرد ؛ وقد سمع من بعضهم : دفن البناء من المكرمات ، يريد : دفن البناء من المكرمات . وحذى قول بعضهم : كيف البنون والبناء ، وكيف الإنحوه والأتحواه ؟

وفي لغة طيء أيضاً يقلدون الياء ألفاً بعد إبدال الكسرة التي قبلها فتحة ، وذلك من كل ماضٍ ثلاثي مكسور العين ، ولو كانت الكسرة عارضة كما لو كان الفعل مبنياً للمجهول ، فيقولون في رضى وهدى : رَضَا وَهُدَى ، بل ينطقون بها قول العرب : فرس حَظَيْة بظيّة فيقولون : حظاة بظاة ، وكذلك الناصحة ، في الناصحة .

ومن لغتهم أنهم يمحفون الياء من الفعل المعتل بها إذا أكّد بالنون ، فيقولون

١ المزهر (٢٢٢/١) وما بعدها .  
٢ الصاحبي (٥٤) .  
٣ الرافعي (١٤١/١) وما بعدها .

في اخشين وارمين : اخشن وارمن . وجاء في الحديث على لغتهم : « لتردن الحقوق الى أهلها يوم القيمة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناه تنطحها ». وتنسب هذه اللغة الى فزارة أيضا .

وورد في بعض الروايات انهم يبدلون الهمزة في بعض الموضع هاءً، فيقولون هنْ فعلت ، يريدون إن فعلت<sup>١</sup> .

وورد أن بعض (طيء) كان يقلب (العين) همزة ، فيقول : دأني بدلًا من دعني .

وفي لغة تميم أنهم يجثثون باسم المفعول من الفعل الثلاثي إذا كانت عينه ياءً على أصل الوزن بدون حذف ، فيقولون في نحو مبيّع : مبيوع ، ولكنهم لا يفعلون ذلك إذا كانت عين الفعل واواً إلا ما ندر ، بل يتبعون فيه لغة المجازين ، نحو : مقول ، ومصوغ .

وفي لغة هذيل لا يقون ألف المقصور على حالها عند الاضافة الى باء المتكلم، بل يقلبونها باء ثم يدخلونها ، توصلًا الى كسر ما قبل الباء ، فيقولون في عصايم وهواي : عَصَمِي وَهَوَى . ولا يفعلون ذلك إذا كانت الألف في آخر الاسم للثنية ، كما في نحو ( فتياي ) ، بل يوافقون اللغات الأخرى .

وفي لغة فزارة وبعض قيس ، أنهم يقلبون الألف في الوقف ياءً ، فيقولون: المدى وأفعى وحبلٌ ، في مكان المدى وأفعى وحبلٌ .

ومن نعم من يقلب هذه الألف واوا ، فيقول : الْهُدُو ، وأفعوا ، وحُبَّلُو .  
ومنهم من يقلبه همزة ، فيقول : الْهُدُأ وأفعأا وحُبَّلأ .

في لغة خثعم وزَيْد بْنِ مُحَمَّدٍ نون (من<sup>١</sup>) الجارة إذا ولها ساكن . وقد شاعت هذه اللغة في الشعر واستخفاها كثُر من الشعراء فتعاونوها<sup>٢</sup> .

في لغة ( بلحرث ) ( بلحارث ) يختلفون الألف من ( على ) الجارة واللام الساكنة التي تليها ، فيقولون في على الأرض علأرض .

في لغة قيس وربيعة وأسد ، وأهل نجد من بني تميم ، يقصرون (أولاء) التي يشار لها للجمع ويلحقون بها (لاماً) ، فيقولون : أولالك .

|   |                             |
|---|-----------------------------|
| ١ | الرافعي (١٤٢/١) .           |
| ٢ | الرافعي (١٤٣/١ وما بعدها) . |

في لغات أسماء الموصول :

بلحرث بن كعب وبعض ربيعة يختلفون نون اللذين والذين في حالة الرفع . وتميم وقيس يشتبون هذه النون ولكنهم يشددونها ، فيقولون : اللدان و اللنان ، وذلك في أحوال الإعراب الثلاث .

وطيء يقول في الذي : ذو ، وفي التي ذات ، ولا يغيرونها في أحوال الإعراب الثلاث رفعاً ونصباً وجراً . وقد عرفت بـ (ذ) الطائية . وترد (ذ) (ذو) هذه بهذا المعنى في الصفوية واللحيانية والشمودية .

في لغة ربيعة يقفون على الاسم المنوّن بالسكون في كل أحوال الإعراب ، فيقولون : رأيت خالد ، ومررت بخالد ، وهذا خالد ، وغيرهم يشار لهم إلا في النصب .

وفي لغة الأزد يبدلون التاءين في الوقف من جنس حرقة آخر الكلمة ، فيقولون : جاءه خالدو ، ومررت بخالدي .

وفي لغة سعد يضعفون الحرف الآخر من الكلمة الموقوف عليها إلا إذا كان هذا الحرف هزة أو كان ما قبله ساكتاً ، فيقولون : هذا خالد ، ولا يضعفون في مثل رشا وبكر .

في لغة بلحرث وختم وكتانة ، يقلبون الياء بعد الفتحة ألفاً ، فيقولون في اليك وعليك ولديه : إلاك ، وعلاك ، ولداه ، ومن لغتهم أيضاً إعراب المبني بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً ، وذلك لقلبهم كل ياء ساكتة افتحت ما قبلها ألفاً ، فيقولون : جاء الرجال ، ورأيت الرجال ، ومررت بالرجال .

وورد في بعض الروايات أن بنى سعد بن زيد مناة ، ونحسم ومن قاربها ، يبدلون الماء هاء ، فيقولون في مدحته ، مدحته . وأن بنى أسعد بن زيد مناة ومن ولهم يبدلون من الماء فاء ، فيقولون فودج في موضع هودج .

وورد أن أزد شنرعاً يقول : تفكهون ، وتميم يقولون : تفكتون ، بمعنى تعجبون<sup>٢</sup> .

وورد أن (الكلابين) يلحقون علامة الإنكار في آخر الكلمة ، وذلك في

---

١ الرافعي (١٤٤/١) .  
٢ الرافعي (١٤٥/١ وما بعدها) .

الاستفهام إذا أنكروا أن يكون رأي المتكلم على ما ذكر في كلامه أو يكون على خلاف ما ذكر .

فإذا قلتَ : رأيت زيداً ، وأنكر السامع أن تكون رأيته ، قال : زيداً إنيه ! بقطع الألف وتبين النون ، وبعضهم يقول : زيد نيه ! كأنه ينكر أن يكون رأيك على ما ذكرت<sup>١</sup> .

وذكر (الرافعي) الأمور التالية على النوع الثالث ، من تغير الحركات في الكلمة الواحدة حسب اختلاف اللهجات :

هَلْمٌ في لغة أهل الحجاز تلزم حالة واحدة منزلة رويد ، على اختلاف ما تسند إليه مفرداً أو مثني أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً ؛ وتلزم في كل ذلك الفتح ؛ وفي لغة نجد منبني تميم تغير بحسب الإسناد ، فيقولون : هَلْمٌ يا رجل ، وهلمي ، وهلا ، وهلموا ، وهلمُنْ ؛ وإذا استدلت لفرد لا يكسرونها . فلا يقولون : هَلْمِيَّ يا رجل ، ولكنها تكثر في لغة كعب وغنى .

وفي لغة تميم يكسرون أول فعيل وفعال إذا كان ثانيهما حرفآ من حروف المثلثة ، فيقولون في ثميم وتحيف ورغيف وبخيل : لِثَمِيم ، وِتَحِيفَ بِكَسْرِ الْأَوَّلِ ، ويقولون : هذا رجل لِعِبَ ، ورجل بِحِيكَ ، كل ذلك بالكسر وغيرهم بفتحه .

في لغة خزاعة يكسرون لام الجر مطلقاً مع الظاهر والضمير ، وغيرهم يكسرها مع الظاهر ويفتحها مع الضمير غير ياء المتكلم ؛ فيقولون : المَالِ يَلِكَ وَلِهُ . هاء الغائب مضمومة في لغة أهل الحجاز مطلقاً إذا وقعت بعد ياء ساكنة ، فيقولون : لَدَيْهُ وَعَلَيْهُ ؛ ولغة غيرهم كسرها .

في لغة الحجازيين يحكون الاسم المعرفة في الاستفهام إذا كان علماً كما نطق به ، فإذا قيل : جاء زيد ، ورأيت زيداً ، ومررت بزيد ، يقولون : من زيد؟ ومن زيد؟ أما إذا كان غير علم : كجاعني الرجل ، أو كان علماً موصوفاً : كزيد الفاضل ، فلا يستفهمون إلا بالرفع ، يقولون : من الرجل؟ ومن زيد الفاضل؟ في الأحوال الثالث .

---

١ الرافعي (١٤٦ / وما بعدها) .

وإذا استغهموا عن النكرة العربية ووقفوا على أداة الاستفهام ، جاءوا في السؤال بلفظة (من) . ولكنهم في حالة الرفع يلحقون بها واواً لمحانسة الضمة في النكرة المستفهم عنها ، ويلحقون بها ألفاً في حالة النصب ، وباءً في حالة الجر ، فإذا قلتَ : جاءني رجل ، ونظرت رجلاً ، ومررت برجل ، يقولون في الاستفهام عنه : متُّ ؟ ومنَّا ؟ ومنِّي ؟ وكذلك يلحقون بها عالمة التأنيث والثنية والجمع . فيقولون : متَّه ؟ في الاستفهام عن المؤنثة ، ومنانٌ ؟ ومنينٌ ؟ للشيء المذكر ، ومنتانٌ ؟ ومنتينٌ ؟ للشيء المؤنث : ومنونٌ ؟ ومنبنٌ ؟ للجمع المذكر ، ومناتٌ ؟ للجمع المؤنث . وهذا كله اذا كان المستفهم واقفاً ، فإذا وصل أداة الاستفهام جردها عن العلامة ، فيقول : من يا فتى ؟ في كل الأحوال .

بعض الحجازيين لا يفرق بين المفرد وغيره في الاستفهام ، فيقول : منو ، ومنا ، ومتى ، إفراداً وثنية وجمعًا في التذكير والتأنيث .

وحفظ عن أهل الحجاز أنهم يعاقبون أحياناً بين الواو والياء، فيجعلون أحدهما مكان الأخرى ، فيقولون في الصواغ : الصباغ ، وقد دوّنوا الرجل وديخوه . وسمع عن بعض أهل العالية قولهم ، لا يتفغنى ذلك ولا يضورني ، أي يضرني ، وسمع عن قوم قولهم : في سريع الأوبة : سريع الآية . ومنهم من يقول في المصايب : مصاوب ، ويقول حكوت الكلام ، أي حكته . وأهل العالية يقولون : الفصوى ، ويقول أهل نجد : القصيا .

وقد وردت أفعال ثلاثة تحكى لاماتها بالواو والياء ، مثل عزوت وعزيت ، وكنت وكنيت . وهي قريب من مائة لفظة .

في لغة بكر بن وائل وأناس كثير من بنى تميم ، يسكنون المحرك استخفافاً ، فيقولون في فَخْد ، والرَّجُل ، وَكَرْم ، وَعَلَمْ : فَخْد ، وَكَرْم ، والرَّجُل ، وَعَلَم . وهذه اللغة هي في كثير من تغلب . ثم اذا تناسبت الضمائر أو الكسرتان في كلمة خففوا أيضاً ، فيقولون في العُنْق والإِبْلِ ، العُنْق ، والإِبْل .

وحكى أن في لغة أزد السراة تسكين ضمير النصب المتصل<sup>۱</sup> .

---

۱ الرافعي (١٥١/١ وما بعدها)

ولبعض القبائل لغات في كلامات : فتسمى نجد يقولون **نَهْرٌ** ، للغدير ، وغيرهم يفتحها . والوَتَر في العدد حجازية ، والوَتَر بالكسر في الدَّخْل : **الثَّار** ، وتميم تكسر هما جميعاً ، وأهل العالية يفتحون في العدد فقط .

ويقال **وَتِدٌ** ، **وَوَتِدٌ** ، وأهل نجد يدعونها فيقولون . **وَدٌ** . وبعض الكلابيين يقولون : **الدَّوَاء** ، وغيرهم يفتحها . والعرب يقولون **شُوااظٌ** من نار ، والكلابيون يكسرن الشين .

والحجازيون يقولون **عُمَرِي** ، وتميم تقول : **عُمَلِي** . واللص في لغة طيء ، وغيرهم يقول : **اللَّصْتُ** .

وهناك لغات في الإعراب :

فستعمل (هذيل) (متى) بمعنى (من) ويجرون بها ، سمع من بعضهم قوله : **أَخْرَجَهَا مَنْ كُمَّهُ** ، أي من كمه .

وفي لغة تميم ينصبون تميز (كم) الخبرية مفرداً ، ولغة غيرهم وجوب جرمة وجواز افراده وجمعه ، فيقال : **كَمْ دَرْهَمٌ عَنْدَكَ** ، **وَكَمْ عَيْدَ مَلْكٌ** ! وتميم يقولون : **كَمْ دَرْهَمٌ** ، **وَكَمْ عَدْدٌ** !

في لغة الحجازيين ينصب الخبر بعد (ما) النافية نحو : ما هذا بشراً ، وتميم يرفعونه .

في لغة أهل العالية ينصبون الخبر بعد إن النافية ، سمع من بعضهم قوله : إن أحد خيراً من أحد إلا بالعافية .

الحجازيون ينصبون خبر ليس مطلقاً ، وبنو تميم يرفعونه إذا اقتنى بـلا ، فيقول الحجازيون : **لَيْسَ الطَّيْبُ إِلَّا الْمَسْكُ** ، وبنو تميم : **إِلَّا الْمَسْكُ** .

في لغةبني أسد يصررون ما لا ينصرف فيها على منه الوصفية وزيادة النون ، فيقولون : **لَسْتَ بِسَكَرَانٍ** ، **وَلَيَحْقُونَ مَؤْنَثَ النَّاءِ** ، فيقولون : **سَكَرَانَةٌ** .

في لغة ربيعة وغم يبنون (مع) الظرفية على السكون ، فيقولون : **ذَهَبَتْ مَعَهُ** ، وإذا ولها ساكن يكسرنها للتخلص من التقاء الساكنين ، فيقولون ذهبت مع **الرَّجُلِ** .

في لغة (بني قيس بن ثعلبة) يعربون (لَدُنْ) الظرفية ، وعلى لغتهم  
قرىء (من لدنه علاماً) ، وغيرهم يبنوها .

الحجازيون يبنون الأعلام التي على وزن فعال : كخدام ، وقطام ، على  
الكسر في كل حالات الإعراب ؛ وتميم تعربها ما لم يكن آخرها راءٌ وتنعها  
من الصرف للعلمية والعدل ، فإذا كان آخرها راءٌ كوبار ، اسم قبيلة وظفار  
اسم مدينة فهم فيها كالحجازيين .

وتعرب هذيل (الذين) اسم الموصول إعراب جمع المذكر السالم ، فيقولون :  
نحن الذّون صبحوا الصّابحا يوم التّخيّل غارة ملحاحا

ومن لغة هذيل أيضاً، فتح الياء والواو في مثل بيضات ، وهيات ، وعورات ،  
فيقولون : بِيَضَاتْ ، وَهِيَاتْ ، وَعَوَرَاتْ ، وبقية العرب على إسكانها<sup>١</sup> .  
وذكر (الرافعي) بعض الأمثلة على المثال الرابع من قبيل : إِبَدَاهُمْ أُواخِرُ بَعْضِ  
الكلمات المجرورة ياء ، كقوطم في الشعالب والأرانب والضفادع : الشاعلي والأراني  
والضفادي . وقد يبدلون بعض المزدوج ياء كقوطم في سادس : سادي ، وفي  
خامس : خامي<sup>٢</sup> .

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً ، فيقول مثلاً : الجعة ، في الكعبة ،  
وبعضهم ينطق بالباء طاء : كألفطني ، في أفلبني ، وهي لغة تميمية .

وتقول بعض العرب أردت عنْ تفعل كذا ، وبعضهم يقول : لألتني ، في  
(لعلتي) . وفي لعل لغات يقولها بعض العرب دون بعض ، وهي : لعلتي ،  
ولعلني ، وعلني ، وعلعني ، ولعني . ورعنة ، ورعنة ، وعنْ ، وعنِ ،  
وأن ، ولعاء .

وورد تلعم وتلزعم في لغة بعض الناس ، وتضييف الشمس للغروب ،  
وتضييفت<sup>٣</sup> .

وفي (عند) لغات ، هي : عيندي ، وعندني ، وعندني ، وفي لدن ثانوي

---

١ الرافعي (١٥٣/١) وما بعدها .  
٢ الرافعي (١٥٥/١) .  
٣ الرافعي (١٥٧/١) .

وَمِنْ لِفَاتٍ (هُوَ) وَ (هِيَ) : هُوَ ، وَهِيَ ، وَهُوَ ، وَهِيَ  
وَهُ ، هِ .

ومن لغات لاجر : لاجر ، ولا ذات جر ، ولا إن ذات جر ، ولا عين ذات جر .

ومن لغات نعم ، حرف الابجات : نَعِمْ ، وَنِعِمْ ، وَنَحَمْ .

وبعض العرب يبدل هاء التأنيث تاءً في الوقف ، فيقول : هذه أمت ، في  
أمة ، وبقرت في بقرة ، وآيت في آية<sup>٢</sup> .

وذكر (الرافعي) ان النوع الخامس ، هو النوع الخاص باللغة من المتكلم .  
كالآلفاظ التي وردت بالراء والغين وبمثابة أخرى٣ .

ومن مواضع الاختلاف التي ذكرها (الرافعي) ، والتي وقعت في القرآن بسبب القراءات : تحقیق الهمز وتخفیفه ، والمد والقصیر ، والفتح والإماملة وما بينها ، والاظهار والادغام ، وضم الهاء وكسرها من عليهم ولائهم وإلحاد الواو فيها وفي لفظي منهُمُونَ وعنهُمُونَ ، وإلحاد الياء في اليه وعليه وفيه ، ونحو ذلك ، فكان كل أهل لحن يقرءونه بالحروفِ .

والتضجيع : الإمالة ، وكانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف ، وكان المجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميّلون ، ويظهر أن ذلك لم يكن عاماً في القبيلة الواحدة، فقد كان بعض منها يميل وبعض منها لا يميل ، وفي ذلك قول سيبويه :

١ الرافعى (١٥٧ / ١ وما بعدها) .

٢ الرافعي (١٥٩/١) .

٢ الرافعى (١٥٩/١ وما بعدها) .

٤ الرافعي (٤٩/٢) \*

« أعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب من يميل ، ولكن قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه ، فينصب بعضٌ ما يميل صاحبه ، ويميل بعضٌ ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب في لغته لا يوافق غيره من ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر ( الإملالة ) فإذا رأيت عربياً كذلك فلا تربته خلط في لغته ولكن هذا من أمرهم »<sup>١</sup> .

وذكر ( ابن فارس ) ، أن من اختلاف العرب في لغاتهم ، اختلافهم « في التذكير والتأثيث ، فإن من العرب من يقول : هذه البقر ، ومنهم من يقول : هذا البقر ، وهذه التخيل ، وهذا التخيل » ، واختلافهم « في الإعراب ، نحو : ما زيد قائمًا ، وما زيد قائم ، وإن هذين ، وإن هذان ، وهي بالألف لغة لبني الحارث بن كعب » ، واختلافهم « في صورة الجمع ، نحو أسرى وأساري »<sup>٢</sup> . وفي هذه اللغة فسر المفسرون الآية : « إن هذان لساحران » ، اذ قالوا إنها نزلت على لغة بني الحارث بن كعب ومن جاورهم ، « وهم يجعلون الاثنين في رفهها ونصلبها وخفضها بالألف . وقد أنسدني رجل من الأسد عن بعض بني الحارث ابن كعب :

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى مساغاً لنباوه الشجاع لصماً<sup>٣</sup>

ويظهر من اختلاف العلماء – الذي رأينا – في نسبة الأمور المذكورة إلى السنة القبائل وفي عدم اتفاقهم في كثير من الحالات في ثبيت اللغات المذكورة إلى قبيلة معينة أو حصرها في قبائل وتردد़هم في أقوالهم ، ان ما ذكروه من اختلاف لم يكن حاصل دراسة استقرائية عميقه ، وإنما هو حاصل اتصال بأفراد أو بعدد قليل من الأعراب ومن المدعين بالعلم في السنة العرب ، وهذا نجد التناقض بادياً في أقوالهم ، وصارت دراساتهم المتقدمة ناقصة غير كاملة ، لا تتناول إلا أموراً جانبيّة لا تمس صلب اللغة ولا تناول قواعدها في الصميم . وعلى علماء اللغة في الوقت الحاضر واجب الخروج على الجادة القيdue التي يسيرون عليها اليوم في دراسة

١ العصر الجاهلي ، دكتور شوقي ضيف ( ١٢٢ ) .

٢ الصحابي ( ٤٩ وما بعدها ) .

٣ تفسير الطبرى ( ١٣٦ / ١٦ ) .

اللغة ، بالذهب بأنفسهم من جديد إلى مواطن اللغة ، للأخذ من أحجارها المكتوبة إن وجدت ومن ألسنة الأحياء الباقيين ، أخذنا علمياً مقويناً بدراسات حديثة مبنية على تسجيل الأصوات ، للاستعانت بها في الكشف عن لغات العرب بأسلوب علمي حديث .

ويلاحظ أيضاً أن علماء اللغة ، قد جمعوا بعض الملاحظات التي ظهرت لهم من دراساتهم للغة أهل الحجاز ، ولللغة تميم . فسجلوها في كتب اللغة والقواعد ، وقد أشرت إليها فيما تقدم بـ الحجاز . وإذا قلت أهل الحجاز ، فلا يعني لغة قريش وحدها ، وإنما لغات القبائل الحجازية ، التي تكون مجموعة القبائل الساكنة في الحجاز . فإن العلماء حين شرعوا بتدوين اللغة ، وجدوا أن لغة أهل مكة لم تعد صافية نقية بسبب اختلاط أهلها بالإعجم ، وظهور الفساد على لسانهم ، لذلك ، لا نجد لهم ذكراً بارزاً عند علماء اللغة ، وإنما حل محلهم مصطلح : أهل الحجاز . وبظهور أن عرب ( تميم ) من علماء اللغة ، ووجود عدد من عشائرها في العراق على مقربة من المصريين ، ونزول رجال منها البصرة والكوفة ، ثم اشتهر رجال من تميم بالفصاحة والبلاغة والخطابة قبل الإسلام ، كل هذه وأمور أخرى مكنته العلامة من تسجيل ملاحظات كثيرة عن لغة تميم ، زادت بكثير عن الملاحظات التي دونتها عن القبائل الأخرى ، وقد ذكر العلامة في مقابلها ما كان مختلف فيه أهل الحجاز عنهم ، فتجمعـت لدينا بذلك ملاحظات لغوية ونحوية ميزـت لهجات تميم عن لهجات ( أهل الحجاز ) ، وبعض القبائل الأخرى . وقد دخلت هذه الفروق في قراءة القرآن ، فقرأ بعض القراء على لغة الحجازيين ، وقرأ بعض آخر الآيات نفسها على لهجة تميم . كل قرأ على لسانه وتمسك بقراءته ، وقد ساعد ذلك عدم وجود الحركات الضابطة للمحروف ، ولو كانت هناك حركات في مبدأ التدوين تضم الحرف أو تكسره أو تفتحه ، لضيق نطاق هذا الاختلاف إذ كان على الناس القراءة وفقاً للمصحف المحرك المشكـل الذي اخـذ إماماً لهم ، ولكن عدم وجود مصحف إمام استعمل الشكل والإعجم ، سهل ظهور القراءات .

والخلاف بين ( أهل الحجاز ) ( لغة أهل الحجاز ) وبين ( تميم ) ، هو خلاف في إطار مجموعة واحدة من القبائل ، هي مجموعة ( مصر ) . فالقبائل الحجازية التي ذكروها هي قبائل مصرية ، و ( تميم ) من قبائل مصر كذلك ،

في عرف أهل الأنساب . وكان بين أهل مكة ، أي ( قريشاً ) وبين ( نعيم ) اتصال وثيق قبل الإسلام ، وكانت بينهم مصاورة . وقد عرفت ( نعيم ) واشتهرت بالفصاحة ، ولو أخذنا برأي أهل الأخبار ، وبما ذكروه عن فصاحة ( نعيم ) وعن كثرة وجود الخطباء والشعراء فيهم ، وعن حكمتهم في ( عكاظ ) ، وبما ذكروه عن ( قريش ) فإننا نخرج بنتيجة هي أن ( نعيم ) ، كانت أكثر شهرة في بضاعة الكلام من ( قريش ) ، وهي نتيجة تناقض زعمهم أن قريشاً كانت أصفى العرب لغة ، وأن لسانها هو اللسان العربي الفصحى الذي نزل به القرآن ، وأنها كانت تجتبي أحسن الألفاظ وأعندها من بين سائر لغات العرب حتى صار لسانها أفعى الألسنة ، وذلك بدليل استشهاد علماء اللغة بلغة نعيم من نثر وشعر في شواهدتهم وأدلةتهم على قواعد اللغة ، كثرة لا تقاس بها الشواهد التي استشهد بها العلماء على ضبط اللغة والقواعد ، المتزعة من لسان قريش .

ولو استقصينا ما دونه علماء اللغة عن مواطن الاختلاف بين لغات العرب ، نصل إلى نتيجة أخرى ، هي أن لغات كثيرة من القبائل تميل إلى ترجيح كفة ( لغة نعيم ) على لغة أهل الحجاز ، ففي الفتح والكسر ، كما في ( الوتر ) و ( الورتر ) ، نجد الفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة نعيم وأسد وقيس<sup>١</sup> : وقدقرأ بالقراءتين في سورة : « والفجر . وليلٌ عشرٌ . والشفع والوتر »<sup>٢</sup> . قال ( الطبرى ) : « وانختلف القراء في قراءة قوله والوتر ، فقرأته عاممة قراء المدينة ومكة والبصرة وبعض قراء الكوفة بكسر الواو . والصواب من القول في ذلك ، أنها قراءتان مستفيضتان معروفتان في قراءة الأمصار ، ولغتان مشهورتان في العرب فأيتها قرأ القارئ فصيّب »<sup>٣</sup> . فنرى من روایة ( الطبرى ) المذكورة أن غالبية القراء ، إنما قرأت بقراءة نعيم وأسد وقيس ، وإن كانت القراءة الثانية التي هي بالفتح لغة مكة صحيحة .

والقبائل : ( نعيم ) و ( قيس ) و ( أسد ) ، هي من القبائل التي أكثر علماء العربية أخذ اللغة عنها ، ونصوا على اسمها بالذات ، فقالوا : « والذين

١ الامالي ، للقالى ( ١ / ١٣ ) .

٢ سورة الفجر ، الرقم ٨٩ ، الآية ٣ .

٣ تفسير الطبرى ( ٣٠ / ١١٠ ) .

عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمها ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة ، وبعض الطائين ، ولم يُؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم <sup>١</sup> . فهي في مقدمة القبائل التي ركنا إليها علماء اللغة فيأخذ اللغة منهم ، بليهم هذيل ، فكنانة ، وبعض الطائين .

ومعنى هذا أن بناء العربية ، الذي قام به علماء اللغة ، إنما أخذ معظم مادته من لغات القبائل الثلاث المذكورة ، وهي قبائل أقامت في مواضع متجاورة منذ القدم ، وكانت بطونها قد توغلت في بوادي العراق في الجاهلية القريبة من الاسلام وفي الاسلام ، وفي البحرين ونجد وبعض مناطق اليهامة . فهي تكون جزءاً كبيراً من جزيرة العرب وال العراق .

ولتجاوز القبائل الثلاث المذكورة في القديم ، أثر كبير في تشابك اللغات وفي تقاربها ، لأن للجوار أثراً خطيراً في تطور اللغة ونموها . ونحن في حاجة اليوم إلى وضع صورة مضبوطة لتوزع القبائل في الجاهلية في جزيرة العرب وبادية الشام على مر الأدوار ، لتمكن بواسطتها من تتبع الأثر السياسي والثقافي لهذه القبائل وذلك فيما قبل الاسلام ، ومن دراسة ما ذكره علماء اللغة من فروق بين اللغات بصورة علمية دقيقة مضبوطة ، بتسجيل كل ما ذكروه واحصائه بالضبط ، ثم تطبيق ما ذكروه على مواطن هذه القبائل التي ضبطت ضبطاً صحيحاً على هذه الصورة . ونجد في كتب اللغة والمعاجم أموراً لغوية كثيرة ، مبعثرة لم يشر إليها العلماء إلا عرضاً ، مثل قولبني أسد (يجمع) بكسر أوله ، مع عدم قوظم (يعلم) استثنالاً للكسرة على الباء وأمثال ذلك<sup>٢</sup> ، مما يحتاج إلى جمع وتصفيه للوقوف على قديم اللغات .

وقد عرفت (بني أسد) ببروزها في شقي الكلام : الشعر والنثر . قال يونس بن حبيب : ليس فيبني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ،

١ المزهر (٢١١/١) .  
٢ تاج العروس (٥٣٣/٥) ، (وجع) .

أو شديد العدو<sup>١</sup>. وهي قبيلة شهيرة . أرى أنها قبيلة « Asateni » المذكورة في جغرافية ( بطليموس ) ، بين « Iodistae » التي تقع أرضها شمال « Asateni » ، وهي ( جديس ) ، وقبيلة « Mnasemane » التي تقع متازها في شمال غربها في خريطة بطليموس ، وبين « Laeeni » و « Thaemae » الواقعتين الى الشرق منها ، وموضع « Baeti fl. Fontes » الواقع الى الجنوب وقبيلة « Thanuitae » التي تقع متازها جنوبى هذا الموضع ، ثم موضع « Salma » ، وهو في الخريطة موضعان : موضع يقع شمالي « Mnasemane » ، وموضع يقع جنوب غربى « Baeti fl. Fontes » .

وأما ( هذيل ) ، فواطنهم ( جبال هذيل )<sup>٢</sup> ، وهم جيران ( سعد بن بكر )<sup>٣</sup> وجيران ( كنانة )<sup>٤</sup> ، و ( هوازن ) ، وهي كلها من القبائل التي أتى العلماء على لغتها . وهذيل من قبائل مصر ، ومن القبائل التي اعرقت في الشعر<sup>٥</sup> ، وقد استشهد العلامة بشعر شعراها في اللغة وفي القواعد ، ومن هنا عدت في القبائل التي أخذ علماء العربية اللغة منها . وأما ( سعد بن بكر ) ، و ( كنانة ) ، و ( هوازن ) فهي مثل ( قريش ) و ( هذيل ) من مجموعة ( خنف ) من ( مصر ) .

وأما ( بعض الطائين ) الذين أخذ عنهم علماء العربية العربية ، فقد نص العلامة على أسمائهم حين استشهدوا بشعر شعراها . وطيء ، من القبائل اليانية في عرف السابين . وهم من القبائل القديمة التي كان لها شأن يذكر قبل الاسلام ، بدليل أن ( بني لدم ) والفرس ، أطلقوا على العرب عموماً كلمة ( طيابه ) ( طيابو ) من أصل ( طيء ) اسم هذه القبيلة . وأن العبرانيين أطلقوا ( طيابا ) ( طيء يع ) ، ( طيابا ) ( طيابة ) في مرادف ( عرب ) مما يدل على أنها كانت أقوى قبائل العرب

١ البيان والتبيين ( ١٧٤ / ١ ) .

٢ راجع خريطة « بطليموس » ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ( ٣٧١ / ٣ ) .  
٣ بلاد العرب ، للاصفهاني ( ١٤ وما بعدها ، ٢٠ وما بعدها ، ٢٣ وما بعدها ، ٢٥ وما بعدها ، ٣٢ ) .

٤ المصدر نفسه ( ص ١٣ وما بعدها ) .  
٥ كذلك ( ص ١٩ وما بعدها ، ٢١ وما بعدها ) .  
٦ تاج العروس ( ٨ / ١٦٦ ) .

قبل الاسلام بزمن طويل<sup>١</sup> ، وربما كان هذا شأنهم قبل الميلاد .

ولا يفهم من أقوال علماء اللغة عن لغتهم ، أنها كانت ذات صلة بالعربات الجنوبية ، وأما ما ذكروه من ( ذي ) التي نعمتها بـ ( ذي ) الطائية ، فليس لها صلة بـ ( ذ ) الواردة في العربات الجنوبية ، وإنما هي سمة خاصة بلهجة ( طيء ) التي هي من العربية الشمالية ، أو من مجموعة عربية ( ال ) في اصطلاحي الذي أطلقته على العربية الشمالية ، لامتيازها بأداة التعريف هذه عن بقية اللهجات العربية التي استعملت أدلة أخرى للتعريف . ولهذا فإن قبيلة ( طيء ) هي قبيلة عربية من القبائل المتكلمة بعربية ( ال ) ، وإن عدد النسابون نسبةً من الجنوب .

وما ذكرته من فروق واختلاف ، فإنما هو مما يتناول الاختلاف الكائن بين اللهجات العربية الشمالية ، وأكثره مما يتناول لهجات القبائل في عهد التدوين ، في الأيام التي ظهر فيها الوعي بوجوب تسجيل علوم اللغة وضبطها ، فكان أن أخذ علماء اللغة من الفصحاء ومن اشتهر بالعلم باللغة من الصحابة والتابعين ، كما أخذوا من الأعراب الذين كانوا يقدون على البصرة والكوفة ، وهم من قبائل مختلفة ، لكنهم على الأكثر من أعراب البوادي القرية من العراق ، ومن القبائل الضاربة في الbadية ، فقد ذهب قوم من علماء اللغة إلى الbadية معدن اللغة للأخذ من ألسنة أهلها مباشرة ، واستقراء لهجاتها للتوصيل بذلك إلى معرفة اللغة والقواعد . فكان من هذا الجمجم ومن مراجعة القرآن والشعر والحديث ، هذا المدون في الكتب من علوم العربية . فهو كله إذن تدوين ظهر في الاسلام .

ولكتنا لا نستطيع أن نتحدث عن ذهاب عدد كبير من العلماء إلى البوادي للدراسة لهجات القبائل ، كما لا نستطيع التحدث عن الطرق والأساليب التي سلكوها في جمع اللغة وفي البحث عنها وأخذها من أفواه أصحابها ، لعدم وجود شيء من ذلك في الموارد الموجودة لدينا الآن . نعم لقد ذكروا أن أقدم من ذهب إلى الbadية : يونس بن حبيب ( ١٨٣ھ ) ، و ( خلف الأحرر ) ( ١٨٠ھ ) ، و ( الخليل ابن أحمد ) ( ١٧٥ھ ) ، و ( أبو زيد ) الانصارى ( ٢١٥ھ ) ، و ( الكسائي ) ( ١٨٩ھ ) الذي ذهب إلى وادي الحجاز ونجده وتهامة ، ورجع وقد أنفق خمس

---

١ الجزء الاول من هذا الكتاب ( ص ٣١ ) .

عشرة قنبة من الخبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ<sup>١</sup> ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن بحوثهم وعن استقراءاتهم ولا عن طرقوهم التي اتبعواها في بحثهم وتنقيرهم عن اللغة ، والأغلب أنها تناولت الغريب والشعر ، ثم إننا لا نستطيع التحدث عن هذه الرحلات بشيء من الاطمئنان والثقة ، لما قد يكون في كلام رواهـا من المبالغة والاضافة والافتـال بسبب العصبية الى المدينة والى العلـاء .

ويلاحظ ان معظم الملاحظات المدونة عن اللغات تناولت قبائل ألف عـلـاء العربية الأـخذ عنها والاستشهاد بكلـامـها ، وهي قبائل يرجع النسبـون نسبـها على طرـيقـتهم الى (معد) ، ويـظهـر من مـلـاحـظـاتـ العـلـاءـ عنـ لهـجـاتـهاـ أنهاـ كانتـ تـتكلـمـ بالـهـجـاتـ مـتـقارـبةـ ، تـرـجـعـ الىـ المـجـمـوعـةـ الـتـيـ تـسـتـعـمـلـ (الـ)ـ أـدـاءـ لـلـتـعـرـيفـ .ـ أماـ القـبـائـلـ الـتـيـ رـجـعـ أـهـلـ النـسـبـ نـسـبـهاـ إـلـىـ قـحـطـانـ ،ـ وـالـتـيـ اـسـتـشـهـدـ بـشـعـرـهاـ فـهـيـ :ـ الـأـزـدـ ،ـ وـجـبـرـ ،ـ وـبعـضـ طـيـءـ ،ـ وـخـثـمـ .ـ أماـ كـتـدـةـ ،ـ وـمـنـهـ الشـاعـرـ (ـأـمـرـقـ الـقـيسـ)ـ ،ـ فـلـاـ بـجـدـ هـاـ ذـكـرـاـ فـيـ هـذـهـ الـلـغـاتـ ،ـ وـإـنـ اـسـتـشـهـدـ بـشـعـرـهاـ وـبـشـعـرـ غـيـرـهـ مـنـ شـعـرـاءـ هـذـهـ الـقـبـيلـةـ ،ـ وـقـدـ أـشـيـرـ إـلـىـ الـيـمـنـ ،ـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـذـكـرـوـاـ قـصـدـهـمـ مـنـهـاـ ،ـ وـيـظـهـرـ أـنـهـمـ أـرـادـوـ بـهـمـ أـعـرـابـ الـيـمـنـ ،ـ وـهـمـ مـهـاجـرـوـنـ فـيـ الـأـصـلـ هـاجـرـوـاـ مـنـ باـطـنـ الـجـزـيرـةـ إـلـىـ الـيـمـنـ بـعـدـ أـنـ ضـعـفـ الـحـكـمـ فـيـهـاـ عـلـىـ أـثـرـ تـدـخـلـ الـجـيشـ فـيـ شـؤـونـ الـيـمـنـ وـتـقـائـلـ الـمـلـوـكـ بـعـضـهـمـ مـعـ بـعـضـ ،ـ تـماـ أـنـسـحـ المـجـالـ لـلـأـعـرـابـ بـدـخـولـ الـعـرـبـيـةـ الـجـنـوـيـةـ ،ـ فـكـوـنـواـ قـوـةـ خـطـيرـةـ فـيـهـاـ ،ـ أـشـيـرـ إـلـىـهـاـ فـيـ كـتـابـاتـ الـمـسـنـدـ بـ (ـوـاعـرـبـهـمـ)ـ .ـ (ـوـاعـرـبـهـمـ)ـ كـمـ أـشـرـتـ إـلـىـ ذـلـكـ فـيـ الـأـجـزـاءـ السـابـقـةـ مـنـ هـذـاـ الـكـتابـ .

ولا تزال بعض اللهجات باقية ، تتكلم بها القبائل على سليقتها الأولى ، وآسف لأن أقول ان علماء العربية في الوقت الحاضر ، لم يوجهوا عنايتهم نحوها للدراسة قبل انفراطها وزوالها ، مع ان دراستها من الأمور الضرورية بالنسبة لهم ، لأنها تساعـدـ فـيـ تـعـيـنـ أـصـوـلـ الـعـرـبـيـاتـ وـفـيـ ثـيـثـ المـجـمـوعـاتـ الـلـغـيـةـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ وـقـدـ نـسـتـبـطـ مـنـهـاـ أـمـرـأـ عـلـمـيـةـ كـثـيرـةـ فـاتـ عـلـىـ عـلـمـاءـ الـعـرـبـيـةـ الـقـدـامـيـ يـوـمـئـلـ تـسـجـيلـهـاـ ،ـ لأنـهـاـ لـاـ تـزالـ باـقـيـةـ ،ـ فـبـوـاسـطـةـ الـطـرـقـ الـحـدـيـثـةـ فـيـ الـبـحـثـ يـمـكـنـ العـتـورـ عـلـىـ مـاـ فـاتـ عـلـىـ أـوـلـكـ الـعـلـمـاءـ مـنـ أـمـرـ .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٤٤ وما بعدها).

وقد لاحظ ( فؤاد حمزة ) ، ان أهل نجد أصرخ في الوقت الحاضر لغة من أهل الحجاز ، لقرب هؤلاء من الحرمين واحتلاطهم بالأجانب ، وبعد أوائله عن كل تلك العوامل . ولكن أفعى اللهجات وأقربها الى الفصحى هي اللهجات البانية الواقعة ما بين جنوبى الحجاز واليمين . وقد ذكر انهم يتكلمون الألفاظ من خارجها الصحيحة ، ويتكلمون بما هو أقرب الى الفصحى من سواه . ويتكلم بعض البداء منهم بكل معرفة فصحى<sup>١</sup> .

ولاحظ أن لغات القبائل لا تزال مختلفة ، فمنهم من يقلب ( الجيم ) ياء فيقول : ( المسيد ) ، بدلًا من ( المسجد ) ، وهم قوم من اليمين والنمور في وادي حرم ، ومنهم من يقلب القاف والكاف ( تس ) ، فيقول ( حكى ) ( حتسى ) ، وهم من أهل نجد ، ومنهم من يقلب ( الكاف ) ( تش ) ، فيقول : ( بكى ) ( بتش ) ، ومنهم من يقلب ( القاف ) ( گافاً ) مفخمة ، فيقول ( گال ) في موضع ( قال ) ، وهي من لغات أهل نجد ، ومنهم من يقلب ( الكاف ) ( سيناً ) ، فيقول ( عبيسي ) ، في موضع ( عبيكي ) ومنهم من يقلب ( القاف ) ( جيماً ) ، فيقول ( العجر ) في موضع ( العبر ) ، ومنهم من يقلب ( الظاء ) ( لاماً ) ، فيقول ( الهر ) في موضع ( الظهر ) ، ومنهم من يقلب ( الضاد ) ( لاماً ) ، فيقول ( الليف ) في موضع ( الضيف ) ، ومنهم من يجعل ( الياء ) بين الألف والياء ، فيقول ( امطابر ) في موضع ( مطير )<sup>٢</sup> .

ويلاحظ أن قبائل العراق لا تزال تستعمل مثل هذه اللهجات وغيرها ، فيستعمل بعضها حرف العين في موضع الهمزة ، فيقولون ( سعال ) في موضع ( سؤال ) وتستعمل بعض القبائل حرف ( الياء ) في موضع ( الميم ) ، فتقول ( يومن ) ، في موضع ( مومن ) ، أي ( مؤمن ) ، وغير ذلك ، وتستعمل بعضها الياء في موضع ( الجيم ) ، فتقول : ( ريال ) في موضع ( رجال ) ، أي ( رجل ) .

وذكر ان أهل اليمين يستعملون ( الميم ) في موضع ( الـ ) أداة التعريف ، فيقولون ( أم بيت ) في موضع ( البيت )<sup>٣</sup> . وقد أشير في الحديث الى هذه

١ قلب جزيرة العرب ( ٩٩ ) .  
٢ قلب جزيرة العرب ( ١٠٠ ) .  
٣ قلب جزيرة العرب ( ١٠٠ ) .

اللغة ، ويظهر أنها لغة خاصة ، ربما كانت حاصل ادغام حرف الجر (من) في الكلمة التي دخلت عليها ، فـ (أُم بيت) ، هي (من البيت) أو أنها لهجة من اللهجات التي تكلم بها أهل اليمن الشهاليون ، جعلت (الميم) أداة للتعریف . لأننا نعلم - كما سبق أن ذكرت - أن حرف (الميم) أداة للتنكير في اللهجات العربية الجنوبية ، فيقال (يَبْيَم) في موضع (بيت) ، وتلحق آخر الاسم . أما أداة التعريف فحرف (ن) يلحق آخر الكلمة كذلك ، ولا يدخل على أولها كما في (الن) ، يقال (يَبْيَن) في موضع (البيت) ، و (ملِكَن) في مقابل (الملك) .

وذكر (فؤاد حمزة) أن قبيلة (فهم) ، وتقع منازلها اليوم بينبني ثقيف شمالاً والمجادلة غرباً ، تتكلم بعربىة قريبة جداً من العربية الفصحى ، وهي مشهورة بالفصاحة<sup>١</sup> .

وفي العربية الجنوبية قبائل تتكلم اليوم باللهجات يرجع نسبتها إلى اللهجات العربية الجنوبية القديمة ، لأن في ألفاظها وفي تراكيب جملها ، ودراستها في هذا اليوم ، ضرورة لازمة لمن يريد الوقوف على تاريخ اللغة العربية قبل الإسلام ، ومن الضروري كذلك وجوب دراسة اللهجات (الشحرية) و (المهرية) و (السواحلية) و (السقطرية) ، ولهجات السواحل الأفريقية المقابلة لجزيرة العرب للوقوف على تطور اللغات العربية الجنوبية ، وعلى حل رموزها التي لا تزال مغلقة غير معروفة عند علماء هذا اليوم . لما هذه اللهجات من صلات بالعribيات المذكورة .

وأرى من الضروري دراسة اللهجات العربية الحالية في كل مكان من أمكنة جزيرة العرب ، ولا سيما في المواقع التي استخرج العلماء من باطنها نصوصاً مدونة باللهجات عربية قديمة ، مثل أعلى الحجاز لتمكن بهذه الدراسة من حلّ معضلات تلك الكتابات ومن تكوين رأي علمي واضح عن تطور تلك اللهجات فيما قبل الإسلام .

وأرى من الضروري في هذا اليوم وجوب تأليف معجم لغوي ، يضم اللهجات العربية القديمة ، أي اللهجات الجاهلية التي وردت في النصوص الجاهلية ، للوقوف عليها ، ولا سيما على اللفظ الغريب منها ، ومقارنتها بالألفاظ التي ترد في اللهجات

---

١ قلب جزيرة العرب (١٧٨) .

العربية الأخرى لإحياء ما يمكن إحياؤه من الميت منها ، واستعماله في هذا اليوم ،  
لأشياء التي قصرت العربية الفصحى عن وضع مسميات لها، أو أن مسمياتها حوشية ،  
لا تسجم مع الذوق ، ودخول الألفاظ الواردة في النصوص في المعاجم الموسعة  
العلمية التي تورخ الألفاظ ، بأن تشير إلى ورودها لأول مرة في الشعر أو في  
النصوص الجاهلية . كما أرى من الضروري وجوب العناية بدراسة ما ذكره العلامة  
عن اللهجات دراسة علمية نقدية تقوم على المقابلة والمطابقة والمقارنة باللغات الأخرى  
مع تسجيل قواعدها حسبما أمكن .

## الفصل الثامن والثلاثون بعد المئة

### لغة القرآن

ولتشخيص لغة القرآن صلة كبيرة في تعين وتبسيط المراد من العربية الفصيحة أي العربية البيينة . وهذا فأنا مضطر إلى التعرض لها ، وإن كان الموضوع مختبرا إسلاميا ، فأقول نزل القرآن منجحا ( بلسان عربي مبين ) . ولكن العرب كانوا ولا زالوا يتكلمون بلهجات ، فبأية لهجة من لهجاتها نزل القرآن الكريم ؟

لقد تطرق ( الطري ) في مقدمة تفسيره إلى هذا الموضوع بعد أن تعرض لرأي من زعم أن في القرآن كلماً أعمجياً ، وأن فيه من كل لسان شيئاً ، فقال : « قال أبو جعفر : قد دللتا على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه ، على أن الله جل شأنه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم ، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغتها . فنقول الآن : إذا كان ذلك صحيحاً في الدلالة عليه ، فيأتي ألسن العرب أنزل ؟ أليس جميعها أم بالسن بعضها ؟ إذ كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن باليبيان ، متباينو المنطق والكلام . وإذا كان كذلك . كذلك ، وكان الله جل ذكره قد أخبر عباده أنه قد جعل القرآن عربياً ، وأنه أنزل بلسان عربي مبين ، ثم كان ظاهره محتملاً خصوصاً وعموماً ، لم يكن السبيل إلى العلم بما عن الله تعالى ذكره من خصوصاته وعمومه إلا بيان من جعل إليه بيان القرآن ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا كان كذلك كذلك ،

وكان الأخبار قد تظاهرت عنه، صلى الله عليه وسلم ، بما حدثنا خلاد بن أسلم، قال : حدثنا أنس بن عياض عن أبي حازم عن أبي سلمة ، قال : لا أعلم إلا عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فالماء في القرآن كفر ، ثلات مرات . فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلت منه فردوه إلى عالمه <sup>١</sup> .

واستمر الطبرى بعد ذلك في تعداد الطرق التي ورد فيها هذا الحديث: حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» ، ورواية بعض الأخبار الواردة في حدوث اختلاف بين الصحابة في حفظ بعض الآيات وقراءتها . ثم خلص بعد هذا السرد إلى نتيجة ، هي أن القرآن «نزل بالسن بعض العرب دون السن جميعها ، وأن قراءة المسلمين اليوم ومصاحفهم التي بين أظهرهم هي بعض الألسن التي نزل بها القرآن دون جميعها» <sup>٢</sup> ، فلم يجزم بتعيين اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم .

وحديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» ، حديث معروف مشهور ، يرد في كتب التفاسير وفي كتب المصاحف والقراءات . ورد بطرق متعددة ، وبأوجه مختلفة . وهذه الطرق والأوجه ، وإن اختلفت في سرد متن الحديث وفي ضبط عباراته ، قد اتفقت في الفكرة ، وخلاصتها نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف . ويقصدون بالحرف وجهاً من أوجه الألسنة ، أي لهجة من اللهجات <sup>٣</sup> .

أما رجال سند هذا الحديث ، فعديدون ، وفي حال بعضهم كابن الكلبي وأبي صالح مغز <sup>٤</sup> . وهم جميعاً يرجعون سندهم إلى جماعة من الصحابة ، هم نهاية سلسلة السند ، قالوا : إنهم سمعوا الحديث من الرسول ، ويعنون بهم : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأنساً ، وحذيفة بن اليهان ، وزيد بن أرقم ، وسمة بن جنديب ، وسليمان بن صرد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبا بكرة ، وأبا جهم ، وأبا سعيد

١ تفسير الطبرى (١٩/٩ وما بعدها) .

٢ تفسير الطبرى (١/٢٥) .

٣ تفسير الطبرى (١/٩) ، تاج العروس (٦/٦٨) ، (حرف) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٧ وما بعدها) ، الصاحبى (٥٧) .

٤ تفسير الطبرى (١/٣٢) .

الحدري ، وأبا طلحة الأنباري ، وأبا هريرة ، وأبا أليوب ، وحملتهم واحداً عشرة صحابياً على بعض الروايات<sup>١</sup>.

وورد في الحديث ، حديث آخر يرجع سنته إلى (ابن عباس) فيه تأييد له ، نصه أن رسول الله قال : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيله ويزيلني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » ، وحديث آخر ، نصه : « إن ربي أرسل إليَّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فردتُ إليه : أن هون على أمري ، فأرسل إليَّ أن أقرأ على حرفين ، فردتُ إليه : أن هون على أمري ، فأرسل إليَّ أن أقرأه على سبعة أحرف » ، وحديث ثالث نصه : « إن جبريل وميكائيل أتياني ، فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري ؛ فقال جبريل : أقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استرده ... حتى بلغ سبعة أحرف » ، وفي الحديث أبي بكرة عنه : فنظرت إلى ميكائيل فسكت . فلعلت أنه قد انتهت العدة<sup>٢</sup> . وهناك أحاديث أخرى بهذا المعنى<sup>٣</sup> .

ونجد في كتب التفسير والحديث والأخبار أحاديث وأقوالاً تشير إلى أن بعض الصحابة كانوا يقرأون قراءات متباينة وكانتوا يتعززون بقراءتهم ويتمسكون بها ، ومنهم من كان يقرأها على الرسول فلم يعارض عليها ، بل روى أنه قال : « أقرأوا كما علمتم »<sup>٤</sup> . وروى أنه « جاء رجل إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : أقرأني عبدالله بن مسعود سورة أقرأنيها زيد وأقرأنيها أبي بن كعب ، فاختلت قراءتهم ، فبقراءة أحيم آخذ ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وعليَّ إلى جنبه ، فقال عليَّ : ليقرأ كل إنسان بما علم كلَّ حسن جميل » . ورووا على لسان عمر بن الخطاب قوله : « سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقرئ ثنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكفت أساوره في الصلاة ، فنصبرت حتى سلم . فلما سلم ، لبته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعت تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها

١ السيوطى ، الاتقان في علوم القرآن (١/١٣١) .

٢ السيوطى ، الاتقان (١/١٣١ وما بعدها) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٤) .

٣ الزرقاني ، منهاج العرفان (١٣٢ وما بعدها) .

٤ تفسير الطبرى (٩/١) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو أقراني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها . فانطلقت به أفروده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، لاني سمعت هنا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقراني سورة الفرقان ! قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر . أقرأ يا هشام . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي أقراني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرروا ما تيسر منها <sup>١</sup> . وكالذى ذكروه من أن رجلاً قرأ عند (عمر) غير عليه ، « فقال : لقد قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يغير عليّ . فاختصها عند النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ألم تقرئني آية كذا وكذا ؟ قال : بلى .. فوقع في صدر عمر شيء . فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك في وجهه .. فضرب صدره . وقال : أبعد شيطاناً ! قالها ثلاثاً . ثم قال : يا عمر : إن القرآن كله صواب ، ما لم تجعل رحمة عذاباً ، أو عذاباً رحمة <sup>٢</sup> .

وروى « أن رجلين اختصا في آية من القرآن وكلّ يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه ، فتقارأا إلى أبيه فخالفهما أبيه » فتقارأوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبي الله اختلفنا في آية من القرآن وكلتنا يزعم أنك أقرأتهما فقال لأحدهما : أقرأ ، قال : فقرأ ، فقال : أصبت . وقال الآخر : أقرأ ، فخالفهما . فقال : أصبت . قال أبيه : فدخلتني من الشك في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دخل في من أمر الجahلية . قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي في وجهي ، فرفع يده ضرب صدري ، وقال : استعد بالله من الشيطان الرجيم . قال : ففِضَتْ عرقاً ، وكأنني أنظر إلى الله عرقاً ، وقال :

١ تفسير الطبرى (١/١٠) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٢ وما بعدها) ، الاصابة (٣/٥٧١) ، (٣/٥٧١) ، (٨٩٦٥) .

٢ تفسير الطبرى (١/١٠) .

إنه أثاني آت من ربّي ، فقال : إن ربّك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . قلت : ربّ ، خفف عن أمي . قال : ثم جاء ، فقال : إن ربّك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، قلت<sup>١</sup> : رب خفف عن أمي . قال : ثم جاء الثالثة ، فقال : إن ربّك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . قلت : رب خفف عن أمي . قال : ثم جاءني الرابعة ، فقال إن ربّك يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة مسألة الخ<sup>٢</sup> .

ورُوي عن زيد بن وهب ، قال : أتيت ابن مسعود استقرئه آية من كتاب الله ، فاقرأنيها كذا وكذا . قلت : إن عمر أقرأني كذا وكذا خلاف ما قرأها عبدالله . قال : فبكى حتى رأيت دموعه خلال الحصى ، ثم قال : إقرأها كما أقرأك عمر ، فوالله هي أبين من طريق السالحين<sup>٣</sup> .

وأورد العلماء أحاديث أخرى بهذا المعنى ، تظاهر كلها وقوع الخلاف بين الصحابة في قراءة القرآن ، وعلم الرسول به ، وتجويفه لهم القراءة بقراءتهم كل إنسان بما علم<sup>٤</sup> .

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال . جمعها القرطبي على خمسة وثلاثين قولًا<sup>٥</sup> ، وجعلها (السيوطى) على نحو أربعين قولًا<sup>٦</sup> ، تحدث هو وغيره عنها ، والحديث عنها في هذا الكتاب يخرجنا من حدود بحثنا المرسمة ، وهو التاريخ الجاهلي ، لذلك فسوف لا أتكلم في هذا المكان إلا عن الأقوال التي عينت تلك الأحرف ونصت على أسمائها بالنص والتعيين ، فأقول :

قد رأينا الأحاديث المذكورة والأخبار المروية ، وهي عامة ، لم تنص على أن المراد من الأحرف السبعة حرفاً معيناً ، ولساناً خاصاً من لغة العرب ، غير أنها نجد أخباراً ، نصت على تلك الأحرف وعيتها وشخصتها ، إذا تبعنا سندها

- ١ تفسير الطبرى (١٤/١) .
- ٢ ابن سعد (١/٢٧٠) .
- ٣ تفسير الطبرى (٩/١ وما بعدها) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٥ وما بعدها) .
- ٤ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٤ وما بعدها) ، السيوطى ، الاتقان (١٣٨/١) .
- ٥ السيوطى ، الاتقان (١٣١/١) .

ورجالها نجد لها تنتهي بـ (ابن عباس) . وأكثر القائلين بها هم من علماء العربية مثل (أبو عبيد) و (أبو عمرو بن العلاء) وثعلب ، والأزهري ، وسند هذه الأخبار (الكلي) عن (أبي صالح) عن (ابن عباس) ، أو عن (قتادة) عن ابن عباس ، وأمثال ذلك من طرق . فقد ورد عن (ابن عباس) قوله : نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازن ، قال أبو عبيد : والعجز ، هم بنو سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثيف ، وهؤلاء كلهم من هوازن . ويقال لهم : عليا هوازن . وهذه قال أبو عمرو بن العلاء : أفضح العرب عليا هوازن وسفلى تميم ، يعنيبني دارم<sup>١</sup> ، « وأخرج أبو عبيد من وجه آخر ، عن ابن عباس ، قال : نزل القرآن بلغة الكعبين : كعب قريش وكعب خزانة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة ، يعني أن خزانة كانوا جيران قريش ، فسهلت عليهم لغتهم »<sup>٢</sup> .

« وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش وهذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر»<sup>٣</sup> . وذكر بعض آخر أنه نزل بلغة قريش ، وهذيل ، وثيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليم<sup>٤</sup> وسعد بن بكر، هم من عليا هوازن<sup>٥</sup> . ومعنى هذا أنه نزل بلغات عدنانية ولغات قحطانية ، أي بجميع ألسن العرب .

وقد تعرض (الطبرى) للأقوال المذكورة ، فقال : « وروى جميع ذلك عن ابن عباس ، ولم يثبت الرواية عنه من روایة من يجوز الاحتياج بنقله ، وذلك أن الذي روى عنه أن خمسة منها من لسان العجز من هوازن : الكلي عن أبي صالح ، وأن الذي روى عنه أن اللسانين الآخرين لسان قريش وخزانة : قتادة ، وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه »<sup>٦</sup> . وقد ضعف (ابن الكلي) ، ورفض علماء

١ تفسير الطبرى (٢٣/١) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٦٧) ، السيوطي ، الاتقان (١٣٥/١) ، الصاحبى (٥٧) .

٢ تفسير الطبرى (٢٣/١) ، السيوطي ، الاتقان (١٣٥/١) .

٣ السيوطي ، الاتقان (١٣٥/١) .

٤ الزرقانى ، مناهل العرفان (١٧٣) .

٥ المزهر (١/٢١٠ وما بعدها) .

٦ تفسير الطبرى (٢٣/١) .

الفقه والحديث الأخذ عنه<sup>١</sup> .. وضعف (أبو صالح) كذلك واتهم بالكذب : « قال ابن معين : إذا روى عنه الكلبي فليس بشيء<sup>٢</sup> » .

وأما (قتادة) ، فذكر (الطبرى) عنه أنه لم يلق (ابن عباس) ، ولم يسمع منه<sup>٣</sup> فحديبه عن ابن عباس إذن مما لا يجوز الأخذ به .. فروايته : « نزل القرآن بلسان قريش ولسان خزاعة<sup>٤</sup> » ، روایة لا يعتمد عليها لهذا السبب . ولقتادة روایة أخرى بهذا المعنى نسبها الى (أبي الأسود الدؤلي) ، زعم أنه قال : « نزل القرآن بلسان الكعبين : كعب بن عمرو ، وشعب بن لؤي<sup>٥</sup> » . وقد علق (خالد ابن سلمة) على هذا الكلام فقال : « ألا تعجب من هذا الأعمى يزعم أن القرآن نزل بلسان الكعبين؟ وإنما نزل بلسان قريش<sup>٦</sup> » . قال مخاطباً به (سعد بن ابراهيم)<sup>٧</sup> . وقد رمى قتادة بالتدليس<sup>٨</sup> .

ويتهي سند هذا الحديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » الى (أبي هريرة)<sup>٩</sup> ، وقد كثُر القول عن أبي هريرة ، وأكثر (أبو هريرة) الحديث عن رسول الله ، حتى قال الناس أكثر أبو هريرة الحديث عن رسول الله ، وكان يقول لهم : « أني كنت امراً مسكتنا ، أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني . وكان المهاجرون يشغلهم الصدق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أمواهم » ، وذكر أن مسند « تقى بن مخلد » ، احتوى من حديث أبي هريرة على خمسة آلاف وثلاثمائة حديث وكسر<sup>١٠</sup> ، وقد يكون بعض ما أنسد اليه مما أكثر عليه ، أكثره عليه من جاء بعده ، ثم إن علينا تقد حديثه ، فليس هو بمشرع ولا معصوم ، حتى نقبل منه كل ما روي عنه<sup>١١</sup> . بل روي أن (عمر بن الخطاب) قال له : « أكثرت يا أبا هريرة من الرواية ، وأحر

١ ميزان الاعتدال (٢٥٦/٣) ، لسان الميزان (١٩٦/٦) .

٢ ميزان الاعتدال (١٣٧/١ وما بعدها) .

٣ وقد تحدثت عنه بالمناسبة في بحث « موارد تأريخ الطبرى » المنصور في مجلدات مجلة المجمع العلمي العراقي ، تفسير الطبرى (٢٣/١) .

٤ تفسير الطبرى (٢٣/١) .

٥ ميزان الاعتدال (٣٤٥/٢) .

٦ تفسير الطبرى (٩/١ وما بعدها) .

٧ الاصابة (٢٠٢/٤) ، (رقم ١١٩٠) .

٨ محمذ أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية ، وكتابه شيخ المضيرة .

بك أن تكون كاذباً على رسول الله . ثم هدده وأوعده إن لم يترك الحديث عن رسول الله فإنه ينفيه إلى بلاده .

وقد أخرج ابن عساكر من حديث السائب بن يزيد : لتركت الحديث عن رسول الله أو لأنك قلناك بأرض دوس <sup>١</sup> .

وهناك رأي ثالث يقول إنه نزل بلغة مصر ، لقول (عمر) : نزل القرآن بلغة مصر وعيّن بعضهم - فيما حكااه - ابن عبد البر السبع من مصر ، أنهم هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتم الرباب ، وأسد بن خزيمة ، وقريش . فهذه قبائل مصر ، تستوعب سبع لغات <sup>٢</sup> . وذكر أن (عمر) لما أراد <sup>٣</sup> أن يكتب الإمام ، أقعد له تقريراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مصر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مصر <sup>٤</sup> . ولما كانت القبائل المذكورة من مجموعة (مصر) ، تكون لغة القرآن ، وفقاً لهذا الرأي لغة مصر ، لا لغة قريش ، وروي عن (عبدالله بن مسعود) ، أنه كان يستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مصر <sup>٥</sup> .

وعندنا أخبار أخرى تفيد أن القرآن إنما أنزل بلغة قريش . من ذلك ما روي من قول عمر : « لا يملئن في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش ، أو غلامان ثقيف » <sup>٦</sup> . وفسروا ذلك بأنه يعني أن القرآن إنما نزل بلغة قريش . وما روي من قول (عثمان) للرهط القرشيين الذين أوكل إليهم جمع القرآن وكتابته : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانيهم . ففعلوا <sup>٧</sup> ، وما روي عنه أيضاً ، من أنه لما استفني في اختلاف

١ أضواء على السنة المحمدية (٢٠٠ وما بعدها) .

٢ السيوطي ، الاتقان (١٣٦/١) .

٣ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) .

٤ الصاحبي (٥٧) .

٥ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) ، وقال عمر : لا يملئن في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف ، الصاحبي (٥٧ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (١١) ، السيوطي ، اتقان (٥٩/١) .

٦ ابن كثير ، فضائل القرآن (٣١) ، « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فإن القرآن أنزل بلسانيهم » ، المصاحف (٢٠) .

( زيد ) مع الرهط في كتابة ( التابوت ) أيكتبونه بالباء أو الماء ، وقال الثلاثة القرشيون إنما هو التابوت ، وقال زيد إنما هو التابوه ، قال : « اكتبوه بلغة قريش ، فإن القرآن نزل بلغتهم »<sup>١</sup> ، وما روي عنه أيضاً من قوله للرهط الذين أمرهم بكتابته القرآن : « إذا اختلفتم أتّم وزيد في عربية من عربية القرآن ، فاكتبها بلسان قريش ، فإن القرآن نزل بلسانهم ففعلاوا »<sup>٢</sup> .

واستنكر ( ابن قتيبة ) قول من قال إن القرآن نزل بلغات أخرى ، فقال : « لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش » ، واحتج بالآية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »<sup>٣</sup> . واحتج آخرون يقول ( عمر ) لعبدالله بن مسعود : « إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئ الناس بلغة قريش »<sup>٤</sup> .

وروي في ( البخاري ) ، أن القرآن نزل بلسان قريش والعرب . . وقريش خلاصة العرب<sup>٥</sup> . وذكر بعض العلماء أنه نزل « بلغة المحجازين إلا قليلاً » ، فإنه نزل بلغة التيميين كالإدغام في : ومن يشاق الله ، وفي : ومن يرتد منكم عن دينه ؛ فإن ادغام المجزوم لغة تميم، ولهذا قل ، والفك لغة المحجاز ولهذا كثُر<sup>٦</sup> . وذكر بعض العلماء « إن في القرآن من أربعين لغة عربية وهي : قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وختنم ، والهزرج ، وأشعر ، وغمير ، وقيس عيلان ، وجرهم ، واليمين ، وأزد شنوة ، وكندة ، وتميم ، وحير ، ومدين ، ولثم ، وسعد العشرة ، وحضرموت ، وسدوس ، والهمالة ، وأنمار ، وغسان ، ومنجح ، وخزانة ، وغطفان ، وسأ ، وعمان ، وبنو حنيفة ، وثعلب ، وطيء ، وعامر ، ابن صعصعة ، وأوس ، ومزننة ، وثيف ، وجذام ، وبلي ، وعترة ، وهوازن ، والنمر ، واليامة »<sup>٧</sup> .

١ ابن كثير ، فضائل القرآن ( ٣٥ ) ، تفسير النيسابوري ، غرائب القرآن ورغائب القرآن ( ٢٤/١ ) ، ( حاشية على تفسير الطبرى ) .

٢ ابن كثير ، فضائل القرآن ( ١٩ ) ، ارشاد الساري ( ٨/٦ وما بعدها ) .

٣ السيوطي ، الاتقان ( ١٣٥/١ ) .

٤ الفائق ( ١١٣/٢ ) .

٥ ابن كثير ، فضائل القرآن ( ١٩/١ وما بعدها ) .

٦ السيوطي ، الاتقان ( ١٠٣/٢ ) .

٧ الزرقاني ، مناهل المرفان ( ١٧٤ ) ، السيوطي ، الاتقان ( ١٠٢/٢ ) ، الصاحبي ( ٥٨ وما بعدها ) .

وذكروا أنّ ما وقع في القرآن من غير العربية : الفرس ، والروم ، والنبط ، والحبشة ، والبربر ، والسريانية ، والعبرانية ، والقبط<sup>١</sup> .

وقال بعض العلماء : « انزل القرآن أولاً » بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبىح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ، ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى للمشقة ، ولما كان فيهم من الحميمية ، ولطلب تسهيل فهم المراد »<sup>٢</sup> .

وذهب (الباقلاني) إلى أن « معنى قول عثمان إنه نزل بلسان قريش ، أي معظمه ، ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كلها ، قال الله تعالى : قرآن عربياً ، ولم يقل قريشاً ، قال : واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً يعني حجازها وبعثها ، وكذا قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، قال : لأن لغة غير قريش موجودة في صحيح القراءات كتحقيق المهزات فإن قريشاً لا تهزم ، وقال ابن عطيه : قال ابن عباس : ما كنت أدرى معنى فاطر السموات والأرض ، حتى سمعت أغرايياً يقول ليث ابتدأ حفرها : أنا فطرتها »<sup>٣</sup> .

وستد القائلين : إن القرآن نزل بلسان قريش ، كون الرسول من مكة، ومكة موطن قريش . فلا بد من نزول كتاب الله بلسائهم ، ليكون حجة عليهم واعجaza لفصحائهم ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »<sup>٤</sup> ، فعلى هذا تكون لغة القرآن لغة قريش<sup>٥</sup> ، ولما جاء في الأخبار التي رویت عن (عمر) و (عثمان) من أنه نزل بلسان قريش .

ومن حجاجهم أيضاً ما روى عن (أبي عبيد الله) من قوله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواية لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالتهم أن قريشاً أفسح العرب السنة وأصفاهم لغة . وذلك أن الله - جل ثناؤه - اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدًا صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته . فكانت وفود العرب من

١ السيوطى ، الاتقان (١٠٢/١) ، الصاحبى (٦١) .

٢ السيوطى ، الاتقان (١٣٦/١) .

٣ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .

٤ سورة إبراهيم ، الآية ٤ .

٥ السيوطى ، الاتقان (١٣٥/١) .

حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ويتحاكمون الى قريش في امورهم . وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم . ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم ، وتسبيها أهل الله ، لأنهم الصريح من ولد اسماعيل عليه السلام ، ولم تشتم شائبة ، ولم تتق لهم عن مناسبهم ناقلة ، فضيلة من الله جل ثناؤه ، لهم وتشريفاً ، إذ جعلهم رهط نبيه الأذنين وعترته الصالحين . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتيتهم الوفود من العرب تخروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم . فاجتمع ما تخروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلامتهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصاح العرب . ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تيم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكة ربعة ، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس<sup>١</sup> .

وروى عن (قتادة) قوله : « كانت قريش تجتبي ، أي تختار ، أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتهم لغتهم ، فنزل القرآن بها »<sup>٢</sup> .

ثم إنها كانت بعيدة عن الأعاجم ، فصان بعدها عنهم لسانها عن الفساد ، وحفظتها من التأثير بأساليب العجم ، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية<sup>٣</sup> .

ولكننا نجد خبراً يذكر أن (عمان) قال للرهط الذين أمرهم بجمع القرآن وكتابته : « أجعلوا الملي من هذيل ، والكاتب من ثقيف »<sup>٤</sup> ، وليس هذيل ولا ثقيف من قريش . ونجد خبراً آخر يذكر أنه كانت غنمة في لغة قريش ، والغنمة من اللغات الرديئة التي أخذها علماء اللغة على اللغات العربية الأخرى<sup>٥</sup> ، فكيف تتفق الغنمة مع ما ذكروه من صفاء ونقاهة وسهولة وبيان لغة قريش ! ثم نجد خبراً يذكر أن الخليفة (أبو بكر) ، لما هم<sup>٦</sup> بجمع القرآن ، بعد إلحاح

١ الصاحبي (٥٢ وما بعدها) ، (باب القول في أصح العرب) ، المزهر (٢١٠/١) ، غريب القرآن (١٠/١) .

٢ اللسان (٢/٧٧) ، (١٥٨/١) ، (صادر) ، (عرب) .

٣ مقدمة ابن خلدون ، الفصل الثامن والثلاثون من القسم السادس ، الهلال ، السنة ٢٦ ، (اكتوبر ١٩١٧ م) ، (٤٣/١) .

٤ الصاحبي (٥٨) .

٥ تاج العروس (٦/٩) ، (غم) .

(عمر) عليه بذلك ، « أجلس خمسة وعشرين رجلاً من قريش ، وخمسين رجلاً من الأنصار ، وقال : اكتبوا القرآن ، واعرضوا على سعيد بن العاص ، فإنه رجل فصيح »<sup>١</sup> ، ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش ، لما اختار هذا العدد الكبير من الأنصار ، وهم من غير قريش، ومن منافسي مكة في الجاهلية والاسلام ، إن صبح هذا الخبر ، الذي أشك في صحته .

ثم نجد خبراً آخر ينافق الخبر المتقدم، يقول : « لما كتبت المصاحف عُرِضَت على عثمان ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيِّرُوها ؛ فإن العرب مستغيرها – أو قال سترتها – بأسنتها ، لو كان الكاتب من نقيف والمملي من هذيل ، لم توجد فيه هذه الحروف »<sup>٢</sup> . وهو خبر أشك في صحته ، وللعلامة فيه آراء .

وأما ما قالوه من اختلاف (زيد) مع التفر الفرشين الذين أشركوا معه في جمع القرآن من كتابة (التابوت) بالباء أو بالباء ، وكان من رأيه كتابتها (التابوه) ، ومن رأي (عثمان) (التابوت)<sup>٣</sup> ، فقد ذكر العلامة أن (التابوه) لغة في التابوت أنصارية<sup>٤</sup> . واللفظة هي من المغربات، أخذها الأنصار من العبرانية، فهي عندهم (ت ب هـ) ( ط ب هـ ) « Tebh » « Teba » يعني صندوق<sup>٥</sup> . وقد كتبت في القرآن بالباء . وقد وردت اللفظة في سورة (طه) ، وهي مكية<sup>٦</sup> ، ووردت في سورة البقرة وهي مدنية<sup>٧</sup> .

وأقرب الأقوال المذكورة إلى المنطق ، هو قول من قال إنه نزل بلسان عربي وكفى . فاسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً ، يعني حجازها وبعثها وكل مكان آخر من جزيرة العرب<sup>٨</sup> ، ثم ما بالنا نفتر ونؤول ، وتلف وتدور في تفسير : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، وهو حديث ، روی بروايات

- ١. اليعقوبي (١٢٥/١) ، (خلافة أبي بكر) .
- ٢. السيوطي ، الاتقان (٢٧٠/٢) .
- ٣. الزينة (١٤٦/١) .
- ٤. تاج العروس (٥٣٢/١) ، (تبث) .
- ٥. غرائب اللغة (٢١١) .
- ٦. السورة رقم ٢٠ ، الآية ٣٩ .
- ٧. السورة رقم ٢ ، الآية ٢٤٨ .
- ٨. ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .

تحتاج الى نقد ، وفيها ضعف ، وأخبار ضعيفة ، لا تقف على قدميها ، ثم ترك كتاب الله القائل : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »<sup>١</sup> ، و « هذا لسان عربي مبين »<sup>٢</sup> و « إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لكم تقلون »<sup>٣</sup> ، و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً »<sup>٤</sup> ، و « كذلك أنزلناه قرآنًا عربياً وصرفنا فيه من الوعيد »<sup>٥</sup> ، و « قرآنًا عربياً غير ذي عرج لهم يتقون »<sup>٦</sup> ، و « كتاب فصلت آياته قرآنًا عربياً لقوم يعلمون »<sup>٧</sup> ، و « كذلك أوحينا إليك قرآنًا عربياً »<sup>٨</sup> ، و « إنا جعلناه قرآنًا عربياً لكم تقلون »<sup>٩</sup> ، « وهذا كتاب مصدق لسانًا عربياً لينذر الدين ظلموا »<sup>١٠</sup> ، ولم يقل قريشاً<sup>١١</sup> ، ولو نزل بلغة قريش لما سكت الله تعالى عن ذلك ، لما في التنويه ببيانهم إن كان أفعى ألسنة العرب من حجة على العرب في فصاحتهم وبيانه وكونه معجزة بالنسبة لقريش ، أفعى الناس وألسنتهم ، وليس بكلام العرب عاممة الذين هم على حد قول أهل الأخبار دون قريش في اللغة والكلام .

وما آية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »<sup>١٢</sup> ، إلا دليلاً وحججاً على نزول القرآن بلسان العرب ، لا بلسان قريش ، أو بلسان قبيلة معينة ، أو قبائل خاصة . فالآية تقول : « ما أرسلنا إلى أمة من الأمم يا محمد من قبلك ومن قبل قومك رسولًا إلا بلسان الأمة التي أرسلناه اليه ولغتهم ، ليبين لهم . يقول : ليفهمهم ما أرسله الله إليهم من أمره ونبهه وليثبت حجة الله عليهم

- |    |                                  |
|----|----------------------------------|
| ١  | الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٥ . |
| ٢  | النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .   |
| ٣  | يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .      |
| ٤  | الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .    |
| ٥  | طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ١١٣ .      |
| ٦  | الزمر ، الآية ٢٨ .               |
| ٧  | فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣ .      |
| ٨  | الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .    |
| ٩  | الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٣ .    |
| ١٠ | الاحقاف ، الرقم ٤٦ ، الآية ١٢ .  |
| ١١ | ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .   |
| ١٢ | سورة ابراهيم ، الآية ٤ .         |

ثم التوفيق والخذلان بيد الله »<sup>١</sup> . ولما كان النبي عريباً ، وقد نعت في القرآن بأنه « النبي الأمي »<sup>٢</sup> ، الذي أرسله الله الى الأميين ، « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم »<sup>٣</sup> ، والأميون هم العرب ، العرب كلهم ، ولما كان الله قد أرسله الى قومه العرب ، وجب أن يكون الوحي بلسانهم المفهوم بينهم ، بلسان طائفة منهم ، يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم نفسه من أنه نزل بلسان عربي مبين . « قال الأزهري : وجعل الله ، عز وجل ، القرآن المترد على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عريباً ، لأنَّه نسبه الى العرب الذين أُنْزِلَهُ بلسانِهِ ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقارها ، العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عريباً لأنَّه من صريح العرب »<sup>٤</sup> . وقال ( ابن خلدون ) : « إنَّ القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه »<sup>٥</sup> . وقال ( الطبرى ) في تفسيره للآية : « انا أَنْزَلْنَا قرآنًا عربانًا لعلكم تقولون »<sup>٦</sup> ، « يقول تعالى ذكره : انا أَنْزَلْنَا هذا الكتاب المبين قرآنًا عربانًا على العرب ، لأنَّ لسانهم وكلامهم عربي ، فأَنْزَلْنَا هذا الكتاب بلسانهم ليقلووه ويفقهوه منه . وذلك قوله عز وجل لعلكم تقولون »<sup>٧</sup> .

« قال ابن أبي داود في المصاحف : حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز : أنَّ عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص ، لأنَّه كان أشبههم لهجة رسول الله صلى الله عليه وسلم »<sup>٨</sup> ، وهذا ندبه عنوان فيمن ندب لكتابه القرآن<sup>٩</sup> . ونعت أنه كان أحد أشراف قريش من جمع السخاء والمصاحة ، وفي هذه الاشارة دلالة على أنَّ لهجة الرسول ، لم تكن لهجة عامة قريش ، وإنما كانت بالعربية التي نزل بها القرآن ، وهذا نص على أنَّ لهجة ( سعيد ) كانت

١ تفسير الطبرى ( ١٣/١٢١ ) .

٢ الأعراف ، الآية ١٥٧ وما بعدها .

٣ الجمعة ، الرقم ٦٢ ، الآية ٢ .

٤ اللسان ( ٥٨٨/١ ) ، ( عرب ) .

٥ المقدمة ( ٣٦٧ ) ، ( ١٩٣٠ م ) .

٦ سورة يوسف ، الآية ٢ .

٧ تفسير الطبرى ( ١٢/٨٩ ) .

٨ الاصابة ( ٤٥/٢ ) ، ( رقم ٣٢٦٨ ) .

مشابهة للهجة الرسول ، وكان من أفضح رجال قريش ، ولو كانت عربية القرآن  
عربية قريش ، لما كان هنالك معنى لقولهم : إن عربية القرآن أقيمت على لسان  
سعيد ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ، إذ لو كانت عربية القرآن عربية  
قريش ، لنص عليها ، ثم لكان في وسع أي رجل كاتب من قريش ، تدوينه ،  
لفصاحة قريش ، ولكن سعيداً كان من فصحاء قريش ، لأنه كان يتكلم بعربية  
فصيحة ، هي العربية التي نزل بها القرآن ، والتي عرف فصحاء قريش فصاحتها ،  
فاعتبروا لذلك بتزوله بأفصح لغة وأبين بيان .

وقد ذهب (نولدكه) إلى أن القول بتزول القرآن بلسان قريش ، إنما ظهر  
في العصر الأموي ، للإظهار عصبيته منها على الأنصار . ونظراً لكون القرآن كتاب  
الله فلا دعاء نزوله بلغة قريش أهمية كبيرة بالنسبة لهم ، ولتأييد سياستهم المناهضة  
للأنصار والقططانين<sup>١</sup> .

وبلغت حديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » النظر إليه حقاً ، فقد  
حضر القراءات في (سبعة أحرف) . والأحرف الألسنة ، مع أن العلماء يذكرون  
أن في القرآن من كل لغة ، وأن فيه خمسين لغة<sup>٢</sup> . فإذا كان فيه هذا العدد أو  
نحوه ، فما بال هذا الحديث يحصرها في سبعة فقط لا تزيد ولا تنقص وهي أحرف  
ثبتها العلماء ونصوا على أسمائها نصاً . هل أخلوا هذا الحديث من (السبعين الثاني)  
في القرآن الكريم ، من قوله : « ولقد آتيناك سبعاً من الثاني والقرآن العظيم »<sup>٣</sup> .  
أو أخلوه من عدد سبعة الذي يرد في مواضع عديدة من القرآن الكريم<sup>٤</sup> مثل  
سبعين سمات<sup>٥</sup> ، وسبعين سنابل<sup>٦</sup> ، وسبعين سبلات<sup>٧</sup> ، وسبعين بقرات<sup>٨</sup> ، وسبعين سنين<sup>٩</sup> ،

١ ولفسون ، السامية (٢٠٧) ،

٢ « وقال أبو بكر الواسطي في كتابه : الارشاد في القراءات العشر : في القرآن من اللغات خمسون لغة : لغة قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وخشوم ، والخزرج ... الخ » ،  
السيوطى ، الاتقان (١٠٢/٢) .

٣ الحجر ، الرقم ١٥ ، الآية ٨٧ ، تفسير الطبرى (١٤/٣٥ وما بعدها) .

٤ البقرة ، الآية ٢٩ .

٥ البقرة ، الآية ٢٦١ .

٦ يوسف ، الآية ٤٣ .

٧ يوسف ، الآية ٤٣ .

٨ يوسف ، الآية ٤٧ .

وسيع شداداً<sup>١</sup> ، والسماوات السبع<sup>٢</sup> ، وسيع ليسال<sup>٣</sup> ، وسيعاً شداداً<sup>٤</sup> ، وبسبعة أبواب<sup>٥</sup> ، وبسبعة أخرى<sup>٦</sup> ، والعدد سبعة هو عدد الأيام التي أتم الله فيها الخلق كلها ، وعدد أيام الأسبوع ، ونحو ذلك . والعدد سبعة عدد لعب دوراً خطيراً عند الشعوب القديمة ، فالأرض سبع طبقات ، والسموات سبع طباق ، وأنقاض الموسيقى سبعة ، والعدد سبعة عدد مقدس ، لعب دوراً في الرياضيات القديمة وفي نظريات (فيثاغورس) ، وعيون الشعر الجاهلي هي سبعة ، هي القصائد السبع الطروال ، أو المعلقات السبع ، فهل اقتصر الحديث على هذا العدد لسبب من هذه الأسباب أو ما شابها ، من أسباب ؟

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن العدد سبعة لا يمثل حقيقة العدد ، بل المراد التيسير والتسهيل والسرعة . ولفظ (السبعين) يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد ، كما يطلق السبعون في العشرات والسبعينات في المئتين ، ولا يراد العدد المعين . ويرده ما في كتب الحديث والأخبار من النص على العدد سبعة بصورة لا تقبل الشك في أن المراد منه حقيقة العدد والمحصاره ، ثم تعين هذه الكتب اللهجات السبع بالأسماء<sup>٧</sup> ، وقد ألف (الصفدي) كتاباً في عدد السبعة ، سماه (عن النبع على طرد السبع) ، قال فيه إن السبعة جمعت العدد كلها ، وهذا العدد يمثل الكمال ، فأننا لا استبعد أن يكون هذا الحديث قد جاء من هذه الفكرة<sup>٨</sup> .

### القراءات السبع :

ومن الأحرف السبعة ظهرت نظرية القراءات السبع ، القراءات المعتبرة المعتمدة عند القراء ، وهي ترجع إلى أئمَّة ارتبطت القراءات بأسمائهم ، وعليها يقتصر في

- ١ يوسف ، الآية ٤٨
- ٢ الاسراء ، الآية ٤٤ ، المؤمنون الآية ٨٦ ، فصلت ، الآية ١٢ ، الملك ، الآية ٣ ، نوح ، الآية ١٥
- ٣ الحاقة ، الآية ٧
- ٤ النبا ، الآية ١٢
- ٥ العجيز ، الآية ٤٤
- ٦ لقمان ، الآية ٢٧
- ٧ السيوطي ، الاتقان (١/١٣١ وما بعدها)
- ٨ الرافع (٢/٥٤)

القراءات . وهي نتيجة تطور سابق لقراءة سبقوا هؤلاء الأئمة الذين اعتمد عليهم في القراءات<sup>١</sup> ، وعلى قراءاتهم يقرأ من يستحق لقب (مقرئ) أو (قارئ)<sup>٢</sup> ، وإن كانت هنالك روايات تزيد بعض الزيادات على هذه القراءات .

ولأجل تكوين فكرة علمية صحيحة عن هذه الأخبار وعن درجة سعة هذا الاختلاف ومقدارها وما يجب أن يقال فيها ، لا بد من نقد كل ما ورد في هذا الباب من حديث وروايات ، وغربلته غربلة دقيقة . وتكون أول هذه الغربلة في نظري ب النقد سلسلة رجال السندي ، أي الرواية ، لمعرفة الروابط التي كانت تربط بينهم وصلة بعضهم ببعض وملاقتهم ، وما قيل وورد فيهم ؛ إذ نسبت أحاديث إلى أشخاص قيل لهم رووها عن أنس ثقات ، ثبت من النقد أن بعض رجال السندي لم يلتقطوا في حياتهم عن حدثوا عنهم كما في حديث قادة عن ابن عباس ، أو أنهم رووا ما رووه تسرعاً وبدون سند أو إجازة لمجرد سماعهم برواية أولئك الأشخاص لتلك الروايات<sup>٣</sup> .

ثم إن هذا النقد لا يكفي وحده ، بل لا بد من نقد متن الحديث من حيث لغته وأسلوبه ومضمونه وروحه ، ومن حيث اتفاق بعض الروايات على جوهر القرآن الكريم وما عرف عن الرسول . فبهذا النقد للمن ، نتمكن من الحكم على إمكان صدور الحديث عن الرسول أو عدمه .

وبعد كلّ ما نقدم ، علينا حصر أمثلة الاختلاف التي ذكرها العلماء ، وضبط كل ما ورد في الأخبار من هذا القبيل ، لنتمكن من الحكم على مقدار ما اختلف فيه وسعته ودرجة موافقته لما جاء في ذلك الحديث وفي تلك الأخبار ، ثم دراسة هذه الكلمات التي قيل أنها تمثل لهجات قبائل وأنها حرف من هذه الأحرف السبعة المذكورة في الحديث .

لقد نلخص (ابن قتيبة) الأحرف السبعة بالأوجه التي يقع بها التغاير :  
فأولها : ما تتغير حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل : ولا يضار  
كاتب بفتح الراء وضمه .

١ ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله (١٢١) ، النشر (٣١/١ وما بعدها) .

٢ كولوزيهر ، المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن (٣٧) .

٣ تفسير الطبرى (٢٣/١) ، (٧٢/٢٥) ، المذاهب الإسلامية (٨١ وما بعدها) .

وثانيةها : ما يتغير بالفعل مثل بعْدَ وباعِدَ ، بل فقط الطلب والماضي .  
وثالثها : ما يتغير باللفظ مثل : نُنْشِرُها ونُنْسَرُها بالراء المهملة .  
رابعها : ما يتغير بإيدال حرف قريب المخرج مثل طلح منضود وطلع منضود .  
خامسها : ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل: وجاءت سكرة الموت بالحق، وجاءت  
سكرة الحق بالموت .

و السادسها : ما يتغير بالزيادة والنقصان ، مثل : وما خلق الذكر والأُنثى ،  
والذكر والأُنثى ، بتقصى لفظ ما خلق .

سابعها : ما يتغير بإيدال كلمة بأخرى ، مثل : كالعنون المفتوش ، وكالصوف  
المفتوش<sup>١</sup> .

وأجمل (ابن الجزري) الأوجه السبعة بـ :

١ - وذلك إما في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو : البخل بأربعة  
أوجه ، ويحسب بوجهين .

٢ - أو بتغير في المعنى فقط نحو : فتلقى آدم<sup>٢</sup> من ربه كلماتٍ ، برفع آدم  
ونصب لفظ كلمات وبالعكس .

٣ - وأما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو : تبلو ، وتتلوا .

٤ - وعكس ذلك ، نحو بسطة وبسطة ، ونحو الصراط والسراط .

٥ - أو بتغيرهما نحو فامضوا ، فاسعوا .

٦ - وإما في التقديم والتأخير ، نحو فيقتلون ، ويقتلون ، بفتح ياء المضارعة  
مع بناء الفعل للفاعل في إحدى الكلمتين، وبضمها مع بناء الفعل للمفعول  
في الكلمة الأخرى .

٧ - أو في الزيادة والنقصان .

وقد أوجز (أبو الفضل) الرازبي ، الحروف السبعة في :

١ - اختلاف الأسماء من إفراد ، وثنية ، وجمع ، وذكير ، وتأنيث .  
مثل : والذين هم لآماناتهم وعدهم راعون ، قرئ هكذا جمعاً ،  
وقرئ لآماناتهم بالإفراد .

---

<sup>١</sup> الزرقاني ، مناهل (١٥٢) .

٢ - اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ ، ومضارع ، وأمر . مثل : فقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا ، قرئ هكذا بنصب لفظ ربنا على أنه منادي ، وبلفظ باعد فعل أمر ، وبعبارة أنساب بالمقام فعل دعاء . وقرئ هكذا : ربنا بعَدْ يرفع رب على أنه مبتدأ وبلفظ بعَدْ ، فعلاً ماضياً مضعنف العين جملته خبر .

٣ - اختلاف وجسو الإعراب . مثل : ولا يُضارَ كاتب ولا شهيد . قرئ بفتح الراء وضمها ، فالفتح على أن لا نافية ، فالفعل مجروم بعدها ، والفتحة الملحوظة في الراء هي إدغام المثنين . أما الضم فعلى أن لا نافية ، فالفعل مرفوع بعدها .

٤ - الاختلاف بالنقض والزيادة . مثل : وما خلقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى ، قرئ بهذا اللفظ . وقرئ أيضاً والذَّكَرِ والأُنْثَى ، بتقص كلمة ما خلق .

٥ - الاختلاف بالتقديم والتأخر . مثل : وجاءت سكرة الموت بالحق ، وقرئ : وجاءت سكرة الحق بالموت .

٦ - الاختلاف بالإبدال . مثل : وانظر إلى العظام كيف نشرها ، بالزاي ، وقرئ نشرها بالراء . ومثل : وطلع منضود ، بالحاء ، وقرئ طلع بالعين . فلا فرق في هذا الوجه أيضاً بين الاسم والفعل .

٧ - اختلاف اللغات ، أي اللهجات ، كالفتح والإمام ، والترقيق والتفحيم ، والإظهار ، والإدغام ونحو ذلك<sup>١</sup> .

ونحن إذا تعمقنا في درس مواضع الاختلاف ، وهي أهم ما يتصل بلهجة القرآن الكريم ، وسجلناها تسجيلاً دقيقةً شاملًا<sup>٢</sup> ، نجد أنها ليست في الواقع اختلافاً في أمور جوهرية تتعلق بالوحى ذاته ، وإنما هي في الغالب مسائل ظهرت بعد نزول الوحي من خاصية القلم الذي دون به القرآن الكريم . فرسم أكثر حروف هذا القلم متشابه ، والمميز بين الحروف المتشابهة هو النقط ، وقد ظهر النقط بعد نزول الوحي بأمد كما يقول العلماء ، ثم إنَّ هذا القلم كان خالياً في بادئه

---

١ الزرقاني ، منهال العرفان (١٤٨ وما بعدها) .

أمره من الحركات ، وخلوّ الكلم من الحركات يحدث مشكلات عديدة في الضبط من حيث إخراج الكلمة ، أي كيفية النطق بها ، ومن حيث موقع الكلم من الإعراب<sup>١</sup> .

كل هذه الأمور وأمور أخرى تعرض لها العلامة ، أحدثت في الغالب القسم الأعظم مما بعد اختلافاً في القراءات .

ويعود القسم الباقى من مواضع الاختلاف إلى سبب أراه لا يتعلّق أيضاً بعن النص ، وإنما هو ، كما يتبيّن من الإمعان في دراسته ومن تحليل الآيات المختلفة فيها ، زيادات وتعليقات من ذهن الحفاظ والكتاب على ما أتصور ، لعدم وضوح المعنى لديهم ، لعلها كانت تفسيراً أو شرحاً لبعض الكلم دون تمتّع الأصل ، فظننت فيما بعد من الأصل . وآيات التفسير مع المتن ، جائز على بعض الروايات<sup>٢</sup> .

ويعود قسم آخر منه إلى استعمال كلمات قد تكون مخالفة للكلمة من حيث شكلها ، ولكنها متقدمة معها في معناها ، وإلى استعمال كلمات متباعدة في الشكل وفي المعنى . وهذا القسم هو ، ولا شك ، أهم أقسام الاختلاف ، وإليه يجب أن توجه الدراسة .

هذه الأمور المذكورة ، تحصر جميع ما ورد من اختلاف في كلمات أو آيات من القرآن الكريم . أما ما ذكره العلامة من الأوجه التفسيرية للحديث : حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف ، ومن جعلها خمسة وثلاثين وجهآً أو سبعة أوجه أو أقل من ذلك أو أكثر<sup>٣</sup> ، فإنها تفاسير متأخرة ، وأوجه نظر قيلت لإيجاد مخارج مسوجة لتفسير هذا الحديث .

ويصعب في هذا الموضوع ذكر أمثلة لهذه الأمور ، فهي عديدة كثيرة ، ذكرت في كتب المصاحف وفي كتب التفسير ، وأورد شواهد منها ( كولدت تبرير ) في كتابه عن ( المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن )، يمكن الاطلاع عليها في الصورة

١ الهمداني ، الأكليل ( ١٢٢/٨ ) ، المذاهب الإسلامية ( ٤ وما بعدها ) .

٢ « جواز آيات بعض التفسير على المصاحف ، وإن لم يعتقد قرآنآنا » ، المذاهب الإسلامية ( ١١ وما بعدها ) ، الزرقاني على الموطأ ( ٢٥٥/١ ) .

٣ النشر ( ٢١/١ وما بعدها ) ، السيوطي ، اتقان ( ٧٨/١ وما بعدها ) ، تفسير القرطبي ( ١٦/١ ) .

العربية له المطبوعة بمصر<sup>١</sup>. فن أمثلة الاختلاف الحادث من الخط ( تستكرون ) بالباء الموحدة و ( تستكرون ) بالباء الثالثة في الآية : « ونادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسياهم ، قالوا : ما أغني عنكم جمِّعُكُم ما كنتم تستكرون »<sup>٢</sup>. و ( بشراً ) أو ( نشراً ) في الآية : « وهو الذي يُرسل الرياح بشراً بين يدي رحمة »<sup>٣</sup>. وكلمة ( إيه ) في الآية : « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن مَوْعِدَةٍ وعدَّها إيه » ، إذ وردت أيضاً ( إيه ) بالباء الموحدة<sup>٤</sup>. وأمثال ذلك مما كان سببه النقط .

وبعد ملاحظة ما تقدم ، وحصر كل ما ورد في المصادر وما قرأه القراء من قراءات ، نجد أن ما يختص منه باللهجات وباللغات قليل يمكن تعينه ، ومعظمها متزادات في مثل : أرشدنا واهدنا ، والعهن والصوف ، وزقية وصيحة ، وهلم وتعال وأقبل ، وعجل وأسرع<sup>٥</sup> ، والظالم والفاجر ، وعنى وخى<sup>٦</sup> ، وأمثال ذلك . وهذه الأمثلة هي كلمات مختلفة لفظاً ، ولكنها في معنى واحد . وهي كما ترى مفردات لا دخل لها في قواعد اللهجات .

وأما الاختلاف في الظهور ، والإدغام ، والإشمام ، والتفسخ ، والترقيق ، والمدد ، والقصر ، والإملأة ، والفتح ، والتحقيق ، والتسهيل ، والإبدال . فهذا ليس من الاختلاف الذي يتوزع فيه اللفظ والمعنى ؛ لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً<sup>٧</sup> ، وليس هو من قبيل الاختلاف المؤثر في قواعد اللهجة ، إنما هو اختلاف في الصور الظاهرة لخارج حروف الكلمات ، فلا يصح أن يعد فارقاً كبيراً يمكن أن يكون حداً يفصل بين اللهجات ، بحيث يصيرها لغة من اللغات، ثم إن بعضه يعود إلى الخط ، وبعضه إلى التجويد ،

- ١ ( القاهرة ١٩٤٤ م ) ، ( علي حسن عبد القادر )
- ٢ الأعراف ، آية ٤٨
- ٣ الأعراف ، آية ٥٧
- ٤ التوبية ، آية ١١٤
- ٥ النشر ( ١/٢٩ وما بعدها ) ، القرطبي ( ١٦/١ ) ، السيوطي ، اتقان ( ١/٧٩ وما بعدها )<sup>٨</sup>
- ٦ مبني ( ٩ ) ، Noldeke, Geschichte, I, 51.
- ٧ النشر ( ١/٢٦ وما بعدها )<sup>٩</sup>

والحكم على أصل المترادفات ، تجنب مراجعة سلسلة السند للوصول إلى صحة تسلسل الأخبار من جهة ، وإلى معرفة راوي الخبر والقبيلة التي هو منها لمعونة القراءة التي قرأها ، وهل هي من لهجة قبيلته ، أم هي مجرد كلمة من اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم نفسها ، تلقاها القارئ على الشكل الذي روتها في قراءته .

لقد أشار العلماء إلى أمثلة من كلمات غير قرشية وردت في القرآن الكريم ، ذكروا أنها من لهجات أخرى ، ومنها : الأرائك ، ولا وزَرَ ، و (حور) ، وأمثال ذلك رجع بعضهم أصولها إلى خمسين لهجة من لهجات القبائل ، كما أشاروا إلى وجود كلمات معربة أخذت من لغات أعجمية مثل الرومية ، والفارسية ، والنبطية ، والحبشية ، والسريانية ، والعبرانية وأمثال ذلك<sup>٢</sup> ، وأتفقا في ذلك كتاباً ، منها : كتاب لأبي عبيد القاسم بن سلام المروي المتوفى سنة (٤٢٣هـ) (٨٣٨م) ، واسمه : « رسالة في ما ورد في القرآن من لغات القبائل »<sup>٣</sup> ، وكتاب لغات القرآن ، لأبي زيد الأنصاري المتوفى سنة (٤٢١هـ) (٨٢٩م)<sup>٤</sup> ، وغيرهما . ولكن بحوث هؤلاء العلماء انحصرت في دراسة المفردات ، أي الكلمات لا غير . ثم إن الذين تناولوها لم يكن لهم علم بأكثر اللغات التي رجعوا أصولها إليها ، ولا سيما اللغات الأعجمية مثل الرومية ، والسريانية ، والنبطية ، والحبشية . غير أن من الجائز أن يكون هؤلاء قد سمعوا عنها من الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام . ولكن طريقة السباع هذه لا تكفي لإعطاء حكم على أصل لغة ، بل لا بد من وجود علم ومعرفة بقواعد تلك اللغة وتاريخها وتطورها ، والإحاطة بالعلاقات التاريخية بين العرب وغيرهم قبل الإسلام لمعرفة كيفية دخول تلك الكلمات إلى العرب ، وإيجاد وجده صحيح للمقارنة بين اللغتين . وهذا ما لم يحدث في تلك الأيام .

١ راجع بعض الأمثلة في (ص ٧) من كتاب المصاحف : للسجستاني « تحقيق آرثر جفري » ، (القاهرة ١٩٣٦م) .

٢ السيوطي ، اتقان (١/٢٢٩ وما بعدها) .

٣ طبع مع كتاب الدميري المسمى (التسير في علم التفسير) ، في القاهرة سنة ١٩١٠هـ ، ومع تفسير الجلالين المطبوع في القاهرة كذلك سنة ١٣٥٦هـ .

٤ التهرست (٥٥) .

ولما كانت قراءة عبدالله بن مسعود من القراءات المشهورة المعروفة ، وكان عبدالله بن مسعود من قبيلة هذيل<sup>١</sup> ، وجب علينا البحث في لهجة هذيل لمعرفة خصائصها وتميزاتها وما انفردت به عن غيرها من اللهجات . وهذيل من القبائل التي عرفت بجودة لهجتها ، في تدوين القرآن الكريم<sup>٢</sup> . ولذلك رأى الخليفة عثمان أن يكون المعي من هذيل والكاتب من ثقيف . وقد ذكرت لهجتها في جملة اللهجات التي نص عليها في الحديث المذكور على نحو ما أشرت إليه ، كما أخرجت عدداً من الشعراء جمع بعض العلماء أشعارهم في ديوان ، وقد طبع في القاهرة ديوان شعراء هذيل<sup>٣</sup> . وفيه لمن شعر هؤلاء الشعراء بالطبع في الوقف على لهجة هذه القبيلة . ولكن هذا الشعر هو مثل شعر سائر الشعراء الجاهليين الآخرين ، مصقول مهذب ، هذب على وفق قواعد اللغة العربية التي ضبطت في الإسلام ، ثم هو مضبوط برواية رواهُم في الأغلب من غير هذيل . ولهذا قلما يجد في شعر هؤلاء الشعراء وغيرهم ما يختلف عن قواعد اللهجة العربية ، حتى أنها لا تستطيع في هذه الحالة أن ندعى أن هذا الشعر هو بلهجة هذيل . وقد حرمنا العقل الوقف على لهجات القبائل التي أخرجت أولئك الشعراء ومعرفة مؤثراتها في شعر أولئك الشعراء .

ومن أهم الأمثلة التي أوردهما العلماء في قراءة (ابن عباس) مما له علاقة باللهجات ، قراءاته كلمة (حتى) (عنى) في الآية : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليَسْجُنْنَهُ حتى حين »<sup>٤</sup> . وقد ذكر المفسرون وعلماء اللغة أن هذه القراءة هي بلهجة هذيل<sup>٥</sup> ، وأن (عنى) هي (حتى) عند هذه القبيلة ؛ ذلك لأن هذه القبيلة تستعمل حرف العين بدلاً من الحاء في لهجتها<sup>٦</sup> . ولم يشر

١ طبقات ابن سعد (١٥/١)، (١٠٥/٣)، عيون الاخبار (٣٧٣)  
Ency., 2, 403, Goldziher, Vorlessungen, S., 65.

٢ الصاحبي (٢٨)، « وقال عمر : لا يملئن في مصاحفنا إلا علمان قريش وثقيف .  
وقال عثمان : اجعلوا المحلى من هذيل ، والكاتب من ثقيف »، Rabin, p. 79.  
٣ الخصائص (١/١٣٠)، ديوان الهذيلين : القاهرة ١٩٤٥، مطبعة دار الكتب  
المصرية .

٤ سورة يوسف الرقم ١٢، آية ٣٥ .  
٥ البيضاوي (٤٦٠/١)، ابن مالك ، التسهيل (٥٧)  
٦ المزهر (١٣٣/١)، (٢٢٢/١)، (١٣٣/١)، (١٩٥٨ م)، (الباب الحادي عشر)، Rabin, p. 84.

العلماء الى موضع آخر استعمل ( ابن مسعود ) فيها كلمة ( عَنِي ) في موضع ( حتى ) الواردة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، كما أننا لم نجد في كتب اللغة المتقدمة إشارة الى استبدال هذيل حرف العين بحرف الحاء . ونظيرية ( فتححة ) هذيل ، رأى متاخر لم يقرن بأدلة وأمثلة ، فهو رأي لا يمكن الأخذ به<sup>١</sup> . وأظن أن هذه القراءة المنسوبة الى ( ابن مسعود ) ، هي من القراءات المسولة من حدوث اشتباه في القراءة ، من جراء عدم حصول التمييز بين ( العين ) و ( الحاء ) في ( حتى ) . ووقوع الاشتباه بين الحرفين في ابتداء الكلمات ، أمر ليس بصعب ، ولا فلماً انفرد ابن مسعود في هذا الموضع فقط ، باستعمال ( عَنِي ) ، ولم يستعملها في الموضع الأخرى وهي كثيرة في القرآن الكريم ؟

نعم ، لقد ورد في روایات ان ابن مسعود قرأ ( نَحْم ) بدلاً من ( نعم ) في القرآن الكريم<sup>٢</sup> ، وأنه قرأ ( بُخْرَ ) عوضاً عن ( بُعْتَرَ )<sup>٣</sup> . وهذه الروایات تناقض الروایات السابقة التي تزعم أنه قرأ ( عَنِي ) في موضع ( حتى ) في الآية المذكورة ، إذ نجده في هذه الروایات يقرأ ( العين ) حاءً ، أي عكس تلك القراءة المنسوبة اليه . ثم إن المفسرين وعلماء القراءات ، لم يشاروا الى قراءات أخرى له من هذا النوع قلب فيها حرف العين حاءً مع تعدد ورود حرف العين في القرآن الكريم .

وهناك روایات تفيد أن أسدًا وغيمًا استعملوا حرف الحاء في موضع العين في بعض الحالات ، فقالوا : ( سَخَّنُهُمْ ) بدلاً ( معهُمْ ) و ( أَحْدَدْ ) في موضع ( أَعْهَدْ )<sup>٤</sup> . ولكنها لم تشر الى أمثلة أخرى من هذا القبيل . وهذا المثالان لا يكفيان بالطبع لاعطاء حكم في هذا الإبدال عند القبيلتين . ولكن هناك روایة متاخرة لا نعرف مرجعها تفيد أن هذا الإبدال واقع في لهجة سعد بن بكر ، وهي قبيلة تقع مواطنها في شمالي المدينة<sup>٥</sup> . ولكن ما صلة ابن مسعود بهذه القبيلة وهو

١ Rabin, p. 85.

٢ المغني ( ٢٥ / ٢ ) .

٣ « أفلأ يعلم اذا يعثر ما في القبور » ، العادييات ، الرقم ١٠٠ ، الآية ٩ ،

Rabin, p. 85. Beck, in Orientalia, vol. XV, 182.

٤ Rabin, p. 85.

٥ المصدر نفسه .

من هذيل ؟ هل نفترض أنه أخذ قراءته تلك من أفواه رجال هذه القبيلة ؟ إذا أخذنا بهذا الظن ، وجب علينا إثبات ذلك بدليل ، وذكر أسماء الصحابة الذين أخذ ابن مسعود منهم قراءته . ويجب حينئذ راجع تلك القراءة إلى أولئك الصحابة لا إلى ابن مسعود . والواقع أننا لا نستطيع أبداً الاتيان بدليل ما يثبت استعمال هذيل حرف العين في كلامها في موضع الحاء وبالعكس .

ورأيي أن ما نسب إلى ابن مسعود في هذه القراءة أو القراءات الثلاث ، سببه وهم " وقع فيه من " نسب تلك القراءة إليه ، وهو ناتج من كتابة المصحف المنسوب إليه . وإنما ، فلا يعقل أن يقتصر ابن مسعود على هذه القراءة أو القراءات التي هي ليست من لهجة أهل مكة ولا أهل يثرب ولا هذيل ، ثم يترك سائر الموضع . ولا يعقل كذلك تلفظ الرسول بهذه اللهجة الشاذة التي لا نعرف من كان يستعملها على وجه ثابت ، وقد نزل القرآن بأفصح اللهجات .

والى أمثال هذه القراءات الشاذة ، التي يجب نقدها وتحقيقها بعناية ، استند (كارل فولرس ) في نظريته القائلة بحدوث تغيير في نص القرآن الكريم . وهي نظرية لم يُقرّها عليه بعض كبار المستشرقين . ولو فحصت ودققت ، لتبين أنها بنيت على روایات لا تثبت أمام التحقيق ، أخذها لمجرد ورودها في الكتب : ولكن ليس كل ما يرد في الكتب بأمر مسلم به .

وقد بحث العلماء في اللغات التي وقعت في القرآن بغير لغة قريش ، وفي جملتها لغة حمير ، ورجعت إلى بحوثهم ، فوجدت أن ما نسب إلى الحميرية من كلمات ، لا يحمل طابع الحميرية ، وليس من لغة العرب الجنوبيين بشيء . وقل مثل ذلك عن لغة (جرهم) ، فقد دوّنوا ألفاظاً زعموا أنها وردت بلغة (جرهم) ، ونحن نعلم من أقوال أهل الأخبار أنفسهم أن (جرهما) كانوا من الشعوب العربية البائدة التي هلكت قبل الإسلام بزمن طويل . وقد ماتت لغتهم معهم بالطبع ، فكيف يمكن للعلماء من تشخيص هذه الألفاظ ومن إرجاعها إلى جرهم ؟ وقد وجدت أيضاً أن ما ذكروه من أمثلة أخرى على لغات القبائل التي وردت ألسنتها في القرآن هو من هذا القبيل ، ولا سيما القبائل المهاجرة مثل ( مدین ) ، فالعلماء الذين شخصوا تلك اللهجات التي زعموا أنها وردت في القرآن ، يذكرون أن بعض أصحاب هذه اللهجات هم من العرب البائدة ، فهم من ماتوا وبادروا ، وماتت

لغتهم بموجبهم ، فما يذكرونه من ألفاظ لغاتهم الواردة في القرآن ، هو مما لا أصل له إذن . ثم لم يتم نسبوا ألفاظاً إلى (مير) ، وجدنا أنها ليست حيرية أبداً ، أضف إلى ذلك أنهم لم يدرسوا العribيات الجاهلية دراسة علمية ، ولم يكن لهم علم بها ، وهذا ما ثبته ودوّنه عن اللغات العربية في القرآن ، لا يمكن الأخذ به ، لأنه لا يستند على علم بالموضوع ، ولا على دراسات لتلك اللهجات .

ومن أمثلة ما ذكروه على أنه من لسان (مير) ، الأرائك ، ولا وزر ، يعني لا جبل ، وحور ، وهو ، يعني المرأة ، ولا تفشل ، وغير ، وسفاهة ، وزيلنا ، ومرجواً ، وإمام وغير ذلك<sup>١</sup> ، وذكروا أن (باءوا) ، وشقاق ، وخبراً وكذاب ، وأراذلنا ، ولقيماً ، وغير ذلك من لغة جرهم<sup>٢</sup> ، وهي كلها من تخرصات من نسبة إلى جرهم ، لما قالوه أنفسهم من هلاك جرهم قبل الاسلام بزمان طويل ، فمن أبلغهم إذن أن هذه الالفاظ من الالفاظ جرهم ، ولم نزلت في القرآن ، وقد نزل الوحي للأحياء وليس للأموات !

وقد ذهب البعض مذهبأً بعيداً في اللغات الواردة في القرآن ، فذهب إلى أن (غساق) ، يعني المتن بلسان الترك ، وهو بالطخارية<sup>٣</sup> ، وأن (سيدها) زوجها بلسان القبط ، وأن (الأرائك) بالحبشية ، وأن (سبحي) بلسان الحبشة ، وأن (الجيت) الشيطان بلغة الحبش ، وأن (حرم) يعني وجوب الحبشي ، وأن (سكر) ، يعني الخلل بلغة الأحباش ، وأن (سينين) يعني الحسن بلسان الحبشة ، وأن (شطر) حبشي ، وإن (العرم) حبشي ، وأن قنطر بلسان أهل إفريقيا ، إلى غير ذلك من الالفاظ<sup>٤</sup> .

ونجد رواية تذكر أن الصحابة لما تشاوروا في أمر تسمية القرآن ، ما يسمونه ؟ فقال بعضهم : سموه السفر ، قال ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوه ، فقال رأيت مثله بالحبشة يسمى المصحف ، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف<sup>٥</sup> ، فجعلوا اللفظة حبشية .

١ المزهر (٩٣/٢ وما بعدها) .

٢ المزهر (٩٥/٢ وما بعدها) .

٣ الاتقان (١١٥/٢) .

٤ الاتقان (١٠٩/٢ وما بعدها) .

٥ السيوطي ، الاتقان (١٦٦/١) .

ولو درسنا الألفاظ المعرفة المذكورة ، نجد أن العلماء قد أخطأوا في تشخيصها وخلطوا في الغالب بين أصواتها ، بسبب أنهم لم يكونوا يحسنون اللغات الأعجمية ، ما عدا الفارسية ، وأنهم لم يراجعوا أهل العلم والتخصص في اللغات الأعجمية ، من رجال الدين من أهل الكتاب ، أو المبحرين بالأدب من الروم والسريان ، بل اكتفوا بمراجعة آياً كان من كانوا يعرفونهم من نصارى ويهود ، وحيث أنه لم يكن لدى هؤلاء علم المبحرين في الدين والأدب ، جاءت أجوبتهم فجّة أو مغلوطة ، ودونت على هذه الصورة .

ونظراً لعدم وقوف العلماء على اللغات العربية الجنوية ، جعلوا ألفاظاً عربية واردة في القرآن مثل (العرم) لفظة حبشية<sup>١</sup> ، مع أنها لفظة عربية جنوية ، مدونة في النصوص ، وجعلوا ألفاظاً أخرى من هذا القبيل ، من الألفاظ المعرفة عن لغات أعجمية .

وقد اتخذ بعض العلماء حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف دليلاً على نزول القرآن بلغة قريش ، فقد قالوا : إن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن واقعة كلها في لغة قريش ، ذلك أن قريشاً كان قد داوروا بينهم لغات العرب جميعاً وتدارلوا بها ، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسيمها ، وأيامها ووقائعها ، وحاجتها وعمريها ، ثم استعملوه وأذاعوه ، بعد أن هذبوا وصقلوه . وبهذا كانت لغة قريش يجمع لغات مختلفة منتقة من بين لغات القبائل كافة ، وكان هذا سبباً من أسباب انتهاء الرعامة اليهم ، واجتماع أوزاع العرب عليهم ، ومن هنا شاعت الحكمة أن يطلع عليهم القرآن من هذا الأفق ، وأن يطل عليهم من سماء قريش<sup>٢</sup> .

وهو استنتاج غير مقنع ، لما أورده العلماء أنفسهم من أقوال وتفسير للحديث المذكور ، ولما أوردوه من أن الصحابة من قريش ، كان يشكل عليهم اللفظ من القرآن مثل (أبا) فيسألون عنه ، لأنه لم يكن من لغة قريش . فقد ذكروا أن (عمر) ، قرأ (عبس وتولى) حتى أتى على هذه الآية : وفاكهه وأبا ، فقال : قد علمتنا الفاكهة فـ الأـب<sup>٣</sup> . ثم قال : لعمرك يا ابن الخطاب ان هذا

١ الاتقان (١٠٩/٢) .

٢ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٨٣) .

لحو التكليف . وذهب البعض الى أن المراد من اللقطة ما أبنت الأرض للأنعام ، وذكر بعض العلماء أنها بلغة الحبش<sup>١</sup> . وذكروا أشياء أخرى من هذا القبيل ، تعارض قبول هذا الاستنتاج .

والذي أراه أن نص القرآن يعارض حديث الأحرف السبعة ، ففيه : « بِلْ هُوَ قُرْآنٌ مُّجِيدٌ ، فِي لُوحٍ مَّحْفُوظٍ »<sup>٢</sup> ، وفيه : « قُلْ : مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلَقَّاهُ نَفْسِي ، إِنْ اتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، أَنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »<sup>٣</sup> وفيه « إِنَّا نَزَّلْنَا الْذِكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . فليس للرسول أن يغير أو يبدل ما نزل به الرؤيا عليه ، ثم إنَّه كان لا ينتهي من الرؤيا ، حتى يأمر من يكون عنده بتدوينه بلسانه حال نزوله عليه ، وإذا لم يكن هناك كاتب أمو من يستدعي له كتاباً ليدونه ، فكيف يتفق ذلك مع هذا الحديث ، ومع الأمثلة التي ذكروها في القراءات ؟ ورد أنَّ الرسول علم ( البراء بن عازب ) دُعاء فيه : « وَبَنِيكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » ، فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله قال : « وَرَسُولُكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » ، فلم يوافقه النبي على ذلك ، بل قال له : « لَا ، وَبَنِيكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » . وهكذا نهاه أن يضع لفظة رسول ، موضع لفظة نبي ، مع أن كلها حق لا يحيط بمعنى ، إذ هو رسول ونبي معاً ، فكيف كان يحيط أن يوضع في القرآن مكان عزيز حكيم ، غفور رحيم ، أو سميع عليم ، وكيف قبل هذه الرواية التي تذكر أن ( عبد الله بن مسعود ) أقرأ رجلاً كلمة ( الفاجر ) بدلاً من كلمة الأئم في الآية : إن شجرة الزقوم طعام الأئم ، مع ورود المنع عن تغيير أي حرف من حروف القرآن ، وهل يعقل قيام ( ابن مسعود ) بذلك ، وسكوت الصحابة عن عمله ، لو صحي أنه فعل ذلك .

ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش وحدها ، فلمَّا كان الصحابة من قريش مثل ( أبو بكر ) و ( عمر ) وغيرهما ، يتبحرون في تفسير ألفاظ وردت فيه ، أو يلتجأون إلى الشعر يستعينون به في تفسير القرآن ، والشعر هو شعر العرب ، لا شعر قريش وحدها . قال ( ابن عباس ) « إنَّ الشِّعْرَ دِيَانَ الْعَرَبِ » ، وكان

١ عيسى ، الآية ٣١ ، تفسير الطبرى ( ٣٨/٣٠ ) ، الاتقان ( ١٠٨/٢ ) .

٢ البروج ، الآية ٨٥ .

٣ يونس ، الآية ١٠ .

٤ الزرقاني ، مناهل العرفان ( ١٨١ وما بعدها ) .

إذا سئل عن عربية القرآن أنسد الشعر<sup>١</sup> ، وقال : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله ، فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب ، وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنسد فيه شرعاً »<sup>٢</sup> .

قال ( ابن قتيبة ) : « العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والتشابه بل بعضها الفضل في ذلك على بعض ، والدليل عليه قول الله عز وجل : وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم<sup>٣</sup> ... ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله : إنك أثناتنا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقاً . فقال : إن ربي علمي فتعلمت » .

---

١ مقدمتان في علوم القرآن ( ١٩٨٠ وما بعدها ) .

٢ العمدة ( ٣٠ / ١ ) .

٣ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية .

## الفصل التاسع والثلاثون بعد المئة

### العربية الفصحي

نطق اليوم على العربية التي ندوَّن بها أفكارنا : (العربية الفصحي) ، وهي كما نعلم لغة الفكر والإدارة في العالم العربي . والعربية الفصحي ، هي لغة الفصاحة والبيان ، ومدار تركيب الفصاحة على الظهور والإيانة . يقال : أفصح إذا تكلم بالفصاحة . وفصح الأعجمي فصاحة ، إذا تكلم العربية وفهم منه<sup>١</sup> . وهي اللغة العربية العالية التي لا تدانيها لغة عربية أخرى من اللغات العربية الباقية ، واللسان الذي يحاول أن ينطق به كل مثقف مهذب ، وأن يؤلف ويعبر عن مراده به .

وعرفت العربية الفصيحة بالعربية العالية ، وكان عليه اللقب إذا سمعوا كلمة بسمة الفصاحة ، قالوا : كلمة فصيحة ، وكلمة عالية ، وإذا سمعوها بالضعف وبالرُّكاك ، قالوا : ليست بعربية فصيحة ، أو ليست بالعلمية . « قال ابن سيده : أشكد لغة ليست بالعلمية »<sup>٢</sup> . وقالوا في (لغة رديئة) ، وقالوا : « وهي لغة أهل العالية »<sup>٣</sup> . « والعالية ما فوق أرض نجد إلى هماة وإلى ما وراء مكة ، وهي الحجاز وما والاهـ .. وقيل عالية الحجاز ، أعلىها بلداً وأشرفها موضعـ وهي بلاد واسعة ، والمسى بالعلمية : قرى بظاهر المدينة المشرفة ، وهي العوالـ ،

١ تاج العروس (١٩٧/٢) ، (فصح).

٢ تاج العروس (٣٩٠/٢) ، (شكد).

٣ تاج العروس (٢٢٨/٢) ، (ملح).

وأدنها من المدينة على أربعة أميال وأبعدها من جهة نجد ثمانية ، والنسبة إليها  
عالي على القياس ، ويقال أيضاً علو بالضم ، وهي قادرة على غير قياس »<sup>١</sup> .  
وعرفت هذه الغربية العالية بالعربية المبنية ، دعيت بذلك ، لأن (اسماعيل) أول  
من فق لسانه بها ، فبان وأفصح<sup>٢</sup> ، ولرى أنها إنما نعمت بذلك ، من القرآن  
الكريم ، فقيمه « بلسان عربي مبين »<sup>٣</sup> ، و « هذا لسان عربي مبين »<sup>٤</sup> .  
وقصد العلماء من قوله : « ليست بالعلية » ، يعني ليست بفصيحة، ولم يقصدوا  
النسبة إلى (العلية) التي هي الأرض المذكورة . غير أننا نجدهم أحياناً يقصدون  
بها أهل العالية ، فرى (الطبرى) يذكر في تفسيره في قراءة « فساحتكم » :  
« والقول في ذلك عندها أنها قراءتان مشهورتان ولغتان معروفتان بمعنى واحد ،  
فيأتيتها قرأ القارئ فصيبح . غير أن الفتح فيها أعجب إلى ، لأنها لغة أهل  
العلية . وهي أفعصح ، والأخرى وهي الضم في نجد »<sup>٥</sup> . والعالية ما فوق أرض  
نجد إلى أرض تهامة والى ما وراء مكة . وهي الحجاز وما والاها » وقيل :  
علية الحجاز أعلىها بلدًا وأشارها موضعًا ، وهي بلاد واسعة ، والمسمى بالعلية  
قري بظاهر المدينة المشرفة ، وهي العوالى » . « وعليها ضر بالضم أعلىها ،  
وقيل قريش وقيس ، وما عدتهم سفل ضر »<sup>٦</sup> .

ونجد علماء العربية يستعملون مصطلح : « وليس بالعلية » ، أو « ليس في  
اللغة العالية » ، و « الفصيح ... » ، أو « والفصحاء يقولون »<sup>٧</sup> ، في تقدير  
الكلم ، كما استعملوا : « وليس بالمعروف » ، أو « والأول أعلى » ، و « لغة  
مجهولة » ، أو « متروكة » ، أو « يحتمل أن يكون من أمثلة المنكر » ،  
و « كلام قديم قد ترك » ، و « وهذا لا يعرف في أصل اللغة » ، أو  
و « المعروف »<sup>٨</sup> ، وأمثال ذلك من مصطلحات للتعبير عن درجة الكلمة ومكانتها

١ تاج العروس (١٠/٢٥٠) ، (علا) .  
٢ المزهر (١/٨١) .

٣ الشعراء ، الرقم ٣٦ ، الآية ١٩٥ .  
٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٥ تفسير الطبرى (١٦/١٣٦) .

٦ تاج العروس (١٠/٢٥٠ وما بعدها) ، (علو) .

٧ المزهر (١/٢١٥ وما بعدها) .

٨ المزهر (١/٢١٤ وما بعدها) .

في مقاييس علماء اللغة من حيث الفصاحة والرकاكة وما بينها من درجات . والفصيح في نظر علماء العربية « ما كثُر استعماله في ألسنة العرب ودار في أكثر لغاتهم ، لأن تكراره على الألسنة المستقلة بطبيعتها في سياسة المنطق دليلٌ على تحقيق المناسبة الفطرية فيه » .<sup>١</sup>

ويسوقنا البحث في موضوع اللغة العربية الفصحي الى التفكير في موضوع له صلة وثيقة بهذا الموضوع ، بل هو في الواقع جزء منه ، هو : لغة الأدب عند الجاهليين ، وهل كان لأهل الجاهلية لسان عربي واحد مبين ، استعملوه في التعبير عن عواطفهم شعراً أو نثراً ؟ وإذا كان لهم ذلك اللسان ، فهل كان فوقسائر لهجاتهم المحلية أو لهجات القبائل المتميزة ؟ أو أنه كان لهجة خاصة ؟ وإذا كان لهجة عالية خاصة ، فلهجة من يأترى كانت هذه اللهجة ؟ وبأي موطن ولدت ؟ وهل كانت اللهجة عاممة مستعملة عند العرب عامة ، من عرب جنوبين وعرب شمالين ، أو أنها كانت اللهجة خاصة بالعرب الشماليين ؟ ثم هل كانت هذه اللهجة هي العربية التي نزل بها القرآن ، أم كانت عربية أخرى لا صلة لها بها ؟ أم أنها الإسلام كما أمات أمراء من أمور الجاهلية ، لصلتها بالوثنية ، وأحلّ محلها لغة القرآن ، لغة قريش ؟ ثم هل كانت هذه العربية ، هي عربية الشعر ، يعني أن الشعراء كسانوا إذا أرادوا النظم ، نظموا شعرهم بهذه اللغة العالية ، متتجاهلين لغتهم القبلية ، لأنها لغة الأدب الرفيع ، وبها كان يخطب الخطباء ؟

لقد عني عدد من المستشرقين بالإجابة عن أمثل هذه الأسئلة ، فكتب (نولدكه) رأيه في الموضوع في كتابه : تاريخ القرآن في باب القراءات واللهجات التي نزل بها القرآن الكريم ، كما تطرق اليه أيضاً في أثناء كلامه على الشعر الجاهلي ولغة الأدب عند الجاهليين ، وخلاصة رأيه أن الفروق بين اللهجات في الحجاز ونجد ومناطق الباادية المتاخمة للفرات لم تكن كبيرة ، وأن اللهجة الفصيحة شملت جميع هذه اللهجات<sup>٢</sup> . وذهب (غويدي) الى أن اللغة الفصحي هي مزيج من لهجات تكلم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها ، ولكنها لم تكن اللهجة معينة لقبيلة معينة<sup>٣</sup>.

١ المزهر (١٢٦/١) .

٢ Nöldeke, Geschichte des Korans, Zweite Auflage, Erste Teil, S., 42, Neue Beiträge zur Semitischen sprachwissenschaft, Strassburg, 1910, S. I - 14.

٣ Guidi, Mix. Ling., Torino, 1901, p. 323.

ورأى ( نلينو ) ، أن العربية الفصحى تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهذبت في مملكة كندة وفي أيامها ، فأصبحت اللغة الأدبية السائدة .. وعزا سبب ذلك إلى ملوك هذه المملكة الذين أغدقوا على الشعراء وشجعواهم مما كان له وقع في تقوفهم ، ثم إلى توسيع رقعة هذه المملكة التي ضمت أكثر قبائل معدة ، وكان لها فضل توحيد تلك القبائل وجمع شتاها ، فشارعت هذه اللهجة على رأيه في منتصف القرن السادس للبلاد ، وخرجت خارج نجد ، وعمت معظم أنحاء الجزيرة ولا سيما القسم الجنوبي من الحجاز الذي فيه يربب ومكة والطائف ، مع بقاء اللهجات العامية في منطق الناس العتاد ، وكان للعواصم المشهورة وللملوك الحيرة وغسان شأن لا ينكر في هذا الانتشار السريع العجيب<sup>١</sup> .

وذهب ( هارتن ) « Hartmann » و ( فولرس ) « Völlers » إلى أن العربية الفصحى هي لهجة أعراب نجد واليامه ، غير أن الشعراء أدخلوا عليها تغيرات متعددة<sup>٢</sup> . وذهب ( لنديرك ) « Landburg » إلى أن الشعراء هم الذين وضعوا قواعد هذه اللهجة ، وعلى قواعدهم سار المتأخرون ، ومن شعرهم استخرجت القواعد ، ومن قصائدهم تلك استنبط العلماء أصول التحو .

وزعم ( فولرس ) ، أن القرآن لم يتزل بلغة أعراب نجد واليامه ، وإنما نزل بلغة أهل مكة ، أي لغة قريش ، وهي لغة لم تكن معرفة ، وإنما كانت لغة محلية ، فلما دوّنت قواعد العربية وثبتت طبق الأعراب على القرآن ، ووصلت لغة قريش وفقاً لهذه القواعد .

ولم يعن ( فيشر ) اللهجة التي نبعث منها العربية الفصحى ، غير أنه رأى أنها لهجة خاصة<sup>٣</sup> . ولـ ( بروكلمن ) و ( ويترشتين ) آراء في نشوء هذه اللغة وتطورها ، ولكنها لم يتحدثا عن علاقتها ببقية اللهجات<sup>٤</sup> .

ذهب ( بروكلمن ) إلى أن لغة الشعر الجاهلي لا يمكن أن يكون الرواية والأدباء

١ الهلال ، السنة السادسة والعشرون ، أكتوبر ١٩١٧ ، (ص ٤٧ وما بعدها) ، جواد علي ، في كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة .

Völlers, Völksprache, S., 184.

Rabin, p. 17.

Rabin, p. 17.

١

٢

٣

٤

اختر عوها على أساس كثرة من اللهجات الدارجة ، ولكن هذه اللغة لم تكدد تكون لغة جارية في الاستعمال العام ، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات ، وإن غلتها جميع اللهجات<sup>١</sup> .

وذهب (برجيه) إلى أن العربية كانت لهجة قبلية صغيرة وصلت في وقت من الأوقات بفضل ظروف محلية إلى درجة من الكمال خارقة للعادة ، وهي مدينة بانتشارها إلى الإسلام<sup>٢</sup> .

و (ريجيس بلاشير) من المستشرقين الذين أيدوا رأي من ذهب إلى وجود لغة عالية عند أهل الجاهلية ، فقال : « إن وجود لهجات ولغة عليا ليس فيه شيء مخالف للعادة ، كما أن نموّ لهجة شعرية ليس فيه أيضاً شيء خارق»<sup>٣</sup> . واللغة المذكورة لهجة شعرية تنطبق على اللهجات المحلية ، بل هي امتداد لها ، وهي في الجملة موضوعة للأغراض النيلية والتعبير الفني عن بعض أنواع التفكير» ، لها خصائص اللهجات في وسط الجزيرة وشرقيها ، ولم تكن هذه اللهجة العالية قاصرة في الاستعمال على أهل جزيرة العرب ، بل كانت لغة الشعر أيضاً عند عرب العراق وعرب بلاد الشام . ولهذا كان الشعر مفهوماً عند جميع الجاهليين ، أيها كانوا : سواء كانوا في جزيرة العرب ، أم في العراق وفي بلاد الشام . وكانت الفوارق بين هذه اللهجة وبقية اللهجات تختلف تبعاً للمجموعات اللغوية . فالفارق ضئيل بينها وبين لهجات أواسط جزيرة العرب وشريقيها ، ولها خصائص الأقسام الشرقية والوسطى من جزيرة العرب . وكان الشاعر ، يتزع دوماً إلى الابتعاد عن مؤثرات لهجته القبلية ، والارتفاع عنها ، إلى لغة الشعر المتعارفة بين الجاهليين آنذاك ، لكونها اللغة الرفيعة في نظر أهل الجاهلية ، وكانت تدل على تهذيب الشاعر وسمو مداركه وثقافته<sup>٤</sup> .

ويرى (بلاشير) أن علماء اللغة وال نحو حين أخذوا بضبط قواعد اللغة ، غربلوا اللهجات ، وتوغلوا بين الأعراップ مدفوعين بعقلية تنهيج وتنقية اللغة مما أدى بهم

١ بروكلمن ، تاريخ الأدب العربي (٤٢/١) .

٢ ريجيس بلاشير ، تاريخ الأدب العربي (٨٦) .

٣ تاريخ الأدب العربي (٨٨) ، (تعريب ابراهيم كيلاني) .

٤ ريجيس بلاشير ، تاريخ الأدب العربي (٨٧ وما بعدها) .

إلى توحيد لغتي القرآن والشعر الجاهلي ، في الوقت الذي نظموا فيه واستخرجوا قواعد العربية الفصحي ، مما أدى إلى إضاعة أشياء قليلة من اللهجة الشعرية الجاهلية في سبيل التوفيق بينها وبين لغة القرآن . وما العربية الفصحي الحالية إلا اللهجة ولدت من لغة الشعر ولغة القرآن ، والقرآن والشعر الجاهلي المضبوط في شكله الحاضر لا يمثلان اللغة الشعرية في شكلها القديم ، وإنما يتعدان بعض الابتعاد عن تلك اللهجة ، بسبب ما فعله علماء التحريف والصرف ، في تلك اللهجة من تشذيب وتهذيب لتتشتم مع لغة القرآن ومع قواعدها وقواعد لغة الشعر التي رسخها علماء اللغة .

وأما رأي علماء العربية ، فخلالته أن لغة قريش هي الأصل ، « وإنما صارت لغتهم الأصل » ، لأن العربية أصلها اسماعيل عليه السلام ، وكان مسكنه مكة <sup>١</sup> . وعندهم أن العربية قحطانية وهيكلية وعربية محضة ، وبهذه الأخيرة نزل القرآن ، وقد اتفق بها لسان اسماعيل <sup>٢</sup> ، وهي العربية الفصحي ، لسان اسماعيل ، ألم بها اسماعيل إماما <sup>٣</sup> . رروا عن ( عر ) انه قال : « يا رسول الله ما لك أفصحتنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ قال : كانت لغة اسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتها <sup>٤</sup> . » . وهم يقولون إن : « أول من تكلم بالعربية اسماعيل بن ابراهيم » ، أو ان « أول من تكلم بالعربية ونبي لسان أبيه اسماعيل بن ابراهيم » ، بل تجاوز بعض منهم ، وبالغ حتى زعم أن « العرب كلها ولد اسماعيل ، إلا حمير وبقایا جرهم » ، وأن العربية الصحيحة الفصحيحة هي العربية التي نزل بها القرآن ، أما لسان حمير وأفاصي اليمن ، فليس « بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » <sup>٥</sup> .

ورأيهم أن قريشاً أفسح العرب السنة ، وأصفاهم لغة ، وأنقاهم لساناً ، « وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من

- ١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ( ٨٠ / ١ ) .
- ٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ( ٨٠ / ١ ) .
- ٣ المزهر ( ٣٢ / ١ وما بعدها ) .
- ٤ المزهر ( ٣٤ / ١ وما بعدها ) .
- ٥ ابن سلام ، طبقات ( ٤ وما بعدها ) .

حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في أمورهم ، وكانت قريش ، مع فصاحتها وحسن لغتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخربوا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصنفى كلامهم ؛ فاجتمع ما تخربوا من تلك اللغات إلى سلائهم التي طبعوا عليها ؛ فصاروا بذلك أفعى العرب .

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفة قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكة ربيعة ، ولا كسر أسد وقيس <sup>١</sup> .

« وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحراف : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفعى بالألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبابة عما في النفس » <sup>٢</sup> . وقال ابن خلدون : كانت لغة قريش أفعى اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتآثر بأساليب العجم ، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية » <sup>٣</sup> .

وروى أن (معاوية) قال يوماً : « من أفعى الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن تلخالية الفرات ، وتماموا عن عنعنة تميم ، وتيأسوا عن كسكة بكر ، ليست لهم غمامة قضاعة ، ولا طقطانية حبر . قال : من هم ؟ قال : قريش » <sup>٤</sup> . وقال (ثعلب) : « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفة ضبية ، وتلتلة براء » <sup>٥</sup> . وورد كلام (معاوية) مع الأعرابي على هذه الصورة : أن (معاوية) « قال : أي الناس أفعى ؟ فقام رجل فقال : قوم ارتفعوا عن فراتية العراق ،

١ المزهر (٢٠٩/١ وما بعدها) ، (الفصل الثاني في معرفة الفصيح من العرب) ، الصاحبي في فقه اللغة (٥٢) ، (تحقيق مصطفى الشويمي) .

٢ المزهر (١١/١) .

٣ ابن خلدون ، مقدمة (٤٠٩) ، « الفصل الثاني والثلاثون من الفصل السادس » ، البيان والتبيين (٣/٢١٣) .

٤ مجالس ثعلب (٨١) ، المزهر (١١/١) ، ابن جنبي ، الخصائص (٤١١) ، الصاحبي (٤٤) ، الخزانة (٤/٥٩٥ وما بعدها) .

وروي : تخلخانية العراق ، وتيأسوا عن كشكشة بكر ، وتيامنوا عن كسكة تميم ، ليست فيهم غممة قضاعة ، ولا طمطانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قرمك قريش . قال : صدقت . من أنت ؟ قال : من جرم <sup>١</sup> . واللخلخانية اللكتة في الكلام ، والغمضة : ألا يبن الكلام ، والطمطانية : العجمة . « قال الأصمعي : وجرم : فصحاء العرب . قيل : وكيف وهم من اليمن ؟ فقال : جوارهم مصر <sup>٢</sup> فضر هم أهل الفصاحة على رأيه .

وروروا <sup>٣</sup> عن أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، انه قال : قريش هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنه جواراً ، وأعربه السنة . وقال قتادة : كانت قريش تجتبي ، أي تختار أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتها لغتها ، فترى القرآن بها <sup>٤</sup> .

وقد استدلوا نزول القرآن بلغة قريش بأدلة أخرى ، منها قول عمر : لا يبن في مصاحفنا إلا غلام قريش وتفيق <sup>٥</sup> .

وزعموا ان العرب <sup>٦</sup> كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردّوه منها كان مردوداً ، فقدم علقة بن عبدة التميمي ، فأنشدهم قصيده : هل ما علمت وما استودعت مكتوم . فقالوا : هذا سلط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل فأنشدهم قصيده : طحا بك قلب في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سلط الدهر <sup>٧</sup> . فما كان علقة ولا غيره ليكلف نفسه مشقة الذهاب الى قريش ، والى سوق عكاظ ، لو لم تكن لغتها أفعى لغات العرب وأعلبها وأسلسها ، ولو لم يكن لها علم بالشعر يفوق علم غيرها به .

وزعموا أيضاً أن العرب كانوا في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج ، فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى ، وكان فخراً لقائه وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى

١- الفائق (٤٥٩/٢) .

٢- المصدر نفسه .

٣- اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) ، (طبعة دار صادر) ، تاج العروس (١/٣٧٤) .

(عرب) .

٤- الصاحبي (٥٧ وما بعدها) .

٥- الأغاني (١٢/١١٢) .

ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيها يذهب . وقال «أبو عمرو بن العلاء» : كانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش<sup>١</sup> . وكان العرب يعلقون أشعارهم بأركان الكعبة ، كما فعل أصحاب المعلقات السبع ، وأغاً كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وبعنصريته ومكانه في مصر<sup>٢</sup> .

فقرיש أفعى العرب ، ومعدن الفصاحة ومركزها وينبوعها ، ثم من جاورهم وقاربهم ، ثم من جاء بعد هؤلاء ، فكلما بعد قوم عن قريش ، بعدت لغتهم عن الفصاحة ، وهذا كان احتجاج علماء اللغة بلغات العرب على نسبة بعدهم عن قريش ، «فاعتبروا لغة قريش أفعى اللغات وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف ، وهذيل ، وخزاعة ، وبني كنانة ، وغطفان ، وبني أسد ، وبني تميم . ثم تركوا الأخذ عن بعد عنهم من ربيعة، ونخع ، وجذام ، وغسان ، وإياد ، وقضاعة ، وعرب اليعن ، لجاورتهم الفرس<sup>٣</sup> ، والروم ، والجيشة» .

وأما رأي المحدثين من علماء العربية عندنا ، فهو رأي المواقف المؤيد . هذا الدكتور ( طه حسين ) يقول في كتابه : ( في الأدب الجاهلي ) : «أما أن هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدوها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبي وأصحابه لغة قريش ، فما نرى أنه يحتمل شكًا أو جدلاً ؛ فقد أجمع العرب على ذلك بعد الإسلام ، وانتفقت كلية علمائهم ورواتهم ومحاذيرهم ومفسريهم على أن القرآن نزل بلغة قريش ، أو قل على أن هذا الحرف الذي يقى لنا من الأحرف السبعة إنما هو حرف قريش . وقد يكون من التكلف والتحذق أن يجمع العرب كافة على أن لغة القرآن هي لغة قريش . وألا يظهر في العصر الإسلامي الأول ولا في أيام بني أمية ولا في أيام بني العباس من ينكر هذا أو يجادل فيه رغم ما كان من الشعوبية الأعمجية ومن الشعوبية الحميرية ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مصر ، ثم يزعم زاعم أن هذه

١ خزانة الأدب ( ٨٧/١ ) .

٢ مقدمة ابن خلدون ( ٥٠٩/١ ) ، ( ١١٥ ) .

٣ الرافعي ( ٢٥٩/١ ) .

اللغة ليست لغة قريش ، وإنما هي لغة قبيلة أخرى منها تكن هذه القبيلة ،<sup>١</sup> . ثم يعضي قائلاً : « فتحن مضطرون أمام هذا الاجماع من جهة ، وأمام قرشية النبي من جهة أخرى ، وأمام نزول القرآن في قريش من جهة ثالثة، وأمام فهم قريش للفظ القرآن في غير مشقة ولا عنف من جهة رابعة ، وأمام اتفاق القرآن في اللغة واللهجة مع ما صح من حديث النبي القرشي ومن الرواية عن أصحابه القرشين من جهة خامسة ، إلى أن نسلم بأن لغة القرآن إنما هي لغة قريش .

ستقول : ولكن هذه اللغة قد كانت تفهم في غير قريش من قبائل الحجاز ونجد ، ومن هذه القبائل المصري كقيس وتميم ، ومنها اليمني كخزاعة والأوس والمزرج ، بل منها قبائل لم تكن عربية بوجه من الوجه وهي هذه اليهودية التي كانت تستعمر شمال الحجاز . ولذلك تعرف رأينا في النسب وفي انتهاء هذه القبائل إلى اليمن أو إلى مصر . ومع هذا فقد قلنا إن لغة قريش سادت قبيل الإسلام . ونحن إن فكرنا عرفنا أن سيادة اللغات إنما تتصل عادة بالسيادة السياسية والاقتصادية . فلنبحث عن البيئات الممتازة من الوجهة السياسية والاقتصادية في شمال البلاد العربية قبيل الإسلام .

الحق إننا لا نستطيع أن نفك في هذه السيادة الفارسية في الخبرة أو هذه السيادة الرومية في أطراف الشأم ، فقد كانت هناك أسر عربية تمثل هذه السيادة ، وكانت لهذه الأسر ضروب من السلطان ، ولكن هذه الأسر لم تكن فيها يظهر حجازية ، ولم تكن بيئتها بيئات عربية خالصة ، إنما كانت بيئات مختلطة أقرب إلى الأعجمية منها إلى أي شيء آخر . فلم تبق إلا بيئات أربع : بيئه كندية في نجد ، ولكن هذه البيئة كانت يمنية إن صحت ما زعم الرواة والمؤرخون . وسيادتهم لم تطل ولم يكن لها من الضخامة ما يمكنها من أن تسلط سلطانها السياسي والاقتصادي والديني على شمال البلاد العربية . وببيئة أخرى قرشية في مكة ، كان لها سلطان سياسي حقيقي ، ولكنه قوي في مكة وما حولها ، وهذا السلطان السياسي كان يعتز بسلطان اقتصادي عظيم ، فقد كان مقدار عظيم جداً من التجارة في يد قريش ، وكان هذا السلطان يعتز بسلطان ديني قوي مصدره الكعبة التي كان يحج إليها أهل

---

١ طه حسين ، في الأدب الجاهلي (١٠٥) .

الحجاج وغير أهل الحجاز من عرب الشمال . فقد اجتمع لقريش إذن سلطان سياسي واقتصادي وديني . وأخلق بن تجتمع له هذه السلطات أن يفرض لغته على من حوله من أهل البايدية . وببيئة ثلاثة هي بيضة الطائف ، كان لها شيء من السلطان الاقتصادي ولكنها لم تكن تداني البيئة المكية . وببيئة رابعة في شمال الحجاز، هذه هي البيئة العربية في يرب و ما حولها . ولكننا نظن ان أحدا لا يفكر في أن يقول ان هذه العربية الفصحى كانت لغة هؤلاء الناس من اليهود أو من الأوس والذررج فضلاً عن أن هذه البيئة على ثروتها وقوتها لم تكن تداني قريشاً فيما كان لها من سلطان .

لغة قريش إذن هي هذه اللغة العربية الفصحى ، فرضت على قبائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية . وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب ، كما كان الحج ، وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش <sup>١</sup> .

وبعد أن أنهى (الدكتور طه حسين) من إصدار قراره ، قال : « ولكن ما أصل لغة قريش ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تطورت في لفظها ومادتها وأداتها حتى انتهت إلى هذا الشكل الذي نراه في القرآن ؟ ». وكان جوابه على هذه الأسئلة قوله : « كل هذه مسائل لا سبيل إلى الإجابة عليها الآن ، فنحن لا نعرف أكثر من أن هذه اللغة لغة سامية تتصل بهذه اللغات الكثيرة التي كانت شائعة في هذا القسم من آسيا . ونحن نكاد ن Bias من الوصول في يوم من الأيام إلى تاريخ علمي محقق لهذه اللغة قبل ظهور الإسلام . وكيف والقرآن أقدم نص صحيح وصلينا في هذه اللغة ، ونحن نرى اللغة فيه كاملة متقدمة تامة التكوين قد تجاوزت الوجود الطبيعي إلى هذا الوجود الفني الراقي الذي يظهر في الأدب »<sup>٢</sup> .

وخلصه رأي (الدكتور طه حسين) أن عربية قريش هذه ، التي نزل بها القرآن الكريم ، إنما سادت قبيل الإسلام ، ولم تكن سيادتها تتجاوز الحجاز . إذ يقول : « فالمسألة إذن هي أن نعلم : أсадت لغة قريش ولمجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن

١ في الأدب الجاهلي (١٠٦ وما بعدها) .

٢ في الأدب الجاهلي (١٠٧) .

فتتوسط ونقول : إنها سادت قبل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية . ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئاً يذكر ولم تك达 تتجاوز الحجاز . فلما جاء الإسلام عمّت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنباً إلى جنب <sup>١</sup> .

وكان المرحوم ( مصطفى صادق الرافعى ) ، قد تعرض لهذا الموضوع وبحث فيه قبل ( الدكتور طه حسين ) ، في كتابه : « تاريخ آداب العرب » ، الذي طبعه سنة ( ١٩١١ م ) ، فذهب مذهب الأسلاف في أن العربية بدأت بـ ( اسماعيل ) فلما خرج أولاده من ديارهم وانشعبت قبائلهم ، تنوعت لهجاتهم ، وتبينت ألسنتهم ، حتى ظهرت قريش من بينهم ، فأخذت وأعطت ، وهدب الألسنة واستخلصت منها أعدّها وأسمّها ، ثم لا تزال تهذب في اللغة وتتشذب حتى بلغت بها الكمال عند ظهور الإسلام ، بتزول الرحي بها . وكانت القبائل : « بطبعاتها متباينة اللهجات ، مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها ، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه ؛ ولو كانوا يادين كسائر القبائل مما فعلاه ، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تأريخهم لأن من طبعهم وكسر من صلابتهم ، فانتفقت في ذلك حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس . فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مُستبعش اللغات ومستقبحها ، وبذلك مروا على الانقاد حتى رقت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ، وقويت سلاقوهم ، وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاءً للأفضل من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسماً ، وأبيتها إباهة عما في النفس » <sup>٢</sup> .

فهذا دور من أدوار تهذيب اللغة وتنقيتها ، قامت به قريش ، قامت به في مسكنها وموطنها مكة ، وقامت بدور آخر ، كان آخر الأدوار التي قامت فيها قريش في تهذيب العربية ، هو الدور العُكاظي ، وهو « حالة من أحوال الحضارة ، ولذلك اتضى الصناعة اللسانية ، فكان العرب يرجعون إلى منطق قريش ، كما

١ في الأدب الجاهلي ( ١٠٥ ) .

٢ الرافعى تاريخ آداب العرب ( ٨٥ / ١ وما بعدها ) .

كان هؤلاء يبالغون في انتقاد اللهجات وانتقاء الأفضل منها . وهذا هو الدور الأخير من أدوار التهذيب اللغوي إذ يدخل في حالة عامة يشيع فيها المنطق الفصيح وتبلغ بها اللغة درجة عالية من النشوء ليس بعدها إلا موت الضعف وتحوله إلى شكل أثري لا منفعة منه للمجموع المكون على هذه الطريقة ، ولكنه يدل على أصل التكوين ١ .

ثم توجَّ عمل قريش في تهذيب اللغة بتزول القرآن بلسانها « فإن هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب البتة ولو كانت بلاغته مما يحيى ويحيي ، ثم كانوا لا يُعدون في اعتبارهم إيه انه ضرب من تلك الضروب التي كانت لهم من خوارق العادات : كالسحر والكهانة وما إليها ، وهو الذي افترته قريش » ليصرفوا به وجوه العرب ويعيلوا رؤوسهم عن الإصغاء إلى النبي » ٢ . ثم ، إن القرآن لو نزل بغير ما ألفه النبي صلى الله عليه وسلم ، من اللغة القرشية وما اتصل بها ، كان ذلك مغزاً فيه ، إذ لا تستقيم لهم المقابلة حيث تذبذب القرآن وأساليبه ، وبين ما يأثرونـه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فيهـونـ ذلك على قريش ، ثم على العرب ، فيجدون لكل قبيلة مذهبـاً من القول فيه ، فتشنق الكلمة ، ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء ، إلى حال لا يلائم عليه أبداً ، ولو أن شاعرـاً من شعرائهم ظهرـ عليهمـ بدينـ خيالـ وأقامـ عليهمـ عليهـ ، لكان في الرجاء والاحتمال أن يستجيبـوا له دون صاحـبـ القرآنـ الذي ينزلـ عليهـ بلـغـةـ غيرـ لـغـةـ قـبـيلـتـهـ ٣ .

وتحمل حجج الباقين القائلين ان العربية الفصحى هي عربية قريش ، ان قريشاً كانت مهوى أفتدة العرب في الجاهلية ، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي، إذ كانت حراسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قواقلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدستنة وفي أسواقها التراثية والمعلنة .

ويعني ذلك أن هنالك أسباباً دينية واقتصادية أعدت طجة مكة لتسود اللهيقات

<sup>١</sup> تاريخ أداب العرب (١/٨٧ وما بعدها) ، (أسواق العرب) .

٢ تاریخ آداب العرب (٤٦/١)

٣١ المصدر نفسه (٤٧/١)

القبلية في الجاهلية ، وقد تدخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والجيش على أطراها ، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثنى ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئتها إليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية للهجات قبلية المختلفة ، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحساسهم . وقد تدل على ذلك بعض الدلالة سوق عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الحطبة يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراً قصائدهم ، ولم يُروَ ذلك عن سوق سواها ، وما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قيلوه منها كان مقبولاً » ، وما ردّوه منها كان مردوداً فقدم عليهم علامة بن عبدة التميمي ، فأنشدهم قصيده: هل ما علمت وما استودعت مكتوم . فقالوا : هذا سمعت الدهر ، ثم عاد إليهم العام الم قبل فأنشدهم قصيده: طحا بك قلبٌ في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمعتا الدهر .

واذن فنحن لا نعدو الواقع اذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تفتح باب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطراها الشمالية حيث منازل الأزد وختعم وهدان وبني الحارث بن كعب في نجران . وما يؤكد ذلك ان الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يحدثن رواة الأخبار والسيرية النبوية أنها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه ، وأيضاً فإنه كان يرسل إليهم دعاء يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو انهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان ارسال هؤلاء الدعاء عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعریب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الإسلام .

أما في الشمال فقد كانت الفصحى معروفة في كل مكان ، وكان الشعراً يتخلذنها لغة لشعرهم ، وما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعونه ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش نخمن أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة <sup>١</sup> .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ( ١٣٣ وما بعدها ) .

وبعد ، فلقد عرضت عليك رأي المستشرين في العربية العالمية : عربية القرآن الكريم ، وعربية الشعر الجاهلي . ثم عرضت عليك رأي علماء العربية فيها من متقدمين ومن معاصرین ، وقد رأينا أن المستشرين وعلماء العربية معاً ، لم يستندوا كلهم على سند جاهلي مكتوب ، ولا على نص مدون بهذه العربية ، لسبب واحد مفهوم معقول ، هو عدم وجود نصوص جاهلية مدونة بهذه اللغة فلم يكن أمامهم من سبيل سوى الدجوء إلى الموارد الإسلامية للاستعانت بهديها في استنباط رأي علمي بهذا الموضوع ، وهذا ما فعلوه .

أما قول علماء العربية إن عربية القرآن الكريم عربية (اسماعيلية) ، يعني أنها عربية أخرى تختلف عن عربية العرب الجنوبيين ، فرأى مقبول ، على شرط أنه اصطلاح يعبر عن معنى اصطلاح عليه . فقد أشير إلى (الاسماعيليين) في التوراة . وهم - كما سبق أن قلت - قبائل عربية شمالية كانت تقطن في القسم الشمالي الغربي من جزيرة العرب ، وكانت حدودهم الغربية على اتصال بالغرينين . ولا أعتقد أن أحداً من أصحاب الفقه في العربية ، يركبه الشسطط فيقول إنه نزل بلغة عربية جنوبية ، أو بلغة ثمود أو لحيان أو الصفوين ، أو يقول إن الشعر الجاهلي ، قد نظم بلهجة من هذه اللهجات ، فكلام مثل هذا ، حتى لو صدر من أحد ، فإنه هراء يدل على جهل قائله بأبسط الأشياء .

وأما دعوى أن هذه العربية وحدتها هي العربية الفصيحة الصحيحة ، وأن ما عدتها من عربيات ، فلغات فاسدة رديئة ، فدعوى يمكن قبولها والتسليم بصحتها ، لو ان في وسع القائلين بها اثباتها بالأدلة المادية الملموسة ، أي بأدلة النصوص الجاهلية المكتوبة ، مع اثبات أن هذه اللغة الفصيحة كانت وحدتها لغة الأدب والتذوق عند جميع العرب ، وإن الجاهليين كانوا لا يكتبون إلا بها ، وأن ما سواها من اللهجات ، كانت لهجات كلام ، أي لغات العامة والسوداد ، تكلموا بها كما نتكلم نحن اليوم فيما بيننا باللهجات محلية ، نسميها لهجات عامة ، فإذا كتبوا كتابا بالعربية الفصيحة . ولكنهم عاجزون عن اثبات ذلك ، ثم ان النصوص الجاهلية تناهض دعواهم هذه ، فكل ما لدينا من نصوص جاهلية ، مكتوب بلهجات عربية أخرى ، خلا خمسة نصوص كتبت بعربيّة نبطية ، أي بعربيّة فيها ألفاظ واردة في العربية الفصيحة ، ولكن الإرمية أو النبطية متحكمة في أسلوبها وفي قواعدها وفي الكثرة الغالبة من كلماتها بحيث تمنعها من أن تعدد في عداد العربية

الفصيحة . لذا ، فنحن لا نخالف المنطق والعلم ، إن أظهرنا اعتراضنا عليهما ورفضناها ، وما كان لنا لنعارض عليها ، لو ان الأمر كان على العكس ، لو ان غالبية النصوص الجاهلية كانت بهذه اللغة ، أو ان بعضها على الأقل ، ولو بعضاً قليلاً ، كان بهذه العربية الحالصة ، أو اننا لا نملك نصاً جاهلياً بتناً ، بأية عربية كانت ، لا بهذه العربية ، ولا بالعربيات الأخرى ، أما وأن لدينا اليوم الآلوف من النصوص الجاهلية ، وهي كلها بلهجات عربية أخرى ، ولا نملك نصاً واحداً مدوناً بهذه العربية الحالصة ، لذا ، فنحن لا ننظم أنفسنا ، ولا نظم غيرنا ، ان رفضنا دعواهم المذكورة ، وقلنا ان اللغات التي موّلتنا بالنصوص المذكورة ، هي لغات فصيحة بالنسبة للناطقين بها ، وفي نظرنا أيضاً ، وهي لغة أدب بالنسبة لأصحابها الكاتبين بها .

والقول بأن العربية الفصيحة هي وحدتها العربية الصحيحة السليمة الفصيحة ، وأن ما عدناها من لغات عربية فلغات رديئة فاسدة ، أو أنها دونها في الفصاحة ، قول يمكن قبوله بالنسبة لأيام الإسلام، حيث صارت هذه العربية لغة الدين والحكم والفكر ، بها تُقْرَم الألسنة ، وبها يدون الناس آراءهم . أما بالنسبة إلى أيام الجاهلية ، فإننا لا نستطيع التسليم به ، لسبب بسيط ، هو أن أهل العربية الجنوبيّة مثلاً ، كانوا يكتبون وينطقون بلغتهم ، فلغاتهم هي لغة التدوين والأدب عندهم ، بقوا يكتبون بها ، إلى أن دخلوا في الإسلام ، فأبدلواها عندئذ بهذه العربية ، حكم الدين . ودليل ذلك ، هذه النصوص المتأخرة المكتوبة بالمسند ، والتي لا يبعد تاريخها عن الإسلام كثيراً . فلو كانوا يرون أن هناك عربية أفعى منها ، أو أنهم كانوا يعلمون أن هناك عربية أرفع من عربتهم شيئاً ، يدون ويكتب بها بقية عرب الجزيرة وأنها لغة الثقافة والعلم ، لما نبذوها وعدلوا عنها إلى عربتهم ، وشذوا عن بقية أخوانهم العرب ، بتسمّكهم بالكتابية بها وحدها . وينطبق هذا القول على قوم ثمود والصفويين واللحبيانين والنبط ، فقد كتب كل قوم منهم بلغتهم ، ولم يكتبوا بهذه العربية ، وتدوينهم بلغاتهم ، دليل على ثبوت فصاحتها عندهم ، وليس في قول (أبو عمرو بن العلاء) : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربتهم بعربتنا »<sup>١</sup> ، ما يدل على ازدراء شأن الحميرية ، أو

---

١ طبقات ابن سلام (٤ وما بعدها) .

الغض منها ، وإنما هو تعبير عن حقيقة تاريخية ، هي أن الحميرية عربية أخرى ، وهي حقيقة لا يجادل على صحتها أحد ، كما أن الشمودية واللحانية والصفوية والنبطية عربيات أخرى . وكل هذه العribيات ، هي عربيات فصيحة بالنسبة لأصحابها ، لأنها لغة التدوين عندهم ، حيث لم يكن لأهل جزيرة العرب ، لغة أدب واحدة ، دون بها جميع الجاهلين ، حتى نقول إن النصوص الخارجة عليها ، أي النصوص المدونة بالهجمات أخرى ، هي نصوص عوام وسود ، كتبوا بلغاتهم كما يكتب العامة بلغاتهم هذا اليوم ، مع وجود العربية الفصيحة .

وأما قولهم ان هذه اللغة العربية الفصحي هي لغة قريش ، لاجماع العرب كافة على ان لغة القرآن هي لغة قريش ، وعدم ظهور أحد أنكر هذا الاجماع ، أو يجادل فيه ، رغم ما كان من الشعوبية الأعمجية ومن الشعوبية الحميرية ، ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مصر<sup>١</sup> ، فقول لا يستند الى حجج تاريخية جاهلية ، بل هو يصطدم مع الواقع النصوص الجاهلية الواصلة اليها ، وبعضها نصوص لا تبعد عن الاسلام بكثير ، وقد كتبت كلها بالهجمات تختلف عن هذه اللغة الفصحي التي نزل بها القرآن ، وفي اختلافها عنها دلالة ، على أن الشعوب التي ثبت تلك النصوص لم تكن تكتب بعربيه القرآن . وفي هذه الدلالة تفتيذ لقول من قال «إن لهجة قريش هي الفصحي التي عممت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت الى الجنوب وأخذت تفتحم الأبواب على لغة حمير واليمن ، وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخشوم وهدان وبني الحارث بن كعب في نجران »<sup>٢</sup> ، ثم اني لم أتمكن من العثور على هذا الاجماع الذي أجمع العرب كافة عليه ، والذي لم يعارضه أحد حتى من الشعوبين والحاقدين على قريش ، وإنما وجدت القرآن ، وهو خير الشاهدين يقول : « وهذا لسان عربي مبين »<sup>٣</sup> . و « إنا أنزلناه قرآنأً عربياً لعلكم تعقلون »<sup>٤</sup> .

١ طه حسين : في الأدب الجاهلي ( ١٠٥ ) .

٢ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ( ١٣٤ ) .

٣ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٤ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .

« وكذلك أنزلناه حكماً عربياً »<sup>١</sup> . « وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربياً »<sup>٢</sup> إلى غير ذلك من آيات نصت نصاً صريحاً على أن لسان القرآن هو اللسان العربي ، فعيته بذلك ثبته ، ولم أجده في القرآن آية واحدة ذكرت أنه نزل بلسان قريش ولو كان قد نزل بلسانهم وكان لسانيهم خبر الألسنة وأفصحها ، لما سكت عن ذلك ، لما في النص عليه من أهمية ، بالنسبة إلى العرب وإلى قريش المكابرین المناهضين للرسول ، ثم اتي وجدت أن العلماء يذكرون أن في القرآن لغات أخرى ليست من لغة قريش ، وأن فيه ألفاظاً هي بلغة تميم ، أو بلغات أخرى مخالفة اللغة قريش وأهل الحجاز ، وإن لهم آراءً في الأخبار الواردة في أنه نزل بلغة قريش ، مثل أخبار تسب إلى (عمر) تارة ، وتنسب إلى (عثمان) وإلى غيره تارة أخرى ، وهي أخبار لا ندري مبلغ درجتها من الصحة أو الباطل ، يظهر أنها وضعت تحت تأثير من العصبية السياسية التي ظهرت منذ أيام الرسول فيما بين الأنصار واليهود والمهاجرين ، ثم صارت عصبية قحطانية عمانية ، جعلت العرب عربين : فإذا ما إلى قحطان وإنما إلى عدنان ، وليس بينها جد ثالث .

ثم إنه لو كان قد نزل بلسان قريش ، وكان لسان قريش أفعى ألسنة العرب وأبيتها وأبلغها وأكملها ، ولذلك كان نزوله بها حجة للخصوم وإفحاماً للمشركون وأحراجاً لهم واعجازاً لهم ، فلم يذكر القرآن ذلك ، ولم يبين أنه نزل بلسان قريش أفعى الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، وإنما نزل بلسانهم ليكون حجة عليهم واعجازاً لهم في أن يأتي أبلغهم بآية مثل آياته ، وفي ذكر قريش إذن إفحام لكل العرب . ولكننا نجده على العكس يخاطب قريشاً والعرب بقوله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتو بسورة من مثله »<sup>٣</sup> ، و « قل لئن اجتمعوا الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله »<sup>٤</sup> ، فهو يخاطبهم على أن يأتوا بمثله ، وباللسان الذي نزل به ، وهو لسان عربي مبين ، لا لسان بعض منهم ، أي بلسان قريش . ولو كان لسان هذا البعض هو أكمل الألسنة وأبلغها وأعلتها وأسلسها وأنقاها كان من الضروري ذكر ذلك إفحاماً للخصوم ،

١ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .

٢ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .

٣ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٣ .

٤ الاسراء ، الآية ٨٨ .

فعدم النص على ذلك اللسان ، هو أبلغ جواب على أنه لم يتزل به ، وعلى أن لسانهم المذكور لم يكن أكمل لسان عربي .

وأما العوامل التي أوجدها المحدثون في تفسير سبب سيادة لغة قريش على غيرها من اللغات عند ظهور الإسلام ، وهي: السيادة السياسية ، والسيادة الاقتصادية والسيادة الدينية ، وهي عوامل تتصل بها عادة سيادة اللغات<sup>١</sup> ، فهي عوامل وضعوها وضعاً وتخيلوها من غير سند أو دليل ، أقاموها على تصورات أخذوها من أقوال لأهل الأخبار، لا يرتكن إليها ، ولا يعتمد عليها . وقد حاولت جهدي أن أعتبر في مؤلفات الفائلين بها على سند واحد يثبت سيادة قريش السياسية على غيرها من القبائل عند ظهور الإسلام ، سيادة قوة وفتح ، أو سيادة نفوذ واعتبار فلم أجد فيها دليلاً واحداً يمكن أن يكون حجة لإثبات تلك السيادة . وكل ما وجدته فيها أحکاماً عامة مطلقة لم تقم على حجة ولا دليلاً . ثم راجعت الموارد القديمة على أجده فيها شيئاً ، يثبت هذا التفوق ، فلم أجد فيها أي شيء أيضاً يدل عليه ، بل وجدت العكس ، وجدت أن سادات مكة مثل عبد المطلب وغيره كانوا يراجعون حكام اليمن ويتقربون إليهم ، لينالوا منهم العطف والرعاية ، والهبات والألطاف ، وكانوا إذا سمعوا بتبوء ملك منهم كرسى الحكم ، وكفروا بالله يهنتونه ، داعين له بالعمر الطويل ، وبال توفيق في الحكم ، ثم وجدت فيها أن سادتها كانوا يراجعون حكام العراق وببلاد الشام واليمن والجيشة ، ويتوددون إليهم بالهدايا ، لكتب عطفهم ، وللحصول على مساعدات منهم ، لتيسير سبل التجار مع الأرضين التي كانوا يحكمونها ، وأنهم كانوا يصانعون سادات القبائل وبؤلوفتهم ، لضمان حق مرور تجارتهم بأرضهم بأمن وسلم ، في مقابل اتاوات تدفع لهم ، أو هدايا تحمل إليهم ، ثم رأيت ما كان من أمر (هاشم) وآخره من عقدهم الإيلاف الذي أشير إليه في القرآن<sup>٢</sup> . ثم وجدت أن أهل الأخبار يقولون أن (قيصر) أعاد قصيماً على خزاعة<sup>٣</sup> ، وأن (عثمان بن الحويرث)

---

١ في الأدب الجاهلي (١٠٦ وما بعدها) .

٢ في الأدب الجاهلي (١٠٥ وما بعدها) ، شوقي ضيف (١٣١ وما بعدها) .

٣ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ .

٤ المعارف (٦٤٠) ، جواد علي ، المفصل (٣٩/٤) .

قد توسط لدى البيزنطيين لتنصيب نفسه ملكاً على مكة<sup>١</sup>. ورأيت أن أهل الجاهلية، كانوا يعبرون قريشاً بأنها لا تحسن القتال ، وأنها تجاري وتساير من غالب ، وأنها لا تخرج إلا بخمارة خفير ، وبخلف حليف ، وبخجل من هذه الحال التي عقدتها مع سادات القبائل . فلما سمع ( النعمان بن قبيصة بن حيّة الطائي ) ابن عم ( قبيصة بن إياس بن حيّة الطائي ) صاحب الحيرة ، بـ ( سعد بن أبي وقاص ) ، سأله عنه ، فقال : « رجل من قريش ، فقال : أما إذا كان قريشاً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال . إنما قريش عبيد من غالب ، والله ما يمنعون خفيراً ، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير »<sup>٢</sup> ، فهيل في هذا الكلام بعد – إن صح بالطبع – ما يشير إلى نفوذ سياسي .

بل وجدت أن أهل الأخبار يذكرون أن ( قصي بن كلاب ) ، وهو بجمع قريش وموطده حكمها على مكة إنما بسط نفوذه عليها بمساعدة الروم له ، حيث يقولون : « وجاء قصي بن كلاب ، فجمع معداً – وبذلك سُميَ مجمعاً – واستعان ملكَ الروم فأعانه ، وحارب الأزدَ فغلبهم واستولى على مكة »<sup>٣</sup> . وكان الأزد على حد قول هذه الرواية قد طردوا جرهم عن مكة واستولوا عليها ، فجاء ( قصي ) وأذاجهم عنها ، بمعونة ( ملك الروم ) ، فما كانت قريش لتزيحهم عنها لولا هذه المعاونة ، وقوم يستعينون بالأجانب للاستيلاء على قرية فقيرة هي كل ما ملكوا هل يعقل بعد أن يكون لهم نفوذ سياسي على التحور الذي تصوروه وذكروه !

وقد وجدت أنهم كانوا يصطنعون الأحابيش والقبائل ، للدفاع عن مدinetهم ، وأنهم استعنوا بالقبائل يوم ( الأحزاب ) في قتالهم المسلمين . وليس في هذا الاستقطاع دلالة على سيادة سياسية ، وإنما هو دليل الضعف وشراء القلوب وتأليفها بمال . فإذا كان في هذا الشراء معنى السيادة السياسية ، فهو اذن أمر آخر . وقد رأينا أنهم كانوا يصطنعون الصعاليك والخلعاء ، للاستفادة منهم ، وللاستعانة بهم في حياة أنفسهم<sup>٤</sup> ، ورأينا أن قريش الظواهر كانوا يفخرون على قريش مكة

١ المفصل ( ٤ / ٣٩ ) .

٢ الطبرى ( ٣ / ٥٧٢ وما بعدها ) ، ( دار المعارف ) ، المفصل ( ٤ / ٣٧ ) .

٣ الخزانة ( ٢ / ٣٢٤ ) ، ( هارون ) .

٤ رسائل الجاحظ ( ٧ ) ، ( السنديobi ) ، جواد علي ، المفصل ( ٤ / ٦٨ ) .

بأنهم أصحاب قتال ، وأنهم يقاتلون عنهم عن البيت<sup>١</sup> ، ثم رأينا أشياء أخرى من هذا القبيل ، تدل كلها على أن قد يشاً كانوا ضعفاء غير مخربين ، شأن كل الحضر ، بالنسبة إلى الأعراب ، وأنهم عدوا لضعفهم هذا إلى رشوة سادات القبائل بالهدايا وبالمال وبإشارتهم برأسائهم قوافلهم ، للتأمين مرور أمواهم وتجارةهم بأرضهم بأمن وسلم . فهل يقال بعد كل هذا أنه قد اجتمع لقريش سلطان سياسي ، صار في جملة عوامل سيادة لغة قريش في جزيرة العرب قبل الإسلام<sup>٢</sup> ؟ ونحن نعلم ، أن من أهم مقومات السيادة السياسية ، ضرورة وجود القوة العسكرية ، فالقوة العسكرية ، هي التي بسطت اللغة اليونانية في العالم القديم ، وهي التي نشرت اللغة اللاتينية في أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، وهي التي أوصلت اللغة العربية في آسية إلى حدود الصين ، وفي أوروبا إلى الأندلس وسواحل المحيط ، وهي التي جعلت الانكليزية اليوم لغة عالمية ، فكيف تتصور إذن خضوع العرب الشماليين قبل الإسلام أو قبيله ، للغة قريش ، مع ما نعرفه من ضعف قريش في قدرتها على القتال ، ولا سيما في ذلك العالم الذي كان القتال فيه شيئاً مألوفاً ، بل هو عنته من مستلزمات الحياة ، لأنه من وسائل الرزق بالنسبة للأعراب المساكين الذين حرمتهم الطبيعة من خيراتها ، بل حتى من ضروريات الحياة ، عالم لا يحترم فيه إلا القوي الجبار .

ونحن إذا أخذنا بأثر السلطان السياسي في سيادة اللغات ، وجب علينا حينئذ البحث عن البيئات التي جمعت بين القوة والرعب العسكرية والنفوذ السياسي ، وهي بيئات توفرت في اليمن ، وفي مملكة الحيرة ، التي بلغت حدودها في أيام (أمرىء القيس) صاحب نص الشماراة ، المتوفى سنة (٣٢٨م) حدود نجران ، والتي هيمنت على اليمامة والبحرين . وملوك الحيرة ، عرب ، لغتهم ولغة أتباعهم العربية . ففي مثل هؤلاء ، الذين كان لهم سلطان سياسي وسلطان عسكري ، يجب التفكير لا في أناس حضر مسالين مثل قريش ، ونحن نعلم أن قريشاً كانوا يتعددون إلى ملوك الحيرة ، وإلى ساداتها ، وأن شعراً جزيرة العرب كانوا يقصدونهم من مختلف أنحائها ، باستثناء العربية الجنوبية ، لإنشادهم شعرهم في مدحهم ،

١ جواد علي ، المفصل (٤/٢٨) .

٢ طه حسين ، في الأدب الجاهلي (١٠٦) .

رجاء تحقيق مطلب ، أو نيل جائزة ، كما كانت الوفود تقدم إليهم ، وتحظى  
 أمامهم ، وكان لهم ديوان بالعربية وبالفارسية ، لكتابة الرسائل إلى عمالهم على  
 الأمصار والى سادات القبائل بالعربية ، والى الفرس بالفارسية ، كما كان الفرس  
 يكتبون إليهم بالعربية ، كما أجمعوا على ذلك الموارد العربية والموارد الفارسية التي  
 نقل منها المؤرخون أخبار الخبرة إلى العربية، وكان لهم — كما يقول أهل الأخبار —  
 ديوان شعر فيه أشعار الفحول وما مدح به النعان بن المنذر وأهل بيته<sup>١</sup> ، وكانت  
 لهم مدارس تدرس الأطفال العربية ، وكذلك كانت لأهل الأنبار ولأهل عين  
 التمر مدارس تدرس العربية، كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب،  
 ولما جاء ( خالد بن الوليد ) إلى الخبرة وسأل سادتها : « ويحكم ! ما أنت !  
 أعراب ؟ فما تقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تقمون من الإنصاف والعدل !  
 فقالوا له : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم  
 تجادونا وتكرهوا أمرنا ، فقالوا له : ليذلك على ما تقول انه ليس لنا لسان إلا  
 بالعربية ، فقال : صدقتم<sup>٢</sup> : فقال تكلم ( خالد ) معهم بالعربية ، وتقاهم معهم  
 وأيدهم في أن لسانهم هو اللسان العربي الذي لا لسان لهم غيره ، كما أن لسانه  
 هو اللسان العربي . وبهذا اللسان كان يتكلم ملوك الخبرة ويسمعون الشعر ،  
 ويختاطبون الوفود وأتباعهم ، وبه كانوا أنفسهم يتظمون أشعارهم ، لم يجدوا  
 صعوبة في التفاهم مع أحد ، ولم يجد أهل مكة ولا غيرهم من كان يأتي الخبرة ،  
 صعوبة في التخاطب والتفاهم مع أهلها ، فهل يعني هذا أن أهل الخبرة ، كانوا  
 يتتكلمون بلغة قريش وأنهم يفضلون تكلمهم بهذه اللغة كانوا يتفاهمون مع الوافدين  
 إليهم من مكة وغيرها من أنحاء جزيرة العرب ! وأنهم لو لم يكونوا يعرفون العربية  
 قريش ، لكن أمر التفاهم معهم صعباً ! اذن فعربة أهل الخبرة ، هي عربية  
 قريش ، أخذوها منهم بسبب تقوذهم السياسي ، وغلبة لسانهم على لسانه العرب !  
 ولكن لو كان الأمر كذلك ، فلمَّا كان جواب أهل الخبرة لخالد حين سألهما :  
 « ويحكم ما أنت ! أعراب ؟ نحن عرب عاربة وأخرى متعربة ، ولذلك على ما  
 تقول ، إنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، ولم يقولوا له ، إنه ليس لنا لسان إلا

<sup>١</sup> ابن جني ، الخصائص ( ٣٩٢ / ١ وما بعدها ) ، ابن سلام ، طبقات ( ٢٢ ) .

<sup>٢</sup> الطبرى ( ٣٦١ / ٣ ) ، ( حديث يوم المقر وفم فرات بادقلى ) .

بالقرشية ، أو بعربية قريش أو بعربية قومك ، وأمثال ذلك من عبارات يقتضيها الموقف للتقارب من القائد المتصر ، وإثبات أنهم مثله ، وهو قرضي يتكلمون بعربية القرشية المبينة ! فهل يعتزون بتكلمهم بلسان قريش ، أفعصح ألسنة العرب ويتباهون به ! ولو كان ذلك اللسان لسان الأدب الرفيع عندهم لما سكتوا من تسميته بلسان قريش أبداً !

ثم خذ ما ذكره أهل الأخبار عن فتح ( الأنبار ) تراهم يقولون : « ولما اطمأن خالد بالأنبار وال المسلمين ، وأمن أهل الأنبار وظهرروا ، رأهم يكتبون بالعربية ويتعلموها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أولئك نزلوها أيام مختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ، فقال : من تعلمت الكتاب ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إيماد ، وأنشدوه قول الشاعر :

قومي إيماد لو انهزم أم لو أقاموا فنهزل التم  
قوم لهم باحة العراق اذا ساروا جميعاً والخط والقلم

ولو كان أهل الأنبار يكتبون بلغة قريش ، لما قال أهل الأخبار ان ( خالد ) وجدهم يكتبون بالعربية ويتعلموها ، ولقالوا حتماً أنهم كانوا يكتبون بلسان قريش . ثم ان نصهم دوماً على ان لسانهم كان عربياً ، وديوان أهل الخبرة إنما كان بالعربية ، وإن كتابتهم إنما كانت بالعربية ، دليل في حد ذاته على ان المراد بالعربية ، العربية المطلقة ، لا المقيدة ، أعني عربية قريش .

الحق أقول : إنني اذا فكرت تفكير علماء العربية المحدثين ، الذين نسبوا تفرق اللغات على اللهجات الى السيادة السياسية والسيادة الاقتصادية وأمثال ذلك من سيدادات ، فإني لن أفكر في موطن أينشت فيه العربية في تلك الأيام سوى بلاد الشام والعراق ، فقد أمدتنا بلاد الشام بنصوص وإن كانت - كما سبق أن قلت - قد دونت بلهجة نبطية ، لكنها لم تتمكن مع ذلك من التستر على لهجة أصحابها الأصلية ، ففي نص ( التهارة ) مثلاً الذي يعود تاريخه الى سنة ( ٣٢٨ م ) ، عبارات مثل ( ملك العرب كله ) ، و ( ملك الأسددين ونزاراً وملوكهم ) ،

و ( هرب مذحجو ) ، و ( مدينة شمر ) ، و ( ملك معلو ) ، و ( نزل بنية الشعوب ) ، و ( فلم يبلغ ملك مبلغه ) ، و ( هلك سنة ) ، يفهم منها بكل جلاء ووضوح ان أصحابها كانوا يتكلمون باللهجة العربية شمالية ، هي هذه اللهجة التي نسميها العربية الفصيحة ، والتي تستخدم ( ال ) أداة للتعریف . وفي نص ( شرحبيل بن ظالم ) ، الذي يعود تاريخه الى سنة ( ٥٦٨ ) للبياد الذي هو : « انا شرحبيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خير بعام » ، وهو نص لا يبعد عن ميلاد الرسول إلا بستين ، نرى عربية ( ال ) واضحة ظاهرة طاغية على هذا النص ، بحيث تشعرك ان النص وان كان كالنص السابق قد دون باللهجة متاثرة بال نحو النبطي ، غير ان أصحابه كانوا يتكلمون بعربيه شمالية ، فهم اذن من كانوا يتكلمون بعربيه ( ال ) بكل تأكيد ، بدلالة هذه النصوص . وعربيه ( ال ) هي عربية الشعر الجاهلي .

وحيث ان صاحب نص ( الهرة ) هو الملك ( امروقيس ) ، من ملوك الحيرة ، وقد كتب أصحابه شاهد قبره ، باللغة التي بيتها ، ووضعه على قبره ، فلغة أصحابه اذن ، هي لغة ( ال ) ، أي العربية الفصيحة . فتحن نستطيع أن نستنبط من ذلك ، ان عرب الفرات في العراق كانوا يتكلمون بهذه اللغة في القرن الرابع للميلاد ، أي قبل أن تظهر سوق ( عكاظ ) ، وقبل أن يولد ( النابغة ) الذهبياني ، حاكم هذه السوق على زعم أهل الأخبار ، وقبيل أن تقوم قريش بالغربلة المزعومة للغة ، وقبل بروز قريش ولادة ( قصى ) بزمن طويل .

ثم إن ملوك الحيرة على الأخص ثم ملوك الغساسنة كانوا كعبة الشعر والشعراء ، اليهم كان يذهب الشعراء ، يقفون على أبوابهم ساعات وأياماً ليسمح لهم ( الحاجب ) بالدخول على الملك لإنشادهم أشعارهم أمامهم ، وقد كانوا قد اخذوا - كما يقول أهل الأخبار - أياماً يسمح فيها للشعراء بالتباري في انشاد أشعارهم أمامهم ، وعرض ما عندهم من بضاعة نقيسة في الشعر ليراها الشعراء المجتمعون عنده ، ولم نسمع أن الشعراء كانوا يقصدون تجارة قريش للتباري أمامهم بإنشاد الشعر ، أو أنهم كانوا قد اخذوا موسمياً يقصده الشعراء من سائر أنحاء جزيرة العرب للتباري بقول الشعر ، لا في موسم الحجيج ولا في غيره . إن سادة مكة تجارة ، والتاجر لا يعرف إلا الكسب وجمع المال ، وما شأنه وبضاعة الشعر ! لقد كان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة قدوة للملك بني أمية ولبني العباس في تبنيهم الشعر والشعراء ،

وفي ترويج سوقه وتشييده ، وإعطائه قوة وصولة ، قد يكون عن طبيعة فيهم وطبع ، وقد يكون عن سياسة وغرض ، لاتخاذ الشعراء محطات اذاعة أو صحف للترويج بسياسة ملك ، وللحظ من شأن خصمه ومنافسيه ، وللردد على الشعراء المعارضين . على كل فقد كانوا يستدلون الشعر ويميزون الجيد منه من الفاسد ، ويظهرون عيوبه أمام الشعراء ، ويحسنون إلى الشعراء من أجداد منهم ، ومن لم يجد ، فكان هذا التشجيع في جملة العوامل المشجعة على نظم الشعر . وإذا كان لبني أمية فضل على الشعر الجاهلي بالاستماع إليه من أفواه الرواة ، وبالبحث على حفظه وتدوينه . وإذا كان لبني العباس فضل على الشعر والعربيـة والعلوم بتشجيعهم للعلماء واستدعائهم إلى مجالسهم للالستماع إليهم ، فصاروا بذلك جميعاً حماة العربية ، فإن ملوك الحيرة وملوك عرب الشام ، كانوا قد مهدوا الحادة قبلهم لمن ذكرت ، ورفعوا بعلمهم المذكور من مستوى العربية ، وعملوا عليهم في صقلها وفي توحيدها ، وفي تحرير الألسنة بعضها من بعض والناس على دين ملوكهم ، وأكثر شعراء الجاهلية كانوا على اتصال إما بهؤلاء الملوك ، وإما بأولئك .

وإذا أضفنا إلى هذا التشجيع ، والسيادة السياسية التي . كانت ملوك الحيرة على نجد والبحرين ، عامل التقدم الثقافي الذي كان لعرب الحيرة والأنبار والقرى العربية في العراق وفي بلاد الشام على أهل البوادي ، بل وعلى أهل مكة كذلك ، الذين تعلموا خطتهم من أهل الحيرة ، لزم علينا القول إن العربية المبينة التي درست في مدارس عرب العراق ، كانت قد تقدمت في العراق أكثر من أي مكان آخر في جزيرة العرب بالنسبة ل أيام الجahلية ، ولعل هذا التقدم هو الذي أكسب العراق شرف وضع علوم العربية ، وتفرده من بين سائر الأقطار الإسلامية ، بجمع الشعر الجاهلي وقواعد العربية وعلوم الشعر واللغة ، وإنما فلا يعقل ظهور هذه العلوم في هذه الأرضين من غير ماضٍ ولا علم سابق ، ولا أسس بني عليها المسلمين بناءهم الجديد .

وأما إن تلك السيادة السياسية ، كانت في حدود ضيقـة ، في حدود القبائل القرية من قريش ، والواضع التي كانت لها مصالح بها ، فذلك موضوع آخر ، له ما يبرره ، فقد كان لسدادات مكة مصالح اقتصادية في الطائف ، وكان لهم أملاك ويسانـ، ولم يبوت يقضون بها صيفهم ، كما كانت لهم مصالح مشابهة مع الواضع الأخرى ومع القبائل ، لا مجال لنكرانها أبداً . ولكن ما صلة هذه

الأمور باللغة ، ومن قال من القدماء إن قريشاً فرضت لغتها على أهل تلك الموضع والقبائل فرضاً ، أو ان أدباء تلك الموضع أو تلك القبائل ، أخذوا لغة أدهم من قريش ؟ أو ان سياسة قريش كانت ذات نفوذ واسع عميق ، تركت أثراً كبيراً في التفوس جعلت العرب من أجل ذلك يمجدون لغة أهل مكة ، ويعتبرونها اللغة العالمية ، أما لغتهم فلغات رديئة دونها في المترفة والمكانة، مع اننا نعلم ما للعصبيات القبلية من أثر في التعصب الى اللهجات ، ثم اننا نرى ان كتب أهل الأخبار واللغة ، تذكر ان القبائل التي كانت تجاور مكة ، كانت تتكلم بلهجاتها الخاصة بها ، وان أهل الطائف ، أي ثقيف ، كان لهم لسانهم الخاص ، وان (أهل الحجاز) ، أي قريش وغيرهم ، كانوا يتكلمون بلهجات خاصة ، سماها علماء اللغة لغات (حجازية) ، ولم يسموها (قرشية) ، ولو كانت تلك اللهجات ، لغة قريش ، لما دعاها العلماء (لغة أهل الحجاز) ، أو (حجازية) ، وقالوا : (ما الحجازية) ، وعلى (لغة أهل الحجاز) ، ولقالوا : (لغة قريش) وعلى (لغة قريش) ، وهكذا ، أضف الى ذلك اننا قلما نقرأ أمثلة على اختلاف لغة قريش عن بقية لغات العرب ، وانما نقرأ أمثلة على اختلاف لغة أهل الحجاز مما يدل على وجود فرق بين اللغتين ، وان لغة قريش ، لهجة من لهجات أهل الحجاز ، لا أنها الأصل . وقد رأينا وجود (الغمضة) في لغة قريش ، وقد نص علماء اللغة أنفسهم على وجودها في تلك اللغة<sup>١</sup> .

ثم من في استطاعته اليوم اثبات ان عرب اليمامة أو عرب نجد ، أو عرب البوادي ، كانوا تحت تأثير لغة قريش ، أو تحت تأثيرها السياسي ، ولذلك كانوا ينظمون شعرهم بها ، ويخطبون بها ، والنصوص التي عثر عليها في اليمامة وفي موضع من نجد تثبت خلاف ذلك ، تثبت بالدليل القاطع ان لهجة نصوصهم لم تكن على شاكلة لغة قريش ، فكيف نصدق رأي من يرى ان أغراب باطن جزيرة العرب ، كانوا ينظمون الشعر بلسان قريش ! مع وجود هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها ، والتي لا يزال العلماء يعثرون عليها الى يومنا هذا ، لا في نجد واليمامة والبحرين فقط ، وانما في أرض الحجاز نفسها ، وعلى مسافات غير بعيدة من يرب ومن مكة ، ومن الطائف ، وهي بلهجات تختلف عن لهجة

<sup>١</sup> « الفغمضة : الكلام الذي لا يبين ، ومنه صفة قريش فيهم غمضة » ، تاج العروس (٦/٩) ، (غم) .

القرآن الكريم ، وبخيط مختلف عن الخط الذي دون الوحي به ! وليست هذه النصوص مغرة في القدم ، حتى يعترض معارض ، فيقول اننا نقول : إن لغة قريش ، صارت لغة الشعر ، ولغة الأدب ، مع ظهور الشعر الجاهلي ، أو قبله بزمن غير بعيد ، لأن بين هذه النصوص ، نصوص لا يرتقي عهدها عن الاسلام إلا بزمن يسير !

وأما ما يقصونه علينا من نفوذ السلطان الاقتصادي الذي كان لقريش وعن أثره في سيادة لهجة قريش على لهجات العرب ، فأنا أثراً أن مكة كانت مدينة تجارة وتجارة ، وبيع وشراء ، واستيراد وتصدير ، وليس من حق أحد أن ينكر ذلك ، بعد أن نص القرآن على تجارةهم ، وعلى وجود رحلتين لهم : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . وبعد أن زخرت كتب الأخبار والتاريخ بأخبار تجارة رجالها . ولكن هل كانت مكة ، المدينة المتاجرة الوحيدة في جزيرة العرب ؟ والجواب : «كلا» ، فقد كانت لأهل اليمن تجارة مع مختلف أنحاء جزيرة العرب ، وكان سادات اليمامة والبحرين من الأثرياء الثقال في بلادهم ، وكانوا أصحاب تجارات ، وكانت اليمامة خاصة ، ريف مكة تمويها بالمرة والمنافع ، وكان ساداتها إذا غضبوا عليها قطعوا الميرة عنها ، فيصيبها من ذلك غم كبير ، وتضطر عندها إلى مصالحتهم . فلما جاءهم ثامة بن أثال الحنفي ، سيد أهل اليمامة ، وقالوا له : « يا ثامة صبوت وتركت دين آباءك ، قال : لا أدرى ما تقولون ، إلا أني أقسمت برب هذه البقبة لا يصل اليكم من اليمامة شيء مما تتغبون به حتى تتبعوا معيدياً من آخركم . وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة ، ثم خرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم ومنافعهم ، فلما أصرّ بهم ، كتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن عهدهنا بك وأنت ثامر بصلة الرحم وتحض عليها ، وإن ثامة قد قطع عنا ميرتنا وأصرّ بنا ، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلينا وبين ميرتنا فافعل ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن خل بين قومي وميرتهم »<sup>١</sup> . وكان تجارة البحرين يحملون تجارةهم من أقشة ومن تجارة البحر إلى مكة ، كما كان ملوك الحيرة يبعثون بطاطاتهم إلى الأسواق ومنها سوق عكاظ ، وكان الحضر وأهل القرار في كل جزيرة العرب تجارة ، ومنهم أهل

---

١ الاستيعاب (٢٠٦ / وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

بـ بـ ، ويهدـها ويهـودـ وادي القرـى ، ويـعود سـبـب اـشتـهـار مـكـة بالـتجـارـة دونـ غـيرـها منـ قـرـى ومـدـن جـزـيرـة العـرب ، إـلـى الـقـرـآن الـكـرـيم ، فـإـلـيـهـ وـحـدهـ يـعـودـ فـضـلـ اـشتـهـارـها بالـتجـارـة ، لـما جـاءـ فـيـهـ مـنـ ذـكـرـ عنـ قـساـوةـ تـجـارـ قـريـشـ وـغـلـظـهـمـ تـجـاهـ الـفـقـراءـ ، وـمـنـ أـكـلـهـمـ أـموـالـ الـيـتـامـيـ وـالـأـرـاملـ وـالـبـنـاتـ ، وـمـنـ تـعـاطـيـهـمـ الـرـبـاـ ، وـمـنـ اـتـجـارـهـمـ بـرـحـلـتـيـ الشـتـاءـ وـالـصـيفـ إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ مـنـ أـمـورـ حـلـتـ عـلـيـهـ النـفـسـيـرـ وـالـأـخـبـارـ عـلـىـ التـقـيـرـ عـنـ أـخـبـارـ تـجـارـةـ مـكـةـ وـعـلـىـ جـمـعـ ماـ حـصـلـواـ عـلـيـهـ فـيـ كـتـبـهـمـ ، وـلـوـ نـزـلـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ شـيـءـ عـنـ تـجـارـةـ وـتـجـارـ مواـضـعـ أـخـرىـ مـسـيـاهـ باـسـهـاـ تـحـصـتـ تـلـكـ المـواـضـعـ بـعـنـايـتـهـمـ مـنـ دـونـ شـكـ وـلـاـ رـيـةـ ، ثـمـ إـنـ مـدـيـنـةـ الرـسـولـ ، وـقـدـ اـشـتـغلـ الرـسـولـ نـفـسـهـ بـالـتـجـارـةـ ، وـكـانـ وـالـدـهـ وـبـقـيـةـ عـشـرـتـهـ تـجـارـاـ ، وـكـانـتـ زـوـجـهـ خـدـيـجـةـ تـاجـرـةـ ، فـحـمـلـ كـلـ هـذـاـ عـلـيـهـ السـيـرـةـ عـلـىـ الـبـحـثـ عـنـ تـجـارـةـ مـكـةـ وـعـنـ تـجـارـتـهـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ ، وـعـنـ الـمـواـضـعـ الـتـيـ تـاجـرـواـ مـعـهـاـ . فـظـهـرـتـ مـكـةـ مـنـ شـمـ وـكـانـهـ مـدـيـنـةـ الـوـحـيدـةـ تـاجـرـةـ فـيـ جـزـيرـةـ العـربـ !

وـأـمـاـ مـاـ يـذـكـرـونـهـ عـنـ النـفـوذـ الـدـيـنـيـ الـذـيـ كـانـ لـقـريـشـ عـلـىـ الـعـربـ ، فـالـذـيـ أـعـرـفـهـ مـنـ أـمـرـ الـدـينـ عـنـدـ أـهـلـ الـجـاهـلـيـةـ ، إـنـهـ كـانـواـ بـيـنـ مـشـرـكـ ، وـهـمـ الـكـثـرـ الـكـاثـرـةـ ، وـبـيـنـ يـهـودـ ، وـهـمـ قـلـةـ ، وـبـيـنـ نـصـارـىـ ، وـهـمـ أـكـثـرـ مـنـ الـيـهـودـ عـدـدـاـ ، وـبـيـنـ جـالـيـةـ جـمـوسـيـةـ ، قـلـدـهـاـ فـيـ دـيـنـهاـ نـفـرـ مـنـ الـعـربـ لـاـ يـعـاـبـ بـعـدـهـمـ . أـمـاـ الشـرـكـ ، فـقـدـ تـبـعـنـاهـ فـيـ الـجـزـءـ السـادـسـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ ، فـنـجـدـنـاـ إـنـ لـكـلـ قـبـيلـةـ صـنـمـاـ ، كـانـتـ تـنـقـرـبـ إـلـيـهـ وـتـنـتـرـ لـهـ وـتـسـتـعـنـ بـهـ فـيـ حـرـبـهاـ وـغـزوـهـاـ ، وـلـمـ تـكـنـ الـعـربـ تـحـجـجـ إـلـىـ صـنـمـ وـاحـدـ ، هـوـ صـنـمـ قـريـشـ ، بـلـ كـانـتـ تـحـجـجـ إـلـىـ أـصـنـامـهـاـ ، وـوـجـدـنـاـ إـنـ (ـهـبـلـ)ـ هـوـ صـنـمـ أـهـلـ مـكـةـ وـكـنـىـ . ثـمـ رـأـيـنـاـ إـنـ لـأـهـلـ نـجـرانـ كـعـبـةـ ، وـلـأـهـلـ يـثـرـبـ مـحـجـةـ ، وـلـإـيـادـ كـعـبـةـ ، وـلـثـقـيفـ مـحـجـةـ ، وـلـقـبـائـلـ الـأـخـرـىـ مـحـجـاتـ ، وـلـبـنـطـ مـحـجـةـ ، وـلـأـهـلـ الـعـرـبـ الـجـنـوـبـيـةـ مـعـابـدـهـمـ ، وـلـمـ نـقـرـأـ فـيـ أـيـ نـصـ مـنـ نـصـوصـ أـهـلـ الـجـاهـلـيـةـ أـنـهـ حـجـوـاـ إـلـىـ مـكـةـ ، أـوـ إـنـ أـحـدـاـ مـنـهـمـ ذـهـبـ إـلـيـهـ لـغـرـضـ مـنـ الـأـغـرـاضـ الـدـيـنـيـةـ أـوـ أـيـ غـرـضـ آخـرـ ، وـلـمـ يـرـدـ اـسـمـ مـكـةـ فـيـ أـيـ نـصـ مـنـ هـذـهـ النـصـوصـ . وـلـمـ نـسـمـ فـيـ أـخـبـارـ أـهـلـ الـأـخـبـارـ ، إـنـ قـوـافـلـ مـنـ عـربـ الـعـرـاقـ أـوـ عـربـ بـلـادـ الشـأـمـ أـوـ نـجـدـ أـوـ الـعـروـضـ ، كـانـتـ تـرـحـلـ فـيـ موـسـمـ الـحـجـجـ إـلـىـ مـكـةـ لـغـرـضـ تـأـدـيـةـ الـحـجـجـ ، أـوـ أـدـاءـ الـعـرـمـةـ فـيـ رـجـبـ ، وـلـمـ أـقـفـ عـلـىـ اـسـمـ مـلـكـ مـنـ مـلـوـكـ الـحـرـةـ قـبـلـ إـنـهـ حـجـجـ إـلـىـ مـكـةـ ، وـلـمـ أـقـفـ عـلـىـ اـسـمـ مـلـكـ مـنـ مـلـوـكـ كـنـدـةـ أـوـ بـقـيـةـ الـعـربـ ذـكـرـ إـنـهـ حـجـجـ

في جاهلية الى مكة ، اللهم لا ما زعموه من حجج التابعة اليها ، وقد تعرضا  
لطبيعة أمثال هذه الدعاوى الفحطانية التي وضعتها العصبية الى اليم في الاسلام ،  
وكلها أساطير وخرافات . ولو كان الحج الى مكة عاماً عند كل مشركي جزيرة  
العرب ، لما سكتت الأخبار عن ذكر من كان يفد الى الحج من الأماكن البعيدة ،  
ولظهور أثره في الشعر على الأقل .

وأما اليهود والنصارى والمجوس ، فقد كانوا على دينهم ، لا يمحرون البيت  
ولا يتقرّبون اليه . فلهم عبادتهم الخاصة بهم . فلا نفوذ لقريش اذن عليهم من  
ناحية الدين .

نعم ، قد يقال لي : ولكن ما قولك في هذا الاجماع الذي نراه في كتب  
التاريخ والأخبار من حج التابعة الى مكة ومن تقرّبهم الى الكعبة بالكسوة  
والألطاف ، وقد كانوا أول من كساها من العرب ؟ ثم ما قولك في هذا الشعر  
الذى قالوه في مدح البيت وفي التقرب اليه وفي الإيمان بالله وبرسوله قبل ظهوره  
بل قبل مولده بعشرات من السنين ؟ ثم ماذا تقول من اشادة ( عدي بن زيد )  
العبادي بالبيت وقسمه به في شعره ، وهو يخاطب النهان بن المنذر ، الملك الغاضب  
عليه<sup>١</sup> ؟ وماذا تقول في قول القائلين ، من الشعراء الجاهلين الآخرين في تعظيم  
البيت وفي التقرب اليه ، وقسمهم به<sup>٢</sup> ومن جيء العرب الى مكة من كل حدب  
وصوب للعمرأة أو للحج ؟ ثم ماذا ستقول في أشياء أخرى من هذا القبيل تفند  
كلها قولك ، وتثبت وجود نفوذ قريش على القبائل وخصوص القبائل لها في أمور  
الدين<sup>٣</sup> ؟

أما حج التابعة البيت ، فهو حج ولد في الاسلام ، أولادته العصبية الفحطانية  
العنذانية ، التي تحدثت عنها ، وأما الكسوة ، فهي من مولدات ومحترفات هذه  
العصبية أيضاً . وأما الشعر الذي نسب الى التابعة ، فهو من فصيلة الشعر الذي  
روي على لسان آدم وهابيل وقابليل والجن<sup>٤</sup> ، وأما المحجات ، فقد بحثت عنها في  
الجزء السادس من هذا الكتاب<sup>٥</sup> . وقد سبق لي أن تحدثت عن محترفات أخرى

١ تاج العروس ( ٥٣٤ / ٥ ) ، ( ودع ) .

٢ مثل ذهير ، والنابغة ، وعوف بن الاخرصن ، جواد علي ، المفصل ( ٤٣٠ / ٦ ) .

٣ ( ص ٤٤٤ وما بعدها ) .

كثيرة غير هذه ، أوجدها العصبية القحطانية العدنانية ، منها خلق أنبياء قحطانيين ، وجعل العربية الأولى ، عربية قحطانية ، وجعل العرب العدنانيين عرباً مستعربة ، إلى غير ذلك من ابتكاراته أوجدها القحطانيون ، بعد أن ذهب الحكم منهم ، وصاروا تبعاً لقريش في الإسلام ، فأخذنوا ينشئون الماضي ويبحثون في الدفاتر العتيقة ، ويضعون ويفتعلون ، للغضن من خصومهم ، والإظهار أنهم كانوا هم اللب والأصل ، وإن خصومهم جاء إليهم الحكم عفواً ، من غير أصلة ولا مجدٍ تليد ، فهم أصل كل مجد وفخار .

وقد تعرّض العلماء لهذا الموضوع القائم على العصبية ، فقال (ابن فارس) : « فأما من زعم أن ولد اسماعيل - عليه السلام - يعبرون ولد قحطان أنهم ليسوا عرباً ويختجون عليهم بأن لسانهم الحمرية ... فليس اختلاف اللغات قادحاً في الأنساب . ونحن وإن كنا نعلم أن القرآن نزل بأقصى اللغات فلستنا ننكر أن تكون لكل قومٍ لغة . مع أن قحطان تذكر أنهم العرب العاربة وأن من سواهم العرب المتعرّبة ، وأن اسماعيل - عليه السلام - بلسانهم نطق ، ومن لغتهم أخذ ، وإنما كانت لغة أبيه صلٰ الله عليه وسلم ، العربية »<sup>١</sup> . فأنت أمّا رأيَين متناقضين ، يدعى أصحاب كل رأيٍ منها أنهم هم العرب ، وأن لسانهم هو اللسان العربي الصحيح المبين ، وأن من سواهم فغم ، وأصحاب السنة فاسدة رديئة .

وأما ما زعموه وحکوه عن أدوار تهذيب اللغة ، ومن اتفاق العربية بلسان اسماعيل إلى اختتامها بالدور العكاظي ، وهو آخر أدوار التهذيب اللغوي ، فأقول أنها أقوال بنيت على أخبار صنعتها العواطف والمشاعر العصبية الضيقة التي ظهرت بأجل مظاهرها في صدر الإسلام ، عصبية قبلية قديمة كانت بين يرب ومكة ، أو بين اليمن ومكة ، إذ دامت شدة وقوه في الإسلام ، بسبب استيلاء قريش على الحكم ، فاستغلت العواطف الدينية لتأييد هذه العصبية السياسية . يجعل قريش تاجر جزيرة العرب ، وزعيمتها في اللغة ، وموطن الفصاحة والبلاغة ، وجمع علماء اللغة الذين كانوا يأخذون ويعطون ويقررون كل ما هو سلس من الكلم وما هو بلين وفصيح ، حتى جعلوا كلام الله المنزل على رسوله بلسان عربي مبين ، لسان قريش ، والله تعالى يقول : « قرأتنا عربياً ، ولم يقل قرشياً »<sup>٢</sup> .

١ الصاحبي (٥٦) .  
٢ ابن كثير، فضائل القرآن (٧٧) .

والمرتبة العربية العرب جميعاً من أنصار ومهاجرين ، أهل بادية وقرى . « قال الأزهري : وجعل الله عز وجلّ ، القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنّه نسبة إلى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقرها العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً لأنّه من صريح العرب »<sup>١</sup> . فلسان القرآن ، لسان العرب جميعاً من مهاجرين وأنصار ، لا لسان قريش خاصة ، والنبي وإن كان من قريش ، لكنه كان عربياً من صريح العرب ، ودعوته ، لم تكن دعوة ضيقة خاصة بقريش ، إنما كانت دعوة عامة جاءت إلى كل العرب ، قوم النبي ، وهذا نزل بلسانهم وبهذا جاءت الآية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »<sup>٢</sup> ، ثم إلى الناس عامة لحديث : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلني : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي العنايم ولم تحمل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة »<sup>٣</sup> .

وأما ما زعموه من تخبر قريش وانتقامها أفضل لغات العرب ، حتى صار لسانها أعراب الألسنة ، فزعمبني على خبر « روي عن أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، انه قال : قريش هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنهم جواراً ، وأعرابه ألسنة »<sup>٤</sup> ، وعلى خبر ينسب إلى قادة نصه : « كانت قريش تجتبي ، أي تختار ، أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتها لغتها ، فنزل القرآن بها »<sup>٥</sup> . وهو خبر لا زال يتردد ويكرر يوضع بين أقواس تارة وبغير أقواس ثانية أخرى ، استشهاداً به حتى وكانه صار آية نزلت من السماء ، مع كون (قادة) من الصعفاء ، وقد تحدث عن (ابن عباس) مع أنه لم يلتقط به ، ونسب له أقوالاً شاعت بين الناس ، مع أنه لم يره ولم يسمع منه ، فهل يؤخذ بعد بقوله على أنه حجة ، أو كانه آية نزلت من السماء ! وهل قبل خبره عن

١ اللسان (١/٥٨٨)، (عرب) .

٢ سورة إبراهيم ، الآية ٤ ، تفسير الطبرسي (١٢١/١٣) ، تفسير الالوسي (١٦٦/١٣) .

٣ تفسير ابن كثير (٢/٥٢٣) ، (سورة إبراهيم) .

٤ اللسان (١/٥٨٨)، (عرب) .

٥ اللسان (١/٥٨٨)، (عرب) .

اجتباء قريش أفضل لغات العرب ، على انه حجة يستدل بها على أدوار النهذيب وأنت لو رجعت الى خبر : « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالتهم ان قريشاً أفسح العرب وأصفاهم لغة . وذلك ان الله - جل ثناؤه - اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدًا صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرم وجيزان بيته الحرام وولاته . فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يقدون الى مكة للحج ، وينتحا كمون الى قريش في أمورهم . وكانت قريش تعلمهم مذاسكهم وتحكم بينهم .. الخ »<sup>١</sup> ، تجده متقولاً فقلًا حرفيًا في كل موضع تعرض الى أفسح العرب ، أو العربية الفصحى ، أو اللغة التي نزل بها القرآن ، بسند أحياناً وبغير سند أحياناً أخرى ، حتى ظهر وكأنه خبر متواتر ، واجماع لم يخرج عليه عالم من العلماء ، فأخذ به المحدثون ، وقالوا قوله المذكور ، ولكنك لو تبعت الخبر ، وعملت رأيك في حرافية نصه في كل الموارد ، ثم وقفت على آخر مورد قديم ذكره ، توئ انه خبر آحاد ، ورواية واحدة ليس غير ، اكتب هذا الاجماع بسبب وروده بالحرف في تلك المؤلفات ، فهو لا يفيد قطعاً ، وإنما حكمه حكم الأخبار الآحاد . ثم ان ما ذكروه من صفاء لهجة قريش ومن فصاحتها ، يعارضه قولهم بوجود (غمضة) في لفتها . فقد قالوا : الغمضة : « الكلام الذي لا يبين ، ومنه صفة قريش فيهم غمضة »<sup>٢</sup> ، كما يعارضه قولهم بوجود التضبع في لغة قريش ، فلما تحدث (تعلب) عن معایب اللغة ، قال : « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنونة تميم ، وتلتلة براء ، وكسكسة ربعة ، وكسكشة هوازن ، وتضبع قريش ، وعجرفية ضبة »<sup>٣</sup> ، مما يدل على انه قصد بـ (تضبع قريش) ، عيباً من العيوب في الفصاحة . وفي وصف لغة قريش بالتضبع مناقضة لابناء كلامه بـ « ارتفعت قريش في الفصاحة عن .. » ، كما لا يخفى . وعلماء العربية والأخبار ينافقون أنفسهم بأنفسهم ، وهو شيء مأثور عنهم ، لأنهم كانوا يعبدون الى الرواية والاملاء عن ظهر قلب في الغالب ، لا عن كتاب مسلوّن وصحف مكتوبة ، فلا غرابة إن ظهر هذا التباين في كلامه في هذا المكان .

١ الصاحبي (٥٢) .  
 ٢ تاج المرؤس (٦/٩) ، (غم) .  
 ٣ المزهر (٢١١/١) .

ثم ان علماء العربية ، حين يبحثون في النحو أو في الصرف ، أو في مفردات اللغة عن الغريب والشاذ ، يذكرون فيما يذكرون لغة قريش ، ولغة أهل الحجاز ، فيقولون : « ... لغة قريش »<sup>١</sup> ، و « بلغة قريش »<sup>٢</sup> : كما يقولون : « لغة تميم » ، ولغة طيء ، ولغة عمانية ، ولغة أسد ، وغير ذلك . ولكنهم يقولون أيضاً : « يقول أهل الحجاز : قترَ يقتَرِ ، ولغة فيها أخرى يقتُرُ بضم التاء ، وهي أقل اللغات »<sup>٣</sup> ، وجاء : « وفي أمالى القالى : لغة الحجاز ذاتى البقل يذأى ، وأهل نجد يقولون : ذوى يذوى »<sup>٤</sup> إلى غير ذلك ، وفي ذكرهم لغة قريش ولغة أهل الحجاز ، مع اللغات الأخرى في مثل هذه الموضع دلالة بيته على ان العربية الفصحى ليست عربية قريش ، وإنما عربية أخرى ، هي العربية التي نص عليها في القرآن ، أي العربية التي نزل بها الوحي ، وإلا كان من السخف ذكر لغة قريش ، حين الإشارة إلى الغريب والشاذ وموضع الاختلاف .

وأما استشهادهم بحديث : « أنا أفصح العرب ، بيد اني من قريش » ، أو « أنا أفصح العرب ، بيد اني من قريش ، واني نشأت فيبني سعد » ، أو « أنا أفصح من نطق بالضاد ، بيد اني من قريش »<sup>٥</sup> ، لإثبات أن قريشاً كانوا أفصح العرب ، بل أصل الفصاحة ، فالحديث من الأحاديث الغربية الضعيفة ، رواه أصحاب الغريب ، كما نص على ذلك العلامة<sup>٦</sup> ، فهو لا يفيد حكماً علمياً لضعفه هذا ، ولا يصلح أن يكون أساساً لاستشهاد . وقد يكون من موضوعات المصدمة العدنانية التقطيعية، وقد يكون من الأحاديث التي رويت من باب الاشادة بقريش لكونهم قوم الرسول ، وبالإشارة بذكرهم وتعظيمهم في كل شيء وجعل لسانهم أفصح الألسنة خدمة في رأيهم للإسلام ولرسول ول القرآن الكريم . وليس هذا بشيء غريب ، فقد عهدنا أهل الأخبار يروون شرعاً ونثراً على ألسنة التابعة والأقوام الماضية بل والجن والكهان في الحث على الإيمان بالرسول ، قبل ميلاد

١ تاج العروس (١٧٤/٩) ، (حزن) ، المزهر (٢١٥/١) .

٢ المزهر (٢١٥/١ وما بعدها) .

٣ المزهر (٢١٥/١) .

٤ المزهر (٢٠٩/١ وما بعدها) ، مجالس ثعلب (١١) ، (عبدالسلام محمد هارون) ،

وورد « ميداني » ، (من أجل اني) ، أنا أفصح العرب ، تربيت في أخوالى بنى

سعد ، بيد اني من قريش ) .

٥ المزهر (٢٠٩/١ وما بعدها) .

الرسول بزمن ، وقبل ظهور الاسلام . وهو مقبول عندهم ، ودليل ذلك تسطيره في كتبهم وروایتهم له .

ولو تموزنا وقبلنا بالحديث ، واعتبرناه حديثاً صحيحاً ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نفهم منه ما فهموه هم من أنه عني أن قريشاً أفصح العرب ، وأنه صار أفصح العرب ، من أجل أنه من قويش ، لأن معنى (بَيْدٌ) على تفسير علماء العربية هو : (غير) و (على) ، والأول أعلى . « يقال رجل كثير المال ، ييد انه بخيل . معناه غير انه بخيل »<sup>١</sup> ، ولو أخذنا بالتفسيرين المذكورين قلنا يجب أن يكون معنى الحديث على هذا التحويل : « أنا أفصح العرب ، غير اني من قريش ، واني نشأت فيبني سعد » ، أو « أنا أفصح العرب ، على اني من قريش ، واني نشأت فيبني سعد » ، ومعناه بعبارة بسطة أنا أفصح العرب ، وان كنت من قوم منهم ، هم قريش ، لهم لسانهم ، وقد نشأت فيبني سعد . وقريش كما نعلم بعض العرب ، لا كل العرب . وليس في هذا المعني أية دلالة على تخصيص قريش بالفصاحة ، وعلى ان لسانها أفصح الألسنة . وكل ما فيه إشادة بفصاحة الرسول وحده ، وإفاده بأنه أفصح العرب ، فلا أحد أفصح وأنطق منه ، فهو حديث يفيد التخصيص لا التعيم ، وهو خاص بفصاحة الرسول . وهو لذلك لا يمكن أن يكون حجة على تفضيل لسان قريش على الألسنة الأخرى ، ولأجل تحويله الى حجة فسروا لفظة (بيد) تفسيراً جعل الفصاحة للرسول ولقومه فقالوا : « ويأتي بيد بمعنى : من أجل . ذكره ابن هشام »<sup>٢</sup> ، فصار معنى الحديث : « أنا أفصح العرب ، من أجل اني من قريش ، واني نشأت فيبني سعد بن بكر » . فالرسول وفق تفسيرهم هنا ، أفصح العرب من أجل انه من قريش ، ففصاحتهم مستمدۃ منهم ومن (بني سعد بن بكر) ، وصارت قريش في نظرهم أفصح العرب لساناً ، وأصفاهم لغة . مع انهم يذكرون فيما يذكرون عن كلام الرسول ، ان (عمر بن الخطاب) قال للرسول يوماً : « يا رسول الله ما لك أفصحتنا ولم تخرج من ظهورنا .. »<sup>٣</sup> ، وان وجلاً آخر سأله بقوله : « يا رسول الله ما أفصحتك ! فارأينا الذي هو أعراب منك .

١ تاج العروس (٣٠٨/٢) ، (باد) .

٢ تاج العروس (٣٠٨/٢) ، (باد) .

٣ المزهر (٢٠٩/١) .

قال : حق لي ، فإنما أنزل القرآن عليًّا بلسان عربي مبين . وقال الخطابي : اعلم ان الله لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه ، ونصبه منصب البيان لدينه ، اختار له من اللغات أقربها ، ومن الألسن أفصحها وألينها ، ثم أمره بجواب الكلم . قال : ومن فصاحته أنه تكلم بالفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها ، كقوله : مات حتف أنهه ، وهي الوطيس ... الخ<sup>١</sup> . وفي حديث (عمر) إن صبح : « ولم تخترج من بين أظهرنا<sup>٢</sup> صراحة بتعجب عمر من هذه الفصاحة التي كانت للرسول مع أنه لم يخرج من بين أظهرهم ، أي من مكة ، ولو كان لسان قريش أفصح الألسنة لما قال عمر للرسول قوله المذكور ، الذي يدل على أن الفصاحة في خارج قريش ، وعند الأعراب . وفي جواب الرسول على الرجل من قوله : « حق لي ، فإنما أنزل القرآن عليًّا بلسان عربي مبين »<sup>٣</sup> ، إن صبح هذا الحديث – تفبيداً لقول القائلين بتزوله بلغة قريش ، ولو كان قد نزل بلغتهم لقال : « بلسان قريش مبين » ولم يقل أحد من العلماء إن اللسان العربي ، هو لسان قريش ، بل نجدتهم يقولون دائماً : لسان قريش ، ولغة قريش ، ونزل بلسان قريش ، ويدركون هذا اللسان مع الألسنة الأخرى ، مثل لسان تميم ، وهذيل ، وبني سعد بن يكر .

وأما ما قالوه من أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول ، لم تجد صعوبة في التفاهم معه، وإن الرسول حين أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليعظهم ويعلّمهم ما وجد صعوبة في التفاهم معهم ، وأنهم لو لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى ، لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً ، وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعرّيف واسعة في الجنوب حدثت قبيل الإسلام<sup>٤</sup> ، فيعارضه ما ذكروه من أنه « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ونبائهم بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتناقض الدلالات في المعاني اللغوية » ، على حين أن أصحابه رضوان الله عليهم ومن يقد عليه من

١ المزهر (٢٠٩/١) .

٢ المزهر (٣٥/١) .

٣ المزهر (٣٥/١) .

٤ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٢ وما بعدها) .

وفود العرب الذين لا يوجه إليهم الخطاب ، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة ، حتى قال له علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، وسمعه يخاطب وفداً بيـنـهـمـ : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا تفهم أكثره ! فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه عما يجهلون معناه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الاختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه <sup>١</sup> . وفي هذا الخبر – إن صحيـ - دلالة على الضـدـ ، دلالة على أن العرب كانتـ على سجيـتها ولسانـها في كلامـها ، وأنـها لمـ تـكنـ تـنـطقـ بلـسانـ قـريـشـ بلـ بـالـسـتـهـاـ ، وـلـاـ مـاـ تـعـجـبـ عـلـيـهـ وـغـيرـهـ منـ كـيـفـيـةـ تـفـاهـمـ الرـسـولـ معـ القـبـائـلـ وـعـدـمـ تـمـكـنـهـمـ هـمـ مـنـ فـهـمـ كـلـامـهـ ، معـ أـنـهـ وـاـيـاهـمـ مـنـ أـبـ وـاحـدـ ، أـيـ مـنـ قـرـيـشـ . ثـمـ مـنـ أـكـدـ لـنـاـ أـنـ مـعاـذـ بـنـ جـبـلـ ، وـهـوـ مـنـ الـأـنـصـارـ لـمـ يـجـدـ صـعـوبـةـ فـيـ تـفـاهـمـهـ مـعـ أـهـلـ الـيـمـنـ ، وـاـنـ وـفـودـ الـيـمـنـ لـمـ يـجـدـ صـعـوبـةـ فـيـ تـفـاهـمـهـ مـعـ الرـسـولـ ، وـمـنـ أـيـنـ جـاءـ هـذـاـ التـاكـيدـ ؟ـ وـالـنـيـ تـعـلـمـهـ أـنـ الـمـوـارـدـ لـمـ تـتـحـدـثـ عـنـ ذـلـكـ ، بـلـ الـذـيـ رـأـيـاهـ هـوـ الـعـكـسـ ، وـهـوـ مـاـ ذـكـرـتـهـ فـيـ خـبـرـ عـلـيـهـ مـعـ النـبـيـ . أـمـاـ لـوـ أـخـذـنـاـ بـمـاـ نـجـدـهـ فـيـ الـمـوـارـدـ مـنـ كـلـامـ الـوـفـودـ مـعـ الرـسـولـ وـجـوابـ الرـسـولـ عـلـىـ كـلـامـهـ ، وـكـلـهـ بـهـذـهـ الـعـرـبـيـةـ الـمـيـنـةـ ، فـقـدـ قـلـتـ مـرـارـاـ إـنـ الصـحـابـةـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ لـمـ يـكـوـنـوـ يـدـوـنـوـنـ مـخـاصـرـ جـلـسـاتـ الرـسـولـ مـعـ الـوـفـودـ ، وـلـاـ كـلـامـ الـوـفـودـ مـعـ الرـسـولـ ، بـلـ وـلـاـ كـلـامـ الرـسـولـ وـحـدـهـ ، أـيـ حـدـيـثـهـ ، وـاـنـ مـاـ تـقـرـأـهـ مـنـ نـصـوصـ لـاـ يـعـثـلـ الـأـصـلـ ، وـرـبـعـاـ مـثـلـ الـمـعـنـىـ ، وـقـدـ يـكـوـنـ لـاـ هـذـاـ وـلـاـ ذـلـكـ ، وـاـنـماـ روـاـيـاتـ مـوـضـوعـةـ ، قـدـ يـحـتـمـلـ أـنـ يـكـوـنـ مـعـ الـوـفـودـ أـنـاسـ يـحـسـنـونـ الـتـكـلـمـ بـالـعـرـبـيـةـ الـمـيـنـةـ ، وـاـنـ بـيـنـ أـصـحـابـ النـبـيـ مـنـ كـانـ مـنـ الـعـرـبـيـةـ الـجـنـوـيـةـ وـمـنـ الـقـبـائـلـ الـتـيـ كـانـتـ تـكـلـمـ بـلـهـجـاتـ مـتـبـيـاتـ ، فـكـانـواـ يـقـرـمـونـ لـهـ بـلـورـ التـفـاهـمـ وـالـتـقـرـيبـ بـيـنـ كـلـامـ الرـسـولـ وـكـلـامـ الـوـفـودـ .

وـأـمـاـ مـاـ زـعـمـهـ مـنـ دـورـ (ـعـكـاظـ)ـ فـيـ تـهـذـيـبـ الـلـغـةـ ، وـأـثـرـ قـرـيـشـ فـيـهـ ، فـلـئـنـ كـانـ لـعـكـاظـ أـثـرـ فـيـ تـبـارـيـ الـعـربـ فـيـ النـثـرـ وـفـيـ الشـعـرـ ، فـإـنـكـ لـاـ تـسـتـطـعـ إـرـجـاعـ هـذـاـ الـأـثـرـ إـلـىـ عـلـمـ وـفـعـلـ جـمـاعـةـ مـعـيـنةـ ، وـلـيـسـ فـيـ الـذـيـ تـحـدـثـ بـهـ الرـوـاـةـ مـنـ أـخـبـارـ عـنـ (ـعـكـاظـ)ـ مـاـ يـحـصـرـ فـعـلـ هـذـاـ التـهـذـيـبـ بـقـرـيـشـ ، وـمـاـ قـرـيـشـ لـاـ كـفـرـهـمـ مـنـ

<sup>١</sup> الـرافـعـيـ ، تـارـيـخـ آـدـابـ الـعـربـ (ـ١/٣٣٥ـ)ـ ، (ـرـوـاـيـةـ الـلـغـةـ)ـ .

قصد هذا المكان من حيث المجيء للبيع والشراء والإتجار . لم تكن الحكومة لهم بعكاظ ، وإنما كانت لتميم ، وتميم من أشهر الناس في فنون الخطابة والكلام . ودليل ذلك ، ما يورده أهل الأخبار عن خطبائهم وحكمائهم من كلام ، وما ينسبونه إليهم من حكم وخطب بلية ، ثم إن هذه السوق لم تظهر إلا في أيام الرسول وقبل خمس عشرة سنة من الإسلام . وقيل إنها اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وتركت عام خرجت الحرورة مكة مع (المختار بن عوف) سنة تسع وعشرين ومائة<sup>١</sup> . وقد ذكر أهل الأخبار أن (عكاظ) سوق « كانت تجتمع فيها قبائل العرب فينما كانوا ينظرون ، أي يتغاضرون ويتناشدون مما أحذثوا من الشعر ثم يتفرقون » ، وأنهم كانوا « يقيمون شهراً يتبايعون ويتغاضرون ويتناشدون شرعاً ، فلما جاء الإسلام هدم ذلك »<sup>٢</sup> ، وذكروا أن الشاعر النابغة الظياني كان يأنسها فينشد الناس من شعره ، « وكان النابغة تضرب له قبة حراء من أدم بسوق عكاظ ، وتأنبه الشعرا فتعرض عليه أشعارها ، فأنسدته الأعشى أبو بصير ، ثم أنسد حسان بن ثابت ، ثم الشعرا ، ثم جاءت النساء السلمية<sup>٣</sup> فأنسدته »<sup>٤</sup> ، وذكروا أن في شعر (أميمة بن خلف) الخزاعي ، اشارة الى مكانة هذه السوق عند الشعراء ، حيث يقول :

ألا من مبلغ حسان عنِي مغلولة تدب انِّي عكاظ

فأجابه (حسان) في أبيات تشير أيضاً الى هذه الأهمية ، وذلك بقوله :

أثاني عن أمية زور قول وما هو في الغيب بذى حفاظ  
سأشير ان بقى لكم كلاماً ينشر في المجنى مع عكاظ  
قوافي كالسلاح إذا استمرت من الصم المعجرفة الغلاظ<sup>٥</sup>

فلم يشر حسان الى أثر قريش في هذه السوق ، ولم يشر أمية الى قريش كذلك ، والذي يفهم من الشعرين أن ذكر عكاظ فيها ، هو بسبب تجمع الناس في هذه

١ الخزانة (٥٠٣/٢) وما بعدها ) ، ( بولاقي ) .

٢ تاج المرروس (٢٥٤/٥) ، ( عكاظ ) ، اللسان (٤٤٨/٧) ، ( عكاظ ) .

٣ الشعر والشعراء (١/٢٦١) ، ( خنساء بنت عمرو ) .

٤ تاج المرروس (٢٥٤/٥) ، ( عكاظ ) .

وأما ما ذكروه من انشاد حسان للنابغة شعره :

لنا الحفّات الغر بلمعن بالضاحي وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ومن رد النابغة عليه بقوله : أنت شاعر ، ولكنك أقتلت جفناتك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر من ولدك . فحكاية شك فيها العلماء ، وإن كان هذا الشاهد من شواهد سيبويه . لأن الاعتراض لا يدور على الشاهد ، وإنما على القصة . وقد ذهب بعض العلماء إلى أنها خبر مجهول لا أصل له . وهناك قوم أنكروا هذا البيت أصلاً ، ومنهم من روى ملاحظة النابغة المزعومة بشكل آخر<sup>٢</sup> ، وفي الشكلين ما يوحى إلى أن القصة مفتعلة ، وضعها الرواة لإيجاد مخرج للبيت . ولم أجد في المراجع المعتبرة القديمة نصاً ، يفيد أن الأمر كان لقريش في الحكم بين الشعراء أو الخطباء في سوق عكاظ . والنابغة الذي جعلوه حكماً يحكم في أمر الشعر لم يكن من قريش ، بل هو من (بني ذبيان) ، وهو الحكم الوحيد الذي نص أهل الأخبار على اسمه . وزعموا أنه كانت له قبة حمراء من أدم ، وكان ينشد شعره ، وإليه تتحاكم الشعراء في أيهم أشعر ، وكل الشعراء الذين ذكرورهم هم : الأعشى ، والحساء ، وحسان في قصة منمقة طريفة<sup>٣</sup> . ولم أغير حتى الآن على اسم حاكم آخر ، ألت إليه حكومة الشعر في عكاظ ، لا من قريش ولا من غير قريش . فأين إذن موقع قريش في هذه السوق من الإعراب .

تاج العروس (١٦٤/٩)، (جن).

خزانة (٣٠/٤ وما بعدها) .

٣ المزهر (١/٨٩)

وأما ما زعمه بعض أهل الأخبار من أن العرب في الجاهلية كان يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فلا يُعبأ به حتى يأتي مكة فيعرضه على قريش ، فبيان استحسنه روى وكان فخراً لقائله ، وإن لم يستحسن طرحت وذهب فيها ذهب ؛ وما روي عن ( أبي عمرو بن العلاء ) من قوله : كانت العرب تجتمع في كل عام بمكة ، وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش <sup>١</sup> . فروايات من نوع الروايات التي لا تتمكن من الوقوف على أرجلها ، ولم نجد في كتب التاريخ والأخبار ما يؤيدتها ، وضفت لتبرير القصص الذي نسجوا عن أسطورة تعليق المعلقات . ثم إننا لم نسمع بخبر الشعر الذي استحسنوه وأجازوه ، غير شعر المعلقات ، ولو كان ما نسب إلى ( أبي عمرو بن العلاء ) أو غيره حفظاً ، من استحسان شعر وطرح شعر ، لما سكت رواة الشعر من الإشارة إلى الشعر الذي استحسن أهل مكة فنال بذلك شرف الاختيار والسيادة والرفة ، ولما غضوا النظر غضاً تماماً عن الاشارة إلى الشعر الذي لم يستحسنوه فسقط وذل ، وفي ذكر الشعر الفاشل أهمية كبيرة في نظر الشعراء الحصوم ، وفي نظر القبائل التي كانت تبحث وتتجسس على المفهومات والسقطات لاتخاذها مغزاً تناول بها القبائل بعضها بعضاً ! ثم كيف سكتت قريش عن هذا الشرف الذي كان لها قبل الاسلام ، وقد رروا أنها نظرت فإذا حظها في الشعر أيام الجاهلية قليلاً ، فاستكثرت منه في الاسلام ، وأنها أضافت كثيراً إلى شعر ( حسان ) للإساءة إليه ، ولو كان هذا الشرف المزعوم ، لما سكتوا عنه ، ولما سكت من تبسط في تاريخ مكة ، أو كتب في السيرة عن الاشارة إليه ، لما فيه من أهمية كبيرة بالنسبة للتاريخ ، ثم إننا لا نجد في القرآن الكريم شيئاً يشير إلى ذلك ، مع تعرضه للشعراء ، كما لا نجد في كتب الحديث أي شيء يدل على وجوده ، مع أنها تعرضت للشعر ، ولسياع الرسول له ، وقد ذكرت أنه كان يسأل الصحابة أن ينشدوا شعر الشعراء له ، إلى غير ذلك مما هو مدون في بطون هذه الكتب .

وأما ما زعموه من أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علامة بن عبدة التميمي ، فأنشدهم قصيده : هل ما علمت وما استودعت مكتوم ، فقالوا :

هذا سبط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل ، فأنشدهم قصيده : طحا قلب في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سبطا الدهر <sup>١</sup> . فخبر آحاد ، وان تواتر في الكتب ، لم يروه (ابن سلام) ولا (ابن قتيبة) ، وهو من نوع خبرتعليق المعلقات من الموضوعات التي أولدتها أهل الأخبار .

وفي الجدل الذي وقع بين علماء التحوى وغيرهم في جواز أو عدم جواز الاحتجاج بالشعر على غريب القرآن ومشكله ، دلالة بينة على اجماع الطرفين على ان كتاب الله انا نزل بلسان عربي مبين ، ولم يتزل بلسان قريش ، الذي هو حرف من اللسان العربي . فقد قال المنكرون للاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر ، إن معنى ذلك جعل الشعر أصلاً للقرآن ، مع ان الشعر مذموم في القرآن والحديث ، فرد عليهم القائلون به بقولهم : « ليس الأمر كما تزعمون من انا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن ، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال : إنا جعلناه قرآنًا عربياً <sup>٢</sup> ، وقال : بلسان عربي مبين <sup>٣</sup> .

وقال ابن عباس : «الشعر ديوان العرب ؛ فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه <sup>٤</sup> .»

ولو كان القرآن قد نزل بلسان قريش ، لما احتاج الناس الى الشعر للاستشهاد به على فهم المشكّل والغريب ، وكان عليهم الرجوع الى شعر قريش ونشرهم للاستشهاد به في توضيح ما فيه من مشكّل وغريب ، لا الى شعر العرب وكلامهم من غير قريش ، ثم إن في قولهم بوجود مشكّل وغريب فيه ، وحرروف خفي أمر فهمها على العلماء ، هو دليل في حد ذاته على انه لم ينزل بلسان قريش ، وإنما بلسان عربي مبين ، فلو كان قد نزل بلسانهم لما خفي أمره على رجالهم ، من مثل أبي بكر وعمر وغيرهما من رجال قريش .

ونجد في المسائل المنسوبة الى (نافع بن الأزرق) ، التي سألهما على ما يذكر الرواة (ابن عباس) في تفسير القرآن بالشعر ، دلالة على أنه كان يرى أن

١ الاغاني (١١٢/٢١) .  
٢ الزخرف ، الآية ٢ .  
٣ النحل ، الآية ١٠٣ .  
٤ السيوطي ، الاتقان (٥٥/٢) .

القرآن إنما نزل بلسان عربي ، لا بلسان قريش، فقد روي أن (نافع بن الأزرق) قال لـ (نجدة بن عويم) : « قم بنا إلى هذا الذي يجري على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما إليه فقالا : إنما نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ؟ وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن فتفسرها لنا ؟ وتأتينا بمصادقة من سلاني عما بدا لكما ، فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : عن اليمين وعن الشهاد عزباً<sup>١</sup> ، قال : العزوون : الحلق الرفاق ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ؛ أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

ف جاءوا يهرون إليه حتى يكونوا حول منبره عزيزاً<sup>٢</sup>

وهي أسللة مهمة اقتربن بجواب كل سؤال منها بشعر ، من شعر شعراء الجاهلية والمخضرمين مثل : (عبيد بن الأبرص) ، و (عنترة) ، و (أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب) ، و (لبيد) ، و (طرفة بن العبد) ، و (مالك ابن عوف) ، و (عبدالله بن الزبيري) ، و (حسان بن ثابت) ، و (عديّ ابن زيد) العبادي ، و (أميمة بن أبي الصلت) ، و (أبو ذؤيب) ، و (أبو محجن الثقفي) ، و (امرأة القيس) ، و (الأعشى) ، و (التابعة) ، و (جزة بن عبد المطلب) ، و (زيد بن عمرو) ، و (عبدالله بن رواحة) ، و (زهير بن أبي سلمى) ، و (عمرو بن كلثوم) ، و (عبيد بن الأبرص) ، و (كعب بن مالك) ، و (أبيححة الانصارى) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (مالك بن كنانة) ، و (أبو طالب) و (مهلله) ، و (الخطيبة) ، و (أوس بن حجر) ، وشعر آخر لشعراء لم يشر إلى اسمائهم ، وإنما كان يقول : « أما سمعت قول الشاعر » ، وقد أمكن تشخيص بعضه ، ولم يهتم إلى قائل البعض الآخر ، كما استشهد بشعر نسبة إلى التباغة<sup>٣</sup> . وهي أجوبة مهمة ، ان صح بالطبع أنها صحيحة ، وأنها من أسللة (نافع) وأجوبة (ابن عباس) ، تقيد في تشخيص ذلك الشعر : وفي تثبيته ، وإن كان من الصعب علينا التصديق

١- المearaj ، الآية ٣٧ .

٢- السيوطي ، الاتقان (٥٥/٢ وما بعدها) .

٣- السيوطي ، الاتقان (٩٠ - ٥٦/٢) .

بصحة هذه الأسئلة والأجوبة ، التي أرى أنها وضعت في أيام العباسين ، ويمكن بالطبع التوصل إلى تثبيت زمان وضعها ، بالبحث عن أقدم مورد وردت إشارة فيه إليها ، فحينئذ يمكن تعين الزمان الذي وضعت فيه بوجه تقريري .

وفي تفسير الغريب والمشكل من القرآن بالشعر ، وقول علماء التفسير إن اللفظة من ألفاظ قبائل أخرى غير قرشية ، وفي استفهام رجال قريش ، وفي جملتهم رجال كانوا من أقرب الناس إلى الرسول ، مثل ( أبي بكر ) و ( عمر ) عن ألفاظ وردت في القرآن لم يعرفوا معناها ، مثل ( أبا )<sup>١</sup> ، وفي رجوع ( ابن عباس ) إلى الأعراب ، يسألهم عن ألفاظ وردت في القرآن أشكك عليهم فهم معناها ، وفي اعتقاده في تفسيره للقرآن على الشعر ، أقول في كل هذا وأمثاله دلالة واضحة على أن القرآن لم ينزل بلسان قريش ، وإنما نزل بلسان العرب ، ولو كان قد نزل بلغة قريش ، كان استشهاد العلماء بالشعر وباللغات العربية في تفسير القرآن شيئاً شيئاً زائداً ، وكان عليهم تفسيره وتبيين معناه وتوضيحه بالاستشهاد بلغة قريش وحدها ، لا بالشعر الجاهلي الذي هو شعر العرب ، وبكلام العرب .

ولو رجعنا إلى كتب التفسير والسير ، نجد أنها قد فسرت الغامض من ألفاظ القرآن بالشعر . فقد استعان قدماء المفسرين في تفسير لفظة ( سجي ) بالشعر ، فأورد ( الطبرى ) مثلاً بيتاً من شعر ( أعشى بنى ثعلبة ) في تفسير معناها ، هو قوله :

فاذنبنا إن جاش بحر ابن عتكم وبحرك ساج ما يوارى الدعاصما

وبقول أحد الرجال :

يا حبذا القمراء والليل الساج وطرق مثل ملاء الساج<sup>٢</sup>

واستعان ( ابن هشام ) ببيت شعر لأمية بن الصلت ، في تفسيرها ، وهو قوله :

إذ أتي موهنا وقد نام صبحي وسجا الليل بالظلمان البئم<sup>٣</sup>

١ « وفاكهة وأبا » سورة عبس ، الآية ٣١ ، الاتقان ( ٤/٢ ) .

٢ تفسير الطبرى ( ١٤٥/٣٠ ) .

٣ سيرة ( ١٦١/١ ) ، ( حاشية على الروض ) .

وَفَسْرَ ( الطَّبَرِي ) ( عَائِلَا ) بِقُولِ الشَّاعِرِ :

فَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَنْ غَنَاهُ وَمَا يَدْرِي الْغَنِيُّ مَنْ يَعْيَلُ<sup>١</sup>

ونجد في تفسير الطبرى ، وفي كتب التفسير الأخرى أمثلة لا تعد ولا تحصى من هذا القبيل ، فسر فيها العلماء غريب الفاظ القرآن وما صعب فهمه من الألفاظ بالشعر ، حتى لا تكاد تقرأً صفحة أو جملة صفحات من كتب التفسير ، إلا وتجد فيها شعراً ، استشهد به في تفسير كلمة أشكل فهمها على العلماء ، فاستعنوا بالشعر لتوضيح معناها<sup>٢</sup> .

ولم يقف الاستشهاد بالشعر الجاهلي على الناحية المذكورة وحدها ، بل استعين به في تفسير وتعليق أمور أخرى وردت في القرآن أشكل فهمها على العلماء ، من ذلك أوجه العربية وقواعد النحو ، فلما استقرى علماء العربية الشعر الجاهلي ولغات العرب ، واستنبطوا منها القواعد ، وجدوا أن بعضها لا ينافي مع ما جاء في كتاب الله ، فعمدوا إلى التأويل والبحث عن مخرج يوجهون ما جاء فيه وفق قواعد النحو التي قرروها ، ولا سيما الموضع التي اختلف علماء النحو فيها ، واجروا فيها بأراء مختلفة ، في التوفيق بين القراءات في القرآن مثلاً ، أو في الأمور المضلة منه بالشعر ، فقد اختلف قراء مكة ، وقراء البصرة ، والكونفة والشام في الآية : « فَلَا افْتَحْمِ الْعَقْبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ . فَلَكَ رَقْبَةٌ ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمِ ذِي مَسْعَةٍ »<sup>٣</sup> . وأورد ( الطبرى ) آراء علماء اللغة والنحو ، ثم استشهد بقول طرفة بن العبد :

أَلَا إِنَّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضَرَ الْوَغْنِيَّ وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلَدِي؟<sup>٤</sup>

وأورد ( الطبرى ) بيّن من الشعر للتابعة في تأويل الآية : « وَمَا لَأْدَ عَنْهُ مِنْ نِعْمَةٍ تَبْغِي إِلَّا ابْتَغَاءَ وَجْهِ رَبِّ الْأَعْلَى ، وَلِسُوفَ تَرْضَى » ، اختلف

١ تفسير الطبرى ( ٣٠ / ١٤٩ ) .

٢ أورد « الطبرى » آراء المفسرين المختلفين في تفسير لفظة : « عضين » ، وللتوكيد على المعنى جاء بالشعر في تفسيرها ، راجع تفسيره ( ٤٥ / ١٤ ) ، ( بولاق ) .

٣ سورة البلد ، رقم ٩٠ ، الآية ١١ وما بعدها .

٤ تفسير الطبرى ( ٣٠ / ١٣٠ ) ، بولاق .

في تأويلها علماء النحو<sup>١</sup> . وأورد بيتاً شاهداً على جواز وضع ( افضل ) في موضع ( فغيل ) الوارد في تفسير كلمة واردة في سورة « والليل اذا يغشى »<sup>٢</sup> . وهناك مواضع كثيرة اختلف علماء النحو في تأويلها بالنسبة لمذاهبهم في أوجه التحريف ، فاستشهد كل علم منهم بشاهد من الشعر ، لتأييد وأيه في صحة ما ذهب اليه على زعمه ، وقلما استثنى المفسرون والعلماء بشعر من شعراء قريش ، أو بكلام من كلامهم ، في تفسير القرآن ، فلو كان كتاب الله قد نزل بلغتهم لكان من اللازم ، ايجاد مخارجه بالاستشهاد بلغة قريش ، لا بالشعر الجاهلي وبكلام القبائل الأخرى .

وأنا لا ابتعد عن الصواب ، إذا ما قلت إن القرآن قد ساعد في جمع الشعر الجاهلي وفي حفظه ، بسبب اضطرار العلماء على الاستعانة به ، في دراسة كتاب الله وفهمه ، وفي ثبيت قواعد اللغة التي وضعت لتمحصين العربية ، وجعلها في متناول يد من لا علم له بها ، يستعين بها على النطق بها ، وفقاً لمنطق العرب، وربما حمل ذلك البعض على انتحال الشعر للاستشهاد به في ايجاد خرج في تأويل آية أو تفسير كلمة وردت في كتاب الله .

إذن فقول من يقول ان لغة القرآن هي لغة قريش ، وإن لغة قريش هي العربية الفصحى ، وأنها لغة الأدب عند الجاهليين ، قول بعيد عن الصواب ، ولا يمكن أن يأخذ به من له أي إلمام بتاريخ الجاهلية ووقف على نصوص الجاهلين ، أخذ من روايات آحاد ، وجدت لها انتشاراً في الكتب القديمة بتقليلها بعضها عن بعض من غير نص على اسم السندي والمراجع ، فصارت وكأنها أخبار متواترة صحيحة أضاف المحدثون عليها عامل النفوذ السياسي والاقتصادي، والديني ، لإمساك فكرة القديمة ثواباً جديداً يناسب العصر الحديث ، لتأخذ شكلاماً مقبولاً . أما لو سألتني عن لغة القرآن الكريم ، فأقول إن القرآن قد ضبطها وعينها ، إذ سماها ( لساناً عربياً ) ، واللسان العربي ، هو لسان كل العرب ، لا لسان بعض منهم ، أو لسان خاصة منهم ، هم قريش ، ولو كان هذا اللسان ، هو لسان قريش لتزل النص عليه في كتاب الله .

١ والليل ، الرقم ٩٢ ، الآية ( ١٩ وما بعدها ) ، تفسير الطبرى ( ١٤٦ / ٣٠ ) ،  
٢ ( بولاق ) .  
٣ تفسير الطبرى ( ١٤٥ / ٣٠ ) .

إن قريشاً قوم من مصر في رأي علماء الأنساب ، فلسانهم على هذا لسان من ألسنة مصر . وقد ورد « عن ابن مسعود : أنه كان يُستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مصر »<sup>١</sup> ، وورد عن (الأصمي ) قوله : « جرم : فصحاء العرب . قيل : وكيف وهم اليمن ؟ فقال : بجوارهم مصر »<sup>٢</sup> . فإذا كانت الفصاحة والعربية في مصر، فحربي إذن نزول القرآن بلغة مصر ، لا بلسان قريش .

لقد تسلك علماء اللغة بقول بعضهم : « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأياتهم ومحاجتهم أن قريشاً أفسحُ العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلَّى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطبان حرمه ، وولاية بيته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ، ورقة أستتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تغيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تغيروا من تلك اللغات إلى سلطتهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفسح العرب »<sup>٣</sup> . كما تمسكوا بقولهم : « كانت قريش أجدَّد العرب انتقاداً للأفسح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبابة عما في النفس ، والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمها ، وعليهم انكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائين ، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ من حضري فقط ، ولا عن سكان البراري من كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من نعم ، ولا من جذام ، ل المجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ، وغضان ، وإياد ، ل المجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فلنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر

---

١ المزهر (٢١١/١) .  
٢ الفائق (٤٥٩/٢) .  
٣ المزهر (٢١٠/١) .

لمجاوريهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالفين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالفتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنفة وسكان المأمة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمخالفتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفون حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت أسلوبهم ، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصیرها علیماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب <sup>١</sup> . وعلة ذلك « ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل ، ولو علم ان أهل المدينة باقون على فصاحتهم ؛ ولم يعرض شيء من الفساد للفتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ، وكذا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاد عادة الفصاحة وانتشارها ، لوجب رفض لغتها ، ترك تلقى ما يرد عنها » <sup>٢</sup> .

« وقد شك بعضهم في هذا القول ، لأن قريشاً كانت تسكن مكة وما حولها وهم من أهل المدر ، وقريش تجارة ، والتجارة تفسد اللغة ، وكان هذا مما عيب على اليمن من ناحية لغتهم ، لأن رسول الله نشأ في بني سعد بن يكر بن هوازن واستعرض فيهم ، فتعلم الفصاحة منهم ، وأن كثيراً من غلبة قريش في عهد محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يُرسل إلى بني سعد لتعلم اللغة والفصاحة ، ومن أجل هذا ظنوا أن هذا الرأي موضوع لإعلاء شأن قريش في اللغة ، لأن رسول الله منهم » .

والذي يظهر لي أن سلامة اللغة من دخول الدخيل فيها أمر غير الفصاحة ، وأن سلامة اللغة كانت في بني سعد خيراً مما هي في قريش لأنهم أهل وبر ، وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالناس ، وعلى العكس من ذلك قريش فهم أهل مدر ، وكثير منهم كان يرحل إلى الشام ومصر وغيرهما ويتجه مع أهلهما ، ويسمع لغتهم ، فهم من ناحية سلامة اللغة ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم من خالط الأمم الأخرى <sup>٣</sup> .

١ المزهر (٢١١/١) وما بعدها ، (٣٤٣) .

٢ الخصائص (٤٠٥/١) .

٣ ضحي الإسلام (٢٤٧/٢) .

فأ قالوه من ان الاتصال والاختلاط بالأعاجم ، يولد الفساد في اللغة ، يتناول  
قريشاً قبل غيرهم من العرب نظراً لما كان لهم في الجاهلية من اتصال ببلاد الشام  
واليمن ، وبالعراق وبالحبشة ، ولو وجود جاليات أعمجية ، وعدد كبير من الرقيق  
بيتهم ، وما وجود المربات في لغتهم إلا حجة على تأثير لسانهم بالأعاجم وأخذهم  
منهم ، فهل يمكن أن يكون لسان قريش أدنى أصنفى لسنة العرب وأنقاها مع  
وجود هذه الأمور التي أخذناها من لسنة أهل الأخبار ؟

## الفصل الأربعون بعد المئة

### اللسان العربي

والآن فلسان من ، هو هذا اللسان العربي ، لقد علمنا انه لم يكن لسان العرب الجنوبيين ، ولا لسان قوم تمود أو اللحيانيين، أو الصفويين ، لأن نصوصهم ثبتت انه قد كان لهم لسان آخر ، مختلف عن هذا اللسان . وذكرنا انه ليس بلسان قريش ، وإنما قريش كغيرهم عرب من العرب ، فهل هو لسان العدنانيين؟ وجوابنا : كلا ، فقد علمنا ان العدنانية عصبية ظهرت في الاسلام ، وانها مضرية سميت عدنانية ، وقلنا ان النكات من الرواية وقفوا في ذكر النسب عند (عدنان) وررووا ان النبي نهى عن الانتساب الى ما بعده ، وقلنا ان اسمه لم يرد في شعر شاعر جاهلي ، خلا ما نسب الى الشاعر (العباس بن مرداس ) ، من قوله :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا بمذحج حتى طردوا كل مطردا<sup>١</sup>

وما نسب الى ليبد ، وهو من المخضرمين ، من قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والدا<sup>٢</sup>

وقلنا أشياء أخرى ثبتت ان ( العدنانية ) لم تظهر إلا في الاسلام ، وان اسم

---

١ وفي رواية بنسان ، مكان « بمذحج » ، ابن حشام ( ٦ / ١ ) ، ابن سلام ، طبقات ( ٥ )

٢ طبقات ابن سلام ( ٥ ) .

( عدنان ) لم يكن معروفاً في الجاهلية ، وربما ظهر قبيل الاسلام ، وهذا فلا يعقل أن تكون العربية ، عربية العدنانيين .

إذن ، فهل هي عربية مصر ؟ فقد ورد في الأخبار أن ( عمر بن الخطاب ) ، « لما أراد أن يكتب الامام ، أقعد له نفراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مصر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مصر »<sup>١</sup> ، وبمقدار أهل الأخبار يذكرون أنه قال : « لا يلين » في مصاحفنا هذه إلا غلام قريش ، أو غلام ثقيف »<sup>٢</sup> . وليس بين الخبرين تناقض ، لأن قريشاً من مصر ، فيمكن حمل الخبرين على أنها قصدا شيئاً واحداً ، هو أن القرآن نزل بلسان قريش ، وقريش من مصر ، ولكن مصر قبائل عديدة ، سبق أن تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، فيجب أن يكون نزول القرآن إذن بلغات هذه القبائل على هذا التفسير ، وتكون العربية الفصحى إذن عربية ( مصر ) ، أي عربية القبائل التي يرجع أهل الأخبار نسبها إلى ( مصر ) ، أو حلف مصر بتعبير علمي أصح ، وليس عربية جماعة معينة منها ، مثل قريش .

ولكن أهل الأنساب ، يجعلون لمصر أخاً هو ( ربيعة ) ، وأخوين آخرين ، هما ( إياد ) و ( أنمار ) على رأي من جعل ( أنماراً ) ابنًا من أبناء نزار ، فما هو حال لسانهم ؟ هل يعد لسانهم لسان مصر ، أم كانت لهم السنة أخرى ؟ أما النصوص الجاهلية ، فلا جواب فيها على هذا السؤال ، لأنها لا تعرف عن لسان هؤلاء الأشخاص شيئاً ، ولم يرد فيها أي شيء من أسمائهم وأسماء قبائلهم ، ثم إن هذه القبائل لم تترك لنا كتابة تستربط منها شيئاً عنهم ، إذن فنحن لا نستطيع أن نتحدث عنهم ولا عن لسانهم بأي شيء يستند إلى دليل جاهلي مكتوب . وأما الموارد الاسلامية ، فتجعل لسانهم لسان مصر ، وكيف لا يجعل لسانهم مثل لسان مصر ، وهم أخوة من أب واحد . فإذا قلنا إن لسان مصر ، هو اللسان العربي الفصحى ، وجب علينا القول بأن لسان إخوته كان مثل لسانه ، وإن إذن فاللسان العربي الفصحى ، هو لسان هذه المجموعة المكونة من ولد ( نزار ) وهي من ولد اسماعيل في النهاية على رأي أهل النسب والأخبار .

١ ابن كثير ، فضائل القرآن ( ٢٠ ) .

٢ ابن كثير ، فضائل ( ٢٠ ) ، المزهر ( ٢١١ / ١ ) .

اذن فنحن أمام مجموعتين من العربيات ، مجموعة تكون العربية الجنوبيّة ، ومجموعة تكون العربية الشهاليّة ، وهي عربية الاسماعيليين ، وذلك على مذهب أهل الأخبار .

أما أنا ، فأ Rossi هذه العربية ، عربية (ال) ، من سمة (ال) أداة التعريف التي تنفرد وتعيّز بها عن بقية المجموعات اللغوية العربية : مجموعة (ن) (ان) ، أي المجموعة العربية الجنوبيّة ، ومجموعة (هـ) (ها) ، أي المجموعة التي تعرّف الأشياء بهذه الأداة : (هـ) (ها) ، وتشمل اللحيانية ، والشمودية ، والصفوية . وكل منا استعمل (ال) أداة التعريف ، هو في نظري من الناطقين بهذه اللغة منها كان نسبة وفي أي مكان كانت اقامته ، ولذلك فالعربية الفصحى هي عربية مصر وعربية ربيعة ، وعربية لباد وعربية أغمار وعربية كلب وكندة والأزد وكل المستعملين بهذه الأداة ، حتى يظهر المستقبل نصوصاً جديدة ، قد تأتي بأداة أخرى لتكون مجموعة جديدة من المجموعات اللغوية .

نعم إن عربية (ال) لهجات ، لها خصائص وميزات ، تحدثت عن بعضها في فصل (لغات العرب) ، ولكن الفروق بينها لا تختلف عن الفروق التي تجدوها بين لهجات مجموعة (ن) ، أو بين لهجات مجموعة (هـ) ، لأنها فروق ليست كبيرة بحيث ترتفع إلى مستوى الاستقلال عن بقية اللهجات .

### العربية الشهالية والعربية الجنوبيّة :

وقد اصطلاح المستشرقون على رجع اللغات التي ظهرت في جزيرة العرب الى أصلين : أصل شمالي يقال للغات التي تعود اليه : اللغات أو اللغة العربية الشهالية ، وأصل جنوبي يقال للغات التي ترجع اليه: اللغات أو اللغة العربية الجنوبيّة<sup>١</sup> .

وهذا التقسيم التقليدي للهجات العرب إنما خططه رجال المستشرقين من النظرية العربية الإسلامية التي ترجع العرب الى أصلين : أصل عدناني ، وأصل قحطاني . ونظراً الى عثورهم على كتابات عربية جنوبية تختلف في لغتها وفي خطها عن العربية القرآنية ، رسخ في أذهانهم هذا التقسيم ، وقسموا لغات العرب الى مجموعتين لسهولة البحث حين النظر في اللغات واللهجات .

---

Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 2.

وين العريتين تباین و اختلاف ، ما في ذلك من شک . من ذلك ان الفعل في العريties الجنوبيّة وليد المصدر ، وان أداة التعريف فيها تكون في أواخر الكلم ، لا في أوائلها كما هو الحال في عربیتنا ، وان حرف ( الميم ) هو أداة التنکير في العريties الجنوبيّة ، الى فروق أخرى ، تحدث عنها في الجزء السابع من كتابي القديم ( تاريخ العرب في الاسلام ) .

وإذا كنا لا نزال في جهل عن حقيقة اسم ( عدنان ) ، الذي لم نعثر عليه حتى اليوم في نص من نصوص المستند ، فإن في وسعنا التحدث عن ( قحطان ) ، الذي سبق أن أشرت الى أن أهل الأنساب أخذوه من التوراة . فهو اسم منها قبل فيه ، فقد أخذ من مصدر قديم يعود الى ما قبل الميلاد . ثم انه أورد في النص العربي الجنوبي الذي وسم بـ ( Jamme 635 ) ، الذي دونه قائد الجيش ( ابكرب احرس بن ابل ) ، ( ابكرب احرس بن ابل ) ، او ( ابكرب احرس ) من ( آل ابل ) ( آل ابال ) ، وذلك لمناسبة عودته سالماً من حرب قادها بأمر ملكه وسيده الملك ( شعر أوتر ) ملك سباء وذري ريدان ، ابن الملك ( علهان نهفان ) ملك سباء وذري ديان . وقد شمل القتال أرضاً واسعة ، هي ( أشعاران ) ، أرض الأشعرین و ( بحراً ) ، والقبائل القاطنة حول مدينة ( نجران ) ، ثم الأحباش الذين كانوا يحاربون معهم وبوازروهم في قتالهم ضد السبئيين ، ثم سكان مدينة ( قريتم ) ( قرية ) الذين كانوا من ( كاهل ) ( كهم ) ، ثم في الصدابين اللذين وقعا مع ( ربعت ) ( ربعة ) ( ذآل ثور ) ، ( ربعة ) من ( آل ثور ) ، ملك ( كدت ) ( كندة ) وقططان ( قحطان ) ، وكذلك ضد ( أبعل ) أي سادة مدينة ( قريتم )<sup>١</sup> .

ويفهم من النص ان ( ربعت ذ الثورم ) ، هو اسم رجل ، اسمه ( ربعة ) من ( آل ثور ) . وكان كما يقول النص ملكاً على ( كندة ) و ( قحطان )<sup>٢</sup> . ويدذكر أهل الأخبار ، ان ( كندة ) اسم قبيلة وأبو حي من اليمن ، وهم من نسل ( ثور بن مرة بن زيد ) ، وقيل ( بنو مرتع بن ثور ) ، أو

١ الاسطر ٢٢ - ٢٩ من النص .

٢ السطر ٢٦ - ٢٧ من النص ، ( ربعت ذ الثورم ملك كدت وقططان ) ،

( كندة بن ثور ) ، وقيل ان ثوراً هو مرتع ، وكنتة هو أبوه ، الى غير ذلك من آراء<sup>١</sup> ، ترىك ان شيئاً من الواقع كان عند أهل الأخبار عن هذه القبيلة ، غير انهم لم يكونوا يعرفون شيئاً واضحاً عنه . وترى من هذا النص ان (آل ثور) اسم أسرة كانت تحكم قبيلي ( كدت ) ( كندة ) و ( قحطان ) ، وان رئيسها إذ ذاك هو ( ربعة ) الذي لم يرد اسم والده . وقد جعل أهل الأخبار من (آل ثور) رجلاً جعلوه أميراً لقبيلة كندة ، ثم حاروا في نسبه . ويتبين من هذا النص ان ( قحطان ) كانوا في هذا العهد تحت حكم ( ربعة ) الذي هو من (آل ثور) .

وقد جعل ( جامة ) حكم ( شعر أوتر ) الذي سبق أن تحدثت عنه بتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب<sup>٢</sup> في حوالي السنة ( ٦٥ ) قبل الميلاد<sup>٣</sup> ، وقد بنيت آراء بقية الباحثين في وقت حكمه ، فتكون بذلك قد وقفت على اسم قحطان وكندة في نص يعود عهده الى حوالي القرن الأول قبل الميلاد . وقد كانتا مثل أهل ( قرية ) وأهل ( نجران ) في حرب مع السبيعين . وهذا النص هو أقدم نص عربي جنوبي وصل فيه اسم ( قحطان ) و ( كدت ) ( كندة ) اليها حتى الآن .

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن لهجة ( قحطان ) و ( كدت ) ( كندة ) ، وذلك بسبب عدم وصول كتابات منها اليانا ، ولكننا لا نستبعد احتمال كون لغتها من مجموعة اللغات العربية الجنوبية ، لأن مواطنها كانت في العربية الجنوبية في هذا العهد ، أما بطون ( كندة ) التي نزلت ( نجد ) والتي ذهب بعضها الى العراق ، فتحزن لا ندرى إذا كانت لهجتها قد تغيرت ، فصارت عربية شمالية ، بدليل نظم ( امرىء القيس ) الكندي وبقية شعراء الكندة الشعر بهذه العربية ، أم أنها كانت تتكلم بالعربتين ، إلا أن شعراءها كانوا ينظمون الشعر بالعربية المعبودة مجازة للقبائل الشالية التي كانت تجاورها والتي احتكبت بها ، وقد تكون هذه البطون قد هاجرت من العربية الجنوبية قبل الميلاد ، فأقامت بتجد ، وتعرّبت من ثم بالعربية الشالية ، وقد تكون ( كدت ) قبيلة عربية جنوبية غير ( كندة ) ،

١ تاج العروس ( ٤٨٧/٢ ) ، ( كند ) .  
٢ ( ص ٣٦٩ وما بعدها ) .

JAMME, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis, p. 391.

بقيت في اليمن الى الاسلام ، إذ ورد اسمها في نص (أبرهة) أيضاً ، ونظراً الى التشابه فيما بين (كدت) (كدة) و (كندة) ربط النسابون بين الإثنين، وجعلوا نسب كندة (كدت). فتكون (كندة) بذلك من القبائل العربية الشمالية، و (كدت) من القبائل العربية الجنوبية ، أقول هذه الآراء على سبيل الاحتمالات لأنني من الأشخاص الذين يكرهون البت في الأمور العلمية لمجرد حدس أو ظن، ومن غير دليل علمي مقنع . والبت في مثل هذه الأمور لا يكون مقبولاً عندى إلا إذا استند على نص جاهلي ، أو بدليل معقول مقبول ، وحيث أننا لا نملكه الآن ، فأترك هذه الاحتمالات الى المستقبل عليه يتمكن من العثور على نصوص جاهلية تكشف النقاب عنها ، وتأتيينا بالجواب الواضح الصحيح .

ولكننا نجد في الرقة نفسه - وكما سبق أن ذكرت - ان هنالك لهجات عربية مثل الشمودية والصفوية ، تستعمل (الهاء) أداة تعريف بدلًا من الألف واللام في عربيتها ، فيقال (هملث) ، و (هدار) بمعنى (المملث) و (الدار) . وذلك كما في العبرانية ، إذ تستعمل الهاء فيها أداة للتعريف ، ويقوم (ذ) فيها مقام الاسم الموصول كما عند طيء في قديم الزمان ، الى خصائص أخرى يجعلها مجموعة أخرى لا هي عربية جنوبية ولا هي عربية شمالية .

كما تبين من دراسة بعض الكتابات الجاهلية ، مثل الكتابات التي عبر عليها في (القرية) وفي جبل (عييد) ، وفي شمال خشم كمدة ان لها خصائص انفرد بها عن المجموعتين ، وقد وردت فيها أسماء كثيرة لم ترد في الكتابات العربية الجنوبية وفي عربية (هـ) ، مما يجعلها أهلاً لأن تكون موضع دراسة خاصة في المستقبل ، لعلها تكون مجموعة لغوية جديدة قائمة بذاتها ، أو حلقة مفقودة بين اللغات الجاهلية المنتشرة .

ووجود مثل هذا التباين الذي اكتشف من الكتابات ، هو الذي دفعني إلى التفكير في اعادة النظر في تقسيم اللغات العربية الى مجموعتين، وعلى التفكير بتقسيمهما الى مجموعات ذات خصائص لغوية متشابهة، تستنبط بالدرجة الأولى من أداة التعريف التي هي المميز الوحيد الذي يميز بين لهجات الجاهليين .

ونلاحظ ان عربية الـ (ن) (ان) مصطلحات غير موجودة في العربية الفصيحة لكنها موجودة في العبرانية . وفيها عدد غير قليل من الكلمات المجهولة في اللغات

السامية الأخرى ، صعب على العلماء إدراكيها بسبب ذلك ، فاكتفوا باستخلاص معناها من وضعها في الجمل ، وذلك بصورة تقريرية<sup>١</sup> . كما نلاحظ أن الأسماء فيها ، تختلف عن الأسماء المعروفة عند العرب الشماليين ، وإن الأسماء الواردة في كتابات المسند المتأخرة ، تختلف بعض الاختلاف عن الأسماء الواردة في النصوص القديمة ، فقد تغلبت البساطة على الأسماء المتأخرة ، حتى صارت تشكل أسماء العرب الشماليين المألوفة عند ظهور الإسلام . وقد لاحظ (الهمداني) هذه الظاهرة، فعبر عنها بقوله : « فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل فخففتها العرب وأبدلوا فيها الحروف الذلية ، وسمعوا بها الناس مخففة بدللة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل أنه غير ذلك الاسم وهو هو<sup>٢</sup> . وخبر ما يمكن أن تفعله في نظرى لمعرفة المتكلمين بالعربية الفصحى ، هو أن تقوم بالبحث عن الخصائص التحوية والصرفية واللفظية التي تميزها عن بقية العribيات ، فإذا ضبطناها استطعنا تعين من كان يتكلم بها . ولما كنا لا نملك نصوصاً جاهلية مدوّنة بها ، صار من الصعب علينا التوصل إلى نتائج علمية ايجابية مرضية ، تحدد القبائل والأماكن التي تكلمت بها تحديداً صحيحاً مفصلاً ، غير أن المثل العربي يقول : ما لا يدرك كله لا يترك جله ، فإذا عسر علينا الحصول على نتائج كلية مقنعة ، فلا بأس من الرضا بالحصول على جزء أو بعض من نتائج قد تقدم لنا معرفة وعلماً . ونحن إذا سرنا وفق حكمه هذا المثل ، ودرستنا خصائص هذه العربية ، نجد أن من أولى ميزاتها استعمالها (الـ) أداة للتعريف ، تدخلها على أول الأسماء النكرة ، فتحيلها إلى أسماء معرفة ، بينما نجد العribيات الأخرى التي غير على نصوص جاهلية مدوّنة بها تستعمل أدوات تعريف أخرى . ولما كنا نعرف الموضع التي غير فيها على هذه النصوص ، صار في إمكاننا حصرها ، وبذلك نستطيع التكهن عن الموضع التي كان يتكلم أهلها بالعربية التي تستعمل (الـ) أداة للتعريف ، أي هذه العربية الفصحى . ولما كانت العربية الجنوبية قد استعملت الـ (نـ) (انـ) أداة للتعريف ، تلحقها في أواخر الأسماء المنكرة ، وحيث أنها لم تتمكن حتى الآن من الحصول على نص في هذه الأرضين استعمل (الـ) أداة للتعريف فاستطاعتـنا القول : إن سكانها لم يدونوا بالعربية القرآنية ،

١١ - ولفسون ، السانية (٤٦٢ وما بعدها )  
 ١٢ - الاكليل (١٣/١ )

٢ الاكليل (١٣/١) \*

بل كان تدوينهم وكلامهم بالعربية الجنوبيّة التي كانت تضم جملة لهجات . ولما كان آخر نص عُرِّف عليه مدوّنٌ بالمستند ، يعود تاريخه إلى سنة (٥٥٤) للميلاد<sup>١</sup> ، صار في إمكاننا القول بأنّ العربية الجنوبيّة كانت وبقيت لساناً للعرب الجنوبيّين إلى ظهور الإسلام .

ونظراً لعثور الباحثين على كتابات مدوّنة بالمستند ، في ( القرية ) أو ( القرية الفاو ) وفي مواضع أخرى من ( وادي الفاو ) ، وفي مواضع من ( وادي الدواسر ) ، وفي مواضع تقع جنوبي خصم العرض ، فإن في استطاعتنا القول إنّ أهل هذه الأرضين كانوا يتكلّمون بالمستند<sup>٢</sup> ، ويتكلّمون بلغات عربية جنوبيّة ، اختلفت بعض الاختلاف عن العربات الجنوبيّة المستعملة في العربية الجنوبيّة . فهي إذن من المناطق التي لم يتمكّن أهلها بالعربية القرآنيّة . ونظراً لما نجده من وجود بعض الاختلاف بين عربية هذه المنطقة وعربية العربية الجنوبيّة ، فإننا نستطيع القول بأنّها تكون مرحلة وسطيّة بين العربات الجنوبيّة والعربية القرآنيّة ، وحيث أنّ كثيراً من هذه الكتابات لم يكتب لها النشر ، ولو جود كتابات أخرى لم يتمكّن الباحثون من نقشها أو تصويرها ، فمن المحتمل في رأيي بجي<sup>٣</sup> يوم قد يُعرَّف فيه على لهجات جديدة ، قد تزيح الستار عن أسرار اللغات عند الجاهليّين ، وقد تكون مجموعات لغوية جديدة من مجموعات اللغات العربية عند أهل الجahليّة .

وقد عُرِّف في العربية الشرقيّة على كتابات جاهليّة مدوّنة بالمستند هي وإن كانت قليلة ، إلا أنها ذات أهميّة كبيرة بالنسبة للباحث في تاريخ تطور الكتابة عند العرب ، وللباحث في اللهجات العربية الجاهليّة . فقد ثبت منها أنّ أصحاب هذه الكتابات كانوا يتتكلّمون بلهجات غير بعيدة عن اللهجة العربيّة القرآنيّة ، وإن كتبوا بالمستند . ويلاحظ من النص الذي هو شاهد قبر رجل اسمه ( إيليا بن عين ابن شصر ) أنه استعمل لفظة ( ذ ) بمعنى ( من ) وتأسف لأنّ هذه النصوص القليلة قصيرة ، وفي أمور شخصية ، قد خلت من أدلة التعريف ، لذلك لا نستطيع تبيين هاجتها بصورة أكيدة<sup>٤</sup> .

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ( ٢٢/١ ) .

٢ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ( ١٩٥/١ ) وما بعدها .

٣ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ( ١٩٣/١ ) وما بعدها .

واستناداً إلى النصوص الشعوذة والمحاجنة والصفوية ، التي استعملت الـ ( هـ ) ( هـ ) أداة للتعريف ، نستطيع أن نقول إن أصحاب هذه اللهجات يكونون مجموعة من اللغات قائمة بذاتها ، تختلف عن العربية الجنوبيّة وعن العربية القرآنيّة . وهي تشارك العبرانية في استعمال الأداة المذكورة في التعريف ، ولكنها تقارب عربية ( الـ ) في استعمال المفردات .

وأما النبط ، وهم عرب من العرب الشهاليين ، فقد استعملوا أداتين للتعريف ، أداة هي حرف الألف الممدود اللاحق بآخر الاسم ، مثل ( ملكاً ) بمعنى ( الملك ) ، و ( مسجداً ) ، بمعنى ( المسجد ) ، وأداة أخرى ، هي أداة ( الـ ) التي تستعملها في عربيتنا . وفي استعمال النبط لأداتين للتعريف ، دلالة على تأثيرهم بالأراميين وبالعرب التكلميّن باللغة العربية القرآنيّة ، أو العرب المستعملين لأداة التعريف ( الـ ) بتعبير أصح . والنبطية نفسها ، لغة وسط ، جمعت بين الآرامية والعربية ، فيما يجدها تستعمل الآرامية ، إذا بها تخلط معها ألفاظاً وتراكيب عربية فصيحة . وذلك بسبب اختلاط النبط بالأراميين وتأثيرهم بثقافتهم ، واحتقارهم بالأعراب ، وكوئهم عرباً في الأصل<sup>١</sup> . ومعنى هذا أن العرب الذين كانوا يجاورون النبط ، وهم عرب البوادي كانوا من التكلميّن بأداة التعريف ( الـ ) ، سمة العربية الفصيحة .

وأما النصوص المدونة بنبطية مشوية بمصطلحات عربية ، وأهمها نص ( حرآن ) الذي يعود تاريخه إلى سنة ( ٣٢٨ ) للميلاد ، فإنه يفصح عن قوم عرب أو نبط لاستعمالهم ( الـ ) أداة للتعريف في الألفاظ : ( التج ) بمعنى ( التاج ) ، وفي ( الأسدين ) ، بمعنى (أسد) ، وفي ( الشعوب ) . وأرجح كونهم عرباً ، لاستعمالهم جملة عربية فصيحة بيته في هذا النص ، مثل : ( ملك العرب ) ، و ( مدينة شهر ) ، و ( نزل بنيه الشعوب ) ، و ( فلم يبلغ ملك مبلغه ) ، فهذه جمل عربية ، أصحابها عرب ، وإن كتبوا بالنبطية ، وقد تفصح عن عربية أهل الخبرة في ذلك الوقت ، لأن الملك المتوفى ، وهو ( امرؤ القيس ) ، هو من ملوك الخبرة ، والنص المكتوب ، هو شاهق قبره ، فمن المعقول تصور أن الكتابة كتبت بلغة أهل الخبرة في ذلك العهد<sup>٢</sup> .

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ( ٣٠٥ / ٧ وما بعدها ) .  
٢ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ( ٢٧٣ / ٧ وما بعدها ) .

ويظهر من استعمال كتابة (زبد) التي يعود عهدها الى سنة (٥١٢) للميلاد ، جملة « بسم الإله » ، أن صاحبها وان كتب بالنبطية ، غير أنه كان من النبط المستعملين لـ (ال) أداة للتعريف . وأما الكتابة المعروفة بكتابه (حران) ، فلأنها أقرب هذه النصوص الى العربية القرآنية . كما يتبيّن ذلك من نصها العربي ، وهو : أنا شرحيل بر ظلمو ، بنيت ذا المرطول ستة ٤٦٣ ، بعد مفسد خير بعم . أي : (أنا شرحيل) (شرحيل) بن ظالم ، بنيت هذا المرطول سنة ٤٦٣ ، بعد خراب (غزو) خير بعام . ويقابل تاريخ هذا النص ستة (٥٦٨) للميلاد<sup>١</sup> . وعربة هذا النص ، عربية واضحة ، ليس فيها ما يحاسِب عليه بالقياس الى عريبتنا ، إلا جملة (بر ظلمو) المكتوبة على وفق القواعد النبطية . وبلاحظ أنها استعملت (ال) أداة للتعريف ، ولاحظت قواعد التحو في جملة : « بنيت ذا المرطول ) المستعملة في عريبتنا ، مما يدل على أن صاحبها كان يراعي الإعراب في لسانه . وأنه من قوم كانوا يراعون قواعد الإعراب في كلامهم .

إذن فتحن أمام قوم عرب ، نبط ، لسانيهم العربي من مجموعة (ال) ، أي من العربية المستخدمة لـ (ال) أداة للتعريف ، منازلهم أطراف بلاد الشأم ، وشواطئ الفرات العربية . وإذا تذكّرنا أن السريان كانوا على الحيرة (جبرتا دي طبایة) ، وأنهم كانوا يطلقون لفظة (طبایة) في مرادف (عرب) ، عرفنا إذن ، أن أهلها كانوا من العرب<sup>٢</sup> ، ولما كان نص (الهارة) قد كتب بنبطية متأثرة بعربية (ال) ، نستطيع أن نقول إن عرب الحيرة كانوا من المتكلمين بهذه العربية .

يتبيّن لنا مما تقدّم ، أن العرب الذين كانوا يقطنون الحيرة والأبار ، أو عرب العراق بتعبير أصح ، ثم عرب بلاد الشأم ، وعرب البوادي ، وجزيرة العرب باستثناء المواقع التي أمدتنا بالكتابات ، كانوا يتكلّمون بعربية (ال) أي العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ودونّ بها الشعر الجاهلي . وهي عربية أساسية ، جمعت شمل لغات لهجات ، على نحو ما وجدنا في العربية الجنوبية من اشتغالها على جملة لهجات ، وما وجدناه في اللهجة العربية الشهالية الغربية ، المستعملة لـ (هـ) (هـ) أداة للتعريف .

١ جرارد على ، تاريخ العرب قبل الإسلام (٧/٢٨٠) .  
٢ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٣/١٥٦) .

فأهل نجد وبادية الشام ، وعرب العراق وبلاد الشأم والمحجاز ، كانوا هم التكلمين بهذه العربية التي تعرف النكرة بأدأة التعريف ( ال ) ، وذلك قبل الاسلام ، أما المواطن الأخرى ، فلها لهجاتها الخاصة ، وبينها لهجات تأثرت بخصائص مجموعة ( ال ) . وقد غلب الاسلام هذه العربية على اللهجات الأخرى ، فصارت الأكثريّة تكلم بها ، إلا في الموضع المنعزلة ، التي بقيت شبه مستقلة ، حيث احتفظت بعض خصائص لهجتها القديمة ، كالذى نراه اليوم في مهرة وفي الشحر وفي موضع آخرى من العربية الجنوبيّة التي تتكلم بلهجات لا تفهمها عنهم هي من بقايا اللهجات الجاهليّة .

وللوقوف على خصائص اللهجات المكونة لعربية الـ ( ن ) ( ان ) ، أرى ان من الضروري وجوب ارسال بعثات علمية الى العربية الجنوبيّة للدراسة اللهجات المحليّة ، وهي عديدة وتسجّلها على الأشرطة من أفواه التكلّمين بها ، وللدراسة قواعدها التحويّة والصرفيّة وأصول نظم الشعر عند التكلّمين بها ، وتفيدنا دراسة نظم الشعر - خاصة - عند العرب الجنوبيين الحاليين فائدة كبيرة في الوقوف على أسس نظم الشعر عندهم أيام الجاهليّة ، وعلى الفروق الكائنة بين نظمهم قبل الاسلام ، ونظم بقية العرب الجاهليّين . ولا بد أيضًا من مقارنة نظمهم في الوقت الحاضر ، بنظم الأعراب في المملكة العربيّة السعودية ، للوقوف على الفروق بين النظمهين ، وستكون هذه الفروق هادياً لنا في الوقوف على الفروق التي كانت بين النظم عند شعراً الجاهليّة في بلاد الشأم والعراق ونجد والبحرين واليامه والمحجاز والعربيّة الجنوبيّة .

وسوف تساعدنا دراسة لهجات المملكة الأردنية الهاشمية ، المملكة التي كانت تعرف بـ ( ادوم ) في التاريخ ، وكذلك لهجات أعلى المحجاز في الوقت الحاضر ، فائدة كبيرة في الوقوف على خصائص لهجة عربية الـ ( ه ) ( ها ) ، وفي استنباط قواعدها منها . فلا بد وأن تكون في اللهجة ( البلقاوية )<sup>1</sup> ، وفي اللهجات المحليّة الأخرى بقايا من تلك اللغة ، متدرجة مع عريسيّة ( ال ) التي تغلبت على لسانهم منذ الفتح الإسلامي الذي بدأ لتلك البلاد عام ( ٦٣٣ ) للميلاد<sup>2</sup> . ولا بد من دراسة

١ نسبة الى البلقاء

Andrzej Czapkiewicz, Sprachproben Aus Madaba, Polska Akademia Nauk,  
Krakow, 1960.

أصول نظمهم في لقائهم الدارجة هذه للإهتماء بها على أصول النظم عندهم قبل الإسلام ، وعلى المؤثرات التي أثرت على نظمهم في الوقت الحاضر ، مع دراسة خصائص نظمهم وما يمتاز به عن أصول النظم عند بقية العرب في الوقت الحاضر أيضاً .

ولما كنا لا نملك نصوصاً جاهلية بعربية (ال) غير ما ذكرته من النصوص النبطية المشوبة بعربية (ال) . ولما كانت هذه العربية ذات لهجات ولغات، عرفت أحياها وضيّقت في الإسلام، وبينها فروق وميزات ، كما يبيّن ذلك في الملاحظات البسيطة السطحية التي جمعها عنها علماء العربية، ولما كنا لا نملك عن هذه اللهجات غير تلك الملاحظات التي أوجزتها في فصل : لغات العرب ، فإن من اللازم ضم دراسة ما سيقوم به علماؤنا في المستقبل عن اللهجات الحالية في مختلف أنحاء جزيرة العرب إلى دراسة العلماء المتقدمين ، لتكميل احدهما الأخرى ، وستتولى منها ولا شك دراسة علمية قيمة ، تفيدنا في الإهتماء إلى معرفة خصائص اللغات العربية قبل الإسلام .

لقد توصلت من دراسة ملاحظات أولئك العلماء ، إلى أن هذه اللهجات لم تكن تختلف في كيفية النطق بالحرروف ، وفي القواعد الصرفية فقط ، لكنها كانت تختلف فيما بينها في القواعد التحوية أيضاً ، مثل حذف الياء من الفعل المعتل بها إذا أكّد بنون في لغة طيء وفرازة<sup>١</sup> ، ومثل (ذو) الطائفة التي يلزّم اعرابها بالواو في كل موضع<sup>٢</sup> ، ومثل اعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً ، في لغة بلحرث ، وختعم ، وكتانة<sup>٣</sup> ، ومثل (هَلْمُّ) في لغة أهل المحجاز التي تلزم حالة واحدة على اختلاف ما تستند إليه مفرداً أو مثنى أو جمعاً، مذكراً أو مؤناً ، وتلزم في كل ذلك الفتح ، بينما تتغير بحسب الإسناد في لغة نجد من بني تميم<sup>٤</sup> ، إلى غير ذلك من أمور تحدثت عنها في فصل : لغات العرب ، وهي لو جمعت في مكان واحد درست بعناية ودقة ، دلت على أن الفروق بين هذه اللهجات في القواعد هي أعمق بكثير مما يظن .

١ الرافعي ، تاريخ أدب العرب (١٤٢/١) .

٢ المصدر نفسه (١٤٤/١) .

٣ كذلك (١٤٥/١) .

٤ أيضاً (١٤٨/١) .

و مع وجود هذه الاختلافات والفرق ، كان يمكن التكلم بهذه اللغات الثانية المتفرعة من المجموعات اللغوية ، التفاهم فيما بينهم ، كما يتفاهم العراقيون والمصريون وأهل المغرب بعضهم مع بعض مع تكلمهم بأئستة ذات لهجات مختلفة . فكان في استطاعة أهل نجد التفاهم مع عرب الخبرة ، وفي استطاعة أهل مكة التفاهم مع أهل الخبرة ، والعكس بالعكس ، مع وجود صعوبات بالطبع في فهم النطق باللهجة ، وفي إدراكه مخارج بعض الحروف واختلاف القبائل في النطق بها ، ووجود كلمات غريبة في لغة ، قد لا توجد في لغة أخرى . إلا أن هذه الفروق لم تكن شديدة عميقة ، بحيث جعلت فهم العرب بعضهم بعضاً أمراً صعباً ، أو صبرت اللغات وكأنها لغات أعمجية ، لا يفهم المخاطبون بها أحدهم الآخر . ودليل ذلك أننا نجد الرفود التي وفدت إلى المدينة ، لمبايعة الرسول على الإسلام ، تكلم الرسول وتتفاهم معه ومع أصحابه ، وتحنطب أو تنشد الشعر أمامه ، وهو يفهمهم ، وهم يفهمونه من دون صعوبة ولا كلفة كبيرة ، لأن أمر هذه اللغات لم يكن على نحو ما تصوره بعضهم من التباين والاختلاف ، والبعد بين الأئستة . اللهم إلا ما كان من أمر أهل العربية الجنوية ، فقد كانوا يرثون ، بدليل ما جاء في كتاب رسول الله إلى ( عياش بن أبي ربيعة المخزومي ) حين أرسله بر رسالة إلى أبناء ( عبد كلال ) الحميري ، فقد قال له فيها : « وهم قارئون عليك ، فإذا رثينا ، فقل : ترجموا »<sup>١</sup> . وربما كان منهم من لا يفقه عربية المسلمين ، الناطقين بعربية ( ال ) ، فكان يترجم لهم بعض من لهم علم وفقه بالعربيات الجنوية وبعربية القرآن .

وبدليل ثان ، هو أن المسلمين لما حاصروا القصر الأبيض من قصور الخبرة ، سمعوا أهل القصر ، يصرخون : « عليكم الخزازيف » ، « فقال ضرار : تنهوا لا ينالكم الرمي ، حتى ننظر في الذي هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلاً رأس القصر من رجال متعلقين بالمخالي ، يرمون المسلمين بالخزازيف – وهي المداحي من الخزف »<sup>٢</sup> ، فلم يفهم المسلمون معنى ( الخزازيف ) في بادئ الأمر لكنهم عرفوا أنهم يعني شيئاً له صلة بالدفاع عن القصر ، ثم عرفوه ، بعد نزول سبل من ( الخزف ) عليهم . وكان أهل ( الخبرة ) ينطقون بعربية ، فلما قال

١ ابن سعد ، طبقات ( ١ / ٢٨٢ ) ، ( بيروت ١٩٥٧ م ) .

٢ الطبرى ( ٣ / ٣٦٠ وما بعدها ) .

( خالد بن الوليد ) لاصحاب عدي بن العبادي : « ويحكم ! ما أنت ! أعراب ؟ فما تتقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تتقمون من الانصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تتحادوا وتكلروا أمراً ، فقال له عدي : ليذلك على ما تقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقت <sup>١</sup> . وقد كانت لهم مدارس تدرس العربية ، كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، ومنهم أحد أهل مكة كتابتهم ، كما يذكر ذلك أهل الأخبار . فنحن نجد أن العرب كانوا يتكلمون على مقتضى سجيتهم التي فطروا عليها ، ومع ذلك فقد كانوا يتفاهمون ويدركون المعاني ، ولو كانوا من قبائل متباعدة ، ومن أماكن متباعدة . » قال ابن هشام في شرح الشواهد : كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن هنا كثرت الروايات في بعض الآيات <sup>٢</sup> .

ولما حاصر ( خالد بن الوليد ) الأنبار ، « تصايع عرب الأنبار يومئذ من السور ، وقالوا : صبيح الأنبار شر <sup>٣</sup> ». ولما اطمأن بالأنبار « وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رأهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنت ؟ فقالوا : قوم من العرب . نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا <sup>٤</sup> . فأهل الأنبار مثل أهل الحيرة عرب ، كانوا يتكلمون العربية ، وهي عربية فهمها خالد ومن كان معه من رجال قبائل ، ولو كانت عربتهم عربية قريش ، لما سكتوا من النص عليها ، لما في ذلك من تقرب إلى قريش . قال الأزهري : « وجعل الله ، عز وجل القرآن المترزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبة إلى العرب الذين أنزله ب Lanshem ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة Lanshem لغة العرب ، في باديتها وقراها العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم عربياً ، لأنه من صريح العرب ، ولو أن قوماً من الأعراب الذين يسكنون البادية حضروا القرى العربية وغيرها ، وتناءوا معهم فيها ، سمواً عرباً ولم يسموا

١ الطبرى ( ٣٦١/٣ ) ، ( حديث يوم المقر وفم فرات بادقلى ) .

٢ المزهر ( ٢٦١/١ ) .

٣ الطبرى ( ٣٧٤/٣ ) .

٤ الطبرى ( ٣٧٥/٣ ) .

أعراها ، . « والعربية هي هذه اللغة » . . « العرب : هذا الجيل » ١ .  
أما أو سألني رأيي في هذه الخطب التي دوّتها أهل السير والتاريخ والأخبار  
للوفود التي وفدت على الرسول لمبايعته ، أو عن حديث الصحابة معه قبل الهجرة  
أو بعدها ، فأقول لك بكل صراحة ، إن هذه النصوص : نصوص كلام الرسول  
مع الصحابة ، ونصوص كلام الصحابة معه ، هي نصوص وردتلينا بأفواه  
الرواية ، كلامها كلامهم ، وعباراتها عباراتهم ، أما المعاني ، أي المضامين ،  
 فهي التي أخذت بالرواية ، وفي بعضها زيادات أو تقصان ، ظهرت بسبب طبيعة  
الاعتماد على الذاكرة لا الكتابة والتدوين . فتحن اذن أمام نصوص ، لا يمكن أن  
نقول أنها أصلية ، لأنها لم تؤخذ من محاضر جلسات ، ولا من كتاب كانوا  
يكتبون كل ما كان يقع ويحدث ، وينقلون الكلام تقلاً أميناً صادقاً ، كما ينقل  
الشريط المسجل للآصوات ، أصوات المتكلمين ، وإنما رويت بعد الحادث بأمد ،  
قد يكون قصيراً وقد يكون طويلاً ، وببعضها أحاديث شخصية ، ليست مهمة ،  
وقد تكون من الموضوعات ، ولا غرابة في ذلك فكتب الترجم والحديث والسير ،  
 مليئة بتكذيب كثير من هذه الأمور ، التي افتعلت ، إما من الرواة أنفسهم ،  
 وإما من آثم ، وإما عصبية ، أو عن مذهب وعقيدة .

## أفضل العرب :

وموضوع أفضح العرب موضوع لا أرى أنه قد كان لأهل الجاهلية علم به ،  
إذ كان لكل قوم منهم لسان يستغرون به ويتغصبون له ، يرون أنه لسانهم العزيز .  
ولا يكون فصاحة إلا إذا كان هنالك لسان أدب رفيع ، يكتونه رجال الأدب  
من ناثرين وشعراء ، يكون لساناً مقرراً محترماً يتبعه الجميع ، تعقده وحدة شاملة  
وشعور يوجد أواصر دم وتاريخ واحد وثقافة واحدة ، وقلم يكتب به ، فإذا  
اجتمعت كل هذه وأمثالها وأضيفت إليها وجود حكومة كبيرة تتخد ذلك اللسان  
لساناً عاماً لها ، ثم تقوم بتشجيع الأدباء والعلماء وتحسن إليهم ، صار ذلك اللسان  
اللسان المحظوظ المأثر المقدم علىسائر الألسنة ، وصارت اللهجات الأخرى ،

---

١ اللسان (٥٨٦ / وما بعدها) ، (عرب) .

السنة ثانوية بعده ، تعدد دون اللغة المذكورة في الرتبة والمتزلة والفصاحة ، كما حدث في الاسلام ، حيث اعتبر اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم ، لسان الاسلام وال المسلمين ، لسان الدين والدولة ، به تكتب دواوين الدولة ، وبه يؤلف العلماء ويكتب الأدباء ، وينظم الشعراء ، وبموجب قواعده المقررة يتعلم اللسان كيفية الكتابة والنطق ، من خالقها أوأخذ بالفاظ خارجة على قواعد تحوها وصرفها عدّ عامياً جلفاً من سواد الناس وسوقتهم .

ومدار الفصاحة في نظر علماء العربية كثرة استعمال العرب الكلمة ، مثل (أبا عمرو بن العلاء) : « كيف تصنف فيها خالقتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : أتحمل على الأكثر ، وأسي ما خالقني لغات . فما أكثرت العرب من استعماله من غيره ، فهو فصيح . وأما الفصاحة في المفرد : فخلوصه من تناقض الحروف ، ومن الغرابة ، ومن مخالفة القياس اللغوي . والتناقض ما تكون الكلمة بسيطة متناهية في التقليل على اللسان وعسر النطق بها ، مثل (المبغض) و (مستشرز)<sup>١</sup> . والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفتها الى أن ينقر عنها في كتب اللغة ، أو أن تكون قليلة الاستعمال ، وأضاف بعضهم الى ما تقدم : ألا تكون الكلمة مبتلة<sup>٢</sup> . وآراء أخرى لا مجال للبحث عنها في هذا الكتاب ، لعدم وجود مكان في حدوده .

وقد وضعت هذه الحدود في الاسلام ، أما ما قبله فلا علم لنا برأي الجاهليين في الفصاحة وفي الفصيح ، ولكننا نستطيع بالقياس الى ما عندنا من كتابات ، أن نقول : إن العرب الجنوبيين كانوا بدونهن بلهجاتهم المعروفة ، وهي : المعينة والسبية والحضرمية والقبانية ، وفقاً لقواعد لهجاتهم وبالفاظهم ، فهي بالنسبة لهم لغاتهم الفصيحة ، لغة التدوين والكلام ، ولما قضى السبييون على استقلال حكومات معين وحضرموت وقبيان وأوسان ، وتكونت منها حكومة واحدة ، ضفت الخصائص اللغوية التي ميزت لهجات هذه القبائل بعضها عن بعض ، واندرجت

١ من قول امرئ القيس :  
غدائره مستشرزات الى العلاء  
المزهر (١٨٥/١) .  
٢ المزهر (١٨٤/١ وما بعدها) .

بلغة السبعين التي صارت لغة الحكومة ، وصار العرب الجنوبيون يكتبون بها الى ظهور الاسلام . فهله اللغة ، هي اللغة الفصحى عندهم وقلماها هو المسند .

اما بالنسبة الى العرب الآخرين ، فالظاهر أن عربية (ال) ، كانت قد تغلبت عند ظهور الاسلام على العribات الأخرى ، وفي ضمنها عربية (هـ) (هـ) ، وذلك بقوة وضخامة القبائل المتحكمة بها ، وباستعمال حكومة الخبرة وحكومة الغساسنة وحكومة كندة لها ، مما حمل الخطباء والشعراء والكهنة والسحرة على النطق بها ، وبلهجاتهم الخاصة بهـم ، وهي لهجات كانت متقاربة لكنها تختلف فيما بينها في استعمال بعض الألفاظ وفي كيفية النطق بالكلم ، أي في مخارج الحروف ، وفي خصائص نحوية وصرافية ، إلا أن هذه الفروق والاختلافات لم تخربها مع ذلك عن وحدة الللة ، وهي كلها في نظر أصحابها عربية فصيحة ، وقد كانت تقارب باحتكاك القبائل بعضها بعض ، ويتسع نفوذ ملوك الخبرة في جزيرة العرب ، ويتنتقل الشعراء والخطباء بين القبائل ، وبتأثير العرب بالأحداث السياسية العالمية ، وبظهور الترعة الى تكوين حكومات مدنية تحمل محل حكومات القبلية الضيقة ، ويتوغل المبشرين والمتلقين العرب بين القبائل ، يدعونهم الى النصرانية التي كانت قد جاءت من الخبرة ، بنصرانية شرقية عربية ، متأثرة بالإرمية ، لكنها اضطررت الى التعرّب بالتدرج ، وبقي الحال على هذا المنوال إلى أن ظهرت كلمة الاسلام بلغة (ال) ، فصارت بتزول الوحي بها أفعى الستة العرب ، وصار قلمها قلم الاسلام المقرر . وبذلك نبذ المسند ، وماتت الكتابة به منذ ذلك الحين ، ومات التراث العربي الجنوبي بموم لسانه وقلمه .

وبانتصار الاسلام على الشرك ، والاسلام دين ودولة ، دعوته الى (أمة) ، المواطنون فيها اخوة ، وله لسان ، هو اللسان الذي نزل به القرآن ، صار هذا اللسان أفعى الالسنة منذ ذلك الحين ، بل لسان أهل الخبرة ، وصار من الواجب على المسلمين ثبيت قواعده ودراسته لفهم كتاب الله المترتب به ، خدمة للدين الله الذي شرف هذا اللسان باتخاذه لساناً له . ورعاية قلمه الذي ثبت كتاب الله ، وقام العلماء بضبط قواعده وجمع مفراداته ، والبحث في كل ما يتعلق باللسان من علم . قام بهذه المهمة علماء المصريين : البصرة والكوفة ، وكان لا بد لهم من رسم حدود ، ومن وضع قواعد في كيفية ثبيت العربية ، وفيمن يصح أخذ هذه القواعد من أسلتهم ، الى غير ذلك من أمور اتبعوها في جمع علوم العربية .

و حين شرع بوضع قواعد العربية ، كان الاسلام قد حطم حدود جزيرة العرب ، و تحطاماها ، قد غلب الساسانيين ، وأبعد الروم عن بلاد الشام ومصر وما وراءها ، وقد جمع العرب بالأعاجم ، والعجم بالعرب، وشبك ألسنة الأعاجم بلسان العرب ، ولسان العرب بآلية العجم ، واضطر العلاء إلى وضع قواعد فيما يجبأخذ لسان العرب منهم من العرب ، وفيمن لا يجوز الأخذ منهم ، بسبب اتصالهم بالعجم ، وما طرأ على لسان بعضهم من خبث نتيجة لهذا الاتصال. فكانت تعاليمهم ألا تؤخذ العربية إلا من عرب بقوا معزول عن الأعاجم ، فلا يؤخذ عن حضريقط، ولا عن سكان البراري من كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من نحسم ولا من جذام ، لمحارتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمحارتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأسد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن مخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليهامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة المحجاز ، لأن الذين تقولوا اللغة صادفوهם حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم ، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتهما في كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكرفة فقط من بين أمصار العرب »<sup>١</sup>.

وذكر أن قريشاً كانوا أفعى العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وأجود العرب انتقاداً للألفاظ ، أما الذين نقل عنهم اللسان العربي من « قبائل العرب » ، هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمها ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »<sup>٢</sup>. وروي أن أفعى العرب علياً هو اوزن ، وسفلى تميم »<sup>٣</sup>.

وروى (الملاحظ) أن (معاوية) قال يوماً : « من أفعى العرب ؟ فقال

١ المزهر (٢١٢/١).  
٢ المزهر (٢١١/١).  
٣ المصدر نفسه.

قائل : قوم ارتفعوا عن نهرخانية الفرات ، وتيامنوا عن عنقنة تيمٍ وتياسروا عن كسكة بكر ، ليست لهم غممة قضاعة ولا طمطانية حبر . قال : من هم ؟ قال قريش <sup>١</sup> .

وقد تحدث (الباحث) عن أثر المحيط في تكوين اللغة ، فقال : «وكاختلف ما بين المكي والمدني ، والبدوي والحضري ، والسهلي والجلي ، وكاختلف ما بين الطائي الجيلي والطائي السهلي ، وكما يقال : ان هذيلياً أكراد العرب ، وكاختلف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحزون ، وبين من نزل التجود وبين من نزل الأغوار .

وزعمت أن هؤلاء وان اختلفوا في بعض اللغة ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور ، فقد تختلفت علية تيم ، وسفلى قيس ، وعجز هرازن وفصحاء الحجاز ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حبر ، وسكان مخالفين اليمن ، وكذلك في الشهائل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربيٌ خاص ، غير مشوب ولا معهنج ولا منرج ولا مزاج . ولم يختلفوا اختلافاً ما بينبني قحطان وبين عدنان ، من قبل ما طبع الله عليه تلك البرية من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كل جيزة من الشكل والصورة ومن الأخلاق واللغة <sup>٢</sup> .

فرأى (الباحث) ان بين العدنانيين والقططانيين فروقاً كبيرة في اللغة ، غير ان بين كل مجموعة من هاتين المجموعتين فروقاً لغوية ، كالذى أورده من أمثلة على الفروق التي تكون بين من يتزل الجبال ، أو من يتزل السهول ، وبين من يتزل التجود ، ومن يتزل الأغوار ، ثم الحالات التي تقع بين بطون القبائل عند تشتيتها وتفرقها . ثم تحدث عن لغة عليا تيم ، وسفلى قيس ، وعجز هرازن ، ولغات أهل الحجاز . وهي قبائل تحدث عنها علماء اللغة .

وقد ذكر (الرافي) ان «الفصاحة اشتهرت في مصر ، حتى عرفت اللغة بالضريرية ، ومن أشهر قبائلها كنانة — ومن بطونها قريش — ثم تيم ، وقيس ، وأسد ، وهليل ، وضبة ، ومزيينة » <sup>٣</sup> . وقال أيضاً : « وأفضل القبائل الذين

١ الباحث (٢١٣/٣) .

٢ رسائل الباحث (١٠/١ وما بعدها) ، (مناقب الترك) .

٣ الرافي ، تاريخ آداب العرب (١٢٥/١) .

هم مادة اللغة فيها نص عليه الرواية : قيس ، وتميم ، وأسد ، والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف . قال أبو عبيدة : وأحسب أفعى هؤلاءبني سعد بن بكر ، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أفعى العرب بيد اني من قريش ، واني نشأت فيبني سعد بن بكر – وكان مسترضعاً فيهم – وهم أيضاً الذين يقولون فيهم أبو عمرو بن العلاء؛ أفعى العرب عليا هوازن وسفلى تميم <sup>١</sup> .

« وتلك القبائل كلها كانت تسكن في بوادي نجد والهزار وتهامة ، وقد بقى من معادن الفصاحة زمناً بعد الاسلام ، واليها كان يرحل الرواة ، حتى إن الكسائي لما خرج الى البصرة فلقي الخليل بن أحمد ، وجلس في حلقته ، قال له رجل من الأعراب : تركت أسدًا وتميماً وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة ! فقال للخليل : من أين أخذت علمك ؟ قال : من بوادي الهزار ونجد وتهامة . فخرج اليهم ولم يرجع حتى أندى خمس عشرة قينة حبراً في الكتابة عن العرب .

ولم تزل هوازن وتميم وأسد متميزة بخلوص النية وفصاحة اللغة الى آخر القرن الرابع للهجرة <sup>٢</sup> .

وقد ترك الأخذ عن ( حاضرة الهزار ) أي مكة ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم <sup>٣</sup> ، فلم يأخذوا منهم . وقد قرأنا قبل قليل أسماء القبائل التي أدخلتها علاء اللغة في القائمة السوداء المقاطعة التي لم يجوزوا الأخذ منها ، وذلك حين شروعهم بتذوين اللغة أيضاً للسبب المذكور وهو اتصالها بالأعاجم ، وتأثير ألسنتها بلغات من اتصلت بهم من عجم .

واللغات في نظر ( ابن جني ) على اختلافها كلها حجة « لا ترى أن لغة الهزار في إعمال ما ، ولغة تميم في تركه ، كل منها يقبله القياس ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاديتها ، لأنها ليست أحق بذلك من الأخرى ، لكن

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ( ١٢٧/١ ) وما بعدها .  
٢ المصدر نفسه ( ١٢٨/١ ) .  
٣ المزهر ( ٢١٢/١ ) .

غاية مالك في ذلك أن تخير إحداها فتقويها على أختها، وتعتقد أن أقوى القياسين  
أقبل لها ، وأشد نسباً بها ، فاما رد إحداها بالأخرى فلا ١ .

أعود الآن فأكرر ما سبق أن قلته من إننا اليوم في حاجة ماسة ، إلى وجوب تسجيل كل ما أورده علماء اللغة عن لغات العرب ولهجاتها ، فصيحة كانت تلك اللغة أو رديئة ، ولا سيما في الأمور التي شذت فيها هذه اللهجات بعضها عن بعض ، في الشعر أو في النثر ، تسجيل كل الأسماء الجاهلية التي عرف بها العرب قبل الإسلام ، مع بيان أسماء الرجال الذين تسموا بها وأسماء القبائل التي هم منها ، والمواضع التي كانوا بها ، لتعرف بذلك على أصول هذه القبائل ، والأماكن التي جاءت منها ، والأثر الذي تأثرت به من القبائل المجاورة لها ، فتحنن نعرف اليوم ، ان أهل العربية الجنوبيّة ، كانت لهم أسماء وردت في المسند لم تكن شائعة بين العرب الشماليين ، وقد كانت خاصة بهم ، ثم نعرف اليوم ان الأسماء الواردة في النصوص العربية الجنوبيّة المتأخرة المقاربة للإسلام ، اختلفت بعض الاختلاف عن الأسماء القديمة المركبة المضافة ، مما يدل على وقوع تغير في الذوق اللغوي عند العرب الجنوبيين قبل الإسلام ، وعلى الميل الى اختزال الأسماء وتبسيطها ، على نحو ما كان عند العرب الشماليين ، ومثل هذه الدراسة ، تكون ذات قيمة كبيرة في الوقوف على التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية التي مرت على جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام . وهذا التغير الذي أشير اليه هو شيء طبيعي ، وقع قبل الإسلام ، كما وقع في الإسلام ، فقد ماتت الأسماء الجاهلية ، مثل ( أمرق القيس ) ، و ( معدى كرب ) ، و ( شرجيل ) ، و ( شرحبيل ) ، و ( عبد عوف ) ، و ( عبد مناة ) ، و ( عبد أسد ) ، في الإسلام ، وحلت محلها أسماء إسلامية ، وماتت ألفاظ جاهلية ، بسبب إمامنة الإسلام لها ، أو إعراضه عن استعمالها ، أو بسبب تغير الذوق ، فلم تعد تصلح للاستعمال ، وولدت ألفاظ إسلامية لم تكن معروفة عند الجاهليين ، ونشأت معان جديدة لألفاظ جاهلية قديمة لم تكن تعبر عن هذه المعاني قبل الإسلام .

كذلك ، نحن في حاجة الى تدوين شعر الشعراة على حسب القبائل التي ينتهي إليها قاله الشعر ، لتمكن بذلك من دراسة خصائص شعر كل قبيلة ، وما ورد

فيه من لغتها ، على أن نفهم بصورة خاصة ، بالأصول الأولى لهذا الشعر ، أي بأقدم الروايات التي ورد فيها ، ثم ندون إلى جانبها الروايات المختلفة التي ورد فيها على ألسنة علماء الشعر واللغة ، والتعديلات التي أدخلها العلماء عليه ، لترى ما فعله العلماء في الشعر الجاهلي، وطبيعة ذلك الشعر بالنسبة إلى اللغات ، وخصائص كل شعر .

ونجد في كتاب (الإكيليل) ملاحظات ثمينة تفيدنا كثيراً في دراسة اللهجات العربية الجنوبيّة ، وقد أخذناها من كلام الناس في أيامه . من ذلك ما ذكره في كتابه (الإكيليل) من قوله تقلاً عن كلام (أبي نصر) : إن « حمير تطرح مثل هذه الألف في كلامها ، فنقول : إذا أردت أن تقول للرجل : اسمع وأذهب : سمع وذهب ، وغضب في أغضب وشرب في اشرب »<sup>١</sup> . وهي لغة لا تزال تستعمل في بعض القبائل اليابانية<sup>٢</sup> . ومن ذلك استعماله لفظة (القدمان) في قوله : « وقرأ زير حمير القديمة ومسانده الدهرية ، فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها تقل فخففتها العرب وأبدلوا فيها الحروف الذلقة ، وسمعوا منها الاسم الموفّر ، خال الجاحل أنه غير ذلك الاسم ، وهو هو »<sup>٣</sup> . ولفظة (القدمان) من الألفاظ العربية الجنوبيّة التي ترد بكثرة في كتابات المستند ، ترد مع أسماء بعض الأشهر التي يتكرر اسمها ، على نحو قولنا في العربية : (ربيع الأول) و (ربيع الثاني) ، و (جمادى الأولى) و (جمادى الآخرة) ، فيستعملون (قدمن) (قدمان) للأول ، أي الأقدم والمتقدم ، ويستعملون (آخرن) (آخران) للثاني ، أي الآخر والمتاخر ، وتعني (قدمان) القدامي والقدماء كذلك .

ونجد في ثانياً كتابه مصطلحات وألفاظاً أخرى من هذا القبيل استعملها هو ، أو نقلها عن غيره ، أو من الكتب ، وهي ترجع إلى اللهجات العربية القديمة ، وقد لا نجد لها وجوداً في معاجم اللغة . كذلك يجب البحث في كتب (سعيد ابن نشوان) الحميري وفي كتب غيره من المؤلفين من أهل العربية الجنوبيّة إلى يومنا هذا ، لنلتقط ما قد يكون في ثانياًها من تكلم عربي جنوبي قديم ، ومن

١ - الإكيليل (٤٨/٢) .  
٢ - المصدر نفسه (هامش رقم ٤) .  
٣ - الإكيليل (١٣/١) .

أمثلة وجمل ، وأسماء أشهر وغير ذلك ، إضافة إلى دراسة لهجات الأحياء منهم ، ووجوب الحفظ حفراً علمياً في مواضع الآثار لاستخراج ما فيها من نفائس مكتوبة أو غير مكتوبة لتعينا في الوقوف على أصول لغة العرب الجنوبيين قبل الإسلام .

ولا بد لنا اليوم من وجوب القيام بمسح لغوي جغرافي ، للغات جزيرة العرب ولقبائل العراق وببلاد الشام ، لمعرفة ما تبقى عندها من أثر للهجانها القديمة . مسح عام لكلامها الذي تنطق به ، ونشرها الذي تنظمه في الوقت الحاضر ، وللأسماء الغربية التي تتسمى بها ، ومسح مثل هذا سيعين الباحثين كثيراً في الوقوف على أسرار اللهجات العربية قبل الإسلام .

## الفصل الحادي والاربعون بعد المئة

### المعرّبات

والاختلاط بين الأمم ، بمختلف وسائله ، ومن ذلك الاتصال التجاري، يؤدي الى حدوث تفاعل في اللغة ، فقد يولد هذا الاختلاط ألفاظاً جديدة يطلقونها على أشياء لم يكن لأهل تلك اللغة علم بها ، وقد يضطر أصحابها الى استعمال المسمايات الأجنبية كما هي ، أو بشيء من التبديل والتغيير ليناسب النطق بتلك اللغة . وقد وقع ما أقوله في كل اللغات ، وبقى الآن أيضاً ، وسيقع في المستقبل الى ما شاء الله ، لا استثناء في ذلك ، ولا تفاضل ، ولا امتياز . فاللغات كلها ، ومنها اللغة العربية في جاهليتها وأسلاميتها ، تخضع لهذا الحكم والقانون .

وليس الأخذ والعطاء دليلاً على وجود نقص في لغة ما ، أو وجود ضعف في تفكير المتكلمين بها . فكل اللغات منها بلغت من النبو والكمال والسرعة ، لا بد لها من أن تأخذ وأن تطور مدلول مفرداتها أو تضع مفردات جديدة لأمور لم تكن معروفة موجودة عندها . ولا نعرف لغة ما من اللغات الميتة أو الحية ، انفرد بنفسها انفراداً تاماً ، فلم تأخذ شيئاً ولم تعط شيئاً .

والعربية بجميع هجاتها وأسنتها مثل اللغات الأخرى، وفي جملتها اللغات السامية أخذت وأعطيت ، قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ولا تزال تأخذ وتعطي ما دام أصحاب اللسان العربي باقين في هذا الكون . والأخذ والعطاء ووضع مفردات جديدة في لغة ما ، هنا من دلائل الحيوية ومن أمارات القوة والتكميل في تلك

اللغة . ومن دلائل هذا الأخذ والعطاء ، ما حدث في العصور الاسلامية : من أخذ وعطاء بين العربية واللغات الأعجمية ، فطعمت العربية الفارسية والتركية والرومية وغيرها بمادة غزيرة من الكلمات ، كما أخذت هي حاجتها منها . . ومن دلائله أيضاً ما يقع اليوم من وضع المصطلحات لمعاني لا عهد للغربية بها من قبل كمخررات تظهر دوماً ومعاني علمية ليس للعلماء عهد بها ، ولا بد من وضع ما يقابلها في العربية ، بوضع لفظ عربي ، أو تعريب المصطلح وتكييفه وفق النطق العربي إن كان من غير الممكن إخضاعه للمفردات العربية .

وقد يزعج هذا الرأي فريقاً من الناس يذهبون إلى أن العربية لغة نقاء صافية لم تتأثر بغيرها من اللغات ، فلم تأخذ من اللغات شيئاً ، ولم يدخل اليها لفظ أجنبي ، أو ان ما دخل اليها من دخيل مغرب هو قليل ، وهم في منطقهم هذا محافظون متزمتون لا يعنون بنظرية الأخذ والعطاء في اللغات . فإذا قلت لهم إن اللقطة الفلانية لفظة معربة وأصلها أعجمي ، أجابوك : ولكنها وردت في القرآن الكريم ، ووردت في شعر فلان ، وفلان من الشعراء الجاهلين . وإذا قلت لهم : ولكن دخولها العربية كان قبل الاسلام بزمن ، وقبل ذلك الشاعر بزمن طويل ، وأن الجاهلين نسوا أصلها واستعملوها استعمال الألفاظ العربية ، فحكمها اذن حكم الألفاظ العربية في أيام ذلك الشاعر ، عند نزول الوحي ، أجابوك أيضاً : وكيف تزمن أنها معربة ، أفالاً يجوز أن تكون عربية في الأصل ، وقد أخذها الأعاجم أنفسهم من العربية ، ومن أين لك الدليل على العكس ؟ وإذا ذكرت لهم أن اللقطة الفلانية عبرانية في الأصل أو سريانية أو كلدانية ، قالوا : وكيف تثبت ذلك ، وهذه اللغات والعربية كلها من أصل واحد ودودحة واحدة ، فلم تحكم بأنها من أصل سرياني أو عبراني أو كلداني أو غير ذلك ، ولا تحكم بأنها عربية أصيلة ، وإن وجودها في تلك اللغات ، هو بسبب اشتراكها والعربية في الأصل السامي . فهي في العربية أصيلة اذن ، وهي في تلك اللغات أصيلة أيضاً وقديمة بسبب مشاركتها للعربية في الأصل السامي .

وقد فات مثل هؤلاء ان القدامى من العلماء لم يفتهما أمر هذه المعرفات، فأشاروا إليها ، ومنهم جمهور أصحاب كتب التفاسير والحديث والمعجمات ، وأن من العلماء من ألف في هذا الموضوع ، فالفقيه أبو منصور المعروف بالجواليقى كتاباً في هذا

الباب دعاه : ( المُرْبُّ من الْكَلَامِ الْأَعْجَمِيِّ )<sup>١</sup> . ولم ينتقده مع ذلك علماء يومه ، ولا من جاء بعده لإقدامه على تأليف كتابه هذا ، ولم يقل أحد أنه كان جاهلاً أو متحاماً على العربية ، مسيئاً إليها ، لأنه أنكر أصول الألفاظ المذكورة في مؤلفه ، فعدّها أعمجية معربة مع أنها عربية أصيلة ، لا شك في عربتها ولا شبّهها . قال ( الجاحظ ) : « ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بالفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون بطريق الخربز ، ويسمون السفيط الرزدق ، ويسمون المصوّص المزور ، ويسمون الشطرنج الاشترينج ، في غير ذلك من الأسماء »<sup>٢</sup> . ونجد في تفسير ( الطبرى ) ، وهو من العلماء الثقات المحققين وفي تفاسير غيره من العلماء المدققين إشارات إلى أصول ألفاظ وردت في كتاب الله ذكرها أنها من المعربات ، وقد نصوا على أصولها التي أخذت منها ، حسب علمهم واجتهادهم في ذلك الوقت ، لم يجدوا في ذلك بأساً ولا انفصالاً لحرمة القرآن ، أو مساً به .

وفي القرآن - كما يذكر العلماء - أكثر من مائة لفظة معربة ، نصوا على أصولها حسب علمهم واجتهادهم واستفسارهم من الأعاجم ، وهي كلمات دخلت بعضها العربية قبل الإسلام بعهد طويل لعدم وجود مثيل لها في لغة العرب ، فأخرجنها العرب على أوزان لغتها وأجرتها في فصيحتها ، فصارت بذلك عربية ، وإنما وردت في القرآن لأنها كانت قد تعرّبت وجرت عند العرب مجرى الفصيح ، ولم تكن لديهم ألفاظ غيرها<sup>٣</sup> . وفي بعض هذه المعربات ألفاظ لم تكن مألوفة أو معروفة عند الوثنين ، لأنها من ألفاظ أهل الديانات ، ونظرًا لكونها تعبّر عن أمور دينية ضرورية لا مثيل لها في العربية ، وكان من اللازم تعلم الناس أيها ، لذلك وردت في القرآن .

وقد رجع العلماء أصول المعربات الواردة في القرآن إلى لغات شائعة آنذاك ومعروفة للعرب ، أخذها العرب منها باحتمالاتهم بأهلها ، مثل اليونانية ، والفارسية ، والسريانية ، والعبرانية ، والحبشية ، والهندية ، والقبطية ، والنبطية ،

١ المُرْبُّ من الْكَلَامِ الْأَعْجَمِيِّ على حروف المعجم ، لابي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليليقي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦١ .

٢ البيان والتبيين ( ١٩/١ ) .

٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ( ٥٨/٢ ) .

حتى ذهب (أبو ميسرة) ، وهو من العلماء التابعين إلى أن « في القرآن كل لسان » ، وروى مثله عن (سعید بن جبیر) ، و ( وهب بن منبه )<sup>١</sup> . ولو راجعنا أقوال العلماء في هذه المعربات التي درسوها وتحذلوا عنها لوجدنا أنهم قد أخطلوا في تشخيص الكثير منها ، فلم يتمكنوا من الوقوف على أصواتها ، لعدم معرفة أكثر علماء العربية اللغات الأعجمية . نعم تمكّن العارفون منهم بالفارسية من تشخيص المعربات عن الفارسية ، غير أنّ منهم من زاد عليها وبالغ فيها ، فأدخل في المغرب عن الفارسية ما ليس من الفارسية بشيء . وأدخل ألقاظاً عربية أصيلة في طائفة المعربات ، مع أنها عربية جاهلية ، ورددت في نصوص المسند وفي النصوص الأخرى<sup>٢</sup> ، وسبب ادخالهم لها ضمن المعربات ، هو عدم احاطتهم باللهجات العربية الجنوبيّة ، وباللهجات الجاهليّة الأخرى . فتختلطوا في تعين الأصول ، فترى بعض منهم يرجع معيّراً إلى أصل عبراني ، وتجد آخر يرجعه إلى أصل يوناني ، بينما يرجعه ثالث إلى أصل جبشي ، وقع ذلك بسبب عدم وقوف العلماء على اللغات الأجنبية واكتفائهم بالاستفسار من الأعاجم ، ومن لم يكن لهم علم بعلوم اللغات ، وإنما كانوا يعرفون الكلام بها ، إذ لم يكونوا من أصحاب التضليل والتخصص ، كما أن عصبية البعض منهم للسامي دفعتهم أحياناً إلى الالتفاف وصناعة الأجوبة الكاذبة ، يضاف إلى ذلك عامل الادعاء بالعلم والفهم ، مما يجعل صاحبه على الوضع والكذب .

وبين الباحثين في المعربات الواردة في القرآن جدل في وجود المرب في، منهم من قال بوجوده ، ومنهم من رد القول به ومنعه ، فقال : « إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية ، فقد أعظم القول ، ومن زعم أن كذا بالبطانية ، فقد أكبّر القول » ، وقالوا : « ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير الألفاظ من القرآن أنها بالفارسية أو الحبشية أو البطانية أو نحو ذلك ، إنما اتفق فيها توارد اللغات ، فتكلمت بها العرب والقرس والحبشة بلفظ واحد » . وبالغ بعضهم في تقيي المعربات ، حتى قال : « كل هذه الألفاظ عربية صرفة ، ولكن لغة العرب متعددة جداً ، ولا يبعد أن تخفي على الأكابر

١- السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (١٠٦/٢) ، (تحقيق محمد أبو الفضل

ابراهيم )

٢- راجع الاتقان (١٠٨/٢ وما بعدها) ، حيث تجد أمثلة عديدة على ما أقول .

الجلة ، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر وفاتح <sup>١</sup> .

والذين ذهبا الى وقوعه فيه ، يرون بأن الكلمات البسيرة بغير العزبية لا تخرج عن كونه عربياً . وعلل بعضهم سبب وقوعه في القرآن بقوله : « إن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن ، انه حوى علوم الأولين والآخرين ، ونبأ كل شيء ، فلا بد أن تقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن ليتم احاطته بكل شيء » ، فاختبر له من كل لغة أعدتها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب » ، « وأيضاً النبي صلى الله عليه وسلم ، مرسلاً الى كل أمة ، وقد قال تعالى : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ، فلا بد وأن يكون في الكتاب المعرف به من لسان كل قوم ، وإن كان أصله بلغة قومه هو » <sup>٢</sup> . وقال ( ابن سلام ) : « والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جمياً ، وذلك ان هذه الأحرف أصولها أعمجية كما قال الفقهاء ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتها بالستها وحوّلتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال أعمجية فصادق . ومال الى هذا القول الجواهري وابن الجوزي وآخرون » <sup>٣</sup> .

وقال ( ابن التقيب ) : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المُنزلة ، أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ، ولم يتزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب ، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير » <sup>٤</sup> . فهو من الذين يرون ان في القرآن كل لسان .

ولا يقرون جدل المانعين من وقوع المعرب في القرآن ، أو القائلين به على أساس اختلافهم في وقوع المعرب في العربية ، وإنما انصب كل اختلافهم على وقوع المعرب في كتاب الله . فالمانعون يقولون – كما رأينا – ان الله يقول : « قرآنًا عربياً » <sup>٥</sup> و « ولو جعلناه قرآنًا أعمجياً لقالوا : لو لا فصلت آياته أعمجي

١ السيوطى ، الاتقان ( ٢/٥٠١ وما بعدها ) .

٢ السيوطى ، الاتقان ( ٢/٦٠١ وما بعدها ) .

٣ المصدر نفسه ( ٢/٨٠١ ) .

٤ السيوطى ، الاتقان ( ٢/٦٠١ ) .

٥ يوسف ، الآية ٢ .

وعربي<sup>١</sup> ، فكل ما فيه هو عربي اذن ، والذين يحيزونه ، يقولون إن هذه الأحرف أصولها أعمجية ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتها بالستها وحوّلتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد احتلت هذه المعرفة بكلام العرب ، فن قال أنها عربية فهو صادق ، ومن قال أعمجية صادق<sup>٢</sup> . فالخلاف اذن خلاف عقائدي لا صلة له باللغة ، وبوقوع العرب أو علم وقوفه في العربية .

وهناك فريق آخر جاعته من المحدثين في الغالب ومن غير العرب ، ذهب مذهبًا معاكساً لمذهب من ذكرت تماماً . تطرف في رأيه تطرفاً مترافقاً وبالغ في أحکامه مبالغة منكرة . رجع ألفاظاً عربية استعملها الجاهليون الى أصول أعمجية ، وادعى أنها من الألفاظ المعرفة عن السريانية أو اليونانية أو اللاتينية أو العبرانية أو الفارسية ، لمجرد ورودها أو ورود مشابه لها في تلك اللغات ، وحجته في ذلك أن الجاهليين أميون أغراب وثيرون ، وأن الألفاظ التي رأوا عجمتها هي ألفاظ حضارة لها مدلولات دينية أو سياسية أو اجتماعية أو حرافية أو غير ذلك ، وهذا لا يمكن أن تكون من صميم العربية ، بل لا بد أن تكون طارئة عليها دخيلة في الأصل ، ثم عربت . وفي هؤلاء المتعصب لجنسيته ، مثل أن يكون سريانيًا أو يهودياً ، لهذا رجع تلك الألفاظ الى لغته لتصفيه لها، والتأثير بنظرية جهل الجاهليين وعدم وجود أي علم أو ثقافة لديهم ، والمتطرف على الاسلام ، لهذا رجع أكثر الألفاظ الحضارية الى النصرانية أو اليهودية أو الفارسية ، لإثبات أخذ الاسلام منها ، وتعلم الرسول دياناته من تلك البيانات .

أما البحث العلمي الخالص ، فهو ما كان بعيداً عن كل الميل والانبعاثات والتزعزعات ودوافع التصub ، قائمًا على الحقائق والواقع وفكرة البحث عن الحق للتوصل اليه . فالرأيان في نظري باطلان ، بعيدان عن جادة العلم . وواجب الباحث في مثل هذه الأمور أن يتريث أولاً ، وألا يبت في قرار إلا اذا كان متاكداً من سلامه السبيل التي سار عليها في الوصول الى قراره ، ولا سيما أن العريضة وال عبرانية والسريانية كلها من هذا الأصل الذي يطلق علماء الأجناس واللغات عليه:

١ فصلت ، ٤٤ .  
٢ السيوطي ، الاتقان (١٠٨/٢) :

الأصل السامي ، وتشترك كلها أو أكثرها في كثير من الألفاظ ، والحكم بأن هذه أخذت من هذه أو تلك ، حكم فج ناقص إذ لم يستند إلى موارد ونصوص مرتبة ترتيباً تاريخياً . ثم ان العربية ليست عربية واحدة ؛ فإن هناك ألسنة عربية أخرى، مثل عربيات اليمن ، وهي لهجات عربية قديمة ذات نصوص يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل الميلاد ، فلا يجوز التعيم بالاستناد إلى لغة القرآن الكريم وحدها ، بل لا بد من تتبع ما جاء في اللغات العربية الأخرى . أضف إلى ذلك أن أهل اليمن كانوا أصحاب حضارة وحضارتهم أرقى وأعلى درجة من حضارة بعض الساميين. ولذلك يدفعنا الواجب إلى دراسة ما جاء في نصوصهم من ألفاظ وسميات وآراء ومقارنتها بما جاء في النصوص الواردة في اللغات السامية الأخرى ، للحصول على رأي علمي في هذه الأمور . ولكننا مع ذلك نحن في وضع لا نتمكن فيه من البت في هذه الأمور ، لأن ما لدينا من نصوص جاهلية أغلبها من النوع الذي غير عليه على ظاهر الأرض ، لأن الظروف لم تمكن العلماء حتى الآن من التقيب تقنياً علمياً عيناً في باطن مواطن الآثار، لاستخراج المطمور من الكتابات والآثار الأخرى ، والغالب أن يكون المطمور ذا أهمية كبيرة ، وسيعين المؤرخين في كتابة الأجزاء المفقودة من تاريخ العرب قبل الإسلام . وقد يكون من بين ما يغير عليه ما هو أقدم من النصوص التي بين أيدينا . وعلى هذه النصوص أن رتب ترتيباً زمنياً يوثق به ، يمكن أن يكون اعتمادنا في تشبيت المفردات، وفي تعين زمن استعمالها في العربية وفي كونها عربية أصلية أو معربة .

إن وجود المعربات دليل على اتصال الجاهليين بغيرهم ، واتصال غيرهم بهم. وعلى الروابط الفكرية التي كانت بين العرب وبقية الساميين، وبين العرب والشعوب الأخرى وجمعها وتصنيفها لذلك في مجموعات حسب الموضوعات يعطينا رأياً عن النواحي التي تأثر بها الجاهليون في أمور الحياة . غير أن هذا العمل شاق ، ويجب أن يستند إلى معاجلات جامعة مرتبة ترتيباً تاريخياً ، تذكر الكلمة، ثم تذكر أصلها ومن أي أصل أخذت وفي أي زمن كان ذلك ، وأول من استعملها أو أقدم نص عربي وردت فيه ، وفي أي معنى استخدمت ، وهكذا . ولكننا لا نملك ، ويا للأسف ، مثل هذه المعاجلات . وكل ما لدينا معاجلات قديمة ، لم تتبه بهذه الأمور ، ولم تميز الجاهلي من الإسلامي ، ولا فقط الوارد في عربية القرآن الكريم من النقط الوارد في اللهجات العربية الأخرى . فذكرت الألفاظ

الواردة في اللهجات العربية الأخرى على أنها مرادفات ، ترد في عريتنا على حين أنها مسميات للشيء ذاته في اللغات العربية الأخرى .

والذين يقولون بعدم وقوع العرب في كلام العرب ، كأنهم يتتصرون أن العرب كانوا بمعزل عن العالم وانقطاع عن الناس . وهذا لم يتأثروا بغيرهم ، ولم يؤثروا في غيرهم ، وأن عرقهم لذلك بقي صافياً نقياً سليماً ، لم تدنسه أعراق أعمجية ، ولم يمازح دمّهم دمّ غريب ، ولم تدخل لغتهم لفظة غريبة ، بل بقيت نقاية صافية على ما خلقها الله يوم خلق اللغات . وقد تكون في اللغات الأخرى ، كلمات دخيلة ، أما العربية فحاشاها من ذلك !

وهوؤلاء لا يدركون انه قد كانت في سواحل جزيرة العرب قبل الاسلام مستوطنات يونانية ، نشأت في مواضع عديدة من سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر العربي والخليج العربي ، وقد بقي أصحاب تلك المستوطنات في مستوطناتهم فلم يعودوا إلى ديارهم ، ونسوا أصولهم وعاداتهم ، وصاروا عرباً مثل سائر العرب ، يرجعون أنسابهم إلى أصول عربية على عرف العرب والأعراب . وأن منهم من بقي عرقه الدسائس يحنّ إلى أصله، فقد ذكر المؤلفون اليونان ان بعض القبائل العربية الساكنة على السواحل ، كانوا يرجحون بعض اليونان ، لاعتقادهم انهم يجمعهم وإياهم صلب واحد .

يضاف إلى ذلك الرقيق من الجنسين ، وقد كانت بلاد العرب تجلب عدداً كبيراً منه في كل عام ، تشتريه من أسواق العراق ومن أسواق بلاد الشام ، وتوكّل إليه القيام بأعمال مختلفة ، ولا سيما الأعمال التي تحتاج إلى خبرة ومهارة فنية ودراءة . ونحن نعلم أن العربي الصريح يأنف من الاشتغال بالحرف وزراعة المحضر ، ولذلك وكل إلى هذا الرقيق أمر القيام بها ، فأدخل إلى العربية كثيراً من الألفاظ الخاصة بالزراعة وبالحرف ، لم تكن معروفة في العربية ، كما سأحدث عن ذلك فيما بعد .

يضاف إلى ذلك أيضاً ، التجارة . فقد كان التجار من عرب وغرباء يتعاطونها في جزيرة العرب وفي خارجها ، يصدرون منها حاصلاً لها وما تجمع فيها من سلع مستوردة من سواحل إفريقيا الشرقية والمهد ، ويأتون إليها بما تحتاج إليه قبائلها وأهل مدنها وأهل إفريقيا من بضائع مصنوعة أو منسوجة من حاصل الإمبراطوريتين

الساسانية والرومية والأرضين المعاصرة لها . ومن الطبيعي أن يؤدي ذهاب التجار العرب إلى أسواق العراق وببلاد الشأم ، واحتقارهم بالفرس والروم ، إلى الوقف على أحواهم والاتصال بهم والأخذ منهم والتأثر بثقافتهم وحضارتهم واقتباس ما يلائمهم منهم ؛ ومن الطبيعي أن يؤثر التجار الروم والفرس بعض التأثير في نفوس زملائهم العرب في الأماكن التي يجلوها من جزيرة العرب ، وأن ينقلوا إليهم شيئاً من آرائهم وأفكارهم وتجاربهم في الحياة، وأن يعطوهم شيئاً من مصطلحات لغتهم التي لا تعرفها العربية ، ومن الأسماء الخاصة بالتجارة وبالبضائع التي يأتون بها إلى جزيرة العرب لبيعها في أسواقها .

وكان للمبشرين شأن مهم في نقل التراث اليوناني والإرمي إلى جزيرة العرب في أيام الجاهلية ، وبجهادهم المضني المتواصل وعملهم التوالي، دخلت النصرانية في أماكن متعددة قاصية من بلاد العرب، حتى تمكنوا من تصدير قبائل وأمراء ورؤساء قبائل ، بطريقتهم الخاصة في الاقناع والتأثير ، وبالتطيب ، وبالاقرب إلى ضعاف الحال من الناس. وقد اتبعوا في التبشير وفي إدارة المؤسسات التبشيرية النظم الإدارية والدينية المتبعة في الكنيسة ، فجعلوا ( بيت قطرايا ) ، أي ( قطرآ ) الموضع المعروف اليوم على ساحل الخليج ، كرسياً لـ ( مطرابوليطي ) ، يقيم فيه ، ويشرف على إدارة خمسة أساقة ، يقيمون في ( ديرين ) و ( مشميخ ) أي ( سماهيج ) وهجر بلاد ( مازون ) و ( حطا ) المسماة ( بسط أردشير )<sup>١</sup> ، وهي الخط .

وفي موضع مثل نجران غلت النصرانية على أهلها، نظمت الكنيسة شؤون المدينة، فتولى رئيسها الديني ، وهو بدرجة (أسقف) ، الأمور الدينية ، وتولى (السيد) أمور الحرب وإدارة المسائل الخارجية المتعلقة بعلاقة نجران بغيرها، وتولى (العقاب) الأمور الداخلية ، وهم جميعاً يؤلفون معًا مجلس المدينة فيديرون معًا أمور الناس، وينظرون في كل ما يحدث بينهم من نزاع وخصومات . وهكذا نظمت العلاقات بين كنيسة المدينة وحكامها ، وانسجم الحكم بين الجماعتين .

وقد أدخل التبشير ألفاظاً يونانية وسريانية ترد في الديانة وفي الحياة اليومية إلى

---

١ أدي شير ، تاريخ كلدو وآثور ، المجلد الثاني ، (المقدمة) .

اللغة العربية ، ولا سيما المصطلحات الخاصة بتنظيم الكنيسة وبالحياة النصرانية ، كما كان بعض الشعراء الجاهلين يد في إدخال بعض المصطلحات النصرانية إلى العربية ، كالذى نجده في شعر ( أمرىء القيس ) والأعشى وعدي بن زيد العبادى وغيرهم من كلامات ترد بكثرة عند النصارى ، نتيجة اتصالهم واحتكاكهم بهم ، فصارت بذلك تلك الكلمات من المعربات .

ويضاف إلى من ذكرنا اليهود ، فقد كان لهم أثر في الجاهلين ، في يهود العربية الغربية خاصة ، أي في المجاز ، في البقعة الممتدة من ( يرب ) حتى بلاد الشام ، وفي اليمن . فقد سكن اليهود في هذه الموضع ، وبنوا لهم مستوطنات فيها ، واحتلوا بعريها ، واحترفوا الحرف كما ذكرت ذلك في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد كانت ( مدراسات ) اليهود في يرب وفي المستوطنات اليهودية الأخرى تلقن اليهود أحكام دينهم ، وتعلم أطفالهم القراءة والكتابة . وقد قصدها العرب وجلسوا فيها يستمعون إلى يهود . وقد شاهدها الرسول بعد هجرته إلى المدينة ، وحضر جدلاً كان قد وقع بين جماعة من يهود ، كما حضرها أبو بكر ونصر آخر من الصحابة . وكان أصحابهم يدرسون فيها ويفتون ، كما كانوا يقيمون الصلوات واحتفالات الأعياد في ( الكنيس ) . ومن هؤلاء اليهود ومن ( مدراستهم ) انتقلت الألفاظ العبرانية إلى العربية فعربت ، وفي جملة ذلك لفظة ( مدراس ) ، و ( سفر ) ، و ( توراة ) ، و ( تابوت ) ، و ( حبر ) ، و ( كاهن ) وغير ذلك من مصطلحات ، لأكثرها صلة بشؤون الدين .

إن الحاجة ، هي التي تحمل الناس على الأخذ والعطاء ، وبها نفس اقتباس العرب للمعربات . فأسماء بعض الآلات والأدوات والطرق الفنية والأنسجة الدقيقة المصنوعة من الحرير وأسماء المأكولات النفيسة وأسماء النبات التي هي من أصل شمالي وبعض المشروبات وما شابه ذلك ، إنما دخلت العربية وعربت لأسباب عديدة ، أهمها أن الحياة في جزيرة العرب حياة عادية ، تكاد تجري على وتر واحدة ، فلم تساعد على ظهور الأمور المذكورة ، فاضطر الناس بحكم الحاجة إلى أخذها من غيرهم واستيراد أشياء مادية وغير مادية من غيرائهم ، حتى في الأمور الفكرية والروحية ، مثل المعرفات الدينية ، فإنها خضعت لحكم الحاجة ، فالنصارى

العرب استعملوا معربات من أصل سرياني ، لأنهم اضطروا إلى استعمالها ، لأنها تعبير دينية لا وجود لها عند العرب الوثنيين أولاً ، ثم هي مصطلحات رسيبة كنسية ، لم تساهل الكنيسة في تغيير أسمائها ، ولذا استعملها العرب على التحرر المرسوم ، كما يستعمل الأعاجم المسلمين المصطلحات العربية ، لأنها مصطلحات إسلامية ليس لها مقابل في لغتهم ، أو لأنها مصطلحات دينية تحب المحافظة على تسميتها وإن وجد لها مقابل في لغات الأعاجم .

وأكثر المعربات الجاهلية ، هي من أصل يرجع إلى لغة بني لارم أو إلى لغة الفرس ، ثم تليها المعربات المأخوذة من لغات أخرى مثل اليونانية والبربرية واللاتينية والحبشية والقبطية ، وكثير من الألفاظ اليونانية إنما دخل إلى العربية عن طريق السريانية ، فقد كان السريان قد أدخلوها في لغتهم ، لأنها لم تكن معروفة عندهم ، ومن لغتهم هذه تعلمها الجاهليون .

والمعربات السريانية الأصل ، هي في الزراعة في الغالب ، وفي التوقيت ، ثم في موضوعات دينية وصناعية وتجارية وفي أمور أخرى . أما المعربات عن الفارسية فهي في موضوعات زراعية كذلك وفي أيام المأكول واللبوس وأمور اجتماعية . وأما المعربات عن البربرية ، ففي أمور خاصة بسكنائهم بين العرب وبأمر دينهم وشؤونهم . وأما المقتبس عن اليونانية فهو في أمور حقيقة ، وفي مصطلحات دينية ومصطلحات زراعية ومصطلحات تستعمل في شؤون البحر وما شاكل ذلك .

وتفسir وجود المعربات السريانية والفارسية بنسبة تزيد على نسبة وجود المعربات الأخرى ، هو أن المتكلمين بلغة بني لارم كانوا مزارعين في الغالب ، وكانوا على اتصال بالعرب ، وقد خالطتهم العرب وعاشا بينهم ، واقتبسا منهم ، حتى أنهم كتبوا بلسانهم ، ودخل الكثير منهم في دينهم ، دين النصرانية ، ولا سيما قبل الإسلام . وقد كانت أحوالهم الاجتماعية مشابهة للأحوال الاجتماعية عند العرب ، ولا سيما عرب بلاد الشام والعراق . ووضع مثل هذا يؤدي بالطبع إلى الاقتباس والأخذ والعطاء . وأما الفارسية ، فقد كان الفرس يحتلون بلاد العراق وكان لهم نفوذ على العربية الشرقية ، وقد استولوا على اليمن قبل الإسلام ، ولهن تجارة مع أهل مكة وأماكن أخرى ، وبحكم هذه الصلات دخلت في العربية ألفاظ فارسية وصارت في عداد المعربات .

ونحن اذا تبعنا صورة توزع المurbات بين العرب ، نجد ان توزيعها يختلف باختلاف الامكنته ، فهناك امكانية تأثرت بالمعربات الفارسية بالدرجة الأولى ، وهناك مواضع تأثرت بالمعربات السريانية في الأكثر ، وهناك أقاليم تأثرت بالمعربات عن اليونانية او الحبشية بالدرجة الأولى . ثم نجد ظاهرة أخرى في كيفية توزع المurbات وظهورها ، هي ظاهرة الحاجة والظروف السائدة في مكان ما . فيمكننا اذن ارجاع تأثر لهجات العرب الجاهلين بالمؤثرات اللغوية الأعجمية اذن الى عاملين : عامل الاختلاط بالأعاجم عن طريق الجوار او السكن معهم في موضع واحد ، واستخدامهم لهم ومحبي الأجانب من تجار ومبشرين اليهم ، وعامل الحاجة التي كانت تدفع الىأخذ أشياء غير معروفة في بلاد العرب ، فتدخل العربية بأسماها الأعجمية ، فإذا انقضى زمن عليها ، تدخل في ضمن اللسان العربي وتعرب ، حتى ليختفي الى من لا يعرف أصلها أنها عربية الأصل والنجران .

ولما تقدم نرى ان المurbات عن السريانية والفارسية هي أظهر وأبرز في لهجات عرب العراق من المurbات الأخرى، وان المurbات عن السريانية واليونانية – اللاتينية أبرز وأوضح في لغة عرب بلاد الشام من المurbات المنقولة عن الفارسية او الحبشية. وان المurbات عن الحبشية واللهجات الافريقية ، هي أوضح وأكثر ظهوراً في لهجات العرب الجنوبيين من المurbات الأخرى ، وذلك بسبب اختلاط العرب الجنوبيين بأهل الساحل الافريقي الشرقي ووجود جاليات افريقيبة في العربية الجنوبية وجاليات عربية جنوبية في السواحل الافريقية المقابلة منذ أيام ما قبل الميلاد ، فأدّى هذا الاختلاط والتجاور الى الأخذ والعطاء في اللغة . كما نجد المurbات عن الهندية والفارسية والإرمية ظاهرة بارزة على ألسنة أهل الخليج ، لاتصالهم بالهند وبفارس وبالعراق .

وأما مثال ظهور المurbات بسبب الحاجة ، فهو ما نجده في لهجة أهل يرب وما حوطها من مؤثرات فارسية وسريانية في الزراعة بصورة خاصة وفي نواح آخرى من نواحي الحياة الاجتماعية ، فقد استعمل أهل المدنية ألقاظاً فارسية في لهجتهم ، بسبب حاجتهم وظروفهم . فأرضهم أرض خصبة ذات آبار ومياه ، ولما كانوا في حاجة الى أيدي عاملة لتشغيلها لاستغلال مواردها استعنوا بالرقين ، وكان معظم الرقيق الذي جيء به ، من رقيق العراق الذي يرجع الى أصل فارسي ، أو نبطي متاثر بالفارسية ، لرخص ثمنه بالنسبة الى رقيق الروم ، ولفظته ولمهارته في الحرف

بالنسبة لرقيقية ، وعن طريق هذا الرقيق دخلت المعربات الفارسية والنبطية المستعملة في الزراعة وفي أمور أخرى عرف بها الفرس والنبط إلى ( يرب )<sup>١</sup> . أما أهل مكة ، فلم تظهر المعربات الزراعية عندهم ، لعدم وجود حاجة لهم إليها ، بل استخدموها معربات أخرى في الأمور التي كانوا محتاجة إليها ، والتي لم يكن لها وجود عندهم ، وقد دخلت إليهم من أماكن مختلفة ، كان لهم تعامل معها ، ومن الرقيق والتجار الغرباء الذين كانوا يعيشون بها .

ولبعض المحدثين بحوث في الدخيل من السريانية على العربية ، من جملتها بحث للمستشرق ( فرنكل ) Fränkel ، دعاه ( الألفاظ الآرامية الدخيلة على العربية ) Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen المستشرقون في هذا الباب . كما أن آباء الكنيسة الشرقيين مؤلفات وبمحوّلها في الألفاظ السريانية في العربية ، وضعوها بالعربية ، نشر بعضها في مجلة المشرق ، ونشر بعض آخر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ونشر بعضه في كتب ، مثل كتاب : ( غرائب اللغة العربية ) ، تأليف الأب رفائيل نخلة اليسوعي ، وفيه باب خاص بالكلمات الدخيلة في العربية الداخلة فيها من الآرامية والعبرانية والفارسية واليونانية ومن التركية واللاتينية والإيطالية والفرنسية ومن لغات أخرى<sup>٢</sup> . وفي بعض هذه البحوث تسرع في الأحكام ، إذ فيها ألفاظ نسبت إلى أصل سرياني ، وهي من الألفاظ الواردة في اللهجات العربية القديمة ، وفيها مما يرد في العربية وفي اللغات السامية الأخرى ، لأنه من المشترك الذي يرد في أصول الساميّات .

وقد رأيت اختبار ألفاظ في الزراعة أو ألفاظ لها علاقة بها ، من القائمة التي أوردها ( الأب رفائيل نخلة اليسوعي ) ، للألفاظ الآرامية الداخلة في العربية ، وذلك للرقوف عليها ، ولتكوين فكرة عنها ، وبعض هذه الألفاظ هو في رأيي مما استعمله العرب قبل الإسلام ، ووارد في النصوص الجاهلية ، فمن الصعب ارجاعه إلى أصل آرامي من غير نص أو دليل منطقي مقبول ، وبعضه من النوع الوارد في العربية وله أصل عربي ، فلا يمكن أن يقال إنه من أصل آرامي ،

١- البيان والتبيين ( ١٠/١ ) .  
٢- المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠ .

لمجرد وجود مرادف له أو لفظ مقارب له ، وبعض آخر هو من الألفاظ التي ترد في كثير من اللغات السامية فلا يجوز تخصيصه بالسرياني ، وارجاع أخذ العرب له من هذا الأصل .

ومن اللهجات في الزراعة وما يتعلّق بها وبالفواكه والحبوب والأزهار وما شاكل ذلك : (آس) وهو من أصل سرياني هو (اسو) ، و (أب) بمعنى ثمرة من (أبو) ، و (ارف) و (أرفى) من أصل سرياني كذلك بمعنى قسم الأرض وحدتها ، ومن يمسح الأرض ويحدتها . و (أكتار) بمعنى حرات ، أي من يحرث الأرض من أصل Akoro ، و (أنبوب) ، من (أبوبو) Aboubo بمعنى قصبة وأنبوب أجوف وما بين عقدتين من القصب ، و (اندر) بمعنى بيلدر ، من (ادرو) Edro و (باسور) بمعنى عنبر غير ناضج ، و (باكورة) ويراد بها أول الشمر من Bakorto و (بطيخ) ، أي البطيخ من fatiho ، و (بور) صفة للأرض من (بورو) bouro و (بيب) ، بمعنى قناة ومجرى الماء إلى الحوض من أصل (بيبو) bibo ، و (بيلدر) من bayt-edro و (بن) من (تبني) ، و (نخم) بمعنى حد من أصل (تحومو) thoumo و (ترعة) ، بمعنى قناة عميقة من (ترعتو) و (توت) من goubno (تonto) و (ثوم) من toumo و (جن) من أصل Hardlo (الجرن) والجريب من gribo ، و (جرام) بمعنى نواة من أصل garmo ، و (الجرن) ويراد به حجر منقول للاء وغيره من Gourno ، و (الحب) بمعنى الجرة الكبيرة من (حبو) Houbo و (حصن) من (حصو) Hemso و (حدائق) من Handqouqo ، و (خبيص) ، بمعنى حلوي مخصوصة ، من طحين وسمن وعسل وأصلها (حيصو) Habiso ، و (الخردل) من (حدل) Hardlo ، و (خس) من (خسو) Haco ، و (الخوص) الذي يكون على السعف من (حوصو) Houso ، والخلوخ من Houho و (الدببة) البقعة المزروعة أي الحقل من (دبرو) dabro و (دبس) أي الدبس من debcho و (دقن) من debeq و (درس) ، كان يقول درس الخنطة من drach و (دقلة) أي نخلة من deqlo و (رُب) وهو ما يختار من عصير الثمار من أصل Raubo و (رحى) من Rahyo و (رمان) من أصل Roumono و (ريحان) من Rihno و (زين) بمعنى باع الشمر على شجره من Zaban بمعنى باع

و (زبون) يعني مشتري من Zobouno و (زفت) من أصل Zefto و (زق) من Zeqo و (زمارة) ، قصبة يزمر بها من Zamorto و (زيت) من Sekto و (زيتون) من Zaytouno و (سكة) مثل سكة المحراث من Zayto و (سكر) ما يسد به النهر ، من Chakro و (سلام) أي شوك التخل من Salwo و (سماق) من أصل Sawmoqo ، و سنبل الحنطة من Seblo و (سنبل) يعني نبات طيب الرائحة من Sanboul و (شلة) ما قلع من النبات ليغرس في مكان آخر من أصل Chetlo ، و (شرعوف) نبات وثير من أصل Sour'afو و (شالم) و (شولم) و (شيلم) من Chaylmo و (صعتر) من Setro و (صفصاف) من Safsofo و (مطمورة) ، وهي حفرة تحفر في الأرض يوسع أسفلها لحفظ الحبوب من matmourto و (عنق) أي عنقود عنب أو نخل من (عدق) daq' و (عفص) من afso ، و (عقسار) خر ونبات يتداوى به ، وقد سمي العرب الخمر دواء من أصل egro ، و (عنبر) من enbo ، و (عنقر) جذر القصب من eqoro يعني جذر و (عود) وهو العود الذي يتبعثر به من ouda و (غابة) من أصل obto يعني غابة كثيرة الأشجار ، وغدير يعني نهر وبركة يترکها السيل من gadiro ، و (غرب) نوع من الحور من أصل arbo' ، و (فجل) من fouglo ، و فدان من أصل fadno' ، و (فرث) ، من ferto و (الفروج) من Farougo ، و (الفرخ) من farahto و (فرع) يعني غصن من (فرعو) Fer'o ، و (فتح) مثل (فتح النبات) يعني أزهر من أصل (فتح) fqah ، و (فتح النبات) أي زهره من أصل (فتحو) fagho ، و (فقد) ، يعني شراب من زبيب أو عسل من (فودو) fqodo ، و (فل) وهو زهر يشبه الياسمين من (فلو) Falo ، و (قتاء) من qtouto ، و (قش) من qecho ، و (قصر) وهو ما يبقى في الغربال من النفاية ، من أصل (قصر) qisro أي قشرة الحنطة ، و (قطران) وهو سائل زبي يسخراج من بعض الأشجار من أصل (قطرون) qotron ، و (قفيز) وهو مكيال من (قفيزو) qfizo ، و (قصص) من (قصسو) qafso ، و (قلة) يعني جرة كبيرة من (قلتو) qoulto ، و (فتح) أي حنطة ، من (فتحو) qamho ، و (كاث) وهو ما ينت ما انتز من الزرع المحصور من koto ، و (كدادس) الحب المحصور المجموع من

(كديخو) qdicho ، و (كره) بمعنى حمل ستة أو قار حمار ، أو ستون قفيزاً من (كورو) Kouro ، و (كرب) من أصل (كرب) Krab ، و (كراث) Krak ، من Karoto ، و (كرخ) بمعنى أجري وحول من (كرخ) Krak ، و (كرفس) من (كرفسو) Krafso و (كزبرة) من (كوزبرتو) Kouzbarto و (كمثري) من (كومترو) Komatro ، و (معين) نعت للاء الجاري على وجه الأرض من (مينو) m'ino ، و (نجر) من (نجر) Nagar ومنها التجار ، و (نشوق) من (نسکو) Nosko و (نظر) بمعنى حرس من (نظر) Ntar ومنها الناطور أي الحارس ، و (نطار) وهو ما يكون على هيئة رجل ينصب بين الزرع لإنجذبة الطيور وإبعاد الحيوانات المضرة به من (نوطورو) notoro ، و (نيطل) بمعنى دلو من (نطاو) notlo ، ونعناع من mon'o ، و (نورج) سكة المحراث من (نورجو) Norgo ، و (نير) وهي خشبة مغترضة في عنقى ثورين يجران محراً من (نيرو) Niro ، و (هرطان) من qourtomo ، ويل ووابل بمعنى المطر الشديد من (يسل) Yibal ، و (ورد) من (وردو) Wardo ، و (وسق) بمعنى حمل بغير من (وسقو) Wasqo ، و (يتوع) ، كل نبات له لبن ، أي سائل أيض في داخله يشبه اللبن من (يتوعو) Yatou'o .

وقد وردت لفظة (الأب) في القرآن الكريم: « وفاكهه وأبا . متابعاً لكم ». وقد ذكر أن (عمر) قال : « قد عرفنا الفاكهة فـا الأـب؟ » قال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا هو التكـلـف »<sup>٣</sup> ، وقد اختلف المفسرون في المراد منها ، مما يدل على أن اللـفـظـةـ لم تـكـنـ مـعـرـوفـةـ عـنـهـمـ مـعـرـفـةـ وـاضـحـةـ ، وـفيـ كـلـامـ عمرـ : « إنـ هـذـاـ هـوـ التـكـلـفـ » ، أو قوله : « ماـ كـلـفـنـاـ أـوـ ماـ أـمـرـنـاـ بـهـذـاـ »<sup>٤</sup> دـلـالـةـ علىـ عـدـمـ وـضـوحـ معـناـهـاـ عـنـهـ وـعـنـ النـاسـ . وـهـيـ بـعـنـيـ ( ثـمـرـةـ )ـ فـيـ الإـرـمـيـةـ منـ

غائب اللغة (من الصفحة ١٧٢ الى الصفحة ٢١٠) .

٢ عبس ، الآية ٣١

٤٧٢/٤ تفسير ابن كثير (٤٧/٣٠)، تفسير الالوسي (٣٨/٣٠)، تفسير الطبرى (٣٠/٣٨)، وما بعدها .

٤ تاج العروس (١٤٢/١) ، (أب) .

Ebo ، وقد ذهب العلماء الى أن ( الأب<sup>١</sup> ) ما تنبت الأرض للأنعام والماشية<sup>١</sup> ، فهي في معنى آخر ، يخص العشب والكلأ وما تنبت الأرض ليعلفه الحيوان في رأي غالبية العلماء ، غير المعنى الوارد لها في السريانية .

وأما ( الارف ) ، فبمعنى تقسيم الأرض وتحديدها ، ويقال مَن يمسح الأرض ويعلن حدودها ( ارفو ) Arfo في الارمية<sup>٢</sup> ، وقد ذكر علماء اللغة أن الارف الحدود بين الأرضين ، أو معالم الحدود بين الأرضين . « وفي حديث عثمان رضي الله عنه ، الارف تقاطع الشفعة ، وهي العالم والحدود . هذا كلام أهل الحجاز ، وكانوا لا يرون الشفعة للجار »<sup>٣</sup> .

وأما ( الأكار ) فيذكر علماء اللغة أنها من أصل ( أكر ) ، بمعنى ( حفر ) ، والأكار بمعنى الحفار والحراث والزارع . ومن ذلك حديث « أبي جهل : قلو غير أكار قتلني » ، أراد به احتقاره وانتقاده<sup>٤</sup> . وتقابل هذه اللفظة لفظة ( اكورو ) Akoro في الارمية التي هي « أكار »<sup>٥</sup> .

وبين الألفاظ التي ذكرتها ألفاظ لا يوجد دليل على أنها معرفة من أصل إرمي لأننا نجد ان لها جذراً عربياً ، وهي ليست من المسميات التي لم يعرفها العرب حتى نقول أنها استوردت من الخارج ، أو ان الحاجة حملت العرب على تعلمها من الرقيق الذي كان عندهم أو من المبشرين أو التجار الغرباء .

وأما العرب عن الفارسية مما يخص الزراعه ، فأكثره في أسماء أئمار أو أزهار أو رواح وعطور ، مثل ( الخربز ) بمعنى البطيخ ، من أصل ( خربوزة ) . وفي الحديث عن أنس قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الخربز والرطب » . وفي الحديث عن عائشة : « يأكل البطيخ بالرطب »<sup>٦</sup> . و ( السيسنير )

- |   |   |
|---|---|
| ١ | الموارد المذكورة  |
| ٢ | غرائب اللغة ( ١٧٢ )   |
| ٣ | تاج العروس ( ٦/٣٩ ) ، ( أرف )   |
| ٤ | تاجر العروس ( ٣/١٧ ) ، ( أكر )  |
| ٥ | غرائب اللغة ( ١٧٣ )   |
| ٦ | الجواليقي : العرب ( ص ١٣٧ ) ، فتح الباري ( ٤٩٦/٩ ) ، عون المعبود ( ٤٢٧/٣ )<br>وما بعدها |

نوع من الريحان<sup>١</sup> ، و (الجل) بمعنى الورد<sup>٢</sup> ، و (الجلاب) أي ماء الورد . وقد وردت اللفظة في حديث عائشة عن الرسول<sup>٣</sup> . وذلك دليل على ان اللفظة كانت معروفة قبل أيام الرسول . ويلاحظ ان لفظة ( بطيخ ) هي من الألفاظ المعرفة كذلك ، عربت من أصل ( فطيخو ) بلغةبني لارم<sup>٤</sup> .

وقليل منه ما يخص آلات الزراعة أو الأرض ، مثل ( بستان ) والجمع ( بساتين )<sup>٥</sup> ، وذلك لأن غالبية الدين كانوا يفلحون الأرض ويزرعونها في العراق وفي بلاد الشام ، هم منبني لارم أو من المتكلمين بلغتهم ، وباحتکاك العرب به تعلموا أسماء الآلات والأدوات وطرق حرف الأرض وزرعها ، وأسماء كثیر من الزروع ومقاييس الأرض وطرق الاستفادة من الأرض ، فدخلت إلى العربية . أما الفرس في العراق ، فلم يكونوا يباشرون زراعة الأرض وفلاحتها في العراق ، وإنما كان ( مرازيتهم ) وأثرياؤهم يمتلكون الأرضين الواسعة ، ويسخرون أهل البلاد في استغلالها لهم ، ولهذا لم ترك لغتهم أثراً كبيراً يشبه الأثر ( الإرمي ) من ناحية الزراعة في العربية .

أما المعربات في الزراعة عن اليونانية ، فأقل عدداً ، إذ لم يكن العرب على اتصال مباشر بالمزارعين اليونان ، لهذا لم يأخذوا عنهم كثيراً . والمعروف من المعربات في هذا الباب هو في أسماء نمر نبات أو بنور ، أو ما يتعلق بمحاصيل عنب ، مثل التمور ، فقد كان أهل الحجاز يستوردون التمور من بلاد الشام ، وقد تعلمها أهل هذه البلاد من الروم بأسماها اليونانية . ولما أخذها العرب من بلاد الشام ، حرروا الأسماء بعض التحرير لتلائم المنطق العربي .

ومن هذه المعربات : ( الاسفنت ) : وهي أجود التمور الطيب من عصير العنب ، من أصل ( افستين ) Apsinthion ، كان التمر يطيب به<sup>٦</sup> . و ( خندروس ) ، ويراد بها نوع حنطة ، أو حنطة مجروشة من أصل Kandhros<sup>٧</sup> ، و ( خندريس ) ويراد بها خر معتفقة ، ونعت التمر مصنوعة من

١ الجواليفي ( ص ٨٠ ، ١٠٥ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٣٥ ) .

٢ الجواليفي ( ص ١١٥ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٢٣ ) .

٣ الجواليفي ( ص ١٠٦ ) فتح الباري ، لابن حجر ( ٣١٧ / ١ ) ، المزهر ( ٢٧٦ / ١ ) .

٤ غرائب اللغة ( ١٧٤ ) .

٥ الجواليفي ( ص ٥٣ ) .

٦ الجواليفي ( ص ١٨ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٥٢ ) .

٧ غرائب اللغة ( ص ٢٥٧ ) ، « وأخبرنا عن يعقوب أن « الخندرس » : القديمة .

يقال : حنطة خندريس ، أي قديمة » ، الجواليفي ( ص ١٢٥ ) .

الكرم اسمه Kantharios<sup>١</sup> . و ( زنجبيل ) ، وهي من أصل zinguiveri . ومن الألفاظ الواردة في القرآن الكريم . وقد ذكرت في شعر منسوب إلى الأعشى<sup>٢</sup> . و ( القرقل ) ، من أصل Kariofillon<sup>٣</sup> . و ( كافور ) من Kafoura . وفي السريانية qafouro<sup>٤</sup> . و ( المسطار ) ، ويراد بها الحمر التي اعتصرت من أبكار العنب حديثاً<sup>٥</sup> ، وأصلها ( مسطس ) Moustos<sup>٦</sup> . و ( نرجس ) من أصل Narkisos<sup>٧</sup> .

وببلاد الشام أكثر شهرة من العراق في الأعشاب ، وهي مادة صالحة لصناعة متعددة من الحمور . أما أهل العراق ، فقد استخرجوا خرهم من التمر ، فلم يعرف لهذا السبب بتتنوع الحمور . وقد استغل سكان جزيرة العرب التمور أيضاً لاستخراج الحمور منها ، وذلك في الأماكن التي تكثر فيها التخليل ، وتقتل أشجار الكروم . ولاتصال الحجاز ببلاد الشام بالقوافل الكبيرة ، كانت الحمور من أهم السلع التي تستوردها القوافل من تلك البلاد .

ومن الألفاظ الآرامية التي دخلت في العربية ، ولها معانٍ دينية لفظة ( ابل ) يعني تسلك من «ébal» ، و (تأبل) يعني (حزن) من «étebal» ، و (أبيل) يعني راهب من (أبيلو) «abilo» الإرمي يعني ناسك وراهب<sup>٨</sup> . وقد جعلها ( الجواليفي ) فارسية الأصل<sup>٩</sup> ، وهو خطأ منه . و ( الباورث ) ، صلاة ثانية عيد الفصح في بعض الطوائف من أصل «bo'outo» يعني صلاة وطلب<sup>١٠</sup> : و ( برخ ) يعني زيادة ونماء من ( برختو ) bourhito يعني بركة وعطية<sup>١١</sup> . و ( البيعة ) من ( بيعتو ) Bi'to<sup>١٢</sup> . و ( الدنح ) ، ويراد بها عيد الغطاس ،

١ غرائب اللغة (ص ٢٥٧) .

٢ الجواليفي (ص ١٧٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٩) .

٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٥) .

٤ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) ، الجواليفي (ص ٢٨٥ وما بعدها) .

٥ الجواليفي (ص ٣٢١) .

٦ غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .

٧ غرائب اللغة (ص ٢٧١) .

٨ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .

٩ الجواليفي (ص ٣٠) .

١٠ الجواليفي (ص ٥٧) ، غرائب اللغة (ص ١٧٣) .

١١ الجواليفي (ص ٨١ وما بعدها) ، وغرائب اللغة (ص ١٧٤) .

١٢ الجواليفي (٨١) ، غرائب اللغة (ص ١٧٥) .

من أصل (دنهو) *denho*<sup>١</sup> . و (دير) أي بيت الرهبان ، من أصل دار<sup>٢</sup> . و (ديراني) نسبة الى (دير) ، من أصل *Dayronoyo*<sup>٣</sup> . و (رباني) ، يعني عالم بشريعة اليهود ، وحاخام أي معلم من أصل (ربونو) *Rabono*<sup>٤</sup> . و (روح القدس) من (روح قدشو) *Rouhqoudcho*<sup>٥</sup> . و (مزמור) من (مزמורو) *Mazmouro*<sup>٦</sup> . و (سلاق) عبد صعود السيد المسيح، من *Souloqo* أي صعود<sup>٧</sup> . و (صلة) من (صلوتو) *Slouto*<sup>٨</sup> . و (قس) (قبس) من (قشيشو) *Qachicho*<sup>٩</sup> . و (القوس) ويراد بها الصومعة ، من أصل *Kaucho* ، يعني عزلة<sup>١٠</sup> . و (ناقوس) من أصل *noqouch*<sup>١١</sup> . وهناك ألفاظ أخرى لها معانٍ دينية ، لم تكن شائعة معروفة إلا بين النصارى ، لذلك لم أر حاجة إلى الاشارة إليها ، ثم إن من الصعب البرهنة على أنها كانت مستعملة عند النصارى الجاهليين .

وباتصال العرب باليهود في الحجاز ، دخلت في العربية ألفاظ ومصطلحات دينية ، عُربت ، مثل : (آمين) من أصل (امن)<sup>١٢</sup> ، و (اسرائيل) و (اسرائين) من (يسرائيل) (ي س رال)<sup>١٣</sup> ، و (تابوت) (ت ب ه)<sup>١٤</sup> من آيات تعرضت للتصرانة في ذلك العهد .

وباتصال العرب باليهود في الحجاز ، دخلت في العربية ألفاظ ومصطلحات دينية ، عُربت ، مثل : (آمين) من أصل (امن)<sup>١٢</sup> ، و (اسرائيل) و (اسرائين) من (يسرائيل) (ي س رال)<sup>١٣</sup> ، و (تابوت) (ت ب ه)<sup>١٤</sup>

- |    |  |
|----|--|
| ١  | الجواليقي (ص ١٤٤) ، الآثار الباقية (ص ٢٩٢ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ١٨١) |
| ٢  | الجواليقي (ص ١٨٧) ، غرائب اللغة (ص ١٨٢)                                    |
| ٣  | غرائب اللغة (ص ١٨٢)  |
| ٤  | غرائب اللغة (ص ١٨٢)  |
| ٥  | غرائب اللغة (ص ١٨٤)  |
| ٦  | غرائب اللغة (ص ١٨٥)  |
| ٧  | الجواليقي (ص ١٩٦) ، غرائب اللغة (ص ١٨٨)                                    |
| ٨  | غرائب اللغة (ص ١٩٣)  |
| ٩  | غرائب اللغة (ص ٢٠١)  |
| ١٠ | الجواليقي (ص ٢٧٨) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٢)                                    |
| ١١ | الجواليقي (ص ٣٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٨)                                    |
| ١٢ | غرائب اللغة (ص ٢١١)  |
| ١٣ | الجواليقي (ص ١٣ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢١١)                           |
| ١٤ | غرائب اللغة (ص ٢١١)  |

معنى صندوق خشب و ( تلمود )<sup>١</sup> و ( توراة ) من ( تورا ) بمعنى تعليم وشريعة<sup>٢</sup> ، و ( جهنم ) من ( جي هن ) ، بمعنى وادي هن ، وهو جنوب أورشليم ، أي القدس ، وقد كثُر فيه قبل الميلاد إحراق الأطفال تصحية لإله المعنين<sup>٣</sup> . و ( حبر ) من ( حبر ) ( ح ب ر ) بمعنى (الرفيق) في الأصل، ثم خصصت<sup>٤</sup> بعلم . و ( اسرافيل ) من ( سرافيم ) ( س ر ف ي م ) ، ملك من الملائكة الكبار<sup>٥</sup> . و ( سبت ) اسم يوم ، من ( شبت ) بمعنى يوم الراحة، واستراح<sup>٦</sup> . و ( سبط ) ، قبيلة من قبائل اليهود الاثني عشر ، من ( شبط)<sup>٧</sup> ، و ( مدراس ) ، بمعنى معهد تدرس فيه التوراة ، من ( مدرش)، (مدراش)، أي بحث وشرح نص<sup>٨</sup> .

ولفظة ( نبي ) ( نابى ) Nabi المستعملة في عربتنا من الألفاظ الواردة في التوراة ، وردت (٣٠٠) مرة في مواضع مختلفة منها<sup>٩</sup> . وترد في لغةبني لرم أيضاً ، حيث وردت على هذه الصورة : Nbiyo<sup>١٠</sup> . وقد ذكر علماء اللغة أنها من المعربات<sup>١١</sup> .

وأخذت العربية من العبرانية ألفاظاً قليلة ذات صلة بالحيرف ، مثل (نابت) بمعنى صندوق من ( تبا ) Teba ، ويراد بها بمعنى صندوق في العبرانية<sup>١٢</sup> . و ( فطيس ) من ( بطيش ) Pattich بمعنى مطرقة<sup>١٣</sup> . و ( قدوم ) من (قردم) ( قرdom ) qardom بمعنى فأس ، و ( كرزن ) من ( كرزن ) بمعنى فأس كبيرة<sup>١٤</sup> .

- ١ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
- ٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
- ٣ الجواليفي (ص ١٠٧) ، غرائب اللغة (ص ٢١١) .
- ٤ لفنسون ، اليهود في جزيرة العرب (ص ٢٠) .
- ٥ الجواليفي (ص ٨) ، غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
- ٦ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
- ٧ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
- ٨ غرائب اللغة (ص ٢١٣) .
- ٩ Hastings, p. 767.
- ١٠ غرائب اللغة (ص ٢٠٦) .
- ١١ الرافعي ، تاريخ أدب العرب (٢٠٥/١) .
- ١٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
- ١٣ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
- ١٤ المصدر نفسه .

وقد احترف اليهود الحدادة والصياغة والتجارة في الحجاز ، وتكسبوا منها ، ورآهم الجاهليون ، وهم يعلمون **بـالاتـهم** ، فتعلموا منهم أسماء الآلات المذكورة وغيرها ، واستعملوها على النحو المذكور .

ويلاحظ ان الباحثين في المعرفات من المستشرقين والشريقيين ، رجعوا أصول ألفاظ يهودية الى السريانية ، وهي يهودية في الأصل ، وقد أخذتها السريانية من العبرانية بواسطة النصرانية ، بدليل ورودها في اليهودية قبل ظهور النصرانية بزمن . أما المجروسية ، ديانة الفرس ، فلم تترك أثراً يذكر في العربية من ناحية المعرفات ذات المعاني الدينية ، لقلة اتصال العرب بها ، وعدم اهتمام المجروس بنشر دينهم ، وقلة عددهم في جزيرة العرب . ولهذا كانت أكثر الألفاظ الدينية التي عرفها الجاهليون ، قد دخلت فيهم من اليهودية والنصرانية، بسبب اتصال اليهودية والنصرانية بالجاهليين اتصالاً مباشراً .

ولفظة (المجروسية) نفسها هي من الألفاظ العربية ، فهي من أصل Magush في الفارسية القديمة ، و Mugh في الفارسية الحديثة ، و Maghos في اليونانية ، وقد انتقلت من الإرمية الى العربية<sup>١</sup> . وفي الحديث : « كل مولد يولد على الفطرة حتى يكون أبوه مجسانه ، أي يعلمه دين المجروسية »<sup>٢</sup> . وذكر أن اللفظة قد وردت في بيت شعر جاهلي هو :

أحار أريشكَ برقاً هبَّ وهناَ كنار مجوس تستعر استعارا

يقال إن صدر البيت لامرئ القيس وعجزه للتوأم اليشكري ، « قال أبو عمرو ابن العلاء : كان امرؤ القيس مِعْنَى عَرِيشاً ينافع كُلَّ مَنْ قَالَ إِنَّه شاعر ، فنار التوأم اليشكري ، فقال له : إن كنت شاعرًا فلقط أنصاف ما أقول وأجزها ، فقال : نعم ، فقال امرؤ القيس :

أصحاب أريشك برقاً هب وهذا

قال التوأم :

كنار مجوس تستعر استعارا

١ Shorter Ency., p. 298. غرائب اللغة (٢٦٩) .

٢ تاج العروس (٤/٢٤٥) ، (مجس) .

قال أمرؤ القيس :

أرقـت له ونام أبو شريح

قال التوأم :

إذا ما قلتُ قد هـا استطـاراً

إلى آخر الشعر<sup>١</sup> . وإذا صـحـ هذا التـمـليـطـ ، تكونـ هـذـهـ الـلـفـظـةـ قدـ وـرـدـتـ فـيـهـ لـأـولـ مـرـةـ فـيـ شـعـرـ جـاهـلـيـ .

وـمـنـ الـأـلـفـاظـ الـيـ هـاـ صـلـةـ بـالـجـوسـيـةـ لـفـظـةـ (ـموـبـدـ)ـ وـ (ـموـبـدانـ)ـ ،ـ يـعـنـىـ الرـئـيـسـ الـدـينـيـ لـلـجـوسـ .ـ مـنـ أـصـلـ (ـموـبـدـ)ـ ،ـ يـعـنـىـ كـاهـنـ وـرـجـلـ دـيـنـ عـنـدـ الـفـرـسـ الـقـدـمـاءـ<sup>٢</sup> .

وـفـيـ بـابـ الـمـأـكـلـاتـ وـالـمـشـرـوبـاتـ وـمـاـ يـعـلـقـ بـهـاـ ،ـ نـجـدـ الـمـعـربـاتـ عـنـ الـفـارـسـيـةـ أـبـرـزـ وـأـظـهـرـ مـنـ الـمـعـربـاتـ الـمـأـخـوذـةـ مـنـ لـغـةـ بـنـيـ لـرـمـ ،ـ اوـ مـنـ لـغـةـ الـرـوـمـ وـالـلـغـاتـ الـأـعـجمـيـةـ الـأـخـرـىـ .ـ فـ (ـبـادـقـ)ـ ،ـ وـهـوـ ضـرـبـ مـنـ الـأـشـرـبـةـ ،ـ مـنـ أـصـلـ فـارـسـيـ ،ـ هـوـ (ـبـادـهـ)ـ (ـبـادـهـ)ـ يـعـنـىـ خـرـ ،ـ أـيـ شـرـابـ مـسـكـرـ<sup>٣</sup> .ـ وـلـفـظـةـ (ـبـاطـيـةـ)ـ وـيـرـادـ بـهـاـ إـنـاءـ زـجاجـ لـلـشـرـابـ ،ـ مـنـ أـصـلـ (ـبـادـيـهـ)ـ أـيـ جـرـةـ<sup>٤</sup> .ـ وـ (ـبـالـلـغـاءـ)ـ ،ـ يـعـنـىـ الـأـكـارـعـ مـنـ أـصـلـ (ـبـاهـاـ)ـ يـعـنـىـ أـرـجـلـ<sup>٥</sup> .ـ وـ (ـجـلـابـ)ـ أـيـ مـاءـ الـورـدـ ،ـ مـنـ أـصـلـ (ـكـلـ)ـ (ـكـلـ)ـ يـعـنـىـ وـرـدـ،ـ وـ (ـآبـ)ـ يـعـنـىـ مـاءـ<sup>٦</sup> .ـ وـ (ـجـوزـيـنـجـ)ـ (ـجـوزـيـنـقـ)ـ مـنـ الـحـلـاوـاتـ ،ـ وـتـعـمـلـ مـنـ الـجـوـزـ .ـ مـنـ أـصـلـ (ـكـوـزـيـنـةـ)<sup>٧</sup> .ـ وـ (ـخـرـبـيـزـ)ـ الـبـطـيـخـ ،ـ مـنـ أـصـلـ (ـخـرـبـوـزـ)<sup>٨</sup> .ـ وـ (ـخـشـكـنـانـ)<sup>٩</sup> ،ـ وـ (ـخـشـكـارـ)ـ ،ـ

١ المسـانـ (ـ٢١٣ـ /ـ ٦ـ وـمـاـ بـعـدـهـاـ)ـ ،ـ (ـمـجـسـ)ـ .

٢ غـرـائـبـ الـلـغـةـ (ـ٢٤٦ـ)

٣ الـمـعـربـ ،ـ لـلـجـوليـقـيـ (ـصـ ٨١ـ)ـ ،ـ غـرـائـبـ الـلـغـةـ (ـصـ ٢١٧ـ)ـ ،ـ الـخـفـاجـيـ ،ـ شـفـاءـ الـفـلـيلـ وـمـاـ دـخـلـ فـيـ كـلـامـ الـعـربـ مـنـ الدـخـيلـ .

٤ الـمـعـربـ (ـصـ ٨٣ـ)ـ ،ـ غـرـائـبـ الـلـغـةـ (ـصـ ٢١٨ـ)ـ ،ـ الـدـرـاسـاتـ الـاـدـبـيـةـ ،ـ ١٩٥٣ـ ،ـ الـجـزـءـ (ـ٣ـ وـ٢ـ)ـ ،ـ (ـصـ ٩ـ)ـ ،ـ التـبـادـلـ الـلـغـويـ بـيـنـ الـعـرـبـيـةـ وـالـفـارـسـيـةـ ،ـ لـجـلالـ الـدـيـنـ هـمـاـيـونـيـ ،ـ السـنـةـ الثـانـيـةـ ١٩٦١ـ مـ ،ـ (ـصـ ٣٧٥ـ)ـ ،ـ صـورـ مـنـ التـعـرـيبـ وـنـقـلـ الـمـعـانـيـ مـنـ الـفـارـسـيـةـ إـلـىـ الـعـرـبـيـةـ)ـ .

٥ الـمـعـربـ (ـصـ ٥١ـ)ـ ،ـ غـرـائـبـ الـلـغـةـ (ـصـ ٢١٨ـ)ـ .

٦ الـمـعـربـ (ـصـ ١٠٦ـ)ـ ،ـ اـبـنـ حـجـرـ ،ـ الفـتـحـ (ـ٣١٧ـ /ـ ١ـ)ـ ،ـ غـرـائـبـ الـلـغـةـ (ـصـ ٢٢٣ـ)ـ .

٧ الـمـعـربـ (ـصـ ٩٩ـ)ـ ،ـ غـرـائـبـ الـلـغـةـ (ـصـ ٢٢٤ـ)ـ .

٨ الـمـعـربـ (ـصـ ١٣٧ـ)ـ ،ـ غـرـائـبـ الـلـغـةـ (ـصـ ٢٢٥ـ)ـ .

٩ الـمـعـربـ (ـصـ ١٣٤ـ)ـ .

أي خبز مصنوع من قشر الخنطة والشعير ، من أصل (خشك) ، يعني يابس وآرد ، يعني طحين<sup>١</sup> . و (خوان) يعني مائدة<sup>٢</sup> ، و (دوق) يعني لبن استخرج زبله ، من أصل (دوغ) ، يعني لبن حامض<sup>٣</sup> . و (فالوذج) (الفالوذ) (الفالوذة) ، نوع من الحلوا ، من أصل (فالوده) (پولاد)<sup>٤</sup> . ويدرك أهل الأخبار : أن عبدالله بن جدعان كان يطعم العرب هذا الطعام ، فدح<sup>٥</sup> . و (القند) ، السكر<sup>٦</sup> ، و (الكعك) ، من أصل (كاك)<sup>٧</sup> . و (اللوزينج) نوع من الحلوا ، من أصل (لوزينه)<sup>٨</sup> ، و (الأنبار) أهراء الطعام ، واحدتها (تبَرُّ) ، و (أنابير) جمع الجمع<sup>٩</sup> ، من أصل (انباشن) يعني خزن<sup>١٠</sup> . و (الدرمك) ، وهو الدقيق الأبيض ، أي لباب الدقيق ، و (الجردق) ، و (السميد)<sup>١١</sup> .

و (السكباج) ، وهو لحم يطبخ بخل ، من أصل (سركه باجة) ، و (السكبينج) دواء ، وصين شجرة بفارس ، و (السكرجه) قصاع يؤكل فيها صغار<sup>١٢</sup> ، و (الزيرباج) ، و (الاسفیداج) ، و (الطباهج) ، و (التفرينج) من ألوان الطبيخ<sup>١٣</sup> .

وبسبب ذلك ان الفرس كانوا أرفع مستوى من بني ادم في الحياة الاجتماعية ، وأكثر تقدماً في الحياة البيتية منهم ، فتغتنوا في المأكل والملابس، وتتنوعوا في المطبخ وافتنتوا في تنويع الأكل ، وأوجدوا لكل طعام اسماً ، لم تعرفه لغة بني ادم ،

- |    |   |
|----|---|
| ١  | غرائب اللغة (ص ٢٢٦) .   |
| ٢  | المغرب (ص ١٢٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٦) ، الخفاجي (ص ٨٧ وما بعدها) . |
| ٣  | المغرب (ص ١٥٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .                            |
| ٤  | المغرب (ص ٢٤٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩) .                            |
| ٥  | مجمع الامثال (٧٣/٢) .   |
| ٦  | المغرب (ص ٢٦١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤١) .                            |
| ٧  | المغرب (ص ٢٩٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٣) .                            |
| ٨  | المغرب (ص ٢٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٤) .                            |
| ٩  | المغرب (ص ٢٠) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .                             |
| ١٠ | غرائب اللغة (ص ٢١٧) .   |
| ١١ | المزهر (١/٢٧٥) .  |
| ١٢ | تاج العروس (٢/٥٩) ، (سکبیج) .                                     |
| ١٣ | المزهر (١/٢٧٦) .  |

لأنهم لم يكونوا يعرفون تلك الأطعمة ، وباحتكاك العرب بالفرس وبيفي لارم الذين اقتبسوا من الفرس بعض تلك المأكولات تعلموا منها أنواع الأطعمة ، وأنخذوا منهم أسماءها أيضاً ، ودخلت على بعضها الصنعة ، لتحويلها وفق قواعد النطق العربي .

ويينطبق ما قلته عن المعربات الفارسية في الأكل والمشروبات وما يتعلق بها ، على المعربات من الفارسية في العطور والروائح والطيب وما يتعلق بها ، وعلى بعض العوائد الاجتماعية ، ولا سيما بين العرب الذين كانوا على اتصال مباشر بالفرس . فقد تأثروا بحكم هذا الاتصال بهم ، واقتبسوا منهم بعض عوائدهم ، مثل استخراج ماء الورد المسمى ( جلاب ) ، وهو ( ماء الورد ) للطيب به<sup>١</sup> . وقد وردت لفظة ( الجل ) ، ومعناها الورد في بيت شعر للأعشى<sup>٢</sup> . وكذلك ( الجلسان ) ، وقد ذكر أن ( الجلسان ) من ( كلشان ) ( Kleshan ) ، أي ما يثير من الورد على الحاضرين في العرس ، وذكر أنها الورد ، أو قبة يجعلون عليها الورد<sup>٣</sup> . و ( القمع ) ، قبضة ماء الزهر أو نحوه ( ققمة )<sup>٤</sup> . وتعني لفظة كوكوميون Koukkoumion ، وهي ( ققمه ) وعاء من نحاس تسخن الماء في اليونانية<sup>٥</sup> . ولعل أحدي اللغتين قد استعارتها من الأخرى . وقد رجع بعض علماء اللغة لفظة إلى الرومية ، أي اليونانية ، وذكر أن اللفظة وردت في بيت شعر لعنترة<sup>٦</sup> . و ( مسك ) من ( مشك )<sup>٧</sup> . و ( نافجة ) وعاء المسئ ، من أصل ( نافه ) من ( ناف ) بمعنى سرة<sup>٨</sup> .

واستعارت العربية من الفارسية ألفاظاً من الألبسة والأنسجة والخياطة ، وذلك

- ١      العرب ( ص ١٠٦ ) ٠
- ٢      وشاهدنا الجل والياسمين والمسممات بقصابها ٠
- ٣      العرب ( ص ١١٥ ) ٠
- ٤      العرب ( ص ١٠٥ وما بعدها ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٢٣ ) ٠
- ٥      العرب ( ص ٢٦٠ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٤١ ) ٠
- ٦      غرائب اللغة ( ص ٢٦٦ ) ٠
- ٧      وكان ربساً أو كجيلاً معقداً      حش الوقود به جوانب قمم  
        العرب ( ص ٢٦٠ ) ٠
- ٨      العرب ( ص ٣٢٥ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٤٥ ) ٠
- ٩      العرب ( ص ٣٤١ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٤٦ ) ٠

مثل (ابريسم) وهي من أصل (أبريشم)<sup>١</sup> و (استبرق) من أصل (استبرك)، أي ثوب حرير مطرز بالذهب<sup>٢</sup>. وقد ذكر علماء اللغة أنها من (استفره) و (استروه)<sup>٣</sup>. و (بركان) (برنكان)، كساء، من (برنيسان)<sup>٤</sup>. و (تخريص) (دخريص) من أصل (تيريز)<sup>٥</sup>، وورد أن (البنيقة) معربة كذلك من أصل (بنيك) في معنى (التخريص) و(الدخريص)<sup>٦</sup>. و (جريان) ويراد بها جيب القميص من أصل (كرييان)<sup>٧</sup>، و (الجلوالق)، من أصل (كوال) (جوال)، ومعناها عدل كبير منسوج من صوف أو شعر<sup>٨</sup>. و (الخسراني)، وهو الحرير الرقيق الحسن الصنعة، وهو منسوب إلى الأكاسرة أي الملوك<sup>٩</sup>. و (الدخلدار) وهو الثوب، من أصل (فتح دار)<sup>١٠</sup>. و (الديباج) من أصل (ديباباف) أي نساجة الجن<sup>١١</sup>، و (السيج)، وهو قيس بلا كمين ولا جيب، من أصل (شي)، أي ليلي<sup>١٢</sup>. و (سربال)، من أصل (سر بال)<sup>١٣</sup>. و (سروال)<sup>١٤</sup>. و (الشودر) الملحفة والإزار، من أصل (جادر)<sup>١٥</sup>. و (طيلسان) من (طيلسان) (تالسان)<sup>١٦</sup>. و (الفرند)، الحرير من (برند)<sup>١٧</sup>. و (الكرباس)<sup>١٨</sup>، ثوب خشن من (كرباس)<sup>١٩</sup>.

- |    |  |
|----|--|
| ١  | غرائب اللغة (ص ٢١٦)، العرب (ص ٢٧) .                              |
| ٢  | غرائب اللغة (ص ٢١٦) .  |
| ٣  | العرب (ص ١٥) .   |
| ٤  | العرب (ص ٥٦)، غرائب اللغة (ص ٢١٨) .                              |
| ٥  | العرب (ص ٨٧، ١٤٣)، غرائب اللغة (ص ٢٢١) .                         |
| ٦  | العرب (١٤٣) .  |
| ٧  | العرب (ص ٩٩)، غرائب اللغة (ص ٢٢٢) .                              |
| ٨  | العرب (ص ١١٠)، غرائب اللغة (ص ٢٢٤) .                             |
| ٩  | العرب (ص ١٣٥)، غرائب اللغة (ص ٢٢٥) .                             |
| ١٠ | العرب (ص ١٤١)، غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .                             |
| ١١ | العرب (ص ١٤٠)، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .                             |
| ١٢ | العرب (ص ١٨٢ وما بعدها)، غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .                   |
| ١٣ | غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .  |
| ١٤ | العرب (ص ١٩٦)، غرائب اللغة (ص ٢٣٤) .                             |
| ١٥ | العرب (ص ٢٠٥)، غرائب اللغة (ص ٢٣٧) .                             |
| ١٦ | العرب (ص ٢٢٧)، الجمهرة، لابن دريد (٤١٣/٣)، غرائب اللغة (ص ٢٣٩) . |
| ١٧ | العرب (ص ٢٤٣)، غرائب اللغة (ص ٢٣٩ وما بعدها) .                   |
| ١٨ | العرب (ص ٢٩٤)، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .                             |

وقد عرف الجاهليون ألقاب بعض القادة العسكريين والاداريين في الامبراطوريات اليونانية والفارسية ، فأدخلوها في العربية ، لأنها ألقاب رسمية نعت بها أولئك الموظفون الكبار ، وعرفوا بعض الرتب الكنسية كذلك . فيما دخل الى العربية من اليونانية واستعمل عند الجاهليين لفظة (بطريق) ، من أصل Patrikios<sup>١</sup> . وقد وردت في بعض الرسائل المنسوبة الى الغساسنة، ويراد بها درجة قائد في الامبراطورية البيزنطية . ولفظة (أسقف) ، وقد ورد في كتب السير : ان وفد نجران حين قدم على الرسول ، كان يتتألف من رؤساء المدينة أصحاب الحل والمقد ، ويلقبون بـ (السيد) و (العاقب) و (الأسقف) . والسيد عندهم صاحب رحلتهم ، والعاقب أميرهم وصاحب مشورتهم الذي يصدرون عن رأيه ، والأسقف حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم<sup>٢</sup> . ولفظة (أسقف) هذه من أصل يونياني هو Episkopos<sup>٣</sup> .

وأما (قيصر) التي يراد بها في العربية (امبراطور) الروم ، أي ملکهم ، فإنها من أصل لاتيني هو (سيسر) Caesar . وترد في كتب السير في معرض الكلام على الكتب التي أرسلها الرسول الى الروم والفرس والحبشة وبعض الأمراء<sup>٤</sup> .

ومن المصطلحات المأخوذة من الفارسية في هذا الباب ، (الأسوار) ، وهو الرامي ، وقيل الفارس، وقائد الفرسان<sup>٥</sup> ، من أصل (أسب سوار) ، و (أسب) الحصان ، و (سوار) على ظهر أي راكب ، ومعناها راكب الحصان أي فارس<sup>٦</sup> ، وتجمع (أسوار) على (أساوية) . وترد في الكتب أحياناً مضافة (أساوية الفرس) ، وتجمع على (أساور) و (أسورة) أيضاً ، وقد وردا جميعاً في الشعر<sup>٧</sup> .

وأما (الأشائب) ، ومفردتها (أشابة) ، فمعناها الأخلال من الناس من

- |   |  |
|---|--|
| ١ | غرائب اللغة (ص ٢٥٥) .  |
| ٢ | طبقات ابن سعد (ص ٢٥٧/١) .                                      |
| ٣ | غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .  |
| ٤ | طبقات ابن سعد (ص ٢٥٩/١) .                                      |
| ٥ | الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) ، الجمهرة (٢١٥/٢) ، اللسان (٥١/٧) . |
| ٦ | غرائب اللغة (ص ٢٦٦) .  |
| ٧ | الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) .                                   |

أصل (آشوب) . وذكر أنها عربية خالصة، من (أشب الشيء) بمعنى خلطه<sup>١</sup>. وترد لفظة (أنبار) و (الأنبار) ، وتعني أحراز الطعام ويقال للواحد (نبر) أيضاً وأما (الأنابير) جمع الجمع . وقد اشتهر موضع (الأنبار) على نهر الفرات على مقربة من الفلوجة ، وكان مأهولاً بالعرب عند ظهور الإسلام ، وقد ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب أن بعض أهل الحجاز ينسب أخذ أهل مكة الكتابة إلى قوم منهم ذكروا أنهم تعلموها من أهل الأنبار<sup>٢</sup>.

و (إيوان) في العربية ، الرواق . وهو مكان متسع من بيت تحيط به ثلاثة حيطان ، من أصل (أيوان) eyvan<sup>٣</sup> . وأما (الدهقان) ، فحاكم إقليم ، من (ده) بمعنى ضيعة و (خان) بمعنى رئيس قبيلة ، وذلك في الفارسية القديمة . وقد وردت اللفظة في بيت شعر للأعشى . وتجمع على (دهاقن)<sup>٤</sup> . وأما (كسرى) ، فلك من ملوك الفرس ، وهو (خسرو) Khosrow في الفارسية . ولكن الجاهليين جعلوا اللفظة لقباً لملوك إيران ، يقابل (شاه) أي الملك ، وصارت عندهم مثل : (قيصر) للروم ، وتبعه للبيزن ، والتجاشي للحبشة<sup>٥</sup> . وأما (المربزان) ، فالرئيس من الفرس ، وتفسيرها (حافظ الحد) في مقابل حاكم ووالى ولاية ، وتجمع على (المرازية)<sup>٦</sup> .

وأما لفظة (المربيذ) وتجمع على (المرابة) ، فخادم النار عند المجروس . وقيل: رئيس خدام النار الذين يصلون بال مجروس ، وقد تكلمت بها العرب قديماً . وقد وردت هذه اللفظة في بيت شعر لامرئ القيس<sup>٧</sup> . وأما (موبد) و (موبدان) فحاكم المجروس ، بعثابة القاضي عند المسلمين ، من (موبد) وهو الكاهن ورجل دين عند المجروس<sup>٨</sup> .

١ الجواليقي (ص ٢٧) . غرائب اللغة (ص ٢١٦) .

٢ الجواليقي (ص ٢٠، ٢٩) . غرائب اللغة (ص ٢١٧) .

٣ الجواليقي (ص ١٩) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .

٤ العواليقي (ص ١٤٦) ، اللسان (٢١/١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .

٥ العواليقي (ص ٢٧١، ٢٨٢) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .

٦ الجواليقي (ص ٣١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٥) .

٧ الجواليقي (ص ٣٥١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٨) .

٨ غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

أما أسماء النقود ، فإنها معبارات يرجع أصلها إلى الفارسية أو اليونانية أو اللاتينية . فقد كان الجاهليون يتعاملون مع الفرس والأرضين الخاضعة للإمبراطورية الرومية ، وهذا تعاملوا بنقود هاتن الإمبراطوريتين . وهي نقود مضروبة من المعادن . وتعاملوا بها في بلادهم أيضاً كما تتعاملون نحن بالنقود الأجنبية . فـ (التنميّة) مثلاً ، هي فلوس رصاص كانت تُتَخَذ أيام ملك بني المنذر ، يتعاملون بها في الحيرة ، هي من أصل رومي ، أي يوناني ، هو noummiyon . وقد وردت في بيت للتابعي :

وقارت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالتنميّة سفيراً

وقد نسب هذا البيت لأوس بن حجر أيضاً<sup>١</sup> .

فيظهر من ذلك أن (بني المنذر) كانوا قد أخذوا الألفاظ من اليونانية ، أي من نقود نحاس ضربها الروم ، فضريوها هم في الحيرة ، وتعامل بها الناس . وأما (الدينار) ، وهو نقد كان معروفاً متداولاً بين الجاهليين ، مستعملاً في أسواق مكة وبقية مواضع الحاجز وجزيرة العرب عند ظهور الإسلام . وقد ذكر في القرآن الكريم<sup>٢</sup> ، فإنه نقد روماني يساوي عشرة دراهم ، ويعرف بـ denarius في اللاتينية<sup>٣</sup> .

وأما (الدرهم) فاسم نقد يوناني ، يسمى دراخني dhrakhmi في اليونانية ، وقد شاع استعماله إذ ذاك . وقد وردت التسمية في بيت شعر هو :

وفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع أمرؤ مكس درهم<sup>٤</sup> .

ويفيد هذا البيت أن الحكومة كانت تأخذ إتاوة من الأسواق من التجار والباعة ، وأن ما يباع يدفع عنه مكس ، قدره درهم<sup>٥</sup> .

١ انجواليقي (ص ١٨٥) ، اللسان (١٥/٣٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٧١) .

٢ الجواليليقي (ص ١٨٥ ، ٣٣٠) .

٣ آل عمران ، الآية ٧٥ « ومنهم من أن تأمهن بدينار » .

٤ الجواليليقي (ص ١٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) ، وقيل : أصله بالفارسية دين آرای : الشريعة جاءت به ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٧١) .

٥ الجواليليقي (ص ١٤٨) .

٦ الدرهم الفضة المطبوعة المعتمل بها ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٦٨) .

ولفظة ( مكس ) ، هي أيضاً من الألفاظ المغربية ، عربت من أصل ( مكسو ) Makso في لغة بني إرم<sup>١</sup> .

و ( الدانق ) تقد أخذت تسميتها من الفارسية ، من ( دانك )<sup>٢</sup> . وقد بقي مستعملاً في الإسلام . وقد عرف الخليفة ( أبو جعفر المنصور ) بـ ( الدوانيق ) نسبة إلى هذا النقد .

وأما ( الفلس ) وتبجيح على ( فلوس ) ، فإنه تقد من نحاس ، وأصله في اليونانية ( فولس ) *folis*<sup>٣</sup> . وقد عبر عنه بمعنى نقود أيضاً ، فقيل في العامية ( فلوس ) ، وقصد بها نقود .

ومن المعرفات المستعملة في تقويم النقد وفحصه ، لفظة ( شقل ) بمعنى الوزن<sup>٤</sup> ، أي وزن النقد لمعرفة مقدار معدنه المؤلف منه . ولفظة ( قسطار ) ، ومعناها ناقد الدرهم ، أي الناقد الماهر العارف بالنقد ، من أصل لاتيني هو *quaestor*<sup>٥</sup> .

وتظهر هذه المعرفات أن أهل المجاز وبخاصة العرب الشماليين كانوا قد استعملوا النقد البيزنطي والساساني في أسواقهم وفي تجارتهم ، وكانوا عالة على الأعاجم في استعمال النقد . وذلك مما يدل على أن تعاملهم التجاري مع الإمبراطوريتين كانوثيقاً . وقد بقيت هذه النقود الأعجمية مستعملة في الإسلام كذلك، وبقيت أسماؤها حية حتى بعد تعریب النقد ، ولا يزال اسم الدينار والدرهم والفلس إلى هذا اليوم .

أما العرب الجنوبيون ، فكان لهم تقد خاص بهم . تحدثت عنه في الجزء الثامن من كتابي : تاريخ العرب قبل الإسلام . وقد ذكرت أن بعض العلماء رجعوا تاريخ أقدم نقد عربي جنوبي غير عليه سنة ( ٤٠٠ ) قبل الميلاد<sup>٦</sup> . ويظهر أن أهل المجاز لم يتعاملوا به كثيراً، بدليل عدم وجود ذكر له في المؤلفات الإسلامية ، وفي الأخبار الواردة عن أيام الرسول . وقد ذكرت أن أسماء تلك النقود أسماء

- |   |   |
|---|---|
| ١ | غرائب اللغة ( ص ٢٠٦ ) .                       |
| ٢ | الجواليقي ( ص ١٤٥ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٢٧ ) . |
| ٣ | غرائب اللغة ( ص ٢٦٣ ) .                       |
| ٤ | غرائب اللغة ( ص ١٩١ ) .                       |
| ٥ | الجواليقي ( ص ٢٦٣ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٧٩ ) . |
| ٦ | الجزء الثامن ( ص ٢٠٠ وما بعدها ) .            |

عربية جنوية لا صلة لها بأسماء التقدّم التي تحدثت عنها ، ومن تلك الأسماء : ( بلط ) ويجمع على ( بلطات ) ، وهو اسم نقد من ذهب . و ( خبصت ) ( خبصة ) ، نقد من نحاس ، و ( رضى ) ، قيل إنها اسم نقد ، وقيل أنها صفة للنقد . بمعنى رضية وصحبة غير مزيفة ولا منقوصة ، لأن النقد كان على أساس الوزن والنوع في ذلك العهد . وذكرت أيضاً بعض الألفاظ التي استعملوها في الصيرفة وفي نقد التقدّم .

ومن الألفاظ اللاتينية التي دخلت إلى العربية ( لبرجد ) ، وهو ثوب مزدان بالذهب ، وثوب غليظ مخيط من أصل Paragauda<sup>¹</sup> . و ( برذون ) من أصل burdo و Burdonis<sup>²</sup> ، و ( دينار ) من أصل denarius ، وهو نقد من المعدن<sup>³</sup> ، و ( سجل ) وقد تحدثت عنها<sup>⁴</sup> و ( سجلات ) من أصل ( سجلاتس ) Sigillatum ، ثياب كتان موشأة ، وكان وشيها خاتم وتزدان بصورة صغيرة<sup>⁵</sup> . و ( سجنجل ) ، وتعني المرأة ، أو سبيكة فضة مقصولة ، استعملت استعمال المرأة ، من أصل Sexaangulus التي تعني ( المدس الروايا ) في اللاتينية . وقد وردت في بيت لامرئ القيس<sup>⁶</sup> . و ( الصراط ) ، بمعنى الطريق ، من أصل لاتيني هو Strata<sup>⁷</sup> . وقد عرف الرومان ببراعتهم في شق الطرق العسكرية لاستعمالها في التجارة وفي الأغراض العسكرية . و ( الصاقور ) الفأس لكسر الحجارة ، من أصل لاتيني هو Securis<sup>⁸</sup> .

ويظهر أثر الأخذ من اليونانية واللاتينية والفارسية والaramية في المكاييل والموازين كذلك ، وذلك عند عرب الحجاز وب粳د وال العراق وببلاد الشام . أما عرب الجنوب فقد كانت لهم أسماء للمكاييل والموازين خاصة بهم ، اختلفت عن الأسماء المستعملة عند العرب الشماليين المذكورين وذلك كما تحدثت عنها في الموضوع الخاص بالمكاييل

¹ غرائب اللغة ( ص ٢٧٧ ) .

² غرائب اللغة ( ص ٢٧٧ ) .

³ الجوالقي ( ص ١٣٩ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٧٨ ) .

⁴ « والسعييل ، حجر وطين مختلط ، وأصله فيما قبل فارسي » ، المفردات في غريب القرآن ( ص ٢٢٣ ) .

⁵ الجوالقي ( ص ١٨٤ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٧٨ ) .

⁶ الجوالقي ( ص ١٧٩ ) ، غرائب اللغة ( ص ٢٧٨ ) .

⁷ غرائب اللغة ( ص ٢٧٨ ) .

⁸ غرائب اللغة ( ص ٢٧٨ ) .

والمازين عند الجاهليين في الجزء الثامن من كتابي : تاريخ العرب قبل الإسلام<sup>١</sup>. ومن هذه المعربات (*المُدُّ*) ، وهو نوع مكيل للجوب ، وهو من أصل لاتيني هو *Modius*<sup>٢</sup> و (*الجريب*) ، من أصل إرمي هو (*جريبو*) *Gribo*<sup>٣</sup>. و (*الرطل*) من أصل يوناني هو : *Litra*<sup>٤</sup> ، و (*الأوقيبة*) من أصل يوناني هو *uncia, ounguiya*<sup>٥</sup> ، و (*مثقال*) من أصل *matqolo* ، وهو وزن في الإرمية<sup>٦</sup> . و (*قبراط*) ، وهو جزء من أربعة وعشرين من أجزاء شيء ، أو حبة واحدة من أربعة وعشرين حبة . وكان القدماء يزنون بالحب . واللفظة من أصل يوناني هو *Keration*<sup>٧</sup> . و (*قطار*) ، وهو مئة رطل ، من أصل لاتيني هو *Centenarium Pondus*<sup>٨</sup> . و (*الكر*) ، وهو ستة أوقار حمار ، وهو مكيل لأهل العراق ، وقد ورد ذكره في الحديث ، هو (*كرو*) *Kouro* في لغة بني إرم<sup>٩</sup> . وغير ذلك من أسماء ذكرتها في الجزء الثامن من هذا الكتاب . ولا حاجة بنا إلى إعادة ذكرها .

وأخذت العربية من اللغة (الستسكريتية) بعض الألفاظ الخاصة بالمحاصيل الخاصة بالهند ، مثل الفلفل وبعض الأسماء المتعلقة بالترايل والعقارب والأطباب والجواهر<sup>١٠</sup> .

وقد أشار علماء اللغة إلى ألفاظ شائعة على الألسنة ، لكنها أجمجمة الأصل تأتي في نوع العرب . ذكر (*التعالي*) أمثلة منها في كتابه (فقة اللغة) ، وقال عنها أنها : و أسماء فارسيتها منسية و عربيتها محكمة مستعملة ، هي : الكف ،

Ency. Islam, II, p. 1025

- ١ (الصفحة ٤١٠ وما بعدها) .
- ٢ غرائب اللغة (ص ٢٨٠) .
- ٣ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
- ٤ غرائب اللغة (ص ٢٥٨) .
- ٥ العرب قبل الاسلام (٤١٤/٨) .
- ٦ غرائب اللغة (ص ٢٥٤) .
- ٧ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
- ٨ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) .
- ٩ العرب قبل الاسلام (٤١٩/٨) .
- ١٠ غرائب اللغة (ص ٢٧٩) .
- ١١ الرافي ، تاريخ آداب العرب (٢٠٥/١) .

الساق ، الفرش ، البزار ، الوزان ، الكيل ، المساح ، البياع ، الدلائل ،  
الصراف ، البقال ، الجمال ، الحمال ، القصاب ، البيطار ، الرانض ،  
الطرّاز ، الخياط ، الخياط ، الأمير ، الخليفة ، الوزير ، الحاجب ،  
القاضي ، صاحب البريد ، صاحب الخبر ، السقاء ، الساقى ، الشراب ،  
الدخل ، الخرج ، الحال ، الحرام ، الى غير ذلك من ألفاظ تجدوها في كتابه  
وفي كتب اللغة التي تقلت منه<sup>١</sup>.

وفي بعض الذي ذكره ، ما هو فارسي حقاً ، أو من مصدر أعمجي آخر ،  
لم يعرفه (التعالي) ، لأنّه لم يُعرف من اللغات الأعجمية غير الفارسية ، فنسب  
أصل تلك الألفاظ إليها ، ولكن البعض الباقى هو عربي ، ما في أصله العربي  
من شك ، ولا يمكن أن يكون من المعربات .

ونجد في المعاجم وفي كتب اللغة كلاماً عن هذه المعربات ، ففي كتاب (المزهر)  
وكتب اللغة المعترفة صفحات نص فيها على الألفاظ المعربة من مختلف اللغات<sup>٢</sup> .  
فلا أرى بي حاجة هنا الى ذكر تفاصيل أخرى عن الألفاظ المعربة بتفصيل كل  
ما نص عليه العلماء من المعربات . ولكنني أود أن أبين ان علماء اللغة لم يكتوفوا  
على علم باللغات الأعجمية ، ولذلك لم يتمكنا من رجع المعربات الى أصولها  
الحقيقة ، فأنطلقوا في ذكر الأصول . ونظراً الى ان فيهم من كان يتقن الفارسية  
فقد رجع أصول كثير من الألفاظ الى أصل فارسي ، لأنّه وجد أن الفرس نطقوا  
بها ، ولم يلعلوا انهم أخذوها هم بدورهم من غيرهم ، فصارت من لغة الفرس ،  
أو انهم وجدوا بعض الألفاظ قريبة من أوزان الفارسية للكلامات ، فظنوا انها  
فارسية ، مع أنها من أصل آخر . وفعل بعض منهم ذلك عصبية منهم الى الفارسية  
لأنّهم من أصل فارسي ، فتمحّلوا لذلك تكثيراً لسواد المعربات من لغة الفرس  
وتعصباً لهم<sup>٣</sup> .

وفي شعر الأعشى معربات عديدة مقتبسة من الفارسية ، قد يكون أخذها من  
عرب الحيرة وبقية عرب العراق ، وقد يكون أخذها من الفرس مباشرة لاتصاله

١ المزهر (١٤٣/١) .

٢ المزهر (٢٧٥/١) وما بعدها .

٣ الرافعى ، تاريخ آداب العرب (٢٠٦/١) .

واختلاطه بهم في العراق . واقتبسها إما ليعكي عما شاهده ورأه في العراق ، فاستعمل الألفاظ الفارسية الشائعة هناك ، وإما أن يكون قد تعمد إدخالها في شعره ليرى الناس أنه حاذق بشفافة الفرس وافق على حضارتهم ولغتهم ، كالذى يفعله بعض من يدرس في بلاد الغرب من استعماله ألقاظاً أعجمية في لغته لبلمح للناس بأنه قد ثقق بشفافة الأجانب ، وتلك في نظره ميزة يفتخر بها على الناس .

وقد زعم أن الأعشى رحل إلى بلاد بعيدة ، بلغ عمان وحصن وأورشليم وزار الحبشة وأرض النبيط وأرض العجم ، وقد ذكر ذلك في بيتين من الشعر<sup>١</sup> . والزيارة هذه للعراق وأرض العجم ينسب أهل الأخبار ورود الألفاظ الفارسية في شعره .

وفي بعض المعجات وكتب اللغة مثل لسان العرب والمغرب للجواليقي ، أبيات للأعشى يرد فيها وصف لأحوال الفرس وعرب العراق ، وقد استعمل فيها ألقاظاً فارسية لها مناسبة وصلة بذلك الوصف . منها ما يتعلق بالملابس ، ومنها ما يتعلق بالأشربة والخمور والأفراح ، ومنها ما يتعلق بالمناسبات مثل الغناء والأعياد<sup>٢</sup> .

وشاعر آخر نجد في شعره معربات فارسية ، هو ( عدي بن زيد العبادي ) . وهو من أهل الخبرة ، المقربين إلى ملوكها وإلى الفرس ، الحاذقين بالعربية وباغة الفرس . وقد كان كتاباً باللغتين ، كما كان أبوه بليناً باللسانين ، وتولى رئاسة ديوان العرب عند الأكاسرة . وهو نصراني ، وهذا استعمل في شعره ألقاظاً نصرانية اقتبست من السريانية ، وأشار بحكم نصرانيته إلى عادات نصرانية ، كما كان حضرياً متوفياً غنياً أدخل إلى بيته وسائل الترف والراحة المعروفة في ذلك اليوم ، وهذا فإن جمع شعره جمعاً تاماً ونقده وتحليله واستخراج صحيحة من منحوله أهمية كبيرة في اعطاء رأي عن الحياة الفكرية والثقافية لعرب العراق قبيل الإسلام .

وبعد ، فإن اللغة التي بحثت عن وجود المعربات فيها ، هي اللغة العربية التي

عمان فحمص فأورشليم  
وأرض النبيط وأرض العجم

وطوفت للصال آفاقه  
أتيت النجاشي في داره

راجع ديوان الأعشى ، المغرب ( ص ٣٢ ) .

٢ المغرب ( ص ١٦ ، ١٨ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٧٩ ) ومواضع أخرى .

نزل القرآن بها . أما اللهجات والألسنة العربية الجنوبيّة ، فإن أثر هذه المعربات فيها كان قليلاً ، ونجد في كتاباتها ألفاظاً عربية جنوبيّة ، مكان تلك المعربات . ومعنى هذا بعُد تلك اللهجات عن المؤثرات الأعمجمية الشماليّة . وسبب ذلك رقي المتكلمين بها ، وتقديمهم في الحضارة بالقياس إلى بقية سكان جزيرة العرب وإلى ابتكارهم أنفسهم لكثير من الأشياء ، فكان من الطبيعي أن تكون أسماؤها بلغة الصانعين لها .

ولدي ملاحظة ، هي ان وجود المعربات في العربية المجازية ، يدل دلالة صريحة واضحة ، على ان المتكلمين بها كانوا قد تأثروا بالحضارات الشماليّة أكثر من تأثراً بهم باخواتهم العرب الجنوبيّين ، وان اتصالهم الفكري كان بالشمال أكثر منه بالجنوب ، ولا يقتصر هذا التأثير على المعربات فقط، بل يشمل كل المؤثرات الثقافية الأخرى ، كالذى رأيناه في مواضع متعددة من الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب . فكأننا أمام ثقافتين مختلفتين وشعبين متباينين ، بالرغم من اتصال حدود الحجاز باليمن ، وقرب المسافة بينهما ، حتى اللغة نجد بوناً شاسعاً بينها وبين اللغات العربية الجنوبيّة ، وهذا ما حل بعض العلماء على القول : ما لغة غير بلغتنا ، ولا لسانهم بلساننا ، ففرق بين اللسانين .

أما (أميمة بن أبي الصلت) فقد وردت في شعره معربات من أصل سرياني في الغالب ، يظهر أنه أخذها من المذاهب النصرانية التي قيل إنه وقف عليها . فقد ذكر أنه كان قدقرأ كتب أهل الكتاب ، ووقف على أخبارهم وعقائدهم ، وإن اتصاله بهم أثر في رأيه الذي كونه لنفسه في الأديان . وأرى أن من اللازم توجيه العناية لدراسة ما تبقى من شعره للوقوف على أصوله ، وعلى درجة تأثيره بالتغيرات الفكرية والآراء الدينية لأهل الكتاب ، وعلى الألفاظ المعربة عن السريانية أو غيرها التي ترد في شعر هذا الشاعر ، وذلك بعد التأكد من صحة الشعر .

ومن المعربات الواردة في شعر (أميمة) لفظة (لاميد) جمع تلميذ ، وذلك في هذا الشعر المنسوب إليه :

والأرض معلقنا وكانت أمتنا فيها مقامتنا وفيها نولد  
وبها تلاميذ على قدفاتها حبسوا قياماً فالفرانص ترعى

وفي هذا الشعر :

صاغ النساء فلم يخفض مواضعها  
لم يتنقص علمه جهل ولا هرم  
لا كشفت مرة عنا ولا بليت فيها تلاميذ في أفقائهم دغم

وذكر أن (الתלמיד) الواردة في شعر يناسب له أيضاً ، يعني متلمذ ، وأن لفظة (التلاميذ) قد ترجم في الشعر على (تلام) ، كما جاء في شعر (الطرماح) ، و (غيلان بن سلمة) الشقفي ، وهو من الشعراء المخضرمين<sup>١</sup> . ووردت لفظة (التلاميذ) في شعر لييد ، في هذا البيت :

فالماء يجلو متونهن كما يجلو التلاميذ لولواً قشباً<sup>٢</sup>

وقد ذكر علماء اللغة أن التلاميذ : غلستان الصاغة ، وهي فارسية<sup>٣</sup> .

#### معرفة المعرف :

قال علماء العربية : تعرف عجمة الإسم بوجوهه :

- ١) النقل بأن ينقل ذلك أحد أنواع العربية .
- ٢) سخريون عن أوزان الأسماء العربية نحو إبريس ، فإن مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء في اللسان العربي .
- ٣) أن يكون أوله نون ثم راء نحو نرجس ، فإن ذلك لا يكون في الكلمة عربية .
- ٤) أن يكون آخره زاي بعد الدال ، نحو مهندز ، فإن ذلك لا يكون في الكلمة عربية .
- ٥) أن يجتمع فيه الصاد والجيم ، نحو الصوبلحان والجص .

١ رسالة التلميذ ، للبغدادي ، نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) (ص ٢٢٢ وما بعدها) .

٢ شرح ديوان لييد (ص ٣١) ، القصيدة رقم ٤ ، البيت ٢٠ .

٣ شرح ديوان لييد (٣١) ، رسالة التلميذ (٢٢١) .

٦) أن يجتمع فيه الجيم والقاف نحو المنجنيق، والجردقة، والجرموق ، والجوسو ، والجلاهق ، وجلنبق .

٧) أن يكون خمسياً أو رباعياً عارياً عن حروف الذلاقة ، وهي : الباء ، والراء ، والفاء ، واللام ، والميم ، والنون . فإنه متى كان عربياً ، فلا بد أن يكون فيه شيء منها . نحو سفرجل ، وقرطعنب ، وجحمرش .

هذا وقد تتبع بعض علماء العربية كلام العرب ، فوجدوا بعض حالات إذا اجتسبت فيها حروف معينة دلت على أصل أعمجي ، من ذلك قوله :

١) الجيم والباء لا تجتمعان في الكلمة من غير حرف ذي لقيّ ، وهذا ليس الجيد من صميم العربية .

٢) الجيم والباء لا تجتمعان في الكلمة عربية ، وهذا كان الطاجن والطيجن مولدين ، لأن ذلك لا يكون في كلامهم الأصلي .

٣) لا تجتمع الصاد والباء في الكلمة من لغتهم ، أما الصراط ، فصاده من السين .

٤) يندر اجتماع الراء مع اللام إلا في ألفاظ مخصوصة : كورل ونحوه .

٥) قال (البطليوسى) : لا يوجد في كلام العرب دال بعدها ذال إلا قليل ، ولذلك أبى البصريون أن يقولوا بغداد .

٦) ليس في كلام العرب شين بعد لام في الكلمة عربية مخصبة ، الشينات كلها في كلام العرب قبل اللامات<sup>١</sup> .

### أقسام الأسماء الأعجمية :

« قال أبو حيان في الارشاف : الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام : قسم غيرته العرب وألحقته بكلامها فحكم أبنيته في اعتبار الأصل والزائد والوزن حكم

١ المزهر (٢٦٨/٢ وما بعدها) ، الرافي ، تاريخ آداب العرب (١٢٠٢/١ وما بعدها) .

أبانية الأسماء العربية الوضع ، نحو درهم وبهرج . وقسم غيره ولم تلحظه بأبانية كلامها ، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الذي قبله ، نحو آجر وسفير . وقسم تركوه غير مغير ، فما لم يلحظه بأبانية كلامهم لم يعد منها ، وما لاحظه بها عد منها ؛ مثال الأول خراسان ، لا يثبت به فعلان ، ومثال الثاني : خُرُم المُنْقَ بِسْلُم ، وَكُرُكُمْ الْحَقْ بِقُصْمُ .

### إبدال الحروف :

وهناك حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة ، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب المخروف إلى مخارجها ، وذلك كالحرف الذي بين الباء والفاء مثل (بور) إذا اضطروا قالوا (فور) . لأن (بور) ليس من كلام العرب . وحرف (ب) حرف غير عربي . وقد يتحولون الـ (ب) إلى (ب) ، كما في (سابور) ، وأصله (شاپور) .

وقد يتحول حرف الـ (ب) إلى (P) عند تحويل الأعلام الأجنبية إلى عربية . مثل Platon ، اسم الفيلسوف اليوناني ، (427 - 347 ق. م.) الذي حول إلى (افلاطون) . وذلك بتحويل حرف (باء) إلى (ف) ، وبتحويل حرف (تاء) إلى (طاء) . وقد أتيع المعربون قاعدة تحويل (التاء) الواردة في الأعلام الأعجمية إلى حرف (طاء) في الغالب ، فتحول Aristotèles (384 - 322 ق. م.) إلى (أرسطو طاليس) . و Plotinos الاسكندرى (205 - 270 م) ، إلى (فلوطيين) . ولو زالت هذه الطريقة معروفة ف (تهران) عاصمة ايران ، هي (طهران) .

والعرب يعربون الشين سيناً ، فيقولون : نيسابور ، وهي نيشاپور . وقد أبدلو بالإضافة إلى حرف (الشين) حرف (الباء) (باءً) . فالالأصل (نيشاپور) ، ومثل ذلك : (سابور) ، فالالأصل هو (شاپور) .

وقال بعضهم : الحروف التي يكون فيها البدل في المعرف عشرة : خمسة يُطرد إبدالها ، وهي : الكاف ، والجيم ، والقاف ، والباء ، والفاء . وخمسة

لا يطرد إيدالها : وهي : السين ، والشين ، والعين ، واللام ، والزاي . فالبدل المطرد : هو في كل حرف ليس من حروفهـم كقولهم : كـُرْبـَجـ ، الكاف فيه بدل من حرف بين الكاف والجيم ، فأبدلوا فيه الكاف ؛ أو القاف نحو قربـقـ . أو الجيم نحو جـَوْرـبـ ، وكذلك فـِرـنـدـ هو بين الباء والفاء فــرةـ تبدل منها الباء ومرةـ تبدل منها الفاء . وأما ما لا يطرد فيه الإبدال ، فــكلـ حرف وافق الحروف العربية كقولهم اسماعيلـ أبدلوا السين من الشين ، والعين من المــهــمــةـ ، وأصلهـ إـســمــائــلـ . وكذلك فــشــاــلــ يــأــبــلــواــ الشــيــنــ من الجــيمــ والــلــامــ من الزــايــ ، والأــصــلــ قــفــجــلــيــزــ . وأما القاف في أولهـ فــتــبــلــ من الحــرــفــ الــذــيــ بينــ الكــافــ وــالــجــيمــ ١ــ .

## الفصل الثاني والأربعون بعد المائة

### النثر

النثر هو الكلام المرسل الذي لا يتقييد بالوزن والقافية ، وهو الجزء المقابل للشعر ، من أجزاء الكلام . وهو أقدر من الشعر على إظهار الأفكار وعلى التعبير عن الرأي ، وعلى الإفصاح عن علم و معرفة ، لكونه كلاماً مرسلًا حرًّا لا يتقييد بقيود ، خالياً من الوزن والقافية ومن المحافظة على القوالب ، إلا انه دون الشعر في التأثير في النفوس وفي اللعب بالعواطف ، لما في الشعر من سحر الوزن والقافية ، والإنشاد بأنغام متباعدة مؤثرة ، لا سيما اذا ما اقترب عزف على آلات طرب . ولوجود القافية والوزن في الشعر ، ولكونه أبياتاً ، سهل حفظه، وصار من الممكن تخزنه في الذاكرة أبداً طويلاً ، ومن هنا امتاز على النثر ، الذي لا يمكن حفظه بسهولة ، ولا تخزنه في الذاكرة ، لعدم وجود مقومات التخزن المذكورة فيه .

والنثر الذي نقصده ونعنيه ، هو النثر الذي يبحث عنه مؤرخ الآداب ، لكونه قطعة فنية ، تعبّر عن عاطفة انسانية ، وعن مظاهر الجمال والذوق والتأثير في النفوس ، فيه صياغة وفن في حبک القول ، وتفنن في طرق العرض ، وإغراء في تنمية الكلم ودبيع الكلمات ، وحلاؤه وطراوته وسحر وبيان ، فهو كلام عالٍ لا يشبه كلام العامة ، ولا مما يتخاطب به الناس ، ولا مما يتعامل به في التجارة والمكسب أو في الدوائر ، وإنما هو من قبيل كتب الأدب ، ومن قبيل الأمثال والخطابة والمراسلات الأدبية وما شاكل ذلك من وجوه . وهذا ، تستبعد من هذا النثر ، ما وصل إلينا من نصوص جاهلية ، لأنها كتبت في أغراض أخرى ،

كُتِبَتْ فِي تَقْدِيمِ نَذُورٍ ، وَفِي مَعَامِلَاتٍ : مِنْ بَيْعٍ وَشَرَاءً ، وَتَبْيَثِ مَلْكٍ ، أَوْ تَحْدِيدِ حَدُودٍ ، أَوْ فِي قَوَانِينَ وَأَوْامِرٍ ، وَلَمْ تَكُنْ فِي أَغْرَاضٍ أُدِيبَةٍ خَالِصَةٍ .  
وَبَينَ أَيْدِينَا خَطْبٌ طَوِيلَةٌ وَمُتَوْسِطَةٌ وَقَصِيرَةٌ ، نَسَبَهَا الرَّوَاةُ إِلَى خَطَّابِيَّةِ جَاهِلِيَّةٍ ،  
زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي أَيَّامِهِمْ آيَةً فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ ، وَأَسَاطِيرَ وَقَصَصِ  
زَعْمِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ أَنَّهَا أَخْبَارٌ صَحِيحَةٌ وَرَوَايَاتٌ مَرْوِيَّةٌ ، وَأَصْوَلُ مَنَافِرَاتٍ وَمَفَارِخَاتٍ  
وَمَعَابِدَاتٍ وَمَشَائِمَاتٍ ، زَعَمُوا أَنَّهَا جَرَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَانْتَقَلَتْ أَصْوَلُهَا بَنْصَهَا  
وَفَصَهَا وَحْرَوْفَهَا وَكَلْمَهَا مِنْ رَوَاهَا إِلَى الْإِسْلَامِيِّينَ ، فَدَوَّنَتْ فِي كِتَابِهِمْ ، كَمَا  
رَوَوْا حَكِيمًا وَمُثَلاً وَأَقْوَالًا ، زَعَمُوا أَنَّهَا لِكَاهِمَةٍ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ حَفَظُهَا النَّاسُ  
حَفَظًا ، وَرَوَوْهَا رَوَايَةً رَجُلًا عَنْ رَجُلٍ ، وَجِيلًا عَنْ جِيلٍ ، حَتَّى وَصَلَّتْ  
مَرْحَلَةُ التَّدُوينِ . وَكُلُّ هَذَا المَسْجُلِ الَّذِي نَحْدُثُ عَنْهُ ، هُوَ مِنْ مَدْوَنَاتِ أَهْلِ  
الْإِسْلَامِ ، لَيْسَ فِيهِ مِنْ مَدْوَنَاتِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَيْ شَيْءٌ .

وَبَينَ هَذَا النَّثُرَ ، خَطْبٌ مُنْمَقَّةٌ مَزْوَقَةٌ ، نَسَبَتْ إِلَى مُلُوكٍ وَسَادَاتِ الْعَرَبِ  
الْبَائِدَةِ ، الَّذِينَ بَادُوا قَبْلِ الْإِسْلَامِ بِعَهْدِ طَوِيلٍ ، وَمَاتَتْ مَعَهُمْ أَدْبُرُهُمْ بِالطبعِ ،  
وَخَطْبٌ نَسَبَتْ إِلَى التَّابَاعَةِ ، وَقَدْ هَلَكُوا أَيْضًا قَبْلِ الْإِسْلَامِ ، وَكَلامُ نَسَبَ إِلَى  
أَنْبِيَاءِ جَاهِلِيَّةٍ ، وَإِلَى الْجِنِّ أَيْضًا ، رَوَاهُ أَهْلُ الْأَخْبَارِ ، دُونَ أَنْ يَكْلُفُوا أَنْفُسَهُمْ  
مُشَقَّةَ الإِفْصَاحِ عَنْ كَيْفِيَّةِ وَصُولِ تِلْكَ الْخَطْبِ وَذَلِكَ الْكَلَامُ لِيَهُمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ  
كَرَّرُوا الْقُولَ بِأَنَّ كَلَامَ بَعْضِهِمْ كَانَ كَلَامًا آخَرَ مُخَالِفَ كَلَامَنَا ، وَأَنَّ عَرَبَتِهِمْ  
لَا تَشَكِّلُ عَرِيتَنَا ، فَكَيْفَ نَقْلُوهَا وَدَوَّنُوهَا إِذْنَ فِي الْإِسْلَامِ؟ إِنَّ ثُرَّاً مِنْ هَذَا  
النَّوْعِ هُوَ ثُرَّ مَصْطَنْعٌ بِالطبعِ صَنْعٌ عَلَى لِسَانِ أُولَئِكَ الْمَاضِينَ ، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا  
شَبَهَةٍ ، فَهُوَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ مَكْذُوبٌ مَرْفُوضٌ .

وَأَمَّا النَّثُرُ الْمُنْسَبُ إِلَى الْعَرَبِ الَّذِينَ عَاشُوا قَبْلِ الْإِسْلَامِ ، أَوْ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ ،  
فَالصَّحِيحُ فِيهِ أَقْلَلُ مِنْ الْمَصْنَعِ ، خَاصَّةً نَصْوَصِ الْخَطْبِ وَالْحُكْمِ وَالْمَوَاعِظِ ،  
وَالْقَصَصِ وَالْأَيَامِ ، وَالْوَقَادَاتِ وَالْخَطْبِ الطَّوِيلَةِ ، لَأَنَّ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَى الْذَّاِكْرَةِ ،  
حَفْظُ الْكَلَامِ الْمُشَهُورُ بِالْحَرْوَفِ وَالْكَلِمَاتِ حَفْظٌ أَشْرَطَتِ التَّسْجِيلَ لَهُ أَوْ لِلْفَنَاءِ أَوْ الْمُوْسِيقِ ،  
مِهْمَا وَهَبَ اللَّهُ تَعَالَى ذَاكِرَةً مِنْ قُوَّةٍ فِي قَدْرَةِ الْأَخْذِ وَالْحَفْظِ . ثُمَّ هِيَ إِذَا حَفَظَتْهُ  
الْيَوْمَ ، فَلَا يَدُ وَأَنْ تَعْتَرِفَ بِهِ غَدًّا ، ثُمَّ يَزِدَادُ تَعْرِفَهَا بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ . هَذَا رَسُولُ  
اللهِ يَذَكِّرُ (قَسَّ بْنَ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيَّ) ، فَيَقُولُ : « رَحْمَ اللهِ قَسًا كَأَنِّي أَنْظَرَ

إليه على جمل أورق ، تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه <sup>١</sup> ، وإذا راجعت نص خطبة (قس) في الموارد ، تجد الرواية على اختلاف شديد فيما بينهم في ضبط نصتها <sup>٢</sup> ، وهذا حديث رسول الله النام ، أي المروي بالنص ، وبالطرق الصحيحة تراه يرد أحياناً بعبارات مختلفة مع اتحاد المعنى ، مما يدل على أن رواه قد أجهدوا أنفسهم جهد طاقتهم في حفظه ، لكنهم عجزوا عن حفظه حفظ الكتاب المكتوب . خذ صيغ التشهدات في الصلاة مثلاً <sup>٣</sup> ، وهي قصيرة العبارة ، لا طول فيها ، تجد الصحابة والفقهاء مختلفون مع ذلك في ضبطها ، فترى نص تشهد (ابن مسعود) مختلف بعض الاختلاف عن نص تشهد (ابن عباس) ، وعن نص تشهد (عمر) ، وعن نص تشهد (أبي سعيد الخدري) ، وعن تشهد (جابر) ، مع قول (ابن مسعود) : « علمي رسول الله التشهد وكفي بكفته ، كما علمني السورة من القرآن » ، وقول (أبي سعيد الخدري) : « وكنا لا نكتب إلا القرآن والشهاد » ، وقول (جابر) : « كان رسول الله يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن » <sup>٤</sup> ، بل خذ القرآن ، وهو كتاب الله المحفوظ المدون ، الذي حفظه بعض الصحابة ، وتلوه على الرسول ، وحرصوا على المحافظة على نصه حرصهم على حياتهم ، بل أشد منها ، ودوتنه ساعة الريح ، وأمام الرسول ، ظهرت مع ذلك فيه قراءات ، بسبب اختلاف مدارك الصحابة في فهمه وفي حفظه ، وبسبب اللهجات وعيوب الخط ، فإذا كان هذا ما حدث في أيام الرسول وبعد وفاته بقليل ، وقد وقع في أعز كلام بالنسبة للمسلمين ، فهل يعقل بعد التصديق بصحة النصوص المروية لخطب طويلة ، زعم أنها قيلت في قصور كسرى ، أو بمحضرة ملوك الحيرة ، أو الغساسنة ، أو تباعية اليمن ، أو الكلام المروي عن قوم عاد وثمود ، وقوم لوط ، وغيرهم وغيرهم من هلكوا وبادروا قبل الاسلام بزمن طويل .

ثم كيف نصدق خطب زعم أنها قيلت في الجاهلية ، مثل خطبة (النعمان بن المنذر) أمّام كسرى ، أو خطب الوفد الذي أرسله هذا الملك إلى (كسرى) ليكلمه في أمر العرب <sup>٥</sup> ، وهي خطب طويلة منمقة ، على حين يذكر العلماء ان

١ الاصابة (٣/٢٦٥) ، (رقم ٧٣٤٣) .

٢ الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٤٦٤ وما بعدها) .

٣ أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (٨٢ وما بعدها) .

٤ بلوغ الارب (١٤٧/١ وما بعدها) .

٦ الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما رویت بالمعنى». وسبب ذلك ، انهم وجدوا ان من غير الممكن اثبات النص بالرواية من غير تبديل ولا تغيير قد يقع عليه ، وخشيته وقوع هذا الخطأ في كلام الرسول ، وهو أعز كلام ، وعليه تترتب الأحكام في الحلال والحرام ، جوزوا الرواية بالمعنى . وهلذا تركوا الاستشهاد بالحديث « على إثبات القواعـ الكلية في لسان العرب »<sup>١</sup> ، ولو وثق العلماء من أن لفظ الحديث ، هو لفظ الرسول حقاً « بجرى مجرى القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية ». وإنما كان ذلك لأمررين : أحدهما ان الرواة جوزوا النقل بالمعنى ، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يقل بتلك الألفاظ جميعها ، نحو ما روى من قوله : زوجتكها بما معلمك من القرآن ، ملكتكها بما معلمك من القرآن ، خذها بما معلمك من القرآن ؛ وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فتعلم يقيناً انه صلى الله عليه وسلم ، لم يتلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لا يجزم بأنه قال بعضها ، إذ يحتمل انه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ ، فأنت الرواة بالمرادف ، ولم تأت بلفظه إذ المعنى هو المطلوب، ولا سيما تقادم الساع وعلم ضبطها بالكتابة والاتكال على الحفظ . والضابط منهم من ضبط المعنى . وأما من ضبط اللفظ بعيد جداً ، لا سيما في الأحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقونني ، إنما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى»<sup>٢</sup> . « وفي سنن الترمذى ، عن مكحول عن وائلة بن الأسعق قال : اذا حدثناكم على المعنى فحسبكم ، ورواية النهي في سير أعلام النبلاء : اذا حدثتم بالحديث على معناه فحسبكم »<sup>٣</sup> .

لقد وجد الصحابة ان من الصعب عليهم حفظ كلام الرسول بالنص والحرف ، وهم معه في كل وقت ، يحدثهم ويحدثونه ، فيشق عليهم ضبط كلامه ، وهم لا يكتبونه ولا يكررونه عليه ، وليس من الممكن أن يجلس رسول الله ، ثم يطلب من أصحابه إعادة كل كلام كلمتهم به ، فسأله أحدهم : « يا رسول الله نبي أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما أسمعه منك ، يزيد حرفاً أو ينقص

١ خزانة الادب (٥/١) ، (طبعة بولاق) .

٢ خزانة الادب (١/٥ وما بعدها) ، (بولاق) ، أعلام النبلاء ، للذهبي (٣/٢٥٩) .

٣ أبوريحة ، أضواء على السنة الحمدية (٨١) .

حرفاً . فقال : اذا لم تخلوا حراماً ولم تحرموا حلالاً وأصيّب المعنى فلا بأس<sup>١</sup> . وكان من الصحابة من يروي حدثه تاماً ، ومنهم من يأتي بالمعنى ، ومنهم من يورده مختصرأ ، وبعضهم يغاير بين النظرين ويراه واسعاً اذا لم يخالف المعنى . وروي عن ( مكحول ) ، قال دخلت أنا وأبو الأزهري على واثلة بن الأسعق فقلنا له : حدثنا الحديث سمعته من رسول الله ليس فيه ولا تزيد ولا نسيان ! فقال : هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئاً ؟ فقلنا : نعم وما نحن له مخالفين جداً . إنا نزيد الواو والألف وننقص ، فقال : هذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألونه حفظاً ، وإنكم تزعمون إنكم تزيدون وتقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عسى ألا يكون سمعنا لها منه إلا مرة واحدة ؟ حسبكم اذا حدثناكم بالحديث على المعنى .

وكان ابن أبي ليل يروي الشيء مرة هكذا ومرة هكذا بغير إسناد ، وإنما جاء هذا من جهة حفظه ، لأن أكثر من مضى من أهل العلم كانوا لا يكتبون ، ومن كتب منهم فإما كان يُكتب لهم بعد الساع ، وكان كثيراً منهم يروي بالمعنى فكثيراً ما يعبر عنه بلفظ من عنده فيأتيه فاصلراً عن أداء المعنى بتأمه ، وكثيراً ما يكون أدنى تغير له محيلاً له ووجباً لوقوع الإشكال فيه ، وقد أجاز الجمهور الرواية بالمعنى<sup>٢</sup> .

ولتجويزهم رواية الحديث بالمعنى ، لم يحتاج أئمة النحو المتقدمين من المصريين بشيء من الحديث في النحو ، واعتمدوا في ذلك على القرآن وتصريح النقل عن العرب « ولو لا تصريح العلامة بجواز النقل بالمعنى في الحديث ، لكان الأولى في ابته فصيح اللغة كلام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنه أفصح العرب »<sup>٣</sup> . جرى على ذلك الراضعون الأولون لعلم النحو المستقرتين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ، والخليل ، وسيبوه من أئمة البصرة ، والكسائي ، والفراء ، وعلي بن المبارك الآخر ، وهشام الشرير من أئمة الكوفة . فعلوا ذلك لعدم وثيقهم أن ذلك لفظ الرسول ، إذ لو وثقوا بذلك لجري بمحرر

١ انطراقي ، فتح المغيث بشرح الفية الحديث ( ٣ / ٥٠ ) ، أبو رية ( ٧٨ ) .

٢ أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية ( ٨١ ) .

٣ الخزانة ( ١ / ٤ وما بعدها ) .

وإذا كان هذا موقف ذاكرة الصحابة من كتاب الله ومن الحديث رسوله ، فهل يعقل أن تكون حافظتهم أقوى وأشد حفظاً وأكثر دقة في رواية كلام هو دون كلام الله وكلام رسوله ، فنصدق قول من قال إن (سلمة بن غيلان) الشفقي مثلاً دخل في ناس من العرب على كسرى ، فطرح لهم خادٌ عليهما صورته ، فوضعوها تحتهم ، إلا سلمة بن غيلان فإنه وضعها على رأسه ، فقال له : ما صنعت ؟ قال : ليس حق ما عليه صورة الملك أن يتذلّ ، وما أجد في جسدي عضواً لا أكرم ولا أرفع من رأسي فجعلتها فوقه . فقال له : ما أكلك ؟ فقال : الحينطة . فقال : هذا عقل الحينطة<sup>٢</sup> . أو أن نصدق بكلام وفدي (طي) إلى (سود بن قارب) الدوسى ، وامتحانهم لياه ، ثم جوابه المسجع على سجعهم<sup>٣</sup> ، أو كلام الكاهنة (عفراء) الحميرية<sup>٤</sup> ، أو كلام (ابنة الحسن)<sup>٥</sup> ، أو كلام (عبد المطلب) ، وغيره من سادات قريش مع تابعة اليمن وحكامها الحبش ، وهو كلام مضبوط بالحرروف والكلمات ، ترويه كتب أهل الأخبار على أنه كلام صحيح صادق ، لم يبنله تغيير ولا اعتراض تبديل ، وكأنه قد سجل على شريط (تسجيل) ، أو على اسطوانة ، لم تلعب بها يد إنسان .

جاء في (لسان العرب) : « قيل لسيدنا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الأمي لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب، وبعثه الله رسولًا وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة أحادى آياته العجزة ، لأنه ، صلى الله عليه وسلم ، تلا عليهم كتاب الله منظوماً ، قارة بعد أخرى ، بالنظم الذي أنزل عليه فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، وكان الخطيب من العرب ، إذا أرتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص »<sup>٦</sup> ، فإذا كان هذا شأن الخطيب ،

١ الخزانة (٥/١) .

٢ المصون (١٩٨) .

٣ بلوغ الارب (٣/٢٩٩ وما بعدها) .

٤ بلوغ الارب (٣/٢٩٦) .

٥ في جملة كتب « تعلب » : كتاب : تفسير كلام ابنة الحسن ، الفهرست (١١٧) ،

(الفن الثاني من المقالة الثانية من كتاب الفهرست في أخبار العلماء) .

٦ اللسان (٣٤/١٢) .

وهو مرتبطة بالخطبة ، وصاحبها لا يستطيع إعادة نصها ، فكيف يكون حال السامع الذي يسمعها سمعاً ولا يكتبها على صحفة ، فهو يجوز اذن لنا التصديق بصحة نصوص هذه الخطب الجاهلية وما يروونه عن الجاهليين من أدب مثمر !

### السجع :

وقد جعل (الباحث) كلام العرب أنماطاً ، جعله « في الأشعار ، والأشجاع ، والمزدوج ، والمثور »<sup>١</sup>.

والسجع في تعريف العلماء له : الكلام المقفى ، أو موالة الكلام على روبي واحد . وقيل : السجع أن يتألف أواخر الكلم على نسق كما تألف القوافي . وسجع يسجع سجعاً : نطق بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن<sup>٢</sup> . وقد أليف (الكهان) النطق بالسجع ، حتى غالب على كلامهم ، واحتضن بهم ، كما احتضن الشعر بالشعراء ، فعرف لذلك بـ (سجع الكهان) . « ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم ، في جنين امرأة ضربتها الأخرى ، فسقط منها بغرة على عاقلة الضاربة ، قال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ، فاستهل . ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم : أسبح كسبح الكهان . وفي رواية : إياكم وسجع الكهان . وفي الحديث انه ، صلى الله عليه وسلم ، نهى عن السجع في الدعاء . قال الأزهري : إنما كره السجع في الكلام والدعاء لمشاكلاة كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكلهونه ، فلما فواصل الكلام المنظوم الذي لا يشاكل السجع ، فهو مباح في الخطب والرسائل »<sup>٣</sup> . وروي الحديث على هذه الصورة : « اقتلت امرأتان من هذيل ، فرمت احداهما الأخرى بمحجر ، فقتلتها وما في بطنه ، فاختصموا الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسول الله ان دية جنبيها غررة ، عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها . وورثها ولدها ومن معهم . فقال حل بن النابعة الهذيلي : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، فتل ذلك يطل ، فقال رسول

١ الحيوان (٧/٢١٦ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد حارون) .

٢ تاج المرؤوس (٥/٣٧٦) ، (سجع) .

٣ تاج المرؤوس (٥/٣٧٦) ، (سجع) .

الله ، صلى الله عليه وسلم : إنما هذا من اخوان الكهان ، من أجل سجعه الذي سجع <sup>١</sup> .

قال الجاحظ في معرض كلامه على السجع وقول الرسول : أَسْجَعْ كَسْجَعْ  
الْجَاهِلِيَّةِ <sup>٢</sup> . « وكان الذي كره الأسجاعَ بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف  
والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا  
يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رثياً من الجن ، مثل حازي جهينة ،  
ومثل شقّ وسطريح ، وعزّى سلمة ، وأشباههم : كانوا يتكلمون ، ويحكمون  
بالأسجاع ، كقول بعضهم : والأرض والسماء والعُقاب الصقعاء ، واقعة بيضاء ،  
لقد نقر المجد بني العُشراء ، للمسجد والسناء .

وهذا الباب كثير . ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع  
ابن حبس ، ونقبيل بن عبد العزى ، كانوا يحكمون ، ويتفرون بالأسجاع <sup>٣</sup>  
وكل ذلك ربيعة بن حدار .

قالوا : فوقع النهيُّ في ذلك الدهر ، لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها في  
صدر كثير منهم ، فلما زالت العلة ، زال التحرير .

وقد كانت الخطباء تتكلّم عند الخلافاء الراشدين ، فيكون في تلك الخطب  
أسجاع كثيرة فلا ينهونهم <sup>٤</sup> .

وقد كان الكهان حكاماً كذلك ، يفصلون في الخصومات بين الناس . يأتي  
إليهم المخاصمون ، وبعد أن يؤكّدوا لهم رضاهما وقناعتهم بمحكمهم ، يحكمون بينهم  
فيما يرونـه . وينسب الناس إلى الكهان إدراك الغيب برؤيٍ يأتي إليهم فليقي لهم بما  
يرأه ويعلمهم من المغيبات مما يسألون ، ولذلك ورد : أن الكهانة هي ادعاء علم  
الغيب ، كالإخبار بما سيقع ، وورد: الكاهن القاضي بالغيب ، وكل من أدل  
 بشيء قبل وقوعه <sup>٥</sup> .

١ شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٩٦/٧) ، (حاشية على ارشاد الساري) ،  
صحيح مسلم (١١٠/٥) .

٢ البيان والتبيين (٢٨٧/١) ، (لجنة) .

٣ البيان (٢٨٩/١) وما بعدها ) «لجنة» ، (٢٢٩/١) ، (عبد السلام هارون) .

٤ بلوغ الارب (٣/٢٦٩) .

ويفهم من روایات أهل الأخبار ومن كتب الحديث والموارد الأخرى ، أن الكهانة كانت شائعة في الناس ، فكانوا يقصدونهم في كل شيء لاستشارتهم وللأخذ برأهم والفصل في الخصومات والمنازعات . وقد منها الإسلام ، حتى ورد في كتب الحديث : إن من أتى كاهناً أو عرّافاً فقد كفر<sup>١</sup> .

ونجد في بطون الكتب أمثلة من سجع الكهان . وهو يستحق الدرس والبحث ، لتحليل عناصره ، وبيان صدقه من كتبه ، وصحيحه من فاسده . وفي بعضه مثل ما نسب إلى ( زبراء الكاهنة ) ، محاكاة لأسلوب السور القصيرة من القرآن الكريم<sup>٢</sup> . وهو مرحلة مهمة من مراحل تطور أسلوب الكلام عند العرب ، وهو حري اذن بالدراسة وبالبحث .

وقد أشير إلى قول الكهان في القرآن الكريم في آية : « فذكروا ما أنت بنعمة ربكم يكاهن ولا مجئون »<sup>٣</sup> ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا يقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »<sup>٤</sup> . فقد زعموا انه كاهن ، وزعموا انه مجئون<sup>٥</sup> ، فوبحوا لزعمهم هذا ، وقيل لهم ان « محمدًا ليس بكاهن فقولوا هو من سجع الكهان »<sup>٦</sup> . « وكانت قريش يدعون انهم أهل النهي والأحلام »<sup>٧</sup> ، « فقال الله ألم تأمرهم أحلامهم بهذا أن يعبدوا أصناماً يكملها ، ويترکوا عبادة الله ، فلم تفعهم أحلامهم حين كانت للدنياهم »<sup>٨</sup> ، فائز عجوا منه وقالوا عنه انه كاهن ، وانه شاعر ، وانه مجئون . وفي آياتهم الرسول بأنه كاهن ، وبأن القرآن « هو من سجع الكهان »<sup>٩</sup> ، دلالة على وجود السجع عند الجاهلين ، وانه كان من نمط الكلام الذي اختصوا به . فلا مجال اذن للشك في وجود السجع عندهم ، وان كانا نشك في صحة نصوص السجع المنسوب إليهم :

١ بلوغ الارب ( ٣ / ٢٧٠ ) .

٢ راجع كلامها لجماعة من قضاعة في بلوغ الارب ( ٣ / ٢٨٨ وما بعدها ) .

٣ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٢٩ .

٤ الحاقة ، الرقم ٦٩ ، الآية ٤٢ ، تفسير الطبرى ( ٤١ / ٢٩ ) .

٥ تفسير الطبرى ( ١٩ / ٢٧ ) .

٦ تفسير الطبرى ( ٤١ / ٢٩ وما بعدها ) .

٧ تفسير النيسابوري ( ٢٥ / ٢٧ ) ، ( حاشية على الطبرى ) .

٨ تفسير الطبرى ( ١٩ / ٢٧ ) .

٩ تفسير الطبرى ( ٤١ / ٢٩ ) .

ويذكر أهل الأخبار ، أن ( ضماداً ) لما قدم مكمة معتمراً ، « سمع كفار قريش يقولون : محمد مجنون . فقال : لو أتيت هذا الرجل فداوته ، فجاءه فقال له : يا محمد إني أداوي من الريح ، فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك . فشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً فقال : أعدها عليّ ، فأعادها عليه ، فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط »<sup>١</sup> . فالكهنة والسحرة والشعراء هم طبقة خاصة ، كانوا يؤثرون في عواطف السامعين باستعمالهم أسلوباً خاصاً من الكلام ، هو أسلوب السجع ، بالنسبة إلى الكهنة والسحرة ، والشعر بالنسبة إلى الشعراء . أما الخطباء ، فقد كانوا سجاعاً في الغالب ، لكنهم كانوا يستعملون المرسل من النثر أيضاً بأساليبه المختلفة .

وقد ذكر ( الجاحظ ) أن ( الكهان ) كانوا « يتکهنو ویحکمون بالأسجاع »<sup>٢</sup> ، هذه ( زبراء ) تندر ( بني رئام ) ، عن أبياء سقع ، فتقول « واللروح الخاقن والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو ختناً ، وبحرق أنياباً عصلاً ، وإن صخر الطرد لينذر ثكلاً ، لا تجدون معه معلاً ، فوافتقت قوماً أشارى سكارى ، قالوا : ريح خجوج ، بعيدة ما بين الفُرُوج ، أنت زبراء بالأبلق التتوج . فقالت زبراء : مهلاً يا بني الأعزّة ، والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد ، فقال لها فتى منهم يقال له هذيل بن منقد : يا خذاقٍ ، والله ما تشمين إلا ذفر إبطيك ، فانصرفت عنهم وارتاتب قوم من ذوي أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثة فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعم فقتلواهم جميعين »<sup>٣</sup> .

وهذا كاهن ( بني أسد ) ( عوف بن ربيعة ) ، يأتيه ( رئه ) ، فيتكلّهن لقومه قائلاً : « يا عبادي ! قالوا : ليك ربنا ، قال : من الملك الأصهـب ، الغـلـابـ غـيرـ المـلـبـ ، فـيـ الإـبـلـ كـأـنـاـ الرـبـبـ ، لـاـ يـعـلـقـ رـأـسـ الصـخـبـ ، هـذـاـ دـمـهـ يـشـعـبـ ، وـهـذـاـ غـدـاـ أـوـلـ مـنـ يـسـلـبـ ، قالـواـ : مـنـ هـوـ يـاـ رـبـنـاـ ؟ـ قالـ :

١ ابن سعد ، طبقات ( ٤/٢٤١ ) ، ( الطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار ) .

٢ البيان والتبيين ( ١/٢٨٩ وما بعدها ) .

٣ الامالي لل قالـي ( ١/١٢٦ وما بعدها ) .

لولا : أن تجيش نفس جاشية ، لأنخبرتكم انه حجر ضاحية . فركبوا كل صعب  
وذلول . فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسکر حجر فهجموا على قبته <sup>١</sup> .  
وهذا ( خنافر بن التوعم ) الحميري الكاهن ، وكان قد أوتي بسطة في الجسم ،  
وسعه في المال ، وكان عاتياً ، يائياً ( رئيه ) بعد غيبة طويلة ، فيقول :  
( خنافر ) فيجيئه : ( شصار ؟ ) ، فقال : « اسمع أقل » ، قال خنافر :  
قل اسع ، فقال : عه تغم ، لكل مدة نهاية ، وكل ذي أمد إلى غاية . قال  
خنافر : أجل ، فقال : كل دولة إلى أجل ، ثم ينالها حرب ، انتسخت  
الشَّحَلُ ، ورجعت إلى حقائقها الملل ، إنك سجين موصول ، والتصح لك ميلول ،  
ولاني آمنت بأرض الشام ، نفراً من آل العذام ، حكاماً على الحكم ، يذيرون  
ذا رونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتلطف ، فأصغيت  
فزجرت ، فعاودت فظلت ، فقلت بم تهينون ، وإلام تغرون ؟ قالوا :  
خطاب كبار ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن أصدق الأخبار ،  
واسلك أوضح الآثار ، تنج من أوار النار ، قلت : وما هذا الكلام ؟ قالوا :  
فرقان بين الكفر والإيمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ، ابتعث فظهر ،  
فجاء يقول قد بهر ، وأوضح نهجاً قد دفتر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن  
ازدجر ، ألف بالآي الكبير ، قلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قال :  
أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشبر ، وإن خالفت أصلحت سقر ، فآمنت  
يا خنافر ، وأقبلت إليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشائع كل مؤمن طاهر ،  
ولَا فهو الفراق ، لا عن تلاق ، قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟ قال :  
من ذات الإحرَّين ، والنفر اليائين ، أهل الماء والطين . قلت : أوضح ، قال :  
الحق يثبت ذات النخل ، واللحرة ذات النعل ، فهناك أهل الطول والفضل ،  
والمواساة والبذل ، ثم املس عني . فبت مذعوراً أراعي الصباح ، فلما برق لي  
النور امتطبت راحلي ، وأذنت أعبدي ، واحتملت بأهلي حتى وردت الجوف ،  
فرددت الإبل على أربابها بحولها وسبابها ، وأقبلت أريد صناعه ، فأصبت بها  
معاذ بن جبل أميراً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فبأيته على الإسلام  
وعلّماني سورة من القرآن ، فنـ الله عليـ بالهدى بعد الصلاة ، والعلم بعد الجهالة» :

وهكذا أسلم - على حد قول أهل الأخبار - والفضل يعود في ذلك الى (رئيشه) (شصار) الذي أسلم قبله ، وهو من الجن ، والجن مثل البشر ، منذ ظهر الاسلام بين مسلم وكافر . ولما أسلم (خنافر) ، قال شعراً يحمد الله فيه على أن من عليه بالاسلام ، ويدرك (رئيشه) (شصار) بالخبر ، إذ لولاه لكان في نار جهنم<sup>١</sup> .

وأسندا له قوله :

لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَادَ بِفَضْلِهِ  
دُعَانِي شَصَارَ لِتَيْ لَوْ رَفَضَتْهَا  
وَأَنْقَلَ مِنْ لَفْحِ الْجَحِيمِ خَنَافِرَا  
لَأَصْلَيْتُ جَمِراً مِنْ لَظَى الْمَوْنَ جَائِرَا

وهو خبر يرجع سنته الى (ابن الكلبي) . وقد ذكر في الأخبار المثورة لابن دريد . وقد ذكر انه أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن<sup>٢</sup> . لا ادري كيف حفظه (ابن الكلبي) ورواه عن والده ، الذي صنه ووضعه ، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها ، وهو ما يعد من المستحبلات .

وقد أمات الاسلام (الكهانة) ، فقد اجتها وحاربها ، وحث على نبذ سبع الكهان وأساليب الكهان في الملبس ، فكان منهم من قاوم ، ثم الخليل ، بدخول قومه في دين الله ، فدخل معهم فيه . وفي كتب أهل الأخبار قصص على نسب قصة اسلام (خنافر) ، وكلام دار بينهم وبين (رئيسيهم) ، دونه أهل الأخبار بالحروف والكلم ، لم يترکوا منه حرفاً ، وكأنهم كانوا كتاب ضبط محضر جلسات أمروا بتلدوين كل محضر ساعة وقوعه . وتتجدد أخبار الكهان ، وما لاقوه من عنت من (رئيسيهم) حين أدرکوا الاسلام ، وما أخبروا به من قرب ظهور الرسول كأخبار العراف الاهبي (العايف)<sup>٣</sup> ، و (الغيبطة) الكاهنة<sup>٤</sup> ، والكافر (خطر)<sup>٥</sup> ،

١ الامالي (١/١٣٤ وما بعدها) .

٢ الاصادية (٤٥٧/١) ، (٤٥٩/١) ، الاستيعاب (٤٥٩/١) ، (ما بعدها) ، (حاشية على الاصادية) .

٣ ابن هشام ، سيرة (١١٨/١) ، (حاشية على الروض) ، (١٣٥/١) ، (ما بعدها) ، (أخبار الكهان) .

٤ ابن هشام (١٣٧/١) ، الروض الانف (١٣٧/١) .

٥ ابن هشام (١٣٨/١) .

والكافر ( سواد بن قارب ) الدسوسي<sup>١</sup> ، و ( ابن الهيثم )<sup>٢</sup> ، والأمور الخارجية<sup>٣</sup> ، وغيرهم وغيرهم .

ولسجع الكاهن ، طريقة خاصة به ، ميزته عن سجع غيرهم ، فهو قصير الفقرات ، يتلزم التقافية وتساوي الفواصل من كل فقرتين أو أكثر ، يعتمد إلى الألفاظ العامة المبهمة المعهدة ، وإلى تكوين الجمل الغامضة ، ليتمكن تأويلها تأويلات متعددة ، وتفسيرها بinterpretations كثيرة ، لا تلزم الكاهن ، فيقع في حرج ، كالذى يقع لو تكلم بكلام واضح صريح . فيظهر بمظهر الجاهل الكاذب . أما السجع المنسوب إلى الخطباء ، ففقره أطول ، وكلمه أوضح ، طويل النفس ، متتحرر نوعاً ما من قيود سجع الكاهن ، بين الفقر تطابق في الطول ، وفي فقره بيان مشرق ، فواصله كفواصل الشعر من دون وزن . جهد صاحبه أن يجعل الفواصل واضحة صافية ، ذات مقاطع مستقلة في الغالب بمعناها ، وينتهي الكلام بانتهائها من غير التزام قافية ، وقد يكون مرسلًا ، خالصاً من تساري الجمل والتراجم القافية ، فهو بين سجع وازدواج وترسل . وقد يكون مزدوجاً ، فهو سجع خفيف مقبول .

وبالاضافة إلى السجع ، واستعمال الألفاظ الغامضة المبهمة ، والإيماءة والرموز والتكتيبة عن الأشياء ، تهرباً من التصريح ، وحدن افتضاح الأمر ، كان الكاهن يلحف في الأسئلة ويععن في الاستفسار ، حتى يستبط من ذلك بفطنته وذكائه ما يريد السائل ، فيعطيه جواباً مائعاً ، شأن جواب السحررة والعرافين ، كما كان يعتمد إلى القسم بظواهر الطبيعة من كواكب ونجوم، وشمس وقمر، ورياح وعواصف وسحب ، وليل ونهار ، وشجر وحجر، وأمثال ذلك مما نجده في خطبهم وأقوالهم، وهو شيء يلفت النظر ، ويبعث على التعجب من قسم القوم بهذه الأمور . ولكن المتبع الدارس لعقائد القوم في الجاهلية ، ولحياتهم الاجتماعية لا يعجب من ذلك ، كما لا يعجب من قسمهم بالخبز ، والملح ، والبن ، والقوس ، والعصا ، فإن هذه الأمور وأمثالها معانٍ عميقة عند أهل الجاهلية ، فقدت أكثريتها معانيها في

١ ابن هشام ( ١٤٠ / ١ ) .

٢ ابن هشام ( ١٤١ / ١ ) .

٣ الهمالي ( ٢٧٦ / ١ ) ، الاغانى ( ٧٠ / ١٥ ) .

الاسلام ، بسبب إبطاله لتلك المقادير ، وان بقي حشد منها في نفوس الناس الى هذا اليوم ، بسبب رسوخه في العقل والدم .

وفي القرآن قسم بالسماء ، وبالعاديات ، وبالتين والزيتون ، وبغير ذلك<sup>١</sup> ، ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب ، ففسروا وتألوا ، ولو فكروا ان هذا النوع من القسم ، هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الاسلام ، وأن القرآن انما نزل بلسان العرب ، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم ، لأنهم خطط لهم على قدر عقولهم وبلغتهم ، عرموا السبب ، ولا زال الأعراب على سجيتهم القديمة في القسم بهذه الأشياء ، يقسمون بها كما يقسم المتحضر بأعز شيء عنده .

والسجع في الواقع باب من أبواب الشعر ، والمرحلة الأولى من مراحله ، والبنية التي أثبتت الشعر العربي . ويكون من فقرات . واذا أخذنا الشعر البدائي الذي يكون المرحلة الأولى من الشعر ، نرى انه لا يختلف اختلافاً كبيراً عن السجع . و (الكلام المسجع) ، هو ضرب من ضروب الشعر عند غير العرب . وقد طور الشعراء السجع ، وأوجدوا منه الشعر ، واذا درسنا أول الشعر العبراني ، أو أوليات الشعر عند الشعوب السامية ، وعند الشعوب الآرية ، نجد انه نمط من أنماط هذا الكلام الذي نسميه (السجع)<sup>٢</sup> . وهو لا زال يعد شعراً عند كثير من شعوب هذا اليوم .

والمزاجة والازدواج يعني واحد . وازدواج الكلام وتزاجر أشبه بعضه ببعض في السجع أو الوزن<sup>٣</sup> ، والازدواج لون من لوان الإفصاح عن الشعور بأسلوب من أساليب الأدب المثور ، أخف على النفس من السجع ، وأسهل انتقاداً لأنامل الكتاب منه . وهو على كل حال لون من الوانه ، خفت قيود قوافيه ، حتى صار على هذا الشكل . ومن الازدواج قول أحد بنى أسد يخاطب رجلاً شيخاً مات ابن له : « اصر أباً أمامة ، فإنه فرط افترطه ، وخير قدمته ، وذخر أحجزته » . فقال مجبياً له : « ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته ، والله لئن لم أجزع النفس ، لا أفرح بالمزيد »<sup>٤</sup> .

١ تفسير الطبرى (٣٠ / ١٥٣) وما بعدها .

٢ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 8.

٣ تاج العروس (٢ / ٥٥) ، (ذوج) .

٤ البيان والتبيين (٢ / ١١٦) .

وقد تحدث (الجاحظ) في أثناء حديثه عن الشعوبية ومحاجتها على خطباء العرب عن أساليب الجاهلين في الكلام في أمورهم الجليلة مثل المنافرة والمحاورة ، وعتقد المعاقدة والمعاهدة وأمثال ذلك ، ثم عن أخذهم المخصصة ، عند مناقلة الكلام ، فقال : « وبمحاجتهم على خطباء العرب : بأخذ المخصصة عند مناقلة الكلام ، ومساجلة المخصوص بالوزن والمعنى ، والمشور الذي لم يُفَّفَّ ، وبالأرجاز عند المتع ، وعند مجاهاته الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادلة والمحاورة . وكذلك الأسباع عند المنافرة والمحاورة ، واستعمال المشور في خطب الحالة ، وفي مقامات الصلح ، وسل السخيمة ، والقول عند المعاقدة والمعاهدة ، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته ، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتالب تأليف ، ولا الماءس قافية ، ولا تكلف لوزن . مع الذين عابوا من الاشارة بالعصي ، والاتكاء على أطراف القسي ، وخذ وجه الأرض بها ، واعتمادها عليها إذا استحقرت في كلامها ، وافتنت يوم الحفل في مذاهبيها ، ولزومهم العائم في أيام الجمعة ، وأخذ المخاصر في كل حال ، وجلوسها في خطب النكاح ، وقيامتها في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الحالة ، وأكده شأن المحالف ، وحقق حرمة المجاورة ، وخطبهم على رواحلهم في الموسم العظام ، والمجامع الكبار ، والهاسح بالأكف ، والتحالف على النار ، والتعاقد على الملحق ، وأنجد العهد الموكد واليمين الغموس ، مثل قولهما سرى نجم وهبت ريح ، وبكل بحر صوفة ، وخالفت جرة درة »<sup>١</sup> . فتحن إذن أمام طرق من الكلام ، كل طريق منها يؤدي إلى نوع من الكلام ، يستخدم في حالة من الحالات ، فمساجلة المخصوص ، تكون بالوزن والمعنى ، والمشور الذي لا يقفي ، أي المرسل ، أما في حالة الشدة والعمل ، مثل المتع ، أي الاستقاء من البشر ، وفي حالات البناء ورفع العجر ، وفي القتال ، فستعمل الأرجاز ، لتنشيط المهمة . وأما السجع ، فيستعمله الكهان ، ويستخدم في المنافرة والمحاورة ، وأما المشور ، أي الكلام المرسل ، الحالي من السجع والازدواج ، فيستعمل في الحالة ، أي تحمل ديات قوم لا مال لهم ، فيقوم غيرهم بتحمل مبلغ الديبة ، وفي مقامات الصلح ، ودفن الأحقاد والصغار ، إلى غير ذلك من حالات . فالسجع ، إذن غير البشر ، وغير

المزاوجة ، وغير الرجز . وقد جعل ( الماحظ ) الكلام المثور : أسباعاً ،  
وازواجاً ، ومثوراً<sup>١</sup> . فهذه في نظره أساليب النثر .

وأنا إذ أصف أسلوب النثر عند الجاهليين ، لا أعني اني أتفق بصحة هذا  
النثر المنسوب اليهم ، وأثبتت صحة نصه ، وإنما أنا أصفه مستنداً في وصفي هذا  
على المدون المعهول عليهم ، الواردلينا في بطون الكتب ، لأنه وإن كان في  
نظرنا مصنوعاً موضوعاً ، لكنه صحيح على كل حال وفق أسلوب الجاهليين ،  
وعلى نمط كلامهم ، إذ لا يعقل أن يكون الرواة قد اخترعوا تلك الأنماط من  
الكلام اختراعاً ، وأوجدوها من العدم ايجاداً ، فهم إذ وضعوا على الألسنة أهل  
الألسنة من العرب ، فإنما وضعوا عن تقليد ومحاكاة ، وعلى نمط كلام سابق كان  
مؤلفاً عند أهل الجاهلية الذين أدر كانوا الاسلام . ودليل ذلك أثره في خطب الخطباء  
الذين خطبوا أمام الرسول ، وفي خطب الخطباء الذين عاشوا في صدر الاسلام .  
فأنا حين أرفض النصوص ، لا أزعم انه لم يكن لهم نثر ، وإن النثر إنما ظهر  
وعرف في الاسلام ، بل أقر انه قد كان لهم نثر ، وكانت لهم خطب وكأن لهم  
كلام ، ولكن أقول إن هذه النصوص المشتبه المدرونة ، هي نصوص لا يجوز  
العقل أن تكون صحيحة أصلية مضبوطة ، لما قلته من عدم قدرة الذاكرة على  
المحافظة على أصالة النثر .

وأود أن أستثنى الأمثال الجاهلية من هذا التعميم الذي عمته على نصوص النثر  
الجاهلي ، فالآمثال بحكم ابجازها وكثرة انتشارها على الألسنة ، ولكونها أداة تعليمية  
تحفظها الذاكرة ، ولا تخطيء فيها كثيراً ، حافظت لذلك على أصelaها ونصها ،  
ودليل ذلك إننا لا نزال نضرب الأمثال بها حتى اليوم ، ثم إن منها ما قد ضرب  
به مثلاً في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي خطب الخلفاء الراشدين  
وكتبهم ، وهذا فتحن لا نبتعد عن العلم إن قلنا بصحتها من حيث النص والمعنى ،  
أي من حيث الضبط بالكلم ومن حيث المحافظة على المعنى<sup>٢</sup> . أما بقية النثر ،  
فإنما على رأيي من عدم إمكان القول بصحة نصوصه ، وإن كنت أوافق على جواز  
بناء بعض النصوص على معان جاهلية ، فيكون النص في هذه الحالات من وضع

---

١- البيان والتبيين ( ٤ / ٢٨ ) .

٢- بروكلمن ، تاريخ الادب العربي ( ١٢٩ / ١ ) .

الرواة ، أما المضمون فجاهلي ، تطور وتزوق حسب الأفواه التي روت ودبتته ، بحيث ظهر على الصورة التي وصلت إلينا . وإذا كان الحال على هذا المنوال ، فأين يا ترى نجد النثر ؟ وجوابي أنك لا تجد النثر الصحيح المنشور بهذه العربية البينة الفصيحة إلا في القرآن الكريم . فالقرآن الكريم ، لكونه كتاب الله وقد دون ساعة نزوله ، دونه كتبة عند نزول الوحي ، وأخذه عنهم كتبة آخرون وحفظه الحفاظ ، وقرأ الكثير منهم ما كتبه من آي أو ما حفظه منها ومن السور على الرسول ، فأيد قراءتهم ، وثبت كتابتهم ، فهو لهذا الكتاب الوحيد المنزل بلسان عربي مبين . لا شبهة في ذلك ولا شك . أرشدنا إلى أساليب الجاهليين في فنون القول ، بمخاطبته لهم بلسانهم وبطرق بيانهم ، وبأسلوب مجاجتهم ، وضرب لهم الأمثال بأمثالهم ، كي تكون عبرة مقبولة عندهم ، ومخاطبهم على قدر عقولهم ، بلسان عربي مبين ، يفهمه كل العرب ، ففيه إذن نجد نثر العرب ، وإن كان هو أبلغ النثر ، وفيه نجد حياة الجاهليين وعقليتهم .

وقد وصف (الجاحظ) أسلوب القرآن بقوله : « خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمشور ، وهو مشور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج » <sup>١</sup> .

ثم نجد هذا النثر في الحديث ، في الحديث النبوي ، وفي الحديث موضوع وضعيف ، إلا أن فيه ما لا يشك في صحته . وفيه ما روی بالمعنى ، لتجویزهم الروایة عن الرسول بالمعنى ، خشية الخطأ في النص ، والتقول عليه ، ومن ثم كل على رسول الله متعتمداً ، تبؤا مقعده في النار . وقد روی الحديث روایة ، أي مشافهة ، غير أن من العلماء من ذكر أن (عبدالله بن عمرو بن العاص ) ، كان قد كتب حديث الرسول ، وذلك انه استأذنه في أن يكتب حديثه فإذا ذُر له . وروي عنه انه قال حفظت عنه ألف مثيل ، وروي عن (ابي هريرة ) قوله : « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكثر حديثاً مني ، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو ، فإنه كان يكتب » <sup>٢</sup> . ولكتنا لم نسمع بما حل

١ البيان والتبيين (٣٢) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ١٩٥٩ م) .  
٢ الاستيعاب (٣٣٩/٢) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣٤٣/٢٠) ، (رقم ٤٨٤٧)

بالصحف التي دون بها (عبدالله) حديث الرسول ، ولا أدرى اذا كان ما روي عنه في المسائد ، مثل مستند (أحمد بن حنبل) قد نقل من تلك الصحيفة نقلًا أم روایة<sup>١</sup> .

وهناك روايات تذكر ان (همام بن منبه) ، أخذ عن (أبي هريرة) ، حديث رسول الله ، وكتب ما أخذه في صحيفة عرفت بـ (الصحيفة الصحيحة) في مقابل (الصحيفة الصادقة) المنسوبة لعبدالله بن العاص ، ونجده تقولاً منها في البخاري ، وفي مستند (أحمد بن حنبل)<sup>٢</sup> . وقد نشرت هذه الصحيفة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق<sup>٣</sup> . وهذه الصحيفة ، إن صح أنها من وضع (همام بن منبه) وانها أصيلة ، ذات أهمية كبيرة بالطبع ، لأنها أقدم صحيفة نعرفها في الحديث بعد صحيفتي (عبدالله بن عمر وبن العاص) ، وان كانت دونها في المنزلة ، لأنها أخذت عن لسان (أبي هريرة) ، وأخذ (عبدالله) حديثه من فم الرسول ، ومن الجائز أن يكون حديث أبي هريرة بلسانه ، أما حديث (عبدالله) ، فربما كان بلسانه أيضًا ، غير انه كان ينقله من فم الرسول فيحفظه ثم يدونه ، فهو أقرب إلى الصحة من صحيفتي (همام) . وربما كان (عبدالله) ، قد دون حديثه بحضورة الرسول ، فإن هذا الموضوع ، لا زال مجهولاً ، لم يبحث بحثاً علمياً صحيحاً ، وهو يتمنى من الباحثين من يقوم بالبحث عنه .

ويظهر من أحاديث تسبب إلى الرسول مثل حديث : « لا تكتبوا عن شيئاً سوى القرآن ، فلن كتب عن غير القرآن فليمحه »<sup>٤</sup> ، ومن أخبار تسبب إلى (أبي بكر) و (عمر) في النهي عن كتابة الحديث ، مثل ما نسبوا إلى (عمر) من انه كتب إلى الأمصار من كان عنده شيء من الحديث فليمحه ، ومن انه أنسه أنسد الناس أن يأتيه بصحف الحديث ، فلما أتاه بها أمر بتخريقها ، ثم قال :

١ راجع في موضوع الحديث : أبوريحة ، أضواء على السنة المحمدية .  
٢ مستند الإمام أحمد بن حنبل (٣١٢/٢ وما بعدها) ، لقد تحدثت عن « همام بن منبه » في أثناء حديثي عن « موارد تاريخ الطبرى » ، المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الاول فما بعده .

٣ المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) ، (الجزء الثاني والثالث) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٤٦) .  
٤ أبو리حة ، أضواء (٤٦) .

مثناة كمثناة أهل الكتاب ! ومثل ما نسب الى (علي) من قوله : « اعزم على كل من عنده كتاب لا رجع فحاه ، فإنما هلك الناس حيث تبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم »<sup>١</sup> ، وأمثال ذلك مما نسب الى الصحابة في النهي عن كتابة الحديث ، وفي الحث على تحريف ما قد كان عندهم من صحف وكتب أو إيهائه ، انه قد كان عند الصحابة صحف فيها حديث رسول الله كتبت في أيام الرسول وبعده ، كانوا يراجعونها ويستغرون بها ، وكان في بعضها ما يشك في صحته وفي صدوره من الرسول ، ونحوه الرسول وصحابته من أن يأتي يوم تكون فيه تلك الصحف مرجعاً للناس مثل رجوعهم للقرآن ، يتخذونها سندآ لهم ، اتخاذ اليهود للمثناة ، أي (المثنا) ، أسرروا باتفاقها وبالنهي عن التدوين . والاكتفاء بالحديث مشافهة ، وبنشره بالرواية . وهي طريقة غير مأمونة أيضاً ، فالتدوين أضمن منها وأسلم ، ولكنها طريقة كانت متّعة في ذلك الحين ، لأسباب لا أستطيع أن أتحدث عنها في هذا المكان ، لأن الحديث عن تدوين حديث رسول الله وعن ورود النهي عن تدوينه يخرجنا عن الحدود المرسومة لهذا الكتاب . على كل فإن أخذ المحدثين بمبدأ رواية حديث الرسول بالمعنى ، كان هو السبب الذي حل علّاء النحو واللغة على عدم الاستشهاد به في شواهد القواعد واللغة ، كما يبيّن ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

وفي رسائل الرسول وكتبه ووصاياه وخطبه وأوامره ، وفي خطب الوفود التي كانت تقد عليه ، وفي خطب الصحابة ، أمثلة على طبيعة وأسلوب الخطب عند الجاهليين ، ولا سيما القديم من تلك الخطب الذي ألقاء الخطباء أمام الرسول قبل دخولهم في الإسلام ، فهو في الواقع استمرار لأسلوب الخطاب في الجahلية ، ألقي بالطريقة المألوفة عندهم التي تمثل التفكير الجاهلي ، والمعقلية الجاهلية أيام ظهور الإسلام . وإن كنت أشك في صحة كثير من الخطب والرسائل المنسوبة إلى الرسول ذلك لأننا إذا درسنا نصوص هذه الرسائل ، نجد أصحاب السير والتاريخ يروونها بصورة مختلفة ، وفي اختلافهم هذا ، دلالة على أن الرواية لم ينقلوها من أصل مكتوب ، وإنما أخذوا النص بطريق المعنى والرواية ، فوقع من ثم هذا الاختلاف . أضعف إلى ذلك فعل التزوير ، فقد نص المؤرخون وأرباب السير على أن بعض

---

١ المصدر نفسه (٤٦ وما يبعدها) .

أهل الكتاب وسادات القبائل والرجال ، قدموا للخلفاء كتبًا مزورة فيها إقرار قرار وإحقاق حق ، للمطالبة بتنفيذ ما جاء فيها ، وفي حديث : « من كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار »<sup>١</sup> ، وحديث آخر يشبهه هو : « إن الذي يكذب علىَ يبني له بيئاً من النار » ، وأحاديث أخرى من هذا القبيل<sup>٢</sup> ، دلالة على وقوع الكذب على الرسول في حياته وبعد وفاته .

وقد ورد أن الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأخذادهم ، وعلى ما في لغتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين أن أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يُوجّه إليهم الخطاب كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة : حتى قال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وفدبني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد وزراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره؟ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوضح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الاختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه »<sup>٣</sup> .

فإذا كان الأمر من اختلاف لغات العرب على هذا التحو ، وإذا كان الصحابة ومنهم الخلفاء ، وهم على ما هم عليه من فصاحة وبلاغة ، لم يفهموا كلام الوفود ، فهآهاً صحيحاً ، حتى كان الرسول يفسر لهم ما كان يقوله للوفود ، وما كانت الوفود تقول له ، فكيف نصدق بصححة نصوص خطبهم وكلامهم ، وقد أقيمت بهجاتهم الخاصة ، ولم يكن هناك كتبة ولا مدونون ، يدونون محاضر جلسات الرسول مع الوفود ، ومحاضر كلامه معهم ، وما كان يقع بحضوره من نقاش وكلام ؟

وأنت إذا راجعت خطب الرسول التي خطبها في ( حجة الوداع ) تجدتها وقد

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات ( ١٢٢ ) ، ( تحقيق أكرم ضياء العمري ) ، ( من كذب علي ، فليتبوأ مقعده من النار ) ، « والله ما قال متعمداً ، وأنتم تقولون متعمداً » ، أبورية ، أضواء ( ٦٢ ) .

٢ أبورية ، أضواء ( ٥٩ وما بعدها ) .

٣ الرافعي ( ٣٢٥ / ١ ) .

رويت بصور مختلفة<sup>١</sup> ، وفي هذا الاختلاف دلالة بيته على أنها لم تنقل من أصول مكتوبة ، وإنما أخذت من الأفواه ، وإنما لما جاز عقلاً وقوعه أبداً . وسبب ذلك ، أن الناس في ذلك الوقت ، لم يكونوا قد تعودوا لا في الجاهلية ولا في الاسلام اتخاذ كتاب لتدوين ما كان يقع لهم من أحداث ، ولم يكن عندهم مراسلون يرافقون الملوك والحكام وسادة القبائل والوفود ، لوصف مواكب الملوك ومشاهدتهم وحروبهم ، وخطبهم ومفاضاتهم مع سادات القبائل . وكذلك كان الحال في الاسلام ، ببل ولا رواة لهم ذاكرة قوية ، لحفظ أحاديث المجالس والأحداث ، واذاعتها بين الناس ، لأن العناية بحفظ الأحداث والتاريخ وتخليلها تقتضي وجود وعي بأهمية تدوين التاريخ ، ولم يكن هذا الوعي معروفاً آنذاك . ولهذا جاءت أخبار الحوادث عن طريق شهود عيان رروا ما شاهدوه لأصحابهم ، كما يروي أي إنسان ما قد يقع له من أمور لأصدقائه، وهؤلاء قصوا تلك المرويات على أصحابهم وعلى من جاء بعدهم بلغتهم ، وبهذه الطريقة وصلت الأخبار الى المدونين عندما بدأوا بالتدوين . وليس من المقبول بالطبع حفاظة الذاكرة على النصوص الأصلية للخطب وللكلام ، ولقول الراوي الأول للأحداث . وليس من المقبول أيضاً وصوتها سالمة نقية من كل تغيير أو تبديل أو تحريف ، ولا سيما في الأمور العاطفية التي تضرب على أوتار العصبية . وهذه الأساليب وغيرها فنحن لا نستطيع الاطمئنان إلى صحة هذه الأخبار المروية من الأفواه ، لما يحتمل أن يكون قد وقع فيها من زيف أو من تحريف عن عمد أو من غير عمد . ولو كانت الذاكرة تعني كل كلام وتحفظ كل حديث بالحرف والكلمة ، لما أجاز العلماء رواية حديث الرسول بالمعنى ، إذ كان من الصعب حفظه بالحرف . ولا أظن أن أحداً يقول إن حفظ أخبار الجاهلية ونصوص كلام رجالها، أهم عند العرب من حفظ حديث الرسول .

وأناأشك في صحة أكثر ما نسب الى ( مسلمة ) من كلام وقرآن . وهو ( مسلمة بن حبيب الحنفي ) ، المكنى بـ ( أبي ثامة ) ، والمعروف بين

<sup>١</sup> راجع كتب السير والتاريخ في خطبة الوداع ، الطبرى ( ١٤٩/٣ وما بعدها ) ، البيان والتبيين ( ٣١/٢ ) ، ابن الاثير ( ١٤٦/٢ ) .

ال المسلمين بـ ( الكذاب )<sup>١</sup> . واسمه الصحيح ( مسلمة ) ، وقد صغر في الاسلام ، ازدراءً بشأنه . فقد روي انه صنع قرآنًا مضاهاة للقرآن ، غير انهم لم يتحدثوا بشيء عن قرائه . واذا صبح ما ذكره أهل الأخبار من انه ادعى الوحي بمحنة أو بالبيامة قبل الاسلام ، وانه نزل على نفسه آيات زعم أنها تنزيل من الرحمن ، فيكون قد باشر بتأليف قرآنٍ قبل الوحي<sup>٢</sup> .

وذكر ان في حقه نزلت الآية : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَلْبًا ، أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ، وَلَمْ يَوْحِدْ إِلَيْهِ شَيْءًا . وَمَنْ قَالَ سَأْنَزَلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » ٣ . فقد ذكر علماء التفسير ان عباره : « أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يَوْحِدْ إِلَيْهِ شَيْءًا » ، نزلت في مسلمة أخي بني عدي بن حنيفة ، فيها كان يسجع ويتكهن به . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أخي بني عامر بن لؤي ، كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيها يمي : عزيز حكيم ، فيكتب : غفور رحيم فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوت ، فيقول : نعم سواء ، فرجع عن الاسلام ، ولحق بقريش . وقال لهم : لقد كان ينزل عليه عزيز حكيم ، فأحروله ثم أقول لما أكتب ، فيقول : نعم سواء ؟ :

وكان من حديث (مسيلمة) ان قريشاً قالت للرسول : « بلغنا انه انا يعلمك هذا رجل باليامة ، يقال له الرحمن ، وإنما والله ما نؤمن بالرحمن أبداً » ، وذكر أهل الأخبار ان قريشاً حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قائلهم : دق فوك ، انا تذكرة مسليمة رحمن اليامة » ، لأنهم كانوا قد سمعوا بدعونه الى عبادة الرحمن ، قبل نزول الوحي على الرسول . وورد « انهم لما

« وهو مسيلمة بن نعامة بن كبير بن حبيب بن العارث بن عبد العارث بن هفان ابن ذهل ، بن الدول بن حتيبة . يكتنى أباً نعامة ، قيل أباً هارون ، وكان يسمى بالرحمان فيما روى عن الزهرى قبل مولد عبدالله والد النبي » ، الروض الانف (٣٤٠ / ٢) ، الاشتراق (٢٠٩) ، (كتاب اليمامة) ، مروج الذهب (٣٠٣ / ٢) ، المعارف (٩٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٤٠٥ ، ٤٢٤ ، ٤٥٤) ، اليعقوبي (١٢٠ / ٢) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

تحدثت عنه بتفصيل في الجزء السادس من هذا الكتاب في فصل : **أنبياء جاهليون** .

الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ٩٣ .

تفسير الطبرى (١٨١/٧) .

تفسير الطبری (١٥/١١١)

<sup>٠</sup> اليعقوبي (١/١٢٠)، الروض الانف (٢/٣٤٠).

سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن قال قريش : أتدرؤن ما الرحمن ؟ هو كاهن الياءة ! . وقد قالوا لمسيلمة : رحمن ، وقالوا أيضاً فيه : رحمن الياءة<sup>١</sup> .

وأنا لا أستبعد احتمال مجئه إلى مكة قبل الإسلام . فقد ذكر أنه تزوج (كبشة) (كبسة بنت الحارث بن كربيل بن حبيب بن عبد شمس)<sup>٢</sup> ، وهي من مكة ، فلا يعقل علم مجئه إلى مكة وإقامته بها بعض الوقت ، ومجئه إليها بين الحين والحين . ومن هنا كان لأهل مكة علم بدعوة مسليمة إلى عبادة (الرحمن) .

وقد زعم أنه « كان يقول : أنا شريك محمد في النبوة ، وجبريل عليه السلام يتزل على» كما يتزل عليه ، وكان رجـالـانـ بنـ عـنـفـوـةـ منـ رـائـشـيـ نـبلـهـ ،ـ وـالـخـاطـبـيـنـ فيـ حـبـلـهـ ،ـ وـالـسـاعـيـنـ فـيـ نـصـرـتـهـ .ـ وـكـانـ مـسـيـلـمـةـ يـقـولـ :ـ يـاـ بـنـ حـنـيفـةـ ،ـ مـاـ جـعـلـ اللهـ قـرـيـشـاـ بـأـحـقـ بـالـتـبـوـةـ مـنـكـ ،ـ وـبـلـادـكـ أـوـسـعـ مـنـ بـلـادـهـمـ ،ـ وـسـوـادـكـ أـكـثـرـ مـنـ سـوـادـهـمـ ،ـ وـجـبـرـيـلـ يـتـزـلـ عـلـىـ صـاحـبـكـ مـثـلـ مـاـ يـتـزـلـ عـلـىـ صـاحـبـهـمـ .ـ وـلـاـ قـدـمـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـىـ هـمـ وـلـمـ الـمـدـيـنـةـ وـجـدـ النـاسـ يـتـلـاـكـرـونـهـ وـمـاـ يـلـغـهـمـ عـنـهـ مـنـ قـوـلـهـ وـقـوـلـ بـنـ حـنـيفـةـ فـيـ ،ـ فـقـالـ يـوـمـاـ خـطـيـباـ ،ـ فـقـالـ بـعـدـ حـمـدـ اللهـ وـالـثـنـاءـ عـلـيـهـ .ـ أـمـاـ بـعـدـ ،ـ فـإـنـ هـذـاـ الرـجـلـ الـذـيـ تـكـثـرـونـ فـيـ شـأـنـهـ كـذـابـ فـيـ ثـلـاثـيـنـ كـذـابـاـ قـبـلـ الدـجـالـ ،ـ فـسـيـاهـ الـمـسـلـمـوـنـ مـسـيـلـمـةـ الـكـذـابـ ،ـ وـأـظـهـرـوـاـ شـتـمـهـ وـغـيـرـهـ وـتـصـيـغـهـ ،ـ وـهـوـ بـالـيـامـةـ يـرـكـبـ الصـعـبـ وـالـذـلـولـ فـيـ تـقـوـيـةـ أـمـرـهـ ،ـ وـيـعـتـضـدـ بـرـجـالـ بـنـ عـنـفـوـةـ ،ـ وـهـوـ يـنـصـرـهـ وـيـذـبـ عـنـهـ وـيـصـدـقـ أـكـاذـبـهـ ،ـ وـيـقـرـأـ أـقـاوـيـلـهـ الـتـيـ مـنـهـ :ـ وـالـشـمـسـ وـضـحـاهـاـ ،ـ فـيـ ضـوـئـهـاـ وـمـنـجـلـاهـاـ .ـ وـالـلـيلـ إـذـاـ عـدـاهـاـ ،ـ يـطـلـبـهـاـ لـيـغـشاـهـاـ ،ـ فـأـدـرـكـهـاـ حـتـىـ أـتـاهـاـ وـأـطـفـأـ نـورـهـاـ فـحـاـهـاـ »<sup>٣</sup> .

« منها : سبع اسم ربكم الأعلى ، الذي يسر على الجليل ، فأنخرج منها نسمة تسعى ، من بين أحشاء ومعى ، فنفهم من يموت ويدرس في الظل ، ومنهم

١ الغزانة (٢٨٥/٢) ، (هارون) .

٢ كتاب نسب قريش (٢٠) ، الروض الانف (١٩٨/٢ ، ٣٤١) ، المعبسر (٤٤٠) ، امتناع الأسماع (٢٤٧/١) ، كتاب نسب قريش (١٤٧) ، الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٩٦) .

٣ ثمار القلوب (١٤٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣٥٩/١) ، المعارف (١٧٨) ، التنبية ، للمسعودي (٢٤٧) .

من يعيش ويفقى الى أجل ومتى ، والله يعلم السر وأخفى ، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى .

ومنها : اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها ؛ إذ جعل لكم الشمس سراجاً ، والغيث ثجاجاً ، وجعل لكم كباشاً ونعاجاً ، وفضة وزجاجاً ، وذهباً وديباجاً ، ومن نعمته عليكم أن أخرج لكم من الأرض رماناً ، وعنباً ، وريحاننا ، وحنطة وزراناً .

وكان أبو بكر إذا قرع سمعه هذه الترهات يقول : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من الله ۖ ۖ .

« وكان رجالاً بن عنفوة صاحب مسلمة قدم المدينة مراراً ، وقرأ القرآن وأظهر الإيمان ، وأسر الكفر . ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، بينما هو جالس في أصحابه ، إذ سمع وطناً من خلفه ، فقال : هذا وظيفة رجل من أهل النار ، فإذا هو رجالاً بن عنفوة . فلما قدم وقد حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم - وفيهم مسلمة إلا أنه لم يلقه - وأظهروا الإسلام وأرادوا الانصراف ، أمر لهم عليه الصلاة والسلام بمهاجرة كعادته في الوفود ، وقال : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا : لا ، إلا رجل منا يحفظ رحالنا - يعنون مسلمة - فقال صلى الله عليه وسلم : ليس بشركم مكاناً . فلما رجع الوفد إلى مسلمة وقد بلغه كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : قد سمعتم قول محمد في : ليس بشركم مكاناً ، وقد أشركتني في الأمر بعده ، فعلمكم به . ولما انصرفوا إلى اليمامة أُعلن مسلمة النبوة ، وادعى الشركة ، وفن أهل اليمامة ، وانقسموا بين مصدق ونكذب ، وراضٍ وساخط . وكتب مسلمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كتاباً قال فيه : إلى النبي محمد رسول الله من مسلمة رسول الله ، أما بعد ، فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يعتدون ولا يعدلون . وختم الكتاب وأبقيه مع رسولين ، فلما قرئ الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لها : ما تقولان ؟ قالا : نقول ما قال أبو ثمرة ، فقال : أما والله لولا أن الرسل لا يقتلون لقتلتكما .

وأمل في الجواب : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من أتيك المدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ولما صدر الرسولان إلى مسيلمة الكذاب افتعل كتاباً يذكر فيه أنه جعل له الأمر من بعده ، فصدقه أكثربني حنيفة .

وبلغ من تبرّكهم به أنهم كانوا يسألونه أن يدعو لريضهم ، ويبارك لولودهم ، وجاءه قبوم بولود لهم فسح رأسه ففرع . وجاءه رجل يسأله أن يدعو لولود له بطولة العمر ، فات من يومه .

وكان ثامة بن أثال الحنفي يقشر جلد من ذكر مسيلمة ، وقال يوماً لأصحابه : إن مهداً لا نبي معه ولا بعده ، كما أن الله تعالى لا شريك له في ألوهيته ، فلا شريك لمحمد في نبوته . ثم قال : أين قول مسيلمة : يا ضفدع نقى نقى ، كم تنتين ! لا الماء تكدررين ، ولا الشَّرِبَ تُتعنِّينَ ، من قول الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير . فقالوا : أوقع بنع يقول مثل ذلك مع مثل هذا ١ .

وقد روي قول (مسيلمة) في الضفدع على هذا النحو : « يا ضفدع بنت ضفدعين : نقى ما تنتين . نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدررين ولا الشَّرِبَ تُتعنِّينَ »<sup>١</sup> . وروي أن وفـدـ الـهـامـةـ لما قـدـمـ عـلـىـ (أـبـيـ بـكـرـ) بـعـدـ مـقـتـلـ مـسـيـلـمـةـ ، « قـالـ هـمـ : مـاـ كـانـ صـاحـبـكـ يـقـولـ ؟ فـاسـتـغـفـرـهـ مـنـ ذـلـكـ ، فـقـالـ : لـتـقـولـنـ » . فـقـالـواـ : يـاـ ضـفـدـعـ نقـىـ كـمـ تـنـتـيـنـ ، لـاـ الشـارـبـ تـعـنـيـنـ ، وـلـاـ المـاءـ تـكـدـرـرـيـنـ ... فـقـالـ آبـيـ بـكـرـ : وـحـكـمـ أـنـ هـذـاـ الـكـلـامـ لـمـ يـخـرـجـ مـنـ إـلـلـهـ وـلـاـ بـرـ ، فـأـيـنـ ذـهـبـ بـكـمـ ؟<sup>٢</sup> ، أوـ أـنـهـ قـالـ : هـذـاـ كـلـامـ مـاـ أـتـيـ مـنـ عـنـ إـلـلـهـ ، أـيـ مـنـ عـنـ اللهـ . وـهـوـ فـيـ الـأـسـمـاءـ الـأـعـجمـيـةـ لـإـلـلـهـ ، مـثـاـ إـسـرـافـيلـ ، وـجـبـرـيلـ ، وـمـيكـائـيلـ ، وـإـسـرـائـيلـ ، وـاسـمـاعـيلـ ؟<sup>٣</sup> . وـقـبـلـ إـلـلـهـ

١ ثمار القلوب (١٤٨ وما بعدها) .

٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٨٠/٢) .

٣ في الأصل « الشَّرِبَ » ، وفي الموارد الأخرى الشَّارِبَ .

٤ الفائق (٣/١٢٢) .

٥ الأكليل (٧/٢) .

الربوبية ، والأصل الجيد والمعدن الصحيح ، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن . ويجوز أن يكون بمعنى النسب والقرابة ، من قوله تعالى : « لا يرقبون في مؤمن إلا » ولا ذمة » . وقول حسان :

لعمرك إن إلك من قريش كإله السقب من رأس العام<sup>١</sup>

وقد ذكر ( الطبرى ) في مقدمة تفسيره ، أن القرآن لما نزل على الرسول ، أقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالنقص ، إلا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشى ، فحاول تكليف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورما مَا قد تيقن أنه غير قادر عليه ، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستوراً ومن عي لسانه ما كان مصوتاً ، فتأتى بما لا يعجز عنده الصعيف الآخر ، والجاهل الأحق ، فقال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقات لقاً ... ونحو ذلك من الحالات المشبهة دعواه الكاذبة <sup>٢</sup> . والطبرى وإن لم يصرح باسم قائل هذه الحالات ، لكنه قصد به مسلمة من غير شك .

أما أن تلك الآيات قالتها ( ميسيلمة ) حقاً ، فتلك قضية لا يمكن إثباتها ، فلما قتل ، وضع أصحابه عليه أموراً كثيرة ، قد يكون في جملتها هذه الآيات . أما قوله الذي قيل إنه وضعه يضاهي به القرآن ، فقد هلك بهلاكه ، ولم أجده أحداً ذكر أنه وقف عليه ، ونقل منه ، ولعله كان كلاماً لم يسجل في حياة ميسيلمة ، وإنما كان محفوظاً في صدر صاحبه وفي صدور أتباعه ، ودخل من دخل من أصحابه في الإسلام طمس أثر ذلك القرآن .

وقد دون ( الرافعي ) الآيات التي أخذتها من تفسير الطبرى ، على هذه الصورة : والمُبَرَّرات زَرْعاً ، والحاصلات حصداً ، والذاريات قحراً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقات لقاً ، إهالة وسناً ... لقد فضلتم على أهل الوير ، وما سبقكم أهل المدر، ربكم فامتعوه ،

١ الفائق ( ٣/١٢٣ ) .

٢ تفسير الطبرى ( ١/٥ ) .

والمعتر فاروه ، والباغي فناوته »<sup>١</sup> ..

ونسب (الرافعي) له قوله : « والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وأل bian ، والشاء السوداء ، والبن الأبيض ، انه لعجب محسن ، وقد حرم الملق فا لكم لا تمحجون » .

وقوله : « الفيل ما الفيل ، وما أدرك ما الفيل ، له ذنب ويل ، وخرطوم طويل » . وروي انه « جعل يسجع لهم الأساجع ويقول لهم فيها يقول مضاهاة للقرآن : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا »<sup>٢</sup> ، أو انه قال : « ألم ترَ الى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا »<sup>٣</sup> . روی انه قال هذه الآيات لسجاح لما أراد الدخول بها ، فقالت : « وماذا أيضاً؟ قال : أوحى إليَّ : ان الله خلق النساء أفراجاً ، وجعل الرجال هن أزواجاً ، فنولج فيهن قُسماً إيلاجاً ، ثم تخرجها اذا شاء إخراجاً ، فيستجن لنا سخالاً انتاجاً . قالت أشهد انكنبي ، قال : هل لك أن أتزوجك فـأـكـلـ بـقـوـمـيـ وـبـقـوـمـكـ العـرـبـ اـقـالـ : نـعـمـ ، قال :

ألا قومي الى النبك فقد هي لك المضجع  
وإن شئت فيبي البيت وإن شئت فيبي المخدع  
وإن شئت سلقناك وإن شئت على أربع  
وإن شئت بثليثه وإن شئت به أجمع

قالت : بل به أجمع . قال بذلك أوحى إليَّ . فأقمت عنده ثلاثة ثم انصرفت الى قومها ، فقالوا : ما عندك؟ قالت : كان على الحق فاتبعته فتزوجته ، قالوا : فهل أصدقك شيئاً؟ قالت : لا ، قالوا : ارجعني اليه ، فقيبح بملوك أن ترجع بغير صداق ! فرجعت ، فلما رأها مسلمة أغلى الحصن ، وقال : ما لك؟ قالت أصدقني صداقاً ، قال : من مؤذنك؟ قالت : شبث بن ربعي

١ تأريخ آداب العرب (١٧٩/٢) .  
٢ سيرة ابن هشام (٢/٣٤١) ، (حاشية على الروض) ، ابن كثير ، البداية (٣٢٦/٦) ، الباقلانى ، اعجاز (٢٤٠) .  
٣ الباقلانى ، اعجاز (٢٤٠) .

الرياحي ، قال : على به ، فجاء ، فقال : ناد في أصحابك ان مسلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أنتم به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر <sup>١</sup> . وأما (سيف) فذكر انه صالحها « على أن يحمل اليها النصف من غلات اليمامة ، وأبى إلا السنة المقبلة يسلفها ، فباح لها بذلك » ، وقال : خلفي على السلف من يجمعه لك ، وانصرفي أنت بنصف العام ، فرجع فحمل اليها النصف ، فاحتملته وانصرفت به الى الجزيرة <sup>٢</sup> .

وذكر أن (سجاح) لما دخلت قبة (مسلمة) ، « قالت له : اخبرني بما يأريك به جبريل ؟ فقال لها : اسمعي هذه السورة : انكن معشر النساء خلقن أمواجاً ، وجعل الرجال لكن أزواجاً ، يوجلن في يكن إلاباجاً ، لا ترون فيه فتوراً ولا إعوجاجاً ، ثم يخرجونه منكن إخراجاً ، فقالت له : صدقت ، والله إنك لنبي مرسلاً » ، وهي قصة أخذت من موارد سابقة ، مثل الطبرى ، غير أنها غيرت فيها بعض التغير ، تنتهي بأنه رفع عن قومها صلاة العشاء والصلوة لأجل المهر <sup>٣</sup> .

وزعم أن « من قرآن مسلمة الذي يزعم أنه نزل عليه ، لعنة الله عليه : والنازعات نزعاً ، والزارعات زرعاً ، والحاصلات حصداً ، والذاريات ذرواً ، فالطاحنات طحناً ، والنماذلات نزاً ، فالجامعات جمعاً ، والماجنات عجناً ، فالنباذلات خبزاً ، والشاردات ثرداً ، فالآكلات أكلًا ، والماضفات مضفًا ، فالبالعات بلعاً » <sup>٤</sup> .

وقد أخذ قتل (مسلمة) فخرًا ، فادعى قته بنو عامر بن لوي ، وادعى بعض الخزرج قته ، وادعى (بنو التجار) قته ، وادعى (جشي) قاتل حزة قته ، وكان (معاوية يدعى قته) ويدعى ذلك له (بنو أمية) . وذكر أن (عبد الملك بن مروان) قضى لمعاوية بقتل مسلمة <sup>٥</sup> ، وهو قضاء سيادي لا أصل له بالطبع .

١ الطبرى (٢٧٣/٣ وما بعدها) .

٢ الطبرى (٢٧٥/٣) .

٣ نزهة الجليس (٤٧٣/١) وما بعدها .

٤ نزهة الجليس (٤٧٤/١) .

٥ البلاذرى ، فتوح (٩٩) .

ويظهر ان بني حنيفة يقروا على تعلقهم بمسيلمة ، حتى بعد مقتله وذهاب أمره . ففي خبر ينسب الى ( ابن معين ) السعدي انه مسر على مسجد بني حنيفة ، فسمعهم يذكرون ( مسليمة ) ، ويزعمون انه نبي ، فأتى ( ابن مسعود ) فأخبره ، فبعث اليهم الشرط ، فجاءوا بهم فاستتابوا فخلی عنهم ، وقدم ( ابن التواحة ) فضرب عنقه<sup>١</sup> . هذا ، ويدل تعلق ( بني حنيفة ) وغيرهم من عرب اليمامة بمسيلمة ، واستنادتهم في الدفاع عنه ، وتذكيرهم له حتى بعد هلاكه ، على انه كان شخصية مؤثرة قوية ، سحرت أتباعها ، حتى انقادوا له هذا الانقياد . وقد نص ( ابن حجر ) على قتل ( ابن مسعود ) لابن التواحة ، إلا انه لم يذكر ان ذلك كان بسبب اعتقاده بنبوة ( مسليمة ) ، وإنما ذكر انه « كان قد أسلم ثم ارتد فاستتابه عبدالله بن مسعود ، فلم يتبع فقتله على كفره ورده »<sup>٢</sup> . واسم ( ابن التواحة ) ( عبادة بن الحارث ) أحد بني عامر بن حنيفة<sup>٣</sup> .

ويروى ان ( الأخطل ) الصبّي ، قال في مسليمة :

طفاً عليك أبا ثامة طفاً على ركني شمامه  
كم آية لك فيهم كالبرق يلمع في غمامه

وكان ( الصبّي ) شاعراً ، زعم انه ادعى النبوة ، وكان يقول : لم يضر صدر النبوة ، ولنا عجزها ، وقد ضرب عنقه ( عمر بن هبيرة ) ، ومن شعره:  
لَا شطر هذَا الْأَمْرِ قَسْمَةُ عَادِلٍ مَّنْ جَعَلَ اللَّهَ الرِّسَالَةَ تُرْتِبَاً  
أَيْ رَاتِبَةٍ فِي وَاحِدٍ .

وسائل ( الأخفف بن قيس ) رأيه في مسليمة ، فقال : « ما هو بني صادق ولا بمني حاذق »<sup>٤</sup> .

١ الفائق ( ٦٠٣/١ ) ، الاصابة ( ١٤٣/٣ ) ، ( رقم ٦٦٥١ ) .

٢ الاصابة ( ١٤٣/٣ ) ، ( رقم ٦٦٥١ ) .

٣ البلاذري ، فتوح ( ٩٧ ) .

٤ المؤتلف ( ٢٢ ) .

٥ أمالى المرتضى ( ٢٩٢/١ ) .

وأنا لا استبعد ما نسب إلى (مسيلمة) من دعوى نزول الوحي عليه ، وتنمية ذلك الوحي (قرآنًا) أو كتاباً أو سفراً ، أو شيئاً آخر ، ولكنني استبعد صحة هذه الآيات التي نسبتها الكتب إليه ، وأرى أن أكثرها ورد بطريق أحاد ، فلما نقلها الخلف عن السلف ، وكثير ورودها في الكتب ظهرت وكانتها أخبار متواترة ، وصارت في حكم ما أجمع عليه . وقد رویت بعض الآيات مثل : آية الصندع ، بصور متعددة مختلفة ، مع أنها أشهر وأعرف آية أو آيات نسبت إليه ، فما بالك بالآيات الأخرى ، ثم إننا نجد الرواة ينافقون أقوالهم كثيراً فيما نسبوه إليه ، وبعضه مما لا يعقل صدوره من مسليمة ، مثل شعره الذي قاله سجاح ، حين أراد الدخول بها . وهل يعقل أن يقول إنسان يدعي النبوة مثل هذا الكلام الفاحش أمام الناس ، ليدون ويسجل عليه !

وقد ذكر (ابن النديم) أن لابن الكلبي مؤلفاً خاصاً ألفه في مسليمة دعاه : «كتاب مسليمة الكذاب» ، لم يصل اليانا ، وله كتاب آخر في بني حنيفة اسمه : «كتاب أيام بني حنيفة» ، وهو قوم مسليمة ، وكتاب دعاه : «كتاب أيام قيس بن ثعلبة»<sup>١</sup> .

وزعم أن من كلام (طليحة) الأستي الذي قاله لأصحابه : «والحاج واليام ، والصرد والصوأم» ، قد صنف قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملوكنا العراق والشام<sup>٢</sup> .

وروى (الطبرى) سجعاً من سجع (سجاح) ، وكانت نصرانية راسخة في النصرانية ، قد علمت من علم تقلب ، هو قوله لأتباعها : «عليكم باليامة ، ودواها ديف الحاجة ، فإنها غزوة صramaة ، لا يلحقكم بعدها ملامة» ، فلما جاءت مع قومها اليامة ، قال لها مسليمة : «لنا نصف الأرض ، وكان قريش نصفها لو عدل ، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش ، فحباك به ، وكان لها لو قبلت . فقالت : لا يرد النصف إلا من حنف ، فاحمل النصف إلى خليل تراها كالسيف . فقال مسليمة : سمع الله ممن سمع ، وأطعمه بالنجير إذ طمع ، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع . رأكم ربكم فحباك ، ومن وحشة

١ الفهرست (ص ١٤٨) .

٢ الطبرى (٣/٢٦٠) ، (دار المعارف) .

خالكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فاحياكم علينا من صلوات عشر أبار ، لا أشقياء ولا فجّار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، ربكم الكبار ، رب الغيوم والأمطار .

وقال أيضاً : لما رأيت وجههم حسنت ، وأبشرهم صفت ، وأيدتهم طفلت ، قلت لهم : لا النساء تأتون ، ولا الحمر تشربون ، ولكنكم عشر أبار تصومون يوماً ، وتتكلفون يوماً ، فسبحان الله ! اذا جاءت الحياة تحبون ، والى ملك النساء ترقون ! فلو أنها حبة خردلة ، لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور ، ولأكثر الناس فيها الشبور .

وكان مما شرع لهم مسلمة ان من أصاب ولداً واحداً عقباً لا يأتي امرأة الى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد ، حتى يصيب ابناً ثم يمسك ، فكان قد حرم النساء على من له ولد ذكر <sup>١</sup> .

وبلاحة الكلام معروفة عند الجاهلين ، فقد كانوا ينتون المتكلم الجيد بالبلية ، وفي القرآن الكريم : « وقل لهم في أنفسهم قوله بلينا <sup>٢</sup> ». والبلية الفصيغ الذي يبلغ بعبارته كنه ضميره ونهاية مراده <sup>٣</sup> . سأل (معاوية) (صحار بن عياش) العبدى <sup>٤</sup> ، ما البلاغة ؟ فقال : لا تخطيء ولا تبطئ <sup>٥</sup> . أو أنه قال له : ما البلاغة ؟ قال : الإيجاز . قال : ما الإيجاز ؟ قال : أن لا تبطيء ولا تخطيء . وكان قد دهش من فصاحته وبلايته ، فقال له : ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء ينخلج في صدورنا فنقذفه كما ينخدف البحر بزبدة <sup>٦</sup> .

وقد ميز (الطبرى) وغيره من العلماء بين الخطباء وبين الفصحاء والبلغاء ، فالخطباء هم من جماعة صناع الكلام ، وصناعتهم صناعة الخطب ، وذكر بعدهم (البلغاء) ، صناع البلاغة ، ثم (الشعر) والفصاحة ، فجعل للشعر في مقابل الفصاحة ، ثم السجع والكهانة ، وقال : « كل خطيب منهم بلغى ، وشاعر منهم

١ الطبرى (٣/٢٧١ وما بعدها) .

٢ النساء ، الرقم ٤ ، الآية ٦٢ .

٣ تاج العروس (٤/٦) ، (بلغ).

٤ صحار بن عياس <sup>٩</sup> .

٥ تاج العروس (٦/٥) ، (بلغ) ، الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .

وفصيح <sup>١</sup>، فالخطيب هو الذي يخطب باسم الوفد أو القوم ، وله لذلك عندهم مقام جليل ، لأنه عقل من يتكلّم باسمهم ولسانهم ، والبلغي من يتحدث ويتكلّم في المجالس والأندية ، بكلام بلغي رصين ، والفصيح من يفصح ويعرب بلسانه، وبخدمتهم يقولون أحياناً خطيب فصيح ، وشاعر فصيح ، فالفصاحة صفة تلحق بالمتكلّم نائراً كان أو كان شاعراً .

وللبيان عند العرب مقام كبير . وقد أشاد القرآن بالبيان ، فقال : « الرحمن عَلِمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلِمَهُ الْبَيَانَ » <sup>٢</sup> . فجعل البيان في جملة ما علّمه الله الإنسان . ونعت القرآن بأنه نزل « بِلِسَانِ عَرَبِيِّ مِبْنٍ » <sup>٣</sup> ، ووصف القرآن بقوله : « طَسْ ، تَلَكَ آيَاتُ الْقُرْآنَ وَكِتَابٌ مِبْنٌ » <sup>٤</sup> . وينسب إلى الرسول قوله : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسْحَراً » <sup>٥</sup> . وورد في المثل : « جرح اللسان كجرح اليد . هو في شعر امرئ القيس » . يضرب في تأثير الواقعية <sup>٦</sup> ، وفي أثر القول في فعل الناس .

وروي أن ذوي الفهم والعلم من قريش تأثروا ببلاغة القرآن وفصاحتته، فروي أن (الوليد بن المغيرة) ، وكان من بلقاء قريش وفصاحتهم ومن علمائهم بالشعر، لما دخل على (أبي بكر) يسألة عن القرآن « فلما أخبره خرج على قريش . فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهندي من الجنون » ، أو أنه قال لما سمع القرآن : « والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وإن له حللاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وما أشك أنه سحر » ، أو أنه قال : « سمعت قوله حلواً أحضر شمراً ، يأخذ بالقلوب . فقالوا : هو شعر . فقال : لا والله ما هو بالشعر ، ليس أحد أعلم بالشعر مني ، أليس قد عرضت عليـ الشعراـءـ شـعـرـهـمـ ! نـابـغـةـ وـفـلـانـ وـفـلـانـ . قالوا : فهو كاهن . فقال : لا والله ما هو بكاهن ، قد عرضت

١ تفسير الطبرى (٥/١) .

٢ سورة الرحمن ، تفسير الطبرى (٦٧/٢٧) .

٣ النحل ، الآية ١٠٣ ، الشعراـءـ ، الآية ١٩٥ .

٤ النمل ، الآية ١ .

٥ البيان والتبيين (١/٣٤٩) ، العسكري ، جمهرة (١٣/١) .

٦ الزمخشري ، المستقصى (٥٠/٢٠) ، (رقم ١٨٧) .

عليَّ الكهانة . قالوا : فهذا سحر الأولين اكتتبه . قال : لا أدرى إن كان شيئاً فعسى هو اذا سحر يؤثر <sup>١</sup> ، او أنه قال أشياء اخرى من هذا القبيل ، اتفقت في المعنى والمقصد ، واحتللت في العبارات .

كما روي أن قوماً من قريش ومن غيرهم ، أسلموا بتأثير بيان القرآن عليهم ، فقد روي ان ( عمر بن الخطاب ) أسلم على ما يقال حين سمع القرآن . روي عنه انه قال : « خرجمت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجده قد سبقني إلى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن . فقلت هذا والله شاعر ، كما قالت قريش . فقرأ : انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون . فقلت كاهن . قال : ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون حتى ختم السورة . قال : فوقع الاسلام في قلبي كل موقع <sup>٢</sup> . وهي رواية تختلف ما جاء في خبر اسلامه ، من انه كان قد خرج يريد قتل الرسول ، فلقاه ( نعيم بن عبد الله ) النحّام ، وكان من المسلمين ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال له : أريد محمداً هذا الصابي <sup>٣</sup> الذي فرق أمر قريش وسفنه أحلامها ، وعاد دينها وسب آلهتها ، فاقتله ، ، فقال له ( نعيم ) : « أفلأ ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعاً محمداً على دينه فعليك بها » ، فرجع عمر عامداً إلى أخيه وخته وعندما ( خباب بن الأرت ) معه صحيفة فيها ( طه ) يقرئها أيها ، فلما سمعوا حس عمر ، أخذت ( فاطمة ) الصحيفة . فلما دخل ( عمر ) ، قال : ما هذه الهيبة التي سمعت ؟ قالا : ما سمعت شيئاً ، ثم قال لأخته : اعطي هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأونها أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . فأبانت أخيه اعطاءها إلا أن يغسل ، فاغتسل عمر ، فأعطيه الصحيفة وفيها ( طه ) فقرأها وتأنث بها فأسلم <sup>٤</sup> .

١ تفسير الطبرى ( ٩٨/٢٩ و مَا بعدها ) ، سورة المدثر .

٢ الاصابة ( ٥١٢/٢ ) ، ( رقم ٥٧٣٨ ) ، الروض الانف ( ٢١٨/١ ) ، ورووا له

شعراء ذكروا أنه قال بعد اسلامه ، رواه « ابن اسحاق » الروض الانف ( ٢١٨/١ ) .

٣ ابن هشام ( ٢١٦/١ و مَا بعدها ) ، ( حاشية على الروض ) ، الروض الانف ( ٢١٦/١ ) .

وروروا أن (سويد بن الصامت) ، صاحب صحيفة لقمان ، كان من أعجب بالقرآن ، ورووا أن (جبر بن مطعم بن عديّ بن فوغل) ، وكان من أكابر قريش ومن علماء النسب ، قدم على النبيّ ، فسمعه يقرأ (الطور) ، فأثرت القراءة فيه ، وقد أسلم فيها بعد ، بين الحديبية والفتح ، وقبل في الفتح<sup>١</sup>.

والفصاحة في معنى البلاغة ، فهي مرادف لها في الاستعمال . والفصيح هو البين في اللسان والبلاغة ، ولسان فصيح ، أي طلق<sup>٢</sup> . وقد اشتهر (قس بن ساعدة الإيادي) في الفصاحة حتى ضرب به المثل فيها ، فقيل : أفضح من قس ، وأطلق من قس<sup>٣</sup> ، وأبين من قس ، أي أفضح ، وأبلغ من قس . وقد ذكره (الأعشى) بقوله :

وأبلغ من قسْ وأجرأ من الذي بدَي الغيل من خفان أصبح خادرا

كما ذكره الحطيئة بقوله :

وأبلغ من قس وأمضى لذا مضى من الريح لاذ مس النفوس نكاها<sup>٤</sup>

ونسبوا إلى (قس) قوله ينصح ولده : «إن المِعا تكفيه البقلة . وترويه المذقة ، ومن عيرك شيئاً فقيه مثله ، ومن ظلمك وجد من يظلمه ، ومتى عدلت على نفسك عدَل عليك من فوتك ، وإذا تهَيَّتَ عن شيء فانهـ نفسك ، ولا تجمع ما لا تأكل ، ولا تأكل ما لا تحتاج إليه ، وإذا ادخرت فلا يكونـ كثلك إلا فعلك . وكـن عف العيلة، مشترك الغـى ، تـسد قـومك . ولا تـشاورـ مشغولاً وإنـ كان حازماً ، ولا جائماً ، وإنـ كان فـهاً ، ولا مـدعورـ وإنـ كان ناصحاً ولا تـضعنـ في عـنك طـرقاً لا يـكـنـك نـزـعـه إلا بشـقـ نفسـك . وإذا خـاصـمتـ قـاعـدـلـ ،

١. الاصابة (٢٢٧/١)، (رقم ١٠٩١)، الاستيعاب (٢٣٢/١ وما بعدها).

٢. تاج المرروس (١٩٧/٢)، (فضح).

٣. الزمخشري ، المستقصى (٣٩٣/١)، (رقم ١٦٧٧).

٤. المصدر نفسه (٣٢/١)، (رقم ٩٩)، العسكري ، جمهرة (٢٤٩/١)، (رقم ٣٣٦).

٥. المستقصى (٢٩/١)، (رقم ٨٨).

ولإذا قلت فاقتصد . ولا تستودعن أحداً دينك وإن قربت قرابته ، فإنك اذا فعلت ذلك لم تزل وجلاً ، وكان المستودع بالخيار في الوفاء والغدر ، وكنت له عبداً ما بقيت . وإن جئي عليك كنت أولى بذلك ، وإن وفـي كان المدوح دونك»<sup>١</sup>.

وقد اشتهرت (إياد) بالفصاحة والبيان ، وبقدرة في اللسان . وقد ظهر منهم جملة خطباء<sup>٢</sup> . واشهرت (بنو أسد) بالخطابة كذلك ، قال (يونس بن حبيب) : « ليس فيبني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ، أو شديد العدو »<sup>٣</sup> .

والآن ، وبعد أن انتهينا من الكلام على النثر ، نقول هل كان للجاهليين أدب مشهور ؟ أي مدونات من الأدب المشهور . لقد ذهب البعض إلى أنه لو كان للجاهليين أدب مشهور مدون ، لعد عجيباً اختفاء آثاره هذا الاختفاء الكلي ، حتى من أحاديث العرب المنسوبة<sup>٤</sup> . والواقع أن من غير الممكن في الوقت الحاضر البث علمياً في هذا الموضوع ، لأننا لا نملك أدلة علمية ، لستحيط منها أحکاماً تؤيد أو تفني وجود التدوين في الجاهلية . أما مسألة عدم ورود نصوص أدبية مشهورةلينا ، أو عدم ورود إشارات إلى وجودها في الجاهلية ، فإنها أمور لا يمكن أن تكون حجة على ثبات عدم وجود التدوين عند الجاهليين ، إذ لا يجوز أنها كانت ، ولكنها تلقت ، بسبب كونها كانت مكتوبة على مواد سريعة التلف ، فهلكت ، كما هلكت مدونات صدر الإسلام ، حيث لم يصل من أصولها إلا التردد

اليسير ، وهو نظر يشك في أصلاته وصحته .

وذهب بعض إلى وجود أدب مشهور ، إذ لا يعقل وجود أدب منظوم ، ثم لا يكون للعرب أدب مشهور . ويتجلى طراز هذا الأدب في الأمثلة والحكم المنسوبة

١ أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري ، المصنون في الأدب (الكويت ١٩٦٠) ، (ص ١٧٩ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (٤٢/١ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (١٧٤/١) .

٤ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الإسلام (ص ٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العلم للملايين) ، (بيروت ١٩٦٤) .

إلى الجاهلين . أما مؤلفات وكتب ، وصحف مدونة فلم يصل منها إلينا أي شيء . ولكن ذلك لا ينفي عدم وجودها عند أهل الجاهلية . وقد تحدثت عن موضوع التدوين عند الجاهلين في موضع آخر من هذا الكتاب .

وللباحث رأي في كلام العرب ، فهو يرى أن « كل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة » ولا مكابدة ، ولا إجالسة فكر ولا استعانته ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام « فتأنيه المعاني أرسلاً ، وتناثر عليه الألفاظ اثنالاً » ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرس أحد من ولده ، على حين يكون كلام العجم « عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومساعدة ، وعن طول التفكير دراسة الكتب »<sup>١</sup> . وقد حصر أصناف البلاغة عند العرب بالقصيد والرجز ، وهما من الشعر ، وبالمشور ، وهو الكلام المرسل ، وبالأسجاع ، وبالمزدوج وما لا يزدوج من الكلام<sup>٢</sup> .

أما موضوع وجود ترجمات جاهلية عربية للتوراة والإنجيل والكتب الشرعية الأخرى المعتبرة عند أهل الكتاب ، فموضوع لم يتفق عليه الباحثون حتى الآن . نعم ورد في الأخبار أن الأحتاف كانوا قد وقفوا على كتب الله، وقرأوها بالعبرانية وبالسريانية ، وأنهم كتبوا بها وبالعربية<sup>٣</sup> ، ولكن هذه الأخبار غامضة غير واضحة ، يجب أخذها بحذر ، كما ورد أن بعض الرقيق من أهل الكتاب من كان يمكنه أن يقرأ كتاب الله ، وكانت قريش ترى رسول الله يمر عليه ويجلس عنده ويستمع إليه ، فقالت إنما يتعلم ( محمد ) منه<sup>٤</sup> ، ولكن الأخبار الواردة عن هذا الموضوع لا تشير إلى أن هذا الذي زعم أنه كان يعلم الرسول ، كان قد دون ترجمة كتب الله ، أو تفاسيرها بالعربية ، وأن الناس قد وقفوا عليها .

وأما ما ورد من أمر ( عمرو بن سعد بن أبي وقاص ) ( عمرو بر سعد

١ البيان والتبيين ( ٢٨/٣ وما بعدها )

٢ البيان والتبيين ( ٢٩/٣ )

Georg Graf, Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur, I, S. 34

٣

٤ التخل ، الآية ١٠٣ ، تفسير الطبرى ( ١١٩/١٤ وما بعدها )

بر أبي وقار ) المذكور في تاريخ ( ميخائيل السوري ) ( المتوفى سنة ١١٦٩ للميلاد ) الطريق ( البطريرك يوحنا ) بطريق العاقبة ، ترجمة ( الانجليز ) من السريانية الى العربية ثم ما جاء من وقوع خلاف بين ( عمرو ) وبين ( البطريرك ) بشأن الترجمة ، ثم من استعانته ( البطريرك ) بعد ذلك ب الرجال من ( تنوخ ) ، و ( عاقولا ) ، و ( طيء ) ، كانوا يتقنون العربية والسريانية للقيام بالترجمة . ولترجمة التوراة ، مع رجل يهودي ، فإنه خبر غير مؤكد ، وقد شك فيه بعض الباحثين ، وربما وضع للطعن في ( البطريرك ) ، وضعه خصوصه عليه<sup>١</sup> .

ولم تأت جهود ( يومشاترك ) وتلامذته بتاتج مؤكدة مقبولة عن اثبات وجود كتب للصلوة بالعربية ، ترجمت من السريانية اليها قبل الاسلام<sup>٢</sup> . ومن المحتمل أن رجال الدين كانوا يعطون نصارى العرب في الجاهلية بالعربية ، أما نصوص الصلاة ، فكانوا يلقونها عليهم بالسريانية . وربما كان الحال على هذا النحو بالنسبة الى رجال الدين المتنقلين مع الاعراب ، فقد كانوا ينتقلون معهم ، يعلمونهم ويرسلونهم بالعربية ، ولكنهم لم يكونوا قد ترجموا كتب الصلوات ترجمة مدونة بلغتهم . وقد ورد ان رجال الدين كانوا يحملون ( الدفة ) معهم ، حيث تخل القبائل ، لترتيب الصلوات على المذابح المتنقلة ، فعل ذلك رجال الدين مع (بني ثعلب) وقبائل من اليمن وغيرها<sup>٣</sup> . وينطبق ما أقوله على العرب الجنوبيين أيضاً ، فلم يعثر حتى الآن على دليل يثبت وجود ترجمات بعربيات جنوبية للتوراة أو الإنجيل أو الكتب الدينية الأخرى . ولكن هناك أخباراً يذكرها أهل الأخبار تشير الى وجود مثل هذه الترجمات ، غير اننا لا نتمكن من التسليم بها ، لما فيها من عناصر تدعو الى الشك في أمرها وعدم إمكان الأخذ بها في الوقت الحاضر .

Michael der Syrer, chronique de Michel le Syrien, II, p. 326, Paris, 1855,  
Georg Graf, I, 35, F. Nau, un Colloque du Patriarche Jean avec l'émir des  
Agaréene in Journal Asiatique, II, Ser., 5, (1915), 225 - 279.

وقد جعله « عمرو بن العاص » ، وجعله « لامانس » « سعيد بن عامر » .

Islamic, 4 (1931), 562, ff.

Georg Graf, I, S. 38.

وقد ورد ان عرب بلاد الشام من نحوم وجذام وغضان وقصاصعة وتغلب وكلب وغيرهم ، « وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية »<sup>١</sup> ، وقصد بالعبرانية السريانية، وهذا لم يأخذ علماء اللغة عنهم . غير انهم لم يشيروا الى ما كانوا يقرأون ، ويظهر انهم قصدوا بذلك الصلوات والكتب المقدسة ، يقرأونها عليهم بالسريانية وربما ترجموا ما قرأوه عليهم الى العربية .

## الفصل الثالث والاربعون بعد المئة

### الخطابة

والخطابة وجه آخر من أوجه النشاط الفكري عند الجاهليين . وقد كان للخطيب عندهم ، كما يقول أهل الأخبار ، مقام كبير للسانه وفصاحته وبيانه وقدرته في الدفاع عن قومه والذبّ عنهم والتكلم باسمهم ، فهُوَ في هذه الأمور مثل الشاعر ، لسان القبيلة ووجهها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء ، اشتهروا بقوّة بيانهم وبسحر كلامهم ، وأوردوا نماذج من خطبهم . ومنهم من اشتهر بنظم الشعر ، وعدّ من الفحول ، مثل عمرو بن كلثوم<sup>١</sup> .

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدرًا من الخطيب ، وهم إليه أحوال  
لرده مأثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثُر الشعراء وكثُر الشعر صار  
الخطيب أعظم قدرًا من الشاعر »<sup>٢</sup> . وذكروا أن الشعراء كانوا في أرفع منزلة  
عند العرب ، وما زال الأمر كذلك حتى أفضى الشعر إلى قوم اخْتَلَوْهُ أداة للكسب  
وسعوا به في كل مكان ، فوضعوه أمام الملوك والسوقـة ، سلعة في مقابل ثمن ،  
واستجداده لألاف الناس ، فأنفـ منـ الأشراف وتبـنـهـ السـادـة ، ونبـتـ الخطـابـةـ .  
وصار للخطيب شأنـ كبيرـ ، ارتفـ علىـ شأنـ الشـاعـرـ . ولخصـ (الجـاحـظـ) ذلكـ  
بقولـهـ : « كانـ الشـاعـرـ فيـ الجـاهـلـيـةـ يـقـدـمـ عـلـىـ الـخـطـبـ ، لـفـرـطـ حاجـتـهـ إـلـىـ الشـعـرـ

١ بلوغ الارب ( ٣ / ١٧٤ ) .

٢ البيان والتبيين ( ١١٤ ) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر ) .

الذى يقيد عليهم مآثرهم ويقضم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، وبهت من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، وبهابهم شاعر غيرهم فيرافق شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخروا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر <sup>١</sup> .

وكانوا يحبون في الخطيب أن يكون جهير الصوت ، ويندون الضليل الصوت . وأن يكون مؤثراً شديداً التأثير في نفوس سامعيه حتى يسحرهم ويأخذ بالبابهم . وكانوا يجعلون مثل هؤلاء الخطباء أسلتهم الناطقة إذا تفاخروا أو حضروا المجالس أو نفاؤضوا في أمر ، أو أرادوا تأجيج نيران الحروب ، أو عقد صلح ، أو البت في أي أمر جلل . ولذلك صارت الخطابة من امارات المنزلة والمكانة ، فصارت في سادتهم وأشرافهم الذين يتكلمون باسمهم في المحافل والمجامع العظام .

وقد ذكر (الباحث) ، أن حل العصا المخصرة دليل على التأهب للخطبة . والتهيؤ للإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ، ومقصور عليهم ، ومتناوب عليهم . حتى انهم ليذهبون في حرائقهم والمخاطر بأيديهم ، إلهاً لها ، وتوقعاً لبعض ما يجب حلها : والإشارة بها <sup>٢</sup> . ولا يخطب أحد هم إلا وعنه عصاً أو مخصرة ، جرى على ذلك عرفهم حتى في الإسلام . « قال عبد الملك ابن مروان : لو أقيمت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي » ، وأراد معاوية سجحان وائل على الكلام ، فلم ينطق حتى أتوه بمختصرة <sup>٣</sup> . وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسي ، ويشرون بالعصا والقنا ، ومنهم من يأخذ المخصرة في خطب السلم ، والقسي في الخطب عند الخطوب والحروب . وذكر أن من عوائدهم أن يكون الخطيب على زيق مخصوص في العامة واللباس <sup>٤</sup> . وأن خطب الخطيب وعلى رأسه عمامة ، علامة المكانة وال منزلة عند الجاهليين . وذكر أيضاً أن من عوائدهم إلا يخطب الخطيب وهو قائد إلا في خطبة النكاح . كما ذكر أن منهم من كان

١- البيان والتبيين (٢٤١/١) .

٢- البيان والتبيين (٦١) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (١١٧/٣) ، (هارون) .

٣- البيان والتبيين (١١٩/٣ وما بعدها) .

٤- بلوغ الارب (١٥٢/٣ وما بعدها) ، البيان (٣٧٠/١ وما بعدها) .

يُنْطَبُ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ<sup>١</sup> . وَذَكَرَ (الجاحظ) أَنَّ الشَّعُوبَيةَ طَعَنَتْ عَلَى «أَخْذِ»  
الْعَرَبِ فِي خَطْبِهَا الْمُخْصَرَةِ وَالْقَنَاءِ وَالْقَضِيبِ ، وَالْإِتْكَاءِ وَالْاعْتِمَادِ عَلَى الْقَوْسِ ،  
وَالْخَدْدَةِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَالْإِشَارَةِ بِالْقَضِيبِ<sup>٢</sup> . وَذَكَرَ أَنَّ مَنْ مُسْتَحْسِنٌ فِي الْخَطَبَيْ  
أَنْ يَكُونَ جَهُورِيًّا الصَّوْتُ ، قَلِيلُ التَّلْفَتِ ، نَظِيفُ الْبَزَةِ ، وَأَنْ يُنْطَبُ قَافِيًّا<sup>٣</sup> عَلَى  
نَزَرِ مِنَ الْأَرْضِ ، أَوْ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، وَأَنْ يَنْتَجِزْ عَمَامَتَهُ ، وَيَكْمَلْ هَذِهِ الْحَصَالَ  
شَرْفَ الْأَصْلِ وَصَدِيقَ الْلَّهِجَةِ<sup>٤</sup> .

وَقَدْ كَانَ بَيْنَ الْخَطَبَيْهِ مِنْ كَانَ يَقُولُ الشِّعْرَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى عَلَوْ شَأنَهُ بِالثُّرُّ . غَيْرِ  
أَنَّ الْعَادَةَ ، أَنَّ الشَّعَرَاءَ لَمْ يَلْغُوا فِي الْخَطَابَةِ مِثْلَ الْخَطَبَيْهِ ، وَأَنَّ الْخَطَبَيْهِ دُونَ  
الْشَّعَرَاءِ فِي الشِّعْرِ . « وَمِنْ يَجْمِعُ الشِّعْرَ وَالْخَطَابَةَ قَلِيلٌ<sup>٥</sup> » . وَمِنَ الشَّعَرَاءِ الْخَطَبَيْهِ:  
(عُمَرُ بْنُ كَلْثُومَ) التَّغْلِيَّ ، وَ(زَهِيرُ بْنُ جَنَابَ) ، وَ(لَبِيدُ<sup>٦</sup>) ، وَ(عَامِرُ  
ابْنِ الظَّرْبِ الْعَدَوَانِي)<sup>٧</sup> .

وَذَكَرَ (الجاحظ) أَنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلَتِ الْمُوزَوْنَ ، وَالْمَفْنَى ، وَالْمَثُورَ فِي مِسَاجِلَةِ  
الْحَصَومَ ، وَالْبَرْجَزَ ، فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى تَنْشِيطِ وَبُثْهَةِ<sup>٨</sup> ، وَعِنْدِ مجَاهَةِ  
الْحَصَمَ ، وَسَاعَةِ الْمَشَاوِلَةِ ، وَفِي نَفْسِ الْمَجَادِلَةِ وَالْمَحَاوِرَةِ ، وَاسْتَعْمَلَتِ الْأَسْجَاعَ  
عِنْدِ الْمَنَافِرَةِ وَالْمَفَاخِرَةِ ، وَاسْتَعْمَلَتِ الْمُتَشَوِّرَ فِي الْأَغْرِاضِ الْأُخْرَى<sup>٩</sup> ، وَقَالَ أَيْضًا:  
« وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بِدِيهَةٍ وَارْجَالٍ ، وَكَانَهُ إِلَهَامٌ ، وَلَيْسَ هَنَاكَ مَعَانَةٌ  
وَلَا مَكَابِدَةٌ وَلَا إِجَالَةٌ فَكَرْكَرَةٌ وَلَا إِسْتَعَانَةٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرُفَ وَهُمْ إِلَى جَمْلَةِ  
الْمَذَهَبِ ، وَإِلَى الْعُمُودِ الَّتِي إِلَيْهِ يَقْصُدُ ، فَقَاتِلُهُ الْمَعَانِي أَرْسَالًا<sup>١٠</sup> ، وَتَنَاثَلَ عَلَيْهِ الْأَلْفَاظُ  
إِنْتِيَالًا<sup>١١</sup> ، ثُمَّ لَا يَقْبِدُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَا يَدْرِسُهُ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ . وَكَانُوا أَمِينِينَ  
لَا يَكْتَبُونَ ، وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ ، وَكَانَ الْكَلَامُ الْجَيْدُ عِنْدَهُمْ أَظَهَرُ وَأَكْثَرُ ،

١ - البيان (١١٨/١)، (٢٠/٢) .

٢ - البيان والتبين (٢٢)، (بيروت ١٩٥٩ م)، (انتقاء الدكتور جميل جبر، المطبعة الكاثوليكية)، البيان والتبين (٦/٣ وما بعدها) .

٣ - البيان والتبين (٤٥/١) .

٤ - ومن شعر لبيد، قوله:

وَأَعْيَا عَلَى لَقْمَانَ حَكْمَ التَّدْبِيرِ  
البيان والتبين (١٨٩/١)، (٣٦٥) .

٥ - البيان والتبين (٣٦٥/١) .

٦ - البيان والتبين (٦/٣ وما بعدها، ٢٨) .

وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحدٍ في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، ويحتاجوا إلى تدارس ، وليس لهم كمن حفظ علم غيره، واحتلوا على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما على بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب<sup>١</sup>.

ويظهر أن من الخطباء من استعمل السجع في خطبه ، ولا سيما في المفاخرات والمنافرات وأمور التحكيم<sup>٢</sup> ، وهو في الغالب . ومنهم من كان يستعمل الكلام المرسل وذلك في الأمور الأخرى . ولغة السجع على الخطيب ، قال بعض علماء اللغة : « الخطبة عند العرب : الكلام المشور المسجع ونحوه »<sup>٣</sup> .

وقد (الباحث) الخطب على ضربين ، فقال: « اعلم ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين ، منها الطوال ، ومنها القصار ، وكل ذلك مكان يليق به ، وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مسترياً في الجودة ، ومتشاركاً في استواء الصنعة ، ومنها ذات الفقر الحسان والتلف الجياد . وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليل في بطون الصحف . ووجدنا عدد القصار أكثر ، ورواية العلم إلى حفظها أسرع »<sup>٤</sup> .

وقد اقتضى النظام الاجتماعي والسياسي في الجاهلية أن يقيم العرب للخطابة وزناً خاصاً في المفاوضات التي تكون في داخل القبيلة للنظر في أمورها وفي شؤونها الخاصة بها في أيام السلم وفي أوقات الغزو والغارات ، في حالي الهجوم والدفاع . وأقاموا لها وزناً خاصاً المناسب للمفاوضات التي جرت بين القبائل ، أو بين القبائل والملوك . ثم في المفاخرات وفي المنافرات . فكل هذه الأمور وأشباهها استدعت ظهور أناس بلغاء اعتمدوا على حسن تصرفهم في تنظيم الكلم وفي تنسيق الجمل وفي التلاعيب بالألفاظ للتأثير على القلوب والأحد بمعجم الألباب . فرب<sup>٥</sup> كلمة كانت تقيم قبيلة وتعدها للاعيب الخطيب بقلبه سحر بيانه وفي كيفية اختيار ألفاظه واستخدامه مواضع الإثارة التي يعرف أنها ستثير النار الدفيئة في أفتءة ساميته.

١ البيان والتبين (٣/٢٨) وما بعدهما

٢ البيان والتبين (١/٢٩٠)

٣ تاج العروس (١/٢٣٨) ، (خطب)

٤ البيان والتبين (٢/٧)

ولهذا كانوا لا يختارون من يتكلّم باسم قومه إلاً من عرف بسحر لسانه وقوته بيانه، ليتمكن بما وهب من مرونة وتفنّ في كلامه من التغلب على خصمه وافحاصه، ولما مات (أبو دليجة) (فضالة بن كلدة) رثاه (أوس بن حجر) بكلمة مؤثرة تعبّر عن مبلغ شعوره وشعور قومه للجامعة الأليمة التي جعلت قوم الخطيب في ليس وبليال ، لعدم وجود من سيحمل ملله في الدفاع عنهم ، اذ حفلوا لدى الملوك ، فيقول :

أبا دليجة من يكفي العشرة إذْ أنسوا من الخطب في ليس وبليال  
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوي أيد وفضائل<sup>١</sup>

وندخل في الخطباء جماعة عرفت بالقاء الموعظ والنصائح في أمور الدين والأخلاق والسلوك وفي التفكير ، وهم قوم تأثروا بالمؤثرات الثقافية التي كانت في أيامهم بسبب وجود اليهود والنصارى بينهم، وبسبب اتصالهم بالرهبان والمشرين في داخل جزيرة العرب وفي خارجها ، فأخذوا يحتذون قومهم على التعلم والتأمل والتفكير في أمور دينهم ودنياهم ، وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام والتقرب إلى الأوّلاد ، وهي حجارة صلبة ، أو من خشب أو معدن لا يسمع ولا يجرب. وينسب إليهم ، انهم كانوا على دين ابراهيم، على ألسنة العربية الأولى دين الفطرة دين التوحيد . وينسب إليهم أيضاً ، انهم كانوا يقرأون ويكتبون ، لا بالعربية وحدها ، بل بالعبرانية والسريانية أيضاً ، وانهم كانوا يتدارسون التراثة والإنجيل وكتب الأنبياء ، إلى غير ذلك من دعوى قد تكون وضعت عليهم . وهم قوم سبق أن تحدثت عنهم ، وقلت عنهم انهم الأحناف .

وإذا درست الأغراض التي توخاها أهل الجاهلية من الخطابة ، نجدنا تكاد تتجمع في الأمور الآتية : التحرير من القتال، وإصلاح ذات البين ، ولم شعث ، لكثرة ما كان يقع بينهم من تنافر وتشاحن ، ثم السفارات إلى القبائل أو الملوك ، لأغراض مختلفة ، مثل التهنة والتعزية ، أو طلب حاجة ، وحلّ معضل ، أو إنهاء خصومة ، ثم الجلوس حلل الديبات وانهاء نيران النار ، ثم التفاحر والتنافر والتباهي بالأحساب والأنساب والتأثير والجاه والمال ، ثم في الوفادات حيث تقتضي

<sup>١</sup> كارلو ناليجنو (٩٨) ، ديوان أوس (١٠٣) ، نقد الشعر لقدماء (٣٥) .

المناسبة إلقاء الخطب ، أو في الحث على التعلق والتفكير وتغيير رأي فاسد ، كما في خطب قس بن ساعدة الإيادي وفي خطب الأحناف ، ثم في المناسبات الأخرى مثل تعداد مناقب ميت ، أو خطب الإملاك وما إلى ذلك .

ومن أشهر الخطب المنسوبة إلى الجاهلين ، الخطب التي زعم أن (أكثم بن صيفي ) ، و (حاجب بن زراة ) ، وهما من (تيم) ، و (الحارث بن ظالم) ، و (قيس بن مسعود ) ، وهما من (بكسر) ، و (خالد بن جعفر ) ، و (علقمة بن علاته ) ، و (عامر بن الطفيلي) من (بني عامر) ، قالوها في مجلس كسرى ، يوم أرسلهم (النعمان بن المنذر) إليه ، لبريه درجة فصاحة العرب وبمبلغ بيانهم وعقلهم ، مما أثار إعجاب (كسرى) بهم ، حتى عجز عن تفضيل أحدهم على الآخر ، مما جعله يقر ويعرف بذلكاء العرب وبقوتهم بيانهم وبقوتهم عقلهم ، فقدرهم لذلك حق قدرهم وأكرمهم . وهي خطب مصنوعة موضوعة ، قد تكون من وضع جماعة أرادت بها الرد على الشعوبين الذين كانوا يتلقصون من قدر العرب ، ومن لسان العرب ، ومن دعوى الإعجاز في لغتهم ، فصنعت هذا المجلس ، وعملت تلك المحاورة والخطب في الرد عليهم ، وهي تتناول صيم ذلك الجدل .

وأكثر ما نسب إلى زيد وأمثاله من الأحناف مختلف ، وضع عليهم فيما بعد . وأكثر ما ورد عنهم في شرح حياتهم هو من هذا النوع الذي يحتاج إلى إثبات . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من الجاهلين قالوا عنهم لهم كانوا من خطباء الجاهلية المشهورين المعروفين ، وقد أدخلوا بعضهم في المُعمررين . والمُعمرَ في عرفهم من بلغ عشرين ومئة سنة فصاعداً ، والإِلَّا ، لم يعلوه من المعمارين<sup>١</sup> . وعلى رأس من ذكرها : (دويد بن زيد بن نهد بن ليث بن أسود بن أسلم الحميري )، فهو إذن من حمير . وقد ذكر أنه عاش أربع مئة سنة وستين وخمسين سنة ، ونسبوا إليه وصية أوصى بها بنية<sup>٢</sup> . ولكنهم لم يذكروا متى عاش ، وفي أي زمان مات ، وكيف أوصى بنية بهذه اللهجة الحجازية ، لهجة القرآن الكريم ، وهو من حمير ، وحيث لها لسانها وكتابتها .

١ بلوغ الارب (٣/١٥٧ وما بعدها) .

٢ بلوغ الارب (٣/١٥٧ وما بعدها) .

وذكر أهل الأخبار اسم ( زهير بن جناب بن هبل ) في ضمن المشهورين في قوة البيان والفصاحة والمنطق عند الجاهليين ، ويزدكرون أنه كان على عهد ( كلبيب ابن وايل ) ، وانه كان لساد رأيه كاهناً ، ولم تجتمع قضاة إلا عليه وعلى ( رزاح بن ربيعة ) ، وقالوا إنه : « كان سيد قومه وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وأوفدهم إلى الملك ، وطبيبهم ، وحازمي قومه ، وفارس قومه ، وله البيت فيه العدد منهم »<sup>١</sup> . وقد ذكروا له وصية أوصى بها بنيه ، وأبيات شعر ، زعموا أنه نظمها .

وذكرروا أيضاً ( مرثد الخير بن ينكتف بن نوف بن معديكرب بن مضحي ) ، زعموا أنه كان قيلاً حدبأ على عشرته ، محباً لصالحهم . وكان من أفضح الفصحاء وأخطب الخطباء ، وزعموا أيضاً أنه أصلح بين القيلين : ( سبع بن الحرت ) و ( ميمون بن مثوب بن ذي رعين ) ، وأوردوا ما دار بينهم من نقاش وحوار ضبطوه وسجلوه ، حتى لكان كاتب ضبط كان حاضراً بينهم كُلُّفَ تسجيلَ مصدر ذلك الحديث .

وعدد ( الحارث بن كعب المذحجي ) من هذه الطبقة البليغة التي اشتهرت بسحر البيان . وقد زعم أهل الأخبار أنه كان على دين ( شعيب النبي ) ، وهو دين لم يكن قد دخل فيه غيره وغيره ( أسد بن خزيمة ) و ( تميم بن مر ) . وقد ذكرروا له وصية لأبنائه ، أوصاهم بها حين شعر بدنو أجله ، بعد أن عاش على زعمهم ستين ومئة سنة<sup>٢</sup> .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن هدا الدين ، دين شعيب . وليس في الوصية المنسوبة إليه ما يميزه عن غيره من الخطباء ، مثل قيس بن ساعدة الياادي أو غيره من المتألهين الرافضين لعبادة الأوثان .

وعدد علماء الأخبار كعب بن لؤي في جملة الخطباء القدماء ، وذكرروا انه كان يخطب على العرب عامة ، ويحضر كناثة على البر . وكان رجلاً طيباً خيراً ،

١ الاغاني ( ٩٣/٢١ وما بعدها ) . بلوغ الارب ( ١٥٩/٣ ) .

٢ بلوغ الارب ( ١٦١/٣ وما بعدها ) .

٣ بلوغ الارب ( ١٦٤/٣ ) .

فلا مات ، أكروا موته ، فلم تزل كنانة تورخ بموت كعب بن لوي الى عام الفيل<sup>١</sup> .

وكان ابن عمرو بن عمار الطائي خطيب مذحج كلها ، وكان شاعراً كذلك ، فبلغ النعمان حسن حديثه ، فاستدعاه ، وحمله على منادمه . وكان النعمان أحمر العينين والجلد والشعر ، وكان شديد العربدة ، قتالاً للندماء ، فنهاه أبو قردوة الطائي عن منادمه ، ولكنه لم ينته ، فلما قتله النعمان ، رثاه أبو قردوة ، وهجا النعمان<sup>٢</sup> .

وعدوا ( عبد المطلب ) في جملة خطباء قريش ، الذين كانوا يخطبون في الملائكة وفي الأمور العظيمة ، وكان واحد أهل مكه على ملوك اليمن ، فإذا مات ملك منهم ، أو تولى ملك منهم العرش ، ذهب إلى اليمن معزياً ومهيناً . فهو خطيب القوم اذن<sup>٣</sup> .

ومن خطباء ( غطفان ) في الجاهلية : ( خويلد بن عمرو ) ، و ( العشراء بن جابر ) من ( بني فزاره ) ، وخويلد خطيب يوم الفجار<sup>٤</sup> .

وأما بقية من ذكر أهل الأخبار من خطباء الجاهلية ، فهم : ( أبو الطمّان القبيسي ) ، واسمها حنظلة بن الشرجي من ( بني كنانة بن القين )<sup>٥</sup> ، و ( ذو الاصبع العدواني ) وهو من حكام العرب كذلك<sup>٦</sup> ، و ( أوس بن حارثة)<sup>٧</sup> ، و ( أكم ابن صيفي التميمي ) ، وهو من حكام العرب أيضاً . وقد ذكر ان ( يزيد بن المهلب ) كان يسلك طريقته في خطبه ووصاياه<sup>٨</sup> ، و ( عمرو بن كلثوم ) ، وهو من الخطباء الشعراة البارزين في الفين . وقد ذكروا له خطبة نصح ووصية ذكرها انه أوصى بها بنيه ، في الأدب والسلوك<sup>٩</sup> ، و ( نعيم بن ثعلبة الكذائي ) ،

١ البيان ( ٣٥١/١ ) ، ( هارون ) .

٢ البيان ( ٣٤٩/٢٢ ) وما بعدها ، ( هارون ) .

٣ البيان والتبيين ( ٣٤٩/١ ) ، ( هارون ) .

٤ البيان والتبيين ( ٣٥١/١ ) .

٥ بنوغر الارب ( ١٦٨/٣ ) وما بعدها .

٦ بلونغ الارب ( ١٦٩/٣ ) وما بعدها .

٧ بلونغ الارب ( ١٧٠/٣ ) وما بعدها .

٨ بلونغ الارب ( ١٧٢/٣ ) وما بعدها .

٩ بلونغ الارب ( ١٧٤/٣ ) .

وكان ناسياً ، ينسى الشهور ، وقيل : انه أول من نسأها . وكان خطيب في  
الموسم<sup>١</sup> ، و (أبو سيارة العدواني) ، واسمه (عيسية بن خالد الأعزل)<sup>٢</sup> ،  
و (الحارث بن ذبيان بن جاً بن منهب الماني)<sup>٣</sup> .

وفي الملاحم والأوقات العصبية وفي الوفدات على الملوك يختصار خيرة الخطباء  
المتكلمين المعروفين بأصالة الرأي ويسرعة البديهة والجواب ، ليبيضوا الأوجه ،  
ويؤدوا المهمة على أحسن وجه . ولما قدم النعسان بن المنذر الحيرة ، بعد زيارته  
للكسرى ، وتفاخره عنده بقومه العرب ، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص  
العرب وتهجين أمرهم ، بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين ،  
والى الحارث بن عباد (الحارث بن ظالم) ، وقيس بن مسعود البكريين ، والى  
خالد بن جعفر وعلقمة بن علاء ، وعامر بن الطفيلي العامريين ، والى عمرو بن  
الشريد السلمي ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المري ، وهم  
خيرة من عرفهم في أيامه بالأصالة في الرأي وبقوه البيان ، وطلب منهم الذهاب  
إلى كسرى والتكلم معه ، ليعرف عقل العرب وصفاء ذهنها . فذهبوا وتكلموا ،  
فأعجب بهم ، وقدرهم حق تقديرٍ .

وذكر عن حاجب بن زرارة : أنه وفد على كسرى لما منع عمباً من ريف العراق ، فاستأذن عليه ، وتحدث معه ، فأرضاه ، وأذن عندئذ لتميم أن يدخلوا الريف . وقد وفَد ابنه عُطَّارَد على كسرى أيضًا بعد وفاة والده .

وأدرك (الربيع بن ضبيع الفزاري) الاسلام كثالث ، ويذكر أهل الاخبار أنه أدرك أيام عبد الملك بن مروان . وإذا كان هذا صحيحاً ، فيجب أن يكون قد عاش معظم أيامه في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان طفلاً ، أو شاباً، وإن ذكر أهل الاخبار أنه كان من المعمرين .

- ١ بلوغ الارب (٣/١٧٥ وما بعدها) .

٢ بلوغ الارب (٣/١٧٦) .

٣ بلوغ الارب (٣/١٧٧ وما بعدها) .

٤ العقد الفريد (٢/٤ وما بعدها) « وفود العرب على كسرى » .

٥ العقد الفريد (٢/٢٠) .

٦ بلوغ الارب (٣/١٦٦) ، أموالى المرتضى (١/١٨٣) ، الاقضاب (٣٦٩) ، الدرر اللوامى (١/٢١٠) .

ومن الخطباء عطارد بن حاجب بن زراره ، وقد خطب أمم الرسول<sup>١</sup> .  
ومن خطباء غطفان في الجاهلية : خويلد بن عمرو ، والعشراء بن جابر بن عقيل<sup>٢</sup> .  
وكان الأسود بن كعب ، المعروف بالكذاب العنسي ، الذي ادعى النبوة من الخطباء كل ذلك<sup>٣</sup> .

وذكر أهل الأخبار اسم : ( قيس بن عامر بن الظرب ) ، و ( غيلان بن سلمة الثقفي ) في جملة حكام العرب . وذكروا انه كان قد خصص يوماً له يحكم فيه بين الناس ، ويوماً ينشد فيه شعره . وذكروا من حكام قريش عبد المطلب ، وهاشم بن عبد مناف ، وأبا طالب وال العاص بن وائل<sup>٤</sup> .

وعدوا ( قيس بن زهير العبيسي ) من خطباء الجاهلية المعروفين ، وقد ذكروا عنه انه جاور ( النمر بن قاسط ) بعد ( يوم الهباءة ) ، وتزوج منهم . ثم رحل عنهم الى ( غمار ) ، فتنصر بها ، وعف عن المأكل ، حتى أكل الحنظل الى ان مات<sup>٥</sup> . وله أمثلة مذكورة في كتب الأمثال<sup>٦</sup> . وقيل فيه : « أدهى من قيس بن زهير » ، ومن أقواله : « أربعة لا يطاقون : عبد ملك ، ونزل شبع ، وأمة ورثت ، وقيحة تزوجت » ، وله أمثال عديدة<sup>٧</sup> . وذكر انه طرد إبلاً لبني زيد ، وباعها من عبدالله بن جدعان ، وقال في ذلك شعراً<sup>٨</sup> .

وأما ( سجحان بن زفر بن إياس ) المعروف بـ ( سجحان بن وائل الباهلي ) ، فإنه خطيب ضرب به المثل في الفصاحة فيقال : ( أخطب من سجحان وائل ) ، و ( أفصح من سجحان وائل ) ، و ( أنطق من سجحان ) ، و ( أبلغ من سجحان ) ، لمن يريدون مدحه واعطاءه صفة البيان . وذكر أنه عاش في الجاهلية

١ البيان ( ١/٣٢٨ ) .

٢ البيان ( ١/٣٥٠ وما بعدها ) .

٣ البيان ( ١/٣٥٩ ) .

٤ مجمع الأمثال ( ٤١/١ ) .

٥ بلوغ الارب ( ٣/١٦٥ وما بعدها ) .

٦ أبو هلال العسكري ، جمهرة الأمثال ( ١/٢٦٨ ، ٢٩٩ ، ٣٢٨ ) .

٧ جمهرة الأمثال ( ١/٤٥٧ ) .

٨ جمهرة الأمثال ( ١/٣٤٤ ) .

وعاش في الاسلام حتى ادرك أيام معاوية<sup>١</sup> . وقد عرف بخطبته ( الشوهاء ) ، قبلها ذلك لحسنها . وذلك انه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب<sup>٢</sup> . « وكان اذا خطب لم يعد حرقاً ولم يتلعم ، ولم يتوقف ، ولم يتذكر بل كان يسأله سؤالاً »<sup>٣</sup> . وقد ورد انه توفي سنة ( ٥٤ هـ )<sup>٤</sup> .

ذكر انه دخل على معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلما رأوه خرجوا ، لعلهم بقصورهم عنه ، فقال :

لقد علم الحبيبيانون انتي اذا قلت أما بعد اني خطبها

قال له معاوية : أخطب ، فطلب عصا ، فلما أحضرت له خطب جملة ساعات ، قال له معاوية : أنت أخطب العرب ، قال : أو العرب وحدها ، بل أخطب الجن والانس<sup>٥</sup> .

وقد اشتهرت إيماد ونعم بالخطابة وبشدة عارضة خطبائهما وبقوة بيانهما<sup>٦</sup> . وقد ذكر ان معاوية ذكر نعما ، فقال : « لقد أتيت نعما الحكم ، مع رقة حواسى الكلم »<sup>٧</sup> . وهناك قبائل أخرى أخرجت خطباء مشهورين ، نسبت اليهم خطب بلية . وقد يكون من الأعمال المفيدة النافعة ، وضع دراسة خاصة بعدد الخطباء الذين نبغوا في القبائل ، وبدراسة خطبهم ، ومساكن أولئك الخطباء ومهاجر قبائلهم ، فإن دراسة علمية مثل هذه تعينا بكثيراً على الوقوف على تطور هذه اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، والقبائل التي تكلمت بها سلقة وطبعاً .

وذكر ( المحافظ ) أن شأن ( عبد القيس ) عجب ، « وذلك أنهم بعد

١ بلوغ الارب ( ١٥٦/٣ ) ، تاج العروس ( ٢٩٤/١ ) ، ( سحب ) ، ثمار القلوب ( ١٠٢ وما بعدها ) .

٢ البيان ( ٣٤٨/١ ) ، ( لجنة ) ، وعرفت خطبة قيس بن خارجة بالعذراء .

٣ الاصابة ( ١٠٨/٢ ) ، ( رقم ٣٦٦٣ ) .

٤ كارلو ناليتو ( ١١٨ ) .

٥ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال ( ٢٤٨/١ ) وما بعدها .

٦ البيان والتبيين ( ٥٣/١ ) .

٧ البيان والتبيين ( ٥٤/١ ) .

محاربة إياض تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين ، وهم من أشعر قبيل في العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة الباذية وفي معدن الفصاحة . وهذا عجب <sup>١</sup> . وذكر (الجاحظ) أن (معاوية) كان يعجب من فصاحة (عبد القيس) ، ولما اجتمع بـ (صحابار ابن العباس) (صحابار بن العياش) ، المعروف بـ (صحابار العبدى) ، عجب من بلاغته وفصاحته ، فقال له ، ما هذه البلاغة فيك ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا ، ففقدفه كذا يقذف البحر بزبده . قال : فما البلاغة ؟ قال : أن تقول فلا تبنيء ، وتصيب فلا تخطيء <sup>٢</sup> . وورد في (كتاب الحيوان) ، للجاحظ ، أنه قال له : « ما الإيجاز ؟ قال : أن تجنب فلا تبنيء ، وتقول فلا تخطيء » <sup>٣</sup> . وله كلام فيها يحب أن يقال عند تذكر الاحسان <sup>٤</sup> .

وكان نسبة ، وله مع (دغفل) النسابة محاورات<sup>٦</sup> . وقد ذكر (ابن النديم) ، أن له من الكتب : (كتاب الأمثال)<sup>٧</sup> ، وقد أشاد (الجاحظ) بعلمه في الأنساب ، وذكره فيمن ذكر من ألف في كتب النسب ، من أمثال (ابن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) ، و (أبي اليقظان) ، و (أبي عبيدة) ، و (دغفل بن حنظلة) النسابة ، و (ابن لسان الحمراء) ، و (ابن النطاح) اللخمي<sup>٨</sup> .

وكان لبني عبد القيس ، اتصال بعكة قبل الاسلام ، لهم معها تجارة . يرسلون اليها التمر والملاحف والثياب والتجارة المستوردة من الهند . وقد أشير اليها في خبر إسلام ( الأشج ) : ( أشج ) عبد القيس ، واسميه ( المنذر بن عائذ بن الحارث بن المنذر بن النعهان ) العبدلي . فقد أرسل ابن أخته ( عمرو بن عبد القيس ) .

البيان والتبيين وأهم الرسائل ، انتقاء الدكتور جميل جبر ، (بيروت ١٩٥٩ م) ،  
المطبعة الكاثوليكية ، (ص ٢٤) .

<sup>٢</sup> الاصابة (١٧٠/٢)، (رقم ٤٠٤١)، البيان والتبيين (٩٦/١٣)، المصنون (١٣٩).

٣ الحيوان (٩٠/١ وما بعدها) .

الحيوان (٣٦٧/٣) \*

٩- الاصابة (٤٠٤) ، (رقم ١٧٠/٢) .

الفهرست (١٢٨) ، (المقالة الثالثة) .

٧ - الحيوان (٤٠٩)

إلى مكة عام الهجرة ، ومعه تجارة من ثغر وملحاف ، فلقيه النبي ، وهداه إلى الإسلام ، وكان مثل قومه نصراوياً ، فأسلم ، وتعلم سورة الحمد واقرأ باسم ربك ، فلما باع تجارتة وعاد ، أخبر خاله (الأشج) بإسلامه ، فأسلم وكتم إسلامه حيناً ، فلما كان عام الفتح ، خرج مع وفد من أهل (هجر) وعبد القيس ، وصل المدينة ، وقابل الرسول ، وأعلنوا إسلامهم ، فقدموا بلادهم ، وحوّلوا (البيعة) مسجلاً<sup>١</sup> .

ومن اشتهر من (بني عبد القيس) بالخطابة والفصاحة : (صعصعة بن صوحان) العبدى ، وأنواره : (سيحان) و(زيد) . وقد شهد (صفين) مع (علي) ، وكانت له مواقف مع معاوية ، وقد مات في خلافته . « وقال الشعبي كنت أعلم منه الخطب » ، قوله شعر<sup>٢</sup> .

وذكر في أثناء تحدث أهل الأخبار عن (الردة) وادعاء (لقبيط بن مالك) الأزدي النبوة ، أن (الحارث بن راشد) ، و(صيحان بن صوحان) العبدى جاماً على رأس مدد من (بني ناجية) و(عبد القيس) ، لمساعدة (عكرمة) و(عرفجة) ، و(جبر) ، و(عييد) ، فاستعلاهم ، فلما وصل المدد انهزم (لقبيط) ، وقتل من كان معه عشرة آلاف<sup>٣</sup> . ولعل (صيحان) هذا هو أخ (صعصعة بن صوحان) .

ومن منازل (عبد القيس) (دارين) و(الزيارة) ، وكان بها رهبان وبئع<sup>٤</sup> ، ويظهر أن النصرانية كانت متفشة بين (عبد القيس) ، وردت إليها من العراق . وكان (بني عبد القيس) من العرب المتحضرين بالنسبة إلى أعراب البوادي ، ولم يتصال بالعالم الخارجي ، وقد قام المبشرون بنشر الكتابة بينهم ، ولا بد وأن تكون كتابتهم بالقلم العربي الشهالي ، الذي كان يكتب به النصارى العرب . ونجده في قرى البحرين أناساً من مختلف الأجناس ، بسبب اتصالها بالبحر

١ الاصابة (١٧١/٢) ، (رقم ٤٠٤١) ، (٥/٣) ، (٥٩٠٣) .

٢ الاصابة (١٩٢/٢) ، (رقم ٤١٣٠) ، البيان (١/٩٦) ، جمهرة الامثال (١٤٤/٢) .

٣ الاصابة (١٩٣/٢) ، (٤١٣٣) .

٤ الاصابة (١٧١/٢) ، (رقم ٤٠٤١) .

ووجيء الأقوام إليها من الهند وایران والعراق ، فظهرت فيها ثقافة ، امتصقت غذاءها من مختلف الثقافات .

وهناك من اشتهر بالخطابة وكان قريب عهد من الاسلام ، أو أدركه وأسلم ، منهم : ( قس بن ساعدة الإيادي ) . وقد رأه الرسول ، وسمعه يتكلّم ، وهو راكب على جمل أورق . ويدرك أن الرسول قال : « يرحم الله قساً ، لاني لأرجو يوم القيمة أن يبعث أمة وحده »<sup>١</sup> . وقد عده بعض الباحثين من النصارى ، ولكن معظم أهل الأخبار يرى أنه كان على الحنيفية ، أي على التوحيد ، لا هو من يهود ، ولا هو من النصارى<sup>٢</sup> .

وقد ذكر أهل الأخبار أنه « كان من حكماء العرب وأعقل من سمع به منهم وهو أول من كتب من فلان إلى فلان ، وأول من أقر بالبعث من غير علم ، وأول من قال : أما بعد ، وأول من قال : البيئة على من ادعى واليمين على من أنكر »<sup>٣</sup> . وأنه أول من خطب على شرف ، وأول من اتكاً عند خطبته على سيف أو عصا<sup>٤</sup> . وكان أحكم حكماء العرب ، وأبلغ وأعقل من سمع به من إلحاد . وبه ضرب المثل في الخطابة والبلاغة<sup>٥</sup> . روی أن الرسول سمع كلام ( قس ابن ساعدة ) الإيادي ورواه ، ذكر ( الجاحظ ) أن رسول الله « هو النبي روی كلام ( قس بن ساعدة ) و موقفه على جمله بعکاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسه وأظهر من تصويبه »<sup>٦</sup> . وذكر في موضع آخر من كتابه ( البيان والتبيين ) أن الرسول قال : « رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أهيا الناس اجتمعوا واسمعوا وعُدوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .

١ - بلوغ الارب ( ١٥٥ / ٣ ) ، نزهة الجليس ( ٤٢٩ / ١ ) .

٢ - المصدر نفسه .

٣ - مجمع الامثال ( ١١٧ / ١ ) ، جمهرة الامثال ( ٢٤٩ / ١ ) .

٤ - الأغاني ( ٤٠ / ١٤ ) وما بعدها ، الخزانة ( ٩٠ / ٢ ) ، ( عبد السلام محمد هارون )<sup>٧</sup> .

٥ - نمار القلوب ( ١٢١ وما بعدها ، ١٢٧ ) .

٦ - البيان والتبيين ( ٥٢ / ١ ) .

وهو القائل في هذه : آياتٌ محكماتٌ ، مطرٌ ونباتٌ ، وآباء وأمهاتٌ ، وذاهبٌ وآتٌ ، ضوءٌ وظلامٌ ، وبرٌ وأنامٌ ، ولباسٌ ومركبٌ ، ومطعمٌ ومشروبٌ ، ونحومٌ تمورٌ ، وبخورٌ لا تغورٌ ، وسففٌ مرفوعٌ ، ومهادٌ موضوعٌ ، وليلٌ داجٌ ، وسماء ذاتٌ أبراجٌ . ما لي أرى الناس يعوتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، ألم حبسوا فناموا .

وهو القائل : يا عشر إباد ، أين ثُمودٌ وعاد ، وأين الآباء والأجداد . أين المعرف الذي لا يشكّر ، والظلم الذي لم يذكر ، أقسم قس قسماً بالله ، إن الله ديننا هر أرضي له من دينكم هذا .  
وأنشدوا له :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر  
لَا رأيت مسواداً للموت ليس لها بصائر  
ورأيت قومي نحوها بعض الأصغر والأكابر  
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر  
أيقنت أنّي لا مَا لة حيث صار القوم صائمٌ<sup>١</sup>

وقد اشتهر قس خطبه التي خطبها بسوق عكاظ ، وبأبيات من الشعر رويت عن (أبي بكر الصديق) . وبفصاحةه وببلغته ضرب المثل ، فقيل : « أبلغ من قس »<sup>٢</sup> . وقد استشهد ببعض شعر (قس) في كتب الشواهد<sup>٣</sup> . وذكر انه أول من قال : أما بعد في العرب .

وفي رواية من روایات أهل الأخبار : ان أول من قال : « أما بعد » ، هو سعيب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن التضر بن كنانة<sup>٤</sup> . زعيم قريش ، وأحد خطبائها المشهورين .

١ البيان والتبيين (٣٠٨/١) .

٢ مجمع الأمثال (١١٧/١) ، البيان والتبيين (٣٠٩/١) .

٣ الغرامة (٢٦٣/١) ، (بولاق) .

٤ المرزبانى ، معجم الشعراء (ص ٣٤١) ، الخزانة (٣٤٧/٤) ، (بولاق) ،  
(الشاهد السابع والستون بعد الثمانمائة) .

وذكر بعض أهل الأخبار : أنه قيل لقُس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة : قال : معرفة الرجل نفسه ، قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قيل له : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجه<sup>١</sup> .

وقد وردت في الخطبة النسوية إلى قس بن ساعدة الإيادي هذه الجملة : «إن في النساء خبراً» . ويلاحظ أن العبرانيين كانوا يراقبون النساء لأنهن الأخبار عموماً سبقن لهم من أحداث منها . وقد تخصص بذلك نفر منهم ، عرفوا بـ (خبرى شاميم) ، أي المخربون عموماً يقع في النساء ، وـ (قبرى شاميم) ، أي قراء النساء<sup>٢</sup> . وكان العرب يراقبون النساء كذلك ، استطلاعاً للأخبار ، وفي الجملة النسوية إلى (قس) تعبير عن ارتقايه وقوع أمر مهم .

وـ (قس) من المعمرين ، زعم بعض أهل الأخبار أنه عمر سبعين سنة ، وزعم بعض آخر أنه عاش ثلاثة وثمانين سنة ، «وقال المرزباني : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش سبعين سنة» . وقال بعضهم أنه أدرك نبيتنا ، وسمعه ، وجعله بعضهم في الصحابة ، وأمامته بعضهم قبلبعثة . وقال قوم إنه أول من آمن بالبعثة من أصل الجاهلية<sup>٣</sup> . وفي الذي يرويه أهل الأخبار عن خطبة قس ورواية النبي<sup>٤</sup> لها تناقض في الروايات . وقد ذكر ذلك العلامة<sup>٥</sup> ، وأرى أن القصة موضوعة ، وهي من هذا النوع الذي وضع للتبيشير بقرب ظهور دين جديد .

وقد أشير إلى قس في أبيات نسبت إلى الخطيبة والأعشى ولبيد . وقد ضرب الخطيبة به المثل في البيان ، وبقوة تأثيره في ثغور الساعدين . أما الأعشى فقد وصفه بالخلم ، وأما لبيد فقد قال فيه :

وأنخلفن قساً لبني ولعني وأعيا على لقمان حكم التدبر

١ العقد الفريد (٢٥٤/٢) .  
٢ Hastings, Dict., Vol. I, p. 194.

٣ الخزانة (٨٩/٢ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، البيان والتبيين (١/٥٢) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الخزانة (٢٦٣/١) ، (بولاق) .  
٤ السيرة الحلبية (٢١٠/١) ، اللآلئ (٩٥/١) .

ويقولون : وإنما قال ذلك لبيد ، لقول قس :

هل الغيب معطى الأمان عند نزوله بحال مسيء في الأمور ومحسن  
وما قد تولى فهو لا شك ثابت فهل ينفعني ليني ولعلني ؟

ونسبوا إليه أبياتاً من الشعر<sup>١</sup> .

وورد أن ( الجارود بن عبد الله ) من (بني عبد القيس) ، وكان سيداً في قومه لما قدم على رسول الله ، وأسلم مع قومه ، قال له الرسول : « يا جارود هل في جماعة وقد عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟ قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا من بين يدي القوم كتت أقوافه أثراه . كان من أسباط العرب فصيحاً ، عمر سبعمائة سنة ، أدرك من الحواريين سمعان ، فهو أول من تأله من العرب ، كأنني أنظر إليه يقسم بالرب الذي هو له ليبلغن الكتاب أجله وليوافقن كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من جواه ادّكار وليلال خلا هنّ نهار

في أبيات آخرها :

والذي قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هدى واعتبار

فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا جارود ، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق ، وهو يتكلم بكلام ما أظن اني أحظه . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، فلاني أحظه : كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته : يا أبا الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، الى آخر ما أورده من الوعظ<sup>٢</sup> .

و ( الجارود ) ، هو ( بشر بن عمرو بن حنش بن النعan ) ، وقبل هو

١ المربزباني ، معجم ( ص ٣٣٨ ) .

٢ الخزانة ( ٨٩/٢ ) ، سيرة ابن سيد الناس ( ٦٩/١ ) .

(أبو المعل) ، (الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة)<sup>١</sup> ، وقيل: (الحارود بن المعل) ، ويقال ابن عمرو بن المعل ، وقيل الجارود بن العلاء ، وقيل الجارود بن عمرو بن حنش ، وقيل اسمه بشر بن حنش ، الى غير ذلك من أقوال تدل على اضطراب أهل الأخبار في معرفته ، وكان نصراوياً ، وكان شاعراً ، وأوردوا له شعراً يعلن إيمانه بالرسول ، وبأنه حنيف حيث كان من الأرض . قبل إنه قتل بفارس في أيام عمر سنة (٢١) ، وقيل بقي الى خلاة عمان<sup>٢</sup> .

وذكر (الجاحظ) أن من خطباء العرب : (الصباح بن شفي) الحميري، زعم أنه كان من خطيب العرب ، وقيس بن شناس ، وثابت بن قيس بن شناس ، خطيب النبي ، فقد أوكله الرسول بالردد على خطاب من كان يخطب أمامه من الوفود ، فهو الناطق باسمه بالنثر ، كما كان (حسان) الناطق باسم الرسول شرعاً . وذكر أن من خطباء العرب (الأسود العنسي) ، و (طليحة ابن خوبيل) الأستدي، تبأ في خلافة أبي بكر فيبني أسد بن خزيمة ، وعارضه (عيينة بن حصن) الفزاروي ، فوجه (أبو بكر) اليه خالد بن الوليد، فهزمه، وأسر (عيينة) سنة (١١) للهجرة ، وقد أسلم (طليحة) ، واستشهد بنهاوند سنة (١١) من الهجرة<sup>٣</sup> . وذكر (الجاحظ) : (ميسيلمة) بعد (طليحة) ، فقال : « وكان ميسيلمة الكذاب ، بعيداً عن ذلك كله »<sup>٤</sup> ، أي انه تقى الخطابة عنه .

ومن الخطباء النابحين أصحاب الرأي والبيان ، خطيب عاش في الجاهلية والاسلام وقد أسلم وحسن إسلامه ، هو : سهيل بن عمرو الأعلم ، أحدبني حبسن بن معicus . يقال انه كان مؤثراً جداً ، أخذاؤياً يأخذ بقول الناس ، حتى ذكر ان عمر قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، انزع ثنيتيه السفليتين حتى يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (٦١) .

٢ الاصادبة (٢١٨/١) ، (رقم ١٠٤٢) .

٣ البيان والتبيين (٣٥٩/١) .

٤ البيان والتبيين (٣٥٩/١) .

لا أ مثل ، فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً . دعه يا عمر ، فعمى أن يقوم مقاماً تمحمه . فلما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، قام خطيباً ، فقال : « أئها الناس ، إن يكن محمد قد مات ، فالله حي لم يميت ، وقد علمت أنك أكثركم قتيلاً في بَرٍ ، وجارية في بَحْرٍ ، فأقرروا أميركم وأنا ضامن ، إن لم يتم الأمر ، أن أردها عليكم » . فسكن الناس<sup>١</sup> .

وهو الذي قال يوم خرج آذن عمر ، وبالباب عبيدة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وفلان ، وفلان ، فقال الآذن : أين بلال ؟ أين ضهيب ؟ أين سليمان ؟ أين عمار ؟ فتعمرت وجوه القوم ، فقال سهيل : لم تتعمر وجوهكم ؟ دعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموه على باب عمر ، لما أعد الله لهم في الجنة أكثر<sup>٢</sup> . وفي هذا الجواب دلالة على عقل فاهم الواجب مدرك لمهمات رئيس الدولة ، ولما يجب أن تقوم الحكومة عليه ، لا يبالي بالعنونات القديمة وبالعرف القبلي البجاهلي .

وروي « أنه لما ماج أهل مكة عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتدى من ارتدى من العرب ، قام سهيل بن عمرو خطيباً . فقال : والله إني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها ، فلا يغرنكم هذا من أفسكم - يعني أبا سفيان - ، فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم ، ولكنه قد جنم على صدره حسدبني هاشم . وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمدينة »<sup>٣</sup> . وقد كان مخلصاً في عقيدته مطيناً لأمر الحاكم ، ذكر أنه حضر « الناس بباب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيهم سهيل بن عمرو

١ البيان (٣١٧/١) ، (من كان يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) ، الاصادية (٢٩/٢) ، (وقم ٣٥٧٣) ، الاستيعاب (١٠٧/٢ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٥٨/١) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٢ البيان (٣١٧/١) « لجنة » .

٣ الاستيعاب (١٠٩/٢) ، (حاشية على الاصادية) ، البيان والتبيين (٣١٧/١) .

وأبو سفيان بن حرب ، وأولئك الشيوخ من قريش ، فخرج آذنه . فجعل يأذن لأهل بدر ، لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم . وكان قد أوصى بهم . فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليلوم قط ! انه ليؤذن هؤلاء للعبيد ونحن جلوس ، لا يلتفت اليها ! فقال سهيل بن عمرو ، وقال الحسن : ويا له من رجل ، ما كان أعقله ، أنها القوم اني والله قد أرى الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضباً ، فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيم ، فأسرعوا وأبطأتم . أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه . ثم قال : أنها القوم ! إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ، ولا سيل لكم والله الى ما سبقوكم اليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة ، ثم نقض ثوبه وقام ولحق بالشام<sup>١</sup> . فالرجل مؤمن ، صاحب مبدأ ، يرى الفضل لأنصاره بأعماهم ، لا بالرئاسة والنسب والجاه ، كما كان يريد أبو سفيان وقومه .

وقد نعت به ( خطيب قريش )<sup>٢</sup> ، لفصاحته وقرة بيانه ، ولهذا اختارته قريش ليكون لسانها حين فاوضت الرسول على الصلح في الخديبية . وقد تكلم فأطال الكلام وتراجع مع الرسول حتى وافق على تدوين كتاب الصلح<sup>٣</sup> . وكان هو لسان قريش يوم وضع الرسول يده على عضادي بباب الكعبة ، فقال : « ما تقولون ، ؟ فقال سهيل : « تقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت »<sup>٤</sup> .

وتعذر ( ابنة الحسن هند الإيادية ) ، وهي بنت ( الحسن بن حابس ) ، رجل من إباد ، من النساء المعروفات بالفصاحة . وقد رروا عنها الأمثال . وذكر ان والدتها هو ( حسن بن حابس بن قريط ) الإيادي . وقال بعض أهل الأخبار ان ابنة الحسن من ( العمالق ) . والإيادي هي ( جمعة بنت حابس ) الإيادي ،

١ الاستيعاب ( ١٠٩ / ٢ وما بعدها ) .

٢ الاصابة ( ٩٢ / ٢ ) ، ( رقم ٣٥٧٣ ) .

٣ الطبرى ( ٦٣٣ / ٢ وما بعدها ) .

٤ الاصابة ( ٩٢ / ٢ ) ، ( رقم ٣٥٧٣ ) .

وكلياتها من الفصاح . وذكر بعض آخر ، ان الصواب ان ابنة الحس المشهورة بالفصاحة واحدة ، وهي من ( بني إباد ) . وانختلف في اسمها ، فقيل هند وقيل جمعة . ومن قال أنها بنت حابس ، فقد نسبها إلى جدها<sup>١</sup> .

ومن ضرب به المثل في الفصاحه ( سجسان بن زفر بن إباس ) الواثلي ، وائل باهلة . خطيب مفصح يضرب به المثل في البيان ، أدرك الجاهلية وأسلم ، ومات سنة ( ٥٤٥ھ )<sup>٢</sup> . شهرته في الاسلام ، كشهرة ( قس ) في الجاهلية . واشهر ( هيذان بن شيخ ) ( هيذان بن سنج ) ، بكونه خطيب ( عبس ) ، وذكر أن النبي قال للتابعة الجعدي : لا يفصم الله فاك ، وقال هيذان : رب خطيب من عبس<sup>٣</sup> .

والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها ، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول ، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن اسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء . ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأوجوبته للخطباء ، هي دليل أيضاً على وجود الخطابة بهذا الاسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين . بل نجد أن الخطابة كان لها شأن في الحياة العربية في الجاهلية وفي الاسلام . ففي المناسبات مثل عقد زواج ، لا بد للخاطب من خطبة يخطبها أمام العروس والحاضرين ، يذكر فيها مناقب موكله ومناقب الأسرة التي رغب العروس في مصايرتها ولعلها هي التي حملت الناس على نعمت هذه المناسبة بـ ( الخطبة ) وـ ( خطبة العروس ) ، حتى قبل : « جاء يخطب فلانة لفلان » ، وان فرق العلماء بين ( الخطبة ) التي هي الموعظة والكلام ، وبين ( الخطبة ) التي هي طلب المرأة ، بالحركة ، فذكروا أن الأولى هي بضم الخاء والثانية بكسرها<sup>٤</sup> .

١ تاج العروس ( ٤/١٣٧ ) ، ( خس ) ٠

٢ الخزانة ( ٤/٣٤٦ ) وما بعدها ، ( بولاق ) ٠

٣ البيان والتبيين ( ١/٢٧٣ ) ، الاصابة ( ٣/٥٨١ ) ، ( رقم ٩٠٢٨ ) ٠

٤ المفردات ، للراغب الاصفهاني ( ص ١٥٠ ) ٠

ونجد في كتب الأدب والأخبار نصوص خطب نسبت إلى خطباء جاهلين ، يخرج المرء من قراءتها ومن قراءة ما ذكره أهل الأخبار عنها ، بأنها نصوص دقيقة تمثل الأصل تمام التمثيل ، أو كأنها نسخ استنسخت عن نسخ أصلية كتبها الخطباء بأنفسهم ، أو دوتها كتاب شهود كانوا حضوراً وقت القاء الخطب . ونحن وإن تعودنا على اعتبار هذه الخطب ، وكأنها خطب أصلية لا شك عندنا في أصليتها ولا شبها . لكننا لا نستطيع اقتناع أنفسنا ولا غيرنا بصحة رأينا هذا . وإذا كان قد قبلنا ما قيل لنا عن الشعر الجاهلي ، فإننا لا نتمكن من قبول ما يذهب إليه الأدباء المقلدون من أن الخطب المنسوبة إلى خطباء الجاهلية ، هي نصوص دقيقة صحيحة ، أو ان أكثرها صحيح لا شك لأحد في صحته ، وذلك لأسباب : منها ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم من قوله « وكان الخطيب من العرب اذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص »<sup>١</sup> ، ثم ما نجده من اختلاف في رواية خطبة (قس بن ساعدة ) ، ومنهم أناس حضروا خطابه ، فكيف نصدق صحة نصوص خطب لأناس جاهلين تبلغ عددها صفحات .

وكيف يصدق انسان بصحة ما ينسب إلى الجاهلين من خطب وأقوال ، وهو يعلم ان خطبة ( حجة الوداع ) ، قد اختلف الرواة في رواية نصها اختلافاً كبيراً<sup>٢</sup> ، وإذا كانوا قد اختلفوا في ضبط نص خطبة تعد من أهم خطب الرسول ، لما جاء فيها من بيان وأحكام ، وكلام الرسول أفضل كلام للمسلم ، فهل يعقل أخذ موضوع صحة نصوص خطب الجاهلين ، على انه كلام صحيح بالنص والحرف والمعنى ! وإذا كان المسلمون قد جوزوا رواية حديث رسول الله بالمعنى ، لصعوبة الرواية بالحرف والكلم والنطع ، فهل يعقل ضبط الناس خطب الجاهلين ، ضبطاً تماماً بالحرف والمعنى ، مع ان كلام أهل الجاهلية لا يقاس بكلام الرسول في نظر المسلمين من دون شك .

١ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .

٢ راجع نصها في تاريخ اليعقوبي (٢/٩٩ وما بعدها) ، (طبعة النجف) .

والأمر بالنسبة للشعر الجاهلي من حيث الصنعة والافتعال أهون أمراً في نظري من موضوع الخطب الجاهلية ، فالشعر كلام موزون مقفى وهو غير طويلاً ، يمكن حفظه بسهولة ، ويمكن خزنه في الذهن أمداً طويلاً ، أما الترث ، فليس من السهل حفظه حرفاً ؛ وإذا حفظ ، فلا يمكن للذاكرة منها كانت قوية أن تخافض على صفاتها إلى أجل طويل ، لا سيما إذا كانت الخطب طويلة ، لا تعاد قراءتها إلا في المناسبات . وللسبب المذكور ولنحوف المسلمين من التغول على الرسول بما لم يقله من حروف وألفاظ وجمل ، جوَّزوا رواية حديثه بالمعنى ، لصعوبة حفظ النص ، فهل تعد خطب الجاهليين أكثر أهمية من حديث الرسول ، حتى نقول أنها نصوص مضبوطة صحيحة ، لا غبار على صحتها ، ولا شك من نصها !

وطابع الخطب ، السجع وقصر الجمل والإكثار من الحكم والأمثال ، والتفصيل والإزدواج . ويرد غالباً السجع في كلام الكهان لذلك وسم بهم ، فقيل (سجع الكهان) . والسجع في كلام العرب أن يتألف أواخر الكلم على نسق كما تألف القوافي ، وأن يكون في الكلام فواصل كفواصل الشعر من غير وزن . وذكر أن الرسول قال لأحد هم وكان يتكلم سجعاً : أسبج كسبع الكهان ! وفي رواية لياماً وسبع الكهان ، وفي الحديث أنه نهى عن السجع في الدعاء . وإنما كره السجع في الكلام لمشاكلته كلام الكهنة<sup>١</sup> . قال (المجاحط) : « وكان الذي كره الأسباع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيساً من الجن » ، مثل حاري جهينة ، ومثل شق وسطيف ، وعزى سلمة وأشباههم ، كانوا يتكلمون ويحكمون بالأسباع ؛ كقوله : والأرض والسماء ، والعقارب الصقعاء ، واقعة بيقوعاء ، لقد نفر المجد<sup>٢</sup> بني العشراء ، للمجد والستاء » . « فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم

١ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .

وفي صدور كثيرون منهم ، فلما زالت العلة زال التحرم ١ . وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في ذلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلا ينهونهم ٢ . وابن الخطباء في الاسلام وبعض الكتاب اسلوب السجع في خطبهم وفي كتبهم ، ولا زال السجع محبوباً عند كثير من الناس ، ولهذا فهم يكتبون به .

وأغلب الخطباء هم سادات قبائل وأشراف من أهل القرى ومن أصحاب المكانة والجاه والكهنة والحكام . ومتاز لهم تختم عليهم الخطابة في المناسبات ، لأنهم ألسنة قومهم ، فللكلام أثر في نفوس العرب ، يثير الحرب ويهدى الأعصاب ويعقد السلم ، ويفض المشكّل ، فصار من ثم للخطيب أثر كبير في الجاهلية . وكانت القبائل تفتخر بكثرة ما عندها من خطباء . وذكر ( الماجحظ ) أن رجلاً من حمير قام في مجلس لمعاوية اجتمع فيه الخطباء ، فقال : إنا لا نطيق أفواه الكبار ، عليهم المقال ، وعلينا الفعال ٣ . ومعنى ذلك : إنا لا نستطيع الكلام كما يفعل غيرنا ، ولذلك فأنا لا أريد أن أتسابق معهم ، ثم إننا عشر عمل لا قول . و ( المقال ) ، بمعنى الجبال ، جمع جبل ، نطق بها بالكاف على لغة أهل اليمن القدبية ، لأن لسان حمير ينطق الجيم كافاً مفخمة .

ويلاحظ أن أكثر الذي ذكره أهل الأخبار من كلام الخطباء ، هو وصايا زعم أهل الأخبار أن أولئك الخطباء أوصوا بها أبناءهم ، وذلك حين تقدمت بهم السن ، وحين شعروا بدنو أجلهم . وهي تمثل خلاصة تجارب الموصى وجمل ما حصل عليه من اختبارات في هذه الحياة . وهي على الجملة حكم ، وآراء في الدنيا ، ومواعظ ، لا تخطر إلا على بال رجل شتم من الحياة ويش منها ، أو من زاهد متصرف متدين يؤمن بي الله وبحساب وكتاب ، وجد ان الحياة مدببة ، وإنها زاثة فانية ، لا تدوم لأحد ، لذلك يريد أن يوصي أبناءه بما وجده فيها وخبره ورآه .

ولم يهم أهل الأخبار ذكر أهل العي والبلاد ، وهم على قلتهم وضالة

---

١- البيان والتبيين ( ٢٩٠ / ١ ) .  
٢- البيان والتبيين ( ٣٩٨ / ١ ) .

عددهم مجتمع خاص قائم بذاته ، فأشاروا إلى نوادرهم وبعض قصصهم ، وجعلوا رأسهم وحامل لوازيم في الجاهلية شخصاً ضربوا به المثل في العيّ ، دعوه (باقلاً) وجعلوه من قيس بن ثعلبة . وقالوا : إن من حماقته وعيته أنه اشتري عتراً من الظباء بأحد عشر درهماً ، فقيل : بكم اشتريتها ؟ فأطلق كفيه ومدّ أصابعه وأخرج لسانه ، أي يلده بلسانه وأصابعه ، فنفرت العتز ، فغير بذلك . وفيه يقول الشاعر :

يلومون في حمه باقلاء<sup>١</sup>      كأن الحماقة لم تخلق<sup>١</sup>

---

١ شمس العلوم (الجزء الأول ، القسم الأول (ص ١٧٩ ) .

## فهرست

|      |                                   |     |
|------|-----------------------------------|-----|
| ١١٦. | الفن الجاهلي . . . . .            | ٥   |
| ١١٧. | القصور والمحافد والآطام . . . . . | ٣٤  |
| ١١٨. | النزع والزجاج والبلور . . . . .   | ٥٨  |
| ١١٩. | الفنون الجميلة . . . . .          | ٦٦  |
| ١٢٠. | أمّية الجاهليين . . . . .         | ٩١  |
| ١٤٤. | الخط العربي . . . . .             | ١٤٤ |
| ٢٠٢. | المسند ومشتقاته . . . . .         | ٢٠٢ |
| ٢٤٨. | الكتابه والتدوين . . . . .        | ٢٤٨ |
| ٢٩١. | الدراسة والتدريس . . . . .        | ٢٩١ |
| ٣١٣. | الكتاب والعلماء . . . . .         | ٣١٣ |
| ٣٣٦. | الفلسفة والحكمة . . . . .         | ٣٣٦ |
| ٣٥٤. | الأمثال . . . . .                 | ٣٥٤ |
| ٣٧١. | القصص . . . . .                   | ٣٧١ |
| ١٢٨. |                                   |     |

|     |                                |
|-----|--------------------------------|
| ٣٨٠ | ١٢٩. الطب والبيطرة             |
| ٤١٩ | ١٣٠. الهندسة والتلوء           |
| ٤٣٦ | ١٣١. الوقت والزمان             |
| ٤٧١ | ١٣٢. الأشهر الحرم              |
| ٤٨٨ | ١٣٣. النبيء                    |
| ٥٠٩ | ١٣٤. التقاوم والتاريخ          |
| ٥٢٥ | ١٣٥. اللغات السامية            |
| ٥٣٧ | ١٣٦. العربية لسان آدم في الجنة |
| ٥٦٢ | ١٣٧. لغات العرب                |
| ٥٩٥ | ١٣٨. لغة القرآن                |
| ٦٢٤ | ١٣٩. العربية الفصحى            |
| ٦٧١ | ١٤٠. اللسان العربي             |
| ٦٩٤ | ١٤١. المرببات                  |
| ٧٣٣ | ١٤٢. الشر                      |
| ٧٧١ | ١٤٣. الخطابة                   |